57 to 114 Surah Hadeed to An Naas Tafsir Nazamuddurrar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسور

للبقاعي

سورة الحديد (57) الي سورة الناس (114)

سورة الحديد ▲

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)}

ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه وتبيينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان

فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة: {سبح} أي أوقع التسبيح بدلالة الجبلة تعظيماً له سبحانه وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته، وقصره، وهو متعد ليدل على العموم بقصره، وعلى الإخلاص بتعديته باللام وجعله ماضياً هنا وفي الحشر والصف ومضارعاً في الجمعة والتغابن ليدل على أن مما أسند إليه التسبيح هو من شأنه وهجيراه وديدنه وتخصيص كل من الماضي والمضارع بما افتتح به لما يأتي في أول الجمعة، والإتيان بالمصدر أول الإسراء أبلغ من حيث إنه يدل إطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال {لله} أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال {ما في السماوات} أي

الأجرام العالية والذي فيها وهي الأرض ومن فيها وكل سماء ومن فيها، وما بينهما لأنها كلها في العرش الذي هو أعلى الخلق.

ولما كان الكلام آخر الواقعة مع أهل الخصـــوص بل هو أخص أهل الخصـوص، لم يحتج إلى تأكيد فحذف ما جعلا للخافقين كشـيء واحد لأن نظره لهما نظر علو نظراً واحداً لما أخبر به عنهما من التنزيه فقال: {والأرض *} أي وما فيها وكذا نفس الأراضـي كما تقدم، فشمل، ذلك جميع الموجودات لأنه إذا سبح ذلك كله فتسبيح العرش بطريق الأولى وتنزيه هذه الأشـياء بما فيها من الآيات الدالة على أنه سـبحانه لا يلم بجنابه شـائبة نقص، وأن كل شــيء واقف على الباب يشـاهد الطلب، قال القشــيري: التسبيح: التقديس والتنزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد، وينظمونها في عقد الإيمان، ويرصـــعونها في أطواق الوصلة.

ولما قرر ذلك، دل على أنه لا قدرة لشــيء على الانفكاك عنه، وأن له كل كمال، فهو المستحق للتسبيح والحمد فقال: {وهو} أي وحده {العزيز} الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء {الحكيم *} الذي أتقن كل شيء صنعه.

وقال الأســتاذ أبو جعفر بن الزبير العاصـــمي في برهانه: لما تقدم قوله سبحانه وتعالى {فلولا تصدقون} [الواقعة: 57] وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قرع به ما لا خفاء به، ثم اتبع بقوله تعالى {أفرءيتم ما تمنون} [الواقعة: 58] الآيات إلى قوله {ومتاعاً للمقوين} [الواقعة: 73] فعزروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضـلالهم، ثم قال سـبحانه وتعالى بعد ذلك {أبهذا الحديث أنتم

مدهنون} [الواقعة: 81] واستمر توبيخهم إلى قوله: {إن كنتم صادقين} [الواقعة: 87] فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم، أعقب تعالى ذلك تنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى {فسبح باسم ربك} [الواقعة: 69] أي نزهه عن عظيم ضلالهم وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله {سبح لله ما في السماوات والأرض} أي سبح باسم ربك، فهي سنة العالم بأسرهم

{وله أسلم من في السماوات والأرض} [آل عمران: 83] {سبح لله ما في السماوات والأرض} ثم أتبع ذلك بقوله: {له الملك وله الحمد} فبين تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال، وأنه المتفرد بالملك والحمد وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله: {وهو عليم بذات الصدور} فتضمنت هذه الآيات إرغام من أشير إلى حاله في الآية المتقدمة من سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى، وافتتحت آي السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى {آمنوا بالله ورسوله} واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة- انتهى.

ولما أخبر بذلك، دل على وجه مصرح بما أفهمه الأول من تسبيح السماوات والأرض بقوله: {له} أي وحده {ملك السماوات والأرض} أي وملك ما فيهما وما بينهما ظاهراً وباطناً، فالملك الظاهر ما هو الآن موجود في الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضية وأفلاك علية ورياح محسوسة وسحاب مرئية- وما تفصل إلى ذلك من خلق وأمر، والملك الباطن الغائب

عنا، وأعظمه المضـــاف إلى الآخر وهو الملكوت، قال القشـــيري: الملك مبالغة من الملك يعني بدلالة الضـمة، قال، والملك بالكسـر أي القدرة على الإبداع فلا مالك إلا الله، وإذا قيل لغيره: مالك، فعلى المجاز بالأحكام المتعلقة في الشـريعة على ملك الناس أي بتصـحيحه أو إفساده ونحوه ذلك، فالآية من الاحتباك: ذكر ما بين السـماوات والأرض أولاً دليلاً على حذف ما بينهما ثانياً، وذكر الخافقين ثانياً دليلاً على حذف مثل ذلك أولاً ليكون التسبيح والملك شاملاً للكل.

ولما كان ذلك مما لا نزاع فيه، وكان ربما عاند معاند، دل عليه بما لا مطمع فيه لغيره فقال مقدماً الإحياء لأنه كذلك في الخارج ولأن زمن الحياة أكثر لأن البعث حياة دائمة لا موت بعدها: {يحيي} أي له صـفة الإحياء فيحيي ما يشـاء من الخلق بأن يوجده على صـفة الإحياء كيف شـاء في أطور يتقلبها كيف شـاء وكيف يشـاء ومما يشـاء {ويميت} أي له هاتان الصـفتان على سـبيل الاختيار والتجد والاسـتمرار، فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الإحياء. ولما كان هذا شاملاً للقدرة على التجديد والإعادة، عم الحكم بقوله: {وهو على كل شـيء} أي من الإحياء والإماتة وغيرهما من كل ممكن {قدير *} أي بالغ القدرة إلى حد لا يمكن الزيادة عليه.

ولما أخبر بتمام القدرة، دل على ذلك بقوله: {هو} أي وحده {الأول} أي بالأزلية قبل كل شـيء فلا أول له، والقديم الذي منه وجود كل شـيء وليس وجوده من شـيء لأن كل ما نشاهده متأثر لأنه حقير، وكل ما كان ما كان

كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر {والآخر} بالأبدية، الذي ينتهي إليه وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء ولو بالنظر إلى ما له من ذاته فلا آخر له لأنه يستحيل عليه نعت العدم لأن كل ما سواه متغير، بنوع من التغيير جاز إعدامه، وما جاز إعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن إعدامه.

ولما كان السبق يقتضي البطون، والتأخر يوجب الظهور، وكانا أمرين متضادين لا يكاد الإنسان يستقل بتعلقهما في شيء واحد، نبه على اجتماعهما فيه، فقال مشيراً بالواو إلى تمام الاتصاف وتحققه: {والظاهر} أي بالأحدية للعقل بأدلته الظاهرة في المصنوعات بما له من الأفعال ظهوراً لا يجهله عاقل، وهو الغالب في رفعته وعلوه فليس فوقه شيء {والباطن} بالصمدية وعن انطباع الحواس وارتسام الخيال وتصور الفهم والفكر وبتمام العلم والحكمة بما له من العظمة في ذاته بكثرة التعالي والحجب بطوناً لا يكتنه شيء، وقال القشيري: الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء. الظاهر بلا خفاء، الباطن بنعت العلا وعز الكبرياء- انتهى، والعطف للدلالة كما أشير إليه على الإحاطة التامة لأنها لما كانت متضادة كانت بحيث لو أعريت عن الواو لربما ظن أن وجودها لا على سبيل التمكن، فلا تكون محيطة بل مقيدة بحيثية مثلاً فجاءت الواو دلالة على تمكن الوصف وإحاطته وإنه واقع بكل اعتبار ليس واحد من الأوصاف مكملاً لشيء آخر ولا شارحاً لمعناه، فهو أول على الإطلاق وآخر كذلك، وظاهر حتى في حال بطونه وباطن كذلك، وهذا على الأصل فإن صفاته تعالى محيطة فلا إشكال، إنما

الإشـكال عند الخلو من العطف فهو الأغلب في إيرادها كما آخر الحشـر، ولعل ذلك مراد الكشـاف بقوله: إن الواو الأولى معناها الدلالة على الجامع بين الصـفتين الأولية والآخرية، أي جمعاً هو في غاية المكنة، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصـفتين الأولين ومجموع الصـفتين الأخيرتين، فهو المسـتمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. انتهى.

ولما كان من ظهر لشـيء بطن عن غيره، ومن بطن لشـيء غاب عنه علمه، وكان سبحانه في ظهوره على ذلك بمعنى أنه ليس فوقه شـيء، وفي بطونه بحيث ليس دونه شـيء، فقد جمعت الأوصـاف إحاطة العلم والقدرة، أعلم نتيجة ذلك فقال: {وهو بكل شيء عليم *} أي لكون الأشياء عنده على حد سـواء، والبطون والظهور إنما هو بالنسـبة إلى الخلق، وأما هو سـبحانه فلا باطن من الخلق عنده بل هو في غاية الظهور لديه لأنه الذي أوجدهم، وهذا معنى ما قال البغوي رحمه الله تعالى: سـأل عمر رضـي الله عنه كعباً عن هذه الآية فقال: معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن– انتهى.

لأن العلم يستلزم القدرة على حسبه. ولما كان الصانع للشيء عالماً به، دل على علمه وما تقدم من وصفه بقوله: {هو} أي وحده {الذي خلق السماوات} وجمعها لعلم العرب بتعددها {والأرض} أي الجنس الشـامل للكل، أفردها لعدم توصلهم إلى العلم بتعددها {في ستة أيام} سناً للتأني وتقريراً للأيام التي

أوترها سابعها الذي خلق فيه الإنسان الذي دل خلقه باسمه {الجمعة} على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع على أنه نهاية المخلوقات- انتهى.

ولما كان تمكن الملك من سـرير الملك كناية عن انفراده بالتدبير وإحاطة قدرته وعلمه، وكان ذلك هو روح الملك، دل عليه منبهاً على عظمته بأداة التراخي فقال: {ثم استوى} أي أوجد السواء وهو العدل إيجاد من هو شديد العناية {على العرش} المحيط بجميع الموجودات بالتدبير المحكم للعرش وما دونه ومن دونه ليتصـور للعباد أن العرش منشـأ التدبير، ومظهر التقدير، كما يقال في ملوكنا : جلس فلان على سـرير الملك، بمعنى أنه انفرد بالتدبير، وقد لا يكون هناك سرير فضلاً عن جلوس.

ولما كان المراد بالاستواء الانفراد بالتدبير، وكان التدبير لا يصح إلا بالعلم والقدرة، كشـفه بقوله دالاًّ على أن علمه بالخفايا كعلمه بالجلايا : {يعلم ما يلج} أي يدخل دخولاً يغيب به {في الأرض} أي من النبات وغيره من أجزاء الأموات وغيرها وإن كان ذلك بعيداً من العرش، فإن الأماكن كلها بالنسـبة إليه على حد سـواء في القرب والبعد {وما يخرج منها} كذلك، وفي التعبير بالمضـارع دلالة على ما أودع في الخافقين من القوى فصـار بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجدد استمرار إلى حين خرابهما.

ولما قرر ذلك فيما قد يتوهم بعده لبعده عن العرش بسفوله تنبيهاً على التنزه عن التحيز فكان أولى بالتقديم، أتبعه قسـيمه وهو جهة العلو تعميماً للعمل بسائر الخلق فقال: {وما ينزل من السماء} ولم يجمع لأن المقصود حاصل بالواحدة مع إفهام التعبير بها الجنس السـافل للكل، وذلك من الوحي

والأمطار والحر والبرد وغيرهما من الأعيان والمنافع التي يوجدها سـبحانه من مقادير أعمار بني آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شـؤونهم {وما يعرج} أي يصـعد ويرتقي ويغيب {فيها} كالأبخرة والأنوار والكواكب والأعمال وغيرها.

ولما كان من يتسـع ملكه يغيب عنه علم بعضـه لبعده عنه، عرف أنه لا مسافة أصلاً بينه وبين شيء من الأشياء فقال: {وهو معكم} أي أيها الثقلان المحتاجان إلى التهذيب بالعلم والقدرة المسـببين عن القرب {أين ما كنتم} فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالياً عن اتصـال بالعلم ومماسـة، أو انفصـال عنه بغيبة أو مسـافة، قال أبو العباس ابن تيمية في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشـيطان: لفظ «مع» لا يقتضـي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر لقوله

{اتقوا الله وكونوا مع الصـادقين} [التوبة: 119] وقوله: {محمد رسـول الله والذين معه أشداء على الكفار} ولفظ «مع» جاءت في القرآن عامة وخاصة، فالعامة {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم} [المجادلة: 7] فافتتح الكلام بالعلم واختتمه بالعلم، ولهذا قال ابن عباس رضـي الله عنهما والضـحاك وسـفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه، وأما المعية الخاصـة فقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسـنون} [النحل: 128] وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: 46] وقال: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: 40] يعني النبي صلى الله

عليه وسلم وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فهو مع موسى وهارون عليهما السلام دون فرعون، ومع محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه دون أبي جهل وغيره من أعدائه، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك، وقوله تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84] أي هو إله في السماء وإله في الأرض كما قال تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} [الروم: 27] وكذلك في قوله تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} كما فسره أئمة العلم كأحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض.

ولما كانت الأعمال منها ظاهر وباطن، عبر في أمرها باسم الذات دلالة على شمولها بالعلم والقدر وتنبيهاً على عظمة الإحاطة بها وبكل صفة من صفاته فقال: {والله} أي المحيط بجميع صفات الكمال، وقدم الجارّ لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقق الإخاطة كما مضى التنبيه عليه غير مرة وتمثيله بنحو: أعرف فلاناً ولا أعرف غيره؛ فقال: {بما تعملون} أي على سبيل التجدد والاستمرار {بصير *} أي عالم بجلائله ودقائقه.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 7]

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)}

ولما كان صانع الشيء قد لا يكون ملكاً، وكان الملك لا يكمل ملكه إلا بعلم جميع ما يكون في مملكته والقدرة عليه، وكان إنكارهم للبعث إنكاراً لأن يكون ملكاً، أكد ذلك بتكرير الإخبار به فقال: {له} أي وحده {ملك السماوات} وجمع لاقتضاء المقام له {والأرض} أفرد لخفاء تعددها عليهم مع إرادة الجنس، ودل على دوام ملكه وإحاطته بقوله عاطفاً على ما تقديره: فمن الله المبدأ، معبراً بالاسم الأعظم الجامع لئلا يظن الخصوص بأمور ما تقدم: {وإلى الله} أي الملك الذي لا كفؤ له وحده {ترجع} بكل اعتبار على غاية السهولة {الأمور *} أي كلها حساً بالبعث ومعنى بالإبداء والإفناء، ودل على هذا الإبداء والإفناء بأبدع الأمور وأروقها فقال: {يولج} أي يدخل ويغيب بالنقص والمحو {الّيل في النهار} فإذا قد قصر بعد طوله، وقد انمحى بعد تشخصه وحلوله، فملأ الضياء الأقطار بعد ذلك الظلام {ويولج النهار} الذي عم الكون ضياؤه وأناره لألاؤه {في الّيل} الذي قد كان غاب في علمه، فإذا الظالم قد طبق الآفاق، والطول، الذي كان له قد صار نقصاً.

ولما كان في هذا إظهار أخفى الأشياء حتى يصير في غاية الجلاء، أتبعه علم ما هو عند الناس أخفاء ما يكون فقال: {وهو} أي وحده {عليم} أي بالغ العلم {بذات الصدور *} أي ما يصحبها فتخفيه فلا يخرج منها الهمزات على مدى الأيام على كثرة اختلافها وتغيرها وإن خفيت على أصحابها.

ولما قامت الأدلة على تنزيهه سبحانه عن شائبة كل نقص، وإحاطته بكل صفة كمال، المقتضي لثبوت أن الملك له، الموجب قطعاً لتفرده بعموم الإلهية، المقتضي لإرسال من يريده إلى جميع من في ملكه، وختم بالعلم بالضمائر التي أجلها الإيمان، قال آمراً بالإذعان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم: {آمنوا} أي أيها الثقلان {بالله} أي الملك الأعظم الذي لا مثل له {ورسوله} الذي عظمته من عظمته. ولما كان الإيمان أساساً، والإنفاق وجهاً ظاهراً ورأساً، قال جامعاً بين الأساس الحامل الخفي والوجه الظاهر الكامل البهي: {وأنفقوا} أي في إظهار دينه: ورغبهم في ذلك بطلب اليسير مما أعطاهم الله وزهدهم منه بقوله: {مما جعلكم} أي بقدرته {مستخلفين} أي مطلوباً موجوداً خلافتكم {فيه} وهو له دونكم بما يرضي من استخلفكم في تمهيد سبيله فطيبوا بها نفساً لأنها ليست في الحقيقة لكم وإنما أنتم خزان، وخافوا من عزلكم من الخلافة بانتزاعها من أيديكم بتولية غيركم أمرها، إما في حياتكم، وإما بعد مماتكم، كما فعل بغيركم حين أوصل إليكم ما وصل من أموالهم، «فليس لكم منها إلا ما أكلتم فأفنيتم أو لبستم فأبليتم أو تصدقتم فأبقيتم– وفي رواية: فأمضيتم«

وليهن الإنفاق منها عليكم كما يهون على الإنسان النفقة من مال غيره إذا كان أذن له فيه.

ولما أمر بالإنفاق ووصفه بما سهله، سبب عنه ما يرغب فيه فقال مبالغاً في تأكيد الوعد لما في ارتكابه من العسر بالتعبير عنه بالجملة الاسمية وبناء الحكم على الضمير بالوصف بالكبير وغير ذلك: {فالذين آمنوا} وبين

أن هذا خاص بهم لضـــيق الحال في زمانهم فقال : {منكم وأنفقوا} أي من أموالهم في الوجوه التي ندب إليها على وجه الإصـلاح كما دل عليه التعبير بالإنفاق {لهم أجر كبير *} أي لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الإنفاق في أيام استخلافكم قبل عزلكم وإتلافكم.

▲ تفسير الآيات رقم [8– 10]

{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)}

ولما رغب في الإنفاق والإيمان، وكان الإيمان مقتضى بالإنفاق، عجب ممن لا يبادر إلى الحاصـل على كل خير، فقال مفصـلاً لما أجمل من الترغيب فيهما، بادئاً بأبين كل خير، منفسـاً عنهم بالتعبير بأداة الاسـتقبال بالبشـارة بالعفو عن الماضـي مرهباً موبخاً لمن لا يبادر إلى مضـمون ما دخل عليه الاسـتفهام، عاطفاً على ما تقديره: فما لكم لا تبادرون إلى ذلك : {وما} أي وأيّ شـيء {لكم} من الأعذار أو غيرها في أنكم، أو حال كونكم {لا تؤمنون بالله} أي تجددون الإيمان– أي تجديداً مسـتمراً– بالملك الأعلى أي الذي له الملك كله ولأمر كله بعد سـماعكم لهذا الكلام : لأن «لا» لا تدخل على

مضـــارع إلا وهو بمعنى الاســتقبال، ولو عبر بعبارة تدل على الحال لربما تعنت متعنت فقال : فأت ما طلب منا، والذي بعد هذا من الحال التي هي في معنى دالة على هذا، وهي قوله : {والرســـول} أي والحال أن الذي له الرسـالة العامة {يدعوكم} صـباحاً ومسـاء على ما له من مقتضـيات القبول منه من حسن السمت وجلالة القدر وإظهار الخوارق وغير ذلك {لتؤمنوا} أي لأجل أن تجددوا الإيمان {بربكم} أي الذي أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذه النبي الكريم صـلى الله عليه وسـلم وشـرفكم به {وقد} أي والحال أنه قد {أخذ ميثاقكم} أي وقع أخذه فصـــار في غاية القباحة ترك ما وقع التوثق بسـببه بنصـب الأدلة والتمكين من النظر بإبداع العقول، وذلك كله منضـم إلى أخذ الذرية من ظهر آدم عليه الصـلاة والسـلام وإشـهادهم على أنفسـهم وإشـــهاد الملائكة عليهم، وبنى الفعل للمفعول في قراءة أبي عمرو ليكون المعنى أيّ أخذ كان لأن الغدر عند الكرماء شــديد من غير نظر إلى معين لا ســيما العرب فكيف إذا كان الآخذ الملك الأعظم القادر على كل شـــيء العالم بكل شـيء، ورسـوله الذي تعظيمه من تعظيمه، كا صـرحت به قراءة الجماعة بالبناء للفاعل ولا يخفى الإعراب، والحاصـل أنهم نقضـوا الميثاق في الإيمان، فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل.

ولما حثهم على تجديد الإيمان على سبيل الاستمرار بالتعجب من ترك ذلك، وكان كل واحد يدعي العراقة في الخير، هيجهم وألهبهم بقوله: {إن كنتم} أي جبلة ووصـفاً ثابتاً {مؤمنين *} أي عريقين في وصـف الإيمان، وهو الكون على نور الفطرة الأولى.

ولما وصفه بالربوبية، دل عليها بقوله: {هو} أي وحده لا غيره {الذي ينزل} أي على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة. ولما كان الخطاب في هذه السورة للمخلص، قال مضيفاً إلى ضميره غير مقرون بما يدل على الجلال والكبرياء {على عبده} أي الذي هو أحق الناس بحضرة جماله وإكرامه لأنه ما تعبد لغيره قط {آيات} أي علامات هي من ظهورها حقيقة بتأن يرجع إليها ويتقيد بها {بينت} جداً على ما له من النعوت التي هي في غاية الوضوح {ليخرجكم} أي الله أي عبده بما أنزل إليه مع أنه بشر مثلكم، والجنس إلى جنسه أميل ومنه أقبل، ولا سيما إن كان قريباً ولبيباً أريباً {من الظلمات} التي أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التي جبل عليها الإنسان والغفلة والنسيان، الحاملة على تراكم الجهل، فمن آتاه سبحانه العلم والإيمان فقد أخرجه نم هذه الظلمات التي طرأت عليه {إلى النور} الذي كان وصفاً لروحه وفطرته الأولى السليمة.

ولما كان التقدير : فإن الله به للطيف خبير، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل زلزال من يطول به البلاء من المؤمنين وإنكار الكفار: {وإن الله} أي الذي له صفات الكمال {بكم} قدم الجارّ لأن عظيم رحمته لهذه الأمة موجب لعد نعمته على غيرنا عدماً بالنسبة إلى نعمته علينا {لرؤوف رحيم *} أي كنتم بالنظر إلى رحمته الخاصة التي هي لإتمام النعمة صنفين: منكم من كان له به وصلة بما يفعل في أيام جاهليته من الخيرات كالإنفاق في سبيل المعروف، وعبر بالإنفاق لكونه خيراً لا رياء ونحوه فيه كالصديق رضي الله عنه فعاد عليه، بعد عموم رحمته بالبيان، بخصوص رحمة عظيمة أوصلته

إلى أعظم درجات العرفان، ومنكم من كان بالغاً في اتباع الهوى فابتدأه بعد عموم رحمة البيان بخصوص رحمة هداه بها إلى أعمال الجنان، وهي دون ما قبلها في الميزان، وفوقها من حيث إنها بدون سبب من المرحوم.

ولما أمرهم بالإيمان والإنفاق، وكان الإيمان مع كونه الأساس الذي لا يصح عمل بدونه ليس فيه شيء من خسران أو نقصان، فبدأ به لذلك، ورغب بختم الآية بالإشارة بالرأفة إلى أن من توصل إليه بشيء من الإيمان أو غيره زاده من فضله «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً- إلى قوله: ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» عطف عليه الترغيب في التوصل إليه بالإنفاق منكراً على من تركه موبخاً لمن حاد عنه هو يعلم أنه فان، مفهماً بزيادة «أن» المصدرية اللوم على تركه في جميع الأزمنة الثلاثة فقال: {وما} أي وأيّ شيء يحصل {لكم} في {ألا تنفقوا} أي توجدوا الإخراج للمال {في سبيل الله} أي في كل ما يرضي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال لتكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التي هي أعظم الرحمة، فإنه أم بخل به أحد عن وجه خير إلا سلط الله عليه غرامة في وجه شر، وأظهر موضع الإضمار في جملة حالية باعثاً على الإنفاق بأبلغ بعث فقال: {ولله} تأكيداً للعظمة بالندب إلى ذلك باستحضار جميع صفات الكمال لا سيما صفة الإرث المقتضية للزهد في الموروث {ميراث} أي الإرث والموروث والموروث عنه وغير ذلك {السماوات والأرض} جميعاً لا شيء فيهما أو منهما إلا هو كذلك يزول عن المنتفع به ويبقى لله بقاء الإرث، ومن تأمل أنه زائل هو وكل ما

في يده والموت من ورائه، ويد طوارق الحوادث مطبقة به، وعما قليل ينقل ما في يده إلى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله.
ولما رغبهم في الإنفاق على الإطلاق، رغبهم في المبادرة إليه، مادحاً أهله خاصاً منهم أهل السياق فقال: {لا يستوي}. ولما كان المراد أهل الإسلام بين بقوله: {منكم من أنفق} أي أوجد الإنفاق في ماله وجميع قواه وما يقدر عليه. ولما كان المقصود الإنفاق في زمان الإيمان لا مطلق الزمان، خص بالجارّ فقال: {من قبل الفتح} أي الذي هو فتح جميع الدنيا في الحقيقة وهو فتح مكة الذي كان سبباً لظهور الدين على الدين كله لما نال المنفق إذ ذاك بالإنفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ، وذلك مستلزم لكون المنفق أنفذ بصيرة ونفقته أعظم غنّى وأشد نفعاً، وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه فإنه أول من أنفق ولم يسبقه في ذلك أحد، وفيه نزلت الآية- كما حكاه البغوي عن الكلبي.
ولما كان المراد بالإيمان خدمة الرحمة، وكان الإنفاق وإن كان مصدقاً للإيمان لا يكمل تصديقه إلا ببذل النفس قال: {وقاتل} أي سعياً في إنفاق نفسه لمن آمن به، وحذف المنفي للتسوية به وهو من لم ينفق مطلقاً أو بقيد القبلية لدلالة ما بعده، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى قلة السابقين.
ولما كان نفي المساواة لا يعرف منها الفاضل من غيره، وقد كان حذف قسيم من أنفق لوضوحه والتنفير منه ودلالة ما بعده عليه، نفى اللبس بقوله: {أولئك} أي المنفقون المقاتلون وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، المقربون من أهل الرتبة العية لمبادرتهم إلى الجود بالنفس والمال

{أعظم درجة} وبعظم الدرجة يكون عظم صـــاحبها {من الذين أنفقوا} ولما كان المراد التفضـــيل على أوجد الإنفاق والقتال في زمان بعد ذلك، لا على من اســـتغرق كل زمان بعده بالإنفاق والقتال أدخل الجار فقال : {من بعد وقاتلوا} ولما كان التفضيل مفهماً اشتراك الكل في الفضل، صرح به ترغيباً في الإنفاق على كل حال فقال: {وكلاًّ} أي من القسمين {وعد الله} أي الذي له الجلال والكمال والإكرام {الحسنى} أي الدرجة التي هي غاية الحسن وإن كانت في نفسها متفاوتة، وقرأ ابن عامر {وكل} وهو أوفق لما عطف عليه. ولما كان زكاء الأعمال إنما هو بالنيات، وكان التفضـــيل مناط العلم، قال مرغباً في إحســـان النيات مرهباً من التقصـــير فيها : {والله} أي الذي له الإحاطة الشـــاملة بجميع صـــفات الكمال، وقدم الجار إعلاماً بمزيد اعتناء بالتمييز عند التفضـــيل فقال : {بما تعملون} أي تجددون عمله على مر الأوقات {خبير *} أي عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه، فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 12]

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)}

ولما فضـــل الســـابقين بالإنفاق، ووعد بالحســـنى اللاحقين بحســـن الاتباع، وأشار إلى أنه ربما ألحقهم ببعضهم بصفاء الإخلاص فتوفرت الدواعي على البذل، أثمر ذلك قوله مسيماً الصدقة التي صورتها صورة إخراج من غير

عوض باســم القرض الذي هو إخراج بعوض ترغيباً فيها لما أعد عليها من الجزاء المحقق فكيف إذا كان مضــاعفاً: {من} وأكد بالإشــارة بقوله: {ذا} لأجل ما للنفوس من الشــــح {الذي يقرض الله} أي يعطي الذي له جميع صــفات الجلال والإكرام بإعطاء المســتحق لأجله عطاء من ماله هو على صورة القرض لرجائه الثواب {قرضاً حسناً} أي طيباً خالصاً فيه متحرياً به أفضل الوجوه طيبة به النفس من غير من ولا كدر بتسويف ونحوه.

ولما كان ما يعطي الله المنفق من الجزاء مســـبباً عن إنفاقه، ربطه بالفاء فقال عطفاً على {يقرض}: {فيضاعفه له} مرغباً فيه بجعله مبالغاً بالتضعيف أولاً وجعله من باب المفاعلة ثانياً، وكذا التفضــــيل في قراءة ابن كثير وابن عامر ويعقوب {فيضعفه} وقرأه ابن عامر ويعقوب بالنصب جواباً للاستفهام تأكيداً للربط والتسبيب. ولما كانت المضاعفة منه سبحانه لا يعلم كنهها إلى هو قال: {وله} أي المقرض من بعد ما تعقلونه من المضــاعفة زيادة على ذلك {أجر} لا يعلم قدره إلى الله، وهو معنى وصــفه بقوله: {كريم *} أي حسن طيب زاك نام.

ولما بين ما لهذا المقرض، بين بعض وصـفه بالكرم ببيان وقته فقال: {يوم} أي لهم ذلك في الوقت الذي {ترى} فيه بالعين، وأشـار إلى أن المحبوب من المال لا يخرج عنه ولا ســيما مع الإقتار إلا من وقر الدين في قلبه بتعبيره بالوصــف فقال: {المؤمنين والمؤمنات} أي الذي صــار الإيمان لهم صــفة راســخة {يســعى} شــعاراً لهم وأمارة على ســعادتهم {نورهم} الذي يوجب إبصــارهم لجميع ما ينفعهم فيأخذوه وما يضـرهم فيتركوه، وذلك بقدر أعمالهم

الصـــــالحة التي كانوا يعملونها بنور العلم الذي هو ثمرة الإيمان كما أنهم قدموا المال الذي إنما يقتنيه الإنسان لمثل ذلك جزاء وفاقاً.

ولما كان من يراد تعظيمه يعطى ما يجب وما بعده شـريفاً (؟) في الأماكن التي يحبها قال: {بين أيديهم} أي حيث ما توجهوا، ولذلك حذف الجار {وبأيمانهم} أي وتلتصـق بتلك الجهة لأن هاتين الجهتين أشـرف جهاتهم، وهم إما من السـابقين، وإما من أهل اليمين، ويعطون صـحائفهم من هاتين الجهتين، والشقي بخلاف ذلك لا نور له ويعطى صحيفته بشماله ومن وراء ظهره، فالأول نور الإيمان والمعرفة والأعمال المقولة، والثاني نور الإنفاق لأنه بالإيمان– نبه– عليه الرازي.

ولما ذكر نفوذهم فيما يحبون من الجهات وتيســـيره لهم، أتبعه ما يقال لهم من المحبوب في سلوكهم لذلك المحبوب فقال: {بشـراكم اليوم} أي بشـارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان.

ولما تشـوفوا لذلك أخبروا بالمبشـر به بقوله مخبراً إشـارة إلى أن المخبر به يحسد من البشرى لكونه معدن السرور {جنات} أي كائنة لكم تتصرفون فيها أعظم تصـــرف، والخبر في الأصـــل دخول، ولكنه عدل عنه لما ذكر من المبالغة ثم وصـــفها بما لا تكمل اللذة إلا به فقال؛ {تجري} وأفهم القرب بإثبات الجارّ فقال: {من تحتها الأنهار} ولما كان ذلك لا يتم مع خوف الانقطاع قال: {خالدين فيها} خلوداً لا آخر له لأن الله أورثكم ذلك ما لا يورث عنكم كما كان حكام الدنيا لأن الجنة لا موت فيها. ولما كان هذا أمراً سارّاً في ذلك المقام الضنك محباً بأمر استأنف مدحه بقوله: {ذلك} أي هذا

الأمر العظيم جداً {هو} أي وحده {الفوز العظيم *} أي الذي ملأ بعظمته جميع الجهات من ذواتكم وأبدانكم ونفوسكم وأرواحكم.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 15]

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آَمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)}

ولما عظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في الوقت الكائن فيه، عظمه بما لأضدادهم من النكال، فقال مبدلاً من الظرف الأول: {يوم يقول} أي قولاً مجدداً يلجئ إليه من الأمور العظيمة الشاقة {المنافقون والمنافقات} أي بالعراقة في إظهار الإيمان وإبطان الكفران {للذين آمنوا} أي ظاهراً وباطناً، وأما من علا من هذا السن من المؤمنين ومن فوقهم فالظاهر أنهم لا يرونهم ليطمعوا في مناداتهم «وأين الثريا من يد المتناول» {انظرونا} أي انظرونا بأن تمكثوا في مكانكم لنلحق بكم، وكأن الفعل جرد في قراءة الجماعة لاقتضاء الحال الإيجاز بغاية ما توصل المقدرة إليه خوف الفوت، لأن المسؤولين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف، وقد حققت المعنى قراءة حمزة بقطع الهمزة وكسر الظاء أي أخرونا في المشي وتأنوا علينا وأمهلوا

علينا، لا تطلبوا منا السـرعة فيه بل امكثوا في مكانكم لننظر في أمرنا كيف نلحق بكم، والحاصل أنهم عدوا تأنيهم في المشـي وتلبثهم ليلحقوا بهم إنظاراً لهم {نقتبس} أي نأخذ ونصيب ونستصبح {من نوركم} أي هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه بشـــيء كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشـــيء جزاء وفاقاً، وســـبب هذا القول أنهم يعطون مع المؤمنين نوراً خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا لتعظم عليهم المشـــقة بفقده لأنـه لا يلبـث أن يبعـث الله عليهم ريحـاً وظلمـة فتطفئ نورهم ويبقون في الظلمة، وإلى ذلك ينظر قول المؤمنين {أتمم لنا نورنا} أي لا تطفئه كما أطفأت نور المنافقين.

ولما كان المنكئ لهم إنما هو الرد من أي قائل كان، بنى للمفعول قوله: {قيل} أي لهم جواباً لسؤالهم قول رد وتوبيخ وتهكم وتنديم: {ارجعوا وراءكم} أي في جميع جهات الوراء التي هي أبعد الجهات عن الخير كما كنتم في الدنيا لا تزالون مرتدين على أعقابكم عما يستحق أن يقبل عليه ويسعى إليه {فالتمسوا} بسبب ذلك الرجوع {نوراً} ويصـح أن يراد بالوراء الدنيا لأن هذا النور إنما هو منها بســـبب ما عملوا فيها من الأعمال الزاكية والمعارف الصـــافية، ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب المحبة من الإحياء: إن هذه الآية تدل على أن الأنوار لا بد أن يتجدد أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً فأمّا أن يتجدد ثَمَّ نور فلا.

ولما كان التقدير: فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة، ســـبب عنه وعقب قوله: {فضرب} مبنياً للمفعول على نحو الأول، ولإفادة أن الضرب كان في غاية

السرعة والسهولة، ويجوز أن تكون الفاء معقبة على ما قبله من غير تقدير {بينهم} أي في جميع المسافة التي بين الذين آمنوا وأضدادهم في وقت قولهم هذا.

ولما كان المقصود أن ضربه كان في غاية السرعة، لم يوقع الفعل وأتى بالفاء ليفيد أنه كان كأنه عصاً ضربت به الأرض ضربه واحدة، فقال: {بسور} أي جدار محيط محيل بين الجنة والنار لا يشذ عنه أحد منهم ولا يقدر أحد ممن سواهم أن يتجاوزه إليهم {له باب} موكل به حجاب لا يفتحون إلا لمن أذن الله له من المؤمنين بما يهديهم إليه من نورهم الذي بين أيديهم لشفاعة أو نحوها {باطنه} أي ذلك السور الباب وهو الذي من جهة الذين آمنوا جزاء لإيمانهم الذي هو غيب {فيه الرحمة} وهي ما لهم من الكرامة بالجنة التي هي ساترة ببطن من فيها بأشجارها وبأسبابها كما كانت بواطنهم ملاء رحمة {وظاهره} أي السور أو الباب الذي يظهر لأهل النار، مبتدئ {من قبله} أي تجاه ذلك الظاهر وناحيته وجهته وعنده {العذاب *} من النار ومقدماتها لاقتصار أهله على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ إلى باطن وعكس ما أرادوا من حفظ ظواهرهم في الدنيا مع فساد بواطنهم، ودل على ما أفهمه التعبير بالمضارع في «يقول» من التكرير بقوله استئنافاً: {ينادونهم} أي المنافقون والمنافقات، يواصلون النداء وهم في الظلمة للذين آمنوا يترفقون لهم في مدة هذا القول والضرب: {ألم نكن} أي بكليتنا {معكم} أي فيما كنتم فيه من الدين فنستحق المشاركة فيما صرتم إليه بسبب ذلك الدين الذين كنا معكم فيه {قالوا} أي الذين آمنوا {بلى} قد كنتم معنا {ولكنكم

فتنتم} أي كنتم بما كان لكم من الذبذبة تختبرون {أنفســـكم} فتخالطونها باختبار أحوال الدين مخالطة محيلة لها مميلة عما كانت عليه من أصـــل الفطرة من الاســـتقامة، تريدون بذلك أن تظهر لكم فيه أمور محســـوســـة لتخلصـــوا فيه من الشـــكوك فتخلصـــوا، فما آمنتم بالغيب فأهلكتموها وتبعتم أيضـــاً الأمور التي كنتم تفتتون بها من الشـــهوات، فأوجبتهم لكم الإعراض عن المعالي الباطنات {وتربصـــتم} أي كلفتم أنفســـكم أن أخرجتموها عن الفطرة الأولى فأمهلتم وانتظرتم لتروا الأمر عياناً أو لم تفعلوا كما فعلنا من الإيمان بالغيب وترك التجربة ونسبة ما يحصل لنا مما فيه فتنة إلى أنفسنا بتقصـيرنا، وكنا كلما حصـل لنا ما يزلزل نقول: هذا ما وعدنا الله ورسـوله وصدق الله ورسوله ولا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً وانتظرتم أيضاً الدوائر بأهل الإيمان لتظهروا النفاق {وارتبتم} أي شككتم بتكليف أنفسكم الشك بذلك التربص {وغرتكم الأماني} أي ما تتمنون أي تريدون وتقدرون من الإرادات التي معها شـهوة عظيمة من الأطماع الفارغة التي لا سـبب لها غير شـهوة النفس إياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر الســوء {حتى جاء أمر الله} أي قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفوء له ولا خلف لقوله من الموت ومقدمات من الأمور الدهشة، فكما كنتم في الدنيا مقصـرين كنتم في هذا الموطن {وغركم بالله} أي الملك الذي له جميع العظمة، فهو بحيث لا يخلف الميعاد وهو الولي الودود {الغرور} أي من لا صـــنع له إلا الكذب وهو الشيطان وهو العدو الحسود، فإنه ينوع لكم بغروره التسويف ويقول: إن الله غفور رحيم وعفو كريم، وماذا عســـى أن تكون ذنوبكم عنه وهو عظيم

ومحســن وحليم ونحو هذا، فلا يزال حتى يوقع الإنســان، فإذا أوقع واصــل عليه مثل ذلك حتى يتمادى، فإذا تمادى صــــار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده.

ولما أقروا لهم بالكون الجامع، وذكروا ما حصــل به والفرق المانع فظهر أن لا كون، ســببوا عنه قولهم: {فاليوم} أي بســبب أفعالكم تلك {لا يؤخذ} بناء للمفعول لأن الضار عدم الأخذ لا كونه من آخذ معين وليفيد سد باب الأخذ مطلقاً {منكم فدية} أي نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعضـو للنفس على أي حال من قلة أو كثرة أو حســـن أو غيره لأن الإله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لإنقاذ أنفسكم. ولما كانوا مكذبين أكد فقال: {ولا من الذين كفروا} أي أظهروا كفرهم ولم يســتروه كما ســترتموه أنتم لمســاواتكم لهم في الكفر. ولما كان كأنه قيل: فأين نكون؟ قال: {مأواكم} أي منزلكم ومسـكنكم ومجمعكم {النار} لا مقر لكم غيرها، تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الأولياء بإقبالكم على الشــهوات، وإضــاعتكم حقوق ذوي الحاجات، وأكد ذلك بقوله: {هي} أي لا غيرها {مولاكم} أي قرينتكم وموضـع قربكم ومصـيركم وناصـركم على نحو «تحيـة بينهم ضــــرب وجيع» فهي أولى لكم، لا قرب لكم إلى غيرها، ولا غيرها مولى ولا مصـير إلى سـواها ولا ناصـر إلا هي. ولما كان التقدير: فبئس المولى هي، عطف عليه قوله: {وبئس المصـير *} أي هذه النار التي صرتم إليها.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 17]

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)}

ولما كان هذا وعظاً شافياً لسقام القلوب، وكاشفاً لغطاء الكروب، انتج قوله حاثاً على الإقبال على كتابه الذي رحم به عباده بإنزاله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم على وجه معلم بإعجازه أنه كلام مستعطفاً لهم إلى جنابه زاجراً لهم عما سألهم بعضهم فيه سلمان رضي الله عنه من أن يحدثهم عن التوراة والإنجيل، فكانوا كلما سألوه عن شيء أنزل سبحانه آية يزجرهم بها وينبههم على أن هذا القرآن فيه كل ما يطلب إلى أن أنزل هذه الآية زاجرة هذا الزجر العظيم لئلا يظن ظان أن القرآن غير كاف، مخوفاً لهم بما وقع لأهل الكتاب من الإعراض عن كتابهم، قال الكلبي نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: {ألم يأن} أي يحن وينتهي ويدرك إلى غاية {للذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان بألسنتهم صدقاً أو كذباً {أن تخشع} أي أن يكون لهم رتبة عالية في الإيمان بأن تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن فتخبت فتعرض عن الفاني وتقبل على الباقي {قلوبهم لذكر الله} أي الملك الأعظم الذي لا خير إلا منه فيصدق في إيمانه من كان كاذباً ويقوى في الدين من كان ضعيفاً، فلا

يطلب لذلك دينه دواء ولا لمرض قلبه شـــفاء في غير القرآن، فإن ذكر الله يجلو أصداء القلوب ويصقل مرائيها.

ولما كان الذكر وحده كافياً في الخشـوع والإنابة والخضـوع لأنه مجمع لكل رغبة ومنبع لكل رهبة، وكان من الناس من لا نفوذ له فيما له سـبحانه من الجلال والإكرام قال: {وما نزل} أي الله تعالى بالتدريج- على قراءة الجماعة بالتشديد، وما وجد إنزاله من عند الله على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم على قراءة نـافع وحفص عن عـاصـــم ورويس بخلف عنـه عن يعقوب بالتخفيف {من الحق} أي من الوعد والوعيد والوعظ وغير ذلك على نبيكم صلى الله عليه وسلم من القرآن إشارة إلى أن غير هذا الذكر دخله الدخيل، وأما هذا فثابت ثباتاً لا يقدر أحد على إزالته.

ولما كان للمسابقة والمنافسة أمر عظيم في تحريك الهمم لأهل الأنفة وأولي المعالي قال: {ولا يكونوا كالذين} ولما كان العلم بمجرده كافياً في إعلاء الهمة فكيف إذا كان من عند الله فكيف إذا كان بكتاب، إشـــارة إلى ذلك بالبناء للمجهول فقال: {أوتوا الكتاب} أي لو كان الإتيان من عند غير الله لكان جديراً بالهداية فكيف وهو من عنده. ولما كان إنزال الكتب لم يكن إلا على بني إسرائيل فلم يكن مستغرقاً للزمان الماضي أدخل الجارّ فقال: {من قبل} أي قبل ما نزل إليكم وهم اليهود والنصارى.

ولما كانوا في كل قليل يعبرون قال عاطفاً على {أوتوا الكتاب}: {فطال عليهم الأمد} أي الزمان الذي ضربناه لشرفهم ومددناه لعلوهم من أول إيتائهم الكتاب الذي من شـأنه ترقيق القلوب، والأمد الأجل، وكل منهما يطلق على

المدة كلها وعلى آخرها، وكذا الغاية بقول النحاة: «من» لابتداء الغاية و«إلى» لانتهائها، والمراد جميع المدة {فقسمت} أي بسبب الطول {قلوبهم} أي صلبت واعوجت حتى كانت بحيث لا تنفعل للطاعات والخير فكانوا كل قليل في تعنت شديد على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام يسألونهم المقترحات، وأما بعد ايتائهم فأبعدوا في القساوة، فمالوا إلى دار الكدر بكلياتهم وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات، قال القشيري: وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة وإن الشهوة والصفوة لا تجتمعان.

ولما كان التقدير: فبعضهم ثبت على تزلزل، عطف عليه قوله: {وكثير منهم} أخرجته قساوته عن الدين أصلاً ورأساً فهم {فاسقون *} أي عريقون في وصف الإقدام على الخروج من دائرة الحق التي عداها لهم الكتاب، وعن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلاّ أربع سنين» رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي: وفيه موسى بن يعقوب الربعي وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله رجال الصحيح. انتهى.

ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث، وكان العرب يزيدون على أهل الكتاب من موجبات القسوة به، وكان عمل العامل بما يدل على القسوة عمل من ينكره، قال مهدداً به مقرراً لما ابتدأ به السورة من أمر الإحياء مشيراً إلى القدر على إحياء القلوب ممثلاً لإزالة القسمة عنها بصقل الذكر والتلاوة ترغيباً في إدامة ذلك: {اعلموا} أي يا من آمن بلسانه {أن الله} أي

الملك الأعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شيء {يحيي} أي على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه {الأرض} اليابسة بالنبات. ولما كان هذا الوصف ثابتاً دائماً بالفعل وبالقوة أخرى، وكان الجار هنا مقتضياً للتعميم قال: {بعد موتها} من غير ذكر الجارّ وكما أنه يحييها فيخرج بها النبات بعد أن كان قد تفتت وصار تراباً فكذلك يحيي بجمع أجسامهم وإفاضة الأرواح كما فعل بالنبات وكما فعل بالأجسام أول مرة سواء، لا فرق بوجه إلا بأن يقال: الابتداء أصعب في العادة، فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لإحياء القلوب، فإنه قادر على إحيائها بروح الوحي كما أحيا الأرض بروح الماء لتصير بإحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الأرض بالماء رابية بعد خشوعها وموتها.

ولما انكشف الأمر بهذا غاية الانكشاف، أنتج قوله: {قد بينا} أي على ما لنا من العظمة، ولما كان العرب يفهمون من لسانهم ما لا يفهم غيرهم فكانوا يعرفون– من إعجاز القرآن بكثرة فوائده وجلالة مقاصده ودقة مسالكه وعظمة مداركه، وجزالة تراكيبه ومتانة أساليبه وغير ذلك من شؤونه وأنواعه وفنونه، المنتج لتحقق أنه كلام الله– ما لا يعلمه غيرهم فكأنما كانوا مخصوصين بهذا البيان، فقدم الجارّ فقال: {لكم الآيات} أي العلامات المنيرات. ولما كان السياق للبعث، وكان من دعائم أصول الدين، وكان العقل كافياً في قياسه على النبات، وكان الفعل الذي لا يعود إلى سعادة الآخرة ناقصاً «، وكان العقل الذي لا ينجي صاحبه مساوياً للعدم، قال معبراً بأداة التراخي بخلاف ما سبق في آل عمران فإنه من مصالح النفس

التي اختفت، ودواع تدعو إلى فهمها، وتبعث إلى إتقان علمها {لعلكم تعقلون * } أي لتكونوا عند من يعلم ذلك ويســـمعه من الخلائق على رجاء من حصـــول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على ســـبيل التواصـــل الدار بالاستمرار.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 20]

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)}

ولما كانت الصدقة كالبذر الذي تقدم أن الله تعالى يحييه ويضاعفه أضعافاً كثيرة على حســـب زكاء الأرض، قال منتجاً مما مضـــى ما يعرف أن من أعظم ما دل على الخشوع المحثوث عليه والبعد عن حال الذين أوتوا الكتاب في القســـوة الصـــدقة بالإنفاق الذي قرنه في أولها بالإيمان، وحث عليه في كثير من آياتها تنبيهاً على أنه ثمرته التي لا تخلف عنه، معبراً عنه بما يرشـد إلى أنه المصـدق لدعواه، وأكده لمن يشـك في البعث من إنكار بركة الصـدقة عاجلاً أو آجلاً تقيداً بالمحسـوسـات: {إن المصـدقين} أي العريقين

في هذا الوصـف من الرجال {والمصـدقات} أي من النسـاء بأموالهم على الضـعفاء الذين إعطاؤهم يدل على الصـدق في الإيمان لكون المعطى لا يرجى منه نفع دنيوي، ولعله أدغم إشارة إلى إخفاء الإكثار من الصدقة حتى تصير ظاهرة، وقراءة ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بالتخفيف تدل مع ذلك على التصديق بالإيمان، فكل من القراءات يدل عليهما، ومن التفصيل بذكر النوعين تعرف شدة الاعتناء.

ولما كانت صـيغة التفعل تدل على التكلف حثاً على حمل النفس على التطبع بذلك حتى يصـير لها خلقاً في غاية الخفة عليها فقال عاطفاً على صلة الموصول في اسم الفاعل معبراً بالماضي بعد إفهام الوصف الثبات دلالة على الإيقاع بالفعل عطفاً على ما تقديره موقعاً ضـميراً المذكر على الصـنفين تغليباً الذين صـدقوا إيمانهم بالتصـدق: {وأقرضـوا الله} الذي له الكمال كله بتصديقهم سواء كانوا من الذكور أو الإناث، وإنفاقهم في كل ما ندب إلى الإنفاق فيه، وأكد ووصف بقوله: {قرضاً حسناً} أي بغاية ما يكون من طيب النفس وإخلاص النية في الصدقة والنفقة في سبيل الخير، وحسنه أن يصـرف بصـره إلى النظر إلى فعله والامتياز به وطلب العوض عليه، قال الرازي: {يضـاعف} أي ذاك القرض {لهم} ويثابون بحسـب تلك المضاعفة لأن الذي كان القرض له سبحانه حليم كريم ولا يرضى في الخير إلا بالفضل، وثقل في قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب دلالة على المبالغة في التكثير، وعبر بالمفاعلة في قراءة الجماعة لإفهام أن تلك الكثرة مما لا بد من كونه، وأنه عمل فيه عمل من يباري آخر ويغالبه، وبنى

للمفعول دلالة على باهر العظمة اللازم عنه كونه بغاية السهولة {ولهم} أي مع المضاعفة {أجر كريم *} أي لا كدر فيه بانقطاع ولا قلة ولا زيادة بوجه من الوجوه أصلاً.

ولما بين سبحانه وتعالى أن الصدقة كالبذر الذي هو من أحسن الأرباح وأبهجها، بين الحامل عليها ترغيباً فيها، فقال عاطفاً بالواو، إشارة إلى التمكن في جميع هذه الصفات : {والذين آمنوا} اي أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم {بالله} أي الملك الأعلى الذي له الجلال والإكرام {ورسله} اي كلهم لما لهم من النسبة إليه، فمن كذب بشيء على أحد منهم أوعمل عمل المكذب له لم يكن مؤمناً به {أولئك} أي الذين لهم الرتب العالية والمقامات السامية {هم} أي خاصة لا غيرهم {الصديقون} أي الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه، وقال القشيري: الصديق من استوى ظاهره وباطنه، ويقال: هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى الرخص، ولا يحتاج للتأويلات، ولما كان الصديق لا يكون عريقاً في الصديقية إلا بالتأهيل لرتبة الشهادة قال تعالى : {والشهداء} معبراً بما مفرده شهيد عاطفاً بالواو إشارة إلى قوة التمكن في كل من الوصفين، قال القشيري: هم الذين يشهدون بقلوبهم بواطن الوصل ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، وزاد المر عظماً بقوله: {عند ربهم} أي الذي أحسن إليهم بالقربة بمثل تلك الرتبة العالية من الشهادة لله بكل ما أرسل به رسله، والأنبياء الماضين على أممهم والحضور في جميع الملاذ بالشهادة في سبيل الله، قال مجاهد: كل مؤمن صديق وشهيد- وتلا هذه

الآية {لهم} أي جميع من مضى من الموصوفين بالخير {أجرهم} أي الذي جعله ربهم لهم {ونورهم} أي الذي زادهموه من فضله برحمته، أولئك أصحاب النعيم المقيم.

ولما ذكر أهل السعادة جامعاً لأصنافهم، أتبعهم أهل الشقاوة لذلك قال: {والذين كفروا} أي ستروا ما دلت عليه أنوار عقولهم ومرائي فكرهم {وكذبوا بآياتنا} على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا سواء كانوا في ذلك مساترين أو مجاهرين أو عمل العالم بها عمل المكذب {أولئك} أي المبعدون من الخير خاصة {أصحاب الجحيم *} أي النار التي هي غاية في توقدها، خالدون فيها من بين العصاة، وأما غيرهم فدخولهم لها إذا دخلوها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة، وأولئك هم الكاذبون الذي لا تقبل لهم شهادة عند ربهم، لهم عقابهم وعليهم ظلامهم، والآية من الاحتباك: ذكر الصديقية وما معها أولاً دليلاً على أضدادها ثانياً، والجحيم ثانياً دليلاً على النعيم أولاً، وسره أن الأول أعظم في الكرامة، والثاني أعظم في الإهانة.

ولما ذكر سبحانه حال الفريقين: الأشقياء والسعداء، فتقرر بذلك أمر الآخرة، فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان، وكان الموجب للهوان فيها إنما هو الإقبال على الدنيا لحضورها ونسيان الآخرة لغيابها، قال منتجاً مما مضى مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة بما نزهه فيه مصدّراً له بما يوجب غاية اليقظة والحضور: {اعلموا} أي أيها العباد المبتلون، وأكد المعنى بزيادة {ما} لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصراً قصر قلب: {إنما الحيوة الدنيا} أي

الحاضرة التي رغبت في الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن {لعب} أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان {ولهو} أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: {وزينة} أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: {وتفاخر} أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض.

ولما كان ذلك مخصوصاً بأهل الشهوات قال: {بينكم} أي يجر إلى الترفع الجارّ إلى الحسد والبغضاء، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال: {وتكاثر} أي من الجانبين {في الأموال} أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها مائلة {والأولاد} الذين لا يغتر بهم إلا سفيه لأنهم الأعداء، وأن جميع ما ذكر زائل وأن الدنيا آفاتها هائلة، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره، ثم إلى ذلك كله قد يكون ذهابه عن قرب فتكون على أضداد ما كان عليه، فيكون أشد في الحسرة، ومطابقة ذلك لما بعده ان الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد وثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تم شبابه وأطفأه مجيئه وذهابه وأشكاله وأترابه، أخذ في الانحطاط ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت، فإذا قد اضمحل أمره ونسي عما قليل ذكره، وصار ماله لغيره وزينته متمتعاً بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها وأقل منها خطر المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة، وطلاب الجيفة ليس لهم خطر،

وأخســـهم من بخل بها، قال القشــيري: وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشــغل العبد عن الآخر فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا– انتهى.

ولما قرر ســـــبحانه أنها ظل زائل وعرض هائل، وكان بعض الناس يتنبه فيشـكر وبعضـهم يعمى فيكفر، كان القسـم الثاني أكثر لأن وجودها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها، ضـــرب لذلك مثلاً مقرراً لما مضـــى من وصـــفها لأن للأمثال في تقرير الأشــياء وتصــويرها ما ليس لغيرها فقال تعالى: {كمثل} أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشـبه مثل {غيث} أي مطر حصل بعد جدب وسوء حال.

ولما كان المثل في ســياق التحقير للدنيا والتنفير عنها، عبر عن الزارع بما ينفر فقال: {أعجب الكفار} أي الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذرة الذي يســتره الحارث بحرثه كما ســتر الكافر حقيقة أنوار الإيمان لما يحصــل من الجحد والطغيان ولا يتنـاهى إعجـاب الزارع إلى حد يلهي عن الله إلا مع الكفر به ســبحانه فإن المؤمن وإن أعجبه ذلك يتذكر به قدرة الله ســبحانه وتعالى وعظمته وما أعد لأهل طاعته في الآخرة، فيحمله ذلك على الطاعة، فالتعبير بالكفار الذي هو بمعنى الزراع دونه إشـــارة إلى عظمة ذلك النبات فإنه لا يعجب العارفين به الممارســـين له الذين لهم غاية الإقبال على تلك الحرفة فالمنافســـة فيها إلا ما يكون منها نهاية في الإعجاب، وإلى أنه لا يعجب أحداً شــيء من الدنيا إعجاباً يركن ويأنس به أنســاً يؤدي إلى ما في الآية من اللهو وما معه إلا لكفر في نفســه أقله كفر النعمة التي من شــأنها أن تدعو إلى تذكر الخالق وتذكر الجميل على الشــكر، وترك الشــكر كفر

{نباته} أي نبات ذلك الغيب كما يعجب الكافر في الكفر في الغالب بسط الدنيا له استدراجاً من الله تعالى.

ولما كان الزرع يشيخ بعد مُدَيدة فيضمحل كما هو شأن الدنيا كلها قال: {ثم يهيج} أي يسرع تحركه فيتم جفافه فيحين حصاده {فتراه مصفراً} أي عقب ذلك بالقرب منه على حالة لا ثمر معها بل ولا نبات، ولذلك قال معبراً بالكون لأن السياق للتزهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها: {ثم} أي بعد تناهي جفافه وابيضاضه {يكون} أي كوناً كأنه مطبوع عليه، وأبلغ سبحانه في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون هنا للمبالغة لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدم وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال والمؤاتاة بخلاف ما مضى في الزمر فقال: {حطاماً} كأن الحطامية كانت في جبلته وأصل طبعه.

ولما ذكر الظل الزائل، ذكر أثره الثابت الدائم مقسماً له على قسمين، فقال عاطفاً على ما تقديره هذا حال الدنيا في سرعة زوالها وتحقق فنائها واضمحلالها: {وفي} أي هذا الذي غر من حال الدنيا وهو في {الآخرة} على أحدهما {عذاب شديد} أي لمن أخذها بغير حقها معرضاً عن ذكر الله لأن الاغترار بها سببه، فكان كأنه هو.

ولما قدم ما هو السبب الأغلب لأن أكثر الخلق هالك، أتبعه الصنف الناجي. فقال: {ومغفرة} أي لأهل الدرجة الأولى في الإيمان {من الله} أي الملك الأعظم لمن يذكر بما صنعه له في الدنيا عظمته سبحانه وجلاله فتاب من ذنوبه، ورجع إليه في التطهير من عيوبه {ورضوان} لأهل الدرجة

العليا وهم من أقبل عليه سبحانه فشكره حق شكره ببذل وسعه فيما يرضيه، فآخر الآية تقسيم للدنيا على الحقيقة لئلا يظن من حصرها فيما ذكر أول الآية أنها لا تكون إلا كذلك، فالمعنى أن الذي ذكره أولاً هو الأغلب لأحوالها وعاقبته النار، وما كان منها من إيمان وطاعة ونظر توحيد لله وتعظيم ومعرفة تؤدي إلى أخذها تزوداً ونظرها اعتباراً وتعبداً، فهو آخره لا دنيا، وقد تحرر أن مثل الغيث المذكور الحطام وتارة يعقبه نكد لازم وأخرى سرور دائم، فمن عمل في ذلك عمل الحزمة فحرس الزرع ما يؤذيه وحصده في وقته وعمل فيه ما ينبغي ولم ينس حق الله فيه سره أثره وحمدت عاقبته، ومن أهمل ذلك أعقبه الأسف، وذلك هو مثل الدنيا: من عمل فيها بأمر الله أعقبته حطاميتها سروراً دائماً، ومن أهمل ذلك أورثته حزناً لازماً، وكما كان التقدير: فما الآخرة لمن سعى لها سعيها وهو مؤمن إلا حق مشهور وسعي مشكور، عطف عليه قوله: {وما الحياة الدنيا} أي لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة {إلا متاع الغرور *} أي لهو في نفسه غرور لا حقيقة له إلا ذلك، لأنه لا يجوز لمن أقبل على التمتع إلا ذلك لأنه لا يسر بقدر ما يضر.

▲ تفسير الآية رقم [21]

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)}

ولما بين أن الدنيا خيال ومحال ليصـــرف الكملة من العباد عنها لســـفولها وحقارتها، وأن الآخرة بقاء وكمال ليرغبوا غاية الرغبة فيها وليشـــتاقوا كل الاشتياق لكمالها وشرفها وجلالها، أنتج ذلك قوله تعالى: {سابقوا} أي افعلوا في السعي لها بالأعمال الصالحة حق السعي فعل من يسابق شخصاً فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينه بطيئاً فسار هويناً، وأما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف، فآية آل عمران الآمرة بالمســارعة الأخص من المســابقة أبلغ لأنها للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصـــلاً ورأســاً، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصــوفين. وأما هذه ففي سـياق التصـديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته للذين آمنوا.

ولما كان المقام عظيماً، والإنسـان– وإن بذلك الجهد– ضـعيفاً، لا يسـعه إلا العفو سـواء كان سـابقاً أو لاحقاً من الأبرار والمقربين، نبه على ذلك بقوله في الســـابقين؛ {إلى مغفرة} أي ســـتر لذنوبكم عيناً وأثراً {من ربكم} أي المحســـن إليكم بأن رباكم وطوركم بعد الإيجاد بأنواع الأســـباب بأن تفعلوا أسباب ذلك بامتثال أوامره سبحانه واجتناب زواجره. ولما كان المقصود من المغفرة ما يترتب عليها من نتيجتها قال: {وجنة} أي وبسـتان هو من عظم أشـــجارها واطراد أنهارها بحيث يســـتر داخله. ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالسـعة قال: {عرضـها} أي فما ظنك بطولها. ولما كان السـياق كما بين للتجرد عن فضول الأموال فقط لأن الموعود به دون ما في آل عمران فأفرده وصـرح بالعرض فقال: {كعرض السـماء والأرض} أي لو وصـل بعضـها

ببعض، فآية آل عمران تحتمل الطول وجميع السـماوات والأرض على هيئتها، ويحتمل أن يكون ذلك على تقدير أن تقد كل واحدة منهما ويوصل رأس كل قدة برأس الأخرى، وتمتد جميع القدات إلى نهايتها على مثل الشـراك، وهذه الآية ظاهرها عرض واحد وأرض واحدة {أعدت} أي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسـر أمر {للذين آمنوا} أي أوقعوا هذه الحقيقة وهم من هذه الأمة إيقاعاً لا ريب معه ولو أنه على أدنى الوجوه فكانوا من السـابقين، وهذا يدل على أن الجنة موجودة الآن في آيات كثيرة، وأن الإيمان كاف في استحقاقها، وأحاديث الشفاعة مؤيدة لذلك {بالله} أي الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له بالإيمان {ورسله} فلم يفرقوا بين أحد منهم، فهذه الجنة غير مذكورة في آل عمران، وإن قيل: إن السماء هنا للجنس لكون السياق فيه الصديقون والشهداء كانت أبلغته تلك بالتصريح بالجمع وعدم التصريح بالعرض لكونها في سياق صرح فيه بالجهاد، وقد جرت السنة الإلهية بإعظام للمجاهدين لشدة الخطر في أمر النفس وصعوبة الخروج عنها وعن جميع المألوفات.

ولما كان من ذكر من الوعد بالمغفرة والجنة عظيماً لا سـيما لمن آمن ولو كان إيمانه على أعلى الدرجات ومع التجرد من جميع الأعمال، عظمه بقوله رداً على من يوجب عليه سبحانه شيئاً من ثواب أو عقاب: {ذلك} أي الأمر العظيم جداً {فضل الله} أي الملك الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه {يؤتيه من يشاء} ولعل التعبير بالمضارع للإشارة إلى هذا خاص بهذه الأمة التي هي أقل عملاً وأكثر أجراً، فإذا حسـدهم أهل الكتاب قال تعالى : هل

ظلمتكم من أمركم شـيئاً، فإذا قالوا : لا، لأن المصـروف من الأجر لجميع الطوائف على حسب الشرط، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء. {والله} أي والحال أن الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله {ذو الفضل العظيم *} أي الذي جل عن أن يحيط بوصفه العقول.

▲ تفسير الآيات رقم [22– 23]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)}

ولما كانت الدنيا مانعة عن العكوف إلى الآخرة بلذاتها وآلائها، وكانت كما أنها منزل رخاء هي دار بلاء، وكان قد اقتصـر سـبحانه في الآية السـالفة على الأول لأن السياق للإنفاق والترغيب في معالي الأخلاق وجعل المسابقة إلى السـعادة نتيجة الزهد فيها، تحركت النفس إلى السـؤال عما يعوق عن الخير من الضـرب بسـياط البلاء فقال مسـلياً عنه لأن النفوس أشـد تأثراً بالمكاره وأسـرع انفعالاً بالمقارع ومحققاً ومغرياً بالإعلام بأنه لم يكن فيها خير ولا شـر إلا بقضاء حتم في الأزل وقدر أحكم ووجب حين لم يكن غيره شـيء عز وجل، وذكر فعل المؤنث الجائز التذكير لكون التأنيث غير حقيقي إشـارة إلى عظم وقع الشـر : {ما أصـاب} وأكد النفي فقال: {من مصيبة} وهي في الأصل لكل آت من خير أو شـر إلا أن العرف خصـها بالشـر، وعم الساكن والمتحرك بقوله: {في الأرض} أي من منابتها ومياهها

ونحو ذلك {ولا في أنفسكم} أي بموت ومرض وعين وعرض {إلا} هي كائنة {في كتاب} أي مكتوب لأنه مقدر مفروغ من القدم، وبين أن الكتابة حدثت بعد أن كان هو سبحانه ولا شيء معه بإدخال الجارّ فقال: {من قبل أن نبرأها} أي نخلق ونوجد ونقدر المصيبة والأرض والأنفس، وهذا دليل على أن اكتساب العباد يجعله سبحانه وتقديره.

ولما كان ذلك متعذراً على المخلوق فهو أشد شيء تكرهاً له وقوفاً مع الوهم قال مؤكداً: {إن ذلك} أي الأمر الجليل وهو علمه بالشيء وكتبه له على تفاصيله قبل كونه، ثم سوقه النفوس والأسباب إلى إخراجه بعد التكوين على مقدار ما سبق علمه به وكتبه له {على الله} أي على ما له من الإحاطة بالكمال {يسير *} لأن علمه محيط بكل شيء وقدرته شاملة لا يعجزها شيء.

ولما بين هذا الأمر العظيم الدال على ما له سبحانه من الكبرياء والعظمة، بين ثمرة أعماله بقوله: {لكيلا} أي أعملناكم بأن على ما لنا من العظمة قد فرغنا من التقدير، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير، لأن الحزن لا يدفعه، ولا السرور يجلبه ويجمعه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ ليقلّ همك ما قدر يكن» لأجل أن لا {تأسوا} أي تحزنوا حزناً كبيراً زائداً {على} ما في أصل الجبلة، يوصل إلى المبلغ بتعاطي أسبابه والتمادي فيها ليتأثر عنها السخط وعدم الرضا بالقضاء، فربما جر ذلك إلى أمر عظيم {ما فاتكم} من المحبوبات الدنيوية {ولا تفرحوا} أي تسروا سروراً يوصل إلى البطر بالتمادي مع ما في أصل الجبلة {بما آتاكم}

أي جاءكم منها على قراءة أبي عمرو بالقصـــــر، وأعطاكم الله على قراءة الباقين بالمد، وهي تدل على أن النعم لا بد في إيجادها وإبقائها من حافظ، ثم إنها لو خليت ونفسها فاتت لأنه ليس من ذاته إلا العدم، وقد بين سبحانه أن في تقديره هذا وكتبه من السـر أن من وطن نفســه على فقد ما لديه من أعيان ومعان قبل أن تأمره بالعدم والوجدان، فلم يغيره ذلك عن المســـــابقة المذكورة، فالمنهي عنه التمادي مع الحزن حتى يخرج عن الصبر ومع الفرح حتى يلهي عن الشـكر، لا أصـل المعنى لأنه ليس من الأفعال الاختيارية، قال جعفر الصـادق: ما لك تأسف على مفقود ولا يرده إليك الفوت، وما لك تفرح بوجود ولا يتركه في يدك الموت– انتهى، ولقد عزى الله المؤمنين رحمة لهم في مصـــائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أســـفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحهم بحصـــــول المحبوب لا يفيدهم، ولأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بادخاره عند الله، وذلك بأن يقول في المصيبة: قدر الله وما شاء الله فعل ويصير في النعمة هكذا قضى، وما أدري ما مثله

{هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر} [النمل: 40] فلا يزال خائفاً عند النقمة راجياً أثر النعمة، قائلاً في الحالين: ما شــاء الله كان وما لم يشــأ لم يكن، وأكمل من هذا أن يكون مســـــروراً بذكر ربه له في كلتا الحالتين كما قال القائل:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن *** ما كان قلبي للصبابة معهدا

وهذه صـــــفة المتحررين من رق النفس، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة، فمن لم تغيره المضـار ولم يتأثر بالمسـار فهو سيد وقته، أشـار إليه

القشيري. ولما كان الإمعان في استجلاب الأسى إنما هو من اليأس ونسيان النعم وزيادة الفرح الموصـــــل إلى المرح إنما يجره الكبر والمرح، وكان في أوصــاف أهل الدنيا التفاخر، قال تعالى مبيناً أن المنهي عنه سـابقاً التمادي مع الجبلة في الحزن والفرح، عاطفاً على ما تقديره: {فإن الله لا يحب كل يؤوس كفور} {والله لا يحب} أي لا يفعل فعل المحب بأن يكرم {كل مختال} أي متكبر نظر إلى ما في يده في الدنيا {فخور *} قال القشـيري: الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها، والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر.

▲ تفسير الآيات رقم [24– 25]

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)}

ولما كان من جملة صـــــفات المختال المكاثر بالمال البخل، وكان قد تقدم الحث على الإنفاق، وكان ما يوجبه لذة الفخار والاختيال التي أوصــل إليها المال حاملة على البخل خوفاً من الإقتار الموجب عند أهل الدنيا للصـغار، قال تعالى واصـــفاً للمختال أو {لكل}: {الذين يبخلون} أي يوجدون هذه الحقيقة مع الاسـتمرار {ويأمرون الناس} أي كل من يعرفونه {بالبخل} إرادة أن يكون لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة فيحامون عنهم أو أنهم يوجبون بأعمالهم من التكبر والبطر في الأموال التي حصــلها لهم البخل اســتدراجاً

من الله لهم بخل غيرهم لأنه إذا رآهم عظموا بالمال بخل ليكثر ماله ويعظم، وذلك كله نتيجة فرحهم بالموجود وبطرهم عند إصـابته، فكانوا آمرين بالبخل لكونهم أسباباً له والسبب كالآمر في إيجاد شيء.

ولما كان التقدير : فمن أقبل على ما ندب إليه من الإقراض الحسـن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الله شـكور حليم، عطف عليه قوله ذاماً للبخل محذراً منه: {ومن يتول} أي يكلف نفسـه من الإعراض ضـد ما في فطرته من محبة الخير والإقبال على الله {فإن الله} أي الذي له جميع صـفات الكمال {هو} أي وحده {الغني} أي عن ماله وإنفاقه وكل شـيء إلى الله مفتقر {الحميد *} أي المسـتحق للحمد وسـواء حمده الحامدون أم لا، وقراءة نافع وابن عامر بإسقاط هو مفيدة لحصـر المبتدأ في الخبر للتعريف وإن كانت قراءة الجماعة آكد.

ولما ظهرت الأدلة حتى لم يبق لأحد علة، وانتشـر نورها حتى ملأ الأكوان، وعلا علواً تضاءل دون عليائه كيوان، وكان فيما تقدم شرح مآل الدنيا وبيان حقيقتها، وأن الأدمي إذا خلي ونفسـه ارتكب ما لا يليق من التفاخر وما شـاكله وترك ما يراد به مما دعي إليه من الخير جهلاً منه وانقياداً مع طبعه، وكان ختم الآية السابقة ربما أوهم المشاركة، قال تعالى نافياً ذلك في جواب من توقع الإخبار عن سـائر الأنبياء : هو أوتوا من البيان ما أزال اللبس، مؤكداً لإزالة العذر بإقامة الحجج بإرسال الرسل بالمعجزات الحاضرة والكتب الباقية، معلماً أن من أعرض كلف الإقبال بالسـيف، فإن الحكيم العظيم تأبى عظمته وحكمته أن يخلي المعرض عن بينة ترده عما هو فيه،

وقسر يكفيه عما يطغيه: {لقد أرسلنا} أي بما لنا من العظمة {رسلنا} أي الذين لهم نهاية الإجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة إلى الأنبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، ومن الأنبياء إلى الأمم {بالبينات} أي الموجبة للإقبال في الحال لكونها لا لبس فيها أصلاً، ودل على عظمة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بأنهم لعلو مقاماتهم بالإرسال كأنهم أتوا إلى العباد من موضع عال جداً فقال: {وأنزلنا} بعظمتنا التي لا شيء أعلى منها {معهم الكتاب} أي الحافظ في زمن الاستقبال في الأحكام والشرائع.

ولما كان فهم الكتاب ربما أشكل فإنه يحتاج إلى ذهن صقيل وفكر طويل، وصبر كبير وعلم كثير– قال الرازي: وبهذا قيل: لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب، عقبه بما يشترك في معرفته الكبير والصغير، والجاهل والنحرير، وهو أقرب الأشياء إلى الكتاب في العلم بمطابقة الواقع لما يراد فقال: {والميزان} أي العدل والحكمة، ولعله كل ما يقع به التقدير حساً أو معنى، وتعقيبه به إشارة إلى أن عدم زيغه لعدم حظ ونحوه، فمن حكم الكتاب خالياً عن حظ نفس وصل إلى المقصود {ليقوم الناس} أي الذين فيهم قابلية التحرك إلى المعالي كلهم {بالقسط} أي العدل الذي لا مزيد عليه لانتظام جميع أحوالهم، هذا لمن أذعن للبينات لذات من أقامها أو للرغبة فيها عنده.

ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجباً للرد عن الفساد بأنواع الجهاد، قال مهدداً وممتناً ترغيباً وترهيباً معبراً عن الخلق بالإنزال تشريفاً

وتعظيماً: {وأنزلنا} أي خلقنا خلقاً عظيماً بما لنا من القدرة {الحديد} أي المعروف على وجه من القوة والصـــلابة واللين والحدة لقبول التأثير يعد به كالبائن لما في الأرض، فلذلك ســـمي إيجاده إنزالاً، ولأن الأوامر بالإيجاد والإعدام تتزل من الســماء على أيدي الملائكة لأن الســماء محل الحوادث الكبار، والبدائع والأسرار، لأن الماء الذي هو أصله وأصل كل نام ينزل من السماء وتكون الأرض له بمنزلة الرحمن للنطفة.

ولما وقع التشـوف إلى سـبب إنزاله، قال: {فيه بأس} أي قوة وشـدة وعذاب {شـديد} لما فيه من الصـلابة الملائمة للمضـاء والحدة {ومنافع للناس} بما يعمل منه من مرافقهم ومعاونهم لتقوم أحوالهم بذلك، قال البيضـاوي: ما من صـنعة إلا والحديد آلتها. ولما كان التقدير: ليعلم الله من يعصـيه ويخذل أولياءه، بوضـع بأسـه في غير ما أمر به نصـرة لشـيطانه وهواه وافتتانه، عطف عليه قوله: {وليعلم الله} أي الذي له جميع العظمة علم شـهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيماً له لأنه شارعه فقال: {من ينصره} أي يقبل مجداً على الاستمرار على نصر دينه {ورسله} بالذب عنهم والدعاء إليهم، كائناً ذلك النصـر {بالغيب} من الوعد والوعيد، أي بسـبب تصـديق الناصـر لما غاب عنه من ذلك، أو غائباً عن كل ما أوجب له النصـرة، وروي عن ابن عباس رضـي الله عنهما أنه قال: ينصـرونه ولا يبصـرونه- انتهى. فلم يدع سـبحانه في هذه الآية لأحد عذراً بالرسـل الذين هم الجنس مع تأييدهم بما ينفي عنهم اللبس، والكتاب العالي عن كلام الخلق، والعقل

الذي عرف العدل، والسلاح الذي يرد أولي الجهل، كما قال صلى الله عليه وسلم:

»بعثت بين يدي الساعة بالسيف» فبيان الشرائع بالكتاب، وتقويم أبواب العدل بالميزان، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها، فالملك والدين توأمان، فالدين بلا ملك ضائع، والملك من غير دين باطل، والسلطان ظل الله في الأرض، فظواهر الكتاب للعوام، ووزن معارفه لأهل الحقائق بالميزان، ومن خرج عن الطائفتين فله الحديد وهو السيف، لأن تشويش الدين منه– نبه عليه الرازي.

ولما كان طالب النصرة مظنة لتوهم الضعف، قال نافياً لذلك مؤكداً قطعاً لتعنت المتعنتين مظهراً للاسم الأعظم إشارة إلى أن من له جميع صفات الكمال لا يمكن أن تطرقه حاجة: {إن الله} أي الذي له العظمة كلها. ولما لم يكن هنا داع إلى أكثر من هذا التأكيد: بخلاف ما أشير إليه من الإخراج من الديار المذكورة في الحج ونحوه، قال معلماً بأنه غني عن كل شيء معرياً الخبر من اللام: {قوي} أي فهو قادر على إهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أولياءه {عزيز *} فهو غير مفتقر إلى نصر أحد، وإنما دعا عباده إلى نصر دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور، ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي، ببنائه هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالأسباب.

▲ تفسير الآيات رقم [26- 27]

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26)

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)}

ولما عم الرسل جامعاً لهم في البينات، فكان السامع جديراً بأن يتوقع التعيين، وخص من بينهم من أولي العزم أبوين جامعين في الذرية والرسالة، لأن ذلك أنسب لمقصود السورة لتبيين فضل محمد صلى الله عليه وسلم الذي عم برسالته عموماً لم يكن لأحد غيره، فنوح عليه السلام أرسل لأهل الأرض لكونهم كانوا على لسان واحد، وعموم إبراهيم عليه السلام بأولاده عليهم السلام ونص بعدهما على عيسى عليه السلام بما له من عموم الرسالة إلى بني إسرائيل بالنسخ والتشريع، ثم من نزوله في هذه الأمة بالتقرير والتجديد فقالك {ولقد أرسلنا} أي بما لنا من صفات الكمال والجمال والجلال {نوحاً} الأب الثاني، وجعلنا الأغلب على رسالته مظهر الجلال {وإبراهيم} أبا العرب والروم وبني إسرائيل الذي أكثر الأنبياء من نسله، وجعلنا الأغلب على رسالته مجلى الإكرام {وجعلنا} بما لنا من العظمة {في ذريتهما النبوة} المقتضية للوصلة بالملك الأعظم لتنفيذ الأوامر {والكتاب}

الجامع للأحكام الضـــابط للشـــرائع بأن اســـتنبأنا بعض ذريتهما وأنزلنا إليهم الكتب فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدلٍ إليهما بأمتن الأســـــباب وأعظم الأنساب.

ولما كان مظهر العظمة مقتضـــياً لإشـــقاء من أريد إشـــقاؤه مع عدم المبالاة به، كائناً من كان، سواء اتصل بالأولياء أو الأعداء لئلا يأمن أحد فيقع في الخســـران أو ييأس أحد فيلزم الهوان قال: {فمنهم} أي ذرية هذين الصـــنفين {مهتد} هو بعين الرضـــا منا- وهو من لزم طريق الأصـــفياء واســـتمســـك بعهدهم ولم يزغ أصلاً وإن كان من أولاد الأعداء.

ولما كان من زاغ بعد تذكيره بالكتب والرسـل، كان مسـتحقاً للمبالغة في الذم ولو أنه واحد فكيف إذا كان كثيراً، نبه بتغيير الســـــياق على ذلك وعلى أن الأغلب الضلال فقال: {وكثير منهم} أي الذرية الموصوفين {فاسقون *} هم بعين الســـخط وإن كانوا أولاد الأصـــفياء وهم من خالف الأولياء بمنابذة أو ابتداع أو زيغ عن سبيلهم بما لم ينهجوه من تفريط وإفراط.

ولما كان من مقاصد هذه السورة العظمى الإعلام بنسخ الشرائع كلها بشريعة هذا النبي الفاتح العام الرســـالة لجميع الخلائق صـــلى الله عليه وســـلم، قال مشـيراً إلى عظمة الإرسـال والرسـل بأداة التراخي: {ثم قفينا} أي بما لنا من العظمة تقفية لها من العظمة ما يجل وصــــــفه {على آثارهم} أي الأبوين المذكورين ومن مضـــى قبلهما من الرسـل، ولا يعود الضـمير على {الذرية} لأنها باقية مع الرسل وبعدهم {برسلنا} أي فأرسلناهم واحداً في أثر واحد بين ما لا يحصى من الخلق من الكفرة محروسين منهم في الأغلب بما تقتضيه

العظمة، لا ننشـــئ آثار الأول منهم حتى نرســـل الذي بعده في قفاه، فكل رســـول بين يدي الذي بعده، والذين بعده في قفاه- فهو مقف له لأن الأول ذاهب إلى الله والثاني تابع له، فنبينا صـلى الله عليه وسـلم أعرق الناس في هذا الوصف لأنه لا نبي بعده، ولهذا كان الوصف أحد أسمائه.

ولما كان عيسـى عليه السـلام أعظم من جاء بعد موسـى عليه السـلام من بني إسرائيل فهو الناسخ لشريعته والمؤيد به هذا النبي الخاتم صلى الله عليه وسـلم في تجديد دينه وتقرير شـريعته، وكان الزهد والرأفة والرحمة في تابعيه في غاية الظهور مع أن ذلك لم يمنعهم من القســوة المنبهة ســابقاً على أن الموجب لها طول الأمد الناشــئ عنها الإعراض عن الآيات الحاضـرة معه والكتاب الباقي بعده، خصــه بالذكر وأعاد العامل فقال: {وقفينا} أي أتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تدرس {بعيســى ابن مريم} وهو آخر من قبل النبي الخاتم عليهم الصلاة والسلام، فأمته أول الأمم بالأمر باتباعه صلى الله عليه وسلم {وآتيناه} بما لنا من العظمة {الإنجيل *} كتاباً ضابطاً لما جاء به مقيماً لملته مبيناً للقيامة مبشــراً بالنبي العربي موضـــحاً لأمره مكثراً من ذكره {وجعلنا} لعزتنا {في قلوب الذين اتبعوه} أي بغاية جهدهم، فكانوا على مناهجه {رأفة} أي أشد رقة على من كان يتسبب إلى الاتصال بهم {ورحمة} أي رقة وعطفاً من لم يكن له سـبب في الصـلة بهم كما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصـلابة فهم أعزة على الكافرين، وترتيب الوصـفين هكذا أدل دليل على أنهما لم يقصـد بهما مراعاة الفواصـل في {رؤف رحيم}

كما قاله بعض المفسرين وتقدم في آخر براءة أن ذلك قول لا يحل التصويب إليه ولا التعويل عليه وإن قاله من قال {ورهبانية} أي أموراً حاملة على الرهبية والتزيي بزيها والعمل على حسبها مبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس.

ولم قدم المعمول لفعل غير مذكور ليدل عليه بما يفسره ليكون مذكوراً مرتين تأكيداً له إفهاماً لذم نفس الابتداع، أتبعه المفسر لعامله فقال: {ابتدعوها} أي حملوا أنفسهم على عملها والتطويق بها من غير أن يكون لهم فيها سلف يعلمونه أو يكون بما صرح به كتابه وإن كانت مقاصده لا تأباها فاعتزلوا لأجلها الناس، وانقطعوا في الجبال على الاستئناس، وكانت لهم بذلك أخبار شائعة في النواحي والأمصار، وفي التقديم على العامل سر آخر وهو الصلاحية للعطف على ما قبلها لئلا يتوهم في لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها {ما كتبناها} أي فرضناها بعظمتنا {عليهم} في كتابهم ولا على لسان رسولهم {إلا} أي لكن ابتدعوها {ابتغاء} أي لأجل تكليفهم أنفسهم الوقوع بغاية الاجتهاد في تصفية القلوب وتهذيب النفوس وتزكية الأعمال على {رضوان الله} أي الرضا العظيم من الملك الأعظم، وساق المنقطع مساق المتصل إشارة إلى أنه مما يرضي الله، وأنه ما ترك فرضها عليهم إلا رحمة لهم لأجل صعوبتها، وأنه صيرها بعد إلزامهم بها كالمكتوبة، فيكون التقدير حينئذ: إلا لأجل أن يبتغوا رضوانه على وجه الثبات والدوام، قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري في كتابه «فتوح مصر والمغرب» : فلما أن أغرق الله عز وجل فرعون وجنوده كما حدثنا

هانئ بن المتوكل عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن تبيع قال: استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة لموسى عليه السلام في الرجوع إلى أهله وماله بمصر فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا مع رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهب، وكان يقال لهم الشيعة، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله عز وجل، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام.

ولما تسبب عن صعوبتها أنهم أضاعوها بالتقصير عن شؤونها والسفول عن عليائها قال: {فما رعوها} أي حفظوها كلهم بحفظ من هو مرتاع من خوف ضياعها {حق رعايتها} بصون العناية في رعاية الأعمال والأحوال والأقوال، فصون الأعمال توفيرها لتحقيرها من غير التفات إليها، ورعاية الأحوال عند الاجتهاد من أتاه والحال دعوى، ورعاية الوقت الوقوف مع حضور على بساط شهود الجلال– ذكره الرازي. بل غلبت عليهم صفات البشر فقصر بعضهم عن عالي مداها، وانحطوا عن شامخ ذراها، هذا تنفير عظيم عن البدع، وحث شديد على لزوم ما سنه الله وشرع، وتحذير من التشديد، فإنه لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه وهو الترحال إلى البدعة ولهذا أكثر في أهل الرهبانية المروق من الدين بالاتحاد والحلول وغير ذلك من البلايا ولو كان يظهر أن التشديد والتعمق خير لأن الشارع الذي أحاط علماً بما لم يحط به نهى عنه، وقد أفادت التجربة أنه قد يغر لأن هؤلاء ابتدعوا ما أرادوا الخير، فكان داعياً لكثير منهم إلى دار البوار، وفيه أيضاً حث عظيم على المداومة على ما اعتيد من الأعمال الصالحة خصوصاً، ما عمل النبي صلى الله

عليه وســـلم عملاً إلا دوام عليه، وكان ينهى عن التعمق في الدين، ويأمر بالرفق والقصد.

ولما كانت متابعة النفس في التقصــير بالإفراط قد توصــل إلى المروق من الدين فيوجب الكفر فيحط على الهلاك كله، أشــار إلى ذلك بقوله: {فآتينا} أي بما لنا من صـــفات الكمال {الذين آمنوا} أي اســـتمروا على الإيمان الكامل، ولعل في التعبير بالماضــي بعد إرادة التعميم للأدنى والأعلى إشــارة إلى إن المتعمق بين إيمان وكفر لا تجرد معصيته كما أشار إليه ختم الآية فهو في غاية الذم للتعمق والمدح للاقتصــاد {منهم} أي من هؤلاء المبتدعين لأنهم رعوها حق رعايتها ووصــلوا إيمانهم بعيســى ومن قبله عليهم الصــلاة والســلام بإيمانهم بمحمد صــلى الله عليه وســلم الذي دعا إليه الخروج عن النفس الذي هو روح الرهبانية بموافقتهم لما في كتابهم من البشـــائر به {أجرهم} أي اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف.

ولما كانت متابعة الأهواء تكســب صــفات ذميمة تصــير ملكات راســخة للأنفس، أشــار إلى ذلك بالعدول عن النهج الأول فقال: {وكثير منهم} أي هؤلاء الذين ابتدعوا فضــيعوا {فاسـقون *} أي عريقون في وصــف الخروج عن الحدود التي حدها الله تعالى، روى البغوي من طريق الثعلبي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من آمن بي فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» انتهى. ومثل هذه الرهبانية في أنها لا تأباها قواعد الدين ما يفهمه بعض العلماء من الكتاب والسنة فيتذكره، فيكون أخذنا له من الأصول التي نبه عليها لا منه،

كما أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يفعلون أشياء فإن قررهم النبي صلى الله عليه وسلم كانت شرعاً لنا وكنا آخذين لها من تفسيره صلى الله عليه وسلم لا منهم، فإن من ملكه الله رتبة الاجتهاد في شيء وأمكنه فيه من القواعد فأداه اجتهاده إلى أن هذا مندوب إليه مرغوب فيه مثلاً، كان ذلك بما يشهد له من قواعد الدين بمنزلة ما قاله الصحابة رضي الله عنهم فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا فرق بين أن يقرره النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه أو بقواعد شريعته، ومهما كان مقرراً بقواعد شرعه كان عليه أمره، ومهما لم يكن مقرراً بها كان مما ليس عليه أمره فهو رد على قائله، فهذا فرق بين البدع الحسنة والبدع القبيحة– والله الموفق، وذكر ابن برجان تنزيل هذا الحديث الذي فيه «لتتبعن سنن من كان قبلكم» فذكر أن أصحاب عيسى عليه السلام عملوا بعده بالإنجيل حتى قام فيهم ملك بدل كتابهم، وشايعه على ذلك روم ويونان، فضعف أهل الإيمان، فاستذلوهم حتى هربوا إلى البراري، وعملوا الصوامع وابتدعوا الرهبانية، وكذلك كان في هذه لتصديق الحديث الشريف فإنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعه خلفاؤه بإحسان، فلما مضت الخلافة الراشدة تراكمت الفتن كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان، ورجم البيت العتيق بحجارة المنجنيق وهدم، وقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما واستبيحت مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام، وقتل خيار من فيها فرأى المسلمون العزلة واجبة، فلزموا الزوايا والمساجد وابتنوا الروابط على سواحل البحر وأخذوا في الجهاد للعدو والنفوس، وعالجوا

تصفية أخلاقهم ولزموا الفقر أخذاً من أحوال أهل الصفة، وتسموا بالصوفية وتكلموا على الورع والصـــــدق والمنـازل والأحوال والمقـامـات فهؤلاء وزان أولئك– والله الموفق.

ذكر ما في الإنجيل ما من الحكم التي توجب الزهد في الدنيا والإقبال على الله التي يصح تمسك أهل هذه الرهبانية بها: قال متى وغيره وأغلب السياق لمتى: إن أخطأ عليك أخوك فاذهب أعتبه وحدكما، فإن ســـمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يســـمع منك فخذ معك واحداً أو اثنين، لأن من فم شـــاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة، وإن لم يســـمع منهم فقل للبيعة، فإن لم يسمع من البيعة فيكون عندك كالوثني والعشار، الحق أقول لكم، وقال لوقا: انظروا الآن إن أخطأ إليك أخوك فانهه، فإن تاب فاغفر له، فإن أخطأ إليك سبع دفعات في اليوم ورجع إليك سبع دفعات يقول لك: أنا تائب، فاغفر له، وقال متى: حينئذ جاء إليه بطرس وقال له: إذا أخطأ إليّ أخي لم أغفر له سبع مرات، قال: ليس أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة، ولهذا يشبه ملكوت السماوات ملكاً أراد أن يحاسب عبيده، فلما بدأ بمحاسبتهم قدم إليه عبد مديون عليه جملة وزنات، ولم يكن معه ما يوفي، فأمر ســـيده أن تباع امرأته وبنوه وكل ما له حتى يوفي، فخر ذلك العبد له ساجداً قائلاً: يا رب، ترأف عليّ تأن، أوفك كل مالك، فتحنن عليه ســـيده وترك له كل ما عليه، فخرج ذلك العبد فوجد عبداً من أصـــدقائه عليه مائة دينار فأمســكه وخنقه وقال: أعطني ما عليك، فخر ذلك العبد على رجليه وطلب إليه قائلاً: ترأف عليّ فأنا أعطيك مالك، فأبى ومضـــى ورتكه في الســـجن حتى يوفي

الدين، فرأى العبد أصحابه فحزنوا عليه جداً وأعلموا سيده بكل ما كان منه، حينئذ دعاه سيده وقال له: أيها العبد الشرير! كل ما كان عليك تركت بذلك لأنك سألتني، ما كان ينبغي لك أن ترحكم ذلك العبد صاحبك كرحمتي إياك، وغضب سيده ودفعه إلى المعذبين حتى يوفي جميع ما عليه، هكذا أبي السماوي يصنع بكم إن لم تغفروا لإخوانكم سيئاتهم من كل قلوبكم، فلما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم يهود عبر الأردن فتبعه جمع كثير فأبرأهم هناك، قال لوقا: فلما أكمل أيام صعوده أقبل بوجهه إلى يروشليم، وأرسل مخبرين قدام وجهه فمضوا ودخلوا قرية السامرة، لكيما يعدوا له فلم يقبلوه فقال تلميذاه يعقوب ويوحنا: يا رب تريد أن نقول فتنزل عليهم نار من السماء فتهلكهم كما فعل إليا، فالتفت فنهرهما قائلاً: لستما تعرفان أي روح أنتما، إن ابن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل يحيي، ومضى إلى قرية أخرى، وقال متى: حينئذ قدم إليه صبيان ليضع يده عليهم ويباركهم فنهرهم التلاميذ فقال لهم يسوع: جعوا الصبيان ولا تمنعوهم أن يأتوا إليّ لأن ملكوت السماوات لمثل هؤلاء، ووضع يده عليهم وبارك لهم، وقال مرقس: الحق أقول لكم، إن من لا يقبل ملكوت الله مثل صبي لا يدخلها، واحتضنهم ووضع يده عليهم وباركهم، وقال متى: ومضى من هناك وجاء إليه واحد وقال: يا معلم صالح– وقال مرقس: أيها الملعم الصالح– ما أعمل من الصلاح لأرث الحياة الدائمة، قال له: لماذا تقول: صالح، ولا صالح إلا الله الواحد، إن كنت تريد أن تدخل الحياة احفظ الوصايا، قال له: وما هي؟ قال يسوع: لا تقتل ولا تسرق ولا تزن ولا تشهد الزور، وقال مرقس:

لا تجر، أكرم أباك وأمك– حب قريبك مثلك، قال له الشـــاب : كل هذا قد حفظته من صــغري، قال له يســوع: إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب، وقال مرقس : فنظر إليه يســـوع وأحبه، وقال : تريد أن تكون كاملاً، واحدة بقيت عليك: امض وبع كل شــيء لك وأعطه للمسـاكين ليكون لك كنز في السـماء وتعال اتبعني، فلما سـمع الشـاب الكلام مضــى حزيناً لأنه كان له مال كثير، فقال يســـوع لتلامذته: الحق أقول لكم! إنه يعســـر على الغني الدخول إلى ملكوت السماء، وأيضاً أقول لكم: إنه أسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من غني يدخل ملكوت السـماوات، فلما سـمع التلاميذ بهتوا جداً وقالوا : من يقدر أن يخلص، فنظر يســـوع وقال لهم : أما عند الناس فلا يستطاع هذا، وأما عند الله فكل يستطاع، حينئذ أجاب بطرس وقال له: هو ذا نحن قد تركنا كل شـــيء وتبعناك، فماذا عســـى أن يكون لنا، قال لهم يســـوع : الحق والحق أقول لكم ! أنتم الذين اتبعتموني في الجبل الآتي إذا جلس ابن الإنسـان على كرسـي مجده تجلسـون أنتم على اثني عشر كرسياً، تدينون اثني عشر سبط بني إسرائيل، كل ما ترك بنين أو أخاً أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو بيتاً أو حقلاً من أجل اسـمي يأخذ مائة ضـعف ويرث حياة الأبد، وقال لوقا : ما من أحد ترك منزلاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو مالاً من أجل ملكوت الله إلا وينال العوض أضـــعافاً كثيرة في هذا الزمان وفي الدهر الآتي حياة الأبد، وقال متى وغيره: كثيراً أولون يصيرون آخرين: وأخرون يصيرون أولين، يشبه ملكوت السماوات إنساناً رب بيت خرج الغداة ليستأجر فعله لكرمه، فشارك الأكرة على دينار واحد في اليوم– إلى آخر ما

مضى في الأعراف من البشارة بأمة محمد صلى الله عليه وسلم في مثل الفعلة في الكرم الذي فضل آخرهم وهو العامل قليلاً على من عمل أكثر النهار وقد ساقه ابن برجان في آخر تفسير سورة الحديد عن الإنجيل بعبارة أخرى تفسيراً كثيراً من عبارة النسخة التي نقلت ذاك منها، فأحببت أن أذكر عبارة ابن برجان هنا تكميلاً للفائدة، قال : وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: وكثيراً يتقدم الآخرون الأولون ويكون الأولون ساقة الآخرين: ولذلك يشبه ملكوت السماوات برجل ملي خرج في استئجار الأعوان لحفر كرم في أول النهار، وعامل كل واحد في نهاره على درهم ثم أدخلهم كرمه، فلما كان في الساعة الثالثة بصر لغيرهم في الرحاب لا شغل لهم فقال: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، ففعلوا، ثم فعل مثل ذلك في الساعة السادسة والتاسعة، فلما كان في الساعة الإحدى عشرة وجد غيرهم وقوفاً فقال لهم: لم وقفتم هنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: إنا لم يستأجرنا أحد، فقال لهم: اذهبوا أنتم سآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار قال لوكيله: ادع الأعوان وأعطهم أجرتهم وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الإحدى عشرة وأعطى كل واحد منهم درهماً، فأقبل الأولون وهم الذين يرجون الزيادة، فأعطى كل واحدٍ منهم درهماً، فاستذكروا ذلك على صاحب الكرم وقالوا: سويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحرارته، فأجاب أحدهم وقال: لست أظلمك يا صديق، أما عاملتني على درهم فخذ حقك وانطلق فإنه يوافقني أن أعطي الآخر كما أعطيتك، أفلا يحل لي ذلك ؟ وإن كنت

حسوداً فإني أنا رحيم، ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقة الآخرين فالمدعوون كثير، والخيرون قليل، وذكر ابن برجان أن الساعة السادسة لعيسى عليه السلام وأصحابه في أول الأمر والتاسعة لمحمد صلى الله عليه وسلم والحادية عشرة لآخر الزمان- كأنه يعني ما بعد الدجال من أيام محمد صلى الله عليه وسلم التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً، ولهذا جعلهما النبي صلى الله عليه وسلم التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً، ولهذا جعلهما النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيح شيئاً واحداً من العصر إلى غروب الشمس، ثم قال متى في بقية ما مضى من الإنجيل في النسخة التي نقلت منها عقب ما تقدم أنه في الأعراف: فصعد يسوع إلى يروشليم وأخذ الاثني عشر، حينئذ جاءت إليه أم ابني زبدي- هما يعقوب ويوحنا- مع ابنيها وسجدت له، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت: أن يجلس ابناي أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك، أجاب يسوع: أما جلوسهما عن يميني ويساري فليس لي بل للذي أعده لهم ربي، فلما سمع العشرة تقمقموا على الآخرين- وقال مرقس: على يعقوب ويوحنا- فدعاهم يسوع وقال لهم: أما علمتم أن رؤساء الأمم يسودونهم وعظماءهم مسلطون عليهم، ليس هكذا يكون فيكم، لكن من أراد أن يكون فيكم كبيراً فيكون لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فيكون لكم عبداً، وقال مرقس: فيكون آخر للكل وخادماً للجميع، كذلك ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، ويبذل نفسه فداء عن كثير، فلما خرج من أريحا تبعه جمع كثير وإذا أعميان جالسان على الطريق فسمعا أن يسوع مجتاز فصرخا قائلين:

ارحمنا يا رب يا ابن داود، فوقف يســوع ودعاهما وقال لهما : ما تريدان أن أفعل لكما، قالا له : يا رب، أن تفتح أعيننا، فتحنن يســـوع ولمس أعينهما وللوقت أبصـــرت أعينهما وتبعاه، وعبارة مرقس عن ذلك : وجاء إلى أريحا وخرج من هناك وتبعه تلاميذه وجمع كثير وإذا طيماس بن طماس الأعمى جالس يسأل عن الطريق– وقال لوقا: يتوسل– فسمع الجمع المجتاز فسأل: ما هذا، فأخبروه أن يسوع الناصري جاء، وقال مرقس: فلما سمع بأن يسوع مقبل بدأ يصـــيح ويقول : يا يســـوع الناصـــري ابن داود ارحمني، فانتهروه ليســكت، فازداد صــياحاً قائلاً: يا رب يا ابن داود، ارحمني، فوقف يســوع وقال : ادعوه، فدعي الأعمى وقالوا له : ثق وقم فإنه يدعوك، وطرح ثوبه ونهض وجاء إلى يسوع فأجابه يسوع وقال له: ما تريد أن أصنع بك؟ فقال له الأعمى: يا معلم، وقال لوقا : يا رب– أن أبصـر ، فقال له يسـوع: اذهب إيمان خلصــك، وللوقت أبصــر ، وتبعه في الطريق– قال لوقا : يمجد الله– وكان جميع الشعب الذين رأوه يسبحون الله.

وقال أيضاً: وكان بينما هو منطلق إلى يروشليم اجتاز بين السامرة والجليل، وفيما هو داخل إلى إحدى القرى اسـتقبله عشـرة رجال برص فوقفوا من بعيد ورفعوا أصواتهم قائلين: يا يسوع الملعم ارحمنا! فنظر إليهم وقال لهم: اذهبوا وأروا أنفســـكم للكهنة، وفيما هم منطلقون طهروا، فلما رأى أحدهم أنه قد طهر رجع بصــوت عظيم بمجد الله وخر على وجهه عند رجليه شــاكراً له، وكان سـامرياً، أجاب يسـوع وقال: أليس العشـرة قد طهروا فأين التسـعة، ألم

يجدوا ليرجعوا ويمجدوا الله ما خلا هذا الغريب، ثم قال له: قم فامض، إيمانكم خلصك.

قال متى: ولما قربوا من يروشليم وجاؤوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون– وقال مرقس: عند باب فاجي وبيت عنيا جانب طور الزيتون– قال متى: حينئذ أرسل يسوع اثنين من تلاميذه: وقال لهما: اذهبا إلى القرية التي أمامكما فتجدان أتانه مربوطة وجحشاً معهما فحلاهما وائتياني بهما! فإن قال لكما أحد شيئاً فقولا له: إن الرب محتاج إليهما! فهو يرسلهما للقوت، كان هذا ليتم ما قيل في النبي القائل قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك متواضعاً راكباً على أتانه وجحش ابن أتانة، فذهب التلميذان وصنعا كما أمرهما يسوع، فأتيا بالأتانة والجحش وتركوا ثيابهم عليهما، وجلس معهما، وجمع كثير فرشوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق، وعبارة مرقس عن ذلك: تجد أن جحشاً مربوطاً لم يركبه أحد من الناس قط، فحلاه وائتيا به، فإن قال لكما أحد: ما تفعلان بهذا؟ فقولا: إن الرب محتاج إليه من ساعة يرسله، فذهبا ووجدا الجحش مربوطاً عند الباب خارجاً عن الطريق فحلاه فقال لهما قوم من القيام هناك: ما تصنعان؟ فقالا لهم كما قال يسوع فتركوهما، وجاءا بالجحش إلى يسوع فألقوا عليهم ثيابهم وجلس عليهم وكثير بسطوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الحقل وفرشوها في الطريق.

قال متى: والجمع الذي تقدمه والذي تبعوا صرخوا قائلين: أوصنا يا ابن داود مبارك الآتي باسم الرب، قال مرقس: ومباركة المملكة الآتية باسم الرب

لأبينا داود أوصـــنا في العلاء، وقال لوقا : وكان لما قرب من منحدر جبل الزيتون بدأ جمع الملأ والتلاميذ يفرحون ويســـبحون الله ويمجدونه بجميع الأصوات من أجل القوات التي نظروا قائلين: تبارك الملك الآتي باسم الرب والسـلامة في السـماء والمجد في العلا، وقوم من الفريسـيين من بين الجمع قالوا له : ما معلم انتهر تلاميذك، فقال لهم : إن ســكت التلاميذ نطقت الحجارة، فلما قرب نظر المدينة وبكى عليها وقال : لو علمت في هذا اليوم ما لك فيه من الســلامة، فأما الآن فإنه قد خفي عن عينيك، وسـوف تأتي أيام تلقى أعداؤك معلمك ويحيطون بك ويضـيقون عليك من كل موضـع ويقتلونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً، وقال متى : فلما دخل إلى يروشليم ارتجت المدينة كلها قائلين: من هذا؟ فقال الجمع: هذا يسوع النبي الذي هو من ناصـرة الجليل، فدخل يسـوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين يبيعون ويشـترون في الهيكل وقلب موائد الصـيارف وكراسـي باعة الحمام وقال لهم : مكتوب أن بيتي بيت الصـــلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصـوص. وقال يوحنا : فصـعد يسـوع إلي يروشـليم فوجد في الهيكل باعة البقرة والكباش والحمام وصـيارف جلوسـاً، فصـنع محضـرة من حبل وأخرج جميعهم من الهيكل فطرد البقر والخراف وبدد دراهم الصـــيارف وقلب موائدهم، وقال متى : وقدم إليه عميان وعرج في الهيكل فشـــفاهم، فرأى رؤساء الكهنة العجائب التي صنع والصبيان يصيحون في الهيكل ويقولون: أوصـنا يا ابن داود، مبارك الآتي باسـم الرب، فتقمقموا وقالوا: ما تسـمع ما يقول هؤلاء، فقال لهم يســـوع : نعم، أما قرأتم قط أن من فم الأطفال

والمرضعين أعددت سبحاً، وتركهم وخرج خارج المدينة وبات هناك في بيت هنيا وفي غد عبر إلى المدينة فجاع ونظر إلى شـــجرة تين على الطريق فجاء إليها فلم يجد فيها شـــيئاً إلا الورق، فقال لها : لا يخرج منك ثمرة إلى الأبد، فيبست تلك الشجرة للوقت، فنظر التلاميذ وتعجبوا وقالوا: كيف يبست التينة للوقت، أجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم! إن كان لكم إيمان ولا تشكون ليس مثل هذه الشجرة التين فقط تصنعون ولكن تقولون لهذا الجبل: تعال واسقط في البحر، فيكون، وقال مرقس: إن كان لكم إيمان بالله، لحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل: انتقل واسقط في هذا البحر، ولا يشك في قلبه بل يصـــدق فيكون له الذي قال، من أجل هذا أقول لكم : إن كل ما تســـألونه في الصـــلاة بإيمان أنكم تنالونه فيكون لكم، وقال متى : وكل ما تســألونه في الصــلاة بإيمان تنالونه، وقال مرقس: فقال له يوحنا، يا معلم! رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمعناه لأنه لم يتبعنا، قال لهم يسوع: لا تمنعوه ليس يصنع أحد قوة باسمي، ويقدر سريعاً أن يقول على الشر، كل من ليس هو عليكم فهو معكم ومن ســقاكم كأس ماء باســم أبيكم المســيح الحق أقول لكم: إن أجره لا يضيع.

وفيه مما لا يجوز إطلاقه في شـــرعنا إطلاق الأب على الله وإطلاق الرب على غيره بلا قيد، وقد تقدم التنبيه على مثل ذلك غير مرة– والله الهادي للصواب.

▲ تفسير الآيات رقم [28- 29]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)
لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)}

ولما قرر سبحانه أن الرسل دعاة للحق إلى سيدهم طوعاً أو كرهاً بالكتاب والحديد، وقرر أن السعادة كلها في اتباعهم، وأن البدع لا تأتي بخير وإن زين الشيطان أمرها وخيل أنه خير، وأن أصحاب الذي كان نسخ شريعة من قبله ابتدعوا بدعة حسنة فوكلوا إليها ففسق أكثرهم، فاقتضى ذلك إرسال من ينسخ كل شريعة تقدمته نسخاً لا زوال له لأنه لا نبي بعده ونهى عن البدع نهياً لم يتقدمه أحد إلى مثله، أنتج ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بذلك إقراراً صحيحاً بنبي مما تقدم أو بالنبي صلى الله عليه وسلم {اتقوا الله} أي خافوا عقابه فاجعلوا بينكم وبين سخطه- لأنه الملك الأعظم- وقاية بحفظ الأدب معه ولا تأمنوا مكره، فكونوا على حذر من أن يسلبكم ما وهبكم، فاتبعوا الرسول تسلموا، وحافظوا على اتباعه لئلا تهلكوا {وآمنوا برسوله} أي الذي لا رسول له الآن غيره، إيماناً مضموماً إلى إيمانكم بالله فإنه لا يصح الإيمان به إلا مع الإيمان برسوله، وبأن تثبتوا على الإيمان به، وتضموا الإيمان به إلى الإيمان بمن تقدمه يا أهل الكتاب، لأن رسالته عامة، لقد نسخ جميع ما تقدمه من الأديان فإياكم أن يميلكم عنه ميل من حسد أو غيره، فبادروا إلى إجابته والزموا جميعاً حذره فلا تميلوا إلى بدعة

أصلاً {يؤتكم} ثواباً على اتباعه {كفلين} أي نصيبين ضخمين {من رحمته} تحصيناً لكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز، وهذا التحصين لأجل إيمانكم به صلى الله عليه وسلم وإيمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الأصار وهو أعلى بالأجر من الذي عمل الخير في الجاهلية، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله عنه «أسلمت على ما أسلفت من خير» ودل على أن الكفلين برفع الدرجات وإفاضة خواص من الخيرات بقوله: {ويجعل لكم} أي مع ذلك {نوراً} مجازياً في الأولى بالتوفيق للعمل من المعلوم والمعارف القلبية وحسياً في الآخرة بسبب العمل {تمشون به} أي مجازاً في الأولى بالتوفيق للعمل، وحقيقة في الآخرة بسبب العمل.

ولما كان الإنسان لا يخلو من نقصان، فلا يبلغ جميع ما يحق للرحمن، قال: {ويغفر لكم} أي ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد. ولما قرر سبحانه وذلك، أتبعه التعريف بأن الغفران وما يتبعه صفة له شاملة لمن يريده فقال: {والله} أي المحيط بجميع صفات الكمال والعظمة والكبرياء {غفور} أي بليغ المحو للذنب عيناً وأثراً {رحيم *} أي بليغ الإكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه.

ولما كان أهل الكتاب قد تابعوا أهويتهم على بغض الأميين، وأشربت قلوبهم أن النبوة مختصة بهم لأنهم أولاد إبراهيم عليه السلام من ابنة عمه، والعرب- وإن كانوا أولاده- فإنهم من الأمة وما دروا أن كونهم من أولاده مرشح لنبوة بعضهم وكونهم من الأمة، مهيئ لعموم الرسالة لأجل عموم

النسـب، قال دالاً على أنهم صـاروا كالبهائم لا يبصـرون إلا المحسـوسـات معلقاً الجار ب {آمنوا} و{يؤتكم} وما بعده: {لئلا يعلم} أي ليعلم علماً عظيماً يثبت مضـمون خبره وينتفي ضـده- بما أفاده زيادة النافي {أهل الكتاب} أي من الفريقين الذي اقتصـــروا على كتابهم وأنبيائهم ولم يؤمنوا بالنبي الخاتم وما أنزل {ألا} أي أنهم لا {يقدرون} أي في زمن من الأزمان {على شـيء} أي وإن قل {من فضل الله} أي الملك الأعلى الذي خصكم بما خصكم به لا يمنع ولا بإعطائكم حيث نزع النبوة منهم ووضـــها في بني عمهم إسـماعيل عليه السـلام الذي كانوا لا يقيمون لهم وزناً فيقولون: إنهم بنو الأمة، وإنهم أميون، وإنهم ليس عليهم منهم سـبيل، وجعل النبوة التي خصـكم بها عامة- كما أشـار إليه ما في ابن الأمة من شـمول بنسـبته وانشـعابه وحيث عملوا كثيراً وأعطوا قليلاً: «اليهود من أول النهار على قيراط قيراط، والنصارى من الظهر على قيراط قيراط، وهذه الأمة من صـــلاة العصــــر على قيراطين قيراطين، فقال الفريقان: ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً، قالك هل ظلمتكم من حقكم شـيئاً، قالوا: لا، قال: ذلك فضـلي أوتيه من أشـاء» وذكر ابن برجان معنى هذا الحديث- كما تقدم عنه قريباً- من الإنجيل وطبقه عليه وذكرته أنا في الأعراف، روى الإمام أحمد في مواضـــع من المســـند والبخاري في سـبعة مواضـع في الصـــلاة والإجارة وذكر بني إسـرائيل وفضـائل القرآن والتوحيد، والترمذي في الأمثال- وقال: حســن صـحيح- من وجوه شـتى جمعت بين ألفاظها عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وســـلم قال: «مثلكم»- وفي هذه الرواية: «مثل هذه الأمة»، وفي رواية:

«مثل أمتي» وفي رواية : إنما مثلكم ومثل اليهود والنصـــارى كرجل، وفي رواية: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استعمل عملاء»، وفي رواية: «اســتأجر أجراء» فقال: «من يعمل لي من صـــلاة الصـــبح» وفي رواية أخرى: «من غدوة إلى نصـف النهار على قيراط، ألا فعملت اليهود»- وفي رواية: «قالت اليهود: نحن- فعملوا، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صـلاة العصـر على قيراط، ألا فعملته النصـارى»، وفي رواية: «قالت النصـــارى: نحن، فعملوا، ثم قال: من يعمل لي من صـــلاة العصـــر إلى غروب الشمس«

-وفي رواية: إلى أن تغيب الشـــمس- «على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين عملتم»، وفي رواية: «تعملون»، وفي رواية «وأنتم المسـلمون تعملون من صـــلاة العصـــر إلى الليل»، وفي رواية «إلى مغارب»، وفي رواية: «مغرب الشـــمس على قيراطين قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين، فغضـــبت اليهود والنصـــارى» وقالوا: «نحن»- وفي رواية: «ما لنا- أكثر عملاً وأقل عطـاء»، وفي روايـة «أجراً، قال الله تعالى هل»- وفي روايـة: «وهل- نقصـــتكم-» وفي رواية: «هل ظلمتكم- من حقكم شـــيئاً-» وفي رواية: «أجركم شـــيئاً، قالوا: لا، قال: فإنه»- وفي رواية: «فإنما- هو فضـل»، وفي رواية: «فذلك فضـلي أوتيه من أشـاء»، وفي رواية: «أعطيه من شـئت» وفي رواية: سـمعت النبي صـلى الله عليه وسـلم وهو قائم على المنبر يقول: «ألا إن بقاءكم»، وفي روايـة: «إنما بقاؤكم»، وفي روايـة: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم»- وفي رواية: «فيما ســـلف من

قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر والمغرب»– وفي رواية: «إلى غروب الشـــمس»، وفي رواية : «ألا إن مثل آجالكم في آجال الأمم قبلكم كما بين صـلاة العصـر إلى مغيربان»، وفي رواية: «إلى مغرب»، وفي رواية: «إلى مغارب الشـــمس، أعطي»– وفي رواية : «أوتي– أهل التوراة التوراة، فعملوا بها حتى انتصـــف النهار فعجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، وأعطي»– وفي رواية : «ثم أوتي– أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى»– وفي رواية : «إلى– صــلاة العصـــر»، وفي رواية «حتى صــليت العصـــر، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشـــمس»، وفي رواية: «حتى غروب الشـمس فأعطيتم قيراطين قيراطين»، وفي رواية: «ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشـمس فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين»– وفي رواية : «أهل التوراة والإنجيل– ربنا هؤلاء أقل منا عملاً وأكثر أجراً»، وفي رواية : «جزاء»، وفي رواية : «أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطتينا قيراطاً قيراطاً، ونحن أكثر عملاً منهم، قال الله تبارك وتعالى: هل» وفي رواية: «فهل ظلمتكم من أجركم»– وفي رواية: «من أجوركم– من شـي؟ فقالوا: لا، فقال: فهو فضـلي»، وفي رواية «فذلك فضلي، أوتيه من أشاء» وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث ما قبل هذه الأمم وترك على ذلك أحوالهم فقال : إنه دال على قوم نوح وإبراهيم عليهما السـلام، كان لهم الليل، فكان قوم نوح في أوله في ظلام صـرف طويل لم يلح لهم شـيء من تباشـير الضـياء ولا أمارات الصـبح، ونوح عليه السـلام يخبرهم به ويأمرهم بالتهيؤ له، فلذلك طال بلاؤه عليه السـلام بهم، وما آمن

معه إلا قليل، وأما قوم إبراهيم عليه السلام فكانوا كأنهم في أواخر الليل، قد لاحت لهم تباشير الصباح وأومضت لهم بوارق الفلاح، فلذلك آمن لوط عليه السلام وكذا سارة زوجته وأولاده منها ومن غيرها كلهم، واستمر الإسلام في أولاده والنبوة حتى جاء موسى عليه السلام، فكان وقته كما بين الصبح والظهر، فكان قومه تارة وتارة، تارة يحسبون أنهم في ضياء كيفما كانوا، فيروغون يميناً وشمالاً فيكونون كمن دخل غيراناً وكهوفاً وأسراباً ثم يخرجون منها فيرجعون إلى الضياء، فكانت غلطاتهم تارة كباراً وتارة صغاراً، وأما قوم عيسى عليه السلام فكانوا كمن هو في الظهيرة في شدة الضياء فالغلط منه لا يكون إلا عن عمى عظيم، فلذلك كان غلطهم أفظع الغلط وأفحشه- والله الموفق- {وإن} أي ولتعلموا أن {الفضل} أي الذي لا يحتاج إليه من هو عنده {بيد الله} أي الذي له الأمر كله {يؤتيه من يشاء} منهم أو من غيرهم نبوة كانت أو غيرها.

ولما كان ربما ظن ظان أنه لا يخص به إلا لأنه لا يسع جميع الناس دفع ذلك بقوله: {والله} أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال {ذو الفضل العظيم *} أي مالكه ملكاً لا ينفك عنه ولا ملك لأحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلاً، فلذلك يخص من يشاء بما يشاء، فلا يقدر أحد على اعتراض بوجه، فقد نزه له التنزيه الأعظم جميع ما في السماوات والأرض فهو العزيز الحكيم الذي لا عزيز غيره ولا حكيم سواه، فقد انطبق كما ترى آخرها على أولها، ورجع مفصلها على موصلها- والله الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب.

▲ سورة المجادلة

▲ تفسير الآية رقم [1]

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)}

لما ختمت الحديد بعث إثبات عجز الخلق بعظيم الفضل له سبحانه، وكان سماع أصوات جميع الخلائق من غير أن يشغل صوت عن صوت وكلام عن كلام من الفضل العظيم، وكان قد تقدم ابتداع بعض المتعبدين من الرهبانية بما لم يصرح لهم بالإذن فيه، فكان سبباً للتضييع، وكان الظهار على نوعين : موقت ومطلق، وكان الموقت مما يدخل في الرهبانية لأنه من التبتل وتحريم ما أحل الله من الطيبات، وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم قد منع نفسه بالموقت منه من مرغوبها مما لم يأت عن الله، فظاهر من امرأته محافظة على كمال التعبد خوفاً من الجماع في نهار رمضان، وكان ذلك مما لم يأذن به بل نهى عنه كما روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه والطبراني في الأوسط على سهل بن حنيف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات» وكان بعض الصحابة- رضي الله عنهم أجمعين- قد ظاهر مطلقاً فشكت امرأته ما لحقها من الضرر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهتفت باسم الله، وكان علمه سبحانه بخصوص شكاية هذه المرأة المسكينة وإزالة ضررها بحكم عام لها ولغيرها من عباده حتى صارت واقعتها رخصة عامة

للمســـــلمين إلى يوم القيامة معلماً بأنه ذو الفضـــــل العظيم، وأنه الظاهر الباطن، ذو الملك كله، وكان قد أمر بالإيمان به وبرســـوله ووعد على ذلك بالنور، كان السامع لذلك جديراً بتوقع البيان الذي هو النور في هذه الرهبانية التي ابتدعت في هذه الأمة، وتخفيف الشــديد الذي وقع عن بعضـــهم ليعلم أهل الكتاب ما لهذه الأمة من الكرامة على ربها وأنه يختص برحمته من يشاء فقال: {قد سمع الله} أي أجاب بعظيم فضله الذي أحاط بجميع صفات الكمال فوسـع سـمعه الأصـوات {قول} وعبر بالوصـف دون الاسـم تعريفاً برحمته الشاملة فقال: {التي تجادلك} أي تبالغ في أن تقبلك إلى مرادها {في زوجها} أي في الأمر المخلص له من ظهاره رحمة لها {وتشتكي} أي تتعمد بتلك المجادلة الشـــكوى، منتهية {إلى الله} أي الملك العظيم الرحيم الذي أحاط بكل شيء علماً، ولصدقها في شكواها وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله كانت هي والنبيُّ صلى الله عليه وسلم متوقعين أن الله يكشف ضرها {والله} أي والحال أن الذي وسعت رحمته كل شيء لأنه له الأمر كله {يسمع تحاوركما} أي مراجعتكما التي يحور – أي يرجع فيها إلى كل منكما جواب كلامه من الآخر كأنها لثقل ما قدح في أمرها ونزل من ضرها ناشئة عن حيرة.

ولما كان ذلك في غاية ما يكون من خرق العادة بحيث إن الصديقة عائشة رضـــي الله عنها قالت عند نزول الآية: «الحمد لله الذي وســـع ســـمعه الأصوات، لقد كلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانب البيت ما أسـمع كثيراً مما تقول» أكده تنبيهاً على شـدة غرابته ولأنه ربما استبعده

من اشـــتد جهله لعراقته في التقيد بالعادات فقال: {إن الله} أي الذي أحاط بجميع صـفات الكمال فلا كفؤ له {سـميع بصـير *} أي بالغ السـمع لكل مسموع، والبصر لكل ما يبصر والعلم لكل ما يصح أن يعلم أزلاً وأبداً، وقد مضى نحو هذا التناسب في المائدة حين أتبع تعالى آية القسيسين والرهبان قوله تعالى {يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم} [المائدة: 87] غير أن هذا خاص وذاك عام، فهذا فرد منه، فالمناســـبة واحدة لأن الأخص في ضـمن الأعم، والحاصـل أنه سـبحانه امتنَّ عليهم بما جعل في قلوبهم من الرهبانية وغيرها، وأخبر أنهم لم يوفوها حقها، وأنه آتى مؤمنيهم الأجر، وأمر المسلمين بالتقوى واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ليحصل لهم من فضله العظيم ضعف ما حصل لأهل الكتاب، ونهاهم عن التشديد على أنفســهم بالرهبانية، فصـــاروا مفضـــلين من وجهين: كثرة الأجر وخفة العمل، ذلك فضـــل الله يؤتيه من يشـــاء– والله أعلم، روى البزار من طريق خصـيف عن عطاء من غيرهما أيضـاً عن ابن عباس رضـي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رســول الله! إني ظاهرت من امرأتي ورأيت ســاقها في القمر فواقعتها قبل أن أكفر، قال «كفِّر ولا تعد» وروى أبو داود عن عكرمة أن رجلاً ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل أن يكفر، فأتى النبي صـــلى الله عليه وسـلم فأخبره فقال: «ما حملك على ما صـنعت؟ قال: رأيت بياض سـاقيها في القمر، قال: فاعتزلها حتى تكفر عنك» قال المنذري: وأخرجه أيضـاً عن عكرمة عن النبي صـلى الله عليه وسـلم وعن عكرمة عن ابن عباس رضـي الله عنهما عن النبي صـــلى الله عليه وســـلم بمعناه، وأخرجه النســـائي وابن

ماجة والترمذي– وقال: حديث حسن غريب صحيح– وقال النسائي: المرسل أولى بالصواب من المسند، وقال أبو بكر المعافري: ليس في الظهار حديث صحيح يعول عليه، قال المنذري: وفيما قاله نظر، فقد صححه الترمذي كما ترى، ورجال إسـناده ثقات، وسـماع بعضـهم من بعض مشـهور، وترجمة عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم احتج بها البخاري في غير موضع– انتهى. وللترمذي– وقال حسن غريب– عن سلمة بن صخر رضي الله عنه في المظاهر يواقع قبل أن يكفر قال: «كفّار واحدة«

»وروى أحمد والحاكم وأصحاب السنن إلا النسائي وحسنه الترمذي، قال ابن الملقن: وصححه ابن حبان والحاكم– من طريق سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه قال: كنت أمرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شـهر رمضـان خفت أن أصـيب من امرأتي شـيئاً يتابع بي حتى أصبح فظاهرت منها حتى ينسلخ شـهر رمضـان، فبينا هي تخدمني ذات ليلة تكشـف لي منها شـيء فما لبث أن نزوت عليها، فلما أصـبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر وقلت: امشـوا معي إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: لا والله: فانطلقت إلى النبي صلى الله عليه وسـلم فأخبرته، فقال» أنت بذاك يا سـلمة؟ قلت: أنا بذاك يا رسـول الله مرتين، وأنا صـابر لأمر الله، فاحكم فيّ بما أراك الله، وفي رواية: فأمض فيَّ حكم الله فإني صـابر لذلك، قال حرر رقبة. قلت: والذي بعثك بالحق ما أملك غيرها– وضـربت صـفحة رقبتي، قال: فصـم شـهرين متتابعين، قلت: وهل أصـبت الذي أصـبت إلا من الصـيام، قال: فاطعم وسـقاً من تمر بين

ستين مسكيناً، قال: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا وحشين ما لنا طعام، قال: فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر وكل أنت وعيالك بقيتها «فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند النبي صلى الله عليه وسلم السعة وحسن الرأي، وفي رواية: والبركة وقد أمرني– أو أمر لي– بصدقتكم، وفي رواية: فادفعوها إليّ، فدفعوها إليّ). وأعله عبد الحق بالانقطاع، وأن سليمان لم يدرك سلمة، حكى ذلك الترمذي عن البخاري، وقال الترمذي: إن سلمة بن صخر يقال له سلمان أيضاً، ورواه الإمام أحمد أيضاً من طريق أخرى قال» حدثنا عبد الله بن إدريس– هو الأودي– عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه قال: كنت أمرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شهر رمضان خفت فتظاهرت من امرأتي في الشهر فبينا هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال «حرر رقبة، فقلت: والذي بعثك بالحق، ما أملك غير رقبتي، قال: صم شهرين متتابعين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكيناً» وهذا سند حسن متصل إن شاء الله إن سلم من تدليس ابن إسحاق، وروى الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن إسحاق، وروى الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان وأبي سلمة بن عبد الرحمن

»أن سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه جعل امرأته عليه كظهر أنه إن غشيها حتى يمضي رمضان، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اعتق رقبة» وقصة سلمة هذه أصل الظهار المؤقت، وقد دلت على أنه لا عود فيه لا كفارة عليه إلا بوطئها في مدة الظهار، «وروى أبو داود عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها قال: » ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت رضي الله عنه فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكوا إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلني فيه ويقول: اتقي الله فإنه ابن عمك، فما برحت حتى نزل القرآن {قد سمع الله} إلى الفرض، فقال: يعتق رقبة، قالت: لا يجد، قال: يصوم شهرين متتابعين، قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال فليطعم ستين مسكيناً، قالت: ما عنده من شيء يتصدق به قالت: فأتي ساعتئذ بعرق منّ تمر، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخر، قال: قد أحسنت أذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك «قال: والعرق ستون صاعاً، وفي رواية: والعرق مكتل يسع ثلاثين صاعاً،» وروى الدارقطني أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن أوس بن الصامت رضي الله عنه ظاهر من امرأته خويلة بنت ثعلبة رضي الله عنها فشكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ظاهر مني حين كبر سني ورق عظمي، فأنزل الله آية الظهار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس اعتق رقبة، قال: مالي بذلك يدان، قال: فصم شهرين متتابعين، قال: أما إني إذا أخطأني أن آكل في اليوم مرتين يكل بصري، قال فأطعم ستين مسكيناً»، قال: ما أجد إلا أن

تعينني منك بعون وصلة، فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له، والله رحيم «قال: وكانوا يرون أن عنده مثلها، وذلك لستين مسكيناً، وللدراقطني أيضاً والبيهقي» أن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها رآها زوجها وهو أوس بن الصامت أخو عبادة رضي الله عنهما وهي تصلي فراودها فأبت فغضب، وكان به لمم وخفة فظاهر منها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني ونثرت له بطني جعلني عليه كأمه «وللطبراني من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال:» كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت وكان به لمم، فقال في بعض هجراته: أنت عليّ كظهر أمي، قال: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أوس بن الصامت أبو ولديَّ وأحب الناس إليّ والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، قال: ما أراك إلا قد حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله لا تقل كذلك والله ما ذكر طلاقاً، فرادّت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك فاقتي ووحدتي وما يشق عليّ من فراقه»

الحديث، ومن طريق أبي العالية قال: فجعل كلما قال لها «حرمت عليه» هتفت وقالت: أشكو إلى الله، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية، وروى أبو داود عن هشام بن عروة أن جميلة كانت تحت أوس ابن الصامت وكان رجلاً به لمم فكان إذا اشتد به لممه ظاهر من امرأته فأنزل الله عز وجل فيه كفارة الظهار، وأخرجه من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها مثله.

وقال القشـيري: وفي الخبر أنها قالت: يا سـول الله إن أوسـاً تزوجني شـابة غنية ذات أهل ومال كثير، فلما كبر عنده سـني، وذهب مالي وتفرق أهلي، جعلني عليه كظهر أمه، وقد ندم وندمت، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، يعني ففرج الله عنها، وقد حصل من هذا مسـألة، وهو أن كثيراً من الأشـياء ظاهر العلم يحكم فيه بشـيء ثم الضـرورة تغير ذلك الحكم لصـاحبها، قال البغوي: وكان هذا أول ظهار في الإسـلام، وقال أبو حيان: وكان عمر رضـي الله عنه يكرم خولة رضـي الله عنها إذا دخلت عليه ويقول: سـمع الله لها، فالمظاهرة في حديث سـلمة رضـي الله عنه ومن نحا نحوه رهبانية مبتدعة لم ترع حق رعايتها كرهبانية النصـارى، ولم يتبع النبي صـلى الله عليه وسـلم في ابتداعها حق الاتباع، وأما في قصـة خولة رضـي الله عنها فهي مصـيبة كأن ينبغي فيها التسـليم وعدم الحزم كما في آية {لكيلا تأسوا} [الحديد: 23] الآية على أن امتناعها من زوجها حين راودها فيه إلمام بالرهبانية، وإزالة شـكايتها مع أنها امرأة ضـعيفة من عظيم الفضـل، وزاده عظماً جعله حكماً عاماً لمن وقع فيه من جميع الأمة.

▲ تفسير الآية رقم [2]

{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَـائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2)}

ولما أتم تعالى الخبر عن إحاطة العلم، اسـتأنف الإخبار عن حكم الأمر المجادل بسببه، فقال ذاماً للظهار، وكاسياً له ثوب العار: {الذين} ولما كان

الظهار منكراً لكونه كذباً، عبر بصيغة التفعل الدالة عليه فقال: {يظهرون} أي يوجدون الظهار في أي رمضان كان وكأنه أدغم تاء التفعل والمفاعلة لأن حقيقته أنه يذهب ما أحل الله له من مجامعة زوجته. ولما كان الظهار خاصاً بالعرب دون سائر الأمم، نبه على ذلك تهجيناً له عليهم وتقبيحاً لعادتهم فيه، تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس من هذا الكلام لأن الكذب لم يزل مستهجناً عندهم في الجاهلية، ثم ما زاده الإسلام إلا استهجاناً فقال: {منكم} أي أيها العرب المسلمون الذين يستقبحون الكذب ما لا يستقبحه غيرهم وكذا من دان دينهم {من نسائهم} أي يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم بأن يقول أحدهم لزوجته شيئاً من صرائحه مثل أنت عليّ كظهر أمي وكناياته كأنت أمي، وكل زوج صح طلاقه صح ظهاره من حر أو عبد مسلم أو ذمي دخل بالزوجة أو لا قادراً على الجماع أو عاجزاً، صغير كانت الزوجة أو كبيرة، عاقلة كانت أم مجنونة، سليمة كانت أو رتقاء، مسلمة كانت أو ذميمة، ولو كانت رجعية.

ولما كان وجه الشبه التحريم، وكان للتحريم رتبتان: عليا موصوفة بالتأبيد والاحترام، ودنيا خالية عن كل من الوصفين، وكان التقدير خبراً للمبتدأ: مخطئون في ذلك لأنه كذب، لأن التشبيه إن أسقطت أداته لم يكن حمله على الحقيقة ليكون من الرتبة العليا ولو على أدنى أحوالها من أنه طلاق لا رجعة فيه، كما كانوا يعتقدونه، وإن أثبتت ليكون من الدنيا لم يكن صحيحاً لأنه ممنوع منه لأن التشريع إنما هو لله، والله لم يكن يشرع ذلك، وكان تعليل شقي التشبيه يفيد معنى الخبر بزيادة التعليل، حذف الخبر، واكتفى

بالتعليل فقال معللاً له مهجناً للظهار الذي تعوده العرب من غير أن يشاركهم فيه أحد من الأمم: {ما هن} أي نساؤهم {أمهاتهم} على تقدير إرادة أحدهم أعلى رتبتي التحريم، والحاصل أنهم لما كانوا يعتقدون أنه طلاق لا رجعة فيه جعلوا معتقدين أن المرأة أم لأن الحرمة المؤبدة من خصائص الأم فخوطبوا بذلك تقريعاً لهم لأنه أردع، وفي سورة الأحزاب ما يوضح هذا.

ولما كانوا قد مرنوا على هذا الحكم في الجاهلية، واستقر في أنفسهم استقراراً لا يزول إلا بغاية التأكيد، ساق الكلام كذلك في الشقين فقال: {إن} أي ما {أمهاتهم} أي حقيقة {إلا اللاَّئي ولدنهم} ونساؤهم لم تلدهم، فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة للإكرام والاحترام، ولا هن ممن ألحق بالأمهات بوجه يصح وكأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإنهن أمهات لما لهن من حق الإكرام والاحترام والإعظام ما لم يكن لغيرهن لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعظم في أبوة الدين من أب النسب وكذلك المرضعات لما لهن من الإرضاع الذي هو وظيفة الأم بالأصالة، وأما الزوجة فمباينة لجميع ذلك.

ولما فرغ من تعليل الشق الأول على أتم وجه، أتبعه تعليل الآخر كذلك، فقال عاطفاً عليه مؤكداً لأنهم كانوا قد ألفوا قوله فأشربته قلوبهم: {وإنهم} أي المظهرون {ليقولون} أي في هذا التظهر على كل حالة {منكراً من القول} ينكره الحقيقة والأحكام، قال ابن الملقن في عمدة المحتاج: وهو حرام اتفاقاً كما ذكره الرافعي في الشهادات. {وزوراً} أي قولاً مائلاً عن السداد، منحرفاً عن القصد، لأن الزوجة معدة للاستمتاع الذي هو في الغاية من الامتهان، والأم في غاية البعد عن ذلك لأنها أهل لكل احترام، فلا هي أم حقيقة ولا

شبيهة بها بأمر نصبه الشارع للاحترام كالإرضاع، وكونها فراشاً لعظيم كالنبي أو للأب أو للحرمة كاللعان، فقد علم أن ذلك الكلام ليس بصدق ولا جاء به مسوغ، فهو زور محض، وأخصر من هذا أن يقال: ولما كان ظهارهم هذا يشتمل على فعل وقول، وكان الفعل هو التحريم الذي هو موضع وجه الشبه، وكانت العادة في وجه الشبه أن يقنع منه بأدنى ما ينطلق عليه الاسم، وكانوا قد خالفوا ذلك فجعلوه في أعلى طبقاته وهو الحرمة المؤبدة التي يلزم منها أن تكون المشابهة من كل وجه في الحرمة مع أن ذلك بغير مستند من الله تعالى الذي لا حكم لغيره، ألزمهم أن يكون الشبه من كل وجه مطلقاً ليكونوا جاعلين الزوجة إما حقيقة لا دعوى كما جعلوا الحرمتين كذلك من غير فرق بل أولى لأن الشبه إنما وقع بين الحيثيتين لا بين الحرمتين- ثم وقفهم على جهلهم فيه فقال {ما هن} إلى آخره، ولما وقفهم على جهلهم في الفعل وقفهم على جهلهم في القول: فقال: وأنهم إلى آخره، قال النووي في الروضة: قال الأصحاب: الظهار حرام، وله حكمان: أحدهما تحريم الوطء إذا وجبت الكفارة إلى أن يكفر، والثاني وجوب الكفارة بالعود- انتهى، وهذا القول وإن أفاد التحريم فإنه يفيد لكونه ممنوعاً منه على وجه ضيق حرج المورد عسر المخرج ليكون عسره زاجراً عن الوقوع فيه، قال أبو عبد الله القزاز في ديوانه الجامع: وظاهر الرجل امرأته وظاهر من امرأته إذا قال: أنت عليّ كظهر أمي أو كذاب محرم، وإنما استخصوا الظهر في الظهار لأن الظهر موضع الركوب، والمرأة مركب الرجل في النكاح فكني به عن ذلك، فكأنه قال: ركوبك عليّ للنكاح كركوب

أمي، وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً، ولذلك أشـكل معنى قوله تعالى {ثم يعودون لما قالوا} وقال ابن الأثير في النهاية: ظاهر الرجل من امرأته ظهاراً وتظهر وتظاهر إذا قال لها : أنت عليّ كظهر أمي، وكان في الجاهلية طلاقاً، وقيل : إنهم أرادوا أنت عليّ كبطن أمي أي كجماعها، فكنوا بالظهر عن البطن للمجاورة، وقيل إن إتيان المرأة وظهرها إلى السـماء كان حراماً عندهم، وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول، فلقصـد الرجل المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شـبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعلها كظهر أمه، وإنما عدى الظهار ب {من} لأنهم كانوا إذا ظاهروا المرأة تجنبوها كما يتجنبون المطلقة ويحترزون منها، فكأن قوله : ظاهر من امرأته، أي بعد واحترز منها كما قيل: آلى من امرأته، لما ضمن معنى التباعد عدى ب {من}- انتهى، قال: وقال ابن الملقن في العمدة شـرح المنهاج : وكان طلاقاً في الجاهلية، ونقل عن صـاحب الحاوي أنه عندهم لا رجعة فيه، قال: فنقل الشـارع حكمه إلى تحريم بعد العود ووجوب الكفارة- انتهى وقال أبو حيان : قال أبو قلابة وغيره: كان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فرقة مؤبدة.

ولما كان التقدير : فإن الله حرمه، عطف عليه مرغباً في التوبة وداعياً إليها قوله مؤكداً لأجل ما يعتقدون من غلظه وأنه لا مثنوية فيه {وإن الله} أي الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه في شـرع ولا غيره {لعفو} من صـفاته أن يترك عقاب من شـاء {غفور *} من صـفاته أن يمحو عين الذنب وأثره

حتى أنه كما لا يعاقب عليه لا يعاتب، فهل من تائب طلباً للعفو عن زلله، والإصلاح لما كان من خلله.

▲ تفسير الآيات رقم [3- 4]

{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)}

ولما هجن سبحانه الظهار، وأثبت تحريمه على أبلغ وجه وآكده، وكان ما مضت عليه العوائد لا بد أن يبقى منه بقايا، أتبع ذلك بيان حكم هذه الواقعة وما لعله يقع من نظائرها فقال: {والذين يظاهرون} ولما كان في بيان الحكم، أسقط التقييد إعلاماً بعمومه الكفار كعمومه المسلم ليفيد تغليظ العقاب عليه لئلا يتوهم أنه يخص العرب الذين قصد تهجينه عليهم بأنهم انفرادوا به عن سائر الناس فقال: {من نسائهم} بدون {منكم}.

ولما كان مقتضى اللفظ المباعدة ممن قيل ذلك فيها، لكان إمساكها بعده ينبغي أن يكون في غاية البعد، قال مشيراً إلى ذلك بأداة البعد {ثم يعودون} أي بعد هذا القول {لما قالوا} بالفعل بأن يعاد هذا القول مرة أخرى أو بالقوة بأن يمسكوا المقول ذلك لها زمناً يمكن أن يعاد فيه هذا القول مرة ثانية من غير مفاقة بلفظ مما ناط الله الفرقة به من طلاق أو سراح أو نحوهما، فيكون المظاهر عائداً إلى هذا القول بالقوة لإمكان هذا القول في ذلك الزمن، وذلك لأن العادة قاضية بأن من قال قولاً ولم يبته وينجزه ويمضه

بأن يعود إلى قوله مرة أخرى وهلم جراً، أو يكون التقدير لنقض ما قالوا : فيحلوا ما حرموا على أنفسهم بعدم البت بالطلاق، فإن كان الظهار معلقاً لم يلزم حكمه إلا بالحنث، فإن طلق في الحال وإلا لزمته الكفارة، وحق العبارة التعبير باللام لدلالتها على الاتصال كما يقتضيه الحال بخلاف «إلى» فإنها تدل على مهلة وتراخ، هذا في الظهار المطلق، وأما الموقت بيوم أو شهر أو نحو ذلك فلا يكون عائداً فيه إلا بالوطء في الوقت المظاهر فيه، وأما مجرد إمساكها فليس بعود لأنه إنما أمسكها لما له فيها من الحل بعد وقت الظهار.

ولما كان المبتدأ الموصول مضمناً معنى الشرط، أدخل الفاء في خبره ليفيد السببية فيتكرر الوجوب بتكرر سببه فقال: {فتحرير} أي فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير {رقبة} أي سليمة عن عيب يخل بالعمل كاملة الرق مقيدة أيضاً بمؤمنة لأنها قيدت بذلك في كفارة القتل، فيحمل هذا على ذاك، ولأن معاوية بن الحكم رضي الله عنه كانت له جارية فقال للنّبيّ صلى الله عليه وسلم: «عليّ رقبة أفأعتقها، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله فأخبرته بما دل على توحيدها فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مالك ومسلم، فعلل الإجزاء بالإيمان ولم يسأله عن سبب الوجوب، فدل على أنه لا فرق بين واجب وواجب، والموجب للكفارة الظهار والعود جميعاً كما أن الموجب في اليمين اليمين والحنث معاً.

ولما كان التحرير لا يستغرق زمن القبل بل يكون في بعضه، أدخل الجار فقال: {من قبل} ولما كان المراد المس بعد المظهارة لا مطلقاً قال: {أن

يتماسا} أي يتجدد منهما مس وهو الجماع سواء كان ابتداء المباشرة منه أو منها بما أفادته صـــيغة التفاعل، وهو حرام قبل التكفير ولو كان على أدنى وجوه التماس وأخفاها بما أشار إليه الإدغام ولو كان بإيلاج الحشفة فقط مع الإنزال أو بدونه، وأما مقدمات الجماع فهي فيها كالحائض لا تحرم على الأظهر، فإن جامع عصـــى ولم تجب كفارة أخرى، لما روى الترمذي عن سلمة بن صخر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، قال: «كفارة واحدة».

ولما كان الوعظ هو الزجر عن الفعل الموعوظ لأجله، قال مستأنفاً: {ذلكم} أي الزجر العظيم جد الذي هو عام لكم من غير شـبهة {توعظون به} أي يكون بمشــقة زاجراً لكم عن العود إلى مقاربة مثل ذلك فضــلاً عن مقارفته لأن من حرم من أجلها الله تحريماً متأبداً على زعمه كان كأنه قد قتلها، ولكون ذلك بلفظ اخترعه وانتهك فيه حرمة أمه كان كأنه قد عصى معصية أوبق بها نفسه كلها إيباقاً أخرجه إلى أن يقتلها عضواً عضواً بإعتاق رقبة تماثل رقبته ورقبة من كان قتلها.

ولما كان التقدير: فالله بما يردعكم بصـير، عطف عليه قوله: {والله} أي الذي له الإحاطة بالكمال، وقدم الجار إشـارة إلى إرادة المبالغة للتنبيه على الاهتمام بإلزام الانتهاء. عن ذلك فقال: {بما تعملون} أي تجددون فعله {خبير *} أي عالم بظاهره وباطنه، فهو عالم بما يكفره، فافعلوا ما أمر الله به وقفوا عند حدوده، قال القشـيري: والظهار– وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ولا بتصحيحه نطق ولا له شرع، بعد ما رفع إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم أمره ولوح بشيء ما وقال: إنه حكمه لا يخل الله من بيان ساق إليه شرعه فقضى فيه بما انتظم فيه الجواب ارتفاع شكواها.

ولما كانت الكفارة مرتبة، وكان المظاهر كأنه قد قتل نفسه بقتل المظاهر عنها كما مضى، فكان مفتقراً إلى ما يحيي نفسه فشرع له العتق الذي هو كالإحياء، شرع له عند العجز عنه ما يميت نفسه التي إماتتها له إحياؤها، وكان الشهران نصف المدة التي ينفخ فيها الروح، فكان صومها كنصف قتل النفس التي قتلها إحياء الروح وإنعاش العقل، فكان كأنه إماتتها فجعله سبحانه بدلاً عن القتل الذي هو كالإحياء فقال: {فمن لم يجد} أي الرقبة المأمور بها بأن كان فقيراً، فإن كان غنياً وماله غائب فهو واجد {فصيام} أي فعليه صيام {شهرين}. ولما كان المراد كسر النفس كما مضى، وكانت المتابعة أنكى ولذلك سمي رمضان شهر الصبر، قيد بقوله: {متتابعين} أي على أكمل وجوه التتابع على حسب الإمكان بما أشار إليه الإظهار، فلو قطع التتابع بشيء ما ولو كان بنسيان النية وجب عليه الاستئناف والإغماء لا يقطع التتابع لأنه ليس في الوسع وكذا الإفطار بحيض أو نفاس أو جنون بخلاف الإفطار بسفر أو مرض أو خوف على حمل أو رضيع لأن الحيض معلوم فهو مستثنى شرعاً، وغيره مغيب للعقل- مزيل للتكليف، وأما المرض ونحوه ففيه تعمد الإفطار مع وجود العقل.

ولما كان الإمساك عن المسيس قد يكون أوسع من الشهرين، أدخل الجار فقال: {من قبل} وحل المصدر إفادة لمن يكون بعد المظاهرة فقال: {أن يتماسا} فإن جامع ليلاً عصى ولم ينقطع التتابع. ولما كان إطعام نفس قوت

نصف يوم كإماتة نفسه بالصيام يوماً قال تعالى: {فمن لم يستطع} أي يقدر على الصيام قدرة تامة– بما أشار إليه إظهار التاء لهرم أو مرض أو شبق مفرط يهيجه الصوم {فإطعام} أي فعليه إطعام {ستين مسكيناً} لكل مسكين ما يقوته نصف يوم، وهو مد بمد النبي صلى الله عليه وسلم وذلك نحو نصف قدح بالمصري، وهو ملء حفنتين بكفي معتدل الخلق من غالب قوت البلد، وهو كما في الفطرة سواء، وحذف قيد المماسة لذكره في الأولين، ولعل الحكمة في تخصيص هذا به أن ذكره في أول الخصال لا بد منه، وإعادته في الثاني لطول مدته فالصبر عنه فيها مشقة، وهذا يمكن أن يفعل في لحظة لطيفة لا مشقة للصبر فيها عن المماسة، هذا إذا عاد، فإن وصل الظهار بالطلاق أو مات أحدهما في الحال قبل إمكان الطلاق فلا كفارة، قال البغوي: لأن العود في القول هو المخالفة، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما العود بالندم فقال: يندمون ويرجعون إلى الألفة، وهذا يدل على ما قال الشافعي رضي الله عنه: فإن ظاهر عن الرجعية انعقد ظهاره فإن راجعها لزمته الكفارة لأن الرجعة عود.

ولما ذكر الحكم، بين علته ترغيباً فيه فقال: {ذلك} أي الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافي من أمر الله الذي هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان {لتؤمنوا} أي وهذا الفعل العظيم الشاق ليتجدد إيمانكم ويتحقق وجوده {بالله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فتطيعوه بالانسلاخ من فعل الجاهلية {ورسوله} الذي تعظيمه من تعظيمه وقد بعث بملة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فلو ترك هذا

الحكم الشـــديد على ما كان عليه في الجاهلية لكان مشـــككاً في البعث بتلك الملة السمحة.

ولما رغب في هذا الحكم، رهب من التهاون بـه فقال : {وتلك} أي هذه الأفعال المزكية وكل ما ســـلف من أمثالها في هذا الكتاب الأعظم {حدود الله} أي أوامر الملك الأعظم ونواهيه وأحكامه التي يجب امتثالها والتقيد بها لترعى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعتدوها فإنه لا يطاق انتقامه إذا تعدى نقضـــه أو إبرامه. ولما كان التقدير : فللمؤمنين بها جنات النعيم، عطف عليه قوله {وللكافرين} أي العريقين في الكفر بـها أو بشـــيء من شرائعه {عذاب أليم *} بما آلموا المؤمنين به من الاعتداء.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 6]

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)}

ولما ذكر حدوده، ولوح بـالعطف على غير معطوف عليـه إلى بشـــارة حافظها، وصرح بتهديد متجاوزيها أتبع ذلك تفصيل عذابهم الذي منه بشارة المؤمنين بالنصـــر عليهم، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يغلبوا على كثرتهم وقوتهم وضـــعف حزبه وقلتهم : {إن الذين يحادّون الله} أي يغالبون الملك الأعلى على حدوده ليجعلوا حدوداً غيرها، وذلك صـــورته صـــورة العداوة، مجددين ذلك مسـتمرين عليه بأي محادة كانت ولو كانت خفية- بما أشـار إليه الإدغام كمحادة أهل الاتحاد الذين يتبعون المتشـــابه فيجرونه على

ظاهره فيخلون به المحكم لتخل الشريعة بأسرها، فإن كثيراً من السورة نزل في المنافقين واليهود والمهادنين كما يأتي في النجوى وغيرها {ورسوله} الذي عزه من عزه {كبتوا} أي صرعوا وكبوا لوجوههم وكسروا وأذلوا وأخزوا فلم يظفروا وردوا بغيظهم في كل أمر يرومونه من أي كانت كان بأيسر أمر وأسهله، وعبر بالماضي إشارة إلى تحقق وقوعه والفراغ من قضائه كما فرغ مما مضى، فلا قال لتكون الدعوى مقرونة بدليلها: {كما كبت الذين} ولما كان المحادون لم يستغرقوا جميع الأزمان الماضية والأماكن، أدخل الجارّ فقال: {من قبلهم} أي المحادين كقوم نوح ومن بعدهم ممن أصر على العصيان، ولم ينقد لدليل ولا برهان، قال القشيري: ومن ضيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة وأحدث في دينه بدعة انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الذل.

ولما استوفى المقام حظه بياناً وترغيباً وترهيباً، عطف على أول السورة أو على ما يقدر من نحو: فقد كان لكم فيما مضى من أول الإسلام إلى هذا الأوان مما يدل على كونه سبحانه بالنصر والمعونة مع نبيه صلى الله عليه وسلم وأتباعه رضي الله عنهم معتبر، قوله: {وقد أنزلنا} أي بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم {آيات بينات} أي دلالات عظيمة هي في غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الإيمان بترك المحادة ويحصل الإذعان. ولما كان التقدير: فللمؤمنين بها نعيم مقيم في مقام أمين، عطف عليه قوله: {وللكافرين} أي الراسخين في الكفر بها وتغيرها من أمر الله

{عذاب مهين *} بما تكبروا واغتروا على أولياء الله وشـــرائعه، يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركون به محادتهم.
ولما ذكر عذابهم، ذكر وقته على وجه مقرر لما مضـــى من شـــمول علمه وكمال قدرته فقال : {يوم يبعثهم الله} أي يكون ذلك في وقت إعادة الملك الأعظم للكافرين المصــــرح بهم والمؤمنين المشــــار إليهم أحياء كما كانوا {جميعاً} في حال كونهم مجتمعين في البعث . ولمان كان لا أوجع من التبكيت بحضـرة بعض الناس فكيف إذا كان بحضـرتهم كلهم فكيف إذا كان بمرأى من جميع الخلائق ومسمع، سبب عن ذلك وعقب قوله: {فينبئهم} أي يخبرهم إخباراً عظيماً مستقصى {بما عملوا} إخزاء لهم وإقامة للحجة عليهم.
ولما كان ضـبط ذلك أمراً عظيماً، اسـتأنف قوله بياناً لهوانه عليه: {أحصـاه الله} أي أحاط به عدداً كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً بما له من صـــفات الجلال والجمال . ولم ذكر إحصـــــاءه له، فكان ربما ظن أنه مما يمكن في العادة إحصـاؤه، نفى ذلك بقوله: {ونسوه} أي كلهم مجتمعين لخروجه عن الحد في الكثرة فكيف بكل واحد على انفراده ونسوا ما فيه المعاصـي تهاوناً بها، وذلك عين التهاون بالله والاجتراء عليه، قال القشـيري: إذا حوسـب أحد في القيامة على عمل عمله تصــــور له ما فعله ثم يذكر حتى كأنه في تلك الحالة قام من بســاط الزلة فيقع عليه من الخجل والندم ما ينســى في جنبه كل عقوبة، فسبيل المسلم أن لا يخالف أمر مولاه ولا يحوم حوله مخالفة أمره، فإن جرى المقدور ووقع في هجنة التقصير فليكن من زلته على بال، وليتضرع إلى الله بحسن الابتهال.

ولما كان التقدير بما أرشـد إليه العطف على غير مذكور: فالله بكل شـيء من ذلك وغيره عليم، عطف عليه قوله: {والله} أي بما له من القدرة الشـاملة والعلم المحيط {على كل شيء} على الإطلاق من غير مثنوية أصلاً {شهيد *} أي حفيظ حاضـر لا يغيب، ورقيب لا يفعل، حفظه له ورقبه وحضـوره إياه مستعل عليه قاهر له بإحاطة قهره بكل شـيء ليمكن حفظه له على أتم وجه يريده.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما نزه سبحانه نفسه عن تقول الملحدين، وأعلم أن العالم بأسـره ينزهه عن ذلك بألسـنة أحوالهم لشـهادة العوالم على أنفسـها بافتقارها لحكيم أوجدها، لا يمكن أن يشـبه شـيئاً منها بل يتنزه من أوصـافها ويتقدس عن سـماتها، فقال {سـبح لله ما في السـماوات والأرض} [الحديد: 1] ومضـت أي تعرف بعظيم سـلطانه وعليّ ملكه، ثم انصـرف الخطاب إلى عباده في قوله: {آمنوا بالله ورسـوله} [الحديد: 7] إلى ما بعد ذلك من الآي، وكان ذلك ضـرب من الالتفات، والواقع هنا منه أشـبه بقوله سبحانه في سورة البقرة {وإذ قال ربك للملائكة} [البقرة: 30] فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم وحال من يشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في شـرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده {يا أيها الناس اعبدوا ربكم} [البقرة: 21] ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام بين أيدي الخلق {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة} [البقرة: 30] فجاء ضـرباً من الالتفات فكذا الواقع هنا بين سـبحانه حال

مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب آيها جارٍ على ذلك ومجدد له أولها سورة «ص» كما نبه عليه في سورة القمر، وإلى الغاية التي ذكرت فيها إلى أن وردت سورة القمر منبئة بقطع دابرهم، وانجر فيها الإعذار المنبه عليه وكذا في ســـورة الرحمن بعدها، ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال النزل الأخراوي في سورة الواقعة مع زيادة تقريع وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افترائهم فأتبعت بسورة الحديد، ثم صـــرف فيها الخطاب إلى المؤمنين، واســـتمر ذلك إلى آخر السورة، جرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفاً خطابها إلى نازلة تشـــوف المؤمنين إلى تعرف حكمها، وهو الظهار المبين أمره فيها، فلم يعد في الكلام بعد كما كان قد صرف إليه في قوله {آمنوا بالله ورسوله} بأكثر من التعرض لبيان حكم يقع منهم، ثم أن السور الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضـاء ما قصـد من التعريف بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية، وتقريع من عاند وتوبيخه، وذكر مثال الخلق واســـتقرارهم الأخراوي، وذكر تفاصـــيل التكاليف والجزاء عليها من الثواب والعقاب، وما به اســـتقامة من اســـتجاب وآمن وما يجب أن يلتزمه على درجات التكاليف وتأكيدها، فلما كمل ذلك صـــرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه من خلاصهم، فمعظم آي سورة بعد هذا شـــأنها، وإن اتجر غيرها فلا اســـتدعاء موجب وهو الأقل كما بينا- انتهى.

▲ تفسير الآية رقم [7]

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)}

ولما كان هذا الإخبار عن إحاطة علمه وشمول قدرته مع أنه بديهي التصور– يحتاج عند من جره الهوى إلى الشرك المقتضي للنقص إلى دليل معه فقد كان العرب ينكرون أن يسع الناس كلهم إله واحد، قال تعالى دالاً على ذلك بدليل شهودي ليفيد الإنسان بما يراه من المحسوسات، قاصراً الخطاب على أعلى الخلق إشارة إلى أنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره: {ألم تر} أي تعلم علماً هو في وضوحه كالرؤية بالعين {أن الله} أي الذي له صفات الكمال كلها {يعلم ما في السماوات} كلها. ولما كان الخطاب لأعلى الخلق، وكان المقام لإحاطة العلم، وكان خطابه صلى الله عليه وسلم بذلك إشارة للسامعين إلى وعورة هذا المقام وأنه بحيث لا يكاد يتصوره ولا يفهمه حق فهمه إلا هو صلى الله عليه وسلم ومن ألحق به ممن صفا فهمه وسوى ذهنه وانخلع من الهوى والعوائق، جمع وأكد بإعادة الموصول، فإفراده صلى الله عليه وسلم بالخطاب بعد أن كان مع المظاهرين ثم المحادين إشارة إلى التعظيم وتأكيده تنبيه على صعوبة المقام بالتعميم ليرعى حق الرعي توفية بحق التعليم كما رعته الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قولها (سبحان من وسع سمعه الأصوات) يعني في سماعه مجادلة المرأة وهو في غاية الخفاء فقال تعالى: {وما في الأرض} أي كليات ذلك وجزئياته، لا

يغيب عنه شـــيء منه، بدليل أن تدبيره محيط بذلك على أتم ما يكون، وهو يخبر من يشــاء من أنبيائه وأصــفيائه بما يشــاء من أخبار ذلك، القاصــية والدانية، الحاضرة والغائبة، الماضية والآتية، فيكون كما أخبر.

ولما كان ذلك وإن كان معلوماً يتعذر إحاطة الإنســـان بكل جزئي منه، دل عليه بما هو أقرب منه فقال: {ما تكون} بالفوقانية في قراءة أبي جعفر لتأنيث النجوى إشـارة إلى العلم بها ولو ضـعفت إلى أعظم حد، وقرأ الباقون بالتحتانية للحائل، ولأن التأنيث غير حقيقي، وهي على كل حال من «كان» التامة، وعمم النفي بقوله: {من نجوى} أي تناجي متناجين، جعلوا نجوى مبالغة، والنجوى: السر والمسارون، اسم ومصدر – قاله في القاموس، وقال عبد الحق في الواعي: النجوى الكلام بين الاثنين كالسـر والتشـاور – انتهى. وأصــله من النجوى – للمرتفع من الأرض، والنجو: الخلوص والقطع وكشـط الجلد والحدث والكشـف، لأن المسـارر يرفع ما كان في ضـميره إلى صـاحبه ويخلصه بمساررته له ويقطعه من ضميره ويكشطه منه ويحدثه ويكشفه.

ولما كـانت النجوى لا تكمل إلا بثـالث يحفظ الأنس بإدامـة الاجتمـاع لأن الاثنين ينفردان عند عروض حاجة لأحجهما ويكونان في التناجي والتشـــاور كالمتنازعين، والثالث وسـط بينهما مع أنه سـبحانه وتر يحب الوتر، والثلاثة أول أوتار العدد، كما كان حافظاً لها في أزل الأزل قال: {ثلاثة} أي في حال من الأحوال {إلا هو رابعهم} أي مصـــيرهم أربعة، فهو اســـم فاعل والمعنى بعلمه وقدرته كما يكون كل من المتناجين عالماً بنجوى البعض، فروح النجوى العلم بالسر.

ولما كان الثلاثة قد يريد أحدهم أن ينفرد بآخر منهم، فيصـــير الثالث وحده، فإذا كانوا أربعة دام الأنس بينهم ثم لا يكمل إلا بخامس يحفظ الاجتماع إذا عرضــت لأحد الاثنين حاجة قال: {ولا خمســة} أي من نجواهم {إلا هو سادسهم} كذلك، فالحاصل أنه ما يكون من وتر إلا كان هو سبحانه شافع وتريته، وأما وتريته هو سبحانه فقد كانت ولا شيء معها أصلاً، وستكون ولا حي معها، فلا وتر في الوجود على الحقيقة غيره.

ولما علم بالتكرير أن ما ذكر على سبيل المثال لا لمعنى يخصــه من جهة بالعلم، عم بقوله: {ولا أدنى} فبدأ بالقليل لأنه قبل الكثير وهو أخفى منه {من ذلك} أي الذي ذكر وهو الواحد والاثنان والأربعة الذي بعيد عن رتبته وإن كان قد شرفه سبحانه بإطلاق معيته بعد أن لا نسبة له منها.

ولما كان العلم بالكثير أعســـر من أجل انتشـــاره قال: {ولا} أي يكون من نجوى {أكثر} أي من ذلك كالستة فما فوقها لا إلى نهاية- هذا التقدير على قراءة الجماعة بالجر بفتحة الراء ورفع يعقوب على محل من {نجوى} {إلا هو معهم} أي يعلم ما يجري منهم وبينهم، ويلزم من إحاطة علمه إحاطة قدرته كما تقدم في طه لتكمل شهادته.

ولما كان العموم في المكان يســتلزم العموم في الزمان، وكان المكان أظهر في الحس قال: {أين ما} أي في أيّ مكان {كانوا} فإنه لا مسافة بينه وبين شيء من الأشياء لأنه الذي خلق المسافة، وعلمه بالأشياء ليس لقرب مكان حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة ولا بسبب من الأسباب غير وجوده على ما هو عليه من صفات الكمال، قال الرازي: ما فارق الأكوان الحق ولا قارنها،

كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها ومظهرها، وكيف يقارن الحدث القدم وهو به قوام الكل، وهو القيوم على الكل– انتهى. والحاصل أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من العالم وإن بلغ في دقته إلى ما لا ينقسم، وهو شاهد لذلك كله حفظاً وعلماً وإحاطة وحضوراً، وآية ذلك في خلقه أن جملة الجسم يحيا بالروح، فلا يبقى جزء منه إلا وهو محفوظ بالروح يحس بسببها وهو سبحانه لا يحجب علمه ولا شيئاً من صفاته حجاب، فقد صحت المعية وهو بحيث لا يحويه المكان ولا يحصره العد، يقبض المخلوق ويبسطه، لا يصعد المخلوق ولا صفته ولا فعله ولا معنى من معانيه إلى صفة من صفاته، إنما له من المكان المكانة، ومن العلم العلا، ومن الأسماء والصفات مقتضاها– أشار إلى لك ابن برجان وقال: ومن تدبر ما قرأه وتفهم ما تعلمه أدرك من التحقيق ما نحن بسبيل تبيانه ما قدر له، ألا ترى إلى الجن أين مكانهم وإن كانوا موصوفين به ثم الملائكة أرفع قدراً ومكانة، بل إن الروح من جميع الجملة التي تحمله، به حييت وبه تدبيرها وبه قيامها بإن الله خالقه،

»قال عليه الصلاة والسلام في خطبته الكبرى وهي آخر خطبة خطبها أخرجها الحارث بن أبي أسامة: رقي المنبر وقال:» أيها الناس ادنو وأوسعوا لمن خلقكم «– ثلاث مرات، فدنا الناس وانضم بعضهم إلى بعض، التفتوا فلم يروا أحداً، فقال رجل منهم بعد الثالثة: لمن نوسع يا رسول الله أللملائكة؟ فقال : » لا إنهم إذ كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا من خلفكم ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم «وعلى ذلك فليسوا في مكان الأيمان هنا والشمائل بل

في المكان من ذلك، فالله جل جلاله أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء- انتهى.

ولما كان الإنسان نساءً ولا سيما إن تمادى به الزمان، قال عاطفاً على ما تقديره، فيضبط عليهم حركاتهم وسكناتهم من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، ويحفظها على طول الزمان كما كان حافظاً لها قبل خلقها ثم أزل الأزل {ثم ينبئهم} أي يخبر أصحابها إخباراً عظيماً {بما عملوا} دقيقة وجليلة {يوم القيامة} الذي هو المراد الأعظم من الوجود لإظهار الصفات العلى فيه أتم إظهار. ولما أخبر تعالى بهذا الأمر العظيم، علله بما هو دليل على الشهادة فقال مؤكداً لما لهم من الإنكار قولاً أو فعلاً بالاشتراك الذي يلزم منه النقص {إن الله} أي الذي له الكمال كله. ولما كان المقام للإبلاغ في إحاطة العلم، قدم الجار كما مضت الإشارة إليه غير مرة قال: {بكل شيء} مما ذكر وغيره {عليم *} أي بالغ العلم فهو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء شهيد، لأن نسبة ذاته الأقدس إلى الأشياء كلها على حد سواء لا فرق أصلاً بين شيء وآخر، قال القشيري: معية الحق سبحانه وإن كانت على العموم بالعلم والرؤية وعلى الخصوص بالفضل والنصرة، فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثر عظيم إلى أن ينتهي الأمر بهم إلى التأويل، فللوله والهيمان في خمار هذا عين رغد.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 10]

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ

فِي أَنْفُسِـهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْـبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْـلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِـيرُ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـــيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيْسَ بِضَـارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)}

ولما كان هذا الدليل أيضـــاً تتعذر الإحاطة به، قال دالاًّ عليه بأمر جزئي واقع بعلم المحدث عنه حقيقة، فإن عاند بعده ســـقط عنه الكلام إلا بحد الحســام: {ألم تر} أي تعلم علماً هو كالرؤية، ودل على سفول رتبه المرئي بإبعاده عن أعلى الناس قدراً بحرف الغاية فقال: {إلى الذين} ولما كان العاقل من إذا زجر عن شـــيء انزجر حتى يتبين له أنه لا ضــرر عليه في فعل ما زجر عنه، عبر بالبناء للمفعول فقال: {نهوا} أي من ناه ما لا ينبغي للمنهي مخالفته حتى يعلم أنه مأمون الغائلة {عن النجوى} أي الإســـرار لإحلال أنفسهم بذلك في محل التهمة بما لا يرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم- كما قال أبو العلاء المعري:

والخل كالماء يبدي لي ضمائره *** مع الصفاء ويخفيها من الكدر

ولما كان الناهي هو الله، فكان هذا للنهي أهلاً لأن يبعد منه غاية البعد، عبر بأداة التراخي فقال: {ثم يعودون} أي على ســبيل الاســتمرار لأنه إذا وقعت مرة بادروا إلى التوبة منها أو فلتة وقعت معفواً عنها {لما نهوا عنه} أي من غير أن يعدوا لما يتوقع من جهة الناهي من الضرر عدة {ويتناجون} أي يقبل جميعهم على المناجاة إقبالاً واحداً، فيفعل كل منهم ما يفعله الآخر

مرة بعد أخرى على سبيل الاستمرار، وقراءة حمزة {وينتجون} بصيغة الافتعال يدل على التعمد والمعاندة {بالإثم} أي بالشيء الذي يكتب عليهم به الإثم بالذنب وبالكذب وبما لا يحل. ولما ذكر المطلق أتبعه المقيد بالشدة فقال: {والعدوان} أي العدو الذي هو نهاية في قصد الشر بالإفراط في مجاوزة الحدود. ولما كان ذلك شراً في نفسه أتبعه الإشارة إلى أن الشيء يتغير وصفه بالنسبة إلى من يفعل معه فيكبر بكبر المعصي فقال: {ومعصيت الرسول} أي الذي جاء إليهم من الملك الأعلى، وهو كامل الرسلية، لكونه مرسلاً إلى جميع الخلق وفي كل الأزمان، فلا نبي بعده، فهو لذلك يستحق غاية الإكرام.

ولما أنهى تعظيم الذنب إلى غايته آذن بالغضب بأن لفت الكلام إلى الخطاب فقال: {وإذا جاؤوك} أيها الرسول الأعظم الذي يأتيه الوحي ممن أرسله ولم يغب أصلاً عنه لأنه المحيط علماً وقدرة {حيوك} أي واجهوك بما يعدونه تحية من قولهم: السام عليك ونحوه، وعم كل لفظ بقوله: {بما لم يحيك به الله} أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه فمن تجاوز ما شرعه فقد عرض نفسه لسخطه، ومما دخل فيه قوله بعض الناس لبعض «صباح الخير» ونحوه معرضاً عن السلام. ولما كان المشهور عنهم أنهم يخفون ذلك جهدهم ويعلنون بإملاء الله لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطلع عليه، وإن اطلع عليه لم يقدر على أن ينتقم منهم، عبر عن ذلك بقوله: {ويقولون} أي عند الاستدراج بالإملاء مجددين قولهم مواظبين عليه {في أنفسهم} من غير أن يطلعوا عليه أحداً: {لولا} أي هلا ولم لا {يعذبنا

الله} أي الذي له الإحاطة بكل شـــيء على زعم من باهانا {بما نقول} مجددين مع المواظبة إن كان يكرهه- كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم. ولما تضــمن هذا علمه ســبحانه وتعالى بهذه الجزئية من هؤلاء القوم ثبت بذلك علمه سبحانه بجميع ما في الكون، لأن نسبة الكل إليه على حد سواء، فإذا ثبت علمه بالبعض ثبت علمه بالكل فثبتت قدرته على الكل فكان على كل شيء شهيداً، قال مهدداً لهم مشيراً إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يقول مثل هذا إلا إن كان قاطعاً بأنه لا يحصــل له عذاب، أو يحصــل له منه ما لا يبالي به ثم يرده بقوته: {حسبهم} أي كفايتهم في الانتقام منهم وفي عذابهم ورشقهم بسهام لهيبها ومنكئ شررها وتصويب صواعقها {جهنم} أي الطبقة التي تلقاهم بالتجهم والعبوســة والتكره والفظاظة. فإن حصــل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية، فاســتعجالهم بالعذاب محض رعونة {يصــلونها} أي يقاســون عذابها دائماً إني أعددتها لهم. ولما كان التقديرية فإنهم يصــيرون إليها ولا بد، تســبب عنه قوله: {فبئس المصــير *} أي مصيرهم، وسبب ذلك أن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون يوهمونهم أنهم يتناجون فيما يســوءهم فيظنون أنه بلغهم شيء من إخوانهم الذين خرجوا في السرايا غزاة في سبيل الله من قتل أو هزيمة فيحزنهم ذلك، فشكوا ذلك إلى رسول الله صــلى الله عليه وسـلم فنهاهم عن التناجي في هذه الحالة فلم ينتهوا، وروى أحمد والبزار والطبراني بإســناد- قال الهيثمي في المجمع إنه جيد لأن حماداً ســمع من عطاء بن الســائب في حالة الصــحة- عن عبد الله بن عمرو رضــي الله عنهما أن

اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سام عليك. ثم يقولون في أنفســـــهم : لولا يعذبنا الله بما نقول، فنزلت . وروى أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا» وعليك «»».

ولما نهى عن النجوى وذم على فعلها وتوعد عليه فكان ذلك موضــــع أن يظن أن النهي عام لكل نجوى وإن كانت بالخير، استأنف قوله منادياً بالأداة التي لا يكون ما بعدها له وقع عظيم، معبراً بأول أســنان الإيمان باقتضــاء الحال لـه : {يا أيها الذين آمنوا } أي ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة {إذا تناجيتم} أي قلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سراً {فلا تتناجوا } أي توجدوا هذه الحقيقة ظاهرة كتناجي المنافقين {بالإثم} أي الذنب وكل فعل يكتب بسببه عقوبة.

ولما عم خص فقال: {والعدوان} أي الذي هو العدو الشــديد بما يؤذي وإن كان العادي يظن أنه لا يكتب عليه به إثم. ولما كان السياق لإجلال النبي صــــلى الله عليه وســــلم مع أنه لا تعرف حقيقة الإثم إلا منه قال تعالى : {ومعصيت الرسول} أي الكامل في الرسلية فإن ذلك يشوش فكره فلا يدعه يبلغ رسالات ربه وهو منشرح الصدر طيب النفس.

ولما علم أن نهيهم إنما هو عن شــــر يفســـد ذات البين هو ما لا يريدون إطلاع النبي صلى الله عليه، صرح بقوله حثاً على إصلاح ذات البين لأن خير الأمور ما عاد بإصــلاحها، وشــر الأمور ما عاد بإفســادها: {وتناجوا بالبر } أي بالخير الواســع الذي فيه حســن التربية، ولما كان ذلك قد يعمل

طبعاً، حث على القصد الصالح بقوله: {والتقوى} وهي ما يكون في نفسه ظاهراً أنه يكون سترة تقي من عذاب الله بأن يكون مرضياً لله ولرسوله.
ولما كانت التقوى أم المحاسن، أكدها ونبه عليها بقوله: {واتقوا الله} أي اقصدوا قصداً يتبعه العمل أن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الأعظم وقاية.
ولما كانت ذكرى الآخرة هي مجمع المخاوف ولا سيما فضائح الأسرار على رؤوس الأشهاد قال: {الذي إليه} أي خاصة {تحشرون *} أي تجمعون بأيسر أمر وأسهله بقهر وكره، وهو يوم القيامة، فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والإنصاف بينهم بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير لا يخفى عليه خافية ولا تقي منه واقية تتكشف فيه سرادقات العظمة، ويظهر ظهوراً تاماً نفوذ الكلمة، ويتجلى في مجالي العز سطوات القهر، وتنبث لوامع الكبر، فإذا فعلتم ذلك مستحضرين لذلك لم تقدموا على شيء تريدون إخفاءه من النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك أقر لعينه وأطهر لكم.
ولما شدد سبحانه في أمر النجوى وكان لا يفعلها إلا أهل النفاق، فكان ربما ظن ظان أنه يحدث عنها ضرر لأهل الدين، قال ساراً للمخلصين وغاماً للمنافقين ومبيناً أن ضررها إنما يعود عليهم: {إنما النجوى} أي المعهودة وهي المنهي عنها، وهي ما كره صاحبه أن يطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: ما خيله الشيطان من الأحكام المكروهة للإنسان {من الشيطان} أي مبتدئه من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى فإنه الحامل عليها بتزيينها ففاعلها تابع لأعدى أعدائه مخالفة لأوليائه.

ولما بين أنها منه، بين الحامل له على تزيينها فقال: {ليحزن} أي الشيطان ليوقع الحزن في قلوب {الذين آمنوا} أي يتوهمهم أنهم بسبب شيء وقع ما يؤذيهم، والحزن: هم غليظ وتوجع يرق له القلب، حزنه وأحزنه بمعنى، وقال في القاموس: أو أحزنه: جعله حزيناً، وحزنه: جعل فيه حزناً.

فعلى هذا قراءة نافع من أحزن أشد في المعنى من قراءة الجماعة.

ولما كان ربما خيل هذا من من في قلبه مرض أن في يد الشيطان شيئاً من الأشياء، سلب ذلك بقوله: {وليس} أي الشيطان وما حمل عليه من التناجي، وأكد النفي بالجار فقال: {بضارّهم} أي الذين آمنوا {شيئاً} من الضرر وإن قل وإن خفي- بما أفهمه الإدغام {إلا بإذن الله} أي تمكين الملك المحيط بكل شيء علماً وقدرة، روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه» ولما كان التقدير: فقد علم أنه لا يخشى أحد غير الله لأنه لا ينفذ إلا ما أراده، فإياه فليخش المربوبون، عطف عليه قوله: {وعلى الله} أي الملك الذي لا كفوء له، لا على أحد غيره {فليتوكل المؤمنون} أي الراسخون في الإيمان في جميع أمورهم، فإنه القادر وحده على إصلاحها وإفسادها، ولا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسره ولا بجهره، فإنه إذا توكلوا عليه وفوضوا أمورهم إليه، لم يأذن في حزنهم، وإن لم يفعلوا أحزنهم، وخص الراسخين لإمكان ذلك منهم في العادة، وأما أصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم إلا خرق عادة.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 12]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)}

ولما ذكر ما يحزن من السر لكونه اختصاصاً عن الجليس بالمقال فينشأ عنه ظن الكدر وتباعد القلوب، أتبعه الاختصاص بالمجلس الذي هو مباعدة الأجسام اللازم لها من الظن ما لزم من الاختصاص بالسر في الكلام فينشأ عنه الحزن، معلماً لهم بكمال رحمته وتمام رأفته بمراعاة حسن الأدب بينهم وإن كان من أمور العادة دون أحكام العبادة، فقال مخاطباً لأهل الدرجة الدنيا في الإيمان لأنهم المحتاجون لمثل هذا الأدب : {يا أيها الذين آمنوا} حداهم بهذا الوصف على الامتثال {إذا قيل لكم} أي من أيّ قائل كان فإن الخير يرغب فيه لذاته: {تفسحوا} أي توسعوا أي كلفوا أنفسكم في إيساع المواضع {وفي المجلس} أي الجلوس أو مكانه لأجل من يأتي فلا يجد مجلساً يجلس فيه، والمراد بالمجلس جنس المكان الذي هم ماكثون به بجلوس أو قيام في صلاة أو غيرها لأنه أهل لأن يجلس فيه. وذلك في كل عصر، ومجلس النبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك، وقراءة عاصم بالجمع موضحة لإرادة الجنس {فافسحوا} أي وسعوا فيه عن سعة صدر {يفسح الله} أي الذي له الأمر كله والعظمة الكاملة {لكم} في كل ما تكرهون ضيقه من الدارين.

ولما كانت التوســـعة يكفي فيها التزحزح مع دوام الجلوس تارة وأخرى تدعو الحاجة فيها إلى القيام للتحول من مكان إلى آخر قال: {وإذا قيل} أيّ من قائل كان- كما مضى- إذا كان يريد الإصلاح والخير {انشزوا} أي ارتفعوا وانهضوا إلى الموضع الذي تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الأوامر كالصــلاة أو الجهاد وغيرهما {فانشــزوا} أي فارتفعوا وانهضــوا {يرفع الله} الذي له جميع صــــفات الكمال، عبر بالجلالة وأعاد إظهارها موضع الضمير ترغيباً في الامتثال لما للنفس من الشح بما يخالف المألوف {الذين آمنوا} وإن كانوا غير علماء {منكم} أيها المأمورون بالتفسح السامعون للأوامر، المبادرون إليها في الدنيا والآخرة بالنصر وحسن الذكر بالتمكن في وصف الإيمان الموجب لعلو الشأن بطاعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم في سعة صدورهم بتوسعتهم لإخوانهم.

ولما كان المؤمن قد لا يكون من المشــهورين بالعلم قال: {والذين} ولما كان العلم في نفســـــه كـافيـاً في الإعلاء من غير نظر إلى مؤت معين، بنى للمفعول قوله: {أوتوا العلم} أي وهم مؤمنون {درجات} درجة بامتثال الأمر وأخرى بالإيمان، ودرجة بفضــل علمهم وســابقتهم- روى الطبراني وأبو نعيم في كتاب العلم عن ابن عباس رضـــي الله عنهما أن النبي صـــلى الله عليه وسـلم قال: «من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الإســلام لم يفضــله النبيون إلا بدرجة واحدة»، رواه الدارمي وابن الســني في رياضــة المتعلمين عن الحسـن غير منسـوب، قال شـيخنا: فقيل: هو البصـري فيكون مرسـلاً، وعن الزبير: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكور الرجال.

وكلما كان الإنسان أعلم كان أذكر، ولعله ترك التقييد ب «من» في هذا وإن كانت مرادة ليفهم أن العلم يعلي صاحبه مطلقاً، فإن كان مؤمناً عاملاً بعلمه كان النهاية، وإن كان عاصـــياً كان أرفع من مؤمن عاص وعار عن العلم، وإن كان كافراً كانت رفعته دنيوية بالنســبة إلى كافر لا يعلم، ودل على ذلك بختم الآية بقوله مرغباً مرهباً: {والله} أي والحال أن المحيط بكل شـيء قدرة وعلماً {بما تعملون} أي حال الأمر وغيره {خبير *} أي عالم بظاهره وباطنه، فإن كان العلم مزيناً بالعمل بامتثال الأوامر واجتناب النواهي وتصـفية الباطن كانت الرفعة على حسـبه، وإن كان على غير ذلك فكذلك، وقدم الجار ومدخوله وإن كان علمه سـبحانه بالأشـياء كلها على حد سـواء تنبيهاً على مزيد الاعتناء بالأعمال، لا ســـيما الباطنة من الإيمان والعلم اللذين هما الروح الأعظم، لأن المقام لنزول الإنســـان عن مكانه بالتفســـح والانخفاض والارتفاع، ولا يخفى ما في ذلك من حظ النفس الحامل على الجري مع الدسـائس، فكان جديراً بمزيد الترهيب، وسـبب الآية أن أهل العلم لما كانوا أحق بصـدر المجلس لأنهم أوعى لما يقول صـاحب المجلس، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ليليني أولو الأحلام منكم والنهى»، وكان صـلى الله عليه وسـلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصـار فجاء أناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شـماس وقد سـبق غيرهم إلى المجلس فقاموا حيال النبي صـــلى الله عليه وســلم فقالوا: الســلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد عليهم النبي صـلى الله عليه وسـلم ثم سـلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوســع لهم فلم يفعلوا فقال

لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان، فأقام من المجلس بقدر القادمين من أهل بدر، فشــق ذلك على من أقيم، وعرف النبي صــلى الله عليه وســلم الكراهية في وجوههم، فقال المنافقون : ألســتم تزعمون أن صــاحبكم يعدل، فوالله ما عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالســهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه مكانهم، فأنزل الله هذه الآية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم» رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الحسن: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قاتل المشركين فصف أصحابه رضي الله عنهم للقتال تشاحوا على الصف الأول فيقول الرجل لإخوانه: توسعوا لنلقى العدو فنصيب الشهادة، فلا يوسعون له رغبة منهم في الجهاد والشـــهادة، فأنزل الله هذه الآية، وهي دالة على أن الصالح إن كره مجاورة فاسق منع من مجاورته لأنه يؤذيه ويشغله عن كثير من مهماته، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

»لا ضرر ولا ضرار» وقال: «أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول» وقال: «شر الناس من لا يأمن جاره بوائقه» فقال تعالى معظماً لرسوله صلى الله عليه وسلم وناهياً عن إبرامه صلى الله عليه وسلم بالســؤال والمناجاة، ونافعاً للفقراء والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا، ولما نهى عما يحزن من المقال والمقام، وكان المنهي عنه من التناجي إنما هو لحفظ قلب الرسول صلى الله عليه وسلم عما يكدره فهو منصــرف إلى مناجاتهم غيره، وكان ذلك مفهماً أن مناجاتهم له صــلى

الله عليه وسلم لا حرج فيها، وكان كثير منهم يناجيه ولا قصد له إلا الترفع بمناجاته فأكثروا في ذلك حتى شق عليه صلى الله عليه وسلم، وكان النافع للإنسان إنما هو كلام من يلائمه في الصفات ويشاكله في الأخلاق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناس من الدنيا تقذراً لها لأجل بغض الله لها، أمر من أراد أن يناجيه بالتصدق ليكون ذلك أمارة على الاجتهاد في التخلق بأخلاقه الطاهرة من الصروف عن الدنيا والإقبال على الله، ومظهراً له عما سلف من الإقبال عليها فإن الصدقة برهان على الصدق في الإيمان، وليخفف عنه صلى الله عليه وسلم ما كانوا قد أكثروا عليه من المناجاة، فلا يناجيه إلا من قد خلص إيمانه فيصدق، فيكون ذلك مقدمة لانتفاعه بتلك المناجاة كما أن الهدية تكون مهيئة للقبول كما ورد «نعم الهدية أمام الحاجة» فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} أي ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة أغنياء كانوا أو فقراء {إذا ناجيتم} أي أردتم أن تناجوا {الرسول} صلى الله عليه وسلم أي الذي لا أكمل منه في الرسلية فهو أكمل الخلق ووظيفته تقتضي أن يكون منه الكلام بما أرسله به الملك وتكون هيبته مانعة من ابتدائه بالكلام، فلا يكون من المبلغين إلا الفعل بالامتثال لا غير {فقدموا} أي بسبب هذه الإرادة العالية على سبيل الوجوب ومثل النجوى كشخص له يدان يحتاج ان يطهر نفسه ليتأهل للقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: {بين يدي نجواكم} أي قبل سركم الذي تريدون أن ترتفعوا به {صدقة} تكون لكم برهاناً قاطعاً على إخلاصكم كما ورد أن الصدقة برهان، فهي مصدقة لكم في دعوى الإيمان التي هي التصديق بالله تعالى

ورســوله صــلى الله عليه وســلم وبكل ما جاء به عن الله تعالى، ومعظمه الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، ولذلك اســتأنف قوله: {ذلك} أي الخلق العالي جداً من تقديم التصـــدق قبل المناجاة يا خير الخلق، ولعله أفرده بالخطاب لأنه لا يعلم كل ما فيه من الأسرار غيره.

وعاد إلى الأول فقالك {خير لكم} أي في دينكم من الإمســاك عن الصــدقة {وأطهر} لأن الصــدقة طهرة ونماء وزيادة في كل خير، ولذلك سـميت زكاة {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} والتعبير بأفعل لأنهم مطهرون قبله بالإيمان.

ولما أمر بذلك، وكانت عادته أن لا يكلف بما فوق الوســـع للتخفيف على عباده لا سيما هذه الأمة قال: {فإن لم تجدوا} أي ما تقدمونه.

ولما كان المعنى الكافي في التخفيف: فليس عليكم شـيء، دل عليه بأحسـن منه فقال: {فإن الله} أي الذي له جميع صفات الكمال، وأكده لاستبعاد مثله فإن المعهود من الملك إذا ألزم رعيته بشـيء أنه لا يسقطه أصـلاً ورأساً، ولا سيما إن كان يسيراً، ودل على أنه سبحانه لن يكلف بما فوق الطاقة بقوله: {غفور رحيم *} أي له صـفتا السـتر للمســاوئ والإكرام بإظهار المحاسـن ثابتتان على الدوام فهو يغفر ويرحم تارة بعدم العقاب للعاصي وتارة للتوسعة للضـيق بأن ينسـخ ما يشـق إلى ما يخف، وهذه الآية قيل: إنها نسـخت قبل العمل بها، وقال علي رضـــي الله عنه: ما عمل بها أحد غيري، أردت المناجاة ولي دينار فصـرفته بعشـرة دراهم وناجيته عشـر مرات أتصـدق في كل مرة بدرهم، ثم ظهرت فشــق ذلك على الناس، فنزلت الرخصــة في ترك

الصــــدقة، «وروى النســـائي في الكبرى والترمذي وقال: حســـن غريب وابن حبان وأبو يعلى والبزار عن علي رضــــــي الله عنه أنه قال: لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» مرهم أن يتصدقوا «. قلت: بكم يا رسول الله؟ قال:» بدينار «، قلت: لا يطيقون. قال:» فنصـف دينار «، قلت: لا يطيقون، قال:» فبكم؟ «قلت: بشعيرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» إنك لزهيد «، فأنزل الله تعالى {أأشـفقتم} الآية. وكان علي رضـــي الله عنه يقول: بي خفف الله عن هذه الأمة. وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيئاً أو أن لا يكون احتاج إلى المناجاة.

▲ تفسير الآيات رقم [13 -15]

{أَأَشْـفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَـدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَـدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15)}

ولما دل ختم الآية على التخفيف، وكان قد يدعي مدعون عدم الوجدان كذباً فيحصــــل لهم حرج، وكان تعالى شــــديد العناية بنجاة هذه الأمة، دل على لطفه بهم بنســخه بعد فرضــه. فقال موبخاً لمن يشــح على المال نادباً إلى الخروج عنه من غير إيجاب: {أأشـــفقتم} أي خفتم من العيلة لما يعدكم به الشيطان من الفقر خوفاً كاد أن يفطر قلوبكم {أن تقدموا} أي بإعطاء الفقراء وهم إخوانكم {بين يدي نجواكم} أي للرســول صــلى الله عليه وســلم، وجمع

لأنه أكثر توبيخاً من حيث إنه يدل على أن النجوى تتكرر، وذلك يدل على عدم خوفهم من مشقة النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ووجود خوفهم من فعل التصدق فقال: {صدقات} وكان بعضهم ترك وهو واجد فبين سبحانه رحمته لهم بنسخها عنهم لذلك في موضع العقاب لغيرهم عند الترك.

ولما كان من قبلنا إذا كلفوا الأمر الشاق وحملوا على التزامه بمثل رفع الجبل فوقهم، فإذا خالفوا عوقبوا، بين فضل هذه الأمة بأنه خفف عنهم، فقال معبراً بما قد يعشر بأن بعضهم ترك عن قدرة: {فإذ} أي فحين {لم تفعلوا} أي ما أمرتم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الإشفاق {وتاب الله} أي الملك الأعلى الذي كان من شأن ما هو عليه من العظمة أن يعاقب من ترك أمره {عليكم} أي رجع بمن ترك الصدقة عن وجدان، وبمن تصدق وبمن لم يجد إلى مثل حاله قبل ذلك من سعة الإباحة والعفو والتجاوز والمعذرة والرخصة والتخفيف قبل الإيجاب ولم يعاقبكم على الترك ولا على ظهور اشتغال ذلك منكم، قال مقاتل بن حيان: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ، وقال الكلبي: ما كانت إلا ساعة من نهار. وعلى كل منهما فهي لم تتصل بما قبلها نزولاً وإن اتصلت بها تلاوة وحلولاً {فأقيموا} بسبب العفو عنكم شكراً على هذا الكرم والحلم {الصلاة} التي هي طهرة لأرواحكم ووصلة لكم بربكم {وآتوا الزكاة} التي هي نزاهة لأبدانكم وتطهير ونماء لأموالكم وصلة بإخوانكم، ولا تفرطوا في شيء من ذلك فتهملوه، فالصلاة نور تهدي إلى المقاصد الدنيوية والأخروية، وتعين على نوائب الدارين، والصدقة برهان على صحة القصد في الصلاة.

ولما خص أشــرف العبادات البدنية وأعلى المناســك المالية، عم فقال حاثاً على زيادة النور والبرهان اللذين بهما تقع المشـــاكلة في الأخلاق فتكون المناجاة عن أعظم إقبال وإنفاق فقال: {وأطيعوا الله} أي الذي له الكمال كله فلم يشركه في إبداعه لكم على ما أنتم عليه أحد {ورسوله} الذي عظمته من عظمته في ســائر ما يأمر به فإنه ما أمركم لأجل إكرام رســولكم صــلى الله عليه وسـلم إلا بالحنيفية السـمحة، وجعل المحافظة على ذلك قائمة مقام ما أمركم به، ثم نسخه عنكم من تقديم الصدقة على النجوى.

ولما كان قد عفا عن أمر أشعر السياق بأنه وقع فيه تفريط، فكان ذلك ربما جرى على انتهاك الحرمات، رهب من جنابه بإحاطة العلم، وعبر بالخبر لأن أول الآية وبخ على أمر باطن ولم يبالغ بتقديم الجار لما فيها من الأمور الظاهرة. فقال عاطفاً على ما تقديره: فالله يحب الذين يطيعون: {والله} أي الذي أحاط بكل شــيء قدرة وعلماً {خبير بما تعملون *} أي تجددون عمله، يعلم بواطنه كما يعلم ظواهره.

ولما أخبر بإحاطة علمه ردعاً لمن يغتر بطول حلمه، دل على ذلك باطلاعه على نفاق المنافقين الذي هو أبطن الأشــياء، فقال معجباً مرهباً معظماً للمقام بتخصيص الخطاب بأعلى الخلق صلى الله عليه وسلم تنبيهاً على أنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره: {ألم تر} ودل على بعدهم عن الخير بحرف الغاية فقال: {إلى الذين تولوا} أي تكلفوا بغاية جهدهم أن جعلوا أولياءهم الذين ينزلون بهم أمورهم {قوماً} ابتغوا عندهم العزة اغتراراً بما يظهر لهم منهم من القوة {غضــب الله} أي الملك الأعلى الذي لا ند له

{عليهم} أي على المتولين والمتولَّين لأنهم قطعوا ما بينهم وبينه، والأولون هم المنافقون تولوا اليهود، وزاد في الشـناعة عليهم بقوله مسـتأنفاً: {ما هم} أي اليهود المغضوب عليهم {منكم} أيها المؤمنون لتوالوهم خوفاً من السيف ورغبة في السلم {ولا منهم} أي المنافقين، فتكون موالاتهم لهم لمحبة سابقة وقرابة شـــابكة، ليكون ذلك لهم عذراً، بل هم مذبذبون، فهم مع المؤمنين بأقوالهم، ومع الكفار بقلوبهم، فما تولوهم إلا عشـــقاً في النفاق لمقاربه ما بينهم فيه، أو يكون المعنى: ما المنافقون المتولون من المســـلمين ولا من اليهود المتولين، وزاد في الشـــناعة عليهم بأقبح الأشـــياء الحالم على كل رذيلة، فقال ذاكراً لحالهم في هذا الاتحاد: {ويحلفون} أي المنافقون يجددون الحلف على الاستمرار، ودل بأداة الاستعلاء على أنهم في غاية الجرأة على اســـتمرارهم على الأيمان الكاذبة بأن التقدير: مجترئين {على الكذب} في دعوى الإسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام، فإذا عوتبوا عليه بادروا إلى الإيمان.

ولما كان الكذب قد يطلق في اللغة على ما يخالف الواقع وإن كان عن غير تعمد بأن يكون الحالف يجهل عدم مطابقته للواقع، قال نافياً لذلك مبيناً أنهم جرؤوا على اليمين الغموس: {وهم يعلمون *} أي أنهم كـاذبون فهم متعمدون، وذلك أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال لأصـحابه: «» يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان «، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:»

علام تشـتمني أنت وأصـحابك، فحلف بالله ما فعل «فقال له: فعلت. فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه«

، فنزلت.

ولما أخبر عن حالهم، أتبعه الإخبار عن مآلهم، فقال دالاًّ- كما قال القشـيري- على أن- من وافق مغضـوباً عليه أشـرك نفسـه في اسـتحقاق غضــــب من هو غضــــبان عليه، فمن تولى مغضــــوباً عليه من قبل الله استوجب غضب الله وكفى بذلك هواناً وحزناً وحرماناً، معبراً بما دل على أنه أمر قد فرغ منه: {أعد الله} أي الذي له العظمة الباهرة فلا كفوء له، وعبر بما دل على التهكم بهم فقال: {لهم عذاباً} أي أمراً قاطعاً لكل عذوبة {شديداً} يعلم من رآه ورآهم أن ذواتهم متداعية إليه ضعيفة عنه.

ولما أخبر بعذابهم، علله بما دل على أنه واقع في أتم مواقعه فقال مؤكداً تقبيحاً على من كان يستحسن أفعالهم: {إنهم ساء} أي بلغ الغاية مما يسوء، ودل على أن ذلك كان لهم كالجبلة بقوله: {ما كانوا يعملون *} أي يجددون عمله مستمرين عليه لا ينفكون عنه من غشـهم المؤمنين ونصـحهم الكافرين وعيبهم للإسـلام وأهله، واجترائهم على الأيمان الكاذبة، وأصـروا على ذلك حتى زادهم التمرن عليه جرأة على جميع المعاصي.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 19]

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَـــبُونَ أَنَّهُمْ

عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)}

ولما دلت هذه الجملة على سـوء أعمالهم ومداومتهم عليها، أكد ذلك بقوله: {اتخذوا} أي كلفوا فطرهم الأولى المستقيمة لما لهم من العراقة في اعوجاج الطبع والمحبة للأذى {أيمانهم} الكاذبة التي لا تهون على من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان {جنة} أي وقاية وسترة من كل ما يفضحهم من النفاق كائناً ما كان، أو يوجب قتلهم بما يقع منهم من الكفران.

ولما كان علمهم بأنه يرضى منهم بالظاهر ويصدق أيمانهم هو الذي جرأهم على العظائم، فكانوا يرغبون الناس في النفاق بعاجل الشـهوات ويثبطونهم عن الدين بما فيه من عاجل الكلف وآجل الثواب، سـبب عن قبول إيمانهم قوله مظهراً بزيادة التوبيخ لهم: {فصـدوا} أي كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سبباً لإيقاعهم الصد {عن سبيل الله} أي شرع الملك الأعلى الذي هو الطريق إلى رضوانه الذي هو سبب الفوز الأعظم، فإنهم كانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسـلام ويوهون أمره ويحقرونه، ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الحانثة وردت عليهم الأرزاق استدراجاً وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضـونهم من أقوالهم المؤكدة بالأيمان غره ذلك فاتبع سنتهم في أقوالهم وأفعالهم، ونسج على منوالهم، غروراً بظاهر أمرهم، معرضـاً عما توعدهم الله سبحانه عليه من جزاء خداعهم ومكرهم، وأجرى الأمر على أسلوب التهكم باللام التي تكون في المحبوب فقال: {فلهم} أي

فتســـبب عن صــــدهم أنهم كان لهم {عذاب مهين *} جزاء بما طلبوا بذلك الصد إعزاز أنفسهم وإهانة أهل الإسلام.

ولما كان لهم أموال وأولاد يتعززون بها، قال مستأنفاً دالاً على أن من استتر بجنة دون طاعته لتسلم دنياه وراءه تكشف لسهام التقدير من حيث لا يشعر، ثم لا دينه يبقى ولا دنياه تسلم: {لن تغني} أي بوجه من الوجوه {عنهم} أي في الدنيا ولا في الآخرة بالافتداء ولا بغيره {أموالهم} وأكد النفي بإعادة النافي للتنصيص على كل منهما فقال: {ولا أولادهم} أي بالنصـرة والمدافعة {من الله} إي إغناء مبتدئاً من الملك الأعلى الذي لا كفوء له {شــــيئاً} أي من إغناء ولو قل جدّاً، فمهما أراد بهم سبحانه كان ونفد ومضى، لا يدفعه شيء تكذيباً لمن قال منهم: لئن كان يوم القيامة لتكونن أسـعد فيه منكم كما نحن الآن ولننصـرن بأنفسـنا وأموالنا وأولادنا. ولما انتفى الإغناء المبتدئ من الله فانتفى بانتفائه كل إغنائه سواه، أنتج ذلك قوله: {أولئك} أي البعداء من كل خير {أصحاب النار} ولما أفهمت الصحبة الملازمة، أكدها بقوله: {هم} أي خاصـــة لاضـــمحلال عذاب غيرهم- لكونهم في الهاوية- في جنب عذابهم {فيها} أي خاصــة دون شــيء يقصـر عنها {خالدون *} أي مقيمون باقون دائمون لازمون إلى غير نهاية.

ولما كان إفســـادهم لذات البين ســـراً، وحلفهم على نفي ذلك جهراً مع الإلزام بقبول ما ظهر من ذلك منهم مع علمه ســـــبحانه وتعالى بأنه كذب غائظاً موجعاً، وكان ربما توهم متوهم أنه تعالى كما ألزم بقبولنا لما ظهر منهم في دار العمل يأمر بقبولهم في دار الجزاء، قال نافياً لذلك معزياً للمؤمنين بأنهم

يفعلون ذلك معه سبحانه بعد كشف الغطاء وتحقيق الأمور، لأن الإنسان يبعث على ما مات عليه، لأن ذلك جبلته التي لا ينفك عنها، ولا ينفعهم ذلك، ذاكراً ظرف الخلود وإظهار التعذيب: {يوم يبعثهم الله} أي الملك الذي له جميع صفات الكمال بإحيائهم عما كانوا فيه من الموت وردهم إلى ما كانوا قبله {جميعاً} لا يترك أحداً منهم ولا من غيرهم إلا أعاده إلى ما كان عليه قبل موته {فيحلفون} أي فيتسبب عن ظهور القدرة التامة لهم ومعاينة ما كانوا يكبون به من البعث والنار أنهم يحلفون {له} أي الله في الآخرة أنهم مسلمون فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، ونحوه من الأكذوبات التي تزيدهم ضرراً، ولا تغني عنهم شيئاً بوجه من الوجوه، جرياً على ما طبعوا عليه من إيثار الهوى والقصور على النظر في المحسوسات التي ألفوها {كما يحلفون} في الدنيا {لكم} لكونكم لا تعلمون الغيب مع توقعهم أن الله يفضحهم كما فعل لهم ذلك مراراً، وحلفهم ناشئ عن اعتقاد بعدهم من القبول فإنه لا يحلف لك إلا من يظن أنك تكذبه: قال القشيري: عقوبتهم الكبرى ظنهم الأجنبية، وغاية الجهد كبهم على مناخرهم في وهدة ندمهم.

ولما كان الذي يحملهم على الإقدام على ذلك ضعف عقولهم وتوغلهم في النفاق ومرودهم عليه حتى بعثوا على مثل ذلك مع علمهم بأن ذلك لا ينجيهم لإحاطة علمه سبحانه، عبر بالحسبان، فقال دالاً على أنهم في الغاية من الجهل وقلة العقل: {ويحسبون} أي في القيامة بأيمانهم الكاذبة {أنهم على شيء} أي يحصل لهم به نفع لتخيلهم أن أيمانهم تروج على الله فتنجيهم كما كانت في الدنيا تنجيهم.

ولما أفهم ذلك أن أمورهم لا حقائق لها لا في إخباراتهم ولا في أيمانهم ولا في حسبانهم، قال منادياً عليهم مؤكداً لتكذيب حسبانهم: {ألا إنهم} أي خاصة {هم الكاذبون *} أي المحكوم بكذبهم في حسبانهم وفي أخبارهم في الدارين لعراقتهم في وصف الكذب حيث لا يستحيون من الكذب عند الله.

ولما كان هذا الانهماك فيما لا يغني مما يحصل لسامعه غاية العجب من وقوع عاقل فيه مرة من الدهر، فضلاً عن ملازمته، أخبر عن الحامل لهم عليه، فقال مستأنفاً: {استحوذ} أي طلب أن يغلب ويسوق ويسرع ويضرب الحوطة ويحث ويقهر ويستولي {عليهم الشيطان} مع أنه طريد ومحترق، ووجد منه جميع ذلك، ووصل منهم إلى ما يريده، وملكهم ملكاً لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته وأقطاعه، وصار هو محيطاً بهم من كل جهة، غالباً عليهم ظاهراً وباطناً، من قولهم: حذت الإبل أي استوليت عليها، وحاذ الحمار العانة- إذا جمعها وساقها غالباً لها، والحوذ: السوق السريع، ومنه الأحوذي: الخفيف في المشي لحدقه، وجاء على الأصل على حكم الصحيح لأنه لم يبن على حاذ كافتقر فإنه لا مجرد له، لم يقولوا: فقر: {فأنساهم} أي فتسبب عن استحواذه عليهم أنه أنساهم {ذكر الله} أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بعد أن كان ذكره مركوزاً في فطرهم الأولى، فصاروا لا يذكرونه أصلاً بقلب، ولا لسان.

ولما كان ذلك، أنتج ولا بد قوله: {أولئك} أي الذين أحلوا أنفسهم أبعد منزل {حزب الشيطان} أي أتباعه وجنده وجماعته وطائفته وأصحابه والمحدقون به والمتحيزون إليه لدفع ما حزبه أي نابه واشتد عليه، المبعدون المحترقون

لأنهم تبعوه ولم يخافوا في مجازيته وإنفاذ ما يريد لومة لائم مع أنه كله نقائص ومعايب، وهم مطبوعون على بغضه، وتركوا من له الكمال كله، وكر وحبه مركوز في فطرهم، فلذلك كانت ترجمة هذا ونتيجته قوله: {ألا} وأكد لظنهم الربح بما لهم في الدنيا من الكثرة وظهرو التعاضد والاستدراج بالبسط والسعة فقال: {إن حزب الشيطان} أي الطريد المحترق {هم} أي خاصة {الخاسرون *} أي العريقون في هذا الوصف لأنهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 22]

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)}

ولما بين ما أوصلهم إليه نسيان الذكر من الخسار، بين أنه أوقعهم في العداوة، فقال معللاً الخسار والنسيان والتحزب، وأكد تكذيباً لحالفهم على نفي ذلك مظهراً موضع الإضمار للتنبيه على الوصف الموقع في الهلاك: {إن الذين يحادون} ولعل الإدغام لسترهم ذلك الإيمان، ويفهم منه الحكم على من جاهر بطريق الأولى {الله} أي يفعلون مع الملك الأعظم الذي لا

كفوء له فعل من ينازع آخر في أرض فيغلب على طائفة منها فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه {ورسوله} الذي عظمته من عظمته.
ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم، فيظن من رآهم أنهم الأعزاء الذين لا أحد أعز منهم، قالتعالى نفياً لهذا الغرور الظاهر: {أولئك} أي الأباعد الاسافل {في الأذلين *} أي الذين يعرفون أنهم أذل الخلق بحيث يوصف كل منهم بأنه الأذل مطلقاً من غير مفضل عليه ليعم كل من يمكن منه ذل، وذلك في الدنيا والآخرة سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم سواء كانوا ملوكاً كفرة كانوا أو فسقة، كما قال الحسن: إن للمعصية في قلوبهم لذلاً، وإن طقطقت بهم اللجم. ولما أنزلهم بالحضيض الأسفل، علل ذلك بما يدل على أنه سبحانه لا شريك له بإتمام كلماته بنصر أوليائه على ضعفهم وخذلان أعدائه على قوتهم لأنه سبحانه لا غيب محض لا دلالة عليه إلا بأفعاله فقال: {كتب} أي فعل فعل من أبرم أمراً ففرغ منه وكتبه فأوجب وحتم وقضى وبت {الله} أي الملك الذي لا كفوء له {لأغلبنَّ} أكد لما لهم من ظن الغلب بالكثرة والقوة {أنا ورسلي} أي بقوة الجدال وشدة الجلاد، فهو صادق بالنسبة إلى من بعث بالحرب، وإلى من بعث بالحجة، وعلل هذا القهر بقوله مؤكداً لأن أفعالهم مع أوليائه أفعال من يظن ضعفه: {إن الله} أي الذي له الأمر كله {قوي} فهو يفيض من باطن قوته من يظهر به ظاهر قدرته أوليائه، فإن القوي من له استقلال باطن بما يحمله القائم في الأمر ولو ضوعف عليه ما عسى أن يضاعف وحمايته مما يتطرق إلى الإجلال بشدة وبطش منبعث عن ذلك الاستقلال الباطن، وما ظهر من أثر

ذلك فهو قدرة، فلا اقتدار يظهر من الخلق إلا بالاستناد إلى القوة بالله، ولا قيام بالحقيقة لباطن إلا بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، فلذلك كان بالحقيقة لا قوي إلا هو.

ولما كان القوي من المخلوقات قد يكون غيره أقوى من غيره ولو في وقت، نفى ذلك بقوله: {عزيز *} أي غالب غلبة لا يجد معها المغلوب نوع مدافعة وانفلات، ثابت له هذا الوصف دائماً.

ولما ظهر بهذا كالشمس أن من والاه سبحانه كان فائزاً، ومن عاداه كان خاسراً، كانت نتيجته قطعاً التحذير من موالاة أعداء الله في سياق النفي المفيد للمبالغة في النهي عنه والزجر عن قربانه فقال: {لا تجد} أي بعد هذا البيان {قوماً} أي ناساً لهم قوة على ما يريدون محاولته {يؤمنون} أي يجددون الإيمان ويديمونه {بالله} أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى {واليوم الآخر} الذي هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل، الذي هو محط الحكمة {يوادون} أي يحصل منهم ودل لا ظاهراً ولا باطناً- بما أشار إليه الإدغام وأقله الموافقة في المظاهرة {من حاد الله} أي عادى بالمناصبة في الحدود الملك الأعلى لذلك فالمحادة لا تخفى وإن كانت باطنة يستتر بها زيادة النفرة منهم {ورسوله} فإن من حاده فقد حاد الذي أرسله، بل لا تجدهم إلا يحادونهم، لا أنهم يوادونهم، وزاد ذلك تأكيداً بقوله: {ولو كانوا آباءهم} الذين أوجب الله على الأبناء طاعتهم بالمعروف، وذلك كما فعل أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، قتل أباه عبد الله بن الجرح يوم أحد {أو أبناءهم} الذي جبلوا على محبتهم ورحمتهم كما فعل أبو

بكر رضـــــي الله عنه فإنه دعا ابنه يوم بدر إلى المبارزة، وقال : دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الأولى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: »متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك بمنزلة سمعي وبصري» {أو إخوانهم} الذين هم أعضـادهم كما فعل مصـعب بن عمير رضـي الله عنه، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخرق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الصفوف يومئذ على أخيه عتبة بن أبي وقاص غير مرة ليقتله فراع عنه روعان الثعلب، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أتريد أن تقتل نفسك وقتل محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه أخاه من الرضاع كعب بن الأشـرف اليهودي رأس بني النضـير {أو عشـيرتهم} الذين هم أنصـارهم وأمدادهم كما فعل عمر رضـي الله عنه، قتل خاله العاصـي بن هشـام بن المغيرة يوم بدر وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث رضـــي الله عنهم قتلوا يوم بدر بني عمهم عتبة وشـــيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وعن الثوري أن السـلف كانوا يرون أن الآية نزلت فيمن يصـحب السلطان- انتهى. ومدار ذلك على أن الإنســان يقطع رجاءه من غير الله، وإن لم يكن كذلك لم يكن مخلصاً في إيمانه.

ولما كان لا يحمل على البراءة ممن هذا شـــأنه إلا صـــريح الإيمان، أنتج قوله: {أولئك} أي الأعظمون شـأناً الأعلون همماً {كتب} أي وصـل وأثبت وصـــلاً وهو في لحمته كالخرز في الأديم، وكالطراز في الثوب الرقيم، فلا انفكاك له {في قلوبهم الإيمان} فجعلها أوعية له فأثمر ذلك نور الباطن واستقامة الأعمال في الظاهر {وأيدهم} أي قواهم وشددهم وأعانهم وشجعهم

وعظمهم وشرفهم {بروح} أي نور شريف جداً يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كنوز العلم والعمل فهو لقلوبهم كالروح للأبدان، فلا يفعلون شـــيئاً من أحوال أهل الجاهلية كالمظاهرة، وزاد هذا التأييد شرفاً بقوله: {منه} أي أحياهم به فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الأوقات فأثمر لهم استقامة المناهج ظاهراً وباطناً، فقهروا بالدلائل والحجج، وظهروا بالســـيف المفني للمهج، وعملوا الأعمال الصـــالحة فكانوا للدنيا كالســـرج، فلا تجد شـــيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، بل هو عين الإخلاص، ومن جنح إلى منحرف عن دينه أو داهن مبتدعاً في عقده نزع الله نور التوحيد من قلبه.

ولما أخبر بما آتاهم في الدنيا وهو غير مفارق لهم في الآخرة، أخبر بما يؤتيهم في الآخرة فقال: {ويدخلهم جنات} أي بساتين يستر داخلها من كثرة أشجارها، وأخبر عن ريها بقوله: {تجري} ولما كانت المياه لو عمت الأرض لم يكن بها مســـتقر، أثبت الجار فقال: {من تحتها الأنهار} أي فهي لذلك كثيرة الرياض والأشجار والساحات والديار. ولما كان ذلك لا يلذ إلا بالدوام قال: {خالدين فيها}.

ولما كان ذلك لا يتم إلا برضا مالكها قال: {رضـي الله} أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله فلا التفات إلى غيره {عنهم} ولما كان ذلك لا يكمل سروره إلا برضاهم ليتم حسن المجاورة قال: {ورضوا عنه} أي لأنه أعطاهم فوق ما يؤملون. ولما أخبر عنهم بما يسر كل سامع فيشتاق إلى مصاحبتهم ومعاشرتهم ومرافقتهم ومقاربتهم ومدحهم وعرفهم بقوله: {أولئك} أي الذين هم

في الدرجة العليا من العظمة لكونهم قصـــروا ودهم على الله علماً منهم بأنه ليس النفع والضـــر إلا بيده {حزب الله} أي جند الملك الأعلى الذي أحاط بجميع صـفات الكمال وأولياءه، فإنهم هم يغضـبون له ولا يخافون فيه لومة لائم. ولما تبين مما أعد لهم وأعد لأضـدادهم أنهم المختصـون بكل خير، قال على طريق الإنتاج مما مضـى مؤكداً لما لأضـدادهم من الأنكاد: {ألا إن حزب الله} أي جند الملك الأعلى وهم هؤلاء الموصـــوفون ومن والاهم {هم} أي خاصـــة لا غيرهم {المفلحون *} أي الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين، وقد علم من الرضـــى من الجانبين والحزبية والإفلاح عدم الانفكاك عن السـعادة فأغنى ذلك عن تقييد الخلود بالتأبيد، خصـهم بذلك لأن لـه العزة والقوة والعلم والحكمـة، فلذلك علم أمر المجادلـة ورحم شـكواها لأنها من حزبه وسـمع لها، ومن سـمع له فهو مرضـي عنه، وحرم الظهار بسبب شكواها إكراماً لها بحكمته لأنه منابذ للحكمة لأنه تشبيه خارج عن قادة التشـــبيهات، وفيه امتهان للأم التي لها في دينه غاية الإكرام بالتسـوية بالزوجة التي هي محل الافتراش، وختم آيها بأن من تعدى حدوده فعاود أحوال الجاهلية فهو مجادله سبحانه فهو من حزب الشيطان، فقد عاد آخرها إلى أولها بأدل دليل على أحسن سبيل، لأن هذا القرآن العظيم أشرف حديث وأقوم قيل وهذا مقصـود التي بعدها، ولا شـك أنه موجب للتنزيه مبعد عن التشـريك والتشـبيه، فسبحان من أنزله آية دائمة البيان، موجبة للإيمان، قامعة للطغيان، على مدى الدهور وتطاول الأزمان.

▲ سورة الحشر

▲ تفسير الآيات رقم [1– 2]

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2)}

لما ختمت المجادلة بأنه معز أهل طاعته، ومذل أهل معصيته ومحادته، علله بتنزهه عن النقائص تأييداً للوعد بنصرهم فقال: {سبح} أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص {لله} الذي أحاط بجميع صفات الكمال.

ولما كان الكفار من جميع بني آدم قد عبد بعضهم الشمس وبعضهم القمر وبعضهم غيرهما من الكواكب، وكانت الكواكب مبثوثة في السماوات كلها لا تخص سماء بعينها وكذا الملائكة، جمع دلالة على أن الكل عبيد فقال: {ما في السماوات} أي كلها. ولما كان الكلام في النهي عن موادة الذي يحادون الله، وكان ذلك لمن دون الخلص، أكد بإعادة النافي لاحتياجهم للتأكيد فقال: {وما} ولما كان جميع ما عبدوه ما أشركوا به من الأرضيات من شجر وصنم وبقر وغيرها لا يعد والأرض التي هم عليها، أفرد فقال: {في الأرض}.

ولما شمل هذا جميع العالم، أشار إلى أن عظمته لا تنتهي فقال: {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} الذي يغلب كل شيء ولا يمتنع عليه شيء {الحكيم

*} الذي نفذ علمه في الظواهر والبواطن وأحاط بكل شـــيء فأتقن ما أراد، فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلاً، وإلى بيان ما له من العزة والحكمة سبيلاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لا خفاء باتصـــال أيها بما تأخر من آي ســـورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضـب الله عليهم} إنما يراد به يهود فذكر سـبحانه سـوء سـريرتهم وعظيم جرأتهم ثم قال في آخر الســـورة {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورســـوله} فحصـــل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم وإعلامهم بأن بغضـــهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبيح ما انطووا عليه وشـــنيع ما ارتكبوه، فلما أشـــارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبعت بالإعلام في أول ســـورة الحشـــر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم وتمكين المســـلمين منهم، جرياً على ما تقدم الإيماء إليه ســـوء مرتكبهم، والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناســـبه، وتناســـج الكلام، وافتتحت الســـورة بالتنزيه لبنائها على ما أشـــار إليه غضـبه تعالى عليهم إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسـوأ مرتكب وهو اعتداؤهم وعصـيانهم المفصـل في مواضـع من الكتاب وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضـــبه عليهم {أولئك شـــر مكاناً وأضـل عن سواء السبيل} [المائدة: 60] وقال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إســـرائيل على لســـان داود وعيســـى ابن مريم ذلك بما عصـــوا وكانوا يعتدون} [المائدة: 78] فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداءهم أيضاً في مواضع، فلما كان الغضب مشيراً

إلى ما ذكر من عظيم الشرك، أتبعه سبحانه وتعالى تنزيه نفسه جل وتعالى فقال: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض} وإنما يرد مثله من التنزيه أثر جريمة تقع من العباد وعظيمة يرتكبونها وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الكلام إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل الكتاب مما يتصـــــل بما تقدم، ثم تناسجت الآي- انتهى.

ولما نزه نفسه الأقدس دل على ذلك التنزه على العزة والحكمة بدليل شهودي من أنه أنفذ ما كتب من أنه يغلب هو ورســــله ومن أنه كبت الذين حادوه وخيب ظن الذين نافقوا، فتولوا اليهود من أهل الكتاب ليعتزوا بهم، فأذل اليهود وطردهم من مهبط الوحي وأخزى المنافقين الذين جعلوهم محط اعتمادهم وموضع ولايتهم ووددادهم، فقال: {هو} أي وحده من غير إيجاف خيل ولا ركاب {الذي أخرج} على وجه القهر {الذين كفروا} أي ستروا ما في كتبهم من الشواهد التي تشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه النبي الخاتم وما في فطرهم الأولى من أن اتباع الحق أحق، وقبح عليهم كفرهم بقوله موضع {من بني النضير} أو {اليهود} مثلاً: {من أهل الكتاب} أي الذي أنزله الله على رسوله موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وفي التعبير ب {كفروا} إشعار بأنهم الذين أزالوا بالتبديل أو الإخفاء ما قدروا عليه مما بقي من التوراة دالاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان الوطن عديل الروح لأنه للبدن كالبدن للروح، فكان الخروج منه في غاية العسر، دل على مزيد قهرهم به بأن قال: {من ديارهم} ولما كان كان منهم من جلا من المدينة الشريفة إلى خيبر، وهم آل أبي الحقيق وآل حيي

بن أخطب ولحق ســائرهم بأريحا من أرض الشــام أرض المحشــر، ولحق بعضـهم بالحيرة، لوح إلى فتح خيبر وحشرهم منها حشراً ثانياً بقوله معللاً أو موقتاً: {لأول} أي لأجل أول أو عند أول {الحشـر} وفي ذلك إشـارة إلى أن كل بلد حشــروا إليه ســيفتح، ويزلزلون منه زلزلة أخرى، لا تزال مصــائبهم بأهل الإسلام قائمة حتى يكون الحشر الأعظم بالقيامة، والحشر: الجمع من مكان والسوق إلى غيره بكره، وسمي أولاً لأنهم أول من أجلي من اليهود من جزيرة العرب، والحشر الثاني لهم من خيبر على زمن عمر رضـي الله عنه، وعند ابن إسحاق أن إجلاءهم في مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد وفتح قريظة في مرجعه من الأحزاب وبينهما ســنتان، قال لهم النبي صــلى الله عليه وسـلم: «اخرجوا قالوا: إلى أين، قال: إلى أرض المحشـر»، وقال ابن عباس رضــي الله عنهما: من شـك أن المحشـر بأرض الشـام فليقرأ هذه الآية. انتهى، وهذا الحشر يدل على المحشر الأعظم وبينه على قوله صلى الله عليه وسلم:

»بعثت أنا والساعة كهاتين».

ولما كان قد أخبر أن حشــرهم لم يكن بســبب غير محض قدرته، اســتأنف شــرح ذلك بقوله: {ما ظننتم} أي أيها المؤمنون {أن يخرجوا} أي يوقعوا الخروج من شـــيء أورثتموه منهم لما كان لكم من الضـــعف ولهم من القوة لكثرتهم وشــدة بأســهم وشــكيمتهم وقرب بني قريظة منهم فكانوا بصــدد مظـاهرتهم، وأهـل خيبر أيضـــاً غير بعيـدين عنهم وكلهم أهـل ملتهم، والمنافقون من أنصـــارهم وأســـرتهم، فخابت ظنونهم في جميع ذلك وفالت

أراؤهم وسلط عليهم المؤمنون على قلتهم وضعفهم، وإذا أراد الله نصر عبد استأسد أرنبه وإذا أراد قهر عدو استنوق أسده.

ولما كانت الحصون تمنع إلى إتيان الأمداد قال: {وظنوا أنهم} ودل على قوة ظنهم وثباته بالجملة الاسمية فقال: {مانعتهم حصونهم} أي ثابت لها المنع ولهم الامتناع، قالوا: وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي جعل ضميرهم اسم (إن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عز ومنعة لا مطمع معها في معازّتهم، ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه وباسمه الأعظم فقال: {من الله} أي الملك الأعظم الذي لا عز إلا له وأنتم جنده، لا تقاتلون إلا فيه وبه، بأسكم من بأسه، فقد اجتمع الظنان على شيء واحد.

ولما كان إسناد ما للمضاف إلى المضاف إليه شائعاً في لسان العرب وكثيراً جداً لأنه لا يلتبس على من له إلمام بكلامهم، وبليغاً جداً لما له من العظمة، قال: {فآتاهم الله} أي جاءهم الملك الأعظم الذي يحتملون مجيئه بما صور لهم من حقارة أنفسهم التي اضطرتهم إلى الجلاء {من حيث لم يحتسبوا} أي من الجهة التي لم يحملوا أنفسهم على حسبها وهي خذلان المنافقين لهم رعباً كرعبهم واستضعافاً كاستضعاف أنفسهم عن مقاومة جند الله بعد أن كان الشيطان زين لهم غير ذلك، وملأ قلوبهم من الأطماع الفارغة حتى قطعوا بما مناهم وقربه لهم وأغواهم.

ولما كان التقدير: فأوهنهم الله بذلك، عطف عليه قوله: {وقذف} أي أنزل إنزالاً كأنه قذفه بحجارة، فثبت وارتكز {في قلوبهم الرعب} أي الخوف الذي

سـكنها فرضّـها وملأها وعبر منها إلى جميع قواهم فاجتثها من أصـلها، ثم بين حالهم عند ذلك أو فســـر قذف الرعب بقوله : {يخربون بيوتهم} أي يبالغون- على قراءة أبي عمرو بالتشـــديد- في إخرابها، أي إفســادها، فإن الخربة الفساد، وقراءة غيره يفهم الفعل المطلق الذي لا ينافي المقيد {بأيديهم} ضعفاً منهم- بما أشار إليه جمع القلة، ويأساً من قوتهم ليأخذوا ما استحسنوا من آلاتها، فكان الرجل منهم لما تحملوا للرحيل يهدم بيته عن نجاف بابه وما اســتحســن من خشــبه فيضــعه على ظهر بعيره فيأخذه وينقب الجدار ويهدم السقف حسداً للمسلمين أن يسكنوها بعدهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يخلوا له عن البلد ولهم ما حملت إبلهم.

ولما كان السـبب في تخريب الصـحابة رضـي الله عنهم لبيوتهم ما أحرقوهم به من المكر والغدر كانوا كأنهم أمروهم بذلك، فنابوا عنهم فيه، فقال أيضـاً بجمع القلة للدلالة على أن الفعل له سـبحانه وحده: {وأيدي المؤمنين} أي الراسـخين في الإيمان اسـتيلاء وغلبة عليهم وقد كان المؤمنون يخربون ما ضيق عليهم المجال منها لأجل القتال، وقدم تخريبهم لأنه أعجب.

ولما كان في غاية الغرابة أن يفعل الإنسـان في نفسـه كما يفعل فيه عدوه، سـبب عن ذلك قوله: {فاعتبروا} أي احملوا أنفسكم بالإمعان في التأمل في عظيم قدرة الله تعالى على أن تعبروا من ظواهر العلم في هذه القضــية بما دبر الله في إخراجهم إلى بواطن الحكمة بأن لا تعدوا لكم ناصــراً نم الخلق ولا تعتمدوا على غير الله، فإن الاعتبار- كما قال القشــيري- أحد قوانين الشــرع، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره- انتهى. وقد احتج بالآية مثبتو

القياس فإنه مجاوزة من الأصل إلى الفرع، والمجاوزة اعتبار، وهو مأمور به في هذه الآية فهو واجب.

ولما كان الاعتبار عظيم النفع، لا يحصـــل إلا للكمل، زاده تعظيماً بقوله تعالى: {يا أولي الأبصـار *} بالنظر بأبصـاركم وبصـائركم في غريب هذا الصـنع لتحققوا به ما وعدكم على لسـان رسـوله صـلى الله عليه وسـلم من إظهار دينـه وإعزاز نبيـه ولا تعتمدوا على غير الله كما اعتمد هؤلاء على المنافقين، فإن من اعتمد على مخلوق أسـلمه ذلك إلى صـغاره ومذلته، ولا تلموا بغدر كما أرادوا أن يغدروا برسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فيطرحوا عليه وهو قاعد بفناء دار من دورهم رحى من السـطح ليقتلوه بها- زعموا، ولا تفعلوا شيئاً من قبيح أفعالهم لئلا يحصل لكم مثل نكالهم كما أحكمه قوله صـلى الله عليه وسـلم «لتتبعن سـنن من كان قبلكم» الحديث، وذلك الغدر منهم بعد أن حرضـوا قريشـاً على غزوة أحد ودلوهم على بعض العورات، وقال البغوي: إن كعب بن الأشـرف أتى قريشـاً بعد أحد في أربعين راكباً فحالفهم على النبي صـلى الله عليه وسـلم فنزل جبريل عليه السـلام عليه يخبره بذلك، وقال: إنه لما قصـدهم عليه السـلام أرسـلوا إليه أن يخرج في ثلاثين ويخرج منهم ثلاثون ليسـمعوا منه، فإن آمنوا به آمن الكل، فأجابهم فأرسـلوا أن الجمع كثير فاخرج في ثلاثة ليخرج ثلاثة منا، فأرسـلت امرأة منهم إلى أخيها وكان مسلماً أنهم اشتملوا على الخناجر يريدون الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فكف صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وكل ما ذكر من أسباب قصتهم كما ترى دائر على المكر بل هو عين المكر.

▲ تفسير الآيات رقم [3- 5]

{وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)}

ولما دل هذا على غاية الوهن منهم فكان موضع التعجب من الكف عن قتلهم، بين أن السبب في ذلك أمره الباهر وعزه القاهر حثاً على ما ختم به الآية السابقة من الاعتبار والتدبر والاستبصار فقال: {ولولا أن كتب الله} أي فرض فرضاً حتماً الملك الذي له الأمر كله، ودل على أنه كتب إذلالاً وإخزاء بقوله: {عليهم} أي بخصوصهم فيما كتب على بني إسرائيل في الأزل كما كتب على بني قينقاع {الجلاء} أي الخروج من ديارهم والجولان في الأرض، فأما معظمهم فأجلاهم بخت نصر من بلاد الشام إلى العراق، وأما هؤلاء فحماهم الله بمهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجلاء وجعله على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجلاهم فذهب بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام مرة بعد مرة {لعذبهم في الدنيا} أي بالسيف كما سيفعل بأحوالهم من بني قريظة الذين كتب عليهم العذاب دون الجلاء من قتل المقاتلة وسبي الذرية، فإنه تعالى قد قضى قضاء حتماً أنه يطهر المدينة بلد الوحي منهم.

ولما كان التقدير : ولكنه كتب عليهم ذلك فهو عذابهم الآن في الدنيا لا محالة وإن اجتمع أهل الأرض على نصرهم، عطف عليه قوله على طريق

التهكم بالتعبير بأداة النفع: {ولهم} أي على كل حال أجلوا أو تركوا {في الآخرة} التي هي دار البقاء {عذاب النار *} وهو العذاب الأكبر.

ولما أخبر بما نالهم في الدنيا وينالهم في الآخرة، علله بقوله: {ذلك} أي الأمر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا ويفعله بهم في الآخرة {بأنهم} ولما كانوا قد ضموا فى هذه القضية إلى ما كانوا عليه من الكفر الظاهر كفراً باطناً بما أرادوا من إلقاء الرحى وغيره من الأذى مكراً منهم، أدغم في قوله: {شاقوا الله} أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة التامة، فكانوا في شق غير شقه بأن صاروا في شق الأعداء المحاربين بعد ما كانوا في شق الموادعين.

ولما جارى رسول الله صلى الله عليه وسلم إخفاءهم لما أرادوا أن يفعلوا به بالإخفاء لخلاصه منهم بأن رجع إلى المدينة الشريفة وترك أصحابه رضي الله عنهم عندهم قال: {ورسوله} الذي إجلاله من إجلاله. ولما أخبر بفعله وبسببه، عطف عليه تأكيداً لمضمونه وإفاده لأنه يفعل في غيرهم ممن كان على أمرهم أعظم من فعلهم فقال: {ومن يشاق الله} أي يوقع في الباطن مشاققة الملك الأعلى الذي لا كفوء له في الحال أو الماضي أو الاستقبال سواء أبطن معها مشاققة أخرى أو لا، وترك الإدغام على حاله لأنهم ما أظهروا معاداة وإنما كان ما فعلوا مكراً ومساترة، وذلك أخف من المجاهرة، وأظهر في الأنفال لقوة أمر المجاهرين كما مضى، ولم يعد ذكر الرسول تفخيماً له بإفهام أن مشاققته مشاققة لله من غير مثنوية أصلاً، وإشارة إلى أنهم بالغوا في إخفاء مشاققتهم، فلم يظهر عليها غير الله، فلم يحصل منهم

في ذلك مفاعلة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمكر بهم، وإنما جاهرهم حين أعلمه الله بمكرهم بخلاف ما تقدم في الأنفال، فإن المقام اقتضى هناك الذكر لأنهم مكروا به كما قال تعالى
{وإذ يمكر بك الذين كفروا} [الأنفال: 30] الآية وهو صلى الله عليه وسلم أخفى أمر هجرته وأعمل الحيلة في الخلاص من مكرهم على حسب ما أمره الله به فحصلت المفاعلة في تحيز كل من الفريقين إلى شق غير شق الآخرة خفية {فإن الله} أي المحيط بجميع العظمة يشدد عقابه له لأنه {شديد العقاب * } وذلك كما فعل ببني قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم وأظهروا المشاققة في غزوة الأحزاب وكما فعل أهل خيبر، وكانوا يماكرون ويساترون في الأولى عند فتحها وفي الثانية عند إجلائهم منها، فقد سوى بين المساترين والمجاهرين في العذاب وهو للمجاهرين أشد عذاباً كما هو واضح.
ولما دل سبحانه على عزته وحكمته بما فعل ببني النضير الذين يقولون إنهم أشجع الناس وأشدهم شكيمة بما لهم من الأصالة والاصطفاء على العالمين، مع التأييد بالكتاب والحكمة، وختم بأن من شاق رسوله فقد شاقه، ومن شاقه فقد شدد عقابه، أتبعه بيان ما عاقبهم به من قطع الصحابة رضي الله عنهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم لنخلهم الذي هو أعز عليهم من أبكارهم وهم ينظرون إليه لا يغنون شيئاً ولا منعة لديهم فقال: {ما} وهي شرطية وأتبعها بشرطها الناصب لها فقال: {قطعتم} أي كل ما قطعتموه، وبين ما في «ما» من الإبهام بقوله معبراً عن النخل، بما يفيد

نوعه وأنه هان عليهم القطع ولان: {من لينة} وهي ضــرب من النخل، قال ابن إســحاق: هو ما خالف العجوة من النخل، وقال ابن هشــام: اللينة من الألوان، وهي ما لم يكن برنية ولا عجوة من النخل فيما حدثني أبو عبيدة– انتهى. وقال صاحب القاموس اللون: الدقل من النخل، وهي جماعة واحدتها لونه ولينة، قال المهدوي: وروي عن ابن عباس رضـي الله عنهما أيضاً أنها لون من النخل، وقال البغوي: ورواية زاذان عن ابن عباس رضـــي الله عنه قال: كان النبي صـلى الله عليه وسـلم يقطع نخلهم إلا العجوة. وأهل المدينة يســـمون ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لون ولينة، وقال عطية والحسـن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون: اللينة: النخلة، اسـمان بمعنى واحد، وجمعها لين وليان، وقال سـفيان الثوري: اللينة ما تمرها لون وهو نوع من التمر شـديد الصـفرة يشـف عن نواة فيرى من خارج، قال البغوي: يغيب فيها الضـــرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصـيف أحب إليهم من وصـيف، فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفسـاد وأنتم تفسـدون، دعوا هذه النخلة، فإنما هي لمن غلب عليها، وقال الرازي في اللوامع واختلاف الألوان فيها ظاهر لأنها أول حالها بيضــاء كصــدف مليء دراً منضــداً، ثم غبراء ثم خضــراء كأنها قطع زبرجد خلق فيها الماء ثم حمراء كأنها ياقوت رص بعضه ببعض ثم صفراء كأنها شذو عقيان، ولذلك إذا بلغ الإرطاب نصفها سميت مجزعة لاختلاف ألوانها الجزع الظفاري.

ولما كان ما فسر بمؤنث هو اللينة، أعاد الضمير مؤنثاً فقال: {أو تركتموها} ولما كان الترك يصـدق ببقائها مغروسـة أو مقطوعة قال: {قائمة} ولما كان المراد نخيلاً كثيرة لإرادة الجنس قال: {على أصــولها} بجمع الكثرة {فبإذن الله} أي فقطعها بتمكين الملك الأعظم ورضاه، قال القشيري: وفي هذا دليل على أن الشـــريعة غير معللة وإذا جاء الأمر الشـــرعي بطل طلب التعليل وسـكتت الألسـنة عن التقاضـي ب «لِمَ» وحضـور الاعتراض والاسـتقباح بالبال خروج عن حد العرفان.

ولمـا فطم عن طلـب العلـل خطـابـاً للكمـل، طيـب قلوب من دونهم بعلـة معطوفة على ما تقديره: فليس ذلك بفساد ولكنه صلاح أذن لكم فيه ليشفي به صــدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، فقال واضــعاً موضــع ضــميرهم ظاهراً يدل على ما أوجب خزيهم: {وليخزي الفاسـقين* } الذين هم أصـلاء في المروق من دائرة الحق بأن يذلهم ويفضـــــحهم ببيان كذبهم في دعواهم العز والشـــجاعة والتأييد من الله لأنهم على الدين الحق وأنه لا يتطرق إليه نســخ، وروى أبو يعلى عن جابر رضـــي الله عنه أنه قال: رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا فيما تركنا، فأنزل الله الآية- انتهى وكان ناس من المؤمنين مالوا إلى الكف عن القطع لما سموه اليهود فساداً وطائفة أشـاروا بالاستمرار على القطع لأنه يغيظهم، فصـوب سبحانه في الآية من أمر بالكف وحلل من أشـاروا بالاسـتمرار بالقطع من الإثم، فدلت الآية على

جواز إفساد أموال أهل الحرب على أي حال كان مثمراً كان أو لا بالتحريق والتغريق والهدم وغيره لإخزائهم بذلك.

▲ تفسير الآية رقم [6]

{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)}

ولما كانت الغنائم التي تقسم بين الجيش إنما هي ما قاتلوا عليه، وأما ما أتى منها بغير قتال فهو فيء يأخذه الإمام فيقسمه خمسة أخماس، ثم يقسم خمساً منها خمسة أقسام، أحدها وهو كان للنبي صلى الله عليه وسلم يكون بعده لمصالح المسلمين، والأقسام الأربعة الأخرى من هذا الخمس لمن ذكر في الآية بعدها، والأربعة الأخماس الكائنة من أصل القسمة وهي التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حصلت بكفايته وإرعابه للعدو، تفرق بين المرتزقة من جميع النواحي، فكانت الأموال كلها لله إنعاماً على من يعبده بما شرعه على ألسنه رسله عليهم الصلاة والسلام، كانت أموال الكفار في أيديهم غصباً غصبوه من أوليائه، فخص سبحانه رسول صلى الله عليه وسلم بأموال بني النضير يضعها حيث يشاء لأنها فيء فقال: {وما أفاء الله} أي رد الملك الذي له الأمر كله رداً سهلاً بعد أن كان فيما يظهر في غاية العسر والصعوبة {على رسوله} فصيره في يده بعد أن كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفار عليه ظلماً وعدواناً كما دل عليه التعبير بالفيء الذي هو عود الظل إلى الناحية التي كان ابتدأ منها {منهم} أي رداً مبتدئاً من الفاسقين، فبين أن هذا فيء لا غنيمة، ويدخل في الفيء أموال من مات

منهم عن غير وارث وكذا الجزية، وأما الغنيمة فهي ما كان بقتال وإيجاف خيل وركاب.

ولما كان الحرب إنما هو كر وفر في إسراع وخفة ورشاقة بمخاتلة الفرسان ومراوغة الشجعان ومغاورة أهل الضرب والطعان، قال معللاً لكونه فيئاً: {فما أوجفتم} أي أسرعتم، وقال ابن إسحاق: حركتم واتبعتم في السير– انتهى، وذلك الإيجاف للغلبة {عليه} وأعرق في النفي بالجار فقال: {من خيل} وأكد بإعادة النافي لظن من ظن أنه غنيمة لإحاطتهم بهم فقال: {ولا ركاب} أي إبل، غلب ذلك عليها نم بين المركوبات، ولا قطعتم من أجله مسافة، فلم تحصل لكم كبير مشقة في حوز أموالهم لأن قريتهم كانت في حكم المدينة الشريفة ليس بينها وبين ما يلي منها مسافة بل هي ملاصقة لإحدى قرى الأنصار التي المدينة اسم لها كلها، وهي قرية بني عمرو بن عوف في قباء بينهما وبين القرية التي كان رسول الله نازلاً بها نحو ميلين، فمشى الكل مشياً ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقاتلوا بها قتالاً بعد، فلذلك جعلها الله فيئاً ولم يجعلها غنيمة، فهي تقسم قسمة الفيء، لا قسمة الغنيمة، فخمسها لأهل خمس الغنيمة وهم الأصناف الخمسة المذكورون في الآية التي بعدها، وما فضل فهو الأربعة الأخماس له صلى الله عليه وسلم مضمومة إلى ما حازه من خمس الخمس.

ولما كان معنى هذا: فما كان التسليط بكم، استدرك بقوله: {ولكن الله} أي الذي له العز كله فلا كفوء له {يسلط رسله} أي له هذه السنة في كل زمن {على من يشاء} بجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعباً في قلوب أعدائه،

فهو الذي سلط رسوله صلى الله عليه وسلم على هؤلاء بأن ألقى في روعه الشـــريف أن يذهب إليهم فيســـألهم الإعانة في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري رضـي الله عنه خطأ، فلما جلس رسـول الله صـلى الله عليه وســـلم إلى جانب بيت من بيوتهم، وكانوا موادعين له صــــلى الله عليه وسـلم نقضـوا عهدهم خفية مكراً منهم بعد أن رحبوا به ووعدوه الإعانة وأمروا أحدهم أن يرمي عليه من فوق السطح صخرة لتقتله، فأعلمه الله بهذا فذهب وترك أصــحابه هناك حتى لحقوا به، وهذا بعد ما كان حيي فعل من قدومه مكة وندبه لقريش إلى حرب النبي صلى الله عليه وسلم ومعاقدته لهم على أن يكون معهم عليه عليه الصلاة والسلام، وإعلام الله بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم بعد ما أصبح أنكم قد خنتم الله ورسوله، فأردتم أن تفعلوا كذا، وأن الأرض لله ورســـوله، فاخرجوا منها وقد أجلتكم عشــــراً، فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون ودس إليهم ابن أبي ومن معه من المنافقين أنهم معهم في الشـــدة والرخاء لا يســلمونهم، وقال ابن أبي: معي ألفان من قومي وغيرهم نم العرب يدخلون حصنكم فيموتون من عند آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع حيي بن أخطب في ذلك فأرسـل إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فقصدهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم في المؤمنين يحمل رايته علي بن أبي طالب رضــي الله عنه فصـلى العصـر بفنائهم بعد أن اسـتعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضــي الله عنه وأقام عليهم ست ليال وهم متحصـنون، فقطع من نخلهم وحرق فنادوه أن قد كنت تنهى عن الفســـاد وتعيبه على من صــــنعه فما بالك تقطع النخل،

وتربصـــوا نصـــر ابن أبي ومن معه على ما قالوا فلم يفوا لهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم فأرسلوا بالإجابة، فقال: لا إلا أن يكون لي سلاحكم وما لم تقدروا على حمله على إبلكم من أموالكم، فتوقفوا ثم أجابوا فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل إلا الحلقة، وذهبوا على ستمائة بعير، وأظهروا الحلي والحلل وأبدى نساؤهم زينتهن فلحق بعضهم بخيبر وبعضهم بالشام وخلوا الأموال والحلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسلم منهم إلا رجلان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها فجعل الله أموال من لم يسلم منهم فيئاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة به يضعها حيث يشاء كما روي ذلك في الصحيح عن عمر رضي الله عنه في قصة مخاصمة علي والعباس رضي الله عنهما، وفيه أنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم فإنه قال: إن الله قد خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ {ما أفاء الله على رسوله منهم} إلى قوله تعالى: {قدير} فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم قد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال- يعني الذي وقع خصامهما فيه، فكان ينفق رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل ما لله، وفي الصحيح أيضاً عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ينفق على أهله

منها نفقة سـنة ثم يجعل ما بقي في السـلاح والكراع عدة في سـبيل الله- انتهى، وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم بعد ما تركه لنفسه بين المهاجرين، لم يعط الأنصـار منه شـيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة شـديدة: أبو دجانة سماك بن خرشـة وسـهل بن حنيف والحارث بن الصـمة رضـي الله عنهم، وكان لسـيف ابن أبي الحقيق عندهم ذكر فنفله سـعد بن معاذ رضي الله عنه وقال الأصبهاني: إن الفيء كان يقسم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سـهماً أربعة أخماسـها وهي عشـرون سـهماً لرسـول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بها ما يشـاء ويحكم فيها ما أراد، والخمس الباقي على ما يقسـم عليه خمس الغنيمة- يعني على رسـول الله صلى الله عليه وسلم وذوي القربى ومن بعدهم، هكذا كان عمله صلى الله عليه وسلم في صفاياه، فلما توفي كانت إلى إمام المسلمين وكذا جميع ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قال:

»لا نورث، ما تركناه صـدقة«. فولي ذلك أبو بكر رضـي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه، فكانا يفعلان فيها ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقال الأصبهاني رضي الله عنه أيضاً عن مالك بن أوس بن الحدثان رضي الله عنه: قرأ عمر بن الخطاب رضـي الله عنه {إنما الصـدقات للفقراء} [التوبة: 60] حتى بلغ {عليم حكيم} ثم قال: هذه لهؤلاء ثم قرأ {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه}

[الأنفال: 41] ثم قال هذه لهؤلاء، ثم قرأ {ما أفاء الله على رسـوله من أهل القرى} [الحشر: 7] حتى بلغ {الفقراء المهاجرين والذين تبوءوا الدار والإيمان

والذين جاؤوا من بعدهم} [الحشر: 7] ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة فليس أحد إلا له فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي نصيبه منه لم يعرف جبينه فيه- انتهى.

وقال ابن عطية: ما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم لبني النضير ومن فدك فهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقاتل فيها، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذه الأموال التي هي فيء كبقية الفيء يقسم على خمسة أسهم: خمس منها للأصناف المذكورة أولها النبي صلى الله عليه وسلم وأربعة أخماسها له صلى الله عليه وسلم وحده، وأجاب الشافعي عن قول عمر رضي الله عنه، «فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة» بأنه عام أريد به الخاص، ومعناه، فكان ما بقي منها في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعطاء الخمس لأربابه خاصاً به صلى الله عليه وسلم، لا يشك أحد في خصوصيته به، ثم إنه مع ذلك ما احتازه دونهم بل كان يفعل ما ذكر في الحديث من الإيثار، قال الشافعي رضي الله عنه: لأنا لا نشك أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الأصناف المذكورين في الآية منها حقهم وقد عهدنا أن حق هؤلاء الأصناف من مال المشركين الخمس كما هو صريح في سورة الأنفال، واستفيد من قول عمر رضي الله عنه «إنها كانت للنبي صلى الله عليه وسلم» أنه كان له ما كان يشترك فيه المسلمون من الخمس من الغنيمة التي حصلت بما حصل للكفار من الرعب منهم، والذي كان يشترك فيه المسلمون بعد الخمس هو أربعة الأخماس والنبي صلى الله عليه وسلم قام

مقام المسلمين فيه إذ هم لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، وإنما حصل ذلك بالرعب الذي ألقاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في قلوب المشركين، فكانت الأربعة الأخماس تختص ممن كان السبب في حصول الجميع كما في الغنيمة، فعلى هذا الفيء الغنيمة لا يختلفان في أن الأربعة الأخماس تختص لمن كان السبب في حصول الجميع وأن خمس المالين يكون للأصناف المذكورة، والذي كان له صلى الله عليه وسلم من الفيء من الأربعة الأخماس يكون بعد موته صلى الله عليه وسلم للمقاتلة لأنه حصل بالرعب الحاصل للكفار منهم كأربعة أخماس الغنيمة التي حصلت بقتالهم.

ولما كانت قدرته سبحانه عامة بالتسليط وغيره، أظهر ولم يضمر فقال: {والله} أي الملك الذي له الكمال كله {على كل شيء} أي أي شيء يصح أن تتعلق المشيئة به وهو كل ممكن من التسليط وغيره {قدير *} أي بالغ القدرة إلى أقصى الغايات، والآية تدل على أن إيجاف الخيل والركاب وقصد العدو إلى الأماكن الشاسعة له وقع كبير في النفوس ورعب عظيم.

▲ تفسير الآية رقم [7]

{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)}

ولما نزع سبحانه أموالهم من أيدي الجيش، بين مصرف غيرها مما كان مثلها بأن فتح له صلى الله عليه وسلم بغير قتال فقال مستأنفاً جواباً لمن كأنه قال: هل يعم هذا الحكم كل فيء يكون بعد بني النضير: {ما أفاء الله}

أي الذي اختص بالعزة والحكمة والقدرة {على رسـوله} ولما كان سـبحانه محيط العلم بأنه يسلط على أهل وادي القرى وغيرهم أعظم من هذا التسليط، قال ليكون علماً من أعلام النبوة: {من أهل القرى} أي قرية بني النضـير وغيرها من وادي القرى والصـفراء وينبع وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية {فالله} أي الملك الأعلى الذي الأمر كله بيده {وللرسول} لأنه أعظم خلقه، فرتبته تلي رتبته، وهذان يتراءى أنهما قسمان وليس كذلك، هما قسم واحد، ولكنه ذكر سبحانه نفسه المقدس تبركاً، فإن كل أمر لا يبدأ به فهو أجذم، وتعظيماً لرسوله صلى الله عليه وسلم إعلاماً بأنه لا هوى له أصـلاً في شـيء من الدنيا، وإنما رضـاه رضـا مولاه، خلقه القرآن الذي هو صـفة الله فهو مظهره ومجلاه، وسـهمه صـلى الله عليه وسـلم يصـرف بعده لمصالح المسلمين كالسلاح والثغور والعلماء والقضاة والأئمة.

ولما أبان هذا الكلام لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من الفضـل والعظمة ما لا يدخل تحت الوصـف، أتبعه تعظيماً آخر بتعظيم أقاربه لأجله، ولذلك أعاد العامل فقال: {ولذي القربى} أي منه لأن رتبتهم من بعد رتبته وهم بنو هاشـم وبنو المطلب رهط إمامنا الشـافعي رضـي الله عنه سـواء فيه غنيهم وفقيرهم، لأن أخذهم لذلك بالقرابة لا بالحاجة كما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولما ذكر أهل الشرف، أتبعه أهل الضعف جبراً لوهنهم فقال مقدماً أضـعفهم: {واليتامى} أي الذين هم أحق الناس بالعطف لأن مبنى الدين على التخلق بأخلاق الله التي من أجلّها تقوية الضـعيف وجبر الكسـير {والمسـاكين} فإنهم في الضـعف على أثرهم ودخل فيهم الفقراء فإنه إذا انفرد

لفظ الفقير أو المســـاكين دخل كل منهما في الآخر، وإنما يفرق إذا جمع بينهما، وكذا الفيء والغنيمة إذا أفردا جاز أن يدخل كل في الآخر، وإذا جمعا فالفيء ما حصل بغير قتال وإيجاف خيل وركاب، والغنيمة ما حصل بذلك {وابن السبيل} وهم الغرباء لانقطاعهم عن أوطانهم وعشائرهم، وقسمة الفيء على هذه الأصناف كما مضى أن يقسم خمسة أقسام: خمس منها لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ومن ذكر معه من المخلوقين وذكر الله فيهم للتبرك، لأن الأصـناف المذكورة هي التي يعبر عنها باسـمه سـبحانه، والأربعة الأخماس خاصة له صلى الله عليه وسلم ينفق منها نفقة سنة وما فضل عنه أنفقه في مصالح المسلمين السلاح والكراع ونحوه، وما كان له صلى الله عليه وسلم في حياته فهو للمصالح بعد وفاته، كما كان يفعل بعد ما يفضل عن حاجته، قال الشافعي رضي الله عنه في الأم: وما أخذ من مشـرك بوجه من الوجوه غير ضـيافة من مر بهم من المسـلمين فهو على وجهين لا يخرج منهما، كلاهما مبين في كتاب الله تعالى وعلى سنة رسوله صـلى الله عليه وسـلم وفي فعله فأحدهما الغنيمة، قال الله تعالى في سـورة الأنفال:

{واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول} [الأنفال: 41] والوجه الثاني الفيء، وهو مقسـوم في كتاب الله في سـورة الحشـر، قال الله تبارك وتعالى: {وما أفاء الله على رسـوله منهم}- إلى قوله- {رؤف رحيم} فهذان المالان اللذان خولهما الله من جعلهما له من أهل دينه، وهذه أموال يقوم بها الولاة لا يسـعهم تركها. فالغنيمة والفيء تجتمعان في أن فيهما معاً الخمس

من جميعهما لمن سـماه الله تعالى، ومن سـماه الله تعالى في الآيتين معاً سواء مجتمعين غير مفترقين، ثم يفترق الحكم في الأربعة الأخماس بما بين الله عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وفي فعله فإنه قسم أربعة أخماس الغنيمة، والغنيمة هي الموجف عليها بالخيل والركاب لمن حضـر من غني وفقير، والفيء وهو ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت سنة النبي صـلى الله عليه وسـلم في قرى عرينة التي أفاءها الله عليها أن أربعة أخماسـها لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خاصـة دون المسـلمين يضـعه رسوله الله صلى الله عليه وسلم حيث أراه الله عز وجل، ثم ذكر حديث عمر رضـي الله عنه من رواية مالك بن أوس بن الحدثان رضـي الله عنه في خصـام علي والعباس رضـي الله عنهما، قال الشـافعي: فأموال بني النضـير التي أفاء الله على رسـوله صـلى الله عليه وسـلم التي ذكر عمر رضـي الله عنه فيها ما بقي منها في يد النبي صـلى الله عليه وسـلم بعد الخمس وبعد أشـياء فرقها النبي صـلى الله عليه وسـلم منها بين رجال من المهاجرين لم يعط منها أنصـارياً إلا رجلين ذكرا فقراً وهذا مبين في موضـعه، وفي هذا الحديث دلالة على أن عمر رضي الله عنه إنما حكى أن أبا بكر رضي الله عنه وهو أمضيا ما بقي من هذه الأموال التي كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه ما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به فيها، وأنهما لم يكن لهما مما لم يوجف عليه المسـلمون من الفيء ما كان لرسـول الله صلى الله عليه وسلم وأنهما إنما كانا فيه أسوة للمسلمين، وذلك سيرتهما وسـيرة من بعدهما، والأمر الذي لم يختلف فيه أحد من أهل العلم عندنا

علمته ولم يزل يحفظ من قولهم أنه ليس لأحد ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من صفي الغنيمة ولا من أربعة أخماس ما لم يوجف عليه منها، وقد مضى من كان ينفق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه وغيرهن إن كان معهن، فلم أعلم أحداً من أهل العلم قال لورثتهم تلك النفقة التي كانت لهم، ولا خلاف أن تجعل تلك النفقات حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل فضول غلات تلك الأموال فيما فيه صلاح الإسلام وأهله، قال الشافعي: والجزية من الفيء وسبيلها سبيل جميع ما أخذه مما أوجف من مال مشرك أن يخمس فيكون لمن سمى الله عز وجل الخمس وأربعة أخماسه على ما سأبينه إن شاء الله تعالى، وكذلك كل ما أخذ من مشرك من مال غير إيجاف، وذلك مثل ما أخذ منه إذا اختلف في بلاد المسلمين ومثل ما أخذ منه إذا مات ولا وارث له، وغير ذلك ما أخذ من ماله، وقد كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فيء من غير قرى عرينة، وذلك مثل جزية أهل البحرين وهجر وغير ذلك فكان له أربعة أخماسها يمضيها حيث أراد الله عز وجل وأوفى خمسه من جعله الله له- انتهى.

ولما حكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الأغنياء به، بين علته المظهرة لعظمته سبحانه وحسن تدبيره ورحمته فقال معلقاً بما علق به الجار: {كي لا يكون} أي الفيء الذي سيره الله سبحانه بقوته وما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم من قذف الرعب في قلوب أعدائه ومن حقه أن يعطاه الفقراء {دولة} أي شيئاً يتناوله أهل الغنى والشرف على وجه القهر والغلبة إثرة جاهلية- هذا على قراءة

الجماعة، وقرأ أبو جعفر وهشـــام عن ابن عامر بالتأنيث من {كان} التامة و {دولة} بالرفع على أنها فاعل {بين الأغنياء منكم} يتداولونه بينهم فإنهم كانوا يقولون: من عزيز، ومنه قال الحســن: اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً– يريد من غلب منهم أخذه واســتأثر به، وقيل: الضــم اســم للمتداول كالغرفة اسم لما يغترف، والفتح التداول.

ولما كان التقدير: فافعلوا ما أمرتكم من قســمته لمن أمرت به، عطف عليه قوله: {وما} أي وكل شيء {آتاكم} أي أحضر إليكم وأمكنكم منه {الرسول} أي الكامل في الرسلية من هذا وغيره {فخذوه} أي فتقبلوه تقبل من حازه {وما نهاكم عنه} من جميع الأشــياء {فانتهوا} لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يقول ولا يفعل إلا ما أمره به الله ربه، فمن قبل ذلك هانت عليه الأمور كما ورد (القرآن صعب مستصعب على من تركه ميسر على من طلبه وتبعه) روي أن الآية نزلت في ناس من الأنصار قالوا: لنا من هذه القرى سهمنا.

ولما كان الكف عما ألفته النفوس صــعباً، ولا ســيما ما كان مع كونه تمتعاً بمال على وجه الرئاسة، رهب من المخالفة فيه بقوله: {واتقوا الله} أي اجعلوا لكم بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاية من عذاب الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة، وعلل ذلك بقوله، معظماً له بإعادة الجلالة مؤكداً لأن فعل المخالف فعل المنكر: {إن الله} أي الذي له وحده الجلال والإكرام على الإطلاق {شديد العقاب *} أي العذاب الواقع بعد الذنب، ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ، لأن الأنفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 9]

{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)}

ولما نزع سبحانه أموال الفيء وما كانت عليه في الجاهلية، وبين مصرف الفيء من القرى، وتهدد في المخالفة في ذلك لصعوبته على النفوس، فكان ذلك جديراً بالتقبل بعد أن أفهم أن أموال بني النضير لمن سلطه عليهم وهو رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان من المعلوم من حاله صلى الله عليه وسلم الإيثار على نفسه والقناعة بما دون الكفاف، بين المصرف فيها بعد كفايته صلى الله عليه وسلم لأن بيان ذلك هو المقصود الأعظم لكونه حاصلاً حاضراً، الموطأ له بأموال أهل القرى، فقال مبدلاً من {لله وللرسول} وما عطف عليهما لأن من أعطى المهاجرين لهجرتهم وتجردهم من أموالهم وديارهم فإنما أعطاهم لوجه الله ووجه رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يكون بدلاً من {ذي القربى} لئلا يختص بفقيرهم، أو يكون جواباً لمن كأنه قال: قد سمعنا وأطعنا فلمن يكون ما سلط الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من أموالهم؟ فقيل له: {للفقراء} أي الذي كان الإنسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد، ما له دثار غيرها بعد أن كان له من الأموال ما يسعه ويفضل منه ما يصل به غيره، وإنما

وصـفهم بالفقر لأنهم كانوا عند نزولها كذلك، ثم خصـص بالوصـف فقال: {المهاجرين} ولما كانت الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن فقال: {الذين أخرجوا} وبناه للمفعول لأن المنكئ الإخراج، لا كونه من مخرج معين {من ديارهم} ولما كان الإخراج هنا مضـمناً معنى المنع، واختير التعبير به إشارة إلى أن المال الستر للإنسان لأنه ظرف له، قال: {وأموالهم}.

ولما كان غلب الدنيا من النقائص، بين أنه إذا كان من الله لم يكن كذلك، وأنه لا يكون قادحاً في الإخلاص، وأن أمر بني النضـير إنما يسـر تحقيقاً لرجائهم فقال: {يبتغون} أي أخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد. وبين أنه لا يجب عليه شيء لأحد بقوله تعالى: {فضـلاً من الله} أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له لأنه المختص بجميع صـفات الكمال من الدنيا والدين والآخرة فيغنيهم بفضله عمن سواه {ورضواناً} يوفقهم لما يرضيه عنهم ولا يجعل رغبتهم في العوض منه قادحاً في الإخلاص فيوصـلهم إلى دار كرامته.

ولما وصـفهم بتعليق بواطنهم به سبحانه وقطعها بالرضا بالإخراج عمن أو عما سـواه، وصـفهم ببذل ظواهرهم له فقال: {وينصـرون} أي على سـبيل التجديد في كل وقت والاسـتمرار {الله} أي الملك الأعظم المجيد {ورسـوله} الذي عظمته من عظمته بأنفسـهم وأموالهم ليضـمحل حزب الشـيطان. ولما بان ما له بهم سـبحانه من العناية ترقب السـامع من مدحهم ما يليق بهذا الإحبار.

فقال مستأنفاً ما هو كالعلة لتخصيصهم: {أولئك} أي العالو الرتبة في الأخلاق الفاضلة {هم} أي خاصة لا غيرهم {الصادقون} العريقون في هذا الوصف لأن مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث نابذوا من عاداهما وهو القريب الصافي نسباً وداراً وأولوا أولياءهما من كانوا وإن بعدت دارهم وشط مزارهم، وهذا يدل على أن مبنى الدين على إقامة البينات بالثبات عن الابتلاءات على أن العون قد يأتي على قدر البلاء لأن الله تعالى قد خص المهاجرين مما أذن فيه من أموال بني النضير.

ولما مدح المهاجرين وأعطاهم فطابت نفوس الأنصار بذلك وكانوا في كل حال معه صلى الله عليه وسلم كالميت بين يدي الغاسل، مهما شاء فعل، ومهما أراد منهم صار إليه ووصل، أتبعه مدحهم جبراً لهم وشكراً لصنيعهم فقال عاطفاً على مجموع القصة: {والذين تبوؤ} أي جعلوا بغاية جهدهم {الدار} الكاملة في الدور وهي التي أعدها الله في الأزل للهجرة وهيأها للنصرة وجعلها دائرة على جميع البلدان محيطة بها غالبة عليها محل إقامتهم وملابستهم وصحبتهم وملازمتهم لكونها أهلاً لأن يعود إليها من خرج منها فلا يهجرها أصلاً، فهي محل مناه وليست موضعاً يهاجر منه لبركتها أو خيرها.

ولما كان المراد الإبلاغ في مدحهم، قال مضمناً «تبوؤا» معنى لازم: {والإيمان} أي ولابسوه وصحبوه وخصوه بالصحبة ولزموه لزوماً هو كلزوم المنزل الذي لا غنى لنازله عنه، ويجوز أن يكون الإيمان وصفاً للدار

بإعادة العاطف للإشــارة إلى التمكن في كل من الوصــفين فيكون كأنه قيل: تبوؤا المدينة التي هي الدار وهي الإيمان لأنها محل تمكن الإيمان وانتشــاره وظهوره في ســائر البلدان فلشــدة ملابســتها له ســميت به، ويجوز أن يكون المعنى: ومحل الإيمان إشارة إلى أنهم ما أقاموا بها لأجل أن أموالهم بها بل محبة في الإيمان علماً منهم بأنه لا يتم بدره، ويكمل شــرفه وقدره، وتنتشــر أعلامه ويقوى ذكره إلا بها، ولولا ذلك لهجروها وهاجروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أي مكان حله، فهو مدح لهم بأنه متصفون بالهجرة بالقوة مع اتصافهم بالنصرة بالفعل.

ولما كان انفرادهم بإقامة الإيمان في الدار المذكورة قبل قدوم المهاجرين عليهم مدحاً تاماً، قال مادحاً لهم بذلك دالاً بإثبات الجارّ على أنهم لم يستغرقوا زمان القبل من حين إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمرين: {من قبلهم} أي قبل هجرة المهاجرين لأن وصــــفهم بالهجرة لم يكن إلا بعد إيجادها فالأنصــــار جمعوا التمكن في الإيمان إلى التمكن في الدار من قبل أن يجمع المهاجرون بينهما بالهجرة.

ولما ابتدأ ذكرهم هذا الابتداء الجليل، أخبر عنهم بقوله: {يحبون} أي على ســبيل التجديد والاســتمرار، وقيل العطف على المهاجرين، وهذه حال فيكون هذا حكماً بالمشــــاركة {من هاجر} وزادهم محبة فيهم وعطفاً عليهم بقوله: {إليهم} لأن القصــد إلى الإنســان يوجب حقه عليه لأنه لولا كمال محبته له ما خصــه بالقصــد إليه، والدليل الشــهودي على ما أخبر الله عنهم به من المحبة أنهم شــاطروا المهاجرين في أموالهم وعرضــوا عليهم أن يشــاطروهم

نساءهم على شدة غيرتهم، فأبى المهاجرون المشاطرة في النساء وقبلوا منهم الأموال.

ولما أخبرهم بالمحبة ورغبهم في إدامتها، عطف على هذا الخبر ما هو من ثمراته فقال: {ولا يجدون} أي أصلاً {في صدورهم} التي هي مساكن قلوبهم فتصدر منها أوامر القلوب فضلاً عن أن تنطق ألسنتهم. ولما كان المراد نفي الطلب منهم لما خص به المهاجري، وكان الحامل على طلب ذلك الحاجة، وكان كل أحد يكره أن ينسب إلى الحاجة وإن أخبر بها عن نفسه في وقت ما لغرض قال: {حاجة} موقعاً اسم السبب على المسبب {مما أوتوا} أي المهاجرون من الفيء وغيره من أموال بني النضير وغيرهم من أي مؤت كان فكيف إذا كان المؤتي هو الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى الطلب فلأن لا يجدوا حسداً ولا غيظاً من باب الأولى، فهذه الآية من أعظم حاث على حسن الإخاء محذر من الحسد والاستياء. ولما أخبر عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الإخبار بتحليهم بالفضائل فقال: {ويؤثرون} عظم ذلك بقصر الفعل فصار المعنى: يوقعون الأثرة وهي اختيار الأشياء الحسنة لغيرهم تخصيصاً لهم بها لا على أحبائهم مثلاً بل {على أنفسهم} فيبذلون لغيرهم {كائناً} من كان ما في أيديهم، وذكر النفس دليل على أنهم في غاية النزاهة من الرذائل لأن النفس إذا ظهرت كان القلب أطهر، وأكد ذلك بقوله: {ولو كان} أي كوناً هو في غاية المكنة {بهم} أي خاصة لا بالمؤثر {خصاصة} أي فقر وخلل في الأحوال وحاجة شديدة تحيط بهم من كل جانب، من خصائص البناء وهي فرجه.

ولما كان التقدير : فمن كان كذلك فهو من الصـــادقين : عطف عليه قوله: {ومن} ولما كان المقصـــود النزاهة عن الرذيلة من أي جهة كانت، وكان علاج الرذائل صعباً جداً، لا يطيقه الإنسان إلا بمعونة من الله شديدة، بنى للمفعول قوله: {يوق شح نفسه} أي يحصل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس، وقاية تحول بينه وبينها، فلا يكون مانعاً لما عنده، حريصـــاً على ما عند غيره حسـداً، قال ابن عمر رضـــي الله عنه: الشـح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له، قال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

ولما كان النظر إلى التطهير من ســفســاف الأخلاق عظيماً، ســبب عنه إفهاماً لأنه لا يحصـل ما سببه عنه بدونه قوله {فأولئك}: أي العالو المنزلة {هم} أي خاصــة لا غيرهم {المفلحون *} أي الكاملون في الفوز بكل مراد، قال القشـيري: وتجرد القلب من الأعراض والأملاك صـفة السـادة والأكابر، ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في مصارفة معاملته ومطالبة الناس في استيفاء حظه، فليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء.

وشـــرح الآية أن الأنصـــار كانوا لما قدم عليهم المهاجرون قســـموا دورهم وأموالهم بينهم وبينهم، فلما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير خطب النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم إياهم وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير»، وكان المهاجرون على ما هم عليه من الســـكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطتيهم وخرجوا من

ديارکم، فقال السعدان رضي الله عنهما: بل يقسم بين المهاجرين خاصة ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا، وفي رواية أنهم قالوا: اقسم فيها هذه خاصة واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت {ويؤثرون على أنفسهم}- الآية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار»، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال العنزي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت *** بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أنا أمنا *** تلاقي الذي يلقون منا لملت

فهم لعمري الحقيقون باسم إخوان الصفاء، وخلان المروءة والوفاء، والكرامة والاصطفاء، ورضي الله عنهم وعن تابعيهم من الكرام الخلفاء والسادة والحنفاء.

▲ تفسير الآية رقم [10]

{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)}

ولما أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم بما هم أهله، التابعين لهم بإحسان ما يوجب لهم الثناء فقال عاطفاً على المهاجرين فيقتضي التشريك معهم، أو على أصل القصة من عطف الجمل: {والذين جاؤوا } أي من أي طائفة كانوا، ولما كان المراد المجيء ولو في زمن يسير، أثبت الجار فقال: {من بعدهم} أي بعد المهاجرين والأنصار

وهم من آمن بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد إيمان الأنصـــار الذين أسـلموا بعد النبي صـــلى الله عليه وســلم إلى يوم القيامة، ثم ذكر الخبر أو الحال على نحو ما مضـــى في الذي قبله فقال تعالى: {يقولون} أي على ســبيل التجديد والاستمرار تصديقاً لإيمانهم بدعائهم لمن سنه لهم: {ربنا} أي أيها المحســـن إلينا بإيجاد من مهد الدين قبلنا . ولما كان الإنســـان وإن اجتهد موضـــعاً للنقصـــان قال ملقناً لنا: {اغفر} أي أوقع الســتر على النقائص أعيانها وآثارها {لنا} ولما بدؤوا بأنفســهم، ثنوا بمن كان الســبب في إيمانهم فقالوا: {ولإخواننا} أي في الدين فإنه أعظم أخوة، وبينوا العلة بقولهم: {الذين سبقونا بالإيمان} ولما لقنهم سبحانه حسن الخلافة لمن مهد لهم ما هم فيه، أتبعه تلقين ما يعاشـــرون به أعضـــادهم الذين هم معهم على وجه يعم من قبلهم، فقال معلماً بأن الأمر كله بيده حثاً على الالتجاء إليه من أخطار النفس التي هي أعدى الأعداء: {ولا تجعل} وأفهم قوله: {في قلوبنا} أن رذائل النفس قل أن تنفك وأنها إن كانت مع صحة القلب أوشك أن لا تؤثر {غلاًّ} أي ضـــغناً وحســـداً وحقداً وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام {للذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته.

ولما كان هذا دعاء جامعاً للخير، لقنهم ما يجيبهم في لزومه والتخلق به مع ما فيه من التملق للإله والتعريض له بقوة الرجاء فقال: {ربنا} أي أيها المحســـن إلينا بتعليم ما لمن نكن نعلم، وأكدوا إعلاماً بأنهم يعتقدون ما يقولونه وإن ظهر من أفعالهم ما يقدح في اعتقادهم ولو في بعض الأوقات فقالوا: {إنك رؤوف} أي راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من

أفعال الخير {رحيم *} مكرم غاية الإكرام لمن أردته ولو لم يكن له وصلة، فأنت جدير بأن تجيبنا لأنا بين أن يكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة، أو لا فنكون من أهل الرحمة، فقد أفادت هذه الآية أن من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة رضي الله عنهم فليس ممن عنى الله بهذه الآية.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 14]

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)}

ولما دل على أن هذا الثناء للصادقين في الإيمان بإقامة السنة بالهجرة والإيثار والاجتهاد في الدعاء لمن تبين الإيمان فسهل به طريق الأمان، فأخرج ذلك المنافقين وأفهم أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم لا رسوخ لهم في الإيمان الحامل على ذلك، دل على نفاقهم الموجب لكذبهم بقوله متمماً للقصة مخاطباً لأعلى الخلق إشارة إلى أنه لا يطلع على نفاقهم لما لهم فيه من دقة المكر حق الاطلاع غيره صلى الله عليه وسلم معجباً من حالهم في عدم رسوخهم مع ما يرون من المعجزات والآيات البينات ويرون من حال المؤمنين من إسباغ الرحمة عليهم بتسهيل الأمور والنصرة على الجبابرة

والإعراض عن الدنيا مع الإقبال على الآخرة والاجتهاد في الدين الذي هو وحده داع إلى الإيمان ومرقق للقلوب ومبين للحقائق غاية البيان: {ألم تر} أي تعلم علماً هو في قوة الجزم به كالمشـــاهد يا أعلى الخلق، وبين بعدهم عن جنابه العالي ومنصبه الشـريف الغالي بأداة الانتهاء فقال تعالى: {إلى الذين نافقوا} أي أظهروا غير ما أضـــمروا، أظهروا الخير وبالغوا في إخفاء عقائدهم بالشـــر مبالغة من ســـاجل غيره، وهم عبد الله بن أبي وأصـــحابه، قالوا: والنفاق لفظ إسـلامي لم تكن العرب تعرفه قبله، وهو اسـتعارة من فعل الضـب في نافقائه وقاصـعائه، وصـور حالهم بقوله: {يقولون لإخوانهم} أي من الموالاة بالضلالة.

ولما جمعهم في الكفر وإن افترقوا في المساترة والمجاهرة، وصف المجاهرين بنوع مســاترة توجب النفرة منهم وتقضـــي بهلاك من صـــادقهم فقال: {الذي كفروا} أي غطوا أنوار المعارف التي دلتهم على الحق، وعينهم بما أبلغ في ذمهم من حيث إنهم ضـــــلوا على علم فقال: {من أهل الكتاب} وهم بنو النضـــير هؤلاء، وبكتهم بكذبهم فيما أكدوا الموعد به لأنه في حيز ما ينكر من جهة أنهم لا يقدرون على المجاهرة بكفرهم فكيف بالمبارزة بالخلاف لقومهم الأنصـار والنبي صـلى الله عليه وسلم فيهم في قولهم: {لئن أخرجتم} أي من مخرج ما من بلدهم الذي في المدينة الشـــريفة فخرجتم من غير أن تقاتلوا {لنخرجن معكم} فكان ما قضـــي به على إخوانهم من الإخراج فألاً وكل بمنطقهم.

ولما كان من المعلوم أن للمنافقين أقارب من أكابر المؤمنين، وكان من المعلوم- أنهم يقومون عليهم في منعهم من القيام معهم نصيحة لهم وإحساناً إليهم، وكان تجويز بني النضير موهناً لذلك، قالوا مؤكدين للكون معهم: {ولا نطيع فيكم} أي في خذلانكم، والمعنى أنه لو فرض أنه صار أحد في القرب منكم مثل قرب المظروف من الظرف ما أطعناه في التقصير فيما يسركم {أحداً} أي يسألنا خذلانكم من الرسول والمؤمنين، وأكدوا بقولهم: {أبداً} أي ما دمنا نعيش، وبمثل هذا العزم استحق الكافر الخلود الأبدي في العذاب.

ولما قدموا في معونتهم ما كان فألاً قاضياً عليهم، أتبعوه قولهم: {وإن قوتلتم} أي من أي مقاتل كان فقاتلتم ولم تخرجوا {لننصرنكم} فالآية من الاحتباك: ذكر الإخراج أولاً دليلاً على ضده ثانياً، والقتال ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً، ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير: «اخرجوا من بلدي ولا تساكنوني، قد هممتم بالغدر بن وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد لك منكم ضربت عنقه» فأرسل إليهم ابن أبي بما تقدم.

ولما كان قولهم هذا كلاماً يقضي عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكداً مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه، بين حاله سبحانه بقوله: {والله} أي يقولون ذلك والحال أن المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {يشهد} بما يعلم من بواطنهم في عالم الغيب. ولما كان بعض من يسمع قولهم هذا ينكر أن لا يطابقه الواقع، وكان إخلافهم فيه متحققاً في علم الله، أطلق عليه ما لا يطلق إلا على ما كشف الواقع عن أنه غير مطابق، فقال تشجيعاً للمؤمنين على قتالهم مؤكداً {إنهم} أي المنافقون {لكاذبون *} وهذا من أعظم دلائل

النبوة لأنه إخبار بمغيب بعيدة عن العادة بشهادة ما ظننتم أن يخرجوا فحققه الله عن قريب.

ولما كان الكذب في قولهم هذا كونه إخباراً بما لا يكون، شرحه بقوله مؤكداً بأعظم من تأكيدهم: {لئن أخرجوا} أي بنو النضير من أي مخرج كان {لا يخرجون} أي المنافقون {معهم} أي حمية لهم لأسباب يعلمها الله {ولئن قوتلوا} أي اليهود من أي مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلمهم صلى الله عليه وسلم {لا ينصرونهم} أي المنافقون ولقد صدق الله وكذبوا في الأمرين معاً: القتال والإخراج، لا نصروهم ولا خرجوا معهم، فكان ذلك من أعلام النبوة، وعلم به من كان شاكاً فضلاً عن الموقنين، صدق الكلام على ما لم يكن ولا ليكون لو كان كيف كان يكون بصدق الكلام على ما لم يكن ويكون كيف يكون إذا كان في قوله تعالى: {ولئن نصروهم} أي المنافقون في وقت من الأوقات {ليولن} أي المنافقون ومن ينصرونه، وحقرهم بقوله: {الأدبار} ولما كان من عادة العرب الكر بعد الفر، بين أنهم لا كرة لهم بعد هذه الفرة وإن طال المدى فقال: {ثم لا ينصرون *} أي لا يتجدد لفريقيهم ولا لواحد منهما نصرة في وقت من الأوقات، وقد صدق سبحانه لم يزل المنافقون واليهود في الذل ولا يزالون.

ولما كان ربما قيل: إن تركهم لنصرهم إنما هو لخوف الله أو غير ذلك مما يحسن وقعه، علل بما ينفي ذلك ويظهر أن محط نظرهم المحسوسات كالبهائم فقال مؤكداً له لأجل أن أهل النفاق ينكرون ذلك وكذا من قرب حاله منهم: {لا أنتم} أيها المؤمنون {أشد رهبة} أي من جهة الرهبة وهو

تمييز محول عن المبتدأ أي لرهبتكم الكائنة فيهم أشد وأعظم {في صدورهم} أي اليهود ومن ينصرهم مما أفاض إليها من قلوبهم {من الله} أي من رهبتهم التي يظهرونها لكم منه وإن ذكروه بكل صـــفة من صـــفاته فرهبتهم منكم بسبب لإظهارهم أنه يرهبون الله رياء لكم.

ولما كان هذا مما يتعجب منه المؤمن علله بقوله: {ذلك} أي الأمر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضـعيف يزينهم له وعدم خوفهم من الخالق على ما له من العظمة وذاته ولكونه غنياً عنهم {بأنهم قوم} أي على ما لهم من القوة {لا يفقهون *} أي لا يتجدد لهم بســـبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أن الله هو الذي ينبغي إن يخشـــى لا غيره، بل هم كالحيوانات لا نظر لهم إلى الغيب إنما هم مع المحسـوسـات، والفقه هو العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة.

ولما أخبر برهبتهم دل عليها بقوله: {لا يقاتلونكم} أي كل من الفريقين اليهود والمنافقين أو أحدهما. ولما كان الشـيء قد يطلق ويراد بعضـه، حقق الأمر بقوله: {جميعاً} أي قتالاً يقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن {إلا في قرى محصنة} أي ممنعة بحفظ الدروب وهي الســكك الواســعة بالأبواب والخنادق ونحوها {أو من وراء جدر} أي محيط بهم سواء كان بقرية أو غيرها لشدة خوفهم، وقد أخرج بهذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كاليسير، ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن

يبارز ونحو ذلك، فإنه لم يكن عن اجتماع، أو يكون هذا خاصـــاً ببني النضير في هذه الكرة.

ولما كان ربما ظن أن هذا عن عجز منهم لازم لهم دفعه بقوه إعلاماً بأنه إنما هو من معجزات هذا الدين: {بأسـهم} أي قوتهم ما فيهم من الصـفات التي يتأثر عنها العذاب {بينهم شـديد} أي إذا أداروا رأياً أو حارب بعضـهم بعضـاً فجرأ المؤمنين عليهم بأن ما ينظرونه من شـدتهم وشـجاعتهم إذا حاربوا المشـركين لا ينكر عند محاربة المؤمنين كرامة أكرم الله بها المؤمنين تتضمن علماً من أعلام النبوة تقوية لإيمانهم وإعلاء لشأنهم.

ولما كانت علة الشـدة الاجتماع، شـرح حالتي الشـدة والرهبة بقوله مخاطباً للنبي صـلى الله عليه وسـلم إشـارة إلى شـدة ما يظهرون من ألف بعضـهم لبعض: {تحسـبهم} أي اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق ويا أيها الناظر من كان ذلك التعاطف الظاهر {جميعاً} لما هم فيه من اجتماع الدفاع وعن ذلك نشأت الشدة {وقلوبهم شتى} أي مفترقة أشد افتراق، وعن ذلك نشأت الرهبة، وموجب هذا الشـــتات اختلاف الأهواء التي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب، قال القشـيري: اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصـل كل فساد وموجب كل تخاذل، ومقتض لتجاسر العدو، واتفاق القلوب والاشـتراك في الهمة والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة.

ولما كان السـبب الأعظم في الافتراق ضـعف العقل، قال معللاً: {ذلك} أي الأمر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذي يخيل الاجتماع {بأنهم قوم} أي

مع شدتهم {لا يعقلون *} فلا دين لهم يجمعهم لعلمهم أنهم على الباطل فهم أســـرى الأهوية، والأهوية في غاية الاختلاف، فالعقل مدار الاجتماع كما كان الصـــحابة رضـــوان الله عليهم أجمعين في زمن النبي صـــلى الله عليه وسلم كما أن الهوى مدار الاختلاف.
S

▲ تفسير الآيات رقم [15– 17]

{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّـيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَـانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)}

ولما كان الإخبار بعدم عقلهم دعوى دل عليها بأمر مشـــاهد فقال: {كمثل} أي قصـتهم في عدم فقههم بل عقلهم الذي نشـأ عنه إخراجهم هذا وما سـببه من مكرهم وغدرهم واعتمـادهم على ابن أبيّ ومن معه من المنـافقين كمثل قصـة {الذين من قبلهم} ولما كان إدخال الجار مع دلالته على عدم استغراق زمان القبل يدل على قرب الزمن، صـرجح به فقال: {قريباً} وهم كما قال ابن عباس رضـي الله عنهما بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظـهروا بأسـاً شـديداً عند ما قصـدهم النبي صـلى الله عليه وسلم غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله فقالوا: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بـالحرب فأصـــبت منهم، وأما والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، ثم مكروا بامرأة من المسلمين فأرادوها على كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت

خمارها، فما قامت انكشفت سوأتها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة رضـــــي الله عنهم، فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها فقتلوه، فانتقض عهدهم، فأنزل النبي صــلى الله عليه وســلم بســاحتهم جنود الله فأذلهم الله ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبيّ، ولم يغن عنهم شيئاً غير أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالإلزام بالجلاء.

ولما كان كأنه قيل: ما كان خبرهم؟ قال: {ذاقوا وبال} أي وخامة وســـوء عاقبة {أمرهم} في الدنيا وهو كفرهم وعداوتهم لرســول الله صــلى الله عليه وسلم وحزبه الذين هم حزب الله، وسماه أمراً لأنه مما ائتمروا فيه {ولهم} أي في الآخرة {عذاب أليم *} أي شديد الإيلام، ولما شبه سبحانه أمرهم في طاعتهم لابن أبي ومن معه وهم البعداء المحترقون بســـبب إبعاد المؤمنين لهم بإبعاد الله واحتراق أكبادهم لذلك مع ما أعد لهم في الآخرة بأمر بني قينقاع، شبه قصة الكل بقصة الشيطان ومن أطاعه من الإنس والجن، فقال مبيناً لمعنى ما حط عليه آخر الكلام: {كمثل} أي مثل الكل الواعدين بالنصـــر والمغترين بوعدهم مع علمهم بأن الله كتب في الذكر {لأغلبن أنا ورسلي} [المجالة: 21] في إخلافهم الوعد وإسلامهم إياهم عند ما حق الأمر يشبه مثل {الشيطان} أي البعيد من كل خير لبعده من الله المحترق بعذابه، والشـــيطان هنا مثل المنافقين {إذا قال للإنســـان} أي كل من فيه نوس

واضـطراب وهو هنا مثل اليهود: {اكفر} أي بالله بما زين له ووسـوس إليه من اتباع الشهوات القائم مقام الأمر.

ولما كان الإنسـان بما يسـاعد تزيين الشـيطان عليه من شـهواته وحُظوظه وأخلاقه يطيع أمره غالباً قال: {فلما كفر} أي أوجد الكفر على أي وجه كان، ودلت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه {قال} أي الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين مؤكداً لما لمن تعلق بمن أكد له الوعد بشيء من صادق الاعتماد عليه والتكذيب بأنه يخذله: {إني بريء منك} أي ليس بيني وبينك علاقة في شـيء أصـلاً ظناً منه أن هذه البراءة تنفعه شـيئاً مما اسـتوجبه المأمور بقبوله لأمره، وذلك كناية عن أنه فعل معه من الإعراض عنه والتمادي في كل ما يدل على إهماله من أكد البراءة منه، وذلك كما فعل المنافقون باليهود جرؤوهم على أمر ينهى وهو الإقامة في بلدهم، فلما نصبوا الحرب طمعاً في نصـرهم فعل المنافقون بتباطؤهم عنهم فعل المتبرئ منهم فكان ذلك أشد عليهم مما لم يطمعوهم في نصـرهم لأن هذا بمنزله انهزامهم عنهم من الصـف الموجب لانهزامهم لا محالة، ثم علل البراءة بقوله: {إني أخاف الله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فلا تطاق صولته، ثم شرح ذلك بقوله: {رب العالمين *} أي الذي أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى، فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيئاً إلا بإذنه وهو لا يغفر أصـلاً لمن يقدح ربوبيته ولا سيما إن نسبها إلى غيره، وكان هذا كمثل ما يجد الإنسـان بعد الوقوع في المعصـية من الندم والحيرة، فإذا وجد ذلك وهم بالتوبة زين له المعصية وصعب عليه أمر التوبة

وعسره وجرأه على المعصية بعينها أو على ما هو أكبر منها، ولا يزال كذلك حتى يتعذر عليه الرجوع فيتحقق هلاكه وهلاك من أوقعه، فلذلك سبب عنه قوله: {فكان} ولما كان تقديم الشيء على محله موجباً لروعة تنبه الإنسان للتفتيش عن السبب والتشويق إلى المؤخر قال: {عاقبتهما} مقدماً لخبر «كان» {أنهما} أي الغار والمغرور {في النار} حال كونهما {خالدين فيها} لأنهما ظلما ظلماً لا فلاح معه.

ولما كان ذلك قد يحمل على أنه في الإنسان بعينه، قال معلقاً بالوصف، تعميماً وزجراً عنه: {وذلك} أي العذاب الأكبر {جزاء الظالمين *} أي كل من وضع العبادة في غير محلها.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 21]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)}

ولما أبلغ سبحانه في المواعظ في هذه السورة قولاً وفعلاً، وكانت الإيقاعات المذكورة فيها مسببة عن الخيانات ممن كان له عهد فنقضه، أو ممن كان أظهر الإيمان فأبان فعله كذبه، قال سبحانه وتعالى استنتاجاً عن ذلك وعظاً للمؤمنين لأن الوعظ بعد المصائب أوقع في النفس وأعظم في ترقيق القلب وتحذيره مما يوجب العقوبة: {يا أيها الذين آمنوا} منادياً لهم نداء البعد معبراً

بأدنى أســنان الإيمان لأنه عقب ذكر من أقر بلســانه فقط {اتقوا الله} أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم ســخط الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ولا بد أن يستعرض عبيده، فاحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أو نهي {ولتنظر نفس} أي كل نفس تنظر إلى نفاســتها وتريد العلو على أقرانها، ولعله وحدها للإشــارة مع إفادة التعميم إلى قلة الممثل لهذا الأمر جداً {ما قدمت} أي من الزاد الذي يكون به صلاح المنزل الذي من لم يسع في إصلاحه لم يكن له راحة، هل يرضي الملك ما قدمته فينجيها أو يغضبه فيرديها.

ولما كان الأجل مبهم الوقت، فكان لقاء الله في كل يوم بل كل لحظة للعاقل مترقباً لكونه ممكناً مع كونه على الإطلاق محققاً لا يجهله أحد، قال مشــيراً بتنكيره وإبهامه إلى تهويله وإعظامه: {لغد} أي لأجل العرض بعد الموت أو في يوم القيامة الذي هو في غاية القرب لأن هذه الدنيا كلها يوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون، والموت أو الآخرة غده، لا بد من كل منهما، وكل ما لا بد منه فهو في غاية القرب لا ســيما إن كان باقياً غير منقض، وكل من نظر لغده أحسن مراعاة يومه، وتنوينه للتعظيم من جهات لا تحصى.

ولما أمر بتقواه سبحانه خوفاً من سطواته أمر بتقواه لأجل مراقبته حياء من جلالته وهيبته تأكيداً للأمر لأن مدار النجاة على التقوى لأن مكايد الشيطان دقيقة، فمن لم يبالغ في محاســبة نفســه وتفقد ما يمكن أن يكون من الخلل في أعماله أوشــك أن يحبط الشــيطان أعماله فقال تعالى: {واتقوا الله} أي الجامع لجميع صــفات الكمال أي اتقوه حياء منه، فالتقوى الأولى لإيجاد

صـــور الأعمال، وهذه لتصـــفيتها وتزكية أرواحها، ولذلك علل بقوله مرغباً مرهباً: {إن الله} أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى {خبير} أي عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والإحاطة {بما تعملون *} فلا تعملون عملاً إلا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه، وكرر الاسم الأعظم كراهية أن يظن تقييد التقوى بحيثية من الحيثيات تعظيماً لهذا المقام إعلاماً بأن شؤونه لا تنحصر وأن إحاطته لا تخص مقاماً دون مقام ولا شأناً سوى شأن.

ولما هز إلى تقواه تارة بالخوف وأخرى بالحياء تأكيداً لها، وعلل ذلك بما له شعبة من التحذير، وكان الإنسان لما له من النسيان أحوج إلى التحذير، قال مؤكداً لشعبته وإيضاحاً لأن التقوى الثانية لمحاسبة النفس في تصفية العمل: {ولا تكونوا} أيها المحتاجون إلى التحذير وهم الذي آمنوا {كالذين نسوا الله} أي أعرضوا عن أوامره ونواهيه وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ما له من صفات الجلال والإكرام لما استغواهم به من أمره الشيطان حتى أبعدهم جداً عن العمران {فأنساهم} أي فتسبب عن ذلك أن أنساهم بما له من الإحاطة بالظواهر والبواطن {أنفســـهم} فلم يقدموا لها ما ينفعها وإن قدموا شيئاً كان مشوباً بالمفسدات من الرياء والعجب، فكانوا مما قال فيه. سبحانه وتعالى {وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية} [الغاشـــية: 2- 3- 4- 5] لأنهم لم يدعوا باباً من أبواب الفســـق فإن رأس الفســـق الجهل بالله، ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس، فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

ولما كانت ثمرة ذلك أنهم أضـاعوها– أي التقوى– فهلكوا قال: {أولئك} أي البعيدون من كل خير {هم} أي خاصـة دون غيرهم {الفاسـقون *} أي العريقون في المروق من دائرة الدين.

ولما تم الدليل على أن حزب الله هم المفلحون لما أيدهم به في هذه الحياة الدنيا من النصـر والشـدة على الأعداء واللين والمعاضـدة للأولياء وسـائر الأفعال الموصـلة إلى جنة المأوى، وصـرح في آخر الدليل بخسـران حزب الشـيطان فعلم أن لهم مع هذا الهوان عذاب النيران، وكان المغرور بعد هذا بالدنيا الغافل عن الآخرة لأجل شـهوات فانية وحظوظ زائلة عاملاً عمل من يعتقد أنه لا فرق بين الشـقي بالنار والسـعيد بالجنة لتجشـمه التجرع لمرارات الأعمال المشـتملة عليها، أشـج ذلك قوله منزلاً لهم منزلة الجازم بذلك أو الغافل عنه تنبيهاً لهم على غلطهم وإيقاظاً من غفلتهم: {لا يسـتوي} أي بوجه من الوجوه {أصحاب النار} التي هي محل الشقاء الأعظم {وأصحاب الجنة} التي هي دار النعيم الأكبر لا في الدنيا ولا في الآخرة وهي من أدلة أنه لا يقتل مسلم بكافر.

ولما كان نفي الاسـتواء غير معلم في حد ذاته بالأعلى من الأمرين، كان هذا السـياق معلماً بما حفه من القرائن بعلو أهل الجنة، صـرح به في قوله: {أصـحاب الجنة هم} أي خاصـة {الفائزون *} المدركون لكل محبوب الناجون من كل مكروه، وأصـحاب النار هم الهالكون في الدارين كما وقع في هذه الغزوة لفريقي المؤمنين وبني النضـير ومن والاهم من المنافقين، فشتان ما بينهما.

ولما كان قد مر في هذه السـورة فضـلاً عما تقدمها من حكمة هذا القرآن وإعجازه تارة بمطابقته لما نزل بسببه مطابقة تجلو عنه كل إشكال، وتارة بما يشـاهد من صـدقه فيما أخبر بإتيانه من الأفعال، وأخرى بما يتحدى به من الأقوال، ومرة بنظم كل جملة مع ما تقدمها على ما لم يكن لبشـر مثله في الأحوال إلى غير ذلك من أمور لا يحصـرها المقال، ترتب على ذلك قوله مبيناً أن سـبب افتراق الفريقين في العقبى افتراقهم في هذا القرآن في الأولى تمثيلاً للقلوب في قسـوتها أو لينها عند سـماع القرآن وتخيلاً توبيخاً للقاسـي ومدحاً للعاطف اللين لافتاً القول إلى أسـلوب العظمة لاقتضـاء الحال لها: {لو أنزلنا} بعظمتنا التي أبانها هذا الإنزال {هذا القرآن} أي الجامع لجميع العلوم، الفارق بين كل ملتبس- المبين لجميع الحكم {على جبل} أي أي جبل كان {لرأيته} مع صـلابته وقوته يا أشـرف الخلق إن لم يتأهل غيرك لمثل تلك الرؤية {خاشـعاً} أي مطمئناً مخبتاً على صـلابته متذللاً باكياً {متصـدعاً} أي متشـققاً غاية التشـقق كما تصـدع الطور لتجلينا له بما دون ذلك من العظمة التي جلونا كلامنا الشريف لموسى عليه السلام في ملابسها {من خشـية الله} أي من الخوف العظيم من له الكمال كله حذراً من أن لا يكون مؤدياً ما افترض عليه من تعظيم القرآن عند سـماعه فما لابن لآدم وقد آتاه الله من العقل ما لم يؤت الجبل يسـتخف بحقه، ويعرض عما فيه من العبر، وفي الآية مدح للنبي صلى الله عليه وسلم في ثباته لما لا تثبت له الجبال، وذم للمعرضين بكونهم أقسى من الجبال.

ولما كان التقدير تبكيتاً وتوبيخاً لمن لم يرق للقرآن {أفلم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} [الحديد: 16] فإنا قد فصلنا لهم الحلال والحرام والأمر والنهي وأوضحنا الحكم ودللنا على المتشابه وقصصنا الأقاصـــيص بعد جعلهم عقلاء ناطقين، فتلك أقاصـــيص الماضـــين لعلهم يعتبرون عطف عليه قوله: {وتلك الأمثال} أي التي لا يضـــاد فيها شـــيء {نضربها للناس} أي الذي يحتاجونها وهم من فيهم تذبذب واضطراب {لعلهم يتفكرون *} أي لتكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى تفكره في تلك الأمثال فينفعه ذلك إذا أراد التفكر إلى التذكر فرأى تنبيه الرسـول صـلى الله عليه وسـلم له أن كل ما في القرآن من شـــيء فيه مشـاهد منه متطابق له كتاب الخلق وكتاب الأمر فتخلى عن الشـــهوات البهيمية فنجا من الحظوظ النفســـية فتحلى بالملابس الروحانية فصـــار بالمجاهدات والمنازلات إلى الصفات الملكية فكان أهلاً للمقامات القدسية في الجنان العلية.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 24]

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـــلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُـــبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـــرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)}

ولما أعلى ســـبحانه أولياءه بأن فتح الســـورة بالإيمان بالغيب وهو العزيز الحكيم بعد التنزيه عن نقائص التعطيل وكل شـــائبة نقص وينزل لعباده في

أسـباب الصـفات والأفعال إلى أن أوصـلهم إلى محسـوس الأمثال فتأهلوا للفناء في ذاته وما على صـفاته الموجبة لخشـيته، رقاهم إلى التفكر في تفصيل ما افتتح به، فقال عادلاً عن أسلوب العظمة إلى أعظم منها بإسبال حجب العزة على منهاج الحكمة: {هو} أي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له أصـلاً بوجه من الوجوه، فلا يستحق الوصف ب «هو» غيره لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً، فهو حاضـر في كل ضـمير غائب بعظمته عن كل حس، فلذلك يتصدع الجبل من خشيته.

ولما عبر بأخص أسـمائه، أخبر عنه لطفاً بنا وتنزلاً لنا بأشـهرها الذي هو مسمّي الأسماء كلها فقال: {الله} أي المعبود الذي لا ينبغي العبادة إلا له، الذي بطن بما لم تحط ولا تحيط به العقول من نعوت الكبرياء والعظمة والإكرام، فظهر بأفعاله التي لا تضـاهى بوجه غاية الظهور، فتميز غاية التميز، فلم يلحقه شرك أصـلاً في أمة من الأمم ولا نسمة من النسم، قال الحرالي في شـرح الأسـماء: وهو لوه القلوب والعقول أي محارها الذي لا تدركه، فلزم الخلق من توحيد اسم الإله ما حصل لهم من توحيد اسم الله من الأحدية الإحاطية- انتهى- فلذلك كان وصفه {الذي لا إله إلا هو} فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصبح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شـيء والإله أول اسـم الله فلذلك- لا يكون أحداً مسـلماً إلا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضـة، وتوحيد سائر الأسماء نقل وهو أساس كل نافلة، فمن وحد في الكل فقد كمل دينه وتمت النعمة عليه وإلا كان من الذين آمنوا، فإن كان ذلك منه قولاً عصـم من نار الأحكام على الأبدان في الدنيا، وإن

كان علماً تخلص من نار الهلع على النفوس في الدنيا، وهو الجزع عند مس الشر، والمنع والبخل عند مس الخير، ولن يشهد التوحيد في هذه الكلمة التي مضمونها توحيد اسم الإله إحساناً إلا بعد إحصاء جميع الأسماء علماً، قال الحرالي: والإله: التعبد وهو التذلل، فمن توهم حاجته بشـيء وتوهم أن عنده قوام حاجته تذلل فكان تذلله له تألهاً، وكل من عبد ما أحاط عينه فقد خذل عقله عن تصـحيح معنى الإله الذي يجب أن يكون غيباً، فكان تصـحيح معنى الإله أنه غيب قائم مسـتحق للعبادة والتذلل لأجل قيامه والاستغناء به.

ولما أخبر بتفرده، دل عليه بآية اسـتحقاقه لذلك، فقال مقدماً لما هو متقدم في الوجود: {عالم الغيب} أي الذي غاب عن علم جميع خلقه.

ولما كنا ربما ظن أن وصـفه بالغيب أمر نسـبي سـمي غيباً بالنسـبة لناس دون ناس، دل بذكر الضـد على أن المراد كل ما غاب وكل ما شـهد فقال تعالى: {والشـهادة} أي الذي وجد فكان بحيث يحسـه ويطلع عليه بعض خلقه.

ولما تعالى في صـفات العظمة ونعوت الجلال والكبر فبطن غاية البطون، أخذ رحمة العبادة بالتنزيل لهم بالتعرف إليهم بعواطف الرحمة فقال بانياً الكلام على الضـمير إعلاماً بأن المحدث عنه أولاً هو بعينه المحدث عنه ثانياً: {هو الرحمن} أي العام الرحمة، قال الحرالي رحمه الله تعالى: والرحمة إجراء الخلق على ما يوافق حسـبهم ويلائم خلقهم وخلقهم ومقصـد أفئدتهم، فإذا اختص ذلك بالبعض كان رحيمية، وإذا اسـتغرق كان رحمانية،

ولاستغراق معنى اسم الرحمن لم يكن لإتمام في معنى استغراقه- يعني باسم الله.

ولما كانت الرحيمية خاصــة بما ترضـاه الإلهية قال تعالى: {الرحيم *} أي ذو الرحمة العامة المســعدة في الظاهر والرحمة الخاصـــة المســعدة في الباطن، قال الحرالي: الرحمة من الرحيم اختصــاص من شـملته الرحمانية بمزيـة مـا أوثر بـه من الرحمـة في مقابلـة من آل أمره إلى نعمـه ليجمع مقتضــى الاسـمين بين عموم الرحمانية واختصــاص الرحيمية: ولما أظهر على الخلق خصـــوص الإيثار، أجرى عليهم اســـم الرحيم كرحمة الخلق أبناءهم. ولما كان حق اسـم الرحيم إثبات رحمة غير مجذوذة ولم يكن ذلك للخلق لم يكن بالحقيقة الرحيم إلا الله الذي إذا اختص بالرحمة لم يحدها {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله ســـميع عليم} [البقرة: 256] «إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً بعد أن أعطاكموه» {وأما الذين سـعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السـماوات والأرض إلا ما شــاء ربك عطاء غير مجذوذ} [هود: 108] فلذلك لا رحيم بالحقيقة إلا الله تحقيق علم كما أنه لا رحمان إلا الله بادي معنى.

ولما كان الملك كمال اســتيلاء على الخلق يقصــرهم به ملكهم على بعض مسـتطاعهم ويدينهم- أي يجيزهم- على حسـب دينهم أي ما وضـع لهم من عادة قصـــره لهم وحكمه عليهم وبحســـب إحصـــائه عليهم دقيق أعمالهم وإحاطته بخفي أحوالهم والاطلاع على ســـرائرهم بتحقيق اســـتيفاء الجزاء فيتحقق بذلك كمال الملك، فكان لذلك لا تتحقق حقيقة الملك فيمن هو دون

العلم بالسر وأخفى، والمحصي الحسيب لمثاقيل الدر، الخبير بخبأ الكون، فكان لا ملك في الحقيقة إلا الله، ولكنه تعالى لما كان قد أولى الخلق من رفعه بعضهم فوق بعض ما أجرى عليهم اسم الملك فتنة لهم فضل بسبب ذلك قوم ادعوا الملك الحقيقي، فغلط من أراد الله من الخلق فيهم فضلوا بهم، أعاد التهليل مع اسمه الملك كما ابتدأ مع اسمه الإله أول أسماء الله، ولذلك أيضاً قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الشيخان وأبو داود والترمذى في حديث الذي يسمى ملك الملوك في رواية المسلم:

»لا ملك إلا الله»، فقال مصرحاً بما في باطن اسمي الرحمة من القهر والجبر على النسق الأول في البناء على الضمير تأكيداً لتعين المحدث عنه وتوحيده: {هو الله} أي الذي لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء {الذي لا إله} أي معبود بحق {إلا هو الملك} فلا ملك في الحقيقة إلا هو لأنه لا يحتاج إلى شيء، فإنه مهما أراد كان.

ولما كان الملك أصل ما لحق الخلق من الآفات لأنه رأس الشرف الذي هو باب الترف الملازم لمخالفة كتاب الله أما في الأعمال فيكون فتنة، وأما في الرأي فيكون علواً وكبراً وكفراً، فإن أمر الله في آدم على ماهو نبوة ثم ينزل فيصير خلافة ثم ينتهي نزوله فيكون ملكاً ثم تتداعى الأحداث، فلمكان تداعي الملك لموجبات الذم قال عقب صفات الملك: {القدوس} مصرحاً بما لزم عن تمام ملكه من أنه بليغ في النزاهة عن كل وصم يدركه حسن أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أيو يختلج به ضمير، فإن القدس طهر لا

يقبل التغير ولا يلحقه رجس فلا يزال على وصـــف الحمد بثبات القدس، ولمكان ما حوّل ســبحانه الخلق من حال طهر لا يظهر فيه تغير بما دونه أجرى عليهم اسـم القدس كروح القدس المؤيد للشـارع ينفث في روعة المؤيد لشـاعره في مكافحته عنه، ولأجل قصـر تخلي الخالق بالملك في قليل متاع الدنيا رغب النبي العبد صـلى الله عليه وسـلم عنه، واختار العبودية الدائمة بدوام العزة لســيده، فوضــح بذلك علم أن لا قدوس إلا الله حقيقة معنى وتصحيح إحاطة.

ولما كان سـبحانه لتمام ملكه وعلو ملكه وكمال قدسـه لا يتصـور أن يلحقه نقص في ذات ولا صفة ولا فعل، فلا يقبح منه إهلاك على حال من الأحوال ولا مس بضـر في الدنيا والآخرة في وقت من الأوقات لأنه سـبحانه، لعلمه بالظواهر والبواطن على حد سواء، يصنع الأمور في أحكم مواضعها بما لا يدركه غيره أصـــلاً أو لا يدركه حق إدراكه فاحتيج إلى ما يؤمن من ذلك، وكان السلام حد ما بين الألفة والفرقة وحد ما بين الرحمة والسطوة وهو أدنى منال الجاهل من عباد الرحمان، ومنال المعتدي من المقتدر، وكان ســـلام المسـلم للجاهل مداراة لئلا يزيد في جهله عليه، أو ارتقاباً لاسـتقبال مكنة، وكان الله لا يعبأ بالخلق ولا يحتاج لارتقاب مكنة لأنه لا يعجزه شـــيء فلم يتحقق السلام بكل معنى من وجود السلامة له وإفاضتها على غيره تماماً إلا منه إعفاء من معاجلة استحقاق السطوة وحفيظة لحرمة اختصاص الرحمة، أتبع ذلك مؤمناً للعاصـــي من المعاجلة وللمطيع من ســوء المعاملة قوله: {السلام} لأنه حد ما بينهما ظاهراً، ولذلك أردفه بما يتعلق بالباطن لتحصل

إحاطة السلامة ظاهراً وباطناً فقال: {المؤمن} لأن الأمن حد ما بين المحبة والكره فيمن لا وسيلة له للحب وهو أدنى ما يقبله ذو الحق ممن يستحق منه الحب، ولذلك لم يقبل الحق ممن كان ظاهر الوسيلة للحب- إلا بالحب فلم يثبت إيمان المؤمن بمجرد الإيمان حباً له بل إيثاراً لمحبته على كل حب ومساواة لأخيه المؤمن فيما يحب لنفسه، وأدناه الأمنة في الغيب من الغيبة والعيب إلى غاية الأمان من بوائق الغشم والظلم من الجار المستحق حفظ جاره في غيبه، فالإحلال بالإيمان لكونه الأمنة في الغيب نفاق، والإخلال بالإسلام لكونه السلم في المواجهة إحرام، فبأدنى إخلال في جانب الحق أو الخلق ينثلم الإسلام والإيمان، وذلك كله إنما هو في الحقيقة من الله تعالى فهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ومنع أسباب المخاوف فلا أمن في الوجود ولا أمان إلا وهو مستفاد من جهته.

ولما كان الاطلاع على بيّن ما ذكر ليتحقق معنى السلم والأمن، وعلى كل من تلك الحدود خفياً جداً يفتقر إلى مزيد علم، قال: {المهيمن} فإن الهيمنة شهادة خبرة وإحاطة وإبصار لكلية ظاهر الأمر وباطنه بحيث لا يخفى منه خافية هوية ولا بادية ظاهر، ولإحاطة معناه لا يكاد يقع له في الخلق مسوغ إطلاق إلا مسامحة لأن الخلق لا يشهدون إلا الظواهر ولا يشهدون من الباطن، ولذلك انعجم معناه على كثير من فصحاء العرب، فمفهوم معناه موجب توحيده فواضح إذ لا مهيمن بمعنى أنه شهيد على الوجه المشروح مع الأمانة المأمونة والحفظ والرعاية فيكون قائماً على كل شيء بكل ما له من رزق وعمل وأجل إلا هو، ولذلك كان القرآن الذي هو صفته سبحانه

وتعالى مهيمناً على جميع الكتب التي قبله مصــدقاً لما يســتحق التصــديق منها مكذباً لما يستحق التكذيب، فمن كان به أمهر كان بذلك أعلم.
ولما كان تمام الخبرة ملزوماً لتمام القدرة، صــرح بها اللازم فقال؛ {العزيز} والعزة غلبة لا يجد معها المغلوب وجه مدافعة وجه مدافعة ولا انفلات ولا إعجاز، فالعزيز الذي صعب على طالبه إدراكه مع افتقار كل شيء إليه في كل لحظة، الشــــديد في انتقامه الذي لا معجز له في إنفاذ حكمه، ولذلك ينظم كثير بآيات إمضــاء الأحكام متصــلاً بالحكمة والعلم إنباء عن العدل، قال الغزالي: وهو الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه. ولما كان المغلوب على الشــــيء فيؤخذ من يده قد لا ينقاد باطناً فلا يباشر ما غلب عليه للغالب وقد لا يكون العز ظاهراً لكل أحد، أردفه بقوله: {الجبار} وهو العظيم الذي يفوت المقاوم مناله، فهو على هذا من أســـماء الذات ويصلح أمور من يريد من الخلق ويقهرهم على ما يريد، فهم أحقر من أن يعصـــوه طرفة عين بغير إرادته، والجبر : طول يلجيء الأدنى لما يريد منه الأعلى ويغيب من الأعلى ما يحاول مناله منه الأدنى مع الظهور التام الذي تدور مادته عليه، فالجبار لا يخرج شيء من قبضته، وتقصر الأيدي عن حمى عز حصـــرته، ولا ينال منه إلا ما نوّل، وهو أبعد شــــيء عن أوصـــاف الخلق لمنال الذباب منهم منا شـــاء وعجزهم عنه، ولما فيه من الإلجاء كان هو الاســـم الذي يجليء النار لقصـــرها على مراده منها من الحسب الذي جبلها على ضده من الاستزادة فلا تزال تقول ما جبلت عليه: هل من مزيد، حتى يضـــع الجبار فيها قدمه أي يهينها فإن القدم موضـــع

الإهانة، وهذه الإهانة- هي من مبدأ ظهور غلبة الرحمة للغضب، فله الملك ظهوراً بالأيدي الظاهرة من الإنســـان وما دونه، وله الملكوت بطوناً بالأيدي الباطنة من الملك وما دونه، ولو الجبروت اختصـــاصـــاً من وراء كل ملك وملكوت.

ولما كان الإلجاء قد يكون بنوع ملاطفة، أتبعه قوله: {المتكبر} ليعم الإلجاء الظاهر والباطن فالكبرياء جملة تأدي أمر الله وظاهر خلقه الذي يجد الخلق صـــغرهم من دونه وكبره عليهم وامتناعه عما لا يريد من مرادهم، لأن الكل حقيرون بالإضـافة إلى جلاله وعز جبروته وعظمته وكماله، ولسـواء الخلق في عام حضـرة القدرة شـملهم الصـغر فلم يصـح منهم كبر، ولا شـرع لهم تكبر، فلم يكن للخلق منهم حقيقة حظ ولا لبس حق، فاختص بهذا الاســـم لاســـتيلائه على الظواهر بإظهار ما لهم من الكبر لعدم الحاجة إلى شـــيء وبإلجاء غيره إلى الاحتياج إليه والإيقاع بجبابرتهم وإذلالهم وغير ذلك من الأمور المزعجة المرهبة من غير مبالاة بشـــيء كما اختص بالجبار لاستيلائه على البواطن.

ولما تقرر بما ذكر من مظاهر عظمته اســـتيلاؤه على الظواهر والبواطن باللطف والعنف، أنتج ذلك تعاليه عن شـوب نقص لا سـيما بالشـرك فقال سـبحانه: {سـبحان الله} أي تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صـفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصـاف الخلق فلا يدانيه شـــيء من نقص {عما يشـــركون *} أي من هذه المخلوقات من

الأصنام وغيرهما مما في الأرض أو في السماء من كبير وصغير. وجليل وحقير.

ولما تم دليل الوحدانية بما حل من التفهيم بالتدني إلى الملك ثم بالتعلي إلى التكبر فأنتج هذه الخاتمة، ابتدأ سبحانه دليلاً آخر هو في غاية التنزل والوضوح، فقال مفتتحاً بما افتتح به الأول من الترتيب في المراتب الثلاث، غيب الغيب ثم الغيب ثم الظهور على مراتبه، إعلاماً بأنه لا براح عن الإيمان بالغيب، ومن برح عنه هلك {وهو} أي الذي لا شيء يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لأن وجوده من ذاته ولا شيء غيره إلا وهو ممكن فهو أهل لأن لا يكون فلا يكون له ظهور ليكون له بطون.

ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الأشياء، أخبر عنه بأشهر الأسماء الذي لم يقع فيه شركة بوجه فقال: {الله} أي الذي ليس له سمي فلا كفوء له فهو المعهود بالحق فلا شريك له بوجه. ولما بدأ سبحانه بهذا الدليل الجامع بين الغيب والظهور، ثنى بتنزيل متضمن للعلم والقدرة فهو في غاية الظهور فقال: {الخالق} أي الذي لا خالق على الحقيقة إلا هو لأن الخلق فرض حد وقدر في مطلق منه لم يكن فيه بعد حد ولا قدر كالحاذي يخلق أي يقدر في الجلد حداً وقدراً لنعل ونحوه وهو سابق للفري والبري ونحو «سبق العلم العمل» فالخالق في الحقيقة هو الذي كل شيء عنده بمقدار، الذي يقول {يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق} [الزمر: 6] {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} [الحجر: 21] ومن ناشئة القدر الفرق والترتيب، ومن ناشئة الفرق والترتيب الإحياء والإماتة،

ومن معاد الفرق والإحياء والإماتة على أول أمره الجمع والرب، فلا يملك الخلق والفرق إلا من يملك الجمع والرب، وقد أوتي الحق ملكة ما في الفرق والشتات، ولم يملكوا جمع ما فرقوا ولا ألف ما شتتوا كالقاطع عضواً لا يقدر على لأمه، والهادم بناء لا يقدر على رمه على حده، والكاسر شيئاً لا يقدر على وصله، فلأن الخلق لا يحيطون بتقدير ما يسرعون في قدره ولا يقدرون بعد الفرق والفري على رمه ووصله كان المحيط التقدير في الشيء من جميع جهاته وجملة حدوده، القادر على جمع ما فرق الذي كما بدء أول خلق يعيده هو أحسن الخالقين، وتلايح تحت هذا اللبس في إطلاق اسم الخالق على الخالق الحق ذي الحول والقوة والقدرة والإحاطة والإبداء والإعادة، وعلى الخالق من الخلق المقدر بغير إحاطة علم ولا تأصيل حول ولا قدرة، ولا إتمام إبداء لاحظ من إعادة أنه لا خالق إلا الله كما أنه لا معيد لما بدأ إلا الله، وأن ليس إطلاق هذا الاسم على الخلق مبدأ فتنته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، وتحقيق أفراد الخلق لله فيما ظهر على أيدي أهل الملك والملكوت وإحاطة جبروته بما ظهر وما بطن من أعمالهم وصنائعهم، هو أول مجمع من مجامع التوحيد، وهو أساس لإيمان أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث فرض عليهم في الفاتحة {إياك نعبد وإياك نستعين} فهم خير أمة أخرجت للناس حيث أخلصوا الدين لله، ولموقع الشرك فيه كان القدرية مجوس هذه الأمة.

ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبريء وإن كان أغلب الخلق لقصورهم لا يفهمون منه إلا مطلق التقدير كما قال شاعرهم:

ولأنت تفري ما خلقت *** وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أردفه تنبيهاً على ذلك وتصـريحاً وتأكيداً قوله: {البارئ} أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال، فإن كان من المحيط العلم كان تمام التهيؤ للصـورة على كمال المشـيئة فيها، وإن كان ممن لا يحيط علماً طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة، ولا يكاد يقع الإحسان للخلق في مصوراتهم إلا وفاقاً لا يعلمون كنهه ولا يثقون بحصوله.

ولما كان من يهيئ الأمور للتصـوير قد لا يتقنه قال: {المصـور} فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور، وليس وراء ظهور الصـور كون إلا لطائف تطويرها في إسـنان كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الروح المقوم لها سواء كان حيوانياً أو غيره إلى غاية كما لها الذي يعطيه المصور لها إفضـالاً ومزيداً ويظهره إبداعاً، ويتضـح الفرق جداً بين الأسماء الثلاثة بالبناء فإنه يحتاج أولاً إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الحجر واللبن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس فيرسـمه وهو الخلق ثم يحتاج إلى حجار ينحت الحجارة ويهيئها لتصـلح لمواضـعها التي تكون فيها من الأبواب وأوسـاط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك، وكذا الخشاب والحداد في الخشب والحديد وهو البرئ ثم يأخذ الكل البناء فيضـعها مواضـعها إلى أن تقوم صـورتها التي رسـمها المهندس أولاً وقدرها، ولا تقوم الصـورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحسـب

الطاقة كما أن البناء يضع الحجارة أولاً ثم يجعل الخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة، ولو قلب ذلك لم تثبت الصورة ولم يكن لها الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره أعظم، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله الخالق البارئ المصور سبحانه، قال الرازي في اللوامع: والتصوير موجود في كل أجزاء العالم وإن صغر حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة، بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها، ووجه الحكمة فيها، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل، وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان.

ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة، أردفه بقوله تعالى: {له} أي خاصة لا لغيره {الأسماء الحسنى} أي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه.

ولما أخبر سبحانه أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعاً لعزته وحكمته، ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسمعه الآذان الواعية بالأسماء الحسنى، دل على دوام اتصافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير فعبر بالمضارع فقال: {يسبح} أي يكرر التنزيه الأعظم من كل شائبة نقص على سبيل التجدد والاستمرار {له} أي على وجه التخصيص بما أفهمه قصر المتعدي وتعديته باللام {ما في السماوات} ولما كان هذا المنزه الذي استجلى التنزيه من الأسماء الحسنى قد أشرقت أنفاسه ولطفت أقطاره وأغراسه حتى صار علوياً فرأى الأرض عالية كالسماء لما

شـــاركتها به في الدلالة على تمام كماله لجعلها معها لأنه لا يحتاج إلى تأكيد كالشـــيء الواحد بإســقاط «ما» وألصــقها بها إلاحة إلى ذلك فقال: {والأرض} فمن تأمل الوجود مجملاً ومفصــلاً، علم تسـبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصــاف الجلال والجمال {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} أي الذي يغلب كل شـيء ولا يغلبه شــيء ولا يوجد له مثل، ويعز الوصـول إليه ويشتد الحاجة إليه.

ولما كان من يكون بهذه الصـــفة لا يتم أمره وثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة قال: {الحكيم *} من الحكمة وهي إتقان الحكم وإنهاؤها إلى جد لا يمكن نقضـــهن والحكم قال الحرالي: المنع عما يترامى إليه المحكوم إيالة عليه وحمله على ما يمتنع منه نظراً له، ففي ظاهره الجهد وفي باطنه الرفق، وفي عاجله الكره، وفي آجله الرضــى والروح، فموقعه في الأبدان المداواة «تداووا عباد الله فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء»، وموقعه في الأديان التزام الأحكام والصــبر والمصــابرة على مجاهدة الأعمال وجهاد الأعداء ظاهراً من عدو الدين والبغي وباطناً من عدو النفس (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) ومن بعض الأهل والولد عدو، والشيطان عدو يجري من ابن آدم مجرى الدم {إن الشـيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً} [فاطر: 6] فالحمل على جميع أنواع الصبر والمصابرة ظاهراً بالإيالة العالية هو الحكم والعلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم من قوام أمر عاجلته وحســن العقبى في آجلته من الحكمة، فالحكم مباح التعليم للناس عامة بل واجب أن يتعلم كل امرئ من الأحكام ما يخصه، وأن ينتدب طائفة لعلم ما يعم جميع الناس

{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين} [التوبة: 122] والحكمة التي هي العلم بما لأجله وجب الحكم من مشروطه التعليم بالتزكية {هو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضـلال مبين} [الجمعة: 2] فما يعلمهم الحكمة إلا بعد التزكية فمن تزكى فهو من أهلها ومن يترك فليس من أهلها، فالحكمة تحلي مرارة جهد العمل بالأحكام فييسـر بها ما يعسـر دونها، والحكم ضـيق الأمر للنفس كما أن السـجن ضـيق الخلق للبدن، والحكمة تود محمل ضيق الحكم لأنها تخرج وتؤول إلى سعة الواسع، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم.

ولما لم يكن للخلق من العلم إلا بقدر ما يهبهم الله لم يكن لهم من الحكمة إلا مقدار ما يورثهم {ولقد آتينا لقمان الحكمة} [لقمان: 12] ولما كان إنما العلم عند الله كان إنما الحكمة حكمة الله وإنما الحكم حكم الله، فهو الحكيم الذي لا حكيم إلا هو- انتهى. وقد علم سر اتباع الأسماء الشريفة من غير عطف، وذاك أنه لما ابتدأ ب «هو» وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف إعلاماً بأنه لا شـيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم المتعارف عند أهل اللغة، ولذلك جمع بعدها الأسماء إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصـاف المنزلة في كتبه والمأخوذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه وليس شيء مما ذكر ههنا مضاداً في المعنى الظاهري للآخر كالأول والآخر حتى يظن لأجله نقص في المعنى بسـبب ترك

العطف، وأما ترتيبها هكذا فلأن كل اسم منها كما مضى شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه، وموضـــع لما ألاح أنه من مضـمونه، وقد انعطف على افتتاحها وختامها وعانق ابتداؤها تمامها، ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشـاد إلى سـبيل الرشـاد، فسبحان من أنزله برحمته رحمة للعباد، وهادياً إلى الصواب والسداد.

▲ سورة الممتحنة

▲ تفسير الآية رقم [1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَـبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَـاتِي تُسِـرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1)}

ولما كان التأديب عقب الإنعام جديراً بالقبول، وكان قد أجرى سـبحانه سـنته الإلهية بذلك، فأدب عباده المؤمنين عقب ســورة الفتح الســببي بســورة الحجرات، وكانت سـورة الحشـر مذكرة بالنعمة في فتح بني النضـير ومعلمة بأنه لا ولي إلا الله، ولذلك ختمها بصــفتي العزة والحكمة بعد أن افتتحها بهما، وثبت أن من حكمة حشــر الخلق، وأن أولياء الله هم المفلحون، وأن أعداءه هم الخاسـرون، وكان الحب في الله والبغض في الله أفضـل الأعمال وأوثق عرى الإيمان، ولذلك ذم سبحانه من والى أعداءه وناصـرهم، وسماهم مع التكلم بكلمة الإســلام منافقين، أنتج ذلك قطعاً وجوب البراءة من أعدائه والإقبال على خدمته وولائه، فقال معيداً للتأديب عقب سـورة الفتح على أهل

الكتاب بسورة جامعة تتعلق بالفتح الأعظم والفتح السببي: {يا أيها الذين آمنوا} منادياً بأداة العبد وإن كان من نزلت بسببه من أهل القرب، ومعبراً بالماضي إقامة لمن والى الكفار نوع موالاة في ذلك المحل إلهاباً له وتهييجاً إلى الترفع عنه لئلا يقدح في خصوصيته ويحط من عليّ رتبته مع اللطف به بالتسمية له بالإيمان حيث شهد سبحانه على من فعل نحو فعله مع بني النضير بالنفاق وأحله محل أهل الشقاق، فحكم على القلوب في الموضعين فقال هناك: {الذين نافقوا} كما قال هنا: {الذين آمنوا}.

ولما كان قد تقدم في المجادلة النهي الشديد عن إظهار مطلق الموادة للكفار، وفي الحشر الزجر العظيم عن إبطان ذلك فتكفلت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهراً أو باطناً، بكت هنا من اتصف بالإيمان وقرعه ووبخه على السعي في موادتهم والتكلف لتحصيلها، فإن ذلك قادح في اعتقاد تفرده سبحانه بالعزة والحكمة، فعبر لذلك بصيغة الافتعال فقال بعد التبكيت بالنداء بأداة البعد والتعبير بأدنى أسنان الإيمان: {لا تتخذوا} وزاد في ذلك المعنى من وجهين: التعبير بما منه العداوة تجرئة عليهم وتنفيراً منهم والتوحيد لما يطلق على الجمع لئلا يظن أن المنهي عنه المجموع بقيد الاجتماع والإشارة إلى أنهم في العداوة على قلب واحد، فأهل الحق أولى بأن يكونوا كذلك في الولاية فقال: {عدوي} أي وأنتم تدعون موالاتي ومن المشهور أن مصادق العدو أدنى مصادقة لا يكون ولياً فكيف بما هو فوق الأدنى وهو فعول من عدى، وأبلغ في الإيقاظ بقوله: {وعدوكم} أي العريق في عداوتكم ما دمتم على مخالفته في الدين.

ولما وحد لأجل ما تقدم من الإشـــارة إلى اتحاد الكلمة، بين أن المراد الجمع فقال: {أولياء} ثم استأنف بيان هذا الاتحاد بقوله مشـيراً إلى غاية الإسـراع والمبادرة إلى ذلك بالتعبير بقوله: {تلقون} أي جميع ما هو في حوزتكم مما لا تطمعون فيه إلقاء الشـيء الثقيل من علو {إليهم} على بعدهم منكم حسـاً ومعنى {بالمودة} أي بسببها.

ولما توقع السـامع التصـريح بمضـادتهم في الوصـف الذي ناداهم به بعد التلويح إليه، ملهياً ومهيجاً إلى عداوتهم بالتذكير بمخالفهم إياه في الاعتقاد المســتلزم لاســتصــغارهم لأنه أشــد المخالفة {وقد} أي هو الحال أنهم قد {كفروا} أي غطوا جميع ما لكم من الأدلة {بما} أي بسـبب ما {جاءكم من الحق} أي الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي لا شيء أعظم ثباتاً منه، ثم استأنف بين كفرهم بما يبعد من مطلق موادتهم فضلاً عن السعي فيها بقوله مذكراً لهم بالحال الماضية زيادة في التنفير منهم ومصوراً لها بما يدل على الإصـرار بأنهم {يخرجون الرسـول} أي الكامل في الرسـلية الذي يجب على كل أحد عداوة من عاداه أدنى عداوة ولو كان أقرب الناس فكيف إذا كان عدواً، وبين أن المخاطب من أول الســـورة من المهاجرين وأن إيراده على وجه الجمع للسير والتعميم في النهي بقوله: {وإياكم} أي من دياركم من مكة المشرفة.

ولما بين كفرهم، معبراً بالمضـارع إشـارة إلى دوام أذاهم لمن آمن المقتضـي لخروجه عن وطنه، علل الإخراج بما يحقق معنى الكفر والجداوة فقال: {أن}

أي أخرجوكم من أوطانكم لأجل أن {تؤمنوا} أي توقعوا حقيقة الإيمان مع التجديد والاستمرار.

ولما كان الإيمان به سبحانه مستحقاً من وجهي الذات والوصف لفت الخطاب من التكلم إلى الغيبة للتنبيه عليهما فقال: {بالله} أي الذي اختص بجميع صفات الكمال، ولما عبر بما أبان أنه مستحق للإيمان لذاته أردفه بما يقتضي وجوب ذلك لإحسانه فقال: {ربكم} ولما ألهبهم على مباينتهم لهم بما فعلوا معهم وانقضى ما أريد من التنبيه بسياق الغيبة عاد إلى التكلم لأنه أشد تحبباً وأعظم استعطافاً وأكمل على الرضا فألهبهم بما كان من جانبهم من ذلك الفعل أن لا يضيعوه، فقال معلماً إن ولايته سبحانه لا تصح إلا بالإيمان، ولا يثبت الإيمان إلا بدلائله من الأعمال، ولا تصح الأعمال إلا بالإخلاص، ولا يكون الإخلاص إلا بمباينه الأعداء: {إن كنتم} أي كوناً راسخاً حين أخرجوكم من أوطانكم لأجل إيمانكم بي {خرجتم} أي منها وهي أحب البلاد إليكم {جهاداً} أي لأجل الجهاد {في سبيلي} أي بسبب إرادتكم تسهيل طريقي التي شرعتها لعبادي أن يسلكوها {وابتغاء مرضاتي} أي ولأجل تطلبكم بأعظم الرغبة لرضاي ولكل فعل يكون موضعاً له، وجواب هذا الشرط محذوف لدلالة {لا تتخذوا} عليه.

ولما فرغ من بيان حال العدو وشرط إخلاص الولي، وكان التقدير: فلا تتخذوهم أولياء، بنى عليه قوله مبيناً {تلقون} إعلاماً بأن الإسرار إلى أحد بما فيه نفعه لا يكون إلا تودداً: {تسرون} أي توجدون إسرار جميع ما يدل على مناصحتهم والتودد إليهم، وأشار إلى بعدهم عنهم بقوله: {إليهم} إبلاغاً

في التوبيخ بالإشارة إلى أنهم يتجشمون في ذلك مستفتين إبلاغ الأخبار التي يريد النبي صلى الله عليه وسلم وهو المؤيد بالوحي كتمها عنهم على وجه الإسرار خوف الافتضاح والإبلاغ إلى المكان البعيد {بالمودة} أي بسببها أو بسبب الإعلام بأخبار يراد بها أو يلزم منها المودة.

ولما كان المراد بالإسرار الستر على من يكره ذلك، قال مبكتاً لمن يفعله: {وأنا} أي والحال أني {أعلم} أي من كل أحد من نفس الفاعل {بما أخفيتم} أي من ذلك {وما أعلنتم} فأيّ فائدة لإسراركم إن كنتم تعلمون أني عالم به، وإن كنتم تتوهمون أني لا أعلمه فهي القاصمة.

ولما كان التقدير بما هدى إليه العاطف: فمن فعل منكم فقد ظن أني لا أعلم الغيب أو فعل ما يقتضي ظن ذلك، عطف عليه قوله: {ومن يفعله} أي يوجد الاتخاذ سراً أو علناً أو يوجد الإسرار بالمودة فالإعلان أولى في وقت من الأوقات ماض أو حال أو استقبال. ولما كان المحب قد يفعل بسبب الإدلال ما يستحق به التبكيت، فإذا بكت ظن أن ذلك ليس على حقيقته لأن محبته لا يضرها شيء، وكان قد ستر المعايب بأن أخرج الكلام مخرج العموم، صرح بأن هذا العتاب مراد به الإحباب فقال: {منكم} وحقق الأمر وقربه بقوله: {فقد ضل} أي عمي ومال وأخطأ {سواء السبيل *} أي قويم الطريق الواسع الموسع إلى القصد قويمه وعدله، وسبب نزول هذه الآية روي من وجوه كثيرة فبعضه في الصحيح عن علي ومنه في الطبراني عن أنس ومنه في التفاسير «أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز لفتح مكة

فســألها ما أقدمها، فقالت: ذهب موالي وقد احتجت حاجة شــديدة، وكنتم الأهل والعشـيرة والموالي، فحث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها وكســوها وحملوها، فكتب معها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسـد بن عبد العزى من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رســول الله صــلى الله عليه وســلم يريدكم فخذوا حذركم، فأعطاها عشـرة دنانير، فنزل جبريل عليه السـلام بالخبر فبعث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عمر وعلياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد وكانوا كلهم فرساناً فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضـة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاط إلى المشـركين، فخذوه منها وخلوا سبيلها، وإن لم تدفعه إليكم فاضـربوا عنقها. فانطلقوا تعادي بهم خيلهم، فأدركوها في ذلك المكان فأنكرت وحلفت بالله، ففتشـوها فلم يجدوه فهموا بالرجوع، فقال علي رضـي الله عنه: ما كذبنا ولا كذبنا، وســل ســيفه فقال: أخرجي الكتاب أو لألقين الثياب ولأضــربن عنقك، فقالت: على أن لا تردوني، ثم أخرجته من عقاصــــها قد لفت عليه شـعرها، فخلوا سـبيلها، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لحاطب: هل تعرف الكتاب قال: نعم، قال: فما حملك على هذا؟ قال: لا تعجل يا رسـول الله، والله ما كفرت منذ أسـلمت ولا غشـشـت منذ نصـحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يدفع الله به عن عشـيرته، وكنت غريباً خليفاً فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم فأردت أن أتخذ عندهم يداً يدفع الله بها عن أهلي، وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسـه، وأن كتابي لا يغني عنهم شـيئاً، فقال لهم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم:

صدق ولا تقولوا له إلا خيراً، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ففاضت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم، فأنزل الله {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم}«
الآيات.

ولاق الإمام أبو جعفر بن الزبير : افتتحت- يعني هذه السورة- بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك وأمرهم بالتبرؤ منهم، وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم} إلى آخر السورة، وقد حصل منها أن أسنى أحوال أهل الإيمان وأعلى مناصبهم {أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه} [المجادلة: 22] فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه عن موالاة الأعداء ووعظهم بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم، والاتصال في هذا بين، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم، ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة له، ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وكتابه لكفار قريش بمكة،

والقصــة مشــهورة وكفار مكة ليســوا من يهود، وطلبوا المعادة للجميع واحد، فلهذا فضــــل بما هو من تمام الإخبار بحال يهود، وحينئذ عاد الكلام إلى الوصــية عن نظائرهم من الكفار المعاندين، والتحمت الســور الثلاث وكثر في سـورة الممتحنة تزداد الوصـايا والعهود، وطلب بذلك كله ولهذا المناسـبة ذكر فيها الحكم في بيعة النسـاء وما يشـترط عليهن في ذلك، فمبنى السـورة على طلب الوفاء افتتاحاً واختتاماً حســب ما بين في التفســير لينزه المؤمن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة– انتهى.

▲ تفسير الآيات رقم [2– 3]

{إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)}

ولما كان ما بينه تعالى من إخراجهم لهم موضـحاً بعداوتهم وكان طول كفهم عن قصـدهم بالأذى من سنة الأحزاب سنة خمس إلى سنة ثمان ربما شكك في أمرها، وكان ســـبحانه قد أعز المؤمنين بعد ذلهم وقواهم بعد وهنهم وضـعفهم، وثقفهم بعد جهلهم، بين ظلال معتقد ذلك بأن كف الكفار إنما هو لعجزهم وأنهم لو حصــــل لهم ما هو للمســــلمين الآن من القوة لبادروا إلى إظهار العداوة مع أن ذلك في نصـر الشـيطان، فأولياء الرحمان أولى باتباع ما آتاهم من الإيمان، فقال مبيناً لبقاء عداوتهم : {إن يثقفوكم } أي يجدوكم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن وهم يطمعون في أخذكم بكونهم أقوى منكم أو أعرف بشـيء مما يتوصـل به إلى الغلبة، وأشـار بأداة الشـك

إلى أن وجدانهم وهم على صـــفة الثقافة مما لا تحقق له، وإنما هو على سـبيل الفرض والتقدير، وأنه إنما علم سـبحانه أنه لو كان كيف كان يكون، مع أنـه مما لا يكون، ونبـه على عراقتهم في العداوة بالتعبير بالكون فقال: {يكونوا لكم} أي خاصـة {أعداء} أي يعدون إلى أذاكم كل عدو يمكنهم وإن واددتموهم. ولما كانت العداوة قد تكون بإغراء الغير، عرف أنهم لشـــدة غيظهم لا يقتصـرون على ذلك فقال: {ويبسـطوا إليكم} أي خاصـة وإن كان هنـاك في ذلـك الوقت من غيركم من قتـل أعز النـاس إليهم {أيـديهم} أي بالضرب إن استطاعوا {وألسنتهم} أي بالشتم مضمومة إلى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما نجرع من آخر من غيركم من القصص حتى أوجب له غاية السعة {بالسوء} أي بكل ما من شأنه أن يسوء.

ولما كان أعدى الأعداء لك من تمنى أن يفوتك أعز الأشـــياء لديك، وكان أعز الأشـياء عند كل أحد دينه، قال متمماً للبيان: {وودوا} أي وقعت منهم هذه الودادة قبل هذا لأن مصيبة الدين أعظم فهم إليها أسرع لأن دأب العدو القصـــد إلى أعظم ضـــرر يراه لعدوه، وعبر بما يفهم التمني الذي يكون في المحالات ليكون المعنى أنهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه، وفيه بشـرى بأنه من قبيل المحال {لو تكفرون *} أي يقع منكم الكفر الموجب للهلاك الدائم، وقدم الأول لأنه أبين في العداوة وإن كان الثاني أنكأ.

ولما كانت عداوتهم معروفة وإنما غطاها محبة القرابات لأن الحب للشـــيء يعمي ويصم، فخطأ رأيهم في موالاتهم بما أعلمهم به من حالاتهم، زهد فيها مما يرجع إلى حـال من والوهم لأجلهم بمـا تورثـه من الشـــقـاء الدائم يوم

البعث، فقال مستأنفاً إعلاماً بأنها خطأ على كل حال: {لن تنفعكم} أي بوجه من الوجوه {أرحامكم} أي قراباتكم الحاملة لكم على رحمتهم والعطف عليهم {ولا أولادكم} الذين هم أخص أرحامكم إن واليتم أعداء الله لأجلهم فينبغي أن لا تعدوا قربهم منكم بوجه أصـلاً، ثم علل ذلك بينه بقوله: {يوم القيامة} أي القيام الأعظم.

ولما كان النافي للنفع وقوع الفصـــل لا كونه من فاصـــل معين قال بانياً للمفعول على قراءة أبي عمرو ونافع وابن كثير وأبي جعفر وابن عامر من أكثر طرقه إلا أن شـدد الصـاد للمبالغة في الفصـل: {يفصـل} أي يوقع الفصـل وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الأسباب {بينكم} أي أيها الناس فيدخل من شـاء من أهل طاعته الجنة، ومن شـاء من أهل معصـيته النار، فلا ينفع أحد أحداً منكم بشيء من الأشياء إلا إن كان قد أتى الله بقلب سليم فيأذن الله في إكرامه بذلك.

ولما كان التقدير إعلاماً بأن الله هو الفاصـل وهو الضـار النافع بما دلت عليه قراءة الباقين إلا أن حمزة والكسائي بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة إشارة إلى عظمة هذا الفصل بخروجه عن المألوف عوداً إلى الاسم الأعظم إشـارة إلى عظم الأمر بانتشـار الخلائق وأعمالهم: فاللّه على ذلك قدير، عطف عليه قوله: {والله} أي الذي له الإحاطة التامة {بما تعملون} أي من كل عمل في كل وقت {بصير *} فيجازيكم عليه في الدنيا والآخرة، وقد مضـــى غيره مرة أن تقديم الجار في مثل هذا للتنبه على مزيد الاعتناء بعلم ذلك لا على الاختصاص ولا لأجل الفواصل.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 5]

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)}

ولما أبلغ سبحانه في وعظهم في ذلك، وكانت عادته التربية بالماضين، كان موضع توقع ذلك فقال معبراً بأداة التوقع: {قد كانت} أي وجدت وجوداً تاماً، وكان تأنيث الفعل إشارة إلى الرضا بها ولو كانت على أدنى الوجوه {لكم} أي أيها المؤمنون {أسوة} أي موضع اقتداء وتأسية وتسنن وتشرع وطريقة مرضية {حسنة} يرغب فيها {في إبراهيم} أي في قول أبي الأنبياء {والذين معه} أي ممن كانوا قبله من الأنبياء، قال القشيري: وممن آمن به في زمانه كابن أخيه لوط عليهما الصلاة والسلام وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة {إذ} أي حين {قالوا} وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف {لقومهم} الكفرة، وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات.

ولما كان ما ذكر من ضعفهم وقوة قومهم مبعداً لأن يبارزوهم، أكدوا قولهم فقالوا: {إنا} أي من غير وقفة ولا شك {برءاء} أي متبرئون تبرئة عظيمة {منكم} وإن كنتم أقرب الناس إلينا ولا ناصر لنا منهم غيركم. ولما تبرؤوا منهم أتبعوه ما هو أعظم عندهم منهم وهو سبب العداوة فقالوا: {ومما

تعبدون} أي توجدون عبادته في وقت من الأوقات الماضـــية المفيد التعبير عنها بالمضارع تصوير الحال أو الحاضرة أو الآتية كائناً من كان لا نخاف شــيئاً من ذلك لأن إلهنا الذي قاطعنا كل شــيء في الانقطاع إليه لا يقاويه شيء، ولا تقدرون أنتم مع إشراككم به على البراءة منه.

ولما كانوا مشــركين قالوا مســتثنين ومبينين لســفول كل شــيء عن متعالي مرتبة معبودهم: {من دون الله} أي الملك الأعظم الذي هو كاف لكل مسلم. ولما كانت البراءة على أنحاء كثيرة، بينوا أنها براءة الدين الجامعة لكل براءة فقالوا: {كفرنا بكم} أي أوجدنا الستر لكل ما ينبغي ستره حال كوننا مكذبين بكل ما يكون من جهتكم من دين وغيره الذي يلزم منه الإيمان، وهو إيقاع الأمان من التكذيب لمن يخبرنا بسبب كل ما يضاده مصدقين بذلك. ولما كان المؤمن على جبلة مضادة لجبلة الكافر، عبر بما يفهم أن العداوة كانت موجودة ولكنها كانت مستورة، فقال دالاً على قوتها بتذكير الفعل: {وبدا} أي ظهر ظهوراً عظماً، وعلى عظمتها بالدلالة بنزع الخافض على أنها شــاحنة لجميع البينين فقال: {بيننا وبينكم} أي في جمع الحد الفاصل بين كل واحد منا وكل واحد منكم {العداوة} وهي المباينة في الأفعال بأن يعدو كل على الآخر ولا يكون ذلك إلا عندما يســتخف الغيظ الإنســان لإرادة أن يشــفي صدره من شدة ما حصل له من حرارة الخنق. فالعداوة مما يمتد فيكون مالئة لظرفها، قال الشــيخ ســعد الدين التفتازاني في تلويحه على توضــيح صــدر الشــريعة في أوائله في علاقات المجاز: الفعل المنســوب إلى ظرف الزمان بواســطة تقدير «في» دون ذكره يقتضـــي كون الظرف معياراً له غير زائد

عليه مثل صمت الشهر، يدل على صوم جميع أيامه بخلاف صمت في الشهر، فإذا امتد الفعل الظرف ليكون معياراً له فيصح حمل اليوم- في نحو صرت يوم كذا- على حقيقته، وهو ما يمتد من الطلوع إلى الغروب، وإذا لم يمتد الفعل- يعني مثل وقوع الطلاق- لم يمتد الظرف، لأن الممتد لا يكون معياراً لغير الممتد فحينئذ لا يصح حمل اليوم على النهار الممتد بل يجب أن يكون مجازاً عن جزء من الزمان الذي لا يعتبر في الغرف ممتداً، وهو الآن سواء كان من النهار أو من الليل بدليل قوله تعالى:

{ومن يولهم يومئذ دبره} [الأنفال: 16] فإن التولي عن الزحف حرام ليلاً كان أو نهاراً ولأن مطلق الآن جزء من الآن اليومي وهو جزء من اليوم، فيكون مطلق الآن جزءاً من اليوم، فتحقق العلاقة.

ولما كان ذلك قد يكون لغير البغض بل لتأديب ونحوه قالوا: {والبغضاء} أي وهي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم. ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا: {أبداً} ولما كان ذلك مرئياً من صلاح الحال، وكان قد يكون لحظ نفس بينوا غايته على وجه عرفت به علته بقولهم: {حتى تؤمنوا} أي توقعوا الأمان من التكذيب من أمركم بالإيمان وأخبركم عن الرحمان، حال كونكم مصدقين ومعترفين {بالله} أي الملك الذي له الكمال كله. ولما كانوا يؤمنون به مع الإشراك قالوا: {وحده} أي تكونوا مكذبين بكل ما يعبد من دونه.

ولما حث سبحانه المخاطبين على التأسي بقوله إبراهيم ومن معه في الوقت عليهم السلام استثنى منه فقال تأنيساً لمن نزلت القصة بسببه واستعطافاً له وهو حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه: {إلا قول إبراهيم} أي فلا تأسي

لكم به {لأبيه} واعداً له قبل أن يبين له أنه ثابت العداوة لله تعالى لكونه مطبوعاً على قلبه، فلا صلاح له، يقال: إن أباه وعده أنه يؤمن فاستغفر له، فلما تبين له، أنه لا يؤمن تبرأ منه: {لأستغفرن} أي لأوجدن طلب الغفران من الله {لك} فإن هذا الاستغفار لكافر، فلا ينبغي لهم أن يتأسوا به فيه مطلقاً غير ناظرين إلى علم أنه مطبوع على قلبه أو في حيز الرجوع.

ولما وعده بالاستغفار ترغيباً له، رهبه لئلا يترك السعي في النجاة بما معناه أنه ليس في يدي غير الاستغفار، فقال: {وما أملك لك} أي لكونك كافراً {من الله} أي لأنه الملك الأعلى المحيط بنعوت الجلال، وأعرق في النفي بقوله: {من شيء} والاستثناء وقع على هذا القول بقيد الاجتماع، ولا يلزم منه التعرض للأجزاء، فلا تكون هذه الجملة على حيالها مستثناة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما نادى:

»واصباحاه حين أنزل الله سبحانه وتعالى {وأنذر عشيرتك الأقربين} كان يقول لكل من سماه: لا أملك لك من الله شيئاً، حتى قال في آخر ذلك: يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت لا أغن عنك من الله شيئاً«.

ولما حثهم على التأسي بقول الخلص، وقدم منه المحافاة لأنها المقصودة، واستثنى ما لا ينبغي التأسي فيه اعتراضاً به بين أجزاء مقالهم بياناً للاهتمام به للتنفير منه من قوله، أتم ما يؤيسي فيه فقال مبيناً أنهم ما أقدموا على مجافاتهم بما قال إلا وقد قرروا جميع ما يقولونه ورضوا به دون موادتهم وانقطعوا إلى الله وحده انقطاعاً تاماً يفعل بهم ما يشاء من تسليطهم عليهم أو حمايتهم منهم، لكنهم سألوا الحماية لا لذاتها ولا لأنفسهم بل لئلا يزيد

ذلك أعداءهم ضـلالاً {ربنا} أي أيها المحسن إلينا بتخليصك لنا من الهلاك باتباعهم {عليك} أي لا على غيرك {توكلنا} أي فعلنا في جميع أمورنا معك فعل من يحملها على قوى ليكفيه أمرها لأنا نعلم أنك تكفي إذا شـــئت كل ملم، وأنه لا يذل من والتي ولا يعز من عاديت وقد عادينا فيك قوماً عتاة أقوياء ونحن ضعفاء، ورضينا بكل ما يحصل لنا منهم غير أن عافيتك هي أوسع لنا.

ولما كان الذي ينبغي لكل أحد وإن كان محسناً أن يعد نفسه مقصراً شارداً عن ربه لأنه لعظم جلاله لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره، وأن يعزم على الاجتهاد في العبادة قالوا مخبرين بذلك عادين ذلك العزم رجوعاً: {وإليك} أي وحدك لا إلى غيرك {أنبنا} أي رجعنا بجميع ظواهرنا وبواطننا . ولما كان المعنى تعليلاً: فإنه منك المبدأ، عطف عليه قوله: {وإليك} أي وحدك {المصير *} ولما أخبروا بإسلامهم له سبحانه وعللوه بما اقتضى الإحاطة فاقتضى مجموع ذلك الثناء الأتم، فلزم منه الطلب، صرحوا به فقالوا داعين بإسقاط الأداة للدلالة على غاية قربه سبحانه بما له من الإحاطة: {ربنا} أي أيها المربي لنا والمحسن إلينا {لا تجعلنا} بإضعافنا والتسليط علينا {فتنة} أي موضـــع اختبار {للذين كفروا} بأن يعذبونا بعذاب يميلنا عما نحن عليه ويميلهم عما وصلوا إليه بسبب إسلامنا من الزلازل بما يوجب ذلك لهم من اعتقاد لو أنك كنت راضـياً بديننا لكنا على الحق وكانوا هم على الباطل ما أمكنت منا، فيزيدهم ذلك طغياناً ظناً منهم أنهم على الحق وأنا على الباطل.

ولما كان رأس مال المسلم الأعظم الاعتراف بالتقصير وإن بلغ النهاية في المجاهدة فإن الإله في غاية العظمة والبعد في نهاية الضعف، فبلوغه ما يحق له سبحانه لا يمكن بوجه قالوا {واغفر لنا} أي استر ما عجزنا فيه وامح عينه وأثره.

ولما طلبوا منه الحياطة من جميع الجوانب، عللوه زيادة في التضرع والخضوع واستجاز المطلوب مكررين صفة الإحسان زيادة في الترقق والاستعطاف بقولهم: {ربنا} أي المحسن إلينا، وأكدوا إعلاماً بشدة رغبتهم بحسن الثناء عليه سبحانه واعترافاً بأنهم قد يفعلون ما فيه شيء من تقصير فيكون من مثل أفعال من لا يعرفه سبحانه فقالوا: {إنك أنت} أي وحدك لا غيرك {العزيز} الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء {الحكيم *} الذي يضع الأشياء في أوفق محالها فلا يستطاع نقضها، ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطى من أمله فوق ما طلب.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 8]

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)}

ولما أتم ما حثهم على التأسي فيه بذكر أعظم آبائهم لأن دواعي الإنسان إلى المداراة عما يخاف عليه من أقاربه وآله وجميع أحواله عظيمة جداً إن

كان المداراً عظيماً لا سيما إن كان قد تقدم له صداقة وبه ألفة، فكان جديراً بعد الوعظ والتأسية أن يبقى عنده بقايا ولا سيما والناس متفاوتون، منهم من يرده أيسر وعظ ومنهم من يحتاج إلى أكثر من ذلك أعاد التأسية تأكيداً لها على وجه بلغ الذروة من جمال الترغيب وجلال الترهيب، وليكون فيها أتم دلالة على أن ما بينهما من قول إبراهيم عليه السلام المأمور بالتأسي به من الدعاء وغيره إلا ما استثنى لتشتد الرغبة فيه، فقال مصدراً بما دل على القسم إشارة إلى أن من فعل غير هذا كان فعله فعل منكر لحسن هذا التأسي، ولذلك ذكر الفعل الذي أنثه في الأول: {لقد كان لكم} أي أيها الذين ادعوا الإيمان، وقدم الظرف بياناً للاهتمام به فقال: {فيهم} أي إبراهيم عليه السلام ومن معه {أسوة حسنة} وأبدل من {لكم} ما هو الفيصل في الدلالة على الباطل، فقال مشيراً إلى أن من لم يتأس بهم في هذا لم يكن راجياً لما ذكر: {لمن كان} أي جبل على أنه {يرجوا الله} أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال فهو ذو الجلال الذي يجير ولا يجار عليه، والإكرام الذي هو جدير بأن يعطى جميع ما يسأله {واليوم الآخر} الذي يحاسب على، النقير والقطمير، ولا تخفى عليه خافية، فمن لم يتأس بهم كان تركه للتأسي دليلاً على سوء عقيدته، فلا يلومن إلا نفسه، فقد أذن لإمام المسلمين إن عثر عليه في عقوبته، فإن علم الغيب الذي أعلمناه نبينا صلى الله عليه وسلم بأن حاطباً رضي الله عنه صحيح العقيدة غير متأهل للعقوبة منقطع بموته صلى الله عليه وسلم ولا يبقى إلى ما نصبناه من الشعائر، وأقمناه من الدلائل.

ولما كان التقدير : فمن أقبل على هذا التأسـي لكونه يرجو الله واليوم الآخر فلم يخلد إلى الدنيا، يتوله الله فإن الله رحيم ودود، عطف عليه قوله : {ومن يتول} أي يوقع الإعراض عن أوامر الله تعالى في وقت من الأوقات مطلقاً لكونه أخلد إلى الدنيا ولم ير اليوم الآخرة أعرض الله عنه، وأشـار بصـيغة التفعل إلى أن ذلك لا يقع إلا بمعالجة الفطرة الأولى، وأكد لأن فاعل ذلك كالمنكر لمضمون الكلام فقال: {فإن الله} أي الذي له الإحاطة الكاملة {هو} أي خاصة {الغني} أي عن كل شيء {الحميد *} أي الذي له الحمد المحيط لإحاطته بأوصاف الكمال في حال الطاعة له والمعصية فإن العاصي عبد لإرادته، كما أن المطيع عبد لآمره وإرادته ولطفه، فلا يخرج شيء عن مراده، وكل شـيء خاضـع لحكمه، وقد بينت الآية أدب العشـرة لما ألهبت وهيجت على المفارقة للعصاة والتبرء منهم حساً ومعنى، وإظهار ذلك لهم قولاً وفعلاً، إلى أن تحصل التوبة، ومن لم يفعل ذلك كان شريكاً في الفعل فيكون شريكاً في الجزاء كما ورد، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسـه، فضـرب الله قلوب بعضـهم ببعض، ولعنهم على ألسنة الأنبياء، ومن فعل ما أمره الله به كان فعله جديراً بأن يكون سـبب الوصـله والقرب والمودة، فالآية من الاحتباك : ذكر الرجاء أولاً دليلاً على ضـده ثانياً، والتولي ثانياً دليلاً على ضده أولاً، وسره أنه ذكر سبب السعادة ترغيباً وسبب الشقاوة ترهيباً.

ولما أتم وعظهم بما هو الأنفع والأقرب إلى صلاحهم ففعلوا، وكان ذلك شاقاً لما جبل عليه البشر من حب ذوي الأرحام والعطف عليهم، فتشوفت النفوس إلى تخفيف بنوع من الأنواع، أتبعه الترجئة فيما قصـده حاطب رضـي الله

عنه بغير الطريق الذي يتوصل به فقال على عادة الملوك في الرمز إلى ما يريدونه فيقنع الموعود به بل يكون ذلك الرمز عنده أعظم من البت من غيرهم لما لهم من العظمة التي تقتضي النزاهة عما يلم بشائبة نقص، وذلك أعظم في الإيمان بالغيب لأن الوعود لا تزال بين خوف ورجاء جواباً لمن كأنه كان يقول: كيف يكون الخلاص من مثل هذه الواقعة وقد بنيت يا رب هذه الدار على حكمة الأسباب: {عسى الله} أي أنتم جديرون بأن تطمعوا في الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {أن يجعل} بأسباب لا تعلمونها {بينكم وبين} أي في جميع الحد الفاصل بين المجموعين أو بين كل شخصين من الجمعين {الذين عاديتم} أي بالمخالفة في الدين {منهم} أي من هؤلاء الذين عادوكم بما تقدم بأعيانهم من أهل مكة {مودة} وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقاً لما رجاه سبحانه، وأجرى سنته الإلهية بأن من عاديته فيه جعل عاقبة ذلك إلى ولاية عظيمة، ومن تهاونت في مقاطعته فيه سبحانه أقامه لك ضداً.

ولما كان التقدير: فالله بكم رفيق، عطف عليه تذكيراً لهم بما له سبحانه من العظمة قوله {والله} أي الذي له الإحاطة بالكمال: {قدير} أي بالغ القدرة على كل ما يريده فهو يقدر على تقليب القلوب وتيسير العسير، فلما تم الرجاء لم يبق إلا كدر الذنب فأتبعه تطييباً للقلوب مما نزلت هذه الآيات بسببه قوله: {والله} أي الذي له جميع صفات الكمال {غفور} أي محاء لأعيان الذنوب وآثارها {رحيم *} يكرم الخاطئين إذا أراد بالتوبة ثم بالجزاء غاية الإكرام، قال الرازي في اللوامع: كان النبي صلى الله عليه وسلم

استعمل أبا سفيان رضي الله عنه على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل فلقي ذا الحجار مرتداً فقاتله، فكان أول من قاتل على الردة، فتلك المودة بعد المعاداة.

ولما تم الوعظ والتأسية وتطبيب النفوس بالترجئة، وكان وصف الكفار بالإخراج لهم من ديارهم يحتمل أن يكون بالقوة فيعم، ويحتمل أن يكون بالفعل فيخص أهل مكة أو من باشر الأذى الذي تسبب عنه الخروج منهم، بين ذلك بقوله مؤذناً بالإشارة إلى الاقتصاد في الولاية والعداوة كما قال صلى الله عليه وسلم: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» {لا ينهاكم الله} أي الذي اختص بالجلال والإكرام {عن الذين لم يقاتلوكم} أي بالفعل {في الدين} أي بحيث تكونون مظروفين له ليس شيئاً من أحوالهم خارجاً عنه، فأخرج ذلك القتال بسبب حق دنيوي لا تعلق له بالدين، وأخرج من لم يقاتل أصلاً كخزاعة والنساء، ومن ذلك أهل الذمة بل الإحسان إليهم من محاسن الأخلاق ومعالي الشيم لأنهم جيران.

ولما كان الذين لم يقاتلوا لذلك ربما كانوا قد ساعدوا على الإخراج قال: {ولم يخرجوكم} وقيد بقوله: {من دياركم} ولما كان قد وسع لهم سبحانه بالتعميم في إزالة النهي خص بقوله مبدلاً من «الدين»: {أن} أي لا ينهاكم عن أن {تبروهم} بنوع من أنواع البر الظاهرة فإن ذلك غير صريح في قصد الموادة {وتقسطوا} أي تعدلوا العدل الذي هو في غاية الاتزان بأن تزيلوا القسط الذي هو الجور، وبين أن المعنى: موصلين لذلك الإقساط {إليهم} إشارة إلى أن

فعل الإقساط {إليهم} إشارة إلى أن فعل الإقساط ضمن الاتصال، وإلى أن ذلك لا يضرهم وإن تكفلوا الإرسال إليهم من البعد بما أذن لهم فيه فإن ذلك من الرفق والله يحب الرفق في جميع الأمور ويعطي عليه ما لا يعطي على الخرق، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً دفعاً لظن من يرى أذى الكفار بكل طريق، {إن الله} أي الذي له الكمال كله {يحب} أي يفعل المحب مع {المقسطين *} أي الذين يزيلون الجور ويوقعون العدل.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 10]

{إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآَتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)}

ولما علم الحال من هذا وما في أول السورة، أتبعه التصريح بما أفاده مجموعاً أحسن جمع مصوراً أحسن تصوير فقال تعالى: {إنما ينهاكم الله} أي الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة {عن الذين قاتلوكم} متعمدين لقتالكم كائنين {في الدين} ليس شيء من ذلك خارجاً عنه، لتكون العداوة في الله {وأخرجوكم من دياركم} أي بأنفسهم لبغضكم {وظاهروا} أي عاونوا غيرهم {على إخراجكم} ولما تناول هذا المقصودين صريحاً، وكان النهي الذي

موضـعه الأفعال قد علق بأعيانهم تأكيداً له، عرف بالمقصـود بقوله: {أن} أي إنما ينهاكم عن المذكورين في أن {تولوهم} أي تكلفوا فطركم الأولى أن تفعلوا معهم جميع ما يفعله القريب الحميم الشـفيق فتصـرحوا بأنهم أولياؤكم وتناصروهم ولو كان ذلك على أدنى الوجوه- بما أشار إليه إسقاط التاء.

ولما كان التقدير: فمن أطاع فأولئك هم المفلحون، عطف عليه قوله: {ومن يتولّهم} أي يكلف نفســـه الحمل على غير ما يدعو إليه الفطرة الأولى من المنـابـذة، وأطلق ولم يقيـد ب «منكم» ليعم المهـاجرين وغيرهم والمؤمنين وغيرهم: {فأولئك} أي الذين أبعدوا عن العدل {هم} أي خاصـــة لا غيرهم العريقون في أنهم {الظالمون *} أي العريقون في إيقاع الأشـــياء في غير مواضعها كمن يمشي في مأخذ الاشتقاق بسبب هذا التولي.

ولما كان نزول هذه الآيات الماضـــية في الفتح الأعظم حين قصـــد النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثمان المسير بجنود الله إلى مكة المشرفة- شرفها الله تعالى- لدخولها عليهم بالسيف حين نقضوا بقتالهم لخزاعة الذي كانوا قد تحيزوا إلى النبي صـــلى الله عليه وســـلم فكانوا في عقده وعهده في صـــلح الحديبية الذي كان سنة ست على وضع الحرب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وســـلم ومن دخل في عقده، وكان من ذلك الصـــلح أن من جاء إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم من قريش ومن دخل في صـلحهم رده إليهم وإن كان مسـلماً، ومن جاءهم من كان مع النبي صـلى الله عليه وسـلم لم يردوه إليه بحيث قام من ذلك وقعد كثير من الصحابة رضي الله عنه من أعظمهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى سكنه الصديق رضي الله تعالى عنه

بما وقر في صـدره من الحكم، ورد إليهم صـلى الله عليه وسـلم أبا بصـير رضـي الله عنه، وكان رده إليهم للوفاء بالعهد بسبب التصـديق لقوله صـلى الله عليه وسـلم «أما من جاءنا منهم فرددناه إليهم فسـيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» وقصـته في ذلك كله مشـهورة، وكانت «من» من صـيغ العموم، وكانت دلالة العام قطعية في الحكم على الأفراد ظنية- كما قال الشـافعي رضـي الله تعالى عنه- في الدلالة على الجزئي من تلك الأفراد بخصـوصـه حيث لا قرينة لأن تلك الصـيغ ترد تارة على عمومها وتارة يراد بها بعض الأفراد فتكون من العام الذي أريد به الخصوص، وتارة يقع فيها التخصيص، فتكون من العام الذي أريد به الخصـوص فطرقها الاحتمال فاحتاج ما دلت عليه من الظاهر إلى قرينة، وكان دخول النساء تحت لفظ «من» في صلح الحديبية أما عرياً عن القرينة أو أن القرينة القتال الذي وقع الصـلح عليه بسببه صارفة عنه، وكذا قرينة التعبير عنهن ب «ما» دون «من» في كثير من الكتاب العزيز

{فانكحوا ما طاب لكم من النسـاء} [النسـاء: 3] {أو ما ملكت أيمانكم} [النسـاء: 3] {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النسـاء} [النسـاء: 22] {والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم} [النساء: 24] {وأحل لكم ما وراء ذلكم} [النساء: 24] {فما استمتعتم به منهن} [النساء: 24]، {فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات} [النساء: 25] {إلا على أزواجكم أو ما ملكت أيمانهم} [المؤمنون: 6]، وكان قد ختم سبحانه هذه الآيات التي أدب بها في غزوة الفتح بما أبان به ما لا يخرج عن الصـلح في عمرة الحديبية مما هو

أقرب إلى الخير من البر والعدل، ونهى عن تولي الكفار، فكانت المصاهرة والمناكحة من أعظم التولي، وصل بذلك ما لا يخرج عنه ولا يحل بالعهد في أن من جاء من الكفار إلى النبي صلى الله عليه وسلم رده إليهم وإن كان مسلماً، فقال مخاطباً لأدنى أسنان أهل الإيمان الذين يحتاجون إلى التفهيم، وأما من هو أعلى منهم فهو عالم بذلك مؤتمر به بما آتاه الله من الفهم وأنار به قلبه الشريف من فنون العلم ليكوفوا النبي صلى الله عليه وسلم مقدمات البيعة منه لهن: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان- وهو إيقاع الأمان من التكذيب- لمن يخبرهم ما ينبغي التصديق به بسبب تصديقهم بالله سبحانه وتعالى.

ولما كان في علمه سبحانه وتعالى أنه يأتيهم نساء يهربن بدينهن إلى الله، بشرهم بذلك بالتعبير بأداة التحقيق فقال: {إذا} أي صدقوا ما ادعيتموه من الإيمان بأنه في أي زمان {جاءكم} ولما كان لا يهجر داره وعشيرته لا سيما إن كانوا أقارب بسبب كفرهم إلا من رسخ في الإيمان ذكراً كان أو أنثى قال: {المؤمنات} أي النساء اللاتي صار وصف الإيمان لهن صفة راسخة بدلالة الهجرة عليه: {مهاجرات} للكفار ولأرضهم {فامتحنوهن} أي اختبروهن تأكيداً لما دلت عليه الهجرة من الإيمان بالتحليف بأنهن ما خرجن لحدث أحدثته ولا بغضاً في زوج ولا رغبة في عشير ولا خرجن إلا حباً لله ورسوله ورغبة في دين الإسلام، قال الإمام شهاب الدين ابن النقيب في الهداية من مختصره للكفاية لفقيه المذهب نجم الدين أحمد بن الرفعة في شرح التنبيه: واختلف قول الشافعي رحمه الله تعالى: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم

شرط لقريش في الصلح رد النساء ففي قول: لم يشترطه بل أطلق رد من جاءه فتوهموا تناول النساء، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عالماً بعدم دخولهن، فأطلق ذلك حذيفة يعني ومن شرعه أن الحرب خدعة، وفي قوله: شملهن الشرط، لكن هل شرطه صريحاً أم دخلن في الإطلاق فيه وجهان أظهرهما الثاني، وهل كان شرطهن جائزاً فيه وجهان: أحدهما نعم ثم نسخ، وهل ناسخه الآية المذكورة أم منع النبي صلى الله عليه وسلم من الرد فيه وجهان مبنيان على أنه هل يجوز نسخ السنة بالقرآن وفيه قولان للشافعي رحمه الله تعالى، ومختاره منهما المنع وهو الجديد، وكذا لا يجوز عنده وعند أصحابه نسخ الكتاب بالسنة وإن كانت متواترة– انتهى.

ومعناه أنه لم يقع فإن وقع نسخها بالقرآن كان معه سنة، وإن وقع نسخه بالسنة كان معها قرآن، وهو معنى قول ابن السبكي في جمع الجوامع: قال الشافعي رضي الله عنه: وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة.

ولما كان الاختبار ربما دل إيمانهن لا يعلم إلا به، نفى ذلك بقوله مستأنفاً في جواب من يقول: أليس الله بعالم بذلك، ومفيداً أن علمكم الذي تصلون إليه بالامتحان ليس بعلم، وإنما سماه به إيذاناً بأن الظن الغالب في حقكم بالاجتهاد والقياس قائم مقام العلم يخرج من عنده {ولا تقف ما ليس لك به علم} [الإسراء: 36]: {الله} المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {أعلم} أي منكم ومنهن بأنفسهن {بإيمانهن} هل هو كائن أو لا على وجه الرسوخ أو لا، فإنه محيط بما غاب كإحاطته بما شهد، وإنما وكل الأمر إليكم في ذلك ستراً

للناس ولئلا تكون شـــهادته لأحد بالإيمان والكفران موصـــلة إلى عين اليقين فيخرج عن مبنى هذه الدار، قال القشيري: وفي الجملة الامتحان طريق إلى المعرفة، وجواهر النفس تتبين بالتجربة، ومن أقدم على شـــيء من غير تجربة يجني كأس الندم، قال: {فإن علمتموهن} أي العلم المتمكن لكم وهو الظن المؤكد بالأمارات الظاهرة بالحلف وغيره {مؤمنات} أي مخلصات في الهجرة لأجل الإيمان، والتعبير بذلك لإيذان بمزيد الاحتياط.

ولما ذكر هذا الامتحان بين أنه علة لحمايتهن والدفع عنهن فأتبعه مســـببه فقال: {فلا ترجعوهن} أي بوجه من الوجوه {إلى الكفار} وإن كانوا أزواجاً، ومن الدليل على أن هذا ظاهر في المراد وأن القرائن موضحة له أنه صلى الله عليه وسلم لما أبى أن يرد إليهم من جاءه من النســـاء لم يعب أحد من الكفار ذلك، ولا نسب إلى عهده صلى الله عليه وسلم- وحاشاه- خللاً، ولولا أن ذلك كذلك لملؤوا الأرض تشغيباً كما فعلوا في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخله التي نزل بسببها

{يســـألونك عن الشـــهر الحرام} [البقرة: 217] الآيات على أن الأخبار الصـــحيحة وغيرها ناطقة بأن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل أن ينفصـــل الأمر غاية الانفصـــال ويســـتقر، روى البخاري في المغازي من صـــحيحه والبغوي من طريقه وهذا لفظه من المروان والمسور بن مخرمة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: كاتب سهيل بن عمرو فكان ما اشترط على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأتيك أحد منا وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فرد يومئذ أبا

جندل إلى أبيه ســــهل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مســــلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى النبي صـــلى الله عليه وســـلم وهو عاتق فجاء أهلها إلى المدينة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم فلم يرجعهـا إليهم كمـا أنزل الله فيهن {إذا جـاءكم المؤمنـات مهـاجرات فامتحنوهن} وقال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقبل رسول الله صـلى الله عليه وسـلم معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صـالحه مشـركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم فجاءت سبيعة بنت الحارث مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها، وكان كافر، فقال: يا محمد! اردد عليّ امرأتي فإنك قد شــــرطت أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف، فأنزل الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن} وقال ابن عباس رضــي الله عنهما: امتحانها أن تستحلف أنها ما هاجرت لبغض زوج ولا عشـقاً لرجل من المسـلمين ولا رغبة عن أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس الدنيا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها ما أنفق عليها، فزوجها عمر رضــي الله عنه، وكان صـلى الله عليه وسـلم يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النســــاء بعد الامتحان، ويعطي أزواجهن مهورهن، ودعوى النسـخ ليسـت بشــيء إلا تؤول بأنه لما كان من العالم الذي أريد به الخصـوص أن بعض ما تناوله ظاهر اللفظ من الحكم مرفوع، وذلك بأن الله

لا يأمر بإخلاف الوعد فكيف بنقض العهد . ولما نهى عن رد المهاجرات إلى المشـركين وعبر بالكفار تعميماً، علل ذلك بقوله مقدماً حكمهن تشـريفاً لهن لهجرتهن: {لا هن} أي الأزواج {حل} أي موضـع حل ثابت {لهم} أي للكفار باسـتمتاع ولا غيره. ولما كان نفي الحل الثابت غير مانع من تجدد حل الرجال لهن ولو على تقدير من التقادير وفرض من الفروض، قال معيداً لذلك ومؤكداً لقطع العلاقة من كل جانب: {ولا هم} أي رجال الكفار {يحلون} أي يتجدد في وقت من الأوقات أن يحلوا {لهن} أي للمؤمنات حتى لو تصـور أن يكون رجالهن نسـاء وهن ذكوراً ما حلوا لهن بخلاف أهل الكتاب، كذا تنفك الملازمة في مسـألة المظاهرة والإيلاء فيحل للمرأة أن تسـتمتع به إذا كان نائماً مثلاً، وأما هو فيحرم عليه ذلك قبل التكفير، وقال البيضـاوي: الأولى لحصـول الفرقة، والثانية للمنع من الاسـتئناف- انتهى، فنفت هذه الجملة الفعلية من وجه تجدد الحل للنسـاء فأفهمت الجملتان عدم الحرج فيما كان قبل ذلك تطييباً لقلوب المؤمنات.

ولما نهى عن الرد وعلله، أمر بما قدم من الإقساط إليهم فقال: {وآتوهم} أي الأزواج {ما أنفقوا} أي عليهن من المهور فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسـران الزوجية والمالية، وأما الكسوة والنفقة فإنها لما يتجدد من الزمان.

ولما جزم بتأييد منعهن عن الكفار، أباحهن للمسـلمين فقال على وجه الرفق واللطف: {ولا جناح} أي ميل وحرج {عليكم} أيها المشـرفون بالخطاب {أن تنكحوهن} أي تجددوا زواجكم بهن بعد الاسـتبراء وإن كان أزواجهن من

الكفار لم يطلقوهن لزوال العلق منهم عنهن ولأن الإسـلام فرق بينهم فإنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. ولما كان قد أمر برد مهور الكفار، فكان ربما ظن أنه مغن عن تجديد مهر لهن إذا نكحهن المســـلم نفى ذلك بقوله: {إذا آتيتموهن} أي لأجل النكاح {أجورهن} ولما قطع ما بين الكفار والمســـلمات مع الإعراض عن الكفار لعصـــيانهم قطع ما بين المؤمنين والكافرات مع الإقبال عليهم لطاعتهم رفعاً لشـــأنهم فقال: {ولا} ولما كان إمســـاك المرأة مع عداوتها لمخالفتها في الدين دليلاً على غاية الرغبة فيها، دل على ذلك إشـــارة إلى التوبيخ بالتضـــعيف في قراءة البصـــريين فقال: {تمسكوا} أي بعدم التصريح في الطلاق {بعصم الكوافر} جمع عصمة وهي ما يديم علقة النكاح {واســـألوا} أي أيها المؤمنون الذين هبت أزواجهم إلى الكفار {ما أنفقتم} أي من مهور نسائكم اللاتي اعتصمن عنكم بهم أو فررن إليهم. ولما أمر برد مهور المؤمنين إلى الكفار وأذن للمؤمنين في المطالبة بمهور أزواجهم، أذن للكفار في مثل ذلك إيقاعاً للقسـط بين عباده مسـلمهم وكافرهم معبراً بالأمر مع الغيبة إعراضـاً عنهم إعلاماً بشـدة كراهته سـبحانه للظلم وأنه يسـتوي فيه الكافر مع عداوته بالمؤمن مع ولايته: {وليسـألوا} أي الكفار {ما أنفقوا} أي من مهور أزواجهم اللاتي أسلمن واعتصمن بكم عنهم، وهل هذا الحكم باق، قال قوم: نعم، وقال عطاء ومجاهد وقتادة: نسـخ فلا يعطي الكفار شيئاً ولو شرطنا الإعطاء.

ولما كان هذا حكماً عدلاً لا يفعله مع عدوه ووليه إلا حكيم، قال مشـيراً إلى مدحه ترغيباً فيه بميم الجمع إلى العموم: {ذلكم} أي الحكم الذي ذكر في

هذه الآيات البعيدة بعلو الرتبة عن كل سفه {حكم الله} أي الملك الذي له صفات الكمال، فلا ينبغي لشائبة نقص أن يلحقه.

ولما كان هذا مما يفرح به ويغنم عند تقدير فواته، قال مستأنفاً مبشراً بإدامة تجديد أمثاله لهم: {يحكم} أي الله أو حكمه على سبيل المبالغة، ودل على استغراق الحكم لجميع ما يعرض بين العباد وأنه سبحانه لم يهمل شيئاً منه بإعراء الجار من قوله: {بينكم} أي في هذا الوقت وفي غيره على هذا المنهاج البديع، وذلك لأجل الهدنة التي وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم، وأما قبل الحديبية فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك النساء ولا يرد الصداق.

ولما كان التقدير: فالله حكم عدل، قال: {والله} أي الذي له الإحاطة التامة {عليم} أي بالغ العلم لا يخفى عليه شيء {حكيم *} أي فهو لتمام علمه يحكم كل أموره غاية الإحكام فلا يستطيع أحد نقض شيء منها.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 13]

{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)}

ولما كان المظنون بالكفار عدم العدل فلا يعطون المؤمنين مهور نسـائهم الكافرات، قال مداوياً لذلك الداء: {وإن فاتكم} أي بالانفلات منكم بعد الهجرة أو بإدامة الإقامة في بلاد الحرب {شيء} أي قل أو كثر {من أزواجكم} أي من أنفسهن أو مهورهن {إلى} أي متحيزاً أو واصلاً إلى {الكفار} فعجزتم عنه {فعاقبتم} أي تمكنتم من المعاقبة بأن فات الكفار شيء من أزواجهم بالهجرة إليكم أو اغتنمتم من أزواج الكفار فجاءت نوبة ظفركم بأداء المهر إلى إخوانكم طاعة وعدلاً عقب نوبتهم التي اقتطعوا فيها ما أنفقتم عصياناً وظلماً {فآتوا} أي فاحضروا وأعطوا من مهر المهاجرة {الذين ذهبت أزواجهم} أي منكم إن اختاروا الأخذ {مثل ما أنفقوا} على الكافرة الفائتة إلى الكفار مما غنمتم من أموالهم أو بأن تدفعوا إليهم مثل مهر أزواجهم مما كنتم تعطونه لأزواج المهاجرات، فيكون ذلك جزاء وقصاصاً لما فعل الكفار. ولما كان التجزي في مثل ذلك عسراً على النفس فإن المهور تتفاوت تارة وتتساوى تارة أخرى وتارة تكون نقوداً وتارة تكون عروضاً إلى غير ذلك من الأحوال مع أن المعامل عدو في الدين فلا يحمل على العدل فيه إلا خالص التقوى قال: {واتقوا} أي في الإعطاء والمنع وغير ذلك {الله} الذي له صفات الكمال وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون، ثم وصفه بما يؤكد صعوبة الأمر ويحث على العدل فقال ملهباً لهم كل الإلهاب هازاً لهم بالوصف بالرسوخ في الإيمان: {الذي أنتم به} أي خاصة {مؤمنون *} أي متمكنون في رتبة الإيمان.

ولما خاطب سبحانه المؤمنين الذي لهم موضع الذب والحماية والنصرة بما وطن به المؤمنات في دار الهجرة فوقع الامتحان وعرف الإيمان، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد الحكم بإيمانهن بمبايعتهن فقال {يا أيها النبي} مخاطباً له بالوصف المقتضي للعلم، ودل على تحقق كون ما يخبر به من مجيئهن بأداة التحقيق علماً من أعلام النبوة فقال : {إذا جاءك المؤمنات} جعل إقبالهن عليه صلى الله عليه وسلم لا سيما مع الهجرة مصححاً لإطلاق الوصف عليهن {يبايعنك} أي كل واحدة منهن تبايع {على أن لا يشركن} أي يوقعن الإشراك لأحد من الموجودات في وقت من الأوقات {بالله} أي الملك الذي لا كفوء له {شيئاً} أي من إشراك على الإطلاق.

ولما كان الشرك بذل حق الملك لمن لا يستحقه، أتبعه أخذ مال المالك بغير حق لاقتضاء الحال لذلك بتمكن المرأة من اختلاس مال الزوج وعسر تحفظه منها فقال: {ولا يسرقن} أي يأخذن مال الغير بغير استحقاق في خفية، وأتبع ذلك بذل حق الغير لغير أهله فقال: {ولا يزنين} أي يمكن أحداً من وطئهن بغير عقد صحيح.

ولما كان الزنى قد يكون سبباً في إيجاد أو إعدام نسمة بغير حقها، أتبعه إعدام نسمة بغير حقه فقال : {ولا يقتلن أولادهن} أي بالوأد كما تقدم في النحل وساء في ذلك كونه من زنى أو لا.

ولما ذكر إعدام نسمة بغير حق ولا وجه شرعي أتبعه ما يشمل إيجاد نسمة بغير حل، فقال مقبحاً له على سبيل الكناية عنه بالبهتان وما معه بالتصوير له بلوازمه وآثاره لأن استحضار القبيح وتصوير صورته أزجر عنه فقال:

{ولا يأتين ببهتان} أي ولد من غير الزوج يبهت من الحاقة به حيرة في نفيه عنه {يفترينه} أي يتعمدن كذبه، وحقق المراد به وصوره بقوله: {بين أيديهن} أي بالحمل في البطون {وأرجلهن} أي بالوضـــع من الفروج ولأن عادة الولد مع أنه يسقط بين أيدي أنه ورجليها أنه يمشـي أمامها، وهذا شـامل لما كان من شـــبهة أو لقطة. ولما حقق هذه الكبائر العظيمة تعظيماً لأمرها لعســـر الاحتراز منهـا، وأكـد النهي عن الزنى مطـابقـة وإلزامـاً لمـا يجر إليـه من الشرور القتل فما دونه، وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات، عم في النهي فقال: {ولا يعصـــينك} أي على حال من الأحوال {في معروف} أي فرد كان منه صـغيراً كان أو كبيراً، وفي ذكره مع العلم بأنه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصـية الخالق، وقدم المنهيات على المأمورات المسـتفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التخلي بالفضـائل لأن درء المفاسـد أولى من جلب المصــــالح: {فبايعهن} أي التزم لهن بما وعدت على ذلك من إعطاء الثواب لمن وفت منهن في نظير ما ألزمن أنفسهن من الطاعة. ولما كان الإنســان محل النقصــان لا ســيما النســوان رجاهن ســبحانه بقوله: {واســتغفر} أي اســأل {لهن الله} أي الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في الغفران إن وقع منهن تقصـــير وهو واقع لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره.

ولما كانت عظمته سـبحانه مانعة لعظيم الهيبة من سـؤاله ما طمع به، علله بقوله معيداً الاســـم الأعظم لئلا يظن بإضـــماره وتقيده بحيثية الهجرة من

النساء ونحو ذلك مؤكداً لما طبع الأدمي عليه من أنه لا يكاد يترك المسيء من عقاب أو عتاب فضلاً عن التفضيل بزيادة الإكرام: {إن الله} أي الذي له صفات الجلال والإكرام فلو أن الناس لا يذنبون لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم لتظهر صفة إكرامه {غفور} أي بالغ الستر للذنوب عيناً وأثراً {رحيم *} أي بالغ الإكرام بعد الغفران فضلاً منه وإحساناً، وقد حقق سبحانه ذلك وصدق، ومن أصدق من الله قيلاً، «فأقبل النساء للبيعة عامة ثاني يوم الفتح على الصفا بعد فراغه صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال فنزلت هذه الآية وهو على الصفا فقام عمر بن الخطاب رضي الله أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها، فلما ذكر الشرك قالت: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد، فقال {ولا يسرقن} فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال: وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعف عني ما سلف عفا الله عنك، فقال: {ولا يزنين} فقال: أو تزني الحرة، فقال {ولا يقتلن أولادهن} فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر البهتان وهو أن تقذف ولداً على زوجها ليس منه، قالت هند: والله إن البهتان

لقبيح وما تدعونا إلا إلى الرشـــد ومكارم الأخلاق، فقال {ولا يعصـــينك في معروف} فقالت: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، وما مسـت يد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يد امرأة لا تحل له، وكانت أسـماء بنت يزيد بن السـكن في المبايعات فقالت: يا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ابسط يدك نبايعك، فقال: إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن« ، وعن الشعبي «أنه صلى الله عليه وسلم دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسـن أيديهن فيه، وعنه أنه صـلى الله عليه وسـلم لقنهن في المبايعة» فيما استطعتن وأطقتن «فقالت: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا».

ولما ذكر ما أمر به نبيه صـــلى الله عليه وســـلم في المبايعات بعد أن عد الذين آمنوا أصـلاً في امتحان المهاجرات فعلم من ذلك أن تولي النسـاء مع أنه لا ضـرر فيهن بقتال ونحوه لا يسوغ إلا بعد العلم بإيمانهن، وكان الختم بضـــفتي الغفران والرحمة مما جرأه على محاباة المؤمنين لبعض الكفار من أزواج أو غيرهم لقرابة أو غيرها لعلة يبديها الزوج أو غير لك من الأمور، كرر سبحانه الأمر بالبراءة من كل عدو، رداً لآخر السورة على أولها تأكيداً للإعراض عنهم وتنفيراً من توليهم كما أفهمته آية المبايعة وآية الامتحان، فقال ملذذاً لهم بالإقبال بالخطاب كما فعل أولها بلذيذ العتاب: {يا أيها الذين آمنوا}.

ولما كان الميل عن الطريق الأقوام على خلاف ما تأمر به الفطرة الأولى فلا يكون إلا عن معالجتها، عبر بالتفعل كما عبر به أول السـورة بالافتعال فقال: {لا تتولوا} أي تعالجوا أنفسكم أن تتولوا {قوماً} أي ناساً لهم قوة على

ما يحاولونه فغيرهم من باب الأولى {غضـــب الله} أي أوقع الملك الأعلى الغضـــب {عليهم} لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام في كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولاً أولياً.

ولما كان السـامع لهذا يتوقع بيان سـبب الغضـب، قال معللاً ومبيناً أنه لا خير فيهم يرجى وإن ظهر خلاف ذلك: {قد يئسـوا} أي تحققوا عدم الرجاء {من الآخرة} أي من أن ينالهم منها خير ما لإحاطة معاصيهم بهم أو لعدم اعتقادهم لقيامها ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فيوشـــك من والاهم يكتب منهم فيحل بهم الغضـــب {كما يئس} من نيل الخير منها {الكفار} ولما كان من مات فصـار أهلاً للدفن كشـف له عن أحوال القيامة فعرف أنه ناج أو هالك، وكان الموتى أعم من الكفار، وموتى الكفار أعم ممن يدفن منهم فقال: {من أصـحاب القبور *} فإن الكفار منهم قد علموا يأسهم من حصول الخير منها علماً قطعياً، ويجوز أن يكون {من} ابتدائية فيكون المعنى: كما يئس عباد الأوثان من لقاء من مات، فدفن باعتقاد أنه لا اجتماع بينهم أصـــلاً لأنه لا يمكن بعثه لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة لأنه لا آخرة عندهم أصـــلاً لا ســيما إن كان مدفوناً في قبر، وعلى هذا يكون الظاهر وضع موضع المضمر للدلالة على أن الذي أيأسهم تغطية الدلائل مع وضوحها لو أنصفوا، فلا تتولوا من هذه صفته فيكون بينكم وبينه ما بين القريب مع قريبه من تولى كل منهم من الآخر ما يتولاه القريب الصـــديق لقريبه فإن توليهم ضرر لا نفع فيه فإن من غضب عليه الملك الشهيد لكل حركاته وســكناته لا يفلح هو ولا من تولاه، وأقل ما في ولايته من الضـــرر

أنها تنقطع المعاونة فيها، والمشـــاركة بالموت وإن كان بعد الموت مشـــاركة ففي العذاب الدائم المستمر الذي لا ينقطع عنهم والخزي اللازم، وقد علم أن هذا الآخر هو أولها، وهذا الموصل مفصلها، فسبحانه من أنزله كتاباً معجزاً حكيماً، وقرآناً موجزاً جامعاً عظيماً.

61 Tafsir Nazmuddurar Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

- سورة الصف

- تفسير الآيات رقم [1- 4]

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)}

لما ختمت الممتحنة بالأمر بتنزيهه سبحانه عن تولي من يخالف أمره بالتولي عنهم والبراءة منهم اتباعاً لأهل الصافات المتجردين عن كل ما سوى الله لا سيما عمن كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، افتتحت الصف بما هو كالعلة لذلك فقال: {سبح لله} أي أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم الذي له {ما في السموات} من جميع الأشياء التي لا يغفل من أفلاكها ونجومها وغير ذلك من جواهرها وأعراضها في طلوعها وأفولها وسيرها في ذهابها ورجوعها وإنشاء السحاب وإنزال المياه وغير ذلك. ولما كان الخطاب مع غير الخلص أكده فقال : {وما في الأرض} أي بامتثال جميع ما يراد منه مما هو كالمأمور بالنسبة إلى أفعال العقلاء من نزول

المياه وإخراج النبات من النجم والشجر وإنضاج الحبوب والثمار- وغير ذلك من الأمور الصغار والكبار.

ولما كان امتثال غير العاقل وعصيان العاقل ربما أوهم نقصاً قال: {وهو} أي وحده لا شريك له {العزيز} أي العظيم النفع الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، ويعسر الوصول إليه {الحكيم *} أي الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها، فما مكّن العاقل من المعصية إلا لإظهار صفات الكمال من العلم والقدرة والحلم والكرم والرحمة والغضب وغير ذلك، وقد علم بهذا التنزيه وختم آيته بهاتين الصفتين أنه تعالى منزه عما تضمنه يأس الكفار المذكور من أنه لا بعث وعن أن يجعل سبحانه لهم حظاً في الآخرة لأن كلاًّ من عدم البعث والتسوية بين المسيء والمحسن نقص.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله {لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم} [الممتحنة: 13] وهم اليهود، وقد تقدم الإيماء إلى ما استوجبوا به هذا فأتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه فإنه مما تعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير ذلك، ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء وهو الذي حد لهم في الممتحنة ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} [آل عمران: 167] {لياً بألسنتهم وطعناً في الدين} [النساء: 46] {من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم} [المائدة: 41] {ويقولون آمنا بالله والرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم} [النور: 47] وبمجموع هذا استجمعوا اللعنة والغضب فقيل للمؤمنين: {يا

أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون} [الصف: 2] احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب، ثم أتبع بحسن الجزاء لمن وفى قولاً وعقداً ولساناً وضميراً، وثبت على ما أمر به فقال: {إن الله يحب الذي يقاتلون في سبيله صفاً} [الصف: 4] الآية ثم تناسج ما بعد. ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصح والإشفاق، أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والإنكار ليكون بعد ما تمهد في السورة قبل أوقع في الزجر، وتأمل كم بين قوله سبحانه

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} [الممتحنة: 1] وما تضمنته من اللطف وبين قوله {لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} [الصف: 2] انتهى.

ولما تقدمت في الممتحنة قصة الفتح الأعظم في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وجل منابذة الكفار بكل اعتبار علماً على صحة الهجرة وادعى التجرد لجهاد أعداء الله، وقصة الفتح السببي من تحريم المؤمنات على المشركين وتحريم المشركين على المؤمنات في غزوة الحديبية، وأبدى سبحانه في ذلك من الصنائع التي تعجز قوى الخلق عنها أن رتب ما في الفتح السببي على ما في الفتح الفعلي الحقيقي، فجعل الأول في الزمان آخر في الرتبة والآخر في الزمان أولاً في الرتبة مع شدة الإحكام في ترصيف النظام والبلوغ في الرشاقة والانسجام إلى حد لا يطيقه نوافذ الأفهام مع بداعة المعاني ومتانة المباني، وكان فعل من ناصح الكفار ممن أمن

بلسانه وأذعن بجنانه وهاجر بأركانه نوع مناصحة فعل من يقول مالا يفعل في منابذتهم والتجرد بعداوتهم، فذكر أول هذه السورة من تنزيهه بألسنة أحوال ما لا يعقل ما يخجل المسلم بشيء من ذلك تأديباً لأمثاله، وتدريباً لمن يلم بشيء من المخالفة بباله، وكان العاقل أولى من غيره بتنزيه جناب القدس بالطاعة، فكيف إذا كان ممن أقر بالإيمان وتقلد عهدة الإذعان، وكان من عصى منهم منادياً على نفسه بمخالفة قوله لفعله، ومن نزهه حق تنزيهه لم يقصر في حق من حقوقه بتضييع شيء من أوامره كما أن تنزيه ما لا يعقل بأن لا يخالف شيئاً من مراده، قال مرهباً بنداء البعد والتوبيخ الذي من مبادئ الغضب والإنكار بالاستفهام والتعبير بما يفهم أدنى مراتب الإيمان: {يأيها الذين آمنوا} أي ادعوا الإيمان {لم} قال في الكشاف: هي لام الإضافة داخلة على «ما» الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في بم وفيم ومم وعم وإلام وعلام، وإنما حذفت الألف لأن «ما» والحرف كشيء واحد، ووقع استعمالها بزيادة هاء السكت أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثه أربعه بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة، وقال الرضي في الموصول: إنها حذفت لأن لها صدر الكلام ولم يمكن تأخير الجار عنها فقدم وركب معها حتى يصير المجموع موضوعة للاستفهام، فلا يسقط الاستفهام عن مرتبة الصدر، وجعل حذف الألف دليل التركيب {تقولون} أي من دعوى الإيمان التي مقتضاها إلزام الإخلاص في جميع الأحوال {ما لا تفعلون *} أي ما لا تصدقونه بالفعل الذي يكون بغاية الرغبة والقوة فتتخذوا العدو ولياً بالإقبال

عليه وإرسال التنصح إليه وقد تلفظتم بالإيمان الذي يستلزم المعاداة لكل من كفر، وخلف الوعد في نفسه قبيح ومع الخالق أقبح.

ولما كان ذلك مهلكاً، رحم المخاطبين بتعظيمه لينجوا أنفسـهم بالكف عنه فقال: {كبر} فقصد به التعجيب وهو تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا في أمر خارج عن نظائره وأشكاله، وفسر ما قصد منه للدلالة على خلوصه في المقت بقوله: {مقتاً} أي عظم جداً وما أعظمه من بغض هو أشد البغض، وزاد في تبشيعه زيادة في التنفير منه بقوله: {عند الله} أي الملك الأعظم الذي يحقر عنده كل متعاظم. ولما أبلغ في تبشيعه تشوفت النفس إلى المسند إليه ذلك قال: {أن تقولوا} أي عظم من تلك الجهة أن يقع في وقت من الأوقات أو حال من الأحوال قولكم {ما لا تفعلون *} وقال القشـيري: ويقال: لم يتوعد الله على زلة بمثل ما توعد على هذا- انتهى. وكل ما ذكروه في سببها صالح للسببية قول بعضهم لو ندري أحب الأعمال إلى الله لاجتهدنا فيه ثم ولّوا يوم أحد، وتوانى بعضـهم في الجهاد، وكون «صهيب رضي الله عنه قتل يوم بدر رجلاً آذى المسلمين وأنكى فيهم وادعى غيره أنه قتله فأعجب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال عمر وعبد الرحمن بن عوف لصهيب رضي الله عنهم: أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك قتلته، فقال صهيب رضي الله عنه:» إنما قتلته لله ولرسوله، فأخبر عمر وعبد الرحمن رضي الله عنهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أكذلك أبا يحيى، فقال: نعم يا رسـول الله «والتزام المنافقين أحكام الإسـلام، وتخلفهم إخلافاً في الأمور العظام، وكذا قصة حاطب رضي الله عنه.

ولما عظم ما يكرهه بعد ما ألهب به من تنزيه غير العاقل، فكان العاقل جديراً بأن يســـأل عما يحبه لينزهه به، قال ذاكراً الغاية التي هي أم جامعة لكل ما قبلها من المحاســـن، مؤكداً لأن الخطاب مع من قصـــر أو هو في حكمه: {إن الله} أي الذي له جميع صــفات الكمال {يحب} أي يفعل فعل المحب مع {الذين يقاتلون} أي يوقعون القتال {في سبيله} أي بسبب تسهيل طريقه الموصلة إلى رضاه إيقاعاً مظروفاً للسبيل، لا يكون شيء منه كشيء خارج عنه، فيقاتلون أعداء الدين من الشـــيطان بالذكر القلبي واللســـان، والإنسان بالسيف والسنان {صفاً} أي مصطفين حتى كأنهم في اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا في التساوي في الاصطفاف كالبدن الواحد.

ولما كان الاصطفاف يصدق مع التقدم والتأخر اليسير نفى ذلك بقوله حالاً بعد حال: {كأنهم} أي من شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات في المراكز {بنيان} وزاد في التأكيد بقوله: {مرصـــوص *} أي عظيم الاتصال شديد الاستحكام كأنما رص بالرصاص فلا فرجة فيه ولا خلل، فإن من كان هكذا كان جديراً بأن لا يخالف شـــيء من أفعاله شـــيئاً من أقواله، فالرص إشـــارة إلى اتحاد القلوب والنيات في موالاة الله ومعاداة من عاداه المنتج لتسـوية الصـفوف في الصـلاة التي هي محاربة الشـيطان، والحرب التي هي مقارعة حزبه أولى الطغيان، والأفعال التي هي ثمرات الأبدان.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 6]

{وَإِذْ قَالَ مُوسَــى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْــرَائِيلَ إِنِّي رَسُــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَــدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)}

ولما كان التخلف عن أمر الله تعالى والغفلة عن شــــيء يؤدي تركه إلى التهاون به والإخلال بأدب من آدابه موجباً للكون في صــــف الشــــيطان ومفارقة حزب الرحمن، فيكون أذى الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، فيوجب ذلك الشــــقاء كله لأنه جدير بأن يجر إلى أكبر منه إلى أن تحيط الخطايا فتبيح الرزايا، وكان للتذكير بالمشــاهدات والأمور الواقعات ما ليس لغيره في التأديب ومرجع الترهيب، ذكر بما كان لبني إسـرائيل ترهيباً من مثل حالهم، لئلا يوقع في نكالهم، حين تقاعســوا عما أمروا به من فتح بيت المقدس من الله تعالى غضــب من فعلهم ذلك فسـماهم فاسـقين وضـربهم بالتيه أربعين ســـنة، وأمات في تلك الأربعين كل من توانى منهم في ذلك، فلم يدخل إلى بيت المقدس منهم أحد، فحرموا البلاد التي تقاعدوا عن فتحها، وهي بعد مكة والمدينة خير بلاد الله تعالى ومهاجر أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومواطن أبويهما إســحاق ويعقوب عليهما الصــلاة والســلام وأنزه الأرض، وأكثرها خيراً وأبركها، مع ما كانوا فيه من الضــيق والنكد من التيه الذي هو طرد عن جناب الله بما أراد– بما أشـار إليه التعبير عن زمنه بالسنين– إلى ما أبقوا بعدهم نم ســوء الذكر وشـــناعة القالة إلى آخر الدهر فقال تعالى: {وإذ} عطفاً على ما تقديره: اذكروا ما فعل بعضكم– بما أشرت إليه أول هذه الآيات من الآداب من تنبيه الكفار بما قد يمنع من الفتح أو يكون سـبباً في

عسره أو في إهلاك خلق كثير من عبادي الذين خلقتهم في أحسن تقويم من المؤمنين وغيرهم، أو من الفرار من الكفار عند المقارعة، أو التقاعس عن اللقاء عند البعث عليه، فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أذاه من أذى الله فحلم عنكم، وقبل بما له من بليغ الرحمة بكم والشـــفقة عليكم منكم، وكان أنهى ما عاتبكم به مرسله سبحانه النداء بما هو أدنى الأسنان في الإيمان في نظير إطلاقه على بني إسـرائيل الفسـق بالوصـف المؤذن بالرسـوخ: واذكروا حين {قال موسـى لقومه} وهم– مع كونه منهم– ممن له قوة على ما يحاولونه: {يا قوم} استعطافاً لهم واستنهاضاً إلى رضى ربهم {لم تؤذونني} أي تجددون إذائي مع الاستمرار بالتواني في أمر الله والتقاعد عن فتح بيت المقدس مع قولي عن الله أنكم فاتحوها إن أطعمتموه وأن الله أقسـم لآبائكم أنه ما نحكموها لا محالة.

ولما كان هذا الاســـتفهام الإنكار موجباً لتوقع ما يأتي بعده من موجب التعظيم بدل الأذى، والتبجيل والانقياد موضـــع التوقف والإباء، قال محققاً بحرف التحقيق مضمون الكلام: {وقد} أي والحال أنكم {تعلمون} أي علمتم قطعياً مع تجدده لكم في كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات وبالكتاب الحافظ لكم من الزيغ {أني رسـول الله} أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ورسـوله أيضـاً يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم {إليكم} لا أقول لكم شيئاً إلا عنه، ولا أنطق عن الهوى، فعصياني عصيانه مع أني ما قلت لكم شيئاً إلا تم، وإن كنتم قاطعين بخلافه فهي معصيته لا حامل عليها أصلاً إلا رداءة الجبلات.

ولما تحنن إليهم واستعطفهم وذكرهم ما يعلمون من رسليته وصلته بالله بما شاهدوا من الآيات التي هي أعظم الإحسان إليهم، أعلم أنهم أوشكوا العصيان، فقال معبراً عن ذلك بالفاء تسبيباً عن هذا القول الذي هو أهل لأن يسبب الثبات وتعقيباً وتقريباً: {فلما زاغوا} أي تحقق زيغهم عن قرب عن أوامر الله في الكتاب الآتي إليهم بما أبوا من قبول أمره في الإقدام على الفتح {أزاغ الله} أي الذي له الأمر كله {قلوبهم} من الاستواء، وجمع الكثرة يدل على أنه لم يثبت منهم إلا القليل فهزمهم بين يدي أعدائهم وضربهم بالتيه لأنهم فسقوا عن أمر الله {فالله}– لا يهديهم، فأسند الذنب إليهم والعقوبة إليه وإن كان الكل فعله تعليماً لعباده الأدب وإعلاماً بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ويقوم به الحجة عليهم لعدم علمهم بالعاقبة {والله} أي الملك الأعظم الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال {لا يهدي} أي بالتوفيق بعد هداية البيان {القوم الفاسقين *} أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف، فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم– انتهى.

ولما كان أذى النبي صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره تارة يكون مع العلم برسالته والإقرار بها وتارة مع الإنكار، وقدم العتاب على ما كان منه على تقدير التصديق، وذكر فيه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام الذي كانوا يؤذونه مع العلم برسالته، وهدد بما اتفق لهم من زيغ القلوب التي هي عماد الأبدان وصلاح الإنسان، أتبعه ما يكون منه عند فرض الإنكار. ولما كان رد المنكر تارة بالعقل وتارة بالنقل، وكان الذي بالعقل يكون بنظر المعجزات

ولا سيما إخراج الخبأ وقد كان منه في قصة حاطب رضي الله تعالى عنه في إخراج كتابه الذي اجتهد في إخفائه واجتهدت الظعينة الحاملة له في كتمانه ما فيه مقنع في العلم بالرسالة وتحقق الجلالة، أتبع ذلك دليلاً نقلياً تأييداً للعقل مع كونه دليلاً على صحة الإخبار بإزاغة قلوب بني إسرائيل جزاء على زيغهم عن الحق فقال: {وإذ} أي واذكروا حين {قال عيسى} ووصفه بما حقق من هو فقال: {ابن مريم} أي لقوم موسى عليهما الصلاة والسلام الذين أرسل إليهم وثبتت نبوته لديهم بالمعجزات مع إخلاص الدعوة لله وتصديق من كان قبله من أهل الله: {يا بني إسرائيل} وذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما وصى به نبيه من التمسك بالإسلام، ولم يعبر بالقوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم، فإن النسب إنما هو من جهة الأب، وأكد لإنكار بعضهم فقال: {إني رسول الله} أي الملك الأعظم الذي أحاط علمه بكل شيء {إليكم} أي لا إلى غيركم، حال كوني {مصدقاً} نصبه بما في الرسول من رائحة الفعل ولا ينصب ب «إليكم» لأنه صفة للرسول، وحروف الجر لا تعمل بأنفسها بل بما فيها من معنى الفعل، فإذا كانت صلات لم تكن متضمنة لمعنى فعل فلا تعمل، وهو الحرف الذي يسمى في غير «الكتاب العزيز» لغواً {لما بين يدي} أي تقدمني وكان من قبلي {من التوراة} التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه الصلاة والسلام وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون، فتصديقي لها مع تأييدي لها مؤيد لأن ما أقمته

من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم أنسخه منه كما يستدل الإنسان بما قدامه من الأعلام ويراعيه ببصره.

ولما ذكر أول الكتب ذكر أيضـــاً أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً وهو آخر الرســل ليكون في ذلك إشــارة إلى أن البشــارة به في التوراة والإنجيل فقال: {ومبشراً} أي في حال تصديقي للتوراة.

ولما كانت رســالته صــلى الله عليه وســلم عامة لجميع الخلق لم يذكر في رسالته حرف الغاية كما ذكر في الرسالتين المذكورتين قبل فقال: {برسول} أي إلى كل من شــملته المربوبية {يأتي} ولما كان إتيانه بعده بمدة طويلة أدخل الجار فقال: {من بعدي} ولما كان الإتيان بغاية البيان وإزاحة اللبس بكل اعتبار أقعد في العتاب لمن هفا بعده والأخذ لمن جفا فنقض عهده، أتى بالاسم الذي ما شارك النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحد في زمانه ولا قبله أصلاً، ووزنه دال على المبالغة في معناه فقال: {اسمه أحمد} أي دال على أنه أبلغ الخلق حامداً ومحموداً وهو اســمه صــلى الله عليه وســلم في السماء التي سيصير إليها هذا المبشر، وفي تخصيصه بالذكر احتراز عن أن يتوهم أن البعدية في الرتبة لأنه يليح بتصـــديره بالهمزة التي هي أول الحروف مخرجاً وأشد حروف الحلق الذي هو أول المخارج وتضمينه الميم إلى أنه صــلى الله عليه وســلم كما أنه خاتم بما أشــار إليه أشــهر أســمائه وأعظمها «محمد» لابتدائه بالميم التي هي أمكن حروف الشـــفة التي هي خاتمة للحروف لأن مخرجها آخر المخارج، لا نبي بعده فهو فاتح مقدم باعتبار الذكر والشــرف والحكم بالوصــف الشــريف لا نبي قبله في الخلق

وجبت لـه النبوة وإن آدم لمنجدل في طينـه وبين الروح والجســـد كما في الحديث الذي أخرجه أحمد عن ميسـرة الفجر رضـي الله عنه والترمذي عن أبي هريرة رضـــي الله عنه وأخرجه البيهقي في أول دلائل النبوة وقال: إن معناه أنه كذلك في قضـــاء الله وتقديره، وكأنه يريد قضـــاء مكتوباً في أم الكتاب ومذكوراً لمن أراد من الملائكة قبل إتمام خلق آدم عليه الصــلاة والسلام فإنه يحتمل أنه سبحانه وتعالى لما صور آدم عليه الصلاة والسلام جعل طينته شـفافة تشـف عن ذريته وجعل لصـالحيهم نوراً يرى دون غيره، فلما رأوا أعظمهم نوراً سـألوا عنه فأخبرهم سـبحانه وتعالى به وأثبت ما أراد من أوصـــافه في أم الكتاب كما أنه كان نبياً بالإخبار في دعوة أبيه إبراهيم عليه الصــلاة والســلام وببشــارة عيســى ابن مريم عليه الصــلاة والســلام وبأمارات النور الذي خرج من أمه كما في الحديث الذي رواه البيهقي في الدلائل وغيره عن العرباض بن سارية رضي الله عنه

»إني عبد الله وخاتم النبيين» وفي رواية «إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك؛ دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين» وأن أم رسول الله صـلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام، فتأويل ذلك بذكره سبحانه له لملائكته مثل تأويله بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى حكاية عنه {ربنا وابعث فيهم رســولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} [البقرة: 129] وبشــارة عيســى عليه الصلاة والسلام في مثل حكايته عنه في هذه الآية، وتأويله بالنور الذي رأت

أمه مثل تأويله بالنور الذي يحتمل أن يكون الملائكة عليهم السلام «رأوا في شفاف طينة آدم عليه السلام والله سبحانه وتعالى أعلم. وكانت سورة القتال أحق باســمه الدال على الختم لأن الختام محتاج إلى علاج في لأم ما كان من صــدع الافتراق، وكذا ســورة الفتح لما يلزمه من محاولة المنغلق وإزالة الأغلاق، وختام السـورتين بالميم عظيم المناسـبة لذلك لأن الميم اسـم لتمام الظاهر المقام بالألف، وإلى ذلك إشارة رسم ألف التنوين في الفتح بعد الميم مع أنه لا يخلو من إشــارة إلى أنه الفاتح مع كونه الخاتم، ويؤيد ذلك افتتاح السورة بأول حروف الاسم المليح إلى الفتح، وكانت هذه السورة أحق به لأنه أدل دال على الاتفاق واجتماع الكلمة دون اختلاف وافتراق، كما كان عند نزول آدم عليه الصــلاة والســلام وبعده بمدة، وإلى ذلك أشــار ختمها وختم نظيرتها الصافات بالنون الذي هو مظهر مبين محيط بما أظهره، فهو مبشر لهذه الأمة بالاجتماع والظهور على الاســـم الذي يحيط آخره بجميع أهل الأرض على زمن المبشر عيسى عليه السلام المؤيد للمبشر به بتجديد أمره وإقامة دينه صـلى الله عليه وسـلم، وآخر هذه نتيجة آخر الصــافات بالحمد الذي هو الإحاطة بأوصاف الكمال- والله تعالى أعلم بالصواب».

ذكر ما يصدق هذه الآية من الإنجيل من تصديقه للتوارة

وبشارته بأحمد صلى الله عليه وسلم، قال: وكان رجل مريض اسمه العازر من بيت عنيا وهو أخو مريم ومرتا، فأرســلت الأختان إلى يســوع أن الذي تحبه مريض، فأقام في الموضع الذي هو فيه يومين ثم قال لتلاميذه: امضوا بنا إلى اليهودية، فقال له تلاميذه: الآن يا معلم أراد اليهود رجمك وأنت تريد

المضـــي إليهم، فقال: إن العازر حبيبنا قد نام، فأنا انطلق فاوقظه، فقال: يا سيدنا، إن كان نائماً فهو يستيقظ، فقال العازر مات، فأقبلوا إلى بيت عنيا، فإذا له أربعة أيام في القبر وكانت بيت عنيا من يروشـــليم على نحو خمس عشـــرة غلوة، وكان كثير من اليهود قد جاؤوا إلى مرتا ومريم يعزوهما، فلما سـمعت مرتا بقدوم يسـوع خرجت لتلقاه فقالت له: يا سـيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي وأنا أعلم أن الله يعطيك كل ما سألته، قال: سيقوم أخوك، قالت: أنا أعلم أنه ســـــيقوم في القيامة، ثم جاءت مريم للقائه، فظن اليهود الذين كانوا يعزونها أنها تذهب إلى القبر فتبعوها، فلما انتهت إلى المكان الذي كان فيه يسـوع خرت على قدميه سـاجدة، فلما رآها تبكي ورأى اليهود الذين كانوا معها قال: أين وضعتموه؟ فقالوا له: يا سيد، تعالى وانظر، فدمع يسوع فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه، فقال ناس منهم : أما كان هذا الذي فتح عيني الأعمى يقدر أن يجعل هذا لا يموت، فجاء إلى القبر وكان مغارة وعليه حجر موضـوع فقال: ارفعوا الصـخرة، فقالت له مرتا أخت الميت: يا سـيد، إنه قد أنتن لأن له أربعة أيام، قال لها يسـوع: ألم أقل لك إن آمنت رأيت مجد الله، فرفعوا الصـخرة فرفع يسـوع بصـره إلى فوق وقال: أشـكرك، لأنك تسمع لي، أقول هذا من أجل هذا الجمع ليؤمنوا أنك أرسلتني، قال هذا القول ونادى بصوت عظيم وصاح: عازر اخرج، فخرج الميت ويداه ورجلاه ملفوفة باللفائف ووجهه ملفوف بعمامة، فقال يسـوع: حلوه ودعوه يمضـــي، وإن كثيراً من اليهود الذين جاؤوا إلى مريم لما رأوا ما صـــنع يســوع آمنوا، ومضى قوم منهم إلى الفريسيين فأخبروهم، فجمع عظماء الكهنة والفريسيون

محفلاً فقالوا : ماذا نصـــنع إذ كان هذا الرجل يعمل آيات كثيرة وإن تركناه فيؤمن به جميع الناس وتأتي الروم فتنقلب على أمتنا وموضـعنا، وإن واحداً منهم اسـمه قيافاً كان أعظم الكهنة في تلك السـنة قال لهم: إنه خير لنا أن يموت واحد من الشـعب من أن تهلك الأمة كلها- إلى آخر ما مضـى في النساء عند قوله تعالى:

{وما قتلوه وما صـلبوه ولكن شـبه لهم} [النسـاء: 157] الآيات، نرجع إلى متى قال: حينئذ ذهب الفريسـيون وتشـاوروا ليصـطادوه بكلمة فأرسـلوا إليه تلاميذهم والهردوســيين قائلين : يا معلم، قد علمنا أنك محق وطريق الله بالحق تعلم ولا تبالي بأحد ولا تنظر لوجه إنســان فقل لنا ما عندك، أيجوز لنا أن نعطي الجزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع شرهم فقال: لماذا تجربوني يا مراؤون أروني دينار الجزية، فأتوه بدينار فقال لهم يسـوع: لمن هذه الصـورة والكتابة؟ فقالوا: لقيصـر، حينئذ قال لهم: أعطوا ما لقيصـر لقيصـر وما لله لله، فلما سـمعوا تعجبوا وتركوه ومضـوا، وقال يوحنا: فقال يسـوع: أنا ماكث فيكم زماناً يسـيراً، ثم انطلق إلى من أرسـلني وتطلبوني فلا تجدوني، وحيث أكون أنا لســتم تقدرون على المجيء إلي فقال اليهود فيما بينهم : إلى أين هـذا مزمع أن يـذهـب حتى لا نجـده، لعلـه مزمع أن يـذهـب إلى منفى اليونانيين، وقال متى : وفي اليوم جاء إليه الزنادقة القائلون : ليس قيامة، وسـألوه- فذكر سـؤالهم وجوابه لهم إلى أن قال في آخر جوابه: أما قرأتم ما قيل لكم من الله، وقال مرقس: في سـفر موسـى قول الله على العوسـج إذ قال: أنا هو إله إبراهيم وإله إسـحاق وإله يعقوب وأنتم تضـلون كثيراً، وعبارة

لوقا : فقد نبأ بذلك موســـــى في العليقة كما قال الرب : أنا إله إبراهيم وإله إســـحاق وإله يعقوب، وقال متى : فلما ســـمع الجمع بهتوا من تعليمه، فلما سـمع ذلك الفريسـيون أنه قد أبكم الزنادقة اجتمعوا عليه جميعاً وسـأله كاتب منهم ليجربه قائلاً، يا معلم! أي الوصـايا أعظم في الناموس؟ قال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك، وقال: اسـمع، يا إسـرائيل، الرب إلهك واحد هو، تحب إلهك من كل قلبك– انتهى، ومن كل نفسـك ومن كل فكرك، هذه الوصـية الأولى العظيمة، والثانية التي تشـبهها أن تحب قريب مثل نفسـك، قال مرقس: ليس وصـــية أعظم من هاتين– انتهى، في الوصـــيتين ســـائر الناموس والأنبياء يتعلق، قال مرقس: فقال له الكاتب: فحينئذ يا معلم الحق قلت أنه واحد ليس آخر غيره، وأن تحبه من كل القلب ومن كل النية ومن كل النفس ومن كل القوة، وتحب القريب مثلك، هذه أفضل من جميع الذبائح والمحترقات، فلما رأى يسـوع عقله أجابه قائلاً: لسـت بعيدا من ملكوت الله، وقال لوقا: فقال ليســوع: ومن هو قريبي؟ قال يســوع: كان رجل نازلاً من يروشـليم إلى أريحا، فوقع بين اللصــوص فسـلبوه وجرحوه ومضـوا وتركوه مثخناً قريب الموت، واتفق أن كاهناً نزل في تلك الطريق فأبصـــــره وجاز، وكذلك لاوي جاء إلى المكان فأبصــره وجاز، وإن ســامرياً جاز به، فلما رآه تحنن ودنا منه وضـمد جراحاته وحمله على دابته وجاء به إلى الفندق وعني بأمره، وفي الغد أخرج بدينارين أعطاهما لصـاحب الفندق وقال: اهتم به فإن أنفقت عليه أكثر من هذين دفعت لك عند عودتي، فمن من هؤلاء الثلاثة تظن أنه قد صـار قريباً للذي وقع بين اللصوص، فقال له: الذي صنع معه

رحمة، فقال له يســوع: اذهب أنت وافعل هكذا، وقال مرقس: فلم يتجرأ أحد أن يســأله ثم قال: وكانت جماعة كثيرة يســمعون منه بشــهوة، وقال يوحنا: وآمن باسـمه عند كونه بإيروشـليم في عيد الفسـح كثير لأنهم عاينوا الآيات التي عمل، ثم قال: وكان رجل من الفريسيين اسمه نيقوديميس رئيساً لليهود أتى إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلم نحن نعلم أنك من الله أتيت معلماً لأنه ليس بقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي تعمل أنت إلا من كان الله معه، قال متى: وحينئذ كلم يسوع الجمع وتلاميذه وقال: على كرسي موسى جلس الكتبة والفريســـيون وكل ما قالوه لكم احفظوه أنتم وافعلوه، ومثل أعمالهم لا تصـنعوا لأنهم يقولون ولا يفعلون، لأنهم يربطون أحمالاً ثقالاً صـعبة الحمل ويحملونها على أعناق الناس ولا يريدون أن يحركوها بإصـــبعهم، وكل أعمالهم يصــنعونها لكي يراؤوا الناس، يعرضــون أرديتهم ويعظمون أطراف ثيابهم، ويحبون أول الجماعات في الولائم وصـــدور المجالس في المجامع والســـلام في الأســواق، وأن يدعوهم الناس معلمين، فأما أنتم فلا تدعوا لكم معلماً على الأرض ولا مدبراً فإن مدبركم واحد هو المســـيح، وأنتم جميعاً إخوة، ولا تدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد، هو الذي في السماوات، والكبير الذي فيكم يكون لكم خادماً، فمن رفع نفسه اتضع، ومن وضع نفسه ارتفع، الويل لكم أيها الكتبة والفريسـيون، لأكلكم بيوت الأرامل والأيتام، لعلة تطويل صـــلاتكم، ومن أجل هذا تأخذون أعظم دينونة، الويل لكم أنكم تغلقون ملكوت الســـماوات قدام الناس فلا أنتم تدخلون ولا تتركون الداخلين يدخلون، الويل لكم أنكم تطوفون البر والبحر لتصـــطفوا غريباً واحداً، فإذا

صــار صــيرتموه لجهنم ابناً مضــعفاً، لكم الويل يا أيها الهداة العميان الذين يقولون : من حلف بالهيكل فليس عليه شـــيء، ومن حلف بذهب الهيكل يخطئ، أيها الجهال العمي أيما أعظم ؟ الذهب أن الهيكل الذي يقدس الذهب، ومن حلف بالمذبح فلا شـــيء، ومن حلف بالقربان الذي فوقه فهو يخطئ يا جهال وعميان، أيما أعظم؟ القربان أم المذبح الذي يقدس القربان؟ ومن حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما فوقه، ومن حلف بالهيكل فهو يحلف به وبالســاكن فيه، ومن حلف بالســماء فهو يحلف بكرســي الله وبالجالس عليه، الويل لكم أنكم تعشــرون الشــبث والنعنع والكمون وتتركون أثقل الناموس الحكم والرحمة والإيمان، وقال لوقا: تعشرون النعنع والسداب وكل البقول، وترفضـــون حكم الله ومحبته، قد كان ينبغي أن تعقلوا هذا ولا تغفلوا عن تلك- انتهى، يا هداة عيمان الذين يتركون البعوضـــة ويبلعون الجمل، الويل لكم أنكم تنقون خارج الكأس والســكرجة وداخلهما مملوء اختطافاً وظلماً، أيها الأعمى، نق أولاً داخل الكأس والســكرجة لكيما يتطهر خارجهما، وقال لوقا: اعطو الرحمة فكل شيء يتطهر لكم- الويل لكم لأنكم لا تشبهون القبور المكلسة التي ترى من خارجها حسنة وداخلها مملوء عظام الأموات وكل نجس، وقال لوقا : لأنكم مثل القبور المخفية والناس يمشـــون عليها ولا يعلمون- انتهى.

وكذلك أنتم ترون الناس ظواهركم مثل الصــديقين، ومن داخل ممتلئون إثماً ورياء، قال لوقا : وأنتم أيها الكتبة الويل لكم لأنكم تحملون أوســاقاً وأثقالاً وأنتم لا تدنون منها بإحدى أصــابعكم، الويل لكم لأنكم أخذتم مفاتيح الغرفة

فما دخلتم، ومنعتم الذين يريدون الدخول– انتهى، الويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء، قال لوقا : الذين قتلهم آباؤكم– انتهى، وتزينون مدافن الصديقين وتقولون: لو كنا في أيام آبائنا لم نشاركهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء إنكم تكملون مكيلة آبائكم، أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم، من أجل هذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فتقتلون منهم وتصلبون وتجلدون منهم في مجامعكم وتطردونهم من مدينة إلى مدينة لكي يأتي عليكم دم الصديقين المسفوك على الأرض، وقال لوقا: وأنتم تشهدون وتسرون بأعمال آبائكم لأنهم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم، ولهذا قالت حكمة الله: هوذا أرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون منهم ويطردونهم لينتقم عن دم جميع الأنبياء الذي أهريق من أول العالم إلى هذا الجيل. وقال متى: من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براشيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح، الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل، يا أروشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرة أردت أن أجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا، هوذا يترك بينكم لكم خراباً، أنا أقول لكم: إني لا تروني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب، وقال مرقس: ثم جاء يسوع عند باب الخزانة ينظر الجمع يلقي نحاساً في الخزانة وأغنياء كثير ألقوا كثيراً، فجاءت امرأة أرملة مسكينة، فألقت فلسين فاستدعى تلاميذه وقال لهم: الحق أقول لكم، إن هذه الأرملة المسكينة ألقت أكثر من الكل الذين ألقوا في الخزانة، لأن الكل القوا من فضل ما عنده، وهذه ألقت مع مسكنتها كل ما

لها، ثم خرج من الهيكل- انتهى. هذا ما فيه الدلالة على الرسالة وتصديق التوراة، وأما البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد تقدم في هذا الكتاب مفرقاً في السور كالأعراف والنساء وغيرهما، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة النبوية جمع ابن إسحاق، قال ابن إسحاق: وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام فيما جاءه من الله تعالى في الانجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت يحنس الحواري لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم في رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أنه قال: من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزونني وأيضاً للرب ولكن لا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجاناً أي باطلاً فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي في هذا قلت لكم لكي لا تشكوا.

فالمنحمنا بالسريانية محمد صلى الله عليه وسلم وهو بالرومية البارقليطس- انتهى.

ولما تم الدليل النقلي على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كونه أشرف الأنبياء فاتحاً لهم وخاتماً عليهم، دل على إلزام بني إسرائيل الزيغ فقال: {فلما جاءهم} أي عيسى أو محمد صلى الله عليه وسلم بني إسرائيل وغيرهم {بالبينات} أي من المعجزات العظيمة التي لا يسوغ لعاقل إلا التسليم

لها ومن الكتاب المبين {قالوا} أي عند مجيئها سواء من غير نظرة لتأمل ولا غيره: {هذا} أي المأتي به من البينات أو الآتي بها على المبالغة كما دل عليه قراءة حمزة «ساحر» إشارة بالإشارة إلى القريب بعد الإشارة- بفاء التعقب إلى شدة اتصال الكفر بأول أوقات المجيء: {سحر} فكانوا أول كافر به، لأن هذا وصف لهم لازم سواء بلغهم ذلك وهم بمفردهم أو منضماً إليهم غيرهم {مبين *} أي في البيان في سحريته حتى أن شدة ظهوره في نفسه لكل من رآه أنه سحر عناداً منهم ومكابرة للحق الذي لا لبس فيه.

▲ تفسير الآيات رقم [7- 9]

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)}

ولما كان التقدير إعلاماً بأنهم أظلم الناس لتعمدهم للكذب: فمن أظلم منهم لتهتكهم في ذلك، عطف عليه قوله: {ومن أظلم} وعم كل من اتصف بوصفهم فقال: {ممن افترى} أي تعمد {على الله} أي الملك الأعلى {الكذب} الذي هو أقبح الأشياء {وهو} أي والحال أنه {يدعى} أي من أي داع كان {إلى الإسلام} الذي هو أحسن الأشياء فيكفي في الدعاء إليه أدنى تنبيه لأنه الاعتراف بالحق لمن هو له، فيجعل مكان الإجابة افتراء الكذب في تلك الحالة الحسنى.

ولما كان التقدير : فهو لا يهديه الله لأجل ظلمه، عطف عليه قوله: {والله} أي الذي لـه الأمر كلـه فلا أمر لأحد معه {لا يهدي القوم} أي لا يخلق الهداية في قلوب من فيهم قوة المحاولة للأمور الصـعاب {الظالمين *} أي الذين يخبطون في عقولهم خبط من هو في الظلام.

ولما أخبر عن ردهم للرسـالة، علله بقوله: {يريدون} أي يوقعون إرادة ردهم للرسـالة بافترائهم {ليطفئوا} أي لأجل أن يطفئوا {نور الله} أي الملك الذي لا شـيء يكافيه {بأفواههم} أي بما يقولون من الكذب لا منشـأ له غير الأفواه لأنه لا اعتقاد له في القلوب لكونه لا يتخيله عاقل، فهم في ذلك كالنافخين في الشـمس إرادة أن يمحو نفخهم عينها وينقص شـينهم زينها، فمثل إرادتهم لإخفاء القرآن بتكذيبهم وجميع كيدهم بمن يريد إطفاء الشمس بنفخه فهو في أجهد وأضل الضلال:

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها *** ويجهد أن يأتي لها بضريب

فأفاد قصـــر الفعل أن إرادتهم كلها مصـــروفة لهذا الغرض وأنه لا إرادة لهم غير ذلك وأنه لا ينبغي أن يكون لهم إرادة لأنهم عبيد، والإرادة لا ينبغي إلا للسـيد ليكون إرادة العبد تابعة لها، فتكون امتثالاً لإرادته، فكأنه لا إرادة له، فهو أبلغ مما في براءة لأن هذه نتيجتها.

ولما أخبر بعلة إرادتهم وأشـــار إلى وهي أمرهم بعد أن أخبر بردهم للحق وجرأ عليهم بالإخبار بإضـــلالهم، زاد ذلك بقوله مظهرا غير مضـــمر تنبيهاً على جميع صـــفات الجلال والإكرام: {والله} أي الذي لا مدافع له لتمام عظمته. ولما كانت هذه السـورة نتيجة سـورة براءة التي أخبر فيها بأنه يأبى

إلا إتمام نوره، أخبر في هذه بنتيجة ذلك وهي ثبات تمام النور ودوامه، لأن هذا شأن الملك الذي لا كفوء له إذا أراد شيئاً فكيف إذا أرسل رسولاً فقال: {متم} وهذا المعنى يؤيد قول الجمهور أنها مدينة بعد التأييد بذكر الجهاد، فإن فرضـــــه كان بعد الهجرة من والظاهر من ترتيبها على الممتحنة التي نزلت في غزوة الفتح أنها بعد براءة في النزول أيضاً.

ولما كان النور لإظهار صور الأشياء بعد انطماسها سبباً لوضع الأشياء في أتقن مواضـــعها، وكان ما أتى من عند الله من العلم كذلك، جعل عينه فأطلق عليه اسـمه فقال: {نوره} فلا يضـره سـتر أحد له بتكذيبه ولا إرادة إطفائه، وزاد ذلك بقوله: {ولو كره} أي إتمامه له {الكافرون *} أي الراسخون في صفة الكفر المجتهدون في المحاماة عنه.

ولما أخبر بذلك، علله بما هو شـأن كل ملك فكيف بالواحد في ملكه فقال: {هو} أي الذي ثبت أنه جامع لصـفات الجمال والجلال وحده من غير أن يكون له شريك أو وزير {الذي أرسل} بما له من القوة والإرادة {رسوله} أي الحقيق بأن يعظمه كل من بلغه أمره لأن عظمته من عظمته، ولم يذكر حرف الغاية إشارة إلى عموم الإرسال إلى كل من شمله الملك كما مضى {بالهدى} أي البيان الشـافي {ودين الحق} أي الملك الذي ثباته لا يدانيه ثبات، فلا ثبات لغيره، فثبات هذا الدين بثباته، ويجوز أن يكون المعنى: والدين الذي هو الحق الثابت في الحقية الكامل فيها كمالاً ليس لغيره، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته إشارة إلى شدة التباسه بها {ليظهره} أي يعليه مع الشـهرة وإذلال المنازع {على الدين} أي جنس الشـريعة التي

تجعل ليجازي من يسلكها ومن يزيغ عنها، بها يشرع فيها من الأحكام {كله} فلا يبقى دين إلا كان دونه وانمحق به وذل أهله له ذلاً لا يقاس به ذل {ولو كره} أي إظهاره {المشـركون *} أي المعاندون في كفرهم الراسـخون في تلك المعاندة، وأعظم مراد بهذا أهل العناد ببدعة الاتحاد، فإنهم ما تركوا شـــيئاً مما سواه حتى أشـركوا به- تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً،- وهم مع بعد نحلتهم من العقول وفسـادها من الأوهام ومصـادمتها لجميع النقول في غاية الكثرة لمصير الناس إلى ما وعد الله ورسوله- وصدق الله ورسوله- من أن أكثرهم قد مرجت عهودهم وخفيت أماناتهم وصـــاروا حثالة كحثالة التمر لا يعبأ الله بهم، لكنهم على كثرتهم بما تضـمنته هذه الآية في أمثالها في غاية الذل ولله الحمد لا عز لهم إلا بإظهار الاتباع للكتاب والســـنة وهم يعلمون أنهم يكذبون في هذه الدعوى لأنهم في غاية المخالفة لهما بحيث يعتقدون أنهما شرك لإثباتهما لله تعالى وجوداً يخالف وجود الخلق وهم يقولون مكابرة للضــرورة أن الوجود واحد وأنه لا موجود ظاهراً وباطناً سـواه، ولذلك سـموا الوجود به ثم لا يردهم علمهم بذلهم وأنهم لا عز لهم إلا بحمى الشـريعة عن ضــلالهم فأعجب لذلك وألجأ إلى الله تعالى بسـؤال العافية، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشــاء، وضــربهم بالذل مع كثرتهم في غاية الدلالة على الله سـبحانه لأن الملك الكامل القدرة لا يقر من يطعن في ملكه ويسـعى فر رد رسالته وإهانة رسله ولقد أنجز سبحانه كثيراً من وعده بما دل- لكونه تغليباً على أقوى الملوك من الأكاسـرة والقياصــرة- على القدرة على الباقين، وذلك أنه لما تقاعد قومه عن نصـرته وانتدبوا لتكذيبه وجحد ما شـاهدوه من صدقه

يسر الله له أنصاراً من أمته هم نزاع القبائل وأجاد الأفاضل وسادات الأماثل فبلغوا في تأييده أقصى الأمل.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 11]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)}

ولما أنتج هذا كله نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل حال ودمار من يخالف أمره، أنتج قطعاً أن الجهاد معه متجر رابح لأن النصر مضمون، والموت منهل لا بد من وروده سواء خاض الإنسان الحتوف أو احترس في القصور المشيدة، فقال تعالى في أسلوب النداء والاستفهام لأنه أفخم وأشد تشويقاً بالأداة التي لا يكون ما بعدها إلا بالغاً في العظم إلى النهاية: {يا أيها الذين آمنوا} أي قالوا في إقرارهم بالإيمان ما عليهم أن يفعلوا بمقتضاه {هل أدلكم} وأنا المحيط علماً وقدرة، فهي إيجاب في المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشويقاً ليكون أوقع في النفس فتكون له أشد تقبلاً، والآية أيضاً نتيجة ما مضى باعتبار آخر لأنه لما وبخ على انحلال العزائم واخبر بما يجب من القتال، وبكت على أذى الرسول صلى الله عليه وسلم بالمخالفة، وأخبر أن من خالفه لا يضر إلا نفسه، كان موضع الاستباق في طاعته فرتب عليه الاشتياق إلى ذكر ثمرته فذكرها، ولما كان فعل حاطب رضي الله عنه لأجل أنه لا نجاح أهله الذين كانوا بمكة في أنفسهم ولا في شيء من مالهم، وكان هذا في معنى التجارة قال: {على تجارة} وقراءة ابن

عامر {تنجيكم} بالتشـــديد أنســـب لهذا المقام من قراءة الجماعة بالتخفيف، وقراءة الجماعة أنسب لمقصـود حاطب رضـي الله عنه {من عذاب أليم *} بالإجاحة في النفس أو المال.

ولما كان الاتجار إجهاد النفس في تحصـــــيل الربح النافع، وكان الإيمان والجهاد أعظم إجهاد النفس في تحصـين- الجنة الباقية التي لا ريح توازيها، فاستعار لهما اسمها، وكان جواب النداء الإقبال وجواب الاستفهام نعم، عدوا كأنهم أقبلوا وأنعموا تنبيهاً على ما هو الأليق بهم، فاستأنف لهم بيان التجارة بأنه الجمع بين الإيمان الذي هو أســــاس الأعمال كلها، والجهاد بنوعيه المكمل للنفس والمكمل للغير فقال: {تؤمنون} أي آمنوا بشرط تجديد الإيمان على سـبيل الاسـتمرار {بالله} الذي له جميع صـفات الكمال {ورسـوله} الذي تصديقه آية الإذعان المعنوية والخضوع لكونه ملكاً {وتجاهدون} أي وجاهدوا بياناً لصحة إيمانكم على سبيل التجديد والاستمرار. ويدل على أنهما بمعنى الأمر ما أرشد إليه جزم ما أقيم في موضع الجواب مع قراءة عبد الله رضي الله عنه: آمنوا وجاهدوا- بصـيغة الأمر {في سـبيل الله} أي بسـبب تسـهيل طريق الملك الأعظم الموصـل إليه الذي لا أمر لغيره بحيث يكون ظرفاً لكم في جميع هذا الفعل فلا شـيء يكون منه خارجاً عنه ليكون خالصـاً بفتح بلد الحج ليسـهل الوصـول إليه من كل من أراده وغير ذلك من شـرائعه فتكونوا ممن يصـــدق فعله قوله، وهذا المعنى لا وقفة فيه لأنه فرق بين قولنا: فلان فعل كذا- الصادق بمرة، وبين قولنا بفعله الدال على أن فعله قد صار ديدناً له، فالمعنى: يا من فعل الإيمان إن أردتم النجاة فكونوا عريقين في وصـف

الإيمان حقيقين به ثابتي الإقدام فيه وأديموا الجهاد دلالة على ذلك فإن الجهاد لما فيه من الخطر والمشقة والضرر أعظم دليل على صدق الإيمان، ويؤيد ذلك أن السياق لقصة حاطب رضي الله عنه المفهمة في الظاهر لعدم الثبات في الإيمان وإرادة الجهاد الدال على المصـــدق فيه، ولذلك قال عمر رضي الله عنه ما قال- والله الهادي.

ولما كان الجمع بين الروح وعديلها المال على وجه الرضــــى والرغبة أدل على صـــحة الإيمان، قال: {بأموالكم} وقدمها لعزتها في ذلك الزمان ولأنها قوام الأنفس والأبدان، فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفســه لأن المال قوامها. ولما قدم القوام أتبعه القائم به فقال: {وأنفســكم} ولما أمر بهذا في صــيغة الخبر اهتماماً به وتأييداً لشــأنه، أشــار إلى عظمته بمدحه قبل ذكر جزائه، فقال: {ذلكم} أي الأمر العظيم من الإيمان وتصديقه بالجهاد {خير لكم} أي خاصــة مما تريدون من الذبذبة بمناصــحة الكفار {إن كنتم} أي بالجبلات الصــــالحة {تعلمون *} أي إن كان يمكن أن يتجدد لكم علم في وقت من الأوقات فأنتم تعلمون أن ذلك خير لكم، فإذا علمتم، أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم، وإن كانت قلوبكم قد طمســـت طمســـاً لا رجاء لصلاحها فصلوا على أنفسكم صلاة الموت.

▲ تفسير الآيات رقم [12- 14]

{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَــاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّــرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَــارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)}

ولما كان معنى «تؤمنون» : فالأمر كما تقدم، لكنه حول عن ذلك لما ذكر، وكان أهم ما إلى الإنسان خوفه مما هدد عليه، أمن سبحانه من ذلك دالاً على أصل الفعل بجزم ما هو في موضع الجواب فقال: {يغفر لكم} أي خاصة دون من لم يفعل ذلك {ذنوبكم} أي بمحو أعيانها وآثارها كلها.

ولما قرع القلوب من كدر العقاب والعتاب، لذذها بطيب الثواب فقال: {ويدخلكم} أي بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم {جنات تجري} ودل على قرب الجاري وتخلله الأراضي بالجار فقال: {من تحتها} أي تحت أشجارها وغرفها وكل متنزه فيها {الأنهار} فهي لا تزال غضة زهراء، ولم يحتج هذا الأسلوب إلى ذكر الخلود لإغناء ما بعده عنه، دل على الكثرة المفرطة في الدور بقوله بصيغة منتهى الجموع: {ومساكن} ولما كانت المساكن لا تروق إلا بما يقارنها من المعاني الحسنة قال: {طيبة} أي في الاتساع واختلاف أنواع الملاذ وعلو الأبنية والأسرة مع سهولة الوصول إليها وفي بهجة المناظر وتيسر مجاري الريح بانفساح الأبنية مع طيب الغرف، لم يفسد الماء الجاري تحتها شيئاً من ريحها ولا في اعتدالها في شيء مما يراد منها. ولما كانت لا يرغب فيها إلا بدوام الإقامة، بين صلاحيتها لذلك بقوله : {في جنات عدن} أي بساتين هي أهل للإقامة بها لا يحتاج في إصلاحها إلى شيء خارج يحتاج في تحصيله إلى الخروج عنها له، ولا آخر لتلك الإقامة، قال

حمزة الكرماني في كتابه جوامع التفسـير : هي قصـبة الجنان ومدينة الجنة أقربها إلى العرش.

ولما كان هذا أمراً شـريفاً لا يوجد في غيرها قال: {ذلك} أي الأمر العظيم جداً وحده {الفوز العظيم *} . ولما ذكر ما أنعم عليه به في الأخرى لأنه أهم لدوامها، كان التقدير بما دل عليه العطف : هذا لكم، عطف عليه ما جعل لهم في الدنيا فقال : {وأخرى} أي ولكم نعمة، أو يعطيكم، أو يزيدكم نعمة أخرى. ولما كان الإنسـان أحب في العاجل وأفرح بالناجز قال : {تحبونها} أي محبة كثيرة متجددة متزايدة، ففي ظاهر هذه البشـرى تشـويق إلى الجهاد وتحبيب، وفي باطنها حث على حب الشـهادة بما يشير إليه من التوبيخ أيضـاً على حل العاجل والتقريع: {نصـر من الله} أي الذي أحاطت عظمته بكل شـيء لكم وعلى قدر إحاطته تكون نصـرته {وفتح قريب} أي تدخلون منه إلى كل ما كان متعسراً عليكم من حصـون أعدائكم وغيرها من أمورهم في حياة نبيكم صـلى الله عليه وسـلم أعظمه فتح مكة الذي كتب حاطب رضـي الله عنه بسببه، وبعد مماته، وفيه شـهادة لحاطب رضـي الله عنه بأنه يحب نصـرة النبي صـلى الله عليه وسـلم والفتح عليه مكة وغيرها لصـحة إيمانه كما أخبر به النبي صـلى الله عليه وسـلم الذي لا ينطق عن الهوى.

ولما كان ما تقدم من المعاتبة إنذاراً لمن خالف فعله قوله من الذين آمنوا، وكان المقام قد أخذ حظه من الإنذار والتوبيخ، طوى ما تقديره: فأنذر من لم يكن راسـخاً في الدين من المنافقين، ومن خالف فعله قوله من المؤمنين :

عطف عليه دلالة عليه ليكون أوقع في النفس لمن يشـــير إليه طيه من الاستعطاف قوله: {وبشر المؤمنين *} أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً كحاطب بن أبي بلتعة رضـي الله عنه بأن الله يفتح لك البلاد شـرقاً وغرباً، وأول ذلك مكة المشـــرفة ولا يحوجهم إلى أن يدرؤوا عن عشـــائرهم وأموالهم ولا أن يكون شـــيء من أفعالهم يخالف شـيئاً من أقوالهم. ولما هز سبحانه إلى الجهاد وشوق إليه بأنه متجر رابح، ولوح إلى النذارة بالتنشيط بالبشـارة، فتهيأت النفوس إلى الإقبال عليه وانبعثت أي انبعاث، حض عليه بالإيجاب المقتضــــي للثواب أو العقاب، فقال منادياً بأداة البعد والتعبير بما يدل على أدنى الأسنان تأنيباً على أنه لا يعدم الوصف بالإيمان إلا مقرون بالحرمان تشـــويقاً وتحبباً : {يأيها الذين آمنوا} أي أقروا بذلك فأذعنوا بهذا الوعظ غاية الإذعان أني أمرت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يقول لكم: {كونوا} أي بغاية جهدكم {أنصار الله} أي راسخين في وصف النصرة وفي الذروة العليا من ثبات الأقدام في تأييد الذي له الغنى المطلق لتكونوا- بما أشـارت إليه قراءة الجماعة بالإضـــافة- بالاجتهاد في ذلك كأنكم جميع أنصـاره، فإنكم أشـرف من قوم عيســى عليه الصـلاة والسـلام، وما ندبكم سبحانه لنصرته إلا لتشريفكم بمصاحبة رسله الذين هم خلاصة خلقه عليهم الصـلاة والسـلام فقولوا سمعنا وأطعنا نحن أنصـار الله وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين ولام الجر على معنى: كونوا بعض أنصـاره، ويشـبه أن يكون المأمور به في هذه القراءة الثبات على الإيمان ولو في أدنى الدرجات، وفي قراءة الجمهور الرسوخ فيه.

ولما كان التقدير على صفة هي من الثبات والسرعة على صفة الحواريين، عبر عن ذلك بقوله: {كما} أي كونوا لأجل أني أنا ندبتكم بقولي من غير واسطة ولذذتكم بخطابي مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين {قال عيسى ابن مريم} حين أرسلته إلى بني إسرائيل ناسخاً لشريعة موسى عليه الصلاة والسلام {للحواريين} أي خلص أصحابه وخاصته منهم: {من أنصاري} حال كونهم سائرين في منازل السلوك والمعاملات ومراحل المجاهدات والمنازلات {إلى الله} أي المحيط بكل شيء فنحن إليه راجعون كما كنا به مبدوئين.

ولما اشتد تشوف السامع إلى جوابهم، أبان ذلك بقوله: {قال الحواريون} معلمين أنه جادون في ذلك جداً لا مزيد عليه عاملين فيما دعاهم إليه عمل الواصل لا السائر لعلمهم أنه إجابته إجابة الله لأنه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه إلا عن الله: {نحن} أي بأجمعنا {أنصار الله} أي الملك الأعلى الذي هو غني عنا وقادر على تمام نصرنا، ولو كان عدونا كل أهل الأرض ننصره الآن بالفعل، لا نحتاج إلى تدريب يسير ولا نظر إلى غير، لاستحضارنا لجميع ما يقدر عليه الآدمي من صفات جلاله وجماله وكماله، ولذلك أظهروا ولم يضمروا.

ولما كان التقدير: ثم دعوا من خالفهم من بني إسرائيل وبارزوهم، سبب عنه قوله: {فآمنت} أي به {طائفة} أي ناس فيهم أهلية الاستدارة لما لهم من الكثرة {من بني إسرائيل} أي قومه {وكفرت طائفة} أي منهم، وأصل الطائفة: القطعة من الشيء {فأيدنا} أي قوينا بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام {الذين آمنوا} أي الذين أقروا بالإيمان المخلص منهم وغيره في القول والفعل

وشــددنا قلوبهم {على عدوهم} الذين عادوهم لأجل إيمانهم. ولما كان الظفر بالمحبوب أحب ما يكون إذا كان أول النهار، تســـبب عن تأييده قوله : {فأصــبحوا} أي صــاروا بعد ما كانوا فيه من الذل {ظاهرين *} أي عالين غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً إلا الله ولا يستخفون منه، فالتأييد تارة يكون بالعلم وتارة بالفعل {علمه شديد القوى} [النجم: 5] فصار علمه في غاية الإحكام وتبعته قوة هي في منتهى التمام، لأنه ناشــــئ عن علم مســتفاد من قوة، وإلا لقال: علمه كثير العلم. {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} [النمل: 40] قوة مســتفادة من علم، والظاهر كما هو ظاهر قوله تعالى : {جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} [آل عمران: 55] وغيرها أن تأييد المؤمنين به كان بعد رفعه بيســـير حين ظهر الحواريون وانبثوا في البلاد يدعون إلى الله بما آتاهم من الآيات، فاتبعهم الناس، فلما تمادى الزمان ومات الحواريون رضي الله عنهم افترق الناس ودب إليهم الفســاد، فغلب أهل الباطل وضــعف أهل الحق حتى كانوا عند بعث النبي صـــلى الله عليه وســـلم عدماً أو في حكم العدم،- كما دلت عليه قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فقد رجع آخر السورة كما ترى بما وقع من التنزه عما يوهمه علو الكفرة من النقص بنصر أوليائه وقســـر أعدائه، ومن الأمر مما أخبر أولها أنه يحبه من القتال في سبيله حثاً عليه وتشويقاً إليه- على أولها، واتصل بما بشر به من آمن ولو على أدنى وجوه الإيمان من العز موصلها بمفصلها، بما أزيل من الأسباب الحاملة له على المداراة، والأمور التي أوقعته في المماشـــاة مع الكفار

والمجاراة، فأوجب ذلك رسـوخ الإيمان، وحصـول الإتقان، المقتضــي للتنزيه بالفعل عن كل شوب نقصان، والله الموفق للصواب وعليه التكلان.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

▲ سورة الجمعة

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)}

ولما ختمت الصف بالإقبال ببعض بني إسرائيل على جنابه الأقدس بعد أن زاغوا فأزاغ الله قلوبهم كلهم أو الشاذ منهم بما أفهمه إطلاق الضمير عليهم ثم تأييدهم على من استمر منهم على الزيغ، فثبت أن له تمام القدرة المستلزم لشمول العلم اللازم منه التنزه عن كل شائبة نقص، وكان سبحانه قد ذكر التسبيح الذي هو الأعظم الأشهر للتنزيه بلفظ الماضي ثلاث مرات في افتتاح ثلاث سور، وذلك نهاية الإثبات المؤكد، فثبت بذلك أنه وقع تنزيهه من كل ناطق وصامت، أخبر أول هذه السورة أن ذلك التنزيه على وجه التجديد والاستمرار بالتعبير بالمضارع لاستمرار ملكه فقال: {يسبح} أي يوقع التنزيه الأعظم الأبهى الأكمل {لله} أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً، وأكد بذلك لما في التغابن ولم يحتج بعد الإقرار بالوقوع على هذا الوجه إلى التأكيد بأكثر من مرة وجعل بين كل مسبحتين سورة خالية من ذلك ليكون

ذلك أدل على قصد التأكيد من حيث شدة الاعتناء بالذكر، وإن وقع فصل ويكون التأكيد أكثر تنبيهاً وأعظم صدعاً وتذكيراً.

ولما كان تقريع العاقل الناطق بطاعة الصامت أعظم، قال: {ما في السماوات} وإن كان العاقل يدخل في ذلك ما عليه فيكون تسبيحه تارة طوعاً موافقة للأمر، وتارة كرهاً بالانقياد مع الإرادة، وتسبيح الصامت طوعاً في كل حال. ولما كان الخطاب مع الذين آمنوا، دعا ذلك إلى التأكيد لاحتياجهم إليه فقال: {وما في الأرض} كذلك.

ولما ثبت بالسور الثلاث الماضية أن الموجودات أوقعت له التسبيح، وأخبرت هذه باستمرار ذلك على سبيل التجديد، دل ذلك مع التنزيه عن النقائص على إثبات الكمال الذي لا يكون إلا لملك عظيم الشأن مطاع الأمر، وكان الاقتصار على الصامت بالتعبير بما هو ظاهر فيه ربما أوهم شيئاً، قال مصرحاً بما أفهمه السياق: {الملك} أي الذي ثبتت له جميع الكمالات فهو ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلاً فيصبح ظاهراً {القدوس} الذي انتفت عنه جميع النقائص، فلا يكون شيء إلا بإذنه وتنزه عن إحاطة أحد من الخلق بعلمه أو إدراك كنه ذاته فليس في أيدي الخلق إلا التردد في شهود أفعاله، والتدبر لمفاهيم نعوته وجلاله، وأحقهم بالقرب والعداد في حزبه المتخلق بأوصافه على قدر اجتهاده، فينبغي للمؤمن التنزه عن أن يقول ما لا يفعل أو يبني شيئاً من أموره على غير إحكام، وقد مضى شرح الاسمين الشريفين قريباً وذكر خلاصة شرحهما بما هو خاصة الملك وآية الطهارة للطاهر فقال: {العزيز} أي الذي يغلب كل شيء، لا

يغلبه شـيء، فلو أراد لجعل العقلاء كلهم أيضـاً مع تسـبيحهم بالجري تحت مراده طوعاً وكرهاً مسبحين بالموافقة لأمره طوعاً {الحكيم *} الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما ختمت سـورة الصـف بالثناء على الحواريين في حسـن اسـتجابتهم وجميل إيمانهم، وقد أمر المؤمنين بالتشـبه بهم في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصـار الله كما قال عيسـى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله} [الصف: 14] كان ذلك مما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فاتبع ذلك بذكر هذه الأمة، والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله: {وكفرت طائفة} [الصـف: 14] فإنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالنبوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك ثم قال: {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم} [الجمعة: 2] إلى قوله: {ذو الفضـل العظيم} [الجمعة: 4] ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لهم نور الهدى ووضـح لها سـبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها ولم تزدد بما حملت إلا حيرة وضـلالة فقال تعالى: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسـفاراً} [الجمعة: 5] الآيات وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه ورحمه الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحنين، فإنهم مقتوا ولعنوا بعد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حمله والوفاء به فوعظ هؤلاء بمثالهم لطفاً من الله لهذه الأمة {وما يذكر إلا أولوا الألباب} انتهى.

ولما كانت القدرة على تزكية الجلف الجافي بحمله على التنزيه أدل على القدرة على غيره، وكان قد أسلف عن بني إسرائيل أنهم لم يقبلوا التزكية بل زاغوا، دل على قدرته في عزته وحكمته وملكه وقدسه على تزكية جميع العقلاء بقوله: {هو} أي وحده {الذي بعث} أي من حضرة غيب غيبه بشرع أوامره ونواهيه {في الأميين} أي العرب لأنهم كانوا معروفين من بين سائر الأمم لا يكتبون بل هم على الخلقة الأولى حين الخروج من بطن الأم، وذكر ظرف البعث وإهمال غايته دال على أنها كل من يتأتى البعث إليه وهم جميع الخلق، ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض لأن بعثه صلى الله عليه وسلم كان حين ذهب العلم من الناس، ولأن العرب أصل فجميع الباقين تبع لهم، فلا بدع أن يحمل عليهم وصفهم {رسولاً} ولما كان تقويم الشيء بمثله أعجب قال: {منهم} بل الأمية بمعنى عدم الكتابة والتجرد عن كل تكلف وصف لازم له دائماً وعلمه لما يكن يعلم من غير تطلب، فكانت آثار البشرية عند مندرسة، وأنوار الحقائق عليه لائحة، وذلك يتوهم الافتقار إلى الاستعانة بالكتب لأن منشأ مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب إلى مساواتهم له لو أمكنهم، فيكون عدم إمكان المساواة أدل على الإعجاز، وذكر بعثه منهم إن خص الوصف بالعرب لا ينفي بعثه إلى غيرهم ولا سيما مع ما ورد فيه من الصرائح وأثبته من الدلائل القواطع، فذكر موضع البعث وابتداءه فتكون الغاية مطلقة تقديرها: إلى عامة الخلق.

ولما كان كونه منهم مفهماً لأنه لا يزيد عليهم من حيث كونه منهم وإن زاد فبشيء يسير، عجب من أمره ونبه على معجزة عظيمة له بقوله مستأنفاً:

{يتلوا} أي يقرأ قراءة يتبع بعضـــها بعضـــاً على وجه الكثرة والعلو والرفعة {عليهم} مع كونه أمياً مثلهم {آياته} أي يأتيهم بها على ســـبيل التجدد والمواصـلة آية بينة على صـدقه لأنه أمي مثلهم بل فيهم الكاتب والعالم وإن كانوا معمورين في كثرتهم فما خصه عنهم بذلك إلا القادر على كل شيء.

ولما كان المقام للتنزيه ولتأديب من وقع في موادة الكفار ونحو ذلك، قدم التزكية فقال: {ويزكيهم} أي عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة، فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليهم، فربما نظر إلى الإنسان نظرة محبة فزكاه الله بها، وربما سرت تلك النظرة إلى ثان فأشـــرقت أنوارها عليه على حســـب القابليات كما وقع لعمير بن وهب ثم صـفوان بن أمية وكذا ذو النور الطفيل بن عامر الدوسـي رضـي الله عنه ثم قومه، فأما عمير فكان من أعظم المؤذين للنبي صـلى الله عليه وسـلم ولمن آمن به فتذاكر مع صــفوان وقعة بدر في الحجر ومن فقدوا من صــناديدهم وأنه ليس في العيش بعدهم خير، ثم تمنوا رجلاً بقتال النبي صــلى الله عليه وسـلم، فقال عمير: لولا فقري وبنات لي وعيال أخشــى عليهم الضـيعة من بعدي لأتيته بغلة أســيري عندهم فقتلته، فاغتنمها صــفوان فعاهده أن يكفي عياله إن مات وأن يواســيه إن عاش، فقال: اكتم عني ثلاثاً، ثم ذهب إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم فهداه الله فحلف صـفوان أن لا يكلمه أبداً، فلما فتحت مكة فر صـفوان ليركب البحر من جدة، فاسـتأذن عمير النبي صـلى الله عليه وسـلم ثم ذهب إليه فلحقه فلم يزل به حتى رجع ثم أسـلم فكان من خيار الصـحابة رضـي الله عنه، وأما ذو النور فحين دعاه النبي صـلى الله

عليه وسـلم ثم سـأل آية يعينه الله بها على قومه فآتاه الله نوراً حين أشـرف على الحي الذي هو منه، ثم دعا أباه وأمه فأسـلما، ثم صـاحبته فكذلك ثم قومه، فما تخلف منهم أحد، وأما غير الصحابة رضي الله عنهم فتزكيته لهم بآثاره بحسـب القابليات والأمور التي قضـى الله أن يكون مهيأ، فمن كان له أعشق كان لاتباعه ألزم، فكان في كتاب الله وسنته أرسخ من سيرة وغيرها علماً وعملاً فكان أشد زكاء.

ولما كانوا بعد التزكية التي هي تخلية عن الرذائل أحوج ما يكون إلى تحلية بالفضـائل قال: {ويعلمهم الكتاب} أي المنزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى {والحكمة} وهي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله ليضعوا كل شيء منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسـرائيل، فيكون مثلهم كمثل الحمار يحمل أسـفاراً ولو لم يكن له صـلى الله عليه وسلم معجزة إلا هذه لكانت غاية.

ولما كان الوصـف بالأمية مفهماً للضـلال، وكان كثير منهم حال إنزال هذه السـورة يعتقد أنهم على دين متين وحال جليل مبين، وكانوا بعد هدايته لهم بعد الأمية سيضلون لأن الإرسال من حضرة غيب الغيب في العلوم المنافية للأمية إلى ما لم تصـل إليه أمة من الأمم قبلهم، وكان ذلك موجباً للتوقف في كونهم كانوا أميين، أكد هذا المفهوم بقوله: {وإن} أي والحال أنهم {كانوا} أي كوناً هو كالجبلة لهم. ولما كان كونهم ذلك في بعض الزمن الماضـي، أدخل الجار فقال: {من قبل} أي قبل إرساله إليهم من حين غيروا دين أبيهم

إسماعيل عليه الصلاة والسلام وعبدوا الأصنام {لفي ضلال} أي بعد عن المقصود {مبين *} أي ظاهر في نفسه مناد لغيره أنه ضلال باعتقادهم الأباطيل الظاهرة وظنهم أنهم على شيء وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختيارهم له وعيبهم من يميل إلى التعلم وينحو نحو التبصر كما وقع لهم مع زيد بن عمرو بن نفيل وغيره، فوصفهم بهذا غاية في نفي التعلم من مخلوق عن نبيهم إعظاماً لما جاء به من الإعجاز وتقريراً لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم إلى الهدى، وينقذهم مما كانوا فيه من العمى والردى.

ولما كانت تزكيته لهم مع أميتهم وغباوتهم لوصف الأمية في الجهل أمراً باهراً في دلالته على تمام القدرة، زاد في الدلالة على ذلك بإلحاق كثير ممن في غيرهم من الأمم مثلهم في الأمية بهم فقال: {وآخرين} أي وبعثه في آخرين {منهم} في الأمية لا في العربية {لما يلحقوا بهم} أي في وقت من الأوقات الماضية في صفة من الصفات، بل هم أجلف الناس كعوام المجوس واليهود والنصارى والبرابر ونحوهم من طوائف العجم الذين هم ألكن الناس لساناً وأجمدهم أذهاناً وأكثفهم طبعاً وشأناً، وسيلحقهم الله بهم في العلم والتزكية.

ولما كان عدم إلحاقهم بهم في الماضي ربما أوهم شيئاً في القدرة، وإلحاقهم بهم في المستقبل في غاية الدلالة على القدرة، قال: {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} الذي يقدر على كل شيء ولا يغلبه شيء فهو يزكي من يشاء ويعلمه ما أراد من أيّ طائفة كان، ولو كان أجمد أهل تلك الطائفة لأن الأشياء كلها بيده {الحكيم *} فهو إذا أراد شيئاً موافقاً لشرعه وأمره جعله

على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يسـتطاع نقضـه، ومهما أراده كيف كان فلا بد من إنفاذه فلا يطلق رده بوجه، ويكون المراد بالآخرين العجم، وأن الله تعالى سـيلحقهم بالعرب، قال ابن عمر رضـي الله عنهما وسـعيد بن جبير أيضـاً رضي الله عنه وهو رواية ليث عن مجاهد ويؤيده ما:

»روي عن أبي هريرة رضـي الله عنه أن رجلاً سـأل عنهم لما نزلت سـورة الجمعة فوضـع رسول الله صـلى الله عليه وسلم يده على سلمان رضـي الله عنه وقال:» لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء «».

ولما كان هذا أمراً باهراً، عظمه بقوله على وجه الاستثمار من قدرته: {ذلك} أي الأمر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كان العرب أتباعاً لا وزن لهم عند غيرهم من الطوائف {فضل الله} أي الذي له جميع صفات الكمال، والفضل ما لم يكن مستحقاً بخلاف الفرض {يؤتيه من يشـاء} بحوله وقوته بأن يهيئه له ولو كان أبعد الناس منه {والله} أي الملك الأعظم {ذو الفضل} ولما كانت «آل» دالة على الكمال دل على ذلك بقوله: {العظيم *} أي الذي يحقر دونه كل عطاء من غيره.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 6]

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)}

ولما أدب عباده المؤمنين في الممتحنة عما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتمه في الصف بما حذر من إزاغة القلوب لمن آذى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وأعلم أنه سبحانه جمع الآداب كلها في هذا الكتاب الذي أنزله على نبيهم الذي جعله خاتم الأنبياء وأشرف الأصفياء، ودل على فضله العظيم بتعليم الجاهل، دل على عقابه الأليم تتميماً للدلالة على باهر قدرته بتجهيل العالم بإزاغة قلبه وإذهاب لبه بيأسه من الآخرة لغضبه عليه تحذيراً من الوقوع بما يوجب الإضلال بعد العلم، فقال جواباً لمن كأنه قال: هذا فضله علىلجاهل فكيف فعله بالعالم؟ فقال تحذيراً من يزكي فلا يتزكى بأن يقول ما لا يعمل، ويحمل الكتاب فيحمله غير عالم به من أن يفعل به ما فعل باليهود من الذل في الدنيا والخزي والعذاب في الآخرة بإزاغة القلوب وإحاطة الذنوب فيكون أقبح مما قيل فيه.

من فاته العلم وأخطأ الغنى *** فذاك والكلب على حد سوا

{مثل الذين} ولما كان العلم ولا سيما الرباني يجب أن يفرح به ويرغب فيه من أيّ موصل كان، بني للمجهول قوله وصيانة لاسمه الشريف عن أن يذكر عن العصيان: {حملوا التوراة} أي كلفوا وألزموا حمل الكتاب الذي آتاه الله لبني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام بأن علمهم إياها سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحدودها وأحكامها عن الإهمال والتضييع.

ولما كان تركهم لحملها وهي من عند الله وعلى لسان رجل منهم هو أعظم في أنفسهم وأجلهم إحساناً إليهم في غاية البعد ولا سيما مع طول الزمان

المسهل لحفظها الميسر لتدبرها وتعرف مقدارها، عبر بأداة البعد فقال: {ثم لم يحملوها} بأن حفظوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام إذا جاءهم ثم محمد صلى الله عليه وسلم إذا جاء، فهي ضارة لهم بشهادتها عليهم قاذفة لهم في النار من غير نفع أصلاً {كمثل} أي مِثْل مَثَل {الحمار} الذي هو أبله الحيوان، فهو مثل في الغباوة، حال كونه {يحمل أسفاراً} أي كتباً من العلم كاشفة للأمور تنفع الألباء، جمع سفر، وهو الكتاب الكبير المسفر عما فيه.

ولما كان المثل الجامع لهما- وهو وجه الشبه- شخصاً مثقلاً متعباً جداً بشيء لا نفع له به أصلاً فهو ضرر عليه صرف لا يدرك ما هو حامله غير أنه متعب ولا يدري أصخر هو أم كتب، أنتج قوله معبراً بالأداة التي هي لجامع الذم ترهيباً للآدميين من أن يتهاونوا بشيء من أحكام القرآن فيكونوا أسوأ مثلاً من أهل الكتاب فيكونوا دون الحمار لأن رسولهم صلى الله عليه وسلم أعظم وكتابهم أعلى وأفخم فقال: {بئس مثل القوم} أي الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدونه فلم يؤتوا من عجز يعذرون به {الذين كذبوا} أي عمدوا على علم عناداً منهم وكفراً {بآيات الله} أي دلالات الملك الأعظم على رسله ولا سيما محمد صلى الله عليه وسلم وجميع ما يرضيه مثلهم فإن مثلهم قد تكفل بتعريف أنهم قد اجتمعوا مع الحمار في وصف هو الروح الباطني، وهو الضرر الصرف الذي لا نفع فيه بوجه بأنفع الأشياء، وهو ما دل على الله فضمن سعادة الدارين، وهذا المثل وإن كان نصاً في اليهود فهو لجميع قراء السوء من كل ملة لاشتراكهم معهم في وجه الشبه

كما أن مثل الكلب في الأعراف على هذا النحو، وكأنه لم يدخل سبحانه هذه الأمة في ذلك صريحاً إشارة إلى حفظها من غير أن يكلها إلى نفسها كما أنه آتاها العلم مع الأمية منها ومن رسولها من غير أن يكلهم إلى كتابة ولا تقدم علم ما ولا تكلف لشيء.

ولما كان التقدير: فاستحقوا الوصف بجميع المذام لأنهم ظلموا أشد الظلم، عطف عليه قوله: {والله} أي الذي له جميع صفات الكمال لا يهديهم– هكذا كان الأصل، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال: {لا يهدي القوم} أي لا يخلق الهداية في قلوب الأقوياء الذين تعمدوا الزيغ: {الظالمين *} أي الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذي هو البيان الذي لم يدع لبساً حتى صار الظلم لهم صفة راسخة.

ولما كان قولهم أنهم أولياء الله وأحباؤه في غاية البعد من هذا المثل، استأنف ما يدل على صحة المثل قطعاً، فقال معرضاً عنهم آمراً لمن كذبوه بتبكيتهم: {قل} أي يا أيها الرسول الذي هم قاطعون بأنه رسوله الله: {يا أيها الذين هادوا} أي تدينوا باليهودية. ولما كان الحق يصدع من له أدنى مسكة، فكانوا جديرين بالرجوع عن العناد، عبر بأداة الشك فقال: {إن زعمتم} أي قلتم قولاً هو معرض للتكذيب ولذلك أكدتموه {أنكم أولياء الله} أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه، خصكم بذلك خصوصية مبتدأة {من دون} أي أدنى رتبة من رتب {الناس} فلم تتعد الولاية تلك الرتبة الدنيا إلى أحد منكم غيركم، بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لا سيما الأميين {فتمنوا الموت} وأخبروا عن أنفسكم بذلك للقلة من دار البلاء إلى محل

الكرامة والآلاء {إن كنتم} أي كوناً راسخاً {صادقين *} أي عريقين عند أنفسكم في الصدق فإن من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب، ومن التطوع به أن من كان في كدر وكان له ولي قد وعده عند الوصول إليه الراحة التي لا يشوبها ضرر أنه يتمنى النقلة إلى وليه، روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم «والذي نفسي بيده لا يقولها منكم أحد إلا غص بريقه» فلم يقلها أحد منهم علماً منهم بمصدقه صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا ولم يؤمنوا عناداً منهم.

▲ تفسير الآيات رقم [7– 9]

{وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)}

ولما كان التقدير: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم امتثالاً لأمرنا ذلك، فلم يتمنوه في الوقت الحاضر، تصديقاً منا لنبوته وتعجيزاً وتحقيقاً لمعجزات رسالته، دل على هذا المقدر بما عطف عليه من قوله الدال قطعاً على صدقه بتصديقهم له بالكف عما أخبر أنهم لا يفعلونه: {ولا يتمنونه} أي في المستقبل، واكتفى بهذا في التعبير بلا لأن المذكور من دعواهم هنا أنهم أولياء لا كل الأولياء فهي دون دعوى الاختصاص بالآخرة، وأيضاً الولاية للتوسل إلى الجنة، ولا يلزم منها الاختصاص بالنعمة بدليل أن الدنيا ليست خالصة للأولياء المحقق لهم الولاية، بل البر والفاجر مشتركون فيها.

ولما أخبر بعدم تمنيهم، وسع لهم المجال تحقيقاً للمراد فقال: {أبداً} وعرف أن سببه معرفتهم بأنهم أعداء الله فقال: {بما قدمت} ولما كان أكثر الأفعال باليد، نسب الكل إليها لأنها صارت عبارة عن القدرة فقال: {أيديهم} أي من المعاصي التي أحاطت بهم فلم تدع لهم حظاً في الآخرة بعلمهم.

ولما كان التقدير تسبباً عن هذا: لئلا يقولوا: سلمنا جميع ما قيل في الظالمين لكنا لسنا منهم فاللّه عليم بهم في أفعالهم ونياتهم، عطف عليه قوله معلقاً بالوصف تعميماً وإعلاماً بأن وصف ما قدموا من الظلم {والله} أي الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلماً {عليم} أي بالغ العلم محيط بهم- هكذا كان الأصل، ولكنه قال: {بالظالمين *} تعميماً وتعليقاً بالوصف لا بالذات، فالمعنى أنه عالم بأصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم فهو يجازيهم على ظلمهم وهم يعلمون ذلك، وأعظم مصدق الله- ومن أصدق من الله قيلاً- في هذا أنهم ما قوتلوا قط إلا أرزوا إلى حصونهم وقراهم كما مر في سورة الحشر، فدل ذلك على أنهم أحرص على الحياة الدنيا من الذين أشركوا كما مر في سورة البقرة فإنهم عالمون بأنهم يصيرون إلى النار، والعرب يظنون أنهم لا يبعثون فهم لا يخافون ما بعد الموت وهم شجعان يقدمون على الموت كما قال عنترة بن شداد العبسي:

بكرت تخوفني المنون كأنني *** أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها أن المنية منهل *** لا بد أن أسقى بذاك المنهل

فافني حياك لا أبا لك واعلمي *** أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

ولما كان عدم تمنيهم علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لموافقته ما أخبر به، وكان ذلك فعل من يعتقد أن التمني يقدمه عن أجله وعدمه يؤخره، فصاروا بين التكذيب بما عندهم ونهاية البلادة، أمره صلى الله عليه وسلم بتنبيههم على بلادتهم تبكيتاً لهم فقال: {قل} وأكد إعلاماً لهم بأنه يلزم من فعلهم هذا إنكار الموت الذي لا ينكره أحد فقال: {إن الموت} وزاد في التقريع والتوبيخ بقوله: {الذي تفرون منه} أي بالكف عن التمني الذي هو أيسر ما يكون مع أنه يوصلكم إلى تكذيب من أنتم جاهدون في تكذيبه، وأكد وقوعه بهم لأن عملهم عمل من هو منكر له، وربطه بالفاء جعلاً لفرارهم كالسبب له، فإن الجبن من أسباب الموت مع ما يكسب من العار كما قال: «إن الجبان حتفه من فوقه» أي هو غالب عليه غلبة العالي على السافل فقال: {فإنه ملاقيكم} أي مدرككم في كل وجه سلكتموه بالظاهر أو الباطن.

ولما كان الحبس في البرزخ أمراً– مع أنه لا بد منه– مهولاً، نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخي فقال: {ثم تردون} ونبه بالبناء للمفعول على القهر منه سبحانه والصغار منهم وأنه عنده في غاية السهولة {إلى عالم الغيب} وهو كل ما غاب عن العباد فهو مخبر عن أخلاقكم عن علم. ولما كان بعض الفلاسفة يقر بعلمه تعالى بالكليات، وينكر علمه بالجزئيات قال: {والشهادة} وهي كل ما ظهر وتشخص ولو لواحد من الخلق قبل كونه وبعد كونه. ولما كان التوقيف على الأعمال فظيعاً مرجفاً، قال مسبباً عن الرد: {فينبئكم} أي يخبركم إخباراً عظيماً مستقصى مستوفى {بما كنتم} أي بما هو لكم كالجبلة

{تعملون *} أي بكل جزء منه مما برز إلى الخارج ومما كان في جبلاتكم ولو لقيتم لعلمتموه ليجازيكم عليه.

ولما قبح سبحانه المخالقة بين القول والفعل وصور صاحبها بصورة الحمار على الهيئة الســـــابقة، وحذر من ذلك بما هيأ به العاقل للإجابة إلى دوام الطاعة بعد أن بين أن جميع الكائنات مقرة بشمول ملكه بما لها من التسبيح بألســــنة الأحوال، والقيام في مراداته بغاية الامتثال، فكان العاقل جديراً بالمبادرة إلى غاية التســـبيح بلســـان المقال، وختم بالتحذير من الإخبار يوم الجمع الأعظم بجميع الأعمال، قال على طريق الاســتنتاج مما مضـــى من الترغيب والترهيب، نادباً لهم– ليكونوا أولياء الله– إلى التزكية المذكورة التي هي ثمرة الرسالة بما حاصله الإقبال بالكلية على الله والإعراض بالكلية عن الدنيا ليجمع المكلف بين التحلي بالمزايا والتخلي عن الدنايا، فخص من المزايا أعظم تسـبيح يفعله العاقل في أيام الأسـبوع وهو الإسـراع بالاجتماع العظيم في يوم الجمعة الذي يناظر الاجتماع لإجابة المنادي في يوم الجمع الأكبر، ثم الإقبال الأعظم بفعل صـــلاة الجمعة التي هي ســـر اليوم الذي ضيعه اليهود واستبدلوا به ما كان سبب تعذيبهم بعذاب لم يعذب به أحد من العالمين كما جعل نتيجة الســـورة الماضـــية النداء بالإرشـــاد إلى الإيمان والجهاد الموجب للأمان: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بألســـنتهم بالإيمان وألهبهم بأداة البعد– المشـــيرة إلى احتياجهم إلى التزكية– إلى المبادرة إلى الإقبال على ما يتعقب ذلك من الأوامر {إذا نودي} أي من أي مناد كان من

أهل النداء {للصــلاة} أي لأجل الحضــور إليها وإليه عند قعود الإمام على المنبر للخطبة.

ولما كانت الإجابة يكفي في إيجابها النداء في الوقت المعروف للنداء ولا يشترط لها استغراق النداء لجميع اليوم أتى بالجار فقال: {من يوم الجمعة} أي اليوم الذي عرض على من قبلنا فأبوه فكانوا كمثل الحمار يحمل أســفاراً وادخره الله لنا ووفقنا لقبوله، فكانوا لنا تبعاً مع تأخرنا عنهم في الزمان، سمي بذلك لوجوب الاجتماع فيه للصلاة، فعلة بالسكون ويضم اسم للمفعول كالضـــحكة للمضـــحوك منه، فإن فتح ميمه كان بمعنى الوقت الجامع كالضحكة للكثير الضحك، ومن جمعه أن فيه اجتمع خلق آدم عليه الصلاة والسلام فاجتمع بخلقه جميع الخلق، وهو مذكر بيوم البعث والجمع الذي يقع فيه الإنباء بالأعمال، وتظهر فيه ظهوراً بيناً تاماً الجلال والجمال {يوم يناد المناد من مكان قريب} [ق: 41] وفيه تقوم الســاعة، روى مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام وفيه أهبط وفيه مات وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيحة يوم الجمعة من حين تصــبح حتى تطلع الشــمس مشــفقاً من الســاعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه» وفي آخر الحديث أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: إنها آخر ســاعة يوم الجمعة، وأول الصــلاة بما هو أعم من فعلها وانتظارها لقول النبي صلى الله عليه وسلم «من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في

صلاة حتى يصليها» وكان النداء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم عند باب المسجد إذا صعد صلى الله عليه وسلم على المنبر، فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة، وكذا في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس وتباعدت المنازل وقلت الهمم زاد مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن ثانياً الأذان الذي كان على زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة، ولم يعب أحد على عثمان زيادة الأذان الأول لعلمهم أنه من السنة بما جعل إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي».

ولما كان المراد إيجاب المعنى جزماً من غير تردد مع قطع كل علاقة بلا التفات إلى شيء من غير ما عذر الشارع به، عبر عنه بالسعي، وهو معنى قول الحسن أنه السعي بالنية لا بالقدم، فقال: {فاسعوا} أي لتكونوا أولياء الله ولا تهاونوا في ذلك لتكونوا أعداءه كاليهود {إلى ذكر الله} أي الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الأعظم الذي من انقطع عن خدمته هلك، هذا المراد بالسعي لا حقيقة بل هي منهي عنها كما قال صلى ا لله عليه وسلم: »إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا».

ولما أمر بالمبادرة إلى تجارة الآخرة، وكان طلب الأرباح لكونها حاضرة أعظم مانع عن أمور الآخرة لكونها غايته، وكان البيع أجل ذلك لتعين الفائدة فيه ولكونه أكثر ما يشتغل به أهل الأسواق لكثرة الوافدين إلى

الأمصـــار يوم الجمعة من الحواضـــر واجتماعهم للتجارة عند تعالي النهار، قال ناهياً عن تجارة الدنيا وكل ما يعوق عن الجمعة معبراً به عنها لأنه أعظمها: {وذروا البيع} أي اتركوه ولو على أقبح حالاته وأذلها وأحقرها، فأفاد النهي عن غيره من باب الأولى، ووقت التحريم من الزوال إلى فراغ الصلاة، فإن خالف وباع صـح العقد مع عصـيانه، فإن النهي ليس لعينه ولا لما هو داخل فيه ولا لما هو خارج ولازم له بل لأمر مقارن بطريق الاتفاق، وهو ما هو فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصــلاة في الدار المغصـوبة والثوب المغصوب والوضوء بالماء المغصوب.

ولما أمر بما هو شـــاق على النفوس معبراً بالفعل المريض لفظاً ومعنى، رغب فيه بقوله: {ذلكم} أي الأمر العالي الرتبة من فعل الســعي وترك الاشــتغال بالدنيا {خير لكم} لأن الذي أمركم به له الأمر كله وهو يريد تطهيركم في أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده إسـعادكم وإشـقاؤكم، وألهب إلى ذلك وزاد في الحث عليه بقوله: {إن كنتم} أي بما هو لكم كالجبلة {تعلمون *} أي يتجدد لكم علم في يوم من الأيام فأنتم ترون ذلك خيراً، فإذا علمتموه خيراً أقبلتم عليه فكان ذلك لكم خيراً، وصــلاة الجمعة فرض عين على كل من جمع البلوغ والعقل والحرية والذكورة والإقامة إذا لم يكن له عذر مما ذكره الفقهاء، وإنما عبر عنها بهذا إشارة إلى أن عاقلاً لا يسعه أن يترك ما يعلم أنه أعلى وجوه الخير، وكل من لا يجب عليه حضـــور الجمعة فإذا حضـــر وصـــلى مع الإمام ســقط عنه فرض من الظهر ولا يكمل به عدد الجمعة إلا صاحب العذر، فإنه إذا حضر يكمل به العدد.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 11]

{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)}

ولما حث على الصلاة وأرشد إلى أن وقتها لا يصلح لطلب شيء غيرها، وأنه متى طلب فيه شيء من الدنيا محقت بركته مع ما اكتسب من الإثم، بين وقت المعاش فقال مبيحاً لهم ما كان حظر عليهم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد: {فإذا قضيت الصلاة} أي وقع الفراغ منها على أي وجه كان {فانتشروا} أي فدبوا وتفرقوا مجتهدين في الأرض في ذلك {في الأرض} جميعها إن شئتم، لا حجر عليكم ولا حرج رخصة من الله لكم {وابتغوا} أي وتعمدوا وكلفوا أنفسكم مجتهدين بالسعي في طلب المعاش {من فضل الله} أي زفلة الملك الأعلى الذي له كل كمال ولا يجب لأحد عليه شيء بالبيع والشراء وغيرهما من مصالح الدين والدنيا التي كنتم نهيتم عنها.

ولما كان السعي في طلب الرزق ملهياً عن الذكر، بين أنه أعظم السعي في المعاش وأن من غفل عنه لم ينجح له مقصد وإن تحايل له بكل الحيل وغير ذلك فقال: {واذكروا الله} أي الذي بيده كل شيء ولا شيء لغيره فإنه لا رخصة في ترك ذكره أصلاً. ولما كان العبد مطلوباً بالعبادة في كل حال فإنه مجبول على النسيان. فمهما فتر عن نفسه استولت عليها الغفلة فمرنت على البطالة فهلكت قال: {كثيراً} أي بحيث لا تغفلوا عنه بقلوبكم أصلاً ولا

بألســـــنتكم حتى عند الدخول إلى الخلاء وعند أول الجماع وعند الإنزال، واستثنى من اللساني وقت التلبس بالقذر كالكون في قضاء الحاجة.
ولما كان مراد الإنســـان من جميع تصـــرفاته الفوز بمراداته قال معللاً لهذا الأمر : {لعلكم تفلحون *} أي لتكونوا عند الناظر لكم والمطلع عليكم من أمثالكم ممن يجهل العواقب على رجاء من أن تظفروا بجميع مطلوباتكم، فإن الأمور كلها بيد من تكثرون ذكره، وهو عالم بمن يستحق الفلاح فيسعفه به وبمن عمل رياء ونحوه فيخيبه، فإذا امتثلتم أمره كان جديراً بتنويلكم ما تريدون، وإن نسيتموه كنتم جديرين بأن يكلكم إلى أنفسكم فتهلكوا.
ولما كان التقدير مما ينطق به نص الخطاب: هذه أوامرنا الشريفة وتقديساتنا العظيمة وتفضلاتنا الكريمة العميمة، فما لهم إذا نودي لها توانى بعضهم في الإقبال إليها، وكان قلبه متوجهاً نحو البيع ونحوه من الأمور الدنيوية عاكفاً عليها ســـاعياً بجهده إليها فخالف قوله أنه أســـلم لرب العالمين فعله هذا، عطف عليه قوله: {وإذا رأوا} أي بعد الوصـــول إلى موطنها المريح ومحلها الفســيح الشــرح المليح، والاشــتغال بشــأنها العالي {تجارة} أي حمولاً هي موضـع للتجارة. ولما ذكر ما من شـأنه إقامة المعاش أتبعه ما هو أنزل منه وهو ما أقل شـــؤونه البطالة التي لا يجنح إليها ذو قدر ولا يلقي لها باله فقال: {أو لهواً} أي ما يلهي عن كل نافع.
ولما كان مطلق الانفضــاض قبيحاً لأنه لا يكون إلا تقرباً على حال سـيئ، من الفض وهو الكســـر بالتفرقة، والفضـــــاض ما تفرق من الفم والطلع :

كسرهما، فكيف إذا كانت علته قبيحة، قال تعالى معبراً به: {انفضوا} أي نفروا متفرقين من العجلة.

ولما كان سبب نزول الآية أنه كان أصاب الناس جوع وجهد، فقد دحية الكلبي رحمه الله تعالى بعير تحمل الميرة، وكان في عرفهم أن يدخلوا في مثل ذلك بالطبل والمعازف والصياح، وكان قصد بعض المنفضين العير، وبعضهم ما قارنها من اللهو، ولكن قاصد التجارة هو الكثر، أنث الضمير فقال معلماً بالاهتمام بها لأن اللهو مسبب عنها: {إليها} وللدلالة على أنه إذا ذم قاصدها مع ما فيها من النفع والإنسان لا بد له من إصلاح معاشه لقيام حاله ولا سيما والحاجة إذ ذاك شديدة، كان الذم لقصد اللهو نم باب الأولى.

ولما كان ذلك حال الخطبة التي هي جديرة بشدة الإصغاء إليها والاتعاظ بها في صرف النفس عن الدنيا والإقبال على الآخرة قال: {وتركوك} أي تخطب حتى بقيت في اثني عشر رجلاً، قال جابر رضي الله عنه: أنا أحدهم، ودل على مشروعية القيام بقوله: {قائماً} فالواجب خطبتان: قائماً يفصل بينهما بجلوس، والواجب فيهما أن يحمد الله تعالى ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويوصي بتقوى الله تعالى، هذه الثلاثة واجبة في الخطبتين معاً، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن وفي الثانية أن يدعو للمؤمنين، فلو ترك واحدة من هذه الخمس لم تصح الخطبة عند الشافعي رضي الله عنه، ولجواز الجمعة خمس شرائط: الوقت وهو وقت الظهر، والعدد وهو الأربعون، والإمام والخطبة ودار الإقامة، فإن فقد شرط وجبت

الظهر، ولا تبتدأ الخطبة إلا بعد تمام، وبقاء هذا العدد شـــرط إلى آخر الصلاة، فإن انفض بعضهم ثم عاد ولم يفته شيء من الأركان صحت.

ولما كان هذا فعل من سـفلت همته عن سـماع كلام الحق من الحق، أمره صلى الله عليه وسلم بوعظهم إلهاباً لهم إلى الرجوع إلى تأهلهم للخطاب ولو بالعتاب قال: {قل} أي لهم ترغيباً في الرجوع إلى ما كانوا عليه من طلب الخير من معدنه: {ما عند الله} أي المحيط بجميع صـــفات الكمال من الأعراض العاجلة في الدنيا من واردات القلوب وبوادر الحقيقة، الحاصل من سـماع الخطبة الآمر بكل خير، الناهي عن كل شـر، المفيد لتزكية الباطن وتقويم الظاهر والبركة في جميع الأحوال والآجلة في الآخرة مما لا يدخل تحت الوصـــف {خير} ولما قدم التجارة أولاً اهتماماً بها، قدم هنا ما كانت سـبباً له ليصـير كل منهما مقصـوداً بالنهي فقال: {من اللهو} ولما بدأ به لإقبال الإغلب في حال الرفاهية عليه قال معيداً الجار للتأكيد: {ومن التجارة} أي وإن عظمت.

ولما كان من عنده الشيء قد لا يعطيه بسهولة وإذا أعطاه لا يعطيه إلا من يحبه قال: {والله} أي ذو الجلال والإكرام وحده {خير الرازقين *} لأنه يرزق متاع الدنيا لسـفوله ولكونه زاداً إلى الآخرة البر والفاجر والمطيع والعاصـي، ويعطي من يريد ما لا يحصـيه العد ولا يحصـره الحد، وأما المعارف الإلهية والأعمال الدينية الدال عليها رونق الصـــدق وصـــفاء الإخلاص وجلالة المتابعة فلا يؤتيها إلا الأبرار وإن كانوا أضـعف الناس وأبعدهم من ذلك ولا يفوت أحداً، أقبل على ما شـــرعه شـــيئاً كان ينفعه فلا تظنوا أن الغنى في

البيع والتجارة إنما هو في متابعة أمر من أحل البيع وأمر به وشـــرع ما هو خير منه تزكية وبركة ونماء في الظاهر والباطن، روى صـــــاحب الفردوس عن أنس بن مالك رضـي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال يوم الجمعة» اللهم أغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصــيتك وبفضـلك عمن سـواك سـبعين مرة لم تمر به جمعتان حتى يغنيه الله تعالى «وأصـل الحديث أخرجه أحمد والترمذي- وقال حسـن- عن علي رضـي الله عنه، وفي الباب عن ابن عباس رضـــــي الله عنهما، فأقبلوا على متابعة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم وألزموا هدية واسـتمسـكوا بغرزه تنالوا خيري الدارين بسـهولة، فقد رجع آخر السورة كما ترى على أولها بما هو من شأن الملك من الرزق وإنالة الأرباح والفوائد ولا سـيما إذا كان قدوساً وتبكيت من أعرض عن خطبة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم اللازم منه اسـتمرار الإقبال عليه ودوام الإقامة بين يديه، لأنه لا يدعوهم إلا لما يحييهم من الصـلاة والوعظ الذي هو عين تنزيه الله وتسبيحه {يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة} [آل عمران: 164] يزكيهم ربهم ويرزقهم من فضـــله إنه كريم وهاب- والله أعلم بالصواب.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة المنافقون

63

تفسير الآيات رقم [1- 2]

{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2)}

لما نهى سبحانه في الممتحنة عن اتخاذ عدوه ولياً، وذم في الصف على المخالفة بين القول والفعل، وحذر آخر الجمعة من الإعراض عن حال من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم على حال من الأحوال ولو مع الوفاق، لأن صورة ذلك كله صورة النفاق، قبح في أول هذه حال من أقبل عليه على حال النفاق، لأنه يكون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، واستمرت السورة كلها في ذمهم بأقبح الذم ليكون زاجراً عن كل ما ظاهره نفاق، فقال تعالى: {إذا جاءك} أي يا أيها الرسول المبشر به في التوراة والإنجيل {المنافقون} أي العريقون في وصف النفاق وهو إسلام الظاهر وكفر الباطن، وأغلبهم من اليهود {قالوا} مؤكدين لأجل استشعارهم لتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب: {نشهد} قال الحسن: هو بمنزلة يمين كأنهم قالوا: نقسم

{إنك}– التأكيد لذلك وإيهاماً لأن قوة تأكيدهم لشـدة رغبتهم في مضـمون ما يقولونه {لرســـول الله} أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة، فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم.

ولما كانت الشــــهادة الإخبار عن علم اليقين لأنها من الشـــهود وهو كمال الحضـور وتمام الاطلاع ومواطأة القلوب للألسنة، صـدق سبحانه المشـهود به وكذبهم في الإقسـام بالشـهادة ومواطأة ألسـنتهم لقلوبهم فقال: {والله يعلم} أي وعلمه هو العلم في الحقيقة، وأكده سبحانه بحسب إنكار المنافقين فقال: {إنك لرسوله} سواء شـهد المنافقون بذلك أم لم يشـهدوا، فالشـهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه، وتوسط هذا بين شهادتهم وتكذيبهم لئلا يتوهم أن ما تضمنته شهادتهم من الرسالة كذب.

ولمـا كـان ربمـا ظن أن هـذا تـأكيـد لكلام المنـافقين، دل على أنـه تحقيق لمضــمون كلامهم دون شـــهادتهم فقال: {والله} أي المحيط بجميع صــفات الكمال {يشهد} شهادة هي الشهادة لأنها محيطة بدقائق الظاهر والباطن {أن المنافقين} أي الراسخين في وصف النفاق {لكاذبون *} أي في إخبارهم عن أنفســهم أنهم يشــهدون لأن قلوبهم لا تطابق ألســنتهم فهم لا يعتقدون ذلك، ومن شـرط قول الحق أن يتصـل ظاهره باطنه وسـره بعلانيته، ومتى تخالف ذلك فهو كذب، لا المراد أنهم كاذبون في صـحة ما تضـمنته شــهادتهم من أنك رسول الله والحاصل أن الشهادة تتضمن شيئين: صدق مضمون الخبر والإذعان له، فصــدقهم في الأول وكذبهم في الثاني فصــاروا بنفاقهم أسـفل حالاً وشر مآلاً من اليهود.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أعقب حال المؤمنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث إلى صدر سورة الجمعة إلى قوله: {والله ذو الفضل العظيم} [الجمعة: 4] بذكر حال من لم ينتفع بما حمل حسبما تقدم، وكان في ذلك من المواعظ والتنبيه ما ينتفع به من سبقت له السعادة، أتبع بما هو أوقع في الغرض وأبلغ في المقصود، وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليهم ومن أقرانهم وأترابهم وأقاربهم، تلبست في الظاهر بالإيمان، وأظهرت الانقياد والإذعان، وتعرضت فأعرضت وتتصلت فيما وصلت، بل عاقتها الأقدار، فعميت البصائر والأبصار، ومن المطرد المعلوم أن اتعاظ الإنسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بعد عنه زماناً ونسباً، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظاً للمؤمنين بحال أهل النفاق، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكان قيل لهم: ليس من أظهر الانقياد والاستجابة، ثم بني إسرائيل ثم كان فيما حمل كمثل الحمار يحمل أسفاراً بأعجب من حال إخوانكم زماناً وقرابة، وأنتم أعرف الناس بهم وأنهم قد كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرأي وحسن النظر

{وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم} [المنافقين: 4] {ولكن المنافقين لا يفقهون} [المنافقين: 7] قلت: وقد مر في الخطبة ما رويناه في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المؤمنين: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين فيبشر بها المؤمنين

ويحرضـهم، وأما سـورة المنافقين فيوئس بها المنافقين ويوبخهم، وهذا نحو ما ذكرناه أولاً– انتهى.

ولما كان المعنى أنهم لم يعتقدوا ما شـهدوا به، وكان كأنه قيل: فما الحامل لهم على هذا الكلام المؤكد والكذب في غاية القباحة لا سـيما عند العرب، علله بقوله مسمياً شـهادتهم إيماناً لأن الشـهادة تجري مجرى القسم في إرادة التوكيد، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسـم: {اتخذوا} أي أخذو بجهدهم {أيمانهم} أي كلها من شـهادتهم هذه المجتهد في توكيدها وكل يمين سـواها {جنة} أي وقاية تقيهم المكاره الدنيوية ويسـتترون بها منها فيصـونون بها دماءهم وأموالهم، فاسـتضـاؤوا بنور الإجابة فلم ينبسـط عليهم شـعاع نور السعادة فانطفأ نورهم بقهر الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الخذلان {فصدوا} أي فسبب لهم اتخاذهم هذا أن أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة الصـدور، وحملوا غيرهم على الإعراض لما يرى من سـيئ أحوالهم بتلك الظواهر مع بقائهم على ما كانوا ألفوه من الكفر الذي يزينه الشيطان {عن سبيل الله} أي عن طريق الملك الأعظم الذي شرعه لعباده ليصلوا به إلى محل رضـوانه، ووصـلوا إلى ذلك بخداعهم ومكرهم بجرأتهم على الإيمان الحانثة التي يمشـون حالهم بها لما شـرعه الله في هذه الحنيفية السمحة من القناعة من الحالف بيمينه فيما لا يعلم إلا من قبله.

ولما كان ما أخبر به من حالهم في غاية القباحة، أنتج قوله: {إنهم} وأكده لأن حالهم بعجبهم وعجب كثيراً ممن قاربهم {ساء ما كانوا} أي جبلة وطبعاً

{يعملون *} أي يجددون عمله مســـتمرين عليه بما هو كالجبلة من جرأتهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلص عباده بالأيمان الحانثة.

▲ تفسير الآيات رقم [3- 6]

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)}

ولما كانت المعاصـــي تعمي القلب فكيف بأعظمها، علله بقوله: {ذلك} أي الأمر العظيم في البعد من الخير من الكذب بالإخبار بالشهادة والحلف على الصدق والصد عن السبيل والوصف لعملهم بالسوء {بأنهم آمنوا} أي بسبب أنهم أقروا بالإيمان بألســـنتهم من غير مطابقة لقلوبهم . ولما كان الكفر مســـتبعداً فكيف إذا كان بعد الإقرار، عبر بأداة البعد لذلك ولتفهم الذم على التعقيب من باب الأولى، ولئلا يتوهم أن الذم إنما هو على تعقيب الإيمان بالكفر فقط، لا على مطلقه، فالتعبير بثم يفهم أن من اســـتمر طول عمره على الإيمان ثم كفر قبل موته بلحظة كان له هذا الذم فقال: {ثم كفروا} أي سراً فهابوا الناس ولم يهابوا الله. ولما كان مجرد الطبع على القلب في غاية البشـــاعة، كان مفهماً لبشـــاعة ما كان منه من الله من باب الأولى، بني للمجهول قوله: {فطبع} أي فحصـــل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا

يقدر على ذلك غيره سبحانه {على قلوبهم} لأجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق حتى مرنوا على الكفر واســتحكموا فيه، وكذلك من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها {فهم} أي فتســبب عن ذلك أنهم {لا يفقهون *} أي لا يقع لهم فقه في شـيء من الأشـياء فهم لا يميزون صـواباً من خطأ ولا حقاً من باطل لأن المختوم عليه لا يصـل إليه شـيء ولا يخرج منه شيء.

ولما وصــف ســبحانه بواطنهم بما زهد فيهم لأن الإنســان بعقله كما أن المأكول بشــكله، وكانت لهم أشــكال تغر ناظرها لأن العرب كانت تقول: جمال المنظر يدل غالباً على حســن المخبر، قال تعالى: {وإذا رأيتهم} أي أيها الرســول على ما لك من الفطنة ونفوذ الفراســة أو أيها الرائي كائناً من كان بعين البصـر {تعجبك أجسـامهم} لضـخامتها وصـباحتها، فإن غايتهم كلها بصـلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، قال ابن عباس رضـــي الله عنهما: كان ابن أبي– يعني– الذي نزلت السورة بسببه– جسيماً فصيحاً صحيحاً ذلق اللسان، وقوم من المنافقين في مثل صــفته وهم رؤســاء المدينة، وكانوا يحضــرون مجلس رســول الله صـلى الله عليه وسلم ويستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصـاحة الألسن، وكان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ومن حضـر يعجبون بهياكلهم. ولما وصف البواطن والظواهر، وكان قولهم: المرء بأصغريه قلبه ولسانه مشروطاً كما هو ظاهر العبارة بمطابقة اللسان للقلب، قال معبراً بأداة الشك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه صـلى الله عليه وسـلم إلا اضـطراراً لأنهم لا يحبون مكالمته

ولا باعث لهم عليها لما عندهم من أمراض القلوب : {وإن يقولوا } أي يوجد منهم قول في وقت من الأوقات {تسـمع لقولهم} أي لأنه يكون بحيث يلذذ السـمع ويروق الفكر لما فيه من الادهان مع الفصـاحة فهو يأخذ بمجامع القلب.

ولما أخبر عن ظاهرهم، دل على أن ذلك الظاهر أمر لا حقيقة له، وأنهم لما وطنوا أنفسـهم على الوقاحة وخلعوا لباس الحياء بالكذب بذلوا جميع الجهد في تحسين القول لأنه لا درك عليهم فيه فيما يحسبون بوجه لأنهم لا يحسبون للآخرة حساباً فقال: {كأنهم} أي في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفي الجبن والخور وعدم الانتفاع بهم في شـيء من فهم أو ثبات فإنهم لا حقيقة لهم {خشـب} جمع كثرة لخشـبة وهو دليل على كثرتهم. ولما كان الخشـب ربما أطلق على المغروس، نفى ذلك بقوله منبهاً بالتشـديد على الكثرة: {مسندة} أي قد قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر لئلا يفسـدها التراب، فهي بيض تلوح تعجب ناظرها ولا ثبات لها ولا باطن بثمرة ولا سقي فلا مدد سماوي لها أصـلاً يزكيها نوع زكاء فقد فقدت روح الإثبات الذي به كمالها كما فقد المنافق روح الإيمان الذي به كمال الناطق وبقاؤه، فهم في تلك الحالة أشباح بلا أرواح أجسام بلا أحلام.

ولما كان من يقول ما لا يفعل يصير متهماً لكل من يكلمه، لأنه لإخلافه له قد صـار عدوه فيتوهم الناس كلهم أعداء له فيكسبه ذلك أشد الجبن، وذلك هو السبب الأعظم في تحسين قوله، قال: {يحسبون} أي لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم {كل صيحة} أي من نداء

مناد في انفلات دابة أو إنشـاد ضـالة، ونحو ذلك {عليهم} أي واقعة. ولما كان من يظن عداوة الناس له يكون هو عدواً لهم، قال نتيجة ما مضـى: {هم} أي خاصة {العدو} أي كامل العداوة بما دل عليه الإخبار بالمفرد الذي يقع على الجمع دون الجمع إشـارة إلى أنهم- في شـدة عداوتهم للاسـلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه- على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام والتقرب به إلى أهل الإسـلام، فإن ألسـنتهم معكم إذا لقوكم، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهو عيون لهم عليكم.

ولما بين ذلك من سـوء أحوالهم سـبب عنه قوله: {فاحذرهم} لأن أعدى الأعداء العدو المداحي الذي يكاشـرك وتحت ظلوعه الداء الدوي، فإن من استشـعر أنك عدو له بغى لك الغوائل، وأغلب من يعجبك قوله على هذا الوصف يكون، ولكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوساً في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسـر قوله تعالى: {قاتلهم الله} أي أحلهم الملك المحيط علماً وقدرة محل من يقاتله عدو قاهر له أشـد مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين.

ولما كان حالهم في غاية العجب في صـرفهم عن الإسـلام أولاً بالعمى عن الآيات الظاهرات، وثانياً عن الإخبار بأسرارهم، وخفي مكرهم وأخبارهم، وفي عدم صـرفهم عما هم عليه من قبح السـرائر وسـوء الضـمائر بتعكيس مقاصـدهم، وتخييب مصـادرهم في مكرهم ومواردهم، دل على ذلك بقوله: {أنّى} أي كيف ومن أيّ وجه {يؤفكون *} أي يصـرفهم عن إدراك قبح ما

هم عليه صــارف ما كائناً ما كان ليرجعوا عنه إلى حســن الدين والأنس به وإدراك بركته وعظيم أثره.

ولما كان هذا أمراً عظيماً قاطعاً عن الله ورسوله فيحتاج فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا ســـؤال النبي صــلى الله عليه وســلم وكانوا لم يفعلوا ذلك، دل على ســوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشــب المســندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصــلاً بقوله: {وإذا قيل لهم} أي من أيّ قائل كان: {تعالوا} أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشـــرف الخلق الذي لا يزال مكانه عالياً لعلو مكانته {يستغفر لكم} أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصــرون عليه. ولما تقدم عاملان، أعمل الثاني منهما كما هو المختار من مذهب البصــريين فرفع قوله: {رســول الله} أي أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لجوده {لووا رؤوسهم} أي فعلوا اللي بغاية الشـــدة والكثرة، وهو الصـــرف إلى جهة أخرى إعراضـــاً وعتواً وإظهاراً للبغض والنفرة، وبالغوا فيه مبالغة تدل على أنهم مغلوبون عليه لشدة ما في بواطنهم من المرض {ورأيتهم} أي بعين البصيرة {يصدون} أي يعرضـــون إعراضـــاً قبيحاً عما دعوا إليه مجددين لذلك كلما دعوا إليه، والجملة في موضـــع المفعول الثاني لرأيت {وهم مســـتكبرون *} أي ثابتو الكبر عما دعوا إليه وعن إحلال أنفســـهم في محل الاعتذار، فهم لشـــدة غلظتهم لا يدركون قبح ما هم عليه ولا يهتدون إلى دوائه، وإذا أرشـــدهم غيرهم ونبههم لا ينبهون، فقد روي أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشـــائرهم

من المؤمنين وقالوا: ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتولوا إليه واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك فأنزل الله هذه الآية، وروي أن ابن أبي رأسهم لوى رأسه وقال لهم: أشرتم علي بالإيمان فآمنت وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم، فكان استغفاره بحيث يسأل عنه، قال منبهاً على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون. {سواء} أي غلب واستعلى هذا الاستواء الذي عالجوا أنفسهم عليه حتى تخلقوا به فصار مجرداً عن أدنى ميل وكلفة {عليهم}.

ولما كان قد سلخ في هذا السياق عن الهمزة معنى الاستفهام كان معنى {استغفرت لهم} أي في هذا الوقت {أم لم تستغفر لهم} أي فيه أو فيما بعده- مستو عندهم استغفارك لهم وتركه، لأنه لا أثر له عندهم، ولهذا كانت نتيجته- عقوبة لهم- النفي المبالغ فيه بقوله: {لن يغفر الله} أي الملك الأعظم {لهم} ولعل التعبير بالاستفهام بعد سلخ معناه للاشارة إلى أنهم لو شاهدوا الملك يستفهمك عن ذلك ما ردهم عن نفاقهم وما زادهم ذلك على ما عندهم شيئاً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قيد هذه الآية بآية براءة المحتملة للتخيير وأنه إن زاد على السبعين كان الغفران مرجواً، فاستجاز بذلك الصلاة على ابن أبي رأس المنافقين والاستغفار له لما عنده صلى الله عليه وسلم من عظيم الشفقة على عباد الله ومزيد الرحمة لهم ولا سيما من كان في عداد أصحابه والأنصار رضي الله عنهم به عناية.

ولما كان التقدير لتعليل المبالغة في الإخبار بعد الغفران لهم: لأن فسقهم قد استحكم فصار وصفاً لهم ثابتاً، عبر عن ذلك بقوله: {إن الله} أي الذي له صفات الكمال {لا يهدي القوم} أي الناس الذي لهم قوة في أنفسهم على ما يريدونه {الفاسقين *} لأنهم لا عذر لهم في الإصرار على الفسق وهو المروق من حصن الإسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والتمرن عليه حتى استحكم فهم راسخون في النفاق والخروج عن مظنة الإصلاح.

▲ تفسير الآيات رقم [7- 8]

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)}

ولما كان هذا داعياً إلى السؤال عن الأمر الذي فسقوا به، قال مبيناً له: {هم} أي خاصة بواطنهم {الذين يقولون} أي أوجدوا هذا القول ولا يزالون يجددونه لأنهم كانوا مربوطين بالأسباب محجوبين عن شهود التقدير غير محققين بتصريف الأحكام، فأنطقهم ما خامر قلوبهم من تمني إطفاء نور الله فتواصوا فيما بينهم بقولهم: {لا تنفقوا} أيها المخلصون في النصرة {على من} أي الذين {عند رسول الله} أي الملك المحيط بكل شيء، وهم فقراء المهاجرين، وكأنهم عبروا بذلك وهم لا يعتقدونه تهكماً وإشارة إلى أنه لو كان رسوله وهو الغنى المطلق لأغنى أصحابه ولم يحوجهم إلى أن ينفق الناس عليهم، وما درى الأغبياء أن ذلك امتحان منه سبحانه لعباده-

فسبحان من يضل من يشاء- حتى يكون كلامه أبعد شيء عن الصواب بحيث يعجب العاقل كيف يصدر ذلك من أحد، أو أن هذه ليست عبارتهم وهو الظاهر، وعبر سبحانه عنهم بذلك إشارة إلى أن كلامهم يؤول إلى إرادة ضر من الله معه توقيفاً على كفرهم وتنبيهاً على أن من أرسل رسولاً لا يكله إلى أحد بل يكفيه جميع ما يهمه من غير افتقار إلى شيء أصلاً، فقد أرسل سبحانه إليه صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الأرض فأباها وما كفاهم هذا الجنون حتى زادوه ما دل على أنهم ظنوا أن أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم، وعبروا بحرف غاية ليكون لما بعده حكم ما قبله فقالوا: {حتى ينفضوا} أي يتفرقوا تفرقاً قبيحاً فيه كسر فيذهب أحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك، قال الحرالي: «حتى» كلمة تفهم غاية محوطة يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها مقابل معنى «إلى»، وقال أهل العربية: لا يجر بها إلى آخر أو متصل بالآخر نحو الفجر في {حتى مطلع الفجر} [القدر: 5] وحتى آخر الليل، ولا تقولوا: حتى نصف الليل، وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله غيرهم للانفاق، أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم فدعا في الشيء اليسير فصار كثيراً، أو كان بحيث لا ينفد، أو أعطى كلاًّ يسيراً من طعام على كيفية لا تنفد معها كتمر أبي هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن رضي الله عنهم وغير ذلك كما روي ذلك غير مرة، ولكن ليس لمن يضل الله من هاد، ولذلك عبر في الرد عليهم بقوله: {ولله} أي قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال أن للملك الذي لا أمر لأحد معه فهو الآمر الناهي {خزائن السماوات} أي كلها {والأرض}

كذلك من الأشـياء المعدومة الداخلة تحت مقدرة «إنما أمره إذا أراد شـيئاً أن يقول له كن فيكون» ومن الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ما يشـاء حتى من أيديهم، لا يقدر أحد على منع شـيء من ذلك لا مما في يده ولا مما في يد غيره، ونبه على سـوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سـفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضـــهم: إن كان محمد صـــادقاً فنحن شـــر من البهائم، أشـــار إلى ذلك بقوله: {ولكن المنافقين} أي العريقين في وصـــف النفاق.

ولما كان ما يســـاق إلى الخلق من الأرزاق فيظن كثير منهم أنهم حصـــلوه بقوتهم، عبر بالفقه الأخص من العلم فقال: {لا يفقهون *} أي لا يتجدد لهم فهم أصـــــلاً لأن البهائم إذا رأت شـــيئاً ينفعها يوماً ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله من خوارق البركات على يد رسـول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ذلك، فمن رأى أن رزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضـــيع حقوقه وداهن في دينه فقد برئ من القرآن، ودل على عدم فقههم بقوله تعالى: {يقولون} أي يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين له لاســتشــعارهم بأن أكثر قومه ينكره: {لئن رجعنا} أي نحن أيتها العصـابة المنافقة من غزاتنا هذه- التي قد رأوا فيها من نصـرة النبي صـلى الله عليه وسـلم ما يعجز الوصـف وهي غزوة بني المصـطلق حي من هذيل بالمريسـيع وهو ماء من مياههم من ناحية قديد إلى السـاحل وفيها تكلم ابن أبي بالإفك وأشاعه- {إلى المدينة} ودلوا على تصميمهم على عدم المساكنة بقولهم: {ليخرجن الأعز} يعنون أنفسـهم {منها الأذل} وهم كاذبون في هذا،

لكنهم تصوروا لشدة غباوتهم أن العزة لهم وأنهم يقدرون على إخراج المؤمنين {ولله} أي والحال أن كل من له نوع بصـــيرة يعلم أن للملك الأعلى الذي له وحده عز الإلهية {العزة} كلها، فهو قهار لمن دونه وكل ما عداه دونه.

ولما حصر العزة بما دل على ذلك من تقديم المعمول، أخبر أنه يعطي منها من أراد وأحقهم بذلك من أطاعه فترجم ذلك بقوله: {ولرسوله} لأن عزته من عزته بعز النبوة والرسـالة وإظهار الله دينه على الدين كله، وكذلك أيضـاً أن العزة لمن أطاع الرسـول بقوله: {وللمؤمنين} أي الذين صـار الإيمان لهم وصـفاً راسخاً لأن عزتهم بعزة الولاية، ونصـر الله إياهم عزة لرسـولهم صـلى الله عليه وسلم، ومن تعزز بالله لم يلحقه ذل.

ولما كان جهلهم في هذا أشـد لكثرة ما رأوا من نصـرة الله لرسـوله صـلى الله عليه وسـلم ومن تابعه رضـي الله عنهم وإعلائهم على كل من ناواهم، قال منبهاً على ذلك: {ولكن المنافقين} أي الذي استحكم فيهم مرض القلوب.

ولمـا كـانـت الـدلائـل على عزة الله لا تخفى على أحد لمـا تحقق من قهره للملوك وغيرهم بـالموت الذي لم يقدر أحد على الخلاص منـه ولا المنـازعـة فيه، ومن المنع من أكثر المرادات، ومن نصـــر الرســـول وأتباعهم بإهلاك أعدائهم بأنواع الهلاك، وبأنه سـبحانه ما قال شـيئاً إلا تم ولا قالت الرسـل شيئاً إلا صدقهم فيه، ختم الآية بالعلم الأعم من الفقه فقال: {لا يعلمون *} أي لا لأحد لهم علم الآن، ولا يتجدد في حين من الأحيان، فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف، وروي أنه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبي ابن سلول الذي نزلت بسببه إلى أبيه، وذلك في غزوة المريسيع لبني

المصطلق فأخذ بزمام ناقة أبيه وقال: أنت والله الذليل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز، ولما دنوا من المدينة الشريف جر سيفه وأتى أباه فأخذ بزمام ناقته. وزجرها إلى ورائها وقال: إياك وراءك والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولئن لم تقر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنت الأذل لأضربن عنقك، قال: أفاعل أنت؟ قال: نعم، قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وشكا ولده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يدعه يدخل المدينة، فأطلق فدخل.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 11]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)}

ولما كان هذا الذي حكاه سبحانه وتعالى عن المنافقين بحيث يعجب غاية العجب من تصور قائله له فضلاً عن أن يتفوه به فكيف بأن يعتقده، نبه على أن العلة الموجبة له طمس البصيرة، وأن العلة في طمس البصيرة الإقبال بجميع القلب على الدنيا رجوعاً على إيضاح ما تقدم في نتيجة الجمعة من الإذن في طلب الرزق والتحذير من مثل فعل حاطب رضي الله عنه وفعل من انصرف عن خطبة لتلك العير، وكان هذا التنبيه على وجه حاسم لمادة شرهم في كلامهم فإن كلمة الشح كما قيل مطاعة، ولو بأن تؤثر أثراً ما ولو بأن تقتر نوع تقتير في وقت ما، فقال منادياً لمن يحتاج

إلى ذلك: {يا أيها الذين آمنوا} أي أخبروا بما يقتضـــي أن بواطنهم مذعنة كظواهرهم {لا تلهكم أموالكم} ولما كان الخطاب مع من يحتاج إلى التأكيد قال: {ولا أولادكم} أي لا تقبلوا على شـــيء من ذلك بجميع قلوبكم إقبالاً يحيركم سواء كان ذلك في إصلاحها أو التمتع بها بحيث تشتغلون وتغفلون {عن ذكر الله} أي من توحيد الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء فله الملك وله الحمد يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فإذا كان العبد ذاكراً له بقلبه دائماً لم يقل كقول المنافقين {لا تنفقوا} [المنافقين: 7] ولا {ليخرجن الأعز منها الأذل} [المنافقين: 8] لعلمه أن الأمر كله لله، وأنه لن يضر الله شيئاً، ولا يضر بذلك إلا نفسه، وهذا يشمل ما قالوه من التوحيد والصـــلاة والحج والصـــوم وغير ذلك، ولإرادة المبالغة في النهي وجّه النهي إلى الأموال والأولاد بما المراد منه نهيهم.

ولما كان التقدير: فمن انتهى فهو من الفائزين، عطف عليه قوله: {ومن يفعل} أي يوقع في زمن من الأزمان على ســبيل التجديد والاســتمرار فعل {ذلك} أي الأمر البعيد عن أفعال ذوي الهمم من الانقطاع إلى الاشـــتغال بالفاني والإعراض عن الباقي والإقبال على العاجل مع نســـيان الآجل {فأولئك} أي البعداء عن الخير {هم} أي خاصة {الخاسرون *} أي العريقون في الخسارة حتى كأنهم كانوا مختصين بها دون الناس، وذلك ضد ما أرادوا بتوفير النظر إليهم والإقبال عليهم من السعي للتكثير والزيادة والتوفير، وفي إفهامه أن من شغله ما يهمه من أمر دينه الذي أمره سبحانه به ونهاه عنه إضـــاعته وتوعده عليها كفاه ســـبحانه أمر دنياه الذي ضـــمنه له ونهاه أن

يجعله أكبر همه وتوعده على ذلك، فما ذكره إلا من وجده في جميع أموره ديناً ودنيا، وتوجه إليه في جميع نوائبه، وأقبل عليه بكل همومه، وبذل نفسه له بذل من يعلم أنه مملوك مربوب فقد أمر ربه على نفســــه واتخذه وكيلاً فاستراح من المخاوف، ولم يمل إلى شيء من المطامع فصار حراً.

ولما حذر من الإقبال على الدنيا، رغب في بذلها مخالفة للمنافقين فقال : {وأنفقوا} أي ما أمرتم به من واجب أو مندوب، وزاد في الترغيب بالرضـــى منهم باليسـير مما هو كله له بقوله: {من ما رزقناكم} أي من عظمتنا وبلغ النهاية في ذلك بالرضـا بفعل ما أمر به مع التوبة النصـوح في زمن ما ولو قل بما أرشــــد إليه إثبات الجار، فقال مرغباً في التأهب للرحيل والمبادرة لمباغتة الأجل، محذراً من الاغترار بالتسويف في أوقات السلامة: {من قبل} وفك المصــــدر ليفيد «أن» مزيد القرب فقال : {أن يأتي} ولما كان تقديم المفعول كما تقدم في النســـاء أهول قال : {أحدكم الموت} أي برؤية دلائله وأماراته، وكل لحظة مرت فهي من دلائله وأماراته . ولما كانت الشــــدائد تقتضـي الإقبال على الله، سبب عن ذلك بقوله: {فيقول} سـائلاً في الرجعة، وأشـار إلى ترقيقها للقلوب بقوله: {رب لولا} أي هل لا ولم لا {أخرتني} أي أخرت موتي إمهالاً لي {إلى أجل} أي زمان، وبين أن مراده استدراك ما فات ليس إلا بقوله: {قريب فأصـدق} أي للتزود في سـفري هذا الطويل الذي أنا مسـتقبله، قال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء: قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ســـاعة، وأنك لا تسـتأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسـف والحسـرة مما لو كانت له

الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضـم إلى تلك السـاعة سـاعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه، يقول: يا ملك الموت! أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزود فيها صـالحاً لنفسـي، فيقول: فنيت السـاعات فلا سـاعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتردد أنفاسـه في شـراسـيفه ويتجرع غصـة البأس عن التدارك وحسـرة الندامة على تضـييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، وإن سـبق له القضـاء بالشـقوة والعياذ بالله تعالى خرجت روحه على الشـك والاضـطراب، وذلك سـوء الخاتمة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسـويف كـان بين خطرين عظيمين: أحـدهمـا أن تتراكم الظلمـة على قلبـه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل المحو، الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، فيأتي الله تعالى بقلب غير سليم، والقلب أمانـة الله عند عبده، قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين على سبيل الإلهام: أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واسـتودعتك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانـة وانظر كيف تلقاني، والثاني عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صـنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعذاب.

ولعله أدغم تاء التفعل إشـارة إلى أنه إذا أخر فعل ذلك على وجه الإخفاء ليكون أفضـل، أو يكون إدغامها اختصـاراً لبلوغ الأمر إلى حد محوج إلى

الإيجاز في القول كما طلب في الزمن، ويؤيده قراءة الجماعة غير أبي عمرو {وأكن} بالجزم عطفاً على الجواب الذي هدى السياق إلى تقديره، فإن حال هذا الذي أشـرف هذا الإشـراف يقتضـي أن يكون أراد إن «أخرتني أتصدق» ولكنه حذفه لضيق المقام عنه واقتضاء الحال لحذفه، وهو معنى ما حكاه سـيبويه عن الخليل أن الجزم على توهم الشـرط الذي دل عليه التمني على الموضـع، فإن الجازم غير موجود، ومعنى ما قال غيره أن «لولا» لكونها تحضيضية متضمنة معنى الأمر ومعنى الشرط، فكأنه قيل: أخرني، فيكون جوابه العاري عن الفاء مجزوماً لفظاً والمقرون بها مجزوماً محلاً ف «اكن» عطف على المحل، ونصـب أبو عمرو عطفاً على اللفظ لأنه جواب التمني الذي دلت عليه «لولا» وإجماع المصـاحف على حذف الواو لا يضره لأنه قال: إنها للاختصـار، وهو ظاهر، وذلك للمناسبة بين اللفظ والخط والزمان والمراد، ومن هنا تعرف جلالة القراء ومرادهم إن شـاء الله تعالى بقولهم في الضـابط المشـهور وإن توافق رسـم المصـحف ولو احتمالاً {من الصـالحين *} أي العريقين في هذا الوصف العظيم، وزاد في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله مؤكداً لأجل عظيم الرجاء من هذا المحتضـر للتأخير عطفاً على ما تقديره: فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد: {ولن} ويجوز أن تكون الجملة حالاً أي قال ذلك والحال أنه لن {يؤخر الله} أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه {نفساً} أي أيّ نفس كانت، وحقق الأجل بقوله: {إذا جاء أجلها} أي وقت موتها الذي حده الله لها فلا يؤخر الله نفس هذا القائل لأنها من جملة النفوس التي شـملها

النفي. ولما كان المعنى على طريق النتائج التي لا شـــك في إرشـــاد اللفظ إليها: الله عالم فإنه يقول ذلك، عطف عليه قوله حاثاً على المســـارعة إلى الخروج عن عهدة الطاعات والاســـتعداد لما لا بد منه من اللقاء محذراً من الإخلال ولأنه لا تهديد كالعلم: {والله} أي الذي له الإحاطة الشـــاملة علماً وقدرة {خبير} أي بالغ الخبرة والعلم ظاهراً وباطناً {بما تعملون *} أي توقعون عمله في الماضـــي والحال والمآل كله ظاهره وباطنه من هذا الذي أخبرتكم أن المحتضر العاصي يقوله ومن غيره منه ومن غيره أيها الناس- هذا على قراءة الجمهور بالخطاب، وعلى قراءة أبي بكر عن عاصم بالغيب يمكن أن يراد المنافقون، ويمكن أن يعم فيكون الضـمير للنفس على المعنى ويمكن أن يكون الضـمير للناس على الالتفات للإعراض تخويفاً لهم، ولذلك علم سبحانه كذب المنافقين في أنهم يعتقدون ما شهدوا به في أمر الرسالة وعلم جميع ما قص من أخبارهم {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} [الملك: 14] والله أعلم.

نظم الـدرر في تنـاســب الآيـات والســور والسورللبقاعي

▲ سورة التغابن

64

▲ تفسير الآيات رقم [1- 3]

{يُسَـبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)}

لما ختمت تلك بإثبات القهر بنفوذ الأمر وإحاطة العلم، افتتح هذه بإحاطة الحمد ودوام التنزه عن كل شائبة نقص، إرشاداً إلى النظر في أفعاله والتفكر في مصـــنوعاته لأنه الطريق إلى معرفته، وأما معرفته بكنه الحقيقة فمحال فإنه لا يعرف الشـــيء كذلك إلا مثله ولا مثل له، فقال مؤكداً لما أفهمه أول الجمعة: {يسبح} أي يوقع التنزيه التام مع التجديد والاستمرار {لله} الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال {ما في السماوات} الذي من جملته الأراضي وما فيها فلا يريد من شـــيء منه شـــيئاً إلا كان على وفق الإرادة، فكان لذلك الكون والكائن شاهداً له بالبراءة عن كل شائبة نقص.

ولما كان الخطاب مع من تقدم في آخر المنافقين ممن هو محتاج إلى التأكيد، قال مؤكداً بإعادة الموصول: {وما في الأرض} أي كذلك بدلالتها على كماله واستغنائه، وقد تقدم أن موافقة العاقل للأمر مثل موافقة غير العاقل للارادة، فعليه أن يهذب نفسه غاية التهذيب فيكون في طاعته بامتثال الأوامر كطاعة غير العاقل في امتثاله لما يراد منه.

ولما ساق سبحانه ذلك الدليل النقلي كمال نزاهته على وجه يفهم الدليل العقلي لمن له لب كما قال علي رضي الله عنه: لا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع، وذلك لكونه سبحانه جعلهم مظروفين كما هو المشاهد، والمظروف محتاج لوجود ظرفه قبله فهو عاجز فهو مسبح دائماً إن لم يكن بلسان قاله كان بلسان حاله، وصانعه الغني عن الظرف فغيره سبوح، علل ذلك بقوله: {له} أي وحده {الملك} أي كله مطلقاً في الدنيا والآخرة، وهو السيادة العامة للخاص والعام والسياسة العامة بركنيها دفع الشرور وجلب الخيور الجالب للسرور والحبور من الإبداع والإعدام، فهو أبلغ مما في الجمعة، فإن الملك قد يكون ملكاً في الصورة، وذلك الملك الذي هو ظاهر فيه لغيره، فداوم التسبيح الذي اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك الدوام.

ولما أتبعه في الجمعة التنزيه عن النقص، أتبعه هنا الوصف بالكمال فقال: {وله} أي وحده {الحمد} أي الإحاطة بأوصاف الكمال كلها فلذلك ينزهه جميع مخلوقاته، فمن فهم تسبيحها فذلك المحسن، ومن كان في طبعه وفطرته الأولى بالفهم ثم ضيعه يوشك أن يرجع فيفهم، ومن لم يهيأ لذلك

فذلك الضـال الذي لا حيلة فيه {وهو} أي وحده {على كل شـيء} أيّ شـيء ممكن أن يتعلق به المشيئة {قدير *} لأنه وحده بكل شيء مطلقاً عليم، لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الأشياء كلها على حد سواء وهذا واضح جداً، ولأن من عرف نفسه بالنقص عرف ربه بالكمال وقوة السلطان والجلال.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى: لما بسـط في السـورتين قبل من حال من حمل التوراة من بني إسرائيل ثم لم يحملها، وحال المنافقين المتظاهرين بالإسـلام، وقلوبهم كفرا وعناداً متكاثفة الإظلام، وبين خروج الطائفتين عن سواء السبيل المستقيم، وتنكبهم عن هدى الدين القويم، وأوهم ذكر اتصـافهم بمتحد أوصـافهم خصـوصـهم في الكفر بوسم الانفراد وسـماً ينبئ عن عظيم ذلك الإبعاد، سـوى ما تناول غيرهم من أحزاب الكفار، فأنبأ تعالى عن أن الخلق بجملتهم وإن تشـعبت الفرق وافترقت الطرق راجعون بحكم السـوابق إلى طريقين فقال تعالى {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن} [التغابن: 2] وقد أوضـحنا الدلائل أن المؤمنين على درجات، وأهل الكفر ذو طبقات، وأهل النفاق أدونهم حالاً وأسـوأهم كفراً وضـلالاً «إن المنافقين في الدرك الأسـفل من النار» وافتتحت السـورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم ولو لم تنطو سـورة المنافقين من عظيم مرتكبهم إلا على ما حكاه تعالى من قولهم {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} [المنافقين: 8] وقد أشار قوله تعالى {يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور} [التغابن: 4] إلى ما قبله وبعده من الآيات إلى سـوء جهل المنافقين وعظيم حرمانهم

في قولهم بألسنتهم مما لم تنطو عليه قلوبهم {والله يشهد أن المنافقين لكاذبون} [المنافقين: 1] واتخاذهم أيمانهم جنة وصدهم عن سبيل الله إلى ما وصفهم سبحانه به، فافتتح سبحانه وتعالى سورة التغابن بتنزيهه عما توهموه من مرتكباتهم التي لا تخفى عليه سبحانه {ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم} [التوبة: 78] ثم قال تعالى: {ويعلم ما تسرون وما تعلنون} [التغابن: 4] فقرع ووبخ في عدة آيات ثم أشار إلى ما منعهم من تأمل الآيات، وصدهم عن اعتبار المعجزات، وأنه الكبر المهلك غيرهم، فقال تعالى مخبراً عن سلفهم في هذا المرتكب، ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب {ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا} [التغابن: 6] ثم تناسج الكلام معرفاً بمآلهم الأخروي ومآل غيرهم إلى قوله {وبئس المصير} [التغابن: 10] ومناسبة ما بعد يتبين في التفسير بحول الله- انتهى.

ولما كان أعظم الدلائل عليه سبحانه آيات الآفاق {سنريهم آياتنا في الآفاق} وآيات الأنفس، وقدم الأول علويه وسفليه لوضوحه، أتبعه الثاني دليلاً على عموم قدرته الدال على تمام ملكه بأنه المختص بالاختراع لأعجب الأشياء خلقاً والحمل على المكاره فقال: {هو} أي وحده {الذي خلقكم} أي أنشأكم على ما أنتم عليه بأن قدركم وأوجدكم بالحق على وفق التقدير خلافاً لمن أنكر ذلك من الدهرية وأهل الطبائع.

ولما كان قد تقدم في سورة المنافقين ما أعلم أنهم فريقان، عرف في هذه أن ذلك مسبب عن إبداعه لأن من معهود الملك أن يكون في مملكته الولي

والعدو والمؤالف والمخالف والطائع والعاصـــي والملك ينتقم ويعفو ويعاقب ويثيب ويقدم ويؤخر ويرفع ويضع، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» أخرجه مســلم والترمذي عن أبي أيوب رضـــي الله عنه، فقال تعالى مقدماً للعدو إشـــارة إلى أنه عالم به وقادر عليه، وما كان منه شـــيئاً إلا بإرادته، وفيه تلويح إلى أنه الأكثر ومع كثرته هو الأضـعف، لأن الله تعالى ليس معه بمعونته وإلا لأعدم الصنف الآخر: {فمنكم} أي فتسبب عن خلقه لكم وتقديره لأشـــباحكم التي تنشـــأ عنها الأخلاق إن كان منكم بإبداعه لصفاتكم كما أبدع لذواتكم {كافر} أي عريق في صفة الكفر مهلك نفسه بما هيأه لاكتسـابه ويسـره له بعد ما خلقه في أحسـن تقويم على الفطرة الأولى، وفي الحديث أن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام طبع كافراً فمعنى أن فطرته الأولى خلقت مهيأة للكفر، فإن الأفعال عامة وخاصـــة، فالخاصـــة تضـاف إلى العبد يقال: صـلى وصـام وآمن وكفر، والعامة تضـاف إلى الله تعالى فيقال: أوجد القدرة على الحركة والســكون وخلق الحركة والســكون، والأفعال الخاصـة متعلق الأمر والنهي {ومنكم مؤمن} أي راسـخ في الإيمان في حكم الله تعالى في الأزل منح نفسـه بالأعمال الصــالحة التي طابق بها العلم الأزلي، فهو ســبحانه خلق الكافر وخلق كفره فعلاً له، والمؤمن وإيمانه فعلاً له، لأنه خلق القدرة والاختيار وغيب أمر العاقبة، فكل منهما يكتب باختياره بتقدير الله، ولا يوجد من كل منهما إلا ما قدره عليه وأراده منه لأن وجود غير المقدور عجز، وخلاف المراد المعلوم جهل، وقد علم من هذه

القسمة علماً قطعياً أن أحد القسمين مبطل ضال مخالف لأمر الملك الذي ثبت ملكه، ومن المعلوم قطعاً أن كل ملك لا بدّ له أن يحكم بين رعيته في الأمر الذي اختلفوا فيه وينصف المظلوم من ظالمه، ومن المشاهد أن بعضهم يموت على كفرانه من غير نقص يلحقه، وبعضهم على إيمانه كذلك، فعلم أن هذه الدار ليست دار الفصل، وأن الدار المعدة له إنما هي بعد الموت والبعث، وهذا مما هو مركوز في الطبائع لا يجهله أحد، ولكن الخلق أعرضوا عنه بما هم فيه من القواطع، فصار مما لا يخطر بإنكارهم، فصار بحيث لا تستقل به عقولهم، ولكنهم إذا ذكروا به وأوضحت لهم هذه القواطع التي أشار سبحانه إليها وجردوا النفس عن الحظوظ والمرور مع الألف عدوه كلهم من الضروريات، وعلم ن تسببيه تقسيمهم هذا عن تقديره وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره.

ولما كان التقدير : فالذي أبدعكم وحملكم على ذلك وفاوت بينكم على كل شيء قدير، عطف عليه قوله تعالى: {والله} أي الذي له الإحاطة الكاملة بفعله ذلك، وقدم الجار لا للتخصيص بل إشارة إلى مزيد الأعتناء كما تقول لمن سألك: هل تعرف كذا، وظهر منه التوقف في علمك له: نعم أعرفه ولا أعرف غيره، فقال: {بما تعملون *} أي توقعون عمله كسباً {بصير *} أي بالغ العلم بذلك، فهو الذي خلق جميع أعمالكم التي نسب كسبها إليكم، وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خلق الذوات خلافاً للقدرية لأنه لا يتصور أن يخلق الخالق ما لا يعلمه، ولو سئل الإنسان كم مشى في يومه من خطوة لم يدر، فيكف لو سئل أين موضع مشيه ومتى زمانه فكيف وإنه

ليمشــي أكثر مشـيه وهو غافل عنه، ومن جهل أفعاله كماً وكيفاً وأيناً وغير ذلك لم يكن خالقاً لها بوجه.

ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالاً على تمام إحاطته بالبواطن، والظواهر بأنه يخلق الشـــيء العظيم جداً فيأتي على وفق الإرادة ثم لا يحتاج إلى أن يزاد فيه ولا أن ينقص منه فقال: {خلق السـماوات} التي هي السـقف لبيت عبيد الملك على كبرها وعلوها كطا ترون {والأرض} التي هي قرار بيتهم ومهاده على سعتها وما فيها من المرافق والمعاون {بالحق} أي بالأمر الذي يطابقه الواقع فلا زائداً عنه ولا ناقصـــاً بل جاء الواقع منها مطابقاً لما أراد سـواء لا كما يريد أحدنا الشــيء فإذا أوجده لم يكن على وفق مراده سـواء، وبسـبب إظهار الأمر الثابت وإبطال الباطل فهو خالق المسـكنين: الدنيوي والأخروي، خلافاً لمن لا يقول بذلك من صابئ وفلسفي وغيرهم.

ولما كان أهل الطبائع يقولون: إن الأفلاك لها تأثير بحسـب الذات والطبع، قال نافياً لذلك مذكراً بنعمته لتشـكر: {وصـوركم} أي أيها المخاطبون على صـور لا توافق شيئاً من صـور العلويات ولا السفليات ولا فيها صـورة توافق الأخرى من كل وجه {فأحسن صوركم} فجعلها أحسن صور الحيوانات كلها كما هو مشـــاهد في الدنيا وكذا في الآخرة خلافاً لأهل التناســـخ مع أن وضـعها في نفسـها أحسـن الأوضـاع، لو غير شـيء منها عن مكانه إلى شـيء مما نعلمه فحصـلت البشـاعة به مع تفضـيل الآدمي بتزيينه بصـفوة أوصــاف الكائنات وجعل سـبحانه أعضــاء متصـرفة بكل ما يتصـرف به أعضـــاء ســائر الحيوان مع زيادات اختص بها الآدمي إلى حســن الوجه

وجمال الجوارح، فهو أحسن بالنسبة إلى النوع من حيث هو هو، وبالنسبة إلى الأفراد في نفس الأمر وإن كان بعضها أحسن من بعض، فقبح القبيح منه إنما هو بالنسبة إلى أحسن منه، ولذا قال الحكماء، شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان، فخلق الانسان في أحسن تقويم لا ينفي أن يكون للنوع الذي جعل أحسن أفراد أنواع لما فوقه من الجنس، لا نهاية لأحسنية بعضها بالنسبة إلى بعض يشاهد ما وجد من أفراد نوعه من الذوات فقدرة الله لا تتناهى، فإياك أن تصغي لما وقع في كتب الإمام الغزالي أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وإن كان قد علم أنه اعترض عليه في ذلك وأجاب عنه في الكتاب الذي أجاب فيه عن أشياء اعترض عليه فيها فإنه لا عبرة بذلك الجواب أيضاً، فإن ذلك ينحل إلى أنه سبحانه وتعالى لا يقدر على أن يخلق أحسن من هذا العالم، وهذا لا يقوله أحد، وهو لا ينقص مقدار الغزالي فإن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، وعزاه الغزالي بنفسه إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه: صنفت هذه الكتاب وما ألوت فيها جهداً وإني لأعلم أن فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول:

{ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} [النساء: 82].

ولما كان التقدير: فكان منه سبحانه المبدأ، عطف عليه قوله: {وإليه} أي وحده {المصير *} أي بعد البعث بعين القدرة التي قدر بها على البدأة فمن كان على الفطرة الأولى لم يغيرها أدخله الجنة، ومن كان قد أفسدها فجعل روحه نفساً بما طبعها به من حيث جسده أدخله النار، وفي الدنيا أيضاً

بانفراده بالتدبير، فلا يكون من الملك والســـــوقة إلا ما يريد، لا ما يريد ذلك المريد الفاعل.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 5]

{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)}

ولما تقرر بما مضــى إحاطة قدرته بما دل على ذلك من إبداعه للخلق على هذا الوجه المحكم وشــهد البرهان القاطع بأن ذلك صــنعه وحده، لا فعل فيه لطبيعة ولا غيرها، دل على أن ذلك بسبب شمول علمه إشارة إلى أن من لم يكن تام العلم فهو ناقص القدرة فقال: {يعلم} أي علمه حاصل في الماضـي والحال والمآل يتعلق بالمعلومات على حســـب تعليق قدرته على وفق إرادته بوجدانها {ما} أي الذي أو كل شيء {في السماوات} كلها.

ولما كان الكلام بعد قيام الدليل القطعي البديهي على جميع أصـــول الدين مع الخلص لأن بداهة الأدلة قادتهم إلى الاعتقاد أو إلى حال صـــاروا فيه أهلاً للاعتقاد، والتحلي بحلية أهل الســداد، ولم يؤكد بإعادة الموصــول بل قال: {والأرض} ولما ذكر حال الظرف على وجه يشــمل المظروف، وكان الاطلاع على أحوال العقلاء أصعب، قال مؤكداً بإعادة العامل: {ويعلم} أي على سبيل الاستمرار {ما تسرون} أي حال الانفراد وحال الخصوصية مع بعض الإفراد. ولما كانت لدقتها وانتشـــارها بحيث ينكر بعض الضـــعفاء الإحاطة بها، وكان الإعلان ربما خفي لكثرة لغط واختلاط أصـــوات ونحو

ذلك أكد فقال: {وما تعلنون} من الكليات والجزيئات خلافاً لمن يقول: يعلم الكليات الكليات فقط ولا يعلم الجزئيات إلا بعد وجودها، من فلسـفي وغيره، ولمن يقول: يعلم الكليات خاصة. ولما ذكر حال المظروف على وجه يشمل ظروفه وهي الصـدور، وكان أمرها أعجب من أمر غيرها، قال مصـرحاً بها إشـارة إلى دقة أمرها مظهراً موضـع الإضـمار تعظيماً: {والله} أي الذي له الإحاطة التامة لكل كمال {عليم} أي بالغ العلم {بذات} أي صـاحبة {الصـدور *} من الأسـرار والخواطر التي لم تبرز إلى الخارج سـواء كان صـاحب الصـدر قد علمها أو لا، وعلمه لكل ذلك على حد سـواء لا تفاوت فيه بين علم الخفي وعلم الجلي، لأن نسـبة المقتضـي لعلمه وهو وجود ذاته على ما هي عليه من صـفات الكمال إلى الكل على حد سـواء، فراقبوه في الإخلاص وغيره مراقبة من يعلم أنه بعينه لا يغيب عنه واحذروا أن يخالف السـر العلانية، فإن حقه أن يتقي ويحذر، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد وتقديم تقرير القدرة على تقريره لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات، وكمال قدرته يسـتلزم كمال علمه لأن من لا يكمل علمه لا تتم قدرته، فلا يأتي مصنوعه محكماً.

ولما تقرر الإيمان به من أنه الملك الذي له وحده الملك، وأشـار بما يشـاهد من انقسـام عبيده إلى مؤمن وكافر إلى أنه لا من الأخذ على يد الظالم منهما كما هي عادة الملوك، لا يسـوغ في الحكمة ولا في العادة غير ذلك، وأخبر أن علمه محيط لنسـبته إلى العلويات والسـفليات والظواهر والبواطن على حد سـواء، أتبع ذلك وجوب الإيمان برسـله لجمع الكلمة عليه سـبحانه

لنكمل الحياة بإصـــلاح ذات البين لئلا يقع الخلاف فتفســد الحياة ووجوب الاعتبار لمن مضـــى من أممهم، فمن لم يعتبر عثر على مهواه من الأمل، ودل عليه بإهلاكه من خالفهم إهلاكاً منسقاً في خرقه للعادة وخصوصه لهم على وجه مقرر ما مضــــى من انفراده بالملك معلم أن الكفرة هم المبطلون فقال: {ألم يأتكم} أي أيها الناس ولا ســيما الكفار لتعلموا أنه شــامل العلم محيط القدرة ينتقم من المســيء {نبؤا الذين} وعبر بما يشــمل شــديد الكفر وضعيفه فقال: {كفروا} أي خبرهم العظيم.

ولما كان المهلكون على ذلك الوجه بعض الكفار وهم الذين أرســـل إليهم الرسل، فلم يستغرقوا ما مضى من الزمان قال: {من قبل} كالقرون المذكورين في الأعراف، ثم سـبب عن كفرهم وعقب قوله: {فذاقوا} أي باشـروا مباشـرة الذائق بالعدل الثاني كما كان حكم عليهم بالعدل الأول بالتقســـيم إلى كافر ومؤمن {وبال أمرهم} أي شدة ما كانوا فيه مما يستحق أن يشاور فيه ويؤمر وينهى وثقله ووخامة مرعاه في الدنيا، وأصله الثقل كيفما قلب {ولهم} أي مع ما ذاقوه بســـببه في الدنيا {عذاب أليم *} في البرزخ ثم القيامة التي هي موضع الفصل الأعظم.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 7]

{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُــلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَــرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْـــتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)}

ولما ذكر ما أحله بهم سبحانه وأشار إلى القطع بأنه من عنده باتساقه في خرقه العوائد بالاستئصال والخصوص لمن كذب الرسل والتنجية لمن صدقهم، علله بقوله: {ذلك} أي الأمر الشنيع العظيم من الوبال الدال قطعاً على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق. ولما لم يكن مقصودها كمقصود غافر من تصنيف الناس صنفين، وإنما حصل تصنيفهم هنا بالعرض للدلالة على الساعة اكتفى بضمير الشأن فقال: {بأنه} أي بسبب أن الشأن العظيم البالغ في الفظاعة {كانت تأتيهم} على عادة مستمرة {رسلهم} أي رسل الله الذين أرسلهم إليهم وخصهم بهم ليكونوا موضع سرورهم بهم {بالبينات} أي الأمور التي توضح غاية الإيضاح أنهم رسل الله من الكتب وغيرها، فشهدوا الأمر من معدنه، فلذلك كان عذابهم أشد.

ولما كان سبحانه وتعالى قد أودع الإنسان من جملة ما منحه به خاصة لطيفة وهي العزة وحب الكبر والعلو، فمن وضعها موضعها بالتكبر على من أمر الله بالتكبر عليه وهم شياطين الإنس والجن ممن عصاه سبحانه نجا، ومن وضعها في غير موضعها بالتكبر على أولياء الله رب العزة هلك، بين تعالى أن الكفار وضعوها في غير موضعها: {فقالوا} أي الكل لرسلهم منكرين غاية الإنكار تكبراً: {أبشر} أي هذا الجنس وهو مرفوع على الفاعلية لأن الاستفهام يطلب الفعل، ولما كان تكذيب الجمع أعظم، وكان لو أفرد الضمير لم يكن له روعة الجمع قال: {يهدوننا} فأنكروا على الملك الأعظم إرساله لهم {فكفروا} بذلك عقب مجيء الرسل وبسببه من غير نظر وتفكر وأدنى تأمل وتبصر حسداً للرسل لكونهم مساوين لهم في البشرية فاستبعدوا

أن يخصـــوا من بينهم بأمر ولا ســـيما إن كان عظيماً جداً، فلزمهم ارتكاب أقبح الأمور وهو اســـتبعاد أن يكون النبي بشـــراً مع الإقرار بأن يكون الإله حجراً {وتولوا} أي كلفوا أنفســـــهم خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الإعراض عن الرسـل بعد إنكار رسـالتهم لشـبهة قامت عندهم، وذلك أنهم قالوا: إن الله عظيم لا يشـبه البشـر فينبغي أن يكون رسـله من غير البشـر، ولو تأملوا حق التأمل لعلموا أن هذا هكذا، وأن الرسل إنما هي ملائكة، لكن لما كان لا يقوى جميع البشـر على رؤية الملائكة كما هو مقتضـى العظمة التي توهموها ولم يثبتوها على وجهها، خص سـبحانه من البشـر ناسـاً وهم الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام بقوى زائدة طوقهم بها على معالجتهم، فأتوا إليهم ليكونوا واسـطة بين الله وبين خلقه لأن بعض الجنس أميل إلى بعض وأقبل.

ولما كان هذا كله إنما هو لمصـالح الخلق لا يعود على الله سـبحانه وتعالى وعز شـأنه نفع من وجوده ولا يلحقه ضـرر من عدمه ولا بالعكس، نبه على ذلك بقوله {واستغنى الله} أي فعل الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه فعل من يطلب الغنى عنهم وأوجده إيجاداً عظيماً ممن هداه لاتباع الرســـل فأعرض عنهم حين أعرضـوا عن رسـله فضـرهم إعراضـه عنهم ولم يضـره إعراضهم وما ضروا إلا أنفسهم وأطلق الاستغناء ليعم كل شيء.

ولما كان التعبير بذلك قد يوهم حدوث ما لم يكن له، نفى ذلك بقوله مظهراً زيادة في العظمة: {والله} أي المستجمع لصفات الكمال من غير تقيد بحيثية {غني} عن الخلق جميعاً {حميد *} له صـفة الغنى المطلق والحمد الأبلغ

الذي هو الإحاطة بجميع أوصـاف الكمال على الدوام أزلاً وأبداً، لم يتجدد له شيء لم يكن.

ولما قرر وجوب الإيمان به وبرسـله وكتبه وبالقدر خيره وشـره، وقسـم الناس إلى مؤمن وكافر، وأخبر أن الكافر تكبر عن الرسـل، عين الموجب الأعظم لكفرهم بقوله دالاً على وجوب الإيمان بالعبث وترك القياس والرأي فإن عقل الإنسان لا يستقل ببعض أمور الإلهية، معبراً بما أكثر إطلاقه على ما يشك فيه ويطلق على الباطل إشارة إلى أنهم شاكون وإن كانوا جازمين، لكونهم لا دليل لهم، وإلى أنهم في نفس الأمر مبطلون: {زعم} قال ابن عمر رضـي الله عنهما: هي كنية الكذب، وفي حديث أبي مسـعود رضـي الله عنه عند أبي داود: «بئس مطية الرجل زعموا» {الذين كفروا} أي أوقعوا السـتر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ولو على أدنى الوجوه.

ولما كان الزعم ادعاء العلم وكان مما يتعدى إلى مفعولين، أقام سـبحانه مقامهما قوله: {أن لن يبعثوا} أي من باعث ما بوجه من الوجوه. ولما كان قد أشـار سبحانه بنوعي المؤمن والكافر إلى الدليل القطعي الضـروري على وجود المبطل اللازم منـه ودعـه اللازم منه وجب البعث، اكتفى في الأمر بإجابتهم بقوله: {قل} أي لهم: {بلى} أي لتبعثن، ثم أكده بصـريح القسـم فقال: {وربى} أي المحسـن إليّ بالانتقام ممن كذب بي، وبإحقاق كل حق أميت، وإبطال كل باطل أقيم {لتبعثن} مشـيراً ببنائه للمفعول إلى أنه ويكون على وجه القهر لهم بأهون شـيء وأيسـر أمر وكذلك قوله: {ثم لتنبؤن} أي لتخبرن حتماً إخباراً عظيماً ممن يقيمه الله لإخباركم {بما عملتم} للدينونة

عليه. وشرح بعض ما أفاده بناء الفعلين للمجهول بقوله: {وذلك} أي الأمر العظيم عندكم من البعث والحساب {على الله} أي المحيط بصفات الكمال وحده {يسير *} لقبول المادة وحصول القدرة، وكون قدرته سبحانه كذلك شأنها، نسبة الأشياء الممكنة كلها جليلها وحقيرها إليها على حد سواء.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 10]

{فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)}

ولما كان في رد قولهم على هذا الوجه مع الإقسام من غير استدلال إشارة إلى تأمل الكلام السابق بما اشتمل عليه من الأدلة التي منها ذلك البرهان البديهي، سبب عنه قوله فذلكة لما مضى من الأدلة وجمعاً لحديث جبريل عليه الصلاة والسلام في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والإسلام والإحسان: {فآمنوا بالله} أي الذي لا أظهر من أن له الإحاطة الكاملة بكل شيء وأنه لا كفؤ له ولا راد لأمره. ولما دعاه هذا إلى الإيمان به سبحانه عقلاً ونقلاً ذكراً وفكراً، ثنى بالإيمان بالرسل من الملائكة والبشر فقال: {ورسوله} أي كل من أرسله ولا سيما محمد صلى الله عليه وسلم بما ثبت من تصديقه بالمعجزات من أنه رسوله، ويلزم من الإيمان به الإيمان بمن أبلغه من الملائكة. ولما كانت تلك المعجزات

موجبات للعلم كانت أحق الأشياء باسم التور فإن النور هو المظهر للأشياء بعد انحجابها برداء الظلام وكان أعظم تلك المعجزات وأحقها بذلك كتب الله المنزلة على أنبيائه عليهم الصــلاة والســلام، وأعظمها القرآن الذي هو مع إعجازه بيان لكل شيء، قال: {والنور} وعينه بقوله: {الذي أنزلنا} أي بما لنا من العظمة فكان معجزاً فكان بإعجازه ظاهراً بنفســه مظهراً لغيره، وهذا وإن كان هو الواقع لكن ذكر هذا الوصـــف صــــالح لشــمول كل ما أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى رسله صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم أن أعظمه القرآن المنزل على أشرف رسله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، فهو أحق ذلك باسم النور لما مضى من إعجازه، فمن آمن به أدخل الله قلبه من أنوار الفهوم والألطاف والسكينة ما يضيء الأقطار.

ولما كان التقدير : والله محاســبكم على ما قابلتم به إنعامه عليكم بذلك من إيمان وكفران، عطف عليه مرغباً مرهباً قوله: {والله} أي المحيط علماً وقدرة، وقدم الجار لما تقدم غير مرة من مزيد التأكيد فقال : {بما تعملون} أي توقعون عمله في وقت من الأوقات {خبير *} أي بالغ العلم بباطنه وظاهره.

ولما أخبر بالبعث وأقسم عليه، وأشــار إلى دليلة الســابق، وسـبب عنه ما ينجي في يومه، ذكر يومه وما يكون فيه ليحذر فقال متبعاً ما مضــــى من دعائم الإيمان دعامة اليوم الآخر واعظاً لمن يقول: يا ليت شعري ما حالي بعد ترحالي ؟ وقامعاً لمن يقول : لا حال بعد الترحال، بالإعلام بأنها أحوال أي أحوال، تشــيب الأطفال، وتقصــم ظهور الرجال، بل تهد شــم الجبال: {يوم} أي تبعثون في يوم {يجمعكم} أي أيها الثقلان. ولما كان الوقت المؤرخ

به فعل من الأفعال إنما يذكر لأجل ما وقع فيه، صار كأنه علة لذلك الفعل فقال تعالى: {ليوم الجمع} لأجل ما يقع في ذلك اليوم الذي يجمع فيه أهل السماوات وأهل الأرض من الحساب والجزاء الذي يكون فوزاً لناس فيكونون غابنين، ويكون خيبة لناس فيكونون مغبونين، وكل منهم يطلب أن يكون غابناً.

ولما كان هذا المقصد أمراً عظيماً مقطعاً ذكره الأكباد، قال تعالى مشيراً إلى هوله بأداة البعد مستأنفاً: {ذلك} أي اليوم العظيم المكانة الجليل الأوصاف {يوم التغابن} الذي لا تغابن في الحقيقة غيره لعظمه ودوامه، والغبن: ظهور النقصان للحظ الناشئ عن خفاء لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون وسائر الخلق أجمعون، ويكون فيه السمع والإبصار على غاية لا توصف بحيث إن جميع ما يقع فيه يمكن أن يطلع عليه كل أحد من أهل ذلك الجمع، فإذا فضح أحد افتضح عند الكل، وما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده نم النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة فيغبن كل كافر بتركه الإيمان وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان، ومادة «غبن» تدور على الخفاء من مغابن الجسد وهي ما يخفى عن العين، وسمي الغبن في البيع- لخفائه عن صاحبه، فالكافر والظالم يظن أنه غبن المؤمن بنعيم الدنيا الذي استأثر به الكافر، وبالنقص الذي أدخله الظالم على المظلوم، وقد غبنهما المؤمن والمظلوم على الحقيقة بنعيم الآخرة وكمال جزائها العظيم الدائم، فالغبن فيه لا يشبهه غبن، فقد بعث ذكر هذا اليوم على هذا الوجه على التقوى أتم بعث، وهي الحاملة

على اتباع الأوامر واجتناب النواهي لئلا يحصـــــل الغبن بفوات النعيم أو نقصانه، ويحصل بعده للكافر العذاب الأليم.

ولما كان كل أحد يحســـب أن يكون في النور، ويكره أن يكون في الظلام، ويحب أن يكون غابناً، ويكره أن يكون مغبوناً، أرشدت سوابق الكلام ولواحقه إلى أن التقدير، فمن آمن كان في النور، وكان في ذلك اليوم برجحان ميزانه من الغابنين، ومن كفر كان في الظلام، وكان في ذلك اليوم بنقصان ميزانه من المغبونين، فعطف عليه قوله بياناً لآثار ذلك الغبن، وتفضـــيلاً له بإصلاح الحامل على التقوى وهو أمور منها القوة العلمية: {ومن يؤمن} أي يوقع الإيمان ويجدده على سبيل الاستمرار {بالله} أي الملك الأعظم الذي لا كفؤ له. ولما ذكر الرأس وهو إصلاح القوة العلمية، أتبعه البدن وهو إصلاح القوة العملية فقال: {ويعمل} تصـديقاً لإيمانه {صـالحاً} أي عملاً هو مما ينبغي الاهتمام بتحصيله لأنه لا مثل له في جلب المنافع ودفع المضار.

ولما كان الدين مع ســهولته متيناً لن يشـاده أحد إلا غلبه، قال حاملاً على التقوى بالوعد بدفع المضار، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى أن زمان التكفير والدخول متفاوت بحسب طول الحساب وقصره، كلما فرغ واحد من الحساب دخل الجنة إن كان من أهلها: {يكفر} أي الله– على قراءة الجماعة بأن يستر ستراً عظيماً {عنه سيئاته} التي غلبه عليها نقصان الطبع، وأتبع ذلك الحامل الآخر وهو الترجئة يجلب المســـار لأن الإنســـان يطير إلى ربه ســـبحانه بجناحي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والنذارة والبشـــارة فقال: {ويدخله} أي رحمة له وإكراماً وفضـــلاً {جنّات} أي بســاتين ذات أشـجار

عظيمة وأغصـــان ظليلة تسـتر داخلها، ورياض مديدة منوعة الأزاهير عطرة النشـــر تبهج رائيها، وأشـــار إلى دوام ريها بقوله: {تجري} ولما كان عموم الماء لجميع الأرض غير ممدوح، بين أنه في خلالها على أحســـن الأحوال فقال: {من تحتها} وبين عظمه بقوله: {الأنهار} ولما كان النزوح أو توقعه عن مثل هذا محزناً، أزال توقع ذلك بقوله جامعاً لئلا يظن الخلود لواحد بعينه تصـــريحاً بأن من معناها الجمع وأن كل من تناولته مســـتوون في الخلود: {خالدين فيها} وأكد بقوله: {أبداً} والتقدير على قراءة نافع وابن عامر بالنون: نفعل التكفير والإدخال إلى هذا النعيم بما لنا من العظمة فإنه لا يقدر على إسعاد من شاء وإشقاء من شاء إلا الله سبحانه، ولا تكون هذه القدرة تامة إلا لمن كان عظيماً لا راد لأمره أصلاً.

ولما كان هذا أمراً باهراً جالباً بنعيمه ســـرور القلب، أشـــار إلى عظمته بما يجلب سرور القلب بقوله: {ذلك} أي الأمر العالي جداً من الغفران والإكرام، لا غيره {الفوز العظيم *} لأنه جامع لجميع المصـــالح مع دفع المضـــار وجلب المسار.

ولما ذكر الفائز بلزومه التقوى ترغيباً، أتبعه الخائب بســـبب إفســـاد القوتين الحاملتين على التقوى: العلمية والعملية ترهيباً، فقال بادئاً بالعلمية: {والذين كفروا} أي غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا في الظلام. ولما ذكر إفســـادهم القوة العلمية، أتبعه العملية فقال: {وكذبوا} أي أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب {بآياتنا} بســـببها مع ما لها من العظمة بإضـــافتها إلينا، فلم يعملوا شيئاً.

ولما بين إفسادهم للقوتين، توعدهم بالمضار فقال معرياً من الفاء في جانبي الأشقياء والسعداء طرحاً للأسباب، لأن نظر هذه السورة إلى الجبلات التي لا مدخل فيها لغيره أكثر بقوله: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن} [التغابن: 2] فإن ذلك أجدر بالخوف منه ليكون أجدر بالبعد عما يدل على الجبلة الفاسدة من الأعمال السيئة: {أولئك} أي البعداء البغضاء {أصحاب النار} ولما كان السجن إذا رجي الخلاص منه قلل من خوف داخله، وكان التعبير بالصحبة مشعراً بالدوام المقطع للقلوب لأنه مؤيس من الخلاص، أكده بقوله: {خالدين فيها} وزاد في الإرهاب منها بقوله مشيراً إلى مضار القلب بعد ذكر مضار القالب: {وبئس المصير *} أي جمعت المذام كلها الصيرورة إليها وبقعتها التي للصيرورة إليها، فكيف بكونها على وجه الإقامة زمناً طويلاً فكيف إذا كان على وجه الخلود.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 14]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)}

ولما كان من تعرفه من المرغبين والمرهبين لا يفعل ذلك إلا فيما ليس قادراً على حفظه وضبطه حتى لا يحتاج العامل في عمل ذلك إلى رقيب يحفظه ووكيل يلزمه ذلك العمل ويضبطه، وكان قول المنافقين المتقدم في الإنفاق

والإخراج من المصائب، وكانت المصائب تطيب إذا كانت من الحبيب، قال جواباً لمن يتوهم عدم القدرة متمماً ما مضـــى من خلال الأعمال بالإيمان بالقدر خيره وشره، مرغباً في التسليم مرهباً من الجزع قاصراً الفعل ليعم كل مفعول: {ما أصاب} أي أحداً يمكن المصائب أن تتوجه إليه، وذكر الفعل إشارة إلى القوة، وأعرق في النفي بقوله: {من مصيبة} أيّ مصيبة كانت دينية أو دنيوية من كفر أو غيره {إلا بإذن الله} أي بتقدير الملك الأعظم وتمكينه، فلا ينبغي لمؤمن أن يعوقه شـــيء من ذلك عن التقوى النافعة في يوم التغابن.

ولما تسـبب عن ذلك ما تقديره: فمن يكفر بالله بتقديره عليه الكفر يغو قلبه ويزده ضلالاً فيفعل ما يتوغل به في المصيبة حتى تصير مصائب عدة فتهلكه، عطف عليه قوله باعثاً على أول ركني الإسلام وهو إصلاح القوة العلمية: {ومن يؤمن بالله} أي يوجد الإيمان في وقت من الأوقات ويجدده بشهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بسبب الملك الأعظم وتقديره وإذنه {يهد قلبه} أي يزده هداية بما يجدده له من التوفيق في كل وقت حتى يرسخ إيمانه فتنزاح عنه كل مصيبة، فإنه يتذكر أنها من الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم بقضائه فيصبر له ويفعل ويقول ما أمر الله به ورسوله فيخف عليه، ولا يعوقه عن شيء من المنجيات في يوم التغابن، بل يحصل له بسببها عدة أرباح وفوائد، فتكون حياته طيبة بالعافية الشـــاملة في الدينيات والكونيات لأن بالعافية في الكونيات تطيب الحياة في الدنيا، وبالعافية في الدينيات تطيب الحياة في الآخرة فتكون

العيشة راضية، وذلك بأن يصير عمله صواباً في سرائه وضرائه فيترك كل فاحشة دينية بدنية وباطنة قلبية ويترك الهلع في المصائب الكونية كالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات وذلك لأنه بصلاح القلب ينصلح البدن كله.

ولما كان التقدير تعليلاً لذلك: فاللّه على كل شيء قدير فهو لا يدع شيئاً يكون إلا بإذنه، عطف عليه قوله: {والله} أي الملك الذي لا نظير له {بكل شيء} مطلقاً من غير مثنوية {عليم *} فإذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة أو صفة خبيثة. ولما كان التقدير: فاصبروا عن هجوم المصائب، عطف عليه قوله تحذيراً من أن يشتغل بها فتوقع في الهلاك وتقطع عن أسباب النجاة دالاً على تعلم أمور الدين من معاداتها مشيراً إلى أن العبادة لا تقبل إلا بالاتباع لا بالابتداع: {وأطيعوا الله} أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله فافعلوا في كل مصيبة ونائبة تنوبكم وقضية تعروكم ما شرعه لكم، وأكد بإعادة العامل إشارة إلى أن الوقوف عند الحدود ولا سيما عند المصائب في غاية الصعوبة فقال: {وأطيعوا الرسول} أي الكامل في الرسلية- صلى الله عليه وسلم- فإنه المعصوم بما خلق فيه من الاعتدال وما زكى به من شق البطن وغسل القلب مراراً، وما أيد به من الوحي، فما كانت الأفعال بإشارة العقل مع الطاعة لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم في كل إقدام وإحجام كانت معتدلة، سواء كانت شهوانية أو غضبية، ومتى لم تكن كذلك كانت منحرفة إلى أعلى وإلى أسفل فكانت مذمومة، فإن الله تعالى بلطف تدبيره ركب في

الإنسـان قوة غضـبية دافعة لما يهلكه ويؤذيه، وقوة شـهوانية جالبة لما ينميه ويقويه، فاعتدال الغضـبية شـجاعة ونقصـها جبن وزيادتها تهور، فالناس باعتبارها جبان وشـجاع ومتهور، واعتدال الشـهوانية عفة ونقصـانها زهادة وزيادتها شره، والناس باعتبارها زهيد وعفيف وشره، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وميزان العدل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما شرعه، فبذلك تنزاح الفتن الظاهرة والباطنة، ولا طريق إلى الله إلا بما شـرعه، وكل طريق لم يشرعه ضـلال من الكفر إلى ما دونه، ثم سبب عن أمره ذلك قوله معبراً بإداة الشك إشارة إلى البشارة بحفظ هذه الأمة من الردة ومشعراً بأن بعضهم يقع منه ذلك ثم يقرب رجوعه أو هلاكه: {فإن توليتم} أي كلفتم أنفسـكم عندما تدعو إليه الفطرة الأولى من الإعراض عن هذا النور الأعظم والميل إلى طرف من الأطراف المفهومة من طرفي القصـد فما على رسـولنا شـيء من توليكم {فإنما على رسـولنا} أضـافه إليه على وجه العظمة تعظيماً له وتهديداً لمن يتولى عنه {البلاغ المبين *} أي الظاهر في نفسه المظهر لكل أحد أنه أوضـح له غاية الإيضـاع ولم يدع لبسـاً، ليس إليه خلق الهداية في القلوب.

ولما كان هذا موجعاً لإشـعاره بإعراضـهم مع عدم الحيلة في ردهم، عرف بأن ذلك إنما هو إليه وأنه القادر عليه فقال جواباً لمن كأنه قال: فما الحيلة في أمرهم- مكملاً لقسـمي الدين بالاسـتعانة بعد بيان قسـمه الآخر وهو العبادة: {الله} أي المحيط بجميع صـفات الكمال {لا إله إلا هو} فهو القادر على الإقبال بهم ولا يقدر على ذلك غيره، فإليه اللجاء في كل دفع ونفع

وهو المستعان في كل شأن فإياه فليرج في هدايتهم المهتدون {وعلى الله} أي الذي له الأمر كله لا على غيره. ولما كان مطلق الإيمان هو التصديق بالله باعتقاد أنه القادر على كل شـــيء فلا أمر لأحد معه ولا كفوء له فكيف بالرســوخ فيه، نبه على هذا المقتضـــي للربط بالفاء والتأكيد بلام الأمر في قوله: {فليتوكل المؤمنون *} أي يوجد التوكيل إيجاداً هو في غاية الظهور والثبات العريقون في هذا الوصف في رد المتولي منهم إن حصل منهم تول وكذا في كل مفقود فالعفة ليست مختصة بالموجود فكما أن قانون العدل في الموجود الطاعة فقانون العدل في المفقود التوكل وكذا فعل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فكان لهم الحظ الأوفر في كل توكل لا ســيما حين ارتدت العرب بعد موت النبي صـــلى الله عليه وســلم وكان أحقهم بهذا الوصــف الصديق رضي الله تعالى عنه كما يعرف ذلك من ينظر الكتب المصنفة في السير وأخبار الردة لا سيما كتابي المسمى في أخبار الردة.

ولما كانت أوامر الدين تارة تكون باعتبار الأمر الديني من ســائر الطاعات المحضة، وتارة باعتبار الأمر التكويني وهو ما كان بواسطة مال أو أهل أو ولد، أتم سبحانه القسم الأول في الآيتين الماضيتين، شرع في الأمر الثاني لأنه قد ينشـــأ عنه فتنة في الدين وقد ينشـــأ عنه فتة في الدنيا، ولما كانت الفتنة بالإقبال عليه والإعراض عنه أعظم الفتن، لأنها تفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وابنه وتذهل الخليل عن خليله- كما شــوهد ذلك في بدء الإســلام، وكان أعظم ذلك في الردة، وكان قد تقدم النهي عن إلهاء الأموال والأولاد، وكان النهي عن ذلك في الأولاد نهياً عنه في الأزواج بطريق

الأولى، فلذلك اقتصـــر عليهم دون الأزواج، وكان المأمور بالتوكل ربما رأى أن تســليم قياده لكل أحد لا يقدح في التوكل، أشــار إلى أن بناء هذه الدار على الأسباب مانع من ذلك فأمر بنحو «اعقلها وتوكل» «واحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» الحديث، فقال جواباً عن ذلك لمن يحتاج إلى الســـؤال عن مثله مبيناً للأوامر بالاعتبار للامتحان التكويني وإن كان أولى الناس ببذل الجهد في تأديبه وتقويمه وتهذيبه أقرب الأقارب وألصـــق الناس بالإنســـان وهو كالعلة لآخر «المنافقون»: {يا أيها الذين آمنوا} ولما كان الأزواج أقرب عداوة من الأولاد قدمهن، فقال مؤكداً لمن يســتبعد ذلك: {إن من أزواجكم} وإن أظهرن غاية المودة {وأولادكم} وإن أظهروا أيضـــاً غاية الشفقة والحنان {عدواً لكم} أي لشغلهم لكم عن الدين أو لغير ذلك من جمع المال وتحصـــيل الجاه لأجلهم والتهاون بالنهي عن المنكر فإن الولد مجبنة وغير ذلك، قال أبو حيان رحمه الله تعالى: ولا أعدى على الرجل من زوجه وولده إذا كانا عدوين وذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبإذهاب ماله- كما هو معروف- وعرضـــه، وأما في الآخرة فيما يســـعى في اكتســـابه من الحرام لأجلهم وبما يكسبانه منه بسبب جاهه.

فالرجل من رأى ذلك نعمة من الله فجعله معيناً له على طاعته لا قاطعاً ومعوقاً عما يرضـــيه بأن يلتهي بمحبته وعداوته وبغضـــته. ولما أخبر عن العداوة، عبر بما قد يفهم الواحد فقط تخفيفاً، ولما أمر بالحذر جمع إشـــارة إلى زيادة التحذير والخوف في كل أحد ولو كان أقرب الأقرباء لأن الحزم سوء الظن كما رواه الطبراني في الأوسط، فسبب عن الإخبار بالعداوة الأمر

بالحذر في قوله: {فاحذروهم} أي بأن تتقوا الله في كل أمرهم فتطلبوا في السعي عليهم الكفاف من حله وتقتصروا عليه، ولا يحملنكم حبهم على غير ذلك، وليشــــتد حذركم منهم بالعمل بما أمر الله حتى في العدل بينهم لئلا يتمكنوا من أذاكم فيعظم بهم الخطب ويكون فاتناً لكم في الدين إما بالردة- والعياذ بالله تعالى- أو بالشـــغل عن الطاعة أو بالإقحام في المعصـــية ومخالفة السنة والجماعة.

ولما كان قد يقع ما يؤذي مع الحذر لأنه لا يغني من قدر أو مع الاستسلام، وكان وكل المؤذي إلى الله أولى وأعظم في الاســتنصــار، قال مرشــداً إلى ذلك: {وإن تعفوا} أي توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فإنه لا فائدة في ذلك لأن من طبع على شـــيء لا يرجع، وإنما النافع الحذر الذي أرشد إليه سبحانه لئلا يكون سبباً للو المنهي عنه.

ولما كان الرجوع عن الحظوظ صـعباً جداً، أكد سـبحانه فقال: {وتصـفحوا} أي بالإعراض عن المقابلة بالتثريب باللســان {وتغفروا} أي بأن تســتروا ذنوبهم ستراً تاماً شـاملاً للعين والأثر بالتجاوز بعد ترك العقاب عن العتاب، فلا يكون منكم اشتغال بعداوتهم ولا ما قد يجرها عما ينفع من الطاعة، ولما كان التقدير: يغفر الله لكم، سـبب عنه قوله: {فإن الله} أي الجامع لصـفات الكمال {غفور} أي بالغ المحو الأعيان الذنوب وآثرها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بأن يصـلحهم لكم بسـبب غفرانكم لهم فإنه {رحيم *} يزيدكم بعد ذلك الستر الإكرام بالإنعام إن أكرمتموهم، فتخلقوا بأخلاقه سبحانه يزدكم من فضله.

▲ تفسير الآيات رقم [15– 18]

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)}

ولما حكم على البعض، كان كأنه قيل: فما حكم سائره؟ فكأن الحكم بذلك يلزم منه الحذر من الكل لكن للتصريح سر كبير في ركون النفس إليه، فقال حاصراً الجميع ضاماً إليهم المال الذي به قيام ذلك كله وقدمه لأنه أعظم فتنة: {إنما} وأسقط الجار لأن شيئاً من ذلك لا يخلو عن شغل القلب فقال: {أموالكم} أي عامة {وأولادكم} كذلك {فتنة} أي اختبار مميل عن الله لكم وهو أعلم بما في نفوسكم منكم لكن ليظهر في عالم الشهادة من يميله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يميله فيكون له نعمة، فربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده، وذلك أنه من شأنه أن يحمل على كسب الحرام ومنع الحق والإيقاع في الإثم، روي عن أبي نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري عنه أنه قال: «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال له: أكل عياله حسناته» «ويكفي فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله فتنة تعالى: {ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن} [التوبة: 75]» وكأنه سبحانه ترك ذكر الأزواج في الفتنة لأن منهم من يكون صلاحاً وعوناً على الآخرة.

ولما كان التقدير : ففي الاحتراز من فتنهم تعب كبير، لا يفوت به منهم إلى حظ يسـير، وكانت النفس عند ترك مشـتبهاتها ومحبوباتها قد تنفر، عطف عليه مهوناً له بالإشارة إلى كونه فانياً وقد وعد عليه بما لا نسبة له منه مع بقائه قوله: {والله} أي ذو الجلال {عنده} وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمه {أجر} ولم يكتف سـبحانه بدلالة السـياق على أن التنوين للتعظيم حتى وصـــفه بقوله: {عظيم *} أي لمن ائتمر بأوامره التي إنما نفعها لصاحبها، فلم يقدم على رضاه مالاً ولا ولداً، وذلك الأجر أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم على وجه ينقص من الطاعة.

ولما كان التقدير: وعنده عذاب أليم لمن خالف، سبب عنه قوله فذلكة أخرى لما تقدم من السـورة كلها: {فاتقوا الله} مظهراً غير مضـمر تعظيماً للمقام واحترازاً من أن يتوهم نوع تقيد فأفهم الإظهار أن المعنى: اجعلوا بينكم وبين سـخط الملك الأعلى وقاية من غير نظر إلى حيثية ولا خصـوصـية بشـيء ما، باجتناب نواهيه بعد امتثال أوامره، فإن التقوى إذا انفردت كان المراد بها فعل الأوامر وترك المناهي، وإذا جمعت مع غيرها أريد بها اجتناب النواهي فقط.

ولما كان الأمر إذا نسـب إليه سـبحانه أعظم من مقالة قائل، فلا يسـتطيع أحد أن يقدره سـبحانه حق قدره، خفف ويسـر بقوله: {ما اسـتطعتم} أي ما دمتم في الجملة قادرين مســـتطيعين، ويتوجه عليكم التكليف في العلميات والعمليات، وابذلوا جهدكم في ذلك في الإيمانيات لما علمتم من ذاته ومرتبته وصـــفاته تعالى وأفعاله، وغير ذلك من جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة،

وأعظمه الهجرة والجهاد، فلا يمنعكم الإخلاد إليها ذلك والتقوى فيما وقع من المكروهات بالندم والإقلاع مع العزم على ترك العود، وفيما لم يقع بالاحتراس عن أسبابه، وبذل الإنسان جميع جهده هو الاتقاء حق التقاة فلا نسخ- والله أعلم.

ولما كان إظهار الإسلام فيه مشقة كالأعمال قال: {واسمعوا} أي سماع إذعان وتسليم لما توعظون به ولجميع أوامره {وأطيعوا} أي وصدقوا ذلك الإذعان بمباشرة الأفعال الظاهرة في الإسلاميات من القيام بأمر الله والشفقة على خلق الله في كل أمر ونهي على حسب الطاقة، وحذف المتعلق ليصدق الأمر بكل طاعة من الكل والبعض وكذا في الإنفاق . ولما كان الإنفاق شديداً أكد أمره بتخصيصه بالذكر فقال: {وأنفقوا} أي أوقعوا الإنفاق كما حد لكم فيما أوجبه أو ندب إليه وإن كان في حق من اطلعتم منها على عداوة، والإنفاق لا يخص نوعاً بل يكون ما رزق الله من الذاتي والخارجي.

ولما كان الحامل على الشح ما يخطر في البال من الضرورات التي أعزها ضرورة النفس، رغب فيه بما ينصرف إليه بادئ بدء ويعم جميع ما تقدم فقال: {خيراً} أي يكن ذلك أعظم خير واقع {لأنفسكم} فإن الله يعطي خيراً منه في الدنيا ما يزكي به النفس، ويدخر عليه من الجزاء في الآخرة ما لا يدري كنهه، فلا يغرنكم عاجل شيء من ذلك فإنما هو زخرف وغرور لا طائل تحته. ولما ذكر ما في الإنفاق من الخير عم في جميع الأوامر فقال: {ومن يوق} بناه للمفعول تعظيماً للترغيب فيه نفسه مع قطع الناصر عن الفاعل أي يقيه واق أيّ واق كان- وأضافه إلى ما الشؤم كله منه فقال:

{شح نفسه} فيفعل في ماله وجميع ما أمر به ما يطيقه مما أمر به موقناً به مطمئناً إليه حتى يرتفع عن قلبه الأخطار، ويتحرز عن رق المكونات، والشح: خلق باطن هو الداء العضال رأس الحية وكل فتنة ضلالة، والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح، والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصي فتفعلها، وتارة بإعطاء الأعضاء في الطاعات فتتركها، وتارة بإنفاق المال، ومن فعل ما فرض عليه خرج عن الشح. ولما كان الواقي إنما هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله: {فأولئك} أي العالو الرتبة {هم} أي خاصة {المفلحون *} أي الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه من الكونيات من المال والولد والأهل والمشوشات من جميع القواطع. ولما أمر ورهب من ضده على وجه أعم، رغب فيه تأكيداً لأمره لما فيه نم الصعوبة لا سيما في زمان النبي صلى الله عليه وسلم فإن المال فيه كان في غاية العزة ولا سيما إن كان في لوازم النساء اللاتي افتتح الأمر بأن منهن أعداء ولا سيما إن كان في حال ظهور العداوة، فقال بياناً للإفلاح متلطفاً في الاستدعاء بالتعبير بالقرض مشيراً إلى أنه على خلاف الطبع بأدة الشك: {إن تقرضوا الله} أي الملك الأعلى ذا الغنى المطلق المستجمع لجميع صفات الكمال بصرف المال وجميع قواكم التي جعلها فتنة لكم في طاعاته، ورغب في الإحسان فيه بالإخلاص وغيره فقال: {قرضاً حسناً} أي على صفة الإخلاص والمبادرة ووضعه في أحسن مواضعه على أيسر الوجوه وأجملها وأهنأها وأعدلها، وأعظم الترغيب فيه بأن رتب عليه الربح في الدنيا والغفران في الآخرة فقال: {يضاعفه لكم} أي لأجلكم خاصة أقل ما يكون للواحد عشراً إلى ما لا

يتناهى على حسب النيات، قال القشيري: يتوجه الخطاب بهذا على الأغنياء في بذل أموالهم وعلى الفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم عن مراداتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفســـهم، فالغني يقال له : آثر على مرادك في مالك وغيره، والفقير يقال له: آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك.

ولما كان الإنســان لما له النقصــان وإن اجتهد لا يبلغ جميع ما أمر به لأن الدين وإن كان يسيراً فهو متين «لن يشاده أحد إلا غلبه» قال: {ويغفر لكم} أي يوقع الغفران وهو محو ما فرط عينه وأثره لأجلكم ببركة الإنفاق، وقد تضــمنت هاتان الجملتان جلب الســرور ودفع الشــرور، وذلك هو الســعادة كلها.

ولما كان التقدير : فاللّه غفور رحيم، عطف عليه قوله: {والله} أي الذي لا يقاس عظمته بشــيء {شــكور} أي بليغ الشــكر لمن يعطي لأجله ولو كان قليلاً فيثيبه ثواباً جزيلاً خارجاً عن الحصــر وهو ناظر إلى المضــاعفة {حليم *} لا يعاجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وإن عظم بل يمهل كثيراً طويلاً ليتذكر العبد الإحســان مع العصــيان فيتوب، ولا يهمل ولا يغتر بحلمه، فإن غضب الحليم لا يطاق، وهو راجع إلى الغفران.

ولما كان الحليم قد يتهم في حلمه بأن ينســب إلى الجهل بالذنب أو بمقداره قال: {عالم الغيب} وهو ما غاب عن الخلق كلهم فيشمل ما هو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصــاحب القلب به فضــلاً عن غيره. ولما كان قد يظن أنه لا يلزم من علم ما غاب علم ما شهد، أو يظن أن العلم إنما يتعلق بالكليات، قال موضــحاً أن علمه بالعالمين بكل من الكليات والجزئيات قبل

الكون وبعده على حد سواء: {والشهادة} وهو كل ما ظهر فكان بحيث يعلمه الخلق، وهذا الوصـــف داع إلى الإحســـان من حيث إنه يوجب للمؤمن ترك ظاهر الاسم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله كأنه يراه. ولما شـــمل ذلك كل ما غاب عن الخلق وما لم يغب عنهم فلم يبق إلا أن يتوهم أن تأخير العقوبة للعجز قال: {العزيز} أي الذي يغلب كل شـيء ولا يغلبه شـيء. ولما كان ذلك قد يكون لأمر آخر لا يمدح عليه قال: {الحكيم *} أي أنه ما أخره إلا لحكمة بالغة يعجز عن إدراكها الخلائق، وقد أقام الخلائق في طاعته بالجري تحت إرادته، وتارة يوافق ذلك أمره فيســـمى طاعة. وتارة يخالف فيســـمى معصـــية، فمن أراد أتم نعمته عليه بالتوفيق للطاعة بموافقته أمره بإحاطة علمه والإتقان في التدبير ببالغ حكمته وإدامة ذلك وحفظه عن كل آفة بباهر عزته، ومن أراد منعه ذلك بذلك أيضاً والكل تســـبيح له ســـبحانه بإفادة أنه الواحد القهار، وقد أحاط أول الجمعة بهذه الســـورة أولها وآخرها، فجاءت هذه شـــارحة له وكاشـــفة عنه على وجه أفخم لأن مقصـــود هذه نتيجة مقصـــد تلك، وقد رجع- بالتنزه عن شـــوائب النقص والاختصـــاص بجميع صـــفات الكمال وشـــمول القدرة للخق وإحاطة العلم بأحوال الكافر والمؤمن- على افتتاحها حســـن ختامها، وعلم علماً ظاهراً جلالة انتظامها، وبداعة اتســـاق جميع آيها وبراعة التئامها- والله الموفق للصواب.

65 Surah Al Talaaq

Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة الطلاق

تفسير الآية رقم [1]

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1)}

لما ختمت التغابن بأنه تعالى شكور حليم عزيز حكيم مع تمام العلم وشمول القدرة، بعد التحذير من النساء بالعداوة، وكانت العداوة تجر إلى الفراق، افتتح هذه بزم لأنفس عند ثوران الحظوظ بزمام التقوى، وأعلى الخطاب جداً بتوجيهه إلى أعلى الخلق تنبيهاً على عظمة الأحكام الواردة في هذه السورة فإنها مبنية على الأسماء الأربعة لتتلقى بغاية الرغبة فقال: {يا أيها النبي}

مخصصاً له صلى الله عليه وسلم، ذاكراً الوصف الذي هو سبب التلقي لغرائب العلوم ورغائب الحكم والفهوم.

ولما علم من الإقبال عليه صلى الله عليه وسلم عظمة الحكمة، ومن التعبير في النداء بأداة التوسط التي لا تذكر في أمر مهم جداً أن الذي هو أقرب أهل الحضرة غير مقصود بها من كل وجه، وأن القصد التنبيه لجلالة هذه الأحكام، وبذل الجهد في تفهيمها والعمل بها، فلذا أقبل على الأمة حين انتبهوا وألقوا أسماعهم، فقال معبراً بأداة التحقق لأنه من أعظم مواضعها: {إذا طلقتم} وعلم من ذلك عموم الحكم له صلى الله عليه وسلم لكن لما كان للإنسان مع نسائه حالان أحدهما المشاححة، كان غيره أولى بالخطاب فيه، وثانيهما الجود والمصالحة بالحلم والعفو، فكان هو صلى الله عليه وسلم أولى بذلك فجاءت له سورة التحريم {النساء} أي أردتم طلاق هذا النوع واحدة منه فأكثر {فطلقوهن} أي إن شئتم مطلق طلاق ثلاثاً أو دونها، وكلما قل كان أحب بدليل ما يأتي من لواحق الكلام من الإشارة إلى الرجعة {لعدتهن} أي في وقت أو عند استقبال العدة أي استقبال طهر يحسب منها، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه إن كانت مدخولاً بها، ذلك معنى قراءة ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم «في قبل عدتهن» فهذا طلاق السنة وغيره طلاق البدعة، فإن الطلاق في الحيض تطويل للعدة لأنه غير محسوب، ولا بد أن يكون الطهر لم يجامع فيه لأنها إذا جومعت ربما حملت فطالت العدة، وهذه اللام للوقت مثلها في «كتب هذا لخمس بقين من شهر كذا» واختير التعبير بها لأنها تفهم مع ذلك أن ما دخلت عليه كالعلة الحاملة على متعلقها،

فصـــار كأنه قيل: طلقوا لأجل العدة وإذا كان لأجلها علم أن المراد تخفيفها على المرأة بحسـب الطاقة لأن مبنى الدين على اليسـر، وذلك دال على أن العدة بالأسـهار، وأن الطلاق في الحيض حرام لأن الأمر بالشـيء نهي عن ضده، ولا يدل على عدم الوقوع لأن النهي غير مستلزم للفساد، وقد بين ذلك كله «حديث ابن عمر رضـي الله عنهما في طلاقه زوجته في الحيض الذي كان سبب النزول، فغضـب النبي صـلى الله عليه وسلم وأمره أن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس«

وعلم أن من عدتها بغير الأقراء التي يمكن طولها وقصـــرها وهي غير المدخول بها والتي لم تحض والآئسـة والحامل لا سنة في طلاقها ولا بدعة، وكذا للخالعة لأن النبي صـلى الله عليه وسلم أذن لثابت بن قيس رضـي الله عنه في الخلع من غير استفصال عن حال امرأته لأنه إنما يكون في الغالب عن تشـاجر وتسـاؤل من المرأة، ويقع الطلاق البدعي لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم أمر ابن عمر رضـــي الله عنهما بالمراجعة منه، ويأثم به بعد العلم، ولو طلق في الحيض وراجع جاز له أن يطلق حال انقضـاء الحيض قبل المجامعة، والأمر بالإمساك إلى كمال الطهر والحيض الذي بعده للندب حتى لا يكون في صـــورة من راجع للطلاق، ولا بدعة في جمع الثلاثة لأنه لا إشـارة إليه في الآية ولا في حديث ابن عمر رضـــي الله عنهما الذي هو سـببها، نعم قد يدعي ذلك في آية البقرة في قوله تعالى: {الطلاق مرتان} [البقرة: 229] و«الطلاق أبغض الحلال إلى الله» كما رواه أبو داود وابن

ماجه عن ابن عمر رضـي الله عنهما فأبغضـه إليه أنهاه «وما حلف به ولا استحلف إلا منافق» كما في الفردوس عن أنس رضي الله عنه.

ولما كان نظر الشـارع إلى العدة شـديداً لما فيها من الحكم بالتأني لاحتمال الندم وبالظن لبراءة الرحم احتياطاً للأنسـاب وبقطع المنازعات والمشـاجرات المفضـية إلى ذهاب الأموال والارواح، وقد أفهمه التعبير باللام، صـرح به بصيغة الأمر فقال: {وأحصوا} أي اضبطوا ضبطاً كأنه في إتقانه محسوس بعد الحصـي {العدة} لتكملوها ثلاثة أقراء كما تقدم الأمر به ليعرف زمان النفقة والرجعة والسـكنى وحل النكاح لأخت المطلقة مثلاً ونحو ذلك من الفوائد الجليلة. ولما كان الطلاق على غير هذا الوجه حراماً للضـرار ومخالفة الأمر وكذا التهاون في الضـبط حتى يحتمل أن تنكح المرأة قبل الانقضاء، أمر بمجانبة ذلك كله بقوله: {واتقوا} أي في ذلك {الله} أي الملك الأعظم الذي له الخلق والأمر لذاته في الزمن والإحصـاء لأن في ذلك ما هو حقه {ربكم} أي لإحسـانه في تربيتكم في حملكم على الحنيفية السـمحة ودفع جميع الآصار عنكم.

ولما أمر بالتقوى وناط بعضـها بصفة الإحسان فسره بقوله: {لا تخرجوهن} أي أيها الرجال في حال العدة {من بيوتهن} أي المسـاكن التي وقع وهي سـكنهن، وكأنه عبر بذلك إشـارة إلى أن اسـتحقاقها لإيفاء العدة به في العظمة كاسـتحقاق المالك، ولأنها كانت في حال العصـمة كأنها مالكة له، فليس من المروءة إظهار الجفاء بمنعها منه، ولأنها إن روجعت كانت

حاصـــــلة في الحوزة ولم يفحش الزوج في المقاطعة، وإن لم يحصـــــل ذلك فظهر أنها حامل لم تحصل شبهة في الحمل.

ولما كان ذلك ربما أفهم أنه لحقهن فقط نفاه بقوله: {ولا يخرجن} أي بأنفســـهن إن أردن ذلك من غير مخرج من جهة الزوج أو غيره، فعلم من ذلك تحتم اســتكمال العدة في موضــع الســكنى وأن الإسـكان على الزوج، وتخرج لضرورة بيع الغزل وجذاذ النخل ونحوه. ولما كان منطوق ذلك أنه لا يجوز له إخراجها كارهة، ولا يجوز لها أن تخرج بنفسـها فقط وهو كاره فأفهم ذلك أنهما لو اتفقا جاز لأن ذلك خارج عن المنهي، اسـتثنى من كلا شـقي المنهي عنه بقوله. {إلآ أن يأتين} أي جنس المطلقات الصادق بواحدة وأكثر {بفاحشـة} أي خصـلة محرمة شـديدة القباحة {مبينة} أي ظاهرة في نفسـها ظهوراً بيناً عند كل من أريد بيانها له، وذلك كالبذاءة منها على الزوج أو أقاربه فإنه كالنشوز يسقط حقها من السكنى، فيجوز له إخراجها لقطع الشر، وهو معنى قراءة أبي رضـي الله عنه: إلا أن يفحشـن عليكم، وكالزنا فتخرج بنفســـها ويخرجها غيرها من الزوج وغيره لإقامة الحد عليها وغير ذلك من الفواحش كما أنه يطلقها للنشوز فإنه لا سكنى لها حينئذ.

ولما كان التقدير: هذه أحكام هذا الفرع، عطف عليه تعظيماً لها قوله تعالى: {وتلك} أي الأحكام العالية جداً بما فيها من الجلالة وبانتسـابها إلى الملك الأعلى من هذا الذي ذكر في هذه السورة وغيره {حدود الله} أي الملك الأعظم الذي هو نور السـماوات والأرض. ولما كان التقدير: فمن تحاماها فقد أنصف نفسه بأخذه النور المبين، عطف عليه قوله: {ومن يتعد} أي يقع

منه في وقت من الأوقات أنه يتعمد أن يعدو {حدود الله} أي الملك الأعظم {فقد ظلم نفسه} بأن مشاها في الظلام فصارت تضع الأشياء في غير مواضعها، فصار بمعرض الهلاك بالعقاب كما أن الماشي في الظلام معرض للوقوع في حفرة والدوس على شوكة أو حية أو عقرب أو سبع، أو لأن ينفرد بقاطع، أو أن يضل عن الطريق إلى مهالك لا يمكن النجاة منها، ومثال ذلك الحكيم إذا وصف دواء بقانون معلوم في وقت محدود ومكان مخصوص فخولف لم يضر المخالف ذلك الحكيم وإنما ضر نفسه.

ولما كان له الخلق جميعاً تحت أوامره سبحانه مع أنها كلها خير لا شر فيه بوجه إسرار وإغوار، لا تدرك ولا تحصى، وقد يظهر بعضها لسان الحدثان بيد القدرة، وكان متعديها ظالماً وكان من أقرب ظلمه وأبينه الإيقاع في مهاوي العشق، فسره سبحانه بقوله مبيناً عظمته بخطاب الإعلاء: {لا تدري} أي يا أيها النبي الكريم ما يكون عن ذلك من الأمور التي يحدثها الله لتشير على المطلق بشيء مما يصلحه فغيرك من باب الأولى.

ولما نفى عنه العلم المغيب لاختصاصه سبحانه به وحذف المتعلق إعراقاً في التعميم، وكان كل أحد فيما يحدث له من الأمور ما بين رجاء وإشفاق، عبر عن ذلك بأداة صالحة لها فقال: {لعل الله} أي الذي بيده القلوب ومقاليد جميع الأمور {يحدث} أي يوجد شيئاً حادثاً لم يكن إيجاداً ثابتاً لا يقدر الخلق على التسبب في زواله فيكون مستغرقاً لزمان العمر كما أشار إليه نزع الخافض في قوله تعالى: {بعد ذلك} أي الحادث من الإشارة بالضرار بالإخراج أو تطويل العدة أو غير ذلك {أمراً *} أي من الأمور

المهمة كالرغبة المفرطة في الزوجة فلا يتأتى ذلك إما بأن كان الضـــرار بالطلاق الثلاث أو بأن كانت من ذوي الأنفة فأثرت فيها الإســـاءة وفيمن ينتصر لها فمنعت نفسها منه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم قوله {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله} [المنافقين: 9] وقوله في التغابن: {إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم} [التغابن: 14] وقوله تعالى {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} [التغابن: 15] والمؤمن قد يعرض له ما يضـطره إلى فراق من نبه على فتنته وعظيم محنته، وردت هذه الســورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق، وموضـــحة أحكام الطلاق، وأن هذه العداوة وإن اســتحكمت ونار هذه الفتنة، إن اضــطرمت لا توجب التبرؤ بالجملة وقطع المعروف {لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً} [الطلاق: 1] ووصـــى سـبحانه بالإحسـان المجمل في قوله: {أو تسـريح بإحسـان} [البقرة: 229] وبين تفصـــيل ذلك وما يتعلق به، فهذا الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تســـتعده المطلقة في عدتها وتحســـبه من مدتها تحذيراً من إيقاع الطلاق في الحيض الموجب تطويل العدة وتكثير المدة، وأكد هذا ســـبحانه بقوله {واتقوا الله ربكم} [الطلاق: 1] ثم نبه سـبحانه على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مســتقرهن حين إيقاع الطلاق إلى انقضـــاء العدة فقال: {لا تخرجوهن من بيوتهن} [الطلاق: 1] إلى ما اسـتمرت عليه السـورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله. ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما ســوى الرفض والترك بخلاف

المرأة، لم يحتج إلى ما احتيج إليه في حقهن فقد وضـــح وجه ورود ســـورة الطلاق في هذا الموضع- والله سبحانه وتعالى أعلم انتهى.

▲ تفسير الآيات رقم [2- 3]

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)}

ولما حد سبحانه ما يفعل في العدة، أتبعه ما يفعل عند انقضائها فسبب عما أمره بها فيها معبراً بأداة التحقق لأن الخطاب على تقدير الحياة، معلماً أن له الرجعة إلى آخر جزء من العدة لأنها إذا ثبتت في آخرها البعيد من الطلاق كان ما قبله أولى لأنه أقرب إلى الطلاق فقال: {فإذا بلغن} أي المطلقات {أجلهن} أي شارفن انقضاء العدة مشارفة عظيمة {فأمسكوهن} أي بالمراجعة، وهذا يدل على أن الأولى من الطلاق ما دون البائن لا سيما الثلاث. ولما كان الإنسان لما له من النقصان لا يقدر على كمال الإحسان قال منكراً: {بمعروف} أي حسن عشرة لا بقصد المضارة بطلاق آخر لأجل إيجاب عدة أخرى ولا غير ذلك {أو فارقوهن} أي بعدم المراجعة لتتم العدة فتملك نفسها {بمعروف} بإيفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر عرفه الشرع- أي حسنه- فلا يقصد أذاها بتفريقها من ولدها مثلاً أو منه إن كانت محبة له مثلاً بقصد الأذى فقط من غير مصلحة وكذا ما أشبه ذلك من

أنواع الضرر بالفعل أو القول، فقد تضمنت الآية بإفصاحها الحث على فعل الخيرات وبإبهامها اجتناب المنكرات.

ولما كان كل من المرافقة والمفارقة أمراً عظيماً، تبنى عليه أحكام فتحرم أضدادها، فيكون الخلاف فيها في غاية الخطر، وكان الإشهاد أليق بالمراد، وأقطع للنزاع، قال تعالى حاثاً على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة: {وأشـهدوا} أي على المراجعة أو المفارقة {ذوي عدل} أي مكلفين حرين ثقتين يقظين {منكم} أي مسـلمين وهو أمر إرشـاد مندوب إليه، وعن الشـافعي رضـي الله تعالى عنه وجوبه في الرجعية والصـحيح الأول، ومن فوائده أن لا يموت أحدهما فيدعي الآخر الزوجية ببقاء علقة العدة ليرث.

ولما كان أداء الشـهادة يعسـر على الشـاهد لترك مهماته وعسـر لقاء الحكم الذي يؤدي عنده، وربما بعد مكانه، وكان للعدل في الأداء عوائق أيضـاً، وكان الشـهود من المأمورين بالإشـهاد، حث على الأداء على وجه العدل بقوله: {وأقيموا} أي أيها المأمورون حيث كنتم شـهوداً {الشـهادة} أي التي تحملتموها بأدائها على أكمل أحوالها كما يفعل من يريد إقامة شـيء ليصـير واقفاً بنفسه غير محتاج إلى ما يدعمه. ولما كان ربما ميل أحد من المشهود عليهما الشاهد بشيء من المرغبات فأداها على وجهها لذلك الشيء لا لكونه الحق، قال مرغباً مرهباً {لله} أي مخلصـين لوجه الملك الأعلى المحيط بكل شـيء علماً وقدرة وهو ذو الجلال والإكرام في أدائها على وجه الحق ظاهراً وباطناً، لا لأجل المشهود له ولا المشهود عليه، ولا شيء سوى وجه الله.

ولما كانت أحكامه ســـبحانه وتعالى لا ســـيما في الكتاب المعجز مقرونة بعللها وفيها عند التأمل رقائق ودقائق تخشـــع لها القلوب وتجب الأفئدة في داخل الصــدور قال {ذلكم} أي الذي ذكرت لكم أيتها الأمة من هذه الأمور البديعة النظام العالية المرام، وأولاها بذلك هنا الإشهاد وإقامة الشهادة.

ولما كانت أوامر الله تعالى وقصـصــه وأحكامه وجميع كلامه مختصـاً من بين كلام الناس بأنه يرقق القلوب ويلين الشــكائم لكونه روحاً لما فيه العدل الذي تهواه النفوس، وتعشـــقه الألباب، وتميل إليه الطبائع، وقامت به الســماوات والأرض، ولما فيه أيضــاً من ذكر من تعشــقه الفطر القويمة من جميع أهل الخير من الأنبياء والملائكة والأولياء، مع تشـــريف الكل بذكر الله، ســمي وعظاً، وبني للمجهول إشــارة إلى أن الوعظ بنفســه نافع ولو لم يعرف قائله، وإلى أن الفاعل معروف أنه الله لكونه ســـمي وعظاً مع كونه أحكاماً فقال: {يوعظ به} أي يلين ويرقق {من كان} أي كوناً راســخاً، من جميع الناس {يؤمن بالله} أي يوقع ويجدد منكم ومن غيركم على ســـبيل الاستمرار من صميم قلبه الإيمان بالملك الذي له الكمال كله.

ولما كان البعث محط الحكمة لأن الدنيا مزرعة للآخرة، ولا يكون زرع بغير حصــــاد، كان خلو الإيمان عنه معدماً للإيمان فقال: {واليوم الآخر} فإنه المحط الأعظم للترقيق، أما من لم يكن متصــفاً بذلك فكأنه لقســاوة قلبه ما وعظ به لأنه لم ينتفع به أبداً.

ولما كانت العبادة لا تكون إلا بالإعانة، وكان التقدير: فمن اتعظ بذلك كان اتعاظه شــاهداً له بإيمانه بذلك، وكان متقياً، عطف عليه قوله اعتراضــاً بين

هذه الأحكام تأكيداً للترغيب في الإعانة المترتبة على التقوى: {ومن يتق الله} أي يخف الملك الأعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية مما يرضيه، وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهى عنه من الطلاق وغيره ظاهراً وباطناً، وذلك صلاح قوي العلم بالإيمان والعمل بفعل المأمور به وترك المنهي عنه لأنه تقدم أن التقوى إذا انفردت في القرآن عن مقارن عمت الأمر والنهي، وإذا قرنت بغيرها نحو إحسان أو رضوان خصت المناهي: {يجعل} أي الله سبحانه بسبب التقوى {له مخرجاً *} بدفع المضار من كل ضيق أحاط به في نظير ما اجتنب من المناهي {ويرزقه} بحوله وقوته بجلب المسار في الدين والدنيا والآخرة في نظير ما اجتلب من فعل الأوامر. ولما كان أحلى الهبات ما جاء من مكان لا يرجى قال: {من حيث لا يحتسب} أي لا يقوى رجاؤه له، ولما أكد في هذا وأعظم الوعد لأنه وإن كان عاماً لكل متق فتعلقه بما تقدم أقوى والنظر فيما تقدم إلى حقوق العباد أكثر، والمضايقة فيها أشد، والدواعي إليها أبلغ، فالاتقاء فيه بعدم الطلاق في الحيض والإضرار بالمرأة بتطويل العدة أو الإخراج من المسكن وكتمان الشهادة والعسر في أدائها والإخلال بشيء منها والتأكيد والإبلاغ في الوعد لأجل ما جبل عليه الإنسان من القلق في أموره، عطف على ذلك قوله: {ومن يتوكل} أي يسند أموره كلها ويفوضها معتمداً فيها {على الله} أي الملك الذي بيده كل شيء ولا كفوء له فقد جمع الأركان الثلاثة التي لا يصلح التوكيل إلا بها، وهي العلم المحيط لئلا يدلس عليه، والقدرة التامة لئلا يعجز، والرحمة بالمتوكل والعناية به لئلا يحيف عليه، والتوكل يكون

مع مباشرة الأسباب وهو من المقامات العظيمة وإلا كان اتكالاً، وليس بمقام بل خسة همة وعدم مروءة، لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتيب المسببات على الأسباب- قاله الملوي {فهو} أي الله في غيب غيبه فضلاً عن الشهادة بسبب توكله {حسبه} أي كافيه، وحذف المتعلق للتعميم، وحرف الاستعلاء للاشارة إلى أنه قد حمل أموره كلها عليه سبحانه لأنه القوي الذي لا يعصيه شيء، والكريم الذي يحسن حمل ذلك ورعيه، والعزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار، إلى غير ذلك من المعاني الكبار، فلا يبدو له في عالم الشهادة شيء يشقيه لا من الغيب ولا من غيب الغيب، وفي الحديث

«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

ولما كان ذلك أمراً لا يكاد يحيط به الوهم، علله بقوله مهولاً له بالتأكيد والإظهار في موضع الإضمار: {إن الله} أي المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص {بالغ أمره} أي جميع ما يريده فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا، وسماه أمراً إشارة إلى أنه مما يستحق أن يؤمر به وإلى أنه في سرعة الكون إذا أريد لم يتخلف بوجه بل يكون كالمؤتمر الحقير للملك الجليل الكبير.

ولما كان ضرب المقادير من القادر موجباً لعدم الإخلال بشيء منها، علل ذلك بما اقتضى تحتم الوعد والتوكل فقال: {قد جعل الله} أي الملك الذي لا كفوء له ولا معقب لحكمه جعلاً مطلقاً من غير تقيد بجهة ولا حيثية {لكل

شـيء قدراً *} أي تقديراً لا يتعداه في مقداره وزمانه ومكانه وجميع عوارضـه وأحواله وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه، فمن توكل اسـتفاد الأجر وخفف عنه الألم، وقذف في قلبه السكينة، ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك، وزاد ألمه وطال غمه بشـدة سـعيه وخيبة أسـبابه التي يعتقد أنها هي المنجحة، فمن رضـي فله الرضـى ومن سـخط فله السـخط، جف القلم فلا يزاد في المقادير شـيء ولا ينقص منها شـيء، ويحكى أن رجلاً أتى عمر رضـي الله عنه فقال: أولني مما أولاك الله فقال: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال: إنا لا نولي من لا يقرأ القرآن، فانصـرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود إلى عمر فيوليه، فلما تعلم القرآن تخلف عن عمر فرآه ذات يوم فقال: يا هذا! أهجرتنا، فقال: يا أمير المؤمنين! لسـت ممن يهجر؟ ولكني تعلمت القرآن فأغناني الله عن عمر وعن باب عمر، قال: أي آية أغنتك؟ قال: قوله تعالى:

{ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسـب} [الطلاق: 2 و3] انتهى. ومن توكل على غيره سـبحانه وتعالى ضـاع لأنه لا يعلم المصـالح وإن علمها لم يعلم أين هي، وإن علم لم يعلم متى يسـتعملها وإن علم لم يعلم كم المقدار المسـتعمل، وإن علم لم يعلم كيف يسـتعملها وهو سـبحانه المنفرد بعلم ذلك كله وما لا يعلمه حق علمه غيره، والآية تفهم أن من لم يتق الله يقتر عليه، وهو موافق لما روى ابن حبان في صـحيحه والحاكم واللفظ له– وقال: صحيح الإسناد– عن ثوبان رضـي الله عنه قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: «لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في

العمرّ إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصـــــيبه» وتفهم أن من لم يتوكل لم يكف شيئاً من الأشياء.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 6]

{وَاللَّائِي يَئِسْـــنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَـــائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْـــهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْـنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَـعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْــرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَـيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5) أَسْـكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَـكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَـارُّوهُنَّ لِتُضَـيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَـعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6)}

ولما وســـط بين العدد هذه الجمل الواعظة دلالة على عظمتها حثاً على امتثالها والمبادرة إليها، وختم بالتقدير، أتبع ذلك بيان مقادير العدد على وجه أبان أن الكلام الماضـي كان في الحوائض الرجعيات فقال: {واللائي يئسـن} أي من المطلقات {من المحيض} أي الحيض وزمانه لوصـــولها إلى ســـن يجاوز القدر الذي ترجو فيه النسـاء الحيض فصـارت بحيث لا ترجوه، وذلك السن خمس وخمسون سنة أو ستون سنة، وقيل: سبعون وهن القواعد، وأما من انقطع حيضـها في زمن ترجو فيه الحيض فإنها تنتظر سن اليأس.

ولما كان هذا الحكم خاصـاً بأزواج المسـلمين لحرمة فرشـهم وحفظ أنسـابهم قال: {من نسائكم} أي أيها المسلمون سواء كن مسلمات أو من أهل الكتاب، ولما كان الموجب للعدة إنما هو الدخول لا مجرد الطلاق قال: {إن ارتبتم}

بأن أجلتم النظر في أمرهن، فأداكم إلى ريب في هل هن حاملات أم لا، وذلك بالدخول عليهن الذي هو سـبب الريب بالحمل في الجملة {فعدتهن ثلاثة أشهر} كل شهر يقوم مقام حيضة لأن أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر.

ولما أتم قسمي ذوات الحيض إشارة وعبارة قال: {واللائي لم يحضن} أي لصغرهن أو لأنهن لا حيض لهن أصلاً وإن كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، وهذا مشير إلى أن أولات الحيض بائنات كن أو لا عدتهن ثلاثة قروء كما تقدم في البقرة لأن هذه الأشهر عوض عنها، فأما أن يكون القرء- وهو الطهر- بين حيضتين، أو بين الطلاق والحيض، وهذا كله في المطلقة، وأما المتوفى عنها زوجها فأربعة أشهر وعشراً كما في البقرة.

ولما فرغ من آئسات الحوامل أتبعه ذكر الحوامل فقال: {وأولات الأحمال} أي من جميع الزوجات المسلمات والكفار المطلقات على كل حال والمتوفى عنهن إذا كان حملهن من الزوج مسلماً كان أو لا {أجلهن} أي لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل حيض أم لا {أن يضعن} ولما كان توحيد الحمل لا ينشأ عنه لبس، وكان الجمع ربما أوهم أنه لا تحل واحدة منهن حتى يضع جمعاً قال: {حملهن} وهذا على عمومه مخصص لآية {يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً} [البقرة: 234] لأن المحافظة على عمومه أولى من المحافظة على عموم ذلك في قوله: {أزواجاً} لأن عموم هذه بالذات لأن الموصول من صيغ العموم، وعموم {أزواجاً} بالعرض لأنه بدلي لا يصلح لتناول جميع الأزواج في حال واحد، والحكم معلل هنا بوصف

الحملية بخلاف ذاك ولأن سـبيعة بنت الحارث وضـعت حملها بعد وفاة زوجها بليال، فأذن لها النبي صلى الله عليه وسلم أن تتزوج، ولأن هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة، فتقديمها على تلك تخصـيص، وتقديم تلك في العمل بعمومها رفع لما في الخاص من الحكم فهو نسـخ والأول هو الراجح للوفاق عليه، فإن كان الحمل من زنا أو شـبهة فلا حرمة له، والعدة بالحيض.

ولما كانت أمور النسـاء في المعاشـرة والمفارقة من المعاسـرة والمياسـرة في غاية المشـقة، فلا يحمل على العدل فيها والعفة إلا خوف الله، كرر تلميعاً بالحث على التقوى إشـارة إلى ذلك وترغيباً في لزوم ما حده سـبحانه، فقال عاطفاً على ما تقديره: فمن لم يحفظ هذه الحدود عسـر الله عليه أموره: {ومن يتق الله} أي يوجد الخوف من الملك الأعظم إيجاداً مسـتمراً ليجعل بينه وبين سـخطه وقاية من طاعاته اجتلاباً للمأمور واجتناباً للمنهي {يجعل له} أي يوجد إيجاداً مسـتمراً باسـتمرار التقوى «إن الله لا يمل حتى تملوا» {من أمره} أي كله في النكاح وغيره {يسـراً *} أي سـهولة وفرجاً وخيراً في الدارين بالدفع والنفع، وذلك أعظم من مطلق المخرج المتقدم في الآية الأولى.

ولما كان تكرير الحث على التقوى للسؤال عن سببه، استأنف قوله كالتعليل له: {ذلك} أي الأمر المذكور من جميع هذه الأحكام العالية المراتب {أمر الله} أي الملك الأعلى الذي له الكمال كله، ونبه على علو رتبة الأمر بقوله: {أنزله إليكم} ولما كان التقدير: فمن أباه هوى في مهاوي المهلكات إلى

أسفل سافلين، عطف عليه قوله: {ومن يتق الله} أي الذي لا أمر لأحد معه بالاجتلاب والاجتناب، ولما كان الإنسان محل العجز والنقصان، أنسه بأنه إذا وقع منه زلل فراجعه بالتقوى لطف به فيه جزاء على تقواه بالدفع والنفع فقال: {يكفر} أي يغطي تغطية عظيمة ويستر ويغيب ويسقط {عنه} جميع {سيئاته} ليتخلى عن المبعدات فإن الحسنات يذهبن السيئات. ولما كان الكريم لا يرضى لمن أقبل إليه بالعفو فقط قال: {ويعظم له أجراً *} بأن يبدل سيئاته حسنات ويوفيه أجرها في الدارين مضاعفاً فيتحلى بالمقربات، وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم. ولما قدم التكفير وأتبعه الأجر الكبير، وكان قد تقدم إيجاب ترك المطلقة في منزل الطلاق وأذن في إخراجها عند الفاحشة المبينة، وكان ربما كان منزل الطلاق مستعاراً، وكان مما لا يليق بالزوج، وكان ربما نزل الكلام السابق عليه، استأنف البيان له بما لا يحتمل لبساً فقال آمراً بعد ذلك النهي على وجه مشير بسابقه ولاحقه إلى الحلم عنهن فيما يمكن الحلم فيه حفظاً للقلوب وإبعاداً للشقاق بعد الإيحاش بالطلاق لئلا يعظم الكسر والوحشة: {أسكنوهن} أي هؤلاء المفارقات في العدة إن كن مطلقات حاملات كن أو لا مبتوتات كن أو رجعيات بخلاف ما كان من العدة عن وفاة بغير حمل أو كان عن شبهة أو فسخ.

ولما كان المراد مسكناً يليق بها وإن كان بعض مسكن الرجل، إدخل أداة التبعيض فقال: {من حيث سكنتم} أي من أماكن سكناكم لتكون قريبة منكم ليسهل تفقدكم لها للحفظ وقضاء الحاجات.

ولما كان الإنسـان ربما سـكن في ماضـي الزمان ما لا يقدر عليه الآن قال مبيناً للمسكن المأمور به مبقياً للموادة بعدم التكليف بما يشق: {من وجدكم} أي سعتكم وطاقتكم بإجارة أو ملك أو إعارة حتى تنقضـي العدة بحمل كانت أو غيره. ولما كان الإسـكان قد يكون مع الشـنآن قال: {ولا تضـاروهن} أي حال السكنى في المسكن ولا في غيره. ولما كانت المضارة قد يكون لمقصد حسـن بأن يكون تأديباً لأمر بمعروف ليتوصـل بصـورة شر قليل ظاهر إلى خير كثير قال: {لتضيقوا} أي تضييقاً بالغاً لا شبهة في كونه كذلك مستعلياً {عليهن} حتى يلجئهن ذلك إلى الخروج. ولما كانت النفقة واجبة للرجعية، وكانت عدتها تارة بالأقراء وتارة بالأشـــهر وتارة بالحمل، وكان ربما توهم أن ما بعد الثلاثة الأشـــهر من مدة الحمل للرجعية وجميع المدة لغيرها لا يجب الإنفاق فيه قال: {وإن كن} أي المعتدات {أولات حمل} أي من الأزواج كيف مـا كـانـت العدة من موت أو طـلاق بـائن أو رجعي {فـأنفقوا عليهن} وإن مضـــت الأشـــهر {حتى يضـــعن حملهن} فإن العلة الاعتداد بالحمل، وهذه الشـــرطية تدل على اختصـــاص الحوامل من بين المعتدات البوائن بوجوب النفقة.

ولما غيى سـبحانه وجوب الإنفاق بالوضـع، وكانت قد تريد إرضـاع ولدها، وكان اشـتغالها بإرضـاعه يفوت عليها كثيراً من مقاصـدها ويكسـرها، جبرها بأن قال حاثاً على مكافأة الأخوان على الإحسـان مشـيراً بأداة الشـك إلى أنه لا يجيب عليها الإرضـاع: {فإن أرضـعن} وبين أن النسـب للرجال بقوله تعالى: {لكم} أي بأجرة بعد انقطاع علقة النكاح {فآتوهن أجورهن} على ذلك

الإرضـــاع. ولما كان ما يتعلق بالنســاء من مثل ذلك موضـــع المشــاجرة لا ســيما أمر الرضـــاع، وكان الخطر في أمره شــديداً، وكان الله تعالى قد رحم هذه الأمة بأنه يحرك لكل متشـــاحين من يأمرهما بخير لا ســـيما في أمر الولد رحمة له قال مشـيراً إلى ذلك: {وأتمروا} أي ليأمر بعضـكم بعضـاً في الإرضاع والأجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض، وزادهم رغبة في ذلك بقوله: {بينكم} أي إن هذا الخير لا يعدوكم، وأكد ذلك بقوله: {بمعروف} ونكره سبحانه تحقيقاً على الأمة بالرضى بالمستطاع، وهو يكون مع الخلق بالإنصاف، ومع النفس بالخلاف، ومع الحق بالاعتراف.

ولما كان ذلك موجباً للمياســـرة، وكان قد يوجد في الناس من الغالب عليه الشر، قال مشيراً بالتعبير بأداة الشك إلى أن ذلك وإن وجد فهو قليل عاطفاً على ما تقديره فإن تياســـرتم فهو حظكم وأنتم جديرون بســـماع هذا الوعد بذلك: {وإن تعاسـرتم} أي طلب كل منكم ما يعسـر على الآخر بأن طلبت المرأة الأجرة وطلب الزوج إرضاعها مجاناً فليس له أن يكرهها.

ولما كان سبحانه قد تكفل بأرزاق عباده وقدرها قبل إيجادهم. قال مخبراً جبراً للأب بما يصـلح عتاباً للأم: {فسـترضـع} أي بوعد لا خلف فيه، وصـرف الخطـاب إلى الغيبـة إيذانـاً بـأن الأب ترك الأولى فيمـا هو جـدير بـه من المياسرة لكونه حقيقاً بأن يكون أوسع بطاناً وأعظم شأناً من أن يضيق عما ترضى به المرأة استناناً به صلى الله عليه وسلم في أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطعية رحم فقال: {له} أي الأب {أخرى

*} أي مرضـــعة غير الأم ويغني الله عنها وليس له إكرهها إلا إذا لم يقبل ثدي غيرها، وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك.

▲ تفسير الآية رقم [7]

{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)}

ولما كانت المعاســرة في الغالب في ترك الســماح، وكان ترك الســماح من خوف الإعدام، نبه سبحانه على أن ذلك ليس بعذر بتقسيم الناس إلى موسع عليه وغيره، ولأن الأليق بالموســع عليه أن يوســع ولا يســيء الظن بربه وقد جرب رفده، وأن المقتر عليه لا ينبغي أن يفعل فعل من يخاف أن يخلف وعده، فقال شــارحاً للمياســرة: {لينفق ذو ســعة} أي مال واســع ولم يكلفه سبحانه جميع وسعه بل قال: {من سعته} التي أوسعها الله عليه. ولما كان الإعطاء من غير تقدير ملزوماً للسعة، كان التقدير كناية عن الضيق فقال: {ومن قدر} أي ضيق وسكنت عليه حركته ورقدت عنه معيشته {عليه رزقه} بأن جعله الله الذي لا يقدر على التضـييق والتوسـيع غيره بقدر ضــرورياته فقط من غير وســع لشــيء غيرها لأمر من الأمور التي يظهر الله بها عجز العباد رحمة لهم ليهذب به نفوسهم، وبناه للمفعول تعليماً للأدب معه سبحانه وتعالى: {فلينفق} أي وجوباً على المرضع وغيرها من كل ما أوجبه الله عليه أو ندبه إليه، وبشر سبحانه وتعالى بأنه لا يخلي أحداً من شيء يقوم به ما دام حياً بقوله مشــيراً بالتبعيض إلى أن ما أوجبه ســبحانه لا يســتغرق ما وهبه: {مما آتاه الله} أي الملك الذي لا ينفذ ما عنده ولا حد لجوده، ولو من

رأس المال ومتابع البيت ومن ثمن الضـــيعة إن لم يكن له من الغلة لأنه سبحانه قد ضمن الإخلاف، ومن ملك ما يكفيه للوقت ثم اهتم للزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرحوم، وصاحبه غير معان، وفي هذا إرشاد إلى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في عدم التكلف واليسر في كل أمر على حسب الأوقات.

ولما كان تعالى له التكليف بما لا يطاق، أخبر بأنه رحم العباد بأنه لا يفعله، فقال معللاً أو مســـتأنفاً جواباً لمن يقول : فما يفعل من لم يكن له موجود أصلاً، محبباً في دينه صلى الله عليه وسلم مما فيه من اليسر: {لا يكلف الله} أي الذي له الكمال بأوصــــاف الرحمة والإنعام علينا بالتخفيف {نفساً} أي نفس كانت {إلا ما آتاها} وربما أفهم، أن من كلف إنفاقاً وجد من فضل ما عنده ما يسده من الأثاث الفاضل عن سد جوعته وستر عورته.

ولما كان التذكير بالإعدام ربما أوجع، قال تعالى جابراً له وتطبيباً لقلبه نادباً إلى الإيمان بالغيب: {سيجعل الله} أي الملك الذي له الكمال كله فلا خلف لوعده، ونزع الجار زيادة في الخبر فقال: {بعد عسر} أي من الأمور التي تعسرت لا أنه يجعل ذلك بعد كل عسر {يسراً *} أي لا بد من ذلك ولا يوجد أحد يستمر التقتير عليه طول عمره في جميع أحواله، قال القشيري: وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال الذين انحطوا عن درجة الرضى واستواء وجود السبب وفقده وارتقوا عن حد اليأس والقنوط ويعيشون في أفناء الرجاء ويتعللون بحســن المواعيد- انتهى. ولقد صــدق الله وعده فيمن كانوا موجودين حين نزول الآية، ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ثم

فارس والروم وانتثلوا كنوزها حتى صـــاروا أغنى الناس، وصـــدق الآية دائم غير أنه كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم أبين لأن إيمانهم أتم.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 10]

{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَـــدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آَمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10)}

ولما كان الأمر قد بلغ النهاية في الأحكام والمواعظ والترغيب لمن أطاع، فلم يبق إلا التهديد لمن عصـى بما شوهد من المثلات وبالغ العقوبات، فإن من الناس البليد الذي لا يتعظ بما يرى، وكان التقدير : فكأي من ناس كانوا في غاية الضـــيق فأطاعوا أوامرنا فجعلناهم في غاية الســـعة بل جعلناهم ملوكاً، عطف عليه تزهيداً في الرفاهية بأنها تطغى في الأغلب، وتهديداً لأهل المعاصي قوله مفيداً لكثرة القرى الخارجة عن الحد: {وكأين من قرية} أي مدينة كبيرة جامعة، عبر عن أهلها بها مبالغة {عتت} أي اســـتكبرت وجاوزت الحد في عصـيانها وطغيانها فأعرضـت عناداً {عن أمر ربها} أي الذي أحســن إليها ولا محســن إليها غيره بكثرة الرزق وطيب العيش واللطف في التربية والرحمة بعد الإيجاد والملك {ورسـله} فلم يقبل منهم ما جاؤوها به عن الله، فإن طاعتهم من طاعة الله.

ولما كانت محاســـبة مثل هؤلاء للإهلاك لأن الحســـاب هو ذكر الأعمال والمجازاة عليها بما يحق لكل منها، قال ملتفتاً إلى مقام التكلم في مظهر

العظمة: {فحاسبناها} أي فتسبب عن عدم شكرهم للإحسان أن أحصينا أعمالها. ولما كان ذلك على وجه المناقشة على النقير والقطمير بالمجازاة على كل فعل بما يليق به قال: {حساباً شديداً} بمعناه المطابقي من ذكر الأعمال كلها والمجازاة عليها، وهذا هو المناقشة وهي أن العامل إذا أثر أثراً بعمله هو كالنقش في الجامد أثر المجازي له فيه أثراً بحسب عمله على سبيل الاستقصاء، وأما الحساب اليسير فهو عرض الأعمال فقط من غير جزاء على قبيحها فهو دلالة تضمن، وإنما شدد على هذه القرية لأن إعراضها كان كذلك بما نبه عليه تسميته عتواً {وعذبناها} أي في الدنيا جزاء على ما أحصيناه من ذنوبها {عذاباً نكراً *} أي شديد النكارة لأن العقل يحير في أمره لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبره به، وأزال ذكر الكثرة شبهة أن يكون الإهلاك وقع اتفاقاً في وقت من الأوقات {فذاقت} بسبب ذلك بعد ما كان لها من الكثرة والقوة {وبال} أي وخامة وعقوبة وشدة وثقل وفساد {أمرها} أي في العتو وجميع ما كانت تأتمر فيه، مثله بالمرعى الوخيم الذي يمرض ويهلك. ولما كان كل مقهور إنما يسلي نفسه بانتظار الفرج ورجاء العاقبة، أيأس من ذلك مذكراً للفعل إشارة إلى الشدة بقوله: {وكان عاقبة} أي آخر ومنتهى وعقيب {أمرها} أي في جميع عملها الذي كانت فيه {خسراً *} أي نفس الخسر في الدارين، فكلما امتد الأمر وجدوه أمامهم فإن من زرع الشوك كما قال القشيري لا يجني الورد، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حظ نفسه، ومن احترق بمخالفة أمر الله تعالى فليصبر على مقاساة عقوبة الله تعالى، ثم فسر الخسر أو استأنف الجواب لمن يقول: هل لها غير هذا

في هذه الدار، بقوله: {أعد الله} أي الملك الأعظم {لهم} بعد الموت وبعد البعث {عذاباً شديداً}.

ولما تمت الأحكام ودلائلها، وأحكمت الآيات وفواصلها، والتهديدات وغوائلها، كانت فذلكتها وثمرة سياقها وموعظتها ما تسبب عن ذلك من قوله تعالى تنبيهاً على ما يحيي الحياة الطيبة وينجي في الدارين: {فاتقوا الله} أي الذي له الأمر كله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ولما كان في تخليص المواعظ من الأحكام واستثمارها من فواصل هذا الكلام أمر عظيم هو من الرقة بمكان لا يبصره إلا ذوو الأفهام قال تعالى: {يا أولي الألباب *} أي العقول الصافية النافذة من الظواهر إلى البواطن {الذين آمنوا} أي خلصوا من دائرة الشرك وأوجدوا الإيمان حقيقة، ثم علل هذا الأمر بما أزال العذر فقال تنبيهاً على ما من علينا به من المراسلة فإن مراسلات فإن مراسلات الأكابر فخر فكيف بمراسلات الملوك فكيف بمراسلة ملك الملوك حثاً بذلك على شكره: {قد أنزل الله} أي الذي له صفات الكمال {إليكم} خاصة {ذكراً *} أي كاملاً مذكوراً فيه غاية الشرف لكل من يقبله بل تشرفت الأرض كلها بنزوله ورفع عنها العذاب وعمها النور والصواب لأن فيه تبيان كل شيء، فمن استضاء بنوره اهتدى، ومن لجأ إلى برد أفنائه وصل من داء الجهل إلى شفائه.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 12]

{رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَـنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)}

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم صورة سورة القرآن، فالقرآن باطنه وهو ظاهره لأنه خلقه لا قول له ولا فعل إلا به، فكان كأنه هو، أبدل منه قوله: {رسولاً} على أن الأمر فيه غي عن تأويل، فإن الذكر بكسر الذال في اللغة كما في القاموس من الرجال القوي الشجاع الأبي، ثم بين كونه ذكراً بقوله: {يتلوا} أي يتابع أن يقص {عليكم آيات الله} أي دلائل الملك الأعظم ذي الجلال والإكرام الظاهر جداً حال كونها {مبينات} أي لا لبس فيها بوجه.

ولما تبين أن الذكر والرسول صارا شيئاً واحداً، وعلم ما في هذه المراسلة من الشرف، أتبع ذلك بيان شرف آخر ببيان ثمرة إنزاله فقال: {ليخرج الذين آمنوا} أي أقروا بالشهادتين {وعملوا} تصيدقاً لما قالوه بألسنتهم وتحقيقاً لأنه من قلوبهم {الصالحات} من الأعمال {من الظلمات} أي النفسانية والأخلاق الرذيلة المؤدية إلى ظلمة الجوارح بعملها الظلم وانتشارها في السبل الشيطانية {إلى النور} الروحاني العقيلي الخالص الذي لا دنس فيه بسلوك صراط الله الذي هو واحد لا شتات فيه وبين لا لبس فيه {وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل} [الأنعام: 153] كما بادروا إلى إخراج أنفسهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن فساد الأعمال الصالحة

إلى سداد الأعمال الصالحة، وذلك بأن يصيرهم متخلقين بالقرآن ليكونوا مظهراً له في حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم فيكونوا ذكراً.

ولما كان التقدير: فمن آمن بالله وعمل صالحاً شاهد بركات ذلك في نفسه عاجلاً، عطف عليه بياناً لسعادة الآجلة قوله تعالى: {ومن يؤمن بالله} أي يجدد في كل وقت على الدوام الإيمان بالملك الأعلى بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه {ويعمل} على التجديد المستمر {صالحاً} لله وفي الله فله دوام النعماء، وهو معنى إدخاله الجنة، ولما كان قد تقدم قريباً في آية التقوى أنه يكفر عنه سيئاته، قال شارحاً لقوله: {ويعظم له أجراً} [الطلاق: 5]: {يدخله} أي عاجلاً مجازاً بما يتيح له من لذات العرفان ويفتح له من الأنس آجلاً حقيقة {جنات} أي بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الأشجار وحسن الدار، وبين دوام ريها بقوله: {تجري} وبين انكشاف كثير من أرضها بقوله: {من تحتها} أي تحت غرفها {الأنهار} أو هو كناية عن أن أرضها في غاية الري بحيث إن ساكنها يجري في أي موضع أراد نهراً، وإلى زيادة عظمتها أشارت قراءة نافع وابن عامر بنون العظمة.

ولما أفرد الشرط والجزاء إجراء على لفظ «من» إشارة إلى أنه لا يشترط في الإيمان ولا في جزائه مشاركة أحد، وأنه لا توقف للقبول على شيء غير الوصف المذكور، جمع الحال بشارة بأن الداخلين كثير، وأن الداخل إلى دار الكرامة لا يحصل له هوان بعد ذلك أصلاً فقال: {خالدين فيها} وأكد معنى الخلود ليفهم الدوام بلا انقضاء فقال: {أبداً} ولما أعلم أن الخلود لكل الداخلين إلى الجنة رجع إلى الأسلوب الأول تنصيصاً على كل فرد إبلاغاً

في عظمة هذا الجزاء بقوله نتيجة لذلك، منبهاً على أن هذه النتيجة من حقها أن يتوقع قولها من كل من سمع هذه البشرى: {قد أحسن الله} أي الملك الأعلى ذو الجلال والإكرام {له} أي خاصة {رزقاً *} أي عظيماً عجيباً، قال القشيري: الرزق الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه، كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها عن غير نقصان ولا يتعذب بتعطشه ولا يكون زيادة فيكون على خطر من مغاليط لا يخرج منها إلا بتأييد من الله سماوي.

ولم تقدم أن فائدة الذكر النقل من خلق إلى خلق، وكان من المعلوم أن تحويل جبل من مكانه أيسر من تحويل شخص عن خلقه وشأنه، وتقدم أن أجر المجاهدة في ذلك الجنات الموصوفة، وكان ذلك يحتاج إلى قدرة تامة، دل على قدرته سبحانه عليه بقوله: {الله} أي الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة إحداها، ثم أخبر عنه بما يدل على ذلك لأن الصنعة تدل على الصانع وعلى ما له من الصفات فقال: {الذي خلق} أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال البديع القريب {سبع سماوات} أي وإنهم يشاهدون عظمة ذلك ويشهدون أنه لا يقدر عليه إلا تام العلم كامل القدرة، ثم زاد على ذلك ما أنتم أعرف به فقال: {ومن الأرض مثلهن} أي سبعاً كما دل عليه حديث سعيد بن زيد وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين» ولفظ ابن عمر رضي الله عنهما: خسف به

يوم القيامة إلى سبع أرضين، وقد تقدم في سورة السجدة ما ينفع في ذلك، وظاهره يدل على أنها كما هي مثلها في العدد فهي مثلها في الكرية وإحاطة كل واحدة منها بالتي تحتها، وأن التي نحن عليها هي السابعة العليا كالسماء السابعة التي سقفها الكرسي لأن ذلك أدل على ما السياق له من تمام العلم وشمول القدرة في الاستدلال عليه بقوله: {يتنزل} أي بالتدريج {الأمر} أي الذي يجود به الرحمن من التدبير من أمر الدين والتكوين من العرش والكرسي {بينهن} بالوحي من السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى وأنتم ترونهن بلا فروج فأنفذ بينهن حتى نفذ فيهن، وذلك- والله أعلم- هو ما يريد من عظيم تدبيره بإنزال الكتب وإرسال الرسل وإثبات شريعة ومحو أخرى وتوجيه الأسباب إلى المسببات من المطر والنبات والليل والنهار والفصول وخلق الحيوانات والمعادن وسائر النباتات، وترديد الملائكة بسائر المصنوعات، هذا ما دل عليه ظواهر الكتاب والسنة، وأولها بعضهم بأنها سبعة أقاليم، وهو مردود بعد القاعدة في أن التأويل بغير دليل لعب بما يأتي من صريح الحديث النبوي والكلام الضابط فيما يؤول وما لا يؤول أن النقليات أربعة أقسام: قطعي السند والدلالة، ظنيهما، ظني السند قطعي الدلالة، عكسه: قطعي السند ظني الدلالة، فالأول يجب اعتقاد ظاهره، ومن خالفه كفر، والبقية يجب اعتقاد ظواهرها ما لم تعارض، فإن عورضت بقطعي وجب العدول عن الظاهر إجماعاً، فمن اعتقده كفر، ثم للناس بعد ذلك مذهبان: أما السلف فيفوضون المراد إلى الله تعالى، وأما الخلف فإن كان لذلك محمل واحد عينوه، وإن كان ثَم محامل سردوها ولم

يعينوا شيئاً منها مع اعترافهم بأنهم ليسوا على قطع من أن المراد شيء مما ذكروه، وإنما هو شيء يليق بالمقام والعلم عند الله وبأن طريق السلف أقرب وأسلم وبأنه ما حملهم على التأويل إلا انتشار المبتدعين وإشهارهم بدعتهم بين الناس، قال الإمام علاء الدين القونوي رحمه الله تعالى في باب السير من شرحه الحاوي: قال الإمام– يعني إمام الحرمين: ولو بقي الناس على ما كانوا عليه من صفوة الإسلام لما أوجبنا التشاغل بعلم الكلام بل ربما نهينا عنه، وأما الآن وقد ثارت البدع فلا سبيل إلى تركها تلتطم أمواجها فلا بد من إعداد ما يدعى به إلى المسلك الحق وتحل به الشبه، فصار الاشتغال بأدلة المعقول وحل الشبه من فروض الكفايات، ومن استراب في أصل من أصول الاعتقاد فعليه السعي في إزاحته إلى أن يستقيم عقده– انتهى.

ثم إنك تجد العلماء يختلفون في بعض الأدلة فبعضهم يجريها على الظاهر وبعضهم يؤول، وذلك للاختلاف في المعارض هل هو قطعي الدلالة أم لا، وهذا الموضع منه، لإن ظواهر الكتاب والسنة تدل على أن الأرضين مثل السماوات في العدد في أن بينهما خلاء، وفي أن في كل واحدة مخلوقات لا يعلمها إلا الله، بل بعض الأخبار يكاد يقطع به في ذلك، ولكنه لم يخرج عن أن يكون ظنياً فأكثر العلماء ومحققوهم على أن المعارض– وهو ما قاله أهل علم الهيئة من الأدلة على كونها واحدة– ليس بقطعي، فأولوا كونها سبعة بالأقاليم السبعة، وقد رأيت في التعدد حقيقة حديثاً صريحاً لكن لا أدري حاله، ذكره ابن برجان في اسمه تعالى الملك من شرحه للأسماء الحسنى قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما تحت هذه

الأرض، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ماء، أتدرون ما تحت ذلك، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال هواء، أتدرون ما تحت ذلك: قالوا الله ورسوله أعلم، قال: أرض، أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسـوله أعلم- حتى عد سـبع أرضين«

ثم رأيته في الترمذي عن أبي رزين العقيلي ولفظه: «هل تدرون ما الذي تحتكم، قالوا: الله ورسـوله أعلم، قال: إنها الأرض، ثم قال: هل تدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسـوله أعلم، قال: إن تحتها أرضـاً أخرى بينهما خمسمائة سنة- حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة» ثم رأيت في الفردوس عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بين السماء إلى السماء مسيرة خمسمائة عام، وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي والعرش مثل ذلك، وما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، والأرضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك».

ولما ذكر سـبحانه الصـنعة تنبيهاً على التفكر فيها والاعتبار بها، ذكر أن ثمرتها العلم بصـفاته بعد العجز عن إحاطة العلم عقب ذاته تعالى فقال: {لتعلموا} أي بهذا العالم الذي أوجده بتسوية كل واحد من القبيلين سبعاً كل واحدة بينها وبين الأخرى مسافة بعيدة مع الكثافة الزائدة وأنتم تعلمون أنه لا يفصل الجسم ولا سيما الكثيف عن آخر مثله إلا فاصل قاهر بقوة باهرة وقدرة ظاهرة وعلم شـامل لما يحتاج إليه ذلك، فكيف إذا كان على هذا المنهاج البديع والوجه المنيع على مر الدهور والأحقاب وتعاقب الشـهور

والأعوام على حساب معلوم ونظام منظوم، لا يدركه إلا أعلى الناس حساباً وأعظمهم صواباً، مع المنافع التي تفضل عن سكانها، والمرافق التي تتنزه الخالق بآثارها وأعيانها، وتوقظ الغافل وتنبه الجاهل وتدمغ المعاند ببرهانها، فإنه لا يسع أحداً المنازعة في خلقه لها، ومن خلقها قدر على تدبيرها على الوجه المذكور، ومن كان كذلك كان منزهاً عن الشريك قطعاً، ومن كان كذلك قدر على كل شيء فلذا قال: {أن الله} أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة كلها {على كل شيء} أي من غير هذا العالم ممكن أن يدخل تحت المشيئة فإنه بمعنى مفعول من عالم آخر مثل هذا العالم، وأبدع منه وأبدع من ذلك الإبداع إلى ما لا نهاية له بالاستدلال بهذا العالم، فإن من قدر على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها إلى ما لا نهاية له لأنه لا فرق في ذلك بين قليل ولا كثير جليل أو حقير {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك: 3] وإياك أن تلتفت إلى من قال: إنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، فإنه مذهب فلسفي خبيث، والآية نص على إبطاله وإن نسبه بعض الملحدين إلى الغزالي فإني لا أشك أنه مدسوس عليه فإنه مذهب فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي «تهديم الأركان على من قال ليس في الإمكان أبدع مما كان» وكتابي «دلالة البرهان على أن في الإمكان أبدع مما كان» وكتابي «إطباق الأغلال في أعناق الضلال» ومع كونه مذهب الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه فصوصه وغير ذلك من كتبه واستند فيه في بعضها إلى

الغزالي إتقاناً لمكره- أعاذنا الله من شره، والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الإحياء وغيره {قدير *} أي بالغ القدرة.

ولما كانت إحاطة العلم دالة على تمام القدرة وإليهما يرجع جميع الأسماء والصفات قال: {قد أحاط} لتمام قدرته {بكل شيء} مطلقاً، ولما أسند الإحاطة إليه سبحانه تعظيماً لها، بين جهتها بتمييز محول عن الفاعل فقال: {علماً *} فله الخبرة التامة بما يأمر به من الأحكام في العلم بمصالحه ومفاسده فعاملوه معاملة من يعلم إحاطة علمه فيعلم أنه رقيب عليه فإذا طلقتم فافعلوا ما أمركم به لتسلموا في الدين وتسعدوا في الآخرة والأولى، ودبروا في جميع أموركم مثل ما دبر به أمركم في تربيتكم ومسكنكم أرضه وسقفه فإنه جعل فيه جميع ما تحتاجونه وبسطه نواله على من يرضيه ومن يسخطه ونشر حلمه وفضله وأخر بأسه وعدله فقد عائق أخرها أولها وبين مجملها ومفصلها والله يعلم بذات الصدور.

Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

- سورة التحريم
- تفسير الآيات رقم [1- 3]

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَـــهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)}

لما ختم ســبحانه الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسـائه اللاتي من خير النساء واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه فأظهره سبحانه عتاباً لأزواج نبيه صـلى الله عليه وسـلم في صـورة عقابه لأنه أبلغ رفقاً به لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة لأمته تارة لطلب رضاهم وأخرى رغبة في هداهم، لأنه صـلى الله عليه وسـلم بالغ في تهذيب أخلاقه مع ما طهره الله به من نزاهتها عن كل دنس حتى ضـــيق عليها بالامتناع عن بعض ما أبيح له حفظاً لخاطر الغير، فقال تعالى منادياً له بأداة البعد

وهو أقرب أهل الحضـــرة مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل ومعنى جســـيم جليل، وفيها إيماء إلى تنبيه الغير وإســـماعه إرادة لتأديبه وتزكيته وتهذيبه: {يا أيها النبي} مخاطبة بالوصف الذي يعلم بالعصمة ويلائمه أشد الملاءمة خلو البال وسرور القلب وانشراح الصدر لأنه للتلقي عن الله تعالى فيحث كل سامع على البعد عن كل ما يشوش عليه صلى الله عليه وسلم أدنى تشويش {لم تحرم} أي تفعل فعل المحرم بمنع نفسك الشريفة {ما أحل الله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه {لك} بالوعد لبعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بالامتناع من شرب العسل الذي كان عند حفصة أو زينب رضي الله عنهما والامتناع من ملامسة سريتك مارية رضي الله تعالى عنها فتضيق على نفسك لإحسان العشرة مع نسائك رضي الله عنهن أجمعين، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشرب عسلاً عند حفصة بنت عمر أو زينت بنت جحش رضـــي الله عنهما على اختلاف الروايتين في ذلك في الصحيح، وفي رواية «أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة دخل على نســائه رضـــي الله عنهن امرأة امرأة، وكانت قد أهديت لحفصـــة بنت عمر رضي الله عنهما عكة من العسل، فكانت إذا دخل عليها فسلم حبسته وســقته منها، وأن عائشـــة رضـــي الله عنها أنكرت احتباســـه عندها فقالت لجويرية عندها حبشية يقال لها خصرة: إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفصة فادخلي عليها فانظري ماذا يصنع فأخبرتها الخبر فوصت صـــواحباتها فنفرنه من شـــربه بإخباره بأنه يوجد منه ريح كريهة لأن نحلة جرست العرفط، فقال: لن أعود له،» وروى الطبري وابن مردوية «أنه صلى

الله عليه وسلم خلا بمارية رضي الله عنها أم ولده إبراهيم عليه السلام في بيت حفصة رضي الله عنها فتوجعت من ذلك حفصة رضي الله عنها فقال هي علي حرام ولا تذكري ذلك لأحد وأبشرك على ذلك بشارة، وهي أن أبا بكر يلي هذا الأمر من بعدي وأباك يليه من بعد أبي بكر رضي الله عنهما، لا تخبري بذلك أحداً، فأخبرت عائشة رضي الله عنها«

ويروى أن حفصة رضي الله عنها قالت في يومها من النبي صلى الله عليه وسلم: «إن بي إلى أبي حاجة نفقة له عنده فأذن لي أن أزوره وآتي بها، فأذن لها فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية رضي الله عنها فوقع عليها فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقاً فجلست عنده فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا وقعت عليها في يومي وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، فقال صلى الله عليه وسلم: أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي اسكتي فهي علي حرام ألتمس بذاك رضاك فلا تخبري بهذا أحداً، فلما خرج أخبرت عائشة رضي الله عنها فحلفته على ترك مارية رضي الله عنهن» ثم علل ذلك سبحانه بقوله: {تبتغي} أي تريد إرادة عظيمة من مكارم أخلاقك وحسن صحبتك {مرضات أزواجك} أي الأحوال والمواضع والأمور التي يرضين بها ومن أولى بأن تبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتفرغ لما يوحى إليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد.

ولما كان أعلى ما يقع به المنع من الأشــياء من جهة العباد الإيمان، وكان تعالى قد جعل من رحمته لعباده لإيمانهم كفارة قال : {والله} أي تفعل ذلك لرضـاهن والحال أن الله الملك الأعلى {غفور رحيم *} أي محاء سـتور لما يشق على خلص عباده مكرم لهم، ثم علل أو بين بقوله: {قد فرض الله} أي قدر ذو الجلال والإكرام الذي لا شريك له ولا أمر لأحد معه، وعبر بالفرض حثاً على قبول الرخصة إشارة إلى أن ذلك لا يقدح في الورع ولا يخل بحرمة اسـم الله لأن أهل الهمم العوالي لا يحبون النقلة من عزيمة إلى رخصــة بل من رخصة إلى عزيمة، أو عزيمة إلى مثلها.

ولما كان التخفيف على هذه الأمة إنما هو كرماً منه وتعظيماً لهذا النبي صــلى الله عليه وسـلم قال: {لكم} أي أيتها الأمة التي أنت رأســها، وعبر بمصدر حلل المزيد مثل كرمه وتكرمه إظهاراً لمزيد الغاية فقال: {تحلة} أي تحللة {أيمانكم} أي شـيئاً يحللكم مما أوثقتم به أنفسـكم منها تارة بالاسـتثناء وتارة بالكفارة تحليلاً عظيماً بحيث يعيد الحال إلى ما كان عليه قبل اليمين، وقد بين ذلك في سـورة المائدة فحلل يمينك واخرج من تضـييقك على نفسـك واشرح من صدرك لتتلقى ما يأتيك من أنباء الله تعالى وأنت متفرغ له بطيب النفس وقرة العين، وهذا يدل على أن قوله «أنت علي حرام» كاليمين إذا لم يقصـــد به طلاقاً للزوجة ولا إعتاقاً للأمة، وإذا كان الله قد فرض ذلك لكافة الأمة تيسيراً عليهم فرأسهم أولى بأن يجعل له ذلك، قال مقاتل: فأعتق صلى الله عليه وسـلم في هذه الواقعة رقبة، وقد قيل: إن تحريمه صــلى الله عليه وســـلم هنا كان بيمين حلفها وحينئذ لا يكون فيه حجة لمن رأى أن «أنت

على حرام» يمين {والله} أي والحال أن المختص بأوصـاف الكمال {مولاكم} أي يفعل معكم فعل القريب الصـديق {العليم} أي البالغ العلم بمصـالحكم وغيرها إلى ما لا نهاية له {الحكيم *} أي الذي يضـع كل ما يصـدر عنه لكم في أتقن محاله بحيث لا ينسـخه هو ولا يقدر غيره أن يغيره ولا شـيئاً منه، وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لاخفاء بشـدة اتصـال هذه السـورة بسـورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما، وقد ظن أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه حين اعتزل في المشربة حتى سأله عمر رضي الله عنه والقصة معروفة وتخييره صل الله عليه وسلم إياهن أثر ذلك وبعد اعتزالهن شهراً كاملاً وعتب الله عليهن في قوله:

{وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه} [التحريم: 4] وقوله: {عسـى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن} [التحريم: 5] فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد- انتهى.

ولما كانت العدة فيمن رأى حبيبه قد ضـاق صـدره أن يسـعى أولاً في شـرح صـدره وطيب نفسـه ثم يزيده بسـطاً بأن يقول للحاضـرين: إن حبيبنا هذا الكريم علينا اتفق له كذا، وقد كرهت هذا وضـمنت زواله، وكان تعالى قد طيب نفسه صلى الله عليه وسلم بأول السورة، ثم أتبعه الأمر الآخر، فكان التقدير: اذكروا هذا الذي ذكرته من حسن عشرة نبيكم صلى الله عليه وسلم لنسائه رضي الله تعالى عنهن وكريم صحبته وشريف أخلاقه وجميل أفضاله وجليل حلمه واذكروا ما خفف الله به عنكم في الأيمان التي لا مثنوية فيها

واذكروا فيها اسمه المقدس، عطف عليه قوله تعالى تشريفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم بالمعاتبة عليه وبإظهار ما هو حامل له من ثقل هذا السر على أجمل وجه تخفيفاً عنه وترويحاً له: {وإذ} أي واذكروا كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وطاهر شمائله في عشرتهن حين {أسر النبي} أي الذي شأنه أن يرفعه الله دائماً بأن يتلقى من فياض علمه ما يخبر به الناس فإنه ما ينطق عن الهوى وأبهم الزوجة ولم يعينها سبحانه تشريفاً له صلى الله عليه وسلم ولها رضي الله عنهن فقال تعالى: {إلى بعض أزواجه} وهي حفصة رضي الله عنها، كنى عنها صيانة لهن لأن حرمتهن رضي الله عنهن من حرمته صلى الله عليه وسلم {حديثاً} ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لهم به وأعلنه ولم يخص به ولا أسره وذلك هو تحريم مارية رضي الله عنها ووعده بأن يترك العسل وبشارته بولاية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولم يبين الحديث ويفصله إكراماً له صلى الله عليه وسلم وحفظاً لسره لأن العادة جارية بأن الإنسان لا يحب تفصيل سره وإن كنا اطلعنا عليه بعد ذلك لنتأسى به فيما فيه من الأحكام، فإن أحواله صلى الله عليه وسلم كلها أحكام لنا إلا ما اختص به وأشار إلى قرب زمن إفشائه من زمن التحديث بالفاء في قوله تعالى: {فلما نبأت} أي أخبرت إخباراً عظيماً جليلاً لشرفه في نفسه ولأنه من عند الله وبالغت في ذلك وأخبرت {به} كله من جميع وجوهه، وجعل ذلك في سياق حكاية لأنه أستر لحرمه صلى الله عليه وسلم حيث لم يقل: فنبأت به ولا قال: أساءت بالإنباء به، ونحو ذلك مما يفهم أنه مقصود بالذات {وأظهره الله} أي أطلعه الملك الذي له الإحاطة بكل شيء {عليه}

أي الحديث بأنه قد أفشى مناصحة له في إعلامه بما يقع في غيبته ليحذره إن كان شـراً ويثيب عليه إن كان خيراً {عرف} أي النبي صـلى الله عليه وسلم التي أسر إليها {بعضـه} وهو أمر الخلافة عتاباً لها عليه لأنه كان أوصـاها أن لا تظهره، والكف عن بعض العتب أبعث على حياء المعتوب وأعون على توبته وعدم عدده إلى فعل مثله {وأعرض عن بعض} وهو أمر السرية والعسل تكرما منه أن يستقصي في العتاب وحياء وحسن عشرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وقال سفيان الثوري: ما زال التغافل من فعل الكبراء وإنما عاتب على أمر الخلافة خوفاً من أن ينتشـر في الناس ويذيع، فربما أثار حسداً من بعض المنافقين وأورث الحسود للصديق والفاروق كيداً أو جر إلى مفسـدة لا نعلمها، وخفف الكسـائي: عرف أي أقر به والمعرفة سـبب التعريف والتعريف عن المعرفة فإطلاق أحدهما على الآخر شـائع وعلاقته ذلك وأشـار إلى مبادرته بتعريفها ذلك لئلا ينتشـر ما يكرهه منه بقوله: {فلما نبأها} بما فعلت من إفشـاء ما عرفها منه على وجه لم يغادر من ذلك الذي عرفها {به} شيئاً منه ولا من عوارضه ليزداد بصيرة، روي أنها قالت: قلت لعائشة رضي الله عنها سراً وأنا أعلم أنها لا تظهره، قاله الملوي وهو معنى قوله: {قالت} أي ظناً منها أن عائشـة رضـي الله عنها أفشـت عليها {من أنبأك هذا} أي مطلق إخبار، واستأنف قوله: {قال نبأني} وحذف المتعلق اختصاراً للفظ وتكثيراً للمعنى بالتعميم إشارة إلى أنه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة رضي الله عنهما مما عرفها به ومن غيره على أتم ما

كان {العليم} أي المحيط بالعلم {الخبير *} أي المطلع على الضـــمائر والظواهر فهو أهل لأن يحذر فلا يتكلم سراً ولا جهراً إلا بما يرضيه.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 5]

{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَـــغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـــالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَـــى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْـلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)}

ولما عرف من هذا أن المعاتب المنبئة ومن نباته، وكان قد يكون عدداً أشـار إلى أنه واحد فالمعاتب اثنتان، وكانتا قد اتسـعت قلوبهما لما يأتي من قبل الله من الرغائب بهذا العتاب على هذا الأمر الخفي جداً والكرم عليهما فيه بعدم الاســـتقصـــاء فمالت قلوبهما إلى المعالي وغاصـــت على جليل المعارف فصـــاغت من جواهر ذلك دقيق المعاني، لفت إليهما الخطاب بلطيف العباد لشـريف المتاب، فقال تشـريفاً آخر له صـلى الله عليه وسـلم بالإقبال على نســائه رضـــي الله تعالى عنهن بالعتاب لأجله قياماً عنه بما ربما أزعجه لو باشــره حفظاً لخاطره الشــريف مما قد يغره {إن تتوبا} أي يا عائشـة ويا حفصـة مما صـنعته حفصـة بالإفشـاء وعائشـة بالاحتيال على المنع من شرب العسل والتحليف على مارية {إلى الله} أي الملك الذي أحاط علمه فجلت قدرته ولطف بهما لأجله صلى الله عليه وسلم غاية اللطف في قوله: {فقد صـغت} أي مالت وغاضـت بما صـاغت {قلوبكما} وفي جمع

القلوب جمع كثرة تأكيد لما فهمته من ميل القلب بكثرة المعارف بما أفادهما إظهار هذا السـر والعتاب عليه من الحياء، فصـارتا جديرتين بالمبادرة إلى التوبة متأهلتين لذلك غاية التأهل.

ولما أورد ما صـارتا حقيقيتين به بأداة الشـك إقامة للسـامع بين الخوف والرجاء من ذلك وهو أعلم مما يكون أكمل ذلك بذكر شـق الخوف، فقال معلماً بأن الملك وأوليائه أنصار له {وإن تظاهرا} بالتشديد للإدغام في قراءة الجماعة لأن النظر هنا إن وقع كان على وجه الخفاء في أعمال الحيلة في أمر مارية رضـي الله عنها والعسـل وما يأتي من مثل ذلك ما يبعث عليه الغيرة {عليه} أي النبي صلى الله عليه وسلم المنبأ من قبل الله بما يرفع قدره ويعلي ذكره، وقراءة الكوفيين بالتخفيف بإسـقاط إحدى التاءين إشـارة إلى سهولة أمر هذه المظاهرة وقلة أذاها له صلى الله عليه وسلم.

ولما كان المعنى كأنه لا يبالي بمظاهرة كما عبر عنه بعلته، فقال مؤكداً إعلاماً بأن حال المتظاهرين عليه حال المنكر لمضـمون الكلام: {فإن الله} أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له {هو} أي بنفسـه الأقدس وحضـرة غيب غيبه التي لا يقوم لما لها من العظمة شيء {مولاه} أي ناصره والمتولي من أمره ما يتولاه القريب الصـديق القادر وكل من له وعي يعلم كفايته سـبحانه في ذلك فهو يعمل أبلغ ما يعمله مولى مع من هو متول لأمره وفي معاونته لنبيه صلى الله عليه وسلم إظهار لشرفه ومراعاة لحفظ خاطره وشرح لصدره.

ولما كانت النفوس لمبنى هذه الدار على حكمة الأسـباب مؤكلة بها ناظرة أتم نظر إليها، وكان نسـاء النبي صـلى الله عليه وسـلم لكثرة ما يتلى في

بيوتهن من آيات الله والحكمة على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام وكثرة تردده إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بيوتهن ويعلمهن قد صار عندهن بذلك من الأسباب الظاهرة المألوفة، وكان هو أعظم أنصار النبي صلى الله عليه وسلم قال: {وجبريل} لأنه من أعظم الأسباب التي يقيمها الله سبحانه.

ولما كان الحامل على مظاهرته صلى الله عليه وسلم على كل ما يريده الإيمان فكل ما كان الإنسان فيه أمكن كان له أشد مظاهرة وأعون قال: {وصالح المؤمنين} أي الراسخين في رتبة الإيمان والصلاح من الإنس والجن وأبواهما رضي الله عنهما أعظم مراد بهذا، وقد روي أن عمر رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أمرتني لأضربن عنقها، والصالح وإن كان لفظه مفرداً فمعناه الجمع المستغرق لأنه للجنس، ودل على ذلك مع دلالة السياق إضافته للجمع ولعله عبر بالإفراد مع أن هذا المراد للإشارة إلى قلة المتصف بهذا جداً لقلة الراسخين في الإيمان وقلة الراسخين في الصلاح من الراسخين في الإيمان فهو قليل من قليل وقد جوز بعضهم أن يكون جمعاً وأنه حذفت واؤه في الرسم على خلاف القياس وهي محذوفة في الوصل لالتقاء الساكنين، فظن لذلك مفرداً ودخل في ذلك جبريل عليه السلام أيضاً.

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى الملائكة من القوى والتصرف في الظواهر . والبواطن ما يجل عن الوصف، قال تعظيماً للمقام بعد تعظيمه بما ذكر من رئيس الكروبيين عليهم الصلاة والسلام {والملائكة} أي كلهم ومنهم جبريل عليهم الصلاة والسلام فهو مذكور خصوصاً وعموماً ثلاث

مرات إظهاراً لشـدة محبته وموالاته للنبي صـلى الله عليه وسـلم. ولما كان المراد التعميم في الزمان والمكان بعد التعميم في الصـــالحين من الملائكة والإنس والجان، قال من غير جار معظماً لنصـــرة الملائكة لما لهم من العظمة في القلوب لما تقرر لمن باشــــر منهم العذاب تارة بالرجفة وأخرى بالصـعقة وتارة بالخسـف وأخرى بغير ذلك، فكيف إذا تصـور الآدمي المقيد بالمحسـوسـات اجتماعهم على ما لهم من الأشـكال المهولة {بعد ذلك} أي الأمر العظيم الذي تقدم ذكره وهو مظاهرة الله ومن ذكر معه {ظهير *} أخبر عن الجمع باسم الجنس إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة في المظاهرة، فخوف بهذا كله لأجل المتاب لطفاً به صلى الله عليه وسلم وإظهاراً لعظمته وفي قصـة صـاحب ياسـين قال {وما أنزلنا على قومه} الآية، تحقيراً لقومه وإهانة لهم، ويجوز أن يكون «ظهير» خبر جبريل عليه الصـلاة والسـلام، وخبر ما بعده محذوف لدلالته عليه أي كذلك.

ولما حذر بما تقدم، زاد في التحذير ما يقطع القلوب لأن أشد ما على المرأة أن تطلق ثم إذا طلقت أن تسـتبدل بها ثم أن يكون البدل خيراً منها فقال مبيناً لأدنى أنواع المظاهرة سـائقاً الأمر مسـاق الرجاء إشـارة إلى أنه يكفي العاقل في الخوف تجويز احتمال الضـــرر فكيف إذا كان الأمر حتماً لأن من المعلوم أن «عسـى» من الله على طريق الكبراء لا سـيما الملوك في اكتفائهم بالإشـارات والرموز فمن هنا كانت واجبة لأنه ملك الملوك وهو ذو الكبرياء في الحقيقة لا غيره {عسـى ربه} أي المسـحن إليه بجميع أنواع الإحسـان التي عرفتموها وما لم تعرفوه جدير وحقيق، ووسـط بينها وبين

خبرها اهتماماً وتخويفاً قوله: {إن طلقكن} أي بنفسه من غير اعتراض عليه جمع أو بعضكن بإيجاد الطلاق لمن لم يطلقها وإدامته من طلقها {أن يبدّله} منكن بمجرد طلاقه لكن من غير أن تحوجه إلى التفتيش تبديلاً مبالغاً فيه بما أشــارت إليه قراءة نافع وأبي جعفر وأبي عمرو بالتشــديد، فهي أبلغ من قراءة الباقين بالتخفيف الدال على مطلق الإبدال الصــالح للمبالغ فيه وغيره، ومن التشريف أيضاً إضافة الطلاق إليه والإبدال إلى الله مع التعبير بصفة الإحسان وتخصيص الإضافة! بضميره.

ولما كان الأوجع لقب الحرة حرة مثلها لا ســـرية قال: {أزواجاً} ولما كان علوها عليها في الرتبة هو النهاية في التأســيف قال: {خيراً} ودل على أنها للتفضيل بقوله: {منكن} وهذا على سبيل الفرض وعام في الدنيا والآخرة فلا يقتضــي وجود من هو خير منهن مطلقاً وإن قيل بوجوده في خديجة رضــي الله عنها لما جرب من تحاملها على نفســها في حقه صــلى الله عليه وســلم وبلوغها في حبه والأدب معه ظاهراً وباطناً النهاية القصـــوى ومريم عليها الســـلام التي أحصـــنت فرجها حتى كانت من القانتين، وذلك في الآخرة، والكلام خارج مخرج الشرط بالطلاق وقد علم سبحانه أنه لا يقع لكنه سبحانه علم أنه لو وقع أبدله صـــلى الله عليه وســـلم من هو بالصـــفات المذكورة المقتضــية للإخلاص في طاعته كما أشــار إليه «قانتات» ولا شــك أن من لازم طاعته وقيد الاتصــال به في الدارين كان خيراً من غيره، وتعليق تطلق الكل لا يدل على أنه لم يطلق حفصــة رضــي الله عنها فقد روي أنه طلقها ولم يزدها ذلك إلا فضلاً من الله تعالى لأن الله تعالى أمره بأن يراجعها لأنها

صـــــوامة قوامه- والله الموفق. ولما وعد بما ذكر، وكان أول منظور إليه الظاهر، فصل ذلك الوعد وفسر الخيرية بادئاً بقوله: {مسلمات} أي ملقيات لجميع قيادهن ظاهراً وباطناً لله ولرســوله صــلى الله عليه وســلم على وجه الخضوع.

ولما كان المشاهد من الإسلام إنما هو الظاهر قال: {مؤمنات} أي راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن.

ولما كان ذلك قد يكون فيه نوع شوب قال: {قانتات} أي مخلصات في ذلك لا شائبة في شيء منه فهن في غاية ما يكون من إدامة الطاعة له من الذل والانكســـار والمبادرة إلى امتثال أمره صــلى الله عليه وســلم في المنشــط والمكره.

ولما كان الإنسان مجبولاً على النقصان، وكان الإخلاص يدل صاحبه على تقصيره فكان ربما فتره ذلك، قال تسهيلاً لخدمته وتقريباً لدوام طاعته معلماً الأدب لمحتاجه {تائبات} أي راجعات من الهفوات أو الزلات سـريعاً إن وقع منهن شــيء من ذلك. ولما كان هذا مصـحـحاً للعبادة مسـهلاً لدوامها قال: {عابدات} أي مديمات للعبادة بســـبب إدامة تجديد التوبة. ولما كان دوام العبادة مسـهلاً للخروج عن الدنيا قال: {سـائحات} أي متصـفات بصـفات الملائكة من التخلي عن الدنيا والاســـتغراق في الآخرة بما أدناه الصـــيام ماضـيات في ذلك غاية المضــاء ليتم الانقياد لله ولرسـوله صـلى الله عليه وســـلم، لأن من كان هكذا لم يكن له مراد، فكان تابعاً لربه في أمره دائماً ويصـــير لطيف الذات حلو الشـــمائل، قال الملوي: والمرأة إذا كانت كثيرة

الصـــيام قليلة الأكل يقل عرقها ويصـــغر كرشـــها وتلطف رائحتها وتخف حركتها لما يراد منها- انتهى. وسوق هذه الأوصاف هذا السياق في عتاب من هو متصـــف بها معرف أن المراد منها التمام لا ســـيما وهي لا يوجد وصف منها على سبيل الرسوخ إلا كان مستلزماً لسائرها، فلذلك لم يحتج في تعدادها إلى العطف بالواو . والتجريد عنه أقعد في الدلالة على إرادة اجتماعها كلها.

ولما أكمل الصـــفات الدينية النافعة في أمر العشـــرة ولم يبق إلا الصـــفات الكونية وكان التنويع إلى عارفة بالعشـــرة وباقية على أصـــل الفطرة، ألذ وأشهى إلى النفس، قال مقسماً للنساء المتصفات بالصفات الست عاطفاً ثاني الوصفين بالواو للتضاد {ثيبات} قدمهن لأنهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها {وأبكاراً}.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 7]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَـــكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِـدَادٌ لَا يَعْصُـونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)}

ولما أبلغ سبحانه في عتاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مع صيانتهن عن التسمية إكراماً له صلى الله عليه وسلم وعلم اتصافهن بهذه الصفات العظيمة على سبيل الرسوخ من دوام صحبته صلى الله عليه وسلم لهن ليكن من جملة أزواجه في الجنة وكان اتصـــافهن بذلك الذي أداهن إلى الســـعادة

العظمى إنما هو بحســـن تأديب أوليائهن لهن وإكمال ذلك الأدب بحســـن عشــرته صــلى الله عليه وســلم وتأدبهن بكريم أخلاقه أثمر ذلك أمر الأمة بالتأسـي به في هذه الأخلاق الكاملة والتأسـي بأوليائهن في ذلك ليعرفن حق الله وحق الأزواج فيحصـل بذلك صـلاح ذات البين المثمرات للخير كله فقال تعالى متبعاً لهذه الموعظة الخاصـــة بموعظة عامة دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأقرب فالأقرب {يا أيها} مخاطبة لأدنى الأسـنان إشــارة إلى أن من فوقهم تأســى من حين دخوله في الإســلام فهو غني عن أمر جديد {الذين آمنوا} أي أقروا بذلك {قوا أنفسكم} أي اجعلوا لها وقاية بالتأسـي به صـلى الله عليه وسـلم في أدبه مع الخلق والخالق في لينه لمن يســـتحق اللين من الخلق تعظيماً للخالق فعاملوه قبل كل شـــــيء بما يعاملكم به من الأدب، وكذا كونوا مع بقية الخلق.

ولما كان الإنسـان راعياً لأهل بيته مسـؤولاً عن رعيته قال تعالى: {وأهليكم} من النســـاء والأولاد وكل من يدخل في هذا الاســـم قوهم {ناراً} بالنصـــح والتأديب ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبي صـلى الله عليه وسـلم كما روى أحمد والطبراني عن سـعيد بن العاص رضـــي الله عنه رفعه: «ما نحل والد ولداً أفضـل من أدب حسـن» ولما كانت الأشـياء لا تعظم في نفسـها وعند المخبر بها إلا بإخباره بما يشـتمل عليه من الأوصـــاف قال: {وقودها} أي الذي توقد به {الناس والحجارة} أي ألين الأشـياء وأصـلبها، فما بين ذلك هو لها وقود بطريق الأولى.

ولما وصــفها بغاية الأدب في الائتمار أتبعه وصــف القُوَام فقال معبراً بأداة الاستعلاء دلالة على تمكنهم من التصـرف فيها: {عليها ملائكة} أي يكون أمرها على سبيل الاستعلاء فلا تعصـيهم شيئاً لتأديب الله لها {غلاظ} أي في الأبدان والقلوب فظاظة على أهلها لاســتحقاقهم لذلك بعصــيانهم الملك الأعلى.

ولما كان الغلظ قد يكون مع الرخاوة قال: {شداد} أي في كل شيء يحاولونه بالقول والفعل حتى روي أن الواحد منهم يلقي بالدفعة الواحدة في النار من الكفار سبعين ألفاً.

ولما كان المعنى أنهم يوقعون غلظتهم وشدتهم بأهل المعاصي على مقادير اســــتحقاقهم. بين ذلك بما يخلع القلوب لكونه بأمر الله تعالى فقال: {لا يعصــون الله} أي الملك الأعلى في وقت من الأوقات {ما أمرهم} أي أوقع الأمر لهم به في زمن ما.

ولما كان المطيع منا قد يخل ببعض المأمور به في ذاته بنقص ركن أو شرط أو وقت لنسيان، أو نوم ونحوه أو بترك مندوب ونحوه أو ما في معناه بوسوسة أو حديث نفس ونحوه يقصـر عن إيقاعه على أعلى الدرجات كما قال صـــلى الله عليه وســـلم فيما أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضــي الله عنهما والطيالســي عن ثوبان رضــي الله عنه: «اســتقيموا ولن تحصــوا» قال نافياً لذلك عنهم: {ويفعلون} أي مجددين مع كل أمر على سبيل الاستمرار {ما يؤمرون *} أي ما يقع لهم الأمر به في أي وقت كان

من غير نقص ما، وبني الفعل لما لم يسم فاعله كناية عن سهولة انقيادهم وإشارة إلى أن الذي أمرهم معلوم أنه الله سبحانه وتعالى.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من أريد بأمر الأمة بالتأدب معه فكان تعمد الإخلال بالأدب معه كفراً، علم أن هذه النار لأولئك فعلم أن التقدير: يقولون: {يا أيها الذين كفروا} أي بالإخلال بالأدب في النبي صلى الله عليه وسلم فأداهم ذلك إلى الإخلال بالأدب مع الله وبالأدب مع سائر خلقه {لا تعتذروا} أي تبالغوا في إظهار العذر وهو إيساع الحيلة في وجه يزيل ما ظهر من التقصير {اليوم} فإنه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار، وقد فات زمان الاعتذار، وصار الأمر إلى ما صار، وإذا نهى عن المبالغة في الاعتذار لعدم نفعها كان النهي عن مطلقه من باب الأولى، وهذا قطع لرجائهم وإيجاب لباسهم ليعظم همهم وتتقطع قلوبهم لأن معناه أن الاعتذار لا ينفعكم وإن بالغتم فيه، ولذلك استأنف قوله على سبيل الحصر: {إنما تجزون} أي في هذا اليوم {ما كنتم} أي بما هو لكم كالجبلة والطبع {تعملون *} أي على سبيل الإصرار ولا بعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله بحيث لا يشك أنها عمله، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 9]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا

وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)}

ولما أفهم الأمر بالوقاية والمدح للملائكة أن المأمورين بالوقاية مقصـــرون قال مرشداً إلى داوء التقصير: {يا أيها الذين آمنوا} ناداهم بما هو أليق بهم من أداة البعد {توبوا} أي ارجعوا رجوعاً تاماً {إلى الله} أي الملك الذي لا كفوء له.

ولما كان كل فعول بمعنى فاعل يســـتوي فيه المذكر والمؤنث قال: {توبة نصوحاً} أي بالغة في كونها ناصحة عن الإسناد المجازي أي منصوحاً فيها بالإخلاص في الأزمان الثلاثة، الماضي بالندم، والحال بالإقلاع. والمستقبل بالعزم على عدم العود إلى الذنب، فلا يقع فيها رجوع كما لا يعود الحليب إلى الضرع، فلا يؤذي أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أذى رسوله من أذاه، قال القرطبي: النصوح مجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضـــمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة ســـيئ الإخوان، وقال رويم الراعي: هي أن تكون لله وجهاً بلا قفا كما كانت له عند المعصية قفاء بلا وجه.

ولما أمر بالتوبة عللها بما يفيد الإطماع من الإقامة بين الرجاء والخوف إعلاماً بأن هذا المقام هو المنجي لأنه اعتقاد الكمال له سبحانه وهو أن له أن يفعل ما يشـــاء في المطيع وغيره بقوله: {عســـى ربكم} أي افعلوا ذلك ليكون المحسن إليكم بهذا البيان جديراً أو حقيقاً {أن يكفر} أي يغطي تغطية

عظيمة {عنكم} أي بالتوبة، وإذا كان التائب على خطر فما ظنك بالمصــر على ذنوبه {سيئاتكم} أي ما بدا منكم ما يسوءه.

ولما ذكر نفع التوبة في دفع المضــار، ذكر نفعها في جلب المســار فقال: {ويدخلكم} أي يوم الفصل {جنات} أي بساتين كثيرة الأشجار تستر داخلها لأنها {تجري}.

ولما كان ذلك الجري في بعض أرضـــها قال معبراً بأداة التبعيض: {من تحتها} أي تحت غرفها وأشجارها {الأنهار} فهي لا تزال ريا.

ولما ذكر الغفران والإكرام. ذكر وقته فقال مبشـــراً لأهله معرضـــاً لغيرهم مستحمداً لأهل وده لكونه وفقهم ولم يخذلهم كأعدائه: {يوم لا يخزي الله} أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة بالكمال {النبي} أي الرجل الذي ينبئه الله بما يوجب له الرفعة التامة من الإخبار التي هي في غاية العظمة {والذين} أي ولا يخزي الذين {آمنوا معه} وهم الصــحابة رضــي الله تعالى عنهم إن كان المراد المعية في مطلق الزمان، وســابقوهم إن كان المراد في الوصــف أو زمان مخصــوص كبدر وبيعة الرضــوان لأن النبي صــلى الله عليه وسـلم قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» كما رواه مسلم عن أم مبشر رضـــي الله عنها وأبو داود والترمذي عن جابر رضـــي الله عنه: «ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال:» اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم«»

وقال تعالى: {لا يســـتوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا} [الحديد: 10] إلى قوله {وكلاًّ وعد الله الحســنى} [الحديد: 10] ونســاءه رضــي الله عنهن أحق بأن يكن أول راغب في الكون

معه في الإيمان ليبعدن عن النيران، وإذا استحضرت قصص الأنبياء من سورة هود عليه الصلاة والسلام اتضح لك حسن هذا الوجه، ويجوز أن يكون «الذين» مبتدأ خبره «نورهم» أو يكون الخبر «معه» إشارة إلى أن جميع الأنبياء وصالحي أممهم من أمته وتحت لوائه، وذلك في غاية ما يكون من الشرف والرفعة له صلى الله عليه وسلم والإيمان المقيد بمعيته، أي تأهله لمصاحبة إيمانه صلى الله عليه وسلم غير الإيمان المطلق، فلا مانع من أن يدخل غيرهم من المؤمنين النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين فلا متمسك للمعتزلة بها في أن مرتكب الكبائر مخلد في النار لأنه داخل النار فهو مخزي، فهو غير موصوف بالإيمان لأن من اتصف بالإيمان لا يخزى بدليل هذه الآية، قال أبو حيان: وفي الحديث: «أنه صلى الله عليه وسلم تضرع في أمر أمته فأوحى الله إليه: إن شئت جعلت حسابهم إليك، فقال: يا رب! أنت أرحم بهم مني، فقال تعالى: إذاً لا أخزيك فيهم».

ولما نفى عنهم الخزي، فسره بقوله مقدماً للنور لأن السياق لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف ما مضى في الحديد: {نورهم يسعى} أي سعياً مستمر التجدد، وعلى التفسير الآخر تكون هذه الجملة حالية، ويجوز أن تكون خبراً ل «الذين» إذا جعلناه مبتدأ {بين أيديهم} وحذف الجار إشارة إلى أنه ملأ تلك الجهة {و} كذا {بأيمانهم} وأما ما يلي شمائلهم فإنهم لا يلتفتون إليه لأنهم إما من السابقين وإما من أهل اليمين، فهم يمشون فيما بين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما، وأما أهل الشمال فيعطونها من

وراء ظهورهم ومن شـــمائلهم وهم بما لهم من النر إن قالوا ســـمع لهم وإن شفعوا شفعوا.

ولما كانت إدامة للملك هي أشرف صفات العبد قال: {يقولون} أي مجددين لذلك دائماً لعلمهم أن الله تعالى له أن يفعل ما يشـاء، لا حق لأحد عليه ولا سـيما إذا رأوا انطفاء نور المنافقين، قال سـهل: لا يسـقط الافتقار إلى الله تعالى عن المؤمنين في الدنيا ولا في الآخرة بل هم في الآخرة أشـــد افتقاراً إليه وإن كانوا في دار العز لشوقهم إلى لقائه: {ربنا} أي أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كنا أو نكون فيه {أتمم} فأظهروا لأن المقام له.

ولما كان الإنسـان ربما رزق شـيئاً فانتفع به غيره دونه قالوا: {لنا نورنا} أي الذي مننت به علينا حتى يكون في غاية التمام فتوصـلنا به إلى المأمن في دار السـلام، ولا تجعلنا كالمنافقين الذين أطفأت أنوارهم فكانت عاقبتهم إلى الظلام.

ولما كان كل من حســن أدبه لا بد أن يعتقد في نفســه النقص، قالوا على سـبيل الذلة والمسـكنة والتواضـع: {واغفر لنا} أي امح عنا كل نقص كان يميل بنا إلى أحوال المنافقين عينه وأثره، وهذا النور هو صــورة أعمالهم في الدنيا لأن الآخرة تظهر فيها حقائق الأشياء وتتبع الصور معانيها، وهو شرع الله الذي شرعه وهو الصراط الذي يضـرب بين ظهراني جهنم لأن الفضـائل في الدنيا متوسطة بين الرذائل، فكل فضـيلة تكتنفها رذيلتان: إفراط وتفريط، فالفضــيلة هي الصــراط المســتقيم، والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله، فمن كان يمشي في الدنيا على ما أمر به سواء من غير إفراط ولا

تفريط كان نوره تاماً، ومن أمالته الشـــهوات طفئ نوره- أعاذنا الله من ذلك ورزقنا حسن الثبات، وكان ذلك الطفئ في بعض الأوقات واختطفته كلاليب هي صــور الشــهوات فتميل به في النار بقدر ميله إليها، والمنافق يظهر له نور إقراره بكلمة التوحيد، فإذا مشـــى طفئ لأن إقراره لا حقيقة له فنوره لا حقيقة له.

ولما كان ما ذكر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، علله بقوله مؤكداً لإنكار الكفار البعث وما تفرع عنه: {إنك} أي وحدك {على كل شــيء} أي يمكن دخول المشيئة فيه {قدير *} أي بالغ القدرة.

ولما ذكر ما تقدم من لينه صــلى الله عليه وســلم لأضــعف الناس النســاء وحســن أدبه وكريم عشـرته لأنه مجبول على الشـفقة على عباد الله والرحمة لهم، وختم بما للمؤمنين من الشـــرف ولله من تمام القدرة، أنتج ذلك القطع بإذلال أعدائهم وإخزائهم فقال مدارياً لهم من خطر ذلك اليوم بيد أنصـــح الخلق ليكون صــلى الله عليه وســلم جامعاً في طاعته ســبحانه وتعالى بين المتضــادات من اللين والشــدة والرضــى والغضــب والحلم والانتقام وغيرها، فيكون ذلك أدل على التعبد لله بما أمر به ســـبحانه وتعالى والتخلق بأوامره وكل ما يرضيه: {يا أيها النبي} منادياً بأداة التوسط إسماعاً للأمة الوسطى تنبيهاً على أنهم المنادون في الحقيقة، ولأجل دلالتها على التوسـط والله أعلم كان لا يتعقبها إلا ما له شـــأن عظيم، معبراً بالوصـــف الدال على الرفعة بالإعلام بالأخبار الإلهية المبني على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة، وأما وصـف الرسـالة فيغلب فيه الرحمة فيكثر إقباله على اللين والمسـايسـة نظراً

إلى وصـف الربوبية: {جاهد الكفار} أي المجاهرين بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف وما دونه ليعرف أن الأسود إنما اكتسبت من صولتك، فيعرف أن ذلك اللين لأهل الله إنما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك، وكبير حلمك وخوفك من الله ونبلك: {والمنافقين} أي المساترين بما يليق بهم من الحجة إن استمروا على المساترة، والسيف إن احتيج إليه إن أبدوا نوع مظاهرة {وأغلظ} أي كن غليظاً بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والإبعاد والهجر {عليهم} فإن الغلظة عليهم من اللين لله كما أن اللين لأهل الله من خشية الله، وقد أمره سبحانه باللين لهم في أول الأمر لإزالة أعذارهم وبيان إصرارهم، فلما بلغ الرفق أقصى مداه جازه إلى الغلظة وتعداه، وقد بان بهذه الآية أن أفعل التفضيل في قول النسوة لعمر رضي الله عنه: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم» على بابه ولا محذور.

ولما كان انتقام الولي من العدو إنما هو لله سبحانه وتعالى، لاحظ له فيه، فكان موجباً لعدم اكتفاء الله به في حق الولي، فكان التقدير: فإنهم ليس لهم عصمة ولا حرمة في الدنيا ولا قوة وإن لاح في أمرهم خلاف ذلك، عطف عليه قوله: {ومأواهم} أي في الآخرة {جهنم} أي الدركة النارية التي تلقى داخلها بالعبوسة والكراهة.

ولما كان التقدير: إليها مصيرهم لا محالة، عطف عليه قوله: {وبئس المصير *} أي هي، فذلك جزاء الله لهم عن الإساءة إلى أوليائه والانتقاص لأحبائه.

▲ تفسير الآية رقم [10]

{ضَـــرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـــالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)}

ولما كان أمر الاســتئصــال في الإنجاء والإهلاك أشــبه شــيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء، ثم أتبع بـالأمر بـالتـأديـب لجميع الأمـة إلى أن ختم بهلاك المخـالف في الدارين، وكان للكفار قرابات بالمســـلمين وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم، وللمســـلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضــرهم، قال مجيباً لما يتخيل من ذلك تأديباً لمن ينكر عليه صـــلى الله عليه وســـلم من النســـاء وغيرهن: {ضـرب الله} أي الملك الذي أحاط بكل شـيء قدرة وعلماً {مثلاً} يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ {للذين كفروا} أي غطوا الحق على أنفســهم وعلى غيرهم ســواء كانوا مشــاققين أو منافقين في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين المؤمنين من الوصل والعلائق فيغلظ عليهم في الدارين معاملة بما يســـتحقون من غير محاباة لأحد وإن جل مقامه، وعلا منصـبه ومرامه، لأن الكفر قاطع للعلائق بين الكافر والمسـلم: {امرأت نوح} الذي أهلك الله من كذبه بالغرق ونصــره وآواه عليه الصـــلاة والسلام وكان اسمها فيما يقال واعلة {وامرأت لوط} الذي أهلك الله أيضاً من كذبه بالحصـب والخسـف والإغراق، واسـمها فيما قيل واهلة، ودل على وجه الشـــبه بقوله: {كانتا} أي مع كونهما كافرتين. ولم يقل: تحتهما، بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح لأن ذلك

أفخم، فيكون أشـــد تأثيراً للموعوظ وأعظم، ودفعاً لأن يتوهم أحد بشــيء لا يليق بمقامهما عليهما الصــلاة والســلام فقال: {تحت عبدين} أي كل واحدة منهما تحت عبد، وعبر بذلك لأن أثر الناس عند الملك كما تقدم عبيده، ودل على كثرة عبيده تنبيهاً على غناه بقوله: {من عبادنا}.

ولما كانت طبقات القرب متفاوتة بحسب الصلاح قال: {صالحين} وهما نوح ولوط عليهما الصـــلاة والســـلام {فخانتاهما} بعدم المتابعة في الدين نفاقاً منهما لا بالخيانة في الفرش، فقد صـــان الله جميع الأنبياء من ذلك فلم تقل واحدة منهما لأجل كفرهما: رب اجعلني مع نبيك في الجنة، وآذن بعدم قبول الشــفاعة فيمن أســاء إلى الحبيب وبعذابه حتماً للتشــفي بقوله: {فلم} أي فتسـبب عن ذلك أن العبدين الصــالحين لم {يغنيا عنهما} أي المرأتين بحق الزواج {من الله} أي من عذاب الملك الذي لـه الأمر كلـه فلا أمر لغيره {شــيئاً} أي من إغناء لأجل خيانتهما بالمخالفة في الدين، ودل على كمال قدرته تعالى بالتعبير بالمجهول فقال: {وقيل} أي للمرأتين ممن أذن له في القول النافذ الذي لا مرد له: {ادخلا النار} أي مقدماتها من الإصــرار على الكفر ثم الإهلاك بعـذاب الانتقـام في الـدنيـا وحقيقتهـا في الآخرة لأن الله أبغضـــهما لأنهما عدو لأوليائه، وذلك كما قيل: عدو صـــديقي ليس لي بصديق.

ولما فعلتا فعل الرجال في اســـتقلالهما وعدم عدهما لأنفســـهما تبعاً، غلظ عذابهما بالكون مع الرجال في عذابهم فقال دالاً على نفوذ الحكم فيمن هو أقوى منهما بعد نفوذه فيهما: {مع الداخلين *} أي الذين هم أعظم منهما

ممن لهم وصلة بأهل الله وممن لا وصلة لهم بهم، فليتأدب كل أحد مع النبي صلى الله عليه وسلم غاية الأدب خوفاً من مثل ذلك، وهذا خالع لقلوب من ابتدأ بتأديبهن- رضي الله تعالى عنهن.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 12]

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)}

ولما أتم مثل النذارة بأن طاعة المطيع لا تنفع العاصي وإن كان أقرب الناس إلى المطيع إلا إن كان له أساس يصح البناء عليه، ويجوز الاعتداد به والنظر إليه، أتبعه مثل البشارة بأن عصيان العاصي لا يضر المطيع فقال: {وضرب الله} أي الملك الأعلى الذي له صفات الكمال {مثلاً للذين آمنوا} ولو كان في أدنى درجات الإيمان مبيناً لأن وصلة الكفار إذا كانت على وجه الإكراه والإجبار لا تضر {امرأت فرعون} واسمها آسية بنت مزاحم، آمنت وعملت صالحاً فلم تضرها الوصلة بالكافر بالزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه إيمانها {كل امرئ بما كسب رهين} [الطور: 21] وأثابها ربها سبحانه أن جعلها زوجة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في دار كرامته بصبرها على عبادة الله وهي في حبالة عدوه، وأسقط وصفه بالعبودية دليلاً على تحقيره وعدم رحمته لأنه أعدى أعدائه، وأشار إلى وجه

الشبه في المثل وهو التحيز إلى حزب الله بقدر الوسع فقال: {إذ} أي مثلهم مثلها حين {قالت} تصديقاً بالعبث منادية نداء الخواص بإسقاط الأداة لأجل أنها مؤمنة وإن كانت تحت كافر بنا فلم تضر صحبته شيئاً لأجل إيمانها: {رب} أي أيها المحســن إليّ بالهداية وأنا في حبالة هذا الكافر الجبار ولم تغرني بعز الدنيا وسعتها {ابن لي}.

ولما كان الجار مطلوباً– كما قالوا– قبل الدار، طلبت خير جار وقدمت الظرف اهتماماً به لنصـه على المجاورة ولدلالته على الزلفى فقالت: {عندك بيتاً} وعينت مرادها بالعندية فقالت: {في الجنة} لأنها دار المقربين فظهر من أول كلامها وآخره أن مطلوبها أخص داره، وقد أجابها ســبحانه بأن جعلها زوجة لخاتم رسـوله الذي هو خير خلقه وأقربهم منه، فكانت معه في منزله الذي هو أعلى المنازل.

ولما سألت ما حيّزها إلى جناب الله سألت ما يباعدها في الدارين من أعدائه فقالت: {ونجني} أي تنجية عظيمة {من فرعون} أي فلا أكون عنده ولا تسلطه عليّ بما يضرني عندك {وعمله} أي أن أعمل بشيء منه {ونجني} أعادت العامل تأكيداً {من القوم الظالمين *} أي الناس الأقوياء العريقين في أن يضـعوا أعمالهم في غير مواضـعها التي أمروا بوضـعها فيها فعل من يمشـي في الظلام عامة، وهم القبط، لا تخالطني بأحد منهم، فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن إليها لأجل محبتها للمحبوب وهو موسى عليه الصلاة والسلام كما يقال: صديق صديقي داخل في صداقتي، وذلك أن موسى عليه الصـلاة والسـلام لما غلب السـحرة آمنت به فعذبها فرعون فماتت بعد أن

أراها الله بيتها في الجنة ولم يضـــرها كونها تحت فرعون شـــيئاً لأنها كانت معذورة في ذلك، فالآية من الاحتباك: حذف أولاً «فلم تســألا الجنة» لدلالة «رب ابن لي» ثانياً عليه، وحذف ثانياً «كانت تحت كافر» لدلالة الأول عليه.

ولما أتم المثل بمن أســاءتا الأدب فلم تنفعهما الوصــلة بالأولياء بل زادتهما ضـــرراً للإعراض عن الخير مع قربه وتيســـره، وبمن أحســـنت الأدب فلم تضرها الوصلة بأعدى الأعداء بل زادتها خيراً لإحسانها مع قيام المغتر بها عن الإحسـان ضـرب مثلاً بقرينتها في قوله صـلى الله عليه وسـلم كما رواه الشيخان عن أبي موسى رضـي الله عنه: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النســاء إلا مريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم، وفضــل عائشــة على النســـاء كفضـــل الثريد على الطعام» ومع مقارنتها لها في الكمال، فبين حاليهما في الثيوبة والبكورة طباق، فلم يبتلها سـبحانه بخلطة زوج جمعاً بين ما تقدم من صـــنفي الثيبات والأبكار اللاتي يعطيهما لنبيه صـــلى الله عليه وسلم فأحسنت الأدب في نفسها مع الله ومع سائر من لزمها الأدب معه من عباده فأحسـن إليها رعاية لها على ما وفقها إليه من الإحسـان، وذلك رعاية لأســلافها إذ كانوا من أعظم الأحباب فقال: {ومريم} أي وضــرب الله مثلاً لأهل الانفراد والعزلة من الذين آمنوا مريم {ابنة عمران} أي أحد الأحباب، وذكر وجه الشـبه فقال: {التي أحصـنت فرجها} أي عفت عن السـوء وجميع مقدماته عفة كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على بكريتها

إلى الممات فتزوجها في الجنة جزاء لها بخير عبادنا محمد صـلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.

ولما اغتنت بأنسها بروح الله الذي بثه في قلبها من محبة الذكر والعبادة عن الأنس بأرواح الناس، كان ذلك سـبباً لأن وهبها روحاً منه جسـده في أكمل الصـور المقدرة في ذلك الحين فقال مخبراً عن ذلك: {فنفخنا} أي بعظمتنا بواسطة ملكنا روح القدس.

ولما كانت هذه السورة لتشريف النبي صلى الله عليه وسلم وتكميل نسائه في الدنيا والآخرة، نص على المقصـود بتذكير الضـمير ولم يؤنثه قطعاً للسـان من يقول تعنتاً: إن المراد نفخ روحها في جسـدها: {فيه} أي فرجها الحقيقي وهو جيبها وكل جيب يسمى فرجاً، ويدل على الأول قراءة «فيها» شاذة {من روحنا} أي روح هو أهل لشـرفه بما عظمنا من خلقه ولطف تكوينه أن يضـاف إلينا لكونه خارجاً عن التسـبيب المعتاد وهو جبريل عليه الصـلاة والسلام أو روح الحياة.

ولما كان التقدير: فكان ما أردنا، فحملت من غير ذكر ولدت عيسـى عليه الصلاة والسلام الذي كان من كلمتنا وهي «احملي» ثم كلمتنا «كن يا حمل من غير ذكر» ثم كلمتنا «لديه يا مريم من غير مسـاعد» ثم كلمتنا «تكلم عيسى في المهد بالحكمة» عطف عليه قوله: {وصدقت} فاستحقت لذلك أن تسمى صديقة {بكلمات ربها} أي المحسن إليها بما تقدم وغيره مما كان من كلام جبريل عليه الصلاة والسلام بسببه ومن عيسى عليه الصلاة والسلام ومما تكلم به عن الله سـبحانه وتعالى {وكتبه} أي وكتابه الضـابط الجامع

لكلامه أنزل على ولدها وغيره من كتب الله كما دل على ذلك قراءة البصريين وحفص بالجمع.

ولما كان المصدق ربما كان تصديقه في الظاهر أو مشوباً بشيء من الضمائر قال: {وكانت} أي جبلة وطبعاً، وشرفها بأن جعلها في رتبة الأكمل وهم الرجال فقال: {من القانتين *} أي المخلصين الذين هم في غاية القوة والكمال لأنها كانت من بنات الأحباب المصطفين على العالمين، فلم تكن عبادتها تقصر عن عبادة الأقوياء الكلمة، وقد أتم سبحانه الأمثال في الآداب بالثيبات والأبكار والأخيار والأشرار، فانعطف آخر السورة على أولها في المعاني بالآداب، وزاد ذلك حسناً كونها في النساء وفي الذوات والأعيان بزواج النبي صلى الله عليه وسلم لآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران في الجنة دار القرار السالمة عن الأكدار الزواج الأبدي فصار أول السورة وآخرها في أزواجه صلى الله عليه وسلم وفي ختامها بالقنوت الذي هو خلاصة الأوصاف الماضية في الأبدال المذكورات أعظم مناسبة- والله الهادي.

67 Surah Al Mulk Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة الملك

▲ تفسير الآيات رقم [1- 3]

{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)}

لما ختمت تلك بأن من أعرض عنه سبحانه أهلكته ولم يغن عنه أحد، ومن أقبل عليه رفعه واستخلصه ولم يضره أحد، وختم بأنه قوى مريم عليها السلام حتى كانت في درجة الكملة ورزقها الرسوخ في الإخلاص، وكان مثل هذا لا يقدر على فعله إلا من لا كفوء له، وكان من لا كفوء له أهلاً لأن يخلص له الأعمال ولا يلتفت إلى سواه بحال، لأنه الملك الذي يملك

الملك قال مثيراً للهمم إلى الاستبصار المثير للإرادة إلى رياضة تثمر جميع أبواب السعادة: {تبارك} أي تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتاً لا مثل له مع اليمن والبركة وتواتر الإحسان والعلى.

ولما كان من له الملك قد لا يكون متمكناً من إبقائه في يده أو إعطاء ما يريد منه لغيره ونزعه منه متى أراد قال: {الذي بيده} أي بقدرته وتصرفه لا بقدرة غيره {الملك} أي أمر ظاهر العالم فإليه كل تدبير له وتدبير فيه وبقدرته إظهار ما يريد، لا مانع له من شيء ولا كفوء له بوجه، وهو كناية عن الإحاطة والقهر، وذكر اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام القدرة لأنها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما يفهم حاجة أو شبهاً بالخلق.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: ورود ما افتتحت به هذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه كورود قوله تعالى «فتبارك الله أحسن الخالقين» عقيب تفصيل التقلب الإنساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقاً آخر وكذا كل ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء أي قد جردت للتنزيه والإعلام بصفات التعالي والجلال.

ولما كان قد أوقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر، وأعلى آية لمن استبصر، من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده واجتهدا في دعاء الخلق، فحرم الاستنارة بنورهما والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه ولا أكثر مشاهدة لما مدا به من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم

يغنيا عنهما من الله شـــيئاً، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يغرها مرتكب صـــاحبها وعظيم جرأته مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من الســـعادة وعظيم الرحمة فقالت : {رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة} [التحريم: 11] وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك به أولى الناس في ظاهر الأمر وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه، ثم أعقب ذلك بقصـــة عريت عن مثل هذين الســـببين وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين، وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضـــع الأسـباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك.

بقوله الحق {تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شـيء قدير} [الملك: 1] وإذا كان الملك سـبحانه وتعالى بيده الملك فهو الذي يؤتي الملك والفضـل من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران، فقد اتضـح اتصـال سـورة الملك بما قبلها ثم بنيت ســورة الملك على التنبيه والاعتبار ببســط الدلائل ونصــب البراهين حسبما يبسطه التفسير – انتهى.

ولما كان المتصـرف في الملك قد لا يكون قدرته تامة ولا عامة قال تعالى: {وهو} أي وحده له عظمة تستولي على القلوب وسياسة تعم كل جلب نفع ودفع ضـرر لأنه {على كل شـيء} أي يمكن يشـاؤه من الملك وغيره من

باطنه وهو الملكوت وغيره مما وجد وما لم يوجد {قدير *} أي تام القدرة، ودل على ذلك بقوله: {الذي خلق} أي قدر وأوجد.

ولما كان الخوف من إيقاع المؤلم ادعى إلى الخضـــوع لأنه أدل على الملك مع أن الأصـل في الأشـياء العدم، قدم قوله: {الموت} أي هذا الجنس وهو زوال الحياة عن الحي الذي هو في غاية الاقتدار على التقلب بجعله جماداً كأن لم يكن به حركة أصـــلاً. أول ما يفعل في تلك الدار بعد اســتقرار كل فريق في داره وأن يعدم هذا الجنس فيذبح بعد أن يصـــور في صـــورة كبش {والحياة} أي هذا الجنس وهو المعنى الذي يقدر الجماد به على التقلب بنفســـه وبالإرادة، وقال ابن عباس رضـــي الله عنهما: الموت خلقه الله على صـورة كبش أملح لا يمر بشـيء ولا يجد ريحه إلا مات، والحياة على صـورة فرس بلقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها فلا يجد ريحها شـيء إلا حيي، وهي التي أخذ السـامري قبضـة من أثرها وألقاه على الحلي الذي ألقاه بنو إسرائيل ونوى أن يكون عجلاً فصار عجلاً.

ولما ذكر الدال على القدرة أتبعه غايته، وهو الحكم الذي هو خاصـة الملوك فقال تعالى: {ليبلوكم} أي يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لإظهار ما عندكم من العمل بالاختيار {أيكم أحســـن عملاً} أي من جهة العمل أي عمله أحسـن من عمل غيره، وعبارة القرآن في إسـناد الحسـن إلى الإنسـان تدل على أن من كان عمله أحسـن كان هو أحسـن ولو أنه أبشـع الناس منظراً، ومن كان عمله أســوأ كان بخلاف ذلك، والحســـن إنما يدرك بالشرع، فما حسنه الشرع فهو الحسن وما قبحه فهو القبيح، وكان ذلك مفيداً

للقيام بالطاعة لأن من تفكر في حاله علم أنه مباين لبقية الحيوانات بعقلة وللنباتات بحياته، وللجمادات بنموه، وأن ذلك ليس له من ذاته بدليل موته، فما كان له ذلك إلا بفاعل مختار، له الحياة من ذاته، فيجتهد في رضـــاه باتباع رســله إن كان عاقلاً، فيشــكره إذا أنعم، ويصــبر إن امتحن وانتقم، ويخدمه بما أمر وينزجر عما عنه زجره، فهذه الآية مشـــتملة على وجود المقتضـــي للســعادة وانتفاء المانع منها ووجود المقتضـــي إعداد وإرشـــاد، فالإعداد إعانته ســبحانه للعبد بإعداده لقبول الســعادة كالحداد يلين الحديد بالنار ليقبل أن يكون ســكيناً، والإرشـــاد أخذه بالناصـــية إلى ما أعد له كالضرب بالسكين وإصلاحها للقطع بها، وانتفاء المانع هو الموقف عن ذلك وهو دفع المشـوشـات والمفسـدات كتثلم السـكين وهو يجري السـبب وسـبب السبب، وهو ما اشتمل عليه قوله صلى الله عليه وسلم

»اللهم أعني ولا تعن عليّ» الحديث، فذكره لتمام القدرة والعزة مع ذكر الأحســـن دال على توفيقه بما ذكر، ومن تأمل الآية عرف أنه ما خلق لا ليتميز جوهره من صدق غيره أو صدقه من جوهر غيره، وأن الدنيا مزروعة، وأن الآخرة محصدة، فيصير من نفسه على بصيرة، وثارت إرادته لما خلق له تارة بالنظر إلى جمال ربه من حسن وإحسان، وأخرى إلى جلاله من قدرة وإمكان، وتارة بالنظر لنفســه بالشــفقة عليها من خزي الحرمان، فيجتهد في رضا ربه وصلاح نفسه خوفاً من عاقبة هذه البلوى.

ولما كان لا يغفل الابتلاء منا إلا جاهل بالعواقب وعاجز عن رد المســـيء عن إســاءته وجعله محســناً من أول نشــأته، قال نافياً لذلك عن منيع جنابه

بعد أن نفاه بلطيف تدبيره وعظيم أمره في خلق الموت والحياة، ومزيلاً بوصف العزة لما قد يقوله من يكون قوي الهمة: أنا لا أحتاج إلى تعب كبير في الوصول إليه سبحانه بل أصل إليه أي وقت شئت بأيسر سعي {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} أي الذي يصعب الوصول إليه جداً، من العزاز وهو المكان الوعر والذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، فلو أراد جعل الكل محسنين، ولا يكون كذلك إلا وهو تام القدرة فيلزم تمام العلم والوحدانية ووجوب الوجود أزلاً وأبداً.

ولما كان العزيز منا يهلك كل من خالفه إذا علم مخالفته، قال مبيناً إمهاله للعصاة مرغباً للمسيء في التوبة، بعد ترهيبه من الإصرار على الحوبة، لأنه قد يكون مزدرئاً لنفسه قائلاً: إن مثلي لا يصلح للخدمة لما لي من الذنوب القاطعة وأين التراب من رب الأرباب {الغفور *} أي أنه مع ذلك يفعل في محو الذنوب عيناً وأثراً فعل المبالغ في ذلك ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلق كما قال تعالى في الحديث القدسي «ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

ولما أثبت له سبحانه صفتي العز والغفر على أبلغ ما يكون، دل على ذلك بقوله دالاً على كمال تفرده بعد آيات الأنفس بآيات الآفاق إرشاداً إلى معالي الأخلاق: {الذي خلق} أي أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق {سبع سماوات} حال كونها {طباقاً} جمع طبق كل واحدة منها كأنها لشدة مطابقتها للأخرى طالبة مطابقتها بحيث يكون كل جزء منها مطابقاً لجزء من الأخرى، ولا يكون جزء منها خارجاً عن ذلك وهي لا تكون كذلك إلا بأن تكون

الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة بالبيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة، فما ظنك بما تحته، وكل سماه في التي فوقها بهذه النسبة، وقد قرر أهل الهيئة أنها كذلك، وليس في الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولا سيما التشبيه بالحلقة الملقاة في فلاة كما مضى بسط ذلك في ذلك سورة السجدة، وأحاط سبحانه بالأرض منافعها من جميع الجوانب، وجعل المركز بحيث يجذب إليه الأسفل فكيفما مشى الحيوان في جوانبها اقتضى المركز أن تكون رجلاه إلى الأرض ورأسه إلى السماء لتكون السماء في رأيه دائماً أعلى، والأرض أسفل في أي جانب كان هو عليها، فسبحان اللطيف الخبير، ولا شك أن من تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأه فيها لنا من المنافع، آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد، فانقطع باللجاء إليه ولم يعول إلا عليه في كل دفع ونفع، وسارع في مراضيه ومحابه في كل خفض ورفع.

ولما كان ذلك في حد ذاته خارجاً عن طوق المخلوق، وكان سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، ولما بين كل سماءين كذلك مع عدم الفروج والعمد والأطناب، فكان ذلك النهاية في الخروج عن العادة في حد ذاته ولأنه قيل: إن القبة إذا بنيت بلا فروج ولا شيء يدخل الهواء منه تفسد وتسقط، دل على عزته بعظيم صنعه في ذلك بقوله واصفاً لها: {ما ترى في} وكان الأصل: خلقها، ولكنه دل على عزته وعموم عظمته بقوله: {خلق الرحمن} أي لها ولغيرها ولولا رحمته وعموم عظمته التي اقتضت إكرامه لخلقه بعد

غفرانه لما لهم من النقائص ما أحسن إليهم بها في اتساعها وزينتها وما فيها من المنافع، وأعرق في النفي بقوله: {من تفاوت} بين صـــغير ذلك الخلق وكبيره بالنســبة إلى الخالق في إيجاده له على حد ســواء، إنما قوله إذا أراد شـــيئاً أن يقول له كن فيكون، فلا فرق في ذلك بين الذرة مثلاً والغرس ولا بالنسـبة إلى الخالق من عجز صـغيرهم وكبيرهم عن إيجاد شـيء من العدم صغيراً كان أو كبيراً جليلاً كان أو حقيراً، ولا ترى تفاوتاً في الخلق بأن يكون شـــيء منه فائتاً للآخر بالمخالفة والاضـــطراب والتناقض في الخلقة غير مناســب له بأن يكون خارجاً عنه أو منافراً له في مقتضـــى الحكمة، وآثار الإحسان في الصنعة، والنزول عن الإتقان والاتساق، والخروج عن الإحكام والاتفاق، والدلالة للخالق على كمال القدرة وللمخلوق على الحدوث بنوع من ضـــعف البنية بحيث يكون كل واحد كالطالب لأن يخالف الآخر، أو تعمد لأن يفوت الآخر ويخالفه- على قراءة حذف الألف والتشـــديد بحيث يكون التفاضل في المزدوجات وعدم المساواة كأنه مقصود بالذات وبالقصد الأول، بل لا توجد المخالفة إلا نادراً بحيث يعلم أن المشاكلة هي المقصود بالذات وبالقصد الأول، فإذا وقع في شـيء منه مخالفة كان على وجه الندور ليعلم أنه ليس مقصوداً بالذات، وإنما أريد به الدلالة على الاختيار وأن الفاعل هو القادر المختار لا الطبيعة، قال الرازي: كأن التفاوت الشيء المختلف لأعلى النظام، وقال البغوي: من اعوجاج واختلاف وتناقض، وقال غيره: عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه، وهو من الفوت وهو أن

يفوت بعضـــها بعضـــاً لقلة اســـتوائها، وقال أبو حيان: والتفاوت تجاوز الحد الذي يجب له زيادة أو نقصان- انتهى.

يظهر ذلك بأن أغلب الخلق أجوف، والأجوف يعمل مبســـوطاً ثم يضـــم ويوصل أحد جانبيه بالآخر فيكون ثم نوع فطر يعرفه أهل الحذق وإن اجتهد صـــانعه في إخفائه وإن كان فيه أشـــياء متقابلة كان فيها تفاوت ولو قل وإن اجتهد الصـــانع في المساواة، وخلق الله لا تفاوت فيه بوجه، فالسماوات كرية ولا ترى في جانب منها شـــــقاً ولا فطراً ظاهراً ولا خفياً، والحيوان أجوف ولا ترى في شـــيء من جســـده فصـــماً يكون الضـــم والتجويف وقع به وكل من متقابليه مســـاو للأخر كالعينين والأذنين والمنخرين والســـاقين ونحوها مما يقصـد فيه التسـاوي لا تفاوت فيه أصـلاً- إلى غير ذلك مما يطول شـرحه، ولا يمكن ضـــبطه، فســـبحان من لا تتناهى قدرته فلا تتناهى مقدوراته، ولا تحصـــى بوجه معلوماته، وكل ذلك عليه هين، والأمر في ذلك واضـــح بين، هذا مع الاتســـاع الذي لا يدرك مقداره بأكثر من أن كل ســـماء بالنســـبة إلى التي فوقها كحلقة ملقاة في فلاة إلى أن يوصـــــل إلى الكرســـــي ثم العرش العظيم، ومن سر كونها كذلك حصـول النفع بكل ما فيها من كواكب مرطبة أو ميبسة أو منورة واتصالات ممطرة ومثبتة يجري كل ذلك منها على ترتيب مطرد، ونظام غير منخرم مقدر جريه بالقســـــط مرتب على منافع الوجود ومصـــالح الكائنات كلها مكفوفة على هواء لطيف بتدبير شـــريف: لا يتعدى شـــيء منها طوره ولا يتخطى حده، ولا يرســـب فيها تحته من الهواء فيهوي،

ولا يرتفع عن محله بمقدار ذرة فيطفو، قد أحاط بكلها الأمر، وضـــبطها صاغرة القهر.

ولما كان العلم الناشـــئ عن الحســـن أجل العلوم، دل على بديع ما ذكره بمشـــاهدة الحس له كذلك، فســـبب عنه قوله منبهاً بالرجع الذي هو تكرير الرجوع على أن كل أحد يشـــاهد ذلك كذلك من حين يعقل إلى أن يبلغ حد التكليف المقتضي للمخاطبة بهذا الكلام: {فارجع البصر} أي بعد ترديدك له قبل ذلك، ودل بتوجيه الخطاب نحو أكمل الخلق صـلى الله عليه وسـلم في السمع والبصر والبصيره وكل معنى إلى أن ذلك لا شبهة فيه.

ولما كان السؤال عن الشـيء يدل على شدة الاهتمام بالبحث عنه، نبه على أن هذا مما اشتدت عناية الأولين به فقال: {هل ترى} أي في شيء منها.

ولما كان هذا الاسـتفهام مفيداً للنفي، أعرق في النفي بقوله: {من فطور *} أي خلل بشـــقوق وصـــدوع أو غيرها لتغاير ما هي عليه وأخبرت به من تناسبها واستجماعها واستقامتها ما يحق لها مما يدل على عزة ما فيها وبليغ غفرانه، وهذا أيضاً يدل على إحاطة كل منها بما دونه فإنه لو كان لها فروج لفاتت المنافع التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضـــها أو كمالها، فالهواء وجميع المنافع منحبسـة فيها محوطة بها مضطربة متصـرفة فيها على حسـب التدبير والحيوان في الهواء كالسـمك في الماء، أو انحبس الهواء عنه لمات كما أنه لو انكشف الماء عن السمك لمات.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 7]

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)}

ولما كان في سياق المجازاة بالأعمال الصالحة والطالحة التي دل عدم الانتصاف من الظالمين في هذه الدار على أنها تكون بعد البعث وكانت العزة مقتضية لذلك، وكان خلقه سبحانه وتعالى لهذا الوجود على هذا النظام مثبتاً لها، وكانت أعمالهم أعمال المنكر لها، ولا سيما تصريحهم بأنه لا بعث، دل على عظمة عزته بما أبدعه من هذا السقف الرفيع البديع، ثم بجعله محفوظاً هذا الحفظ المنيع، على تعاقب الأحقاب وتكرر السنين، فقال معبراً بأداة التراخي دالاً على جلاله بإدامة التكرير طول الزمان: {ثم ارجع البصر} وأكد ما أفهمته الآية من طلب التكرير بقوله تعالى: {كرتين} أي مرتين أخريين- هذا مدلولها لغة، وبالنظر إلى السياق علم أن المرد مرة بعد مرة لا تزال تكرر ذلك لارتياد الخلل لا إلى نهاية، كما أن «لبيك» مراد به إجابة إلى غير غاية، وعلى ذلك دل قوله سبحانه وتعالى: {ينقلب إليك} أي من غير اختيار بل غلبة وإعياء وانكسار {البصر خاسئاً} أي صاغراً مطروداً ذليلاً بعيداً عن إصابة المطلوب {وهو} أي والحال أنه {حسير *} أي كليل تعب معيى من طول المعاودة وتدقيق النظر وبعد المسرح، وإذا كان هذا الحال في بعض المصنوع فكيف يطلب العلم بالصانع في كماله

من جلاله وجماله، فكيف بمن يتفوه بالحلول أو الاتحاد حسـبه جهنم وبئس المهاد.

ولما أخبر سـبحانه وتعالى عن بديع هذا الخلق، ونبه على بعض دقائقه وأمر بالإبصـار وتكريره، وكان السـامع أول ما يصـوب نظره إلى السـماء لشـرفها وغريب صـنعها وبديع وضـعها ومنيع رفعها، فكان بحيث يتوقع الإخبار عن هذه الزينة التي رصـعت بها، قال في جواب من توقعه مؤكداً بالقسـم إعلاماً بأنه ينبغي أن يبعد العاقل عن إنكار شـيء مما ينسـب إلى صـاحب هذا الخلق من الكمال، عاطفاً على ما تقديره: لقد كفى هذا القدر في الدلالة على عظمة مبدع هذا الصـنع وتمام قدرته: {ولقد} واسـتجلب الشكر بجلب المسار فقال ناظراً إلى مقام العظمة صرفاً للعقول عما اقتضاه «الرحمن» من عموم الرحمة تذكيراً بما في الآية الماضـية، وتنبيهاً على ما في الزينـة بـالنجوم من مزجهـا بـالرجوم الـذي هو عـذاب «الجن المتمردين الطاغين»: {زينا} دلالة أخرى تدل على العظمة بعد تلك الدلالة الأولى {السماء الدنيا} أي أدنى السماوات إلى الأرض وهي التي تشـهد وأنتم دائماً تشـاهدونها وهي سـقف الدار التي اجتمعتم فيها في هذه الحياة الدنيا {بمصابيح} أي نجوم متقدة عظيمة جداً، كثرتها تفوت الحصر، ظاهرة سائرة مضـيئة زاهرة. وهي الكواكب التي تنور الأرض بالليل إنارة السـرج التي تزينون بها سـقوف دوركم، فتفيد شـعبة من ضـوء الصـباح، والتزيين بها لا يمنع أن تكون مركوزة فيها فوقها من السـماوات وهي تتراءى لنا بحسـب

الشـفوف بما للاجرام السـماوية من الصـفاء، ولتلك المصـابيح من شـدة الإضاءة.

ولما أخبر – جلت قدرته– بعظيم قدرته فيها منبهاً على ما فيها من جلب المسار بتلك الأنوار والهداية في الدين والدنيا التي لولا هي لما انتفع أحد في ليل انتفاعاً تاماً، أخبر بما فيها مع الزينة من دفع المضـار بعبارة عامة وإن كان المراد البعض الأغلب فإن ما للرجوم منها غير ما للاهتداء والرسـوم فقال: {وجعلناها} أي النجوم من حيث هي بعظمتنا مع كونها زينة وأعلاماً للهداية {رجوماً} جمع رجم وهو مصدر واسم لما يرجم به {للشياطين} الذين يسـتحقون الطرد والبعد والحرق من الجن لما لهم من الاحتراق، وذلك بياناً لعظمتنا وحراسـة للسـماء الدنيا التي هي محل تنزل أمرنا بالقضـاء والقدر، وإنزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع منها على الناس دينهم الحق، ويلبسـوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذي ختمنا به الأديان بالباطل، فيخرجوهم– لأنهم أعداؤهم– من النور إلى الظلمات كما كانوا في الجاهلية مع ما فيها بما خلق سـبحانه في أمزجتها من ترطيب وتجفيف وحر وبرد واعتدال ينشـأ عنه الفصـول الأربعة وقهرها به من شـروق وغروب وحركة وسـكون يعرف بها ما إليه المآل، مما أخبرت به الرسـل من الزوال، مع ما يدل من الليل والنهار والعشي والإبكار وأشياء يكل عنها الوصف في ذواتها وعن إحصاء منافعها حتى لو عدم شيء مما في السماوات مما دبره الحكيم لصـلاح هذا العالم يهلك كل حيوان ونبات على وجه الأرض، والشـهاب المرجوم به منفصـل من نار الكواكب وهو قار في فلكه على حالة كقبس

النار يؤخذ منها وهي باقية على حالها لا نقص، وذلك مســـوغ لتســـميتها بالرجوم، فمن لحقه الشهاب منهم قتله أو ضعضع أمره وخبله، ويحتمل مع ذلك أن يكون المراد : ظنوناً لشـــياطين الإنس وهم المنجمون يتكلمون بها رجماً بالغيب في أشـــياء هي من عظيم الابتلاء ليتبين الموقن من المزلزل والعالم من الجاهل؛ وفي البخاري : قال قتادة : «خلقت النجوم لثلاث : زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف بما لا علم له به» ولما كان التقدير : ورجمناهم بها بالفعل عند اســـتراقهم للســـمع إبعاداً لهم عن مســـكن المكرمين ومحل النزاهة والأنس ومهبط القضاء والتقدير، ونكالاً لغيرهم من أمثالهم عذاباً لهم في الدنيا، عطف عليه قوله ترهيباً من جلاله بعد ما رغب في عظيم جماله: {وأعتدنا } أي هيأنا في الآخرة مع هذا الذي في الدنيا بما لنا من العظمة {لهم} أي الشياطين الذين يسترقون السمع {عذاب السعير-} أي النار التي هي في غاية الاتقاد، ففي الآية بشارة أهل السمع والبصر والعقل وفيها من التنبيه ما لا يخفى.

ولما أخبر ســبحانه عن تهيئته العذاب لهم بالخصــوص، أخبر أيضـــاً عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال حاثاً على التكفر في عظيم انتقامه الخارج عن العادة في عدم الانطفاء، لكونه ليس بسيف ولا عصا. ولا بسوط ونحوه بل النار الخارجة عن العادة في عدم الانطفاء، ولا للمعذب من الخلاص منها مسلك ولا رجاء بل كلما طال الزمان تلقته بالشدة والامتداد، بئس الجامعة للمذام في كل انتقام مع الإهانة والاحتقار {وللذين

كفروا} أي أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشـهر من الإذعان للإله، فقال صـارفاً القول عن مقام العظمة إلى صـفة الإحسـان الخاصـة بالتربية تنبيهاً على ما في إنكاره من عظيم الكفران: {بربهم} أي الذي تفرد بإيجادهم والإحسـان إليهم فأنكروا إيجاده لهم بعد الموت وذلك كفراً منهم بما شـاهدوا من اختراعه لهم من العدم {عذاب جهنم} أي الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب.

ولما كان التقدير: هي مصـيرهم، قال دالاً على عدم خلاصـهم منها أصـلاً أزلاً وأبداً: {وبئس المصير *} أي هي.

ولما عبر عن ذمها بمجمع المذام، أتبعه الوصـف لبعض تجهمها على وجه التعليل، فقال دالاً بالإلقاء على خسـاسـتهم وحقارتهم معبراً بأداة التحقيق دالالة على أنه أمر لا بد منه، وبالبناء للمفعول على أن إلقاءهم في غاية السـهولة على كل من يؤمر به: {إذا ألقوا} أي طرح الذين كفروا والأخسـاء من أي طـارح أمرناه بطرحهم {فيها} حين تعتلهم الملائكة فتطرحهم كما تطرح الحطب في النار {سـمعوا لها} أي جهنم نفسـها {شـهيقاً} أي صـوتاً هائلاً أشـد نكارة من أول صـوت الحمار لشـدة توقدها وغليانها، أو لأهلها- على حذف مضـاف {وهي تفور *} أي تغلي بهم كغلي المرجل بما فيه من شـدة التلهب والتسعر، فهم لا يزالون فيها صـاعدين هابطين كالحب إذا كان الماء- يغلي به، لا قرار لهم أصلاً.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 11]

{تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)}

ولما وصفها بالفوران، بين سببه تمثيلاً لشدة اشتعالها عليهم فقال: {تكاد تميز} أي تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال: يكاد فلان ينشق من غيظه وفلان غضب فطارت شقة منه في الأرض وشقة في السماء- كناية عن شدة الغضب {من الغيظ} أي عليهم، كأنه حذف إحدى التاءين إشارة إلى أنه يحصل منها افتراق واتصال على وجه من السرعة لا يكاد يدرك حق الإدراك، وذلك كله لغضب سيدها، وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به، وهي شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الأزمة جميعاً وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم إلا النبي صلى الله عليه وسلم يقابلها بنوره فترجع مع أن لكل ملك من القوة ما لو أمر به أن يقتلع الأرض وما عليها من الجبال ويصعد بها في الجو فعل من غير كلفة، وهذا كما أطفأها في الدنيا بنفخة كما رواه الجماعة إلا الترمذي وهذا لفظ أبي داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم- فذكر صلاته إلى أن قال: ثم نفخ في آخر سجوده. فقال: أف أف ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون» وفي رواية

النسـائي أنه قال: قال صـلى الله عليه وسـلم: «لقد أدنيت مني النار حتى جعلت ألفتها خشية أن تغشاكم».

ولما ذكر سبحانه حالها، أتبعه حالهم في تعذيب القلب باعتقادهم أنهم ظلمة على وجه، بين السبب في عذابهم زجراً عنه فقال: {كلما} ولما كان المنكئ مجرد الإلقاء بني للمفعول دلالة على ذلك وعلى حقارتهم بسـهولة إلقائهم قوله: {ألقي فيها} أي جهنم بدفع الزبانية بهم الذين هم أغيظ عليهم من النار {فوج} أي جماعة هم في غاية الإسراع موجفين مضطربي الأجواف من شدة السـوق {سـألهم} أي ذلك الفوج {خزنتها} أي النار سـؤال توبيخ وتقريع وإرجاف.

ولما كان كأنه قيل: ما كان سؤالهم؟ قال: قالوا موبخين لهم مبكتين محتجين عليهم في اسـتحقاقهم العذاب زيادة في عذابهم بتعذيب أرواحهم بعد تعذيب أشباحهم: {ألم يأتكم} أي في الدنيا {نذير *} أي يخوفكم هذا العقار ويذكركم بما حل بكم وبما حل ممن قبلكم من المثلاث، لتكذيبهم بالآيات، ويقرأ عليكم الكتب المنزلات {قالوا بلى} ولما طابق هذا الجواب فتوقع السامع إيضاحه. افصحوا بما أفهمه وشرحوه تأسفاً على أنفسهم مما حل بهم وتحسراً فقالوا: {قد جاءنا} وأظهروا موضع الإضمار تأكيداً وتنصيصاً فقالوا: {نذير *} أي مخوف بليغ التحذير {فكذبنا} أي فتسبب عن مجيئه أننا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير {وقلنا} أي زيادة في التكذيب والنكاية له والعناد الذي حل شـؤمه بنا: {ما نزل الله} أي الذي له الكمال كله عليكم ولا على غيركم، ولعل التعبير بالتفعيل إشـارة إلى إنكارهم الفعل بالاختيار الملازم للتدريج-

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأعرقنا في النفي فقلنا: {من شـيء} لا وحياً ولا غيره، وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين: {إن} أي ما.
ولما كان تكذيبهم برسول واحد تكذيباً لجميع الرسل قالوا عناداً: {أنتم} أي أيها النذر المذكورون في «نذير» المراد به الجنس، وفي خطاب الجمع إشارة إيضاً إلى أن جواب الكل للكل كان متحداً مع افتراقهم في الزمان حتى كأنهم كانوا على ميعاد {إلا في ضـلال} أي بعد عن الطريق وخطأ وعمى محيط بكم {كبير *} فبالغنا في التكذيب والسفه بالاستجهال والاستخفاف.
ولما حكى سبحانه ما قالوه للخزنة تحسراً على أنفسهم حكى ما قالوه بعد ذلك فيما بينهم زيادة في التحزن ومقتاً لأنفسهم بأنفسهم فقال تعالى: {وقالوا} أي الكفرة في توبيخ أنفسهم: {لو كنا} أي بما هو لنا كالغريزة.
ولما كان السمع أعظم مدارك العقل الذي هو مدار التكليف قالوا: }نسمع} أي سـماعاً ينفع بالقبول للحق والرد للباطل {أو نعقل} أي بما أدته إلينا حاسة السمع وغيرها عقلاً ينجي وإن لم يكن سمع، وإنما قصروا الفعلين إشـارة إلى أن ما كان لهم من السمع والعقل عدم لكونه لم يدفع عنهم هذا البلاء بالقبول من الرسل لما ذكروهم به من نصائح ربهم وشهادة الشواهد من الآيات البينات {ما كنا} أي كونا دائماً {في أصحاب السعير *} أي في عداد من أعدت له النار التي هي في غاية الاتقاد والحر والتلهب والتوقد حتى كأن بها جنوناً، وحكم بخلودهم في صـحبتها، وأعظم ما في هذا من العذاب بكونهم ألجئوا إلى أن يباشروا توبيخ أنفسهم ومقتها بأنفسهم أنه لا يقبل منهم خروجاً عن العادة في الدنيا من أن الإنسان إذا أظهر الخضوع

باعترافه ولومه نفســه وإنصــافه رحم وقبل، وفي الآية أعظم فضــيلة للعقل، روى ابن المحبر في كتاب العقل والحارث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير».

ولما كان هذا الإقرار زائداً في ضـــررهم، وإنما كان يكون نافعاً لهم لو قالوه في دار العمل وندموا عليه وأقلعوا عنه، سبب عنه قوله ضاماً- إلى ما تقدم من تعذيب أرواحهم بمقت الملائكة لهم ثم مقتهم لأنفســـهم- مقت الله لهم: {فاعترفوا} أي بالغوا جامعين إلى مقت الله وملائكته لهم مقتهم لأنفســهم في الاعتراف وهو الإقرار عن معرفة.

ولما كان الذي أوردهم المهالك هو الكفر الذي تفرعت عنه جميع المعاصي، أفرد فقال تعالى: {بذنبهم} أي في دار الجزاء كما كانوا يبالغون في التكذيب في دار العمل فلم يكن ينفعهم لفوات محله، أو أنه لم يجمع الذنب إشارة إلى أنهم كانوا كلهم في المبالغة في التكذيب على حد واحد، كما قال تعالى {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون} [الذاريات: 53] أو أن الإفراد أشـد في التحذير من كثير الذنوب وقليلها حقيرها وجليلها.

ولما كانوا قد أبلغوا في كلتي الدارين في إبعاد أنفســـهم عن مواطن الرحمة وتسفيلها إلى حال النقمة أنتج ذلك وسبب قوله: {فسحقاً} أي بعداً في جهة السـفل وهو دعاء عليهم مسـتجاب {لأصـحاب} وأظهر تنبيهاً على عظيم

توقدها وتغيظها وتهددها فقال: {السعير *} أي الذي قضت عليهم أعمالهم بملازمتها.

▲ تفسير الآيات رقم [12- 15]

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)}

ولما ذكر سبحانه أهل المعاملة بصفة العزة لما حصل لهم من العزة، أتبعهم أضدادهم المطوعين أنفسهم لإشارة العقل المتأهلين لنعت المعرفة، فقال مؤكداً لما للأضداد من التكذيب: {إن الذين يخشون} أي يخافون خوفاً أرق قلوبهم وأرق غيرهم بحيث كانوا كالحب على المقلي لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة، كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية، يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة فوقوا أنفسهم فوران النار بهم، وعدل عن سياق الجلالة الجامع إلى صفة الإحسان تنبيهاً على أنهم غلب عليهم النظر إلى الإحسان فقادهم إلى الشكر مع ما نبهت عليه الخشية من اتصافهم بالفرق الذي أداهم إلى الذعر فقال: {ربهم} الذي أحسن إليهم بتطويرهم بما جعل لهم من الأسباب في أطوار الخير وإذا كانوا يخشونه مع نظرهم إلى صفة إحسانه فما ظنك بهم عند النظر إلى صفات انتقامه {بالغيب} أي حال كونهم غائبين عنه سبحانه ووعيده غائباً عنهم وهو غائبون عن أعين الناس وقد ملأ الخوف ما غاب عنهم عن الناس وهي قلوبهم فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تتلظى بنيران

الخوف وتكلم بســـيوف الهيبة، فيتركون المعصـــية حيث لا يراهم أحد من الناس ! ولا يكون لهم هذا إلا برياضـــــة عظيمة لما عند الناس من القوى الموجبة للطغيان، قال بعض العارفين: في الإنســان خواص تســتدعي العلم بما يشـــوبها من الحظوظ فتنشـــأ منها– والعياذ بالله– المنازعة في الكبرياء والعظمة والجلال والجمال، فالقلب يســـتدعي التفرد بالوجود والأمر والنهي، فما من أحد إلا وهو مســـتبطن ما قال فرعون، ولكن لا يجد له مجالاً كما وجد فرعون، والعقل يستدعي في تدبيره وتأثيره اعتقاد أنه لو مكن من الوجود لدبره، ويرى أن تدبيره هو التدبير وإن كان أفســـد الفاســـد، وكذلك لا يزال يقول: لو كان كذا لكان كذا، والنفس لا تتخيل أنها من القوة والاقتدار بحيث لو أرادت أن تخرب مدناً وتبنيها فعلت، فليحذر الإنســـــان فإن أعدى عدوه نفسه التي هي بين جنبيه، فمهما تركها انتشرت، قال تعالى {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه اســتغنى} [العلق: 6 و7] وينســـى ما بعدها {إن إلى ربك الرجعى} [العلق: 8] ولهذا كان بعض الأكاسرة– وكانوا أعقل الملوك– يرتب واحداً يكون وراءه بالقرب منه، يقول له إذا اجتمعت جنوده بعد كل قليل: أنت عبد، لا يزال يكرر ذلك، والملك يقول له كلما قاله: نعم: فعلى العاقل أن يطوع نفســـه لأن ترجع مطمئنة بأن يرضـــى بالله رباً ليدخل في رق العبودية، وبالإســـلام ديناً ليصـــير عريقاً فيها، فلا ينازع الملك في ردائه الكبرياء وإزاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال، ولا ينازعه فيما يدبره من الشرائع، ويظهره من المعارف، ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره.

ولما كانت الخشـية مشـيرة إلى الذنوب، فكان أهم ما إليهم الإراحة منها قال تعالى: {لهم مغفرة} أي سترة عظيمة تأتي على جميع ذنوبهم.

ولما كان السـرور إنما يتم بالإعطاء قال: {وأجر} أي من فضـل الله {كبير *} يكون لهم به من الإكرام ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الآلام، وتصغر في جنبه لذائذ الدنيا العظام.

ولما كانت الخشية من الأفعال الباطنة، وكان كل أحد يدعي أنه يخشى الله، قال مخوفاً لهم بعلمه نادباً إلى مراقبته لئلا يغتروا بحلمه، عاطفاً على ما تقديره لإيجاب المراقبة: فأبطنوا أفعالهم وأظهروها: {وأســـروا} أي أيها الخلائق.

ولما كان إفراد الجنس دالاً على قليله وكثيره قال: {قولكم} أي خيراً كان أو شراً {أو اجهروا به} فإنه يعلمه ويجازيكم به لأن علمه لا يحتاج إلى سبب، وذلك أن المشركين كانوا يقولون: أسروا وإلا يسمع إله محمد: ثم علل ذلك مؤكداً لأجل ما للناس من استبعاد ذلك بقوله: {إنه} أي ربكم {عليم} أي بالغ العلم {بذات الصـــدور *} أي بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها سـواء كانت قد تخيلته ولم تعبر عنه، أو كان مما لم تتخيله بعد بدليل ما يخبر به ســـبحانه وتعالى عنهم مما وقع وهم يخفونه، أو لم يقع بعد ثم يقع كما أخبر به ســـبحانه؛ ثم دل على ذلك بقوله معجباً ممن يتوقف فيه أدنى توقف ومنكراً عليهم بإثبات العلم ونفى ضده على أبلغ وجه: {ألا يعلم} أي وكل ما يمكن أن يعلم، وحذف المفعول للتعميم، ثم ذكر الفاعل واصــفاً له بما يقرب المخبر به للإفهام فقال: {من خلق} أي الذي أوجد الخلق من

القلوب الحاوية للأسرار والأبدان وغير ذلك، وطبع في كل شيء من ذلك ما طبع مما قدره بعلمه وأتقنه بحكمته، فإن كل صانع أدرى بما صنعه، ويجوز- وهو أحسن- أن يكون «من» مفعولاً والفاعل مستتراً، أي ألا يعلم الله مخلوقه على الإطلاق وله صفتا اللطف والخبر اللتان شأنهما إدراك البواطن إدراكاً لا يكون مثله لأن الغرض إثبات العلم لما أخفوه لظنهم أنهم إذا أسروا يخفى، لا إثبات مطلق العلم فإنهم لم ينكروه {وهو} أي والحال أنه هو {اللطيف} أي الذي يعلم ما بثه في القلوب لأنه يصل إلى الأشياء بأضدادها فكيف بغير ذلك {الخبير *} أي بالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شيء من الأشياء، وهو أعظم تهديد يكون؛ فإن من علم أن من يعصيه عالماً به وهو قادر عليه لا يعصيه أبداً.

ولما كان ذلك أمراً غامضاً، دل عليه بأمر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبرته لاستدعاء الشكر من عباده على ما أبدع لهم ومن عليهم به من النعم الباهرة التي بها قوامهم، ولولاه لما كان لهم بقاء فقال مستأنفاً: {هو} أي وحده {الذي جعل لكم} لتتوصلوا إلى ما ينفعكم {الأرض} على سعتها وعظمها وجزونة كثير منها {ذلولاً} أي مسخرة لا تمتنع، قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشي وإنباط مياه وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك غاية الانقياد، بما تفهمه صيغة المبالغة مع أن فيها أماكن خوارة تسوخ فيها الأرجل ويغوص فيها ما خالطها، ومواضع مشتبكة بالأشجار يتعذر أو يتعسر سلوكها، وأماكن ملأى سباعاً وحيات وغير ذلك من الموانع، وأماكن هي جبال شاهقة إما يتعذر سلوكها كجبل السد بيننا وبين ياجوج وماجوج، ورد في الحديث

أنه تزلق عليه الأرجل ولا تثبت، أو يشق سلوكها، ومواطن هي بحور عذبة أو ملحة فلو شاء لجعلها كلها كذلك ليكون بحيث لا يمكن الانتفاع بها، فما قسمها إلى سهول وجبال وبرور وبحور وأنهار وعيون وملح وعذب وزرع وشجر وتراب وحجر ورمال ومدر وغير ذلك إلا لحكمة بالغة وقدرة باهرة، لتكون قابلة لجميع ما تريدون منها، صالحة لسائر ما ينفعكم فيها.

ولما كان معنى التذليل ما تقدم، سبب عنه قوله تمثيلاً لغرض التذليل لأن منكبي البعير وملتقاهما من الغاربين أرق شيء وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه: {فامشوا} أي الهوينا مكتسبين وغير مكتسبين إن شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثباً أو حبواً {في مناكبها} أي أماكنها التي هي لولا تسهيلنا لمناكب الحيوانات لكانوا ينتكبون عن الوقوف عليها، فكيف بالمشي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنها الجبال- لأن تذليلها أدل دليل على تذليل غيرها، وليكن مشيتكم فيها وتصرفكم بذل وإخبات وسكون استصغاراً لأنفسكم وشكراً لمن سخر لكم ذلك- والله الهادي.

ولما ذكر سبحانه أنه يسرها للمشي، ذكرهم بأنه سهلها لإخراج الخيرات والبركات فقال: {وكلوا} ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله: {من رزقه} أي الذي أودعه لكم فيها وأمكنكم من إخراجه بضد ما تعرفون من أحوالكم فإن الدفن في الأرض مما يفسد المدفون ويحيله إلى جوهرها كما يكون لمن قبرتموه فيها، ومع ذلك فأنتم تدفنون الحب وغيره مما ينفعكم فيخرجه لكم سبحانه على أحسن ما تريدون ويخرج لكم من الأقوات والفواكه والأدهان

والملابس ما تعلمون، وكذلك النفوس هي صـــعبة كالجبال وإن قدتها للخير انقادت لك كما قيل «هي النفس ما عودتها تتعود».

ولما كان التقدير للبعث على الشكر والتحذير من الكفر: واعبدوه جزاء على إحســانه إليكم وتربيته لكم. فمنه مبدأ جميع ذلك، عطف عليه ما يدعو إلى الحياء من الســـيد والخجل من توبيخه عند لقائه فقال: {وإليه} أي وحده {النشـــور *} وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفســدتها، يخرجها في الوقت الذي يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الأرزاق، لا فرق بين هذا وذاك، غير أنكم لا تتأملون فيســألكم عما كنتم تعملون، فيا فوز من شــكر ويا هلاك من كفر، فإن هذا أبعث شيء على الشكر، وأشد شيء إبعاداً عن العصيان لا سيما الكفر، لما قرر من حاجة الإنسان، والإحسان إليه بأنواع الإحسان.

▲ تفسير الآيات رقم [16– 19]

{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)}

ولما لم يكن بعد الاســتعطاف إلا الإنذار على الخلاف، قال مهدداً للمكذبين بعذاب دون عذاب جهنم، منكراً عليهم الأمان بعد إقامة الدليل على أن بيده الملك، وأنه قادر على ما يريد منه بأســباب جنوده وبغير ســبب، مقرراً بعد تقرير حاجة الإنســان وعجزه أنه لا حصــن له ولا مانع له بوجه من عذاب

الله، فهو دائم الافتقار ملازم للصغار: {أأمنتم} أي أيها المكذبون، وخاطبهم بما كانوا يعتقدون مع أنه إذا حمل على الرتبة وأول السماء بالعلو أو جعل كناية عن التصرف لأن العادة جرت غالباً أن من كان في شيء كان متصرفاً فيه صح من غير تأويل فقال: {من في السماء} أي على زعمكم العالية قاهرة لكم، أو المعنى: من الملائكة الغلاظ الشداد الذي صرفهم في مصالح العباد، أو المعنى: في غاية العلو رتبة، أو أن ذلك إشارة إلى أن في السماء أعظم أمره لأنها ترفع إليها أعمال عباده وهي مهبط الوحي ومنزل القطر ومحل القدس والسلطان والكبرياء وجهة العرش ومعدن المطهرين والمقربين من الملائكة الذين أقامهم الله في تصريف أوامره ونواهيه، والذي دعا إلى مثل هذا التأويل السائغ الماشي على لسان العرب قيام الدليل القطعي على أنه سبحانه ليس بمتحيز في جهة لأنه محيط فلا يحاط به، لأن ذلك لا يكون إلا لمحتاج؛ ثم أبدل من «من» بدل اشتمال فقال: {أن}.

ولما كانت قدرته على ما يريد بلا واسطة كقدرته بالواسطة، وقدرته إذا كان الواسطة جمعاً كقدرته إذا كان واحداً، لأن الفاعل على كل تقدير حقيقة هو لا غيره، وحد بما يقتضيه لفظ «من» إشارة إلى هذا المعنى سواء أريد ب «من» هو سبحانه أو ملائكته أو واحد منهم فقال: {يخسف} أي أأمنتم خسفه، ويجوز أن يراد ب «من» الله سبحانه وتعالى كما مضى خطاباً على زعمهم وظنهم أنه في السماء وإلزاماً لهم بأنه كما قدر على الإمطار

والإنبات وغيرهما من التصـــــرفات في الأرض فهو يقدر على غيره {بكم الأرض} كما خسف بقارون وغيره.

ولما كان الذي يخسف به من الأرض يصـير كالساقط في الهواء وكان الساقط في الهواء يصير يضطرب، سبب عن ذلك قوله: {فإذا هي} أي الأرض التي أنتم بها {تمور *} أي تضطرب وهي تهوي بكم وتجري هابطة في الهواء وتتكفأ إلى حيث شاء سبحانه، قال في القاموس: المور الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك.

ولما كانوا ربما استبعدوا الخسفة، وكانوا يعهدون ما ينزل من السماء من الندى والأمطار والصواعق، عادل بذلك قوله: {أم أمنتم} أي أيها المكذبون، وكرر لهم ذكر ما يخشونه زيادة في الترهيب فقال: {من في السماء} على التقديرين {أن يرسل عليكم} أي من السماء {حاصباً *} أي حجارة يحصبكم- أي يرميكم- بها مع ريح عاصف بقوتها كما وقع لقوم لوط وأصحاب الفيل.

ولما كان هذا الكلام إنذاراً عظيماً ووعظاً بليغاً شديداً، وكان حالهم عنده متردداً بين إقبال وإدبار، سبب عنه على تقدير إدبارهم بتماديهم بما للإنسان من النقصان قوله متوعداً بما يقطع القلوب، ولفت القول إلى مقام التكلم إيذاناً بتشديد الغضب: {فستعلمون} أي عن قريب بوعد لا خلف فيه في الدنيا ثم في الآخرة.

ولما كان العلم بكيفية الشيء أعظم من العلم بمطلق ذلك الشيء لأنه يلزم من العلم بها العلم بمطلق ذلك الشيء، وكان ما هو بحيث يسأل عنه لا

يكون إلا عظيماً قال: {كيف نذير *} أي إنذاري البليغ إذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع، ولا تتعلق الأطماع بكشف له ولا دفاع، وحذف الياء منه ومن «نكير» إشارة إلى أنه وإن كان خارجاً عن الطرق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد، لا غاية له بوجه ولا تحديد.

ولما كان من المعلوم أن المأمور بإبلاغهم وإنذارهم هذا الإنذار صلى الله عليه وسلم في غاية الرحمة لهم والشفقة عليهم فهو بحيث يشق عليه غاية المشقة ما أفهمه هذا الكلام من إهلاكهم أن يصدقوا، ويحب التأني بهم، لفت سبحانه الخطاب إليه عاطفاً على ما تقديره: فلقد طال إمهالنا لهم وحلمنا عنهم وتعريفنا لهم بعظيم قدرتنا وهم لا يرجعون وكثر وعظنا لهم وتصريفنا القول بينهم على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام وهم يتمادون ولا ينتهون، قوله مصوراً لهم ما توعدهم به في أمر محسوس لأن الأمور المشاهدات أروع للإنسان لما له من التقيد بالوهم مؤكداً للإشارة إلى أن التكذيب مع إقامة البراهين أمر يجب إنكاره فلا يكاد يصدق: {ولقد كذب} وطغى وبغى وأعرض وتجبر وتمرد وولى بوجهه وقلبه {الذين}.

ولما كان هذا التكذيب لم يعم الماضين بعض فقال: {من قبلهم} يعني كفار الأمم الماضية.

ولما كان سبحانه قد أملى لهم ثم أخذهم بعد طول الحلم أخذاً بقيت أخباره، ولم تندرس إلى الآن على تمادي الزمان آثاره، فكان بحيث يسأل عنه لعظم أحواله، وشدة زلازله وفظاعة أهواله، سبب عن ذلك قوله منبهاً على استحضار ذلك العذاب ولو بالسؤال عنه: {فكيف كان نكير *} أي إنكاري

عليهم بما أصــبتهم به من العذاب في تمكن كونه وهول أمره، فقد جمع إلى التسلية غاية التهديد.

ولما ذكر بمصـــــارع الأولين، وكان التذكير بالحاصـــــب تذكيراً لقريش بما حصـــب به على قرب الزمان عدوهم أصـــحاب الفيل بما أرســل عليهم من الطير الأبـابيـل تحـذيراً لهم من ذلـك إن تمـادوا على كفره، ولم ينقـادوا إلى شكره، فكان التقدير تقريراً لزيادة قدرته وحسن تدبيره ولطف تربيته حيث جبر الطير لضـعفها بالطيران ليكمل بعموم رحمانيته أمر معاشـها تقريراً لأن بيده الملك وترهيباً من أن ينازعه أحد في تدبيره مع تبقية القول مصـــــروفاً عن خطابهم، إيذاناً بشدة حسابهم وسوء منقلبهم ومآبهم؛ ألم يروا إلى قدرتنا على مصـــــارع الأولين وإهلاك المكذبين وإنجـاء المؤمنين، عطف عليـه قولـه معرضــاً عنهم زيادة في الإنذار بالحصــب من الطير وغيرها: {أو لم يروا} وأجمع القراء على القراءة هنا بالغيب لأن السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل.

وأشار إلى بعد الغاية بحرف النهاية فقال: {إلى الطير} وهو جمع طائر.

ولما كان الجو كله مباحاً للطيران نزع الجار فقال: {فوقهم} وبين حال الطير في الفوقية بقوله واصفاً لها بالتأنيث إشارة إلى ضعفها في أنفسها لولا تقويته لها {صافات} أي باسطات أجنحتها تمدها غاية المد بحيث تصير مستوية لا اعوجاج فيها مع أنه إذا كان جماعة منها كانت صــفوفاً أو صــفاً واحداً في غاية الانتظام تابعة لإمام منها.

ولما عبر عن الصف بالاسم لأنه الأصل الثابت، عبر عن التحريك بالفعل لأن الطيران في ساحة الهواء كالسباحة في باحة الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسـطها، والبقض طارئ على البسـط فقال: {ويقبضـن} أي يوقعن قبض الأجنحة وبسطها وقتاً بعد وقت للاستراحة والاستظهار به على السـبح في الهواء. ولما تم هذا التقدير على هذا الوجه الرائع للقلوب ترجمه بقوله: {ما يمسكهن} أي في الجو في حال القبض والبسط عن السقوط على خلاف ما يقتضيه الطبع.

ولما كان هذا من التدبير المحكم الناظر إلى عموم الرحمة قال: {إلا الرحمن} أي الملك الذي رحمته عامة لكل شيء بأن هيأهن- بعد أن أفاض عليهن رحمة الإيجاد- على أشـكال مختلفة وخصـائص مفترقة للجري في الهواء بما أوجد لها من القوادم والحوافي وغير ذلك من الهيئات المقابلة لذلك، وكذا جميع العالم لو أمسـك عنه حفظه طرفة عين لفسـد بتهافت الأفلاك وتداعي الجبال وغيرها، وعبر في النحل بالاسم الأعظم لأن سياقها للرد على أهل الطبائع وهم الفلاسـفة الذين لا يقوم بالرد عليهم إلا المتبحر في معرفة جميع أصـول الدين بمعرفة جميع معاني الأسـماء الحسـنى والصفات العلى التي جمعها اسم الذات.

ولما كان هذا أمراً رائعاً للعقل، ولكنه لشـدة الإلف صـار لا يتنبه له إلا بالتنبيه، وكان الجاهل ربما ظن أن التقدير على الطيران خاص بالطير، نبه سـبحانه على عظمة ما هيأ الطير له وعلى أنه يقدر أن يجعل ذلك لغيره بقوله مؤكداً لأجل قصـور بعض العقول عن التصـديق بذلك وتضـمن

الإشراك للطعن في تمام الاقتدار المتضمن للطعن في تمام العلم: {إنه} أي الرحمن سبحانه {بكل شيء} قل أو كثر جليل وحقير ظاهر وباطن {بصير *} بالغ البصر والعلم بظواهر الأشياء وبواطنها، فمهما أراد كان وهو يخلق العجائب ويوجد الغرائب، فيهيئ من أراد من الآدميين وغيرهم لمثل ذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 23]

{أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23)}

ولما كان التقدير تقريراً لذلك: فمن يدبر مصالحكم ظاهراً وباطناً، وفعل هذه الأنواع من العذاب بالمكذبين من قبلكم، عطف عليه قوله عائداً إلى الخطاب لأنه أقعد في التكبيث والتوبيخ، وأدل على أن المخاطب ليس بأهل لأن يهاب مقرراً لأنه مختص بالملك: {أمن} ونبه على أن المدبر للأشياء لا بد أن يكون في غاية القرب والشهادة لها ليكون بصيراً برعيها، ويكون مع مزيد قربه عالي الرتبة بحيث يشار إليه، فقال مقرراً لعجز العباد: {هذا} بإشارة الحاضر {الذي} وأبرز العائد لأنه لا بد من إبرازه مع الاسم بعدم صلاحه لتحمل الضمير فقال: {هو جند} أي عسكر وعون، وصرف القول عن الغيبة إلى الخطاب لأنه أبلغ في التقريع فقال: {لكم ينصركم} أي على من يقصدكم بالخسف والحصب وغيرهما، ويجوز أن يكون التقدير: ألكم إله

يدبر مصالحكم غيرنا أم كان الذي عذب من كذب الرسل سوانا أم لكم جند يصـــار إليه ينصـــركم دوننا كما قال تعالى {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا} [الأنبياء: 43] ولكنه أخرجه مخرج الاستفهام عن تعيين الجند تعريفاً بأنهم لغاية جهلهم اعتقدوا أن لهم من أجناد الأرض أو السماء من ينصـرهم وإلا لما كانوا آمنين.

ولما كانت المراتب متضـــائلة عن جنابه متكثرة جداً، قال تعالى مشـــيراً بالحرف والظرف إلى ذلك منبهاً على ظهوره سـبحانه فوق كل شـيء، لم يقدر أحد ولا يقدر أن ينازعه في ذلك ولا في أنه مسـتغرق لكل ما دونه من المراتب: {من دون الرحمن} إن أرسل عليكم عذابه، وأظهر ولم يضمر بعثاً على استحضار ما له من شمول الرحمة، وتلويحاً إلى التهديد بأنه لو قطعها عن أحد ممن أوجده عمه الغضب كله، ولذلك قال مستنتجاً عنه تنبيهاً على أن رفع المضار وجمع المسار ليس إلا بيده لأنه المختص بالملك: {إن} أي ما، وأبرز الضـمير تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصـف ومواجهة بذلك لأنه أقعد في التوبيخ فقال: {الكافرون} أي العريقون في الكفر وهم من يموت عليه {إلا في غرور *} أي قد أحاط بهم فلا خلاص لهم منه وهو أنهم يعتمدون على غير معتمد.

ولما قدم أعظم الرحمة بالحياطة والنصـــرة الموجبة للبقاء، أتبعه ما يتم به البقاء فقال: {أمّن} وأشـــار إلى القرب بالعلم والبعد بالعلو والعظمة بقوله: {هذا} وأشـار إلى معرفة كل أحد له بصـفاته العلية التي تنشـأ عنها أفعاله المحكمة السنية، فقال: {الذي} وأسقط العائد لتحمل الفعل له فقال: {يرزقكم}

أي على سبيل التجدد والاستمرار، لا ينقطع معروفه أبداً مع أنه قد وسع كل شيء ولا غفلة له عن شيء {إن أمسك رزقه} بإمساك الأسباب التي تنشأ عنها ويكون وصـــوله إليكم منها كالمطر، ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك الله عنه قوة الازدراء عجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة.

ولما قامت بهذا دلائل قدرته وشمول علمه على سبيل العموم فالخصوص، فكان ذلك مظنة أن يرجع الجاحد ويخجل المعاند، ويعلم الجاهل ويتنبه الغافل، فكان موضـــع أن يقال: هل رجعوا عن تكذيبهم، عطف عليه قوله لافتاً الكلام إلى الغيبة إعراضـــاً عنهم تنبيهاً على ســـقوط منزلتهم وســـوء أفهامهم وقوة غفلتهم: {بل لجوا} أي تمادوا سفاهة لا احتياطاً وشجاعة، قال الرازي في اللوامع: واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصـــوارف عنه {في عتو} أي مظروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج إلى فاحش الفســـاد {ونفور *} أي شراد عن حسن النظر والاستماع، دعا إليه الطباع، واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع أنه لا قوة لأحد منهم في جلب ســـار ولا دفع ضـــار، والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب.

ولما كان هذا فعل من لا بصر له ولا بصيرة، سبب عنه قوله ممثلاً للموحد والمشرك بسالكين ولدينيهما بمسلكين: {أفمن يمشي} أي على وجه الاستمرار {مكباً} أي داخلاً بنفسه في الكب وصارا إليه، وهو السقوط {على وجهه} وهو كناية عن السير على رسم مجهول وأثر معوج معلول، على غير عادة العقلاء لخلل في أعضـــائه، واضـــطراب في عقله ورأيه، فهو كل حين يعثر

فيخر على وجهه، لأنه لعدم نظره يمشـي في أصـعب الأماكن لإمالة الهوى لـه عن المنهج المســـلوك، وغلبـة الجهل عليـه فهو بحيث لا يكون تكرار المشـاق عليه زاجراً له عن السـبب الموقع له فيه، ولم يسـم سـبحانه وتعالى ممشاه طريقاً لأنه لا يستحق ذلك.

ولما كان ربما صادف السهل لا عن بصيرة بل اتفاقاً قال: {أهدى} أي أشد هداية {أمّن يمشي} دائماً مستمراً {سوياً} قائماً رافعاً رأسه ناصباً وجهه سالماً من العثار لأنه لانتصـابه يبصـر ما أمامه وما عن يمينه وما عن شـماله {على صراط} أي طريق موطأ واسع مسلوك سهل قويم {مستقيم *} أي هو في غاية القوم، هذا مثل من رضـي بالله رباً وبالإسـلام ديناً فإنه يتبع الفطرة الأولى السـليمة عن شـهوة أو غضـب أو شـائبة حظ، والأول مثل الكافر، حاله في سـيره إلى الله حال المكب أي الذي كب نفسـه بغاية الشـهوة على وجهه، لا يرى ما حوله ولا يشـــعر بما أحاط به، ولا ينظر في الآيات ولا يعتبر بالمسـموعات، فهو اليوم شـيء باطن لظهر يوم القيامة فيحشـر على وجهه إلى النار جزاء لرضـاه بحالته هذه في هذه الدار فيظهر له سبحانه ما أبطن له اليوم، والمؤمن بخلاف ذلك فيهما، والآية من الاحتباك: ذكر الكب أولاً دليلاً على ضـده ثانياً، والمسـتقيم ثانياً دليلاً على المعوج أولاً، وسـره أنه ذكر أنكأ ما للمجرم وأسر ما للمسلم.

ولما كان العرب الموعوظون بهذا الذكر يتغالون في التفاخر بالهداية في الطرق المحسـوسـة وعدم الإخلال بشـكر المعروف لمسـديه ولو قل، فنفى عنهم الأول بقيام الأدلة على خطئهم الفاحش في كل ما خالفوا فيه الرسـول

صلى الله عليه وسلم من طريقهم المعنوي الذي اتخذوه ديناً، فهو أشرف من الطريق المحسوس، أتبعه بيان انسلاخهم من الثاني مع التأكيد لانسلاخهم من الأول، قال آمراً للرسول صلى الله عليه وسلم بتنبيههم لأن الإنسان على نوعه أقبل لأنه إليه أميل، إسقاطاً لهم من رتبة الفهم عن الله سبحانه وتعالى لسفول هممهم ولقصور نظرهم مع أنه جعل لهم حظاً ما من الحضور بتأهيلهم لخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لإقامتهم بالمذكور في الآية فيما يرجى معه العلم ويورث الفطنة والفهم: {قل} أي يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكراً لهم بما دفع عنهم الملك من المفسدات وجمع لهم من المصلحات والقوى والعقل ليرجعوا إليه، ولا يعولوا في حال من أحوالهم إلا عليه، وينظروا في لطيف صنعه وحسن تربيته فيمشي كل منهم سوياً: {هو} أي الله سبحانه وتعالى {الذي} شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان وحده الذي {أنشأكم} أي أوجدكم ودرجكم في مدارج التربية حيث طوركم في أطوار الخلقة في الرحم ويسر لكم بعد خروجكم الخروج اللين حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه.

ولما كان من أعظم النعم الجليلة بعد الإيجاد العقل، أتبعه به، وبدأ بطريق تنبيهه فقال: {وجعل لكم} أي خاصة مسبباً عن الجسم الذي أنشأه {السمع} أي الكامل لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم، ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه في القلوب بغاية المفاوتة مع أنه أعظم الطرق الموصلة للمعاني إليها {والأبصار} لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم {والأفئدة} أي القلوب التي جعلها سبحانه في غاية التوقد بالإدراك لما لا

يدركه بقية الحيوان لتتفكروا فتقبلوا على ما يعليكم، وجمعاً لكثرة التفاوت في نور الأبصـــــار وإدراك الأفكار، وهذا تنبيه على إكمال هذه القوى في درك الحقائق بتلطيف الســر لتدقيق الفكر، قال الشــيخ ولي الدين الملوي: انظر إلى الأفئدة كيف تحكم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الجســـم الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد، وأن الضدين لا يجتمعان- وغير ذلك مما لا يخفى.

ولما كان التقدير: فمشـيتم مشــي المكب على وجهه فلم تسـتعملوا شـيئاً من هذه الأسـرار الشـريفة فيما خلق له، كانت ترجمة ذلك: {قليلاً} وأكد المعنى بما صـورته صـورة النافي فقال: {ما} ولما زاد تشـوف النفس إلى العامل في وصـف المصـدر دل عليه سـبحانه وتعالى بقوله: {تشـكرون *} أي توقعون الشـــكر لمن أعطاكم ما لا تقدرون قدره باســـتعماله فيما خلق لأجله تدعون أنكم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم في العرفان.

▲ تفسير الآيات رقم [24- 27]

{قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَـــرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَـــادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)}

ولما دل سـبحانه على بعدهم عن الهداية وعن الشـكر اللذين يفخرون على الناس كافة بكل منهما، واســـتعطفهم بما أودع فيهم من اللطائف الربانية

الروحانية المقتضية بنورانيتها للعروج إلى مواطن القدس ومعادن الأنس، دل على قدرته على حشـرهم تحذيراً لهم من التمادي في الإعراض بمعنى يجده كل منهم في نفسـه على وجه دال على كمال قدرته بما أودع فيهم مع تلك اللطائف مع كثائف طباع الأرض الموجبة للسـفول ليكون- إذا أعلته تلك اللطائف بالتوبة- مجتهداً في تنقية آثار تلك الكثائف المسـفلة كما يكون للزرع إذا حصـد من بقايا تلك الجذر التي إن لم تقلع من أصـلها عادت بالنبات إلى ما كان عليه الزرع أولاً، فقال مستأنفاً بياناً لأنه دليل برأسه كاف فيما سـبق له: {قل هو} أي وحده {الذي ذرأكم} أي خلقكم وبثكم ونشـركم وكثركم وأنشأكم بعد ما كنتم كالذر أطفالاً ضعفاء، ثم قواكم ثم جعلكم شيباً ضعفاء وأسكنكم الغضب والذعر واللجاج الحامل لكم على الولوع بما يلجئ إليه الطباع المثيرة {في الأرض} التي تقدم أنه ذللها لكم ورزقكم منها النبات الذي تقدم أن إبداءه منها ثم رده إليها وإفنائه فيها ثم إعادته كما كان بعد أن صـار رفاتاً وشيئا فانياً مماتاً دليل على القدرة على البعث، لا فرق في ذلك بينه وبينكم أصلاً، فكان منه البدأ {وإليه} وحده {تحشرون *} شيئاً فشيئاً إلى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث على أيسـر وجه بمن أراد من عباده كرهاً منكم كما كان أمركم في الدنيا، فإنه لم يكن إلى الإنسـان منكم أحب من الدعة والسـكون، فكأنه سـبحانه يضـطره بما أودعه من الطبائع المتضـادة وأثار له من الأسـباب في طلب رزقه وغير ذلك من أمره إلى السـعي إلى حيث يكره، فكما أنه قدر على ذلك منكم في الابتداء فهو يقدر على مثله

في الانتهاء، ليحكم بينكم ويجازي كلاًّ على عمله كما يفعل كل ملك برعيته، وكل إنسان منكم بجماعته.

ولما كان التقدير: فلقد أبلغ سبحانه في وعظهم بنفسه وعلى لسانك يا أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم وذلك بما هدى إليه السياق قطعاً، ذكر حالهم عند ذلك فقال إعلاماً بكثافة طباعهم حيث لم تلطف أسرارهم لقبول محبة الله تعالى وإثارة الأحوال الحسنة من الصبر المثبت واليقين وحسن الانطباع لقبول النصائح والخوف وعدم الاعتزاز بأحد غير الله تعالى من جهة نفع أو ضر، وكذلك لفت القول إلى الإعراض إيذاناً بشديد الغضب منهم: {ويقولون} أي يجددون هذا القول تجديداً مستمراً استهزاء وتكذيباً، ويجوز أن يكون حالاً من الواو في «بل لجوا»: {متى هذا} وزادوا في الاستهزاء بقولهم {الوعد} وألهبوا وهيجوا إيضاحاً للتكذيب على زعمهم بقولهم: {إن كنتم} جبلة وطبعاً {صادقين *} في أنه لا بد لنا منه، وأنكم مقربون عند الله، فلو كان لهم ثبات الصبر واليقين لما طاشوا هذا الطيش بإبراز هذا القول القبيح الذي ظاهره طلب الإخبار بوقت الأمر المتوعد به، وباطنه الاستعجال به استهزاء وتكذيباً.

ولما كان قولهم هذا مع أنه استعجال بأمر الساعة استهانة بها حتى أنه عندهم كأنها من قبل الوعد الحسن وهو متضمن لإيهام أنها مما يطلع الخلق على تعيين وقته، نفى ذلك بياناً لعظمتها بعظمة من أمرها بيده فقال آمراً له بجوابهم مؤذناً بدون ذلك الإعراض لأنهم لا ينكرون علمه تعالى ذلك الإنكار: {قل} يا أكرم الخلق منبهاً لهم على تحصيل اليقين بأن ما علموه

وحكموا بعلمهم فيه وما لا ردوا علمه إلى الله: {إنما العلم} أي المحيط من جميع الوجوه بما سألتم عنه من تعيين زمان هذا الوعد وغيره، ولأجل إظهار فضل العلم اللازم من كماله تمام القدرة صرف القول عن عموم الرحمة إلى إفهام العموم المطلق بالاسم الأعظم فقيل: {عند الله} أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال، فهو الذي يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه، لا يطلع عليه غيره، وهيبته تمنع العالم بما له من العظمة أن يجترئ على سؤاله عما لم يأذن فيه، وعظمته تقتضي الاستئثار بالأمور العظام، وإلى ذلك يلوح قوله تعالى: {وإنما أنا} ولما كان السياق للتهويل والتخويف، وكانت النذارة يكفي فيها تجويز وقوع المنذور به فكيف إذا كان مظنوناً فكيف إذ كان معلوم الوقوع في الجملة ليكون العاقل متوقعاً له في كل وقت قال: {نذير} أي كامل في أمر النذارة التي يلزم منها البشارة لمن أطاع النذر لا وظيفة لي عند هذا الملك الأعظم غير ذلك، فلا وصول لي إلى سؤاله عما لا يأذن لي في السؤال عنه.

ولما كان النذير قد لا يقدر على إقامة الدليل على ما ينذر به لأنه يكفي العاقل في قبوله غلبة الظن بصدقه بل إمكان صدقه في التحرز عما ينذر به، بين أنه ليس كذلك فقال: {مبين *} أي كاشف للنذري غاية الكشف بإقامة الأدلة عليها حتى تصير كأنها مشاهدة لمن له قبول للعلم.

ولما كان ما ينذر به لا بد من وقوعه، وكان كل آت قريباً، عبر عن ذلك بالفاء والماضي فقال صارفاً العقول إلى الإعراض لأن وقت الرؤية للعذاب في غاية المناسبة للإهانة: {فلما رأوه} أي الوعد بانكشاف الموعود به عند

كونه، وحقق معنى الماضــي والفاء بقوله: {زلفة} أي ذا قرب عظيم منهم، وذلك بالتعبير عن اســـم الفاعل بالمصـــــدر إبلاغاً في المعنى المراد وأكد المبالغة بالتاء لأنها ترد للمبالغة إذا لم يرد منها التأنيث، ولا ســيما إن دلت قرينة أخرى على ذلك.

ولما كان المخوف في النذري الوقوع في الســوء لا بقيد كونه من معين قال: {سيئت} ولما كان السـوء يظهر في الوجه قال: {وجوه} وأظهر في موضـع الإضـــمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصـــف فقال: {الذين كفروا} أي ظهر الســوء وغاية الكراهة في وجوه من أوقع هذا الوصــف ولو على أدنى وجوه الإيقاع وعلتها الكآبة.

ولما كان لا أوجع من التبكيت عند إحاطة المكروه من غير حاجة إلى تعيين فاعله، بنى للمفعول قوله: {وقيل} أي لهم تقريعاً وتوبيخاً: {هذا الذي} أي تقدم من عنادكم ومكركم واســـتكباركم {كنتم} أي جبلة وطبعاً {به} أي بســـببه ومن أجله، وصـــرف القول إلى الخطاب لأن التقريع به أنكأ في العذاب: {تدعون *} أي تطلبون وتوقعون الطلب له طلباً شديداً تبلغون فيه غاية الجهد على وجه الاستعجال أن يستنزل بكم مكروهه فعل من لا يبالي به بوجه، وتكررون ذلك الطلب وتعودون إليه في كل وقت معرضـــين عن السعي في الخلاص فيه من عدوان العذاب ونيل الوعد الحسن بجزيل الثواب لبيان قوة طلبهم له وتداعيهم إليه استهزاء به حتى كأنهم لا مطلوب لهم غيره، قدم الجار المفيد غالباً للاختصـــاص فهو افتعال من دعا الشـــيء وبالشيء إذا طلبه، ودعاه الله بمكروه: أنزله به.

▲ تفسير الآيات رقم [28– 30]

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)}

ولما كان من المعلوم أن من نهى آخر عن هواه وبالغ في ذلك أبغضه ذلك الناهي وتمنى هلاكه، فكيف إذا والى عليه الإنذار والتخويف بما لا يصل إلى دركه عقله ولا يرى له مقدمة بتحققها، وكان الكفار يسعون في هلاك النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كل سعي، وكان هلاك النذير إنما ينفع المنذر على تقدير نجاته من هول ما كان يحذره منه النذير، أمره سبحانه أن يذكرهم بهذا لينظروا في ذلك المتوعد به، فإن كان ممكناً سعوا في الخلاص مما قد يكون منه من العذاب، وسلكوا في الهرب منه مسلكاً سهلاً بعيداً من سوء الانقلاب، ودخلوا إلى فسيح المانع منه من أوسع باب، أو كفوا عن السعي في هلاك النذير وطووا ما مدوا له من الأسباب، ليدلهم إذا كان صادقاً على شيء يحميهم أو يخفف عنهم ذلك المصاب، فقال منبهاً على شدة الحذر من مكر الله وعدم الاغترار به للمؤمن الطائع لعلمه، أنه لا يقدر أن يقدر الله حق قدره فكيف بالعاصي فضلاً عن الكافر مكرراً للأمر بالقول تنبيهاً على أن كل جملة صدرت به كافية في الدلالة على مقصود السورة وعائدة إليه لما اشتملت عليه من باهر القدرة ووافر العظمة:

{قل} أي يا أفضل الخلق كلهم وأشرفهم وأعظمهم وأتقاهم لهؤلاء الذين طال تضـــجرهم منك وهم يتمنون هلاكك حســـداً منهم وعمى في قلوبهم وبعداً وطرداً، قد اســـتحكم واســـتدار بهم ذلك تقدير العزيز العليم {أرءيتم} أي أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية.

ولما كانوا غير عالمين بعاقبة الأمر في هلاكه ومن معه بما يقصدونهم به، حذرهم عاقبة ذلك بالتعبير بأداة الشـك، وإسـناد الإهلاك إلى الله معبراً عن الاسم الدال على تناهي العظمة إلى حد لا يدع لغيره منها شيئاً إعلاماً بأنه على القطع بأنه لا شيء في أيديهم فهو لا يخافهم بوجه فقال: {إن أهلكني} أي أماتني بعذاب أو غيره {الله} أي الذي له من صفات الجلال والإكرام ما يعصم به وليه ويقصم به عدوه {ومن معي} أي من المؤمنين والمناصرين رضـــي الله عنهم أجمعين بغضـــبه علينا مع ما لنا من الأسـباب بالطاعة بالأعمال الصالحة التي رتب سبحانه عليها الفوز والنجاة حتى لا يبقى أحد ممن يكدر عليكم بالمنع من الهوى القائد إلى القوى والحث على العقل الضامن للنجاة {أو رحمنا} بالنصرة وإظهار الإسلام كما نرجو فأنجانا بذلك من كل سوء ووقانا كل محذور وأنالنا كل سرور، فالآية من الاحتباك: ذكر الإهلاك أولاً دليلاً على النجاة ثانياً، والرحمة ثانياً دليلاً على الغضـــب أولاً {فمن} وكان ظاهر الحال يقتضـي: يجيركم مع طلبكم المسببات من الفوز والنجاة بغير أسباب بل بأسباب منافية للنجاة جالبة للعذاب، فوضع الظاهر موضـع الضـمير تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصـف واسـتعطافاً لهم إلى إيقاع الإيمان والرجوع عن الكفران فقال: {يجير الكافرين} أي العريقين في الكفر

بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره {من عذاب أليم *} يصـــيبهم به الذي هم عالمون بأنه لا شـــيء إلا بيده، وإلا لنجى أحد من الموت الذي خلقه وقدره بين عباده جزاء على ما كانوا يؤلمون من يدعوهم إليه وينصحهم فيه، فإذا كان لا ينجيهم من عذابه شيء سواء متنا أو بقينا فالذي ينبغي لهم إن كانوا عقلاء السعي فيما ينجى من عذابه، لا السعي في إهلاك من هو ساع في خلاصهم من العذاب، ولا يقدرون على إهلاكه أصلاً إلا بتقدير الذي أمره بإنذارهم.

ولما كان لا يقدر على التعميم بالنعمة إلا من كان عام القدرة والنعمة والرحمة، وكان التذكير بالنعم أشد استعطافاً، صرف القول إلى التعبير بما هو صـــريح في ذلك، فقال مذكراً بذلك لعلمهم بأنه لا نعمة عليهم إلا منه واعترافهم بذلك ليحذروه ويتذكروا عموم قدرته فيعلموا قدرته على البعث فينفصـل النزاع: {قل} يا خير الخلق: {هو} أي الله وحده {الرحمن} أي الشـــامل الرحمة لكل ما تناولته الربوبية، فلا يليق بعقل عاقل أن يدع أحداً من خلقه في ظلم ظالمه فلا يأخذ له بحقه، لأن ذلك لا يرضـــاه أقل الناس لنفسه مع عجزه فكيف بمن هو كامل القدرة وإلا لما قدر على عموم الرحمة {آمنا به} أي أنا ومن آمن بي لهذا البرهان القاطع بأنه لا يكافئه شـيء فهو كاف في الإيمان به {وعليه} أي وحده {توكلنا} لأنه لا شـــيء في يد غيره وإلا لرحم من يريد عذابه أو عذاب من يريد رحمته، فكل ما جرى على أيدي خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذي أجراه لأنه الفاعل بالذات، المســتجمع لما يليق به من الصـفات، فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره، وقد أقررنا له بهذه

العبارة على وجه الحصـر بالألوهية والربوبية فلا نحتج في السـلوك إليه إلى معوق عن ذكره والتفكر في آلائه ولو كان المعوق نفيســاً في ظاهر الحياة الدنيا ولو كان مخوفاً فإنه لا خوف معه ســبحانه، فالتوكل عليه منجاة من كـل هلكـة مجلبـة لكـل ملكـة، ولم يفعـل كمـا تفعلون أنتم في توكلكم على رجالكم وجاهكم وأموالكم.

ولما أبان هذا طريق الصــواب، وجلى كل ارتياب، وكان لا بد من الرجوع إليه والانقلاب، لإتمام الرحمة بالثواب والعقاب، سبب عنه قوله: {فستعلمون} أي عند التجلي عليكم بصــفة القهر عما قليل بوعد لا خلف فيه {من هو} أي منا ومنكم متداع بذاته ظاهراً وباطناً {في ضــلال} أي أخذ في غير مسـلك موصـل إلى مقصـد محيط به الضـلال بحيث إنه لا قدرة له على الانفكاك منه إلا إن أطاع من يجره بيده فيخرجه منه، ولما كان الشــيء إذا كان فيه نوع لبس كان ربما اقتضـى قبول العذر قال: {مبين *} أي بين في نفسه موضح لكل أحد أنه لا خفاء به.

ولما افتتح سبحانه السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في مملكته، ودل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده هو سـبب للحياة وعدمه سـبب للموت، فقال قارعاً بالتنبيه مشـيراً بتكرير الأمر إلى مزيد التوبيخ والزجر والتبكيت دالاً على تعيين ما أبهم من أهل الضلال، ومصـرحاً بما لوح إليه من ذلك الإجمال. {قل} أي يا أعظم خلقنا وأعلمهم بنا: {أرءيتم} أي أخبروني إخباراً لا لبس فيه ولا خفاء، ولما كان شــديد العناية بهذا النبي الكريم صــلى الله عليه وســلم، ســكن قلبه في وعيدهم

بالإشارة إلى الرفق بهم لأجله، فابتدأ الوعيد بحرف الشك فقال: {إن} ولما كانت النعمة أشد ما يكون إذا كانت في الصباح الذي هو موضع ارتقاب الفلاح قال: {أصبح مآؤكم} أي الذي تعدونه في أيديكم- بما نبهت عليه الإضافة.

ولما كان المقصود المبالغة، جعله نفس المصدر فقال: {غوراً} أي نازلاً في الأرض بحيث لا يمكن لكم نيله بنوع حيلة- بما دل على ذلك الوصف بالمصدر {فمن يأتيكم} على ضعفكم حينئذ وافتقاركم وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم {بماء معين *} أي جار دائماً لا ينقطع أو ظاهراً للأعين سهل المأخذ إلا الله رب العالمين فإنه هو القادر على ذلك، فقد رجع ذلك الآخر كما ترى على ذلك الأول، وعانقه على أحسن وجه وأكمل- والله أعلم.

68 Alqalam
Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة القلم

▲ تفسير الآيات رقم [1- 5]

{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5)}

لما أبهم الضال والمهتدي في آخر «الملك» والمسيء والمحسن في العمل أولها، وختم بآية الماء المعين الذي دلت حروفه بمجموعها على تمام معناه، ودل كل واحد منها على شيء منه، فدلت ميمه على تمام شيء ظاهر، وعينه على آية هادية، وياؤه على قائم ملطف متنزل مع كل مقام، ونونه على مظهر مبين محيط بما أظهره، وردهم سبحانه إليه بعد شرادهم عنه بالاستفهام في هذه الآية بما نبههم عليه من عجزهم وعجز كل من يدعونه من دونه وأنه لا يقدر على الإتيان بذلك الماء الذي هو حياة الأشباح بعد ذهابه إلا من تمت قدرته، فكان قادراً على كل ما يريد، وكان لا يقدر على كل ما يريده إلا من كمل علمه الذي يحيي به ميت الأرواح، دل على شمول

قدرته بكمال علمه بما أفاده على النبي الكريم الأمي من العلوم التي زخرت بحارها، فأحيا مدرارها، وأغرق تيارها، فافتتح هذه الســـورة بكلمة البيان وهو اسـم الحرف الذي هو آخر حروف تلك، ومن لوازم بعض ما دل عليه الماء الذي هو الحياة المصححة، ونبه على نصبه له سبحانه دليلاً على العلم بما دل عليه من مخرج مسماه وصفاته ومواقعه في الكلم في جميع تقلباته فقال: {ن} هذه الكلمة حرف من حروف المعجم وهي اســـم لمســـمى به ظهور الأشـــياء وعلمها وإدراكها كما دل عليه موقعه في اســـم النور والنار والنيل والنمو والنباهة والنقاء والنصـــح والنبأ والنجابة والنجاة والنحت والندم، وقد تقدم في البقرة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لكل كتاب سر وسر القرآن هذه الحروف، ولا يعلم ما هي إلا واضعها سبحانه.

ولما كان هذا الحرف مشـــتركاً في اللغة بين حرف المعجم والدواة والحوت وشـفرة السـيف، سـكن للدلالة بادئ بدء على أنه حرف، ولا يمنع إسـكانه المتأصـــل في البناء من إرادة بقية المعاني لأن العرب ربما ســـكنت الكلمة بنية الوقف تنبيهاً على عظمة معناها، فلا يلزم من الإسكان عن غير عامل البناء، وقيل: النون اللوح، والنونة الكلمة من الصواب، والسمكة، فهو صالح لحرف المعجم الكلي الصــالح لكل فرد، وعن عكرمة عن ابن عباس رضـي الله عنهمـا أنـه أخر حروف الرحمن والـدواة لمـا يتـأثر عنهـا من العلوم، والحوت الذي على ظهره الكون واســـمه اليهموت لما في ذلك من عجائب القدر والأسرار، ويكون الإقسام وقع بالنون والقلم علواً للإحاطة، والسيف لما يتأثر عنه من جليل الآثار، وكيفما كان المراد فهو الإحاطة، وهو سر باطن

لا يظهر، وإنما تظهر نتائجه، فهو الحكم ونتائجه القضـاء والقدر بالإشـقاء أو الإسعاد.

ولما كان هذا الحرف آية الكشـــف للأشـــياء كان مخرجه أمكن المخارج وأيسرها وأخفها وأوسعها وهو رأس المقول، فإنه يخرج مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا من اللثة، وهو أخرج من مخرج اللام ومن مخرج الراء أيضـــاً، وتســـمى هذه الحروف الثلاثة الزلقية مع بقية حروف «فر من لب» لأن طرف كل شـــيء زلقة، والنون أمكنها في هذا المخرج وأشـــدها انطباقاً فيما بين اللســان واللثة، وهو مما كرر مسـماه في اسـمه فانتهى إلى حيث ابتدأ، واختص بكون عماده وقوامه الحرف الأقوى الأظهر ذا الرفعة والعلو وهو الواو والزلقية التي هو أحدها ضد المصمتة وهي أخف الحروف على اللسان وأكثرها امتزاجاً بغيرها، وأما المصمتة فمنعت أن تنفرد بنفسها في لغة العرب في كلمة هي أكثر من ثلاثة أحرف، بل لا بد أن يكون معها بعض الزلقية، والألف خارجة عن الصـنفين لأنها مجرد إهواء لا مسـتقر لها، فقد ناسـبت بمخرجها لســعته وخفته ووصـــفها بالزلاقة التي تقع لما اتصـــف بها من الحروف الكمال غنية عن ســواها ولا يقع لما لم يخالطها كمال فيما ذكر ما ذكر من أن معناها البيان والإظهار ومن صفاتها الجهر وبين الشدة والرخاوة والانفتاح والاستفال، والغنة الخارجة من الخيشوم إذا سكن، وكل هذا واضح في العلم الذي له الاتساع والانتشار والتغلغل في الأشياء الباطنة، ويشاركه الميم في الغنة كما أنه يشـــاركه في أن له حظاً من الظهور والنون وهو الأصل في الغنة كما أنه الأصل في الظهور لما له من العلو بالعماد، وهو

أيضـــاً من حروف الذبذبة والزيادة التي لا تســـتقر على حال فتقع مرة زوائد وأخرى أصولاً كما أن العلم أيضاً كذلك لا استقرار له بل مهما وسعته اتسع، ومهما تركته اضمحل وانجمع، وهو من حروف الأبدال التي تبدل من غيرها ولا يكون غيرها بدلاً منها فلازب ولازم الميم بدل من الباء بخلاف العكس كما أن العلم أصـــــل يتبعه غيره ولا يكون هو تابعاً لغيره، وهو من الحروف الصحيحة وليست معتلة، والعلم جدير بهذا الوصف وهو إذا كان مخفي من الحروف المشـــــربة ويقال لها المخالطة- بكســــر اللام وفتحها، وهي التي اتســـعت فيها العرب فزادتها على التســـعة والعشـــرين المســـتعملة وهي من الحروف الصـــم وهي ما عدا الحلقية، ســـميت بذلك لتمكنها في خروجها من الفم واستحكامها فيه، يقال للمحكم المصتم والعلم أشد ما يكون مناسبة لهذا الوصف، فقد انطبقت بمخرجها وجميع صفاتها على العلم الذي هو مقصود الســـــورة فتبين حقاً أنه مقصــــــودها، وأما رتبة القلم في بيان العلم وإظهاره وكشـــف خفاياه وأســـراره وبثه وإشـــهاره فهي بحيث لا يجهلها أحد اتصـــف بالعقل، ومما يختص به هذا الحرف أنه يصـــحب كل حرف لأن حده هو ما يعبر عنه التنوين الذي انتظامه بالحركات هو ما آيته العلم المكمل به الحياة التي هي آية ما يعبر عنه هذه الحركات، فلما كانت هذه الحركات آية على ما هو الحياة كان التنوين عقبها آية على ما به كمال الحياة من العلم، وهو سـبب لما به القيام من الظهور، ومن معناه اسـمه تعالى النور، ثم هو اسـم لكل ما يظهر ما خفي باطناً كالعلم في الإدراك الذي تظهر حقائق الأشـــياء به، وظاهراً كالنيرين للعيون، وسائر الأنوار الظاهرة والباطنة، وما هو وسيلة

الظهور كالعيون مما به تشاهد الأشياء ويظهر به صورها، والدواة التي منها مداد ما كتب بالقلم في العوالم أعلاها وأدناها وكل آلة يتوصـــل بها إلى إظهار صـورة تكون تماماً كماء المزن الذي هو مداد كل شـيء كوّن الله به الكائنات والبادئات «وجعلنا من الماء كل شـــيء حي» ومنه معنى النجم النباتي الذي هو للشـجر بمنزلة الفول للبشـر متلبسـاً بالنور– بالفتح– الذي فيه حظ من النور– بالضـم– والذرء الذي هو ظاهر في نفسـه مظهر لطرق الاهتداء، وكذلك الأمر في النار المخلصـة من رتبة ظلمتها التي هي غايتها بالرماد، وابتداؤها بما يخرج منه من شجر وحديد وحجر.

ولما كان هذا الحرف اســماً لما به ظهور أمر لم يختص بشـــيء من المظهرات دون آخر بل شـمل النور والحاسـة والمراد والمادة، ولذلك كان مع الكاف الذي هو علم التكوين سـبب ظهور كل شـيء {إنما قولنا لشـيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} [النحل: 40] ولصـدقه على كل مظهر فسـره ابن عباس رضـــي الله عنهما بالدواة ففســر بما يســتمد منه القلم، وليلحظ موقعه في نجد فإنه اسم لما ارتفع من الأرض وظهر في نفسه وأظهر غيره، وفي نهود الجارية وهو ظهور نهدها، وفي النهب وهو ما أخذ أخذاً ظاهراً كما قال صـلى الله عليه وسـلم «ولا ينتهب نهبة ذات شـرف يرفع الناس إليه فيها أبصــارهم» وفي النفخ والنفع والنصــر والنقر والنقب وما أشــبهها فإنها كلها ظهور وإظهار كالنم والمن والنمؤ ولأجل علوه واسـتبطانه وأنه اسـتغراق المظهر المبين كانت إقامته يتعالى الألف وهو الواو وانتهاؤه إلى مثل ما بدأ بـه، ولكون الميم تمـاماً كـان قوامـه بمتنزل كـالألف التي هي اليـاء في قولك

ميم، ولرجوع الواو إلى علو الألف كان عمادها الألف في قولك «واو» وهذه الحروف الثلاثة ظاهرة في عالمين ظاهرهما المبدوء به وباطنهما المختوم به، فالنون الأولى يعبر بها عن نور الأبصـــار، والخاتمة يعبر بها عن نور القلب، ولما كان الهاء وتر الدال، وكان محيطاً باطناً غيباً وجب أن يكون محل تضـــعيفه بالياء محل محيط باطن نازل الرتبة في الغيب عن الهاء لوقوعه في رتب العشرات وهو النون، فكان ظاهراً بالإضافة إلى خفاء الهاء باطناً بالإضـــافة إلى ظهور الميم، فيكون بالنون ظهور الميم المعبر عن «الملك» الذي سبق في السورة الماضية كما كان شهادة الدال وثبوته بالهاء. ولذلك انبنى تمام كل عمل على نور علم كما كان قوام ظاهر كل دال غير هاء، وكان النون مداداً لمثل العلم الذي يظهر صورها بسطر القلم حتى أن آية ما بطن منه فأظهره القلم هو ما بطن دون الأرض من النون الذي عليه الأرض الذي أول ما يطعمه أهل الجنة زيادة كبده مع الثور الذي عليه الأرض أيضاً الذي يذبح لهم– على ما ورد في الخبر، وقابل استبطان النون في الأرض ظهور القاف على ظاهرها الذي هو جبل الزبرجد المحيط بالدنيا، وعن ذلك الاستيلاء على القلوب في الدنيا إنما يكون بالعلم الذي هو حقيقة نون كما أن الاســـتيلاء على الأجســـام في ظاهر الدنيا إنما يكون بالقدرة التي هي حقيقة قاف على ما يظهر من إجالتي العلماء في النون الأبطن والملوك في القاف الأظهر، وهذان الصـــنفان من الخلق هما المستوليان على الناس بالأيالة ونفوذ الأمر، ولذلك أقيم المفصل من القرآن بحرفي قاف ونون، واقترن أيضاً هذان الحرفان في كلمة القرآن ولفظ الفرقان

اللذين هما في ظواهر أســـمائه، وإنما كان أول ما يطعمه أهل الجنة من الثور الذي عليه الدنيا الذي كان يرعى في أطراف الجنة– على ما ورد عنه عليه أفضل الصلاة والسلام، لأن صورة الثور هي معنى ما هو الكد والكدح وجهد العمل في الأرض الذي قام عليه أمر الدنيا، ولما كان أهل الدنيا أول ما يراحون منه من أمر الدنيا تقديم أمر الكد بين يدي معاشـــهم في الجنة، كان الذي يذبح لهم الثور الذي هو صـورة كدهم فيأكلونه فهو جزاء ما عملوا به في دنياهم من حيث كانوا ذوي دين، فاســتحقوا بذلك جزاء كدهم بما هو صـورته، وأضـيف لذلك زيادة كبد النون التي هي صـورة حظهم من أصـل العلم فأطعموها وجوزوا بها، وروعي في أعمالهم حســن نيتهم في أصـــل دينهم، فلما أتوا عليهما اسـتقبلوا الراحة والخروج عن الكلفة في معاشـهم في الجنة، والذي جرهم به سبحانه إلى سني هذه الرتبة ما أتقنه بحكمته من ثناء المفصل القرآني على حرفي القاف الذي به القوة والقهر والقدرة، والنون الذي به إظهار ذلك للعقل بنور العلم، وذلك أن القرآن نزله سبحانه مثاني، ضمّن ما عدا المفصـــل منه الذي هو من قاف إلى خاتمة الكتاب العزيز، وفاتحته ما يختص بأولي العلم والفقه من مبســـوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصـيص ومتشـابه الآيات، والسـور المفتتحة بالحروف العلية الإحاطة الغيبية المنحى المستندة إلى آحاد الأعداد مما يختص بعلم ظاهرها خاصـة الأمة، ويختص بأمر باطنها آل محمد صـلى الله عليه وسـلم، فلعلو رتبة إيراد ما عدا المفصل ثنى الحق تعالى الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عد الآي هي المفصل، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ

والأحكام والأنباء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذ الخاصة، ويتكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلقاً مما يفوتهم من مضمون سائر السور المطولات، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف القاف الذي هو وتر الآحاد حتى صارت عشرة، ثم إذا ضربت في نفسها صارت مائة، فافتتح به المفصل، ليكون مضمون ما يحتوي عليه أظهر مما يحتوي عليه ما افتتح بألم، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقرأ في خطبة الجمعة سورة «ق» فيفتتح للعامة المتوجه بخطبة يوم الجمعة إليهم لأنها صلاة جامعة الظاهر بفاتحة المفصل الخاص، وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه كفاية، وشفعت بسورة «ن» المظهرة ظاهر «ق» فخصوا بما فيه القهر والإبانة، واختصت سورة «ن» من مقتضى العلم بما هو محيط بأمر العامة المنتهي إلى غاية الذكر الشامل للعالمين، لأن القوة المعربة عن العلم ربما كان ضررها أكثر من نفعها، كما قال بعض السلف: كل عز لم يوطده علم فإلى ذل يؤول، وكما كان جميع السور التسع والعشرين المفتتحة بالحروف المتضمنة للمراتب التسع في التسعة وللعاشر الجامع للمراتب التسع بإيتار آحادها والعاشر الجامع يضرب العشر الموتر في نفسه قواماً وإحاطة في جميع القرآن كذلك كان سورة «ق» وسورة «ن» قواماً خاصاً وإحاطة خاصة بما يخص العامة من القرآن الذي يجمعهم الأرض بما أحاط من ظاهرها من صورة جبل «ق» وما أحاط بباطنها من صورة حيوان «ن» الذين تمام أمرهم

بما بين مددي إقامتهما، وبهذه السورة المفتتحة بالحروف ظهر اختصاص القرآن وتميز عن سائر الكتب لتضمنه الإحاطة التي لا تكون إلا للخاتم الجامع، واقترن من التفصيل في سورها ما يليق بإحاطتها، ولإحاطة معانيها وإبهامها كان كل ما فسرت به من معنى يرجع إلى مقتضاها صحيحاً في إحاطتها بمتنزلها من أسماء الله وترتبها في جميع العوالم فلا يخطئ فيها مفسر لذلك لأنه كلما قصد وجهاً من التفسير لم يخرج عن إحاطة ما يقتضيه، ومهما فسرت به من أسماء الله أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الأنبياء أو من مثل الأشياء أو صور الموجودات أو من أنها أقسام أقسم بها أو فواتح عرفت بها السور أو أعداد تدل على حوادث وحظوظ من ظاهر الأمر أو باطنه على اختلاف رتب وأحوال مما أعطيه المنزل عليه صلى الله عليه وسلم من مقدار أمد الخلافة والملك والسلطنة وما ينتهي إليه أمره من ظهور الهداية ونحو ذلك مما يحيط بأمد يومه إلى غير ذلك وكل داخل في إحاطتها، ولذلك أيضاً لا يختص بمحل مخصوص يلزمه علامة إعراب مخصوصة، فمهما قدر في مواقعها من هذه السورة جراً أو رفعاً أو نصباً فداخل في إحاطة رتبتها ولم يلزمها معنى خاص لما لم يكن لها انتظام، لأنها مستقلات محيطات، وإنما ينتظم ما يتم معنى كل واحد من المنتظمين بحصول الانتظام، وذلك يختص من الكلم بما يقصر عن إحاطة مضمون الحروف حتى أنه متى وقع استقلال وإحاطة في كلمة لم يقع فيها انتظام.

ولما كان قوام هذا الوجود بالسـيف والقلم، وكان «نون» مشـتركاً بين معان منها السـيف والدواة التي هي آلة القلم، واللوح الذي هو محل ما يثبت من العلم، وكان السيف قد تقدم في حيز القاف الذي افتتحت به سورة «ق» كما هو أنسـب لتضـمنه القوة والقدرة والقهر في سـورة الحديد بعد الوعظ والتهديد والتذكير بالنعم في السـورة الواقعة بينهما، ذكر هنا ما هو لحيز النون من آية العلم فقال مقسـماً بعد حرف «ن»: {والقلم} أي قلم القدرة الذي هو أول ما أبدعه الله، ثم قال له: اكتب، فخط جميع الكائنات إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ حقيقة، وفي ألواح صـفحات الكائنات حالاً ومجازاً، فأظهر جميع العلوم، ثم ختم على فيه فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة، والذي يكتب فيه الخلق ما نولهم الله من تلك المعارف والفهوم، وذلك هو قوام أمور الدنيا، والإشارة به إلى القضاء الذي هو من نتائج «ن» لأنه من مصنوعات الله الظاهرة التي اقتضـت حكمته سـبحانه إيجادها ووجهه إلى تفصـيل ما جرى به الحكم.

ولما كان الحاصل بالقلم من بث الأخبار ونشر العلوم على تشعبها والأسرار ما يفوق الحصر، فصار كأنه العالم المطيق واللسن المنطيق، وكان المراد به الجنس أسند إليه كما يسند إلى العقلاء فقال: {وما يسطرون *} أي قلم القدرة، وجمعه وأجراه مجرى أولي العلم للتعظيم لأنه فعل أفعالهم، أو الأقلام على إرادة الجنس، ويجوز أن يكون الإسـناد إلى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره، إما الملائكة إن كان المراد ما كتب في الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه، وإما كل من يكتب منهم ومن غيرهم حتى

أصحاب الصحيفة الظالمة التي تقاسموا فيها على أن يقاطعوا بني هاشم ومن لافهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعون به ما شاؤوا، وكيف ما كان فهو إشارة إلى المقدر لأنه إنما يسطر ما قضى به وحكم.

ولما كان المخاطب بهذا صلى الله عليه وسلم قد عاشر المرسل إليهم دهراً طويلاً وزمناً مديداً أربعين سنة وهو أعلاهم قدراً وأطهرهم خلائق وأمتنهم عقلاً وأحكمهم رأياً وأرأفهم وأرفعهم عن شوائب الأدناس همة وأزكاهم نفساً بحيث إنه لا يدعى بينهم إلا بالأمين ولم يتجدد له شيء يستحق به أن يصفوه بسببه بالجنون الذي ينشأ عنه الضلال عن المقاصد المذكور آخر الملك في قوله

{فستعلمون من هو في ضلال مبين} [الملك: 29] إلا النعمة التي ما نال أحد قط مثلها في دهر من الدهور ولا عصر من الأعصار، قال مجيباً هذا القسم العظيم راداً عليهم بأجلى ما يكون وأدله على المراد تأنيساً له صلى الله عليه وسلم مما أوجب افتراؤهم عليه له من الوحشة وشرحاً لصدره وتهدئة لسره: {ما أنت} أي يا أعلى المتأهلين لخطابنا {بنعمة} أي بسبب إنعام {ربك} المربي لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذي هو جامع لكل علم وحكمة، وأكد النفي زيادة في شرفه صل الله عليه وسلم فقال: {بمجنون *} أي بل الذي وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون ومعناه فضلاً عن الضلال الذي ردد في آخر تلك بينك وبينهم فيه سلوكاً لسبيل الإنصاف لينظروا في تلك بالأدلة فيعلموا ضلالهم وهدايتك بالدليل

القطعي بالنظر في الآثار المظهرة لذلك غاية الإظهار، فنفى عنه صلى الله عليه وسلم الشقاوة التي سببها فساد العقل فثبتت السعادة التي سببها صلاح العقل ونعمة الرب له.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضـــمنت ســـورة الملك من عظيم البراهين ما يعجز العقول عن اســـتيفاء الاعتبار ببعضـــه كالاعتبار بخلق السـماوات في قوله تعالى {الذي خلق سـبع سـماوات طباقاً} [الملك 3] أي يطابق بعضها بعضاً من طابق النعل- إذا خصفها طبقاً على طبق، ويشعر هذا بتســـاويها في مســـاحة أقطارها ومقادير أجرامها- والله أعلم، ووقع الوصف بالمصدر يشعر باستحكام مطابقة بعضها لبعض إنباء منه سبحانه وتعالى أنها من عظم أجرامها وتباعد أقطارها يطابق بعضها بعضاً من غير زيادة ولا نقص {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك: 3] أي من اختلاف واضطراب في الخلقة أو تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة، وجيء بالظاهر في قوله تعالى {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك: 3] ولم يقل: ما ترى فيه من تفاوت- ليشـــعر أن جميع المخلوقات جار على هذا، كل شـكل يناسـب شـكله، لا تفاوت في شـيء من ذلك ولا اضـطراب، فأعطى الظاهر من التعميم ما لم يكن يعطيه الإضمار كما أشعر خصوص اســـم الرحمن بما في هذ الأدلة المبســـوطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار، ثم نبه تعالى على ما يرفع الريب ويزيح الإشـــكال في ذلك فقال: {فارجع البصـر} [الملك: 3] أي عاود الاعتبار وتأمل ما تشـاهده من هذه

المخلوقات حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ولا يبقى معك في ذلك شبهة

{هل ترى من فطور} [الملك: 3] أي من صدوع وشقوق، ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتمتعاً هل تجد عيباً أو خللاً {ينقلب إليك البصر خاسئاً} [الملك: 4] أي إنك إذا فعلت هذا رجع بصرك بعيداً عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار وبالإعياء وبالكلال لطول الإجابة والترديد، وأمر برجوع البصر ليكون في ذلك استجمامه واستعداده حتى لا يقع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة إذ معنى التثنية في قوله «كرتين» التكرير كقولهم: لبيك وسعديك فيحسر البصر من طول التكرار ولا يعثر على شيء من فطور، فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أوله إلى هنا لكان في ذلك أعظم معتبر، وأوضح دليل لمن استبصر، إذ هذا الاعتبار بما ذكر من عمومه جار في كل المخلوقات ولا يستقل بفهم مجاريه إلا آحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة، ثم قد تكررت في السورة دلالات كقوله {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح} [الملك: 5] وقوله {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} [الملك: 14] الآيات إلى آخر السورة، وأدناها كاف في الاعتبار فأنى يصدر بعض عن متصف ببعض ما هزئوا به في قولهم: مجنون وساحر وشاعر وكذاب، {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين: 14] فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين اتبعت بتنزيه الآتي بها محمد

صـــلى الله عليه وســـلم عما تقوله المبطلون مقســـماً على ذلك زيادة في التعظيم، تأكياً في التعزير والتكرير فقال تعالى {ن والقلم وما يســـطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون} [القلم: 1، 2] وأنى يصـــح من مجنون تصـــور بعض تلك البراهين قد انقطعت دونها أنظار العقلاء فكيف ببســـطها وإيضاحها في نسق موجز، ونظم معجز، وتلاؤم يبهر العقول، وعبارة تفوق كل مقول، تعرف ولا تدرك، وتستوضح سبلها فلا تسلك {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} [الإسراء: 88] فقوله سبحانه وتعالى {ما أنت بنعمة ربك بمجنون} [القلم: 2] جواباً لقوله تعالى في آخر الســـورة إنه لمجنون، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم ليكون أبلغ في إجلاله صـلى الله عليه وسـلم وأخف وقعاً عليه وأبسط لحاله في تلقي ذلك منهم، ولهذا قدم مدحه صلى الله عليه وسلم بما خص به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في الإجلال من تقديم قولهم ثم رده إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزيه عنها أتم في الغرض وأكمل، ولا موضـــع أليق بذكر تنزيهه عليه الصـــلاة والســـلام، ووصـــفه من الخلق والمنح الكريمة بما وصـــف مما أعقب به ذلك إذ بعض ما تضـــمنته ســـورة الملك بما تقدم الإيماء إليه شـاهد قاطع لكل عاقل متصـف بصـحة نبوته صلى الله عليه وسلم وجليل صدقه

{ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} [النساء: 82] فقد تبين موقع هذه السورة هنا، وتلاؤم ما بعده من آيها يذكر في التفسير– انتهى.

ولما نفى سبحانه عنه صلى الله عليه وسلم ما قالوه مما تواقحوا به، فثبت له صـــلى الله عليه وســـلم كمال العقل، وكان المجنون من لا يكون له عمل ينتظم ولا قول يرتبط، فلا يستعمله أحد في شـيء ليكون له عليه أجر، أثبت له الأجر المســـتلزم للعقل فيتحقق إثباته من أحكم الحكماء على وجه أبلغ مما لو صـــرح به، فقال على وجه التأكيد لإنكارهم له بما ادعوا فيه من البهت: {وإن لك} أي على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى صـبرك عليهم بما يرمونك به وهو تسلية له صلى الله عليه وسلم {لأجراً} ولما أثبت له ما يلازم العقل ويصـــلح لأن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة دالاً بتنوينه وما أفهمه السياق من مدحه صلى الله عليه وسلم على عظمته، وكان الأجر لا يســتلزم الدوام، وقد يكون منغصـــاً بنوع منة قال: {غير ممنون *} أي مقطوع ولا منقوص في دنياك ولا في آخرتك ولا لأحد من الناس عليك به صـــنيع يمتن به بأن يذكره على ســبيل اللوم والتقريع، فهذا بيان الســعادة، والأجر لا يكون إلا على العمل الصـالح، والعمل رشـح الأخلاق، فصـالحه نتيجة الأخلاق الحسنة والعقل الراجح.

ولما ثبت بهذا العقل مع ما أفاده من الفضل، وكان الذي يؤجر قد يكون في أدنى رتب العقل، بين أنه صـلى الله عليه وسـلم في أعلاها بقوله مؤكداً لما مضـى: {وإنك} وزاد في التأكيد لزيادتهم في المكابرة فقال: {لعلى خلق} ولما أفهم السياق التعظيم، صرح به فقال: {عظيم *} وهو الإسلام الذي دعا إليه القرآن لا بالبلاء ينحرف، ولا بالعطاء ينصـرف، لأن خلقه– بشـهادة أعرف الناس به زوجه أم المؤمنين الصـديقة عائشـة بنت الصـديق أبي بكر رضـي

الله عنهما- القرآن، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمره ونهيه، فهذا الخلق نتيجة الهدى والهدى نتيجة العقل، وهو سبب السعادة، فأفهم ذلك عدم سعادتهم لعدم عقولهم، وقال الواسطي: أظهر الله قدرته في عيسى عليه السلام ونفاذه في آصف، وسخطه وقهره في عصى موسى عليه الصلاة والسلام وأظهر أخلاقه ونعوته في محمد صلى الله عليه وسلم فكان متخلقاً بأخلاق الله تعالى والتخلق بأخلاقه أن ينزه علمه عن الجهل وجوده عن البخل وعدله عن الظلم وحلمه عن السفه، واعلم أن الخلق والخلق صورتان: الخلق صورة الظاهر، والخلق صورة الباطن؛ فتناسب الأعضاء الظاهرة يعبر به عن الخلق الحسن، وتناسب المعاني الباطنة يعبر به عن الخلق الحسن، ثم الخلق الحسن تارة مع الله، وتارة مع حكم الله، وتارة مع الخلق، فمع الله بالتعظيم والإجلال ومع حكمه بالصبر في الضراء والبأساء والشكر في الرخاء والامتثال للأوامر والانزجار عن النواهي عن طيب قلب مسارعة وسماحة، وحسن الخلق مع الخلق بث النصفة في المعاملة وحسن المجاملة في العشرة، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

»الخلق وعاء الدين، لأن من الخلق يخرج الدين، وهو الخضوع والخشوع وبذل النفس لله واحتمال المكروه«.

ولما كان الإسلام أشرف الأديان، أعطاه الله تعالى أقوى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء كما روي أن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء، ومن الحياء حياة القلب، فكان صلى الله عليه وسلم يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين ولا يجزي بالسيئة السيئة لكن يعفو ويصفح ويحسن مع ذلك

ويجذب بردته حتى يؤثر في عنقه فيلتفت وهو يضـــحك ويقضـــي حاجة الجاذب ويحسن إليه، فقد اشتمل الكلام التدبيري المشار إليه بالنون والقضاء الكلي التأثيري المشـار إليه بالقلم والقدر المبرم التفصـيلي الواقع على وقف القضـاء المشار إليه بالسطر، ومثال ذلك أن من أراد بناء دولاب احتاج أولاً إلى مهندس يدبر له بعلمه موضـع البئر والمدار وموضـع المحلة وموضـع السـهم وموضـع الجداول، ونحو ذلك وهو الحكم التدبيري، ثانياً إلى صـانع يحفر البئر ويبني ونجار يركب الأخشـاب على وفق حكمة المهندس، وهو القضــاء التأثيري، وثالثاً إلى إقامة الثور في موضـــعه ودوران المحلة بما عليها من القواديس وجري الماء في الجداول على وفق القضــاء وهو القدر، ويحتاج رابعاً وخامساً إلى بيان انقسام المقدر له إلى شـقي وسـعيد، فالحكم باطن وهو سر من أسراره سبحانه وتعالى- سبحان من لا يعلم قدره غيره.

ولما أقسم سبحانه على نفي ما بهتوه به ودل على ما وهبه من كمال العقل وتمام الشــرف والنبل تصـــريحاً وتلويحاً فثبت غاية الثبات بأخبار العالم الحكيم، دل عليه بالمشـــاهدة على وجه هو من أعلام النبوة للحكم على المستقبل فقال مسبباً عن صادق هذا الإخبار: {فستبصـر} أي ستعلم يا أعلى الخلق وأشـــرفهم وأكملهم عن قريب بوعد لا خلف فيه علماً أنت في تحققه كالمبصـر بالحسـن الباصـر {ويبصـرون *} أي يعلم الذين رموك بالبهتان علماً هو كذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 12]

{بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)}

ولما كان صلى الله عليه وسلم هو ومن معه فريقاً والأعداء فريقاً، وقد أبهم آخر الملك الضال في الفريقين قال: {بأييكم} أي في أي فريقيكم {المفتون *} أي بالضلال والجنون حتى صد عن الهدى ودين الحق، أو بأيكم الفتنة بالجنون وغيره على أن يكون مصدر فتن، قال الرازي: مصدر مثل المفتون وهو الجنون بلغة قريش كما يقال: ما له معقول وليس له مجلود، أي عقل وجلادة.

ولما كان هذا إخباراً بجنونهم المستلزم لضلالهم على هذا الوجه المتصف، وكان مثل هذا قد يقع في محاورات الناس بضرب من الظن، استأنف تعالى ما هو كالتعليل لما أفاده السياق من هذا الحكم عليهم إعلاماً بأنه ناشئ عن علم قطعي لا مرية فيه بوجه، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يكون الأمر على ما أفاده ما تقدم: إن ربك أي الذي رباك أحسن تربية وجبلك على أعظم الخلائق {هو} أي وحده {أعلم} أي من كل أحد لا سيما من يتحرض {بمن ضل} أي حار وجار وذهب وزل وضاع وغاب غيبة عظيمة لا يهتدي منها، وسلك غير سبيل القصد، وأخطأ موضع الرشد، معرضاً {عن سبيله} فكان أجن المجانين لأنه سبحانه وتعالى خالقهم، وشارعه «ألا يعلم من

خلق وهو اللطيف الخبير» ولا سيما وهو الحي القيوم الذي لا يغفل {وهو} أي خاصة {أعلم بالمهتدين *} أي الثابتين على الهدى وهم أولو الأحلام والنهى، وهذا سر القدر الذي يقال: إنه إنما يظهر يوم الحاقة.

ولما كان من طبع البشر أن الحليم منهم الرزين إذا اشتد عليه الأذى ممن لم تجر العادة بأن مثله يطيق مثلهم قاربهم ولا يتهم فيما الخلاف بسببه بعض المقاربة، وكان سبب تلك المقاربة إنما هو عدم علمه بالعواقب، سبب سبحانه ما مضى من إعلامه بحقائق الأمور وكشفه لمستورها قوله إلهاباً وتهييجاً على الثبات على معاصاتهم إعلاماً للضال بأماراته ليعلم المهتدي لأن الأمور تعلم بأضدادها. وهو خطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ليكون ذلك أبلغ في سماعهم: {فلا تطع} أي أيها المأمور بإنقاذهم من غوائل أهوائهم وأشراك أهلاكهم {المكذبين *} أي العريقين في التكذيب، قال الملوي: ولا يخفى أن كل كفر ظهر وكل ضلالة ظهرت، وكل بدعة وكل شر إنما كان سببه إفساد القوة العلمية والنطقية، وهو يكون بالتكذيب، ثم علل ذلك بما يكون مجموعه على وقوعه منهم من مدة طويلة وهم مستمرون عليه بقوله: {ودوا} أي أحبوا محبة عظيمة واسعة متجاوزة للحد قديماً مع الاستمرار على ذلك وأكد تهالكهم على هذه الودادة بما يفهم التمني وإن ذلك مستمر منهم لا أنه وقع ومضى، فقال مشيراً إلى إفسادهم القوة النطقية وخلق الشجاعة الغريزية: {لو تدهن} أي تلاين فتوافق على بعض ما يريدون فتهادنهم على ترك نهيهم عن الشرك وترك التعرض لسب آلهتهم وتسفيه

أحلامهم وتضـليل آبائهم؛ قال ابن برجان: والأدهان ملاينة وانجرار بالباطل وإغماض عن الحق مع المعرفة بذلك- انتهى.

وهو من الدهن لأنه يلين ما يدهن به.

ولما كان من طبعهم أنهم كانوا يلينون له صـــلى الله عليه وســـلم بعض الأوقات خداعاً كما قيل في سبب نزول «الكافرون» من أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم: تعالى فلنصطلح على أن نعبد إلهك سنه وتعبد آلهتنا سنة، ونحو هذا من الأباطيل حتى أنهم سجدوا وراءه صلى الله عليه وسلم لما تلا عليهم سـورة النجم فسـجد فيها فسـجد وراءه الكفار والمؤمنون والجن والإنس حتى سـمع المهاجرون إلى الحبشــة وهم بالحبشــة فرجع بعضــهم ظناً منهم أنهم قد أسـلموا فوجدوهم على أخبث ما كانوا عليه أولاً، قال سـبحانه معرفاً بأن ذلك منهم خداع: {فيدهنون *} أي فبســـبب ودادتهم أنك تدهن هم يدهنون، فهو عطف على «ودوا» لا جواب «لو» لأجل تنبيهه صـــلى الله عليه وسـلم على أن لينهم إنما هو خداع لم يرد به غير الفســاد، وقد أخروا الإدهان وإن كانوا قديماً في وداده طمعاً في أن تبدأ به فيظهروه حينئذ، قال القشيري: من أصبح عليلاً تمنى أن يكون الناس كلهم مرضى.

ولما نهاه عن طاعة المكذب وعلله، وكان من الناس من يخفي تكذيبه، قال ناصـباً علامات المكذب: {ولا تطع} أي في وقت من الأوقات منهم ولا من غيرهم {كل حلاف} أي مبالغ في الاجتراء على الأيمان وإن لم يظهر لك تكذيبه، وليس المراد النهي عن العموم بل عموم النهي، أي انته عن كل حلاف فالنهي أصـــل والكل وارد عليه، كما تقدم تخريج مثله في آخر البقرة

في قوله تعالى {والله لا يحب كل كفار أثيم} [البقرة: 276] وهذه الأوصاف متفرخة من الكذب وخبث السجية، فهي كالتفصيل، فكثرة الحلف دالة على فساد القوة العلمية فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق، فصار صاحبها لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فلذلك يحلف صادقاً وكاذباً كيفما اتفق {مهين *} أي حقير ضعيف سافل الهمة والمروءة سافل الرأي، لأن الإنسان لا يكثر الحلف إلا وهو يتصور في نفسه أنه لا يصدق إلا بذلك، لأنه ليس له من المهابة عند من يحدثه والجلالة ما يصدقه بسببه، وهو مؤثر للبطالة لما فيها من موافقة طبعه، وذلك هو الحقارة الكبرى.

ولما كان كل من اتصف بصفة، أحب أن يشاركه الناس فيها أو يقاربوه لا سيما إن كانت تلك الصفة دنية ليسلم من العيب أو الانفراد به ولأن الشيء لما داناه ألف قال: {هماز} أي كثير العيب للناس في غيبتهم، وقال الحسن: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، أي لأن الهمز العض والعصر والدفع- من المهماز الذي يطعن به في بطون الدواب، وهو مخصوص بالغيبة كما أن اللمز مخصوص بالمواجهة.

ولما كانت النميمة- وهي نقل الحديث على وجه السعاية- أشد الهمز أفاد أنه يفعله ولا يقتصر على مجرد النقل بل يسعى به إلى غيره وإن بعد فقال تعالى: {مشاء} أي كثير المشي {بنميم} أي ينقل ما قاله الإنسان في آخر وأذاعه سراً، لا يريد صاحبه إظهاره على وجه الإفساد للبين مبالغ في ذلك بغاية جهده.

ولما كان من كان هكذا يريد إعلاء نفسه بهضم الناس، وكان المنع لإرادة الاستئثار بالممنوع ليكون الغير محتاجاً إليه وعاكفاً عليه لأن من طبعه أنه لا يرتبط إلا طمعاً لا شكراً بضد الجواد، فإنه يرفع نفسه عن المطامع، ولا يرتبط إلا شكراً على الصنائع فيجود ظناً منه أن الناس كذلك، قال: {مناع} أي كثير المنع شديده {للخير} أي كل خير من المال والإيمان وغيرهما من نفسه ومن غيره من الدين والدنيا- إلى غير ذلك.

ولما كان من يفعل هذه المخازي من الناس ويقتصر في الهمز والنم على الواقع، وفي المنع على ما له منعه- لئيماً، بين أنه لا يقنع بذلك، بل زاد عليه ببذل الجهد فيما يصير به ألأم فقال: {معتد} أي ثابت التجاوز للحدود في كل ذلك {أثيم *} أي مبالغ في ارتكاب ما يوجب الإثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث ويرغب في المعاصي ويتطلبها، ويدع الطاعات ويزهد فيها.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 20]

{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)}

ولما كان كل من يتصف بهذه الدنايا التي من شأنها إبعاد الناس عنه ونفرتهم منه يسعى في سترها إن كان عاقلاً بلين وتواضع وخداع وسهولة انقياد، بين أن هذا على غير ذلك فقال منبهاً على هذا بالبعدية: {عتل} أي أكول شديد الخصومة جاف غليظ في خلقه وخلقه ثقيل مر، كأنه قطعة جبل

قد انقطع عن سـائره لا ينجر إلى خير إلا بعسـر وصـعوبة وعنف، من عتلـه- إذا قـاده بغلظـة، فهو في غـايـة مـا يكون من يبس الطبـاع وعدم الطواعية في الخير والانطباع، قال الرازي: وسئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسـلم- أي عن العتل- فقال: «هو الشـديد الخلق الرحيب الجوف الأكول الشروب الظلوم» ونبه سبحانه على ثباته في تلك المخازي الموجب لاسـتغراق أوقاته وأحواله بها بنزع الخافض فقال: {بعد ذلك} الخلق الجدير بتكلف الإبعاد عنه الذي تجمع من هذه الأوصـاف التي بلغت نهاية القباحة حتى صارت كأنها خلق واحد ثابت راسخ لا حيلة له في مداواته، وعلى ذلك نبه قوله: {زنيم *} أي صـارت له علامة سوء وشـر وثناء قبيح ولأمة بينة ومعرفة يعرف بها كما تعرف الشـاة بزنمتها . وهي الجلدة التي تكون تحت حلقها مدلاة تنوس، والعبد بمعايبه وسفساف أخلاقه، وقيل: هو الذي يتشبه بقوم وليس منهم في شيء، ولا يخلو التعبير به من إشارة إلى أنه دعي ليس ثابت النسـب إلى من ينتسـب إليه، ليكون منقطعاً عن كل خير وإن كان ينسب إلى آباء كرام، أخذاً من زنمة البعير، وهي جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة، ولا يفعل ذلك إلا بكرام الإبل، وهذه الأفعال كلها تنافي الشـجاعة المقتضية لإحسان صاحبها إلى كل أحد وأن لا يحسب له حساباً ولا يوصل إليه أذى إلا بعد ظهور شـره فيعامله حينئذ بحسـب العدل بما لا يرزئ بالمروءة والمشـار إليه بهذا مع إرادة العموم قيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شـريق، وقيل: الأسـود بن عبد يغوث، وقال ابن قتيبة: لا نعلم

أن الله تعالى وصـــف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة.

ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضاً فانياً وظلاً متقلصاً زائلاً، لا يفتخر به بل ولا يلتفت إليه إلا من كان بهذه الأوصـــاف، فإذا كان أكبر همه ومبلغ علمه أثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال: {أن} أي لأجل أن {كان} هذا الموصوف {ذا مال} أي مذكور بالكثرة {وبنين *} أنعمنا عليه بهما فصـار يطاع لأجلهما، فكان بحيث يجب عليه شـكرنا بسـببهما {إذا تتلى} أي تذكر على سـبيل المتابعة {عليه} ولو كان ذلك على سـبيل الخصـــوص له {آياتنا} أي العلامات الدالة دلالة في غاية الظهور على الملك الأعلى وعلى ما له من صفات العظمة {قال} أي فاجأ هذا القول من غير تأمل ولا توقف عوضـاً عن الشـكر، ف «إن» مع جاره متعلق بما دل عليه الكلام نحو كذب لأجل كونه متمكناً، ولا يتعلق بقال لأنه جزاء الشرط، ويجوز أن يتعلق بلا تطع أي لا توجد طـاعتـه لأجل إن كـان كذا، وقرئ بالكسر على أنها شرطية، فيكون النهي عن طاعته لعلة الغنى مفهماً للنهي عن طاعته عند الوصـــف بغيره من باب الأولى كالتعليل بإملاق في الوأد: {أساطير} جمع سطور جمع سطر {الأولين *} أي أشياء سطروها ودونوها، وفرغوا منها فحمله دنيء طبعه على تكبره بالمال فورطه في التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من يسمعه، فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر، فكان هذا دليلاً على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالإسناد إلى ما هو عند العاقل

أوهم وأوهى من بيت العنكبوت، والاســتناد إليه وحده كاف في الاتصـــاف بالرســـوخ في الدناءة، ولا يعمل في «أن قال» بل ما دل عليه لأن ما في حيز الشرط لا يعمل فيما قبله.

ولما كان هذا المكذور قد أغرق في الشــر فتوقع الســامع جزاءه، قال معلماً أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة: {سنسمه} أي نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره، تقول العرب: وسمه ميسم سوء.

ولما كان الوســم منكئاً، وكان جعله في موضــع لا يســتر أنكأ، وكان الوجه أشـــرف ما في الإنســـان، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشــتقوا منه الأنفة قال: {على الخرطوم *} أي الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين وســماً مســتعلياً عليه بوضـــوح جداً ليكون هتكة بين الناس وفضيحة لقومه وذلاً وعاراً، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشـــنيع والذنب القبيح من الكفر وما معه، وســـيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشـــنع من هذا على أنه قد حقق في الدنيا هذا الخطم حســاً بأنه ضرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه- قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والتعبير عن الأنف بهذا للاستهانة والاستخفاف.

ولما ذكر في أول الملك أنه خلق الموت والحياة للابتلاء في الأعمال، وختم هنـا بعيـب من يغتر بـالمـال والبنين وهو يعلم أن الموت وراءه، أعـاد ذكر الابتلاء وأكده لأن أعمالهم مع العلم بأنه عرض زائل أعمال من ظن الملك الثابت والتصـــرف التام، فقال: {إن بلوناهم} أي عاملنا- على ما لنا من

العظمة- الذين نسـمهم على الخراطيم من قريش وسـائر عبادنا بما وسـعنا عليهم بـه معاملـة المختبر مع علمنـا بـالظـاهر والبـاطن، فغرهم ذلك وظنوا أنهم أحباب، ومن قترنا عليه من أوليائنا أعداء، فاسـتهانوا بهم، ونسـبوهم لأجل تقللهم في الدنيا إلى السـفه والجنون والضـلال والفتون، فيوشـك أن نأخذهم بغتة كما فعلنا بأصـحاب الجنة، فكل من رأى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقد ابتلى به، فإن آمن كان ممن أحسـن عملاً، وإلا كان ممن أساء.

ولما لم تعرف عامة أهل مكة نعمة الله عليهم به صـلى الله عليه وسـلم، أخرجه الله عنهم وأكرمه بأنصار جعله أكرم الكرامات لهم، وكل من سمع به ولم يؤمن فهو كذلك، تكون أعماله كهذه الجنة يظنها شـيئاً فتخونه أحوج ما يكون إليها، أو كان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذي دعا عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى أكلوا الجيف فما تابوا كما تاب {كما بلونا} أي اختبرنا بأن عاملنا معاملـة المختبر مع علمنـا بـالظـاهر والبـاطن، وحاصـله أنـه استخرج ما في البواطن ليعلمه العباد في عالم الشهادة كما يعلمه الخالق في عالم الغيب، أو أنه كناية عن الجزاء {أصـحاب الجنة} عرفها لأنها كانت شـهيرة عندهم وهي بسـتان عظيم كان دون صـنعاء بفرسـخين، يقال له الضـروان، يطؤه أهل الطريق، كان صـاحبه ينادي الفقراء وقت الصـرام، ويترك لهم ما أخطأ المنجل أو ألقته الريح أو بعد عن البسـاط الذي يبسـط تحت النخلة، فلما مات شـح بنوه بذلك فحلفوا على أن يجذوها قبل الشـمس حتى لا يأتي الفقراء إلا بعد فراغهم، وذلك معنى قوله تعالى: {إذ} أي حين

{أقسموا} ودل على تأكيد القسم فقال: {ليصرمنها} عبر به عن الجذاذ بدلالته على القطع البائن المعزوم عليه المستأصل المانع للفقراء ليكون قطعاً من كل وجه، من الصريم- لعود يعرض على فم الجدي لئلا يرضع، ومن الصرماء: المفازة لا ماء بها، والناقة القليلة اللبن {مصبحين *} أي داخلين في أول وقت الصباح {ولا} أي والحال أنهم لا {يستثنون *} أي لا يطلبون ولا يوجدون ثنياً- أي عوداً- إلى ما قبل اليمين بقولهم «إن شاء الله» أو غير ذلك من الألفاظ الموجبة لأن يكون شيء من جنتهم مطلقاً غير ممنوع، وسمي ذلك استثناء لأنه إخراج لشيء يكون حكمه غير المذكور أولاً، وكان الأصل فيه: إلا أن يشاء الله، وألحق به إن شاء الله لرجوعه إليه في اتحاد الحكم {فطاف} أي فتسبب عن عملهم هذا الطامح أن طاف {عليها} أي جنتهم {طائف} أي عذاب مهلك محيط مع أنه أمر يسير جداً عند الله وإن كان عظيماً بالنسبة إليها لأنه لم يدع منها شيئاً، ولا يكون الطائف بهذا المعنى إلا بالليل، كذا قيل، ويرده

{إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا} [الأعراف: 201].

ولما كان هذا مقتاً في الصورة أخبر بأنه لطف وتربية في المعنى بقوله: {من ربك} أي المعروف بالعظمة التي لا تحد وبالإحسان إليك فهو جدير بأن يؤدب قومك ليقبلوا منك كما أدب أصحاب الجنة بما أوجب توبتهم وهو الحقيق بتربية العباد يعقلوا عنك ويكونوا خليقين بالتجنب للدنيا والإقبال على المعالي {وهم} أي والحال أن أصحاب الجنة المقسمين {نائمون *} وقت إرسال الطائف {فأصبحت} أي فتسبب عن هذا الطائف الذي أرسله القادر

الذي لا يغفل ولا ينام على مآل من لا يزال أسـير العجز والنوم فعلاً أو قوة أن صـارت جنتهم وقت اجتنائهم لها بالغد وسـرورهم بها {كالصـريم *} أي كالأشــجار التي صــرم عنها ثمرها أو كالشــيء الذي انقطع ما بينه وبين قاصـده فلا وصـول إليه بوجه، وقيل: كالليل المظلم الأسـود، وقيل: كالرماد الأســود، ليس بها ثمرة، لأن ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شــيئاً، لأنهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق بضــد ما كان لأبيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة في جميع أحواله.

▲ تفسير الآيات رقم [21– 30]

{فَتَنَادَوْا مُصْــبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَــارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30)}

ولما كانوا لقوة عزمهم على ما أقسـموا عليه كأنهم كانوا على ميعاد، سـبب عنه قوله: {فتنادوا} أي كانوا كأنهم نادى كل منهم الآخر {مصبحين *} أي في حال أول دخولهم في الإصــباح، وفسـر التنادي بقوله: {أن اغدوا} أي بكروا جداً مقبلين ومســتولين وقادرين {على حرثكم} أي محل فائدتكم الذي أصـلحتموه وتعبتم فيه فلا يسـتحقه غيركم، فكأنهم اسـتبطؤوا قيامهم وغدوهم فكفوا عنه بقوله: {إن كنتم} أي اليوم كوناً هو لكم بغاية الرغبة {صارمين *} أي جاذين جذاذاً ليسـلم لكم من غير مشـاركة أحد لكم كما تواثقتم عليه، أو

جازمين بما عزمتم عليه، وعبر عن إسـراعهم إلى الذهاب بقوله: {فانطلقوا} أي بســـبب هذا الحث وعقبه كأنهم كانوا متهيئين {وهم} أي والحال أنهم {يتخافتون *} أي يقولون في حال انطلاقهم قولاً هو في غاية السـر كأنهم ذاهبون إلى سرقة من دار هي في غاية الحراسة، من الخفوت وهو الخمود، ثم فسـر ما يتخافتون به بقوله: {أن لا يدخلنها} وأكدوه لأنه لا يصـدق أن أحداً يصل إلى هذه الوقاحة وصلابة الوجه وأن جذاذاً يخلو من سائل.

ولما كانت العادة قاضـية بأنه لا بد أن ينسـى الإنسـان شيئاً أو يقفل باباً أو ثغرة يدخل منه وبســـببه فقير قالوا: {اليوم} أي في جميع النهار- بما دل عليه نزع الخافض- لتكروا عليه مراراً وتفتشـوا فلا تدعوا فيه ثمرة واحدة ولا موضعاً يطمع بسببه أحد في قصدكم {عليكم} أي وأنتم بها {مسكين *} وهو نهي للمسكين في اللفظ للمبالغة في نهي أنفسـهم أن لا يدعوه يدخل عليهم، فقال لهم أوسطهم سناً وخيرهم نفساً وأعدلهم طبعاً بما دل عليه ما يأتي: لا تقولوا هكذا واصنعوا من الإحسان ما كان يصنع أبوكم، وكأنه طواه سبحانه لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شـــيئاً، وأكد كون انطلاقهم حال الإصـباح بقوله: {وغدوا} أي سـاروا إليها غدوة {على حرد} لا غيره وهو القصـد وشـدة الغضـب مع الجزم بالأمر واللجاج فيه والسـرعة والنكد بالمنع وقلة الخير، من حاردت السـنة أي لم يكن فيها مطر، والإبل: منعت درها، وحرد- إذا أسـرع {قادرين *} عند أنفسـهم وفي زعمهم بدليل عدم استثنائهم فإن الجزم على الفعل في المستقبل فضـلاً عن أن يكون مع الخلف فعل من لا كفؤ له، ودل على قربها من منزلهم بالفاء فقال: {فلما رأوها} أي بعد سير

يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر {قالوا} لأنها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة من حال ما كانت عليه عند تباعدهم وتغيير نياتهم فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها، وأكدوا لأن ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم بها وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها فقالوا: {إنا لضالون *} أي عن طريق جنتنا لأن هذه لا تشبهها بوجه فيما كان فيه بالأمس من النضارة وشدة الحمل وحسن الهيئة.

ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال: {بل نحن محرومون *} أي ثابت حرماننا مما كان فيها من الخير الذي لا نغيب عنها إلا سواد الليل فحرمنا الله إياها بما عزمنا عليه من حرمان المساكين لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وما كان القرع بالمصائب مظنة الرقة والتوبة لمن أريد به الخير، وزيادة الكفر لغيره، استأنف قوله: {قال أوسطهم} أي رأياً وعقلاً وسناً ورئاسة وفضلاً، منكراً عليهم: {ألم أقل لكم} أن ما فعلتموه لا ينبغي، وأن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد.

ولما كان منع الخير ولا سيما في مثل هذا مستلزماً لظن النقص في الله تعالى إما بأنه سبحانه لا يخلف ما حصل التصدق به وإما أنه لا يقدر على إهلاك ما شح الإنسان به، قال مستأنفاً: {لولا} أي هلا ولم لا {تسبحون *} أي توقعون التنزيه لله سبحانه وتعالى عما أوهمه فعلكم، وأقل التسبيح الاستثناء عند الإقسام شكاً في قدرة الإنسان وإثباتاً لقدرة الملك الديان استحضاراً لعظمته سبحانه وتعالى، ودل سياق الكلام على أنهم كانوا

متهيئين للتوبة بقوله: {قالوا} من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم فقال سبحانه حاكياً عن قولهم: {سبحان ربنا} أي تنزه المحسن إلينا التنزيه الأعظم عن أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم، وأكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وخضوعاً لربهم وتحقيقاً لتوبتهم لأن ما كانوا عليه من الحال يقتضي أن لا يصدق رجوعهم عنه بقولهم: {إنا كنا} أي بما في جبلاتنا من الفساد {ظالمين *} أي راسخين في إيقاعنا الأشياء في غير مواقعها حيث لم نعزم عزماً جازماً على ما كان يفعل أبونا من البر، ثم حيث حلفنا على ترك ذلك ثم حيث لم نرد الأمر إلى الله بالاستثناء حيث حلفنا فإن الاستثناء تنزيه الله عن أن يجري في ملكه ما لا يريد، وأكد توبتهم بقوله مسبباً عن اعترافهم بالظلم: {فأقبل بعضهم} أي في حال مبادرتهم إلى الخضوع {على بعض} ودلت التسوية بين فريقيهم في اللفظ على الاستواء في التوبة {يتلاومون *} أي يفعل كل منهم مع الآخر في اللوم على ما قصده من المنع وترك ما تركوه من الإعطاء والدفع ما يفعله الآخر معه، وينسب النقصان إليه كما هو دأب المغلوبين العجزة.

▲ تفسير الآيات رقم [31- 38]

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38)}

ولما تشوف السامع إلى معرفة بعض ذلك قال: {قالوا} منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته عن كل شيء: {يا ويلنا} أي هذا وقت حضورك أيها الويل إيانا ومنادتك لنا فإنه لا نديم لنا إلا أنت، والويل هو الهلاك والإشراف عليه.

ولما كان أهل الرذالة ينكرون أن يكون من يمنع الفقراء طاغياً، أكدوا قولهم: {إنا كنا} أي جبلة وطبعاً {طاغين *} أي مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع الفقراء وعلى جذها في الصباح من غير استثناء فعل القادر، وكان ذلك إن كان لا بد لنا منه ممكناً بغير قسم ولا إخفاء من الغير ولا مخافتة حال السير بأن يقال للفقراء: يفتح الله، ونحو ذلك من الكلام.

ولما قدموا ما هو أنفع لهم من اللوم المتقضي لإجماعهم على التوبة فعلم بذلك الندم الذي هو أمارة التوبة، استأنفوا جواباً لمن سأل: هل اقتصروا على التلاوم؟ قولهم: {عسى} أي يمكن أن يكون وهو جدير وخليق بأن يكون {ربنا} أي الذي أحسن إلينا بتربية هذه الجنة وبإهلاك ثمرها الآن تأديباً لنا {أن يبدلنا} أي من جنتنا شيئاً {خيراً منها} يقيم لنا أمر معاشنا فتنقلب أحوالنا هذه التي نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة بما أفاده إيقاع الفعل على ضميرهم، وقراءة أبي عمرو ونافع بالتشديد وقراءة الباقين بالتخفيف وهما متقاربتان غير أن التشديد يدل على التدريج، فالتخفيف أبلغ معنى: وإنما تعلق رجاؤنا بسبب توبتنا وعلمنا بأن ربنا قادر على ما يريد، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولما دل هذا الدعاء على إقبالهم على الله وحده صـــرحوا وأكدوا لأن حالهم الأول كان حال من ينكر منه مثل ذلك فقالوا معللين: {إنا} ولما كان المقام للتوبة والرجوع عن الحوبة، عبروا بأداة الانتهاء إشــــارة إلى بعدهم عن الحضرات الربانية تأدباً منهم فقالوا: {إلى ربنا} أي المحسن إلينا والمربي لنا بالإيجاد ثم الإبقاء خاصة لا إلى غيره سبحانه {راغبون *} أي ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والإكرام بعد العفو، وقد قيل إن الله تعالى جلت قدرته قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان بحيث كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل- رواه البغوي عن ابن مسعود، ولكن لما كان المقام لترهيب من ركن إلى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله ولم يجلهم بجلاله طواه، وذكر ما صـــور هذا الكلام وأنتجه من مســـاواة حال قريش وحال هؤلاء في الإحســـان وطول الحلم مع احتقار أوليائه والتقوى عليهم بأفضـــاله ونعمائه، فقال مرهباً: {كذلك} أي مثل هذا الذي بلونا به أصـحاب الجنة من إهلاك ما كانوا عند أنفسـهم في غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان منهم لفعلهم والاستصواب وهددنا به أهل مكة فلم يبادروا إلى المتاب: {العذاب} الذي تحذرهم منه وتخوفهم به في الدنيا، فإذا تم الأجل الذي قدرناه له أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لأنه لا يعجل إلا ناقص يخاف الفوت.

ولما كانوا منكرين لأمور الآخرة أشـــد من إنكارهم لأمور الدنيا أكد قوله: {ولعذاب الآخرة} أي الذي يكون فيها للعصـاة والجبارين {أكبر} أي في كل ما يتوهمونه.

ولما كان هذا موجباً لمن له أدنى شـعور للهروب منه قال: {لو كانوا} أي الكفار {يعلمون *} أي لو كان لهم علم بشـيء من غرائزهم في وقت من الأوقات لرجعوا عما هم فيه مما عرفوا أنه يغضب الله فيكون سبب العذاب في الدارين، وهم مع ذلك مما يرزئ بهم عند الله وعند الناس من تلك الآثار الخبيثة التي منها الأيمان الكاذبة، ويدل على عدم شـجاعتهم وقلة عقولهم، لكنهم ليس لهم نوع علم الآن، والمختوم بموته على الكفر لا يتجدد له نوع علم، وغيره سيرجع في الوقت الذي قدره الله له.

ولما ذكر ما لأهل الجمود الذين لا يجوزون الممكنات، ذكر أضـدادهم فقال مؤكداً لأجل إنكارهم: {إن للمتقين} أي العريقين في صفة التقوى خاصة دون غيرهم ممن لا يتقي، والتقوى: الاحتراز بالوقاء الحامل عليه الخوف من المؤذي، الحامل عليه تجويز الممكنات، قال الملوي: وأصـلها أن الفرس الواقي- وهو الموجوع الحافي- لا يضـع حافره حتى يرى هل الموضـع لين يناسب، وكذا المتقي لا يتحرك ولا يسكن إلا على بصيرة من رضا الله بذلك، فلا يفعل أحد منهم شـيئاً من تلك الآثار الخبيثة التي تقدمت للمكذبين، فحازوا الكمال بصـلاح القوة العملية الناشـئ عن صـلاح القوة العلمية، وزاد في الترغيب إشـارة إلى جنة القلب وبسـط الروح بقوله: {عند ربهم} أي المحسـن إليهم في موضـع ندم أولئك وخيبة آمالهم، فإن تقريبهم دل على رضاه سبحانه، ورضا صاحب الدار مطلوب قبل نظر الدار، ولما أشار إلى جنة القلب أتبعها جنة القالب فقال تعالى: {جنات} جمع جنة وهي لغة البسـتان الجامع، وفي عرف الشـرع مكان اجتمع فيه جميع السـرور وانتفى

منه جميع الشرور {النعيم *} وهو الخالص من المكدر والمشوش والمنغص، لا شيء فيها غيره أصلاً- بما أفادته الإضافة.

ولما كان عدم إيراث كل من الفريقين الدار التي تقدم وصــــفها تســـوية بين المحســن والمســيء، وكان ذلك لا يليق بحكيم أن يفعله، وجب إنكاره لتحقق أن ما أخبر به سبحانه لا يكون إلا كذلك لا سيما وقد كان الكفار يقولون: إنهم كالمسلمين أو أحسن حالاً منهم، وذلك أنه إن كان لا بعث، كما كانوا يظنون، فقد استووا فيما بعده مع ما فضلوهم به في الدنيا من اتباع الأهواء والظفر باللذائذ، وإن كان ثم بعث فقد كانوا يقولون لشـــبهة دعتهم إليها شــهوتهم: أما نكون على تقديره أحســن حالاً منكم وآثر عند الله في حســن العيش كما نحن في هذه الدار لأنه ما بسط لنا في هذه الدار إلا ونحن عنده أفضـــــل منكم، فقال تعالى منكراً ومكذباً لذلك غاية إنكار والتكذيب عائباً التحكم بالجهل غاية العيب نافياً للمســـاواة ليكون انتقاماً هو أعلى من باب الأولى مسبباً عما تقديره: ولا يكون لغير المتقين ذلك: {أفنجعل المسلمين} أي الذين هم عريقون في الانقياد لأوامرنا والصـــلة لما أمرنا بوصـــله طلباً لمرضـــاتنا فلا اختيار لهم معنا في نفس ولا غيرها لحســـن جبلاتهم {كالمجرمين *} أي الراسخين في قطع ما أمرنا به أن يوصل وأنتم لا تقرون مثل ذلك، بل من عاندكم نوع معاندة قاطعتموه ولو وصل الأمر إلى القتل.

ولما كشف هذا الدليل الشبه ورفع الستار، فأوصل إلى أعظم من ضوء النهار، لفت القول إليهم بالخطاب لفت المغضـــب عند العتاب، فقال معجباً منهم منبهاً على ما هم فيه من اعوجاج الفطر وفســـاد الفكر منكراً عليهم

غاية الإنكار: {ما لكم} أي أيّ شـيء يحصـل لكم من هذه الأحكام الجائرة البعيدة عن الصواب.

ولما نبههم على أنه ليس لهم في مثل هذه الأحكام شـــيء يمكن أن يكون نافعاً، وكان العاقل إذا علم أن شـيئاً من الأشـياء لا نفع فيه بعد منه، أنكر عليهم ثالثاً حال أحكامهم هذه لأن نفي أحوالها أشـــد لنفيها كما تقدم في {كيف تكفرون} في [البقرة: 28] فقال: {كيف تحكمون *} أي أيّ عقل دعاكم إلى هذا الحكم الذي يتضـمن التسـوية من السـيد بين المحسـن من عبيده والمسيء.

ولما كان الحكم لا يمكن وجوده إلا مكيفاً بكيفية، وكان سـبحانه وتعالى قد نفى حكمهم هذا بإنكار جميع كيفياته التي يمكن أن يصـــح معها، وكان الحكم الصحيح لا بد وأن يكون مستنداً إلى عقل أو نقل، زاد بطلان حكمهم وضـوحاً بنفي الأمرين معاً، فقال عاطفاً على ما تقديره: ألكم دليل من العقل إليه تلجؤون: {أم لكم كتاب} أي سماوي معروف أنه من عند الله خاص بكم {فيه} أي لا في غيره من أساطير الأولين وزبر الممحوقين {تدرسون *} أي تقرؤون قراءة أتقنتم مخالطتها أو أنعمتم فهمه بسببها.

ولما ذكر الدرس ذكر المدروس فقال تعالى: {إن لكم} أي خاصـة على وجه التأكيد الذي لا رخصـــة في تركه {فيه} أي الكتاب لتكونوا في غاية الوثوق به، لا في غيره مما لا وثوق لكم به {لما تخيرون *} أي تبالغون في انتقائه وأخذ خياره، وكســـر الهمزة وكان حقها الفتح لولا اللام لأن ما بعدها هو المدروس، ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية.

▲ تفسير الآيات رقم [39- 43]

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43)}

ولما نفى دليل العقل والنقل مع التعجب منهم والتهكم بهم، وكان قد بقي أن الإنسان ربما عاهد غيره على شيء فيلزمه الوفاء به وإن كان خارجاً عما يدعو إليه العقل والنقل، نفى ذلك بقوله: {أم لكم أيمان} أي غليظة جداً {علينا} قد حملتمونا إياها {بالغة} أي لأجل عظمها إلى نهاية رتب التأكيد بحيث يكون بلوغ غيرها ما يقصد بالنسبة إلى بلوغها ذلك عدماً أي أن بلوغها هو البلوغ لا غيره، أو ثباتها منته {إلى يوم القيامة} لا يمكن الخروج عن عهدتها إلا في ذلك اليوم ليحتاج لأجلها إلى إكرامكم في الدارين.

ولما ذكر ذلك القسم بالأيمان ذكر المقسم عليه فقال: {إن لكم} أي خاصة دون المسلمين {لما تحكمون *} أي تفعلونه فعل الحاكم الذي يلزم قوله لعلو أمره على وجه التأكيد الذي لا مندوحة عنه فتحكمون لأنفسكم بما تريدون من الخير.

ولما عجب منهم وتهكم بهم، ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف وينزل بهم أشد الحتف، فقال مخوفاً لهم بالإعراض: {سلهم} أي يا أيها الرسول الذي محت دلائله بقوة أنوارها الأنوار.

ولما كان السـؤال سـبباً لحصـول العلم علقت، «سـل» على مطلوبها الثاني وكان حقه أن يعدى بعن فقال: {أيهم بذلك} أي الأمر العظيم من المعاهدة والدليل النقلي والعقلي {زعيم *} أي كفيل وضـــامن أو ســـيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل لتلزمه في ادعائه صـــحة ذلك ما تدعه به ضـــحكة للعباد، وأعجوبة للحاضـر منهم والباد، فلم يجسـر لما تعلمون من حقية هذا القرآن وما لأقوالهم كلها من العراقة في البطلان أحد منهم على شدة عداوتهم ومحبتهم للمغالبة وشـــماختهم أن يبرز لادعاء ذلك، ولما نفى أن يكون لهم منه سبحانه في تسـويتهم بالمسـلمين دليل عقلي أو نقلي أو عهد وثيق على هذا الترتيب المحكم والمنهاج الأقوم، أتبعه ما يكون من عند غيره إن كان ثم غير على ما ادعوا فقال: {أم لهم شـركاء} أي شـرعوا لهم من الدين أمراً ووعدوهم بشـيء أقاموا عليه من الأدلة ما أقمنا لنبينا صـلى الله عليه وسـلم {فليأتوا بشـركائهم} أي بأقوالهم وأفعالهم كما أتينا نحن في نصـر نبينا محمد صـــلى الله عليه وسـلم من الأمرين معاً بما لا شـــبهة فيه، وســـجل عليهم بالكتاب ملهباً مهيجاً بما يحرق به أكبادهم ولا يقدرون على دفعه بوجه، فيكون ذلك أعظم دليل على إبطالهم: فقال: {إن كانوا} أي جبلة وطبعاً {صـــادقين *} أي عريقين في هذا الوصـــف كما يدعونه، ولما نفى جميع شـــبههم التي يمكن أن يتشـــبثوا بها مع البيان لقدرته على ما يريد من تفتيق الأدلة وتشـــقيق البراهين الدال على تمام العلم اللازم منه كمال القدرة فأوصلهم من وضوح الأمر إلى حد لم يبق معه إلا العناد، أتبع ذلك تهديدهم بما يثبت ذلك قدرته عليه من يوم الفصل ومعاملتهم فيه بالعدل فقال: {يوم}

يجوز أن يكون بياناً ليوم القيامة، وبنى لإضافته إلى الجملة وأن يكون ظرفاً ليأتوا، أو منصوباً بما أخذ من معنى الكلام من نحو: سيعلمون ما يلقون من غب هذه المعاملات وإن نالوا في هذه الدار جميع اللذات في جميع اليوم الذي {يكشف} أي يحصل الكشف فيه، وبني للمفعول لأن المخيف وقوع الكشف الذي هو كناية عن تفاقم الأمور وخروجها عن حد الطوق، لا كونه من معين، مع أن من المعلوم أنه لا فاعل هناك غيره سبحانه {عن ساق} أي يشتد فيه الأمر غاية الاشتداد لأن من اشتد عليه الأمر وجد في فصله شمر عن ساقه لأجله وشمرت حرمه عن سوقهن غير محتشمات هرباً، فهو كناية عن هذا ولذلك نكره تهويلاً له وتعظيماً، نقل هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير رضي الله عنه وغيرهما، وعن انكشاف جميع الحقائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الأهوال وغيرها كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه وتركت السامع لها في مثل ضوء النهار، وفي الجزء الخامس والثلاثين من مسند أبي يعلى الموصلي عن أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه تعالى عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا قال:

»عن نور عظيم يخرون له سجداً» وهو لا ينافي ما ذكر من التأويلين: الشدة والكشف. ولما كان هذا الكشف الذي كشف لهم المعاني في هذا القرآن إنما هو لأجل العبادة التي هي الخضوع الذي يعبر عنه بالسجود وهو آيتها وأمارة ما اشتمل عليه الباطن منها وعلامتها فيأتونها وهم قادرون عليها ذكرهم يوماً يريدونها فيه فلا يتأتى لهم تنديماً لهم وزيادة تحسير

وإظهار تظليل وتخسير لأن ظهورهم وأعضاءهم تكون طبقاً واحداً لا تنثني، فكلما أرادوا أن يســـجدوا انقلبوا على أقفائهم، فقال بانياً للمفعول دلالة على إرادتهم للانقياد ورغبتهم فيه من أي داع كان، وهو دال على أن التكليف لا ينقطع إلا بدخول كل من الفريقين داره و{يدعون} أي من داعي الملك الديان {إلى الســـجود} توبيخاً على تركه الآن وتنديماً وتعنيفاً لا تعبداً وتكليفاً فيريدونه ليضروا أنفسهم مما يرون من المخاوف {فلا} أي فيتسبب عن ذلك أنهم لا {يستطيعون *} أي لأنهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لأنفسهم على أن تطوع لهم أعضاؤهم بما تفهمه هذه الصيغة من أن الإنسان منهم إذا أراد الفعل وعالجة بقوة فلم يطقه فإن ظهورهم تكون على حالة لا تنثني معها بل كان فيها السفافيد فيكون لهم في ذلك أشد ندم لتركهم إياه في الدنيا وهم يقدرون عليه وهو إذ ذاك نافع لهم ومعالجتهم فعله أشـــد معالجة وهم غير قادرين عليه وهو غير نافع لهم وإذا عجزوا مع المعالجة كانوا بدونها أعجز، وذلك أنه يبعث المرء على ما مات عليه ويحشر على ما بعث عليه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر، ولما كان ربما ظن ظان أن المانع لهم الكبر كما في هذه الدنيا، قال مبيناً لنفي الكبر في مثل هذا اليوم العظيم {خاشعة} أي مخبتة متواضعة {أبصارهم} لأن ما في القلب يعرف في العين، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوســـهم ووجوههم أضـــوأ من الشمس، ووجوه الكافرين والمنافقين سود مظلمة.

ولما كان الخاشـــع لذلك قد يكون خشـــوعه لخير عنده حمله على ذلك مع العز قال: {ترهقهم} أي تغشـاهم وتقهرهم {ذلة} أي عظيمة لأنهم استعملوا

الأعضـــاء التي أعطاهموها ســبحانه وتعالى ليتقربوا بها إليه في دار العمل في التمتع بما يبعد منه.

ولما دلت هذه العبارة مطابقة لما ورد في الحديث الصحيح على أن من كان في قلبه مرض في الدنيا يصير ظهره طبقاً واحداً فقارة واحدة فيعالج السجود فيصير كلما أراده انقلب لقفاه، عجب منهم في ملازمة الظلم الذي هو إيقاع الشـــــيء في غير موقعه فقال : {وقد} أي والحال أنهم {كانوا} أي دائماً بالخطاب الثابت {يدعون} في الدنيا من كل داع يدعو إلينا {إلى الســجود وهم} أي فيأبونه والحال أنهم {ســالمون *} أي فهم مســتطيعون، ليس في أعضـــائهم ما يمنع من ذلك، وإنما يمنعهم منه الشــماخة والكبر، فالآية من الاحتباك: ذكر عدم الاستطاعة أولاً دال على حذف الاستطاعة ثانياً، وذكر السلامة ثانياً دال على حذف عدم السلامة أولاً.

▲ تفسير الآيات رقم [44- 48]

{فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَــنَسْــتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْــبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَــاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)}

ولما علم بهذا أنه سبحانه المتصـرف وحده بما يشــاء كيف يشــاء من المنع والتمكين، وكان النبي صـلى الله عليه وسـلم يجد من تكذيبهم له– مع إتيانه بما لا يحتمل التكذيب بوجه– من المشــقة ما لا يعلم مقداره إلا الله ســبحانه

وتعالى، وكان علم المغموم بأن له منقذاً يخفف عنه، وكان علمه باقتداره على ما يراد منه أقر لعينه سـبب عن كمال اقتداره قوله مخففاً عنه عليه أفضل الصلاة والسلام، لافتاً القول إلى التكلم بالإفراد تنصيصاً على المراد زيادة في تسكين القلب وشرح الصدر: {فذرني} أي اتركني على أي حالة اتفقت {ومن يكذب} أي يوقع التكذيب لمن يتلو ما جددت إنزاله من كلامي القديم على أي حالة كان إيقاعه، وأفرد الضمير نصاً على تهديد كل واحد من المكذبين: {بهذا الحديث} أي بسببه أي خل بيني وبينهم وكل أمرهم إليَّ ولا تكترث بشـيء منه أصـلاً فإني أكفيكهم لأنه لا مانع منهم فلا تهتم بهم أصلاً.

ولما كان كأنه قيل: وماذا تعمل فيه إذا خليت بينك وبينه؟ أجابه بقوله جامعاً الضمير ليكون الواحد مهدداً من باب الأولى: {سـنسـتدرجهم} أي فنأخذهم بعظمتنا عما قليل على غرة بوعد لا خلف فيه وندنيهم إلى الهلاك درجة درجة بواسطة من شئنا من جنودنا وبغير واسطة بما نواتر عليهم من النعم التي توجب عليهم الشـكر فيجعلونها سـبباً لزيادة الكفر فنوجب لهم النقم. ولما كان أخذ الإنسان من مأمنه على حالة غفلة بتوريطه في أسباب الهلاك لا يحس بالهلاك إلا وهو لا يقدر على التفصـي فيها بوجه قال تعالى: {من حيث} أي من جهات {لا يعلمون *} أي لا يتجدد لهم علم ما في وقت من الأوقات بغوائلها، وذلك أنه سبحانه يغرهم بالإمهال ولا يعاجلهم بالعقاب في وقت المخالفة كما يتفق لمن يراد به الخير فيسـتيقظ بل يمهلهم ويمدهم بالنعم حتى يزول عنهم خاطر التذكر فيكونوا منعمين في الظاهر

مســتدرجين في الحقيقة فيقولون: قد قلتم: إن القدر فائض عن القضــاء وأن الأعمال قضــاء وجزاءها قدر، ويقولون: إن أفعالنا في الدنيا قبيبحة ونحن لا نرى جزاءها إلا ما يســــرنا لولا يعذبنا الله بما نقول فأنتم كاذبون في توعدنا فإنا كلما أحدثنا ما تسـمونه معصـية تجددت لنا نعمة، وذلك كما قادهم إلى تدريجهم وهم في غاية الرغبة، قال القشـيري: والاســتدراج أن يريد الســيئ ويطوي عن صاحبه وجه القصد حتى يأخذه بغتة فيدرج إليه شيئاً بعد شيء.
ولما كان الاستدراج يكون بأسباب كثيرة من بسط النعم وغيرها، فأبرزه بالنون المشـتركة بين الاسـتتباع والعظمة، وكان تأخير الأجل لا يكون إلا لله وحده بغير واسـطة شــيء قال سـبحانه: {وأملي} أي أوخر أنا وحدي في آجالهم وأوسع لهم في جميع تمتعهم ليزدادوا إثماً {لهم} لأنه لا يقدر على مد الأجل وترفيه العيش غيري.
ولما ســلاه صـلى الله عليه وسـلم بهذا غاية التسـلية، علل أو اسـتأنف في جواب من لعله يقول: لم يكون أحدهم على هذا الوجه؟ مسـمياً إنعامه كيداً: {إن كيدي} أي ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه وإبدائي ذلك له في ملابس الإحسان وخلع البر والامتنان {متين *} أي في غاية القوة حيث كان حاملاً للإنسان على إهلاك نفسه باختياره وسيعلم عند الأخذ أني لما أمهلته ما أهملته وأن إمهالي إنما كان استدراجاً.
ولما كان هذا القرآن أعظم إحسـان، سـاقه سـبحانه وتعالى إليهم فكان موجباً للشكر عليهم للذي أنزله ولإكرام الآتي به، فكان سبباً لمباشرتهم من التكذيب به والأذى للآتي به إليهم ما يوجب أخذهم، قال دالاً على متانة كيده سبحانه

ودقة اســـــتدراجه عاطفاً على ما تقديره لبيان أنهم يباشــــرون ما يهلكهم باختيارهم من غير موجب: أكان تكذيبهم هذا الذكر لشيء فيه يرتابون؟ قوله منكراً عليهم، مبيناً أن تكذيبهم إنما هو لأنه طبع وخبث سجية لا شـهوة لهم فيه ولا شـبهة: {أم تسـئلهم} أنت يا أعف الخلق وأعلاهم همماً {أجراً} على إبلاغك إياهم {فهم} أي فتسـبب عن ذلك وتعقب أنهم {من مغرم} كلفتهم به فهم لشـــــدته {مثقلون *} أي واقع إثقالهم به حتى أوجب لهم ذلك الغرم الناقص لأموالهم التقاعد عن التصديق بما جئت به إليهم من عندنا فصاروا يشتهون إقلاعك عنه.

ولما نفى أن يكون تكذيبهم بشهوة دعتهم إلى ذلك نفى أن يكون لهم في ذلك شــبهة من شــك في الذكر أو حيف في المذكر وأن يكونوا على ثقة أو ظن من سلامة العاقبة فقال: {أم عندهم} أي خاصة {الغيب} أي علموه من اللوح المحفوظ أو غيره {فهم} بسـبب ذلك {يكتبون *} أي ما يريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله أو على أنهم لا درك عليهم في التكذيب به، فقد علم بهذا أنه لا شـــهوة لهم في ذلك عادية ولا شـــبهة، وإنما تكذيبهم مجرد خبث طباع، وظلمة نفوس وأمالي فارغة وأطماع.

ولما انتفى جميع ذلك فثبت أنهم على خطر عظيم، وأنه ســبحانه المختص بعلم الغيب، وقد أخبر بإهلاكهم من أجله صـــلى الله عليه وســـلم، وأن كفر من كفر وإيمان من آمن بقضـائه وتقديره، فكان لا بد منهما، كان ذلك سـبباً حاملاً له على الصـبر إلى الوقت الذي ضـربه سـبحانه للفرج، فقال مسـبباً عما تقديره: لم يكن له شـيء مما ذكر، وإنما هو القضـاء والقدر: {فاصـبر}

أي أوفر الصبر وأوجده على كل ما يقولون فيك وعلى غير ذلك من كل ما يقع منهم ومن غيره من مر القضاء والقدر {لحكم ربك} أي للقضاء الذي قضاه وقدره المحسن إليك الذي أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذلهم بالتكذيب ومد لهم على ذلك في الآجال وأوسع عليهم النعم وأخر ما وعدك به من النصر.

ولما كان حاصل قصة يونس- على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام- أنه استثقل الكرامة بالرسالة لما فيها من الأمور الشديدة من معالجة الخلق فامتحن، كان سبباً لقبوله ذلك، ثم كان سبب إسلام قومه إدناء العذاب منهم وتقريب غشيانه لهم، أشار له بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه- صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء- وإعلاء أمته على سائر الأمم بما يحتاج إلى صبر على ما يستثقل من ضر أو أمر شديد مر فقال: {ولا تكن} أي ولا يكن حالك في الضجر والعجلة إلى غير ذلك. ولما كان قد افتتح السورة بالنون الذي من مدلولاته الحوت، عبر به هنا تحقيقاً لإرادته فقال: {كصاحب} أي كحال صاحب {الحوت} وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام {إذ} أي حين، والعامل في هذا الظرف المضاف المحذوف من الحال ونحوها، أو يكون التقدير: لا يكن حالك كحاله يحصل لك مثل ما حصل له حين {نادى} أي ربه المربي له بإحسانه في الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة لحج البحار {وهو} أي والحال أنه عند ندائه {مكظوم *} أي مملوء كرباً وهماً وشدة وغماً محمول على السكوت ببطنه فهو لا ينطق من شدة حزنه، ومحبوس عن جميع ما يريد

من التصـرف إلى أن ألجأه سـبحانه بذلك إلى الدعاء والتضـرع، من الكظم، وهو الســـكوت عن امتلاء وتجرع للمرارات، ومن هذا كظمت الســـقاء أي شـــددته وملأته فكان مكظوماً، والمكظوم : المكروب- كأنه قد أخذ بكظمه وهو مخرج نفسه.

▲ تفسير الآيات رقم [49- 52]

{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّـــالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـــارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)}

ولما تشـوف السـامع إلى ما كان من أمره بعد هذا الأمر العجيب قال: {لولا أن} وعظم الإحســـان بالتذكير وصـــيغة التفاعل فقال : {تداركه} أي أدركه إدراكاً عظيماً كان كلاًّ من النعمة والمنة يريد أن تدرك الآخر {نعمة} أي عظيمة جداً {من ربه} أي الذي أرسله وأحسن إليه بإرساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة له {لنبذ} أي لولا هذه الحالة السنية التي أنعم الله عليه بها لطرح طرحاً هيناً جداً {بالعراء} أي الأرض القفر التي لا بناء فيها ولا نبات، البعيدة من الإنس حين طرح فيها كما حكم بذلك من الأزل {وهو} أي والحال أنه {مذموم *} أي ملوم على الذنب، ولما كان التقدير: ولكنه تداركه بالنعمة فلم يكن في نبذه ملوماً، سبب عنه قوله: {فاجتباه} أي اختاره لرسالته {ربه} ثم سبب عن اجتبائه قوله: {فجعله من الصالحين *} أي الذين رسخوا في رتبة الصلاح فصلحوا في أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم، فنبذ

بالعراء وهو محمود، ومن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجراً من أجره، وأنت كذلك فأنت أشرف العاملين والعالمين.

ولما نهاه صلى الله عليه وسلم عن طاعة المكذبين وحذره إدهانهم وضرب لهم الأمثال، وتوعدهم إلى أن قال: {ذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم} وختم بقصة يونس عليه السلام للتدريب على الصبر وعدم الضعف ولو بالصغو إلى المدهن، فكان التقدير تسبيباً عما فيها من النهي: فإنهم إنما يبالغون في أذاك لتضجر فتترك ما أنت فيه، قال عاطفاً على هذا المقدر مخبراً له بما في صدورهم من الإحن عليه وفي قلوبهم من الضغائن له ليشتد حذره من إدهانهم، مؤكداً لأن من يرى إدهانهم يظن إذعانهم وينكر لمبالغتهم فيه طغيانهم: {وإن} أي وإنه {يكاد} وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال: {الذين كفروا} أي ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل.

ولما كانت «ن» مخففة، أتى باللام التي هي علمها فقال: {ليزلقونك} أي من شدة عداوتهم وحسدهم وغيظ قلوبهم {بأبصارهم} أي يوجدون لك التنحية عما أنت فيه والزلل العظيم الذي صاحبه في موضع دحض لا مستمسك فيه بالهلاك فما دونه من الأذى حتى يرموك من قامتك إلى الأرض كما يزلق الإنسان فينطرح لما يتراءى في عيونهم حين تصويب النظر للفطن من الحنق والسخط الدال على أن صدورهم تغلي، وهو من قولهم: نظر إليّ نظراً كاد يصرعني، يعني لو أمكنه أن يصرعني به لصرعني كما قال تعالى {يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا} [الحج: 72] وقيل: يهلكونك

بإصابة العين، قال القشيري: كانوا إذا أرادوا أن يصيبوا شيئاً بأعينهم جاءوا ثلاثة أيام ثم نظروا إلى ذلك الشيء وقال: ما أحسنه من شيء، فيسقط المنظور إليه في الوقت، ففعلوا ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: ما أنصحه من رجل، فحفظه الله منهم، وللشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

»العين حق» وفي رواية عند أحمد وابن ماجة: «يحضر بها الشيطان وحسد ابن آدم» ولأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه: «العين حق ولو أن شيئاً سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» ولأبي نعيم في الحلية من حديث جابر رضي الله عنه رفعه: «العين حق تدخل الجمل القدر والرجل القبر» ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: «وإنها لتدرك الفارس فتدعثره».

ولما ذكر هذا الإزلاق العظيم، ذكر ظرفه معبراً بالماضي تذكيراً بالحال الماضية فقال: {لما سمعوا الذكر} أي القرآن الذي غلب عليه التذكير بأمور يعليها كل أحد من نفسه، ومن الآفاق كان هواياه أول ما سمعوه حسداً على ما أوتيت من الشرف فكان سماعهم له باعثاً لما عندهم من البغض والحسد على أنه لم يزدهم تمادي الزمان إلا حنقاً بدلالة {ويقولون} أي قولاً لا يزالون يجددونه.

ولما كان صلى الله عليه وسلم في غاية البعد عما يشين، أكدوا قولهم: {إنه لمجنون *} حيرة في أمرك وتنفيراً عنك لما يعلمون من أنه لا يسمعه أحد لا

غرض لـه إلا كذبهم ومـال بكليتـه إليك وكـان معك وارتبط بك واغتبط بما جئت به، وعن الحسن أن قراءة هذه الآية دواء للإصابة بالعين.

ولما كان معنى قولهم هذا أن ما يقوله تخاليط من يصرع بالجن، أكد بقصر القلب قوله معجباً منهم {وما} أي والحال أن هذا القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسـلم ما {هو إلا ذكر} أي موعظة وشـرف {للعالمين *} أي كلهم عاليهم ودانيهم ليس منهم أحد إلا وهو يعلم أنه لا شـيء يشـبهه في جلالة معانيه وحلاوة ألفاظه وعظمة سبكه ودقة فهمه ورقة حواشيه وجزالة نظومه، ويفهم منه على حسـب ما هيأه الله له ليناسـب عموم ذكريته عموم الرسـالة للمرسـل به، وكل ما فيه من وعد ووعيد وأحكام ومواعظ شـامل لهم كلهم، فوجبت التفرقة بين مسـلمهم ومجرمهم لتصـدق أقواله فيكمل جلاله وجماله فقد رجعت خاتمتها- كما ترى- على فاتحتها بالنون والقلم وما يسطرون من هذا الذكر، وسلب ما قالوا فيه من الجنون والإقسام على الخلق العظيم الذي هو هـذا الـذكر الحكيم، ونبـه كونـه ذكراً لجميع الخلق بمـا فيـه من الوعد والوعيد على أنـه لا بد من الحاقة وهي القيامة ليظهر فيها تأويله وإجمالـه وتفصيله، ويتضح غاية الاتضـاح سبيله، وتحق فيها حقائقه وتظهر جلائله ودقـائقـه بمـا يقع من الحسـاب، ويتبين غـايـة البيـان ويظهر الخطأ من الصواب- والله الهادي.

67 Alhaaqah Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة الحاقة

▲ تفسير الآيات رقم [1- 7]

{الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)}

لما قدم سبحانه في «نون» الإنكار الشديد لأن يسوي المسيء بالمحسن، وذكر القيامة وبينها بيوم كشف الساق وزيادة المشاق، وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج الذي لا يدفع بعلاج، وختم بأن القرآن ذكر- أي شرف- وتذكير، ومواعظ للعالمين في شمولهم كلهم برحمته، أما من بعد إنزاله فبوعيده ووعده ووعظه وقصه وأمره ونهيه، وأما من قبل إنزاله فبالشهادة لهم وعليهم، وكان تأويل ذلك وجميع آثاره إنما يظهر ظهوراً تاماً يوم الجمع الأكبر، وكان ذلك اليوم أعظم مذكر للعالمين وواعظ لهم وزاجر، تتبني

جميع الخيرات على تذكره وتذكر العرض على الملك الديان، والسـر في إنزال القرآن هو التذكير بذلك اليوم الذي هو نظام الوجود، قال واصـفاً للقيامة واليوم الذي يكشف فيه عن ساق، واعظاً بذكرها ومحذراً من أمرها: {الحاقة *} أي الساعة التي يكذب بها هؤلاء وهي أثبت الأشياء وأجلاها فلا كاذبة لها ولا لشـيء عنها، فلا بد من حقوقها فهي ثابتة في نفسـها، ومن إحضار الأمور فيها بحقائقها، والمجازاة عليها بالحق الذي لا مرية فيه لأحد من الخلق، فهي فاعلة بمعنى مفعول فيها، وهي فاعلة أيضـاً لأنها غالبة لكل خصـم، من حاققته فحققته أحقه أي غالبته في الحق فغلبته فيه، فهي تحق الحق ولا بد فتعلو الباطل فتدمغه وتزهقه فتحق العذاب للمجرمين والثواب للمسلمين، وكل ما فيها دائر على الثبات والبيان، لأن ذلك مقتضى الحكمة ولا يرضـى لأحد من الحكام ترك رعيته بغير إنصـاف بينهم على زعمه فكيف بالحكيم العليم، وقصة صاحب الحوت عليه السلام أدل دليل على القدرة عليها.

ولما كان ذلك كله أمراً رائعاً للعقول، هازاً للقلوب، مزعجاً للنفوس، وكان ربما توقف فيه الجلف الجافي، أكد أمره وزاد في تهويله، وأطنب في تفخيمه وتبجيله، إشارة إلى أن هوله يفوت الوصف بقوله، معلماً أنه مما يحق له أن يستفهم عنه سائقاً له بأداة الاستفهام مراداً بها التعظيم للشأن، وأن الخبر ليس كالعيان: {ما الحاقة *} فأداة الاستفهام مبتدأ أخبر عنه بالحاقة وهما خبر عن الأولى، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه نحو زيد أي ما هو، وأكثر ما يكون ذلك إذا أريد معنى التعظيم والتهويل.

ولما كان السياق لترجمة المراد بكشف الساق، عظم التهويل بقوله: {وما أدراك} أي في الزمن الماضي، وقصره لتذهب النفس فيه كل مذهب، أي وأي شيء أعلمك بشيء من الأشياء مع تعاطيك للبحث والمداورة، ثم زاد التحذير منها بقوله على النهج الأول مستفهماً والمراد به التفخيم ومزيد التعظيم: {ما الحاقة *} أي إنها بحيث لا يعلم كنهها أحد ولا يدركها ولا يبلغها درايته وكيف ما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، فلا تعلم حق العلم إلا بالعيان.

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما بنيت سورة {ن والقلم} على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله صلى الله عليه وسلم عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم، وبين حسدهم وعداوتهم {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم} [القلم: 51] أتبعت بسورة الحاقة وعداً لهم وبياناً أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم {كذبت ثمود وعاد بالقارعة} [الحاقة: 4] {فهل ترى لهم من باقية} [الحاقة: 8] {ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن} [الأنعام: 6] {فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم} [يونس: 102]، و {كم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً} [مريم: 98] فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية.

ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم، أتبع ذلك بذكر الوعيد الأخراوي {يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية} [الحاقة:

18] ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة {ن والقلم} من تنزيهه صلى الله عليه وسلم وتكريمه مقسماً على ذلك {إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر- ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون} [الحاقة: 41، 42] وانتهى نفي ما تقوله منصوصاً على نزاهته عن كل خلة منها في السورتين {ما أنت بنعمة ربك بمجنون} [القلم: 2] وما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين، وأنه لتذكرة للمتقين وإنه لحق اليقين، فنزه ربك وقدسه من عظيم ما ارتكبوه- انتهى. فلما بلغ التهويل حده، وكان سبب الإنكار للساعة ظن عدم القدرة عليها مطلقاً أو لعدم العلم بالجزئيات، قال دالاً على تمام القدرة والعلم بالكليات والجزئيات، محذراً من أنكرها بأنه قادر على تعجيل الانتقام ولكنه لإكرامه لهذه الأمة أخر عذابها إلى الآخرة إلى لمن كان منهم من الخواص فإنه يظهرهم في الدنيا ليتم نعيمهم بعد الموت بادئاً بأشد القبائل تكذيباً بالبعث لكون ناقتهم أول دليل على القدرة عليه، وقالوا مع ذلك {أبشر منا واحداً نتبعه} [القمر: 24] إلى أن قالوا: {بل هو كذاب أشر} [القمر: 25] وقالوا في التكذيب بها {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت} [المؤمنون: 35، 36، 37]- الآية، فإن الامر فيهم دائر بين عاد وثمود: {كذبت ثمود} وتقديمهم أيضاً من حيث أن بلادهم أقرب إلى قريش، وواعظ القرب أكبر وإهلاكهم بالصيحة وهي أشبه بصيحة النفخ في الصور المبعثر لما في القبور {وعاد} وكان الأصل أن يقال: بها، ولكنه أظهرها بوصف زادها عظماً وهولاً فقال: {بالقارعة *} أي التي تقرع، أي

تضـرب ضـرباً قوياً وتدق دقاً عنيفاً شـديداً للأسـماع وجميع العالم بانفطار السـماوات وتناثر النيرات ونسـف الجبال الراسـيات، فلا يثبت لذلك الهول شيء.

ولما جمعهم في التكذيب، فصـــــلهم في التعذيب لأجل ذلك التكذيب فقال : {فأما ثمود} وهم قوم صالح عليه السلام.

ولما كان الهائل لهم لتقيدهم بالمحســوســـات إنما هو العذاب، لا كونه من معين، بنى للمجهول قوله: {فأهلكوا} أي بأيسـر أمر من أوامرنا {بالطاغية *} أي الصيحة التي جاوزت الحد في الشدة فرجفت منها الأرض والقلوب.

ولما ذكر المهلكين بالصـيحة لأجل التكذيب بالقارعة تحذيراً لمن يكذب بها، أتبعه المهلكين بما هو سـبب لإنفاذ الصـيحة وتقويتها دلالة على تمام القدرة على كل نوع من العذاب بالاختيار فقال تعالى : {وأما عاد} وهم قوم هود عليه السـلام {فأهلكوا} أي بأشـق ما يكون عليهم وأيسـر ما يكون في قدرتنا {بريح صـرصـر} أي هي في غاية ما يكون من شـدة البرد والصـوت كأنه كرر فيها البرد حتى صـار يحرق بشدته والصوت حتى صـار يصـم بقوته، وقال الملوي: أصـله صـر وهو البرد الشـديد أو الحر الشـديد {عاتية *} أي مجاوزة للحد من شدة عصفها وعظمة قصفها تفعل أفعال المستكبر الذي لا يبالي بشــيء فلم يســتطع خزانها ضــبطها، ولم يملك المعذب بها ردها ولا ربطها، بل كانت تنزعهم من مكامنهم التي احتفروها ومصـانعهم التي أتقنوها واختاروها فتهلكهم، قال الملوي: قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضـي الله عنهمـا : «لم ينزل قط مـاء ولا ريح إلا بمكيـال على يـد ملـك إلا يوم

الطوفان فإن الله تعالى أذن للماء فطغى على الخزان ويوم عاد أذن للريح فعتت على خزانها» انتهى.

ولما وصفها بالعتو على الخلق والغلبة لهم بحيث كانت خارقة للعادة لم يأت مثلها قبل ولا بعد، دل على صغارها بالنسبة إلى عظمته، وأنه هو الذي أوجدها لا الطبيعة ولا غيرها، بل إنما كانت بقدرته واختياره قهراً لمن طعن في ملكه وكذب رسله فيما أخبروا به من أمر الساعة التي هي موضع الحكمة وإظهار جميع العظمة، فقال مستأنفاً دلالة على ذلك: {سخرها} أي قهرها على أن سلطها، والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار، ودل على أنه تسخير تعذيب لا رحمة وتأديب بأداة الاستعلاء، فقال: {عليهم} وكلفها ذلك وذللها له فلم يمكنها مع عتوها إلا أن كانت طوع أمره وصنيعة عظمته وقهره.

ولما كانت هذه السورة لتحقيق الأمور، وكشف المشكل وإيضاح الخفي، حقق فيها زمن عذابهم تحقيقاً لم يتقدم مثله، فذكر الأيام والليالي، وقدم الليالي لأن المصايب فيها أفظع وأقبح وأشنع لقلة المغيث والجهل بالمأخذ والخفاء في المقاصد والمنافذ، ولأن عددها مذكر في اللفظ، وتذكير اللفظ أدل على قوة المعنى ولذلك جعل المميز جمع كثرة، ولأنها سبع، والسبع مبالغ فيه وهو أجمع العدد كما يأتي تحقيقه قريباً في حملة العرش ولا يمكن أن يظن بتقديمها أن ابتداء العذاب كان فيها لأنه يلزم حينئذ أن يكون بعدد الأيام فلذلك قال: {سبع ليال} أي لا تفتر فيها الريح لحظة لأنه بولغ في شدتها مبالغة لم يكن مثلها قط ولا يكون بعدها أبداً {وثمانية أيام} كذلك حال

كونها {حسوماً} جمع حاسم أي بحس مانع من التصرف دائم متتابع لا فترة له، من حسم الكي- إذا تابع فيه بالمكواة، قاطع لكل خير، مستأصل له، فأتت عليهم من غير فترة أصلاً في جميع الوقت فاستأصلتهم لم تبق منهم أحد حتى أن عجوزاً منهم توارت في سرب فانتزعتها وأهلكتها، وبها سميت أيام العجوز، أو لأنها عجز الشتاء وهي ذات برد ورياح شديدة وهي من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر وهو آخر الشهر، وقد لزم من زيادة عدد الأيام أن الابتداء كان بها قطعاً وإلا لم تكن الليالي سبعاً- فتأمل ذلك.

ولما كان الحاسم المهلك، سبب عنه قوله مصوراً لحالهم الماضية: {فترى القوم} أي الذين هم في غاية القدرة على ما يحاولونه: {فيها} أي في تلك المدة من الأيام والليالي لم يتأخر أحد منهم عنها {صرعى} أي مجدلين على الأرض موتى معصورين مجهزة على كل منهم من شدة ضغطها باد عليهم الذل والصغار، جمع صريع {كأنهم أعجاز} أي أصول {نخل} قد شاخت وهرمت فهي في غاية العجز والهرم {خاوية *} أي متآكلة الأجواف ساقطة، من خوي النجم- إذا سقط للغروب، ومن خوي المنزل- إذا خلا من قطانه، قالوا: كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم، فالوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها لرؤوسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 13]

{فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13)}

ولما كان هذا أمراً رائعاً لمن له أدنى معقول، وكان الاستفهام مما يزيد الروعة، قال مسبباً عن استئصالهم ليكون الإخبار به المستلزم لغاية العلم بالجزئيات كالدعوى بدليلها: {فهل ترى} أي أيها المخاطب الخبير الناس في جميع الأقطار {لهم} أي خصوصاً، وأعرق في النفي وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال: {من باقية *} أي بقاء أو نفس موصوفة بالبقاء، وأنجى الله سبحانه وتعالى صالحاً عليه السلام ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرهم الطاغية وهوداً عليه السلام ومن آمن به من بين عاد لم يهلك منهم أحد، فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له كمال الإحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته، فلا يجعل المسلم أصلاً كالمجرم ولا المسيء كالمحسن.

ولما أخبر تعالى عمن أهلك بالريح ومن أهلك بما سببه الريح تسبيباً قريباً بغير واسطة، وكان ذلك كله- لخروجه عن العادة -راداً على أهل الطبائع، أخبر بمن أهلك مما سببته الريح من الماء بواسطة السحاب، وكانت سبب تطابقه عليهم مع أن كفرهم بالتعطيل الذي هو أنحس أنواع الكفر للقول بالطبيعة التي تتضمن الإنكار للبعث، وكان إغراقهم بما يكذب معتقدهم لخروجه عن العادة، فقال منبهاً على قوة كفرهم بالمجيء: {وجاء} أي أتى

إتياناً عالياً شـــديداً {فرعون} أي الذي ملكناه على طائفة من الأرض فعتى وتجبر وادعى الإلهية ناســـياً هيبتنا وقدرتنا بنقمتنا وأنكر الصـــــانع وقال بالطبائع {ومن قبله} أي في جهته وفي حيزه وما يليه وفي السير بسيرته من العلو في الأرض بغير الحق والعتو في الكفر، وهو ظرف مكان، هكذا على قراءة البصريين والكسائي بكسر الكاف وفتح الموحدة، فعم ذلك كل من كان كافراً عاتياً من قبله ومن بعده، وهو معنى قراءة الباقين بفتح القاف وإســكان الباء الموحدة على أنه ظرف يقابل «بعد» بزيادة.

ولما كان قوم لوط عليه السلام قد جمعوا أنواعاً من الفسوق لم يشاركهم فيها أحد، فاشـتمل عذابهم على ما لم يكن مثله عذاب، فكان كل من فعلهم الذي لم يســبقهم به أحد من العالمين وعذابهم الذي ما كان مثله قبل ولا بعد، راداً على أهل الطبائع، نص عليهم من بين من دخل فيمن قبلـه على القراءتين فقال: {والمؤتفكات} أي أهل المدائن المنقلبات بأهلها حتى صـــار عاليها ســـافلاً لما حصـــل لأهلها من الانقلاب حتى صـــاروا إياه واتبعت حجارة الكبريت وخســـف بها وغمرت بما ليس في الأرض مثله وهي قرى قوم لوط عليه الســلام {بالخاطئة *} أي الخطأ أو الأفعال ذات الخطأ التي تتخطى منها إلى نفس الفعل القبيح من اللواط والصــفع والضــراط مع الشـرك وغير ذلك من أنواع الفسق والعناد والطغيان.

ولما كان الرسل كلهم جميعاً كالفرد الواحد لاتفاق مقاصـدهم في الدعاء إلى الله والحمل على طاعته، قال مســتأنفاً مســبباً عن مجيئهم بذلك موحداً في اللفظ ما هو صـالح للكثير بإرادة الجنس: {فعصوا} أي خالفوا ونابذوا {رسول

ربهم} أي خالفت كل أمة من أرسـله المحسـن إليها بإبداعها من العدم وإيداعها القوى وترزيقها وبعث رسولها لإرشادهها اغتراراً بإحسانه ولم يجوزوا أن المحسـن يقدر على الضـر كما قدر على النفع، لأنه الضـار كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز نقل أحد الاسمين عن الآخر، وسبب عن العصيان قوله: {فأخذهم} أي ربهم أخذ قهر وغضب {أخذة} لم يبق من أمة منهم أحداً ممن كذب الرسـول فلم يكن كمن ينصـر على عدو من الآدميين لا بد من أن يفوته كثير منهم وإن اجتهد في الطلب، وما ذاك إلا لتمام علمه سـبحانه وتعالى بالجزئيات والكليات، وشـمول قدرته، وتلك الأخذة- مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة- جعلها سبحانه {رابية *} أي عالية عليهم علية القدر في قوة البطش وشدة الفتك زائدة على الحد نامية بقدر زيادة أعمالهم في القبح، والربا : النمو، وأصـله الزيادة، فأغرق فرعون وجنوده، وأغرق كل من كذب نوحاً عليه السلام، وهم كل أهل الأرض غير من ركب معه في السـفينة، وحمل مدائن لوط عليه السلام بعد أن نتقها من الأرض على متن الريح بواسطة من أمره بذلك من الملائكة ثم قلبها وأتبعها الحجارة وخسـف بها وغمرها بالماء المنتن الذي ليس في الأرض ما يشبهه.

ولما كان ربما وقع في وهم التعجب من وجود فرعون ومن بعده من الإخبار بأخذ من قبله على قراءة الجماعة مع أن «من» من صيغ العموم، أشار إلى أنه أهلك جميع المخالفين وأنجى جميع الموافقين، قال جواباً لذلك السـؤال مؤكداً لأجل من يتعنت ولأن ذلك كان مما يتعجب منه ويتلذذ بذكره : {إنا}

أي على قدرتنا وعظمتنا وإحاطتنا {لما طغا الماء} أي فزاد عن الحد حتى علا على أعلى جبل في الأرض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه الســلام به فلم يطيقوا ضــبطه ولا قاووه بوجه من الوجوه، ولا وفقوا لركوب السفينة، فكان خروجه عن العادة راداً على أهل الطبائع.
ولما كان الإيجاد نعمة فكان إنجاء آبائهم من الغرق حتى كان ذلك ســـبباً لوجودهم نقمة عليهم قال تعالى: {حملناكم} أي في ظهور آبائكم بعظمتنا ومشـيئتنا وقدرتنا {في الجارية *} أي السـفينة التي جعلناها بحكمتنا عريقة في الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذي جعلنا من شأنه الإغراق، وهو تعبير بالصـفة عن الموصـوف، ونوح عليه السـلام أول من صــنع السـفينة، وإنما صـنعها بوحي الله تعالى وبحفظه له من أن يزل في صنعتها، قال: اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون ما يجري في الماء مقارباً لما يجري في الهواء، وأغرقنا سـوى من في السـفينة من جميع أهل الأرض من أدمي وغيره.
ولما بدأ سـبحانه وتعالى بثمود الذين هم أقرب المهلكين إلى مكة المشـرفة لأن التخويف بالأقرب أقعد، وختم بقوم نوح عليه الســـلام لأنهم كانوا جميع أهل الأرض ولم يخف أمرهم على أحد ممن بعدهم، علل اختيار إنجائهم بالســفينة دون غيرها فقال: {لنجعلها} أي هذه الفعلات العظيمة من إنجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بذلك العذاب أحد وإهلاك الكافرين بحيث لا يشـذ منهم أحد، وكذا السـفينة التي حملنا فيها نوحاً عليه السـلام ومن معه بـإبقـائهـا آيـة من آيـاتـه وأعجوبـة من بـدائع بينـاتـه وغريبـة في الـدهر من

أعجوباته {لكم} أي أيها الأناسي {تذكرة} أي سبباً عظيماً لذكر أول إنشائه والموعظة به لتســـتدلوا بذلك على كمال قدرته تعلى وتمام علمه وعظمة رحمته وقهره، فيقودكم ذلك إليه وتقبلوا بقلوبكم عليه {وتعيها } أي ولتحفظ قصة السفينة وغيرها مما تقدم، حفظاً ثابتاً مستقراً كأنه محوى في وعاء.

ولما كان المنتفع بما يسمع الحافظ له قليلاً جداً، دل على ذلك يتوحيد الأذن فقال موحداً منكراً مع الدلالة على تعظيمها: {أذن} أي عظيمة النفع {واعية *} أي من شـــأنها أن تحفظ ما ينبغي حفظه من الأقوال والأفعال الإلهية والأسرار الربانية لنفع عباد الله كما كان نوح عليه السلام ومن معه وهم قليل سـبباً لإدامة النسـل والبركة فيه حتى امتلأت منه الأرض. والوعي: الحفظ في النفس، والإيعاء: الحفظ في الوعاء، وفي ذلك توبيخ للناس بقلة الواعي منهم، ودلالة على أن الأذن الواحدة إذا غفلت عن الله تعالى فهي الســـواد الأعظم، وما ســواها لا يبالي بهم الله بالة- قاله الأصـــبهاني والزمخشـــري وغيرهما.

ولما ذكر القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها، ودل على قدرته عليها وعلى حكمته بقصــــص من ذكر على الوجه الذي مر إلى أن ختم بالذين كانت قصتهم أشبه تلك القصص بالقيامة من حيث أن أمر الله فيها عم أهل الأرض وفي زمن يسير، وكان الناجون منها بالنسبة إلى المهلكين كالشـعرة البيضـاء في جلد الثور الأسـود، سـبب عن جميع ما مضـى قوله شــرحاً لأمرها: {فإذا نفخ} وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأنـه ما تأثر عنـه لا يتوقف على نـافخ معين بل من أقامه من جنده لذلك

تأثر عنه ما يريده وذكره وإن كان المسـنـد إليه مؤنثاً للفصـل ولكونه غير حقيقي التأنيث وللدلالة على قوة النفخ {في الصور} أي القرن الذي ينفخ فيه إسـرافيل عليه السـلام كأنه عبر عنه به دون القرن مثلاً لأنه يتأثر عنه تارة إعدام الصـورة وتارة إيجادها وردها إلى أشـكالها سـعة فمه كما بين السـماء والأرض، وأسـنـد الفعل إلى المصـدر ليفيده بادئ بدء لا ليؤكده وإن كان التأكيد يفهم منه وهو غير مقصـود بالذات فقال: {نفخة} ولما دل بالفعلة على الواحدة، أكده دلالة على عظيم قدرته وحقارة الأشـياء عنده بقوله: {واحدة *} أي فهلك الخلائق كلهم، هكذا قالوا إن هذه النفخة هي الأولى، قالوا: وعندها خراب العالم، وظاهر السـياق أنها الثانية التي بها البعث، وخراب ما ذكر بعد قيامهم أنسـب لأنه لهم أهيب، وكونها الثانية إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 18]

{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)}

ولما ذكر التأثير في الإحياء، أتبعه التأثير في الجمادات، وبدأ بالسـفليات لملابسـتها للإنسـان فتكون عبرته بها أكثر فقال: {وحملت} أي بمجرد القدرة {الأرض} أي المنبسطة ورجت رجاً {والجبال} أي التي بها ثباتها فرفعت من أماكنها، وبستا بساً فكانت هباء منبثاً، لم يبق فيهما حجر ولا كدية.

ولما أريد قوة الدك والإبلاغ في تأثيره، جعل الجبال شيئاً واحداً فقال: {فدكتا} أي مسحت الجملتان الأرض وأوتادها وبسطتا ودق بعضها ببعض {دكة واحدة *} أي فصارتا كثيباً مهيلاً وسويتا بأيسر أمر فلم يميز شيء منهما من الآخر، بل صارا في غاية الاستواء، من قولهم: ناقة دكاء، أي لا سنام لها. وأرض دكاء، أي متسعة مستوية، قالوا: والدك والدق- أخوان، والدك أبلغ، قال أبو حيان: والدك فيه تفرق الأجزاء، والدق فيه اختلاط الأجزاء.

ولما ذكر نفخ الصور سبب عنه قوله: {فيومئذ} أي إذا دكتا وهي بدل من «إذ» كرر لطول الفصل وأفاد تهويلاً لها وتعظيماً، ونصب الظرف بقوله: {وقعت الواقعة *} أي التي وقع الوعد والوعيد بها، فكانت كأنها شيء ثقيل جداً ليس له ممسك. فما له من ذاته غير السقوط، وهي القيامة والحاقة والقارعة، نوع أسماءها تهويلاً لها أي قامت القيامة، وكان المراد بها النفخة الثانية.

ولما ذكر تأثير العالم السفلي ذكر العلوي فقال: {وانشقت السماء} أي هذا الجنس لشدة ذلك اليوم، ولما كان الشيء لا ينشق إلا لخلل فيه، سبب عنه قوله تحقيقاً لذلك. {فهي يومئذ} أي إذا وقعت الواقعة {واهية *} أي ضعيفة متساقطة خفيفة لا تتماسك.

ولما كانت العادة جارية فيما يعرف أن الملك يظهر أنواعاً من عظمته يوم عرض الجند، قال معرفاً لنا بنحو ما ألفناه: {والملك} أي هذا النوع الذي يصدق على الواحد فما فوقه، والجمع لا يصدق على ما دون الجمع فهذا أشمل {على أرجائها} أي نواحي السماء وأطرافها وحواشي ما لم يتشقق

منها، قال الضحاك: يكونون بها حتى يأمرهم الله فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها- انتهى. وقيل: أرجاء الأرض واحدها رجا، مقصـور، والاثنان رجوان، فيحيطون بالجن والإنس فيحشرونهم حشر الصيد لإرادة أخذه.

ولما كان الملك يظهر يوم العرض سـرير ملكه ومحل عزه قال: {ويحمل عرش} ولما كان هذا أمراً هائلاً مقطعاً للقلوب، قال مؤنساً للمنزل عليه هذا الذكر مؤمناً له من كل ما يحذر: {ربك} أي المحسن إليك بكل ما يريده لا سيما في ذلك اليوم بما يظهر من رفعتك.

ولما كان العرش عاماً لجهة الفوق كلها، أسقط الجار فقال: {فوقهم} أي فوق رؤوسهم {يومئذ} أي يوم إذ وقعت الواقعة بعدد ما كان تحته من السماوات السبع والكرسي {ثمانية *} أي من الملائكة أشخاص أو صفوف يؤيد حملته الأربعة في الدنيا بأربعة أخرى لشدة ذلك اليوم وثقله، وهو في حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو يعلى والبغوي عن العباس بن عبد المطلب رضـي الله عنه، فظاهره أنهم أشخاص ولفظه: «ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السـماء والأرض» وظاهر ذلك أنهم في الدنيا، وكونهم في الدنيا أربعة فقط ذكره المفسـرون ورواه الطبراني من طريق ابن إسحاق، قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

»هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم بأربعة آخرين» وهو مذكور في حديث الصـور الطويل الذي يرويه أبو يعلى وغيره من طريق إسـماعيل بن رافع عن يزيد بن زياد عن القرطبي عن رجل عن أبي هريرة رضـي الله عنه وهذا العدد يحتمل أن يراد به أهل السـماوات السـبع والكرسـي فتلك ثمانية،

وهم خلق لا يحصـيهم إلا الله سـبحانه وتعالى، وهو أوفق لإظهار العظمة، ويمكن أن يراد بهم ثمانية أفراد ويكون حملهم له أظهر في العظمة ليعلم كل من يرى ذلك أن مثلهم لا يقدر على حمل مثله في عظمته وإحاطته، وهذا هو أظهر المعاني من الأحاديث الواردة فيه، واختيار هذا العدد أوفق للوجه الذي قبله لأنه يزيد على العدد الموضـوع للمبالغة- وهو السـبع- بواحدة إشـارة إلى أنه أبلغ من عدة المبالغة لأنه إشـارة إلى أنك كلما بالغت زاد الأمر على مبالغتك بما هو أول العدد، وذلك إشـارة إلى عدم الانتهاء والوقوف عند حد، وإلى ذلك يشير أيضاً أن للثمانية من الكسور النصف والربع والثمن، وذلك سـبعة، والسـبعة عدد جامع لجميع أنواع العدد الفرد والزوج وزوج الزوج وزوج الفرد، وكل ذلك إشـارة إلى المبالغة في إظهار العظمة والكبرياء والعزة وتمثيل لنا بما نعرف من أحوال الملوك وإلا:

فالأمر أعظم من مقالة قائل *** إن رقق البلغاء أو إن فخموا

إعلاماً بعظمة ذلك اليوم ليخشى العباد فيلزموا أسباب الإسعاد، وهذا الذي قلته من سر السبعة قد ذكره الإمام بدر الدين بن الدماميني قرين شيوخنا في الكلام على الواو من حاشـيته على مغني ابن هشـام عن تفسـير العماد الكندي قاضي الإسكندرية المسمى الكفيل بمعاني التنزيل فقال: ونقل الأستاذ عبد الله الكفيف المالقي أنها لغة فصيحة لبعض العرب أن يقول: واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة- هكذا لغتهم، ومتى جاء في كلامهم لفظ الثمانية أدخلوا الواو وقد نظم بعض أصـحابنا في كون السبعة منتهى العدد أبياتاً وهي:

يا سائلي عن سر كون العدد *** غايته في سبعة لم تزد
ما سره إلا انحصار قسيمه *** في واحد فرد وشيء مسند
وذلك الشيء الذي تسنده *** منحصر في واحد وأزيد
فالفرد والفرد إذا ما اجتمعا *** زوج مع الفرد الذي لم يسند
واثنان واثنان إذا ما اجتمعت *** أربعة تضم مع فيء اليد
فتلك سبعة إذا تكاملت *** أربعة واثنان مع منفرد
وما أتى من بعد هذا فهو تك *** رار له لا زائد في العدد
ثلاثة مع مثلها فرد وفر *** د قد مضى وما مضى لا يعدد
وهكذا أربعة مع مثلها *** زوج وزوج قد مضى لا تزد

وقال الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتابه الملل والنحل: أكثر أصحاب العدد على أن الواحد لا يدخل في العدد، فالعدد مصدره الأول الاثنان، وهو ينقسم إلى زوج وفرد، فالفرد الأول ثلاثة، والزوج الأول أربعة، وما وراء الأربعة مكرر كالخمسة فإنها مركبة من فرد وزوج، ويسمى العدد الدائر، والستة مركبة من فردين، ويسمى العدد التام، والسبعة مركبة من فرد وزوج، وتسمى العدد الكامل، والثمانية مركبة من زوجين وهي بداية الأخرى فصدر الحساب في مقابلة الواحد الذي هو علة العدد وليس يدخل فيه، ولذلك هو فرد لا أخ له.

ولما كان العدد مصدره من اثنين صار منهما المحقق محصوراً في قسمين، ولما كان العدد منقسماً إلى فرد وزوج، صار من ذلك الأصل محصوراً في سبعة، فإن الفرد الأول ثلاثة، والزوج الأول أربعة، وهي النهاية، وما عداها

مركب منها، وكان البسائط عامة الكلية في العدد واحد واثنان وثلاثة وأربعة وهي الكمال، وما زاد عليها من المركب الكلي فمركبات كلها ولا حصر لها، وقال أبو الحكم ابن برجان في تفسير سورة القدر: انتهاء العدد ستة والسابع وترها.

ولما بلغ النهاية في تحذير العباد من يوم التناد، وكان لهم حالتان: خاصة وعامة، فالعامة العرض، والخاصة التقسيم إلى محسن ومسيء، زاده عظماً بقوله: {يومئذ} أي إذا كان ما تقدم.

ولما كان المهول نفس العرض، بنى فعله للمفعول ولأنه كلام القادرين فقال: {تعرضون} أي على الله سبحانه وتعالى للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للإكرام والتقريب والإثابة، والمفسد للإبعاد والتعذيب والإصابة، عبر عن الحساب بالعرض الذي هو جزؤه، فالمحسن لا يكون له غير ذلك والمسيء يناقش {لا تخفى منكم} أي في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه {لا تخفى منكم} أي في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه {خافية *} أي لا يقع أصلاً على حال من الأحوال شيء من خفاء لشيء كان من حقه الخفاء في الدنيا لا من الأعمال ولا من الأنفس وإن كان في غاية الدقة والغموض لأن ذلك يوم الظهور التام من القبور ومن الصدور، وغير ذلك من الأمور، ليكون ذلك أجل لسعادة من سعد، وأقبح لشقاوة من شقي فأبعد، قال أبو موسى رضي الله عنه: هي ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تتطاير الصحف فأخذ بيمينه وأخذ بشماله.

▲ تفسير الآيات رقم [19– 24]

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)}

ولما كان من المعلوم أنهم قسمان: محسن ومسيء، وكان التقدير: فنعطي كلاًّ منكم صحيفة أعماله من أفعاله وأقواله وجميع خلائقه وأحواله، فمنكم من تدفع إليه في يمينه فتظهر له حسناته وتستر عنه سيئاته، ومنكم من يعطاها في شمالها فتبدو له سيئاته ويمحي ما كان من حسناته، لأنه أوتي ثوابه في الدنيا بما عجل له من طيباته، عطف عليه مفصلاً له قوله: {فأما من أوتي} بناه للمفعول لأن دلالة السعادة الوقوع في اليمين لا من معط معين {كتابه} أي الذي أثبت فيه أعماله {بيمينه فيقول} لما رأى من سعادته تبجحاً بحاله وإظهاراً لنعمة ربه لأن الإنسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه من خير تكميلاً للذته بكبت أعدائه وتفريح أوليائه، قيل: إنه تكتب سيئاته في باطن صحيفته وحسناته في ظاهرها، فيقرأ الباطن ويقرأ الناس الظاهر، فإذا أنهاه قيل له: قد غفرها الله، اقلب الصحيفة، فحينئذ يكون قوله: {هاؤم} أي خذوا أيها الحاضرون من الخلائق الملائكة وغيرهم، فيها صوت يفهم منه معنى: خذوا، ويوصل تارة بالكاف وتارة بالهمزة، اسم فعل، وإنما اختارها هنا ليعلم أن خطابها لجميع أهل الموقف من كان منهم باطناً من الملائكة والجن وغيرهم، ومن كان منهم ظاهراً لأن الألف عند الربانيين غيب وإحاطة كما دل عليها مخرجها، فهي عبارة عندهم عن القائم الأعلى المحيط، وروي

معنى ذلك عن ابن عباس رضـــــي الله عنهما، والهمزة بدء غيبه ولذا كان مخرجها أقصـــى الحروف الحلقية دلالة على ذلك، وبدء غيب الله ســبحانه وتعالى أفعاله وهي تشمل الظاهر والخفي أصلها الكاف فهي عندهم ظهور متكامل ذو اسـتقلال، وهو من يكون من شـأنه الظهور، وأبناء الجنس أحق بهذا، وقد دل على ذلك مخرج الكاف الذي بعد القاف من أصـــل اللســـان الأقرب إلى وســـطه، ومفعول «ما» محذوف عند البصـــريين دل عليه «كتابيه» من قوله: {اقرءوا كتابيه *} وهاؤه للسكت، كأنها إشـارة إلى شـدة الكرب في ذلك اليوم للدلالة على أنه إذا كان هذا الســعيد بســكت في كل جملة للاسـتراحة لا يقدر في الكلام على المضــي فما الظن بغيره، وتشـير أيضاً مع ذلك إلى فراغ الأمر ونجازة الجزم به والوثوق بأنه لا يغير.

ولما كانت حقيقة الحســـاب ذكر الأعمال والمجازاة عليها، وكان الآدمي- لأنــه مجبول على النقص- لا يقدر أن يقدر الله حق قدره، وكلما كـان الإنســان أعلى كان الاســتشــعار والنقص من نفســه أكثر، وكان من نوقش الحسـاب- كما قال النبي صـلى الله عليه وسـلم- عذب، قال مؤكداً لأن من يرى حاله وكتابه ينكر أن يكون له ذنب أو منه تقصــير: {إني ظننت} أي في هذا اليوم خوفاً من من سوء أعمالي التي أعرفها من نفسي {أني ملاق} أي ثابت لي ثباتاً لا ينفك أني ألقى بين يدي الديان {حسـابيه *} لأني كنت جامعاً كما أمرت بين الخوف والرجاء، فأخاف أن يقابل بين حســناتي وبين النعم فلا تقوم لي أصـــغر نعمة فأعذب على ســيئاتي وأرجو غفرانه، فحقق ســـبحانه رجائي وأمن خوفي، فعلمت الآن أني لا أناقش الحســـاب، وإنما

حسابي العرض وهو الحساب اليسير بأن تعرض أعمالي فلا أجازى على سيئها وأثاب على حسنها مناً ورحمة وفضلاً ونعمة، ويجوز أن يكون الظن في الدنيا، عبر به عن اليقين إشارة إلى أنه يكفي العاقل في الخوف الحامل له على العمل ظن الخطر، وفيه إشعار بهضم النفس لأن الإنسان لا ينفك عن خطرات من الشبه تعرض له وتهجم عليه وإيذان بأن مثل ذلك لا يقدح في الجزم بالاعتقاد وتنبيه على أنه يكفي في إيجاب العمل الظن فيكون حينئذ تعليلاً لإعطاء الكتاب باليمين، وفيه تبكيت للكفار ونداء عليهم بأنهم لم يصلوا في هذا الأمر المحقق إلى مرتبة الظن، فكيف بالمحقق من العلم فأهملوا العمل له فخالفوا.

ولما كان تقدير هذا واضحاً، سبب عند ما تأثر عن الحساب اليسير من إعطاء الثواب فقال: {فهو في عيشة} أي حالة من العيش.

ولما كان الرضى بالشيء لا يكون إلا إذا بلغ نهاية السؤل وغاية المأمول، قال مسنداً الرضا إلى العيشة كناية عن رضا صاحبها على الوجه الأبلغ: {راضية *} أي ثابت له الرضا ودائم لها لأنها في غاية الحسن والكمال، والعرب لا تعبر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية بمعنى أن أهلها راضون بها، والمعتبر في كمال اللذة الرضى أو أنه لو كان للعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها.

ولما شوق سبحانه إلى حال صاحب هذه العيشة، وكانت أمراً إجمالياً، فصلها وبينها بالإبدال منها زيادة في التشويق فقال: {في جنة} أي بساتين جامعه لجميع ما يراد منها.

ولما كان شــرف المســكن العلو قال: {عالية *} أي في المكان والمكانة والأبنية والدرجات والأشجار وكل اعتبار.
ولما كان من شأن المعالي عسر الوصول إليه قال: {قطوفها} أي جمع كثرة لقطف- بالكســر وهو ما يجنى من الثمرات المجتمعة في عرق من عروقه {دانية *} أي قريبة المأخذ ســهلة التناول جداً، لراكب والقائم والقاعد والمضــطجع، كل ذلك على حد سـواء دائماً من غير انقطاع ولا كلفة على أحد من أهلها في تناول شيء من ذلك.
ولما كان كون الثمار بهذه الصفة دالاً على كثرة الري، وكثرة الري دالة على المشــرب، وكانت من مفردات اللفظ عامة المعنى، فكان قد أفرد الضــمائر باعتبار لفظها تنصــيصــاً على كل فرد فرد جمع باعتبار المعنى إعلاماً باشـتراك جميع أهلها في النعم حال الانفراد والاجتماع فقال: {كلوا واشـربوا} أي مولى لهم ذلك إشــارة إلى أن ذلك لا مانع منه وإلى أنهم يؤمرون به صريحاً دلالة على رضا صاحب الجنة لئلا يتنغص عليهم عيشهم بنوع من الأنواع الموهمة للخطر، وحذف المفعول إيذاناً بالتعميم لئلا يظن أنه يستثني منها شيء فيكون سبب الفتنة كما وقع لآدم صلوات الله وسلامه عليه.
ولما كان المآكل والمشارب في هذه الدار تورث التخم والأمراض وفيها ما لا يلذ، وكان ما وقع لأبينا آدم وأمنا حواء عليهما الصــلاة والســلام على أكلة واحدة من وخامة العاقبة معروفاً، قال مؤمناً من ذلك: {هنيئاً} أي أكلاً طيباً لذيذاً شــهياً مع البعد عن كل أذى وســلامة العاقبة بكل اعتبار ولا فضــلة

هناك من بول ولا غائط ولا بصـــاق ولا مخاط ولا قرف ولا قذر ولا وهن ولا صداع ولا ثقل ولا شيء مؤذ.

ولما شـوق إلى المسـببات حملهم على أسـبابهم وحضـهم على المسـابقة في تحصـيلها والمثابرة والمداومة على الاسـتكثار منها؛ فقال زيادة في لذتهم بأن ذلك على وجه العوض لا امتنان عليهم في شـيء منه لأحد من الخلق، فإن أحب ما إلى الإنسـان أن يأكل مما أفادته يمينه وحصـله بعمله مع ما في ذلك من الشـرف: {بما أسـلفتم} أي أعطيتم من أنفسـكم لآخرتكم طوعاً من الأعمال الصـالحة وبما تركتم من الدنيا مما هو سـافل بالنسـبة إلى ما عوضـتم عنه من أعمال القلب والبدن والمال {في الأيام} ولما كان سـبحانه قد ضـمن كل ما يشـتغل به الإنسـان من مصـالح دنياه فهو واصـل إليه لا محالة وإن فرغ أوقاته كلها لعبادة ربه قال: {الخالية *} أي الماضـية في الدنيا التي انقضـت وذهبت واسـترحتم من تعبها والتي لا شـاغل فيها عن العبادة. إما بترك الاشتغال بالمعاش للواصل إلى درجة التوكل، وإما بالسعي على وجه الاقتصـاد بقصـد المسـاعدة للعباد في أمور هذه الدار والإفضـال عليهم وإن لا يكون كلاً عليهم من غير اعتماد على السعي بل امتثالاً للأمر مع القناعة بالكفاف.

▲ تفسير الآيات رقم [25- 33]

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ

عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)}

ولما كانت العادة جارية بأن أهل العرض ينقسمون إلى قسمين: مقبول ومردود، وذكر سبحانه وتعالى المقبول بادئاً به تشويقاً إلى حاله وتغبيطاً بعاقبته وحسن مآله، أتبعه المردود تنفيراً عن أعماله بما ذكر من قبائح أحواله فقال: {وأما من} ولما كان الدال على المساءة الإيتاء على وجه قبيح، لا تعيين المؤتي، قال بانياً للمفعول لذلك وللدلالة على ذل الأخذ وعدم قدرته على الامتناع عن شيء يسوءه: {أوتي كتابه} أي صحيفة أعماله- أعاذنا الله من ذلك {بشماله فيقول} أي لما يرى من سوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء حتى لم يشك فيها لما يرى من قبائحه التي قدمها، وكل ما يأتي مما يوهم سكتة في ذلك اليوم فمن باب المكابرة والمدافعة بالباطل على ما كان عليه في الدنيا {يا ليتني} تمنياً للمحال، وجرى عن نسق ما مضى في البناء للمفعول الدال على ذله وعدم جبلته فقال: {لم أوت} أي من مؤت ما {كتابيه *} أي هذا الذي ذكرني بخبائث أعمالي وعرفني جزاءها {ولم} أي ويا ليتني لم {أدر} ولو حاولت الدراية {ما} أي حقيقة {حسابيه *} من ذكر العمل وذكر جزائه، بل استمريت جاهلاً لذلك كما كنت في الدنيا. ولما تمنى هذين الشيئين، استأنف مراده بهما فقال لأنه رأى أن ما يستقبله شر مما كان فيه من البرزخ: {يا ليتها} أي الموتة التي منها {كانت القاضية *} أي الباتة الجازمة الملزمة لدوام الموت الخاتمة عليها حتى لا يكون بعدها بعث ولا شيء غير الموت كما كنت أعتقد في الدنيا؛ قال الإمام الرازي:

وفي الحديث «تمنوا الموت» أي إذ ذاك ولم يكن في الدنيا شـــيء أكره منه عندهم.

ولما كان التمني مفهماً لأنه كان له ضـــد ما تمناه من البعث على ما كانت تخبره به الرسل ومن الحساب الذي هو سر البعث وخالصه، وقد كان يقول: إنه يتخلص منه، على تقدير كونه، بماله وجاهه قال معللاً لتمنيه : {ما أغنى} نافياً تأســـفاً على فوات ما كان يرجو من نفعه، والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم، أو مستفهماً استفهام إنكار على نفسه وتوبيخ حيث سولت له ما أثمر له كل سوء وكل محال منازعة للفطرة الأولى المؤيدة بما أخبرت به الرســل حتى أوقعه ذلك التسـويل في الهلكة {عني ماليه *} أي الذي منعت منه حق الله وتعظمت به على عباده. وهذا النفي للإغناء سائغ مفهوم على كل من تقريري النفي والاستفهام.

ولما كان المال سبب الوصول إلى السلطان، قال نافياً لما أوصله إليه ماله شارحاً لعدم إغنائه، {هلك عني} أي مجاوزاً لي حتى كأني لم أكن فيه ساعة قط {سلطانيه *} أي تسلطي على الدعاة إلى الله بالشبه الباطلة التي كان يطلق اللسان بها فأساعده عليها مع ظهور بطلانها الملك الذي أوصل إليه المال فعاد لأن ذلك الملك الأعظم هلك والمساعد أبعد مباعد.

ولما كان كأنه قيل : هذا ما قال، فما يقال ؟ أجيب بأنه يقال للزبانية تعذيباً لروحه بالتوبيخ والأمر بالتعذيب على رؤس الأشهاد: {خذوه} أي أيها الزبانية الذين كان يستهين بهم عند سماع ذكرهم.

ولما كان الأخذ دالاً على الإهانة الناشئة عن الغضب، سبب عنه قوله: {فغلوه *} أي اجمعوا يديه إلى عنقه ورجليه من وراء قفاه إلى ناصيته.

ولما كان الغل لما بعده من العقاب، قال معظماً رتبة عقابه في الشدة والهول بالتعبير بأداة التراخي: {ثم الجحيم} أي النار العظمى التي تجمح على من يريد دفاعاً وتحجم عنها من رآها لأنها في غاية الحمو والتوقد والتغيظ والتشدد {صلوه *} أي بالغوا في تصليته إياها وكرروها لغمسه في النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى ولا تصلوه في أول أمره غيرها لأنه كان لا يألو جهداً أن يحرق قلوب النصحاء بأشد ما يقدر عليه من الكلام وغيره، وكان يتعظم على الضعفاء، فناسب أن يصلي أعظم النيران، وعبر أيضاً بأداة التراخي لعلو رتبة مدخولها، فقال مؤذناً بعدم الخلاص: {ثم في سلسلة} أي عظيمة جداً لا ما هو دونها.

ولما قدمها دلالة على الاهتمام بها وعلى تخصيصها لشدة مخافتها، عرف بعظيم هولها وشدة فظاعتها ليجتمع المفهوم والمنطوق على تهويلها فقال: {ذرعها} أي في أيّ شيء فرضت من طول أو عرض {سبعون ذراعاً} يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة، وأن يكون مبالغة، والذي يدل على أنها للمبالغة ما رواه الترمذي- وقال: إسناده حسن- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن رصاصة مثل هذه- وأشار إلى مثل الجمجمة- وأرسلت من السماء إلى الأرض- وهي مسيرة خمسمائة سنة- لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها»

وأشـار سـبحانه إلى ضـيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال: {فاسـلكوه *} أي أدخلوه بحث يكون كأنه السـلك– أي الحبل– الذي يدخل في ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه فيصير في غاية الضنك والهوان لا يقدر على حركة أصلاً، وهذا تعذيب القالب لأنه أفسد القلب بعدم الإيمان والقالب بعدم الأعمال.

ولما ذكر على الإجمال عقابه أتبعه أسـبابه، فقال بادئاً بأعظمها مؤكداً لأن كل كافر حتى المعطل يقر بالله تعالى نوع إقرار ويدعي الإيمان به نوع ادعاء، لأنه لا يقدر على غير ذلك لما له سبحانه من غلبة الظهور وانتشار الضـياء والنور: {إنه كان} أي جبلة وطبعاً وإن أظهر شـيئاً يلبس به على الضـعفاء ويدلس على الأغنياء {لا يؤمن} أي الآن ولا في مسـتقبل الزمان {بالله} أي الملك الأعلى الذي يعلم السر وأخفى.

ولما كانت عظمة الملك موجبة لزيادة النكال لمن يعانده على قدر علوها، وكان الذي أورث هذا الشـــقي هذا الخزي هو تعظمه على أمر الله وعباده، أشار إلى أنه لا يستحق العظمة غيره سبحانه فقال: {العظيم *} أي الكامل العظم.

▲ تفسير الآيات رقم [34– 40]

{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْـلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37) فَلَا أُقْسِـمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)}

ولما بين عناده للملك الأعظم بإفســاده القوة العلمية بين ما يوجبه الكفر من احتقاره للضـعفاء إفسـاداً للقوة العملية إعلاماً بأنه مكلف بفروع الشـريعة كما أنه مكلف بأصــولها، وبياناً لأن عناده لمن فوقه لرداءة طبعه لا لعلو همته، فقال معظماً لهذا الذنب لجعله في سـياق الكفر وبالتعبير بالحض مشـيراً به إلى أن فاعل ذلك شــديد الاســتغراق في حب الدنيا لأنه لا يمنعه من حث غيره على الخير إلا ادخاره لنفسه: {ولا يحض} أي يحمل ويحث {على} بذل {طعام} أو إطعام {المسـكين *} أي تسـهيله بإعانته عليه إن كان موجوداً، والســـؤال في بذله وما يقوم مقامه إن كان مفقوداً، فكيف بالبذل من عنده، فإن ذلك لا يحمل عليه إلا الإيمان لخلوه عن حظ، والتقييد يفهم أنـه يحث على خدمـة الأكـابر الجبابرة ويحب العكوف على أبوابهم والإضـــافة مع التعبير بالطعام دون الإطعام تشـــعر بأن الفقراء يملكون كفايتهم من أموال الأغنياء، فدل ذلك على أنه مع كفره هو أشـــنع صـــفات الباطن في غاية الشـح والقسـاوة وعدم المروءة للإعراض عن أسـباب التمدح وعن التنزه عن سوء القالة وقبيح الذكر، وذلك أشنع الرذائل، فلذلك خصص هذين الأمرين، وكان أبو الدرداء رضـي الله عنه يحض على طعامهم ويقول: خلعنا نصـف السـلسـة بالإيمان أفلا نخلع الآخر- يعني بالحث على الإطعام، وذمه على الاستهان بالمساكين يفهم الذم على الاستهانة بمن هم دونهم ممن هو أسـوأ حالاً منهم بطريق الأولى.

ولما وصـفه سـبحانه وتعالى بأقبح العقائد وأشـنع الرذائل، سـبب عنهما في مقابلة إفساد القوتين العلمية قوله: {فليس له اليوم} ولما ذكر الزمان المتعقب

للبعث، ذكر المكان الكائن فيه وهو الدار الآخرة فقال: {ههنا} أي في مجمع القيامة كله {حميم *} أي صـــديق خالص يحترق له ويحميه من العذاب لأنهم كلهم له أعداء كما أنه هو كان لا يرق على الضعفاء فيما هم فيه من الإقلال من حطام الأموال.

ولما نفى عنه الجاه لانســلاخه من حزب الملك الولي الودود، وتحيزه إلى حزب الشيطان العدو الجحود، أتبعه المقصود بالمال الذي تنشأ عنه جميع الاستمتاعات ويقصد عنده الاجتماع والأنس بالأصحاب لإخلاده إلى ماله وإعراضـه عن عيال الملك لأجل ضـعفهم الذي وهبه المال وأمره بمواسـاتهم فيه فقال: {ولا طعام} ولما كان الاستثناء معياراً للعموم قال: {إلا من غسلين *} أي غسالة أهل النار من فيحهم وصديدهم، فعلين من الغسل، ويلزم من هذا الطعام أن يكون تحت غيره ليسيل ماء غسالته إليه.

ولما حصــر طعامهم فيما لا يقربه أحد باختياره، حصــر من يتناوله معبراً عنهم بالوصف الذي أوجب لهم أكله فقال: {لا يأكله} وفرغ الاستثناء تنبيهاً على أن المســتثنى هو المقصــود حتى كأنه لا مســتثنى منه فقال: {إلا الخاطئون *} أي يأكله المتعمدون للخطايا لا غيرهم، وهو من خطأ الرجل بوزن فرح مهموزاً- إذا تعمد الذنب، وأما المخطئ فهو من قصــد الخير فلم يصبه بغير تعمد {فليس عليكم جناح فيما أخطأتم به} أي أردتم الصواب فلم تصــيبوه، وهذا الطعام يغســل ما في بطونهم من الأعيان والمعاني التي بها قوام صــاحبها، وهو بمنزلة ما كانوا يشــحون به من أموالهم التي أبطنوها وادخروها في خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء.

ولما ذكر سبحانه وتعالى الحاقة التي جعلها دار الحساب للمحسن والمسيء اللذين قسمتهما القدرة واقتضتهما الحكمة، وصوب إليهما القرآن الذي هو ذكر للعالمين بالوعد والوعيد والبشارة والتهديد، ومن المعلوم ببديهة العقل أنه لا يصح أصلاً في حكمة أحد أن يترك من تحت يده هملاً لا سيما إن كان تقدم إليهم بالأمر والنهي، وأقام الدليل على قدرته عليها بتعذيب من استأصلهم لأجل تكذيب رسله ليكون عذابهم وتنجية المحسنين منهم مثلاً محسوساً تشهد فيه الحاقة، لأن من قدر على ذلك كانت له القدرة التامة على كل ممكن، وذكر ما دلت الحكمة عليه من تنعيم الطائع وتعذيب العاصي بما هو أنسب الأشياء لعمل كل منهما في هذه الأساليب المعجزة مفردات وتراكيب ومعاني، فدل ذلك على آخر سورة «ن» عاد إلى تقريره بوجه آخر، وهو أنه لتمام علمه وكمال قدرته لا يقرر من كذب عليه على كذبه فضلاً عن أن يؤيده، فقال مسبباً عن ذلك حين بلغ الأمر في الوضوح إلى النهاية، ذاكراً ما هو أبلغ من القسم لأن بعض أهل الجدل إذا حجه خصمه يقول: إنما غلبتني بأنك أتقن مني في الجدل بالحق، فإن الحق معي، فيحلف له صاحبه أنه ما غالطه ولا تعمد في جدله إلا الحق، {فلا أقسم} أي لا يقع مني إقسام {بما} أي بمجموع ما {تبصرون *} أي لكم أهلية إبصاره من كل ما دخل في عالم الشهادة {وما لا تبصرون *} أي ما ليس لكم في هذا الدار أهلية إبصاره، وذلك جميع الموجودات واجبها وجائزها معقولها ومحسوسها، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إقسام وإن كنت أقسم في غير هذا الموضع بما شئت من أفراد هذا المجموع.

ولما أكد غاية التأكيد بما قال من أن الأمر وصـل في الوضـوح إلى حد لا يحتمل التأكيد، فكان ذلك تأكيداً بعدم التأكيد، اسـتأنف الخبر عما أخبر أنه لا يحتاج إلى إقسـام بإثبات أداة التأكيد لأجل إنكارهم ليكون الكلام جامعاً بين التأكيد بالنفي وبين التأكيد بالإثبات فقال: {إنه} أي هذا الذي ختمت به سـورة «ن» ودل على السـاعة بما أتى به من هذه الأسـاليب التي هي مع كونها حكيمة معجزة {لقول} أي تلاوة {رسـول} أي أنا أرسـلته وعني أخذه، وليس فيه شـيء من تلقاء نفسـه إنما هو كله رسالة واضحة جداً، أنا شاهد بها بما له من الإعجاز الذي يشهد أنه كلامي.

ولما كان من شـأن الرسول أن لا يبلغ إلا ما أرسـله به مرسله، وكان بعض الرسـل ربما زاد أو نقص تعمداً أو سـهواً، أخبر أن له صـلى الله عليه وسـلم من الوصـف ما يحفظه فقال: {كريم *} أي هو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوئ الأخلاق بإظهار معاليها لشـرف النفس وشـرف الآباء فهو لا يزيد ولا ينقص، وكرم الشيء اجتماع الكمالات اللائقة به فيه.

▲ تفسير الآيات رقم [41- 46]

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)}

ولما أثبت أنه قوله سبحانه وتعالى لأنه قول رسوله صلى الله عليه وسلم لنا وهولا ينطق عن الهوى، نفى عنه ما يتقولونه عليه، فبدأ بالشـعر وهو ما يقوله الإنسـان من تلقاء نفسـه على وزن مقصـود صـدقاً كان أو كذباً، ولا بد

فيـه للتقيـد بـالوزن والقـافيـة من التكلف الـذي القرآن بعيـد عنـه، وهو مع مشـاركته للسـجع في التكلف الناقص للمعنى أعلى منه بالوزن الذي يكسـبه الرونق والحلاوة فقال: {وما هو} أي هذا الذكر في باطن أمره ولا ظاهره، وأكد النفي فقال: {بقول شـاعر} أي يأتي بكلام مقفى موزون بقصـد الوزن، وإنما قيل أنه ليس بقول من هو كذلك لأنـه، لا يوافق الوزن فيـه إلا أماكن نادرة بالنسـبة إلى مجموع القرآن، ومن المقطوع به أن ذلك لا يرضـى به شـاعر وهو أنه ينصب نفسه منصب النظم والارتهان بعهدة الوزن، ثم يأتي بكلام أكثره غير موزون، فعلم قطعاً أن الذي وافق الوزن فيه غير مقصـود فليس بشعر.

ولما كانت مخالفة القرآن للشـعر خفية من حيث أنـه لا يعرف ذلك إلا الشـعراء وهم قليل في الناس، والأغلب لا يعرفون ذلك، ختم الآية بالإيمان الذي هو التصديق بالغيب فقال تعالى: {قليلاً ما تؤمنون *} أي ما توجدون التصـديق الذي هو الإيمان إلا إيجاداً أو زماناً قليلاً، وذلك لأني قد أخبرتكم بذلك في غير موضع فلم تصدقوا وفيكم شعراء كثير يعرفون معرفة تامة أنه مخالف للشـعر، وقد أخبركم بعضـهم بذلك كالوليد بن المغير وعتبة ابن ربيعة وغيرهما ثم لا تتبعون ذلك ثمرته، وهو الإيمان بالله ورسـوله، وإيمانهم القليل إقرار من أقر من شعرائهم أنه ليس بشعر، وإخلاصهم بالوحدانية عند الاضـطرار وإفرادهم الخالق بالخلق والربوبية، وهو إيمان لغوي لا شـرعي، ولما كان من يعرف الشـعر يعرف النثر فهو أعلى فقدمه، أتبعه النثر فقال: {ولا بقول كاهن} وهو المنجم الذي يخبر عن أشـياء يوهمها لرئي يخبره

بذلك، وأغلبها ليس لها صحة، وعبارته عن ذلك بالسجع المتكلف المقصود كونه سجعاً الذي يكون المعنى فيه تابعاً للفظ للتحلية بمشاكلة المقاطع.

ولما كانت مباينة القرآن للسجع خفية جداً لما فيه من الفواصل في الأغلب وتركها في البعث فارق لأن الساجعين لا يرضون أن يأتوا بقرينة لا أخت لها ويعدون ذلك وعياً عيباً رديئاً، وكذا تطويل السجعة عن قرينتها وتضعيفها على عديلتها لا يرضى به ساجع ولو أنه هاجع، ومباينة النبي صلى الله عليه وسلم للكهنة ظاهرة جداً، فإن الكاهن من ينصب نفسه للدلال على الضوائع والإخبار بالمغيبات يصدق فيها تارة ويكذب كثيراً، ويأخذ الجعل على ذلك، ويقتصر على من يسأله، فعبر لذلك ب «كاهن» دون «ساجع» أدار أمره على التفكر فقال: {قليلاً ما} وأكد أمر القلة والخفاء بإدغام تاء التفعل فقال تعالى: {تذكرون *} فلذلك يلتبس عليكم الأمر أو على من تلبسون عليه بذلك، فعلم أن الذي يفرق بينهما موجود فيهم لأنه يرى أن الكتاب تابع للمعنى الصحيح الثابت، فإن صح غاية الصحة مع وجود القرائن المتوافقة في الروي كان وإلا انتقل عن ذلك إلى قرائن غير متوافقة في روي ولا ما يقاربه، أو قريبة مفردة مع إمكان جعلها كما قبلها لكن مع نقصان المقصور وطول الكلام ونحو ذلك، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدّع يوماً من الأيام علم الغيب ولا نصيب نفسه الشريفة لشيء مما الكهان فيه ولا نقل في ساعة من الدهر عن الجن خبراً ذكر أنه استفاده منهم ولا مدحهم لذلك كما تفعل الكهان، بل ذم الفاسقين منهم غاية الذم وقال: إن أكثر ما يأتون به الكذب، ولا سأل جعلاً عما يدعو إليه ولا اقتصر

على من يأتيه للسؤال، بل هو صلى الله عليه وسلم يتبع الناس في مجامعهم يدعوهم إلى الله بإنقاذهم نم الضـــلال فمباينته للكهان لا يحتاج إلى غير تذكر قليل- كما أشــار إليه إدغام تاء التفعل- فثبت أن القول ليس بكهانة، وقائله والمؤدي له ليس بكاهن، ونسبة القول إلى المبلغ لكونه مبلغاً واضحة الصحة.

ولما أثبت أنه قول الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، ونفى عنه ما قد يلبس من الشــعر والكهانة، ولم يذكر ما كانوا يرمونه به من الســحر والأضــغاث لأنه عناد محض لا يرتاب أحد فيه، وكانت الســـورة مقصـــوداً فيه إثبات الحقائق التي قد تخفى، وصــفه بما يحقق ما أريد من نســبته إلى الرســول صلى الله عليه وسلم فقال: {تنزيل} أي على وجه التنجيم وأشار إلى إرساله إلى جميع الخلق من أهل الســماوات والأرض بقوله: {من رب العالمين *} أي موجدهم ومدبرهم بالإحسـان إليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به، ورتب سبحانه نظمه على وجه سهله على كل منهم شيئاً يكفي في هدايته البيانية بخلاف الشعر والكهانة فإنه لا يفهمهما إلا قليل من الناس لا جميع العالمين، بل كثير من أكابر العلماء وحذاقهم ربما قرئ على أحد منهم الآن القصــيدة من قصــائد العرب فلا يفهم المراد منها ولا يتضــح له بوجه.

ولما كان قد بقي من الأقســام التي كانوا يتقولونها عليه الافتراء في الرســالة بمعنى أنـه عثر على بعض كتب الله تعالى التي نزلت على من قبلـه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانتحلها من غير أن يوحى إليه، وكان الدليل

على أن ذلك ليس كذلك أن العادة تحيل أن يطلع شـــخص من الناس على شـــيء لم يطلع أحد منهم ولا ســيما إن كان ذلك الشــخص قليل المخالطة للعلماء فكيف إذا كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ كما كان صـلى الله عليه وسـلم، قال عاطفاً على ما تقديره: فلو لم يكن تنزيل رب العالمين عليه لم يعجزوا عنه: {ولو تقوّل} أي كلف نفســه أن يقول مرة من الدهر كذباً {علينا} على ما لنا من صفات العظمة والجلال والبهاء والكمال والكبرياء {بعض الأقاويل *} التي لم نقلها أو قلناها ولم نأذن لـه فيها، وهو جمع أفعولـة من القول كالأضــاحيك جمع أضــحوكة، لا جمع أقوال، ليكون جمع الجمع، لأنه يلزم عليـه أن لا يعـاقب بمـا دون ثلاثـة أقوال {لأخذنـا} أي بعظمتنـا أخذ قوة وغضب وقهر وإهلاك، وأكده للإعلام بشدة الغضب من الكذب وشدة قبحه. ولما كان أخذه أخذاً يتلاشــــى عنده كل أخذ لأن من افترى على الملوك لا يفعل به إلا ذلك قال: {منه} أي خاصــة {باليمين *} أي التي هي العضـو الأقوى منه فيها يكون بطشـــه فنذهبه بشـــدة بطشـــنا، أو اليمين منا، فيكون كناية عن أخذنا له بغاية القوة، فإن قوة كل شـيء في ميامنه، وقيل: إذا أراد الملك إهانة شـــخص قال: خذه يا فلان، فيأخذه بيمينه، فهو كناية عن الإذلال، وقيل: هذا تصـوير قتل الصـبر بأشـنع صـورة، فإن الملك إذا أراد التخفيف على من يقتله أمر السـياف فأخذ يسـاره بيسـاره، وضـرب بالسـيف من ورائه لأن العنق من خلف أوسع فيكون أسرع قطعاً ولا يرى المقتول لمع السـيف، وإن أراد التعذيب والمبالغة في الإهانة أخذ يده اليمنى بيده اليسـرى

وضـربه وهو مسـتقبل له يرى لمع السـيف، وربما وقعت الضـربة لضـيق المجال من قدام في حنكه فيحتاج إلى ثانية وثالثة فهو أفحش.

ولما صور مبدأ الإهلاك بأفظع صورة، أتمه مشيراً إلى شدة بشاعته بحرف التراخي فقال: {ثم لقطعنا} حتماً بلا مثنوية بما لنا من العظمة قطعاً يتلاشى عنده كل قطع {منه الوتين} أي العرق الأعظم في العنق الثابت الدائم المتين الذي يسـمى الوريد، وهو بين العلباء والحلقوم، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما أنه نياط القلب، وفي القاموس : عرق في القلب إذا انقطع مات صـاحبه- انتهى . واختير التعبير به لأن مادته بهذا الترتيب تدور على المتانة والدوام، فلذا كان يفوت صـاحبه بفواته، وقال ابن برجان : عرق متصل بنياط القلب مستبطن للصلب يملأ الجسد كله تسقيه الكبد وهي بيت الدم وهو يجري منها الدم في البدن يأخذ منه ستون عرقاً هي أنهار الدم في الجسد كله، من هذه الأنهار تأخذ الجسد ثمانية عشر تسقي الصدر، وسبعة تسـقي العين، وأربعة تسـقي الدماغ، والوتين من مجمع الوركين إلى مجمع الصـدر بين الترقوتين، ثم ينقسـم عنه سـائر العروق إلى سـائر الجسـد، ولا يمكن في العادة الحياة بعد قطعه، وفي المائدة عند قوله {والله يعصـمك من الناس} [المائدة: 67] ما ينفع هنا.

▲ تفسير الآيات رقم [47- 52]

{فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْـرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)}

ولما أتم تصوير ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه من أن يأخذ السيئات أو أعوانه بيمينه ويكبحه كالسيف فيضربه عنقه، سبب عنه قوله إتماماً لعظمته بقوله: {فما منكم} أي أيها الناس، وأعرق في النفي فقال: {من أحد عنه} أي القتل أو المقتول المنقول، ولما كان «أحد» عاماً حقق عمومه واصفاً له، وأخبر عن «ما» على لغة الحجاز بقوله: {حاجزين *} أي يكون حاجزاً جزماً كثيفاً مانعاً من الوصول إليه فلا غرض يتعلق من عاقل أن ينصح لأحد بنصيحة تعود إلى المنصوح وحده بالنفع ولاحظ للقائل فيها بكذب يكلف نفسه تقوله على ملك لا يقدر ذلك المنضوح أن يحميه من عقوبته على ذلك الكذب، واختار الإخبار بالجمع لأنه يدل على عدم حجز الفرد من باب الأولى و«منكم» حال لتقدمه، وهذا كله كناية على أبلغ الوجوه عن أن هذا الذكر كلام الله لا شبهة فيه بوجه، مضموماً ذلك إلى وجوه إعجازه، فإن «لو» لامتناع الثاني لأجل امتناع الأول، فالتقدير كما يقال في القياس الاستثنائي: لكنا لم نأخذه هذا الأخذ فثبت أنه ما تقول علينا شيئاً، فثبت أن ما قال كلامنا ثبوتاً تاماً بالبرهان على وجه لا يرام نقضه.

ولما كان هذا كناية عن هذا من غير نظر إلى حقائق مفرداته ولا معنى شيء منها على انفراده، فكان كأنه قيل: تنزيل من رب العالمين غير متخيل فيه الكذب بوجه، عطف على ذلك قوله: {وإنه} أي القرآن بعد أن كان ذكراً لجميع العالمين {لتذكرة} أي مذكر عظيم جداً {للمتقين *} أي من العالمين لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد.

ولما علم من هذا أنه سبحانه عالم بقسمي المسيء والحسن ظواهرهم وبواطنهم، صرح بالقسم الآخر، فقال مؤكداً لأجل إنكار الضلال: {وإنا} أي بما لنا من العظمة {لنعلم} أي علماً عظيماً محيطاً {أن منكم} أيها الأرضيون السفليون الذين ليس لهم أهلية العلو إلى تجريد الأرواح عن علائق الجسد الكثيفة {مكذبين *} أي عريقين في التكذيب فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل ليظهر منكم إلى عالم الشهادة منها ما كنا نعمله في الأزل غيباً من تكذيب وإيمان فتستحقون بذلك العقاب أو الثواب، فلذلك وجب في الحكمة التي لا يكذب بها أحد ولا يشك في أنها خاصة الملك المظهرة للكمال أن يعيد الخلق إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازي كلاًّ بما يليق به إظهاراً للعدل.

ولما كان سبب التكذيب ستر ما تجليه مرائي العقول من الدلائل، وكان التقدير: فإنه بشرى للمؤمنين، ولكنه طواه لأن السيق للتهديد بالحاقة، عطف عليه قوله مؤكداً لما لهم من التكذيب به، {وإنه} أي القرآن العظيم {لحسرة} أي بما يرى من تأويله في الدنيا والآخرة {على الكافرين *} أي العريقين في الكفر لكونهم كذبوا به لما يظهر لهم من جزائهم وجزاء المؤمنين.

ولما كان كل من الفريقين يذوق جزاءه في الآخرة، هـ وكان كل أحد سمع القرآن ذاق أنه لا يقدر على الإتيان بشيء يماثله ولا يدانيه، قال مؤكداً تنزيلاً لهم في عداد الجاهلين: {وإنه} أي القرآن أو الجزاء في يوم الجزاء {لحق اليقين *} أي الأمر الثابت الذي يذاق فيصير لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق. من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهو فوق علم اليقين، وفي

ذلك إشـــارة إلى أن العبد ينبغي لـه أن يتحقق لذلك معرفة الحق فيكون مشـــاهداً للغيوب كمشـــاهدة المرئيات لما يشـــاهد من أمثالها، فأمر البعث يشاهد كل يوم في الليل والنهار وفي العام في النبات وغير ذلك.

ولما كان البعث لهذا المقصد من أعظم الكمال، وكان عدمه موجباً للنقص، ســـبب عن كلا الأمرين إشـــارة وعبارة قوله آمراً بعد الإخبار في أول المسبحات: {فسبح} أي أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص {باسم} أي بسبب علمك بصفات {ربك} أي الموجد والمربي لك والمحسن إليك بأنواع الإحســـان {العظيم *} الذي ملأت الأقطار كلها عظمته، وزادت على ذلك بما شاءه سبحانه مما لا تسعه العقول لا سيما عن قولهم: لن يعيدنا، فإنه سبحانه وتعالى قادر على ذلك لا يعجزه شيء، وقد وعد بذلك وهو صادق الوعد، وعدم البعث مخل بالحكمة لظلم أكثر الناس، وفيه إشـــارة إلى المتاركة، وتعجيب من حالهم في تصميمهم على الكذب والعناد، والجلد على الجدل والفساد، فقد رجع آخر السورة على أولها بإحقاق الحاقة لنفي ما وقع الخبط فيه في دار الاحتجاب بالأســـباب من مواقع النقص ومظنات اللبس، فيثبت الحق وينفي الباطل فيفرق بين المحسن والمسيء والسعيد والشقي، فيحق الســـلام لحزب الرحمن، ويثبت الهلاك لأصحاب الشيطان، ويظهر اســـمه الظاهر لكل مؤمن وكافر، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب والله الهادي.

70 Al Maarij Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي
70

سورة المعارج

تفسير الآيات رقم [1– 5]

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5)}

لما ختم أمر الطامة الكبرى في الحاقة حتى ثبت أمره، وتساوى سره وجهره، ودل عليها حتى لم يبق هناك نوع لبس في وجوب التفرقة في الحكمة بين المحسن والمسيء، وختم بأن ترك ذلك مناف للكمال فيما نتعارفه من أمور العمال بعد أن أخبر أنه يعلم أن منهم مكذبين، وكان السائل عن شيء يدل على أن السائل ما فهمه حق فهمه، ولا اتصف بحقيقة علمه، عجب في أول هذه ممن سأل عنها فقال: {سأل} ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد لكان جديراً بالتعجب منه والإنكار عليه بالإفراد في قوله: {سائل} وهو من السؤال في قراءتي من خفف بإبدال الهمزة ألفاً ومن همز.

ولما كان سؤالهم من وقت مجيء الساعة والعذاب وطلبهم تعجيل ذلك إنما هو استهزاء، ضمن «سأل» استهزاء ثم حذفه ودل عليه بحال انتزعها منه وحذفها ودل عليها بما تعدى به فقال، أو أنه حذف مفعول السؤال المتعدي «بعن» ليعم كل مسؤول عنه إشارة إلى أن من تأمل الفطرة الأولى وما تدعو إليه من الكمال فأطاعها فكان مسلماً فاضت عليه العلوم، وبرقت له متجليه أشعة الفهوم، فبين المراد من دلالة النص بقوله: {بعذاب} أي عن يوم القيامة بسبب عذاب أو مستهزئاً بعذاب عظيم جداً {واقع *} وعبر باللام تهكماً منهم مثل {فبشرهم بعذاب} فقال: {للكافرين} أي الراسخين في هذا الوصف بمعنى: إن كان لهم في الآخرة شيء فهو العذاب، وقراءة نافع وابن عامر بتخفيف الهمزة أكثر تعجيباً أي اندفع فمه بالكلام وتحركت به شفتاه لأنه مع كونه يقال: سال يسأل مثل خاف يخاف لغة في المهموز يحتمل أن يكون من سأل يسأل، قال البغوي: وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا: من أهل هذا العذاب ولمن هو؟ سلوا عنه، فأنزلت.

ولما أخبر بتحتم وقوعه علله بقوله: {ليس له} أي بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل {دافع *} مبتدئ {من الله} أي الملك الأعلى الذي لا كفؤ له فلا أمر لأحد معه، وإذا لم يكن له دافع منه لم يكن دافع من غيره وقد تقدم الوعد به، ودلت الحكمة عليه فتحتم وقوعه وامتنع رجوعه.

ولما كان القادر يوصف بالعلو، والعاجز يوصف بالسفول والدنو، وكان ما يصعد فيه إلى العالي يسمى درجاً، وما يهبط فيه إلى السافل يسمى دركاً،

وكانت الأماكن كلها بالنسبة إليه سبحانه على حد سواء، اختير التعبير بما يدل على العلو الذي يكنى به عن القدرة والعظمة، فقال واصـفاً بما يصـلح كونه مشـــيراً إلى التعليل : {ذي المعارج *} أي الدرج التي لا انتهاء لها أصلاً- بما دلت عليه صيغة منتهى الجموع وهي كناية عن العلو، وسميت بذلك لأن الصـاعد في الدرج يشـبه مشـية الأعرج، وروي عن ابن عباس رضـي الله عنهما أنها السـماوات، ودل على ما دلت عليه الكثرة مع الدلالة على عجيب القدرة في تخفيفها على الملائكة بقوله : {تعرج الملائكة} أي وهم أشد الخلق وأقدره على اختراق الطباق، والإسراع في النفوذ حتى يكونوا أعظم من لمح البرق الخفاق {والروح} أي جبريل عليه السلام، خصه تعظيماً له، أو هو خلق هو أعظم من الملائكة، وقيل : روح العبد المؤمن إذا قبض {إليـه} أي محـل منـاجـاتـه ومنتهى مـا يمكن من العلو لمخلوقـاتـه، وعلق بالعروج أو بواقع قوله: {في يوم} أي من أيامكم، فيه آدمياً {خمسـين ألف} وبين المشـقة في صـعوده أو الكون فيه إن أريد القيامة بأن قال: {سـنة *} ولم يقل : عاماً- مثلاً، ويجوز أن يكون هذا اليوم ظرفاً للعذاب فيكون المراد به يوم القيامة، وأن يكون طوله على الكافر باعتبار ما يلحقه من الغم لشدة المخاوف عليه لأنه ورد أنه يخفف على المؤمن حتى يكون بمقدار صـــلاة واحدة- انتهى.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى أنه لو ولي الحساب غير الله لم يفرغ منه إلا في هذا المقدار، ويفرغ منه هو سـبحانه في نصـف يوم من أيام الدنيا، وقال مجاهد والحكم وعكرمة : هو عمر الدنيا من أولها إلى

آخرها خمسون ألف سنة لا يدري أحدكم مضى وكم بقي إلا الله، وقد مضى في سورة {ألم السجدة} ما ينفع ههنا.

ولما كان هذا كله تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن استعجالهم إياه بالعذاب استهزاء وتكذيباً سواء أريد تصوير العظمة أو العذاب، سبب عنه قوله: {فاصبر} أي على أذاهم ولا ينفك ذلك عن تبليغهم فإنك شارفت وقت الانتقام منهم أيها الفاتح الخاتم الذي لم أبين لأحد ما بينت على لسانه، والصبر: حبس النفس على المكروه من الإقدام أو الإحجام، وجماله بسكون الظاهر بالتثبت والباطن بالعرفان {صبراً جميلاً *} أي لا يشوبه شيء من اضطراب ولا استثقال، ولا شكوى ولا استعجال، فإن عذابهم ونصرك عليهم لعظمة من أرسلك، فلا بد من وقوعه لأن القدح فيه والتكذيب به قدح فيها، وهذا قبل الأمر بالقتال.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 13]

{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13)}

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه أتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن، فقال تعالى: {سأل سائل بعذاب واقع} [المعارج: 1] إلى قوله {إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً} [المعارج: 6 و7] ثم ذكر حالهم إذ ذاك {يوم

يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه} [المعارج: 11] الآية، ثم أتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيده {إنها لظى} [المعارج: 15] ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد {فذرهم يخوضوا ويلعبوا} [المعارج: 42] إلى قوله {ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون} [المعارج: 44] ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة- انتهى.

ولما كان كونه تعالى، بما تقدم في العظمة، أمراً معلوماً بما له من الآثار من هذا الكون وما فيه، وكان استبعادهم لما أخبر به أمراً واهياً ضعيفاً سفسافاً لا يكاد يصدق أن أحداً يحاول أن يرد به هذه الأمور التي هي في وضوحها كالشمس لا خفاء بها أصلاً ولا لبس قال مؤكداً: {إنهم} أي الكفار المكذبين المستعجلين {يرونه} أي ذلك اليوم الطويل أو عذابه {بعيداً *} أي زمن وقوعه، لأنهم يرونه غير ممكن أو يفعلون أفعال من يستبعده {ونراه} لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده وهو علينا هين {قريباً *} سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان، فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة، وكل آت قريب والبعيد والقريب عندنا على حد سواء.

ولما ذكر عن هذا اليوم ما يبعث على السؤال عنه، استأنف بيانه مبيناً عظمته فقال: {يوم} أي يقع حين {تكون السماء} أي التي هي أوثق ما تراه وأصلبه من عظم ما يقع فيه من الأهوال {كالمهل *} أي الشيء المذاب من المعادن في مهل أو دردي الزيت {وتكون الجبال} التي هي أشد الأرض وأثقل ما فيها {كالعهن *} أي الصوف المصبوغ ألواناً المنقوش، تطيره الريح كالهباء، وذلك لأن الجبال في أصلها متلونة كما قال تعالى {ومن الجبال

جدد وبيض وحمر} [فاطر: 27] الآية، قال البغوي: ولا يقال عهن إلا للمصبوغ، قال: وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم هباء منثوراً- انتهى. {ولا يسأل} من شدة الأهوال {حميم حميماً} أي قريب في غاية القرب والصداقة قريباً مثله عن شيء من الأشياء لفرط الشواغل ولأنه قد كشف لهم أنه لا تغني نفس عن نفس شيئاً، وأنه قد تقطعت الأسباب وتلاشت الأنساب لما كشف الابتلاء عن أنه لا عز إلا بالتقوى- هذا على قراءة الجماعة بفتح الياء وعلى قراءة ابن كثير بالبناء للمفعول المعنى أنه لا يطالب أحد بأحد كما بعض الحكام في الدنيا من أنه يلزم أقارب من قربه لأنه لا حاجة له بذلك، لأن القدرة محيطة بالكل على حد سواء.

ولما كان عدم السؤال قد يكون لعدم رؤية بعضهم بعضاً لكثرة الجمع وشدة الزحام وتفرق الناس فيه على حسب مراتب أعمالهم، استأنف الجواب لمن كأنه يقول: لعل ذلك يترك لعدم رؤيتهم لهم؟ فقال دالاً بالمجهول والتفعيل على عظمة ذلك التبصير وخروجه عن العادة جامعاً لأن المقصود من الحميم الجنس والجمع أدل على عموم التبصير، قال البغوي: وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس- انتهى، وكان حكمة ذلك أنه أدل على تقطع الأسباب فلا يسأل أحد منهم الآخر عن شيء من أمره لاشتغال كل بنفسه، فعدم السؤال لا للخفاء بل للاشتغال وهم كل إنسان بما عنده: {يبصرونهم} أي يبصرهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وإن بعد مكانه ويفر كل من الآخر لشغله بنفسه، ولما تناهى الإخبار

بعظمة ذلك اليوم إلى حد لا تحتمله القلوب، ذكر نتيجة ذلك فقال مستأنفاً: {يود} أي يتمنى ويشتهي {المجرم} أي هذا النوع سواء كان كافراً أو مسلماً عاصياً علم أنه يعذب بعصيانه، وقيد به لأن المسلم الطائع يشفع فيمن أذن له فيه ولا يهمه شيء من ذلك، ودل على أن هذه الودادة مجرد تمن بقوله: {لو يفتدي} أي نفسه {من عذاب يومئذ} أي يوم إذ كانت هذه المخاوف بأعلق الناس بقلبه وأقربهم منه فضلاً عن أن يسأل عن أحواله.

ولما كان السياق للافتداء، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما يأتي في عبس فقال: {ببنيه *} لشدة ما يرى.

ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة وما الافتداء به لا سيما عند العرب من أقبح العار فقال: {وصاحبته} أي زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائماً معها لكونها عديلة روحه في الدنيا.

ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة، أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم وربما كان مبايناً، فقال: {وأخيه *}.

ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم فقال: {وفصيلته} أي عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه {التي تؤويه *} أي تضمه إليها عند الشدائد وتحميه، لأنه أقرب الناس إليها وأعزهم عليها فهم أعظم الناس حقاً عليه وأعزهم لديه.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 21]

{وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)}

ولما كانت هذه الآية في الفدية، قدم الأبعد عن ذلك فالأبعد من جهة النفع والمعرة. ولما كانت آية عبس في الفرار والنفرة، قدم الألصق فالألصق، والأعلق في الأنس فالأعلق.

ولما خص هنا عم فقال: {ومن في الأرض} أي من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بد في كل حال منه أو لا. ولما كان ربما خص ذلك بغيره، قال محققاً لإرادة الحقيقة في معنى «من»: {جميعاً}.

ولما كان الإنسان تكشف له الأمور هناك أي كشف، وتظهر له أتم ظهور، قال تعالى {فبصرك اليوم حديد} فيعلم أنه لا ينجيه من الخطايا المحيطة المحبطة شيء، دل على الاستبعاد بأداة البعد فقال عاطفاً على «يفتدي»: {ثم ينجيه *} أي ثم يود لو يكون له بذلك نجاة تتجدد له في وقت من الأوقات.

ولما كان هذا مما قد يطمع في النجاة، فإن بعض الناس يطبع على قلبه فيستغويه الأطماع حتى يعد المحال ممكناً، قال معبراً بمجمع الروادع والزواجر الصوادع: {كلا} أي ليكن للمجرم ردع أيّ ردع عن وداده هذا وترتب أثره عليه، فإن ذلك لا يكون أبداً بوجه من الوجوه.

ولما كان الإضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر في المهيع الذي هو فيه، لأن ذلك إشارة إلى أنه مستحضر في الذهن لا يغيب أصلاً لما للمقام

عليه من عظيم الدلالة، قال بعد هذا الردع العظيم عن النجاة بل عن ودادة تمنيها: {إنها} أي النار التي هي سوط الملك المعد لمن عصاه، المهدد في هذا السياق بعذابها، المستولية عليه لتكونه سجنه: {لظى *} أي ذات اللهب الخالص المتناهي في الحر يتلظى أي يتوقد فيأكل بسببه بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله وتأكل ما وجدته كائناً ما كان {نزاعة للشـــوى *} أي هي شـــديدة النزع لجلود الرؤوس بليغته فما الظن بغيره من الجلد، وقال في القاموس: الشـــوى: اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل- انتهى، وقيل: والجلد كله واللحم تنزع ذلك ثم يعود كما كان في الحال ليروا التعب الذي كانوا ينكرونه في أنفسهم في كل لحظة.

ولما كان الخلاص غير ممكن من الداعي القادر على الإحضـــار كنى عن إحضـــارها إياهم وجذبها لهم بقوله: {تدعوا} ويجوز أن يكون ذلك حقيقة فتقول في الدعاء في نفســـها: إليّ يا مشـــرك إليّ يا منافق، ونحو ذلك ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب {من} أي كل شـــخص {أدبر} أي من الجن والإنس أي من وقع منه إدبارهما من حقه الإقبال عليه ســـواء كان ذلك الإدبار عنها أو عن الأعمال التي من شأنها التنجية منها، ولما كان الإدبار قد يكون عن طبع غالب فيكون صـــاحبه في عداد من يعذر، بين أن الأمر ليس كذلك فقال: {وتولى *} أي كلف فطرته الأول المستقيمة الإعراض عن أسباب النجاة.

ولما كانت الدنيا والآخرة ضـــرتين، فكان الإقبال على إحداهما دالاً على الإعراض عن الأخرى، قال دالاً على إدباره بقلبه: {وجمع} أي كل ما كان منسوباً إلى الدنيا.

ولما كانت العادة جارية بأن من كانت الدنيا أكبر همه كان همه بجمعه الاكتناز لا الإنفاق، سـبب عن جمعه قوله: {فأوعى *} أي جعل ما جمعه في وعاء وكنزه حرصـاً وطول أمل ولم يعط حق الله فيه، فكان همه الإيعاء لا إعطاء ما وجب من الحق إقبالاً على الدنيا وإعراضاً عن الآخرة.

ولما كان من أعجب العجب أن يقبل على الدنيا أحد يســمع هذا التهديد بالعرض بين يدي الله والعقاب لمن لم يقبل على عبادته ســبحانه، بين أن ذلك لما جبله عليه سبحانه وأن الإنسان مقهور مع جبلته إلا من حفظه الله، وذلك دال من كلا الطرفين على عظيم قدرته سـبحانه، قال مؤكداً لاقتضـاء المقام للتأكيد لأن الإنســان لو خوف بالعرض على بعض الأمراء ما لابس ما يغضــبه فكيف بالعزيز الحكيم القدير العليم: {إن الإنســان} أي هذا الجنس، عبر به لما له من الأنس بنفسـه والرؤية لمحاسـنها والنسـيان لربه ولذنبه.

ولما دعا الحال إلى بيان الجبلة الداعية إلى ما يقتضــيه باختيار صــاحبها على وجه كأنه إلجاء بياناً لسـهولة الأمور عليه سـبحانه بنى للمفعول قوله: {خلق هلوعاً *} أي جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شـدة الحرص وقلة الصـبر والشـح على المال والرغبة فيما لا ينبغي، وعن

ابن عباس رضي الله عنهما أنه الحريص على ما لا يحل له، وروي عنه أن تفسيره ما بعده.

ولما كان الهلع شدة الحرص وقلة الصبر، نشر معناه فقال مقدماً المعمول الذي هو الظرف على العامل بياناً لإسراعه في ذلك: {إذا مسه} أي أدنى مس {الشر} أي هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضر {جزوعاً *} أي عظيم الجزع، وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت {وإذا مسه} أي كذلك {الخير} أي هذا الجنس وهو ما يلائمة فيعينه من السعة في المال وغيره من أنواع الرزق {منوعاً *} أي مبالغاً في الإمساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفاً مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة، وهذا الوصف ضد الإيمان، لأنه نصفان: صبر وشكر.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 29]

{إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29)}

ولما كان التقدير: فهو يسارع في آثار ما جبل عليه ما يترتب على الجزع مما لا يجوز في الشرع ومما يترتب على المنع من ذلك أيضاً فيكون من أهل النار، وكان من القدرة البالغة أن يحفظ سبحانه من أراد من الخزي مع جبلته ويحمله على كسر نفسه مرة بعد أخرى حتى يتلاشى ما عنده من

جبلة الشـر وتبقى الروح على حالها عند الفطرة الأولى، فلا تزال تحثه على المبادرة إلى طاعته سـبحانه وتعالى وحفظ حدوده، فكان لا كرامة أعظم من حفظ المكلف لحدود الشـــرع مع المنافاة لطبعه، فيكون جامعاً للإيمان بنصفيه: الصبر والشكر، لما جمع من هذه الأوصاف الثمان المعادة لأبواب الجنة الثمان، فكان أسـباباً لها، اسـتثنى من هذا النوع الهلوع ولذلك جمع فقال: {إلا المصـلين *} أي المحافظين على الصـلاة التي هي مواطن الافتقار، العريقين في هذا الوصف، فإنه لا يشتد هلعهم فلا يشتد جزعهم ولا منعهم، فيكونوا في أحسن تقويم معتدلين مسارعين فيما يرضي الرب، لأنه سبحانه قرن بما جبلهم عليه من الهلع من طهارة الجسد لطهارة طينته وزكاء روحه ما هيأه لتهذيب نفسه مما يسره له من أصدقاء الخير وأولياء المعروف وسـماع المواعظ الحسـان والإبعاد عن معادن الدنس من البقاع والأقران والكلام والأفعال وغير ذلك من سائر الأحوال، والملابسة بكل ما يحمل على المعالي من صـالح الخلال حتى كانوا من أهل الكمال، ولذلك وصـفهم بما يبين عراقتهم في الوصـف لها فقال: {الذين هم} أي بكلية ضـمائرهم وظواهرهم {على صـلاتهم} أي التي هي معظم دينهم وهي النافعة لهم لا لغيرهم- بما أفادته الإضـافة، والمراد الجنس الشـامل لجميع الأنواع إلا أن معظم المقصـود الفرض، ولذلك عبر بالاسـم الدال على الثبات في قوله: {دائمون *} أي لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها بل يلازمونها ملازمة يحكم بسببها أنها في حال الفراغ منه نصب أعينهم بدوام الذكر لها والتهيؤ لأدائها لأنها صـلتهم بمعبودهم الذي لا خير عندهم إلا منه، فلم يكونوا

ناسين لمساوئهم ولا آسين بمحاسنهم، وكفى بالصلاة بركة في دلالتها على النجاة من هذا الوصف الموجب لأسباب النار، وهي عبادة ذات شروط وأركان وأبعاض وهيئات وسنن وآداب مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وهي منقسمة إلى ذات ركوع وسجود، وإلى ذات سجود بلا ركوع كسجدة الشكر والتلاوة، وإلى ما لا ركوع فيها ولا سجود كصلاة الجنازة.

ولما ذكر زكاة الروح، أتعبه زكاة عديلها المال، فقال مبيناً للرسوخ في الوصف بالعطف بالواو : {والذين في أموالهم} أي التي منَّ سبحانه بها عليهم {حق} ولما كان السياق هنا لأعم من المحسنين الذين تقدموا في الذاريات اقتصر على الفرض فقال : {معلوم *} أي من الزكوات وجميع النفقات الواجبة.

ولما كان في السؤال من بذل الوجه وكسر النفس ما يوجب الرقة مع وقاية النفس مع المذمة، قدم قوله: {للسائل} أي المتكلف لسؤال الإنفاق المتكفف. ولما كان في الناس من شرفت همته وعلت رتبته على مهاوي الابتذال بذل السؤال من الإقلال بذب المقبل على الله للتفطن والتوسم لأولئك فقال : {والمحروم *} أي المتعفف الذي لا يسأل فيظن غنياً ولا مال له يغنيه فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره، ولا مفزع له بعد ربه المالك لعلانيته وإسراره إلا إلى إفاضة مدامعه بذله وانكساره، وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى، وقد كان للسلف الصالح في هذا وأشباهه قصب السبق، حكي عن زين العابدين أنه لما مات وجد في ظهره آثار سود عند غسله كأنها السيور، فعجبوا منها، فلما كان بعد أيام

قال نسوة أرامل: كان شخص يأتي إلينا ليلاً بقرب الماء وأجربة الدقيق على ظهره ففقدناه واحتجنا، فعلموا أنه هو وأن تلك السـيور من ذلك، وحي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن شخصاً رآه ماشياً في زمن خلافته في الليل فتبعه حتى يعلم إلى أين يقصد، فلم يزل رضي الله عنه حتى جاء إلى بيت نسـوة أرامل فقال : أعندكن ماء وإلا أملأ لكن، فأعطينه جرة فأخذها وذهب فملأها على كتفه وأتى بها إليهن، والحكايات عنهم في هذا الباب كثيرة شهيرة جداً.

ولما كان المال قد يصـرف لإصـلاح الدنيا، بين أن النافع منه إنما هو المصدق للإيمان فقال: {والذين يصدقون} أي يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت {بيوم} ولما كان المقصـود الحث على العمل لأجل العرض على الملك الأعلى عبر بقوله: {الدين *} أي الجزاء الذي ما مثله وهو يوم القيامة الذي يقع الحسـاب فيه والدينونة على النقير والقطمير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالأعمال الصالحة، فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال، وأما المصـدقون بمجرد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال.

ولما كان الدين معناه الجزاء من الثواب والعقاب، وكان ربما صرفه صارف إلى الثواب فقط للعلم بعموم رحمته سـبحانه، وأن رحمته غلبت غضـبه، صرح بالعقاب فقال: {والذين هم} أي بجميع ضمائرهم {من عذاب ربهم} أي المحسن إليهم، لا من عذاب غيره، فإن المحسن أولى بأن يخشى ولو من قطع إحسانه، وإذا خيف مع تجليه في مقام الإحسان كان الخوف أولى عند

اعتلائه في نعوت الجلال من الكبر والقهر والانتقام {مشـــفقون *} أي خائفون في هذه الدار خوفاً عظيماً هو في غاية الثبات من أن يعذبهم في الآخرة أو الدنيا أو فيهما، فهم لذلك لا يغفلون ولا يفعلون إلا ما يرضـــيه سبحانه.

ولما كان المقام للترهيب، ولذلك عبر عن الرجاء على فعل الطاعات بالدين، فصـار العذاب مذكوراً مرتين تلويحاً وتصـريحاً، زاده تأكيداً بقوله اعتراضـاً مؤكداً لما لهم من إنكاره: {إن عذاب ربهم} أي الذي رباهم وهم مغمورون بإحســانه وهم عارفون بأنه قادر على الانتقام ولو بقطع الإحســان {غير مأمون *} أي لا ينبغي لأحد أن يأمنه، بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة لأن الملك مالك وهو تام الملك، له أن يفعل ما يشـــاء- ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية الإبعاد ولم يزل مترجحاً بين الخوف والرجاء.

ولما ذكر التحلي بتطهير النفس بالصـلاة وتزكية المال بالصـدقة، ندب إلى التخلي عن أمر جامع بين تدنيس المال والنفس وهو الزنا الحامل عليه شـهوة الفرج التي هي أعظم الشـهوات حملاً للنفس على المهلكات، فقال بعد ذكر التخويف بالعذاب إعلاماً بأنه أسرع إلى صاحب هذه القادورة وقوعاً من الذباب في أحلى الشــراب فقال: {والذين هم} أي ببواطنهم الغالبة على ظواهرهم {لفروجهم} أي ســواء كانوا ذكوراً أو إناثاً {حافظون *} أي حفظاً ثابتاً دائماً عن كل ما نهى الله عنه.

▲ تفسير الآيات رقم [30- 32]

{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32)}

ولما ذكر هذا الحفظ على هذا الوجه، ذكر ما أذن فيه في أسلوب الاستثناء إشعاراً بأنه كأنه لم يذكر فيخرج إلا بعد تقرير عموم الحفظ لا أنه مقصود ابتداء بقصد الصفة فقال: {إلا على أزواجهم} أي بعقد النكاح.

ولما قدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن أتبعه قوله: {أو ما} عبر بما هو الإغلب لغير العقلاء ندباً إلى إيساع البطان في احتمالهن {ملكت أيمانهم} أي من السراري اللاتي هن محل الحرث والنسل اللاتي هن أقل عقلاً من الرجال.

ولما كان الناكح عبادة نادراً جداً، وكان الأصل في العبادة الخروج عن العادة، وإن لم يتجرد للعبادة كن ملوماً، اكتفى في مدحه بنفي اللوم عنه، وأكده لأن الأصل كان استحقاقه للملام لإقباله على تحصيل ما له من المرام فقال مسبباً عن المستثنى: {فإنهم} أي بسبب إقبالهم بالفروج عليهن وإزالة الحجاب من أجل ذلك {غير ملومين *} أي في الاستمتاع بهن من لائم ما- كما نبه عليه بالبناء للمفعول- فهم يصحبونهن قصداً للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله.

ولما أفهم ذلك تحريم غير المستثنى ووجب الحفظ للفروج عنه، صرح به على وجه يشمل المقدمات فقال مسبباً عنه: {فمن ابتغى} أي طلب، وعبر

بصيغة الافتعال لأن ذلك لا يقع إلا عن إقبال عظيم من النفس واجتهاد في الطلب {وراء ذلك} أي شـــيئاً من هذا خارجاً عن هذا الأمر الذي أحله الله تعالى، والذي هو أعلى المراتب في أمر النكاح وقضـــاء اللذة أحســـنها وأجملها. ولما كان الوصـــول إلى ذلك لا يكون إلا بتسـبب من الفاعل ربط بالفاء قوله: {فأولئك} أي الذين هم في الحضـيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة {هم} أي بضـــمائرهم وظواهرهم {العادون *} أي المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه.

ولما ذكر العادي أتبعه الواقف عند الحدود فقال: {والذين هم} أي ببذل الجهد من توجيه الضـمائر {لأماناتهم} أي كل ما ائتمنهم الله عليه من حقه وحق غيره.

ولما كان ذلك قد يكون من غير عهد، قال مخصصاً: {وعهدهم} أي ما كان من الأمانات بربط بالكلام وتوثيق {راعون *} أي حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار.

▲ تفسير الآيات رقم [33- 38]

{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَـــهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـــلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)}

ولما كان أجل العهود والأمانات ما كان بإشـهاد قال مبيناً لفضـل الشـهادة: {والذين هم} أي بغاية ما يكون من توجيه القلوب {بشـهاداتهم} التي شـهدوا

بها أو يستشهدون بها لطلب أو غيره، وتقديم المعمول إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها {قائمون *} أي يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيئ لها واقف في انتظارها.

ولما كانت أضداد هذه المذكورات نقائص مهلكات، وكانت الأنفس- لما لها من النقص- نزاعة إلى النقائص ميالة إلى الدسائس، ذكر سبحانه بالدواء المبرئ من كل داء، فقال مشيراً إلى حفظ أحوال الصلاة وأوصافها بعد ذكر الحفظ لذواتها وأعيانها تنبيهاً على شدة الاهتمام بها: {والذين هم} ولما وسط الضمير إشارة إلى الإقبال بجميع القلب قدم الصلة كما فعل بما قيل تأكيداً وإبلاغاً في المراد إلى أقصى ما يمكن كما لا يخفى على ذي ذوق فقال: {على صلاتهم} من الفرض والنقل {يحافظون *} أي يبالغون في حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها لتحفظهم أو يسابقون غيرهم في حفظها لأوقاتها وشروطها وأركانها ومتمماتها في ظواهرها وبواطنها من الخضوع والمراقبة، وغير ذلك من خلال الإحسان التي إذا فعلوها كانت ولا بد ناهية لفاعلها «أن الصلاة» الكاملة «تنهى عن الفحشاء والمنكر» فتحمل على جميع هذه الأوامر وتبعد عن أضدادها، ولكون السياق هذا للتخلي عن الأوصاف الجارة إلى الكفر وحد الصلاة إشارة إلى أنه يكفي في ذلك الفرائض وإن كان الجاس يشمل، وفي المؤمنون السياق لأهل الرسوخ في المحاسن، فلذلك جمع بين النوعين: الإفراد في الأول لينصب بادئ بدئ إلى الفرائض، والجمع في بعض القراءات ليفهم مع

ذلك النوافل بأنواعها، وفي فتح الأوصـــاف بالصـــلاة وختمها بها من بيان جلالتها وعظمتها أمر باهر.

ولما ذكر حلاهم أتبعه ما أعطاهم فقال مســـتأنفاً ومســـتنتجاً من غير فاء إشـارة إلى أن رحمته هي التي أوصـلتهم إلى ذلك من غير سـبب منهم في الحقيقة: {أولئك} أي الذين هم في غاية العلو لما لهم من هذه الأوصـــاف العالية، وعبر بما يدل على أنه عجل جزاءهم سبحانه فقال: {في جنات} أي في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فواضـــح، وأما في الدنيا فلأنهم لما جاهدوا فيه بإتعاب أنفســهم في هذه الأوصـاف حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشـرتها لذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لا يســاويها شـــيء أصـــلاً، والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمســـتلذات والســـرور، وانتفى عنه جميع المكروهات والشـرور، وضـدها النار، وزادهم على ذلك بقوله: {مكرمون *} معبراً باسم المفعول إشارة إلى عموم الإكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره لأنه سـبحانه قضـى بأن يعلو مقدارهم حتى يكونوا أعظم مشـخص؟ لهم في الغيب مبالغاً في إكرامهم عند المواجهة ليكون لهم نصـــيب من خلق نبيهم صـلى الله عليه وسـلم، «لقيه يوم بني قريظة علي رضـي الله عنه وكان قد سبقه إليهم فقال: يا رسول الله، ما عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث؟ فقال: ولم، لعلك سـمعت بي منهم أذى، لو قد دنوت منهم لم يقولوا من ذلك شـيئاً، ثم دنا منهم فقال: هل أخزاكم الله يا إخوان القردة والخنازير، فقالوا: مه يا أبا القاســم ما كنت جهولاً» وكلموه بأحســن ما يمكنهم، وكذا كانت معه قريش قبل الهجرة في أكثر أحوالهم، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فيتلقاهم الملائكة

بالبشـــرى حين الموت وفي قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم إلى حين دخولهم إلى قصورهم.

ولما تحرر بهذا الكلام الإلهي الذي يشك عاقل في أن مخلوقاً لا يقدر عليه، وأنه لا يقدر عليه إلا الله الواحد الذي لا شريك له، العالم بكل شيء، القادر على كل شـــيء، أنه لا يتفصـــى عن نقائص الإنســـان حتى يتخلص من ظلمات النقصان إلى نور الإحسان إلا من لازم هذه الأوصاف وزكى نفسه بها ليصـــير كاملاً مع العلم القطعي عند المســـلم والكافر أن الكمال ســـبب السعادة، وأن الإنسان مطبوع على ما صدر به سبحانه من النقائص، علم أن المتصـــفين بهذه الأوصـــاف هم المختصـــون بالســـعادة الأخروية، وكان الكفار يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ويجلسون حوله بالقرب منه ليسمعوا كلامه ويكذبوه ويهزؤوا به، وكان العاقل لا ينبغي له أن يأتي شـيئاً لا سـيما إن كان إتيانه إليه على هيئة الإسراع إلا لتحصيل السعادة، سبب عن ذلك قوله معبراً عن عظمة القرآن بما حاصله أنهم حين يسمعونه يصيرون لشدة ما يفزعهم أمره لا يتمالكون فيفعلون أفعال من لا وعي له : {فمال الذين كفروا} أي أي شـــيء من الســـعادة للذين ســـتروا مرائي عقولهم عن الإقرارا بمضـمون هذا الكلام الذي هو أوضـح من الشـمس، حال كونهم {قبلك} أي نحوك أيها الرسـول الكريم وفيما أقبل عليك {مهطعين *} أي مسـرعين مع مد الأعناق وإدامة النظر إليك في غاية العجب من مقالك هيبة من يســـعى إلى أمر لا حياة له بدونه.

ولما كان الذي يتطير فيراعي الأيامن والأشـائم على ما تقدم في الصـافات، لا يترك ذلك إلا في أمر أدهش عقله وأطار لبه، فلم يدعه يتأمل، قال مشيراً إلى شـدة اعتنائهم بهذا الإهطاع مع عدم التحفظ من شـيء: {عن} أي متجاوزين إليك كل مكان كان عن جهة {اليمين} أي منك حيث يتمنون به {وعن الشمال} أي منك وإن كانوا يتشاءمون به {عزين *} أي حال كونهم جماعات جماعات وخلقاً خلقاً متفرقين فرقاً شتى أفواجاً يتمهلون ليأتوا جميعاً جمع عزة، وأصـلها عزوة لأن كل فرقة تعتزي إلى غير ما تعتزي إليه الأخرى، جمع جمع سلامة شذوذاً.

ولما كان هذا الإسراع على هذا الوجه لا ينبغي أن يكون إلا فيما يتحقق أنه مسعد، ومع تحقق أنه مسعد لا ينبغي أن يكون إلا فيما تحصل به السعادة الأبدية؛ قال منبهاً على ذلك منكراً أن يكون لهم ما كان ينبغي ألا يكون فعلهم ذلك إلا له مع أنه كان من جملة استهزائهم إذا تحلقوا لسماع ما يقرأ أن يقولوا: إن كان ما يقول حقاً من أمر البعث والجنة لنكونن أسعد بها منهم كما أنا أسعد منهم في هذه الدار كما قال تعالى حاكياً عنهم في قوله: {ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} [فصلت: 50] وذلك أنه كثيراً ما يأتي الغلط من أن الإنسـان يكون في خير في الدنيا فيظن أن ذلك مانع له من النار لأنه خير في نفس الأمر، أو يظن أن إمهاله وهو على الباطل رضـي به، ولا يدري أنه لا يضـجر ويقلق ويعجل إلا من يخاف الفوت، أو يكون شـيء بغير إرادته: {أيطمع} أي بهذا الإتيان، وعبر بالطمع إشـارة إلى أنهم بلغوا الغاية في السفه لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له.

ولما كان إتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال : {كل امرئ منهم} أي على انفراده، ولما كان المحبوب دخول الجنة لا كونه من مدخل معين، قال بانياً للمفعول : {أن يدخل} أي بالإهطاع وهو كافر من غير إيمان يزكيه كما يدخل المسلم فيستوي المسيء والمحسن {جنة نعيم *} أي لا شيء فيها غير النعيم في كل ما فيها على تقدير ضبطه.

▲ تفسير الآيات رقم [39- 44]

{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)}

ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري المفيد للنفي : لا يدخل، أكد ذلك مع إفهام الضجر والاستصغار بالإتيان بأم الزواجر والروادع فقال: {كلا} أي لا يكون ما طمعوا فيه أصلاً لأن ذلك تمن فارغ لا سبب له- بما دل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء.

ولما كان الإنسان إذا أكثر من شيء وجعله ديدنه فساغ عندهم أن يقال: فلان خلق من كذا، علل ذلك بقوله مؤكداً، عدّاً لهم منكرين لأنهم مع علمهم بنقصانهم يدعون الكمال: {إنا} على ما لنا من العظمة {خلقناهم} بالعظمة التي لا يقدر أحد أن يقاويها فيصرف شيئاً من إرادته عن تلك الوجهة التي وجهته إليها إلى غيرها {مما يعلمون *} أي مما يستحي من ذكره ذاتاً

ومعنى، أما الذات فهو نطفة مذرة أخرجت من مخرج البول وغذيناها بدم الحيض، فهي يتحلب منها البول والعذرة، وأما المعنى فالهلع والجزع والمنع اللاتي هم موافقون على عدها نقائص، فلا يصلحون لدار الكمال إلا بتزكية أنفســـــهم بما تقدم من هذه الخلال التي حض عليها الملك المتعال، روى البغوي بسنده عن بشر بن جحاش رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وبصـق يوماً في كفه ووضـع عليها أصـبعه فقال:» يقول عز وجل: ابن آدم! أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا ســويتك وعدلتك مشيت بين بردين والأرض منك وئيد وجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنّى أوان الصدقة «» انتهى.

ولما كان في ذكر هذا الخلق مع ما تقدم إشارة عظيمة إلى ما كانوا يقولون: إنه إن كان الأمر كما يقولون من الحشــــر والجنة لنكونن آثر عند الله منكم ولندخلنها كما نحن الآن آثر منكم عنده بما لنا من الأموال، والبســـــطة في الدنيا والوجاهة والإقبال، وتنبيه على أن الكل متســـــاوون في أنهم من نطفة فما فضـــلهم في هذه الدنيا بهذه النعم الظاهرة إلا هو ســبحانه، وقد فضـــل المؤمنين بالنعم الباطنة التي زادتهم في التمكن فيها التزكية بهذه الأوصـــاف العملية الناشـــئة عن الصـــفة العلمية، وهو قادر على أن يضـــم إلى النعم الباطنة النعم الظاهرة، ولذلك سبب عنه قوله: وأكد بنفي القسم المشير إلى عدم الحاجة إليه لكثرة الأدلة المغنية عنه لما لذلك المقســم عليه من الغرابة في ذلك الوقت لكثرة الكفار وقوة شـوكتهم: {فلا} أي فتسـبب عن خلقنا لهم من ذلك المنبه على أنا نقدر على كل شــيء نريده وأنه لا يعجزنا شــيء أي

لا {أقسـم} فلفت القول إلى أفراد الضـمير معرى عن مظهر العظمة لئلا يتعنت متعنت في أمر الواحدانية {برب} أي مربي وسـيد ومبدع ومدبر {المشارق} التي تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة كل يوم في موضع منها على المنهاج الذي دبره، والقانون القويم الذي أتقنه وسخره، ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة {والمغارب} كذلك على هذا الترتيب المحكم الذي لا يعتريه اختلال، وهي التي ينشـأ عنها الليل والنهار والفصـول الأربعة، فكان بها صـلاح العالم بمعرفة الحساب وإصـلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب، فيوجد كل من الملوين بعد أن لم يكن والنبات من النجم والشـجر كذلك عادة مسـتمرة دالة على أنه قادر على الإيجاد والإعدام لكل ما يريده كما يريده من غير كلفة ما.

ولما كان المعنى: لا أقسم بذلك وإن كان عظيماً لأن الأمر في وضوحه لا يحتاج إلى قسم، كما لو قال خصم لخصمه: احلف، فيقول له: الأمر غني عن حلفي إذ يحتاج إلى اليمين من لا بينة له، ثم يأتي من البينات بما لا يكون معه شـبهة، وكانوا في تفضـيل أنفسـهم- مع الاعتراف لله بالقدرة- كالمنكرين للقدرة على قلب الأمر، أكد قوله عائداً إلى مظهر العظمة بعد دفع اللبس بما هو في وضـوحه أجلى من الشـمس: {إنا} أي بما لنا من العظمة {لقادرون *} بأنواع التأكيد بالأداة والأسـمية والالتفات إلى مظهر العظمة في كل من الاسـم والخبر، فكان في إخباره بعد الإقسـام مع التأكيد إشـارة إلى أعلى مراتب التأكيد {على أن نبدل} أي تبديلاً عظيماً بما لنا من الجلالة عوضاً عنهم {خيراً منهم} أي بالخلق أو تحويل الوصف فيكونوا أشد

بسطة في الدنيا وأكثر أموالاً وأولاداً وأعلى قدراً وأكثر حشماً ووجاهة وحزماً وخدماً، فيكونوا عندك خلقاً على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك، وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان بالسعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر، والتمكن في الأرض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة، فرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال.

ولما كان الإنسان قد يفعل شيئاً ثم ينقض عليه، أخبر أنه سبحانه على غير ذلك فقال: {وما} وأكد الأمر بالأسمية الكائنة في مظهر العظمة فقال: {نحن} وأعرق في النفي فقال: {بمسبوقين *} أي من سابق ما يغلب على شيء لم نرده بوجه من الوجوه، ولذلك أتى باسم المفعول.

ولما ثبت أن له سبحانه العظمة البالغة الباهرة من شمول العلم وتمام القدرة، فأنتج اعتماد أهل حزبه عليه وإعراضهم عن كل ما سواه، سبب عن ذلك قوله تهديداً للمخالفين وتسلية للمؤالفين: {فذرهم} أي اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم {يخوضوا} أي يفعلوا في مقالهم وفعالهم الذي لا شيء منه على إتقان بل هو كفعل الخائض في الماء الذي لا يضع رجله في موضع يعلم أنه يرضيه، فهو بصدد أن يقع أو يغرق {ويلعبوا} أي يفعل فعل اللاعب الذي لا فائدة لفعله إلا ضياع الزمان والتعطل عما يهم من عظيم الشأن.

ولما كان ما توعد الله من أحوال الآخرة لا بد من وقوعه كان كأنه قادم على الإنسان والإنسان ساع بجهده إليه، فلذلك عبر بالمفاعلة فقال: {حتى يلاقوا} ولما كان ما يقع للكفار منه أعظم، كان ذلك اليوم كأنه خاص بهم فقال: {يومهم الذي} ولما كان الوعيد– وهو ما كان من الخبر تخويفاً للمتوعد– صـــادعاً للقلوب إذا كان من القادر من غير حاجة إلى ذكر المتوعد، بني المفعول قوله: {يوعدون *} وهو يوم كشــف الغطاء الذي أول تجليته عند الغرغرة ونهايته النفخة الثانية إلى دخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره، والآية منسوخة بآية السيف.

ولما كان ما بعد النفخة الثانية أعظمه وأهوله، أبدل منه قوله: {يوم يخرجون} أي هؤلاء الذين يسألون عنه سؤال استهزاء ويستبعدونه، وقراءة أبي بكر عن عاصم بالبناء للمفعول على طريقة كلام القادرين تدل على أنه مما هو في غاية السـهولة {من الأجداث} أي القبور التي صـاروا بتغييبهم فيها تحت وقع الحافر والخف، فهم بحيث لا يدفعون شـيئاً يفعل بهم بل هم كلحم في فم ماضغ، فإن الجدث القبر والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم {سراعاً} أي نحو صوت الداعي.

ولما كانت عادة الإنسـان الإسـراع إلى ما يقصـده من الأعلام المنصـوبة، وعادتهم– هم بالخصـــوص– المبادرة إلى الأنصـــاب التي يبعدونها ما هي عليه من الخساسة خفة منهم في العلوم وطيشاً في الحلوم قال: {كأنهم إلى نصـب} أي علم منصـوب مصـدر بمعنى المفعول كما تقول: هذا نصـب عيني وضـــرب الأمير– هذا على قراءة الجماعة بالفتح، وعلى قراءة ابن

عامر وحفص بالضـم: إلى علم أو شـيء يعبدونه من دون الله على ما فيه من الداء القاتل والبلاء، أو حجر يذبحون عليه، قال في الجمع بين العباب والمحكم: النَصْب والنُصْب والنُصُب: الداء والبلاء: والنُصُب كل ما نصب فجعل علماً، والنَصْب والنَصَب: العلم المنصوب، والنُصْب والنُصُب: كل ما عبد من دون الله، والجمع أنصـــاب، والأنصـــاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح عليها لغير الله، وانصاب الحرم: حدوده، وقال أبو حيان: والنصب ما نصب للإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم، وغلب في الأصنام حتى قيل: الأنصاب {يوفضون *} أي يعجلون عجلة من هو ذاهب إلى ما يسـره حتى كأنه يطرد إليه كما كانوا يسـرعون إلى أنصابهم.

ولما كان إيفاضـهم إلى الأنصـاب على حال السـرور، أخبر أن هذا على خلاف ذلك، وأن ذكر النصـب وتصـوير حالة الإتيان إليه ما كان إلا تهكماً بهم فقال: {خاشـعة} أي منكسـرة متواضـعة لما حل بها من الذل والصـغار، وألحقها علامة التأنيث زيادة في هذا المعنى ومبالغة فيه بقوله: {أبصارهم}.

ولما كان خشوعها دائماً فعبر بالاسم، وكان ذلهم يتزايد في كل لحظة، عبر بالفعل المضـارع المفيد للتجدد والاسـتمرار فقال: {ترهقهم} أي تغشـاهم فتعمهم، وتحمل عليم فتكلفهم كل عسـر وضـيق على وجه الإسـراع إليهم {ذلة} ضـد ما كانوا عليه في الدنيا لأن من تعزز في الدنيا على الحق ذل في الآخرة، ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة.

ولما صوره بهذه الصورة أشار إلى أن هذا ما تدركه العقول من وصفه وأنه أعظم من ذلك فقال: {ذلك} أي الأمر الذي هو في غاية ما يكون من علو الرتبة في العظمة {اليوم الذي كانوا} أي في حال الدنيا على غاية ما يكون من المكنة في الوعيد.

ولما كان الوعيد لا يتحقق إلا إذا كان من القادر، وإذا كان كذلك كان مخيفاً موجعاً من غير ذكر من صــدر عنه، بني للمفعول قوله: {يوعدون *} أي يجدد لهم الإيعاد به في الدنيا في كل وقت لعلهم يتعظون فترق قلوبهم فيرجعون عماهم فيه من الجبروت، وهذا هو زمان العذاب الذي ســـألوا عنه أول السورة، فقد رجع كما ترى آخرها على أولها أي رجوع، وانضم مفصلها إلى موصلها انضمام المفرد إلى المجموع- والله الهادي إلى الصواب.

71 Nooh Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

- سورة نوح
- تفسير الآيات رقم [1- 4]

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)}

ولما ختمت «سأل» بالإنذار للكفار، وكانوا عباد أوثان، بعذاب الدنيا والآخرة، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا في تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام، وكان قومه عباد أوثان، وكانوا يستهزئون به وكانوا أشد تمرداً من قريش وأجلف وأقوى وأكثر، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم، وابتدأها بالإنذار تخويفاً من عواقب التكذيب به، فقال مؤكداً لأجل إنكاهرم أن يكون الرسول بشراً أو لتنزيلهم منزلة المنكرين من حيث أقروا برسالته وطعنوا في رسالة غيره مع المساواة في البشرية: {إنا} أي بما لنا من العظمة الباهرة البالغة {أرسلنا

نوحاً} وهو أول رسول أتى بعد اختلاف أولاد آدم عليه السلام في دين أبيهم الأقوم {إلى قومه} أي الذين كانوا في غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصـــــدد أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان، وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين.

ولما بان مضــى المرسِل والرسول والمرسَل إليهم، وكان الإرسال متضـمناً معنى القول، أخذ في تفســيره بياناً للمرســل به فقال: {أن أنذر} أي حذر تحذيراً بليغاً عظيماً {قومك} من الاستمرار على الكفر.

ولما كان المقصــود «إعلامهم بذلك» في بعض الأوقات لأن الإنســان لا بد له من أوقات شغل بنفسه من نوم وأكل وغيره، أتى بالجار تخفيفاً عليه ورفقاً به عليه السلام فقال: {من قبل أن يأتيهم} أي على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة {عذاب أليم *}.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أمر الله تعالى نبيه صـــلى الله عليه وسـلم بالصـبر على قومه في قوله: {فاصـبر صـبراً جميلاً} [المعارج: 5] وجليل الإغضاء في قوله: {فذرهم يخوضوا ويلعبوا} [المعارج: 42] أتبع ذلك بقصـــة نوح عليه الســـلام وتكرر دعائه قومه إلى الإيمان، وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصـود في الموضـع تسلية لنبيه صـلى الله عليه وسـلم، وليتأسـى به في الصـبر والرفق والدعاء كما قيل له صـلى الله عليه وسـلم في غير هذا الموضـع {فاصـبر كما صـبر أولو العزم من الرسـل ولا تسـتعجل لهم} [الأحقاف: 35] {فلا تذهب نفسـك عليهم حسـرات} [فاطر: 8] فقد دام دعاء نوح عليه الســـلام مع قومه أدوم من

مدتك، ومع ذلك فلم يزدهم إلا فراراً {قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً} [نوح: 5- 7] ثم مضت آي السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابدته عليه السلام وتكرير دعائه، فلم يزدهم ذلك إلا بعداً وتصميماً على كفرهم حتى أخذهم الله، وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام

{رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً} [نوح: 26] وذلك ليأسه من فلاحهم، وانجر في هذا حض نبينا صلى الله عليه وسلم على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين} [الأعراف: 199] وكما قيل له قبل {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} [القلم: 48] {وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك} [هود: 120] انتهى.

ولما أخبر عن رسالته ومضمونها بما أعلم من أن الفساد كان غالباً عليهم، استأنف قوله بياناً لامتثاله: {قال} أي نوح عليه السلام: {يا قوم} فاستعطفهم بتذكيرهم أنه أحدهم يهمه ما يهمهم.

ولما كان من طبع البشر إنكار ما لم يعلم إلا من عصم الله فجعله منقاداً للإيمان بالغيب، أكد قوله: {إني لكم نذير} أي مبالغ في النذارة {مبين *} أي أمري بين في نفسه بحيث أنه صار من شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه، مناد بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي.

ولما كان ترك ما أنذرهم بسببه من الكفر لا يغنيهم إلا أن آمنوا، وكان الإيمان مخلصاً عن عواقب الإنذار لأنه لا يصح إلا مع ترك جميع أنواع الكفر، فسر الإنذار بقوله: {أن اعبدوا الله} أي الملك الأعظم الذي له جميع الكمال، وذلك بأن تخلصوا التوجه إليه فإن غناه يمنع من أن يقبل عبادة فيه شرك وهذا هو الإيمان {واتقوه} أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه، فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته، وهذا هو العمل الواقي من كل سوء.

ولما كان لا سبيل إلى معرفة ما يرضي الملك ليلزم وما يسخطه ليترك إلا منه، ولا وصول إلى ذلك إلا من خاصته، ولا خاصة مثل رسوله الذي ائتمنه على سره قال: {وأطيعون *} أي لأعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم، وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم، واجتناب شبهة ترديكم، ففي طاعتي، فلا حكم يرضي الملك عنكم، وهذا هو الإسلام، فقد جمع هذا الدعاء الإيمان والإسلام والعمل، وهي الأثافي التي تدور عليها أسباب الفلاح.

ولما كان الإنسان محل النقصان، فلا ينفك عن ذنب فلا ينفعه إلا فناء الكرم، أشار إلى ذلك مرغباً مستعطفاً لهم لئلا ييأسوا فيهلكوا بقوله جواباً للأمر: {يغفر لكم} أي كرماً منه وإحساناً ولطفاً.

ولما كان من الذنوب ما لا يتحتم غفرانه وهو ما بعد الإسلام قال: {من ذنوبكم} أي ما تقدم الإيمان من الشرك والعصيان وما تأخر عن الإيمان من الصغائر التي تفضل الله بالوعد بتكفيرها باجتناب الكبائر- هذا مما أوجبه

سبحانه على نفسه المقدس بالوعد الذي لا يبدل، وأما غيره مما عدا الشرك فإلى مشيئته سبحانه.

ولما كان الإنسان، لما يغلب عليه من النسيان، والاشتغال بالآمال، يعرض عن الموت إعراض الشاك فيه بل المكذب به ذكرهم ترهيباً لهم لطفاً بهم ليستحضروا أنهم في القبضة فينزعوا مما يغضبه سبحانه، فقال مشيراً إلى أن طول العمر في المعصية- وإن كان مع رغد العيش- عدم، مهدداً بأنه قادر على الإهلاك في كل حين: {ويؤخركم} أي تأخيراً ينفعكم، واعلم أن الأمور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها لإحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص، ليعلم أن الإرسال إنما هو مظهر لما في الكيان ولا يظن أنه قالب للأعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة أو العصيان فقال: {إلى أجل مسمى} أي قد سماه الله وعلمه قبل إيجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه، فيكون موتكم على العادة متفرقاً وإلا أخذكم جميعاً بعذاب الاستئصال، فهذا من علم ما لا يكون لو كان كيف يكون، وذلك أنه علم أنهم إن أطاعوا نوحاً عليه السلام كان موتهم على العادة وإلا هلكوا هلاك نفسه واحدة، وعلم أنهم لا يطيعونه، وأن موتهم إنما يكون بعذاب الاستئصال.

ولما كان الإنسان مجبولاً على الأطماع الفارغة، فكان ربما قال للتعنت أو غيره: لم لا يخلدنا؟ قال قطماً عن ذلك مؤكداً لاقتضاء المقام له: {إن أجل الله} أي الذي له الكمال كله فلا راد لأمره {إذا جاء لا يؤخر} وأما قبل مجيئه فربما يقع الدعاء والطاعات والبر في البركة فيه يمنع الشواغل وإطابة

الحياة، فبادروا مجيء الأجل بالإيمان لأنه إذا جاء لم يمكنكم التدارك، ولا ينفعكم بعد العيان الإيمان.

ولما كان من يعلم هذا يقيناً، ويعلم أنه إذا كشف له عند الغرغرة أحب أن يؤخر ليتوب حين لا تأخير، أحسن العمل خوفاً من فوات وقته وتحتم مقته، نبه على ذلك بقوله: {لو كنتم تعلمون *} أي لو كان العلم أو تجدده وقتاً ما في غرائزكم لعلمتم تنبيه رسولكم صلى الله عليه وسلم أن الله يفعل ما يشاء، وأن الأجل آت لا محالة فعملتم للنجاة، ولكنكم تعملون في الانهماك في الشهوات عمل الشاك في الموت.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 7]

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7)}

ولما كان صلى الله عليه وسلم أطول الأنبياء عمراً، وكان قد طال نصحه لهم وبلاؤه بهم، نبه على ذلك بقوله مستأنفاً: {قال} منادياً لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره، وأسقط أداة النداء كما هي عادة أهل القرب فقال: {رب} ولما كانت العادة جارية بأن التكرار لا بد أن يؤثر ولو قليلاً، فكانت مخالفتهم لذلك مما هو أهل لأن يشك فيه، قال مؤكداً إظهاراً لتحسره وحرقته عليه الصلاة والسلام منهم في تماديهم في إصرارهم على على التكذيب شكاية لحاله إلى الله تعالى واستنصاراً به واستمطاراً للتنبيه على ما يفعل به بذله الجهد وتنبيهاً لمن يقص به عليهم هذا وإن كان المخاطب

سبحانه عالماً بالسر وأخفى: {إني دعوت} أي أوقعت الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة {قومي} أي الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم من وفيهم قوة المحاولة لما يريدون.

ولما كان قد عم جميع الأوقات بالدعاء قال: {ليلاً ونهاراً *} فعبر بهذا عن المداومة.

ولما تسبب عن ذلك ضد المراد قال: {فلم يزدهم دعاءي} أي شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها {إلا فراراً *} أي بعداً عنك ونفوراً وبغضاً وإعراضاً حتى كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، وأسند الزيادة إلى الدعاء لأنه سببها.

ولما كان الفرار مجازاً عن رد كلامه، عطف عليه ما يبينه، فقال مؤكداً لأن إعراضهم مع هذا الدعاء الطويل مما لا يكاد يصدق: {وإني كلما} على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات {دعوتهم} أي إلى الإقبال عليك بالإيمان بك والإخلاص لك.

ولما كان إعراضهم عما ينفعهم أقبح، ذكر ما يتسبب عن الإجابة بالإيمان فقال: {لتغفر لهم} أي ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا لأجله في التجاوز في الحدود محواً بالغاً فلا يبقى لشيء من ذلك عيناً ولا أثراً حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم {جعلوا} أي في كل دعاء، ودل على مبالغتهم في التصامم بالتعبير بالكل عن البعض فقال: {أصابعهم} كراهة له واحتقاراً للداعي {في آذانهم} حقيقة لئلا يسمعون الدعاء إشارة إلى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك، فإن أبيت إلا الدعاء فإنا لا نسمع لسد أسماعنا،

ودلوا على الإفراط في كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله: {واستغشوا ثيابهم} أي أوجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم إيجاد من هو طالب لذلك شديد الرغبة فيه حتى يجمعوا بين ما يمنع السماع لكلامه والنظر إليه إظهاراً لكراهته وكراهة كلامه، وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائماً {وأصروا} أي داموا على سوء أعمالهم دواماً هم في غاية الإقبال عليه، من أصر الحمار على العانة– إذا صر أذنيه وأقبل عليها يطردها ويكدمها، استعير للإقبال على المعاصي وملازمتها لأنه يكون بغاية الرغبة كأن فاعله حمار وحش قد ثارت شهوته {واستكبروا} أي أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه، وأكد ذلك بقوله: {استكباراً *} تنبيهاً على أن فعلهم منابذ للحكمة، فكان مما ينبغي أن لا يفعلوه فهو مما لا يكاد يصدق لذلك، وقد نادت هذه الآيات بالتصريح في غير موضع بأنهم عصوا نوحاً عليه الصلاة والسلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار، وباطناً بالإصرار والاستكبار ولم يوافقوه بقول ولا فعل، فلعنة الله عليهم وعلى من يقول: إنهم وافقوه بالفعل، لأنه دعاهم للمغفرة وقد غطوا وجوههم، والتغطية هي الغفر ونحو ذلك من الخرافات التي لو سمعها أسخف عباد الحجارة الذين لا أسخف منهم لهزؤوا بقائلها، وما قال هذا القائل ذلك إلا تحريفاً لكتاب الله بنحو تحريف الباطنية الذين أجمعت الأمة على تكفيرهم لذلك التحريف، ولعنة الله على من يشك في كفر من يحرف هذا التحريف أو يتوقف في لعنه، وهم الاتحادية الذين مرقوا من الدين في آخر الزمان، ومن أكابرهم

الحلاج وابن عربي وابن الفارض، وتبعهم على مثل الهذيان أســـخف الناس عقولاً

{إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} [الفرقان: 44] ولقد أخبرني الإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن أبي شـريف القدسـي الشـافعي الثبت النحرير عن بعض من يتعصـــــب لهم في هذا الزمان، وهو من أعيان المدرســـين بالقاهرة، أنه قال له: ما حملني على انتقادي لابن الفارض إلا أني رأيت كلام التائية له متناقضـــاً، فتارة يفهم منها الحلول وتارة الاتحاد، وهو عندي يحاشى عن ذلك، فعلمت أن لهؤلاء القوم اصطلاحاً نسبتنا منه نسبة التباين إذا ســـمعوا النحوي يقول: الفاعل مرفوع، فإنهم يضـــحكون منه، ولو فهمنا اصـــطلاحهم لم نعترض- هذا معنى ما نقل عنه وهو ما لا يرضـــاه ذو مسكة، وهو شبيه بما نقل المسعودي في أوائل مروج الذهب عن بعض من اتهم بعقل وعلم من النصـــارى في زمن أحمد بن طولون، فاختبره فوجده في العلم كما وصـف، فسـأله عن سـبب ثباته على النصـرانية مع علمه فقال: الســـبب تناقضـــها مع أنه دان بها ملوك متكبرون وعلماء متبحرون ورهبان عن الدنيا معرضـــون ومدبرون، فعلمت أنه ما جمع هؤلاء الأصـــناف على الدينونة بها مع تناقضـها إلا أمر عظيم اضطرهم لذلك، فدنت بها، فقال له: اذهب في لعنة الله فلقد ضيعت كل عقل وصفت، ولقد والله صدق في الأمر العظيم الذي حملهم على ذلك، وهو القضاء والقدرة الذي حمل كل أحد منهم على إلقاء نفسه في نار جهنم باختياره بل برغبته في ذلك ومقاتلة من يصده عن ذلك، وذلك أدل دليل على تمام علم الله وقدرته وأنه واحد لا شـــريك له

ولا معقب لحكمه، وفي هذا تصـــديق قوله النبي صـــلى الله عليه وســـلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع» وهم أهل الكتاب، وقد أشـــبعت القول في هذا في كتابي «القارض في تكفير ابن الفارض» الذي بينت فيه عوارهم، وأظهرت عارهم، وكذا كتابي «صـــواب الجواب للســـائل المرتاب» و«تدمير المعارض في تكفير ابن الفارض» ولم أبق على شـــيء من ذلك شيئاً من لبس– ولله الحمد.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 13]

{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِـلِ السَّـمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13)}

ولما ذكر دعاءه في جميع الأوقات مع إعراضـهم، وكان هذا مؤيسـاً وموجباً للإقلاع عن الدعاء، وإن وجد الدعاء بعده في غاية البعد منه على إيجاده مع الاســتغراق به لجميع الحالات كما اســتغرق جميع الأوقات، فعبر بأداة التراخي للدلالة على تباعد الأحوال فقال: {ثم} وأكد لنحو ما مضــى من أن تجرد إقبالهم على دعائهم بعد ذلك لا يكاد يصــدق فضــلاً عن الإكثار منه فقال: {إني دعوتهم} أي إلى الإيمان ومنابذة الشيطان.

ولما كان الجهر أحد نوعي الدعاء، نصبه به نصب المصدر فقال: {جهاراً *} أي مكاشــفة في فخامة الصـــوت والتعميم لجماعتهم جليلهم وحقيرهم والإخلاص في ذلك والمداومة له حتى كاد بصــري يكل من شــدة التحديث

إليهم والإقبال عليهم من غير احتجاب عنهم ولا ارتقاب منهم بل مباغتة، وكررت ذلك عليهم حتى أخرجت ما عندهم من الجواب، ولم أكف عند سد آذانهم واستغشائهم ثيابهم.

ولما كان الجهر قد لا يشيع ولا ينشر في جماعاتهم، قال مشيراً إلى أنه أذاع ذلك، وأكد للإشارة إلى ما فيه من الشدة فقال: {ثم إني أعلنت} أي أظهرت وأشعت وشهرت ليعلموا أنه الحق من ربهم لكوني لست مستحيياً منه ولا مستهجناً له {لهم} أي خصصتهم بذلك، لم يكن فيه حظ نفس بوجه فإني كررت ذلك عليهم بعد أن سقط الوجوب عني، ولما قدم الجهر لأنه أقرب إلى عدم الاتهام، وكان السر أجدر بمعرفة الضمائر وأقرب إلى الاستمالة، أتبعه به فقال: {وأسررت لهم} أي دعوت كل واحد منهم على انفراده ليكون أدعى له وأجدر بقبوله النصيحة، وأدل على الإخلاص، وكل ذلك ما فعلته إلا لأجل نصيحتهم، لا حظ لي أنا في ذلك، ولما كان تحين الإنسان ليكون وحده ليس عنده أحد ولا هو مشتغل بصارف مما يعسر جداً فلا يكاد يصدق أكده فقال: {إسراراً *} وليدل بتأكيده على تأكيد ما قبله من الأفعال، والظاهر من حاله ومن هذا الترتيب مما صرح به من الاجتهاد أنه سار فيه على مقتضى الحكمة، فدعا أولاً أقرب الناس إليه وأشدهم به إلفاً، ثم انتقل إلى من بعدهم حتى عمهم الدعاء، وكانت هذه الدعوة سراً كل واحد منهم على حدته ليعلموا نصحه ولا يحمل أحد منهم ذلك على تبكيت ولا تقريع، جهر ليعلموا أنه ملجأ من الله إلى ذلك، وأنها عزمة إن قصروا فيها عن الأجابة عوقبوا، فلما أصروا جمع بين السر والعلن، فلما تمادوا وطال الأذى شكى،

وعلى هذا فثم لبعد الرتب لا للترتيب في الزمان، ويمكن كونها للترتيب لأن الجهر أبعد عن الاتهام ثم الإعلان بعده أزيد بعداً.

ولما أخبر بأنه بالغ في الدعوة إلى حد لا مزيد عليه، فلم يدع من الأوقات ولا من الأحوال شيئاً، سبب عنه بيان ما قال في دعوته وهو التسبب في السعادة كلها بدفع المضار وجلب المسار، فقال مقدماً لطلب الغفران بالتوبة عن الكفر ليظهروا فيكونوا قابلين للتحلية بالمحاسن الدينية بعد التخلية عن الأخلاق الدنية: {فقلت} أي في دعائي لهم: {استغفروا ربكم} أي اطلبوا من المحسن إليكم، المبدع لكم، المدبر لأموركم، أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها، بالرجوع عن عبادة غيره إلى الإخلاص في عبادته.

ولما ذكر أنه استعطفهم أولاً ببيان أن رجوعهم ممكن، لئلا يقولوا : إنا قد بالغنا في المعاصي فلا نقبل، وأعلمهم أن الاستغفار باب الدخول إلى طاعة الجبار، أكد ذلك الاستعطاف بقوله معللاً للأمر ولجوابه بنحو : يغفر لكم، مؤكداً لأجل توقفهم: {إنه كان} أي أزلاً وأبداً ودائماً سرمداً {غفاراً *} أي متصفاً بصفة الستر على من رجع إليه على أبلغ الوجوه وأعلاها، وإذا وقع الغفران دفع المضار كلها.

ولما قرر أمر التوبة وبين قبولها وقدمه اهتماماً به لأنه أصل ما يبتنى عليه، ولأن التخلي قبل التحلي، ودرء المفاسد قبل جلب المصالح والفوائد، رغب فيها بما يكون عنها من الزيادة في الإحسان على أصل القبول، وينشأ عن الاستغفار من الآثار الكبار من الأفضال بجلب المسار بما هو مثال للجنة التي كان سبب الإخراج منها النسيان لأنهم أحب شيء في الأرباح

الحاضرة والفوائد العاجلة لا سيما بما يبهج النفوس ويشرح الصدور لإذهابه البؤس، فقال مجيباً لفعل الأمر: {يرسل السماء} أي المظلة الخضراء أو السحاب أو المطر {عليكم} أي بالمطر وأنواع البركات {مدراراً *} أي حال كونها كثيرة الدورة متكررته، وهذا البناء يستوي فيه المذكر والمؤنث {ويمددكم} أظهر لأن الموضع لإرادة المبالغة والبسط والسعة {بأموال وبنين} وذلك يفهم أن من اكثر الاستغفار حباه الله ما يسره، وحماه ما يضره {ويجعل لكم} أي في الدارين {جنات} أي بساتين عظيمة، وأعاد العامل للتأكيد والبسط لأن المقام له فقال: {ويجعل لكم أنهاراً *} يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، روى أن عمر رضي الله عنه استسقى فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل: يا أمير المؤمنين! ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي بها يستنزل القطر، ثم قرأ هذه الآية، وقال القشيري: من وقعت له إلى الله حاجة فلن يصل إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار، وقال: إن عمل قوم نوح كان بضد ذلك، كلما ازداد نوح في الضمان ووجوه الخير والإحسان ازدادوا في الكفر والنسيان.

ولما كان من رجا ملكاً عمل بما يرضيه. ومن خافة تجنب ما يسخطه، نبههم على ذلك بالإشارة إلى الجلال الموجب للتوقير والجمال بالإحسان إلى الخلق، مصرحاً لهم بالترغيب ملوحاً إلى الترهيب، فقال مستأنفاً في جواب من يقول منهم: هل بقي شيء من قولك؟: {ما} أي أيّ شيء يحصل {لكم} حال كونكم {لا ترجون} أي تكونون في وقت من الأوقات على حال تؤملون

بها، وبين فاعل الوقار ومبدعه بتقديمه، فإنه لو أخره لكان ل «وقاراً» فقال: {لله} أي الملك الذي له الأمر كله {وقاراً *} أي ثواباً يوقركم فيه ولو قل، فإن قليله أكثر من كثير غيره، ولا تخافون له إهانة بالعقاب بأن تعلموا أنه لا بد من أن يحاسبكم بعد البعث فيثيب الطائع ويعاقب العاصي، كما هي عادة كل أحد مع من تحت يده، فتوقروا رسله بتصديقهم فتؤمنوا وتعملوا، فإن من أراد من أحد أنه يوقره وقره وعظمه ليجازيه على ذلك، فإن الجزاء من جنس العمل، وذلك إنما يكون بمعرفة الله بما له من الجلال والجمال، والخلق إنما تفاضلوا بالمعرفة بالله، لا بالأعمال، إنما سبق أبو بكر رضي الله عنه الناس بشيء وقر في صدره، فإن بالمعرفة تزكو الأعمال وتصلح الأقوال، وإنما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقاً، ولا تنازع له اختياراً، وتعظم أمره ونهيه، بعدم المعارضة بترخيص جاف أو تشديد غال أو حمل على توهم الانقياد، وتعظم حكمه بأن لا تبغي له عوجاً ولا تدافعه بعلم، ولا ينبغي له غرض وعلة، ولأجل أن المطلوب تحصيل الأعمال التي هي أسباب ظاهرية، عبر بالرجاء ليسرهم بأن أعمالهم مؤثرة، وعبر بالطمع في غير هذه الآية تنبيهاً على أنه لا سبب في الحقيقة إلا رحمة الله لحال دعاء إلى ذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 21]

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21)}

ولما كان هذا إشارة إلى الاستدلال على البعث بما يعلمونه من أنفسهم صرح بعد ما لوح، فقال آتياً بحرف التوقع لأنه مقامه: {وقد} أي والحال أنه قد أحسن إليكم مرة بعد مرة بما لا يقدر عليه غيره، فدل ذلك على تمام قدرته، ثم لم يقطع إحسانه عنكم فاستحق أن تؤمنوا به لأنه {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: 60] ورجاء لدوام إحسانه وخوفاً من قطعه لأنه {خلقكم} أي أوجدكم من العدم مقدرين {أطواراً *} أي تارات عناصر أولاً ثم مركبات تغذي الحيوان ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً وأعصاباً ودماء، ثم خلقاً آخر تاماً ناطقاً ذكراناً وإناثاً طوالاً وقصاراً بيضاً وسوداً وبين ذلك- إلى غير ذلك من الأمور الدالة على قدرته على كل مقدور، ومن قدر على هذا الابتداء كان على الإعادة أعظم قدرة، وقد ثبتت حكمته وأنه لم يخلق الخلق سدى بما بان من هذا التطوير على هذه الهيئات العجيبة التي لا قدرة لغيره عليها بوجه، وهم يتهارجون في هذه الدار تهارج الحمر، ويموت المظلوم على حاله، والظالم يبلغ آماله، فلا بد أن يعيدهم ليفصل بينهم فيظهر حكمته وعدله وإكرامه وفضله، ولو ترك ذلك لكان نقصاً في ملكه، ومن قدر على ذلك كان قادراً على الجزاء بالثواب والعقاب، فهو أهل لأن يخشى ويرجى.

ولما كان هذا واضحاً ولكنهم قوم لد، لا يردهم إلا الشمس المنيرة في وقت الظهيرة، ذكرهم- بعد التذكير بما في أنفسهم- بما هو أكبر من ذلك من

آيات الآفاق وقسمها إلى علوي وسفلي، وبدأ بالأنفس لأنها مع شرفها أقرب منظور إليه لهم، وثنى بالعلوي لأنه يليها في الشرف ووضوح الآيات، فقال: دالاً على القدرة على البعث والجزاء بالثواب والعقاب: {ألم تروا} أي أيها القوم.

ولما كان تأمل الكيفيات يحتاج إلى دقة وتوقف على عجائب ولطائف تؤذن قطعاً بأن فاعلها لا يعجزه شيء، وقال منكراً عليهم عدم التأمل: {كيف خلق الله} أي الذي له العلم التام والقدرة البالغة والعظمة الكاملة {سبع سماوات} هي في غاية العلو والسعة والإحكام والزينة، يعرف كونها سبعاً بما فيها من الزينة.

ولما كانت المطابقة بين المتقابلات في غاية الصعوبة لا يكاد يقدر عليها من جميع الوجوه أحد، قال: {طباقاً *} أي متطابقة بعضها فوق بعض وكل واحدة في التي تليها محيطة بها «ما لها من فروج» لا يكون تمام المطابقة إلا كذلك بالإحاطة من كل جانب.

ولما كان المحيط لا يتوصل إلى داخله إلى محيط العلم والقدرة، قال دالاً على كمال قدرته وتصرفه معبراً بالجعل الذي يكون عن تصيير وتسبيب: {وجعل القمر} أي الذي ترونه وهو في السماء الدنيا، وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج في كل شهر مرة وغيبته في ليالي السرار ثم ظهوره، وذلك أعجب في القدرة.

ولما كانت السماء شفافات قال: {فيهن} أي السماوات جميعهن {نوراً} أي لامعاً منتشراً كاشفاً للمرئيات، أحد وجهيه يضيء لأهل الأرض والثاني

لأهل السـماوات، ولما كان نوره مسـتفاداً من نور الشـمس قال: {وجعل} معظماً لها بإعادة العامل {الشمس} أي في السماء الرابعة {سراجاً *} أي نوراً عظيماً كاشـفاً لظلمه الليل عن وجه الأرض وهي في السـماء الرابعة، وروى ابن مردويه وعبد الرزاق والطبري عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو رضـي الله عنهم: «إن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء، وأقفيتهما إلى الأرض»؛ وروى الحاكم منه ذكر القمر وجعلهما سبحانه آية على رؤية عباده المحسـنين له في الجنة فإنه يرى كل أحد كلاًّ من مكانه مخلياً به، وكذلك يرونه سـبحانه عياناً جهاراً كما رأوه في الدنيا بالإيمان نظراً واعتباراً، ولما دل على كمال علمه وتمام قدرته بخلق الإنسـان ثم بخلق ما هو أكبر منه أعاد الدلالة بخلق الإنسان لأنه أعظم المحدثات وأدلها على الله سبحانه وتعالى على وجه آخر مبين لبعض ما أشـار إليه الأول من التفصـيل مصـرحاً بالبعث فقال مستعيراً الإنبات للإنشـاء: {والله} أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله {أنبتكم} أي بخلق أبيكم آدم عليه الصـلاة والسـلام {من الأرض} أي كما ينبت الزرع، وعبر بذلك تذكيراً لنا لما كان من خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأشار إلى أنه جعل غذءانا من الأرض التي خلقنا منها، وبذلك الغذاء نمونا.

ولما كان إنكارهم للبعث كأنه إنكار للابتداء أكده بالمصدر وأجراه على غير فعله بتجريده من الزيادة، إشارة إلى هوانه عليه سبحانه وتعالى وسهولته مع أنه إبداع وابتداء واختراع فقال: {نباتاً *} ومع ذلك فالآية صالحة للاحتباك:

ذكر «أنبت» أولاً دال على حذف مصـــدره ثانياً، وذكر «النبات» ثانياً دال على حذف فعله أولاً، ليكون التقدير: أنبتكم إنباتاً فنبتم نباتاً.

ولما كان في الموت أيضـاً دليل على تمام العلم والقدرة غير أنه ليس كدلالة الابتداء بالابتداع، وكان مسلماً ليس فيه نزاع، ذكره من غير تأكيد بالمصدر فقال دالاًّ على البعث والنشور: {ثم يعيدكم} على التدريج {فيها} أي الأرض بالموت والإقبار وإن طالت الآجال {ويخرجكم} أي فيها بالإعادة، وأكد بالمصـــدر الجاري على الفعل إشـــارة إلى شـــدة العناية به وتحتيم وقوعه لإنكارهم له فقل: {إخراجاً *} أي غريباً ليس هو كما تعلمون بل تكونون به في غاية ما يكون من الحياة الباقية، تلابس أرواحكم بها أجسـامكم ملابسـة لا انفكاك بعدها لأحدهما عن الآخر.

ولما كان النابت من الشـيء لا يتصـرف في ذلك الشـيء، دل على كمال قدرته بخرق تلك العادة لهم على وجه الإنعام عليهم، فقال مظهراً للاســـم الشريف مرة بعد أخرى تعظيماً للأدلة لئلا تقيد القدرة بما يقترن به الاسم دالاًّ بالعالم السـفلي بعد الإرشـاد بالعلوي وآخر السـفلي لأن آياته على ظهورها خفيت بكثرة الإلف لها: {والله} أي المسـتجمع لجميع الجلال والإكرام {جعل لكم} أي نعمة عليكم اهتماماً بأمركم {الأرض بسـاطاً *} أي سـهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها سهولة التصرف في البساط، ثم علل ذلك فقال: {لتسـلكوا} أي منجدين {منها} أي الأرض مجددين لذلك {سـبلاً} أي طرقاً واضـحة مسـلوكة بكثرة {فجاجاً *} أي ذوات اتسـاع لتتوصـلوا إلى البلاد الشـاسـعة براً وبحراً، فيعم الانتفاع بجميع البقاع، فالذي قدر على إحداثكم

وأقدركم على التصــــرف في أصــــلكم مع ضــــعفكم قادر على إخراجكم من أجداثكم التي لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره.

ولما كانوا جادلوه عليه الصــلاة والســلام بعد هذا البيان الذي لا يشــك في دلالته على المراد من تحقق لصــــفاء الإيقان، فأكثروا الجدال ونســــبوه إلى الضــلال وعصــوه أقبح العصـيان وقابلوه بأشـنع الأقوال والأفعال، طوى ذلك مشيراً إليه بقوله مستأنفاً: {قال نوح} أي بعد رفقه بهم ولينه لهم شاكياً منهم: {رب} أي أيها المحسن إليّ المدبر لي المتولي لجميع أموري.

ولما كان الضــــعفاء أكثر الناس بحيث إذا اجتمعوا دل الرؤوس الأقوياء بالأموال والأولاد وكانوا كأنهم الكل، فقال مؤكداً لأن عصــــيانهم له بعد ذلك مما يبعد وقوعه: {إنهم} أي قومي الذين دعوتهم إليك مع صبري عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً {عصوني} أي فيما أمرتهم به ودعوتهم إليه فأبوا أن يجيبوا دعوتي وشـردوا عني أشـد شـراد وخالفوني أقبح مخالفة {واتبعوا} أي بغاية جهدهم نظراً إلى المظنون العاجل بعد ترك المحقق عاجلاً وآجلاً {من} أي من رؤسـائهم البطرين بأموالهم المغترين بولدانهم، وفسـرهم بقوله: {لم يزده} أي شيئاً من الأشياء.

ولما كان المال يكون للإنســان الولد، وكان ينبغي أن يشــكر الله الذي آتاه إياه ليكون له خيراً في الدارين وكذا الولد قال: {ماله} أي بكثرته {وولده} كذلك، وهو الجنس في قراءة التحريك- وكذا في قراءة ابن كثير والبصـــريين وحمزة والكسـائي بالضـم والسـكون على أنه لغة في المفرد كالحزن والحزن والرشد والرشد، أو يكون على هذه جمعاً كالأسد والأسد، ويكون اختيار أبي

عمرو لهذه القراءة في هذا الحرف وحده للإشـــارة بجمع الكثرة المبني على الضمة التي هي أشد الحركات إلى أنهم- وإن زادت كثرتهم وعظمت قوتهم- لا يزيدونهم شيئاً {إلا خساراً *} بالبعد عن الله والعمى عن محجة الطريق، فإن البسط لهم في الدنيا بذلك كان سبباً لطغيانهم وبطرهم واتباعهم لأهوائهم حتى كفروا واستغووا غيرهم فغلبوا عليهم فكانوا سبباً في شقائهم وخسارتهم بخســارتهم، وكان عندهم أنها زادتهم رفعة، وفي الســياق دليل على أنهم ما حصلت لهم الوجاهة إلا بها.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 24]

{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُــوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْــرًا (23) وَقَدْ أَضَــلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَــلَالًا (24)}

ولما كانت كثرة الرؤســـاء قوة أخرى إلى قوتهم بمتاع الدنيا، وكان التقدير : فأمرتهم بالإيمان فأبوا وأمروهم بالكفر فانقادوا لهم، عطف عليه مبيناً لكثرتهم بضــمير الجمع العائد على «من» عاطفاً على «لم يزده» المفردة الضــمير للفظ جامعاً له للمعنى لتجمع العبارة الحكم على المفرد والجمع، فيكون أدل شــيء على المراد منها فقال: {ومكروا} أي هؤلاء الرؤســاء في تنفير الناس عني- وأكد الفعل بالمصـــــدر دلالة على قوته فقال : {مكراً} وزاده تأكيداً بصيغة هي النهاية في المبالغة فقال: {كباراً *} فإنه أبلغ من كبار المخفف الأبلغ من كبير، فلم يدعوا أحداً منهم بذلك المكر يتبعني {وقالوا} أي لهم في أداني المكر الذي حصل منهم.

ولما كان دعاء الرســل عليهم الصــلاة والســلام جديراً بالقبول لما لهم من الجلالة والحلاوة والبيان والرونق والظهور في الفلاح، أكدوا قولهم: {لا تذرن آلهتكم} أي لا تتركنها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة، وأضافوها إليهم تحسباً فيها، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحاً بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيداً: {ولا تذرن} ولعلهم كانوا يوافقون العرب في أن الود هو الحب الكثير، فناســـب المقام بذاتهم بقوله: {وداً} وأعادوا النافي تأكيداً فقالوا: {ولا سواعاً *} وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا: {ولا يغوث} ولما بلغ التأكيد نهاية وعلم أن المقصــود النهي عن كل فرد فرد لا عن المجموع بقيد الجمع أعروا فقالوا: {ويعوق ونسـراً *} معرى عن التأكيد للعلم بإرادته، وكان هؤلاء ناســاً صــالحين، فلما ماتوا حزن عليهم الناس ثم زين لهم إبليس تصويرهم تشويقاً إلى العمل بطرائقهم الحسنة فصوروهم، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم لتحصـيل المنافع الدنيوية ببركاتهم ثم نسـي القوم الصالحون، وجعلوا أصناماً آلهة من دون الله، وكانت عبادة هؤلاء أول عبادة الأوثان فأرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام للنهي عن ذلك إلى أن كان من أمره وأمر قومه ما هو معلوم، ثم أخرج إبليس هذه الأصنام بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب، فكان ود لكلب بدومة الجندل وســواع لهذيل ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونســر لحمير لآل ذي الكلاع، وقيل غير ذلك- والله أعلم قال البغوي: ســواع لهذيل ويغوث لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عن ســبأ ويعوق لهمذان. قال أبو حيان: قال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث وكان من رصــاص يحمل على جمل أجرد، يســيرون

معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضـي لكم المنزل، فينزلون حوله ويضربون عليه بناء، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب وصـول شر تلك الأوثان إلى العرب أنها دفنها الطوفان ثم أخرجها الشـيطان لمشـركي العرب، وكانت للعرب أصــنام أخر فاللات لثقيف، والعزى لسـليم وغطفان وجشـيم، ومنات بديد لهذيل، وإسـاف ونايلة وهبل لأهل مكة، وكان إســاف حيال الحجر الأســود، ونايلة حيال الركن اليماني، وكان هبل في جوف الكعبة- انتهى، وقال الواقدي: ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر- انتهى.

ولا يعارض هذا أنهم صــور لناس صــالحين لأن تصــويرهم لهم يمكن أن يكون منتزعاً من معانيهم، فكأن وداً كان أكملهم في الرجولية، وكانت سـواع امرأة كاملة في العبادة، وكان يغوث شـجاعاً، ويعوق كان سـباقاً قوياً، وكان نسر عظيماً طويل العمر- والله تعالى أعلم.

ولما ذكر مكرهم وما أظهروا من قولهم، عطف عليه ما توقع الســـامع من أمره فقال: {وقد أضــلوا} أي الأصــنام وعابدوها بهذه العبادة {كثيراً} من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السـليمة من أهل زمانهم وممن أتى بعدهم فإنهم أول من سـن هذه السـنة السـيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ولما كان التقدير: فلا تزد الظالمين إلا خسـاراً، عطف عليه قوله مظهراً في موضـع الإضـمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصـف: {ولا تزد الظالمين} أي

الراسخين في الوصف الموجب لأن تكون آثار المتصف به كآثار الماشي في في الظلام في وقوعها مختلة، شيئاً من الأشياء التي هي فيهم {إلا ضلالاً *} أي طبعاً على عقولهم وقلوبهم حتى يعموا عن الحق وعن جميع مقاصدهم الفاسدة الضالة الراسخة في الضلال فلا يكون منها شيء على وجه يكون فيه شيء من سداد، وكان هذا بعد أن أعلمه الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، والكلام عليه على كل حال كالكلام على دعاء موسى هارون عليهما وعلى محمد أفضل الصلاة والسلام في الشد على قلوب فرعون وملئة لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه كما مضى في سورة يونس عليه السلام، وقد بالغ ابن عربي في المروق من الدين فقال في فصوصة: إن هذا الدعاء حسن في حقهم، وقال: إن الضلال أهدى من الهدى، وإن الضال أحسن حالاً من المهتدي، لأن الضال لا يزال قريباً من القطب المقصود دائراً حوله، والمهتدي صاحب طريقة مستطيلة، فهو يبعد عن المقصود، فأبان أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أسفه منه إلا من اتبعه عليه وعلى من ينحو نحوه من الضلال الذي لا يرضاه عاقل من عباد الأصنام الذين لا أسفه منهم ولا غيره، فعليهم أشد الخزي واللعنة.

▲ تفسير الآيات رقم [25– 28]

{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)}

ولما فرغ من أمرهم في ضـلالهم، ودعا رسـولهم صـلى الله عليه وسـلم، فلم يبق إلا إهلاكهم. وكان من مفهومات الضـــلال المحق وإذهاب العين كما يضـــل الماء في اللبن، قال مبيناً، إجابته لدعائه ذاكراً الجهة التي أهلكوا بسـببها: وأكد ب «ما» النافية في الصـورة لضـد مضـمون الكلام لاعتقاد الكفار أن الإنجاء والإهلاك عادة الدهر: {مما}.

ولما كان الكافر قد أخطأ ثلاث مرات: يكفره في الإيمان بالطاغوت، وتكذيب ربه، وتكذيب رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وكان ذلك كافياً في اسـتحقاقه للأخذ قال: {خطيئاتهم} جامعاً له جمع السـلامة- في قراءة الجماعة، وأفهمت قراءة أبي عمرو بجمع التكسير أن لهم مع هذه الأمهات الكافية في الأخذ من الذنوب ما يفوت الحصـر يوجب تغليظ ذلك الأخذ، فهي مشـيرة إلى أنه ينبغي الاحتراز من كل الذنب.

ولما كان الموجع إغراقهم لا كونه من معين، قال مخبراً عما فعل بهم في الدنيا: {أغرقوا} أي بالطوفان بانياً له للمفعول لذلك وللإعلام بأنه في غاية السـهولة على الفاعل المختار الواحد القهار، فطاف الماء عليهم جميع الأرض السـهل والجبل، فلم يبق منهم أحداً، وكذا الكلام فيما تسـبب عنه وتعقبه من قوله: {فأدخلوا} أي بقهر القهار في الآخرة التي أولها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشياً {ناراً *} أي عظيمة جداً أخفها ما يكون من مبادئها في البرزخ، قال الشـيخ ولي الدين الملوي: فعذبوا في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالحرق، والإياس من الرحمة، وأيّ عذاب أشد من ذلك، وقال الضحاك: في حالة واحدة كانوا يغرقون في الماء من جانب ويحترقون

في الماء من جانب آخر بقدرة الله ســـبحانه وتعالى، وفيها دلالة على قول غيره على عذاب القبر.

ولما كانوا قد استندوا إلى آلهتهم لتنصرهم من أخذ الله تعالى، قال مسبباً عن هذا الإغراق والإدخال من الرحمة ليكون ذلك أشد في العذاب، فإن الإنسان- كما قال الملوي: - إذا كان في العذاب ويرجو الخلاص يهون عليه الأمر بخلاف ما إذا يئس من الخلاص، معلماً بأن آلهتهم عاجزة فإنهم لم تغن عنهم شــيئاً، توبيخاً لمن يعبد مثلها: {فلم يجدوا} وحقق الأمر فيهم بقوله: {لهم} أي عندما أناخ الله بهم سطوته وأحل بهم نقمته.

ولما كانت الرتب كلها دون رتبته تعالى، وكان ليس لأحد أن يستغرق جميع ما تحت رتبته ســبحانه من المراتب، قال مثبتاً الجار: {من دون الله} أي الملك الأعظم الذي تتضـــاءل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته {أنصاراً *} ينصرونهم على من أراد بهم ذلك ليمنعوه مما فعل بهم أو يقتصوا منه لهم بما شهد به شاهد الوجود الذي هو أعدل الشهود من أنه تم ما أراده ســبحانه وتعالى من إغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوتهم لكونهم أعداءه وإنجاء نبيه نوح عليه الصـــلاة والســـلام ومن معه رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين على ضعفهم وقلتهم لم يقعد منهم أحد لكونهم أولياءه، فكما لم يهلك ممن أراد إنجاءه أحد فكذلك لم يســـلم منهم، فمن قال عن عوج ما يقوله القصاص فهو أيضاً ضال أشد ضلال، فلعنة الله على من يقول: إن الله تعالى كان غير ناصرهم، مع هذه الدلالات التي هي نص في أنه عدوهم، وأن نصـــرهم إنما يكون على نبيه نوح عليه

الصلاة والسلام، واعتقاد ذلك أو شيء منه كفر ظاهر لا محيد عنه بوجه، وقائل ذلك هو ابن عربي صاحب الفصوص الذي لم يرد بتصنيفه إلا هدم الشريعة المطهرة، ونظمه أياً ابن الفارض في تائيته التي سماها بنظم السلوك، فلعنة الله عليه وعلى من تبعه أو شك في كفره أو توقف في لعنه بعد ما نصب من الضلال الذي سعر به البلاد، وأردى كثيراً من العباد.

ولما أتم الخبر عن إغراقهم، وقدمه للاهتمام بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم في إجابة دعوته تحذيراً للعرب أن يخرجوا رسولهم صلى الله عليه وسلم فيخرجوه إلى مثل ذلك، عطف على قول نوح عليه السلام من أوله قوله عندما أخبره تعالى أنهم مغرقون وأنه لا يؤمن منهم إلا من قد آمن بعدما طال بلاؤه بهم حتى أن كان الرجل ليأتي بابنه إليه فيقول له : احذر هذا أن يضلك، وإن أبي حذر به، وكانت صيغة العموم ليست بنص في أفرادها أبداً، استنجازاً لوعده وتصريحاً بمراده: {وقال نوح} وأسقط الأداة كما هي عادة أهل الحضرة فقال: {رب لا تذر} أي تترك بوجه من الوجوه أصلاً ولو على أدنى الوجوه {على الأرض} أي كلها من مشرقها إلى مغربها وسهلها وجبلها ووهدها {من الكافرين} أي الراسخين في الكفر الذي هو كان لهم جبلة وطبعاً {دياراً * } أي أحداً يدور فيها، وهو من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي العام فيقال من الدور أو الدار لا فعّال، وإلا لكان دواراً، ويجوز – وهو أقرب– أن يكون هذا الدعاء عند ركوبه السفينة وابتداء الإغراق فيهم، يريد به العموم كراهية أن يبقى أحد منهم على ذروة جبل أو

نحوه، لا أصـــــل الإغراق، وأن يكون معنى ما قبله الحكم بإغراقهم وتحتم القضاء به أو الشروع فيه.

ولما كان الرســل عليهم الصـــلاة والســـلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما فيه مصـــلحة الدين، علل دعاءه بقوله وأكده إظهاراً لجزمه باعتقاد ما أنزل عليه من مضــمون قوله تعالى: {إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} [هود: 36] وإن كان ذلك خارجاً عن العادة: {إنك} أي يا رب {إن تذرهم} أي تتركهم على أي حالة كانت في إبقائهم ســـالمين على وجه الأرض على ما هم عليه من الكفر والضلال والإضلال ولو كانت حالة دنية {يضلوا عبادك} أي الذين آمنوا بي والذين يولدون على الفطرة السليمة.

ولما كان ربما كان الإنســان ضــاراً ووجد له ولد نافع؛ نفى ذلك بقوله: {ولا يلدوا} أي إن قدرت بقاءهم في الدنيا {إلا فاجراً} أي مارقاً من كل ما ينبغي الاعتصـــام به، واكتفى فيه بأصــل الفاعل إشــارة إلى أن من جاوز الحد أو شــرع في شــيء بعده من التمادي في الغي صــار ذلك له ديدناً فبالغ، فلذلك قال: {كفاراً *} أي بليغ الســتر لما يجب إظهاره من آيات الله لأن قولك يا رب لا يتخلف أصــلاً، والظاهر أن هذا الكلام لا يقوله إلا عن وحي كما في ســورة هود عليه الســلام من قوله تعالى: {إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} [هود: 36] فيكون على هذا حتى صــغارهم معذبين بما يعلم الله منهم لو بلغوا لا بما عملوه كما قال صـــلى الله عليه وســـلم في أولاد الكفار «الله أعلم بما كانوا عاملين».

ولما دل هذا كله على أنه دعا على أعداء الله، دعا أيضـــاً لأوليائه وبدأ بنفسه لأنه رأس تلك الأمة، فقال مسقطاً على عادة أهل الخصوص: {رب} أي أيها المحســن إليّ باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني، فإن من كانت طبيعته طبعت على شيء لا تحول عنه.

ولما كان المقام الأعلى أجل من أن يقدره أحد حق قدره قال: {اغفر لي} أي فإنه لا يسـعني وإن كنت معصـوماً إلا حلمك وعفوك ورحمتك. ولما أظهر بتواضــعه عظمة الله ســبحانه وتعالى رتب المدعو لهم على الأحق فالأحق فقال: {ولوالديّ} وكانا مؤمنين وهما لمك بن متوشـلخ وشـمخاء بنت أنوش، قال أبو حيان: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليهم الصـلاة والسـلام. وأعاد الجار إظهاراً للاهتمام فقال: {ولمن دخل بيتي} لأن المتحرم بالإنسان له حق أكيد لا سيما إن كان مخلصــاً في حبه، ولذا قال: {مؤمناً} ولما خص عم وأعاد الجار أيضــاً اهتماماً فقال: {وللمؤمنين والمؤمنات} أي العريقين في هذا الوصـف في كل أمة إلى آخر الدهر ولا تزدهم في حال من الأحوال شــيئاً من الأشــياء إلا مفازاً.

ولما كان التقدير بما أرشـــد إليه الاحتباك: ولا تكرم المارقين، عطف عليه قوله: {ولا تزد الظالمين} أي العريقين في الظلم في حال من الأحوال {إلا تباراً *} أي إلا هلاكاً مدمراً مفتتاً لصـــورهم قاطعاً لأعقابهم مخبراً لديارهم وكما استجاب الله سبحانه وتعالى له في أهل الإيمان والكفران من أهل ذلك الزمان فكذلك يسـتجيب له في أهل الإيمان وأهل الخسـران بالسـعادة والتبار

في جميع الأعصـــار إلى أن يقفوا بين يـدي العزيز الجبـار، والأيـة من الاحتباك: إثبات الدعاء المقتضــي لأصــل إكرام المؤمنين أولاً مرشــد إلى حذف الدعاء المفهم لأصل إهانة الكافرين ثانياً، وإثبات الدعاء بزيادة التبار ثانياً مفهم لحذف الدعاء الموجب لزيادة المفاز أولاً، وهذا الآخر المفصـــح بالتبار هو ما أرشد إليه الابتداء بالإنذار، فقد انطبق الآخر على الأول على أصـــرح وجه وأكمل، وأحســـن حال وأجمل منال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله تعالى على كل حال.

72 Jinn Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

72

سورة الجن

تفسير الآيات رقم [1– 4]

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4)}

ولما كان نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله تعالى إلى المخالفين من أهل الأرض، وكان قومه عباد أوثان، وعصوه أشد العصيان مع أنه كان منهم نسباً ولساناً، وختمت سورته بدعائه عليهم، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، فهو آخر رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وغيرهم من جميع الخلق، وكان قومه العرب قد وافقوا قوم نوح عليه السلام في أكثر أحوالهم عبادة الأوثان حتى تلك الأوثان إما بأساميها أو

بأعيانها على ما ورد في الأخبار، وفي عصيان رسولهم واستضعاف أتباعه واستهزائهم ابتدئت، هذه بما كان من سهولة من سمع هذه الدعوة الخاتمة الجامعة من غير الجنس فضلاً عن الموافقين في الجنس مع قصر الزمان وضعف الأعوان لجلالة هذا القرآن، فقال منبهاً له بالأمر على ما في هذا من عظيم القدر، مع الإشارة إلى تبكيت العرب على التباطؤ عن الإجابة إلى ما يعرفون من رشده بمعناه ونظمه، لكونه بلسانهم وكونهم من نوع الداعي وقبيله وأقرب الناس إليه {قل} أي يا محمد لقومك.

ولما كان المقصود تعظيم الموحى به، وأما الموحي إلى كل من الرسولين فواحد، بنى للمفعول قوله مبيناً لسيرة الجن في تلقيهم لهذا القرآن بالأخذ إرثاً من أشرف النبيين وإلقائهم له بالإبلاغ إلى غيرهم من وارث العلم منهم ليكون لهم الشرفان: شرف العلم لكمال أنفسهم، والتعليم لتكميل غيرهم، فيكون لهم مثل أجر من عمل بما ألقوه إليه وأملوه عليه: {أوحي إليّ} أي أخبرت على وجه الخفاء ممن لا يعلم الغيب غيره في هذا القرآن الذي اقتضى إعجازه أن أكون أكثر الأنبياء تابعاً على لسان جبريل عليه السلام الذي هو أمينه والواسطة بينه وبين أنبيائه، ثم وضع موضع المفعول الذي لم يسم فاعله قوله: {أنه} أي الشأن العظيم {استمع} أي بغاية الإصغاء والإقبال والتقبل والإلف استماعاً هو الاستماع في الحقيقة لأنه لقراءتي هذا القرآن {نفر} هم في غاية النفرة جبلة وطبعاً {من الجن} الذين هم في غاية الاستتار، وهم أجسام حية عاقلة خفيفة تغلب عليها النارية أو الهوائية كما تغلب على أجسام الإنس الترابية، والنفر ما بين الثلاثة والعشرة، قال البغوي:

وكانوا تسـعة من جن نصـيبين، وقيل: كانوا سـبعة، وفي هذه العبارة دليل على أنه صـلى الله عليه وسـلم ما رآهم ولا قرأ عليهم، وإنما اتفق حضـورهم عند قراءته، وهل هذا الاسـتماع هو المذكور في الأحقاف أو غيره قال أبو حيان: المشـهور أنه هو، وقيل: هو غيره، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين، والذين أتوه بنخلة جن نينوى، والسورة التي استمعوها قال عكرمة: العلق، وقيل: الرحمن، ولم يذكر هنا ولا في الأحقاف أنه رآهم، ويظهر من الحديث تعدد الواقعة، فمنها ما كان في المبدأ ولم يكن معه أحد من الصحابة رضي الله عنهم كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي في الصحيح

»أنهم فقدوه صـلى الله عليه وسـلم ليلة من الليالي فالتمسـوه في الأودية والشعاب، فلما أصبح إذا جاء من قبل حراء فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، ومنها ما كان معه عبد الله رضـي الله عنه فذهب معه إلى الحجون عند الشعب فخط عليه خطاً، وقال: لا تجاوزه، فانحدر عليه أمثال الحجل يجرون الحجارة بأقدامهم حتى غشوه فلا أراه، وأومأ إليّ بيده أن اجلس، فتلا القرآن، فلم يزل صـوته يرتفع واختفوا بالأرض حتى ما أراهم» قال الأصـبهاني: وقيل: كانوا من بني الشـيصـبان وهم أكثر الجن عدداً وهم عامة جنود إبليس، وقال القشـيري: لما رجمت الشـياطين بالشـهب فرق إبليس جنوده لعلم ذلك فأتى سـبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبي صـلى الله عليه وسـلم فآمنوا ثم أتوا قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يعني ولم يرجعوا إلى إبليس

لما علموه من كذبه وسفاهته، وجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين من قومهم فأسلموا، فذلك قوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه} [الأحقاف: 29] الآيات {فقالوا} أي فتسبب عن استماعهم أن قال من سمع منهم لمن لم يسمع، أو لمن كان يواخيهم من الإنس امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله امرأً سمع منا مقالة فوعاها فأداها كما سمعها» وكان قولهم سكوناً إلى هذا ا لقرآن وأنسابه، مؤكدين لبعد حالهم عن سماع الوحي وعلمهم بما زاد به من الإعجاز: {إنا} بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول {سمعنا} حين تعمدنا الإصغاء وألقينا إليه أفهامنا {قرآناً} أي كلاماً هو في غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما نحتاج إليه، ثم وصفوه بالمصدر مبالغة في أمره فقالوا: {عجباً *} أي بديعاً خارجاً عن عادة أمثاله من جميع الكتب الإلهية فضلاً عن كلام الناس في جلالة النظم وإعجاز التركيب والوضع مع الموافقة لها في الدعوة إلى الله تعالى والبيان للمحاسن والمساوئ والدعاء إلى كل فلاح حتى صار نفس العجب، والعجب ما خرج عن حد أشكاله ونظائره فخفي سببه، وهذا يدل على قوتهم العلمية في فصاحتهم وكمالهم في علم الرسوم، وصوغ الكلام على أبلغ جهات النظوم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة ن والقلم، ثم أتبعت بوعيدهم في الحاقة ثم بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج ثم بتسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه،

أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله: فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبي من جنسهم ومن أنفسهم فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون ولغتهم التي بها يتكلمون، فقد بهرت العقول آياته، ووضحت لكل ذي قلب سليم براهينه ومعجزاته، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين، ومع ذلك عموا وصموا- غضب الله عليهم ولعنهم- وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم، وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا، وأمر صلى الله عليه وسلم بالإخبار بذلك، فأنزل الله تعالى عليه {قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن} [الجن: 1] الآيات إلى قوله إخباراً عن تعريف الجن سائر أخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب «وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً» ثم استمرت الآي ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة- انتهى.

ولما بينوا فضله من جهة الإعجاز وغيره، بينوا المقصود بالذات الدال على غوصهم على المعاني بعد علمهم بحسن المباني فقالوا: {يهدي} أي يبين غاية البيان مع الدعاء في لطف وهدى {إلى الرشد} أي الحق والصواب الذي يكاد يشرد لثقله على النفوس الداعية إلى الهوى وخفة ضده الغي والسفة الملائم لنقائص النفوس. ولما وصفوه بهذه الكمالات سببوا عن ذلك قولهم إعمالاً للقوة العملية في المبادرة إلى الصواب من غير تخلف أصلاً: {فآمنا} أي كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا توقف بعد الاستماع

{به} أي أوقعنا الأمان لمبلغ القرآن أن نكذبه أو نخالفه أدنى مخالفة بسبب هذا القرآن.

ولما أخبروا عن الماضي، وكان الإيمان لا يفيد إلا مع الاستمرار، قالوا عاطفين على ما تقديره: فوجدنا الله في الحال لأن ذلك نتيجة الإيمان بالقرآن وخلعنا الأنداد: {ولن} أي والحال أنا مع إيقاع الإيمان في الحال لن {نشرك} بعد ذلك أصلاً، أكدوا لأنه أمر لا يكاد يصدق {بربنا} أي الذي لا إحسان قائم بنا من الإيجاد وما بعده إلا منه {أحداً *} أي من الخلق لأنه لم يشركه في شيء من مرنا أحد، وقد وضحت الدلائل على التوحيد فيما سمعنا من هذا القرآن.

ولما أظهروا القوتين العلمية بفهمهم القرآن، والعملية بما حصل لهم من الإذعان، أعملوا ما لهم في الدعاء إلى الله تعالى من قوة البيان، فبعد أن نزهوه سبحانه عن الشرك عموماً خصوا مؤكدين في قراءة ابن كثير والبصريين وأبي جعفر بالكسر لما تقدم من أن مثل هذه السهولة لا تكاد تصدق، فقالوا عطفاً على {إنا سمعنا} [الجن: 1]: {وأنه} أي الشأن العظيم قال الجن: {تعالى} أي انتهى في العلو والارتفاع إلى حد لا يستطاع {جد} أي عظمة وسلطان وكمال غنى {ربنا} أي الموجد لنا والمحسن إلينا، وإذا كان هذا التعالي لجده فما بالك به، وكذا حكت هذه القراءة بقوله الجن ما بعد هذا إلا

{وأن لو استقاموا} [الجن: 16] و{أن المساجد لله} [الجن: 18] و{أنه لما قام} [الجن: 19] فإنه مفتوح فيها عطفاً على الموحى به فهو في محل رفع

إلا عند أبي جعفر فإنه فتح {وأنه تعالى} [الجن: 3] و {أنه كان يقول} [الجن: 4] {وأنه كان رجال} [الجن: 6] ووافقهم نافع وأبو بكر عن عاصم في غير {وأنه لما قام} [الجن: 19] فإنهما كسـراها وفتح الباقون وهم ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم الكل إلا ما صدر بالفاء على أنه معطوف على محل الجار في «به» أي صدقناه وصدقنا أنه- لا على لفظه وإلا لزم إعادة الجارّ عند نحاة البصرة، وقيل: عطف على لفظ الضمير في «به» على المذهب الكوفي الذي نصـــره أبو حيان وغير واحد من أهل اللسان.

ولما وصـــفوه بهذا التعالي الأعظم المســتلزم للغنى المطلق والتنزه عن كل شـــائبة نقص، بينوه بنفي ما ينافيه بقولهم إبطالاً للباطل: {ما اتخذ} عبر بصيغة الافتعال بياناً لموضع النقص لا تقييداً {صاحبة} أي زوجة {ولا ولداً *} لأن العادة جارية بأنه لا يكون ذلك إلا بمعالجة وتسـبيب، ومثل ذلك لا يكون إلا لمحتاج إلى بضـــاع أو غيره، والحاجة لا تكون إلا من ضـــعف وعجز، وذلك ينافي الجد، فالمحتاج لا يصـح أصـلاً أن يكون إلهاً وإن كان بغير تســبيب ومهلة، فهو عبث لأن مطلق الاختراع مغن عنه، فلم يبق إلا العبث الذي ينزه الإله عنه والصـــاحبة لا بد وأن تكون من نوع صـــاحبها، ومن له نوع فهو مركب تركيباً عقلياً من صفة مشتركة وصفة مميزة، والولد لا بد وأن يكون جزءاً منفصـــلاً عن والده، ومن له أجزاء فهو مركب تركيباً حسـياً، ومن المقطوع به أن ذلك لا يكون إلا لمحتاج، وأن الله تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسي أو عقلي.

ولما تبين لهم ما هو عليه سبحانه من النزاهة عن كل شائبة نقص، وصفوا من قال بضده صيانة لدينهم وعرضهم بالترفع عن الخسائس والرذائل بعدم التمادي في الباطل مقتاً للخلق في ذات الخلق مؤكدين لما للسامع في الغالب من تصديق ما يسمع والمحاجة عنه فقالوا : {وأنه} أي وقالوا إلى الشأن– هذا على قراءة الكسر، وآمنا بأنه– على قراءة الفتح {كان يقول} أي قولاً هو في عراقته في الكذب بمنزلة الجبلة والطبع {سفيهنا } وهو الجنس فيتناول إبليس رأس الجنس تناولاً أولياً، وكل من تبعه ممن لم يعرف الله لأن ثمرة العقل العلم، وثمرة العلم معرفة الله، فمن لم يعرفه فهو الذي يلازم الطيش والغي لأنه لا علم عنده أصلاً يحمله على الرزانة، كاذباً متقولاً {على الله} أي الذي له صفات الكمال المنافية لقول هذا السفيه في الولد {شططاً *} أي قولاً هو في بعده عن الصواب نفس البعد ومجاوزة الحد.

▲ تفسير الآيات رقم [5– 9]

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)}

ولما ذكروا ما هدوا إليه من الحق في الله وفيمن كان يحملهم على الباطل، ذكروا عذرهم في اتباعهم للسفيه وفي وقوعهم في مواقع التهم، فقالوا مؤكدين لأن ما كانوا عليه من الكفر جدير بأن يظن أنه لا يخفى على أحد لشدة

وضوح بطلانه: {وأنا} أي معشر المسلمين من الجن {ظننا} أي بما لنا من سلامة الفطر المقتضية لتحسين الظن بشهادة حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عند أحمد «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم» {أن} أي أنه، وزادوا في التأكيد لما مضى فقالوا: {لن تقول} وبدأوا بأفضل الجنسين فقالوا: {الإنس} وأتبعوهم قرناءهم فقالوا: {والجن} أي متخرصين {على الله} أي الملك الأعلى الذي بيده النفع والضر {كذباً *} أي قولاً هو لعراقته في مخالفة الواقع نفس الكذب، وهو في قراءة أبي جعفر بفتح القاف والواو المشددة المفتوحة مصدر من غير اللفظ، وإنما ظننا ذلك لما طبع عليه المجبول على الشهوات من تصديق الأشكال لا سيما إذا كان قولهم جازماً وعظيماً لا يقال مثله إلا بعد تثبت لا سيما إذا كان على ملك الملوك لا سيما إذا كان القائل كثيراً لا سيما إذا تأيدوا بجنس آخر، فصاروا لا يحصون كثرة، ولا تطيق العقول مخالفة جمع بهذه الصفة إلا بتأييد إلهي بقاطع نقلي، والآية على قراءة أبي جعفر من الاحتباك: فعل التقول أولاً دليل على فعل الكذب ثانياً، ومصدر الكذب ثانياً دليل على مصدر التقول أولاً، وسره أن التقول دال على التعمد فهو أفحش معنى والكذب أفحش لفظاً، وهذا مرشد إلى أنه لا ينبغي التقليد في شيء لأن الثقة بكل أحد عجز، وإنما ينكشف ذلك بالتجربة، والتقليد قد يجر إلى الكفر المهلك هلاكاً أبدياً، وإليه أرشد النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان عن النعمان ابن بشير رضي الله عنه بأن «من اتقى الشبهات استبرأ لديه وعرضه» وفي ذلك غاية الحث على أن الإنسان لا يقدم ولا يحجم في أصول الدين إلا بقاطع.

ولما علم من قولهم أن مستند الضلال ظنون وشبه متى حكت على محك النظر بان فسادها، وأظهر زيفها نقادها، أتبعه شبهة أخرى زادت الفريقين ضلالاً بعضهم ببعض للتقيد بالمحسوسات، والوقوف مع الخيالات الموهومات، فقال حاكياً عنهم تنبيهاً على عدم الاغترار بالمدح والإطراء الموجبين للغلط في النفس وعلى أنه يجب التثبت حتى لا يقع الغلط في الأسباب المسخرة فيظن أنها مؤثرة فيتجاوز بها الحد عن رتبة الممكنات إلى رتبة الواجب، مؤكدين لأنه لا يكاد يصدق أن الجن يخاطبهم الإنس فيكارمونهم: {وإنه} أي الشأن {كان رجال} أي ذوو قوة وبأس {من الإنس} أي النوع الظاهر في عالم الجنس {يعوذون} أي يلجؤون ويعتصمون- خوفاً على أنفسهم وما معهم- إذا نزلوا وادياً {برجال من الجن} أي القبيل المستتر عن الأبصار فإنه كان القوم منهم إذا نزلوا وادياً أو غيره من القفر تعبث بهم الجن في بعض الأحيان لأنه لا مانع لهم منهم من ذكر الله تعالى ولا دين صحيح، ولا كتاب من الله صريح، فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم فكان الرجل يقول عند خوفه: إني أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه أو نحو هذا فلا يرى إلا خيراً، وربما هدوه إلى الطريق وردوا عليه ضالته، فكان ذلك فتنة للإنس باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه، فتبعوهم في الضلال، وفتنة الجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا سدنا: الجن والإنس، فيضلوا ويضلوا، ولذلك سبب عنه قوله: {فزادوهم} أي الإنس الجن باستعاذتهم هذه المرتب عليها إعاذتهم، والجن الإنس بترئيس الإنس لهم وخوفهم منهم {رهقاً *} أي ضيقاً وشدة وغشياناً لما هم فيه من أحوال

الضلال التي يلزم منهم الضيق والشدة، وأصل الرهق غشيان بقوة وشدة وقهر، وقال البغوي: والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم.

كما يتفق لمن يسلك من أهل التصوف على غير أصل فيرى في أثناء السير أنواراً وأشياء تعجبه شيطانية فيظنها رحمانية، فيقف عندها ويأنس بها لفساد في أصل جبلته نشأ عنه سوء مقصده، فربما كان ذلك سبباً لكفره فيزداد هو وأمثاله من الإنس ضلالاً ويزداد من أضله من الجن ضلالاً وإضلالاً وعتواً، ويزداد الفريقان بعداً عن اللجأ إلى الله وحده، ولقد أغنانا الله سبحانه وتعالى بالقرآن والذكر المأخوذ عن خير خلقه بشرطه في أوقاته عن كل شيء كما أخبر صلى الله عليه وسلم أن من قال عند إتيانه الخلاء «بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» ستر عن الجن، وأن من قال إذا أتى امرأته «اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني» فأتاه ولد لم يقدر الشيطان أن يضره، ومن أذن أمن تغول الغيلان، وروى الترمذي وأحمد- قال المنذري: ورواته رواة الصحيح- عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يأخذ مضجعه فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله تعالى به ملكاً فلا يقربه شيء يؤذيه حتى يهب متى هب» وللطبراني في الكبير- قال المنذري: ورواته رواة الصحيح إلا المسيب بن واضح، قال الهيثمي: وهو ضعيف وقد وثق- عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: «خرجت من حمص فآواني الليل إلى البقيعة فحضرني من أهل الأرض فقرأت هذه الآية من الأعراف

{إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش} [الأعراف: 54] إلى آخر الآية، فقال بعضهم لبعض: احرسوه الآن حتى يصبح، فلما أصبحت ركبت دابتي «والأحاديث في هذا كثيرة في آية الكرسي وغيرها، وكذا حكايات من اعترضه بعض الجن فلما قرأ ذهب عنه.

ولما كان التقدير: فضل كل من الفريقين بالآخر ضلالاً بعيداً حتى أبعدوا عن الشرائع النبوية، واعتقدوا ما لا يجوز اعتقاده من التعطيل واعتقاد الطبيعة، فلا يزال الأمر هكذا أرحام تدفع وأرض تبلع ولا رسول يهديهم ولا بعث للأرض على بارئهم، عطف عليه قولهم مؤكدين في قراءة الكسر إشارة إلى ظهور دلائل البعث، وأنه لا يكاد يصدق أن أحداً يكذب به منبهاً على أن الأهواء والأغاليط قد يتطابق عليها الجم الغفير، حثاً للمهتدي على أن لا يستوحش في طريق الهدى لقلة السالكين، ولا يغر بطرق الردى لكثرة الهالكين: {وأنهم} أي الإنس إن كانوا يخاطبون الجن، والجن إن كانوا يخاطبون الإنس {ظنوا} أي الجن أو الإنس ظناً ليسوا فيه على ثلج والظن قد يصيب، وقد يخطئ وهو أكثر {كما ظننتم} أي أيها الجن أو الإنس، والمعنى في قراءة الفتح: وأوحى إليّ أن الإنس أو الجن ظنوا، وسدوا عن مفعولي» ظن «بقولهم: {أن} أي أن الشأن العظيم {لن} أكد للدلالة على شدة إنكارهم لذلك {يبعث} وأشاروا إلى خطأ هذا الظن بالتعبير بالجلالة فقالوا: {الله} أي الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة {أحداً *} أي بعد موته لما لبس به عليهم إبليس حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن، أو أحد من الرسل يزيل به عماية الجهل وما عليه الإنس من استغواء الجن لهم وغير

ذلك من الضـــــلال، وقد ظهر بالقرآن أن هذا الظن كاذب وأنه لا بد من البعث في الأمرين لأنه حكمة الملك وخاصة الملك.

ولما كان عدم البعث من خلل في القدرة، شــرعوا في إثبات تمام القدرة على وجه دال على صـحة القرآن وحراسـته من الجان، لئلا يظن أنه من نحو ما للكهان، فقالوا مؤكدين في قراءة الكسر لاستبعاد الوصول إلى السماء حثاً على طلب المهمات وإن بعد مكانها: {وإنا} ولما كان يعبر عن الإمعان في التفتيش بالالتماس، وكان تجريد الفعل أعظم من ذلك للدلالة على الخفة وعدم الكلفة قال: {لمسنا السماء} أي الدنيا التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا لاســتماع ما يغوى به الإنســان التماســاً هو كالحس باللمس باليد {فوجدناها} من جميع نواحيها وهو من الوجدان {ملئت} أي ملأً هو في غاية السهولة والخفة على فاعله {حرساً} أي حراساً اسم جمع، فهو مفرد اللفظ، ولذلك وصـف بقوله: {شـديداً} أي بالملائكة {وشـهباً *} جمع سـهاب وهو المتوقد من النار، فعلت هممهم حتى طلبوا المهمات الدنيوية والشــــهوات النفسانية من مسيرة خمسمائة سنة صعوداً، فأفّ لمن يكسل عن مهمات الدين المحققة من مسيرة ساعة أو دونها، وأن يقعد في مجلس العلم ساعة أو دونها، والتعبير بالملء يدل على أنها كانت قبل ذلك تحرس لكن لا على هذا الوجه فقيل: إنها حرست لنزول التوراة ثم اشتد الحرس للانجيل ثم ملئت لنزول القرآن فمنعوا من الاستماع أصلاً إلا ما يصدق القرآن إرهاصاً للنبوة العظمى الخاتمة لئلا يحصل بهم نوع لبس.

ولما أخبروا عن حالها إذ ذاك لأنه الأهم عندهم، أخبروا عن حالها قبل، فقالوا مؤكدين لما للإنس من التكذيب بوصول أحد إلى السماء: {وإنا كنا} أي فيما مضى {نقعد منها} أي السماء {مقاعد} أي كثيرة قد علمناها لا حرس فيها فهي صالحة {للسمع} أي لأن نسمع منها بعض ما تتكلم به الملائكة بما أمروا بتدبيره، وقد جاء في الخبر أن صفة قعودهم هي أن يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا إلى السماء، قال أبو حيان: فمتى احترق الأعلى كان الذي تحته مكانه فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان فيزيدون معها الكذب.

ولما كان التقدير: فنستمع منها فنسمع ما يقدر لنا من غير مانع، عطف عليه قوله: {فمن يستمع} أي يجتهد في الوصول إلى السمع {الآن} أي في هذا الوقت فيما يستقبل أنهم قسموا الزمان إلى ما كان من إطلاق الاستماع لهم وإلى ما صار إليه الحال من الحراسة، وأطلقوا «الآن» على الثاني كله، لأنهم أرادوا وقت قولهم فقط أو أرادوه لأنهم يعلمون ما بعده فيجوزون أن يكون الحال فيه على غير ذلك {يجد له} أي لأجله {شهباً} أي شعلة من نار ساطعة محرقة.

ولما كان الشهاب في معنى الجمع لأن المراد أن كل موضع منها كذلك، وصفه باسم الجمع فقال: {رصداً *} أي يرصده الرامون به من غير غفلة، ويجوز أن يكون مصدراً على المبالغة كرجل عدل، والرصد الترقب لأنه لما كان لا تأخر عن رميه عند الدنوّ من السماء كان كأنه هو الراصد له، المراقب لأمره، الملاحظ الذي لا فتور عنده ولا غفلة بوجه بل هو الرصد

وهو المعنى بنفسه، فمتى تسنم للاستماع رمي به فيمنعه من الاستماع وإن أدركه أحرقه، وأما السمع فقد امتنع لقوله تعالى {وإنهم عن السمع لمعزولون} [الشعراء: 212].

▲ تفسير الآيات رقم [10- 13]

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)}

ولما أخبروا عن إيمانهم أنه كان عقب سماعهم من غير توقف، ثم ذكروا منعهم من الاستراق، ذكروا أنه اشتبه عليهم المنع فلم يعلموا سره دلالة على أن جهل بعض المسائل الفرعية لا يقدح، وندباً إلى رفع الهمة عن الخوض في شيء بغير علم، وحثاً على التفويض إلى علام الغيوب، فبينوا الذي حملهم على ضرب مشارق الأرض ومغاربها حتى وجدوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن: فقالوا مؤكدين لأن العرب كانوا ينسبونهم إلى علم المغيبات وحل المشكلات: {وإنا لا ندري} أي بوجه من الوجوه وإن دافعنا واجتهدنا {أشر} ولما كان المحذور نفس الإرادة الماضية لا كونها من معروف مع أن الفاعل معروف، وهو الفاعل المختار الذي له الإرادة الماضية النافذة، بنوا للمفعول قولهم: {أريد} معلمين للأدب في أن الشر يتحاشى من إسناده إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لا يكون شيء إلا به {بمن في الأرض} أي بهذه الحراسة فينشأ عنها الغي {أم أراد

بهم ربهم} أي المحسن إليهم المدبر لهم، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاماً مع تعليم الأدب بأن رحمته سبقت غضبه، وإشارة إلى أنه قد يكون أراد بهذا المنع الخير {رشداً *} أي سداداً فينشأ عنه الخير، فالآية من الاحتباك: ذكر الشر أولاً دليلاً على الخير ثانياً، والرشد ثانياً دليلاً على الغنى أولاً.

ولما أخبر سبحانه بسهولة إيمانهم، فكان ربما ظن أن ذلك ما كان إلا لأن شأنهم اللين، أتبعه ما يعلم أن ذلك خارقة لأجله صلى الله عليه وسلم كانت، ولإعظامه وإكرامه وجدت، فقال حكاية عنهم مؤكدين لأن الكلام السابق ظاهر في سلامة طباع الكل: {وإنا منا} أي أيها الجن {الصالحون} أي العريقون في صفة الصلاح التي هي مهيئة لقبول كل خير.

ولما كان غير الصالح قد يكون فاسداً بأن يكون مباشراً للفساد قاصداً له وقد يكون غير مباشر له، قالوا متفطنين لمراتب العلوم والأعمال المقربة والمبعدة: {ومنا} وبنى الظرف المبتدأ به لإضافته إلى مبني فقيل: {دون} أي قوم في أدنى رتبة من {ذلك} أي هذا الوصف الشريف العالي.

ولما كان من دون الصالح ذا أنواع كثيرة بحسب قابليته للفساد أو الصلاح وتهيؤه له أو بعده عنه، حسن بيان ذلك بقولهم: {كنا} أو كوناً هو كالجبلة {طرائق} أي ذوي طرق أي مذاهب ووجوه كثيرة، وأطلقوا الطرق على أصحابها إشارة إلى شدة تلبسهم بها.

ولما كان الانفصال قد يكون بأدنى شيء، بين أنه على أعلى الوجوه فأطلق عليهم نفس المنقطع ووصفهم به فقال: {قدداً *} أي فرقاً متفرقة أهواؤها،

جمع قدة وهي الفرقة من الناس هواها على غير هواهم، من القد وهو القطع الموجب للتفرق العظيم مثل السـيور التي تقطع من الجلد وقد منه بحيث تصير كل فرقة على حدتها، قال الحسن والسدي: كافرين ومسلمين ورافضة ومعتزلة ومرجئة وغير ذلك مثل فرق الإنس.

ولما دلوا على قهرهم عما كانوا يقدرون عليه من أمر السـماء بما ذكروا، وعلى قهر مفسـديهم بهذا القرآن عن كثير مما كانوا يفعلونه بأهل الأرض، فقهروا بهذا القرآن العظيم الشـأن في الحقيقة عن الخافقين فمنعنا منهم وحفظاً به، ودلوا على أنهم موضـع القهر بالتفرق، كان ذلك موجباً للعلم بشـمول قدرته تعالى حتى لا يدركه طالب، ولا ينجو منه هارب، لما أبدى لهم من شؤون عظمته وقهره في الحراسة وغيرها، فذكر سبحانه ما أثر ذلك عندهم من الاعتراف والإذعان للواحد القهار، فقال حاكياً عنهم ذلك ندباً إلى الاقتداء بهم في معرفة النفس بالعز والذل والضـعف بالتفرق والانقسـام، ومعرفة الرب سبحانه بالقدرة الكاملة والسلطان والعظمة بالتفرد التام الذي لا يقبل المماثلة ولا القسمة: {وإنا} أكدوا لظن الإنس في قوتهم غير ما هو لها {ظننا} أطلقوا الظن على العلم إشـارة إلى أن العاقل ينبغي له أن يجتنب ما يخيله ضـاراً ولو بأدنى أنواع الحيل فكيف إذا تيقن {أن} أي أن الشـأن العظيم، وزادوا في التأكيد لما تقدم فقالوا: {لن نعجز الله} أي أن نقاومه إن أراد بنا سـواءاً لما له من الإحاطة بكل شـيء علماً وقدرة لأنه واحد لا مثل له، ودلوا على وجه الضـعف بقولهم: {في الأرض} أي كائنين فيها مقيمين وهي جهة السـفل الملزومة للقهر، وذلك أقصـى جهدنا فأين نحن من سـعة

ملكه الذي هو في قبضـــته {ولن نعجزه} أي بوجه من الوجوه {هرباً *} أي ذوي هرب أو من جهة الهرب، أي هربنا من الأرض إلى غيرها فإن السماء منعت منا وليس لنا مضطرب إلا في قبضته، فأين أم إلى أين المهرب، وقد منعوا بذلك وجهي النجاة باللقاء والنصر والهرب عند القهر.

ولما كان الظانّ قد يبادر على العمل بموجب ظنه وقد لا، بينوا أن مرادهم به العلم، وأنهم بادروا إلى العمل بما دعا إليه، فقالوا مؤكدين لما للجن من الإباء والعسر: {وإنا لما سمعنا} أي من النبي صلى الله عليه وسلم {الهدى} أي القرآن الذي له من العراقة التامة في صـــفة البيان والدعاء إلى الخير ما سـوغ أن يطلق عليه نفس الهدى: {آمنا به} أي من غير وقفة أصـلاً عملاً بما له من هذا الوصف العظيم.

ولما كان التقدير : فآمنا بســـبب إيماننا الذي قادنا إليه حفظ الســـماء من الإيقاع به لتمام قدرته علينا الذي هدانا إليه منعنا من الاسـتماع بالحراســة، سـببوا عن ذلك قولهم معترفين بالعجز عن مقاومة التهديد من الملك طالبين التحصـن بتحصينه والاعتصـام بحبله: {فمن يؤمن} أي يوجد حقيقة الإيمان ويستمر على تجديدها كل لحظة.

ولما فهموا أن دعاءه إليه وبيانه للطريق مع قدرته التامة إنما هو من عموم لطفه ورحمته، ذكروا وصـــف الإحســـان لزيادة الترغيب فقالوا : {بربه} أي المحسن إليه منا ومن غيرنا.

ولما كان المؤمن هو المختص من بين الخلق بالنجاة، أدخل الفاء على الجواب ورفعه على تقدير مبتدأ دلالة على ذلك وعلى أن نجاتهم ما لا بد

منه فقال: {فلا} أي فهو خاصة لا {يخاف} أصلاً {بخساً} أي نقصاً وقلة وخبثاً ونكداً في الثواب والإكرام بوجه من الوجوه {ولا رهقاً *} أي مكروهاً يلحقه فيقهره لأنه لم يفعل مع أحد شـــيئاً من ذلك ليجازى عليه، فهذا حث للمؤمن على اجتناب ذلك لئلا يجازى به، وقد هدى السياق إلى تقدير: ومن يشرك به فلا، يأمن محقاً ولا صعقاً.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 18]

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)}

ولما كان هذا ظاهراً في أنهم أسـلموا كلهم، قالوا نافين لهذا الظاهر مؤكدين لأن إسـلامهم مع شـديد نفرتهم لا يكاد يصـدق: {وأنا منا} أي أيها الجن {المسلمون} أي المخلصـون في صـفة الإسـلام للهادي فأسلموه قيادهم فهم عريقون في ذلك مقسطون مستقيمون، فلا يفارقون الدليل فهم على الصراط السـوي العدل الرضـي، ومنا الجافون الكافرون {ومنا القاسـطون} وهم الجائرون عن المنهج الأقوم السـاقطون في المهامه المجاهل التي ليس بها معلم، فهم بربهم كافرون، ومنا المقسـطون، يقال: قسـط- إذا جار جوراً، أسـقطه عن رتبة الإنسـان إلى رتبة أدنى الحيوان، وأقسـط- إذا أزال الجور فعدل، فالآية من الاحتباك: «المسلمون» يدل على الكافرين، و«القاسطون» يدل على المقسطين.

ولما كانوا قد علموا مما سمعوا من القرآن أنه لا بد من البعث للجزاء، سببوا عن هذه القسمة قولهم: {فمن أسلم} أي أوقع الإسلام كله بأن أسلم ظاهره وباطنه للدليل من الجن ومن غيرهم.

ولما كان في مقام الترغيب في الحق، ربط بفعلهم ذلك تسبيباً عنه قوله مدحاً لهم: {فأولئك} أي العالو الرتبة {تحروا} أي توخوا وقصدوا مجتهدين {رشداً *} أي صواباً عظيماً وسداداً، كان- لما عندهم من النقائص- شارداً عنهم فعالجوا أنفسهم حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلاً، من قولهم: الحرا- بالقصر: أفحوص القطاة يأوي إليه الظبي، والناحية والموضع، وما أحراه بكذا: ما أوجبه له، وبالحرا أن يكون كذا أي خليق كونه، وفلان حري بكذا أي خليق، وقد يجيء بالحر- من غير ياء، يراد به بالجهد، وتحريت الشيء: قصدت ناحيته، فكان لهم ذلك إلى الجنة سبباً، ومن قسط فأولئك ضنوا فنالوا غياً وشططاً.

ولما عرفوا بالأمن الاعتصام بطاعة الله، نبهوا على خطر التعرض لبطشه فقالوا: {وأما القاسطون} أي العريقون في صفة الجور عن الصواب من الجن وغيرهم فأولئك أهملوا أنفسهم فلم يتحروا لها فضلوا فأبعدوا عن المنهج فوقعوا في المهالك التي لا منجى منها: {فكانوا} بجبلاتهم {لجهنم} أي النار البعيدة القعر التي تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة {حطباً *} توقد بهم النار فهي في اتقاد ما داموا أحياء، وهم أحياء ما دامت تتقد لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون، فالآية من الاحتباك، وهو منطوق لما أوجبه من السياق لا مفهوم: ذكر التحري أولاً دليلاً على تركه ثانياً وذكر

جهنم ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً، وســـر ذلك أنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذر، وطووا ما يجب العلم به لأن الله تعالى لا يضيع لأحد أجراً بل لا يقتصـــر على ما يقابل الحســـنة في العرف بل لا بد أن يزيد عليها تسعة أضعافها وعنده المزيد ولا حول ولا قوة لنا إلا به سبحانه وتعالى.

ولما رغب ورهب ســبحانه على ألســنة الجن بما هداهم له ونور قلوبهم به، وكانت الآية الســـالفة آخر ما حكى عنهم، وكان التقدير : أوحي إلي أن القاســـطين من قومي وغيرهم لو آمنوا فعل بهم من الخير ما فعل بمؤمني الجني حين آمنوا، فأغناهم الله في الدنيا بحلاله عن حرامه من غير كلفة فكسا لهم كل عظم لقوه لحماً أوفر ما كان، وأعاد لهم كل روث رأوه أحسن ما كان ببركة هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم {وأن} أي وأوحي إليّ أن الشأن العظيم {لو استقاموا} أي طلب القاسطون من الخلق كلهم الجن والإنس القوم وأوجدوه، كائنين {على الطريقة} أي التي لا طريقة غيرها وهي التي فهمها الجن من القرآن من الإســلام والإقســاط المؤدية إلى الفلاح في الدارين.

ولما كان الماء أصل كل خير كما قال تعالى في قصــة نوح عليه الصــلاة والسلام {يرسل السماء عليكم مدراراً} [نوح: 11] وكان منه كل شيء حيّ وكان عزيزاً عند العرب، قال معظماً له بالالتفات إلى مظهر العظمة: {لأســقيناهم} أي جعلنا لهم بما عندنا من العظمة {ماء غدقاً *} أي كثيراً عظيماً عظيم النفع نكثر به الرزق ونزين به الأرض ونرغد به العيش.

ولما كانت نعمه فضلاً منه وليس مستحقة عليه بعبادة ولا غيرها، قال تعالى معرفاً غايتها استحقاق الثواب أو العقاب على ما كتبه على نفسه سبحانه ولا يبدل القول لديه وأن جميع ما يعامل به عباده سبحانه وتعالى من نفع وضر إنما هو فتنة لهم يستخرج ما جبلوا عليه من حسن أو قبيح: {لنفتنهم} أي نعاملهم معاملة المختبر بما لنا من العظمة {فيه} أي في ذلك الماء الذي تكون عنه أنواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر، قال الرازي: وهذا بعد ما حبس عنهم المطر سنين- انتهى. وقال غيره: قال عمر رضي الله تعالى عنه: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. وقال الحسن وغيره: كانوا سامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه- يعني عثمان رضي الله تعالى عنه ويجوز أن يكون مستعاراً للعلم وأنواع المعارف الناشئة عن العبادات التي هي للفنوس كالنفوس للأبدان وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم الرذائل في الدنيا والنقم في الآخرة، من فتنت الذهب- إذا خلصته من غشه.

ولما كان التقدير : فمن يقبل على ذكر ربه ننعمه في دار السلام أبداً، عطف عليه قوله: {ومن يعرض} أي إعراضاً مستمراً إلى الموت {عن ذكر ربه} أي مجاوزاً عن عبادة المحسن إليه المربي له الذي لا إحسان عنده من غيره {نسلكه} أي ندخله {عذاباً} يكون مطرفاً له كالخيط يكون في ثقب الخرزة في غاية الضيق {صعداً *} أي شاقاً شديداً يعلوه ويغلبه ويصعد عليه، ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقاً، فإن الإعراض كلما تمادى زمانه كان أقوى مما كان.

ولما كان التقدير : لأنه أوحى إليّ أن الأمر على ما تتعارفونه بينكم من أن من خدم غير سيده عذبه أبداً، عطف عليه قوله مبيناً لسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما يجب لهم من الكمال الذي يكون بقوتي العلم والعمل، والتكميل الذي يكون بهما مع قوة البيان، ومن لم يكن كاملاً لم يتصور منه تكميل ليكون له ولد قلب كما أن من لم يكن بالغاً لم يتحقق منه ولد صلب، ومبيناً لما يجوز عليهم وما يستحيل منهم وما لله تعالى من العناية بشأنهم: {وأن} أي وأوحى إليّ أن {المساجد} أي مواضع السجود من العالم الآفاقي من الأرض ومن العالم النفسي من الجسد– كما قاله سعيد بن جبير وطلق بن حبيب {لله} أي مختصة بالملك الأعظم {فلا تدعوا} أي بسبب ذلك أيها المخلوقون على وجه العادة {مع الله} أي الذي له جميع العظمة {أحداً *} لأن من تعبد لغير سيده في ملك سيده الذي هو العالم الآفاقي وبآلة سيده الذي هو العالم النفسي كان أشد الناس لوماً وعقوبة فكيف يليق بكم أن يخلق لكم وجهاً ويدين ورجلين وأرضاً تنتفعون بها وسماء تتم فنعها فتسجدون بالأعضاء التي أوجدها لكم في الأرض التي أمكنكم من الانتفاع بها تحت السماء التي أتم منافعها بها لغيره فتكونون قد صرفتم نعمة السيد التي يجب شكره عليها لغيره أيفعل هذا عاقل ؟ قال البغوي : فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة فواحدها بكسر الجيم، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها بفتح الجيم.

▲ تفسير الآيات رقم [19- 22]

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22)}

ولما كان من يدعو سيده وينقطع إليه عاملاً للواجب عليه اللائق بأمثاله لا ينكر عليه ولا يعجب منه، إنما يعجب ممن دعا غير سيده أو مال إليه أدنى ميل فيسأل عن سببه، قال معجباً من القاسطين من الجن والإنس: {وأنه} أي أوحي إليّ أو قال الجن لمن أطاعهم من قومهم حاكين ما رأوا من صلاته صلى الله عليه وسلم وازدحام أصحابه عليه متعجبين من ذلك أن الشأن أو القصة العظيمة العجيبة {لما} قمت كادوا يكونون عليّ- هكذا كان الأصل ولكنه عبر بالعبد كما تقدم من أن من دعا سيده ولو كان ذلك السيد أحقر الموجودات لا يفعل به ذلك، فكيف إذا كان سيده مالك الملك وملك الملوك {قام عبد الله} أي عبد الملك الأعلى الذي له الجلال كله والجمال فلا موجود يدانيه بل كل موجود من فائض فضله {يدعوه} أي يدعو سيده دعاء عبادة من حيث كونه عبده ومن حيث كون سيده يسمع من دعاه ويجيبه.

ولما كان القاسطون أكثر الناس بل الناس كلهم في ذلك الزمان جناً وإنساً، قال مبيناً لأنه يجوز على الأنبياء أن يؤذوا وينتقصوا رفعاً لدرجاتهم وتسلية لوراثهم وإن كانت رتبتهم تأبى ذلك، {كادوا} أي قرب القاسطون من الفريقين الجن والإنس {يكونون عليه} أي على عبد الله {لبداً * } أي متراكمين

بعضــهم على بعض من شــدة ازدحامهم حتى كان ذلك جبلة لهم تعجباً مما رأوا منـه من عبادتـه وإرادة لرده عن ذلك، وذلك أمر لا يعجب منـه، وإنما العجب ما فعلوا هم من عبادتهم لغيره ســــبحانـه وتعالى ومن تعجبهم من عبادة عبده له وإخلاصه في دعائه، وهو جمع لبد- بكسر اللام، وقرئ بضم اللام جمع لبدة بضمها، وهي ما تلبد بعضه على بعض.

ولما استشرفت- على قراءة الكسر- نفس السامع إلى قوله صلى الله عليه وسـلم لمن تراكموا عليه من ذلك، اسـتأنف الجواب بقوله مبيناً لما يسـتحيل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من دعاء غير الله ومن ترك الدعاء إليه من مخالفة شيء من أمره قال، أو لما تاقت نفسه صلى الله عليه وسلم على قراءة الفتح إلى ما يدفع به ما رأى منهم، قال تعالى مرشـــداً له إلى ذلك: {قل} أي لمن ازدحم عليك عاداً لهم عداد الجاهلين بما تصـنع لأنهم عملوا عمل الجاهل: {إنما أدعوا} أي دعاء العبادة {ربي} أي الذي أوجدني ورباني ولا نعمة عندي إلا منه وحده، لا أدعو غيره حتى تعجبوا مني فتزدحموا عليّ والظاهر المتبادر إلى الفهم أن المعنى: وأوحي إليّ أي لما قمت في الصلاة أعبد الله في بطن نخلة ورآني الجن الذين وجههم إبليس نحو تهامة وسـمعوا القرآن ازدحموا عليّ حتى كادوا يغشونني ويكون بعضـهم على بعض فسمعوا توحيدي لله وتمجيدي له وإفراده بالقدرة والعلم وجميع صــــفات الكمال آمنوا، وقيل: هو حكاية الجن لقومهم عن صـلاة النبي صلى الله عليه وسـلم وفعل أصـحابه وراءه في تراصـهم في صـلاتهم وحفوفهم به ووعظه وتعليمه لهم، ويحكى هذا القول عن ابن عباس رضــي الله تعالى عنهما وسـعيد بن جبير

فإن ذلك هيئة غريبة، يحكى أن ملك الفرس أرسـل من دخل في المسـلمين لما قصـدوا بلاده فكان مما حكي له عنهم أن قال: إذا صـلوا صـفوا أنفسـهم صـفوفاً ويقدمهم رجل يقومون بقيامة ويسـجدون بسـجوده ويقعدون بقعوده ويفعلون كفعله، لا تخالف بينهم، فلما سـمع الملك ذلك راعه وقال: ما لي ولهؤلاء، ما لي ولعمر، ونقل أبو حيان عن مكحول أنه بلغ من تابع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن سبعين ألفاً وفرغوا عند انشقاق الفجر.

ولما كان الداعي لولي نعمته يمكن أن يكون أشـرك غيره في دعائه ولو بأدنى وجوه الإشراك، ويكون الحصر باعتبار الأغلب فاستحق الإنكار عليه والازدحام، نفى ذلك بقوله تأكيداً لمعنى الحصر وتحقيقاً له: {ولا أشرك به} أي الآن ولا في مسـتقبل الزمان بوجه من الوجوه {أحداً *} من ود وسـواع ويغوث وغيرها من الصامت والناطق.

ولما كان السـامع ربما قال: ما له هو لا يهلكهم أو يدعو ربه في دفع المتبلدين عليه عنه بالإهلاك أو التوبة والمتابعة، أمره بما يبين عظمة ربه وأنه لا يفعل إلا ما يريد بقوله مبيناً أنه يسـتحيل عليه الصـلاة والسـلام ما يستحيل على جميع الممكنات من أن يؤثر في شـيء بنفسه أو يخالف ربه: {قل} أي لهؤلاء الذين خالفوك، وأكد فطماً لمن ربما اعتقد- لكثرة ما يرى من الكرامات- أنه مهما أراده فعله الله له: {إني لا أملك} أي الآن ولا بعد {لكم} بنفسي من غير إقدار الله لي لأنه لا مؤثر في شـيء من الأشياء إلا الله سبحانه وتعالى.

ولما كان المقام لدفع شرهم عنه، قال: {ضراً} فأفهم ذلك «ولا نفعاً ولا غياً» {ولا رشداً *} أي صواباً وسداداً. فالآية من الاحتباك وهو ظاهر على هذا التقدير، قال أبو حيان: فحذف من كل ما يدل مقابله عليه- انتهى. ويجوز أن يكون تقديره: لا أملك ضراً لأني لا أملك لكم إضلالاً ولا أملك لكم رشداً فلا أملك لكم نفعاً، فإنه لا نفع في غير الرشاد، ولا ضر في غير الضلال، فقبح الله ابن عربي الطائي الذي يقول في فصوصه: إن الضلال أهدى من الهدى، فلا أسخف عقلاً منه إلا من تبعه- عليهم لعنة الله وخزيه، فإن قالوا: إنه أراد غير ما يفهم من ظاهر اللفظ فقل: كذبتم فقد بين مراده إطباقكم على الفسق والفجور لا يكاد يجد منكم من يتهم بمذهبه وهو يتقيد بشرع، ولم تخرج الآية بهذا عن الاحتباك، فإن ذكر الضر أولاً دل على حذف النفع ثانياً، وذكر الرشد ثانياً دل على حذف الضلال أولاً.

ولما أجاب من تشوف إلى علة صبره عن دفعهم عنه بما حاصله أنه لا شيء بيده، لأن إلهه من العظمة في إحاطة العلم والقدرة وأنه لا يخرج شيء عن مراده فلا يعجل في شيء بحيث لا يفعل إلا ما يريد سواء سئل أو لا، فكان ذلك ربما أوجب أن يظن منه صلى الله عليه وسلم موافقته لهم لئلا يضروه لأنهم يستعجلون في أذى من خالفهم، أجاب ما حاصله أنه بين ضررين أحدهما منهم إن خالفهم، والآخر منه سبحانه وتعالى إن أعرض عنه وهو سبحانه وتعالى يرد أذاهم إن أراد، وهم لا يقدرون على رد أذاه بوجه فقال: {قل} أي لمن يدعوك إلى موافقتهم، وأكد لما في ظن كثير من الناس من أن الأسباب لا تتخلف فقال: {إني} وزاد في التأكيد لأن ذلك في

غاية الاســـتقرار في النفوس فقال : {لن يجيرني} أي فيدفع عني ما يدفع الجار عن جاره {من الله} أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه {أحد *} أي كائناً من كان إن أرادني ســبحانه بســوء. ولما كان من هو بهذه المثابة ربما هرب منه المطلوب قال مؤكداً: {ولن أجد} أي أصــلاً. ولما كانت كل رتبة دون رتبته، وكانت الرتب التي دون رتبته كثيرة جداً لما لـه من العلو المطلق ولغيره من مراتب السفول التي لا تحد، قال مشيراً لذلك بالجارّ: {من دونه} أي الله تعالى {ملتحداً *} أي معدلاً وموضــــع ميل وركون ومدخلاً وملتجأ وحيلة، وإن اجتهدت كل الجهد لأن اللحد أصــــله الميل ولا يقال إلا في ميل من حق إلى باطل، والحد: جادل ومارى وركن.

▲ تفسير الآيات رقم [23- 25]

{إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَــالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُــولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَــيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْــعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25)}

ولما كان من المعلوم أن هذا شــــيء لا مثنوية فيه، وكانت الرتب التي دون شــريف رتبته ســبحانه كثيرة جداً لما له من العلو المطلق وكان ما يليها له حكم شرفها وحقيقها، وكان أول ذلك البلاغ منه سبحانه بلا واسطة ثم البلاغ بواســطة ملائكته الكرام منه، اســتثنى من «ملتحداً» على طريق لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ففروا إلى الله فقال : {إلا بلاغاً} أي يبلغني كائناً {من الله} أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً، ولكنه لسعة رحمته يجري الأمور

على ما يتعارفونه في أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة يعترفون بأنها حجة . ولما بين الرتبة الأولى التي هي أعلى، أتبعها التي تليها فقال: {ورسالاته} التي أوحي إليّ بها بواسطة الملك فإني أتلقى ذلك حق تلقيه بحفظه والعمل به فيكون، ذلك عاصماً من كل سوء في الدنيا والآخرة.

ولما كان التقدير لبيان أن الله شرف الرسل بأن أعطاهم عظمة من عظمته فجعل عصيانهم عصيانه، فيكون جزاء من عصاهم هو جزاء من عصاه سبحانه وتعالى لأنهم إنما يتكلمون بأمره، فمن يطع الله ورسوله فإن له جنة نعيم يكونون فيها مدى الدهر سعداء، عطف عليه قوله: {ومن يعص الله} أي الذي له العظمة كلها {ورسوله} الذي ختم به النبوة والرسالة فجعل رسالته محيطة بجميع خلقه في التوحيد أو غيره على سبيل الجحد {فإن له} أي خاصة {نار جهنم} أي التي تلقاه بالعبوسة والغيظ، ولما عبر بالإفراد نظراً إلى لفظ «من» لأنه أصرح في كل فرد، عبر بالجمع حملاً على معناها لأنه أدل على عموم الذل فقال: {خالدين فيها} وأكد المعنى وحققه لقول من يدعي الانقطاع فقال: {أبداً *} وأما من يدعي أنها تحرق وأن عذابها عذوبة فليس أحد أجنّ منه إلا من يتابعه على ضلاله وغيه ومحاله، وليس لهم دراء إلا السيف في الدنيا والعذاب في الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون إليه وموقوفون عليه.

ولما ذكر تلبدهم عليه وقدم ما هو الأهم من أمره من كشف غمومهم بإعلامهم أن ذلك الذي أنكروه عليه هو الذي يحق له، ومن أنه مع ضعفه عن مقاواتهم هو عن الإعراض عن الله أضعف لأن الله أقوى من كل شيء

وأنه لا يسعه إلا امتثال أمره، وأشار إلى أنهم عاجزون عن سطواته سبحانه بعدم القدرة على الإجارة عليه، صـــرح بذلك مهدداً لهم، فقال مغيياً لتلبدهم عليه: {حتى إذا رأوا} أي بأبصـارهم فيه {ما} أي الشـيء الذي. ولما كان المنكي من الوعيد بروكه على كل من كان لأجله الوعيد لا كونه من معين قال: {يوعدون} أي ما حصل الإيعاد في الدنيا أو في الآخرة أما في الآخرة فواضح، وأما في الدنيا فمثل إخراج النبي صلى الله عليه وسلم مع اجتماع المشـركين على المكر به لقتله واجتهادهم في ذلك ثم سـراياه وغزواته مثل غزوة بدر وغيرها من أيام الله التي ملأت الأرض نوراً وأهل الحق سـروراً وحبوراً، وأهل الباطل خسـراً وبوراً ورعباً وهلاكاً وقبوراً {فسـيعلمون} أي من ذلك اليوم الذي يكون فيه تأويله بوعد لا خلف فيه ولا طولاً لأمده {من أضـعف ناصـراً} أي من جهة الناصـر أنا وإن كنت في هذا الوقت وحيداً مستضعفاً أو هم {وأقل عدداً *} وإن كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدداً إلا الله سبحانه، فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم من حيث هي، ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السـماوات والأرض بخلاف أهل الإلحاد فإنه لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم وازدراء من سواهم، وإذا حاققت أحداً من أتباع أحد منهم قال هذا على لسان النبوة– ونحو هذا من مخادعاتهم.

ولما كان من المعلوم أنهم إذا سـمعوا هذا الوعيد قالوا اسـتهزاء وعمى عن طريق الصـواب واسـتعلاء: متى يكون عجل به، اسـتأنف قوله جواباً لهم جواب من لا يستخفه عجلة ولا ضجر لأنه لا يخاف الفوت ولا يلحقه ضرر

ببقاء العدو واجتهادهم في أذى أوليائه مبيناً ما يجوز على الرســـل من أنه يخفى عليهم ما على البشر ويطلعهم الله تعالى ما يخفي على غيرهم: {قل} أي في جوابهم إن كذبوا بإتيانهم العذاب وسألوا استهزاء منه عن وقت وقوعه أما كونه فلا بد منه لأنه قد برز الوعيد به ممن لا يخلف الميعاد، وأما تعيين وقته فقد أخفاه ســبحانه لأنه أقعد في التهديد وهو معنى قوله: {إن} أي ما {أدري} بوجه من الوجوه وإن عالجت ذلك وتسببت فيه، وزاد في تقرير خفائه وأنه لا يزال في حيز ما يسأل عنه بصيغة الاستفهام فقال مقدماً ما يخفيهم: {أقريب ما توعدون} أي يكون الآن أو قريباً من هذا الأوان بحيث يتوقع عن قرب {أم} بعيد {يجعل له} أي لهذا الوعي. ولما كان التأخير ربما أفهم تهاوناً بالولي. فقال دافعاً لذلك: {ربي} أي المحســن إليّ إن قدمه أو أخره {أمداً *} أي أجلاً مضروباً عظيماً بكل اعتبار حتى في البعد لا يتأتى مع ذلك أن يكون الآن ولا أن يتوقع دون ذلك الأمد، فهو في كل حال متوقع فكونوا على غاية الحذر لأنه لا بد من وقوعه فوقوعه لا كلام فيه، وإنما الكلام في تعيين وقته.

▲ تفسير الآيات رقم [26- 28]

{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَــى مِنْ رَسُــولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)}

ولما نفى صلى الله عليه وسلم علمه عن نفسه الشريفة، نفى ذلك عن غيره على وجه عام لجميع الغيب جالٍ من عظمة مرسله ما تنقطع دونه الأعناق

فقال واصفاً له: {عالم الغيب} أي كله وهو ما لم يبرز إلى عالم الشهادة فهو مختص سبحانه بعلمه، فلذلك سبب عنه قوله: {فلا يظهر} أي بوجه من الوجوه في وقت من الأوقات {على غيبه} أي الذي غيبه عن غيره فهو مختص به {أحداً *} لعزة علم الغيب ولأنه خاصة الملك. ولما كان لا يعلم الغيب إلا ببروزه على عالم الشهادة، وكان لأول من يطلع عليه شرف ينبغي أن يعرف له قال: {إلا من ارتضى} أي عمل الله تعالى في كونه رضي عمل من يتعمد ذلك ويجتهد فيه، وبين «من» بقوله: {من رسول} أي من الملائكة ومن الناس فإنه يظهر عليه ذلك المرتضى الموصوف لا كل مرتضى بأن يظهره على ما شاء منه لأن الغيب جنس لا تحقق له إلا في ضمن أفراده، فإذا ظهر فرد منه فقد ظهر فيه الجنس لظهور حصة منه، وتارة يكون ذلك الرسول ملكاً، وتارة يكون بشراً يكلمه الله بغير واسطة كموسى عليه الصلاة والسلام في أيام المناجاة، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج في العالم الأعلى في حضرة قاب قوسين أو أدنى، وإذا ظهر عليه الرسول خرج عن كونه غيباً، وأوصله الرسول إلى من أذن له في إيصاله له تارة بالوحي للأنبياء وتارة بالنفث والإلهام للأولياء، وذلك عند تهييء نفوسهم بسكون قواها عن منازعة العقل بالشهوات والحظوظ كما يكون للنفوس عامة حين سكون القوى عن المنازعة بالنوم فتكون متهيئة للنفث فيها فمن أعرض عن جانب الحس وأقبل على جناب القدس فقده هيأ نفسه لنفث الملك في ورعه بعلم ما لم يكن يعلم وليس أحد من الناس إلا وقد علم من نفسه أنه إذا أقبل على شيء بكليته حدث له فيه أمور حدسية

إلهامية بغتة من غير سـابقة فكر وطلب، وعلى قدر التهيئة يكون النفث من قبل الله سـبحانه وتعالى، وربما كان النفث شـيطانياً بما تلقته الشـياطين من الاستراقات من الملائكة إما من الأرض بعد نزولهم أو من السماء بالاستراق فيها– والله أعلم، ويجوز أن يكون للأولياء مشـافهة من الملك كما كان لمريم عليها السـلام من الملائكة، وقال جبريل عليه الصـلاة والسـلام عن بعضـهم إنه لو سلم رد عليه. ولما دل هذا السياق على عزة علم الغيب وكانت عزته سـببباً لحراسـة من يطلع عليه ليؤديه إلى من أمر به كما أمر به، أعلم سـبحانه وتعالى بذلك بقوله مؤكداً تمييزاً له من علم الكهان الذي أصـلـه من الجان دالاًّ على إجلال الرسـل وإعظامهم وتبجيلهم وإكرامهم: {فإنه} أي الله سبحانه وتعالى يظهر ذلك الرسول على ما يريد من الغيب.

وذلك أنه إذا أراد إظهاره عليه {يسـلك} أي يدخل إدخال السـلك في الجوهرة في تقومه ونفوذه من غير أدنى تعريج إلى غير المراد . ولما كان الغرض يحصل بمن يقيمه سبحانه من جنوده للحراسة ولو أنه واحد من كل جهة بل وبغير ذلك، وإنما جعل هذا الإخراج للأمر على ما يتعارفه العباد، عبر بالجارّ دليلاً على عدم اسـتغراق الرصـد للجهات إلى منقطع الأرض مثلاً فقال: {من بين يديه} إلى الجهة التي يعلمها ذلك الرسـول {ومن خلفه} أي الجهة التي تغيب عن علمه، فصـار ذلك كفاية عن كل جهة، ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل وخصـهما لأن العدو متى أعريت واحدة منهما أتى منها، ومتى حفظت لم يأت من غيرها، لأنه يصـير بين الأولين والآخرين {رصداً *} أي حرساً من جنوده يحرسونه ويحفظونه بحفظ ما معه

من الغيب من اختطاف الشـياطين أو غيرهم لئلا يسـترقوا شـيئاً من خبره– قاله ابن عباس رضـــي الله عنهما، وقال مقاتل وغيره رضـــي الله عنهما : يخبرونه بمن أنكره بأن يحذروه منه إن كان شـيطاناً أو يأمروه بالسـماع منه إن كان ملكاً، وذلك أن إبليس كان يأتي الأنبياء في صـــورة جبريل عليه السلام ولكن الله عصمهم منه.

ولما كان هذا الدأب من الحفظ في كل رســـول بين الغاية جامعاً تعييناً لما اقتضـــاه الجنس، وبياناً لأن الأفراد أولاً مراد به الجمع، وأنه ما عبر به إلا لتشمل الحراسة كل فرد منهم فقال: {ليعلم} أي الله علماً كائناً واقعاً على هذه الصـــفة التي تعلق بها علمه في الأزل قبل وجودها بما لا يعلمه إلا هو سبحانه أنها ستكون {أن} أي إن الرسل عليهم الصلاة والسلام {قد أبلغوا} أي إلى من أرسلوا إليه {رسالات ربهم} أي الذي أوجدهم ودبر جميع أمورهم واختارهم لرسـالاته على ما هي عليه لم يشـبها شـائبة ولا لحقها غبر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه محتاج في الحفظ إلى الرصـــد أزال ذلك بقوله: {وأحاط} أي فعل ذلك والحال أنه قد أحاط {بما لديهم} أي الرسل والمرسل إليهم من الملائكة والبشـر على أدق الوجوه وأعظمها وأغربها بما أشـار إليه التعبير بلدى، ولما كان هذا كافياً في المقصـــود، لكنه قاصـــر على محل الحاجة عم تعريفاً بالأمر على ما هو عليه، فقال حاملاً على شـــدة الوثوق بما تقوله الرسل عن ربهم وأنه لا لبس فيه ولا غائلة بوجه، مبيناً غاية البيان كذب حديث الغرانيق الذي ذكره بعض المفسـرين وغيرهم في سـورة والنجم: {وأحصـى} أي الله سـبحانه وتعالى {كل شـيء} أي على العموم من غير

استثناء أصلاً {عدداً *} أي من جهة العدد لكل ما يمكن عده ولو على أقل مقادير الذر فيما لم يزل وفيما لا يزال، فهو دليل قاطع على علمه تعالى بالجزئيات كعلمه بالكليات، وقد التقى أول السـورة وآخرها وباطنها الغيبي وظاهرها، فدل آخرها على الأول المجمل، وأولها على الآخر المفصـل، وذلك أن أول السـورة بين عظمة الوحي بسـبب الجن، ثم بين في أثنائها حفظه من مسترقي السمع، وختم بتأكيد حفظه وحفظ جميع كلماته واستمر في تأكيد أمره حتى بانت عظمة هذا القرآن، وظهرت عزة هذا الفرقان، على كل كتاب، بكل اعتبار وحسـاب، فافتتح المزمل بمثل ذلك وختمها بالأمر بقراءة ما تيسر منه، وذكر في المدثر طعن الطاعن فيه وما ناله بسبب ذلك الطعن من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة مع ضمان الحفظ منه، ثم نهى نبيه صلى الله عليه وسلم في سورة القيامة عن العجلة في أمره لئلا يختل حفظه، أو يزيغ أدنى زيغ لفظه، وتشريعاً لأمته في ترك الاستعجال، فإنه ليس من دأب الرجال، ثم أكد أمر تنزيله في الإنسـان، وبين أن علة الإعراض عنه حب العاجلة التي هي عين النقصان، وختم المرسلات بنهاية ما تخيل الأوهام والظنون، فقال

{فبأي حديث بعده يؤمنون} [الأعراف: 185] فسبحان من نظمه هذا النظام، وجعله أقصى المراد وغاية المرام، وصلى الله على من لا نبي بعده على الدوام.

73 Muzzamil Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

الجزء الحادي والعشرون

سورة المزمل

تفسير الآيات رقم [1– 5]

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)}

لما تقدم في آخر الجن من تعظيم الوحي وأن من تعظيمه حفظ المرسل به من جميع الآفات المفترة عن إبلاغه بما له سبحانه من إحاطة العلم والقدرة وندب نبيه الذي ارتقاه لرسالته والاطلاع على ما أراده من غيبه صلى الله عليه وسلم أول هذه إلى القيام بأعباء النبوة بالمناجاة بهذا الوحي في وقت الأنس والخلوة بالأحباب، والبسط والجلوة لمن دق الباب، للاعتلاء والمتاب، المهيئ لحمل أعباء الرسالة، والمقوي على أثقال المعالجة لأهل الضلالة، فقال معبراً بالأداة الصالحة للقرب والبعد المختصة بأنه لا يقال بعدها إلا الأمور التي هي في غاية العظمة، أشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم يراد

به غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخلق بكونها خوارق للعادات ونواقض للمألوفات المطردات، وأما التزمل فهو وإن كان من آلات ذلك إلا أنه من الأمور العادية، فهو دون ما يراد من التهيئة لذلك الاستعداد، وبالتزمل لكونه منافياً للقيام في الصلاة: {يا أيها المزمل *} أي الذي أخفى شخصه وستر أمره وما أمرناه به- بما أشار إليه التزمل الذي مدلوله التلفف في الثوب على جميع البدن والاختفاء ولزوم مكان واحد، ولأنه يكون منطرحاً على الأرض كما قال صلى الله عليه وسلم في قتلى أحد- «زملوهم بثيابهم ودمائهم» مع الإشارة إلى الإخفاء أيضاً بإدغام تاء التفعل، وربما أشار الإدغام إلى أن الستر بالثوب لم يعم جميع البدن، كما يأتي في المدثر على أن فيه مع ذلك إشارة إلى البشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به، من قولهم: زمل الشيء- إذا رفعه وحمله، والازدمال: احتمال الشيء، وزملت الرجل على البعير وغيره- إذا حملته عليه، ومن زملت الدابة في عدوها- إذا نشطت، والزامل من حمر الوحش الذي كأنه يظلع من نشاطه، ورجل إزميل: شديد، والزاملة: بعير يستظهر به الرجل لحمل طعامه ومتاعه عليه، ويقال للرجل العالم بالأمر : هو ابن زوملتها، وقال ابن عطاء : يا أيها المخفي ما تظهره عليه من آثار الخصوصية! هذا أوان كشفه، وقال عكرمة: يا أيها الذي حمل هذا الأمر، وقال السدي: أراد يا أيها النائم، وقال غيره: كان هذا في ابتداء الوحي بالنبوة، والمدثر في ابتداء الوحي بالرسالة، ثم خوطب بعد ذلك بالنبي والرسول: {قم} أي في خدمتنا بحمل أعباء نبوتنا والازدمال بالاجتهاد في الاحتمال، واترك التزمل فإنه مناف للقيام.

ولما كان الاجتهاد في الخدمة دالاًّ على غاية المحبة، وكانت النية خيراً من العمل، وكان الإنسان مجبولاً على الضعف، وكان سبحانه لطيفاً بهذه الأمة تشريفاً لإمامها صلى الله عليه وسلم، رضى منا سبحانه بصدق التوجه إلى العمل وجعل أجورنا أكثر من أعمالنا، فجعل إحياء البعض إحياء للكل، فأطلق اسم الكل وأراد البعض فقال: {الليل} أي الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر، فصل لنا في كل ليلة من هذا الجنس وقف بين يدينا بالمناجاة والأنس بما أنزلنا عليك من كلامنا فإنا نريد إظهارك وإعلاء قدرك في البر والبحر والسر والجهر، وقيام الليل في الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده، وهي جامعة لأنواع الأعمال الظاهرة والباطنة، وهي عمادها، فذكرها دال على ما عداها.

ولما كان للبدن حظ في الراحة قال مستثنياً من الليل: {إلا قليلاً *} أي من كل ليلة، ونودي هذا النداءلأنه صلى الله عليه وسلم «لما جاءه الوحي بغار حراء رجع إلى خديجة زوجته رضي الله تعالى عنها يرجف فؤاده فقال: » زملوني زملوني! لقد خشيت على نفسي «. فسألته رضي الله عنها عن حاله، فلما قص عليها أمره– قال:» خشيت على نفسي «يعني أن يكون هذا مبادئ شعر أو كهانة، وكل ذلك من الشياطين وأن يكون الذي ظهر له بالوحي ليس بملك، وكان صلى الله عليه وسلم يبغض الشعر والكهانة غاية البغضة، فقالت له وكانت وزيرة صدق:» كلا والله! لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق «ونحو هذا من المقال الذي يثبت، وفائدة التزمل أن الشجاع الكامل إذا دهمه أمر

هو فوق قواه ففرق قواه ففرق أمره فرجع إلى نفسه، وقصر بصره وبصيرته على حسه، اجتمعت قواه إليه فقويت جبلته الصـــالحة على تلك العوارض التخييلية فهزمتها فرجع إلى أمر الجبلة العلية، وزال ما عرض من العلة البدنية.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما كان ذكر إســلام الجن قد أحرز غاية انتهى مرماها وتم مقصـدها ومبناها، وهي الإعلام باسـتجابة هؤلاء وحرمان من كان أولى بالاســـتجابة، وأقرب في ظاهر الأمر إلى الإنابة، بعد تقدم وعيدهم وشـديد تهديدهم، صـرف الكلام إلى أمره صـلى الله عليه وسـلم بما يلزمه من وظائف عبادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره، مفتتحاً ذلك بأجمل مكالمة وألطف مخاطبة {يا أيها المزمل} [المزمل: 1] وكان ذلك تسلية له صـلى الله عليه وسـلم كما ورد {فلا تذهب نفسـك عليهم حسـرات} [فاطر: 8] إلى آخره، وليحصـــل منه الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثرة لجحه، وأتبع ذلك بما يشـهد لهذا الغرض ويعضـده وهو قوله تعالى {فاصـبر صـبراً جميلاً} [المعارج: 5] {واصـبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً} [المزمل: 10- 11] وهذا عين الوارد في قوله تعالى: {فلا تذهب نفسـك عليهم حسـرات} [فاطر: 8] وفي قوله {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار} [ق: 45] ثم قال: {إن لدينا أنكالاً} [المزمل: 12] فذكر ما أعد لهم، وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه، وبان لك التحام ما ذكره، ثم رجع الكلام إلى التلطف به عليه الصلاة والسلام وبأصحابه- رضي الله عنهم أجمعين- وأجزل جزاءهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه تعظيم المعبود الحق جل جلاله

{علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن} [المزمل: 20] ثم ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عناد الجاحدين المقدم ذكرهم فيما قبل من السور إلى ما لا يفي العباد المستجيبون به مما أشار إليه قوله تعالى: {علم أن لن تحصوه} [المزمل: 20] انتهى.

ولما كان الليل اسماً لما بين غروب الشمس وطلوع الفجر، وكان قيامه في غاية المشقة، حمل سبحانه من ثقل ذلك، فقال مبيناً لمراده بما حط عليه الكلام بعد الاستثناء، ومبدلاً من جملة المستثنى والمستثنى منه: {نصفه} أي الليل، فعلم أن المراد بالقليل المستثنى النصف، وسماه قليلاً بالنسبة إلى جميع الليل، وبالنسبة إلى النصف الذي وقع إحياؤه، لأن ما يلي بالعمل أكثر مما لا عمل فيه، ويجوز أن يكون «نصفه» بدلاً من الليل، فيكون كأنه قيل: قم نصف الليل إلا قليلاً وهو السدس أو انقص منه إلى الربع، وجاءت العبارة هكذا لتفيد أن من قام ثلث الليل بل ربعه فما فوقه كان محيياً لليل كله.

ولما كانت الهمم مختلفة بالنسبة إلى الأشخاص وبالنسبة إلى الأوقات قال: {أو انقص منه} أي هذا النصف الذي أمرت بقيامه، أو من النصف المستثنى منه القليل على الوجه الثاني وهو الثلث {قليلاً *} فلا تقمه حتى لو أحييت ثلث الليل على الوجه الأول أو ربعه على الوجه الثاني كنت محيياً له كله في فضل الله بالتضعيف {أو زد عليه} أي على النصف قليلاً كالسدس مثلاً، فيكون الذي تقومه الثلثين مثلاً، وعلى كل تقدير من هذه التقادير يصادف القيام- وهو لا يكون إلا بعد النوم: الوقت الذي يباركه الله

بالتجلي فيه فإنه صح أنه ينزل سبحانه عن أن يشبه ذاته شيئاً أو نزوله نزول غيره بل هو كناية عن فتح باب السماء الذي هو كناية عن وقت استجابة الدعاء- حين يبقى ثلث الليل- وفي رواية: حين يبقى شطر الليل الآخر- إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر . وكان هذا القيام في أول الإسلام فرضاً عليهم على التخيير بين هذه المقادير الثلاثة فكانوا يشقون على أنفسهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، وكذا بعض أصحابه رضي الله تعالى عنهم واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم، وكان هذا قبل فريضة الخمس، فنزل آخرها بالتخفيف بعد سنة

{علم أن لن تحصوه} [المزمل: 20] الآيات، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة.

ولما أمر بالقيام وقدر وقته وعينه، أمر بهيئة التلاوة على وجه عام للنهار معلم بأن القيام بالصلاة التي روحها القرآن فقال: {ورتل القرآن} أي اقرأه على تؤدة وبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدها وحتى يكون المتلو شبيهاً بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، فإن ذلك موجب لتدبره فتكشف له مهماته وينجلي عليه أسراره وخفياته، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر، ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح

بآية، والآية {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}» [المائدة: 118] ولما أعلم سبحانه بالترتيل أعلم بشرفه بالتأكيد بالمصدر فقال: {ترتيلاً *}.

ولما كان المراد منه صلى الله عليه وسلم الثبات للنبوة ومن أمته الثبات في الاقتداء به في العمل والأمر والنهي، وكان ذلك في غاية الصعوبة، وكان الإنسان عاجزاً إلا بإعانة مولاه، وكان العون النافع إنما يكون لمن صفت نفسه عن الأكدار وأشرقت بالأنوار، وكان ذلك إنما يكون بالاجتهاد في خدمته سبحانه، علل هذا الأمر بقوله مبيناً للقرآن الذي أمر بقراءته ما هو وما وصفه، معلماً أن التهجد يعد للنفس من القوى ما به يعالج المشقات، مؤكداً لأن الإتيان بما هو خارج عن جميع أشكال الكلام لا يكاد يصدق: {إنا} أي بما لنا من العظمة {سنلقي} أي قريباً بوعد لا خلف فيه فتهيأ لذلك بما يحق له.

ولما كان المقام لبيان الصعوبة، عبر بأداة الاستعلاء فقال: {عليك} وأشار إلى اليسر مع ذلك إشارة إلى {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} [القمر: 17] بالتعبير بما تدور مادته على اليسر والخفة فقال: {قولاً} يعني القرآن {ثقيلاً *} أي لما فيه من التكاليف الشاقة من جهة حملها وتحميلها للمدعوين لأنها تضاد الطبع وتخالف النفس، ومن جهة رزانة لفظه لامتلائه بالمعاني مع جلالة معناه وتصاعده في خفاء فلا يفهمه المتأمل ويستخرج ما فيه من الجواهر إلا بمزيد فكر وتصفية سر وتجريد نظر، فهو ثقيل على الموافق من جميع هذه الوجوه وغيرها، وعلى المخالف من جهة أنه لا يقدر

على رده ولا يتمكن من طعن فيه بوجه مع أنه ثقيل في الميزان وعند تلقيه وله وزن وخطر وقدر عظيم، روي في الصحيح: «إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الوحي يفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشاتي الشديد البرد» وكان- إذا أنزل عليه الوحي وهو راكب على ناقته وضعت جرانها فلا تكاد تتحرك حتى يسري عنه «قال القشيري: وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سورة الأنعام نزلت عليه جملة واحدة وهو راكب فبركت ناقته من ثقل القرآن وهيبته، وهو مع ثقله على الأركان خفيف على اللسان سهل التلاوة والحفظ على الإنسان.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 9]

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)}

ولما أفهم هذا أن التهجد في غاية العظمة، أكد ذلك حاثاً على عدم الرضى بدون الأفضل الأجمل الأكمل بقوله: مؤكداً ليخف أمر القيام على النفس: {إن ناشئة الّيل} أي ساعاته التي كل واحدة منها ناشئة والعبادة تنشأ فيه بغاية الخفة، من نشأ أي نهض من مضجعه بغاية النشاط لقوة الهمة ومضاء العزيمة التي جعلتها كأنها نشأت بنفسها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة، وما كان قبله فليس بناشئة، وقالت عائشة رضي الله عنها: الناشئة القيام بعد النوم، وقال الأزهري: الناشئة القيام، مصدر جاء على فاعلة كالعافية بمعنى العفو.

ولما كان ذلك في غاية الصعوبة لشدة منافرته للطبع، زاد في التأكيد ترغيباً فيه فقال: {هي} أي خاصة لما لها من المزايا {أشد} أي أثقل وأقوى وأمتن وأرصن {وطأً} أي كلفة ومشقة لما فيها نم ترك الراحة وفراق الألف والمحبوب، وأشد ثبات قدم- على أنه مصرد وطئ في قراءة الجماعة- بفتح ثم سكون، ومواطأة بين القلب واللسان في الحضور وفي التزام الدين بالإذعان والخضوع على أنه مصدر واطأ مثل قاتل على قراءة أبي عمرو وابن عامر بالكسر والمد وهي أبلغ لأن صيغة المفاعلة تكون بين اثنين يغالبان فيكون الفعل أقوى.

ولما كان التهجد يجمع القول والفعل، وبين ما في الفعل لأنه أشق، فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق، أتبعه القول فقال: {وأقوم قيلاً *} أي وأعظم سداداً من جهة القيل في فهمه ووقعه في القلوب بحضور القلب ورياقة الليل بهدوء الأصواء وتجلي الرب سبحانه وتعالى بحصول البركات، وأخلص من الرياء والقصود الدنيات.

ولما بين سبحانه من أول السورة إلى هنا ما به صلاح الدين الذي عصمه الأمر وبه صلاح الدارين، وأظهر ما للتهجد من الفضائل، فكان التقدير حتماً: فواظب عليه لتناول هذه الثمرات، قال معلّلاً محققاً له مبيناً ما به صلاح الدنيا التي هي فيها المعاش، وصلاحها وسيلة إلى صلاح المقصود، وهو الدين وهو الذي ينبغي له لئلا يكون كلاًّ على الناس ليحصل من الرزق ما يعينه على دينه ويوسع به على عيال الله من غير ملل ولا ضجر ولا كسل ولا مبالغة، مؤكداً لما للنفس من الكسل عنه: {إن لك} أي أيها المتهجد

أو يا أكرم العباد إن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون آكد في إلزام الأمة به {في النهار} الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا.

ولما كان الإنسان يهتم في سعيه لنفسه حتى يكون كأنه لشدة عزمه وسرعة حركته كالسابح فيما لا عائق له فيه قال: {سبحاً طويلاً *} أي تقلباً ممتد الزمان، قال البغوي: وأصل السبح سرعة الذهاب، وقال الرازي: سهولة الحركة.

ولما كان التقدير : فاجتهد في التهجد، عطف عليه قوله حاثاً على حضور الفكر: {واذكر اسم ربك} أي المحسن إليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكراً من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء وإقبال على علم شرعي وأدب مرعي ودم على ذلك، فإذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والإخلاص، وذلك عون لك على مصالح الدارين، أما الآخرة فواضح، وأما الدنيا فقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أعز الخلق عليه فاطمة ابنته رضي الله عنها لما سألته خادماً يقيها التعب إلى التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم.

ولما كان الذكر قد يكون مع التعلق بالغير، أعلم أن الذاكر في الحقيقة إنما هو المستغرق فيه سبحانه وبه يكون تمام العون فقال: {وتبتل} أي اجتهد في قطع نفسك عن كل شاغل، والإخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلاً قليلاً، منتهياً : {إليه} ولا تزل على ذلك حتى يصير لك ذلك خلقاً فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع ومقطعة تقطعياً كثيراً بكل قاطع، فيكون التقدير- بما أرشد إليه المصدر «تبتلاً» وبتلها {تبتيلاً *} فأعلم بالتأكيد

بالمصــدر المرشــد إلى الجمع بين التفعل والتفعيل بشــدة الاهتمام وصــعوبة المقام، وهو من البتل وهو القطع، صــدقة بتلة أي مقطوعة عن صــاحبها، ولذلك قال زيد بن أســـلم: التبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله تعالى، والبتول مريم عليها الســـلام لانقطاعها إلى الله تعالى، عن جميع خلقه، وكذا فاطمة الزهراء البتول أيضــاً لانقطاعها عن قرين ومثيل ونظير، فالمراد بهذا هو المراد بكلمة التوحيد المقتضــية للإقبال عليه والإعراض عن كل ما ســـواه، وذلك بملازمة الذكر وخلع الهوى، والآية من الاحتباك وهو ظاهر: ذكر فعل التبتل دليلاً على حذف مصــدره، وذكر مصــدر بتل ديليلاً على حذف فعله.

ولما كان الواجب على كل أحد شـــكر المنعم، بين أنه ســـبحانه الذي أنعم يســكن الليل الذي أمر بالتهجد فيه ومنتشــر النهار الذي أمر بالســبح فيه، فقال واصـفاً الرب المأمور بذكره في قراءة ابن عامر ويعقوب والكوفيين غير حفص معظماً له بالقطع في قراءة الباقين بالرفع: {رب المشــرق} أي موجد محل الأنوار التي بها ينمحي هذا الليل الذي أنت قائم فيه ويضـــيء بها الصــباح وعند الصــباح يحمد القوم الســرى بما أنالهم من الأنوار في مرائي قلوبهم وما زينها به من شـــهب المعاني كما أوجد لهم في آفاق أفلاكهم من شـــموس المعاني المثمرة ليدور الأنس في مواطن القدس، فلا يطلع كوكب في الموضـع الذي هو ربه إلا بإذنه، وهو رب كل مكان، وما أحسـن ما قال الإمام الرباني تقي الدين بن دقيق العيد:

كم ليلة فيك وصلنا السرى *** لا نعرف الغمض ولا نستريح

واختلف الأصحاب ماذا الذي *** يزيح من شكواهم أو يريح

فقيل تعريسهم ساعة *** وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

ولما ذكر مطالع الأنوار، لأنها المقصـــود لما لها من جلي الإظهار، ووحد لأنه أوفق لمقصـود السـورة الذي هو محطة لانجماح المدلول عليه بالتزمل، أتبعه مقابله فقال: {والمغرب} أي الذي يكون عنه الليل والذي هو محل السـكن وموضـع الخلوات ولذيذ المناجاة، فلا تغرب شـمس ولا قمر ولا نجم إلا بتقديره سـبحانه، وإذا كان رب ما فيه هذه الصـنائع التي هي أبدع ما يكون كان رب ما دون ذلك.

لما علم بهذا أنه المختص بتدبير الكائنات، المتفرد بإيجاد الموجودات، كان أهلاً لأن يفرد بالعبادة وجميع التوجه فقال مستأنفاً: {لا إله} أي معبود بحق {إلا هو} أي ربك الذي دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأنهى صـفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص. ولما علم تفرده سبحانه كان الذي ينبغي لعباده أن لا يوجه أحد منهم شـيئاً من رغبته لغيره فلذلك سـبب عنه قوله: {فاتخذه} أي خذه بجميع جهدك وذلك بإفرادك إياه بكونه تعالى {وكيلاً *} أي على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيكها كلها ويكلؤها غاية الكلاية فإنه المتفرد بالقدرة عليها، ولا شيء أصلاً في يد غيره، فلا تهتم بشـيء أصـلاً، وليس ذلك بأن يترك الإنسـان كل عمل، فإن ذلك طمع فارغ بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الإنسـان إلى طلبه، ليكون متوكلاً في السبب لا من دون سبب، فإنه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسـباب، ولو لم

يكن في إفراده بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشـــرف والرفق من جميع الوجوه فإن وكيلك من النـاس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيراً في مصـــالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك أن تكلمه كثيراً في مصـــالحك وتسأله طويلاً ووكيلك من الناس- إذا حصّل مالك سألك الأجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الأجر، ووكيلك من النـاس ينفق عليك من مالك وهو ســـبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله، ومن تمســـك بهذه الآية عاش حراً كريماً، ومات خالصـاً شـريفاً، ولقي الله تعالى عبداً صـافياً مختاراً تقياً، ومن شـرط الموحد أن يتوجه إلى الواحد ويقبل على الواحد ويبذل له نفسـه عبودية ويأتمنه على نفســـه ويفوض إليه أموره ويترك التدبير ويثق به ويركن إليه ويتذلل لربوبيته، ويتواضـــع لعظمته ويتزين ببهائه ويتخذه عدة لكل نائبة دنيا وآخرة.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 15]

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15)}

ولما كانت الوكالة لا تكون إلا فيما يعجز، وكان الأمر بها مشيراً إلى أنه لا بـد أن يكون عن هـذا القول الثقيـل خطوب طوال وزلازل وأهوال، قـال: {واصـبر} وأشـار إلى عظمة الصـبر بتعديته بحرف الاسـتعلاء فقال: {على

ما } وخفف الأمر بالإشـــارة إلى أنهم لا يصـــلون إلى غير الأذى بالقول، وعظمه باســـتمرارهم عليه فقال : {يقولون } أي المخالفون المفهومون من الوكالة من مدافعتهم الحق بالباطل في حق الله وحقك.

ولما كانت مجانبة البغيض إلا عند الاضـــطرار مما يخفف من أذاه قال : {واهجرهم} أي أعرض عنهم جهاراً دافعاً للهرج مهما أمكن {هجراً جميلاً *} بأن تعاشـرهم بظاهرك وتباينهم بسـرك وخاطرك، فلا تخالطهم إلا فيما أمرك الله به على ما حده لك من دعائهم إليه ســبحانه ومن موافاتهم في أفراحهم وأحزانهم فتؤدي حقوقهم ولا تطالبهم بحقوقك لا تصريحاً ولا تلويحاً.

ولما كان في أمره هذا بما يفعل ما يشـــق جداً بما فيه من احتمال علوهم، أعلم بقرب فرجه بتهديدهم بأخذهم ســريعاً فقال : {وذرني} أي اتركني على أي حالة اتفقت مني في معاملتهم، وأظهر في موضع الإضمار تعليقاً للحكم بالوصــف وتعميماً فقال : {والمكذبين} أي العريقين في التكذيب فإني قادر على رحمتهم وتعذيبهم.

ولما ذكر وصــفهم الذي اســتحقوا به العذاب، ذكر الحامل عليه تزهيداً فيه وصــرفاً عن معاشـــرة أهله لئلا تكون المعاشـــرة فتنة فتكون حاملة على الاتصـاف به وجارّة إلى حب الدنيا فقال: {أولي النعمة} أي أصـحاب التنعم بغضـــارة العيش والبهجة التي أفادتهموها النعمة– بالكســر وهي الإنعام وما ينعم به من الأموال والأولاد، والجاه الذي أفادته النعمة– بالضم وهي المسرة التي تقتضي الشكر وهم أكابر قريش وأغنياؤهم.

ولما كان العليم القدير إذا قال مثل هذا لولي من أوليائه عاجل عدوه، قال محققاً للمراد بما أمر به من الصـــبر من هذا في النعم الدنيوية بأن زمنها قصير: {ومهلهم} أي اتركهم برفق وتأن وتدريج ولا تهتم بشأنهم.
ولا سره بوعيدهم الشديد بهذه العبارة التي مضمونها أن أخذهم بيده صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يسأل في تأخيره لهم، زاد في البشارة بقوله: {قليلاً *} أي من الزمان والإمهال إلى موتهم أو الإيقاع بهم قبله، وكان بين نزول هذه الآية وبين وقعة بدر يسير – قاله المحب الطبري، وفيه بشارة له صلى الله عليه وسلم بالبقاء بعد أخذهم كما كان، وأنه ليس محتاجاً في أمرهم إلى غير وكلهم سبحانه وتعالى بإلقائهم عن باله صلى الله عليه وسلم وتفريغ ظاهره وباطنه لما هو مأمور به من الله سبحانه وتعالى من الإقبال على الله سبحانه، ففي الآية أن من اشـتغل بعدوه وكله الله إلى نفسـه، فكان ذلك كالمانع من أخذ الله له، فإذا توكل عليه فقد أزال ذلك المانع–.
ولما كان هذا منادياً بعذابهم، وكان وصـــفهم بالنعمة مفهماً لأنهم معتادون بالمآكل الطيبة، وكان منع اللذيذ من المآكل لمن اعتاده لا يبلغ في نكاية النفس بحد نكاية البدن إلاّ بعد تقدم إهانة، استأنف قوله بياناً لنوع ما أفهمه التهديد من مطلق العذاب، وأكد لأجل تكذيبهم: {إن} وأشار إلى شدة غرابته وجلالته وعظمته وخصوصيته وتحقق حضوره بقوله: {لدينا} دون عندنا ولما كان أشد ما على الإنسان منعه مما يريد من الانبساط به بالحركات، قال ذاكراً ما يضاد ما هم فيه من النعمة والعز: {أنكالاً} جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذي لا يفك أبداً إهانة لهم لا خوفاً من فرارهم، جزاء على

تقييدهم أنفسهم بالشهوات عن اتباع الداعي وإيساعهم في المشي في فضاء الأهوية. ولما كان ذلك- محرقاً للباطن أتبعه حريق الظاهر فقال: {وجحيماً *} أي ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد بما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب، والتنعم برقيق اللباس والثياب، وتكلف أنواع الراحة.

ولما أتم ما يقابل تكذيبهم، أتبعه ما يقابل النعمة فقال: {وطعاماً ذا غصة} أي صاحب انتشاب في الحلق كالضريع والزقوم يشتبك فيه فلا يسوغ: لا ينزل ولا يخرج بما كانوا يعانونه من تصفية المآكل والمشارب، وإفراغ الجهد في الظفر بجميع المآرب. ولما خص عم فقال: {وعذاباً أليماً *} أي مؤلماً شديد الإيلام لا يدع لهم عذوبة بشيء من الأشياء أصلاً بما كانوا يصفون به أوقاتهم ويكدرون على من يدعوهم إلى ما ينفعهم بالخلاص من قيود المشاهدات والعروج من حضيض الشهوات إلى أوج الباقيات الصالحات.

ولما ذكر هذا العذاب ذكر ظرفه فقال: {يوم ترجف} أي تضطرب وتتزلزل زلزالاً شديداً {الأرض} أي كلها {والجبال} التي هي أشدها. ولما كان التقدير: فكانت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، عطف عليه قوله: {وكانت الجبال} أي التي هي مراسي الأرض وأوتادها، وعبر عن شدة الاختلاط والتلاشي بالتوحيد فقال: {كثيباً} أي رملاً مجتمعاً، فعيل بمعنى مفعول، من كثبه- إذا جمعه، ومادة كثب بتركيبها كثب- وكبث تدور على الجمع مع القرب، وتلزمه القلة، فإن حقيقة القرب قلة المسافة زماناً أو مكاناً، والنعومة، من كثبت التراب: درسته، وكثب عليه- بمعنى حمل أوكر، معناه قارب أن يخالطه، وكثيب الرمل: قطعة تنقاد محدودبة- ناظر إلى القلة من

معنى قطعة، وكل ما انصب كذلك أيضاً لأن الانصاب عادة يكون لما قل وأما نعم كثاب بتقديم الثاء وبتأخيرها أيضـــاً أي كثير فجاءته الكثرة من الصـيغة، والكاثبة من الفرس هو أضـيق موضـع في عرضـها، والكثبة من الأرض: المطمئنة بين الجبال- لأنها تكون صغيرة غالباً، والكباث كسحاب: النضـيج من ثمر الأراك، وقيل: ما لم ينضـج، وقيل: حمله إذا كان متفرقاً، فإن أريد النضـيج منه فتسـميته به لأنه مجتمع، وإن أريد ما لم ينضـج فهو من مقاربة النضـــج، وإن أريد المتفرق فلقرب بعضـــه من بعض لأن الأراك نفسـه صـغير الشـجر، وكبث اللحم- كفرح: بات مغموماً فتغير أو أروح أي جمع على إنائه الذي هو فيه إناء آخر، أو جمع ما هو فيه حتى تضـــايق فهو من الجمع لهذا، وأما الكنبث كقنفذ والثاء مؤخرة: الصـلب الشـديد، فهو في الغالب من تجمع أجزائه وتداخل بعضـها في بعض، وتكبيث السفينة أن تجنح إلى الأرض، هو من الجمع والقرب معاً، وأما كثبت كنانته- بمعنى نكثها، فكان فعل استعمل هنا للإزالة، أي أزال اجتماعها أو بمعنى أنه قربها نم رميه بتسييرها لسرعة التناول.

ولما كان الكثيب ربما أطلق مجازاً على ما ارتفع وإن لم يكن ناعماً قال: {مهيلاً *} أي رملاً سـائلاً رخواً ليناً منثوراً، من هاله إذا نثره، وقال الكلبي: هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده، ولما ذكر العذاب ووقته وقدمهما ليكون السـامع أقبل لما يطلب منه، أتبعهما السـبب فيه مشـيراً إلى ما به إصـــلاح أمر الآخرة التي فيها المعاد وإليها المنتهى والمآب، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم: {إنا أرسلنا} أي بما لنا من العظمة {إليكم} يا أهل مكة شرفاً

لكم خاصـــة، وإلى كل من بلغته الدعوة عامة {رســولاً} أي جداً هو محمد صـلى الله عليه وسـلم خاتم النبيين وإمامهم صـلى الله عليه وسـلم {شـاهداً عليكم} أي بما تصــنعون ليؤدي الشــهادة عند طلبها منه بما هو الحق يوم ننزع من كل أمة شهيداً وهو يوم القيامة.

ولما كانت هذه السـورة من أول ما نزل والدين ضـعيف وأهله في غاية القلة والذلة ليعتبر بهم من آل به أمره إلى أن كان في زمان صـــار فيه الدين غريباً كغربته إذ ذاك، وكان فرعون أعتى الناس في زمانه وأجبرهم، وأشـدهم خداعاً وأمكرهم وكان بنو إســـرائيل في غاية الذل له والطواعية لأمره، ومع ذلك فلما أرســل الله إليه موســى عليه الســلام الذي ذبح فرعون أبناء بني إســـرائيل لأجل أن يكون في جملة من ذبحه لأنه قيل له أنه يولد لبني إسرائيل مولود يكون هلاك القبط على يده أظهره به وأهلكه على قوته وأنجى منه بني إســرائيل على ضـــعفهم، قال تعالى تنبيهاً لقريش والعرب وغيرهم على أن من كان الله معه لا ينبغي أن يقاوي ولو أنه أضعف الخلق، وتنبيهاً لهم على الاعتبار بحال هذا الطاغية الذي يزيد عليهم بالملك وكثرة الجنود والأموال: {كما أرسلنا} أي بما لنا من العظمة {إلى فرعون} أي ملك مصر {رسـولاً *} ولعله نكره للتنبيه على أنه ليس من قوم فرعون فلا مانع له منه من حميم ولا شـــفيع يطاع، ليعلم أنه من كانت له قبيلة تحامي عنه أولى بالنصرة.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 19]

{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)}

ولما كان الإرسال سبباً للقبول أو الرد قال: {فعصى فرعون} أي بما له من تعوج الطباع {الرسول} أي الذي تقدم أنا أرسلناه إليه فصار معهوداً لكم بعد ما أراه من المعجزات البينات والآيات الدامغات- بما أشار إليه مظهر العظمة، ولذلك سبب عن عصيانه قوله: {فأخذناه} أي بما لنا من العظمة، وبين أنه أخذ قهر وغضب بقوله: {أخذاً وبيلاً *} أي ثقيلاً شديداً متعباً مضيقاً رديء العاقبة من قولهم: طعام وبيل- إذا كان وخماً لا يستمرأ أي لا ينزل في المري ولا يخف عليه، وذلك بأن أهلكناه ومن معه أجمعين لم ندع منهم أحداً- وسيأتي إن شاء الله تعالى في «ألم نشرح» قاعدة إعادة النكرة والمعرفة.

ولما علم بهذا أنه سبحانه شديد الأخذ، وأنه لا يغني ذا الجد منه الجد، سبب عن ذلك قوله محذراً لهم الاقتداء بفرعون: {فكيف تتقون} أي توجدون الوقاية التي تقي أنفسكم، ولما كان التنفير من سبب التهديد أهم لأنه أدل على رحمة المحذر وأبعث على اجتنابه، قال مشيراً بأداة الشك إلى أن كفرهم بالله مع ما نصب لهم من الأدلة العقلية المؤيدة بالنقلية ينبغي أن لا يوجد بوجه، وإنما يذكر على سبيل الفرض والتقدير: {إن كفرتم} أي أوقعتم الستر لما غرس في فطركم من أنوار الدلائل القائدة إلى الإيمان فبقيتم على

كفركم– على أن العبارة مشـــيرة إلى أنه عفا عنهم الكفر الماضـــي فلا يعده عليهم رحمة منه وكرماً ولا يعد عليهم إلا ما أوقعوه بعد مجيء الرســـول صـــلى الله عليه وســـلم {يوماً} أي هو مثل في الشـــدة بحيث إنه يقال فيه {يجعل} لشدة أهواله وزلزاله وأوجاله {الولدان} أي عند الولادة أو بالقرب منها {شـيباً} جمع أشـيب وهو من ابيض شـعره، وذلك كناية أن عن كثرة الهموم فيه لأن العادة جارية بأنها إذا تفاقمت أسـرعت بالشـيب، والمعنى إنكار أن يقدروا على أن يجعلوا لهم وقاية بغاية جهدهم تقيهم عذاب ذلك اليوم الموصـــــوف بهذا الهول الأعظم، وذلك حين يقول الله: «يا آدم قم فابعث بعث النار من كل ألف تسـعمائة وتسـعة وتسـعين» وأسـند الجعل إلى اليوم لكونه واقعاً فيه كما جعله المتقي، وإنما المتقي العذاب الواقع فيه.

ولما كان هذا أمراً عظيماً، صـــور بعض أهواله زيادة في عظمه فقال: {السـماء} أي على عظمها وعلوها وشـدة إحكامها. ولما كان المراد الجنس الشـــامل للكل ذكر فقال: {منفطر} أي منشــق متزايل من هيبة الرب تزايل المتفرط من الســـلك، ولو أنث لكان ظاهراً في واحدة من الســـماوات، وفي اختيار التذكير أيضـــاً لطيفة أخرى، وهي إفهام الشـــدة الزائدة في الهول المؤدي إلى انفطاره ما هو في غاية الشدة لأن الذكر في كل شـيء أشد من الأنثى، وذلك كله تهويلاً لليوم المذكور {به} أي بشدة ذلك اليوم وباؤه للآلة، ويجوز كونها بمعنى «فيه» أي يحصـل فيه التفطر والتشـقق بالغمام ونزول الملائكة وغير ذلك من التساقط والوهي على شدة وثاقتها فما ظنك بغيرها.

ولما كان هذا عظيماً، اســتأنف بيان هوانه بالنســبة إلى عظمته ســبحانه وتعالى فقال: {كان} أي على كل حال وبكل اعتبار {وعده} أي وعد الله الذي تقدم ذكره في مظاهر العظمة، فالإضافة للمصدر على الفاعل {مفعولاً *} أي سهلاً مفروغاً منه في أي شيء كان، فكيف إذا كان بهذا اليوم الذي هو محط الحكمة، أو الضمير لليوم فالإضافة إلى المفعول، إشارة إلى أن الوعد الواقع به وفيه لا بد منه، ومعلوم أنه لا يكون إلا من الله.

ولما كان ما مضى من هذه السورة من الأحكام والترغيب والترهيب مرشداً إلى معالي الأخلاق منقذاً من كل ســوء، قال مســتأنفاً مؤكداً تنبيهاً على عظمها وأنها مما ينبغي التنبيه عليه: {إن هذه} أي القطعة المتقدمة من هذه الســورة {تذكرة} أي تذكير عظيم هو أهل لأن يتعظ به المتعظ ويعتبر به المعتبر، ولا ســيما ما ذكر فيها بأهل الكفر من أنواع العقاب. ولما كان سبحانه قد جعل للإنسان عقلاً يدرك به الحسن والقبيح، واختياراً يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الأصلح والأحسن إلا قسر المشيئة التي لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها، سبب عن ذلك قوله: {فمن شاء} أي التذكر للاتعاظ {اتخذ} أي أخذ بغاية جهده {إلى ربه} أي خاصة، لا إلى غيره {سبيلاً *} أي طريقاً يسلبه حظوظه لكونه لا لبس فيه، فيسلك على وفق ما جاءه من التذكرة، وذلك الاعتصام حال السير بالكتاب والسنة على وفق ما اجتمعت عليه الأمة، ومتى زاغ عن ذلك هلك.

▲ تفسير الآية رقم [20]

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)}

ولما كان ربما تغالى بعض الناس في العبادة وشق على نفسه، وربما شق على غيره، أشار سبحانه وتعالى إلى الاقتصاد تخفيفاً لما يلحق الإنسان من النصب، مشيراً إلى ما يعمل حالة اتصال الروح بالجسد وهي حالة الحياة، لأن منفعتها التزود من كل خير لما أدناه هول المقابر، فإن الروح في غاية اللطافة، والسجد في غاية الكثافة، لأنها من عالم الأمر، وهو ما يكون الإيجاد فيه بمرة واحدة من غير تدريج وتطوير والجسد من عالم الخلق فهي غريبة فيه تحتاج إلى التأنيس وتأنيسها بكل ما يقربها إلى العالم الروحاني المجرد عن علائق الأجسام، وذلك بصرف القلب كله عن هذه الدنايا والتلبس بالأذكار والصلوات وجميع الأعمال الصالحات، فإن ذلك هو المعين على اتصالها بعالمها العالي العزيز الغالي، وأعون ما يكون على ذلك الحكمة، وهي العدل في الأعمال والاقتصاد في الأقوال والأفعال، فقال مستأنفاً الجواب عن تيسير السبيل وبنائه على الحنيفية السمحة بحيث صار

لا مانع منه إلا يد القدرة {إن ربك} أي المدبر لأمرك على ما يكون إحساناً إليك ورفقاً بك وبأمتك {يعلم أنك تقوم} أي في الصلاة كما أمرت به أول السورة.

ولما كانت كثرة العمل ممدوحة وقلته بخلاف ذلك، استعار للأقل قوله: {أدنى} أي زماناً أقل، والأدنى مشترك بين الأقرب، والأدون للأنزل رتبة لأن كلاً منهما يلزم منه قلة المسافة {من ثلثي الّيل} في بعض الليالي {ونصفه وثلثه} أي وأدنى من كل منهما في بعض الليالي- هذا على قراءة الجماعة، والمعنى، على قراءة ابن كثير والكوفيين بالنصب تعيين النصف والثلث الداخل تحت الأدنى من الثلثين، وهو على القراءتين مطابق لما وقع التخيير فيه في أول السورة بين قيام النصف بتمامه أو الناقص منه وهو الثلث أو الزائد عليه وهو الثلثان، أو الأقل من النصف وهو الربع.

ولما ذكر سبحانه قيامه صلى الله عليه وسلم، أتبعه قيام أتباعه، فقال عاطفاً على الضمير المستكن في تقوم وحسنه الفصل: {وطائفة} أي ويقوم كذلك جماعة فيها أهلية التحلق بإقبالهم عليك وإقبال بعضهم على بعض. ولما كانت العادة أن الصاحب ربما أطلق على من مع الإنسان بقوله دون قلبه عدل إلى قوله: {من الذين معك} أي بأقوالهم وأفعالهم، أي على الإسلام، وكأنه اختار هذا دون أن يقول من المسلمين لأنه يفهم أن طائفة لم تقم بهذا القيام فلم يرد أن يسميهم مسلمين، والمعية أعم.

ولما كان القيام- على هذا التفاوت مع الاجتهاد في السبق في العبادة دالاً على عدم العلم بالمقادير ما هي عليه قال تعالى: {والله} أي تقومون هكذا

لعدم علمكم بمقادير الســـاعات على التحرير والحال أن الملك المحيط بكل شــيء قدرة وعلماً وحده {يقدر} أي تقديراً عظيماً هو في غاية التحرير {الّيل والنهار} فيعلم كل دقيقة منهما على ما هي عليه لأنه خالقهما ولا يوجد شيء منهما إلا به

{ألا يعلم من خلق} [الملك: 14].

ولما علم من هذا المشــقة عليهم في قيام الليل على هذا الوجه علماً وعملاً، ترجم ذلك بقوله: {علم} أي الله سبحانه {أن لن تحصوه} أي تطيقوا التقدير علماً وعملاً، ومنه قوله صــلى الله عليه وســلم «اســتقيموا ولن تحصــوا» {فتاب} أي فتسبب عن هذا العلم أنه سبحانه رجع بالنسخ عما كان أوجب {عليكم} بالترخيص لكم في ترك القيام المقدر أول الســـورة، أي رفع التبعة عنكم في ترك القيام على ذلك التقدير الذي قدره كما رفع عن التائب، وكأنه سماه توبة وإن لم يكن ثم معصية إشارة إلى أنه من شأنه لثقله أن يجر إلى المعصية.

ولما رفعه سبب عنه أمرهم بما يسهل عليهم فقال معبراً عن الصلاة بالقراءة لأنها أعظم أركانها إشــارة إلى أن التهجد مســتحب لا واجب: {فاقرءوا} أي في الصلاة أو غيرها في الليل والنهار {ما تيسر} أي سهل وهان إلى الغاية عليكم ولان وانقاد لكم {من القرآن} أي الكتاب الجامع لجميع ما ينفعكم، قال القشيري: يقال: من خمس آيات إلى ما زاد، ويقال: من عشر آيات إلى ما يزيد، قال البغوي: قال قيس بن أبي حازم: صــليت خلف ابن عباس رضــي الله عنهما بالبصرة، فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة، ثم قام في

الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية. وقيل: إنه أمر بالقراءة مجردة إقامة لها مقام ما كان يجب عليهم من الصـــــلاة بزيادة في التخفيف، ولذلك روى أبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صـحيحه عن عبد لله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» قال المنذري: من ســـــورة الملك إلى آخر القرآن ألف آية.

ولما كان هذا نسـخاً لما كان واجباً من قيام الليل أول السـورة لعلمه سـبحانه بعدم إحصائه، فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بياناً لحكمة أخرى للنسخ فقال: {علم أن} أي أنه {سيكون} يعني بتقدير لا بد لكم منه {منكم مرضى} جمع مريض، وهذه السورة من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم، ففي هذه بشارة بأن أهل الإسلام يكثرون جداً.

ولما ذكر عذر المريض وبدأ بـه لكونـه أعم ولا قدرة للمريض على دفعه، أتبعه السـفر للتجارة لأنه يليه في العموم، فقال مبشـراً مع كثرة أهل الإسـلام باتسـاع الأرض لهم: {وآخرون} أي غير المرضـى {يضـربون} أي يوقعون الضـــرب {في الأرض} أي يســافرون لأن الماشـــي بجد واجتهاد يضـــرب الأرض برجله، ثم اسـتأنف بيان علة الضـرب بقوله: {يبتغون} أي يطلبون طلباً شديداً، وأشار إلى سعة ما عند الله بكونه فوق أمانيهم فقال: {من فضل الله} أي بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده ولا حاجة به إليه بوجه من الربح في التجارة أو تعلم العلم {وآخرون} أي منكم أيها المسـلمون {يقاتلون}

أي يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله، ولذلك بينه بقوله: {في سـبيل الله} أي ذلك القتل مظروف لطريق الملك الأعظم ليزول عن سـلوكه المانع لقتل قطاع الطريق المعنوي والحسـي، وأظهر ولم يضـمر تعظيماً للجهاد ولئلا يلبس بالعود إلى المتجر، وهو ندب لنا من الله إلى رحمة العباد والنظر في أعذارهم، فمن لا يرحم لا يرحم، قال البغوي: روى إبراهيم عن ابن مسـعود رضـي الله عنه قال: أيما رجل جلب شـيئاً من مدينة من مدائن المسـلمين صـابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشـهداء، ثم قرأ عبد الله {وآخرون يضربون في الأرض يبتغون} [المزمل: 20] الآية.

وعن عبد الله بن عمر رضـي الله عنهما أنه قال: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله.

ولما كانت هذه أعذاراً أخرى مقتضـية للترخيص أو أسـباباً لعدم الإحصـاء، رتب عليها الحكم السـابق، فقال مؤكداً للقراءة بياناً لمزيد عظمتها: {فاقرءوا} أي كل واحد منكم {ما تيسـر} أي لكم {منه} أي القرآن، أضـمره إعلاماً بأنه عين السابق، فصار الواجب قيام شيء من الليل على وجه التيسير، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس. ولما كان صـالحاً لأن يراد به الصـلاة لكونه أعظم أركانها وأن يراد به نفسـه من غير صـلاة زيادة في التخفيف، قال ترجيحاً لإرادة هذا الثاني أو تنصـيصـاً على إرادة الأول: {وأقيموا} أي أوجدوا إقامة {الصـلاة} المكتوبة بجميع الأمور التي تقوم بها من أركانها وشـروطها ومقدماتها ومتمماتها وهيئاتها ومحسناتها ومكملاتها.

ولما ذكر بصـــفة الخالق التي هي أحد عمودي الإســـلام البدني والمالي، أتبعها العمود الآخر وهو الوصـــلة بين الخلائق فقال : {وآتوا} من طيب أموالكم التي أنعمنا به عليكم {الزكاة} أي المفروضـــة، ولما كان المراد الواجب المعروف، أتبعه ســـائر الإنفاقات المفروضـــة والمندوبة، فقال : {وأقرضـوا الله} أي الملك الأعلى الذي له جميع صـفات الكمال التي منها الغنى المطلق، من أبدانكم وأموالكم في أوقات صـحتكم ويســاركم {قرضــاً حســناً} من نوافل الخيرات كلها في جميع شـــرعه برغبة تامة وعلى هيئة جميلة في ابتدائه وانتهائه وجميع أحواله، فإنه محفوظ لكم عنده مبارك فيه ليرده عليكم مضاعفاً أحوج ما تكونون إليه.

ولما كان هذا الدين جامعاً، وكان هذا القرآن حكيماً لأن منزله له صـــفات الكمال فأمر في هذه الجمل بأمهات الأعمال اهتماماً بها، أتبع ذلك أمراً عاماً بجميع شرائع الدين فقال: {وما تقدموا} وحث على إخلاص النية بقوله: {لأنفسـكم} أي خاصـة سـلفاً لأجل ما بعد الموت لا تقدرون على الأعمال {من خير} أي أيّ خير كان من عبادات البدن والمال {تجدوه} محفوظاً لكم {عند الله} أي المحيط بكل شـيء قدرة وعلماً {هو} أي لا غيره {خيراً} أي لكم، وجاز وقوعه الفصـــل بين غير معرفتين لأن «أفعل من» كالمعرفة، ولذلك يمنع دخول أداة التعريف عليها.

ولما كان كل من عمل خيراً جوزي عليه سواء كان عند الموت أو في الحياة سـواء كان كافراً أو مسـلماً مخلصـاً أو لا، إن كان مخلصـاً كان جزاؤه في

الآخرة، وإلا ففي الدنيا، قال: {وأعظم أجراً} أي مما لمن أوصـى في مرض الموت، وكان بحيث يجازى به في الدنيا.

ولما كان الإنسـان إذا عمل ما يمدح عليه ولا سـيما إذا كان المادح له ربه ربما أدركه الإعجاب، بين له أنه لا يقدر بوجه على أن يقدر الله حق قدره، فلا يزال مقصراً فلا يسعه إلا العفو بل الغفر فقال حاثاً على أن يكون ختام الأعمال بالاسـتغفار والاعتراف بالتقصـير في خدمة المتكبر الجبار مشـيراً إلى حالة انفصـال روحه عن بدنه وأن صـلاحها الراحة من كل شـر: {واسـتغفروا الله} أي اطلبوا وأوجدوا سـتر الملك الأعظم الذي لا تحيطون بمعرفته فكيف بأداء حق خدمته لتقصـيركم عيناً وأثراً بفعل ما يرضـيه واجتناب ما يسخطه.

ولما علم من السـياق ومن التعبير بالاسـم الأعظم أنه سـبحانه بالغ في العظمة إلى حد يؤيس من إجابته، علل الأمر بقوله مؤكداً تقريباً لما يستبعده من يستحضـر عظمته سبحانه وشدة انتقامه وقوة بطشـه: {إن الله} وأظهر إعلاماً بأن صفاته لا تقصر آثارها على المستغفرين ولا على مطلق السائلين {غفور} أي بالغ الستر لأعيان الذنوب وآثارها حتى لا يكون عليها عتاب ولا عقاب {رحيم *} أي بالغ الإكرام بعد الستر إفضالاً وإحساناً وتشريفاً وامتناناً، وقد اشـتملت هذه السـورة على شـرح قول النبي صـلى الله عليه وسـلم فيما أوتي من جوامع الكلم «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح في دنياي التي فيها معاشـي وأصـلح لي آخرتي التي إليها منقلبي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر» كما أشير

إلى كل جملة منها في محلها، ولقد رجع آخر الســورة- بالترغيب في العمل وذكر جزائه- على أولها الأمر بالقيام بين يديه وبإشارة الاستغفار إلى عظم المقام وإن جل العمل ودام وإن كان بالقيام في ظلام الليالي والناس نيام، فسـبحانه من له هذا الكلام المعجز لسـائر الأنام لإحاطته بالجلال والإكرام، فسبحانه من إله جابر القلوب المنكسرة.

74 Muddathir Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة المدثر

74

تفسير الآيات رقم [1- 10]

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)}

ولما ختمت «المزمل» بالبشارة لأرباب البصارة بعدما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيئ للقيام بأعباء الدعوة، افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة لأصحاب الخسارة، فقال معبراً بما فيه بشارة بالسعة في المال والرجال والصلاح وحسن الحال في الحال والمآل، ومعرفاً بأن المخاطب في غاية اليقظة بالقلب وإن ستر القالب: {يا أيها المدثر *} المشتمل بثوبه، من تدثر بالثوب: اشتمل به، والدثار- بالكسر ما فوق الشعار من الثياب، والشعار ما

لاصــق البدن «الأنصــار شــعار والناس دثار» والدثر: المار الكثير، ودثر الشــجر: أورق، وتدثير الطائر: إصــلاحه عشــه، والتعبير بالأداة الصــالحة للقرب والبعد يراد به غاية القرب بما عليه الســـياق وإن كان التعبير بالأداة فيه نوع ستر لذلك مناسبة للتدثر، واختير التعبير بها لأنه لا يقال بعدها إلى ما جل وعظم من الأمور، وكان الدثار لم يعم بدنه الشـــريف بما دل عليه التعبير بالإدغام دون الإظهار الدال على المبالغة لأن المراد إنما كان ســتر العين ليجتمع القلب، فيكفي في ذلك ســـتر الرأس وما قاربه من البدن، والإدغام شديد المناسبة للدثار.

ولما كان في حال تدثره قد لزم موضـــعاً واحداً فلزم من ذلك إخفاء نفســـه الشريفة، أمره صلى الله عليه وسلم بالقيام، وسبب عنه الإنذار إشارة إلى أن ما يراد به من أنه يكون أشــهر الخلق بالرســالة العامة مقتض لتشــمير الذيل والحمل على النفس بغاية الجد والاجتهاد اللازم عنه كثرة الانتشـــار، فهو مناف للتدثر بكل اعتبار فقال: {قم} أي مطلق قيام، ولا ســـيما من محل تدثرك بغاية العزم والجد.

ولما كان الأمر عند نزول هذه السورة في أوله والناس قد عمهم الفساد، ذكر أحد وصفي الرسالة إيذاناً بشدة الحاجة إليه فقال مسبباً عن قيامه: {فأنذر} أي فافعل الإنذار لكل من يمكن إنذاره فأنذر من كان راقداً في غفلاته، متدثراً بأثواب سكراته، لاهياً عما أمامه من أهوال يوم القيامة، وكذا من كان مستيقظاً ولكنه متدثر بأثواب تشـويفاته وأغشـيته فتراته، فإنه يجب على كل مربوب أن يشـــكر ربه وإلا عاقبه بعناده له أو غفلته عنه بما أقله الإعراض

عنه، وحذف المفعول إشـــارة إلى عموم الإنذار لكل من يمكن منه المخالفة عقلاً وهم جميع الخلق، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان نزل عليه جبريل عليه السلام ب {اقرأ باسم ربك} [العلق: 1] ونحوها فكان بذلك نبياً ثم نزلت عليه هذه الآية فكان بها رســـولاً، وذلك أنه نودي وهو في جبل حراء، فلما سمع الصوت نظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً، فرفع رأسه فإذا جبريل عليه الصلاة والسلام جالس على عرش بين السماء والأرض، ففرق من ذلك أشد الفرق، فبادر المجيء إلى البيت ترجف بوادره وقال:

«دثروني دثروني، لقد خشيت على نفسي، صبوا عليّ ماءً بارداً».

ولما كان الإنذار يتضـــمن مواجهة الناس بما يكرهون، وذلك عظيم على الإنســـان، وكان المفتر عن اتباع الداعي أحد أمرين : تركه مما يؤمر به، وطلبه عليه الأجر، كما أن الموجب لاتباعه عمله بما دعا إليه، وبعده عن أخذ الأجر عليه، أمره بتعظيم من أرسله سبحانه فإنه إذا عظم حق تعظيمه صـغر كل شـيء دونه، فهان عليه الدعاء وكان له معيناً على القبول فقال: {وربك} أي المربي لك خاصـة {فكبر *} أي وقم فتسبب عن قيامك بغاية الجد والاجتهاد أن تصـفه وحده بالكبرياء قولاً واعتقاداً على كل حال، وذلك تنزيهه عن الشـرك أول كل شـيء، وكذا عن كل ما لا يليق به من وصـل وفصل، ومن سؤال غيره، والاشتغال بسواه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: ملاءمتها لسورة المزمل واضحة، واستفتاح الســـورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه عليه الصلاة والسلام وعظيم تكريمه {يا أيها المزمل} [المزمل: 1] {يا أيها

المدثر} [المدثر: 1] والأمر فيهما بما يخصه {قم الّيل إلا قليلاً نصفه} [المزمل: 2- 3] الآي، وفي الآخرى {قم فانذر وربك فكبر} [المدثر: 2- 3] أتبعت في الأولى بقوله: {فاصبر على ما يقولون} [المزمل: 10] وفي الثانية بقوله {ولربك فاصبر} [المدثر: 7] وكل ذلك قصد واحد، واتبع أمره بالصبر في الزمل بتهديد الكفار ووعيدهم {وذرني والمكذبين} [المزمل: 11] الآيات، وكذلك في الأخرى {ذرني ومن خلقت وحيداً} [المدثر: 11] الآيات، فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد- انتهى.

ولما كان تنزيه العبد عن الأدناس لأجل تنزيه المعبود، قال آمراً بتطهير الظاهر والباطن باستكمال القوة النظرية في تعظيمه سبحانه ليصلح أن يكون من أهل حضرته وهو أول مأمور به من رفض العادات المذمومة: {وثيابك فطهر *} أي وقم فخص ثيابك الحسية بإبعادها عن النجاسات بمجانبة عوائد المتكبرين من تطويلها، وبتطهيرها لتصلح للوقوف في الخدمة بالحضرة القدسية، والمعنوية وهي كل ما اشتمل على العبد من الأخلاق المذمومة والعوائد السقيمة من الفترة عن الخدمة والضجر والاسترسال مع شيء من عوائد النفس، وذلك يهون باستكمال القوة النظرية.

ولما أمر بمجانبة الذر في الثياب وأراد الحسية والمعنوية، وكان ذلك ظاهراً في الحسية، وجعل ذلك كناية عن تجنب الأقذار كلها لأن من جنب ذلك ملبسه أبعده عن نفسه من باب الأولى، حقق العموم وأكد فقال: {والرجز} أي كل قذر فإنه سبب الدنايا التي هي سبب العذاب، قال في القاموس: الرجز بالكسر والضم: القذر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك. {فاهجر *}

أي جانب جهاراً وعبادة، ليحصــل لك الثواب كما كنت تجانبها ســراً وعادة، فحصل لك الثناء الحسن حتى أن قريشــاً إنما تسميك الأمين ولا تناظر لك أحداً منها.

ولما بدأ بأحد ســـببي القبول، أتبعه الثاني المبعد عن قاصـــمة العمل من الإعجاب والرياء والملل فقال: {ولا تمنن} أي على أحد بدعائك له أو بشيء تعطيه له على جهة الهبة أو القرض بأن تقطع لذة من أحسنت إليه بالتثقيل عليه بذكرك على جهة الاستعلاء والاستكثار بما فعلته معه، أو لا تعط شيئاً حال كونك {تســـتكثر *} أي تطلب أن تعطي أجراً أو أكثر مما أعطيت- قاله ابن عباس رضـــي الله عنهما، وهو من قولهم، منَّ- إذا أعطى، وذلك لأنه الأليق بالمعطي من الخلق أن يستقل ما أعطى، ويشكر الله الذي وفقه له، وبالآخذ أن يستكثر ما أخذ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يفعل شيئاً لعلة أصلاً، بل لله خالصاً، فإنه إذا زال الاستكثار حصل الإخلاص، لأنه لا يتعلق همه بطلب الاستمثال، فكيف بالاســتقلال، فيكون العمل في غاية الخلوص لا يقصد به ثواباً أصــلاً، ولا يراد لغير وجه الله تعالى، وهذا هو النهاية في الإخلاص.

ولما كان الإنذار شــديداً على النفوس يحصــل به من المعالجات ما الموت دونه، لأن ترك المألوفات أصعب شيء على النفوس، وكذا ترك الفوائد، قال أمراً بالتحلي بالعاصـــم بعد التخلي عن القاصـــم، معلماً بأن الأذى من المنذرين أمر لا بد منه فيدخل في الطاعة على بصـــيرة، فاقتضـــى الحال لذلك أن الإنذار يهون بالغنى عن الفانين والكون مع الباقي وحده، فأشـــار

إلى ذلك بتقديم الإله معبراً عنه بوصف الإحسان ترغيباً فقال: {ولربك} أي المحسن إليك، المربي لك، المدبر لجميع مصالحك وحده {فاصبر *} أي على مشاق التكاليف أمراً ونهياً وأذى المشركين وشظف العيش وجميع البلايا، فإنه يجزل عطاءك من خير الدارين بحيث لا يحوجك إلى أحد، ويحوج الناس إليك، ويهون عليك حمل المشاق في الدارين ولا سيما أمر يوم البعث، فإن من حمل العمل في الدنيا حمله العمل في الآخرة.

ولما كان المقام للإنذار، وكان من رد الأوامر تكذيباً كفر، ومن تهاون بها ما أطاع ولا شكر، حذر من الفتور عنها بذكر ما للمكذب بها، فقال مسبباً عن ذلك باعثاً على اكتساب الخيرات من غير كسل ولا توقف، مذكراً بأن الملك التقم القرن وأصغى بجبهته انتظاراً للأمر بالنفخ، مشيراً بالبناء للمفعول إلى هوانه لديه وخفته عليه مؤذناً بأداة التحقق أنه لا بد من وقوعه: {فإذا نقر} أي نفخ وصوّت بشدة وصلابة ونفوذ وإنكاء {في الناقور *} أي الصور وهو القرن الذي إسرافيل عليه السلام ملتقمه الآن وهو مصغ لانتظار الأمر بالنفخ فيه للقيامة، ويجوز أن يراد الأيام التي يقضي فيها بالذل على الكافرين كيوم بدر والفتح وغيرهما كما جعلت الساعة والقيامة كناية عن الموت، فقال صلى الله عليه وسلم:

»من مات فقد قامت قيامته« عبر عنه بالنقر إشارة إلى أنه في شدته كالنقر في الصلب فيكون عنه صوت هائل، وأصل النقر القرع الذي هو سبب الصوت فهو أشد من صدعك لهم بالإنذار للحذار من دار البوار، فهنالك ترد الأرواح إلى أجسادها، فيبعث الناس فيقومون من قبورهم كنفس واحدة،

وترى عاقبة الصـــبر، ويرى أعداؤك عاقبة الكبر، والتعبير فيه بصـــيغة المبالغة وجعله فاعلاً كالجاســوس إشــارة إلى زيادة العظمة حتى كأنه هو الفاعل على هيئة هي في غاية الشــدة والقوة، وحذر النبي صــلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم من النفخ في الصور وقربه فقالوا: «كيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» ويجوز أن يكون التسبب عن الأمر بالصبر، أي اصبر فلنأخذن بثأرك في ذلك اليوم بما يقر عينك، فيكون تسلية له صلى الله عليه وسلم وتهديداً لهم.

ولما ذكر هذا الشرط هل (؟) الذي صوره بصوره هائلة، أجابه بقوله: {فذلك} أي الوقت الصعب الشديد العظيم الشدة جداً البالغ في ذلك مبلغاً يشار إليه إشـــارة ما هو أبعد بعيد، وهو وقت النقر، ثم أبدل من هذا المبتدأ زيادة في تهويله قوله: {يومئذ} أي وقت إذ يكون النقر الهائل {يوم عسير *} أي بالغ العسر {على الكافرين} أي الذين كانوا يستهينون بالإنذار ويعرضون عنه لأنهم راسحون في الكفر الذي هو ستر ما يجب إظهاره من دلائل الوحدانية، ولما كان العســر قد يطلق على الشـــيء وفيه يســر من بعض الجهات أو يعالج فيرجع يسيراً، بين أنه ليس كذلك بقوله: {غير يسير *} فجمع فيه بين إثبات الشيء ونفي ضده تحقيقاً لأمره ودفعاً للمجاز عنه وتأييداً لكونه ولأنه غير منقطع بوجه، وتقييده بالكافرين يشعر بتيسره على المؤمنين.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 17]

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)}

ولما آذن هذا بأن أكثر الخلق يوافي يوم القيامة على كفره وخبث طويته وسوء أمره وكان ذلك مما يهم لشفقته صلى الله عليه وسلم على الخلق، ولما يعلم من نصبهم للعداوة، هون أمرهم عليه وحقر شأنهم لديه بوعده بالكفاية بقوله مستأنفاً منبهاً على أسباب الهلاك التي أعظمها الغرور وهو شبهة زوجتها شهوة: {ذرني} أي أتركني على أي حالة اتفقت {ومن} أي مع كل من {خلقت} أي أوجدت من العدم وأنشأت في أطوار الخلقة، حال كونه {وحيداً *} لا مال له ولا ولد ولا شيء، وحال كوني أنا واحداً شديد الثبات في صفة الوحدانية لم يشاركني في صنعه أحد فلم يشكر هذه النعمة بل كفرها بالشرك بالله سبحانه القادر على إعدامه بعد إيجاده.

ولما كان المطغى للإنسان المكنة التي قطب دائرتها المال قال: {وجعلت له} أي بأسباب أوجدتها أنا وحدي لا حول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدناً وقلباً وأوسع فكراً وعقلاً وهو دونه في ذلك {مالاً ممدوداً *} أي مبسوطاً واسعاً نامياً كثيراً جداً عاماً لجميع أوقات وجوده، والمراد به كما يأتي الوليد بن المغيرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار.

ولما كان أول ما يمتد إليه النفس بعد كثرة المال الولد، وكان أحب الولد الذكر، قال: {وبنين} ولما كان الاحتياج إلى فراقهم ولو زمناً يسيراً شاقاً،

وكان ألزمهم له وأغناهم عن الضرب في الأرض نعمة أخرى قال: {شهوداً *} أي حضوراً معه لغناه عن الأسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الأعوان، وهم مع حضورهم في الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق، فهم في غاية المعرفة بما يزيدهم الاطلاع عليه حيثما أرادهم وجدهم وتمتع بلقياهم، ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لا شاهد بها غيرهم، منهم خالد الذي من الله بإسلامه، فكان سيف الله تعالى وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولما كان هذا كناية عن سعة الرزق وعظم الجاه، وكان من بسط له في المال والولد والجاه تتوق نفسه إلى إتمام ذلك بالحفظ والتيسير، قال مستعطفاً لما كان هكذا بالتذكير بنعمه: {ومهدت} أي بالتدريج والمبالغة {له} أي وطأت وبسطت وهيأت في الرئاسة بأن جمعت له إلى ملك الأعيان ملك المعاني التي منها القلوب، وأطلت عمره، وأزلت عنه موانع الرغد في العيش، ووفرت أسباب الوجاهة له حتى دان لذلك الناس، وأقام ببلده مطمئناً يرجع إلى رأيه الأكابر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وسعت له ما بين اليمن إلى الشام فأكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد في زمانه من أهل بيته وفخذه بحيث كان يسمى الوحيد وريحانة قريش فلم يزع هذه النعمة العظيمة: وأكد ذلك بقوله: {تمهيداً *}.

ولما كان قد فعل به ذلك سبحانه، فأورثته هذه النعمة من البطر والاستكبار على من خوله فيها ضد ما كان ينبغي له من الشكر والازدجار، قال محققاً أنه سبحانه هو الذي وهبها له وهو الواحد القهار، مشيراً بأداة التراخي إلى

اســتبعاد الزيادة له على حالته هذه من عدم الشــكر : {ثم} أي بعد الأمر العظيم الذي ارتكبه من تكذيب رسـولنا صـلى الله عليه وسـلم {يطمع} أي بغير سـبب يدلي به إلينا مما جعلناه سـبب المزيد من الشـكر: {أن أزيد *} أي فيما آتيته من دنياه أو آخرته وهو يكذب رسولي صلى الله عليه وسلم.
ولما كان التقدير : إنـه ليطمع في ذلك لأن المال والجاه يجران الشــــرف والعظمة بأيسـر سـعي، هذا هو المعروف المتداول المألوف، اسـتأنف زجره عن ذلك بمجامع الزجر: علماً من أعلام النبوة، وبرهاناً قاطعاً على صـحة الرسالة، فقال ما لا يصح أن يقوله غيره سبحانه لأنه مع أنه لا تردد فيه ولا افتراء طابق الواقع، فلم يزد بعد ذلك شيئاً، بل لم يزل في نقصان حتى هلك وتمت كلمات ربك صــدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته {كلا} أي وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصــلاً، وأما النقصــان فسيرى إن اسـتمر على تكـذيبـه فليرتـدع عن هـذا الطمع، وليزدجر وليرتجع، فـإنـه حمق محض وزخرف بحت، وغرور صــــرف، ولما ردعه هذا الردع المقتضـــــي ولا بد للإذعان وصــادق الإيمان ممن لم يسـتول عليه الحرمان، علله بقوله مؤكداً لإنكارهم العناد والمعاد: {إنه} أي هذا الموصـوف {كان} بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه {لآياتنا} على ما لها من العظمة خاصــة لكونها هادية إلى الوحدانية، لا لغيرها من الشـبه القائدة إلى الشـرك {عنيداً *} أي بالغ العناد على وجه لا يعد عناده لغيرها بســبب مزيد قبحه عناداً، والعناد– كما قال الملوي: من كبر في النفس أو يبس في الطبع أو شـراسـة في الأخلاق أو خبل في العقل، وقد جمع ذلك كلـه إبليس، لأنـه خلق من

نار . وهي من طبعها اليبوســـــة وعدم الطواعية، وحقيقته ميل عن الجادة، ومجاوزة للحد مع الإصرار واللزوم، ومنه مخالفة الحق مع المعرفة بأنه حق. ولما كان هذا محراً للتشـــــوف إلى بيان هذا الردع، وكان العناد غلظة في الطبع وشكاسة في الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه فقال: {ســأرهقه} أي ألحقه بعنف وغلظة وقهر إلحاقاً يغشـاه ويحيط به بوعيد لا خلف فيه {صـــعوداً *} أي شـــيئاً من الدواهي والأنكاد كأنه عقبة، فإن الصعود لغة العقبة شاق المصعد جداً، وروى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي، وفي رواية: أنه كلما وضـع يده في معالجة الصـعود ذابت، فإذا رفعها عادت وكذا رجله، وقال الكلبي: إنه صخرة ملساء في النار يكلف أن يصـعدها بجذب من أمامه بسـلاسـل الحديد، ويضـرب من خلفه بمقامع الحديد فيصـــعدها في أربعين عاماً، فإذا بلغ ذروتها أســقط إلى أســفلها ثم يكلف أن يصعدها، فذلك دأبه أبداً.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 25]

{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)}

ولما حصـــل التشـــوف إلى بعض ما عاند به الآيات، قال مبيناً لذلك مؤكداً لاستبعاد العقلاء لما صنع لبعده عن الصواب ومعرفة كل ذي لب أنه كذب: {إنه} أي هذا العنيد {فكر} أي ردد فكره وأداره تابعاً لهواه لأجل الوقوع على

شـــيء يطعن به في القرآن {وقدر *} أي أوقع تقديراً للأمور التي يطعن بها فيه وقايتها في نفسـه ليعلم أيها أقرب إلى القبول. ولما كان تفكيره وتقديره قد أوقع غيره في الهلاك بمنعه من حياة الإيمان أصـيب هو بما منعه من حياة نافعة في الدارين، وذلك هو الهلاك الدائم. ولما كان الضار إنما هو الهلاك لا كونه من معين، ســـبب عن ذلك بانياً للمفعول قوله مخبراً وداعياً دعاءً مجاباً لا يمكن تخلفه: {فقتل} أي هلك ولعن وطرد في دنياه هذه. ولما كان التقدير غاية التفكير، وكان التفكير ينبغي أن يهديه إلى الصــواب فقاده إلى الغي، عجب منه فقال منكراً عليه معبراً بأداة الاســتفهام إشــارة إلى أنه مما يتعجب منه ويسأل عنه: {كيف قدر *} أي على أي كيفية أوقع تقديره هذا، وإذا أنكر مطلق الكيفية لكونها لا تكاد لبطلانها تتحقق، كان إنكار الكيف أحق.

ولما كان وقوعه في هذا الطعن عظيماً جداً لما فيه من الكذب المفضـــوح ومن معاندة من هو القوي المتين المنتقم القهار العظيم ومن غير ذلك من الوجوه المبعدة عن الوقوع فيه، أكد المعنى زجراً عن مثله وحثاً على التوبة منـه، فقـال معبراً بـأداة البعـد دلالـة على عظمـة هـذا القتـل بـالتعبير بهـا وبـالتكرار : {ثم قتل} أي هلك ولعن هذا العنيد هلاكاً ولعناً هو في غاية العظمة فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة {كيف قدر *} ولما كان الماهر بالنظر إذا فكر وصـــحح فكره نظر في لوازمه قال مشــيراً إلى طول ترويه: {ثم نظر *} أي فيما يدفع به أمر القرآن مرة بعد أخرى، وفي ذلك إشارة إلى

قبح أفعاله، فظهور الحق له مع إصـراره فإن تكرار النظر في الحق لا يزيده على كل حال إلا ظهوراً وفي الباطل لا يزيده إلا ضعفاً وفتوراً.

ولما كان من فعل كذلك فظهر له فســاد رأيه ووقف مع حظ نفســه يصــير يعبس ويفعل أشــياء تتغير لها خلقته من غير اختياره قال: {ثم عبس} أي قطب وجهه وكلح فتربد وجهه مع تقبض جلده ما بين العينين بكراهة شـديدة كالمتهم المتفكر في شــيء وهو لا يجد فيه فرجاً لأنه ضــاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبي صــلى الله عليه وســلم مطعناً {وبســر *} اتباع لعبس تأكيداً لها، وربما أفهمت أنه ســــبر ما قاله ووزنه بميزان الفكر وتتبعه تتبعاً مفرطاً حتى رســـخت فيه قدمه، كذا قالوا إنها اتباع إن أريد به التأكيد وإلا فقد وردت مفردة، قال في القاموس: بســـر – إذا عبس، وبســـر الحاجة: طلبها في غير أوانها، وبسـر الدين: تقاضــاه قبل محله، فكأنه لما طال عليه التفكير صار يستعجل حصوله إلى مراده، ويقال: بسر – إذا ابتدأ الشــيء، فكأنه لما عبس خطر له الســحر فابتدأ في إبداء ما ســنح له من أمره، قال ابن برجان: البسور هيئة في الوجه تدل على تحزن في القلب.

ولما كان هذا النظر على هذا الوجه أمدح شـيء للمنظور فيه إذا لم يوصـل منه إلى طعن، وكان ظاهره إنه لتطلب الحق، فكان الإصـــرار معه على الباطل في غاية البعد، قال دالاً على ذلك من المدح وعدم وجدان الطعن معبراً بأداة البعد: {ثم} أي بعد هذا التروي العظيم {أدبر} أي عما أداه إليه فكره من الإيمان بســلامة المنظور فيه وعلوه عن المطاعن، فحاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها {واستكبر *} أي وأوجد الكبر عن الاعتراف بالحق إيجاد

من هو في غاية الرغبة فيه، وكان هذا غاية العناد، فكان معنى العنيد {فقال} أي عقب ما جره إليه طبعه الخبيث من إيقاع الكبر على هذا الوجه لكونه رآه نافعاً لهم في الدنيا ولم يفكر في عاقبة ذلك من جهة الله، وأنه سبحانه لا يهدي كيد الخائنين ولا ينجح مراد الكاذبين، ونحو هذا مما جربوه في دنياهم فكيف رقى نظره إلى أمر الآخرة، وأكد الكلام لما يعلم من إنكار من يسمعه فقال: {إن} أي ما {هذا} أي الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم {إلا سحر} أي أمور تخييلية لا حقائق لها، وهي لدقتها بحيث تخفى أسبابها.

ولما كان من المعلوم لهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما سحر قط ولا تعلم سحراً، فكان من ادعى ذلك علم كذبه بأدنى نظر بعد الأمر بقدر استطاعته فقال: {يؤثر *} أي من شأنه أن ينقله السامع له من غيره، فهو لقوة سحريته وإفراطها في بابها يفرق بمجرد الرواية بين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه وابنه إلى غير ذلك من العجائب التي تنشأ عنه. ولما كان السامع يجوز أن يكون مأثوراً عن الله فيوجب له ذلك الرغبة فيه، قال من غير عاطف كالمبين للأول والمؤكد له، وساقه على وجه التأكيد بالحصر لعلمه أن كل ذي بصيرة ينكر كلامه: {إن} أي ما {هذا} أي القرآن {إلا قول البشر *} أي ليس فيه شيء عن الله فلا يغتر أحد به ولا يعرج عليه، وقد مدحه بهذا الذم بعد هذا التفكير كله من حيث إنه أثبت أنه معجوز عنه لأغلب الناس كما يعجزون عن السحر فسكت ألفاً ونطق خلفاً، فكان شبيهاً من بعض الوجوه بما قاله بعضهم:

لو قيل «كم خمس وخمس» لاغتدى *** يوماً وليلته يعد ويحسب

ويقول معضلة عجيب أمرها *** ولئن عجبت لها الأمري أعجب

حتى إذا خدرت يداه وعورت *** عيناه مما قد يخط ويكتب

أوفى على شرف وقال ألا انظروا *** ويكاد من فرح يجن ويسلب

خمس وخمس ستة أو سبعة *** قولان قالهما الخليل وثعلب

وهكذا كل حق يجد المبالغ في ذمه لا ينفك ذمه عن إفهام مدح له ينقض كلامه، ولكن أين النقاد المعدود من الأفراد بين العباد، وهذا الكلام صـــالح لعموم كل من خلقه سـبحانه هكذا في الروغان من الحق لما تفضـل الله به عليه من الرئاسـة لأن أهل العظمة في الدنيا هم في الغالب القائمون في رد الحق والتعاظم على أهله كما ذكر هنا ولا ينافي ذلك ما قالوه: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، بل ذلك من إعجاز كلام الله تعالى أن تنزل الآية في شـخص فتبين حاله غاية البيان ويعم غيره ذلك البيان، قالوا: كان للوليد هذا عشرة من البنين، كل واحد منهم كبير قبيلة، ولهم عبيد يسـافرون في تجاراتهم ويعملون احتياجاتهم، ولا يحوجونهم إلى الخروج من البلد لتجارة ولا غيرها، وأسـلم منهم ثلاثة: الوليد بن الوليد وخالد وهشـام، وقيل: إنه لما نزل على النبي صـلى الله عليه وسلم أول سورة غافر إلى قوله: {المصير} [غافر: 3] أو أول «فصلت» قرأها النبي صـلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد يســمعه، فأعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، والله لقد سـمعت من محمد صـلى الله عليه وسـلم آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن لـه لحلاوة وإن عليـه لطلاوة، وإن

أعلاه لمثمر وإن أســـفله لمعذق، وإنه ليعلو ولا يعلى، ثم انصـــرف فقالت قريش: صـبا والله الوليد، والله لتصـبون قريش كلها، وكان يقال للوليد ريحانة قريش، فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه، فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد : ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟ قال : وما يمنعني وهذه قريش تجمع لك نفقة تعينك بها على كبر ســنك وتزعم أنك صــبوت، لتدخل على ابن أبي كبشـــة وابن أبي قحافة لتنال من فضـــل طعامهم، فغضـــب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرها مالاً وولداً، وهل شـبع محمد وأصـحابه من الطعام فيكون لهم فضـــل ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه وأداروا الرأي فيما يقولونه في القرآن فقالوا له: ما تقول في هذا الذي جاء به محمد صـلى الله عليه وسلم؟ قال: قولوا أسـمع لكم، قالوا: شـعر، قال: ليس بشـعر، قد علمنا الشـعر كله، وفي رواية: هل رأيتموه يتعاطى شـعراً؟ قالوا: كهانة، قال : ليس بكهانة، هل رأيتموه يتكهن ؟ فعدوا أنواع البهت التي رموا بها القرآن فردها، وأقام الدليل على ردها، وقال: لا تقولوا شــيئاً من ذلك إلا أعلم أنه كذب، قالوا: فقل أنت وأقم لنا فيه رأياً نجتمع عليه، قال: أقرب ذلك إليه السـحر، هو يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وزوجه وعشـيرته، فافترقوا على ذلك، وكان قوله هذا سبب هلاكه فكان كما قال بعضهم:

احفظ لسانك أيها الإنسان *** لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه *** كانت تخاف لقاءة الشجعان

▲ تفسير الآيات رقم [26- 30]

{سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)}

ولما انقضى بيان عناده فحصل التشوف لتفصيل جزائه في معاده، قال مبيناً لبعض ما أفهمه إرهاقه الصعود: {سأصليه} أي بوعيد لا بد منه عن قرب {سقر *} أي الدركة النارية التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجل عن الوصف، فأدخله إياها وألوّحه في الشدائد حرها وأذيب دماغه بها، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها جزاء على تفكيره، هذا الذي قدره وتخيله وصوره بإدارته في طبقات دماغه ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه.

ولما أثبت له هذا العذاب عظمه وهوله بقوله: {وما أدراك} أي أعلمك وإن اجتهدت في البحث {ما سقر *} يعني أن علم هذا خارج عن طوق البشر لا يمكن أن يصل إليه أحد منهم بإعلام الله له لأنه أعظم من أن يطلع عليه بشر. ولما أثبت لها هذه العظمة، زادها عظماً ببيان فعلها دون شرح ماهيتها فقال: {لا تبقى} أي سقر هذه لا تترك شيئاً يلقى فيها على حالة البقاء على ما كان عليه {ولا تذر *} أي تترك على حالة من الحالات ولو كانت أقبح الحالات فضلاً عما دونها، بل هي دائمة الإهلاك لكل ما أذن فيه والتغيير لأحوال ما أذن لها في عذابه، ولم يؤذن في محقه بالكلية، لكل شيء فترة وملال دونها.

ولما كان تغير حال الإنسان إلى دون ما هو عليه غائطاً له موجعاً إذا كان ذلك تغير لونه لأن الظاهر عنوان الباطن، قال الله تعالى دالاً على شدة فعلها في ذلك: {لواحة} أي شديدة التغيير بالسواد والزرقة واللمع والاضطراب

والتعطيش ونحوها من الإفســاد من شــدة حرها، تقول العرب: لاحت النار الشيء- إذا أحرقته وسودته {للبشر *} أي للناس أو لجلودهم، جمع بشرة وجمع البشـــر أبشـــار {عليها} أي مطلق النار بقرينة ما يأتي من الخزنة {تسـعة عشـر *} أي ملكاً، لطبقة المؤمنين وهي العليا ملك واحد، وللسـت الباقية ثمانية عشـر، لكل واحدة ثلاثة، لأن الواحد يؤازر بثان، وهما يعززان بثالث، فلذا والله أعلم كانوا ثلاثة، أو لأن الكفر يكون بالله وكتابه ورســـوله صـــلى الله عليه وســلم، فكان لكل تكذيب في كل طبقة من طبقاتها الســت ملك أو صنف من الملائكة، وعلى الأول في كونهم أشخاصاً بأعيانهم أكثر المفسرين، وقد علم مما مضـى أنهم غلاظ شداد كل واحد منهم يكفي لأهله الأرض كلهم كما أن ملكاً واحداً وكل بقبض جميع الأرواح، وجاء في الآثار أن أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصـــياصـــي، يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، نزعت منهم الرحمة، يدفع أحدهم ســـبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم، قال عمرو بن دينار: إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة أكثر من ربيعة ومضر.

وقيل: إن هذه العدة لمكافأة ما في الإنسـان من القوى التي بها ينتظم قوامه، وهي الحواس الخمس الظاهرة: الســمع والبصـــر والشـــم والذوق واللمس، والخمس الباطنة: المتخيلة والواهمة والمفكرة والحافظة والذاكرة، وقوتا الشـهوة والغضـــب، والقوى الطبيعية السـبع: الماسـكة والهاضـمة والجاذبة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة، وقيل: اختير هذا العدد لأن التسـعة نهاية الآحاد، والعشرة بداية العشرات، فصـار مجموعهما جامعاً لأكثر القليل وأقل الكثير،

فكان أجمع الأعداد، فكان إشـــارة إلى أن خزنتها أجمع الجموع، ويروى عن ابن مســـعود رضـــي الله عنه أن قراءة البســـملة تنجي من خزنة النار فإنها تسعة عشر حرفاً، كل حرف منها لملك منهم.

▲ تفسير الآية رقم [31]

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْـحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْـــتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31)}

ولما كان هذا غير مميز للمعدود، وكانت الحكمة في تعيين هذا العد غير ظاهر، وكان هذا العدد مما يســـتقله المتعنت فيزيده كفراً، قال تعالى مبيناً لذلك: {وما جعلنا} أي بما لنا من العظمة وإن خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه {أصـحاب النار} أي خزنتها {إلا ملائكة} أي إنهم ليسـوا من جنس المعذبين فيرقوا لهم ويطيق المعذبون محاولتهم أو يسـتريحوا إليهم وهم أقوى الخلق، وقد تكرر عليكم ذكرهم وعلمتم أوصــافهم وأنهم ليســو كالبشـر بل الواحد منم يصـــيح صـــيحة واحدة فيهلك مدينة كاملة كما وقع لثمود، فكيف إذا كا كل واحد من هؤلاء الخزنة رئيســـاً تحت يده من الجنود ما لا يحصـــيه إلا الله تعالى {وما جعلنا} على ما لنا من العظمة {عدتهم} أي مذكورة ومحصـــــورة فيما ذكرنا {إلا فتنة} أي حالة مخالطة مميلة محيلة {للذين كفروا} أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى الوجوه، فإنهم يستقلونه

ويســــتهزئون به ويتعنتون أنواعاً من التعنت بحيث إن بعض أغبياء قريش وهو أبو جهل، قال: ثكلتكم أمهاتكم، أســمع ابن أبي كبشــة يقول كذا وأنتم ألدهم، أيعجز كل عشــرة منكم أن يبطشــوا برجل منهم، فقال أبو الأشــد بن أسيد بن كلدة الجمحي– وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، وهذا كله على ســبيل الاســتهزاء، فإنهم مكذبون بالبعث الذي هذا من آثاره، وكان في علم أهل الكتاب أن هذه العدة عدتهم، وأن العرب إذا ســمعوا هذه العدة كانت ســبباً للشــك أكثرهم وموضــعاً للتعنت، فلذلك علق بالفتنة أو ب «جعلنا» قوله: {ليســتيقن} أي يوجد اليقين إيجاداً تاماً كأنه بغاية الرغبة {الذين أوتوا الكتاب} بناه للمفعول لأن مطلق الإيتاء كاف في ذلك من غير احتياج إلى تعيين المؤتي مع أنه معروف أنه هو الله، قال البغوي: مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر. {ويزداد الذين آمنوا} أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أدنى الوجوه إلى ما عندهم من الإيمان {إيماناً} بتصديق ما لم يعلموا وجه حكمته لا سيما مع افتتان غيرهم به وكثرة كلامهم فيه، فإن الإيمان بمثل ذلك يكون أعظم.

ولما أثبت لكل من الجاهل والعالم ما أثبت، أكده بنفي ضــــده مبيناً للفتنة فقال: {ولا يرتاب} أي يشك شكاً يحصل بتعمد وتكسب {الذين أوتوا الكتاب} لما عندهم من العلم المطابق لذلك، قال ابن برجان: وروى جابر بن عبد الله رضــي الله عنهما «إن قوماً من أهل الكتاب جاؤوا إليه في قضــية– فيها طول، وفيها أنهم ســالوه عن خزنة جهنم، فقال رســول الله صــلى الله عليه وسلم بيده هكذا وهكذا، في مرة عشرة وفي مرة تسعة، فقالوا: بارك الله فيك

يا أبا القاسـم، ثم سـألهم: ما خزنة الجنة؟ فسـكتوا هيبة ثم قالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخبزة من الدرمك«

{والمؤمنون} أي لا يرتاب الذين رســـخ الإيمان عندهم لما رأوا من الدلائل التي جعلتهم في مثل ضوء النهار {وليقول الذين} استقر {في قلوبهم مرض} أي شـــك أو نفاق وإن قل، ونزول هذه الســـورة قبل وجود المنافقين علم من أعلام النبوة، ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الأمور علة لمصـــــالح ناس وفســـاد آخرين، لأنه لا يســـأل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصـــودة لشيء بالقصد الأول، ثم يرتب عليها شيء آخر يكون قصده بالقصد الثاني تقول: خرجت من البلد لمخالفة أكثر ومخافة الشـــر لا يتعلق بها الغرض {والكافرون} أي ويقول الراســخون في الكفر الجازمون بالتكذيب المجاهرون به الســاترون لما دلت عليه الأدلة من الحق {ماذا} أي أي شــيء {أراد الله} أي الملك الذي له جميع العظمة {بهذا}: أي العدد القليل في جنب عظمته {مثلاً} أي من جهة أنه صــار بذلك مســتغرباً اســتغراب المثل، أو أن ذلك إشـارة إلى أنه ليس المراد به ظاهره بل مثل لشــيء لم يفهموه وفهموا أن بين استجماعه للعظمة وهذا العدد عناداً، وما علموا أن القليل من حيث العدد قد يكون أعظم بقوته من الكثير العدد، ويكون أدل على اســـتجماع العظمة.

ولما كان التقدير: أراد بهذا إضـــلال من ضـــل وهو لا يبالي، وهداية من اهتدى وهو لا يبالي، كان كأنه قيل: هل يفعل مثل هذا في غير هذا؟ فقال جواباً: {كذلك} أي مثل هذا المذكور من الإضـلال والهداية {يضـل الله} أي الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز {من يشــاء} بأي كلام شــاء {ويهدي}

بقدرته التامة {من يشـــاء} بنفس ذلك الكلام أو بغيره، وذلك من حكم جعل الخزنة تسـعة عشـر والإخبار عنهم بتلك العدة فإن إبراز الأحكام على وجه الغموض من أعظم المهلكات والمسعدات، لأن المنحرف الطباع يبحث عن عللها بحثاً متعنتاً، فإذا عميت عليه قطع ببطلان تلك الأحكام أو شـــك، وربما أبى الانقياد، وذلك هو سـبب كفر إبليس والمسـتقيم المزاج يبحث مع التسـليم فإن ظهر له الأمر ازداد تسـليماً وإلا قال: آمنت بذلك كل من عند ربنا- فكان في غاية ما يكون من تمام الانقياد لما يعلم ســـره- رزقنا الله التسليم لأمره وأعاننا على ذكره وشكره.

ولما كان هذا مما يوهم قلة جنوده تعالى، أتبعه ما يزيل ذلك فقال: {وما} أي والحال أنه ما {يعلم جنود ربك} أي المحسن إليك بأنواع الإحسان المدبر لأمرك بغاية الإتقان من جعل النار وخزنتها وجعلهم على هذه العدة وغير ذلك، فلا تعلم عدتهم لأجل كثرتهم وخروجهم عن طوق المخلوق وما هم عليه من الأوصـــاف في الأجســـاد والمعاني {إلا هو} أي الملك الأعظم المحيط بصـــفات الكمال، فلو أراد لجعل الخزنة أكثر من ذلك، فقد روي أن البيت المعمور يدخله كل يوم ســـبعون ألفاً من الملائكة لا تعود إليهم نوبة أخرى، وقد ورد أن الأرض في السـماء كحلقة ملقاة في فلاة وكل سـماء في التي فوقها كذلك، وقد ورد في الخبر: أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم يصلي.

وإنما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها إلا هو، ومن أراد إطلاعه على ذلك من عباده مع أن الكفاية تقع بدون ذلك، فقد كان في الملائكة من اقتلع

مدائن قوم لوط وهي سبع ورفعها إلى عنان السماء، وكل ما في الإنسان من الجواهر والإعراض من جنود الله لو سلط عليه شيء من نفسه لأهلكه: لو تحرك عرق ساكن أو سكن متحرك أو انسد مجوف أو تجوف منسد لهلك.

ولما ذكر شيئاً من أسرار سوق الأخبار عنها غامضاً، وكان ذلك من رحمة العباد ليفتح لهم باباً إلى التسليم لما يغمض من تذكيرهم بأمر مليكهم لأن العاجز لا يسعه في المشي على قانون الحكمة إلا التسليم للقادر وإلا أهلك نفسه وما ضر غيرها، خص أمرها في التذكير تأكيداً للإعلام تذكيراً بالنعمة لأجل ما لأغلب المخاطبين من اعوجاج الطباع المقتضي للرد والإنكار، المقتضي لسوق الكلام على وجه التأكيد فقال: {وما هي} أي النار التي هي من أعظم جنوده سبحانه وتعالى: {إلا ذكرى للبشر} أي تذكرة عظيمة لكل من هو ظاهر البشرة فبدنه أقبل شيء للتأثر بها لأجل ما يعرفون منها في دنياهم، وإلا فهو سبحانه وتعالى قادر على إيجاد ما هو أشد منها وأعظم وأكثر إيلاماً مما لا يعلمه الخلائق.

▲ تفسير الآيات رقم [32- 41]

{كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)}

ولما كان حصـــرها في الذكرى ربما أوهم نقصـــاً في أمرها يوجب لبعض المعاندين ريبة في عظمه وأنه لا حقيقة لها ولا عذاب فيها، قال رادعاً من ذلك ومنبهاً على الاستعداد والحذر بكلمة لاردع والتنبيه: {كلا} أي إياك أن ترتاب في أهوالها وعظيم أمرها وأحوالها وأوجالها لأن الأمر أطم وأعظم مما يخطر بالبال، فليرتدع السامع ولينزجر.

ولما حصـر أمرها في الذكرى ونفى أن يظن بها نقص فيما جعلت له تأكيداً للكلام إشـارة إلى ما لأغلب المخاطبين من الشـكاسـة والعوج إيقاظاً مما هم فيه من الغفلة وتلطيفاً لما لهم من اللوم والكثافة وتنبيهاً لهم على السـعي في تقويم أنفسـهم بما يسـتعملونه من الأدوية التي يرشـدهم سـبحانه إلى علاج أمراض القلوب بها، زاد الأمر تأكدياً فأقســم على ذلك بما هو ذكرى للناس ولا يظهر معه ظلام الليل كما أن ضـــياء القرآن لا يظهر معه ظلام الجهل من أعمل عين فكرته، وألقى حظوظ نفســه، فقال: {والقمر *} أي الذي هو آية الليل الهادية لمن ضــل بظلامه {والليل إذا أدبر *} أي مضـــى فانقلب راجعاً من حيث جاء فانكشف ظلامه فزال الجهل بانكشافه، وانصرفت الريب والشـكوك بانصـرافه {والصـبح إذا أسـفر *} أقبل ضـياؤه فجل العلم بحلوله، وحصلت الهداية بحصوله، أو دبر بمعنى «أقبل» قال قطرب: تقول العرب: دبرني فلان أي جاء خلفي.

ولما أقســـم على ما أخبر بـه من ذكراها، وأكده لإنكارهم العظيم لبلاياها اسـتأنف تعظيمها والتخويف منها تأكيداً للتخويف لما تقدم من الإنكار فقال: {إنها} أي النار التي سـقر دركة من دركاتها، وزاد في التأكيد على مقتضـى

زيادتهم في الاستهزاء فقال: {لإحدى الكبر *} أي من الدواهي والعظائم، جمع كبيرة وكبرى، وهو كناية عن شدة هولها كما يقول: هو أحد الرجال أي لا مثل له، أو المراد بها واحدة سبع هي غاية في الكبر أي دركات النار، وهو جهنم فلظى فالحطمة فالسعير فسقر فالجحيم فالهاوية، هي إحداها في عظيم أقطارها وشديد إيلامها وإضرارها، حال كونها {نذيراً} عظيماً أو من جهة نذارتها أو إنذاراً بالغاً: فعيل بمعنى المصدر مثل {فكيف كان نكير} [الملك: 18] أي إنكاري، وعبر بقوله: {للبشر *} لما تقدم من الإشارة إلى إسراع الجسم العادي في قبول التأثر لا سيما بالنار.

ولما كان التقدم عند الناس لا سيما العرب محبوباً والتأخر مكروهاً، وكان سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان قوة واختياراً بها يفعل ما قدره الله له وغطى عنه علم العاقبة حتى صار الفعل ينسب إليه وإن كان إنما هو بخلق الله، قال تعالى باعثاً لهم على الخير ومبعداً من الشر مستأنفاً أو مبدلاً جواباً لمن يقول: وما عسى أن نفعل؟ أو ينفع الإنذار وقد قال إنه هو الهادي المضل {يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء} {لمن شاء} أي بإرادته، وصرح بالمقصود لئلا يتعنت متعنتهم فيقول: المراد غيرنا، فقال: {منكم} أي أيها المعاندون {أن يتقدم} أي إلى الخيرات {أو يتأخر *} أي عنها فيصل إلى غضب الله تعالى والنار التي هي أثر غضبه، التي جعل ما عندنا من مؤلم الحر ومهلك البرد متأثراً عن نفسيها تذكيراً لنا ورحمة بنا، وحذف المفعول لأن استعماله كثير حتى صار يعرف وإن لم يذكر، وترجمة ذلك: لمن شاء أن يتقدم التقدم بما له من المكنة والاختيار في ظاهر الأمر،

ولمن شاء أن يتأخر التأخر، و{أن يتقدم} مبتدأ، وهو مثل «لمن يتوضأ أن يصلي» ويجوز أن تكون الجملة بدلاً من «للبشر» على طريق الالتفات من الغائب إلى الحاضر ليصير كل مخاطب به كأنه هو المقصود بذلك بالقصد الأول فيتأمل المعنى في نفسه فيجده صادقاً ثم يتأمل فلا يجد مانعاً من تعديته إلى غيره من جميع البشر، ويكون «أن» والفعل على هذا مفعولاً ل «شاء».

ولما كان التقدم والتأخر بالأفعال، وكان أكثر أفعال الإنسان الشر لما جبل عليه من النقصان، قال مبيناً لما يقدم وما يؤخر {كل نفس} أي ذكر أو أنثى على العموم {بما كسبت} أي خاصة لا بما كسب غيرها {رهينة *} أي مرتهنة بالفعل، اسم بمعنى. الرهن كما في قول الحماسي:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب *** رهينة رمس ذي تراب وجندل

لا تأنيث «رهين» الذي هو وصف، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي مذكره ومؤنثه، ولو كانت الفواصل التي يعبرون بها عن السجع تأدباً تراعى في القرآن بوجه لقيل: رهين- لأجل يمين، ولكن لا نظر فيه لغير المعنى، ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة بمعنى موثقة إيثاقاً بليغاً محبوسة حبساً عظيماً فهي في النار، فجعل الأصل في الكسب الموثق.

ولما كان الرهن تارة يفك وتارة يغلق، وكان أكثر الخلق هالكاً، جعل رهينة بمعنى هالكة، ثم استثنى الممدوح فقال: {إلا أصحاب اليمين *} أي الذين تقدم وصفهم وهم الذين تحيزوا إلى الله فائتمروا بأوامره وانتهوا بنواهيه، فإنهم لا يرتهنون بأعمالهم، بل يرحمهم الله فيقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

ولما أخرجهم عن حكم الارتهان الذي أطلق على الإهلاك لأنه سببه، استأنف بيان حالهم فقال: {في جنات} أي بساتين في غاية العظم لأنهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فلم يرتهنوا، فالآية من الاحتباك: أثبت أولاً الارتهان دليلاً على حذف ضده ثانياً، وأثبت ثانياً الجنة دليلاً على حذف ضدها أولاً.

ولما كان السؤال عن حال الغير دالاً دلالة واضحة على الراحة والفراغ عن كل ما يهم النفس، عبر عن راحتهم في أجل وعظ وألطف تحذير بقوله: {يتساءلون *} أي فيما بينهم يسأل بعضهم بعضاً {عن المجرمين *} أي أحوال العريقين في قطع ما أمر الله به أن يوصل.

▲ تفسير الآيات رقم [42- 50]

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50)}

ولما كان يوم القيامة في غاية الصعوبة وكان أحد مشغولاً بنفسه، فكان لا علم له بتفاصيل ما يتفق لغيره، وكان أولياء الله إذا دخلوا دار كرامته أرادوا العلم بما فعل بأعدائهم فيه سبحانه، فتساءلوا عن حالهم فقال بعضهم لبعض: لا علم لنا، فكشف الله- لهم عنهم حتى رأوهم في النار وهي تسعر بهم ليقر الله أعينهم بعذابهم، زيادة في نعيمهم وثوابهم، كما تقدم في الصافات عند قوله {قال قائل منهم إني كان لي قرين} [الصافات: 51]

وكان بساط- الكلام دالاً على هذا كله، أشار لنا سبحانه إليه بقوله حكاية عما يقول لهم أولياؤهم توبيخاً وتعنيفاً وشماتة وتقريعاً تصديقاً لقوله تعالى {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون} [المطففين: 34] الآية، ولتكون حكاية ذلك موعظة للسامعين وذكرى للذاكرين: {ما} هي محتملة للتوبيخ والتعجيب {سلككم} أي أدخلكم أيها المجرمون إدخالاً هو في غاية الضيق حتى كأنكم السلك في الثقب {في سقر *} فكان هذا الخطاب مفهماً لأنهم لما تساءلوا نفوا العلم عن أنفسهم، وكان من المعلوم أن نفي العلم لأنهم شغلوا عن ذلك بأنفسهم وأنهم ما شغلوا- مع كونهم من أهل السعادة- إلا لأن ذلك اليوم عظيم الشواغل، وكان من المعلوم أنه إذا تعذر عليهم علم أحوالهم من أهل الجنة وهم غير مريدين الشفاعة فيهم فلم يبق لهم طريق إلى علم ذلك لا يظن به التعريض للشفاعة إلا السؤال منهم عن أنفسهم في أنهم يخاطبونهم بذلك فيعلمون علمهم ليزدادوا بذلك غبطة وسروراً بما نجاهم الله من مثل حالهم ويكثروا من الثناء على الله تعالى بما وفقهم له وليكون ذلك عظة لنا بسماعنا إياه فحكى الله أنهم لما سألوهم {قالوا} ذاكرين علة دخولهم النار بإفساد قوتهم العملية في التعظيم لأمر الله فذلكة لجميع ما تقدم من مهمات السورة بما حاصله أنهم لم يتحلوا بفضيلتين ولم يتخلوا عن رذيلتن تعريفاً بأنهم كانوا مخاطبين بفروع الشريعة، وفي البداءة بالعمل تنبيه على أنه يجب على العاقل المبادرة إلى ما يأمره به الصادق لأنه المصدق لحسن الاعتقاد، والمبادرة إلى التلبس بالعمل أسهل من المبادرة إلى التلبس بالعلم، لأن العمل له صورة وحقيقة، ومطلق التصوير أسهل من التحقيق،

ومن صور شيئاً كان أقرب إلى تحقيقه ممن لم يصوره، فكان أجدر بتحقيقه ممن لم يباشر تصويره، ففيه حث على المسابقة إلى الأعمال الصالحة وإن لم تكن النية خالصة، وإيذان بأن من أدمن ترك الأعمال قاده إلى الانسلاخ من حسن الاعتقاد، وورطه في الضلال، {لم نك} حذفوا النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق حتى بحرف يمكن الاغتناء عنه، ودلالة على أنه لم يكن لهم نوع طبع جيد يحثهم على الكون في عداد الصالحين، وكان ذلك مشيراً إلى عظيم ما هم فيه من الدواهي الشاغلة بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل لهم على السؤال عن أحوال غيرهم، وكان ذلك منبهاً على فضيلة العلم: {من المصلين *} أي صلاة يعتد بها، فكان هذا تنبيهاً على أن رسوخ القدم في الصلاة مانع من مثل حالهم، وعلى أنهم يعاقبون على فروع الشريعة وإن كانت لا تصح منهم، فلو فعلوها قبل الإيمان لم يعتد بها، وعلى أن الصلاة أعظم الأعمال، وأن الحساب بها يقدم على غيرها.

ولما نفوا الوصلة بالخالق، أتبعوه إفساد القوة العملية بعدم وصلة الخلائق بترك الشفقة على خلق الله فقالوا: {ولم نك} بحذف النون أيضاً لما هم فيه من النكد ونفياً لأدنى شيء من الطبع الجيد {نطعم المسكين *} أي لأجل مسكنته، نفوا هنا وجود إطعامه لأنهم إن اتفق إطعامهم له فلعلة أخرى غير المسكنة، وأما الصلاة فهم يوجدونها لله بزعمهم، لكن لما كانت على غير ما أمروا به لم تكن مقبولة فلم يكونوا من الراسخين في وصفها. ولما سلبهم التحلي بلباس الأولياء أثبت لهم التحلي بلباس الأشقياء بإفساد القوة النطقية

جامعاً القول إلى الفعل فقالوا: {وكنا} أي بما جبلنا عليه من الشر {نخوض} أي نوجد الكلام الذي هو في غير مواقعه ولا علم لنا به إيجاد المشـــــي من الخائض في ماء غمر {مع الخائضين *} بحيث صار لنا هذا وصفاً راسخاً فنقول في القرآن: إنه سحر، وإنه شعر، وإنه كهانة وغير هذا من الأباطيل، لا نتورع عن شـيء من ذلك، ولا نقف مع عقل، ولا نرجع إلى صـحيح نقل، فليأخذ الذين يبادرون إلى الكلام في كل ما يسـألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا.

ولما كان الإدمان على الباطل يجر إلى غلبة الهزء والســـخرية، وغلبه ذلك ولا بد توجب إفساد القوة العلمية بتصديق الكذب وتكذيب الصدق، قالوا بياناً لاستحبابهم الخلود: {وكنا نكذب} أي بحيث صـار لنا ذلك وصـفاً ثابتاً {بيوم الدين *} ولما كان التقدير: واستمر تكذيبنا لصيرورته لنا أوصافاً ثابتة. بنوا عليه قولهم: {حتى أتانا} أي قطعاً {اليقين *} أي بالموت أو مقدماته التي قطعتنا عن دار العمل فطاح الإيمان بالغيب.

ولما أقروا على أنفســـهم بما أوجب العذاب الدائم، فكانوا ممن فســـد مزاجه فتعذر علاجه، سـبب عنه قوله: {فما تنفعهم} أي في حال اتصــافهم بهذه الصـفات وهي حالة لازمة لهم دائماً {شـفاعة الشـافعين *} أي لو شـفعوا فيهم. ولما كان هذا الإخبار بنعيم المنعم وعذاب المعذب موجباً للتذكر، سبب عنه الإنكار عليهم فقال: {فما} أي أيّ شـيء يكون {لهم} حال كونهم {عن التذكرة} أي التذكر العظيم خاصــة بالقرآن خصــوصــاً وبغيره عموماً {معرضـــين *} وعلى الباطل وحده مقبلين، وذلك من أعجب العجب، لأن

طبع الإنسان إذا حذر من شيء حذره أشد الحذر كما لو حذر المسافر من سبع في طريقه فإنه يبذل جهده في الحيدة عنه والحذر منه وإن كان المخبر كاذباً، فكيف يعرضون عن هذا المحذور الأعظم والمخبر أصدق الصادقين، فإعراضـــهم هذا دليل على اختلال عقولهم واختبال فهومهم، وزاد ذلك عجباً شدة نفارهم حتى {كأنهم} في إعراضهم عن التذكرة من شدة النفرة والإسراع في الفرة {حمر} أي من حمر الوحش وهي أشـد الأشـياء نفاراً، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل بسرعة السير بالحمر في عدوها إذا وردت ماء فأحسـت عليه ما يريبها، وفي تشـبيه الكفرة بالحمر ولا سـيما في هذه الحالة مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين، وشـــهادة عليهم بالبله وقلة العقل وعدم التثبت {مســـتنفرة *} أي موجدة للنفار بغاية الرغبة فيه حتى كأنها تطلبه من أنفسـها لأنه من شـأنها وطبعها- هذا على قراءة الجماعة، وقرأ أهل المدينة والشام بالفتح بمعنى أنه نفرها منفر.

▲ تفسير الآيات رقم [51- 56]

{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآَخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)}

ولما كان ذلك لا يكون إلا لسبب عظيم يتشوف إليه، استأنف قوله: {فرت من قسورة *} أي أسد شديد القسر عظيم القهر فنشبت في حبائل سقر أو صيادين.

ولما كان الجواب قطعاً: لا شيء لهم في إعراضهم هذا، أضرب عنه بقوله: {بل يريد} أي على دعواهم وبزعمهم {كل امرئ منهم} أي المعرضين، مع ادعائه الكمال في المروءة {أن يؤتى} أي من السماء بناه للمفعول لأن مرادهم معروف {صحفاً} أي قراطيس مكتوبة {منشرة *} أي كثيرة جداً وكل واحد منها منشور لا مانع من قراءته وأخذه، وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لن نتبعك حتى تأتي كلاًّ منا بكتاب من السماء فيه: من الله إلى فلان اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولما كان ذلك إنما هو تعنت، لا أنه على حقيقته قال: {كلا} أي ليس لهم غرض في الاتباع بوجه من الوجوه لا بهذا الشرط ولا بغيره: {بل} علتهم الحقيقية في هذا الإعراض أنهم {لا يخافون} أي في زمن من الأزمان {الآخرة *} ولما كان فعلهم هذا فعل من يعتقد في القرآن أنه ليس بوعظ صحيح يستحق أن يتبع، قال رادعاً لهم عن هذا اللازم: {كلا} أي ليس الأمر قطعاً كما تزعمون من أن هذا القرآن لا يستحق الإقبال، ثم أستأنف قوله مؤكداً لأجل ما تضمن هذا الفعل من إنكارهم: {إنه} أي القرآن {تذكرة *} أي موضع وعظ عظيم يوجب إيجاباً عظيماً اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه فليس لأحد أن يقول: أنا معذور لأني لم أجد مذكراً ولا معرفاً فإن عنده أعظم مذكر وأشرف مفرق.

ولما كان في غاية السهولة والحلاوة لكل من عرفه بوجه من الوجوه، وكان الله سبحانه قد خلق القوى والقدر، وجعل للعبد اختياراً، قال مسبباً عن كونه موضعاً للتذكر: {فمن شاء} أي أن يذكره {ذكره *} فثبت في صدره وعلم

معناه وتخلق به، فليس أحد يقدر أن يقول: إنه صعب التركيب عظيم التعقيد عسـر الفهم، يحتاج في اسـتخراج المعاني منه إلى علاج كبير وممارسـة طويلة فأنا معذور في الوقوف عنه، بل هو كالبحر الفرات، من شـاء اغترف، لأنه خوطب به أمة أمية لا ممارسـة لها لشـيء من العلوم، فسـهل في لفظه ومعناه غاية السـهولة مع أنه لا يوصـل إلى قراره ولا يطمع في مناظرة أثر من آثاره، بل كلما زاد الإنسان فيه تأملاً زاده معاني.

ولما كان هذا ربما أوهم أن للعبد اسـتقلالاً بالتصـرف، قال معلماً بأن هذا إنما هو كناية عما له من السـهولة والحلاوة والعذوبة التي توجب عشـقه لكل ذي لب منبهاً على ترك الإعجاب وإظهار الذل والالتجاء والافتقار إلى العزيز الغفار في طلب التوفيق لأقوم طريق: {وما يذكرون} أي ولا واحد منكم هذا القرآن ولا غيره في وقت من الأوقات {إلا أن يشاء الله} أي الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه، وهو صريح في أن فعل العبد من المشيئة، وما ينشأ عنها إنما هو بمشيئة الله.

ولما ثبت أنه سبحانه الفعال لما يريد وأنه لا فعل لغيره بدون مشيئته، وكان من المعلوم أن أكثر أفعال العباد مما لا يرضـيه، فلولا حلمه ما قدروا على ذلك، وكان عفو القادر مستحسناً، قال مبيناً لأنه أهل للرهبة والرغبة: {هو} أي وحده {أهل التقوى} أي أن يتقوه عباده ويحذروا غضـبه بكل ما تصـل قدرتهم إليه لما له من الجلال والعظمة والقهر، ويجوز أن يكون الضـمير للمتقي {وأهل المغفرة *} أي لأن يطلب غفرانه للذنوب لا سـيما إذا اتقاه المذنب لأن له الجمال واللطف وهو قادر ولا قدرة لغيره ولا ينفعه شـيء ولا

يضره شيء، فهو الحقيق بأن يجعل موضع الإنذار الذي أمر به أول السورة البشـــارة، ويوفق عباده لتكبيره وهجران الرجز، وكذا فعل ســـبحانه بقوم هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني في الأوسط والحاكم وأبو يعلى والبغوي والبزار عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه قرأ هذه الآية ثم قال: يقول الله: أنا أهل أن أتقي، فمن اتقى أن يشـــرك بي غيري فأن أهل أن أغفر له» وقال الترمذي وابن عدي والطبراني: تفرد به سهل بن أبي حزم القطعي، فقد رجع آخر السورة على أولها، وانطبق مفصلها على موصلها، بضم البشارة إلى النذارة، وصـــار كأنه قيل: أنذر العاصـــي فإنه أهل لأن يرجع إلى طاعاته، فيكون سبحانه أهلاً لأن يعود عليه بستر زلاته.

75 Qiyamah Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة القيامة

75

تفسير الآيات رقم [1- 7]

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7)}

لما ذكر سبحانه الآخرة أول سورة المدثر وخوف منها بالتعبير بالناقور وما تبعه، ثم أعاد أمرها آخرها، وذكر التقوى التي هي أعظم أسباب النجاح فيها والمغفرة التي هي الدواء الأعظم لها، وكان الكفار يكذبون بها، وكان سبحانه قد أقام عليها من الأدلة من أول القرآن إلى هنا تارة مع الإقسام وأخرى مع الخلو عنه ما صيرها في حد البديهيات، وكانت العادة قاضية بأن المخبر إذا كذبه السامع حلف على ما أخبره به، وكان الإقسام مع تحقق العناد لا

يفيد، أشار سبحانه وتعالى إلى أن الأمر قد صار غنياً عن الإقسام لما له من الظهور الذي لا ينكره إلا معاند، فقال مشيراً إلى تعظيمها والتهويل في أمرها بذكرها وإثبات أمرها بعدم الإقسام أو تأكيده: {لا أقسم} أي لا أوقع الإقسام أو أوقعه مؤكداً {بيوم القيامة *} على وجود يوم القيامة أو بسبب وجوده لأن الأمر غني فيه عن ذلك وعلى القول بأنه قسم هو مؤكد بالنافي، ودخوله في التأكيد سائغ بل شائع في كلامهم جداً، وجاز القسم بالشيء على وجوده إشارة إلى أنه في العظمة في الدرجة العليا كما يقول الإنسان: والله إن الله موجود، أي لا شيء أحلف به على وجوده- يا أيها المنكر- أعظم منه حتى أحلف به ولا بد لي من الحلف لأجل إنكارك فأنا أحلف به عليه، فالمعنى حينئذ أنه لا شيء أدل على عظمة الله من هذين الشيئين فلذا أوقع القسم بهما، وسر التأكيد ب «لا»- كما قال الرازي في اللوامع، إن الإثبات من طريق النفي آكد كأنه رد على المنكر أولاً ثم أثبت القسم ثانياً، فإن الجمع بين النفي والإثبات دليل الحصر.

ولما كان من المقرر المعلوم الذي هو في أقصى غايات الظهور أن من طلبه الملك طلب عرض وحساب وثواب وعقاب يلوم نفسه في كونه لم يبالغ في العمل بما يرضي الملك والإخلاص في موالاته، والتحيز إليه ومصافاته. وكان أكثر لوم النفس واقعاً في ذلك اليوم، وكان إدراكها للوم المرتب على إدراك الأمور الكلية والجزئية ومعرفة الخير والشر، والتمييز بينهما من أعظم الدلائل على تمام قدرة الخالق وكمال عظمته الموجب لإيجاد ذلك اليوم لإظهار عظمته وحكمه وحكمته قال {ولا أقسم بالنفس} على حد ما مضى

في أن الباء صـلة أو سـبب {اللوامة *} أي التي تلوم صـاحبها وهي خيرة وشـريرة، فالخيرة تكون سبباً للنجاة فيه والأخرى تكون سبباً للهلاك فيه، فإن لامت على الشـر أو على التهاون بالخير أنجت، وإن لامت على ضـد ذلك أهلكت، وكيفما كانت لا بد أن تلوم، وهي بين الأمارة والمطمئنة، فما غلب عليها منهما كانت في حيزه، قال الرازي في اللوامع : فالمطمئنة التي انقادت لأوامر الله، والأمارة المخالفة لها المتبعة للهوى، واللوامة هي المجاهدة، فتارة لها اليد وتارة عليها، وهي نفس الإنســـان خاصــــة لأنها بين طوري الخير والشـر والكمال والنقصـان والصـعود والهبوط والطاعة والعصـيان، قال الإمام السـهروردي في الباب السـادس والخمسـين من معارفه: وهي نفس واحدة لها صـــفات متغايرة، فالملائكة في درجة الكمال، والحيوانات الأخر في دركة النقصان.

ولهـذا جمع بين القيـامـة وبين اللوامـة، لأن الثواب والعقـاب للآدمي دون الملائكة والحيوانات العجم، واللوامة يشـــتد لومها في ذلك اليوم على عدم الخير أو عدم الزيادة منه، لا أقسـم على ذلك بهذا الذي هو من أدل الأمور على عظمته سبحانه فإن الأمر في ذلك غني عن القسم.

ولما كان التقدير قطعاً بما يرشد إليه جميع ما مضـى جواباً للقسم: إنك والله صـــادق في إنذارك فلا بد أن ينقر في الناقور بالنفخ في الصـــور . قال بانياً عليه بعد الإشارة إلى تعظيم أمر القيامة بما دل عليه حذف الجواب من أنها في وضـوح الأمر وتحتم الكون على حالة لا تخفى على أحد منكراً على من يشك فيها بعد ذلك: {أيحسـب الإنسان} أي هذا النوع الذي يقبل على الأنس

بنفسه والنظر في عطفه والسرور بحسبه، وأسند الفعل إلى النوع كله لأن أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل إلا من عصم الله {أن} أي أنا.

ولما كان فيهم من يبالغ في الإنكار، عبر أيضاً بأداة التأكيد فقال: {لن نجمع} أي على ما لنا من العظمة {عظامه *} أي التي هي قالب بدنه وعماده من الأرض فيعيدها كما كانت بعد تمزقها وتفتتها وافتراقها وبلاها وانمحاقها، وقد سدت المخففة مسد مفعولي «يحسب» المقدرين ب «يحسبنا» غير جامعين.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم قوله مخبراً عن أهل الكفر {وكنا نكذب بيوم الدين} [المدثر: 46] ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى: {فإذا نقر في الناقور} [المدثر: 8] إلى قوله: {غير يسير} [المدثر: 9] والمراد به يوم القيامة، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله {ذرني ومن خلقت وحيداً} [المدثر: 11] الآيات ومن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم، ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله {ما سلككم في سقر} [المدثر: 42] فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى {يسأل أيان يوم القيامة} [القيامة: 6] وفي قوله تعالى: {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه} [القيامة: 3] ثم أتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم {ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر} [القيامة: 13] انتهى.

ولما أسند الحسبان إلى النوع لأن منهم من يقول: لا نبعث لأننا نتفتت وننمحق، قال مجيباً له: {بلى} أي لنجمعن عظامه وجمع أجزائه لأنا قدرنا

على تفصـــيل عظامه وتفتيتها من بعد ارتتاقها حال كونها نطفة واحدة لأن كل من قدر على التفصيل قدر على الجمع والتوصيل حال كوننا {قادرين} أي لما لنا من العظمة {على أن}.

ولما كانت تسوية الصغير أصعب، قال: {نسوي بنانه *} أي أصابعه أو سلامياته وهي عظامه الصغار التي في يديه ورجليه كل منها طول إصبع وأقل، خصـــها لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه بأن نجمع بعضـــها إلى بعض على ما كانت عليه قبل الموت ســـواء، فالكبار بطريق الأولى لأنها أبين، ولا فرق بيبن تسويتنا ذلك من النطفة وتسويتنا له من التراب، وهي لا تكون مسواة وهي قالب البدن إلا بتسوية ما عليه من لباس اللحم والعصب والجلد كما يعهدها العاهد، فتسوية البنان كناية عن تسوية جميع البنيان كما لو قيل لك : هل تقدر على تأليف هذا الحنظل، فقلت : نعم، وعلى تأليف الخردل، مع ما يفهم من تخصـــيصـــها من التنبيه على ما فيها من بديع الصنع المتأثر عنه ما لها من لطائف المنافع، أو أن نسويها الآن فنجمعها على ما كانت عليه حال كونها نطفة من الاجتماع قبل فتقها وتفريقها حتى تكون كخف البعير، فإن القادر على تفصـــيل الأنامل حتى تتهيأ للأعمال اللطيفة قادر على جمعها، فتزول عنها تلك المنفعة. ومن قدر على تفصيل الماء بعد اختلاطه وجمعه بعد انفصـــاله قادر على جمع التراب بعد افتراقه، وكيفما كان فهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيل الأنامل وبديع صنعها الموجب للقطع بأن صـــانعها قادر على كل ما يريد، قال في القاموس :

البنان: الأصـابع أو أطرافها. والسـلامى– وزن حبارى: عظام صـغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل.

ولما تقدم ما أشار إلى أن القيامة في غاية الظهور، أضرب عن هذا الإنكار فقال بانياً على ما تقديره: إنه لا يحسـب عدم ذلك لأنه من الظهور في حد لا يحتاج إلى كبير تأمل فلو مشـى مع عقله عرف الحق: {بل يريد} أي يوقع الإرادة {الإنسـان} أظهر في موضـع الإضـمار للتصـريح بالتعميم لمقتضـى الطبع الموجب له عدم الفكر في الآخر مع شـدة ظهورها لأنه معني بشـهواته فلا نجاة إلا بعصـمة الله تعالى، وحذف مفعول «يريد» إشـارة إلى أن كل ما يريده بمقضـتى طبعه وشـهواته خارج عن طوره فهو معاقب عليه لأنه عبد، والعبد يجب عليه أن يكون مراقباً للسـيد، لا يريد إلا مايأمره به، فإذا أراد ما أمره به لم تنسب إليه إرادة بل الإرادة للسيد لا له.

ولما كان ذلك، وكانت إرادته الخارجة الخارجة عن الأمر معصـية، قال معللاً: {ليفجر أمامه *} أي يقع منه الإرادة ليقع منه الفجور في المسـتقبل من زمانه بأن يقضـي شـهواته ويمضـي راكباً رأسـه في هواه، ونفسـه الكاذبة تورد عليه الأماني وتوسـع له في الأمل وتطمعه في العفو من دون عمل، قال الحسـن: المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسـه ويقول: ما أردت بكلامي؟ وما أردت بأكلي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها.

ويجوز أن يعود الضـمير على الله تعالى ليكون المعنى: ليعمل الفجور بين يدي الله تعالى وبمرأىً منه ومسمع ويطمع في أن لا يؤاخذه بذلك أو يجازيه بفجوره، قال في القاموس: والفجر: الانبعاث في المعاصي والزنا كالفجور.

ولما كان عريقاً في التلبس بهذا الوصــف، أنتج له الاســتهزاء بهذا الخطب الأعظم فترجم ذلك بقوله: {يسـئل} أي سـؤال اسـتهزاء واسـتبعاد، ويوضـع موضـع مفعول يسأل جملة اسمية من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر فقال: {أيان} أي أيّ وقت يكون {يوم القيامة *} ولما كان الجواب: يوم يكون كذا وكذا، عدل عنه إلى ما سبب عن استبعاده لأنه أهول، فقال دالاً على خراب العالم لتجرد الإنســـان عن مســـكنه وما ألفه من أحواله فيكون أهول معبراً بأداة التحقق لأنها موضـعها: {فإذا برق البصـر *} أي شـخص وقف فلا يطرف من هول ما يرى- هذا على قراءة نافع بالفتح، وهي إشـــارة إلى مبدأ حاله، وقراءة الجماعة بالكسـر مشـيرة إلى مآله فإن معناها: تحير ودهش وغلب، من برق الرجل- إذا نظر إلى البرق فحسـر بصـره وتفرق تفرق الشــيء في المايع إذا انفتح عنه وعاؤه بدليل قراءة بلق من بلق الباب- إذا انفتح، وبلق الباب كنصـر: فتحه كله، أو شـديداً كأبلقه فانبلق، وبلق كفرح: تحير- قاله في القاموس.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 12]

{وَخَسَـفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّـمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَـانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)}

ولما كانت آيات الســماوات أخوف، ذكرها بادئاً بما طبعه البرد، إشــارة إلى شــدة الحر والتوهج والأخذ بالأنفاس الموجب لشــدة اليأس فقال: {وخســف القمر} أي وجد خسفه بأن خسفه الله تعالى أذهب صورته كما تذهب صورة الأرض المخسوفة، وذلك بإذهاب ضوئه من غير سبب لزوال ربط المسببات

في ذلك اليوم بالأسباب وظهور الخوارق بدليل قوله: {وجمع} أي جمعاً هو في غاية الإحكام والشدة كما أفهمه التذكير وعلى أيسر الوجوه وأسهلها {الشمس} أي آية النهار {والقمر *} مع عدم إنارته وإن كان نوره الآن من نورها فذهب الانتفاع بهما وهما مع ذهاب النور وتفرق البصر مدركان لوجود الكشف التام عن الخفيات كما قال تعالى: {فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد} [ق: 22] وبعد جمعهما يلقيان في النار كأنهما ثوران عقيران، وبني الفعل للمفعول لأن المهول مطلق جمعهما المخرج لهما عن العادة وللدلالة على السهولة.

ولما عظم أمر القيامة بما تقدم، أكد ذلك بأن الأمر فيه على غير ما نعهده في الدنيا من وجدان مهرب أو حاكم غير الذي يخافه المطلوب أو شيء من تشعب الكلمة وتفرقها فقال: {يقول الإنسان} أي بشدة روعه جرياً مع طبعه {يومئذ} أي إذا كان هذا الخطب الأجل والقادح الأكبر، وحكى بيقول جملة اسمية من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر فقال: {أين المفر *} أي الفرار والموضع الذي إليه الفرار والزمان القابل لذلك، قول آيس مدهوش قاده إليه الطبع، وذلك حين تقاد جهنم بسبعين ألف سلسلة، كل سلسلة بأيد سبعين ألف ملك، لها زفير وشهيق.

ولما كان ذلك اليوم يوم انقطاع الأسباب، قال نافياً بما سال عنه بأداة الردع: {كلا} أي لا يقال هذا فإنه لا سبيل إلى وجود معناه وهو معنى {لا وزر *} أي ملجأ ومعتصم ولا حصن ولا التجاء واعتصام، وكون هذا من كلام الإنسان رجوعاً من طبعه إلى عقله أقعد وأدل على الهول لأنه لا يفهم

أنه بعد أن سـأل من عظيم الهول نظر في جملة الأمر فتحقق أن لا حيلة بوجه أصلاً، فقال معبراً بالأداة الجامعة لمجامع الردع.

ولما كان المعنى: لا مفر من الله إلا إليه، لأن ملكه محيط وقدرته شاملة، قال مترجماً عنه ذاكراً صفة الإحسان لوماً لنفسه على عدم الشكر: {إلى ربك} أي المحسن إليك بأنواع الإحسان وحده، لا إلى شيء غيره {يومئذ} أي إذ كانت هذه الأشياء {المستقر *} أي استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه إلى حكمه سبحانه ومشيئته ظاهراً وباطناً لا حكم لأحد غيره بوجه من الوجوه في ظاهر ولا باطن كما هو في الدنيا.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 17]

{يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ (17)}

ولما كان موضع السؤال عن علة هذا الاستقرار، قال مستأنفاً بانياً للمفعول لأن المنكئ إنما هو كشف الأسرار لا كونه من كاشف معين، وللدلالة على يسر ذلك عليه سبحانه وتعالى بأن من ندبه إلى ذلك فعله كائناً من كان: {ينبؤا} أي يخبر تخبيراً عظيماً مستقصىً {الإنسان يومئذ} أي إذ كان هذا الزلزال الأكبر {بما قدم} أي من عمله العظيم {وأخر *} أي في أول عمره وآخره- كناية عن الاستقصاء أو بما قدمه فآثره على غيره هل هو الشرع أو الهوى أو بما عمل في مدة عمره وبما أخر عمله لمعاجلة الموت له عنه فيخبر بما كان يعمله من أمله لو مد في أجله، أو الذي قدمه هو ما عمله

بنفسه وما أخره هو ما سنه فعمل به الناس من بعده من خير أو شر – قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه مشى الغزالي في الباب الثالث من كتاب البيع من الإحياء.

ولما عظم القيامة بكشف الأسرار فيها والإنباء بها، وكان الشأن أن الإنسان لا ينبأ إلا بما هو جاهل له أو غائب عنه، وكان مما يخف على الإنسان في الدنيا النسيان، وكان ذلك اليوم يوم كشف الغطاء، زاده عظماً بالإعلام بأنه يجلو بصيرة الإنسان حتى يصير مستحضراً لجميع ما له من شأن، فكان التقدير : وليس جاهلاً بشيء من ذلك ولا محتاجاً إلى الإنباء به، قال بانياً عليه: {بل الإنسان} أي كل واحد من هذا النوع {على نفسه} خاصة {بصيرة *} أي حجة بينة على أعماله، فالهاء للمبالغة– يعني أنه في غاية المعرفة لأحوال نفسه فإنه إذا تأمل وأنعم النظر ولم يقف مع الحظوظ عرف جيد فعله من رديئه، أما في الدنيا فلان الفطر الأولى شاهدة بالخير والشر– كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وترددت فيه النفس وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه الإمام أحمد عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»– رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأما في الآخرة فإن الله يعطيه في ذلك اليوم قوة الذكرى حتى تصير أعماله كلها بين عينيه لأنه تعالى ينفي عنه الشواغل البدنية ويكشف عنه الحجب النفسانية حتى تصير أعماله ممثلة له كأنه يراها ولا تنفعه معذرته، لأن كل

شيء يعتذر به عن نفسه يعرف كذبه بنفس وجوده لا بشيء خارج عنه تارة يكون خالقه أوجده على ما هو عليه من العلم وسلامة الأسباب المزيلة للعلل وتارة بإنطاق جوارحه.

ولما كان الإنسان يعتذر في ذلك اليوم عن كل سوء عمله، ويجادل أعظم مجادلة، وكان المجادل في الغالب يظن أنه لم يذنب أو لا يعلم له ذنباً، قال: {ولو ألقى} أي ذكر بغاية السرعة ذلك الإنسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتملق {معاذيره *} أي كل كلام يمكن أن يخلص به، جمع عذر أو معذرة وهو إيساع الحيلة في دفع الخلل: وقال في القاموس: المعاذير: الستور والحجج جمع معذار، وذلك لاشتراكهما في مطلق الستر بالفتح والستر بالكسر في ستر المذنب والحجة في ستر الذنب فالمعنى أنه حجة على نفسه ولو احتج عنها واجتهد في ستر عيوبها، فلا تقبل منها الأعذار، لأنه قد أعطى البصيرة فأعماها بهون النفس وشهواتها، وتلك البصيرة هي نور المعرفة المركوز في الفطرة الأولى وهي كقوله تعالى: {لا ينفع الظالمين معذرتهم}.

ولما كان معنى هذا كله أن الإنسان محجوب في هذه الدار عن إدراك الحقائق بما فيه من الحظوظ والكسل والفتور، لما فيه من النقائص، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مبرءاً من ذلك لخلق الله له كاملاً وترقيته بعد ميلاده كل يوم في مراقي الكمال حتى صار إلى حد لا يشغله عن العلوم شيء فكان بحيث يرى مواقع الفتن خلال البيوت كمواقع القطر، ويرى من ورائه كما يرى من أمامه، ويقول: «والله لا يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم

إني أراكم من وراء ظهري» وكان صلى الله عليه وسلم يرى في أشد الظلام وغير ذلك مما له صـــلى الله عليه وســـلم من رقة الجوهر الذي لم ينله أحد غيره، وذلك مما يدل على الكشــف التام ولكنه كان صـــلى الله عليه وســـلم لتعظيمه لهذا القرآن لما له في نفسه من الجلالة ولما فيه من خزائن السعادة والعلوم التي لا حد لها فتســـتقصـــى، ولأنه كلام الملك الأعظم، وبأمره نزل إليه صلى الله عليه وسلم مع رسوله جبريل عليه الصلاة والسلام، يعالج عند ســماعه أول ما يأتيه شــدة، فكان يحرك به لســانه اســتعجالاً بتعهده ليحفظه ولا يشــذ عنه منه شــيء، وكان قد ختم ســبحانه ما قبلها بالمعاذير، وكانت العجلة مما يعتذر عنه، وكان الحامل على جميع ما يوجب الملامة والاعتذار ما طبع عليه الإنســان من حب العاجل، قال ســبحانه نتيجة عن هذه المقدمات الموجبة لانكشــاف الأشــياء للإنســان الموجب للإخبار بها والخوف من عواقبها لئلا يميل إلى العاجلة ولا يقع في مخالفة لولا ما شــغله به من الحجب إعلاماً بأنه سبحانه وتعالى قد دفع عن النبي صلى الله عليه وسلم تلك الحجب وأوصله من رتبة «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» إلى أنهاها، وأنه قادر على ما يريد من كشف ما يريد لمن يريد كما يكشف لكل إنســـان عن أعماله في القيامة حتى يصـــير يعرف ما قدم منها وما أخر، وتنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم لا كسب له في هذا القرآن بغير حسن التلقي إبعاداً له عن قول البشـــر وتمهيداً بما يحرك من لســـانه بالقرآن قبل تمام الإلقاء لذم ما طبع عليه الإنســان: {لا تحرك به} أي القرآن الذي هو

تذكرة من شاء ذكره لولا حجاب المشيئة، وقد كشف سبحانه وتعالى حجاب المشيئة لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وشاء أن يذكره حين قال {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله} [الإنسان: 30] لأنه ما نزله إليه بغير اكتساب منه إلا وقد شاء ذلك {لسانك} الذي ليست له حركة إلا في ذكر الله تعالى.

ولما لم يكن لهذا التحريك فائدة مع حفظ الله له على كل حال إلا قصد الطاعة بالعجلة، وكانت العجلة هي الإتيان بالشيء قبل أوانه الأليق به، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم مثاباً على ذلك أعظم الثواب لأنه لا حامل له عليه إلا حب الله وحب ما يأتي منه، وجعلها الله سبحانه وتعالى علة وإن لم تكن مقصودة فقال: {لتعجل به} أي بحمله وأخذه قبل أن يفرغ من إلقاءه إليك رسولنا جبريل عليه الصلاة والسلام مخافة أن ينفلت منك، لأن هذه العجلة وإن كانت من الكمالات بالنسبة إليك وإلى إخوانك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: {وعجلت إليك رب لترضى} [طه: 84] لأنها من النفس اللوامة التي تلوم على ترك المبادرة إلى أفعال الخير فغيرها من أفعال المطمئنة أكمل منها، فنقل صلى الله عليه وسلم من مقام كامل إلى أكمل منه، وكان هذا الكلام المتعلق بالقرآن والذي بعده فرقاناً بين صفتي اللوامة في الخير واللوامة في الشر، والآية ناظرة إلى قوله تعالى في المدثر حكاية «إن هذا إلا قول البشر» وما بينهما اعتراض في وصف حال القيامة جر إليه قوله تعالى: {سأصليه سقر} [المدثر: 26] أي أن الذي خيل به المتقول في القرآن

أمران: أحدهما أنه سحر والآخر أنه قول البشر، والعلم اليقين حاصل بانتفاء الأول، وأما الثاني فكان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى أن لا يتقن حفظه فتدخل عليه كلمة مثلاً فيكون من قول البشـــر فنهاه الله تعالى عن العجلة وضـــمن له الحفظ، ثم علل هذا النهي بقوله مؤكداً لأنه من مجراته : {إن علينا} أي بما لنا من العظمة، لا على أحد سوانا {جمعه} أي في صدرك حتى نثبته ونحفظه {وقرآنه *} أي إطلاق لســانك به وإثباته في رتبته من الكتاب حال كونه مجموعاً أتم جمع ميسراً حسن تيسير فأرح نفسك مما تعالج في أمره من المشقة وتكابده من العناء.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 24]

{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24)}

ولما نهاه أمره فقال: {فإذا قرأناه} أي أقدرنا جبريل عليه الصلاة والسلام على تأديته إليك كما حملناه إياه بما لنا من العظمة وعلى حســبها {فاتبع} أي بغاية جهدك بإلقاء ســمعك وإحضــار ذهنك {قرآنه *} أي قراءته مجموعة على حسب ما أداه إليك رسولنا وجمعناه لك في صدرك، وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة واعمل به حتى يصير لك خلقاً فيكون قائدك إلى كل خير، فالضــمير يجوز أن يكون للقرآن، يكون القرآن هنا بمعنى القراءة، عبر به عنها تعظيماً لها، أي اتبع قراءة القرآن أي قراءة جبريل عليه السلام

له، ولو كان على بابه لم يكن محذوراً، فإن المراد به خاص وبالضمير عام، ويجوز أن يكون الضمير لجبريل عليه السلام أي اتبع قراءته ولا تراسله.

ولما كان بيان كلماته ونظومه على أي وجه سمعه من مثل صلصلة الجرس وغيرها وبيان معانيه وما فيه من خزائن العلم من العظمة بمكان يقصر عنه الوصف، أشار إليه بأداة التراخي، فقال دالاً على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة، مشعراً بأنه كان يعجل بالسؤال عن المعنى كما كان يعجل بالقراءة: {ثم} وأكد ذلك إشارة إلى أنه لعظمه مما يتوقف فيه فقال: {إن علينا} أي بما لنا من العظمة {بيانه *} أي بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء سمعته من جبريل عليه الصلاة والسلام على مثل صلصلة الجرس أو بكلام الناس المعتاد بالصوت والحرف، ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك، والآية مشيرة إلى ترك مطلق العجلة لأنه إذا نهى عنها في أعظم الأشياء وأهمها كان غيره بطريق الأولى، روى البخاري في تفسير الآية في أول صحيحه وآخره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفتيه، قال سعيد بن جبير: قال ابن عباس رضي الله عنهما: فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما» فأنزل الله عز وجل الآية حتى قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} [القيامة: 18] قال: فاستمع له وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه، قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام استمع مطرقاً فإذا انطلق جبريل عليه الصلاة والسلام قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه جبريل عليه

الصلاة والسلام كما وعده الله بكفالة قوله تعالى: {فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً} [الجن: 27– 28].

ولما كان سبحانه وتعالى قد ختم الكلام في المكذبين بأن أعمالهم محفوظة، وأن كل أحد على نفسه شاهد، لأنه يعلم جميل ما يفعل من قبيحه وإن اعتذر، ولولاه ما اشتد اتصاله به، وختم بضمان البيان للقرآن، فكان شاهداً بيناً على كل إنسان بما له من عظيم البيان.

قال نافياً لما يظن من جهلهم بقبيح أفعالهم الذي اقتضاه اعتذارهم مشعراً بأن الآدمي مطبوع على الاستعجال بعد النهي عن العجلة في أعز الأشياء وأعلاها وأهمها وأولاها، لأنه أصل الدين ليكون ذلك مؤكداً للنهي عن العجلة بالقرآن ومؤكداً لذمهم بحب العاجلة مغلظاً لتوبيخهم على الميل مع الطبع وترك ما يقتضيه العلم والعقل: {كلا} أي لا يجهل أحد منهم قبائح ما ارتكبه وإن اعتذر وما ارتكب شيئاً منها عن جهل {بل} هم {يحبون} أي محبة متجددة مستمرة على تجدد الزمان {العاجلة *} بدليل أنهم يقبلون غاية الإقبال عليها فيأخذونها، وحبّها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه فإن الآخرة والأولى ضرتان من أحب إحداهما فعل ولا بد ما يباعده عن الأخرى، فإن «حبك للشيء يعمي ويصم» وهذا بخلاف نبينا صلى الله عليه وسلم في مطلق العجلة فكيف بالعاجلة فإنما طبعناه على الكمال، فكان يعالج من العجلة بالقراءة شدة فحين نهيناه عن ذلك انتهى رجوعاً إلى طبعه الكامل الذي لا يشوبه نقص، وكذا كان أمره تكويناً لا إباء معه ولا كلفة، فإن نفسه

المطمئنة هي الغالبة ولها السلطان الأكبر، ولأجل تضارر الدارين وكونهم يحبون العاجلة قال: {وتذرون} أي يتركون على أي وجه كان ولو أنه غير مستحسن {الآخرة *} لانهم يبغضونها لارتكابهم ما يضربهم فيها، وجمع الضمير وإن كان مبنى الخطاب مع الإنسان نظراً نظراً للمعنى إشارة إلى أنه لا يسلم من العجلة المذمومة إلا أفراد حفظهم الله بقدرته الباهرة، والآية من الاحتباك: ذكر الحب أولاً دليلاً على البغض ثانياً، والترك ثانياً دليلاً على الإقبال والأخذ أولاً، فأنفسهم اللوامة تلومهم على التقصير في الشر كما أن نفسك تحثك على الازدياد من الخير والمبادرة إليه، فنعم النفس هي ولتعلين مقامها، وأما أنفسهم فإنها تحثهم لأجل اللوم على التقصير في الشر على الإخلاد إلى العاجل الفاني والإقلاع عن الباقي لكونه غائباً فبئس الأنفس هي.

ولما ذكر الآخرة التي أعرضوا عنها، ذكر ما يكون فيها بياناً بجهلهم وسفههم وقلة عقلهم، ترهيباً لمن أدبر عنها وترغيباً لمن أقبل عليها لطفاً بهم ورحمة لهم فقال: {وجوه} أي من المحشورين وهم جميع الخلائق {يومئذ} أي إذ تقوم القيامة {ناضرة *} من النضرة بالضاد، وهي النعمة والرفاهية أي هي بهية مشرقة ظاهر عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها {إلى ربها} أي المحسن لها خاصة باعتبار أن عُدَّ النظر إلى غيره كلا نظر {ناظرة *} أي دائماً هم محدقون أبصارهم نحو جوده بالتجلي لا غفلة لهم عن ذلك فإذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل جوده بالتجلي لا غفلة لهم عن ذلك فإذا رفع الحجاب عنهم أبصرره بأعينهم بدليل

التعدية ب «إلى» وذلك، النظر جهرة من غير اكتتام ولا تضـــامّ ولا زحام– كما قاله ابن عباس رضـــي الله عنهما وأكثر المفســرين وجميع أهل الســنة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحاح من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة، وتكون الرؤية كما مثلت في الأحاديث »كما يرى القمر ليلة البدر» كل من يريد رؤيته من بيته مخلياً به– هذا وجه الشبه، لا أنه في جهة ولا في حالة لها شبيه– تعالى الله عن التشبيه، وهكذا رؤية النبي صــلى الله عليه وســلم في المنام من الأشــخاص المســتكثرة في البلاد المتباينة في الوقت الواحد، وقدم الجار الدال على الاختصـاص إشـارة إلى هذا النظر مباين للنظر إلى غيره فلا يعد ذلك نظراً بالنســـبة إليه، وإلى أن تلك الوجوه مســتغرقة في مطالعة جماله بحيث لا تفتر عن ذلك، ولا يعد نظرها إلى ما ســواه شــيئاً، وهي آمنة من أن يفعل بها فاقرة، وعبر بالوجوه عن أصحابها لأنها أدل ما يكون على السرور، وليكون ذكرها أصرح في أن المراد بالنظر حقيقته، وزاده صـــــراحة بالتعدية ب «إلى» فإن الانتظار لا يعدى بها، قال الإمام حجة الإســـلام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب المحبة من الإحياء بعد أن جوّز أن يخلق الله النظر في الجهة وغيرها : والحق ما ظهر لأهل الســنة والجماعة من شــواهد الشــرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضــرورة– انتهى، وأهل الجنة متفاوتون في النظر : روي أن منهم من ينظر إلى الله بكرة وعشـــية، وفي خبر آخر، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في

جنة عدن، ومتفاوتون في مقدار الكشـــف في الجمال والأنس والبهجة التي يكون عنها اللذة بحسب أعمالهم.

ولما ذكر أهل النعمة، أتبعه أضـدادهم من أهل النقمة فقال: {ووجوه يومئذ} أي في ذلك اليوم بعينه {باسرة *} أي شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسـبت بعد أن سـبرت أحوالها، فلم يظهر لها وجه خلاص، والباسـل أبلغ من الباسـر لكنه غلب في الشـجاع لاشـتداد كلوحـه عنـد العراك، وتلك الوجوه عن ربها محجوبـة، وإلى أنواع العذاب ناظرة.

▲ تفسير الآيات رقم [25- 32]

{تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّـاقُ بِالسَّـاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32)}

ولما كان ظن الشـــر كافياً في الحذر منه والمبالغة في اســـتعمال ما يحمي منه، قال دالاً على أنه عبر بالوجه عن الجملة: {تظن} أي تتوقع بما ترى من المخايل: {أن يفعل} بناه للمفعول لأن المحذور وقوع الشـر لا كونه من معين {بها} أي بهم فإنه إذا أصـيب الوجه الذي هو أشـرف ما في الجملة كان ما عداه أولى {فاقرة *} أي داهية تكسر الفقار وهو عظم سلسلة الظهر الذي هو أصلب ما في العظام فتكون قاصمة الظهر، فالآية من الاحتباك: ذكر النظر في الأولى دليل على ضـــده في الثانية، وذكر الفاقرة في الثانية دليل على ضدها في الأولى.

ولما ذكر محبتهم للعاجلة بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار، فاقتضى ذلك أنه حب غيره منفك التجدد أصـــــلاً، أخبر أنه ينقطع عن هول المطلع مع الدلالة على تمام القدرة، وأنه لا يرد قضـــاؤه، فقال رادعاً لمن يظن عدم انقطاعه: {كلا} أي لا يدوم هذا الحب بل لا بد أن ينقطع انقطاعاً قبيحاً جداً. ولما كان المحب للدنيا هو النفس، أضـمرها لذلك ولدلالة الكلام عليها فقال ذاكراً ظرف ما أفهم حرف الردع تقديره من عدم المحبة: {إذا بلغت} أي النفس المقبلة على العاجلة بأمر محقق- بما أفهمته أداة التحقق {التراقي *} أي عظام أعالي الصدر، جمع ترقوة وهي العظام التي حول الحلقوم عن يمين ثغرة النحر وشمالها بين الثغرة وبين العاتق، ولكل إنسان ترقوتان، وهو موضع الحشرجة، لعله جمع المثنى إشارة إلى شدة انتشارها بغاية الجهد لما هي فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصـــي البدن إلى هناك وضـيق المجال عليها كأنها تريد أن تخرج من أدنى موضـــــع يقرب منها، وهذا كناية عن الإشـفاء على الموت وما أحسـن قول حاتم الطائي وأشـد التئامه مع ما هنا من أمر الروح:

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى *** إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ولما كان أهل الميت يشـــتد انزعاجهم إذ ذاك ويشـــتد تطلبهم لما ينجي المحتضـر من غير أن يفيدهم ذلك شـيئاً، فكان قولهم كأنه لا قائل له على التعيين، بني للمفعول قوله: {وقيل} أي من كل قائل يعز عليه الميت استفهام استبعاد: {من راق *} أي من هو الذي يتصف برسوخ القدم في أمر الرقى الشـافية ليرقيه فيخلصـــه مما هو فيه فإنه صـــار إلى حالة لا يحتمل

فيها دواء فلا رجاء إلا في الرقى، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما أن هذا القول من بعض الملائكة للاستفهام عمن يرقى بروحه إلى السماء: أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فالأول اســم فاعل من رقى يرقى بمعنى الرقية بالفتح في الماضـي والكسـر في المضـارع، والثاني الذي بمعنى الصـعود بالكسر في الماضي والكسر في المضارع.

ولما كان الإنسان مطبوعاً على الترجح بين الأمور الممكنة تتعلق لما يغلب عليه من طبع الإلف وشدة الركون لما يألفه بأدنى شيء، عبر عما هو أهل للتحقق بالظن فقال: {وظن} أي المحتضـر لما لاح له من أمور الآخرة أو القائل «هل من راق» من أهله {أنه} أي الشأن العظيم الذي هو فيه {الفراق *} أي لما كان فيه من محبوب العاجلة الذي هو الفراق الأعظم الذي لا فراق مثله، ففي الخبر أن العبد ليعالج كرب الموت وسـكراته وأن مفاصـله ليسـلم بعضـها على بعض يقول: السـلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة: {والتفت السـاق} أي هذا النوع {بالسـاق *} أي انضـمت إليها واتصلت بها ودارت إحداهما بالأخرى فكانتا كالشيء الواحد، وهو كناية عن الموت لأن المشي لا يكون إلا مع انفصال إحدى الساقين عن الأخرى، أو عن اشـتداد الأمر جداً وبعده عن الخلاص، فإن العرب لا تذكر السـاق في مثل هذا السياق إلا في أمر شديد مثل «شمر عن ساق» وإذا اشتد حراب المتحاربين: «دنت السـوق بعضـها من بعض» فلا افتراق إلى عن موت أحدهما أو أشد من موته من هزيمته، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما أنه

كناية عن اختلاط شـــدة آخر الدنيا بشـــدة أول الآخرة، وجواب إذا محذوف تقديره: زال تعلقه الذي كان بالدنيا وحبه لها وإعراضه عن الآخرة.

ولما صـــور وقت تأســفه على الدنيا وإعراضـــه عنها، ذكر غاية ذلك فقال مفرداً النبي صـلى الله عليه وسـلم بالخطاب إشـارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه غيره: {إلى ربك} أي موعد وحكم المحسن إليك بإرسالك وتصديقك في جميع ما بلغته عنه ونصرك على كل من ناواك، لا إلى غيره {يومئذ *} أي إذ وقع هذا الأمر {المساق *} أي السوق وموضع السوق وزمانه، كل ذلك داخل في حكمه، قد انقطعت عنه أحكام أهل الدنيا، فإما أن تسوقه الملائكة إلى سـعادة بينة وإما إلى شـقاوة بينة، أو هو كناية عن عرضـه بعد الموت على الله تعالى فلا ينفعه إذا حقق له الوعظ بالموت قوله: أموت فأســتريح، فإنه يرجع بالموت إلى ســيده، فإن كان مطيعاً لقيه بما يرضـــيه، وإن كان عاصياً لقيه بما يلقى به العبد الآبق على قدر إباقه.

ولما ذكر كراهته للآخرة ذكر أن ســببه إفســـاده ما آتاه الله من قوى العلم والعمل بتعطيلهما عن الخير واســتعمالهما في الشـــر فقال مبيناً عمل العبد الموافق والآبق، عاطفاً على {يســأل أيان} [القيامة: 6] الذي معناه جحد البعث: {فلا صدق}- أي هذا الإنسان الذي الكلام فيه- الرسول فيما أخبره بما كان يعمل من الأعمال الخبيثة، ولا إيمانه بالإنفاق في وجوه الخير التي ندب إليها واجبة كانت أو مسنونة، وحذف المفعول لأنه أبلغ في التعميم.

ولما ذكر أصل الدين، أتبعه فروعه دلالة على أن الكافر مخاطب بها فقال: {ولا صلّى *} أي ما أمر به من فرض وغيره، فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل إلى حبل الخلائق على حد ما شرع ما.

ولما نفى عنه أفعال الخير، أثبت له أفعال الشر فقال: {ولكن} أي فعل ضد التصديق بأن {كذب} أي بما أتاه من الله {وتولى *} أي وفعل ضد الصلاة التي هي صـــلة بين المخلوق والخالق، فاجتهد في خلاف ما تدعوه إليه فطرته الأولى المستقيمة من الإعراض عن الطاعة من الصلاة وغيرها حتى صـار له ذلك ديدناً، فصـارت الطاعة لا تخطر له بعد ذلك على بال لموت الفطرة الأولى وحياة النفس الأمارة بالسوء، وليس هذا بتكرار لأنه لا يلزم من عدم التصديق التكذيب.

▲ تفسير الآيات رقم [33- 40]

{ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)}

ولما كان الإصـــرار على هذا عظيماً يبعد كل البعد أن يعمله أحد فكيف بالافتخار به والتكبر لأجله، أشــار إليه بأداة البعد، فقال مؤذناً بأن الحال على التكذيب الكبر، والحامل على الكبر الترف، وسبب ذلك الانقياد أولاً مع الطبع في إفســاد القوتين : العملية والعلمية حتى نشــأ عنهما هذا الخلق السـيئ، وهو عدم المبالاة، ولم يزل به ذلك حتى صــار ملكة يفتخر به {ثم

ذهب} أي هذا الإنسان بعد توليه عن الحق {إلى أهله} غير مفكر في عاقبة ما فعل من التكذيب حال كونه {يتمطّى *} أي يفتخر افتخاراً بتكذيبه وإعراضـــه وعدم مبالاته بذلك، من المط، أبدل الحرف الثاني ألفاً تخفيفاً فصــــار من المطي وهو الظهر كأنه يســـاعده على مد الخطى، أو أن المتبختر إذا مشـــى لوى ظهره، وإنما فعل هذا لمرونه على المعصـــية بدل الاستحياء والخجل والانكسار.

ولما كان هذا غاية الفجور، وكان أهل الإنســـان يحبونه إذا أقبل إليهم لا ســـيما إذا كان على هذه الحالة عند أغلب الناس، أخبر بما هو حقيق أن يقال له في موضـــع «تحية أهله» من التهديد العظيم فقال: {أولى لك} أي أولاك الله ما تكره، ودخلت اللام للتأكيد الزائد والتخصـــيص، وزاد التأكيد بقوله: {فأولى *} أي ابتلاك الله بداهية عقب داهية، وأبلغ ذلك التأكيد إشارة إلى أنه يستحقه على مدى الأعصـار، فقال مشـيراً بأداة التراخي إلى عظيم ما ارتكب وقوة اسـتحقاقه لهذا التأكيد: {ثم أولى لك} أي أيها الذي قد أحل نفسه بالغفلة دون محل البهائم {فأولى *} أي وصلت إلى هذا الهلاك بداهية تعقبها تارة متوالياً وتارة متراخياً، وبعضـــها أعظم من بعض، لحقك ذلك لا محالة، فإن هذا دعاء ممن بيده الأمر كله، ويجوز أن يكون المعنى: أولى لك أن تترك ما أنت عليه وتقبل على ما ينفعك، وقال ابن جرير في تفســير المدثر: إن أبا جهل لما استهزأ على جعل خزنة النار تسعة عشر أوحى الله إلى النبي صـــلى الله عليه وســلم أن يأتيه فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له: أولى لك– إلى آخرها، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئاً، فأخزاه الله يوم بدر– انتهى. ويمكن تنزيل الكلمات الأربع على حالاته الأربع: الحياة ثم الموت ثم البعث ثم دخول النار، فيكون المعنى: لك المكروه الآن وفي الموت والبعث ودخول النار. قال البغوي: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل» وقد أفهمت الآية أن من أصلح قوتي علمه وعمله بأن صدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأقبل وأقام الصلاة فتبعتها جميع الأعمال التي هي عمادها، فنشأ عن ذلك خلق حسن وهو الوجل مع الطاعة، فهنالك يقال له: بشرى لك فبشرى ثم بشرى لك فبشرى.

ولما كان هذا فعل من أعرض عن الله أصلاً فلم يخطر شيئاً من عظمته على باله، فكان ظاناً أنه مهمل لا مالك له وأنه هو السيد لا عبودية عليه، فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعمل إلا بمقتضى شهواته، قال منكراً عليه معبراً بالحسبان الذي الحامل عليه نقص العقل: {أيحسب} أي أيجوز لقلة علقه {الإنسان} أي الذي هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى في نفسه وأبناء جنسه.

ولما كان الحامل على الجراءة مطلق الترك هملاً، لا كون الترك من معين، قال بانياً للمفعول: {أن يترك} أي يكون تركه بالكلية {سدى *} أي مهملاً لاعباً لاهياً لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الأعظم الذي خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى إليه، فإن ذلك منافٍ للحكمة، فإنها تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن المساوئ والجزاء على كل منهما، وأكثر

الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء، فاقتضت الحكمة ولا بد البعث للجزاء.

ولما كان الإنسان يجري على ما في طبعه من النقائص فيغفل عما خلق له فتتراكم عليه ظلماته فيبعد عن علم ذلك إما بجهل بالحكمة أو بجهل بالقدرة، رحمه سبحانه بإعادة البرهان على المعاد بأمر يجمع القدرة والحكمة، وذلك أنه لا يجوز في عقل عاقل أن صانعاً يصنع شيئاً ويتركه ضياعاً وهو حكيم أو حاكم فكيف بأحكم الحكماء والحاكمين فقال منكراً عليه ظنه أنه يهمله سبحانه مع علمه بصنائعه المحكمة فيه، مقرراً أحوال بدايته التي لا يسوغ معها إنكار إعادته لأنها أدل على أنه لا مانع منها أصلاً، حاذفاً نون الكون إعلاماً بأن الأمر في هذه النتيجة العظمى ضاق عن أقل شيء يمكن الاستغناء عنه كراهية التمادي من الموعوظ على ما وعظ لأجله فيحصل له الهلاك، وإشارة إلى مهانة أصله وحقارته: {ألم يك} أي الإنسان {نطفة} أي شيئاً يسيراً جداً {من مني} أي ماء من صلب الرجل وترائب المرأة مقصود ومقدر من الله للابتلاء والاختبار مثاله المنية التي هي الموت {تمنى} أي سبب الله للإنسان المعالجة في إخراجها بما ركب فيه من الشهوة وجعل له من الروح التي يسرها لقضاء وطره منها حتى أن وقت صبها في الرحم انصبت منه بغير اختياره حتى كأنه لا فعل له فيها أصلاً، ولذلك بنى الفعل لما لم يسم فاعله، ولما كان تكثير تلك النطفة وتحويلها أمراً عظيماً عجيباً، أشار إليه بأداة البعد مع إفادتها للتراخي في الزمان أيضاً فقال: {ثم كان} أي كوناً محكماً {علقة} أي دماً أحمر عبيطاً شديد الحمرة والغلظة {فخلق}

أي قدر سـبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه وعصـبه وغير ذلك من جواهره وأعراضـه {فسوى *} أي عدل عن ذلك خلقاً آخر غاية التعديل شـخصـاً مستقلاً.

ولما كان اسـتبعادهم للقيامة إما لاسـتبعاد القدرة على إعادة الأجزاء بعد تفرقها أو لاستبعاد القدرة على تمييز ترابها من تراب الأرض بعد الاختلاط، وكان تمييز النطفة إلى ذكر وأنثى كافياً في رد الاسـتبعادين قال: {فجعل} أي بسبب النطفة {منه} أي هذا الماء الدافق أو المخلوق المسوى وهما شيء واحد {الزوجين} أي القرينين اللذين لا يمكن الانتفاع بأحدهما إلا بالآخر، ثم بينهما بقوله: {الذكر والأنثى *} وهما كما تعلمون متباينان في الطباع مختلفان في أوصـاف الأعضـاء والآلات والمتاع، كما لم يترك النطفة حتى صـيرها علقة ولا ترك العلقة حتى صـيرها مضـغة ولا ترك المضـغة حتى صـيرها عظاماً ولم يترك العظام حتى صـيرها خلقاً آخر إلى تمام الخلقة لتمام الحكمة الظاهرة وفصـلها إلى ذكر وأنثى وهي ماء، تمييز ما يصـلح منه للذكر وما يصـلح منه للأنثى أشـد وأخفى من تمييز تراب الميت من تراب الأرض، فكذلك لا يترك الجسم بعد موته حتى يعيده ثم يبعثه إلى آخر ذلك لتمام الحكمة الباطنة وهي الجزاء والحكم الذي هو خاصة الملك.

ولما تقرر من حيث إتقان الاصـطناع أنه لا يجوز معه الإهمال وانقطاع النزاع، وكان ربما توقف من حيث ظن عدم القدرة على ذلك بعد الموت، قال منبهاً على تمام القدرة مقرراً عليه منكراً على من يتوقف فيه موبخاً له مرتباً على ما قام على القدرة على الإعادة من دليل القدرة الشـهودي على

البداية: {أليس ذلك} أي الخالق المسوي الإله الأعظم الذي قدر على هذه الإنشاءات وصنع هذه الصنائع المتقنة التي لا يقدر غيره على شيء منها، وأعرق في النفي فقال: {بقادر} أي عظيم القدرة {على أن يحيي} أي كيف أراد دفعة أو في أوقات متعاقبة {الموتى *} فيقيم القيامة بل وعزته وجلاله وعظمته وكماله إنه على كل ما يريد قدير، وقد رجع آخر السورة على أولها أتم رجوع، والتأم به أتم التئام، فتمت معانيها أعظم تمام بجمع العظام وإيجاد القيام ليوم التغابن والزحام- أعاننا الله فيه بحسب الختام، روى البغوي بسنده من طريق أبي داود عن أعرابي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ منكم {والتين والزيتون} [التين: 1] فانتهى إلى آخرها {أليس الله بأحكم الحاكمين} [التين: 8] فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ {لا أقسم بيوم القيامة} [القيامة: 1] فانتهى إلى قوله {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} [القيامة: 40] فليقل بلى، ومن قرأ المرسلات فقرأ {فبأي حديث بعده يؤمنون} [المرسلات: 50] فليقل:» آمنا بالله «ورواه الترمذي وقال في آخر القيامة أن يحيي الموتى:» بلى وعزة ربنا «وقال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد: وروى أحمد وفيه رجلان لم أعرفهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ: والمرسلات عرفاً فبأي حديث بعده يؤمنون، ومن قرأ: والتين والزيتون، فليقل: وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى، فليقل بلى «والله الهادي للصواب.

76 Insaan Dahar Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة الإنسان

76

▲ تفسير الآيات رقم [1– 3]

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)}

ولما تقدم في آخر القيامة التهديد على مطلق التكذيب، وأن المرجع إلى الله وحده، والإنكار على من ظن أنه يترك سدى والاستدلال على البعث وتمام القدرة عليه، تلاه أول هذه بالاستفهام الإنكاري على ما يقطع معه بأن لا يترك سدى، فقال مفصلاً ما له سبحانه عليه من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد والإسعاد: {هل أتى} أي بوجه من الوجوه {على الإنسان} أي هذا النوع الذي شغله عما يراد به ويراد له لعظم مقداره في نفس الأمر الأنس

بنفســه والإعجاب بظاهر حســه والنســيان لما بعد حلول رمســه {حين من الدهر} أي مقدار محدود وإن قل من الزمان الممتد الغير المحدود حال كونه {لم يكن} أي في ذلك الحين كوناً راسخاً {شيئاً مذكوراً *} أي ذكراً له اعتبار ظاهر في الملأ الأعلى وغيره حتى أنه يكون متهاوناً به غير منظور إليه ليجوز أن يكون سدى بلا أمر ونهي، ثم يذهب عدماً ليس الأمر كذلك، بل ما أتى عليه شــيء من ذلك بعد خلقه إلا وهو فيه شــيء مذكور، وذلك أن الدهر هو الزمان، والزمان هو مقدار حركة الفلك- كما نقله الرازي في كتاب اللوامع في سورة «يس» عند قوله تعالى «ولا الليل سابق النهار» فإنه قال: الزمان ابتداؤه من حركات الســماء فإن الزمان مقدار حركات الفلك- انتهى وآدم عليه الســلام تم الخلق بتمام خلقه في آخر يوم الجمعة أول جمعة كانت، وكانت طينته- قبل ذلك بمدة مخمرة هو فيها بين الروح والجسد، قال ابن مسعود رضي الله عنه: خلق الله آدم عليه السلام من تراب فأقام أربعين ســنة ثم من طين أربعين ســنة ثم من صــلصــال أربعين ســنة ثم من حمإ مســنون أربعين سـنة ثم خلقه بعد ستين ومائة سنة، وقال البغوي: قال ابن عباس رضــي الله عنهما: ثم خلقه بعد عشــرين ومائة ســنة: فحينئذ ما أتى عليه زمان إلا وهو شــيء مذكور إما بالتخمير وإما بتمام التصــوير، فالاستفهام على بابه وهو إنكاري، وليست «هل» بمعنى «قد» إلا إن قدرت قبلها الهمزة، وكان الاستفهام إنكارياً لينتفي مضمون الكلام، والمراد أنه هو المراد من العالم، فحينئذ ما خلق الزمان إلا لأجله، فهو أشــرف الخلائق، وهذا أدل دليل على بعثه للجزاء، فهل يجوز مع ذلك أن يترك ســدى فيفنى

المظروف الذي هو المقصود بالذات، ويبقى الظرف الذي ما خلق إلا صواناً له، والذي يدل على ذلك من أقوال السـلف أنه روي أن رجلاً قرأها عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال: يا ليت ذلك لم يكن.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: قوله تعالى: {هل أتى على الإنسـان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً} [الإنسان: 1] تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السـيادة لنفسـه، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة فيعتقد أنه يسـتوجب ذلك ويستحقه

{وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: 53] ولما تقدم في القيامة إخباره تعالى عن حال منكري البعث عناداً واسـتكباراً وتعامياً عن النظر والاعتبار {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه} [القيامة: 3] وقوله بعد {فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى} [القيامة: 31- 33] أي يتبختر عتواً واستكباراً ومرحاً وتجبراً، وتعريفه بحاله التي لو فكر فيها لما كان منه ما وصـف، وذلك قوله {ألم يكن نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى} [القيامة: 37- 38] أتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف وهو أنه قد كان لا شـيء فلا نطفة ولا علقة، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين ثم كان علقة ثم مضغة إلى إخراجه وتسويته خلقاً آخر فتبارك الله أحسـن الخالقين، فمن اعتبر اتصـافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المسـتنكف حالها والواضـح فناؤها واضـمحلالها، وأمده الله تعالى بتوفيقه

عرف حرمان من وصف في قوله: «ثم ذهب إلى أهله يتمطى» فسبحان الله ما أعظم حلمه وكرمه ورفقه، ثم بين تعالى ما جعله للإنسـان من السـمع والبصر ابتلاء له، ومن أدركه أدركه الغلط وارتكب الشطط- انتهى.

ولما ذكر مطلق خلقه، وقرر أنه خلاصـة الكون، شـرع يذكر كيفية خلقه ويدل على ما لزم من ذلك من أنه ما خلق الخلق إلا لأجله وأنه لا يجوز أن يهمل فقال معلماً بالحال التي هي قيد الجملة ومحط الفائدة أنه ما خلق إلا للآخرة، مفصلاً أمر الإيجاد بالفاعل والصورة والمادة والغاية وأكده لإنكارهم له: {إنا} أي على ما لنا من العظمة {خلقنا} أي قدرنا وصورنا، وأظهر ولم يضمر لأن الثاني خاص والأول عام لآدم عليه الصلاة والسلام وجميع ولده فقال: {الإنسان} أي بعد خلق آدم عليه الصلاة والسلام {من نطفة} أي مادة هي ماء جداً من الرجل والمرأة، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وهي المادة التي هي السبب الحامل للقوة المولدة.

ولما كان خلقه على طبائع مختلفة وأمزجة متفاوتة أعظم لأجره إن جاهد ما يتنازعه من المختلفات بأمر ربه الذي لا يختلف، وكانت أفعاله تابعة لأخلاقه وأخلاقه تابعة لجبلته قال: {أمشـاج} أي أخلاط- جمع مشـج أو مشيج مثل خدن وخدين وأخدان، وخلط وخليط وأخلاط، من مشجت الشيء- إذا خلطته، لأنه من مني الرجل ومني المرأة، وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصـاف في الرقة والثخن والقوام والخواص تجتمع مع الأخلاط وهي العناصـر الأربعة، ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصـفر فأيهما علا كان الشبه له، وما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل، وما

كان من دم ولحم وشعر فمن ماء المرأة، وقال يمان: كل لونين اختلطا فهو أمشاج، وقال قتادة: هي أطوار الخلق من النطفة وما بعدهما، وكما يشبه ما غلب عليه من باطن الأمشاج من الطيب والخبث، وكيفية تمشيجه أن الماء إذا وصل إلى قرار الرحم اختلط بماء المرأة ثم بدم الطمث وخثر حتى صار كالرائب ثم احمر وحينئذ يسمى علقة، فاذا اشتد ذلك الامتزاج وقوي وتمتن حتى استعد لأن يقسم فيه الأعضاء سمي مضغة، فإذا أفيضت عليه صورة الأعضاء وتقسم كساه حينئذ مفيضه عز وجل لحماً، فأفاض عليه القوة العاقلة، ويسمى حينئذ جنيناً، وذلك بعد تقسم أجزائه إلى عظام وعروق وأعصاب وأوتار ولحم، فدور الرأس وشق في جانبيه السمع وفي مقدمه المبصر والأنف والفم، وشق في البدن سائر المنافذ ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤوسها بالأصابع، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد-والطحال والرئة والمثانة، فسبحان من خلق تلك الأشياء من نطفة سخيفة مهينة كوّن منها العظام مع قوتها وشدتها وجعلها عماد البدن وقوامه وقدرها بمقادير وأشكال مختلفة، فمنها صغير وكبير، وطويل وقصير، وعريض ومستدير، ومجوف ومصمت، ودقيق وثخين، ولم يجعلها عظماً واحداً لأن الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ثم جعل بين تلك العظام مفاصل ثم وصلها بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقها بالطرف الآخر بالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة، وفي الآخر حفراً موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها، وخلق الرأس مع كريته من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال وألف بعضها مع بعض، فجعل في

القحف ستة وفي اللحى الأعلى أربعة عشر، واثنان للأسفل، والباقي في الأسنان، وجعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات فيها تجويفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض، وركب الظهر من أربع وعشرين خرزة وعظم العجز من ثلاثة أجزاء، وجعل من أسفله عظم العصعص أو اللفة من ثلاثة أجزاء مختلفة، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وغيرها حتى بلغ مجموع عظام بدن الإنسان مائتي عظم وثمانية وأربعين عظماً سوى العظام التي حشا بها خلل المفاصل، وخلق سبحانه آلات التحريك للعظام وهي العضلات وهي خمسمائة وسبع وعشرون عضلة كل منها على قدر مخصوص ووضع مخصوص لو تغير عن ذلك أدنى تغير لاختلت مصالح البدن، وكذا الأعصاب والأوردة والشرايين، ثم انظر كيف خلق الظهر أساساً للبدن، والبطن حاوياً لآلات الغذاء والرأس مجمعاً للحواس، ففتح العين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وأحكمها بحيث ينطبع في مقدار عدسة منها صورة السماوات على عظمها، وحماها بالأجفان لتسترها وتحفظها، ثم أودع الأذنين ماء مراً يدفع عنها الهوام وحاطهما بصدفين لجمع الصوت ورده إلى الصماخ وليحس بدبيب الهوام وجعل فيها تعريجاً لتطويل الطريق فلا تصل الهوام إلى جرم الصماخ سريعاً، ثم رفع الأنف في الوجه وأودع فيه حاسة الشم للاستدلال بالروائح على الأطعمة والأغذية ولاستنشاق الروائح الطيبة لتكون مروحة للقلب، وأودع الفم اللسان وجعله على كونه لحمة واحدة معرباً عما في النفس، وزين القم بالأنسان فحدد بعضها لتكون آلة للنقب وحدد بعضها

لتصلح للقطع، وجعل بعضها عريضاً مفلطحاً صالحاً للطحن وبيض ألوانها ورتب صفوفها وسوى رؤوسها ونسق ترتيبها حتى صارت كالدر المنظوم، ثم أطبق على الفم الشـــفتين وحســـن لونهما لتحفظا منفذه وهيأ الحنجرة لخروج الصـوت، وخالف أشـكال الحناجر في الضـيق والسـعة والخشـونة والملاسـة والصلابة والرخاوة والطول والقصر، فاختلفت الأصوات بسببها ليميز السامع المصـوّتين بسـبب تمييز أصـواتهم فيعرفهم وإن لم يرهم، وسـخر كل عضـو من أعضـــاء الباطن لشـــيء مخصـــوص، فالمعدة لإنضـــاج الغذاء، والكبد لإحالته إلى الدم، والطحال لجذب السـواد، والمرارة لجذب الصـفراء، والكلية لجذب الفضـــــلة المائية، والمثانة لخدمة الكلية بقبول الماء عنها ثم إخراجه من طريقه، والعروق لخدمة الكبد في إيصـال الدم إلى سـائر أطراف البدن، وكان مبدأ ذلك كله النطفة على صـــغرها في داخل الرحم في ظلمات ثلاثة ولو كشـف الغطاء وامتد البصـر إليه لرأى التخطيط والتصـوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا الإله، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه، فيالله العجب ممن يرى نقشـاً حسـناً على جدار فيتعجب من حسـنه وحذق صـانعه ثم لا يزال يستعظمه ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ويحيره جلاله وحكمته.

ولما كان الإنســـان مركباً من روح خفيف طاهر وبدن هو مركب الحظوظ والشهوات واللوم والدنيات، فكان الروح بكماله والبدن بنقصانه يتعالجان، كل منهما يريد أن يغلب صاحبه، قوى سبحانه الروح بالشرع الداعي إلى معالي الأخلاق، الناهي عن مســـاويها، المبين لذلك غاية البيان على يد إنســـان

طبعه ســـبحانه على الكمال ليقدر على التلقي من الملائكة، فيكمل أبناء نوعه، فدل على ذلك بحال بناها من ضـــمير العظمة فقال مبيناً للغاية: {نبتليه} أي نعامله بما لنا من العظمة بالأمر والنهي والوعظ معاملة المختبر ونحن أعلم به منه، ولكنا فعلنا ذلك لنقيم عليه الحجة على ما يتعارفه الناس، فإن العاصــي لا يعلم أنه أريد منه العصـيان، وكذا الطائع، فصــار التكليف بحسب وهمه لما خلق الله له من القوة والقدرة الصالحة في الجملة.

ولما ذكر الغاية، أتبعها الإعدادات المصــححة لها فقال: {فجعلناه} أي بما لنا من العظمة بسبب ذلك {سميعاً} أي بالغ السمع {بصـيراً *} أي عظيم البصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه، ومعرفة الحجج ببصــيرته، فيصـــح تكليفه وابتلاؤه، فقدم العلة الغائية لأنها متقدمة في الاستحضـار على التابع لها من المصـحح لورودها، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات، ولأن الآيات المســموعة أبين من الآيات المرئية، قال الرازي في اللوامع وإلى هنا انتهى الخبر الفطري ثم يبتدئ منه الاختبار الكسبي– انتهى.

وذلك بنفخ الروح وهي حادثة بعد حدوث البدن بإحداث القادر المختار لها بعد تهيئة البدن لقبولها، ثم أفاض سبحانه على الجملة العقل، وجعل السمع والبصــر اللتين له، ولعله خصــهما لأنهما أنفع الحواس، ولأن البصــر يفهم البصــيرة وهي تتضــمن الجميع، وجعل ســبحانه له ذلك لاســتقراء صــور المحســوســات وانتزاع العلوم الكلية منها، وبذلك يكمل علمه الذي منه الدفع عن نفســـه التي جعلها الله تعالى محل التكليف ليكمل تكليفه، وذلك أنه

سـبحانه ركبه من العناصـر الأربعة، وجعل صـلاحه بصـلاحها، وفساده بفسـادها لتعاليها، فاضـطر إلى قوى يدرك بها المنافي فيجتنبه والملائم فيطلبه، فرتب له سبحانه الحواس الخمس الظاهرة، فجعل السمع في الأذن، والبصـر في العين، والذوق في اللسـان، والشـم في الأنف، وبث اللمس في سائر البدن، ليدفع به عن جميع الأعضـاء ما يؤذيها، وهذه الحواس الظاهرة تنبعث عن قوة باطنة تسمى الحس المشترك بحمل ما أدركته فيرتسم هناك وهو في مقدم البطن الأول من الدماغ وينتقل ما ارتسم هنا إلى خزانة الخيال وهي في مؤخر هذا البطن من الدماغ فتحفظ فيها صـورته وإن غابت عن الحواس، وثم قوة أخرى من شـأنهـا إدراك المعـاني الجزئيـة المتعلقـة بالمحسوسات الشخصية كعداوة زيد وصداقته تسمى الوهم ومحلها الدماغ كله والأخص بها التجويف الأوسـط وخصـوصـاً مؤخره، وقوة أخرى أيضـاً شـأنها خزن ما أدركته القوة الوهمية من المعاني الجزئية تسـمى الحافظة باعتبار، والذاكرة باعتبار، ومحلها التجويف المؤخر في الدماغ، وقوة أخرى من شـأنها تفتيش تلك الخزائن وتركيب بعض مودعاتها مع بعض وتفصـيل بعضـها مع بعض ومحلها وسلطانها في أول التجويف الأوسط، وتلك القوة تسمى مخيلة باعتبار تصريف الوهم لها ومفكرة باعتبار استعمال النفس لها، وقد اقتضت الحكمة الربانية تقديم ما يدرك الصور الجرمية وتأخير ما يدرك المعاني الروحانية، وتوسـيط المتصـرف فيهما بالحكم والاسـترجاع للأمثال المنمحية من الجانبين، ثم لا تزال هذه القوى تخدم ما فوقها كما خدمتها الحواس الخمس إلى أن تصـير عقلاً مستفاداً، وهو قوة للنفس بها يكون لها

حضور المعقولات بالفعل، وهذا العقل هو غاية السلوك الطلبي للإنسان وهو الرئيس المطلق المخدوم للعقل بالفعل، وهو القوة التي تكون للنفس بها اقتدار على استحضار المعقولات- الثانية وهو المخدوم للعقل الهيولاني المشبه بالهيولى الخالية في نفسها عن جميع الصور، وهو قوة من شأنها الاستعداد المحض لدرك المعقولات باستعمال الحواس في تصفح الجزئيات واستقرائها المخدومات كلها للعقل العملي، وهو القوة النظرية المخدوم للوهم المخدوم لما بعده من الحافظة وما قبله من المتخيلة المخدومتين للخيال المخدوم للحس المشترك المخدوم للحواس الظاهرة.

ولما كان كأنه قيل: هبه خلق هكذا فكان ماذا؟ قال شفاء لعيّ هذا السؤال وبياناً لنعمة الإمداد: {إنا} أي بما لنا من العظمة {هديناه} أي بينا له لأجل الابتلاء {السبيل} أي الطريق الواضح الذي لا طريق في الحقيقة غيره، وهو طريق الخير الذي من حاد عنه ضل، وذلك بما أنزل من الكتب وأرسلنا من الرسل ونصبنا من الدلائل في الأنفس والآفاق، وجعلنا له من البصيرة التي يميز بها بين الصادق والكاذب وكلام الخلق وكلام الخالق والحق والباطل وما أشبهه.

ولما كان الإنسان عند البيان قد كان منه قسمان، وكان السياق لبيان تعظيمه بأنه خلاصة الكون والمقصود من الخلق، قال بانياً حالاً من ضميره في «هديناه» مقسماً له مقدماً القسم الذي أتم عليه بالبيان نعمة الهداية بخلق الإيمان، لأن ذلك أنسب بذكر تشريفه للإنسان، بجعله خلاصة الوجود وبقوله: «إن رحمتي سبقت غضبي» في سياق ابتداء الخلق، معبراً باسم

الفاعل الخالي من المبالغة، لأنه لا يقدر أحد أن يشـــكر جميع النعم، فلا يسمى شكوراً إلا بتفضل من ربه عليه: {إما شاكراً} أي لإنعامه ربه عليه.

ولما كان الإنســـان، لما له من النقصـــان، لا ينفك غالباً عن كفر ما، أتى بصـــيغة المبالغة تنبيهاً له على ذلك معرفاً له أنه لا يأخذه إلاّ بالتوغل فيه ليعرف نعمة الحلم عنه فيحمله الخجل على الإقبال على من يرضـــى منه بقليل الشكر، ويحتمل أن يفهم ذلك أن من كفر نعمة واحدة فقد كفر الجميع فصـــار بليغ الكفر فقال: {وإما كفوراً} أي بليغ الكفر بالإعراض والتكذيب وعبادة الغير والمعاندة فإحسانه غير موف إساءته مفرطة، وبدأ بالشكر لأنه الأصـل، روى الشـيخان عن أبي هريرة رضـي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسـانه» الحديث، ورواه أحمد بن منيع عن ابن عباس رضـي الله عنهما، ورواه الإمام أحمد عن جابر رضـــي الله عنه ولفظه: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شـاكراً وإما كفوراً» رواه الإمام أحمد أيضـاً وأبو يعلى عن الأسود بن سريع رضي الله عنه.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 9]

{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَـلَاسِـلَ وَأَغْلَالًا وَسَـعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْـرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَـرُّهُ مُسْـتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9)}

ولما قسمهم إلى القسمين، ذكر جزاء كل قسم فقال مستأنفاً جواب من يسأل عن ذلك مبشراً للشاكر الذي استعد بعروجه في مراقي العبادات إلى ملكوت العلويات لروح وريحان وجنة نعيم، ومنذراً للكافر الذي اســـتعد بالهبوط في دركات المخالفات إلى التقيد بالسفليات لنزل من حميم وتصلية جحيم، مقدماً للعاصـي لأن طريق النشـر المشـوش أفصـح، وليعادل البداءة بالشـاكر في أصــل التقســيم ليتعادل الخوف والرجاء، وليكون الشــاكر أولاً وآخراً، ولأن الانقياد بالوعيد أتم لأنه أدل على القدرة لا سيما في حق أهل الجاهلية الذين بعدت عنهم معرفة التكاليف الشــرعية، وأكثر في القرآن العظيم من الدعاء بالترغيب والترهيب لأنه الذي يفهمه الجهال الذين هم أغلب الناس دون الحجج والبراهين، فإنها لا يفهمها إلا الخواص، وأكد لأجل تكذيب الكفار : {إنا} أي على ما لنا من العظمة {أعتدنا} أي هيأنا وأحضـرنا بشـدة وغلظة {للكافرين} أي العريقين في الكفر خاصة، وقدم الأسهل في العذاب فالأسهل ترقياً فقال: {سـلاسـلاً} يقادون ويرتقون بها، وقراءة من نوّن مشـيرة إلى أنها عظيمة جداً، وكذا وقف أبي عمرو عليه بالألف مع المنع من الصــــرف {وأغلالاً} أي جوامع تجمع أيديهم إلى أعناقهم فيها فيهانون بها {وسعيراً *} أي ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد.

ولما أوجز في جزاء الكافر، أتبعه جزاء الشــاكر وأطنب فيه تأكيداً للترغيب، فإن النفوس بعد كســـر الوعيد لها تهتز لأدنى وعد وأقله فكيف بأتمه وأجله، فقال مسـتأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافر مبيناً بذكر الخمر على هذه الصـفة أنهم في أنهى ما يكون من رغد العيش لأنه يلزم من شــــربها جميع مقدماتها

ومتمماتها: {إن الأبرار} بخصوصهم من عموم الشاكرين جمع بر كأرباب جمع رب، أو بار كأشهاد جمع شاهد، وهم الذين سمت هممهم عن المستحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فأنفقوا من مساكنة الدنيا {يشربون} أي ما يريدون شربه {من كأس} أي خمر – قاله الحسن وهو اسم لقدح تكون فيه {كان مزاجها} أي الذي تمزج به {كافوراً *} أي لبرده وعذوبته وطيب عرفه، وذكر فعل الكون يدل على أن له شأناً في المزج عظيماً يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد.

ولما كان الكافور أعلى ما نعهده جامداً، بين أنه هناك ليس كذلك، فقال مبدلاً من «كافور»: {عيناً يشرب بها} أي بمزاجها كما تقول: شربت الماء بالعسل {عباد الله} أي خواص الملك الأعظم وأولياؤه أي شراب أرادوه.

ولما كان المزاج يتكلف لنقله قال: {يفجرونها تفجيراً *} أي حال كونهم يشققونها ويجرونها بغاية الكثرة إجراء حيث أرادوا من مساكنهم وإن علت وغيرها.

ولما ذكر جزاءهم على برهم المبين لشكرهم، أتبعه تفصيله فقال مستأنفاً بياناً لأن شكرهم بالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله وعمارة الظاهر والباطن لأنهم جمعوا بين كرم الطبع ولطافة المزاج الحامل على تجويز الممكن المقتضي للإيمان بالغيب: {يوفون} أي على سبيل الاستمرار {بالنذر} وهذا كناية عن وفائهم بجميع أنحاء العبادة لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى، ويجوز أن يكون النذر كل ما تقدم إليهم فيه سبحانه.

ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم، قال عاطفاً دلالة على جمعهم للأمرين المتعاطفين فهم يفعلون الوفاء لا لأجل الخوف بل لكرم الطبع: {ويخافون} أي مع فعلهم للواجبات {يوماً كان} أي كوناً هو في جبلته {شره} أي ما فيه من الشدائد {مستطيراً *} أي موجود الطيران وجوداً كأنه بغاية الرغبة فيه فهو في غاية الانتشار، والخوف أدل دليل على عمارة الباطن، قالوا: وما فارق الخوف قلباً إلا خرب، من خاف أدلج، ومن أدلج المنزل، فالخوف لاجتناب الشر والوفاء لاجتلاب الخير.

ولما كان من خاف شيئاً سعى في الأمن منه بكل ما عساه ينفع فيه، وكان قد ذكر تذرعهم بالواجب، أتبعه المندوب دلالة على أنهم لا ركون لهم إلى الدنيا ولا وثوق بها، فقد جمعوا إلى كرم الطبع بالوفاء ورقة القلب شرف النفس بالانسلاخ من الفاني فقال: {ويطعمون الطعام} أي على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون على الدوام. ولما كان الإنسان قد يسمح بما لا يلذ له قال: {على حبه} أي حبه إياه حباً هو في غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه كما قال تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} [آل عمران: 92] ليفهم أنهم للفضل أشد بذلاً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم أي الصحابة رضي الله عنهم- ولا نصيفه» لقلة الموجود إذ ذاك وكثرته بعد {مسكيناً} أي محتاجاً احتياجاً يسيراً، فصاحب الاحتياج الكثير أولى {ويتيماً} أي صغيراً لا أب له ذكراً كان أو أنثى {وأسيراً *} أي في أيدي الكفار أي أعم من ذلك، فيدخل فيه المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي

المسلمين، وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز، وكان الخبز إذ ذاك عزيزاً حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم إليهم قال: «استوصوا بهم خيراً» ومن حكم الأسير الحقيقي كل مضرور يفعلون ذلك والحال أنهم يقولون بلسان الحال أو القال إن احتيج إليه إزاحة لتوهم المن أو توقع المكافأة مؤكدين إشارة إلى أن الإخلاص أمر عزيز لا يكاد أحد يصدق أنه يتأتى لأحد: {إنما نطعمكم} أيها المحتاجون {لوجه الله} أي لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام لكونه أمرنا بذلك، وعبر به لأن الوجه يستحيى منه ويرجى ويخشى عند رؤيته.

ولما أثبتوا بهذا الإخلاص، حققوه بنفي ما يغير فيه، وفسروه لما لا يكون إلا به فقالوا: {لا نريد منكم} أي لأجل ذلك {جزاء} أي لنا من أعراض الدنيا {ولا شكوراً *} بشيء من قول ولا فعل، وكأنه اختير هذا المصدر المزيد كالدخول والخروج والقعود إيماءً إلى أن المنفي ما يتكلف له، وأما مثل المحبة والدعاء فلا، ولو أرادوا شيئاً من ذلك لما كان لله، وروي في سبب نزول هذه الآية: «أن علياً وابنيه وأمهما فاطمة رضي الله عنهم أجمعين آثروا على أنفسهم ثلاثة أيام، وأصبحوا الرابع يرتعشون، فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه السورة مهنئاً له بها» ولا يستبعد الصبر على الجوع هذه المدة لأنه ربما كانت للنفس هيئة قوية من استغراق في محبة الله تعالى أو غير ذلك،

فهبطت إلى البدن فشغلت الطبيعة عن تحليل الأجزاء فلا يحصل الجوع كما أنا نشاهد الإنسان يبقى في المرض الحاد مدة من غير تناول شيء من غذاء ولا يتأثر بدنه لذلك، فلا بدع أن تقف الأفعال الطبيعية في حق بعض السالكين وهو أحد القولين في قول النبي صلى الله عليه وسلم «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

▲ تفسير الآيات رقم [10- 17]

{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17)}

ولما كانت الأنفس مجبولة على حب الجزاء والثناء، فكان لا يكاد يصدق أحد أن أحداً يفعل ما لا يقصد به شيئاً من ذلك، وكان الله سبحانه وتعالى قد منَّ علينا بأن جعل العبادة لأجل خوفه ورجائه لا يقدح في الإخلاص، عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم: {إنا نخاف} ولما كان الخوف من المحسن بالنظر إلى إحسانه موجباً للخوف منه بالنظر إلى عزه وجبروته وسلطانه من باب الأولى قالوا: {من ربنا} أي الخالق لنا المحسن إلينا {يوماً} أي أهوال يوم هو- في غاية العظمة، وبينوا عظمته بقولهم: {عبوساً} أي ضيقاً- قاله ابن عباس رضي الله عنهما، نسبوا العبوس إليه لأنه في شدته

كالأســد الغضــوب، فهو موجب لعبوس الوجوه فيه أو هو لعبوس أهله ك «ليله قائم ونهاره صـائم وعيشـة راضـية» {قمطريراً *} أي طويلاً– قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أو شديد العبوس مجتمع الشر كالذي يجمع ما بين عينيه– مأخوذ من القطر لأن يومه يكون عابســاً، وزيد فيه الميم وبولغ فيه بالصيغة، وهو يوم القيامة، يقال: اقمطر اليوم فهو مقمطر– إذا كان صعباً شديداً.

ولما كان فعلهم هذا خالصاً لله، سبب عنه جزاءهم فقال مخبراً أنه دفع عنهم المضـار وجلب لهم المسـار: {فوقاهم الله} أي الملك الأعظم بسـبب خوفهم {شـر ذلك اليوم} أي العظيم، وأشـار إلى نعيم الظاهر بقوله: {ولقّاهم} أي تلقية عظيمة فيه وفي غيره {نضـرة} أي حسـناً ونعمة تظهر على وجوههم وعيشـاً هنيئاً، وإلى نعيم الباطن بقوله: {وسـروراً *} أي دائماً في قلوبهم في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في الآخرة وخزيهم– وهذا يدل على أن وصـف اليوم بالعبوس للدلالة على المبالغة في عبوس أهله، وأشـار إلى المسكن بقوله: {وجزاهم بما صبروا} أي بسبب ما أوجدوه من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصـــية ومنع أنفســـهم الطيبات وبذل المحبوبات {جنة} أي بســتاناً جامعاً يأكلون منه ما يشـتهون جزاء على ما كانوا يطعمون. ولما ذكر ما يكســو الباطن، ذكر ما يكســو الظاهر فقال: {وحريراً *} أي هو في غاية العظمة.

ولما ذكر أنه كفاهم المخوف وحباهم الجنة، أتبعه حالهم فيها وحالها فقال دالاً على راحتهم الدائمة: {متكئين فيها} أي لأن كل ما أرادوه حضـر إليهم

من غير حاجة إلى حركة أصـلاً، ودل على الملك بقوله {على الأرآئك} أي الأسـرة العالية التي في الحجال، لا تكون أريكة إلا مع وجود الحجلة، وقال بعضـهم: هي السـرير المنجد في قبة عليه شـواره ونجده أي متاعه، وهي مشـيرة إلى الزوجات لأن العادة جارية بأن الأرائك لا تخلو عنهن بل هي لهن لاستمتاع الأزواج بهن فيها.

ولما كانت بيوت الدنيا وبسـاتينها تحتاج إلى الانتقال منها من موضـع إلى موضع لأجل الحر أو البرد، بين أن جميع أرض الجنة وغرفها سواء في لذة العيش وسبوغ الظل واعتدال الأمر، فقال نافياً ضر الحر ثم البرد: {لا يرون فيها} أي بأبصـارهم ولا بصـائرهم أصـلاً {شـمسـاً} أي ولا قمراً {ولا} أي ولا يرون فيها أيضـاً ببصـائرهم أي لا يحسـون بما يسـمى {زمهريراً *} أي برداً شـديداً مزعجاً ولا حراً، فالآية من الاحتباك: دل بنفي الشـمس أولاً على نفي القمر، لأن ظهوره بها لأن نوره اكتسـاب من نور الشـمس، ودل بنفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانياً على نفي الحر الذي سببه الشمس، فأفاد هذا أن الجنة غنية عن النيرين، لأنها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمان لأنه لا تكليف فيها بوجه، وأنها ظليلة ومعتدلة دائماً لأن سـبب الحر الآن قرب الشمس من مسامته الرؤوس، وسبب البرد بعدها عن ذلك.

ولما كانت ترجمة هذا كما مضـى: جنة ظليلة ومعتدلة، عطف عليه بالواو دلالة على تمكن هذا الوصف وعلى اجتماعه مع ما قبله قوله: {ودانية} أي قريبة من الارتفاع {عليهم ظلالها} من غير أن يحصـل منها ما يزيل الاعتدال {وذللت قطوفها} جمع قطف بالكسـر وهو العنقود واسـم للثمار

المقطوفة أي المجنية {تذليلاً *} أي سهل تناولها تسيهلاً عظيماً لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك لكل من يريد أخذها على أي حالة كان من اتكاء وغيره، فإن كانوا قعوداً تدلت إليهم، وإن كانوا قياماً وكانت على الأرض ارتقت إليهم، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله.

ولما كان الدوران بالآنية متجدداً، عبر فيه بالمضارع، وبناه للمفعول أيضاً لأنه المقصود مطلقاً من غير تعيين طائف فقال: {ويطاف} أي من أيّ طائف كان لكثرة الخدم {عليهم بآنية} جمع إناء جزاء على طوافهم على المحتاجين بما يصلحهم.

ولما كان مقصود هذه السورة ترهيب الإنسان الموبخ في سورة القيامة من الكفر، وكان الإنسان أدنى أسنان المخاطبين في مراتب الخطاب، اقتصر في الترغيب في شرف الآنية على الفضة دون الذهب المذكور في فاطر والحج المعبر فيهما بالناس، فلعل هذا لصنف وذاك لصنف- أعلى منه مع إمكان الجمع والمعاقبة، وأما من هو أعلى من هذين الصنفين من الذين آمنوا ومن فوقهم فلهم فوق هذين الجوهرين من الجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فقال: {من فضة} أي اسمه ذلك، وأما الحقيقة فأين الثريا من يد المتناول.

ولما جمع الآنية خص فقال: {وأكواب} جمع كوب وهو كوز لا عروة له، فيسهل الشهرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول إلى إدارة {كانت} أي تلك الأكواب كوناً هو من جبلتها {قواريراً *} أي كانت بصفة القوارير

من الصفاء والرقة والشفوف والإشراق والزهارة، جمع قارورة وهي ما قر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف، وقيل: هو خاص بالزجاج.

ولما كان هذا رأس آية، وكان التعبير بالقارورة ربما أفهم أو أوهم أنها من الزجاج، وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لإفراط الصلابة، قال معيداً للفظ أول الآية الثانية، تأكيداً للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج وبياناً لنوعها: {قواريراً من فضة} أي فجمعت صفتي الجوهرين المتباينين: صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها، وقراءة من نوّن الاثنين صارفاً ما من حقه المنع مشيرة إلى عظمتها وامتداد كثرتها وعلوها في الفضل والشرف، وقراءة ابن كثير في الاقتصار على تنوين الأول للتنبيه على أنه رأس آية والثاني أول التي بعدها مع إفهام العظمة لأن الثاني إعادة للأول لما تقدم من الإفادة، فكأنه منون، ووقف أبو عمرو على الأول بالألف مع المنع من الصرف لأن ذلك كاف في الدلالة على أنه رأس آية.

ولما كان الإنسان لا يجب أن يكون الإناء ولا ما فيه من مأكول أو مشروب زائداً عن حاجته ولا ناقصاً عنها قال: {قدروها} أي في الذات والصفات {تقديراً *} أي على مقادير الاحتياج من غير زيادة ولا نقص لأن ما أراد كل منها كان، لا كلفة ولا كدر ولا نقص.

ولما ذكر الأكواب، أتبعها غايتها فقال تخصيصاً بالعطف على ما تقديره: يسقون فيها ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم: {ويسقون} ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة {فيها} أي الجنة أو تلك الأكواب {كأساً} أي خمراً في

إناء {كان مزاجها} على غاية الإحكام {زنجبيلاً *} هو في غاية اللذة، وكانت العرب تستلذ الشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والنكهة.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 22]

{عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)}

ولما كان الزنجبيل عندنا شجراً يحتاج في تناوله إلى علاج، أبان أنه هناك عين لا يحتاج في صيرورته زنجبيلاً إلى أن تحيله الأرض بتخميره فيها حتى يصير شجراً ليتحول عن طعم الماء إلى طعم الزنجبيل خرقاً للعوائد فقال: {عيناً فيها} أي الجنة يمزج فيها شرابهم كما يمزج بالماء.

ولما كان الزنجبيل يلذع الحق فتصعب إساغته قال: {تسمى} أي لسهولة إساغتها ولذة طعمها وسمو وصفها {سلسبيلاً} والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية في السلاسة، زيدت فيه الباء دلالة على المبالغة في هذا المعنى، قالوا: وشراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع.

ولما ذكر المطوف به لأنه الغاية المقصودة، وصف الطائف لما في طوافه من العظمة المشهودة تصويراً لما هم فيه من الملك بعد ما نجوا منه من الهلك: {ويطوف عليهم} أي بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب {ولدان} أي غلمان هم في سن من هو دون البلوغ «أقل أهل الجنة من يخدمه ألف

غلام» {مخلدون} أي قد حكم من لا يرد حكمه بأن يكونوا كذلك دائماً من غير غلة ولا ارتفاع عن ذلك الحد مع أنهم مزينون بالخلد وهو الحلق والأساور والقرطة والملابس الحسنة {إذ رأيتهم} أي يا أعلى الخلق صلى الله عليه وسلم وأنت أثبت الناس نظراً أو أيها الرائي من كان في أي حالة رأيتهم فيها {حسبتهم} من بياضهم وصفاء ألوانهم ولمع أنوارهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض وانبثاثهم في المجالس ذهاباً وإياباً {لؤلؤاً منثوراً *} وذلك كناية عن كثرتهم وانتشارهم في الخدمة وشرفهم وحسنهم؛ وعن بعضهم أن لؤلؤ الجنة في غاية الكبر والعظمة واختلاف الأشكال، وكأنه عبر بالحسبان إشارة إلى أن ذلك مطلق تجويز لا مع ترجيح، قال بعض المفسرين: هم غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين. وقال بعضهم: هم أطفال المشركين لأنهم ماتوا على الفطرة، وقال ابن برجان: وأرى والله أعلم أنهم من علم الله سبحانه وتعالى إيمانه من أولاد الكفار يكونون خدماً لأهل الجنة كما كانوا لهم في الدنيا سبياً وخداماً، وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سناً وملكاً وسروراً لهم، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام «إن له لظئراً يتم رضاعه في الجنة» فإنه يدل على استقبال شأنه فيما هنالك وتنقله في الأحوال كالدنيا، ولا دليل على خصوصيته بذلك. ولما ذكر المخدوم والخدم شرع في ذكر المكان فقال: {وإذا رأيت} أي أجلت بصرك، وحذف مفعوله ليشيع ويعم {ثم} أي هناك في أي مكان كان وأي شيء كان {رأيت نعيماً} أي ليس فيه كدر بوجه من الوجوه، ولما كان النعيم قد يكون في حالة وسطى قال: {وملكاً كبيراً *} أي لم يخطر على بال مما

هو فيه من السـعة وكثرة الموجود والعظمة أدناهم وما فيهم دني الذي ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ومهما أراده كان.

ولما ذكر الدار وسـاكنيها من مخدوم وخدم، ذكر لباسـهم بانياً حالاً من الفاعل والمفعول: {عليهم} أي حال كون الخادم والمخدوم يعلو أجسـامهم على سبيل الدوام، وسكن نافع وحمزة الياء على أنه مبتدأ وخبر شارح للملك على سبيل الاستئناف {ثياب سندس} وهو ما رق من الحرير {خضر} رفعه الجماعة صفة لثياب، وجره ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم صفة لسندس حملاً على المعنى فإنه اسم جنس {وإستبرق} وهو ما غلظ من الديباج يعمل بالذهب، أو هو ثياب حرير صـفاق نحو الديباج- قاله في القاموس، رفعه ابن كثير ونافع وعاصم نسقاً على ثياب، وجره الباقون على سندس.

ولما كان المقصـود لأرباب اللباس الفاخر الحلية، أخبر عن تحليتهم، وبني الفعل للمفعول دلالة على تيسر ذلك لهم وسهولته عليهم فقال: {وحلّوا} أي وجدت تحلية المخدومين والخدم {أساور من فضة} وإن كانت تتفاوت بتفاوت الرتب، وتقدم سر تخصيص هذه السورة بالفضة والأساورة بجمع ما فيها من لذة الزينة لذة اتسـاع الملك فإنها كناية عنه فإنه- كما قال الملوي- كان في الزمن القديم إذا ملك ملك أقاليم عظيمة كثيرة لبس سـواراً وسـمي الملك المسور لاتساع مملكته وعظمتها وكثرة أقاليمها، وإن لم تجمع أقاليم لم يسور فما ظنك بمن أعطى من ذلك جمع الكثرة، وهي بالغة من الأعضاء ما يبلغ التحجيل في الوضـوء كما قال صـلى الله عليه وسـلم: «تبلغ الحلية من

المؤمن حيث يبلغ الوضــوء» فلذا كان أبو هريرة رضـــي الله عنه يرفع الماء إلى المنكبين وإلى الساقين.

ولما كان ربما ظن بما تقدم من ذلك الممزوج شـــيء من نقص لأجله يمزج كما هو في الدنيا، وكان قد قال أولاً {يشـــربون} بالبناء للفاعل، وثانياً (يسقون) بالبناء للمفعول، قال بانياً للفاعل بياناً لفضل ما يسقونه في نفسه وفي كونه من عند الإله الأعظم المتصـف بغاية الإحسـان على صـفة من العظمة تليق بإحسـانه سبحانه بما أفاده إسناد الفعل إليه: {وسقاهم} وعبر بصـفة الإحسـان تأكيداً لذلك فقال: {ربهم} أي الموجد لهم المحسـن إليهم المدبر لمصالحهم {شراباً طهوراً *} أي ليس هو كشراب الدنيا سواء كان من الخمر أو من الماء أو من غيرهما، بل هو بالغ الطهارة والوصـف بالشـرابية من العذوبة واللذة واللطافة، وهو مع ذلك آلة للتطهير البالغ للغير فلا يبقى في بواطنهم غش ولا وسـواس، ولا يريدون إلا ما يرضـي مليكهم مما أسـس على غاية الحكمة وفاق كامل وســجايا مطهرة وأخلاق مصـــطفاة لا عوج فيها، ولا يستحيل شيء من شرابهم إلى نجاسة من بول ولا غيره، بل يصير رشـحاً كرشـح المسك ويعطي الرجل شـهوة مائة رجل في الأكل وغيره، فإذا أكل شرب فطهر باطنه ورشـح منه المسك فعادت الشـهوة، بل الحديث يدل على أن شهوتهم لا تنقضي أصلاً فإنه قال:

»يجد لآخر لقمة من اللذة ما يجد لأولها» يفعل بهم هذا سـبحانه قائلاً لهم مؤكداً تسـكيناً لقلوبهم لئلا يظنون أن ما هم فيه على وجه الضـيافة ونحوها فيظنوا انقطاعه {إن هذا} أي الذي تقدم من الثواب كله {كان} أي كوناً ثابتاً

{لكم} بتكويني إياه من قبل موتكم {جزاء} أي على أعمالكم التي كنتم تجاهدون فيها أنفسكم عن هواها إلى ما يرضي ربكم فكنتم كلما عملتم عملاً كونت من هذا ما هو جزاء له {وكان} أي على وجه الثبات {سعيكم} ولما كان المقصود القبول لأن القابل الشاكر هو المعمول له، بني للمفعول قوله: {مشكوراً *} أي لا يضيع شيئاً منه ويجازى بأكثر منه أضعافاً مضاعفة.

▲ تفسير الآيات رقم [23- 27]

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)}

ولما ذكر أنه بين للناس السبيل فانقسموا إلى مبصر شاكر وأعمى كافر، وأتبعه جزاء الكافرين والشاكرين، وختمه بالشراب الطهور الذي من شأنه أن يحيي ميت الأراضي كما أن العلم الذي منبعه القرآن يحيي ميت القلوب، وسكن القلوب بتأبيد الجزاء، وختم الكلام بالشكر كما بدأه به، وكان نصب ما يهدي جميع الناس أمراً لا يكاد يصدق قال ذاكراً لما شرف به النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا قبل الآخرة، وجعل الشراب الطهور جزاء له لما بينهما من المناسبة على سبيل التأكيد، وأكده ثانياً بما أفاد التخصيص لما لهم من الإنكار ولتطمئن أنفس أتباعه بما حث عليه من الصبر إلى وقت الإذن في القتال: {إنا نحن} أي على ما لنا من العظمة التي لا نهاية لها، لا غيرها {نزلنا عليك} وأنت أعظم الخلق إنزالاً استعلى حتى صار

المنزل خلقاً لك {القرآن} أي الجامع لكل هدى، الحافظ من الزيغ، كما يحفظ الطب للصحيح صحة المزاج، الشافي لما عساه يحصل من الأدواء بما يهدي إليه من العلم والعمل، وزاد في التأكيد لعظيم إنكارهم فقال: {تنزيلاً *} أي على التدريج بالحكمة جواباً للسائل ورفقاً بالعباد فدرجهم في وظائف الدين تدريجاً موافقاً للحكمة، ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها، وعلمهم جميع الأحكام التي فيها رضانا، وأتاهم من المواعظ والآداب والمعارف بما ملأ الخافقين وخصصناك به شكراً على سيرتك الحسنى التي كانت قبل النبوة، وتجنبك كل ما يدنس، فلما كان بتنزيلنا كان جامعاً للهدى لما لنا من إحاطة العلم والقدرة، فلا عجب في كونه جامعاً لهدى الخلق كلهم، لم يدع لهم في شيء من الأشياء لبساً، وهي ناظرة إلى قوله في القيامة {لا تحرك به لسانك} [القيامة: 16] الملتفتة إلى ما في المدثر من أن هذه تذكرة، الناظرة إلى {أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً} المشيرة إلى ما في سورة الجن من أمر القرآن، فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن، فإنه المقصود بالذات من أمر الآية الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة وتفريق تقرير شأنه أتقن ما يكون في إحكام أمره، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك، رمياً كأنه غير قاصد له، ولا يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر.

ولمـا تقرر أن من النـاس من ترك الهـدى الـذي هو البيـان، فعمي عنـه لإعراضه عنه، سبب عن هذا الإنزال وذاك الضلال قوله منبهاً على أمراض القلوب، ومرشـــداً إلى دوائها : {فاصـــبر لحكم ربك} أي المحســـن إليك بتخصـيصـه لك بهذه النعمة على ضـلال من حكم بضـلاله، وعلى كل ما ينوبك وأطعه في التعبد لـه بجميع ما أمرك بـه من الرفق إلى أن يـأمرك بالسيف، واستعن على مر الصبر باستحضـار أن المربي الشفيق يربي بما يشـاء من المر والحلو على حسـب علمه وحكمته، والصـبر: حبس النفس وضبطها على مقاومة الهوى لئلا تنقاد إلى شيء من قبائح اللذات.

ولما أمره ســبحانه بالصــبر، وكان الأمر به مفهماً وجوده للمخالف، وكان المخالفون له صـلى الله عليه وسـلم هم القسـم المضـاد للشـاكر وهم الكفرة، وكـان مـا يدعونـه إليـه تـارة مطلق إثم، وأخرى كفراً وتـارة غير ذلـك، ذكر النتيجة نـاهياً عن القسمين الأولين ليعلم أن المسكوت عنه لا نـهي فيه فقال: {ولا تطع منهم} أي الكفرة الذين هم ضـد الشـاكرين {آثماً} أي داعياً إلى إثم سـواء كان مجرداً عن مطلق الكفر أو مصـاحباً له {أو كفوراً *} أي مبالغاً في الكفر وداعياً إليه وإن كان كبيراً وعظيماً في الدنيا فإن الحق أكبر من كل كبير، وذلك أنهم كانوا مع شدة الأذى له صلى الله عليه وسلم يبذلون له الرغائب من الأموال، والتمليك والتزويج لأعظم نسـائهم على أن يتبعهم على دينهم ويكف عما هو عليـه والنهي عن الأحد المبهم نهي عن كل منهمـا، فإن كلاًّ منهما في أنـه يجب اجتنـابـه في رتبـة واحدة {وذروا ظـاهر الإثم وباطنه} [الأنعام: 120] وكذا الانتهاء عنه لا يتحقق إلا بالانتهاء عن كل

منهما، ولو عطف بالواو لم يفد ذلك لأن نفي الاثنين لا يســـتلزم نفي كل منهما، وأفهم ترتيب النهي على الوصـــفين أنه إذا دعاه الكفار إلى ما لا يتعلق به إثم ولا كفر جاز له قبوله.

ولما نهى عن طاعتهما القاطعة عن الله، أمر بملازمة الموصل إلى الله وهو الذكر من غير عائق الذي هو دواء لما عساه يلحق من الأدواء لمجرد رؤية الآثم أو الكفور لأرباب القلوب الصـــافية، والذكر مقدم على كل عبادة وإن وضـــع العباد لما كان طلباً للتوصـــل إلى نيل معرفة الله ســبحانه، وكان التصـور بحسـب الاسم أول مراتب التصـور طبعاً بدأ به وضـعاً، وذلك لأن النفس تحب السـفول لما لها من النقائص، فاحتاجت إلى سـبب مشـوق لها إلى الأعلى فوضـعت لها العبادات، وأجلها العبادة المشـفوعة بالفكر، لأنه السـبب الموصـل إلى المقصـود ولا تفيد العبادة بدونه فقال: {واذكر} أي بلسـانك {اسـم ربك} أي المحسـن إليك بكل جميل {بكرة} عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصـغرى وتذكرك أنه يحيي الموتى ويحشرهم جيمعاً {وأصـــيلاً *} عند انقراض نهارك وتذكرك انقراض دنياك وطي هذا العالم لأجل إيجاد يوم الفصـــل، وفي ذكر الوقتين أيضـــاً إشـــارة إلى دوام الذكر، وذكر اسمه لازم لذكره، ويجوز أن يكون أمراً بالصـلاة لأنها أفضل الأعمال البدنية لأنها أعظم الذكر لأنها ذكر اللســـان والجنان والأركان فوظفت فيها أذكار لسانية وحركات وسكنات على هيئة مخصوصة من عادتها ألا تفعل إلا بين أيدي الملوك، فكان تنبيهها على وجود الصـــانع والاعتراف بإلهيته وتفرده أكثر فكانت أفضـــل، فيكون هذا على هذا أمراً بصـــلاتي الصـــبح

والعصـــــر، فإنه لم يكن أمر في أول الإســـلام بغيرهما وبهما أمر من كان قبلنا، وهما أفضـــل الصـــلوات وكانتا ركعتين ركعتين، ويجوز أن يكون أمراً بصـلاتي الصـبح والظهر والعصـر فإن الأصـيل يتناول وقتيهما لأنه مطلق العشـي، وأما المغرب والعشـاء ونافلة الليل فدخلت في قوله: {ومن الّيل} أي بعضـــه والباقي للراحة بالنوم {فاسـجد له} أي فصـــل له صـــلاتي المغرب والعشـاء، وذكرهما بالسجود تنبيهاً على أنه أفضـل الصـلاة، فهو إشـارة إلى أن الليل موضـــع الخضـــوع، وتقديم الظرف لما في صـــلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص ومزيد الفضيلة لأن الالتفات فيه إلى جانب الحق أتم لزوال الشاغل للحواس من حركات الناس وأصواتهم وسائر الأحوال الدنيوية، فكان أبعد عن الرياء فكان الخشوع فيه واللذة التامة بحلاوة العبادة أوفى {وسبحه} أي بالتهجد {ليلاً طويلاً *} نصفه أو أكثر منه أو أقل، ولعله سماه تسبيحاً لأن مكابدة القيام فيه وغلبة النوم تذكر بما لله من العظمة بالتنزه عن كل نقيصـــــة، ولأنه لا يترك محبوبه من الراحة بالنوم إلا من كان الله عنده في غاية النزاهة، وكان له في غاية المحبة.

ولما أنهى أمره بلازم النهي، علل النهي بقوله محقراً بإشارة القريب مؤكداً لما لهم من التعنت بالطعن في كل ما يذكره صـلى الله عليه وسـلم: {إن هؤلاء} أي الذين يغفلون عن الله من الكفرة وغيرهم فاستحقوا المقت من الله {يحبون} أي محبة تتجدد عندهم زيادتهم في كل وقت {العاجلة} أي ويأخذون منها ويسـتخفون لما حفت به من الشـهوات زمناً قليلاً لقصـور نظرهم وجمودهم على المحســـوســـات التي الإقبال عليها منشـــأ البلادة والقصــــور، ومعدن

الأمراض للقلوب التي في الصـــدور، ومن تعاطى أســـباب المرض مرض وسـمي كفوراً، ومن تعاطى ضـد ذلك شـفي وسـمي شـاكراً، ويكرهون الآخرة الآجلة {ويذرون} أي يتركون منها على حالة هي من أقبح ما يســوءهم إذا رأوه {وراءهم} أي أمـامهم أي قدامهم على وجـه الإحـاطـة بهم وهم عنـه معرضـون كما يعرض الإنسـان عما وراءه، أو خلفهم لأنه يكون بعدهم لا بد أن يدركهم {يوماً} أي منها. ولما كان ما أعيا الإنسان وشق عليه ثقيلاً قال: {ثقيلاً *} أي شـديداً جداً لا يطيقون حمل ما فيه من المصـائب بسـبب أنهم لا يعدون له عدته، فالآية من الاحتباك: ذكر الحب والعاجلة أولاً دلالة على ضـدهما ثانياً، والترك والثقل ثانياً دلالة على ضـدهما أولاً، وسـر ذلك أن ما ذكره أدل على سخافة العقل بعدم التأمل للعواقب.

▲ تفسير الآيات رقم [28– 31]

{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَـدَدْنَا أَسْـرَهُمْ وَإِذَا شِـئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَـاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)}

ولما كان تركهم لليوم الثقيل على وجه التكذيب الذي هو أقبح الترك، وكان تكذيبهم لاعتقادهم عدم القدرة عليه قال دالاً على الإعادة بالابتداء من باب الأولى: {نحن خلقناهم}، بما لنا من العظمة لا غيرنا {وشـددنا أسـرهم} أي قوينا وأتقنا ربط مفاصـــلهم الظاهرة والباطنة بالأعصـــاب على وجه الإحكام بعد كونهم نطفة أمشـاجاً في غاية الضـعف، وأصـل الأسـر، القد يشـد به

الأقتاب أو الربط والتوثيق، ولا شــك أن من قدر على إنشـــاء شـــخص من نطفة قادر على أن يعيده كما كان لأن جســده الذي أنشـأه إن كان محفوظاً فالأمر فيه واضـــح، وإن كان قد صـــــار تراباً فإبداعه منه مثل إبداعه من النطفة، وأكثر ما فيه أن يكون كأبيه آدم عليه السلام بل هو أولى فإنه ترابه له أصـل في الحياة بما كان حياً، وتراب آدم عليه السـلام لم يكن له أصـل قط في الحياة والإعادة أهون في مجاري عادات الخلق من الابتداء، ولذلك قال معبراً بأداة التحقق: {وإذا شئنا} أي بما لنا من العظمة أن نبدل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم {بدلنا أمثالهم} أي بعد الموت في الخلقة وشدة الأسر {تبديلاً *} أو المعنى: جئنا بأمثالهم بدلاً منهم وخلائف لهم، أو يكون المراد- وهو أقعد- بالمثل الشـخص أي بدلنا أشـخاصـهم لتصـير بعد القوة إلى ضـعف وبعد الطول إلى قصـر وبعد البياض إلى سـواد وغير ذلك من الصفات كما شوهد في بعض الأوقات في المسخ وغيره، وكل ذلك دال على تمام قدرتنا وشمول علمنا.

ولما كان هذا دليلاً عظيماً على القدرة على البعث مخزياً لهم، قال مؤكداً لإنكارهم عناداً: {إن هذه} أي الفعلة البدائية، أو المواعظ التي ذكرناها في هذه الســورة وفي جميع القرآن {تذكرة} أي موضـــع ذكر عظيم للقدرة على البعث وتذكر عظيم لما فعلت في الإنشـــاء أولاً، وموعظة عظيمة فإن في تصــفحها تنبيهات عظيمة للغافلين، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السـالكين ممن ألقى سمعه وأحضـر نفسـه، وكانت نفسـه مقبلة على ما ألقى إليه ســمعه، فمن أقبل هذا الإقبال علم أنا آتيناه من الآلات والدلائل ما إن

سلك معه مجتهداً وصل دون ضلال ولذلك سبب عن كونها تذكرة قوله من خطاب البسط: {فمن شاء} أي أن يجتهد في وصوله إلى الله سبحانه وتعالى {اتخذ} أي أخذ بجهده من مجاهدة نفسه ومغالبة هواه {إلى ربه} أي المحسن إليه الذي ينبغي له أن يحبه بجميع قلبه ويجتهد في القرب منه {سبيلاً *} أي طريقاً واسعاً واضحاً سهلاً بأفعال الطاعة التي أمر بها لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع أنفسهم عمن شئنا وركزنا ذلك في الطباع، ولم يبق مانع من استطراق أصلاً غير مشيئتنا، والفطرة الأولى أعدل شاهد بهذا.

ولما أثبت لهم المشيئة التي هي مناط التكليف، وهي الكسب، وكان ربما ظن ظان أو ادعى مدع في خلق الأفعال كما قال أهل الاعتزال، قال نافياً عنهم الاستقلال، لافتاً القول إلى خطابهم، وهو مع كونه خطاب قبض استعطافاً بهم إلى التذكر في قراءة الجماعة وبالغيب على الأسلوب الماضي في قراءة ابن كثير وابن عامر: {وما تشاءون} أي في وقت من الأوقات مشيئة من المشيئات لهذا وغيره على سبيل الاختراع والاستقلال {إلا} وقت {أن يشاء الله} أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله، ولا أمر لأحد معه، فيوجد المعاني في أنفسكم على حسب ما يريد ويقدر على ما يشاء من آثارها، وقد صح بهذا ما قال الأشعرية وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسباً لا تؤثر إلا بمشيئة الله تعالى وتحريكها لقدرة العبد، وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون: إنا نحن نخلق أفعالنا، ومذهب الجبرية القائلين: لا فعل لنا أصلا، ومثَّل الملوي ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدد سكيناً

وهيأها وأوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ثم وضعها على البطيخة فهي لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك، ولو وضـــع عليها ما لم يصلح للقطع كحطبة مثلاً لم تقطع ولو تحامل، فالعبد كالسكين خلقه الله وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل، فمن قال: أنا أخلق فعلي مستقلاً به، فهو كمن قال: السكين تقطع بمجرد وضعها من غير تحامل، ومن قال: الفاعل هو الله، من غير نظر إلى العبد أصــــلاً كان كمن قال : هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة ملساء من غير سكين، والذي يقول: إنه باشر بقدرته المهيأة للفعل بخلق الله لها وتحريكها في ذلك الفعل كان كمن قال : إن الســكين قطعت بالتحامل عليها، بهذا أجرى ســبحانه عادته في الناس، ولو شـــاء غير ذلك فعل، ولا يخفى أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، ثم علل ذلك بإحاطته بمشـيئتهم قائلاً: {إن الله} أي المحيط علماً وقدرة {كان} أي أزلاً وأبداً {عليماً حكيماً *} أي بالغ العلم والحكمة، فهو يمنع منعاً محكماً من أن يشـــاء غيره ما لم يأذن فيه، فمن علم في جبلته خيراً أعانه عليه، ومن علم منه الشـــر ســـاقه إليه وحمله عليه، وهو معنى {يدخل من يشـاء} أي من علمه أهلاً للسعادة، ليس بظالم {في رحمته} بحكمته فييسـر له اتخاذ السبيل الموصل إليه بأن يوفقه للعدل، ويعد له ثواباً جسيماً.

ولما بشر أهل العدل بالفعل المضارع المؤذن بالاستمرار، ولم يجعله ماضياً لئلا يتعنت متعنت ممن هو متلبس بالضـلال فيقول: أنا لا أصـلح لأنه ما أدخلني، عطف عليه ما لأضـــدادهم في جملة فعلية بناها على الماضـــي إعلاماً بأن عذابهم موجود قد فرغ منه فقال: {والظالمين} أي وأهان العريقين

في وصف المشي على غير سنن مرضى كالماشي في الظلام فهو يدخلهم في نقمته وقد {أعد لهم} أي إعداداً أمضــاه بعظمته، فلا يزاد فيه ولا ينقص أبداً {عذاباً أليماً *} فالآية من الاحتباك: ذكر الإدخال والرحمة أولاً دلالة على الضد ثانياً، والعذاب ثانياً دلالة على الثواب أولاً، وسر ذلك أن ما ذكره أولى بترغيب أهل العدل فيه وإن ســـاءت حالهم في الدنيا، وبترهيب أهل الظلم منه وإن حســنت حالهم في الدنيا، فقد رجع هذا الآخر المفصــل إلى السـعادة والشـقاوة على أولها المؤذن بأن الإنسـان معتنى به غاية الاعتناء، وأنه ما خلق إلا للابتلاء، فهو إما كافر مغضـوب عليه، وإما شـاكر منظور بعين الرضى إليه- فسبحان من خلقنا ويميتنا ويحيينا بقدرته والله الهادي.

77 Mursalaat Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة المرسلات

77

تفسير الآيات رقم [1- 7]

{وَالْمُرْسَــلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِــفَاتِ عَصْــفًا (2) وَالنَّاشِــرَاتِ نَشْــرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)}

لما ختمت ســـورة الإنســـان بالوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه، وكان الكفار يكذبون بذلك، افتتح هذه بالإقسام على أن ذلك كائن فقال: {والمرسلات} أي من الرياح والملائكة {عرفاً *} أي لأجل إلقاء المعروف من القرآن والســنة وغير ذلك من الإحســـان، ومن إلقاء الروح والبركة وتيســـير الأمور في الأقوات وغيرها، أو حال كونها متتابعة متكاثرة بعضـــها في أثر بعض، من

قول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد- إذا توجهوا إليه فأكثروا، ويقال : جاؤوا عرفاً واحداً، وهم عليه كعرف الضبع- إذا تألبوا عليه.

ولما كان العصوف للعواصف يتعقب الهبوب، عطف بالفاء تعقيباً وتسبيباً فقال: {فالعاصفات} أي الشديدات من الرياح عقب هبوبها ومن الملائكة عقب شقها للهواء بما لها من كبر الأجسام والقوة على الإسراع التام {عصفاً *} أي عظيماً بما لها من النتائج الصالحة.

ولما كان نشر الرياح للسحاب متراخياً عن هبوبها ومتباطئاً في الثوران وكذا نشر الملائكة لأجنحتها كما يفعل الطائر القوي في طيرانه، عطف بالواو الصالحة للمعية والتعقب بمهلة وغيرها قوله: {والناشرات} أي للسحاب والأجنحة على وجه اللين في الجو وللشرائع التي تنشر العدل بين الناس {نشراً *} وإذا راجعت أول الذاريات ازددت في هذا بصيرة.

ولما كان السحاب يجتمع بعد الثوران من مجال البخارات ويتكاثف ثم يحمل الماء، وكان ذلك- مع كونه معروفاً- قد تقدم في الذاريات والروم وغيرهما ثم بعد الحمل تضغط السحاب حتى يتحامل بعضه على بعض فتنفرق هناك فُرَج يخرج منها، طوى ذلك وذكر هذا فقال بالفاء الفصيحة: {فالفارقات فرقاً *} أي للسحاب حتى يخرج الودق من خلاله وللأجنحة وبين الحق والباطل والحب والنوى- وغير ذلك من الأشياء.

ولما كانت السحاب عقب الفرق ينزل منها ما في ذلك السحاب من ماء أو ثلج أو برد أو صواعق أو غير ذلك مما يريده الله مما يبعث على ذكر الله ولا بد والملائكة تلقي ما معها من الروح المحيي للقلوب، قال معبراً بفاء

التعقيب والتسبيب: {فالملقيات ذكراً *} أطلق عليه الذكر لأنه سببه إن كان محمول السحاب أو محمول الملائكة، وقد يكون محمول الملائكة ذكر الله حقيقة، ولا يخفى أنهما سبب لإصلاح الدين والدنيا.

ولما ذكر هذه الأقسام عللها بقوله: {عذراً أو نذراً *} وهما منصوبان على الحال جمعان لعذر بمعنى المعذرة أو العاذر، والنذير بمعنى الإنذار أو المنذر، أي كانت هذه منقسمة إلى عذر إن كانت ألقت مطراً نافعاً مريئاً مريعاً غير ضار كان بعد قحط فإنه يكون كأنه اعتذار عن تلك الشدة، وإن كانت الملائكة ألقت بشائر فهي واضحة في العذر لا سيما إن كانت بعد إنذار، وإلى نذر إن كانت ألقت صواعق أو ما هو في معناها من البرد الكبار ونحوها، وكذا الملائكة، والكل سبب لذكر الله هو سبب لاعتذار ناس بالتوبة، وسبب لعذاب الذين يغفلون عن الشكر، ويستقبلون ذلك بالمعاصي أو ينسبون ذلك إلى الأنواء.

ولما تمت هذه الأقسام مشتملة على أمور عظام منبهة على أن أسبابها من الرياح والمياه كانت مع الناس وهم لا يشعرون بها كما أنه يجوز أن تكون القيامة كذلك سواء بسواء، قال ذاكراً للمقسم عليه مؤكداً لأجل إنكارهم: {إنما} أي الذي {توعدون} أي من العذاب في الدنيا والآخرة، ومن قيام الساعة ومن البشائر لأهل الطاعة، وبناه للمفعول لأنه المرهوب لا كونه من معين مع أنه معروف أنه مما توعد به الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم {لواقع *} أي كائن لا بد من وقوعه وأسبابه عتيدة عندكم وإن كنتم لا ترونها كما في هذه الأشياء التي أقسم بها وما تأثر عنها.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 19]

{فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)}

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الإرسال، والرياح المسخرة، وولايته بالمطر والملائكة الفارقة بمائة بين الحق والباطل، والملقيات الذكر بالوحي إلى الأنبياء إعذاراً من الله وإنذاراً، أقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق الموعود به في قوله: {إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً} [الإنسان: 4] الآيات وقوله: {إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً} [الإنسان: 10] وقوله: {وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً} [الإنسان: 12] الآيات إلى {وكان سعيكم مشكوراً} [الإنسان: 22] وقوله: {ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً} [الإنسان: 27] وقوله: {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً} [الإنسان: 31] ولو لم يتقدم إلا هذا الوعد والوعيد المختتم به السورة لطابقه افتتاح الأخرى قسماً عليه أشد المطابقة، فكيف وسورة {هل أتى على الإنسان} [الإنسان: 1] مواعد أخراوية وإخبارات جزائية، فأقسم سبحانه وتعالى على صحة الوقوع، وهو المتعالي الحق وكلامه الصدق- انتهى.

ولما كان من المعلوم أنهم يقولون استهزاء: متى هو؟ وكان وقته مما استأثر الله بعلمه لأن إخفاءه عن كل أحد أوقع في النفوس وأهيب عند القعول، سبب عن ذلك قوله ذاكراً ما لا تحتمله العقول لتزداد الهيبة ويتعاظم الخوف معبراً بأدة التحقق: {فإذا النجوم} أي على كثرتها {طمست *} أي أذهب ضوءها بأيسر أمر فاستوت مع بقية السماء، فدل طمسها على أن لفاعله غاية القدرة، وأعاد الظرف تأكيداً للمعنى زيادة في التخويف فقال: {وإذا السماء} أي على عظمتها {فرجت *} أي انشقت فخربت السقوف وما بها من القناديل بأسهل أمر {وإذا الجبال} أي على صلابتها {نسفت *} أي ذهب بها كلها بسرعة ففرقتها الرياح، فكانت هباء منبثاً فلم يبق لها أثر، وذلك كما ينسف الحب، فزال ثبات الأرض بالأسباب التي هي الرواسي، لأن تلك الدار ليست بدار أسباب.

ولما ذكر تغيير السماء والأرض، ذكر ما فعل ذلك لأجله فقال: {وإذا الرسل} أي الذي أنذروا الناس ذلك اليوم فكذبوهم {أقتت *} أي بلّغها الذي لا قدير سواه بأيسر أمر ميقاتَها الذي كانت تنتظره، وهو وقت قطع الأسباب وإيقاع الرحمة والثواب للأحباب والنقمة والعقاب للأعداء بشهادتهم بعد جمعهم على الأمم بما كان منهم من الجواب، وحذف العامل في «إذا» تهويلاً له لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيمكن أن يكون تقديره: وقع ما توعدون فرأيتم من هذا الوعيد ما لا يحتمل ولا يثبت لوصفه العقول، وعلى ذلك دل قوله ملقناً لما ينبغي أن يقال: وهو {لأيّ يوم} أي عظيم {أجلت *} أي وقع تأجيلها به، بناه للمفعول لأن المقصود تحقيق الأجل لا كونه من

معين، وتنبيهاً على أن المعين له معلوم أنه الله الذي لا يقدر عليه سواه، ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله مبدلاً من «لأي يوم»: {ليوم الفصل *} أي الذي إذا أطلق ذلك لم ينصرف إلا إليه لأنه لا يترك فيه شيئاً إلا وقع الفصل فيه بين جميع الخلق من كل جليل وحقير، ثم هوله وعظمه بقوله: {وما أدراك} أي وأي شيء أعلمك وإن اجتهدت في التعرف، ثم زاده تهويلاً بقوله: {ما يوم الفصل *} أي إنه أمر يستحق أن يسأل عنه ويعظم، وكل ما عظم بشيء فهو أعظم منه، ولا يقدر أحد من الخلق على الوصول إلى علمه لأنه لا مثل له يقال عليه.

ولما هول أمره ذكر ما يقع فيه من الشدة على وجه الإجمال فقال: {ويل} أي هلاك عظيم جداً {يومئذ} أي إذ يكون يوم الفصل {للمكذبين *} أي بالمرسلات التي أخبرت بذلك اليوم وغيره من أمر الله، والويل في الأصل مصدر منصوب بإضمار فعله، عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات معناه، وقد كررت هذه الجملة بعدة المقسم به وما ذكر هنا مما يكون في يوم الفصل من الطمس وما بعده وهو تسعة أشياء، وزادت واحدة فتكون كل جملة بواحدة من المذكورات، والعاشر للتأكيد دلالة على أن لهم من الويل ما لا ينتهي كما أن الواحد لا ينتهي على أنها لو كانت كلها لتأكيد الأول لكان ذلك حسناً، فإن من كذبك في أشياء كان من البلاغة أن تقرره بواحدة منها ثم تقول له عند قيام الدليل «ويل لك» ثم تفعل فيما بعده كله كذلك وتعيد عليه ذلك القول بعينه تأكيداً له وتحقيقاً لوقوع معناه دلالة على أن الغيظ قد

بلغ منتهاه والفجور وانقطاع العذر لم يدع موضعاً للتنصل منه والبعد عنه، وذلك في كلام العرب شائع معروف سائغ.

ولما أقسم على وقوع الوعد والوعيد مطلقاً أعم من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة لأنه قادر على كل ما يريد بأقسام دلت على القدرة عليه دلالة جلية، أتبعه دلالة أجلى منها بما يشاهد من خراب العالم النفسي فقال منكراً على من يكذب به تكذيبهم مع ما كان منه سبحانه إلى من كذب الرسل ومن آمن بهم: {ألم نهلك} أي بما لنا من العظمة {الأولين *} أي إهلاك عذاب وغضب بتكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوم نوح ومن بعدهم أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن، لم ندع منهم أحداً.

ولما كان إهلاك من في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إن لم ينقص عن إهلاك الأولين لم يزد، وكان جواب هذا التقدير: بلى قد أهلكتهم، قال عاطفاً على هذا الذي أرشد السياق إليه إرشاداً ظاهراً جعله كالمنطوق ما تقديره: نعم أهلكناهم {ثم} أي بعد إهلاكنا لهم. ولما كان الفعل مرفوعاً، علمنا أنه ليس معطوفاً على «نهلك» ليكون تقديراً، بل هو إخبار للتهديد تقديره: نحن إن شئنا {نتبعهم الآخرين *} أي الذين في زمانك من كفار العرب وغيرهم لتكذيبهم لك أو الذين قربوا من ذلك الزمان كأصحاب الرس وأصحاب الفيل.

ولما هدد من واجه الرسل بالتكذيب تسلية لهم، سلى من قطعوه من أتباعهم مما يجب وصله بهم من المعروف فقال مستأنفاً منبهاً على الوصف الموجب لذلك الإهلاك: {كذلك} أي مثل ذلك الإهلاك {نفعل بالمجرمين *} أي جميع الذين يفعلون فعل أولئك الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

وهم عريقون في ذلك القطع، وذلك مثبت لنا القدرة على جمعهم ليوم الفصل كما قدرنا على جمعهم لوقت الإجرام وعلى فصلنا في الإهلاك والإنجاء بين مكذبي الأمم ومصدقيهم فلا بد من إيجادنا ليوم الفصل: {ويل يومئذ} أي إذ يوجد {للمكذبين *} أي بالعاصفات التي أهلكنا بها تلك الأمم تارة بواسطة القلب وإمطار الحجارة وأخرى بواسطة الماء وتارة بالرجفة وتارة بغير واسطة.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 31]

{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31)}

ولما ذكر الإهلاك على ذلك الوجه الدال على القدرة التامة على البعث وعلى ما يوعد به بعد البعث، أتبعه الدلالة بابتداء الخلق وهو أدل فقال مقرراً ومنكراً على من يخالف علمه بذلك عمله: {ألم نخلقكم} أي أيها المكذبون بما لنا من العظمة التي لا تعشرها عظمة {من ماء مهين *} أي نطفة مذرة ذليلة، وهو من مهن بالفتح، قال في القاموس: والمهين: الحقير الضعيف والقليل {فجعلناه} أي بما لنا من العظمة بالإنزال لذلك الماء في الرحم {في قرار مكين *} أي محفوظ مما يفسده من الهواء وغيره ومددنا ذلك لأجل التطوير في أطوار الخلقة والتدوير في أدوار الصنعة {إلى قدر}

أي مقدار من الزمان قدره الله تعالى للولادة {معلوم *} أي عندنا من تسعة أشهر للولادة إلى ما فوقها أو دونها لا يعلمه غيره.

ولما كان هذا عظيماً ترجمه وبينه معظماً له بقوله: {فقدرنا} أي بعظمتنا على ذلك أو فجعلناه على مقدار معلوم من الأرزاق والآجال والأحوال والأعمال {فنعم القادرون *} نحن مطلقاً على ذلك وغيره، أو المقدرون في تلك المقادير لما لنا من كمال العظمة بحيث نجعل ذلك بمباشرة من أردناه منه بطوعه واختياره. ولعل التعبير بما قد يفيد مع العظمة الجمع لما أقام سبحانه في ذلك من الأسباب بالملائكة وغيرها، وفيه مع ذلك ابتلاء للعباد الموحد منهم والمشرك: {ويل يومئذ} أي إذ كان ذلك {للمكذبين *} أي بالناشرات التي نشرت تلك النفوس وكل ما يراد نشره وهم يعلمون قدرتنا على ما ذكر وتقديره من ابتدائنا لخلقهم وغيره مما يفيد كمال القدرة وهم يكذبون بالبعث ولا يقيسونه بمثله. ولما دل بابتداء الخلق على تمام قدرته، أتبعه الدلالة بانتهاء أمره وأثنائه وما دبر فيهما من المصالح فقال: {ألم نجعل} أي نصير بما سببنا بما لنا من العظمة {الأرض كفاتاً *} أي وعاء قابلة لجمع ما يوضع فيها وضمه جمعاً فيه فتك وهدم، وهو اسم لما يكفت من الحديد مثلاً أي يغلف بالفضة ويضم ويجمع، كالضمام والجماع لما يضم ويجمع، أو هو مصدر نعت به أو جمع كافتة، كصائمة وصيام أو جمع كفت وهو الوعاء، ولو شئنا لجعلناها ناشرة لكم إذا وضعتم فيها كما تنشر النبات، وسنجعل ذلك إذا أردنا البعث، ولما كان من المعلوم أنه حذف المفعول وهو لكم، أبدى حالة دالة أيضاً عليه فقال: {أحياء} أي على ظهرها في الدور

وغيرها {وأمواتاً *} أي في بطنها في القبور وغيرها كما كنتم قبل خلق آدم عليه السلام.

ولما ذكر ما تغيبه من جبال العلم والملك وغيرهما، أتبعه ما تبرزه من الشـــواهق إعلاماً بأنه لو كان الفعل للطبيعة ما كان الأمر هكذا، فإنه لا يخرج هذه الجبال العظيمة على ما لها من الكبر والرسـوخ والثقل والصـلابة وغير ذلك من العظمة إلا الفاعل المختار، هذا إلى ما يحفظ في أعاليها من المياه التي تنبت الأشـــجار وتخرج العيون والأنهار، بل أكثر ما يخرج من المياه هو منها، وكذا غالب المنافع من المعادن وغيرها قال: {وجعلنا} أي بما لنا من العظمة {فيها} أي الأرض {رواســي} لولاها لمادت بأهلها، ومن العجائب أن مراسيها من فوقها خلافاً لمراسي السفن {شامخات} أي هي مع كونها ثوابت في أنفســـها مثبتة لغيرها طوال جداً عظيمة الارتفاع كأنها قد تكبرت على بقية الأرض وعلى من يريد صعودها، وتنكيره للتعظيم.

ولما كان من العجائب الخارقة للعوائد فوران الماء الذي من طبعه أن يغور لا أن يفور لما له من الثقل واللطافة التي أفادته قوة الســـريان في الأعماق وفي كون ذلك منه من موضـــع من الأرض دون آخر، وكونه من الجبال التي هي أصـــل الأرض ومن صـــخورها غالباً دلالة ظاهرة على أن الفعل للواحد المختار الجبال القهار لا للطبائع قال: {وأسقيناكم} أي جعلنا لكم بما لنا من العظمة شـراباً لسـقيكم وسـقي ما تريدون سـقيه من الأنعام والحرث وغير ذلك {ماء} من لأنهار والغدران والعيون والآبار وغيرها {فراتاً *} أي عظيماً عذباً ســـائغاً وقد كان حقيقاً بأن يكون ملحاً أجاجاً لما للأراضـــي

الممسكة له من ذلك. ولما كان في هذا دلالة على ظاهرة على قدرته على البعث وغيره قال: {ويل يومئذ} أي يوم إذ تقوم الساعة ليكون الفصل بين العباد فساقها مساق ما هو ثابت لا نزاع فيه إشارة إلى أنه لا يكذب بها بعد ظهور الأدلة إلا من لا مسكة له {للمكذبين *} أي الذين هم في غاية الرسوخ في التكذيب حتى كذبوا بما لنا في هذا من الفرق الذي فرقنا به بين أرض وأخرى حتى جعلنا بعضها صالحاً لانفراق أرضه عن الماء، وبعضها غير صالح وجعلنا بعضها قابلاً للجبال وبعضها غير قابل- إلى غير ذلك من الفروق البديعة.

ولما وصلت أدلة الساعة في الظهور إلى حد لا مزيد عليه، وحكم على المكذبين بالويل مرة، وأكد بثلاث، فكان من حق المخاطب أن يؤمن فلم يؤمن، أمر بما يدل على الغضب فقال تعالى معلماً لهم بما يقال لهم يوم القيامة إذ يحل بهم الويل: {انطلقوا} أي أيها المكذبون {إلى ما كنتم} أي بما هو لكم كالجبلة {به تكذبون *} عدماً، وتجددون ذلك التكذيب مستمرين عليه.

ولما كان المراد زيادة تبكيتهم وتقريعهم والتهويل عليهم، كرر الأمر واصفاً ما أمروا بالانطلاق إليه فقال: {انطلقوا} هذا على قراءة الجماعة، وقراءة رويس عن يعقوب بصيغة الماضي للدلالة على تمام انقيادهم هناك، وأنه لا شيء من منعه عندهم أصلاً، وهي استئنافية لجواب من يقول: ما كان حالهم عند هذا الأمر الفظيع؟ {إلى ظل} أي من دخان جهنم الذي سمي باليحموم لما ذكر في الواقعة {ذي ثلاث شعب *} ينشعب من عظمه كما

ترى الدخان العظيم يتفرق ذوائب، وخصـــوصـــية الثلاث لأن التكذيب بالله وكتبه ورســله، فتعذبهم كل واحدة منها عذاباً يعلمون هناك لأي تكذيبة منها هي، أو لأن الحاجب عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم، أو لأن السبب فيه القوة الوهمية الحالة في الدماغ، والغضـــبية التي في عين القلب، والشهوية التي في يساره، وقيل: تخرج عنق من النار تكون ثلاث فرق: نار ونور ودخان، يقف النور على المؤمنين، واللهب الصـــافي على الكافرين، والدخان على المنافقين، تكون كذلك إلى حين الفراغ من الحســـاب، وقال الرازي: الشعب لهب وشرر ودخان.

ولما كان المبتادر من الظل ما يســـتروح إليه فظنوا ذلك، أزال عنهم هذا التوهم على طريق التهكم بهم ليكون أشد في النكال فقال واصفاً ل «ذي»: {لا ظليل} أي من الحر بوجه من الوجوه. ولما كان ما انتفى عنه غزارة الظل التي أفهمتها صيغة المبالغة قد يكون فيه نفع ما قال: {ولا يغني} أي شيئاً من إغناء {من اللهب *} أي هذا الجنس.

▲ تفسير الآيات رقم [32- 42]

{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَــرَرٍ كَالْقَصْــرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُــفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42)}

ولما بين أن هذا الظل في العذاب، وكان من المعلوم أنه لا يكون دخان إلا من نار، قال مبيناً أنه لو كان هناك ظل ما أغنى: {إنها} أي النار التي دل عليها السياق {ترمي} أي من شدة الاستعار {بشرر} وهو ما تطاير من النار إذا التهبت، واحدتها شرارة وهي صواعق تلك الدار {كالقصر *} أي كل شرارة منها كأنها قصر مشيد من عظمها وقيل: هو الغليظ من الشجر، الواحدة قصر مثل جمر وجمرة، وهي اسم جنس جمعي لم يستعمل إلا في جمع فهو شامل لكثير الجموع وقليلها، وكذا كل ما فرق بين واحدة وجمعه التاء وليس بجمع لأنه ليس بجمع سلامة وهو ظاهر ولا تكسير لأن أوزانه معروفة وليس منها فعل وليس بجنس، فإنه لا يشمل ما دون الجمع ومن عظمة شرارها تعرف عظمة جمرها.

ولما شبهه في عظمه، شبهه في لونه فقال: {كأنه جملات} جمع جمالة جمع جمل مثل حجارة وحجر للدلالة مع كبره على كثرته وتتابعه واختلاطه وسرعة حركته، ومن قرأ بضم الجيم فهو عنده جمع جمالة وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة- شبهه به في امتداده والتفافه، ولا تنافي فإن الشرر منه ما هو هكذا ومنه ما هو كما تقدم {صفر *} جمع أصفر للون المعروف، وقيل: المراد به سواد يضرب إلى صفرة كما هي ألوان الجمال.

ولما كان هذا أمراً هائلاً كانت ترجمته: {ويل يومئذ} أي إذ يكون ذلك {للمكذبين *} أي العريقين في التكذيب بإلقاء الذكر على الأنبياء للبشارة والنذارة.

ولما دلت قراءة «انطلقوا» بالفتح على امتثالهم للأمر من غير أن ينبسوا بكلمة، صرح به فقال دالاً على ما هم فيه من المقت والغضب: {هذا} أي الموقف الذي هو بعض مواقف ذلك اليوم، سمي يوماً لتمام أحكامه، فلذا قال مخبراً عن المبتدأ: {يوم لا ينطقون *} أي ببنت شفة من شدة الحيرة والدهشة في بعض المواقف، وينطقون في بعضها فإنه يوم طويل ذو ألوان- كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أو لا ينطقون بما ينفعهم لأنهم كانوا في الدنيا لا ينطقون بالتوحيد الذي ينفعهم.

ولما كانوا لا يقدرون على شيء ما إلا بإذن الله، وكان الموجع لهم عدم الإذن، بني للمفعول قوله دلالة على عدم ناصر لهم أو فرج يأتيهم: {ولا يؤذن} أي من آذن ما {لهم} أي في كلام أصلاً، ولما كان المراد أنه لا يوجد لهم إذن ولا يوجد منهم اعتذار من غير أن ينظر إلى تسببه عن عدم الإذن لئلا يفهم أن لهم عذراً ولكنهم لم يبدوه لعدم الإذن، قال رافعاً عطفاً على «يؤذن» {فيعتذرون *} فدل ذلك على نفي الإذن ونفي الاعتذار عقبه مطلقاً، ولو نصبه لدل على أن السبب في عدم اعتذارهم عدم الإذن فينقض المعنى.

ولما كان هذا أمراً فظيعاً ترجمه بقوله: {ويل يومئذ} أي إذ كان هذا الموقف {للمكذبين *} أي العريقين في التكذيب بالإخبار بطمس النجوم فجعلت عقوبتهم سكوتهم الذي هو ذهاب نور الإنسان ليكون كالطمس كذبوا به.

ولما ذكر حيرتهم ودهشتهم التي هي أمارة قول الحكم، وكانت مواطن ذلك اليوم تسمى أياماً لتمام الأحكام في كل مواطن منها، وتميزه بذلك عما عداه،

قال: {هذا} أي ذلك اليوم كله {يوم الفصل} أي بين ما اختلف فيه العباد من الحق والباطل العالي والسافل؛ ثم استأنف قوله: {جمعناكم} أي يا مكذبي هذه الأمة بما لنا من العظمة {والأولين *} أي الذين تقدم أنا أهلكناهم، وقد كانوا أكثر منكم عدداً وأعظم عدداً لنفصل بين المتنازعين ونصلي العذاب ونجزي بالثواب، وقد كان منكم من يقول: أنا أكفي عشرة من ملائكة النار، ثم أشار إلى انقطاع الأسباب فقال مسبباً عن ذلك: {فإن كان لكم} أي أيها المكذبون على وجه هو ثابت من ذواتكم {كيد} أي مقاواة بنوع حيلة أو شدة {فكيدون *} تقريع لهم على كيدهم لأوليائنا المؤمنين في الدنيا– بما مكنهم به من الأسباب وتنبيه على أنه من آذى وليه فقد آذنه بالحرب على أنهم عاجزون.

ولما كانوا أقل من أن يجيبوا عن هذا وأحقر من أن يمهلوا للكلام، قال مترجماً لحالهم بعد هذا الكلام منبهاً على أنهم لو عقلوا بكوا على أنفسهم الآن لأنه لا حيلة إذ ذاك: {ويل يومئذ} أي إذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة في عذابه {للمكذبين *} أي الراسخين في التكذيب بأن السماء تفرج كما كانوا يكذبون بأنه يفصل بينهم بعد الموت.

ولما كان الواقع بعد الفصل قرار كل في داره، وكان قد بدأ بالمكذبين لأن التحذير في السورة أعظم ففصلهم عن المصدقين فقال: انطلقوا– إلى آخره، ثنى بأضدادهم الفريق الناجي المشار إليه في آخر الإنسان بقوله تعالى: {يدخل من يشاء في رحمته} [الإنسان: 31] فقال مؤكداً لأجل تكذيب الكفار بتلك الدار وبأن يكون المؤمنون أسعد منهم: {إن المتقين} أي الذين كانوا

يجعلون بينهم وبين كل ما يغضـــب الله وقاية مما يرضـــيه لعراقتهم في هذا الوصـــف يوم القيامة {في ظلال} هي في الحقيقة الظلال لا كما تقدم من ظل الدخان، ولا يشـــبهها أعلى ظل في الدنيا ولا أحســـنه إلا بالاســـم، ودل على أنها على حقيقتها بقولـه: {وعيون *} لأنهـا تكون عنهـا الريـاض والأشـجار الكبار كما دل على أن ذلك الظل المتشـعب للتهكم بما ذكر بعده من أوصـاف النار، فهذه العيون تبرد الباطن وتنبت الأشـجار المظلة كما أن اللهب يحرّ الظاهر والباطن ويهلك ما قرب منه من شـــجر وغيره فلا يبقى ولا يذر.

ولما ذكر العيون، أتبعها ما ينشــأ عنها فقال دالاً على أن عيشــهم كله لذة: {وفواكه} ولما كان يوجد في فواكه الدنيا الدون، قال دالاً على أن عيشـــهم كله لذة وأنه ليس هناك دون: {مما يشتهون *} أي الرغبة.

▲ تفسير الآيات رقم [43- 50]

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)}

ولمـا فهم من التعبير ب «في» أنهم متمكنون من هــذا جميعــه تمكن المظروف من ظرفه، قال منبهاً على أنه أريد بالفاكهة جميع المآكل، وإنما عبر بها إعلاماً بأن كل أكل فيها تفكه ليس منه شــيء لجلب نفع غير اللذة ولا دفع ضــر: {كلوا} أي مقولاً لهم: تناولوا جميع المآكل على وجه التكفه

والتلذذ لا لحفظ الصـــحة فإنها حاصـــلة بدونه {واشـــربوا} أي من جميع المشـارب كذلك فإن عيونها ليست من الماء خاصة بل من كل شراب أكلاً وشرباً {هنيئاً} ليس في شيء من ذلك توقع ضر، وزاد في نعيمهم بأن جعل ذلك عوضـاً فقال: {بما كنتم} أي بجبلاتكم التي جبلتكم عليها {تعملون *} أي في الدنيا من الأعمال الصـــالحة المبنية على أســـاس العلم الذي أفاد التصـديق بالجنة فأوجب دخولها كما أوجب تكذيب المجرمين بالنار دخولهم إياها وعذابهم بها، وتكذيبهم بالجنة طردهم عنها وحرمانهم لنعيمها جزاء وفاقاً.

ولما كان ربما توهم متوهم أن هذا لناس معينين في زمن مخصـــوص- قال معلماً بالتعميم مؤكداً رداً على من ينكر: {إنا} أي بما لنا من العظمة {كذلك} أي مثل هذا الجزاء العظيم {نجزي المحسـنين *} أي كل من كان عريقاً في وصـف الإحسـان لسـنا كملوك الدنيا، يعوقهم عن الإحسـان إلى بعض المحسنين عندهم بما يرونه جزاء لهم بعضُ أهل مملكتهم لما لهم من الأهوية ولملوكهم من الضعف.

ولما كان هذا النعيم عذاباً عظيماً على من لا يناله قال: {ويل يومئذ} أي إذ يكون هذا النعيم للمتقين المحســـنين {للمكذبين *} أي الذين يكذبون بأن الجبال تنسـف فتكون الأرض كلها سـهلة دمثة مسـتوية لا عوج فيها أصـلاً صالح للعيون والاشجار والتبسط في أرجائها كيفما يريد صاحبها ويختار.

ولما ذكر نعيم أهل الجنة الذي لا ينقضـــي لأن لهم غاية المكنة فيه، وكان ذلك آجلاً، وكان المكذبون في اتساع في الدنيا، وتقدم قوله تعالى {إن عذاب

ربك لواقع ما له من دافع} [الطور : 7] وكان الشـــقاء متى وقع بعد نعيم نســخه وعد النعيم- ولو كان كثيراً طويلاً- قليلاً، قال نتيجة لجواب القســم ضــد ما يقال للمتقين تســلية لهم وتحزيناً للمكذبين بناء على ما تقديره: إن المكذبين في هذه الدنيا في استدراج وغرور، ويقول لهم لسان الحال المعرب عن أحوالهم في المآل توبيخاً وتهديداً : {كلوا } أي أيها المكذبون في هذه الدنيا {وتمتعوا} أي كذلك بمثل الجيفة، فإن المتاع من أسمائها كما مر غير مرة عن أهل اللغة {قليلاً} أي وإن امتد زمنه فإنه زائل مع قصـــر مدته في مدة الآخرة، ولا يؤثر ذلك على الباقي النفيس إلا خسيس الهمة، قال الرازي، وقال بعضـــهم : التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين، والســـعي لها من أفعال الظالمين، والاطمئنان إليها من أفعال الكاذبين، والســـكون فيها على حد الإذن والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين، والإعراض عنها من أفعال الزاهدين، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها.

ولما أحلهم هذا المحل الخبيث، وكان التقدير : فإنه لا بد من وقوع العذاب بكم يوم الفصــل، علل ذلك بقوله مؤكداً لأنهم ينكرون وصــفهم بذلك: {إنكم مجرمون *} أي عريقون في قطع كل ما أراد الله به أن يوصـــل، فلا جائز أن تعاملوا معاملة المحســـنين، فلذلك كانت نتيجة هذا {ويل يومئذ } أي إذ تعذبون بأجرامكم {للمكذبين *} أي بوصـول الرسـل إلى وقتها المعلوم الذي كانت تتوعد به المجرمين في الدنيا حيث كذبوهم لأجل تمتعهم هذا القليل الكدر، وعرضوا أنفسهم للعذاب الدائم المستمر.

ولما كان التقدير : فإنهم كانوا في دار العمل إذا قيل لهم آمنوا لا يؤمنوا، عطف عليه قوله : {وإذا قيل لهم} أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان {اركعوا} أي صلوا الصلاة التي فيها الركوع، وأطلقه عليها تسمية لها باسم جزء منها، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة، ولأنه خاص بصلاة المسلمين، ولأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله، وقال: لا أجبي لأن فيه- زعم- إبرازاً للاست فيكون ذلك مسبة، وكذلك السجود، قال في القاموس: جبى تجبئة: وضع يديه على ركبتيه أو على الأرض أو انكب على وجهه، والتجبئة أن تقوم قيام الركوع {لا يركعون *} أي لا يخضعون ولا يوجدون الصلاة فلذلك كان وعيدهم، وفيه دلالة على أن الأمر للوجوب ليستحق تاركه العذاب وعلى أن الكفار مخاطبون بالفروع {ويل يومئذ} أي إذ يكون الفصل {للمكذبين *} أي بذلك الذي تقدم في هذه السورة أو بشيء منه أو بغيره مما جاءت به الرسل، وقد كررت هذه الجملة بعدد أجزاء طرف القسم أو أجزاء الجواب لتكون كل جملة منها وعيداً على التكذيب بواحد من تلك الأجزاء، وتكون هذه الجملة العاشرة مؤكدة لتلك التسع، وتكملة لعدها ومعناها، ومعلمة بأن الويل لهم دائماً من غير انقضاء كما أن الواحد لا انقضاء له.

ولما أعلم هذا أن لهم الويل دائماً، ذكر أن سببه عدم الإيمان بالقرآن وأن من لم يؤمن بالقرآن لم يؤمن بشيء أبداً، فقال مسبباً عن معنى الكلام: {فبأيّ حديث} أي ذكر يتجدد نزوله على المرسل به في كل وقت تدعو إليه حاجة {بعده} أي بعد هذا القرآن الذي هو شاهد لنفسه عنه بصحة النسبة

إلى الله تعالى من جهة ما حاز من البلاغة في تراكيبه بالنســـبة إلى كل جملة وبالنســـبة إلى نظم الجمل بعضـــها مع بعض، وبالإخبار بالمغيبات والحمل على المعالي والتنبيه على الحكم وغير ذلك من بحور العلم ورياض الفنون، فالله باعتبار ذلك هو الشـــاهد بأنه كلامه {يؤمنون *} أي يجددون الإيمان بسببه بكل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي الله شاهد بأنه كلامه بما اشتمل عليه بعد إعجازه من الدلائل الواضـــحة، والمعاني الشـــريفة الصـــالحة، والنظوم الملائمة للطبع والرقائق المرققة لكل قلب، والبشـــائر المشـــوقة لكل ســـمع، فمن لم يؤمن به لم يؤمن بحديث غيره، فإنه لا شـــيء يقاربه ولا يدانيه، فكيف بأن يدعي شـــيء يباريه أو يراقيه، ومثل هذا إنما يقال عند مقاربة اليأس من الموعوظ والعادة قاضية بحلول العذاب إذ ذاك وإنزال البأس، فهو من أعظم أنواع التهديد، فقد رجع آخرها على أولها في وعيد المكذبين، وانطبق أولها على آخرها في إخزاء المجرمين- والله الهادي للصواب.

78 Nabaa Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة النبأ

78

▲ تفسير الآيات رقم [1– 9]

{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9)}

{عمَّ} أي عن أي شـيء– خفف لفظاً وكناية بالإدغام، وحذف ألفه لكثرة الدور والإشارة إلى أن هذا السؤال مما ينبغي أن يحذف، فإن لم يكن فيخفى ويستحى من ذكره ويخفف {يتساءلون *} أي أهل مكة لكل من يسأل عن شيء من القرآن سؤال شك وتوقف وتلدد فيما بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضي الله عنهم، ولشدة العجب سمي جدالهم وإنكارهم وعنادهم– إذا تليت عليهم آياته وجليت بيناته– مطلق سؤال.

ولما فخم ما يتســـاءلون عنه معجباً منهم فيه، بينه بقوله إعلاماً بأن ذلك الإيهام ما كان إلا للإعظام: {عن النبأ} أي من رســـالة الرســـول وإتيانه بالكتاب المبين، وإخباره عن يوم الفصــل، والشــاهد بكل شـــيء من ذلك الله بإعجاز هذا الحديث، وبوعده الجازم الحثيث. ولما كان في مقام التفخيم له، وصـفه تأكيداً بقوله: {العظيم *} مع أن النبأ لا يقال إلا لخبر عظيم شـأنه، ففي ذلك كله تنبيه على أنه من حقه أن يذعن له كل سـامع ويهتم بأمره، لا أن يشـك فيه ويجعله موضـعاً للنزاع؛ وعظم توبيخهم بقوله: {الذي هم} أي بضـــمائرهم مع ادعائهم أنها أقوم الضـــمائر {فيه مختلفون *} أي شـــديد اختلافهم وثباتهم فبعضـهم صـدق وبعضـهم كذب، والمكذبون بعضـهم شـك وبعضـهم جزم وقال بعضـهم: شـاعر، وبعضـهم: سـاحر- إلى غير ذلك من الأباطيل، وذلك الأمر هو أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي أهمه البعث بعد الموت اشـــتد التباســـه عليهم وكثرت مراجعتهم فيه ومســـاءلتهم عنه مع عظمه وعظم ظهوره، والعظيم لا ينبغي الاختلاف فيه بوجه، فإن ذا المروءة لا ينبغي له أن يدخل في أمر إلا وهو على بصيرة فكيف به إذا كان عظيماً فكيف به إذا تناهى عظمه فكيف به إذا كان أهم ما يهمه فإنه يتعين عليه أن يبحـث عنـه غـايـة البحـث ويطلـب فيـه الأدلـة ويفحص عن البراهين ويستوضـح الحجج حتى يصـير من أمره بعد علم اليقين إلى عين اليقين من حين يبلغ مبلغ الرجال إلى أن يموت فكيف إذا كان بحيث تتلى عليهم الأدلة وتجلى لـديـه قواطع الحجج وتجلـب إليـه البينـات وهو يكـابر فيـه ويمـاري، ويعاند ويداري.

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: سورة النبأ أما مطلقها فمرتب على تساؤل واستفهام وقع منهم وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات، وأما قوله: {كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون} [النبأ: 4- 5] فمناسب للوعيد المتكرر في قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} [المرسلات: 19] وكأن قد قيل: سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثم أورد تعالى من جميل صنعه وما إذا اعتبره المعتبر علم أنه لم يخلق شيء منه عبثاً بل يعتبر به ويستوضح وجه الحكمة فيه، فعلم أنه لا بد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وإحياء الأرض بعد موتها، جرى ذلك في البعث واطراد الحكم، وإليه الإشارة بقوله:

{كذلك نخرج الموتى} [الأعراف: 57] وقال تعالى منبهاً على ما ذكرناه {ألم نجعل الأرض مهاداً} [النبأ: 6] إلى قوله: {وجنات ألفافاً} [النبأ: 16] فهذه المصنوعات المقصود بها الاعتبار كما قدم، ثم قال تعالى: {إن يوم الفصل كان ميقاتاً} [النبأ: 17] أي موعداً لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم «فويل يومئذ للمكذبين» ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين: {إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً وكل شيء أحصيناه كتاباً} [النبأ: 27- 29] ثم قال بعد: {إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً} [النبأ: 31- 32] وقوله بعد: {ذلك اليوم الحق} وأما الحياة الدنيا فلعب ولهو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، وقوله بعد: {يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول

الكافر يا ليتني كنت تراباً} [النبأ: 40] انتهى. ولما كان الأمر من العظمة في هذا الحد قال مؤكداً لأن ما اختلفوا فيه وسـألوا عنه ليس موضـعاً للاختلاف والتساؤل بأداة الردع، فقال تهديداً لهم وتوكيداً لوعيدهم: {كلا} أي ليس ما سألوا عنه واختلفوا فيه بموضع اختلاف أصلاً، ولا يصح أن يطرقه ريب بوجه من الوجوه فلينزجروا عن ذلك وليرتدعوا قبل حلول ما لا قبل لهم به.

ولما كان كأنه قيل: فهل ينطقع ما هم فيه؟ أجاب بقوله مهدداً حاذفاً متعلق العلم للتهويل لأجل ذهاب النفس كل مذهب: {سيعلمون *} أي يصلون إلى حد يكون حالهم فيه في ترك العناد حال العالم بكل ما ينفعهم ويضـرهم، وهذا عن قريب بوعد لا خلف فيه، ويكون لهم حينئذ عين اليقين الذي لا يسـتطاع دفاعه بعد علم اليقين الذي دافعوه، وعظم رتبة هذا الردع والتهديد والزجر والوعيد بقوله: {ثم كلا} أي أن أمره في ظهوره رادع عن الاختلاف في أمره {سـيعلمون *} أي بعد الموت بعد علمهم قبله ما يكون من أمره بوعد صـادق لا شـك فيه، ويصـير حالهم إذا ذاك حال العالم في كفهم عن العناد، وهم بين ذلول وذليل وحقير وجليل، فأما من اخترناه منه للإيمان فيكون ذلولاً، ومن أردنا شـقاءه بالكفران فتراه ناكسـاً ذليلاً، ويشـترك الكل بالذوق في حق اليقين، وقد كان هذا كما قال الجليل بعد زمن قليل، عندما أوقعتهم أيام الله وأرغمت منهم الأنوف وأذلت الجباه، وقراءة ابن عامر على ما قيل عنه بتاء الخطاب في الوعيد وأدل على الاستعطاف للمتاب.

ولما حقق لهم أمره تحقيق من هو على غاية الوثوق بما يقول، دل على ذلك بما لا يحتمل شكاً ولا وقفة أصلاً، فقال مقرراً لهم ومنكراً عليهم التساؤل بما ندب إليه من التأمل وقرر به من النظر في باهر آياته وغرائب مخلوقاته التي أبدعها من العدم دلالة تامة عظمية على كمال القدرة مع تمام الحكمة الموجب للقطع بكل ما نبهت عليه الرسل من الشرائع والبعث والجزاء بادئاً بما هم له أشد ملابسة وهو الظرف: {ألم نجعل} أي بما لنا من العظمة {الأرض مهاداً *} أي فراشاً لكم موطئاً مذللاً يمكن الاستقرار عليه لتتصرفوا فيها كما شئتم {والجبال} أي تعرفون شدتها وعظمتها وعجزكم عن أقل شيء من أمورها {أوتاداً *} تثبتها كما أن البيت لا يثبت إلا بأوتاده، قال الأفوه الأودي:

والبيت لا يبتنى إلا له عمد *** ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وذلك لئلا تميد بكم فإنها معلقة على فضاء العلم ممسكة بيد القدرة، فلولا الجبال لعظم ثقلها لأنها بمنزلة السفينة العالية الفارغة على متن البحر فهي في غاية الحركة لا سيما إذا عظمت الريح فإنها حينئذ لا يستقر عليها قائم ولا يثبت قاعد ولا نائم، فالجبال بمنزلة الأمتعة الثقيلة التي تنزلها في الماء فتحفظ عن كثرة التقلب فكيف يصح بوجه أن يتوقف في إخبار من هذه قدرته لا سيما إذا كان ذلك المخبر به مما ركز سبحانه أمره في الفطر الأولى وقرر صحته في العقول التقرير الأوضح الأجلى.

ولما ذكر بما في الظرف الذي هو فرشهم من الدلالة على تمام القدرة، أتبعه التذكير بما في المظروف وهو أنفسهم لتجتمع آيات الأنفس والآفاق فيتبين

لهم أنه الحق فقال : {وخلقناكم} أي بما دل على ذلك من مظاهر العظمة {أزواجاً *} طوالاً وقصاراً وحساناً ودماماً وذكراناً وإناثاً لجميع أصنافكم على تباعد أقطارهم وتنائي ديارهم لتدوم أنواعكم إلى الوقت الذي يكون فيه انقطاعكم.

ولما ذكر ما هو سبب لبقاء النوع، ذكر ما هو سبب لحفظه من إسراع الفساد فقال: {وجعلنا} أي بما لنا من العظمة {نومكم} الذي ركبنا البدن على قبوله {سباتاً *} أي قطعاً عن الإحساس والحركة التي أتعبتكم في نهاركم مع الامتداد والاسترسال إراحة للقوى الحيوانية والحواس الجثمانية وإزاحة لكلالها مع أنه قاطع لكمال الحياة، فهو مذكر بالموتة الكبرى والاستيقاظ مذكر بالعبث، قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 16]

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)}

ولما ذكر النوم، اتبعه وقته الأليق به مذكراً بنعمة الظرف الزماني بعد التذكير بالظرف المكاني، فقال دالاً بمظهر العظمة على عظمه : {وجعلنا الّيل} أي بعد ذهاب الضياء حتى كأنه لم يكن {لباساً *} أي غطاء وغشاء ساتراً بظلمته ما أتى عليه عن العيون كما يستره اللباس لتسكنوا فيه عن المعاش {وجعلنا النهار} أي الذي آيته الشمس {معاشاً *} أي وقتاً للتقلب الذي هو من أسباب التحصيل الذي هو من أسباب المعاش، وهو العيش

ووقته وموضـــعه، مظهراً لما ســتره الليل، فالآية من الاحتباك: ذكر اللباس أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً والمعاش ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً.

ولما ذكر المهاد وما فيه، أتبعه السقف الذي بدورانه يكون الوقت الزمان وما يحويه من القناديل الزاهرة والمنافع الظاهرة لإحياء المهاد ومن فيه من العباد فقال: {وبنينا} أي بناء عظيماً {فوقكم} أي عاماً لجميع جهة الفوق، وهي عبارة تدل على الإحاطة {سبعاً} أي من السماوات {شداداً *} أي هي في غاية القوة والإحكام، لا صـــدع فيها ولا فتق، لا يؤثر فيها كر العصـــور ولا مر الدهور، حتى يأتي أمر الله بإظهار عظائم المقدور.

ولما ذكر الســـقف: ذكر بعض ما فيه من أمهات المنافع فقال دالا بمظهر العظمة على عظمها: {وجعلنا} أي مما لا يقدر عليه غيرنا {ســراجاً} أي نجماً منيراً جداً {وهاجاً *} أي هو مع تلألئه وشــدة ضــيائه حار مضــطرم الاتقاد وهو الشمس، من قولهم: وهج الجوهر: تلألأ، والجمر: اتقد.

ولمـا ذكر مـا يمحق الرطوبـة بحرارتـه، أتبعـه مـا يطفئ الحرارة برطوبتـه وبرودته فينشأ عنه المأكل والمشرب، التي بها تمام الحياة ويكون تولدها من الظرف بالمهاد والسقف، وجعل ذلك أشـبه شـيء بما يتولد بين الزوجين من الأولاد، فالســماء كالزوج والأرض كالمرأة، والماء كالمني، والنبات من النجم والشـجر كالأولاد فقال: {وأنزلنا} أي مما يعجز غيرنا {من المعصـرات} أي السـحائب التي أثقلت بالماء فشـارفت أن يعصـرها الرياح فتمطر كما حصـد الزرع- إذا حان له أن يحصـد، قال الفراء: المعصـر، السـحابة التي تتحلى بالمطر ولا تمطر كالمرأة المعصـرة وهي التي دنا حيضـها ولم تحض، وقال

الرازي: السـحائب التي دنت أن تمطر كالمعصـرة التي دنت من الحيض {ماء ثجاجاً *} أي منصباً بكثرة يتبع بعضه بعضاً، يقال: ثجه وثج بنفسه.
ولما ذكر بدايته، أتبعها نهايته فقال: {لنخرج} أي بعظمتنا التي ربطنا بها المسببات بالأسـباب {به} أي الماء تسـبيباً {حباً} أي نجماً ذا حب هو مقصوده لأنه يقتاته العباد، صرح به لأنه المقصود وبدأ به لأنه القوت الذي به البقاء كالحنطة والشـعير وغيرهما {ونباتاً *} يتفكهون ويتنزهون فيه وتعتلفه البهائم. ولما كان من المشـاهد الذي لا يسـوغ إنكاره أن في الأرض من البساتين ما يفوت الحصر، عبر بجمع القلة تحقيراً له بالنسبة إلى باهر العظمة ونافذ الكلمة فقال: {وجنات} أي بسـاتين تجمع أنواع الأشـجار والنبات المقتات وغيره {ألفافاً *} أي ملتفة الأشـجار مجتمعة بعضـها إلى بعض من شدة الري، جمع لف كجذع، قال البغوي: وقيل: هو جمع الجمع، يقال: جنة لفاء، وجمعها لف- بضـم اللام، وجمع الجمع ألفاف. وتضـمن هذا الذي ذكره المياه النابعة الجارية والواقفة، فاكتفى بذكره عن ذكرها، قال مقاتل: وكل من هذا الذي ذكر أعجب من البعث.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 22]

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22)}

ولما ذكر ما دل على غاية القدرة ونهاية الحكمة فدل قطعاً على الوحدانية لأنه لو كان التعدد لم تكن الحكمة ولم تتم القدرة، فأثمر المحبة لمن اتصف

بذلك، فأنتج للطائع الشـــوق إلى لقائه والترامي إلى مطالعة كمال نعمائه، وللعاصـــي ما هو حقيق به من الخوف من لقائه ليرده ذلك عن إعراضـــه وإبائه، أتبع ما أعلم أنه ما ذكره إلا للدلالة على النبأ العظيم في لقاء العزيز الرحيم، فقال منتجاً عما مضـــى من الوعيد وما دل على تمام القدرة مؤكداً لأجل إنكارهم: {إن يوم الفصل} أي الذي هو النبأ العظيم، وتقدم الإنذار به في المرســـلات وما خلق الخلق إلا لجمعهم فيه وإظهار صـــفات الكمال ليفصـــل فيه بين كل ملبس فصـــلاً لا شـــبهة فيه ويؤخذ للمظلوم من الظالم {كان} أي في علم الله وحكمته كوناً لا بد منه جعل فيه كالجبلة في ذوي الأرواح {ميقاتاً *} أي حداً يوقت به الدنيا وتنتهي عنده مع ما فيها من الخلائق.

ولما ذكره، ذكر ما فيه تعظيماً له وحثاً على الطاعة فقال مبدلاً منه أو مبيناً له: {يوم} ولما كان الهائل المفزع النفخ، لا كونه من معين، بنى للمفعول قوله {ينفخ} أي من نافخ أذن الله له {في الصور} وهو قرن من نور على ما قيل سـعته أعظم ما بين السـماء والأرض وهي نفخة البعث وهي الثانية من النفخات الأرض كما مر في آخر الزمر، ولذلك قال: {فتأتون} أي بعد القيام من القبور إلى الموقف أحياء كما كنتم أول مرة لا تفقدون من أعضـــــائكم وجلودكم وأشعاركم وأظفاركم وألوانكم الأصلية شيئاً يجمعكم من الأرض بعد أن تمزقتم فيها، واختلط تراب من بلي منكم بترابها وتراب بعضـــكم ببعض، وتمييز ذلك وجمعه وتركيبه كما كان وإعادة الروح فيه يسـير عليه سـبحانه وتعالى كما فعل ذلك كله من نطفة بعد أن فعله في آدم عليه الســـلام من

تراب لا أصل له في الحياة، حال كونكم {أفواجاً *} أي أمماً وزمراً وجماعات مشاة مسرعين كل أمة بإمامها، روى الثعلبي وابن مردويه عن البراء رضي الله عنهم- وقال شيخنا ابن حجر في ترجمة محمد بن زهير في لسان الميزان: إنه ظاهر الوضع- أن معاذاً رضي الله عنه سأل عن هذه الأفواج فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أمتي تحشر على عشرة أصناف: على صور القردة، وعلى صور الخنازير، وبعض منكسون يسحبون على وجوههم، وبعض عمي وبعض صم بكم، وبعض يمضغون ألسنتهم، فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع، وبعض منقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعض مصلوبون على جذوع من نار، وبعض أشد نتناً من الجيف، وبعض ملبسون جباباً سابغة من قطرن لازقة بجلودهم، فسرهم بالقتات وآكلي السحت وأكلة الربا والجائرين في الحكم والمعجبين بأعمالهم والعلماء الذين يخالف قولهم فعلهم والمؤذين للجيران والساعين بالناس للسلطان، والتابعين للشهوات المانعين حق الله تعالى والمتكبرين خيلاء».

ولما ذكر الآية في أنفسهم ذكر بعض آيات الآفاق، وبدأ بالعلوي لأنه أشرف فقال بانياً للمفعول لأن المفزع مطلق التفتيح، ولأن ذلك أدل على قدرة الفاعل وهوان الأمور عليه: {وفتحت السماء} أي شقق هذا الجنس تشقيقاً كبيراً، وقرأ الكوفيون بالتخفيف لأن التكثير يدل عليه ما سبب عن الفتح من قوله: {فكانت} أي كلها كينونة كأنها جبلة لها {أبواباً} أي كثيرة جداً لكثرة الشقوق الكبيرة بحيث صارت كأنها لا حقيقة لها إلا الأبواب.

ولما ذكر السـقف، ذكر أقرب الأرض إليه وأشـدها، فقال على طريقة كلام القادرين أيضـاً: {وسيرت} أي حملت بأيسر أمر على السير {الجبال} على ما تعلمون من صـلابتها وصـعوبتها في الهواء كأنها الهباء المنثور، وعلى ذلك دل قوله: {فكانت} أي كينونة راسـخة {سـراباً *} أي لا نرى فيها إلا خيالاً يتراءى وهي سائرة تمر مر السحاب ثم تخفى لتناثر أجزائها كالهباء- يا لها من عظمة تجب لها القلوب وتتعاظم الكروب.

ولما بين أن يوم الفصـل هو النبأ العظيم بعد أن دل عليه وذكر ما فيه من المسير، ذكر ما إليه من الدارين المصير، فقال بعد التذكير بما في الجبال من العذاب بحزونتها وما فيها من السـباع والحشـرات والأشـجار الشـائكة والقواطع المتشـابكة وغير ذلك من عجائب التقدير مؤكداً لتكذيبهم: {إن جهنم} أي النار التي تلقى أصـحابها متجهمة لهم بغاية ما يكرهون {كانت} أي جبلة وخلقاً {مرصـاداً *} أي موضـع رصـد لأعداء الله ترصـدهم فيها خزنة النار، فإذا رأوهم كردسوهم فيها، ولأولياء الله ترصدهم فيها خزنة الجنة لإنجائهم من النار عند ورودها أو هي راصـدة بليغة الرصـد للكفار حتى صـارت مجسدة من الرصد لتجمع أصحابها فلا يفوت منهم واحد كالمطعان لكثير الطعن، والمكثار للمبالغ في الإكثار، وعن ابن عباس رضـي الله عنهما أن على جسر جهنم سبعة مجالس يسأل عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة، فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسـأل عن الصـوم، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس فيسـأل عن الحج،

فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فينسأل عن المظالم، فإن خرج منها وإلا قيل: انظروا فإن كان له تطوع تكمل به أعماله. فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة.

ولما كان درء المفاسـد أولى من جلب المصـالح، قدم ذكر المخوف فقال: {للطاغين} أي المجاوزين لحدود الله {مآباً *} أي مرجعاً ومأوى بعد أن كان الله ذرأهم لها فكأنهم كانوا فيها ثم هيأهم للخروج منها والبعد عنها بفطرهم الأولى، ثم بما أنزل الله من الكتب وأرسـل من الرسـل فكأنه بذلك أخرجهم منها، ثم رجعوا إليها بما أحدثوا من التكذيب.

▲ تفسير الآيات رقم [23– 28]

{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَـرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّـاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَـابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كِذَّابًا (28)}

ولما ذكر مصيرهم إليها ذكر إقامتهم فيها فقال حالاً من ضمير «الطاغين»: {لابثين فيها} ولما كان جمع القلة يسـتعار للكثرة فكان الحقب يطلق على الزمان من غير حد، ويطلق على زمان محدود، فقيل على ثمانين سـنة، وعلى سبعين ألف سنة، فكان السياق من تصدير السورة بالنبأ وبوصفه مع التعبير بالنبأ العظيم وما بعد ذلك يفهم أن المراد الدوام إن أريد ما لا حد له وأن المراد إن أريد المحدود جمع الكثرة، وأكثر ما فسـر به الحقب، وأنه للمبالغة لا التحديد، كان جمع القلة هنا غير مشـكل، فمن حمله على ما دون ذلك فكفاه زاجراً لم يضره التعبير به، ومن اجترأ عليه واستهان به كان

فتنة له كما كان حصر عدد الخزنة للنار بتسعة عشر فلم يضر إلا نفسه، فلذلك عبر عن ظرف اللبث بقوله: {أحقاباً *} أي دهوراً عظيمة متتابعة لا انقضــاء لها على أن التبعير به- ولو حمل على الأقل وجعل منقضــياً- لا ينافي ما صرح فيه بالخلود لأنه أثبت شيئاً ولم ينف ما فوقه، وعن الحسن أنه قال: لا يكاد يذكر الحقب إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها من غير انقضاء.

ولما كان المسكن لا يصلح إلا بالاعتدال والماء الذي هو حياة كل شــيء، قال ذاكراً حال هذا اللبث: {لا يذوقون} أي ساعة ما فكيف بما فوق الذوق {فيها} أي النار خاصة، وكأنه أشار بتقديمه إلى أنهم يذوقون في دار أخرى الزمهرير {برداً} أي روحاً وراحة لنفعهم من الحر أو مطلق البرد {ولا شــراباً *} من ماء أو غيره يغنيهم من العطش على حال من الأحوال {إلا} حال كون ذلك الشراب {حميماً} أي ماء حاراً يشوي الوجوه قد انتهى حره {و} حال كون ذلك الشراب مع حرارته، أو البر د {غساقاً *} أي عصارة أهل النار من القيح والصــــديد البارد المنتن، فالاســـتثناء على هذا موزع الحميم من الشراب والغساق من البرد، فالحميم شرابهم في دولة السعير، والغساق في دولة الزمهرير.

ولما حكم عليهم بهذا العذاب الذي لا يطاق، ذكر حكمته فقال إنه جزاهم بذلك {جزاء وفاقاً *} أي ذا وفاق لأعمالهم لأنهم كانوا يأخذون أموال الناس فيحرقون صــــدورهم عليها ويبردون بها الشــراب ويصــفونه ويبخرونه، فهم يحرقون الآن بعصــــارة غيرهم المنتنة، وكأنهم بعد الأحقاب- إن جعلت

منقضـية- يبدلون عذاباً غير الحميم والغسـاق، ثم علل عذابهم بقوله، مؤكداً تنبيهاً على أن الحســاب من الوضــوح بحالة يصــدق به كل أحد، فلا يكاد يصــــدق أن أحداً يكذب به فلا يجوزه فقال : {إنهم كانوا } أي بما هو لهم كالجبلة التي لا تقبل غير ذلك فهم يفسدون القوى العلمية بأنهم {لا يرجون} أي في حال من الأحوال ولو رأوا كل آية {حســاباً *} فهم لا يعملون بغير الشـهوات، فوافق هذا خلودهم في النار، وعبر عن تكذيبهم بنفي الرجاء لأنه أبلغ، وذلك لأن الإنسان يطمع في الخير بأدنى احتمال.

ولما دل انتفاء رجائهم على تكذيبهم المفســد للقوة العلمية، صــرح به على وجه أعم فقال : {وكذبوا بآياتنا } أي على ما لها من العظمة الدالة أنها من عندنا {كذاباً * } أي تكذيباً هو في غاية المبالغة بحيث لو ســـمعوا أكذب الكذب ما كذبوا به كما كذبوا بها، فكان تجريعهم لما لا يصـــح أن يشـــربه أحد- وإن جرع منه شـــيئاً مات في الحال من غير موت- لهم جزاء على تكذيبهم بالحوارق التي يجرعون بها الصـادقين أنواع الحرق، وقرئ بالتخفيف للدلالة على أنهم كذبوا في تكذيبهم.

▲ تفسير الآيات رقم [29- 35]

{وَكُلَّ شَــيْءٍ أَحْصَـيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًـا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35)}

ولما كان التقدير: فكل شيء جعلنا له وزاناً، عطف عليه قوله: {وكل شيء} أي مطلقاً من أعمالهم وغيرها أو كل ما يقع عليه الحساب {أحصيناه} ولما

كان الإحصـاء موافقاً للكتابة في الضـبط، أكد فعله بها فقال: {كتاباً *} فلا جائز أن نترك شـــيئاً من الأشـــياء بغير جزاء، ويمكن تنزيل الآية على الاحتباك وهو أحسن: دل فعل الإحصاء على حذف مصدره، وإثبات مصدر «كتب» عليه أي أحصـيناه إحصـاء وكتبناه كتاباً، وذلك الإحصـاء والكتب لعدم الظلم.

ولما ذكر عذابه ووجه موافقته لجزائهم، سبب عن تكذيبهم ما يقال لهم بلسان الحال أو المقال إهانة وزيادة في الجزاء على طريق الالتفات المؤذن بشـــدة الخزي والغضـــب عليهم وكمال القدرة له ســـبحانه وتعالى فقال: ويجوز أن يكون سبباً عن مقدر بعد «كتاباً» نحو: ليجازيهم على كل شـيء منه، قائلاً لهم على لسـان الملائكة أو لسـان الحال: {فذوقوا} أي من هذا العذاب في هذا الحال بسـبب تكذيبكم بالحسـاب، وأكد ذوقهم في الاسـتقبال فقال: {فلن نزيدكم} أي شيئاً من الأشياء في وقت من الأوقات {إلا عذاباً *} فإن داركم ليس بها إلا الجحيم كما أن الجنة ليس بها إلا النعيم، فأفهم هذا أن حصـول شيء لهم غير العذاب محال.

ولمـا ذكر جزاء الكـافرين وأشـــعر آخره بكونـه إخزاء، ذكر جزاء المؤمنين المخالفين لهم فقال مســـتأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافرين به: {إن للمتقين} أي الراسـخين في الخوف المقتضـي لاتخاذ الوقاية مما يخاف فوقوا أنفسـهم من سخط الله بما يرضيه من الأعمال والأقوال والأحوال {مفازاً} أي فوزاً وموضـع فوز وزمان فوز بالراحة الدائمة من جميع ما مضـى ذكره للطاغين الذين هم أضدادهم، وقد كشفوا أنفسهم للعذاب كل الكشف، ثم فسره أو أبدل منه على

حذف مضـاف أي فوز: {حدائق} أي بسـاتين فيها أنواع الأشـجار ذوات الثمار والرياحين لتجمع مع لذة المطعم لذة البصـر والشـم، قد أحدقت بها الجدران وحوطت بها، قال ابن جرير: فإن لم تكن بحيطان محدقة بها لم يقل لها حديقة. وخص أشجار العنب لطيبها وحسنها وشرفها وما فيها من لذة الذوق وعبر عن أشـجارها بثمرتها إعلاماً بأنها لا توجد إلا موقرة حملاً وأن ثمرتها هي جل منفعتها فقال: {وأعناباً *}.

ولما ذكر المسـاكن النزهة المؤنقة المعجبة، ذكر ما يتمتع به وهو جامع لألذاذ الحواس: البصـر واللمس والذوق فقال: {وكواعب} أي نسـاء كعبت ثديهن {أتراباً *} أي على سن واحد من مس جلد واحد التراب قبل الأخرى، بل لو كن مولودات لكانت ولادتهن في آن واحد.

ولما ذكر النساء ذكر الملائم لعشرتهن فقال: {وكاساً} أي من الخبر التي لا مثل لها في لذة الذوق ظاهراً وباطناً وكمال السرور وإنعاش القوى.

ولما كانت العادة جارية بأن الشراب الجيد يكون قليلاً، دل على كثرته دليلاً على جودته بقوله: {دهاقاً *} أي ممتلئة.

ولما كانت مجالس الخمر في الدنيا ممتلئة بما ينغصـها من اللغو والكذب إلا عند من لا مروءة له فلا ينغصـه القبيح، قال نافياً عنها ما يكدر لذة السمع: {لا يسمعون فيها} أي الجنة في وقت ما {لغواً} أي لغطاً يستحق أن يلغى لأنه ليس له معنىً أعم من أن يكون مهملاً ليس له معنى أصـلاً، أو مسـتعملاً ليس له معنىً موجود في الخارج وإن قل، أو له معنى ولكنه لا يترتب به كبير فائدة. ولما انتفى الكذب بهذه الطريقة، وكان التكذيب أذى

للمكذب، نفاه بقوله: {ولا كذباً *} فإن هذه الصـــيغة تقال على التكذيب ومطلق الكذب، فصــار المعنى: ولا أذىً بمعارضـــة في القول، مع موافقة قراءة الكســـائي بالتخفيف فإن معناها كذباً أو مكاذبة، وشـــدد في قراءة الجماعة لرشـاقة اللفظ وموازنة «أعناباً وأتراباً» مع الإصــابة لحلق المعنى من غير أدنى جور عن القصد ولا تكلف بوجه ما.

▲ تفسير الآيات رقم [36- 40]

{جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَــابًا (36) رَبِّ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَــفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)}

ولما كان العطاء إذا كان على المعاوضـــة كان أطيب لنفس الآخذ قال: {جزاء} وبين أنه ما جعله جزاء لهم إلا إكراماً للنبي صـلى الله عليه وسـلم فإنه ســبحانه لا يجب عليه لأحد شــيء لأن أحداً لا يمكنه أن يوفي شـكر نعمة من نعمه فإن عمله من نعمه فقال: {من ربك} أي المحسن إليك بإكرام أمتك بانواع الإكرام، وفي {عطاء} إشــارة إلى ذلك وهو بذل من غير جزاء {حســاباً *} أي على قدر الكفاية وإن فعل الإنســان منهم ما فعل وحسـب جميع أنواع الحســاب، ومن قولهم: أعطاه فأحســبه- إذا تابع عليه العطاء وأكثره حتى جاوز العد وقال: حســـبي، لا يمكن أن يحتاج مع هذا العطاء

وإن زاد في الإنفاق، واختير التعبير به دون «كافياً» مثلاً لأنه أوقع في النفس، فإنه يقال: إذا كان هذا الحساب فما الظن بالثواب.
ولما ذكر سبحانه سعة فضله، وصف نفسه الأقدس بما يدل على عظمته زيادة في شرف المخاطب صلى الله عليه وسلم لأن عظمة العبد على حسب عظمة السيد، فقال مبدلاً على قراءة الجماعة وقاطعاً بالرفع على المدح عند الحجازيين وأبي عمرو: {رب السماوات والأرض} أي مبدعهما ومدبرهما ومالكهما {وما بينهما} ملكاً وملكاً. ولما شمل ذلك العرش وما دونه، علله بقوله: {الرحمن} أي الذي له الإنعام العام الذي أدناه الإيجاد، وليس ذلك لأحد غيره، فإن الكل داخل في ملكه وملكه، ولذلك قال دالاً على الجبروت بعد صفة الرحمة: {لا يملكون} أي أهل السماوات والأرض ومن بين ذلك أصلاً دائماً في وقت من الأوقات في الدنيا ولا في الآخرة لا في يوم بعينه: {منه} أي العام النعمة خاصة {خطاباً *} أي أن يخاطبوه أو يخاطبوا غيره بكلمة فما فوقها في أمرهم في غاية الاهتمام به بما أفاده التعبير بالخطاب، فكيف بما دونه وإذا لم يملكوا ذلك منه فمن والكمل في ملكه وملكه؟ وعدم ملكهم لأن يخاطبهم مفهوم موافقة، والحاصل أنهم لا يقدرون على خطاب ما من ذوات أنفسهم كما هو شأن المالك. وأما غيره فقد يملكون أن يكرهوه على خطابهم وأن يخاطبوه بغير إذن من ذلك الغير ولا رضى وبغير تملك منه لهم لأنه لا ملك له، وإذا كان هذا في الخطاب فما ظنك بمن يدعي الوصال بالاتحاد– عليهم اللعنة ولهم سوء المآب، ما أجرأهم على الاتحاد!
وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: كيف يكون للمكون المخلوق والفقير

المســـكين مكنة تملك منه خطاباً أو تتنفس نفســـاً كلا بل هو الله الواحد الجبار.

ولما كان هذا ربما أفهم سـد باب الشـفاعة عنده سـبحانه، وكان الكلام إنما ينشــأ من الروح، وكان الملائكة أقرب شـــيء إلى الروحية، أكد هذا المعنى مزيلاً ما قد يوهمه في الشـفاعة سـواء قلنا: إن الروح هنا جنس أم لا، فقال ذاكراً ظرف «لا يتكلمون» {يوم يقوم الروح} أي هذا الجنس أو خلق من خلق الله عظيم الشـــأن جداً، قيل: هو الملك الموكل بالأرواح أو جبرائيل عليه السلام، أو القرآن المشار إليه بمثل قوله تعالى

{تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر} [القدر: 4] {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا} [الشـورى: 52] قاله ابن زيد {والملائكة} أي كلهم، ونبه بالاصطفاف على شدة الأمر فقال: {صفاً *} للقاء ما في ذلك اليوم من شدائد الأهوال ولحفظ الثقلين وهم في وسط دائرة صفهم من الموج والاضــطراب لعظيم ما هم فيه، ثم زاد الأمر عظماً بذكر العامل في لا يوم فقال: {لا يتكلمون} أي من تقدم كلهم بأجمعهم فيه بكلمة واحدة مطلق كلام خطاباً كان أي في أمر عظيم أو لا، لا له سـبحانه ولا لغيره أصـلاً ولا أحد منهم، ويجوز أن يكون هذا حالاً لهؤلاء الخواص فيكون الضـمير لهم فغيرهم بطريق الأولى {إلا من أذن له} أي في الكلام إذناً خاصـــاً {الرحمن} أي الملك الذي لا تكون نعمه على أحد من خلقه إلا منه {وقال صـواباً *} فإن لم يحصــل الأمر إن لم يقع الكلام من أحد منهم أصــلاً، وهذا كالدليل على آية الخطاب بأنه إذا كان الروح والقريب منه بهذه المثابة في حال كل من

حضره كان أحوج ما يكون إلى الكلام فما الظن بغيرهم؟ وهم في غيره كذلك بطريق الأولى وغيرهم فيه وفي غيره من باب الأولى، وأما في الدنيا فإنه وإن كان لا يتكلم أحد إلا بإذنه لكنه قد يتكلم بالخطأ.

ولما عظم ذلك اليوم بالسكوت خوفاً من ذي الجبروت {وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً} [طه: 108] أشار إليه بما يستحقه زيادة في عظمته فقال: {ذلك} أي المشار إليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلو منزلته {اليوم الحق} أي في اليومية لكونه ثابتاً في نفسه فلا بد من كونه ولا زوال له ثوبتاً لا مرية فيه لعاقل وثابتاً كل ما أثبته وباطلاً كل ما نفاه. ولما قرر من عظمته ما يعجز غيره عن أن يقرر مثله، وكان قد خلق القوى والقدر والفعل بالاختيار. فكان من حق كل عاقل تدرع ما ينجى منه، سبب عن ذلك تنبيهاً على الخلاص منه وحثاً عليه قوله: {فمن شاء} أي الاتخاذ من المكلفين الذين أذن لهم {اتخذ} أي بغاية جهده {إلى ربه} أي خالقه نفسه المحسن إليه أو رب ذلك اليوم باستعمال قواه التي أعطاه الله إياها في الأعمال الصالحة {مآباً *} أي مرجعاً هو المرجع مما يحصل له فيه الثواب بالإيمان والطاعة، فإن الله جعل لهم قوة واختياراً، ولكن لا يقدر أحد منهم على مشيئة شيء إلا بمشيئة الله.

ولما قدم في هذه السورة من شرح هذا النبأ العظيم ما قدم من الحكم والمواعظ واللطائف والوعد والوعيد، لخصه في قوله مؤكداً لما لهم من التكذيب: {إنا} على ما لنا من العظمة {أنذرناكم} أي أيها الأمة وخصوصاً العرب بما مضى من هذه السورة وغيرها {عذاباً} ولما كان لا بد من إتيانه

وكونه سواء كان بالموت أو بالبعث، وكان كل ما تحقق إتيانه أقرب شيء قال: {قريباً}.

ولما حذر منه، عين وقته مشدداً لتهويله فقال: {يوم ينظر المرء} أي جنسه الصالح منه والطالح نظراً لامرية فيه {ما} أي الذي {قدمت يداه} أي كسبه في الدنيا من خير وشر، وعبر بهما لأنهما محل القدرة فكنى بهما عنها مع أن أكثر ما يعمل كائن بهما مستقلتين به أو مشاركتين فيه خيراً كان أو شراً. ولما كان التقدير: فيقول المؤمن: يا ليتني قمت قبل هذا، عطف عليه قوله: {ويقول الكافر} أي العريق في الكفر عندما يرى من تلك الأهوال متمنياً محالاً: {يا ليتني كنت} أي كوناً لا بد منه ولا يزول {تراباً *} أي في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو في هذا اليوم فلم أعذب، والمراد به الجنس أو إبليس الذي تكبر عن السجود لآدم عليه السلام المخلوق من التراب، وعظم نفسه بالحمد والافتخار بكونه مخلوقاً من نار، يقول ذلك عندما يرى ما أعد الله لآدم عليه السلام ولخواص بنيه من الكرامة من النعيم المقيم، ولهذا المتكبر على خالقه من العذاب الدائم الذي لا يزول، وعن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أن الله تعالى يقتص يوم البعث للبهائم بعضها من بعض ثم يقول لها: كوني تراباً، فتكون فيتمنى الكافر مثل ذلك. فقد علم أن ذلك اليوم في غاية العظمة وأنه لا بد من كونه، فعلم أن التساؤل عنه للتعجب من كونه من أعظم الجهل، فرجع آخرها على أولها، وانعطف مفصلها أي انعطاف على موصلها، واتصل مع ذلك بما بعدها أي اتصال، فإن المشرف بالنزع على الموت يرى كثيراً من الأهوال والزلازل والأوجال

التي يتمنى لأجلها أنه كان منقطعاً عن لدنيا ليس له بها وصـــــال يوماً من الأيام ولا ليلة من الليال- والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

79 Naaziaat Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة النازعات

79

▲ تفسير الآيات رقم [1- 11]

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11)}

لما ذكر سبحانه يوم يقوم الروح ويتمنى الكافر العدم، أقسم أول هذه بنزع الأرواح على الوجه الذي ذكره بأيدي الملائكة عليهم السلام على ما يتأثر عنه من البعث وساقه على وجه التأكيد بالقسم لأنهم به مكذبون فقال تعالى: {والنازعات} أي من الملائكة- كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم- للأرواح ولأنفسها من مراكزها في السماوات امتثالاً للأوامر الإليهة {غرقاً *}

أي إغراقاً بقوة شديدة تغلغلاً إلى أقصى المراد من كل شيء من البدن حتى الشعر والظفر والعظم كما يغرق النازع في القوس فيبلغ أقصى المدّ، وكان ذلك لنفوس الكفار والعصاة كما ينزع السفود وهو الحديدة المتشعبة المتعاكسة الشعب من الصوف المبلول، وعم ابن جرير كما هي عادته في كل ما يحتمله اللفظ فقال: والصواب أن يقال: إن الله تعالى لم يخصص، فكل نازعة داخلة في قسمه- يعني الاعتبار بما آتاها الله من القدرة على ذلك النزع الدالة على تمام الحكمة والاقتدار على ما يريده سبحانه.

ولما ذكر الشد مبتدئاً به لأنه أهول، أتبعه الرفق فقال: {والناشطات} أي المخرجات برفق للأرواح أو لأجنحتها من محالها {نشطاً *} أي رفقاً فلا تدع وإن كان رفيقاً بين الروح والجسد تعلقاً كما ينشط الشيء من العقال أي يحل من عروة كانت عقدت على هيئة الأنشوطة، قال الفراء إنه سمع العرب يقولون: نشطت العقال- إذا حللته، وأنشطت- إذا عقدت بأنشوطة- انتهى، والنشط أيضاً: الجذب والنزع، يقال: نشطت الدلو نشطاً- إذا نزعتها. وقال الخليل: النشط والإنشاط مدك الشيء إلى نفسك حتى ينحل، وكان هذا الأرواح أهل الطاعة، وكذلك نزع النبات والإنساء والإنماء لكل ما يراد نزعه أو نشطه، فالذي قدر بعض عبيده على هذا الذي فيه تمييز الأرواح من غيرها على ما لها من اللطافة وشدة الممازجة قادر على تمييز جسد كل ذي روح من جسد غيره بعد أن صار كل تراباً واختلط بتراب الآخر.

ولما ذكر نوعي السل بالشدة والرفق، ذكر فعلها في إقبالها إليه ورجوعها عنه فقال: {والسابحات} أي من الملائكة أيضاً في الجو بعد التهيؤ للطيران

إلى ما أمرهم الله به من أوامره من الروح أو غيرها {سـبحاً *} هو في غاية السـرعة لأنه لا عائق لها بل قد أقدرها الله على النفوذ في كل شـيء كما أقدر السـابح في الماء والهواء، ولذلك نسـق عليه بالفاء قوله: {فالسـابقات} أي بعد السـبح في الطيران إلى ما أمروا به من غمس الأرواح في النعيم أو الجحيم أو غير ذلك مما أمروا بـه في أسـرع من اللمح مع القدرة والغلبة لجميع ما يقع محاولته {سبقاً *}.

ولما بان بذلك حسـن امتثالها للأوامر، بان به عظيم نظرها في العواقب فدل على ذلك بـالفـاء في قولـه: {فـالمـدبرات} أي النـاظرات في أدبـار الأمور وعواقبها لإتقان ما أمروا به في الأرواح وغيرها {أمراً *} أي عظيماً، ويصح أن يكون للشمس والقمر والكواكب والرياح والخيل السابحة في الأرض والجو لمنفعة العباد وتدبير أمورهم، وبعضـها سـابق لبعض، وبه قال بعض المفسـرين، والجواب محذوف إشـارة إلى أنه من ظهور العلم به- بدلالة ما قبله وما بعده عليه- في حد لا مزيد عليه، فهو بحيث لا يحتاج إلى ذكره فحذفه كإثباته بالبرهان فتقديره: لتذهبن بالدنيا التي أنتم بها مغترون لنزعنا لها من حالها وتقطيع أوصالها، فإن كل ما تقدم من أعمال ملائكتنا هو من مقدمات ذلك تكذيباً لقول الكفار {ما هي إلا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: 24] المشـار إليه بتسـاؤلهم عنها لأنه على وجه الاسـتهزاء والتكذيب ولتقومن السـاعة؟ أو أنكم لمبعوثون بعد الموت وانتهاء هذه الدار؟ ثم لمجازون بما عملتم بأسـباب موجودة مهيأة بين أظهركم دبرناها وأوجدناها حين أوجبنا هذه الحياة الدنيا وإن كنتم لا ترونها كما أن

هذه الأمور التي أخبرناكم بها في نزع الأرواح والنبات والمنافع موجودة بين أظهركم والميت أقرب ما يكون منكم وهي تعمل أعمالها. والمحتضر أشد ما يكون صــوتاً وأعظمه حركة إذا هو قد خفت وهمد بعد ذلك الأمر وســكت وامتدت أعضاؤه ومات، وذهب عنكم قهراً وفات الذي فات كأنه قط ما كان، ولا تغلب في زمن من الأزمان، بتلك الأســباب التي تعمل أعمالها وتمد حبالها وترسـي أثقالها، وتلقي أهوالها وأوجالها، وأنتم لا ترونها، فيالله العجب أن لا يردكم ذلك على كثرته عن أن تستبعدوا على قدرته تمييز تراب جسد من تراب جسد آخر.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أوضـحت سـورة النبأ حال الكافر في قوله {يا ليتني كنت تراباً} [النبأ: 40] عند نظره ما قدمت يداه، ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال، أتبع ذلك ما قد كان حاله عليه في دنياه من اســتبعاد عودته في أخراه، وذكر قرب ذلك عليه سـبحانه كما قال في الموضـع الآخر {وهو أهون عليه} [الروم: 27] وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه، وإلا فليس عنده سـبحانه شــيء أهون من شــيء {إنما أمره إذا أراد شــيئاً أن يقول له كن فيكون} [يس: 82] فقال تعالى: {والنازعات غرقاً} [النازعات: 1] إلى قوله: {يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة} [النازعات: 10- 11] إذ يســتبعدون ذلك ويسـتدفعونه {فإنما هي زجرة واحدة} [النازعات: 13] أي صـحية {فإذا هم بالســاهرة} [النازعات: 14] أي الأرض قياماً ينظرون ما قدمت أيديهم ويتمنون أن لو كانوا تراباً ولا ينفعهم ذلك، ثم ذكر تعالى من قصـــة فرعون

وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه
{إن في ذلك لعبرة لمن يخشي} [النازعات: 26] انتهى.
ولما أقسم على القيام بتلك الأفعال العظام التي ما أقدر أهلها عليها إلا الملك العلام. ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلاً لأمر الساعة لأن النفوس المحسوسات نزاعة، فالغائبات عندها منسية مضاعة فقال ناصباً الظرف بذلك المحذوف لأنه لشدة وضوحه كالملفوظ به: {يوم ترجف} أي تضطرب اضطراباً كبيراً مزعجاً {الراجفة *} أي الصيحة، وهي النفخة الأولى التي هي بحيث يبلغ– من شدة إرجافها للقلوب وجميع الأشياء الساكنة من الأرض والجبال إلى نزع النفوس من جميع أهل الأرض– مبلغاً تستحق به أن توصف بالعراقة في الرجف، قال البغوي: وأصل الرجفة الصوت والحركة.
ولما ذكر الصيحة الأولى، أتبعها الثانية حالاً منها دلالة على قربها قرباً معنوياً لتحقق الوقوع، ولأن ذلك كله في حكم يوم واحد، فصح مجيء الحال وإن بعد زمنه من زمن صاحبه فقال: {تتبعها الرادفة *} أي الصيحة التابعة لها التي يقوم بها جميع الأموات وتجتمع الرفات، وتضطرب من هولها الأرض والسماوات، وتدك الجبال ويعظم الزلزال، ويكون عنها التسيير بعد المصير إلى الكثيب المهيل، ونحو ذلك من الأمر الشديد الطويل، قال حمزة الكرماني: روى السدي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحياة فينبتون

منه كما ينبت الزرع من الماء، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فبينما هم في قبورهم نفخ في الصور ثانية فجلسوا وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم.

ولما ذكر البعث، ذكر حال المكذب به لأن السياق له، فقال مبتدئاً بنكرة موصوفة: {قلوب يومئذ} أي إذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للأولى {واجفة *} أي شديدة الاضطراب أجوافها خوفاً تكاد تخرج منها من شدة الوجيف، ولما وصفها بالاضطراب، وكان قد يخفى سببه لكونه قد يكون عند السرور العظيم كما قد يكون عند الوجل الشديد، أخبر عنه بما يحقق معناه فقال: {أبصارها} أي أبصار أصحابها فهو من الاستخدام {خاشعة *} أي ذليلة ظاهر عليها الذل واضطراب القلوب من سوء الحال ولذلك أضافها إليها.

ولما وصفها بالاضطراب والذل، علله ليعرف منه أن من يقول ضد قولهم يكون له ضد وصفهم من الثبات والسكون والعز الظاهر فقال: {يقولون} أي في الدنيا قولاً يجددونه كل وقت من غير خوف ولا استحياء استهزاءً وإنكاراً. {أإنا لمردودون} أي بعد الموت ممن يتصف بردنا كائناً من كان {في الحافرة *} أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت هي حالتنا الأولى، من قولهم: رجع فلان في حافرته، أي طريقته التي جاء بها فحفرها أي أثر فيها بمشيه كما تؤثر الأقدام، والحوافر في الطرق، أطلق على المفعولة فاعلة مبالغة وذلك حقيقته، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم رجع إليه: رجع إلى حافرته، وقيل: الحافرة الأرض التي هي محل الحوافر.

ولما وصــف قلوبهم بهذا الإنكار الذي ينبغي لصــاحبه أن يذوب منه خجلاً إذا فرط منه مرة واحدة، وأشــار إلى شــدة وقاحتهم بتكريره، أتبعه التصــريح بتكريرهم له على وجه مشـــير إلى العلة الحاملة لهم على قوله وهو قولهم: {أإذا كنا} أي كوناً صـــار جبلة لنا {عظاماً نخرة *} أي هي في غاية الانتخار حتى تفتتت، فكان الانتخار وهو البلى والتفتت والتمزق كأنه طبع لها طبعت عليه، وهي أصـــلب البدن فكيف بما عداها من الجســـم، وعلى قراءة «ناخرة» المعنى أنها خلا ما فيها فصار الهواء ينخر فيها أي يصوّت.

▲ تفسير الآيات رقم [12- 19]

{قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)}

ولما كان العامل في «إذا» مقدراً بنحو أن يقال: نرد إذ ذاك إلى حالتنا الأولى ونقوم كما كنا؟ دل على هذا المحذوف قوله تعالى عنهم: {قالوا} أي مرة من المرات: {تلك} أي الردة إلى الحالة الأولى العجيبة جداً البعيدة من العقل في زعمهم {إذاً} أي إذ نرد إلى حياتنا الأولى لا شيء لنا كما ولدنا لا شــيء لنا، ونفقد كل ما سعينا في تحصــيله وجمعه وتأثيله {كرة} أي رجعة وإعادة وعطفة {خاسرة *} أي هي لشدة خسارتنا فيها بما فقدنا مما حصلناه من الحال والمآل وصـــالح الخلال، عريقة في الخســـارة حتى كأنها هي الخاســـرة، ولعله عبر بالماضـــي لأنهم ما ســـمحوا بهذا القول إلا مرة من

الدهر، وأما أغلب قولهم فكان أنهم يكونون على تقدير البعث أسـعد من المؤمنين على قياس ما هم عليه في الدنيا ونحو هذا من الكذب على الله.
ولما كان التقدير : نعم والله لتردن يا هؤلاء، إنما هذا الذي تقولونه كله استبعاد منكم كما أنكم مقرون بسهولته لو عقلتم، أما من جهة القدرة فلأن الابتداء أصعب من الإعادة وأنتم مقرون بالابتداء ولأن الاستبعاد إن كان من جهة وقوع الظن بأن من صار تراباً يصير عوده محالاً من جهة تعذر تمييز ترابه من تراب غيره، فتمييز النازع والناشط من الملائكة للروح من الجسد أصعب من ذلك بكثير، وكذا غير هذا مما تدبره الملائكة من الأمور، فكيف يصعب على ربهم سبحانه شيء يسهل مثله عليهم، وأما من جهة العوائد فإن أحداً لا يدع رعية له بغير حساب أصلاً، وأما من جهة الوعد فقد تقدم به، وليس من شيم الكرام فضلاً عن الملوك إخلاف الوعد ولا إقرار الظلم فلا تكذبوا بها ولا تستصعبوها، قال مسبباً عن هذا المقدر مهدداً لأصحاب الشبهة المقلدين: {فإنما هي} أي القيامة {زجرة *} أي صيحة بانتهار تتضمن الأمر بالقيام والسوق إلى المحشر والمنع من التخلف {واحدة *} عبر بالزجر وهو أشد من النهي لأنه يكون للعرض لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلاً، فكان كأن لسان الحال قال عن تلك الصيحة: أيها الأجساد البالية! انتهي عن الرقاد، وقومي إلى الميعاد، بما حكمنا به من المعاد، فقد انتهى زمان الحصاد، وآن أوان الاجتناء لما قدم من الزاد، فيا ويل من ليس له زاد! {فإذا هم} أي فتسبب عن هذه النفخة- وهي الثانية- أنهم فاجؤوا بغاية السرعة كونهم أحياء قائمين {بالساهرة *} أي

على ظهر الأرض البيضاء المستوية الواسعة التي يجددها الله للجزاء فتكون سعتها كأنها قد ابتلعتهم على كثرتهم التي تفوت العد، وتزيد على الحد، سميت بذلك لأن الشراب يجري فيها من الساهرة وهي العين الجارية، أو لأن سالكها يسهر خوفاً كما أن النوم يكون آمنة، أو لأن هذه الأرض بالخصوص لا نوم فيها مع طول الوقوف وتقلب الصروف الموجبة للحتوف. ولما كانت قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع القبط أشبه شيء بالقيامة لما حصل فيها من التقلبات والتغيرات وإيجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت. وقهر الجبابرة والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بني إسرائيل فنشطهم من القبط نشطاً رقيقاً كلهم وجميع ما لهم مع دوابهم إلى ربهم وحشر جميع القبط وراءهم فنزعهم نزعاً كلهم بحشر فرعون لهم بأصوات المنادين عنه في أسرع وقت وأيسر أمر إلى هلاكهم كما يحشر الأموات بعد إحيائهم بالصيحة إلى الساهرة، ثم كانت العاقبة في الطائفتين بما للمدبرات أمراً أن نجا بنو إسرائيل بالبحر كما ينجو يوم البعث المؤمنون بالصراط، وهلك فرعون وآله به كما يتساقط الكافرون بالصراط، وذلك أنه رأى فرعون وجنوده البحر قد انفلق لبني إسرائيل فلم يعتبروا بذلك ثم دخلوا فيه وراءهم، ولم يجوزوا أن الذي حسره عن مكانه قادر على أن يعيده كما ابتدأه فيغرقهم واستمروا في عماهم حتى رده الله فأغرقهم به كما أن من يكذب بالقيامة رأى بدء الله له ولغيره وإفناءه بعد إبدائه ثم إنه لم يجز أن يعيده كما بدأه أول مرة، وصل بذلك قوله تعالى جواباً لمن يقول: هل لذلك من دليل؟ مخاطباً

لأشـرف الخلق إشـارة إلى أنه لا يعتبر هذا حق اعتباره إلا أنت، مسـتفهماً عن الإتيان للتنبيه والحث على جمع النفس على التأمل والتدبر والاعتبار مقرراً ومسلياً له صلى الله عليه وسلم ومهدداً للمكذبين أن يكون حالهم- وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم- حكال فرعون في هذا، وقد كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود وقوتهم وسـحرهم ومرودهم في خداعهم ومكرهم ورأى من الآيات ما لم يره أحد قبله، فلما أصـر على التكذيب ولم يرجع ولا أفاده التأديب أغرقه الله وآله فلم يبق منهم أحداً وقد كانوا لا يحصـون عدداً بحيث إنه قيل : إن طليعته كانت على عدد بني إسرائيل ستمائة ألف: {هل أتاك} أي يا أعلم الخلق {حديث موسى *} أي ما كان من أمره الذي جددناه له حين أردناه فيكون كافياً لك في التسـلية ولقومك في الحث على التصـديق والتنبيه على الاعتبار والتهديد على التكذيب والإصرار {إذ} أي حين {ناداه ربه} أى المحسن إليه بإيجاده وتقريبه وتدبيره أمر إرسـاله وتقديره {بالواد المقدس} أي المطهر غاية التطهر بتشريف الله له بإنزال النبوة المفيضة للبركات، ثم بينه بقوله: {طوى *} وهو الذي طوى فيه الشر عن بني إسرائيل ومن أراد الله من خلقه ونشر بركات النبوة على جميع أهل الأرض المسـلم بإسـلامه، وغيره برفع عذاب الاسـتئصـال عنه، فإن العلماء قالوا : إن عذاب القبر- أي عذاب الاستئصال- ارتفع حين أنزلت التوراة.

وهو واد بالطور بين أيلة ومصر.

ولما ذكر المناداة فسـر ثمرتها بقوله مسـتأنفاً منبهاً لأصـحاب الشـهوة المعجبين المتكبرين، وقد أرشد السياق إلى أن التقدير، ناداه قائلاً: {اذهب إلى فرعون} أي ملك مصـر الذي كان اسـتعبد بني إسـرائيل ثم خوّف من واحد منهم فصـار يذبح أبناءهم خوفاً منه وهو أنت فربيناك في بيته لهلاكه حتى يعلم أنه لا مفر من قدرنا، فكنت أعز بني إسرائيل، وكان سبب هلاكه معه في بيته بمرأىً منه ومسـمع وهو لا يشـعر بذلك ثم قتلت منهم نفسـاً وخرجت من بلدهم خائفاً تترقب.

ولما أمره بالذهاب إليه، علله بما يسـتلزم إهلاكه على يده عليه الصـلاة والسـلام إشـارة له بالبشـارة بأنه لا سبيل له عليه، ولذلك أكده لأن مثل ذلك أمر يقتضـي طبع البشـر التوقف فيه فقال: {إنه طغى *} أي الحد وتجاوز الحد فاسـتحق المقابلة بالجد، ثم سـبب عن الذهاب إليه قوله {فقل} أي له تفصـيلاً لبعض ما تقدم في «طه» من لين القول ولطف الاسـتدعاء في الخطاب: {هل لك} أي ميل وحاجة {إلى أن تزكّى *} أي تتحلى بالفضائل، وتتطهر من الرذائل، ولو بأدنى أنواع التزكي: الطهارة الظاهرة والباطنة الموجبة للنماء والكثرة، وإفهام الأدنى بما يشـير إليه إسـقاط تاء التفعل المقتضـي للتخفيف، وذلك بالإذعان المقتضـي للإيمان وإرسال بني إسرائيل، وقرأ الحجازيان ويعقوب بالتشـديد أي تزكية بليغة لأن من دخل في التزكي على يد كامل لا سيما بني من أولي العزم أوشك أن يبلغ الغاية في الزكاء.

ولما أشار له الطهارة عن الشرك، أتبعها الأعمال فقال: {وأهديك} أي أبين لك بعد التزكية بالإيمان الذي هو الأسـاس: كيف المسـير {إلى ربك} أي

الموجد لك والمحسن إليك والمربي لك بتعريفك ما يرضيه من الأعمال وما يغضبه من الخصال بعد أن بلغك في الدنيا غاية الآمال {فتخشى *} أي فيتسبب عن ذلك أنك تصير تعمل أعمال من يخاف من عذابه خوفاً عظيماً، فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات وسائر المنهيات، فتصير إلى أعلى رتب التزكية فتجمع ملك الآخرة إلى ملك الدنيا، فإن الخشية هي الحاملة على كل خير، والآمن هو الحامل على الشر.

▲ تفسير الآيات رقم [20– 28]

{فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28)}

ولما كان التقدير: فذهب إليه كما أمره الله تعالى، فقال له ذلك فطلب الدليل على صحة الرسالة واستبعد أن يختص عنه بهذه المنزلة العلية وقد رباه وليداً {فأراه} أي فتسبب عن طلبه له أنه دل على صدقه بأنه أراه {الآية} أي العلامة الدالة على ذلك {الكبرى *} وهي قلب العصا حية أو جميع معجزاته {فكذب} أي فتسبب عن رؤية ذلك أنه أوقع التكذيب بشيء إنما يقتضي عند رؤيته التصديق {وعصى *} أي أوقع العصيان، وهو الإباء الكبير والتكبر عن امتثال ما دعي إليه مجموعاً إلى التكذيب بعد إقامة الدليل على الصدق وتحقق الأمر.

ولما كان التمادي على التكذيب ممن رأى وعرف الحق ولا سـيما إذا كان كبيراً مستبعداً جداً، أشـار إليه بأداة التراخي مع دلالتها على حقيقة التراخي أيضـاً فقال: {ثم أدبر} أي فرعون بعد المهلة والأناة إدباراً عظيماً بالتمادي على أعظم مما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشـاهد طويلة. حال كونه {يسـعى *} أي يعمل بغاية جهده عمل من هو مسـرع غاية الإسـراع في إبطال الأمر الرباني بقلة عقله وفسـاد رأيه وأبى أن يقبل الحق {فحشر} أي فتسبب عن إدباره ساعياً وتعقبه أنه جمع السحرة طوعاً وكرهاً وزاد عليهم أيضاً جنوده {فنادى *} أي في المجامع {فقال} أي مناديه الذي لا يشـك أنه عنه، فكان قوله كقوله: {أنا} وقال حمزة الكرماني: قال له موسى عليه السلام: إن ربي أرسلني إليك، لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سـنة في السـرور والنعيم، ثم تموت فتدخل الجنة، فقال: حتى أسـتشـير هامان، فاستشاره فقال: أتصير عبداً بعد ما كنت رباً تعبد، فعند ذلك بعث الشرط وجمع السحرة والجنود، فلما اجتمعوا قام عدو الله على سريره فقال: أنا {ربكم الأعلى *} فكان هذا نداؤه يعني كلكم أرباب بعضـكم فوق بعض وأنا أعلاكم، ولا رب فوقي أصـلاً، وذلك لأن الإله عنده الطبيعة، وهي مقسـمة في الموجودات، فهم كلهم أرباب، ومن كان أعلى كان أقعد في المراد، وهو كان أعلى منهم فقبحه الله ولعنه ولعن من تمذهب بمذهبه كابن عربي وابن الفارض وأتباعهما حيث أنكروا المختار الملك القهار، ورسـوله المصطفى المختار، وتبعوا في وحدة الوجود بعض الفلاسفة ثم الحلاج بعد فرعون هذا الذي لم يصـرح الله بذم أحد ما صـرح بذمه، ولم يصـرح بشـقاء

أحد ما صرح بشقائه، كهذه الآية فإنها مصرحة بوقوع نكاله في الآخرة كما وقع في الدنيا، وقوله تعالى: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم المقبوحين} [القصص: 40- 42] إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلائل الواضحات التي لا تحصى وهي كثيرة، وأعظمها القياس البديهي الإنتاج {وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين} [يونس: 83] {وإن المسرفين هم أصحاب النار} [غافر: 43] ويروى أن إبليس لما سمع منه قوله هذا قال: إني تجبرت على آدم فلقيت ما لقيت، وهذا يقول هذا ؟ وهذا دعاه إليه الكبر الناشئ من فتنة السراء التي الصبر فيها أعظم من الصبر في الضراء، قال الإمام الغزالي في كتاب الصبر من الإحياء: فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: 24] ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنعاً من إظهاره، فإن امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم في خدمته لا يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء- انتهى. ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم ما لام خادمه في شيء قط- والله تعالى هو الموفق للصواب.

ولما أخبر سبحانه عنه بهذه الكلمة الشنعاء القادحة في الملك، وكان الملوك لا يحتملون ذلك بوجه، سبب عنها وعقب قوله: {فأخذه الله} أي الملك الذي لا كفوء له ولا أمر لأحد معه أخذ قهر وذل منكلاً به مخذلاً له: {نكال الآخرة} فهو مصـــدر من المعنى، أي أخذ تنكيل فيها يكون مثلاً يتقيد به ويتعظ كل من سمعه عن مثل حال فرعون، وقدمها اهتماماً بشأنها وإشارة إلى أن عظمة عذابها أعظم ولا يذوقه الإنســـان إلا بكشـــف غطاء الدنيا بالموت، وتنبيهاً على أن المنع من مثل هذه الدعوى للصـــدق بها أمكن، وليس ذلك للفاصلة لأنه لو قيل: «الأخرى» لوافقت {والأولى *} أي ونكال الدنيا الذي هو قبل الآخرة فإن من ســـمع قصـــة غرقه ومجموع ما اتفق له كان له ذلك نكالاً مانعاً من عمل مثله أو أقل منه، قال الضـــحاك: أما في الدنيا فأغرقه الله تعالى وألقاه بنجوة من الأرض، أما في العقبى فيدخله الله تعالى النار ويجعله ظاهراً على تل منها مغلولاً مقيداً ينادي عليه هذا الذي ادعى الربوبية دون الله انتهى. وأنا لا أشـــك أن الحلاج وابن عربي وابن الفارض، وأتباعهم يكونون في النار تحتهم وتحت آله يشـربون عصـارتهم، فإنهم ادعوا أنه ناج وصـــدقوه فيما ادعاه وادعوا لأنفســـهم وغيرهم مثل ما ادعاه تكذيباً للقرآن وإغراقاً في العدوان، وزادوا عليه بابتذال الاســـم الأعظم الذي حماه الله من أن يدعيه أحد قبل إرســـال النبي صـــلى الله عليه وســـلم فادعوا أنه يطلق عليهم وعلى كل أحد بل كل شـــيء، وأمارة هذه الطائفة الخبيثة التي لا تتخلف أن تقول لأحدهم: العن فرعون الذي أجمع على لعنه جميع الطوائف.

وهو مثل عندهم في الشرارة والخبث فلا يلعنه، وإن لعنه فبعد توقف.

ولما لخص سبحانه وتعالى ما مضى من قصصه في هذه الكلمات اليسيرة أحسن تلخيص وأقربه مع عدم المخالفة لشيء مما مضى لأن المفصل موضع الاختصار أما باعتبار النزول فإنه نزل أولاً فكان تقريب القصص للناس بالاقتصار على ما لا بد منه أولى ليستأنسوا به، وأما من جهة الترتيب فلتذكيرهم بما مضى ليجتمع في المخيّلة في أقرب وقت ويتذكر به ذلك المبسوط، وختمه بأخذه هذا الأخذ الغريب أرشد إلى ما في القصة من العبرة، مشيراً إلى استحضار ما مضى كله، فقال مؤكداً مقرراً للمكذب ومنبهاً للمصدق: {إن في ذلك} أي الأمر العظيم الذي فعله والذي فعل به {لعبرة} أي أمراً عظيماً يتعمد الاعتبار به من معنى إلى معنى حتى يقع به الوصول إلى كثير من المعارف {لمن يخشى *} أي من شأنه الخوف العظيم من الله لأن الخشية- كما تقدم- هي أساس الخير، فأول العبور أن ينقل السامع حال غيره إليه فيتذكر بإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم منهم على قوتهم ثم بقوة ما حصل لهم من القهر من ذلك حتى أوجب اتباعهم بالجنود ثم بفرق البحر ثم بإيرادهم إياه ثم بإغراقهم فيه كلمح البصر لم يخرج منهم مخبر قدرة الله تعالى على إيراد الكفار النار وقهر كل جبار وبجعل العصا حية وإخراج القمل والضفادع من الأرض وتحويل الماء دماً قدرته سبحانه وتعالى على ذلك السامع بالعذاب وغيره وعلى خصوص البعث- إلى غير ذلك من العبر وواضح الأثر.

ولما ختم قصـــة فرعون– لعنه الله– بالعبرة، وكان أعظم عبرتها القدرة التامة لا ســـيما على البعث كما هي مشـــيرة إليه بأولها وآخرها، والعقوبة على التكذيب به لأن التكذيب به يجمع مجامع الشر والتصـديق به يجمع مجامع الخير، وكانوا يسـتبعدونه لاسـتبعاد القدرة عليه، وصـل به ما هو كالنتيجة منه، فقال مقرراً مخاطباً لأصـحاب الشـبهة الشـاكين موقفاً لهم على القدرة منكراً عليهم اسـتبعادهم وذلك ملتفتاً بعد تخصـيص الخطاب به صـلى الله عليه وسـلم لما تقدم من دقة فهمه وجلالة علمه صـلى الله عليه وسـلم إلى عموم الخطاب لوضـوح هذا البرهان لكل إنسـان اسـتعطافاً بهم في توبيخ: {أأنتم} أي أيها الأحياء مع كونكم خلقاً ضعيفاً {أشد خلقاً} أي أصعب وأثقل من جهة التقدير والإيجاد {أم السماء} على ما فيها من السعة والكبر والعلو والمنافع.

ولما كان الجواب قطعاً: السـماء– لما يرى من أعظمها لأن العالم الإنسـاني مختصـر العالم الآفاقي، ويزيد الآفاقي طول البقاء مع عدم التأثر، وصل به قوله دليلاً على قدرته على البعث لقدرته على ما هو أشد منه لأن الذي قدر على ابتداء الأكبر هو على إعادة الأصـــغر أقدر، مبيناً لكيفية خلقه لها : {بناها *} أي جعلها ســقفاً للأرض على ما لها من العظمة، ثم بين البناء بقوله: {رفع سمكها} أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو سمنها الذاهب في العلو رفيعاً، قال في القاموس: السـمك السـقف، أو من أعلى البيت إلى أسـفله، أو القامة من كل شـيء، وقال أبو حيان: السـمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الذي يلينا وسطحها الذي يلي ما فوقها: {فسواها *} أي عدلها

عقب ذلك بأن جعلها مستوية لا شيء فيها أعلى من شيء ولا أخفض ولا فطور فيها، وأصلحها بما تم به كمالها من الكواكب وغيرها، وجعل مقدار تخن كل سماء وما بين كل سماءين وتخن كل أرض وما بين كل أرضين على السواء لا يزيد شيء من ذلك على الآخر أصلاً.

▲ تفسير الآيات رقم [29– 37]

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37)}

ولما كان كل من ذلك يدل على القدرة على البعث لأنه إيجاد ما هو أشد من خلق الآدمي من عدم، أتبعه ما يتصور به البعث في كل يوم وليلة مرتين فقال: {وأغطش} أي أظلم إظلاماً لا يهتدي معه إلى ما كان في حال الضياء {ليلها} أي بغياب شمسها فأخفى ضياءها بامتداد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه. وأضافه إليها لأنه يحدث بحركتها، وبدأ به لأنه كان أولاً، والعدم قبل الوجود {وأخرج ضحاها *} بطلوع شمسها فأضاء نهارها، فالآية من الاحتباك : دل ب «أغطش» على «أضاء» وبإخراج الضحى على إخفاء الضياء، ولعله عبر بالضحى عن النهار لأنه أزهر ما فيه وأقوى نوراً.

ولما بدأ بدلالة العالم العلوي لأنه أدل لما فيه من العجائب والمنافع مع كونه أشرف، فذكر أنه أتقن السماء التي هي كالذكر، ثنى بأنه سوى ما هي لها

كالأنثى فقال: {والأرض} ولما كان المراد استغراق الزمان باستمرار الدحو، حذف الخافض فقال: {بعد ذلك} أي المذكور كله {دحاها} أي بسطها ومدها للسكنى وبقية المنافع بعد أن كان خلقها وأوجدها قبل إيجاد السماء غير مسواة بالفعل ولا مدحوة.

ولما ذكر الدحو، أتبعه ما استلزمه من المنافع لتوقف السكنى المقصودة بالدحو عليه فقال كالمبين له من غير عاطف: {أخرج منها} أي الأرض {ماءها} بتفجير العيون، وإضافته إليها دليل على أنه فيها {ومرعاها *} الذي يخرج بالماء، والمراد ما يرعى منها ومكانه وزمانه.

ولما ذكر الأرض ومنافعها، ذكر المراسي التي تم بها نفعها فقال: {والجبال} أي خاصة {أرساها *} أي أثبتها وأقرها ومع كونها ثابتة لا تتحول فإنه سبحانه جعلها مراسي للأرض تكون سبباً لثباتها كما أن المراسي سبب لثبات السفينة. ولما كانت الإعادة واضحة من تناول الحيوان المأكل والمشرب وغيرهما من المتاع فإنه كلما نقص منه شيء تناول ما قدر له ليعود ذلك أو بعضه، قال منبهاً على أنه كل يوم في إعادة بانياً حالاً مما تقدم تقديره: حال كونها {متاعاً} مقدراً {لكم} تتمتعون بما فيها من المنافع {ولأنعامكم *} أي مواشكيم بالرعي وغيره.

ولما ذكر ما دل على البعث، أتبعه ما يكون عن البعث مسبباً عنه دلالة على أن الوجود ما خلق إلا لأجل البعث لأنه محط الحكمة: {فإذا جاءت} أي بعد الموت {الطامة الكبرى *} أي الداهية الدهياء التي تطم- أي تعلو- على سائر الدواهي وتغطيها فتكون أكبر داهية توجد، وهي البعث بالنفخة

الثانية- كما قاله ابن عباس رضـــي الله عنهما، والعامل في «إذا» محذوف تقديره: فصل الناس إلى شقي وسعيد.

ولما كان الشـــيء لا يعرف قدره إذا كان غائباً إلا بما يكون فيه، قال مبدلاً منه: {يوم يتذكر} أي تذكراً عظيماً ظاهراً- بما أشار إليه الإظهار {الإنسان} أي الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له {ما سعى *} أي عمل كله من خير وشر لأنه يراه في صحيفة أعماله، والإخبار عن تذكره منبهاً على ما في ذلك اليوم من الخطر لأن أحداً لا يعمل جهده في تذكره إلا لمحوج إلى ذلك وهو الحساب وتدوينه في صحيفة أعماله.

ولما أشـار إلى الحساب ذكر ما بعده فقال: {وبرزت} أي أظهرت إظهاراً عظيماً، وبناه للمفعول لأن الهائل مطلق تبريزها لا كونه من معين، مع الدلالة على الخفة والسـهولة لكونه على طريقة كلام القادرين {الجحيم} أي النار التي اشتد وقدها وحرها {لمن يرى *} أي كائناً من كان لأنه لا حائل بين أحد وبين رؤيتها، لكن الناجي لا يصرف بصره إليها فلا يراها كما قال تعالى: {لا يسمعون حسيسها} [الأنبياء: 102].

ولما كان جواب «إذا» كما مضـــى محذوفاً، وكان تقديره أن قسـم الناس قسمين: قسم للجحيم وقسم للنعيم، قال تعالى مسبباً عنه مفصلاً: {فأما من طغى *} أي تجاوز الحد في العدوان فلم يخش مقام ربه، قال في القاموس: طغى: جاوز القدر وارتفع وطغى: غلا في الكفر وأسـرف في المعاصـي والظلم، والماء: ارتفع.

▲ تفسير الآيات رقم [38- 41]

{وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)}

ولما كان الذي بعد حدود الله هو الدنيا، صـــرح به فقال: {وآثر} أي أكرم وقدم واختار {الحياة الدنيا *} بأن جعل أثر العاجلة الدنية لحضـــورها عنده أعظم من أثر الآخرة العليا لغيابها، فكان كالبهائم لا إدراك له لغير الجزئيات الحاضـرة، فانهمك في جميع أعمالها وأعرض عن الاستعداد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس فلم ينه نفسه عن الهوى.

ولما كان الإنســـان مؤاخذاً بما اكتســـب، ســـبب عن أعماله هذه قوله مؤكداً لتكذيبهم ذلك: {فإن الجحيم} أي النار الشـــديدة التوقد العظيمة الجموع على من يدخلها {هي} أي لا غيرها {المأوى *} أي المســـكن له- هذا مذهب البصـــريين أن الضـــمير محذوف، وعند الكوفيين أن «أل» نـائب عن الضمير- قاله أبو حيان.

ولما ذكر الطاغي، أتبعه المتقي فقال: {وأما من خاف} ولما كان ذلك الخوف مما يتعلق بالشـــيء لأجل ذلك الشـــيء أعظم من ذكر الخوف من ذلك الشـــيء نفســـه فقال: {مقام ربه} أي قيامه بين يدي المحســـن إليه عند تذكر إحسانه فلم يطغ فكيف عند تذكر جلاله وانتقامه، أو المكان الذي يقوم فيه بين يديه والزمان، وإذا خاف ذلك المقام فما ظنك بالخوف من صـــاحبه، وهذا لا يفعله إلا من تحقق المعاد.

ولما ذكر الخوف ذكر ما يتأثر عنه ولم يجعله مســـبباً عنه ليفهم أن كلاًّ منهما فاصـل على حياله وإن انفصـل عن الآخر فقال: {ونهى النفس} أي التي لها المنافســة {عن الهوى} أي كل ما تهواه فإنه لا يجر إلى خير لأن النار حفت بالشــهوات، والشــرع كله مبني على ما يخالف الطبع وما تهوى الأنفس، وذلك هو المحارم التي حفت بها النار فإنها بالشهوات، قال الرازي: والهوى هو الشـهوة المذمومة المخالفة لأوامر الشـرع. قال الجنيد: إذا خالفت النفس هواها صـــار داؤها دواءها، أي فأفاد ذلك أنه لم يؤثر الحياة الدنيا، فالآية من الاحتباك: أتى بطغى دليلاً على ضـده ثانياً، وبالنهي عن الهوى ثانياً دلالة على إيثار الدنيا أولاً. ولما كان مقام ترغيب، ربط الجزاء بالعمل كما صـــنع في الترهيب فقال وأكد لأجل تكذيب الكفار: {فإن الجنة} أي البستان الجامع لكل ما يشتهي {هي} أي خاصة {المأوى *} أي له، لا يأوي إلى غيرها، وهذا حال المراقبين.

▲ تفسير الآيات رقم [42- 46]

{يَسْـأَلُونَكَ عَنِ السَّـاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَـاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)}

ولما قســمهم هذا التقســيم المفهم أن هذا شــيء لا بد منه، اســتأنف ذكر اســتهزائهم تعجيباً منهم فقال: {يســئلونك} أي قريش على ســبيل التجديد والاستمرار سؤال استهزاء وإنكار واستبعاد: {عن الساعة} أي البعث الآخر

لكثرة ما تتوعدهم بها عن أمرنا . ولما كان السـؤال عنها مبهماً بينه بقوله: {أيان مرساها *} أي في أي وقت إرساؤها أي وقوعها أو ثباتها واستقرارها.

ولما كان إيراد هذا هكذا مفهماً للإنكار عليهم في هذا السـؤال، وكان من المعلوم أنه يقول: إنهم ليسـألونني وربما تحركت نفسـه الشـريفة صـلى الله عليه وسلم إلى إجابتهم لحرصه على إسلامهم شفقة عليهم، فطمه عن ذلك وصـرح بالإنكار بقوله: {فيم} أي في أي شـيء {أنت من ذكراها *} أي ذكرها العظيم لتعرفها وتبين وقتها لهم حرصـاً على إسـلامهم، وذلك لا يفيد علمها، ثم عرفها بما لا يمكن المزيد عليه مما أفادته الجملة التي قبل من أنه لا يمكن علمها لغيره سبحانه وتعالى فقال: {إلى ربك} أي المحسن إليك وحده {منتهاها *} أي منتهى علمها وجميع أمرها.

ولما كان غاية أمرهم أنهم يقولون : إنه متقول من عند نفسـه، قلب عليهم الأمر فقال: {إنما أنت} أي يا أشـرف المرسـلين {منذر} أي مخوف على سـبيل الحتم الذي لا بد منه مع علمك بما تخوف به العلم الذي لا مرية فيه {من يخشـاها *} أي فيه أهلية أن يخافها خوفاً عظيماً فيعمل لها لعلمه بإتيانها لا محالة وعلمه بموته لا محالة وعلمه بأن كل ما تحقق وقوعه فهو قريب، وذلك لا يناسـب تعيين وقتها فإن من فيه أهلية الخشـية لا يزيده إبهامها إلا خشـية، وغيره لا يزيده ذلك إلا اجتراء وإجراماً، فما أرسـلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها، فإن النافع الأول دون الثاني، ولسـت في شـيء مما يصـفونك به كذباً منهم لأنا ما نرسـل المرسـلين إلا مبشـرين ومنذرين ولا أنت مبعوث لتحرير وقت السـاعة وعلم عينه، وإنما قصـره على

من يخشى لأن غيره لا ينتفع بإنذاره، فكان كأنه لم يحصل له الإنذار، ولهذا المعنى أضـاف إشـارة إلى أنه عريق في إنذار من يخشـى، وأما غيره فهو منذر له في الجملة أي يحصـل له صـورة الإنذار لأنه منذره بمعنى أنه لا يحصل له معنى الإنذار.

ولما أثبت أنه منذر، وكان أخوف الإنذار الإسـراع، قال مسـتأنفاً محقراً لهم الدنيا مزهداً لهم فيها: {كأنهم} أي هؤلاء المنكرين لصـحة الإنذار بها {يوم يرونها} أي يعلمون قيامها علماً هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور من علمهم بما مر من زمانهم وما يأتي منه {لم يلبثوا} أي في الدنيا وفي القبور {إلا عشـية} أي من الزوال إلى غروب الشمس.

ولما كانوا على غير ثقة من شـيء مما يقولونه قال: {أو ضـحاها *} أي ضـحى عشـية من العشـايا وهو البكرة إلى الزوال، والعشـية ما بعد ذلك، أضيف إليها الضحى لأنه من النهار، ولإضافة تحصل بأدنى ملابسة، وهي هنا كونهما من نهار واحد، فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره، لم يستكملوا نهاراً تاماً ولم يجمعوا بين طرفيه، وهذا كما قال صـلى الله عليه وسـلم «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصـبعه في اليم فلينظر بم يرجع» وهذا تعبير لنا بما نحسـه تقريباً لعقولنا وإن كانت القاعدة أنه لا نسـبة لما يتناهى إلى ما لا يتناهى على أن الكفار أيضـاً يسـتقصـرون مدة لبثهم، فكأنهم أصناف: بعضهم يقول: إن لبثتم إلا عشراً، وبعضهم يقول: إن لبثتم إلا يوماً، وبعضـهم يتحير فيقول: اسـأل العادين، أو أن تلك أقوالهم، والحق

من ذلك هو ما أخبر الله به غير مضـاف إلى أقوالهم من أن ما مضـى لهم في جنب ما يأتي كأنه سـاعة من نهار بالنسـبة إلى النهار الكامل كما قال تعالى في سورة يونس عليه الصلاة والسلام {ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم} [يونس: 45] على أن منهم من يقول ذلك أيضـــاً كما قال تعالى في ســـورة المؤمنين حين قال تعالى {كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين} [المؤمنون: 112- 113] وذلك بالنسـبة إلى ما كشـف لهم عن أنهم يسـتقبلونه مما لا آخر له أو أنهم لما نزعتهم نفحة إسرافيل عليه الصلاة والسلام بيد القدرة من قبورهم غرقاً نزعاً شـــديداً فقاموا ورأوا تلك الأهوال وعلموا ما يســـتقبلونه من الأوجال استقصـروا مدة لبثهم قبل ذلك لأن من استلذ شيئاً استقصـر مدته وهم اســـتلذوا ذلك وإن كان من أمرّ المرّ في جنب لهم عن أنهم لاقوه، فقد رجع آخرها بالقيامة على أولها، والتف مفصـــلها بنزع الأنفس اللوامة على موصـــلها، واتصـــلت بأول ما بعدها من جهة الخشـــية والتذكر فيا طيب متصلها، فسبحان من جعله متعانق المقاطع والمطالع، وأنزله رياضاً محكمة المذاهب والمراجع، والله سـبحانه وتعالى هو الموفق للصـواب وإليه المرجع والمآب.

80 Abasa Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة عبس

80

تفسير الآيات رقم [1- 6]

{عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6)}

لما قصره سبحانه على إنذاره من يخشى، وكان قد جاءه صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله تعالى عنه، وكان من السابقين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين مجيئه مشتغلاً بدعاء ناس من صناديد قريش إلى الله تعالى، وقد وجد منهم نوع لين، فشرع عبد الله رضي الله عنه يسأله وهو لا يعلم ما هو فيه من الشغل، يسأله أن يقرئه ويعلمه مما علمه الله فكره أن يقطع كلامه مع أولئك خوفاً من أن يفوته منهم ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام ناس كثير من أتباعهم، فكان

يعرض عنه ويقبل عليهم، وتظهر الكراهة في وجهه، لاطفه سبحانه وتعالى بالعتاب عن التشاغل عن أهل ذلك بالتصدي لمن شأنه أن لا يخشى لافتتانه بزينة الحياة الدنيا وإقباله بكليته على ما يفنى، فقال مبيناً لشرف الفقر وعلو مرتبته وفضل أهل الدين وإن هانوا، وخسة أهل الدنيا وإن زانوا، معظماً له صلى الله عليه وسلم بسياق الغيبة كما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه لما حكم في بني قريظة: وعلى من ههنا- يشير إلى ناحية النبي صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنها حياء منه صلى الله عليه وسلم وإجلالاً له: {عبس} أي فعل الذي هو أعظم خلقنا ونجله عن أن نواجهه بمثل هذا العتاب بوجهه فعل الكاره للشيء من تقطيب الوجه بما له من الطبع البشري حين يحال بينه وبين مراده، وآذن بمدحه صلى الله عليه وسلم بأن ذلك خلاف ما طبعه عليه سبحانه من رحمة المساكين ومحبتهم والسرور بقربهم وصحبتهم بقوله {وتولى *} أي كلف نفسه الإعراض عنه رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة الله لأجل {أن جاءه الأعمى *} الذي ينبغي أن يبالغ في العطف عليه وفي إكرامه جبراً لكسره واعترافاً بحقه في مجيئه، وذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام على قطع الكلام والبعث على الرأفة به والرحمة له، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رآه بعد ذلك قال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» واستخلفه على المدينة الشريفة عند غزوه مرتين، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ورأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء رضي الله عنه.

ولما عرف بسـياق الغيبة ما أريد من الإجلال، وكان طول الإعراض موجباً للانقباض، أقبل عليه صلى الله عليه وسلم فقال: {وما يدريك} أي وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وإن اجتهدت في ذلك فإن ذوات الصـدور لا يعلمها إلا الله تعالى {لعله} أي الأعمى {يزكى} أي يكون بحيث يرجى تطهره ونمو أحواله الصالحة بما يسمع منك ولو على أدنى الوجوه بما يشير إليه إدغام تاء الافتعال، وكذا قوله: {أو يذكر} أي أو يقع منه التذكر لشيء يكون سبباً لزكائه وتذكره ولو كان ذلك منه على أدنى الوجوه المخرجة من الكفر فإن الخير لا يحقر شيء منه، وسبب عن تزكيه وتذكره قوله: {فتنفعه} أي عقب تذكره وسببه {الذكرى *} وفي ذلك إيماء إلى أن الإعراض كان لتزكية غيره وتذكره، وقراءة النصب على أنه جواب «لعل».

ولما ذكر العبوس والتولي عنه فأفهما ضـدهما لمن كان مقبلاً عليهم، بين ذلك فقال: {أما من اسـتغنى *} أي طلب الغنى وهو المال والثروة فوجده وإن لم يخش ولم يجئ إليك {فأنت له} أي دون الأعمى {تصـدى *} أي تتعرض بالإقبال عليه والاجتهاد في وعظه رجاء إسـلامه وإسـلام أتباعه بإسـلامه وهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل وأبي وأمية ابنا خلف، وأشـار حذف تاء التفعل في قراءة الجماعة وإدغامها في قراءة نافع وابن كثير إلى أن ذلك كان على وجه خفيف كما هي عادة العقلاء.

▲ تفسير الآيات رقم [7- 16]

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)}

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه {إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} [النازعات: 26] وقال بعد {إنما أنت منذر من يخشاها} [النازعات: 45] افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه لهم فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله صلى الله عليه وسلم وأعلى منزلته لديه «رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي بسببه نزلت السورة ووردت بطريق العتب وصاة لنبيه صلى الله عليه وسلم وتنبيهاً على أن يعمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وأن لا يحتقر وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك، ولكن التحذير من هذا وإن لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر، ومنه قوله سبحانه {لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: 65] و{لا تدع مع الله إلهاً آخر} [ص: 88] و{لا تمش في الأرض مرحاً} [لقمان: 18] وهو كثير، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق، لما دخل عليه صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم سائلاً ومسترشداً وهو صلى الله عليه وسلم يكلم رجلاً من أشراف قريش وقد طمع في إسلامه ورجاء

إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه، فتمادى على طلبه هذا الرجل لما كان يرجوه ووكل ابن أم مكتوم إلى إيمانه فأغفل- فورية مجاوبته وشـــق عليه إلحاحه خوفاً من تفلت الآخرة ومضـــيه على عقبه وهلاكه عتب ســـبحانه وتعالى عليه فقال: {عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر} [عبس: 1- 4] وهي منه سـبحانه واجبة، وقد تقدم في السـورة قبل قول موسـى عليه الصـلاة والسـلام {هل لك إلى أن تزكى} [النازعات: 18] فلم يقدر له بذلك ولا انتفع ببعد صـــيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها وبارت مواد تدبيره وعميت عليه الأنباء إلى أن قال {ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صـرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى} [القصص: 38] {وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل} [غافر: 37] فأنى يزكى؟ ولو سبقت له سعادة لأبصر من حاله عين اللهو وللعب حين مقالته الشـــنعاء {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين} [الزخرف: 52].

ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره عدم الصيت الدنياوي ولا أخل به عماه بل عظّم ربه شأنه لما نزل في حقه {وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى} [عبس: 2- 4] فيا له صـيتاً ما أجله بخلاف من قدم ذكره ممن طرد فلم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها

{إنما أنت منذر من يخشاها} [النازعات: 45] كابن أم مكتوم، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى: {واصـــبر نفســـك مع الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} [الكهف: 28] وقوله: {ولا تطرد الذين يدعون

ربهم بالغداة والعشـــي يريدون وجهه} [الأنعام: 52] فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبيده- اللهم لا تؤيســنا من رحمتك ولا تقنطنا من لطفك ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك- انتهى.

ولما كان فعله ذلك فعل من يخشـــى أن يكون عليه في بقائهم على كفرهم ملامة، بين له أنه ســالم من ذلك فقال: {وما} أي فعلت ذلك والحال أنه ما {عليك} أي من بأس في {ألا يزكّى *} أصــلاً ورأســاً ولو بأدنى تزك- بما أشار إليه الإدغام- إن عليك إلا البلاغ، ويجوز أن يكون استفهاماً أي وأي شـــيء يكون عليك في عدم تزكيه وفيه إشـــارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول.

ولما ذكر المستغني، ذكر مقابله فقال: {وأما من جاءك} حال كونه {يسعى *} أي مسـرعاً رغبة فيما عندك من الخير المذكر بالله وهو فقير {وهو} أي والحال أنه {يخشـــى} أي يوجد الخوف من الله تعالى ومن الكفار في أذاهم على الإتيان إلى النبي صـــلى الله عليه وســـلم ومن معاثر الطريق لعماه {فأنت عنه} أي خاصـة في ذلك المجلس لكونه في الحاصل {تلهّى *} أي تتشـاغل لأجل أولئك الأشـراف الذين تريد إسـلامهم لعلو بهم الدين تشـاغلاً حفيفاً بما أشـــار إليه حذف التاء، من لهى عنه كرضـــى- إذا ســلى وغفل وترك، وفي التعبير بذلك إشارة إلى أن الاشتغال بأولئك لا فائدة فيه على ما تفهمه تصاريف المادة وإلى أن من يقصد الانسان ويتخطى رقاب الناس إليه له عليك حق عظيم، والآية من الاحتباك: ذكر الغنى أولاً يدل على الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخسية ثانياً يدل على ضدهما أولاً، وسر ذلك التحذير

مما يدعو إليه الطبع البشـري من الميل إلى الأغنياء، ومن الاسـتهانة بحق الآتي إعظاماً لمطلق إتيانه.

ولما كان العتاب الذي هو من شـــأن الأحباب ملوحاً بالنهي عن الإعراض عمن وقع العتاب عليه، وكل من كان حاله كحاله والتشـــاغل عن راغب، صرح به فقال: {كلا} أي لا تفعل ذلك أصلاً فإن الأمر في القضاء والقدر ليس على ما يظن العباد ولا هو جار على الأســباب التي تعرفونها بل هو من وراء علومهم على حكم تدق عن أفكارهم وفهومهم: ثم علل ذلك فقال مؤكداً لإنكارهم ذلك، {إنها} أي القرآن، ولعله أنث الضـمير باعتبار ما تلي عليهم في ذلك المجلس من الآيات أو الســـور {تذكرة} أي تذكرهم تذكيراً عظيماً بما إن تأملوه شاهدوه في أنفسهم وفي الآفاق، ليس فيه شيء إلا وهم يعرفونه لو أقبلوا بكليتهم عليه، فما على المذكر بها غير البلاغ، فمن أقبل عليه فأهلاً وسهلاً، ومن أعرض فبعداً له وسحقاً.

ولما كان ســبحانه قد خلق للإنســان عقلاً واختياراً، ويســر أمر القرآن في الحفظ والفهم لمن أقبل عليه، سبب عن ذلك قوله: {فمن شاء} أي ذكره بعد مشـــيئة الله تعالى كما تقدم تقييده في القرآن غير مرة {ذكره *} أي حفظ القرآن كله وتذكر ما فيه من الوعظ من غير تكرير ولا معالجة تحوج إلى الإعراض عن بعض المقبلين الراغبين، وللإشـــارة إلى حفظه كله ذكر الضمير.

ولما كان التقدير: حال كون القرآن مثبتاً أو حال كون الذاكر له مثبتاً، قال واصفاً لتذكرة مبيناً لشرفها بتشريف ظرفها وظرف ظرفها {في صحف} أي

أشياء يكتب فيها من الورق وغيره {مكرمة *} أي مكررة التكريم ومعظمة في السماء والأرض في كل أمة وكل ملة {مرفوعة} أي عليه المقدار بإعلاء كل أحد لا سيما من له الأمر كله {مطهرة *} أي منزهة عن أيدي أهل السفول وعن قولهم إنها شعر أو سحر ونحو ذلك، وعلق أيضاً بمثبت بالفتح أو الكسر على اختلاف المعنيين- قوله مبيناً شرف ذلك الظرف لذلك الظرف إشارة إلى نهاية الشرف للمظروف: {بأيدي سفرة *} أي كتبة يظهرون الكتابة بما فيها من الأخبار الغريبة والأحكام العلية في كل حال، فإن كان ما تعلق به الجار بالفتح فهو حقيقة في أنهم ملائكة يكتبونه من اللوح المحفوظ، أو يكون جمع سافر إما بمعنى الكتاب أو المسافر أي القطع للمسافة أو السفير الذي هو المصلح لأنهم سفراء بين الله وأنبيائه، وبهم يصلح أمر الدين والدنيا، وإن كان بالكسر فهو مجاز لأن من أقبل على كتابة الذكر يكون مهذباً في الحال أو في المآل في الغالب، وتركيب سفر للكشف {كرام} أي ينطوون على معالي الأخلاق مع أنهم أعزاء على الله {بررة *} أي أتقياء في أعلى مراتب التقوى والكرم وأعزها وأوسعها.

تفسير الآيات رقم [17- 27]

{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27)}

ولما كان الوصف بهذه الأوصاف العالية للكتبة الذين أيديهم ظرف للصحف التي هي ظرف للتذكرة للتنبيه على علو المكتوب وجلالة مقداره وعظمة آثاره وظهور ذلك لمن تدبره وتأمله حق تأمله وأنعم نظره، عقبه بقوله ناعياً على من لم يقبل بكليته عليه داعياً بأعظم شدائد الدنيا التي هي القتل في صيغة الخبر لأنه أبلغ: {قتل الإنسان} أي هذا النوع الآنس بنفسه الناسي لربه المتكبر على غيره المعجب بشمائله التي أبدعها له خالقه، حصل قتله بلعنه وطرده وفرغ منه بأيسر سعي وأسهله من كل من يصح ذلك منه لأنه أسرع شيء إلى الفساد لأنه مبني على النقائص إلا من عصم الله {ما أكفره *} أي ما أشد تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لإنكاره البعث وإشراكه بربه وغير ذلك من أمره، فهو دعاء عليه بأشنع دعاء وتعجيب من إفراطه في ستر محاسن القرآن التي لا تخفى على أحد ودلائله على القيامة وكل شيء لا يسع أحداً التغبير في وجه شيء منها، وهذا الدعاء على وجازته يدل على سخط عظيم وذم بليغ وهو وإن كان في مخصوص فالعبرة بعمومه في كل من كفر نعمة الله، روي أنها نزلت في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه كافر برب النجم إذا هوى، وأفحش في غير هذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم أبعث عليه كلباً من كلابك» فلما انتهى إلى مكان من الطريق فيه الأسد ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حياً فجعلوه في وسط الرفقة والمتاع والرحال فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكي عليه وقال: ما

قال محمد شيئاً إلا كان، ومع ذلك فما نفعه ما عرف من ذلك، فسبحان من بيده القلوب يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وكل ذلك من هدايته وإضلاله شاهد بأن له الحمد.

ولما كان اكثر انصباب التعجيب منه ناظراً إلى تكذيبه بالساعة لأجل ظهور أدلتها في القرآن جداً ولأنه توالت في هذه الســـور إقامة الأدلة عليها مما لا مزيد عليه، شـــرع في إقامة الديل عليها بآية الأنفس من ابتداء الخلق في أسلوب مبين لخسته وحقارته وأن من ألبسه أثواب الشرف بعد تلك الخسة والحقارة جدير منه بالشكر لا بالكفر، فقال منبهاً له بالسؤال: {من أي شيء} والاســتفهام للتقرير مع التحقير {خلقه *} ثم أجاب إشـــارة إلى أن الجواب واضح لا يحتاج فيه إلى وقفة أصلاً فقال مبيناً حقارته: {من نطفة} أي ماء يســـير جداً لا من غيره {خلقه} أي أوجده مقدراً على ما هو عليه من التخطيط {فقدره} أي هيأه لما يصـــلح من الأعضـــاء الظاهرة والباطنة والأشــكال والأطوار إلى أن صـــلح لذلك ثم جعله في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن ثم الرحم ثم المشيمة، أو هي على ما قال أهل التشريح ثلاثة أغشية: أحدها المشيمة تتصل بسرة الجنين تمده بالغذاء، والثاني يقبل بوله، والثالث يقبل البخارات التي تصـــعد منه بمنزلة العرق والوســـخ في أبدان الكاملين، وأعطاه قدرة لما أراده منه {ثم} أي بعد انتهاء المدة {السبيل} أي الأكمل في العموم والاتســاع والوضـوح لا غيره، وهو مخرجه من بطن أمه وطريقه إلى الجنة أو النار {يســره *} أي ســـهل له أمره في خروجه بأن فتح فم الرحم وألهمه أن ينتكس، وذلل له سبيل الخير والشر، وجعل له عقلاً يقوده إلى ما

يســر له منهما، وفيه إيماء إلى أن الدنيا دار الممر، والمقصــد غيرها وهو الأخرى التي تدل عليها الدنيا، ولذلك عقبه بقوله عاداً الموت من النعم لأنه لو دام الإنسـان حياً مع ما يصـل إليه من الضـعف والخوف لكان في غاية البشـاعة والشـماتة لأعدائه والمســاءة لأوليائه على أن الموت سـبب الحياة الأبدية: {ثم} أي بعد أمور قدرها سـبحانه من أجل وتقلبات {أماته} وأشـار إلى إيجاب المبادرة إلى التجهيز بالفاء المعقبة في قوله {فأقبره *} أي جعل له قبراً فغيبه فيه وأمر بدفنه تكرمة له وصـيانة عن السـباع، والإقبار جعلك للميت قبراً وإعطاؤك القتيل لأهله ليدفنوه، والمعنى الامتنان بأنه جعل للأنسان موضعاً يصلح لدفنه وجعله بعد الموت بحيث يتمكن من دفنه، ولو شـــاء لجعله يتفتت مع النتن ونحوه مما يمنع من قربانه، أو جعله بحيث يتهاون به فلا يدفن كبقية الحيوانات، فقد عرف بهذا أن أول الإنســان نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، فما شرفه بالعلم إلا الذي أبدعه وصوره، وذلك موجب لأن يشكره لا أن يكفره.

ولما كانت مدة البرزخ طويلة، وكان البعث أمراً محققاً غير معلوم الوقت بالعين بغيره تعالى، عبر عن المعاني الثلاثة بأداتي التراخي والتحقق فقال: {ثم إذا شـاء} أي إنشـاره {أنشـره} أي بعثه من قبره كما كان في دنياه بزيادة أنه على تركيب قوي لا يتهيأ فيه فراق الروح الجسد.

ولما كان إخباره بأنه مع الذي يســر له الســبيل قد يفهم أنه لا يعمل إلا بما يرضـيه، نفى ذلك على سـبيل الردع فقال: {كلا} أي ليرتدع هذا الإنســان الذي عرف أن هذه حالاته أولاً وآخراً واثناءً ومخرجاً تارة من مخرج البول

وأخرى من مخرج الحيض ومقبراً، ولينزجر وليعرف، نفســه بالذلة والخسـة والحاجة والعجز، وليعرف ربه ســبحانه بالعزة والعظمة والكبرياء والفناء والقدرة على تشريف الحقير وتحقير الشريف، وبأنه سبحانه لا يلزمه شيء فلا يلزم من تعريف هذا الإنســان الســبيل وتمييزه له لأنه لا يفعل إلا ما لا يعاتب عليه، فإنه لا يكون من الإنســان وغيره إلا ما يريده، وتارة يريد هداه، وتارة يريد ضــلاله، فقد يأمر بما لا يريده ويريد ما لا يأمر به ولا يرضــاه، ولذلك قال مستأنفاً نفي ما أفهمه بتيسيره للسبيل من أن الإنسان يفعل جميع ما أمره به الله الذي يسر له السبيل: {لما يقض} أي يفعل الإنسان فعلاً نافذاً ماضياً {ما أمره *} أي به الله كله من غير تقصير ما من حين تكليفه إلى حين إقباره بل من حين وجد آدم عليه الصــلاة والســلام إلى حين نزول هذه الآية وإلى آخر الدهر، لأن الإنســان مبني على النقصــان والإله منزه التنزه الأكمل، وما قدروا الله حق قدره، وأيضــاً الإنســان الذي هو النوع لم يعمل بأسره بحيث لم يشذ منه فرد جميع ما أمره، بل أغلب الجنس عصاه وكذب بالساعة التي هي حكمة الوجود، وإن صدق بها بعضهم كان تصديقه بها تكذيباً لأنه يعتقد أشياء منها على خلاف ما هي عليه.

ولما ردعه بعد تفصــيل ما له في نفســه من الآيات، وأشــار إلى ما له من النقائص، شرع يقيم الدليل على تقصيره بأنه لا يقدر على شكر نعمة المنعم فيما له من المطعم الذي به قوامه فكيف بغيرها في أســلوب دال على الإنشــار بآيات الآفاق منبه على ســائر النعم في مدة بقائه المســتلزم لدوام احتياجه إلى ربه فقال مسبباً عن ذلك: {فلينظر الإنســان} أي يوقع النظر

التام على كل شـيء يقدر على النظر به من بصره وبصيرته ومدّ له المدى فقال: {إلى طعامه *} يعني مطعومه وما يتصـــل به ملتفتاً إليه بكليته بالاعتبار بما فيه من العبر التي منها أنا لو لم نيسره له هلك.

ولما كان المقصود النظر إلى صنائع الله تعالى فيه. وكانت أفعال الإنسان وأقواله في تكذيبه بالعبث أفعال من ينكر ذلك الصنع، قال سبحانه مفصلاً لما يشــترك في علمه الخاص والعام من صــنائعه في الطعام، مؤكداً تنبيهاً على أن التكذيب بالعبث يســتلزم التكذيب بإبداع النبات وإعادته، وذلك في أسـلوب مبين أن الإنســان محتاج إلى جميع ما في الوجود، ولو نقص منه شيء اختل أمره، وبدأ أولاً بالسماوي لأنه أشرف، وبالماء الذي هو حياة كل شـيء، تنبيهاً له على ابتداء خلقه: {أنّا} أي على ما لنا من العظمة {صببنا الماء} أي الذي جعلنا منه كل شـيء حي {صباً *} وثنى بالأرض التي هي كالأنثى بالنسبة إلى السماء فقال: {ثم} أي بعد مهلة من إنزال الماء، وفاوتنا بينها في البلاد والنبات {شـقـقنا} أي بما لنا من العظمة {الأرض} بالنبات الذي هو في غاية الضعف عن شق أصعب الأشياء فكيف بالأرض اليابسة المتكزرة جداً عند مخالطة الماء، وحقق المعنى فقال: {شقاً *} ثم سبب عن الشـق ما هو كالتفسـير له مبيناً الاحتياج إلى النبات بقوله: {فأنبتنا} أي أطلعنا على وجه الاتصـال الموجب للتغذي والنمو {فيها} بسبب الشق {حباً *} أي لاقتيات الإنسان وغيره من الحيوان كالحنطة والشعير والرز وغيرها.

▲ تفسير الآيات رقم [28- 32]

{وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)}

ولما كان الحب قوتاً فبدأ به لأنه الأصـــل في القوام، عطف عليه ما هو فاكهة وقوت فقال : {وعنباً} هو فاكهة في حال عنبيته وقوت باتخاذه زبيباً ودبساً وخلاً. ولما كان لذلك في بيان عجائب الصنع ليدل على القدرة على كل شيء فيدل على القدرة على البعث فذكر ما إن أخذ من منبته قبل بلوغه فسد، وإن ترك اشتد وصلح للادخار، واتبعه ما إن ترك على أصله فسد، وإن أخذ وعولج- صلح للادخار، أتبعه ما لا يصـلح للادخار بوجه فقال: {وقضباً *} وهو الرطب من البقل وغيره، وهو يزيد على الماضيين بأنه فيه ما هو دواء نافع وسـم ناقع، وبأنه يقطع مرة بعد أخرى فيخلف، سـمي بمصدر قضبه- إذا قطعه بحصد أو قلع.

ولما ذكر ما لا يصـلح أن يؤكل إلاّ رطباً من غير تأخير، أتبعه ما لا يفسد بحال لا على أمه ولا بعد القطاف ويصـلح بعد القطاف فيؤكل أو يعصـر، فيكون له دهن للاستصباح والإدهان والائتدام، وفيه تقوية للعظام والأعصاب ولا يفسده الماء بوجه كما أن العنب يعصـر فيكون منه دبس وخل وغيرهما، ومتى خالطه الماء فسـد، فقال: {وزيتوناً} يكون فيه مع ما مضـى حرافة وغضاضة فيها إصـلاح المزاج. ولما ذكر ما لا يفسد وشجره يصبر على البرد، أتبعه ما هو كالعنب يؤكل على أمه ويقطع فيدخر، فهو جامع بين التحلي والتحمض بالخل والتفكه والتقوي والتداوي للسـم الناقع والسـحر

الصــارع من عجوة المدينة الشـريفة وغير ذلك من ثمرة وشـجرة، ولا يصـبر شجره على البرد فقال: {ونخلاً *} وكل من هذه الأشجار مخالف للآخر في الشكل والحمل وغير ذلك مع الموافقة في الأرض والسقي.

ولما ذكر هذه الأشـياء من الأقوات والفواكه لكثرة منافعها، وكانت البسـاتين تجمعها وغيرها مع ما لها من بهجة العين وســرور النفس وبســط الخاطر وشرح القلب قال: {وحدائق} جمع حديقة وهي الروضة ذات النخل والشجر، أو كل ما أحاط به البناء وهي تجمع ذلك كله {غلباً *} جمع غلباء- بفتح الغين والمد، وهي الحديقة ذات أشــجار كثيرة عظام غلاظ طوال ملتفة الأغصان متكاثرة، مستعار من وصف الرقاب، يقال: غلب فلان- كفرح أي غلظ عنقه، والغلباء أيضـــاً من القبائل العزيزة الممتنعة، ومن الهضــــاب المشرفة.

ولما ذكر ما يتفكه ويدخر جمع فقال: {وفاكهة} أي ثمرة رطبة يتفكه بها كالخوخ والعنب والتين والتفاح والكمثرى والبرقوق مما يمكن أن يصلح فيدخر ومما لا يمكن. ولما ذكر فاكهة الناس، ذكر فاكهة بقية الحيوان فقال: {وأبّاً *} أي ومرعىً ونباتاً وعشباً وكلأ ما دام رطباً يقصد، من أب الشيء- إذا أمه.

ولما جمع ما يقتات وما يتفكه، فدل دلالة واضـــحة على تمام القدرة، ذكر بالنعمة فيه قارعاً بأسلوب الخطاب لتعميم الأفراد بعد سياق العتاب للتصريح بأن الكل عاجزون عن الوفاء بالشــكر فكيف إذا انضــم إليه الكفر فقال: {متاعاً} وهو منصــوب على الحال. ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف

للدواب، وكان السـياق هنا لطعام الإنسـان، قال مقدماً ضـميرهم : {لكم ولأنعامكم *} بخلاف ما في السـجدة وقد مضـى، والأنعام بها يكون تمام الصـلاح للإنسـان بما له فيها من النعم بالركوب والأكل والشـرب والكسـوة والجمال وسـائر المنافع، وذكر هذا ذكراً ظاهراً مشيراً إلى المعادن لأن منها ما لا يتم ما مضـى إلا به، وهي آلات الزرع والحصد والطبخ والعجن وغير ذلك، والملائكة المدبرة لما صـرفها الله فيه من ذلك، فدل ذلك على أن الوجود كله خلق لأجل منافع الإنسـان ليشـكر لا ليكفر، ودلت القدرة على ذلك قطعاً على القدرة على البعث.

▲ تفسير الآيات رقم [33– 42]

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)}

ولما ذكر عجائب الصـنع في الطعام، وكان ذلك يقطف فيعود لا سـيما المرعى فإنه يأتي عليه الخريف فينشـف ثم يتحطم من الرياح ويتفرق في الأرض ثم يصير تراباً ثم يبعث الله المطر فيجمعه من الأرض بعد أن صار تراباً ثم ينبته كما كان، وكان ذلك مثل إحياء الموتى سـواء، فتحقق لذلك ما تقدم من أمر الإنشـار بعد الإقبار، وكان ذلك أيضـاً مذكراً بأمر أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالأكل من الجنة إلا من الشجرة التي نهاه عنها، فلما أكل منها أخرجه من الجنة فسـجنه في دار ليسـت بجنة ولا نار

ولا غيرهما بل هي من ممتزج الدارين وكالبرزخ بينهما، فيها ما يذكر بهذه وما يذكر بتلك، وفيها أمثلة الموجدات كلها، قال مسبباً عما ثبت به الإحياء للبعث إلى المحشر معبراً بأداة التحقق لأن الساعة ممن لا بد منه ولا محيد عنه لأنها سـر الكون فإن فيها حسـاب الذين اسـتخلفوا في هذا الوجود وأفيضـت عليهم النعم التي أودعها فيه، وأشـار إلى أنهم عاجزون عن القيام بشـكرها، وكثير منهم– بل أكثرهم– زاد على ذلك بكفرها، فأوجب ذلك– ولا بد– حسـابهم على ما فعلوا فيما اسـتخلفوا فيه واسـترعوه كما هي عادة كل مسـترع ومسـتخلف: {فإذا جاءت} أي كانت ووجدت لأن كل ما هو كائن كأنه لاقيك وجاء إليك {الصـآخة *} أي الصـرخة العظيمة التي يبالغ في إسـماع الأسـماع بها حتى تكاد تصـمها لشـدتها، وكأنها تطعن فيها لقوة وقعتها وعظيم وجبتها، وتضطر الآذان إلى أن تصيخ إليها أي تسمع، وهي من أسماء القيامة، وأصل الصخ: الضرب بشيء صلب على مصمت.

ولما كان وصـفها بما يقع فيها أهيب، قال مبدلاً من «إذا» ما يدل على جوابها من نحو: اشـتغل كل بنفسـه ولم يكن عنده فراغ ما لغيره: {يوم يفر المرء} أي الذي هو أعظم الخلق مروءة: ولما كان السياق للفرار، قدم أدناهم رتبة في الحب والذب فأدناهم على سـبيل الترقي، وأخر الأوجب في ذلك فالأوجب بخلاف ما في «سـأل» كما مضـى فقال: {من أخيه} لأنه يألفه صغيراً وقد يركن إليه كبيراً مع طول الصحابة وشدة القرب في القرابة فيكون عنده في غاية العزة.

ولما كانت الأم مشاركة له في الإلف، ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم الأخ وهو لها آلف وإليها أحنّ وعليها أرق وأعطف قال {وأمه} ولما كان الأب أعظم منها في الإلف لأنه أقرب في النوع وللولد عليه من العاطفة لما له من مزيد النفع أكثر ممن قبله قال: {وأبيه *} ولما كانت الزوجة التي هي أهل لأن تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد، وكان الإنسان أذب عنها عند الاشتداد، قال: {وصاحبته} ولعله أفردها إشارة إلى أنها عنده في الدرجة العليا من المودة بحيث لا يألف غيرها.

ولما كان للوالد إلى الولد من المحبة والعاطفة والإباحة- بالسر والمشاورة في الأمر ما ليس لغيره، ولذلك يضـــيع عليه رزقه وعمره قال: {وبنيه *} وإن اجتمع فيها الصـــغير الذي هو عليه أشـــفق والكبير الذي هو في قلبه أجل وفي عينه أنبل ومن بينهما من الذكر والأنثى.

ولما ذكر فراره الذي منعه قراره، علله فقال: {لكل امرئ} أي وإن كان أعظم الناس مروءة {منهم يومئذ} أي إذ تكون هذه الدواهي العظام والشدائد والآلام {شأن} أي أمر بليغ عظيم {يغنيه *} أي يكفيه- في الاهتمام بحيث لا يدع له حصـــة يمكنه صـــرفها إلى غيره ويوجب له لزوم المغنى، وهو المنزل- الذي يرضـــيه مع أنه يعلم أنه يتبعونه ويخاف أن يطالبوه لما هم فيه من الكرب بما لعله قصر فيه من حقوقهم.

ولما ذكر اليوم، قسـم أهله إلى القسـمين المقصـودين بالتذكرة أول السـورة، فقال دالاًّ على البواطن بأشـرف الظواهر: {وجوه يومئذ} أي إذ كان ما تقدم من الفرار وغيره {مسفرة *} أي بيض مضيئة بالإشراق والاستنارة، من أسفر

الصبح- إذا أشرق واستنار {ضاحكة} لما علمت من سعادتها {مستبشرة *} أي طالبة للبشر وهو تغير البشرة من السرور وموجدة لذلك، وهي بيضاء نيره بما يرى من تبشير الملائكة، وذلك بما كانت فيه في الدنيا من عبوس الوجوه وتغيرها وشحوبها من خشية الله تعالى وما يظهر من جلاله في الساعة كابن أم مكتوم رضي الله عنه الذي كان يحمله خوف الساعة على حمل الراية في أشد الحروب كيوم القادسية والثبات بها حتى يكون كالعمود، لا يزول عن مركزه أصلاً ليرضي المعبود.

ولما ذكر أهل السعادة الذين هم المقبلون على الخير المصابون في أنفسهم بما يكفر سيئاتهم ويعلي درجاتهم، ذكر أضدادهم فقال تعالى: {ووجوه} وأكد بإعادة الظرف لإزالة الشبهة فقال: {يومئذ} أي إذ وجد ما ذكر {عليها} أي ملاصقة لها مع الغلبة والعلو {غبرة *} أي ارбداد وكأنه بحيث يصير كأنه قد علاها غبار وهي عابسة حذرة وجلة منذعرة، وذلك مما يلحقها من المشقات وكثرة الزحام مع رعب الفؤاد، وتذكر ما هي صائرة إليه من الأنكاد الشداد {ترهقها} أي تغشاها وتقهرها وتعلوها {قترة *} أي كدورة وسواد وظلمة ضد الإسفار فهي باكية عابسة مما كانت فيه في الدنيا من الفرح واللعب والضحك والأمن من العذاب، فالآية من الاحتباك: ذكر الإسفار والبشر أولاً يدل على الخوف والذعر ثانياً، وذكر الغبرة ثانياً يدل عل البياص والنور أولاً، وسر ذلك أنه ذكر دليل الراحة ودليل التعب لظهورهما ترغيباً وترهيباً.

ولما كان هذا الأمر هائلاً، وكان الفاجر، لما علا قلبه من الرين وله من القساوة، قليل الخوف من الأجل عديم الفكر فيما يأتي به غد لما غلب عليه

من الشـــهوتين: الســـبيعة والبهيمية بخلاف المتقي في كل ذلك، اســـتأنف الإخبار زيادة في التهويل فقال: {أولئك} أي البعداء البغضـــاء {هم} أي خاصـــة لا غيرهم {الكفرة} أي الذين ســـتروا دلائل الإيمان {الفجرة *} أي الذين خرجوا عن دائرة الشـــرع خروجاً فاحشـــاً حتى كانوا عريقين في ذلك الكفر والفجور، وهم في الأغلب المترفون الذين يحملهم غناهم على التكبر والأشـــر والبطر، فلجمعهم بين الكفر والفجور جمع لهم بين الغبرة والقترة، كما يكون للزنوج من البقاعة إذا علا وجوههم غبار ووســـخ، فقد عاد آخرها على أولها فيمن يســـتحق الإعراض عنه ومن يســـتحق الإقبال عليه- والله الهادي.

81 Takweer Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة التكوير

81

▲ تفسير الآيات رقم [1– 9]

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)}

لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة لجحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة، ابتدئت هذه بإتمام ذلك، فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأى عين كما رواه الإمام أحمد والترمذي والطبراني وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم برجال ثقات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ {إذا الشمس كورت}»

[التكوير: 1] فقال بادئاً بعالم الملك والشــهادة لأنه أقرب تصــوراً لما يغلب على الإنسـان من الوقوف مع المحسـوسـات، معلماً بأنه سيخرب تزهيداً في كل ما يجر إليه وحثاً على عدم المبالاة والابتعاد من التعلق بشـــيء من أسـبابه: {إذا الشـمس} أي التي هي أعظم آيات السـماء الظاهرة وأوضـحها للحس.

ولما كان المهول مطلق تكويرها الدال على عظمة مكورها، بني للمفعول على طريقة كلام القادرين قوله: {كورت *} أي لفت بأيســر أمر من غير كلفة ما أصــلاً، فأدخلت في العرش- كما قاله ابن عباس رضــي الله عنهما فذهب ما كان ينبسط من نورها، من كورت العمامة- إذا لففتها فكان بعضها على بعض وانطمس بعضــها ببعض، والثوب- إذا جمعته فرفعته، فالتكوير كناية عن رفعها أو إلقائها في جهنم زيادة في عذاب أهلها ولا سيما عبدتها، أو ألقيت عن فلكها، من طعنه فكوره أي ألقاه مجتمعاً، والتركيب للإدارة والجمع والرفع للشـمس، فعل دل عليه «كورت» لأن «إذا» تطلب الفعل لما فيها من معنى الشـــرط، ولما كان التأثير في الأعظم دالاًّ على التأثير فيما دونه بطريق الأولى، أتبع ذلك قوله معمماً بعد التخصــيص: {وإذا النجوم} أي كلها صغارها وكبارها {انكدرت} أي انقضّت فتهاوت وتساقطت وتناثرت حتى كان ذلك كأنه بأنفســـها من غير فعل فاعل في غاية الإســـراع، أو أظلمت، من كدرت الماء فانكدر، قال ابن عباس رضـــي الله عنهما: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة- في البحر ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً

فتضرمها فتصير ناراً، وقال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً، لا يبقى نجم إلاّ وقع.

ولما بدأ بأعلام السماء لأنها أشهر وأعم تخويفاً وإرهاباً، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمها نفعاً، أتبعها أعلام الأرض فقال مكرراً للظرف لمزيد الاعتناء بالتهويل: {وإذا الجبال} أي التي هي في العالم السفلي كالنجوم في العالم العلوي، وهي أصلب ما في الأرض، ودل على عظمة القدرة بالبناء للمفعول فقال: {سيرت *} أي وقع تسييرها بوجه الأرض فصارت كأنها السحاب في السير والهباء في النثر لتستوي الأرض فتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيها، لأن ذلك اليوم لا يقبل العوج في شيء من الأشياء بوجه.

ولما ذكر أعلام الجماد، أتبعه أعلام الحيوان النافع الذي هو أعز أموال العرب وأغلبها على وجه دل على عظم الهول فقال: {وإذا العشار} أي النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر، جمع عشراء مثل نفساء، وهي أحب أموال العرب إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر، «روي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق حفّل، فأعرض عنها وغض بصره فقيل له: يا رسول الله! هذا أنفس أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثم تلا {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا} [طه: 131] الآية» ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام السنة {عطلت *} أي تركت مهملة كأنه لا صاحب لها مع أنها أنفس أموالهم، فكانت إذا بلغت ذلك أحسنت إليها وأعزتها واشتد إقبالها عليها: وقالت: جاء

خيرها من ولد ولبن، لأن الأمر، لاشـــتغال كل أحد بنفســـه، أهول من أن يلتفت أحد إلى شيء وإن عز.
ولما ذكر المقرعات الدالات على إرادة أمر عظيم، قرب ذلك الأمر بإفهام أنه الحشــر، ودل على عمومه بذكر ما يظن إهماله فقال: {وإذا الوحوش} أي دواب البر التي لا تأنس بأحد التي يظن أنه لا عبرة بها ولا التفات إليها فما ظنك بغيرها {حشـــرت} أي بعثت وجمعت من كل أوب قهراً لإرادة العرض على الملك الأعظم والفصـــل فيما بينها في أنفســـها حتى يقتص للجماء من القرناء وبينها وبين غيرها أيضـاً حتى يسـأل العصـفور قاتله، لم قتله؟ قال قتادة: يحشــر كل شـــيء للقصـــاص حتى الذباب- انتهى. ولا يسـتوحش الوحش من الناس ولا الناس من الوحوش من شـدة الأهوال، وذلك أهول وأفزع وأخوف وأفظع، قال القشـيري: ولا يبعد أن يكون ذلك بإيصـال منافع إليها جوازاً لا وجوباً كما قاله أهل البدع- انتهى. وكل شيء في الدنيا يحضــر في تلك الدار، فإذا وقع الفصـــل جعل الخبيث في جهنم زيادة في عذاب أهلها، والطيب في الجنة زيادة في نعيم أهلها.
ولما أفهم هذا الحشــر، ذكر ما يدل على ما ينال أهل الموقف من الشــدائد من شــدة الحر فقال: {وإذا البحار} أي على كثرتها {سـجرت *} أي فجر بعضــها إلى بعض حتى صــارت بحراً واحداً وملئت حتى كان ما فيها أكثر منها وأحمئت حتى كان كالتنور التهاباً وتســعراً فكانت شـــراباً لأهل النار وعذاباً عليهم، ولا يكون هذا إلا وقد حصل من الحر ما يذيب الأكباد.

ولما ذكر من الآيات العلوية من عالم الملك اثنين ومن السفلية أربعة، فأفهم جميع الخلق أن الأمر في غاية الخطر فتشــوفت النفوس إلى ما يفعل، قال ذاكراً لما أراد من عالم الغيب والملكوت، وهو أمور ستة على عدد ما مضى من عالم الملك والشــهادة ترغيباً في الأعمال الصــالحة والقرناء الصــالحين لئلا يزوج بما يسوءه وابتدأ بما يناسب تكوير الشمس: {وإذا النفوس} أي من كل ذي نفس من الناس وغيرهم {زوجت *} أي قرنت بأبدانها وجمع كل من الخلق إلى ما كانت نفسه تألفه وتنزع إليه، فكانوا أصنافاً كما قال تعالى {احشـروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله} [الصـافات: 22، 23] والتفاف الأزواج كالتفاف الشمس حتى يذهب نورها.

ولما صــــرح الأمر فكانت القلوب أحر من الجمر، ذكر ما هو المقصــــود الأعظم وهو السؤال على وجه يفهم العموم فقال: {وإذا الموءودة} أي ما دفن من الأولاد حياً بعد الولادة أو حصل تسبب في قتله قبل الولادة بدواء ونحوه، ســميت موءودة لما يوضـــع عليها من التراب فيثقلها فيقتلها «وأداً» مقلوب «آداً» إذا أثقل، وإلقاؤها في البئر المحفور لها قريب من انكدار النجوم وتســاقطها. ولما كان هذا أهون القتل عندهم وكانوا يظنون أنه مما لا عبرة به، بين أنه معتنىً به وأنه لا بد من بعثها وجعلها بحيث تعقل وتجيب وإن كان نفخ الروح فيها في زمن يسـير فقال: {سـئلت *} أي وقع سـؤالها عما يليق أن تسـأل عنه، ثم قيل على طريق الاسـتئناف تخويفاً للوالدين: {بأي} أي بسـبب أيّ {ذنب} يا أيها الجاهلون {قتلت *} أي اسـتحقت به عندكم القتل وهي لم تباشـر سوءاً لكونها لم تصـل إلى حد التكليف، فما ظنك بمن

هو فوقها وبمن هو جان، وسؤالها هو على وجه التبكيت لقاتلها، فإن العرب كانت تدفن البنات أحياء مخافة الإملاق أو لحوق العار بهن، ويقولون: نردها إلى الله هو أولى بها، فلا يرضون البنات لأنفسهم ويرضونها لخالقهم، وكان فيهم من يتكرم عن ذلك ومن يفدي الموءودات ويربيهن، وليس في الآية دليل على تعذيب أطفال الكفرة ولا عدمه، فإن الكافر الذي يستحق الخلود قد يكون مستأمناً فلا يحل قتله، والأطفال ما عملوا ما يستحقون به القتل، ويؤخذ من سؤال المؤدة تحريم الظلم لكل أحد وكف اليد واللسان عن كل إنسان.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 19]

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)}

ولما دل هذا على عموم السؤال، ذكر ما ينشأ عنه مما يدل على النعيم أو النكال فقال: {وإذا الصحف} أي الأوراق التي كتبت فيها أعمال العباد {نشرت *} أي فرقت مفتحة تفتيحاً عظيماً على أربابها بأيسر أمر فتأتي السعيد في يمينه من تلقاء وجهه على وجه يكون فيه بشارة له، وتأتي الشقي من وراء ظهره وفي شماله بعد أن كانت طويت عند موته، ونشرها مثل تسيير الجبال وتطايرها، فمن اعتقد أن صحيفته ثابتة فترديه أو تنجيه لم يضع فيها إلا حسناً من قول أو عمل أو اعتقاد.

ولما ذكر ما يطلق وينشـــر، أتبعه ما يطوى ويحصـــر، ليبدو ما فوقه من العجائب وينظر، فقال: {وإذا السـماء} أي هذا الجنس كله، أفرده لأنه يعلم بالقدرة على بعضـه القدرة على الباقي {كشـطت *} أي قلعت بقوة عظيمة وسرعة زائدة وأزيلت عن مكانها التي هي ساترة له محيطة به، أو عن الهواء المحيط بسطحها الذي هو كالروح لها كما يكشط الإهاب عما هو ساتر له ومحيط به مع شدة الالتزاق به لأن ذلك يوم الكشف والإظهار {فكشفنا عنك غطاءك} [ق: 22] وكشـطها هو مثل انكشـاف الناس عن العشـار وتفرقهم عنها، فمن اعتقد زوالها أعرض عن ربط همته بشـيء منها وناط أموره كلها بربها.

ولما زالت الموانع ظهرت عجائب الصـــنائع التي هي غايات المطالب، ونهايات الرغائب والرهائب، فقال: {وإذا الجحيم} أي النار الشـديدة التأجج والتي بعضـها فوق بعض والعظيمة في مهواة عميقة {سـعرت *} أي أوقدت إيقاداً شـديداً بأيسـر أمر وقربت من الكافرين بغاية السـرعة، فكان الأمر في غاية العســر، وذلك قريب من نتيجة ما يحصـــل من الهول من حشـــر الوحوش.

ولما ذكر دار الأعداء البعداء ترهيباً، أتبعه دار المقربين الســعداء ترغيباً، فقال: {وإذا الجنة} أي البستان ذو الأشجار الملتفة والرياض المعجبة {أزلفت *} أي قربت من المؤمنين ونعمت ببرد العيش وطيب المســتقر، ودرجت درجاتها وهيئت، وملئت حياضـــها ومصـــانعها، وزينت صـــحافها ونظفت أرضـها وطهرت عن كل ما يشين، وحسنت رياضـها بكل ما يزين، من قول

أهل اللغة، الزلف- محركة: القربة والدرجة والحياض الممتلئة والزلفة: المصنعة الممتلئة والصحفة والأرض المنكوسة، والزلف- بالكسر. الروضة، ومعنى هذا ضد سجر البحار، فالآية من الاحتباك: ذكر التسعير أولاً دال على ضده في الجنة ثانياً، وذكر التقريب ثانياً دال على مثله أولاً.

ولما كانت هذه الأشـــياء لهولها موجبة لاجتماع الهم وصـــرف الفكر عما يشغله من زينة أو لهو أو لعب أو سهو، فكان موجباً للعلم بما يرجى نعيماً أو يوجب جحيماً، وكان ذلك موجباً لتشوف السامع إلى ما يكون، قال تعالى كاشـفاً تلك النعمة بالعامل في «إذا» وما عطف عليها: {علمت نفس} أي كل واحدة من النفوس، فالتنكير فيه مثله في «ثمرة خير من جرادة» ودلالة هذا السياق المهول على ذلك يوجب اليقين فيه {ما} أي كل شيء {أحضرت *} أي عملت وأوجدت، فكان أهلاً للحضور، وكان عمله لها سبباً لإحضار القدير إياه لها في ذلك اليوم محفوظاً لم يغب عنه منها ذرة من خيره وشـره، فلأجل ذلك كان لكل امرئ شأن يعنيه، فإنه لا بد أن يكون في أعماله ما لا يرضيه وما يستصغره عن حضرة العلي الكبير، فمن اعتقد ذلك رغب في أن لا يحضر إلا ما يسره، ورهب في إحضار ما يسوءه فيضره، وجميع هذه الأشياء الاثني عشر المعدودة المذكورة في حيز «إذا» في الآخرة بعد النفخة الثانية على ما تقدم في الحاقة أنه الظاهر، وأنه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، لأن التهويل بعد القيام أنسب، وأدخل في الحكمة وأغرب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه {فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه} [عبس: 33- 34] الآيات إلى آخر السورة، كان مظنة

لاستفهام السائل عن الوقوع متى يكون؟ فقال تعالى: {إذا الشمس كورت} [التكوير: 1] ووقوع تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه- إلى ما ذكر إلى آخر السورة لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكوير بقيام الساعة، فيصح أن يكون أمارة للأول وعلماً عليه- انتهى.

ولما كان السياق للترهيب، وكان الأليق بآخر عبس أن يكون للكفرة، وكان أعظم ما يحضره الكفرة من أعمالهم بعد الشرك التكذيب بالحق، وأعظمه التكذيب بالقرآن، وذلك التكذيب هو الذي جمع الخزي كله للمكذب به في قوله {قتل الإنسان ما أكفره} [عبس: 17] الذي السياق كله له، وإنما استحق المكذب به ذلك لأن التكذيب به يوقع في كل حرج مع أنه لا شيء أظهر منه في أنه كلام الله لما له من الرونق والجمع للحكم والأحكام والمعارف التي لا يقدر على جمعها على ذلك الوجه وترتيبها ذلك الترتيب إلا الله، ثم وراء ذلك كله أنه معجز، سبب عن هذا التهديد قوله مقسماً بما دل على عظيم قدر المقسم عليه بترك الإقسام بأشياء هي من الإجلال والإعظام في أسنى مقام: {فلا أقسم} أي لأجل حقية القرآن لأن الأمر فيه غنىً عن قسم لشدة ظهوره وانتشار نوره، ولذلك أشار إلى عيوب تلحق هذه الأشياء التي ذكرها والقرآن منزه عن كل شائبة نقص، لأنه كلام الملك الأعلى فقال: {بالخنس *} أي الكواكب التي يتأخر طلوعها عن طولع الشمس فتغيب في النهار لغلبة ضياء الشمس لها، وهي النجوم ذوات الأنواء التي كانوا يعظمونها بنسبة الأمطار والرحمة- التي ينزلها الله- إليها، قالوا: وهي القمر

فعطارد فالزهرة فالشمس فالمريخ فالمشتري فزحل وقد نظمها بعضهم متدلياً فقال:

زحل اشترى مريخه من شمسه *** فتزهرت لعطارد أقمار

ثم أبدل منها أعظمها فقال: {الجوار الكنس *} أي السيارة التي تختفي وتغيب بالنهار تحت ضوء الشمس، من كنس الوحش- إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر، وقال الرازي: يكنس ويستتر العلوي منها بالسفلي عند القرانات كما تستتر الظباء في الكناس، وقال قتادة: تسير بالليل وتخنس بالنهار فتخفى ولا ترى، وروي ذلك أيضاً عن علي رضي الله تعالى عنه، قال البغوي: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والكنوس أن تأوي إلى مكانسها. وقال القشيري: إن ذلك غروبها، وإنما نفى الإقسام بها لأنها وإن كانت عظيمة في أنفسها بما ناط بها سبحانه من المصالح وأنتم تعظمونها وتغلون فيها لأن فيها نقائص الغيبوبة وانبهار النور، والقرآن المقسم لأجله منزه عن ذلك، بل هو الغالب على كل ما سواه من الكلام غلبة هي أعظم من غلبة ضياء الشمس لنور ما سواها من الكواكب، فلذلك لا يليق أن يقسم بها لأجله.

ولما ذكر غيابها ففهم منه محله وهو النهار، ذكر محل ظهورها فأفهم الظهور فقال: {والّيل} أي الذي هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها {إذا عسعس *} أي أقبل ظلامه، واعتكر سواده وقتامه، فظهرت الكواكب زهراً منثوراً في بيداء تلك الغياهب، فإن فيه نقصاناً بالظلام وغير ذلك من الأحكام، وقيل: معناه أدبر، وقيل: أظلم، وقيل: انتصف،

وقيل: انقضـى، وسـعسـع بمعناه فهو ما لا يسـتحيل بالانعكاس، والآية من الاحتباك: ذكر خنوس الكواكب وكنوسها أولاً يفهم ظهورها ثانياً، وذكر الليل ثانياً يفهم حذف النهار أولاً.

ولما كان ربما ظن ظان أن ما نقص بالظلام عن صـلاحية الإقسـام يتأهل ذلك بزواله، قال نافياً لذلك: {والصبح} أي الذي هو أعدل أوقات النهار {إذا تنفس *} أي أضاء وأقبل روحه ونسيمه، وأنسه ونعيمه، واتسع نوره، وانفرج به عن الليل ديجوره، وذلك بعد إقبال الليل ثم إدباره أي لا أقسم به لأنه وإن كان ذا نور ونعمة وحبور وبهجة وسرور فإن ذلك يتضاءل عن نور القرآن، وما فيه من النعيم والرضـوان، «وأين الثريا من يد المتناول» على أن تنفسـه بالبرد واللطافة تنسخه الشمس بالحر والكثافة، وتنفس القرآن بنفحات القدس ونعيم المواعظ والأنس لا ينسخه شيء.

ولما بين أن هذه الأشـياء- التي لولاها لما طاب لهم عيش ولا تهنؤوا بحياة، وهي من الفضـل بحيث لا يعلمه إلا خالقها- تصـغر عن أن يقسم بها على شـيء من فضـائل القرآن لما له من عظيم الشـأن الذي لا يطيق التعبير عنه البيان، ويتضـاءل دونه اللسـان، قال مجيباً لذلك إخباراً عما هو محقق في نفسـه الأمر أعظم من تحقق هذه الأشـياء المقسـم بها، هادٍ إلى مصـالح الدارين أكثر من هدايتها، مبيناً للسفيرين به الملكي والبشري عليهما الصـلاة والسـلام والتحية والإكرام مؤكداً لما يسـتحقه السـياق كما يسـتحقه مع ما لهم من الإنكار تنبيهاً على ضـعف عقولهم وعظيم سـفههم بعد أن أقسـم بثلاثة أقسـام، فإن نفي الإقسام بها بما ذكر من نقائصـها- كالإقسـام- بها مع بيان

أن المقسم عليه أعظم منها بما لا يقايس: {إنه} أي هذا الذكر الذي تقدم في عبس بعض ما يســـتحق من الأوصـــاف الجميلة والنعوت الجليلة {لقول رسـول} وهو جبريل عليه الصـلاة والسـلام نحن أرسـلناه به إلى خير خلقنا وجعلناه بريداً بيننا وبينه لاقتضـــاء الحكمة ذلك، وهي أن يكون خلاصـــة الخلق ذا جهتين: واحدة ملكية يتلقى بها من الملائكة عليهم الســـلام لكون غيره من البشـر لا يطيق ذلك، وأخرى بشـرية يتلقى بها من المبعوث إليهم، ومن المعلوم أن الرسـول إنما وظيفته تبليغ ما أرسـل به فهو سـفير محض، والذي أوحاه وإن كان قوله لكونه نطق به وبلغه من غير مشاركة شيطان ولا غيره هو قول الله من غير شك لكونه معبراً عن الصفة القديمة النفسية، ولو كان قول الرسـول مسـتقلاً به لما كان لوصـفه بالرسـالة مدخل فما كانت البلاغة تقتضي ذكره بالوصف.

ولما بين بوصف الرسالة أنه ليس بقوله إلا لكونه مرسلاً به ومبلغاً له، وأنه في الحقيقة قول من أرسله، وصفه بما أفهمه الوصف مما يوجب حفظه من غير تحريف ما ولا تغيير أصـــلاً بوجه من الوجوه، وذلك ببيان منزلته عند الله ووجاهته وبيان قدره ونفوذ كلمته فقال: {كريم *} أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها، فهو جواد شـــريف النفس ظاهر عليه معالي الأخلاق بريء من أن يلم شـــيء من اللوم بســاحته، فلذلك هو يفيض الخيرات بإذن ربه على من أمر به العالمين، فيؤدي ما أرسـل به كما هو لقيامه بالرسالة قيام الكرام فلم يغير فيها شيئاً أصـلاً ولا فرط حتى يمكن غيره أن يحرف أو يغير، والكرم اجتماع كمالات الشيء اللائقة به.

▲ تفسير الآيات رقم [20– 29]

{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)}

ولما اقتضى هذا القوة، صرح به تأكيداً فقال: {ذي قوة} أي على ضبط ما أرسل به بنفسه وعلى المدافعة للغير عن أن يدخل فيه شيئاً من نقص، وأكد القوة بقوله: {عند ذي العرش} أي الملك الأعلى المحيط عرشه بجميع الأكوان الذي لا عندية في الحقيقة إلا له {مكين *} أي بالغ المكنة عنده عظيم المنزلة جداً بليغ فيها فهو بحيث لا يتأتى منه تفريط ما في إبلاغ شيء مما أرسل به لأنه لا يغيره الأحوال ولا يعمل فيه تضاد الشهوات، لأنه لا شهوة له إلاّ ما يأمر به مرسله سبحانه وتعالى.

ولما كان المتمكن في نفسه قد لا يكون له أعوان، قال: {مطاع ثم} أي في الملأ الأعلى فهم عليهم السلام أطوع شيء له، قال الحسن: فرض الله على أهل السماوات طاعة جبريل عليه الصلاة والسلام كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كان ذلك يقتضي الأمانة، صرح بها فقال: {أمين *} أي بليغ الأمانة فهو مصدق القول مقبول الأمر موثوق به في أمر الرسالة وإفاضة العلوم على القلوب روحاني مطهر جوهراً

وفعلاً وحالاً، ومن كان بهذه الصـــفات العظيمة كان بحيث لا يأتي إلاّ في أمر مهم جداً لأن الملوك لا يرســـلون خواصـــهم إلا في مثل ذلك، ولذلك ائتمنه الله تعالى على رسالته.

ولما وصفه السفير الملكي وهو جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الصفات الخمس التي أزالت عن القرآن كل لبس، وكان وصـــفه بها إنما هو لأجل إثبات شرف الرسول البشري الذي هو بين الحق وعامة الخلق، وهو النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما يقوله كلام الله حقاً، وكانوا يصفونه بما هو في غاية النزاهة عنه وهم يعلمون ذلك، أبطله مبكتاً لهم بالكذب وموبخاً بالبلادة بقوله زيادة في شرفه حيث كان هو المدافع عنه: {وما صاحبكم} أي الذي طالت صـــحبته لكم وأنتم تعلمون أنه في غاية الكمال حتى أنه ليس له وصـــف عندكم إلا الأمين، وأعرق في النفي فقال: {بمجنون *} أي كما تبتهونه به من غير اســـتحياء من الكذب الظاهر مع ظهور التناقض فعل ألأم اللئام، بل جاء بالحق وصـــدق المرســلين، فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكملاء، وهذا النفي المؤكد ثابت له دائماً على سبيل الاستغراق لكل زمان- هذا ما دل عليه الكلام لا ما قال الزمخشـــري أنه يدل على أفضـــلية جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بقية الملائكة، فإنه ما سيق لذلك ولا هو والله مما يرضي جبريل عليه السلام، قال الأصبهاني هنا: هذا يدل على فضله وأما أنه يدل على أنه أفضل من جميع الملائكة ومن محمد صلى الله عليه وسلم فلا يمكنه، وقال في قوله تعالى في البقرة:

{وملائكته ورسـله} [البقرة: 285]: ولم يلزم من تقديم الملائكة في الذكر تفضـيلهم على الرسـل، وأما تقديم جبريل على ميكائيل فليس ببعيد أن يكون للشرف كما أن تخصيصهما بالذكر لفضلهما، وقال في النجم: ثم دنا جبريل من ربه عز وجل، وهذا قول مجاهد يدل عليه ما روي في الحديث: «إن أقرب الملائكة إلى الله عز وجل جبريل عليه السـلام»- انتهى. ولو صـح هذا الحديث لكان فيه كفاية لكن لم أجده أصـلاً، وقال الأصـبهاني في عم في قوله: {يوم يقوم الروح} [النبأ: 38] عن ابن عباس رضـي الله عنهما: هو أعظم الملائكة خلقاً وأشـرف منهم، وأقرب من رب العالمين- انتهى. فهذا كما ترى صـريح في تفضـيل الروح، وقال السـهيلي في غزوة بدر في كتابه الروض: ونزل جبريل عليه السـلام بألف من الملائكة فكان في خمسـمائة في الميمنة، وميكائيل عليه السـلام في خمسـمائة في الميسـرة، ووراءهم مدد من الملائكة لم يقاتلوا وهم الآلاف المذكورون في سـورة آل عمران، وكان إسـرافيل عليه السـلام وسـط الصـف لا يقاتل كما يقاتل غيره من الملائكة عليهم الصـلاة والسـلام- انتهى. وهذا يدل على شرف إسرافيل عليه السلام لأن موقفه موقف رئيس القوم وفعله فعله- والله أعلم.

ولما كان المجنون لا يثبت ما يسـمعه ولا ما يبصـره حق الإثبات، فكان التقدير بعد هذا النفي: فلقد سمع من رسولنا إليه ما أرسل به حق السمع، ما التبس عليه فيه حق بباطل، عطف عليه الإخبار برفعه شأنه في رؤية ما لم يره غيره وأمانته وجوده فقال: {ولقد رآه} أي المرسـل إليه وهو جبريل عليه الصـلاة والسـلام على صـورته الحقيقية ليلة المعراج وبعرفات، جامعاً إلى

حس السمع حس البصر {بالأفق المبين *} أي الأعلى الذي هو عند سدرة المنتهى، حيث لا يكون لبس أصـــلاً، ولا يكون لشـــيطان على ذلك المكان سـبيل فعرفه حق المعرفة، وقال البيضـاوي: بمطلع الشـمس الأعلى- يعني وهو مشرق الأنوار، والأفق: الناحية التي تفوق وتعلو.

ولما انتفى ما يظن من لبس الســـمع وزيغ البصـــر، لم يبق إلا ما يتعلق بالتأدية فنفى ما يتوهم من ذلك بقوله: {وما} أي سـمعه ورآه والحال أنه ما {هو على الغيب} أي الأمر الغائب عنكم في النقل عنه ولا في غيره من باب الأولى {بضنين *} أي بمتهم، من الظنة وهي التهمة، كما يتهم الكاهن لأنه يخطئ في بعض ما يقول، فهو حقيق بأن يوثق بكل شـــيء يقوله في كل أحوالـه، هذا في قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكســـائي ورويس عن يعقوب بالظاء، والمعنى في قراءة الباقين بالضـاد: ببخيل كما يبخل الكاهن رغبة في الحلوان، بل هو حريص على أن يكون كل من أمته عالماً بكل ما أمره الله تعالى بتبليغه.

ولما أثبت لـه الأمـانـة والجود بعد أن نفى عنـه ما بهتوه بـه، وكـان الجنون أظهر من قول المجنون لأن بعض المجـانين ربمـا تكلم الكلام المنتظم في بعض الأوقات فنفاه لذلك، وكان قول الكاهن أظهر من الكهانة، نفى القول فقال: {وما هو} أي القرآن الذي من جملة معجزاته الإخبار بالمغيبات، وأعرق في النفي بالتأكيد بالباء فقال: {بقول شيطان}. ولما كان الشيطان لا ينفك عن الطرد لأن اشـــتقاقه من شـــطن وشـــاط، وذلك يقتضـــي البعد والاحتراق، وصـفه بما هو لازم له فقال: {رجيم *} أي مرجوم باللعن وغيره

من الشهب لأجل استراق السمع مطرود عن ذلك، لأن القائل له ليس بكاهن كما تعلمون، وبقي مما قالوه السحر وهو لا يحتاج إلى نفيه لأنه ليس بقول، بل هو فعل صرف أو قول مقترن به، والأضغاث وهي لذلك واضحة العوار فلم يعدها، فمن علم هذه الأوصـــاف للقرآن والرســولين الآتيين به الملكي والبشــري أحبه وأحبهما، وبالغ في التعظيم والإجلال، وأقبل على تلاوته في كل أوقاته، وبالغ في الســعي في كل ما يأمر به والهرب مما ينهى عنه، ليحصل له الاستقامة رغبة في مرافقة من أتى به ورؤية من أتى من عنده.

ولما لم يدع وجهاً يلبس به على من لا يعرف حاله صــلى الله عليه وســلم، ســبب عنه قوله موبخاً منكراً: {فأين تذهبون *} أي بقلوبكم عن هذا الحق المبين يا أهل مكة المدعين لغاية الفطنة وقد علمتم هذا الحفظ العظيم في الرســولين الملكي والبشــري فمن أين يأتي ما تدعون من التخليط في هذا الكتاب العظيم الذي دل على حفظه ببرهان عجزكم عن معارضـــة شـــيء منه؟ وهو استضلال لهم واستجهال على أبلغ وجه في كل ما كانوا ينسبونه إليه بحيث صار ضلالهم معروفاً لا لبس فيه.

ولما كان الحال قد صــار في الوضــوح إلى أنه إذا نبه صــاحبه بمثل هذا القول نظر أدنى نظر، فقال من غير وقفة: لا أين، قال: {إن} أي ما {هو} أي القرآن الذي أتاكم به {إلا ذكر للعالمين *} أي شــرف للخلق كلهم من الجن والإنس والملائكة وموعظة بليغة عظيمة لهم. ولما تشرف الوجود كله بإظهاره فيه نوع تشـــرف، أطلق هذه العبارة. ولما كان الذي ثم شـــرفه

المهتدي، فكان الوعظ والشرف إنما هو له في الحقيقة قال: {لمن شاء منكم} أي أيها المخاطبون {أن يستقيم *} أي يطلب القوم ويوجده.

ولما كان ذلك ربما تعنت به المتعنت في خلق الأفعال، قال نافياً لاستقلالهم ومثبتاً للكسب: {وما تشاءون} أي أيها الخلائق الاستقامة {إلا أن يشاء الله} أي الملك الأعلى الذي لا حكم لأحد سواه مشيئتكم، وإن لم يشأها لم تقدروا على مشيئة، فادعوه مخلصين له الدين يشأ لكم ما يرضيه فيوفقكم إليه، وعن وهب بن منبه أنه قال: الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بضع وتسعون كتاباً قرأت منها بضعاً وثمانين كتاباً فوجدت فيها: من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر - انتهى.

ومن تأمل هذه الآية أدنى تأمل علم أن كلام المعتزلة بعدها في القدر دليل على أن الإنسان إذا كان له هوىً لا يرده شيء أصلاً {ومن يضلل الله فما له من هاد} [الرعد: 33].

ولما وصف نفسه سبحانه بأنه لا يخرج شيء عن أمره، أتبع ذلك الوصف بما هو كالعلة لذلك فقال: {رب العالمين *} أي الموجد لهم والمالك والمحسن إليهم والمربي لهم وهو أعلم بهم منهم، فلأجل ذلك لا يقدرون إلا على ما قدرهم عليه، ويجب على كل منهم طاعته والإقبال بالكلية عليه سبحانه وتعالى وشكره استمطاراً للزيادة، فلهذه الربوبية صح تصرفه في الشمس وما تبعها مما ذكر أول السورة لإقامة الساعة لأجل حساب الخلائق، والإنصاف بينهم بقطع كل العلائق، كما يفعل كل رب مع من يربيه فكيف بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين! فقد التقى طرفاها على أشرف

الوجوه وأجلاها، وانتظم أول الانفطار بما له من بديع الأســـرار، فالتكوير كالانشــقاق والتفطير، والانكدار مثل التســاقط والانتشــار، والله ســبحانه هو أعلم بالصواب.

82 Anfataar Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

82

▲ سورة الانفطار

82

▲ تفسير الآيات رقم [1- 7]

{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)}

ولما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يخرج عن مشيئته وأنه موجد الخلق ومدبرهم، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له «أرحام تدفع وأرض تبلع ومن مات فات وصار إلى الرفات ولا عود بعد الفوات» افتتح الله سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس فيجزي كلاًّ منهم من المحسن والمسيء بما عمل فقال: {إذا السماء} أي على شدة إحكامها

واتساقها وانتظامها {انفطرت *} أي انشقت شقوقاً أفهم سياق التهويل أنه صار لبابها أطراف كثيرة فزال ما كان لها من الكرية الجامعة للهواء الذي الناس فيه كالسمك في الماء، فكما أن الماء إذا انكشف عن الحيوانات البحرية هلكت، كذلك يكون الهواء مع الحيوانات البرية، فلا تكون حياة إلا ببعث جديد ونقل عن هذه الأسباب، ليكون الحساب بالثواب والعقاب.

ولما كان يلزم من انفطارها وهيها وعدم إمساكها لما أثبت بها ليكون ذلك أشد تخويفاً لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها أو سقوط طائفة منها فوقهم فيكونون بحيث لا يقر لهم قرار، قال: {وإذا الكواكب} أي النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير في الأشياء المتماسكة التي دبر الله في دار الأسباب بها الفصول الأربعة والليل والنهار، وغير ذلك من المقاصد الكبار، وكانت محفوظة بانتظام السماء {انتثرت *} أي تساقطت متفرقة كما يتساقط الدر من السلك إذا انقطع تساقطاً كأنه لسرعته لا يحتاج إلى فعل فاعل لقوة تداعيه إلى التساقط.

ولما كان إخباره بما دل على وهي السماء مشعراً بوهي الأرض لأنها أتقن منها وأشرف إذ هي للأرض بمنزلة الذكر للأنثى، وكان الانفعال ربما أوهم أن ذلك يكون بغير فاعل، صرح بوهي الأرض معبراً بالبناء للمفعول دلالة على أن الكل بفعله، وأن ذلك عليه يسير، فقال مخبراً بانفطار الأراضي أيضاً ليجمع بين التخويف بالمطل والترويع بالمقل: {وإذا البحار} المتفرقة في الأرض وهي ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها {فجرت *}

أي تفجيراً كثيراً بزوال ما بينها من البرازخ الحائلة، وقال الربيع : بفيضـــها وخروج مائها عن حدوده فاختلط بعضـها ببعض من ملحها وعذبها فصـارت بحراً واحداً، فصارت الأرض كلها ماء ولا سماء ولا أرض فأين المفر.

ولما كان ذلك مقتضـــياً لغمر القبور فأوهم أن أهلها لا يقومون كما كان العرب يعتقدون أن من مات فات، قال دافعاً لذلك على نمط كلام القادرين إشارة إلى سهولة ذلك عليه: {وإذا القبور} أي مع ذلك كله {بعثرت} أي نبش ترابها على أســـهل وجه عن أهلها فقاموا أحياء كما كانوا، فرأوا ما أفظعهم وهالهم وروّعهم.

ولما كانت هذه الشروط كلها التي جعلت أشراطاً على الساعة موجبة لعلوم دقيقة، وتكشـــف كل واحدة منها عن أمور عجيبة، وكانت كلها دالة على الانتقال من هذه الدار إلى دار أخرى لخراب هذه الدار، ناســـب أن يجيب «إذ» بقوله: {علمت نفس} أي جميع النفوس بالإنباء بالحسـاب وبما يجعل لها سـبحانه بقوة التركيب من ملكة للاسـتحضـار كما قال تعالى: {فكشـفنا عنك غطاءك} والدال على إرادة العموم التعبير بالتنكير في سـياق التخويف والتحذير مع العلم بأن النفوس كلها في علم مثل هذا وجهله على حد سـواء، فمهما ثبت للبعث ثبت للكل، ولعله نكر إشـــارة إلى أنه ينبغي لمن وهبه الله عقلاً أن يجوّز أنه هو المراد فيخاف: {ما قدمت} أي من عمل {وأخرت *} أي جميع ما عملت من خير أو شـــر أو غيرهما، أو ما قدمت قبل الموت وما أخرت من سنة تبقى بعده.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا- انتهى.

ولما كان ذلك خالعاً للقلوب، وكان الإنسان إذا اعتقد البعث قد يقول تهاوناً ببعض المعاصي: المرجع إلى كريم ولا يفعل بي إلا خيراً، أنتج قوله منادياً بأداة البعد لأن أكثر الخلق مع ذلك معرض، منكراً سبحانه وتعالى على من يقول هذا اغتراراً بخدع الشيطان إنكاراً يهد الأركان: {يا أيها الإنسان} أي البشر الآنس بنفسه الناسي لما يعنيه {ما غرك} أي أدخلك في الغرة، وهي أن ترى فعلك القبيح حسناً أو ترى أنه يعفى عنك لا محالة، وذلك بمعنى قراءة سعيد بن جبير والأعمش: أغرك- بهمزة الإنكار، وتزيد المشهورة معنى التعجب {بربك} أي المحسن إليك الذي أنساك إحسانه ما خلقت له من خلاص نفسك بعمل ما شرعه لك.

ولما كان التعبير بالرب مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان في الإجرام لأن ذلك شأن المربي، فكان ذلك مانعاً من الاغترار لمن تأمل، أتبعه ما هو كذلك أيضاً ظاهره لطف وباطنه جبروت وقهر، فقال للمبالغة في المنع عن الاغترار، {الكريم *} أي الذي له الكمال كله المقتضي لئلا يهمل الظالم بل يمهله، ولا يسوي بين المحسن والمسيء والموالي والمعادي والمطيع والعاصي، المقتضي لأن يبالغ في التقرب إليه بالطاعة شكراً له، وأن لا يعرض أحد عنه لأن بيده كل شيء ولا شيء بيد غيره، فيجب أن يخشى شدة بطشه لأنه كذلك يكون المتصف بالكرم لا يكون إلا عزيزاً، فإنه يكون شديد الحلم عظيم السطوة عند انتهاك حرمته بعد

ذلك الحلم فإنه يجد أعواناً كثيرة على مراده، ولا يجد المعاقب عذراً في تقصيره بخلاف اللئيم فإنه لا يجد أعواناً فلا يشتد أخذه، فصار الإنكار بواسطة هذين الوصفين أشد وأغلظ من هذه الجهة، ومن جهة أنه كان ينبغي أن يستحيي من المحسن الذي لا تكدير في إحسانه بوجه، فلا يعصى له أمر ولا يفرط له في حق، ومع ذلك ففي ذكر هذين الوصفين تلقين الحجة، قال أبو بكر الوراق: لو سألني لقلت: غرني كرم الكريم وحلمه، وقال علي رضي الله عنه: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، وقال الإمام الغزالي في شرحه للأسماء: هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا، ولا يبالي لمن أعطى ولا كم أعطى، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفى عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به وإليه التجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء.

ولما ذكر هذين الوصفين الدالين على الكمالين، بالجلال، دل عليهما تقريراً لهما بإفاضة الجود في التربية بوصف الجمال بالإكرام لئلا يعتقد الإنسان بما له من الطغيان أنه حر مالك لنفسه يفعل ما يشاء فقال: {الذي خلقك} أي أوجدك من العدم مهيئاً لتقدير الأعضاء {فسوّاك} عقب تلك الأطوار بتصوير الأعضاء والمنافع بالفعل {فعدلك *} أي جعل كل شيء من ذلك سليماً مودعاً فيه قوة المنافع التي خلقه الله لها، وعدل المزاج حتى قبل الصورة، والتعديل جعل البنية متناسبة الخلقة، وكذا العدل في قراءة الكوفيين بالتخفيف أي فأمالك عن تشويه الخلقة وتقبيح الصورة، وجعلك معتدلاً في

صورتك، وكل هذا يقتضي غاية الشكر والخوف منه إن عصى، لأنه كما قدر على التسوية يقدر على التشويه وغيره من العذاب.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 16]

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16)}

ولما أضاء بهذا إضاءة الشمس أنه عظيم القدرة على كل ما يريد، أنتج قوله معلقاً ب «ركب»: {في أيّ صورة} من الصور التي تعرفها والتي لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان، ولما كان المراد تقرير المعنى غاية التقرير، أثبت النافي في سياق الإثبات لينتفي ضد ما أثبته الكلام فيصير ثبات المعنى على غاية من القوة التي لا مزيد عليها، فقال: {ما شاء ركبك *} أي ألف تركيب أعضائك وجمع الروح إلى البدن، روى الطبراني في معاجمه الثلاثة برجال ثقات عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله جل اسمه أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها، فلما كان اليوم السابع أحضر الله له كل عرق بينه وبين آدم، ثم قرأ {في أي صورة ما شاء ركبك} [الانفطار: 8]» فتحرر بهذا الإنسان رقيق رقاً لازماً، ومن خلع ربقة ذلك الرق اللازم وكل إلى نفسه فهلك.

ولما أوضح سبحانه غاية الإيضاح الدليل على قدرته على الإعادة بالابتداء، وبين تعالى أنه ما أوجب للإنسـان، الخسـار بنسـيان هذا الدليل الدال على تلك الدار إلا الاغترار، وكان الاغترار يطلق على أدنى المعنى، بين أنه ارتقى به الذروة فقال: {كلا} أي ما أوقعكم أيها الناس في الإعراض عمن يجب الإقبال عليه ويقبح غاية القباحة الإعراض بوجه عنه مطلق الغرور {بل} أعظمه وهو أنكم {تكذبون} أي على سبيل التجديد بتحدد إقامة الأدلة القاطعة وقيام البراهين السـاطعة {بالدين *} أي الجزاء الذي وظفه الله في يوم البعث، فارجعوا عن الغرور مطلقاً خاصاً وعاماً، وارتدعوا غاية الارتداع {وإنّ} أي والحال أن {عليكم} أي ممن أقمناهم من جندنا من الملائكة {لحافظين *} لهم على أعمالكم غاية العلو فهم بحيث لا يخفى عليهم منها جليل ولا حقير.

ولما أثبت لهم الحفظ، نزههم عن الزيادة والنقص فقال: {كراماً} أي فهم في غاية ما يكونون من طهارة الأخلاق والعفة والأمانة.

ولما ثبت الحفظ والأمانة بغاية الإبانة، وكان الحافظ ربما ينسى قال: {كاتبين *} أي هم راسخون في وصف الكتابة يكتبونها في الصحف كما يكتب الشهود بينكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير.

ولما أفهم الاستعلاء والتعبير بالوصف إحاطة الاطلاع على ما يبرز من الأعمال، صرح به فقال: {يعلمون} أي على التجدد والاستمرار {ما تفعلون *} أي تجددون فعله من خير وشر بالعزم الثابت والداعية الصادقة سواء كان مبنياً على علم أو لا، فكيف يكون مع هذا تكذيب بالجزاء على النقير

والقطمير هل يكون إحصــاء مثاقيل الذر من أعمالكم عبثاً وهل علمتم بملك يكون له رعية يتركهم هملاً فلا يحاســــبهم على ما في أيديهم وما عملوه، ولأجل تكذيبهم بالدين أكد المعنى المستلزم له وهو أمر الحفظة غاية التأكيد، والتعبير بالمستقبل يدل على أنهم يعلمون كل ما انقدح في القلب وخطر في الخاطر قبل أن يفعل، وأما ما لم يجر في النفس له ذكر فلا يعلمونه كما بينه حديث:

»ومن هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة«.

ولما كانت نتيجة حفظ الأعمال الجزاء عليها، أنتج ذلك بيان ما كانت الكتابة لأجله تفريقاً بين المحسـن والمسـيء الذي لا يصـح في حكمة حكيم ولا كرم كريم غيره بقوله على سبيل التأكيد، لأجل تكذيبهم: {إن الأبرار} أي العاملين بما هو واســع لهم مما يرضـــي الله جلت قدرته {لفي نعيم *} أي محيط بهم لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه أصــلاً في الدنيا في نعيم الشـهود، وفي الآخرة في نعيم الرؤية والوجود في هذه الدار معنىً وفي الآخرة حســاً، فكل نعيم في الجنة لهم من المنح الآجلة فرقائقه في هذه الدنيا لهم عاجلة {وإنّ الفجار} أي الذي شأنهم الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه من رضا الله إلى ســخطه {لفي جحيم *} أي نار تتوقد غاية التوقد يصـــلون بها جحيم العقوبة الفظيعة كما كانوا في الدنيا في جحيم البعد والقطيعة.

ولما كان السـياق للترهيب، وصــف عذاب الفجار فقال: {يصــلونها} أي يغمسون فيها كالشاة المصلية فيباشرون حرها {يوم الدين *} أي الجزاء على الأعمال المضــبوطة على مثاقيل الذر. ولما كان العذاب على ما نعهده لا

بد أن ينقضي، بين أن عذابه على غير ذلك فقال: {وما} أي والحال أنهم ما {هم عنها} أي الجحيم {بغائبين *} أي بثابت لهم غيبة ما عنها في وقت ما، بل هم فيها خالدون جزاء لأعمالهم وفاقاً وعدلاً طباقاً حتى الآن في دار الدنيا وإن كانوا لا يحســـون بها إلا بعد الموت لأن الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 19]

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)}

ولما علم أن الوعيد الأعظم يوم الدين، هول أمره بالســـؤال عنه إعلاماً بأنه أهل لأن يصـرف العمر إلى الاعتناء بأمره والسـؤال عن حقيقة حاله سـؤال إيمان وإذعان لا سؤال كفران وطغيان، ليكون أقعد في الوعيد به فقال: {وما أدراك} أي أعلمك وإن اجتهدت في طلب الدراية به {ما يوم الدين *} أي أيّ شـــيء هو في طوله وأهواله وفظاعته وزلزاله. ولما كانت أهواله زائدة على الحد، كرر ذلك الســـؤال لذلك الحال فقال معبراً بأداة التراخي زيادة في التهويل: {ثم ما أدراك} أي كذلك {ما يوم الدين *}.

ولما بين أنه من العظمة بحيث لا تدركه دراية دار وإن عظم وإن اجتهد، لخص أمره في شـرح ما يحتمله العقول منه على سبيل الإجمال دافعاً ما قد يقوله بعض من لا عقل له: إن كان انضـــممت والتجأت إلى بعض الأكابر وقصـــدت بعض الأماثل فأخلص قهراً أو بشـــفاعة ونحوها، فقال مبدلاً من «يوم الدين» في قراءة ابن كثير والبصـــريين بالرفع: {يوم} وهو ظرف، قال

الكسائي: العرب تؤثر الرفع إذا أضافوا الليل واليوم إلى مستقبل، وإذا أضافوا إلى فعل ماض آثروا النصــب {لا تملك} أي بوجه من الوجوه في وقت ما {نفس} أيّ نفس كانت من غير اســتثناء، ونصــبه الباقون على الظرف، ويجوز أن تكون الفتحة للبناء لإضافته إلى غير متمكن {لنفس شيئاً} أي قل أو جل، وهذا وإن كان اليوم ثابتاً لكنه في هذه الدار بطن ســبحانه في الأسباب، فتقرر في النفوس أن الموجودين يضـرون وينفعون لأنهم يتكلمون ويبطشــون، وأما هناك فالمقرر في النفوس خلاف ذلك من أنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه إذناً ظاهراً، ولا يكون لأحد فعل ما إلا بإذنه كذلك، فالأمر كله له دائماً، لكن اســمه الظاهر هناك ظاهر واســمه الباطن هذا مقرر لموجبات الغرور.

ولما كان التقدير : فلا أمر لأحد من الخلق أصــلاً، لا ظاهراً ولا باطناً، عطف عليه قوله: {والأمر} أي كله {يومئذ} أي إذ كان البعث للجزاء {لله *} أي مختص به لا يشــاركه فيه مشــارك ظاهراً كما أنه لا يشــاركه فيه باطناً، ويحصــل هناك الكشــف الكلي فلا يدعي أحد لأحد أمراً من الأمور بغير إذن ظاهر خاص، وتصــير المعارف بذلك ضــرورية، فلذلك كان الانفطار والزلازل الكبار، والإحصــاء لجميع الأعمال الصـغار والكبار، وقد رجع أخرها كما ترى إلى أولها، والتف مفصــلها بموصــلها- والله الهادي للصواب.

83 Mutafifeen Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة المطففين

83

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5)}

ولما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب وانحسام الأنساب يوم الحساب، وأبلغ في التهديد بيوم الدين وأنه لا أمر لأحد معه، وذكر الأشقياء والسعداء، وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير، وكانت المعصية بالبخس فيها من أخس المعاصي وأدناها، حذر من الخيانة فيها وذكر ما أعد لأهلها وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم فحلمه وصفه على نوع من المعاصي، كل ذلك تنبيهاً للأشقياء الغافلين على ما هم فيه من السموم الممرضة المهلكة، ونبه على الشفاء لمن أراده فقال: {ويل} أي هلاك ثابت عظيم في كل حال

من أحوال الدنيا والآخرة {للمطففين} أي الذين ينقصـــون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس، وفي ذلك تنبيه على أن أصل الآفات الخلق السيئ وهو حب الدنيا الموقع في جمع الأموال من غير وجهها ولو بأخس الوجوه: التطفيف الذي لا يرضـاه ذو مروءة وهم من يقاربون ملء الكيل وعدل الوزن ولا يملؤون ولا يعدلون، وكأنه من الإزالة أي أزال ما أشرف من أعلى الكيل، من الطف، وهو ما أشـرف من أرض العرب على ريف العراق، ومنه ما في حديث ابن عمر رضـي الله تعالى عنهما قال: كنت فارسـاً فسـبقت الناس حتى طفت لي الفرس مســجد بني زريق- يعني أن الفرس وثب حتى كاد يسـاوي المسـجد، ويقال: طف الرجل الحائط- إذا علاه، أو من القرب، من قولهم: أخذت من متاعي ما خف وطف، أي قرب مني، وكل شـيء أدنيته من شـيء فقد أطففته، والطفاف من الإناء وغيره: ما قارب أن يملأه، ولا يتم ملأه، وفي الحديث: «كلكم بنو آدم طف الصـــاع»، أو من الطفف وهو التقتير، يقال: طفف عليه تطفيفا- إذا قتر عليـه، أو من الطفيف وهو من الأشـياء الخسـيس الدون والقليل، فكأن التضـعيف للإزالة على المعنى الأول كما مضـــى، وللمقاربة الكثيرة على المعنى الثاني أي أنه يقار ملء المكيال مقاربة كبيرة مكراً وخداعاً حتى يظن صاحب الحق أنه وفى ولا يوفي، يقال: أطف فلان لفلان- إذا أراد ختلـه، وإذا نهى عن هذا فقد نهى عما نقص أكثر بمفهوم الموافقة، وعلى المعنى الثالث بمعنى التقتير والمشـــاحة في الكيل، وعلى المعنى الرابع بمعنى التنقيص والتقليل فيه، وكأنـه اختير هذا اللفظ لأنه لا يكاد يسـرق في الميزان والمكيال إلا الشـيء اليسـير جداً، هذا

أصـله في اللغة وقد فسـره الله سـبحانه وتعالى فقال: {الذين إذا اكتالوا} أي عالجوا الكيل أو الوزن فاتزنوا– بما دل عليه ما يأتي، وعبر بأداة الاسـتعلاء ليكون المعنى: مسـتعلين أو متحاملين {على الناس} أي خاصـة بمشـاهدتهم كائنين من كانوا لا يخافون شـــيئاً ولا يراعون أحداً، بل صـــارت الخيانة والوقاحة لهم ديدناً، وهذا الفعل يتعدى بمن وعلى، يقال: اكتال من الرجل وعليه، ويجوز أن يكون اختيار التعبير بعلى هنا مع ما تقدم للإشـــارة إلى أنهم إذا كان لهم نوع علو بأن كان المكتال منه ضـعيفاً خانوه فيكون أمرهم دائراً على الرذالة وسفول الهمة التي لا أسفل منها {يستوفون *} أي يوجدون لأنفسـهم الوفاء وهو تمام الكيل بغاية الرغبة والمبالغة في الملء، فكأنه ذكر «اكتالوا» ولم يذكر «اتزنوا» لأنه لا يتأتى في الوزن من المعالجة ما يتأتى في الكيل، ولأنهم يتمكنون في الاكتيال من المبالغة في اسـتيفاء المؤدي إلى الزيادة ما لا يتمكنون من مثله في الاتزان، وهذا بخلاف الإخســـار فإن التمكن بسببه حاصل في الموضعين فلذلك ذكرهما فيه.

ولما أفهم تقديم الجار الاختصـاص فأفهم أنهم إذا فعلوا من أنفسـهم لا يكون كذلك، صرح به فقال: {وإذا كالوهم} أي كالوا الناس أي حقهم أي ما لهم من الحق {أو وزنوهم} أي وزنوا ما عليهم له من الحق، يقال: اكتال من الرجل وعليه وكال له الطعام وكاله الطعام، ووزنت الرجل الشـــيء ووزنت له الشـــيء، ولعله سـبحانه اختار «على» في الأول والمعدى إلى اثنين في الثاني لأنه أدل على حضـور صـاحب الحق، فهو في غيبته أولى، فهو أدل على المرون على الوقاحة، فهما كلمتان لا أربع لأنه ليس بعد الواو ألف

جمع، قال البغوي: وكان عيســـى بن عمر يجعلهما حرفين يقف على كالوا ووزنوا ويبتدئ هم، قال أبو عبيدة: والاختيار الأولى، قال البغوي: يعني أن كل واحدة كلمة لأنهم كتبوهما بغير ألف باتفاق المصـــاحف، وقال الزمخشري: ولا يصح أن يكون ضميراً للمطففين لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاســد، وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس اســتوفوا وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا، وهو كلام متنافر لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر، والتعلق في إبطاله بخط المصـــحف وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابته فيه ركيك لأن خط المصــحف لم يراع في كثير منه حد المصــطلح عليه في علم الخط- انتهى. ولا شــك أن في خط المصـــحف تقوية لهذا الوجه المعنوي وتأكيداً {يخسرون *} أي يوجدون الخسارة بالنقص فيما يكيلون لغيرهم، والحاصل أنهم يأخذون وافياً أو زائداً ويعطون ناقصاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه وتعالى في سورة الانفطار {وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين} [الانفطار: 10] الآية وكان مقتضى ذلك الإشـــعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى: {وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفا بنا حاسبين} [الأنبياء: 47] أتبع الآية المتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفيف في المكيال والميزان والانحراف عن إقامة القســط في ذلك، فقال تعالى: {ويل للمطففين} [المطففين: 1] ثم أردف

تهديدهم وتشـــديد وعيدهم فقال: {ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم} [المطففين: 4- 5] ثم التحمت الآي مناســبة لما افتتحت به الســورة إلى ختامها- انتهى.

ولما ذكر ســبحانه وتعالى أنهم أدمنوا على هذه الرذائل حتى صــارت لهم خلقاً مرنوا عليه وأنســوا به وســكنوا إليه، وكان ذلك لا يكون إلا ممن أمن العقاب وأنكر الحساب، أنتج ذلك الإنكار عليهم على أبلغ الوجوه لإفهامه أن حالهم أهل لأن يتعجب منه ويستفهم عنه وأن المستفهم عن حصوله عندهم الظن، وأما اليقين فلا يتخيل فيهم لبعد أحوالهم الجافية وأفهامه الجامدة عنه فقال تعالى: {ألا يظن أولئك} أي الأخســاء البعداء الأرجاس الأراذل يتجدد لهم وقتاً من الأوقات ظن أن لم يتيقنوا بما مضــى من البراهين التي أفادت أعلى رتب اليقين، فإنهم لو ظنوا ذلك ظناً نهاهم إن كان لهم نظر لأنفســهم عن أمثال هذه القبائح، ومن لم تفده تلك الدلائل القاطعة ظناً يحتاط به لنفســه فلا حس له أصــلاً {أنهم} وعبر باســم المفعول فقال: {مبعوثون *} إشارة إلى القهر على أهون وجه بالبعث الذي قد ألفوا مثله من القهر باليقظة بعد القهر بالنوم {ليوم} أي لأجله وفيه، وزاد التهويل بقوله: {عظيم *} أي لعظمة ما يكون فيه من الجمع والحســاب الذي يكون عنه الثواب والعقاب مما لا يعلمه على حقيقته إلا هو سبحانه وتعالى.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 12]

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)}

ولما عظم ذلك اليوم تحذيراً منه، وزاده تعظيماً بأن أتبعه على سـبيل القطع قوله ناصـباً بتقدير «أعني» إعلاماً بأن الجحد فيه بأعين جميع الخلائق فهو فضيحة لا يشبهها فضيحة: {يوم يقوم} أي على الأرجل {الناس} أي كل من فيه قابلية الحركة، وذلك يوم القيامة خمسين ألف سنة لا ينظر إليهم سبحانه– رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمرو رفعه ورجاله ثقات {لرب العالمين *} أي لأجل حكم موجد الخلائق ومربيهم كلهم فلا ينسـى أحداً من رزقه ولا يهمله من حكمه ولا يرضـى بظلم أحد ممن يربيه فهو يفيض لكل من كل بحكم التربية، كل ذلك من استفهام الإنكار وكله الظن، ووصف اليوم بما وصف وغير ذلك للإبلاغ في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه، وروى الحاكم من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه رضـي الله عنه رفعه: «ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسـنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر» ومن طريق عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً نحوه، وللطبراني من طريق الضـحاك عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً نحوه.

ولما أنهى سـبحانـه ما أراد من تعظيم ذلك اليوم والتعجيب ممن لم يفده براهينه أن يجوزه والإنكار عليه، وكان مع ما فيه من التقريع مفهماً للتقرير، نفى بأداة الردع للمبالغة في النفي مضـمون ما وقع الاسـتفهام عنه فقال: {كلا} أي لا يظن أولئك ذلك بوجه من الوجوه لكثافة طباعهم ووقوفهم مع المحسـوس دأب البهائم بل لا يجوزونه، ولو جوزوه لما وقعوا في ظلم أحد من يسألون عنه في ذلك اليوم المهول، وما أوجب لهم الوقوع في الجرائم إلا الإعراض عنه، وقال الحسـن رحمه الله تعالى: هي بمعنى حقاً متصـلة بما بعدها- انتهى. وهي مع ذلك مفهمة للردع الذي ليس بعده ردع عن اعتقاد مثل ذلك والموافقة لشيء مما يوجب الخزي فيه.

ولما أخبر عن إنكارهم، اسـتأنف إثبات ما أنكروه على أبلغ وجه وأفظعه مهولاً لما يقع لهم من الشـرور وفوات السـرور، مؤكداً لأجل إنكارهم فقال: {إن كتاب} وأظهر موضـع الإضـمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصـف فقال: {الفجار} أي صـحيفة حسـاب هؤلاء الذين حملهم على كفرهم مروقهم وكذا كل من وافقهم في صـفاتهم فكان في غاية المروق مما حق ملابسـته وملازمته، وأبلغ في التأكيد فقال: {لفي سجين *} هو علم منقول في صيغة المبالغة عن وصف من السجن وهو الحبس لأنه سبب الحبس في جهنم أي إنه ليس فيه أهلية الصعود إلى محل الأقداس إشـارة إلى أن كتابهم إذا كان في سـجن عظيم أي ضـيق شـديد كانوا هم في أعظم، قال ابن جرير: وهي الأرض السـابعة- انتهى وهو يفهم مع هذه الحقيقة أنهم في غاية الخسـارة لأنه يقال لكل من انحط: صـار تراباً ولصـق بالأرض- ونحو ذلك، ثم زاد

في هوله بالإخبار بأنه أهل لأن يسأل عنه ويضرب إلى العالم به- إن كان يمكن- آباط الإبل فقال: {وما أدراك} أي جعلك دارياً وإن اجتهدت في ذلك {ما سجين *} أي أنه بحيث لا تحتمل وصفه العقول، وهو مع ذلك في أسفل سافلين ويشهده المبعدون من الشياطين وسائر الظالمين، يصعد بالميت منهم إلى السماء فتغلق أبوابها دونه فيرد تهوي به الريح تشمت به الشياطين.

وكل ما قال فيه: «وما أدراك» فقد أدراه به بخلاف «وما يدريك».

ولما أتم ما أراد من وصفه، أعرض عن بيانه إشارة إلى أنه من العظمة بحيث إنه يكل عنه الوصف، واستأنف أمر الكتاب المسجون فيه فقال محذراً منه مهولاً لأمره: {كتاب} أي عظيم لحفظه النقير والقطمير {مرقوم *} أي مسطور بين الكتابة كما تبين الرقمة البيضاء في جلد الثور الأسود، ويعلم كل من رآه أنه غاية في الشر، وهو كالرقم في الثوب والنقش في الحجر لا يبلى ولا يحمى.

ولما أعلم هذا بما للكتاب من الشر، استأنف الإخبار بما أنتجه مما لأصحابه فقال: {ويل} أي أعظم الهلاك {يومئذ} أي إذ يقوم الناس لما تقدم: ولما كان الأصل: لهم، أبدله بوصف ظاهر تعميماً وتعليقاً للحكم به فقال: {للمكذبين *} أي الراسخين في التكذيب بكل ما ينبغي التصديق به.

ولما أخبر عن ويلهم، وصفهم بما يبين ما كذبوا به ويبلغ في ذمهم فقال: {الذين يكذبون} أي يوقعون التكذيب لكل من ينبغي تصديقه، مستهينين {بيوم} أي بسبب الإخبار بيوم {الذين *} أي الجزاء الذي هو سر الوجود

{وما} أي والحال أنه ما {يكذب} أي يوقع التكذيب {به إلا كل معتد} أي متجاوز للحد في العناد أو الجمود والتقليد لأن محطة نســـبة من ثبت بالبراهين القاطعة أنه على كل شـــيء قدير إلى العجز عن إعادة ما ابتدأه {أثيم *} أي مبالغ في الانهماك في الشـهوات الموجبة للآثام، وهي الذنوب، فاسود قلبه فعمي بنظر الشهوات التي حفت بها النار عما عداها.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 17]

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آَيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِـــبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)}

ولما أثبت له الإبلاغ في الإثم، دل عليه بقوله بأداة التحقق: {إذا تتلى} أي من أي تال كان، مســـتعلية بما لها من البراهين {عليه آياتنا} أي العلامات الدالة على ما أريد بيانها له مع ما لها من العظمة بالنســـبة إلينا {قال} أي من غير توقف ولا تأمل بل بحظ نفس أوقعه في شـــهوة المغالبة التي ســـببها الكبر: {أساطير الأولين *} أي من الأباطيل وليسـت كلام الله، فكان لفرط جهله بحيث لا ينتفع بشواهد النقل كما أنه لم ينظر في دلائل العقل.

ولما كان هذا قد صـــار كالأنعام في عدم النظر بل هو أضـــل ســـبيلاً لأنه قادر على النظر دونها، قال رادعاً له ومكذباً ومبيناً لما أدى به إلى هذا القول وهو لا يعتقده: {كلا} أي ليرتدع ارتداعاً عظيماً ولينزجر انزجاراً شـــديداً، فليس الأمر كما قال في المتلو ولا هو معتقد له اعتقاداً جازماً لأنه لم يقله عن بصـــيرة {بل ران} أي غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للســـماء

والصـــدأ للمرآة، وجمع اعتباراً بمعنى «كل» لئلا يتعنت متعنت، فقال معبراً بجمع الكثرة إشارة إلى كثرتهم: {على قلوبهم} أي كل من قال هذا القول {ما كانوا} أي بجبلاتهم الفاسدة {يكسبون *} أي يجددون كسبه مستمرين عليه من الأعمال الردية، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً، فيتراكم الذنب على القلب فيسود، فلذلك كانوا يقولون مثل هذا الاعتقاد، بل هو شـــيء يســـدون به المجلس ويقيمون لأنفســـهم عند العامة المعاذير ويفترون به عزائم التالين بما يحرقون من قلوبهم– أحرق الله قلوبهم وبيوتهم بالنار– فإنهم لا ينقطعون في عصر من الأعصار ولا يخشون من عار ولا شـــنار، روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضـــي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله سبحانه وتعالى» وقال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء: قد سـبق أن الإنسـان لا يخلو في مبدأ خلقته عن اتباع الشـهوات، وكل شـهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآه الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، فإذا تراكم الرين صـــــار طبعاً كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصـــار لا يقبل التصـــقيل بعده، وصـــار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصـــورة في المرآة قطع الأنفاس

والبخارات المسـودة لوجهها في المسـتقبل ما لم يشـتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصـي والشـهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشـــهوات فتنمحي ظلمة المعصـــية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم:

»وأتبع السيئة الحسنة تمحها«.

ولما كان ادعاؤهم إنما هو قول قالوه بأفواههم لا يتجاوزها عظيماً جداً، أعاد ردعهم عنه وتكذيبهم فيه فقال: {كلا} أي ليس الأمر كما قالوا من الأساطير لا في الواقع ولا عندهم فليرتدعوا عنه أعظم ارتداع. ولما كان قول الإنسـان لما لا يعتقده ولا هو في الواقع كما في غاية العجب لا يكاد يصـــدق، علله مبيناً أن الحامل لهم عليه إنما هو الحجاب الذي ختم به ســـبحانه على قلوبهم، فقال مؤكداً لمن ينكر ذلك من المغرورين: {إنهم عن ربهم} أي عن ذكر المحســن إليهم وخشــيته ورجائه {يومئذ} أي إذ قالوا هذا القول الفارغ. ولما كان المانع إنما هو الحجاب، بني للمفعول قوله: {لمحجوبون *} فلذلك اســتولت عليهم الشــياطين والأهوية، فصـــاروا يقولون ما لو عقلت البهائم لاســتحيت من أن تقوله، والأحســن أن تكون الآية بياناً وتعليلاً لويلهم الذي ســـبق الإخبار به، ويكون التقدير : يوم إذ كان يوم الدين، ويكون المراد الحجاب عن الرؤية، ويكون في ذلك بشارة للمؤمنين بها. وقال البغوي: قال أكثر المفسرين: عن رؤيته، وقال: إن الإمامين الشافعي وشيخه مالكاً استدلا بهذه الآية على الرؤية، وأسند الحافظ أبو نعيم في الحلية في ترجمة الشافعي أنه قال: في هذه الآية دلالة على أن أولياءه يرونه على صـــفته، وقال ابن

الفضـــل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته، وقال الحســـن : لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفســهم في الدنيا. وقال القشــيري: ودليل الخطاب يوجب أن يكون المؤمنون يرونه كما يعرفونه اليوم انتهى. وفيه تمثيل لإهانتهم بإهانة من يمنع الدخول على الملك.

ولما بين ما لهم من العذاب بالحجاب الذي هو عذاب القلب الذي لا عذاب أشـد منه، لأنه يتفرع عنه جميع العذاب، شـرع يبين بعض ما تفرع عنه من عذاب القالب مؤكداً لأجل إنكارهم معبراً بأداة التراخي إعلاماً بعلو رتبته في أنواع العذاب فقال: {ثم إنهم} أي بعد ما شاء الله من إمهالهم {لصلوا الجحيم *} أي لدخلو النار العظمى ويقيمون فيها مقاسون لحرها ويغمسون فيها كما تغمس الشاة المصلية أي المشوية.

ولما بين ما لهم من الفعل الذي هو للقلب والقالب، أتبعه القول بالتوبيخ والتبكيت الذي هو عذاب النفس، وبناه للمفعول لأن المنكئ سماعه لا كونه من معين، وإشـارة إلى أنه يتمكن من قوله لهم كل من يصـح منه القول من خزنة النار ومن أهل الجنة وغيرهم لأنه لا منعة عندهم: {ثم يقال} أي لهم بعد مدة تبكيتاً وتقريعاً وتنديماً وتبشيعاً: {هذا} أي العذاب الذي هو حالّ بكم {الذي كنتم} أي بما لكم من الجبلات الخبيثة {به} أي خاصـة لأن تكذيبكم بغيره بالنسبة إليه لما له من القباحة ولكم من الرسوخ فيه والملازمة له (؟) {تكذبون *} أي توقعون التكذيب به وتجددونه مستمرين عليه.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 23]

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23)}

ولما كان هذا ربما أفهم أنهم يرون جميع عذابهم إذ ذاك، نفاه بقوله: {كلا} أي ليس هو المجموع بل هو فرد من الجنس فلهذا عمل عليه الجنس وهو نزلهم والأمر أطم وأعظم من أن يحيط به الوصف. ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب الذي جره إليهم إقبالهم على الدنيا بادئاً به لأن المقام من أول السورة للوعيد وصوادع التهديد، أتبعه ما للمصدقين الذين أقبل بهم إلى السعادة ترك الحظوظ وإعراضهم عن عاجل شهوات الدنيا، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم: {إن كتاب الأبرار} أي صحيفة حسنات الذين هم في غاية الاتساع في شرح صدورهم، واتساع عقولهم وكثرة أعمالهم وزكائها وغير ذلك من محاسن أمورهم {لفي عليّين *} أي أماكن منسوبة إلى العلو، وقع النسب أولاً إلى فعليّ ثم جمع وإن كان لا واحد له من لفظه كعشرين وأخواته، قال الكسائي: إذا جمعت العرب ما لا يذهبون فيه إلى أن له بناء من واحد واثنين فإنهم يجمعون بالواو والنون في المذكر والمؤنث- انتهى، فهي درجات متصاعدة تصعد إلى الله ولا تحجب عنه كما يحجب ما للأشقياء بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له بحسب رتب الأعمال، وكل

من كان كتابه من الأبرار في مكان لحق به كما أن من كان كتابه من الفجار في سجين لحق به، قال الرازي في اللوامع: من ترقى علمه عن الحواس والأوهام وفعله عن مقتضى الشهوة والغضب فهو حقيق بأن يكون عليّاً، ومن كان علمه وإدراكه مقصوراً على الحواس والخيال والأوهام وفعله على مقتضى الشهوات البهيمية فهو حقيق بأن يكون في سجين.

ولما كان هذا أمراً عظيماً، زاد في تعظيمه بقوله: {وما} أي وأي شيء {أدراك} أي جعلك دارياً وإن بالغت في الفحص {ما علّيون *} فإن وصفه لا تسعه العقول ويلزمه لعلوه فضاء مطلق واتساع مبين. ولما عظم المكان فعلمت عظمة الكتاب، ابتدأ الإخبار عنه على سبيل القطع زيادة في عظمته فقال: {كتاب} أي عظيم {مرقوم *} أي فيه أن فلاناً أمن من النار فيا له من رقم ما أحسنه وما أبهاه وما أجمله.

ولما عظمه في نفسه وفي مكانه، عظمه في حضّاره فقال: {يشهده المقربون *} أي يحضره حضوراً تاماً دائماً لا غيبة فيه الجماعة الذين يعرف كل أحد أنه ليس لهم عند كل من يعتبر تقريبه إلا التقريب من ابتدائه إلى انتهائه هم شهود هذا المسطور وهم الملائكة يشيعونه من سماء إلى سماء ويحفون به سروراً وتعظيماً لصاحبه ويشهده من في السماوات من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين والشهداء والصالحين، فالآية مع الأولى من الاحتباك: ذكر سجين أولاً دال على الاتساع ثانياً، وذكر عليين والمقربين ثانياً دال على أسفل سافلين والمبعدين أولاً.

ولما عظم كتابهم بهذه الفضـائل، التفتت النفي إلى معرفة حالهم فقال شـافياً لعي هذا الالتفات مؤكداً لأجل من ينكر: {إن الأبرار} أي الذين هذا كتابهم {لفي نعيم *} أي محيط بهم ضـد ما فيه الفجار من الجحيم: ولما كان لا شـيء أنعم للإنسـان من شـيء عال يجلس عليه ويمد بصـره إلى ما يشـتهي مما لديه، قال مبيناً لذلك النعيم: {على الأرائك} أي الأسـرة العالية مع هذا العلو المطلق في الحجال التي يعيي الفكر وصـــفها لما لها من العلو من ترصيع اللؤلؤ والياقوت وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر {ينظرون *} أي إلى ما يشـــتهون من الجنان والأنهار والحور والولدان، ليس لهم شـــغل غير ذلك وما شابهه من المستلذات. وقال الإمام القشيري: أثبت النظر ولم يبين المنظور إليه لاختلافهم: منهم من ينظر إلى قصـوره، ومنهم من ينظر إلى حوره، ومنهم ومنهم، والخواص على دوام الأوقـات إلى الله تعـالى ينظرون كما أن الفجار دائماً عن ربهم محجوبون.

▲ تفسير الآيات رقم [24- 30]

{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْـــرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30)}

ولما وصـــف نعيمهم، أخبر أنهم من عراقتهم فيه يعرفهم به كل ناظر إليهم فقال تعالى: {تعرف} أي أيها الناظر إليهم- هذا على قراءة الجماعة، وقرأ

أبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول، وهو أدل على العموم {في وجوههم} عند رؤيتهم {نضـــرة النعيم *} أي بهجته ورونقه وحســـنه وبريقه وطراوته، من نضــر النبات- إذا أزهر ونوّر، وقال الحســن رحمه الله تعالى: النضــرة في الوجه والسرور في القلب.

ولما كانت مجالس الأنس لا سيما في الأماكن النضرة لا تطيب إلا بالمآكل والمشارب، وكان الشراب يدل على الأكل، قال مقتصراً عليه لأن هذه السور قصــار يقصــد فيها الجمع مع الاختصــار قال: {يســقون} بانياً له للمفعول دلالة على أنهم مخدومون أبداً لا كلفة عليهم في شـــيء {من رحيق} أي شــراب خالص صــاف عتيق أبيض مطيب في غاية اللذة، فإنهم قالوا: إن الرحيق الخمر أو أطيبها أو أفضـلها أو الخالص أو الصــافي، وضــرب من الطيب. ولا شــك أن العاقل لا يشــرب الخمر مطلقاً فكيف بأعلاها إلا إذا كان مســتكملاً لمقدماتها من مأكول ومشــروب وملبوس ومنكوح وغير ذلك، ولما كان الختم لا يكون إلا لما عظمت رتبته وعزت نفاســـته، قال مريداً الحقيقة، أو الكناية عن نفاسـته: {مختوم *} أي فهو مع نفاسـته سـالم من الغبار وجميع الأقذاء والأقذار.

ولما كان الختم حين الفك لا بد أن ينزل من فتاته في الشـراب قال: {ختامه مســك} وقال ابن مســعود رضـــي الله عنه: إن المراد بختامه آخر طعمه، فيحصـل أن ختامه في أول فتحه وفي آخر شربه المسك، وذلك يقتضـي أن لا يكون يفتحه إلا شــاربه، وأنه يكون على قدر كفايته فيشـربه كله، والعبارة صـــالحة لأن يكون الختام أولاً وآخراً، وهو يجري مجرى افتضـــاض البكر.

ولما كان التقدير: فيه يبلغ نهاية اللذة الشاربون، عطف عليه قوله: {وفي ذلك} أي الأمر العظيم البعيد المتناول وهو العيش والنعيم والشراب الذي هذا وصفه {فليتنافس} أي فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار {المتنافسون *} أي الذين من شأنهم المنافسة وهو أن يطلب كل منهم أن يكون ذلك المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره لأنه نفيس جداً، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه. والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحات والنيات الخالصة.

ولما ذكر الشراب، أتبعه مزاجه على ما يتعارفه أهل الدنيا لكن بما هو أشرف منه، فقال مبيناً لحال هذا المسقي: {ومزاجه} أي يسقون منه والحال أن مزاج هذا الرحيق {من تسنيم *} علم على عين معينة وهو– مع كونه علماً– دال على أنها عالية المحل والرتبة، والشراب ينزل عليهم ماؤها من العلو–، وقال حمزة الكرماني: ماؤها يجري على الهواء متنسماً ينصب في أواني أهل الجنة على مقدار الحاجة، فإذا امتلأت أمسك، وهو في الشعر اسم جبل عال وكذا التنعيم وأصله من السنام، ولذلك قطعها مادحاً فقال: {عيناً يشرب بها} أي بسببها على طريقة المزاج منها {المقربون *} أي الذين وقع تقريبهم من اجتذاب الحق لهم إليه وقصر هممهم عليه، كل شراب يريدونه، وأما الأبرار فلا يشربون بها إلا الرحيق، وأما غيرهم فلا يصل إليها أصلاً، وقال بعضهم: إن المقربين يشربون من هذه العين صرفاً، والأبرار يمزج لهم منها والفرق ظاهر– هنياً لهم.

ولما ذكر سبحانه جزاء الكافر بالجحيم وجزاء المؤمن بالنعيم، وكان من أجل النعيم الشـــماتة بالعدو، علل جزاء الكافر بما فيه شـــماتة المؤمن به لأنه اشـــتغل في الدنيا بما لا يغني، فلزم من ذلك تفويته لما يغني، فقال مؤكداً لأن ذا المروءات والهمم العاليات والطبع الســـليم والمزاج القويم لا يكاد يصـــدق مثل هذا، وأكده إشـــارة إلى أن من حقه أن لا يكون: {إن الذين أجرموا} أي قطعوا ما أمر الله به أن يوصل {كانوا} أي في الدنيا ديدناً وخلقاً وطبعاً وجبلة {من الذين آمنوا} أي ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان {يضـــحكون *} أي يجددون الضـــحك كلما رأوهم أو ذكروهم اســـتهزاء بهم وبحالاتهم التي هم عليها من علامات الإيمان في رثاثة أحوالهم وقلة أموالهم واحتقار الناس لهم مع ادعائهم أن الله تعالى لا بد أن ينصرهم ويعلي أمرهم {وإذا مروا} أي الذين آمنوا {بهم} أي بالذين أجرموا في أي وقت من الأوقات يســتهزئون و {يتغامزون} أي يغمز بعض الذين أجرموا بعضــاً لأذى الذين آمنوا.

تفسير الآيات رقم [31- 36]

{وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِـــلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـــحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)}

ولما وصــفهم في مواضــع التردد والتقلب، وصــفهم في المنازل فقال: {وإذا انقلبوا} أي رجع الذين أجرموا برغبتهم في الرجوع وإقبالهم عليه من غير

تكره {إلى أهلهم} أي منازلهم التي هي عامرة بجماعتهم {انقلبوا} حال كونهم {فاكهين *} أي متلذذين غاية التلذذ بما كان من مكنتهم ورفعتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم، قال: ابن برجان: وذكر عليه الصلاة والسلام: «إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً– كما بدأ، يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر» وفي أخرى: يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة. وفي أخرى: العالم فيهم أنتن من جيفة حمار– فالله المستعان.

ولما ذكر مرورهم بهم، ذكر مطلق رؤيتهم لهم فقال: {وإذا رأوهم} أي رأى الذين أجرموا الذين آمنوا {قالوا} أي عند رؤيتهم للذين آمنوا مؤكدين لأنهم يستشعرون أن كل ذي عقل يكذبهم مشيرين إلى تحقيرهم بأداة القرب: {إن هؤلاء} أي الذين آمنوا {لضالون *} أي عريقون في الضلال لأنهم تركوا الدنيا لشيء أجل لا صحة له {وما} أي والحال أنهم ما {أرسلوا} أي من مرسل ما {عليهم} أي على الذين آمنوا خاصة حتى يكون لهم بهم هذا الاعتناء في بيوتهم وخارجها عند مرورهم وغيره {حافظين*} أي عريقين في حفظ أعمال الذين آمنوا فما اشتغالهم بهم إلى هذا الحد أن كانوا عندهم في عداد الساقط المهمل كما يزعمون فما هذه المراعاة المستقصية لأحوالهم وإن كانوا في عداد المنظور إليه المعتنى به فليبينوا فساد حالهم بوجه تقبله العقول ويقوم عليه دليل أو ليتبعوهم وإلا فهم غير عارفين بمواضع الإصلاح وتعاطي الأمور على وجهها فما أحقهم بقول القائل:

أوردها سعد وسعد مستمل *** ما هكذا تورد يا سعد الإبل

ولما كان لا نعيم أفضل من الشماتة بالعدو لا سيما إذا كانت على أعلى طبقات الشماتة قال تعالى: {فاليوم} أي فتسبب عن هذا من فعلهم في دار العمل أنه يكون في دار الجزاء {الذين آمنوا} ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان {من الكفار} خاصة، وهم الراسخون في الكفر من عموم الذين أجرموا، في الحشر والجنة سخرية وهزؤاً، فإن الذين آمنوا لا يضحكون من عصاة المؤمنين لو رأوهم يعذبون بل يرحمونهم لاشتراكهم في الدين {يضحكون} قصاصاً وجزاء حين يرون ما هم فيه من الذل سروراً بحالهم شكراً لله على ما أعطاهم من النجاة من النار والنقمة من أعدائهم، قال أبو صالح: تفتح لهم الأبواب ويقال: اخرجوا، فيسرعون فإذا وصلوا إلى الأبواب غلقت في وجوههم وردوا على أقبح حال، فيضحك المؤمنون- انتهى. ويا لها من خيبة وخجلة وسواد وجه وتعب قلب وتقريع نفس من العذاب بالنار وبالشماتة والعار، حال كون الذين آمنوا ملوكاً {على الأرائك} أي الأسرة العالية المزينة التي هي من حسنها أهل لأن يقيم المتكئ بها {ينظرون *} أي يجددون تحديق العيون إليهم كلما أرادوا فيرون ما هم فيه من الهوان والذل والعذاب بعد العزة والنعيم نظر المستفهم {هل ثوب} بناه للمفعول لأن الملذ مطلق مجازاتهم {الكفار} أي وقع تثويب العريقين في الكفر أي إعطاؤهم الثواب والجزاء على أنهى ما يكون، فالجملة في محل نصب «ينظرون» {ما كانوا} أي نفس فعلهم بما هو لهم كالجبلات {يفعلون *} أي بدواعيهم الفاسدة ورغباتهم المعلولة، فالجملة في موضع المفعول، وقد علم أن لهم الويل الذي افتتحت السورة بالتهديد به لمن يفعل فعل من لا يظن أنه

يجازى على فعله، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك، وجفاء العدل والوفاء، والله الهادي للصـــواب، وإليه المرجع والمآب وإليه المتاب.

84 Inshiqaaq Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

Next Surah Inshiqaaq Surah 84

84 Inshiqaaq Tafsir Nazmuddurar li Baqaaee

سورة الانشقاق

84

تفسير الآيات رقم [1- 8]

{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8)}

لما ختمت التطفيف بأن الأولياء في نعيم، وأن الأعداء في جحيم ثواباً وعقاباً، ابتدأ هذه بالإقسام على ذلك فقال: {إذا السماء} أي على ما لها من الإحكام والعظمة والحكمة الذي لا يقدر على مثلها غيره جلت قدرته {انشقت *} أي فصارت واهية وفتحت أبواباً فتخربت وتهدمت، وذلك بعد القيام من القبور كما مضى في الحاقة عن إحدى روايتي ابن عباس رضي الله عنهما {وأذنت} أي كانت شديدة الاستماع والطواعية والانقياد على أتم وجه كمن له أذن واعية ونفس مطمئنة راضية {لربها} أي لأمر المخترع لها والمدبر لجميع أمرها، وهي الآن وإن كانت منقادة فانقيادها ظاهر لأكثر الخلق وهم المثبتة، وأما المعطلة فربما نسبوا تأثيراتها إلى الطبائع والكواكب وأما عند الانشقاق فيحصل الكشف التام فلا يبقى لأحد شبهة {وحقت *} بالبناء للمفعول بمعنى أنها مجبولة على أن ذلك حق عليها ثابت لها، فهي حقيقة به لأنها مربوبة له سبحانه، وكل مربوب فهو حقيق بالانقياد لربه، وهي لم تزل مطيعة له في ابتدائها وانتهائها، لكن هناك يكون الكشف التام لجميع الأنام.

ولما بدأ بالعالم العلوي لكونه أشرف لأنه أعلى مكانة ومكاناً، ثنى بالسفلي فقال تعالى: {وإذا الأرض} أي على ما لها من الصلابة والثخانة والكثافة، وأشار بالبناء للمفعول إلى سهولة الفعل فيها عليه سبحانه وتعالى وسرعة انفعالها مع كونه أعجب من انشقاق السماء فإنه ربما كان في الشيء لوهيه

من تطاول مرور الزمان عليه بخلاف المد فقال: {مدت} أي بسـطت بسـط الأديم ومطت فامتطت فزيد في سـعتها جداً بعد أن تمهدت فصـارت دكاء فزالت جبالها وآكامها وتلالها، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً كما أن الأديم إذا مد كان كذلك فزال تثنيه واتسع.

ولما كان الجلد جديراً بأنه إذا مد أن يبين عن كل ما فيه من غيره قال: {وألقت ما فيها} أي أخرجت ما في بطنها من الأموال والكنوز والأموات إخراجاً سريعاً كأنها تقذفه قذفاً، وذلك أيضـاً كالبسـاط إذا نقض {وتخلت *} أي تعمدت وتكلفت الخلو عن ذلك والترك له بغاية جهدها، أي فعل ذلك سـبحانه فعلاً كانت الأرض كأنها فاعلة له على هذا الوجه، فصـارت خلية عن كل شـيء كان في بطنها، وصـار بارزاً على ظهرها، ولما كان هذا ربما أوهم أنه بغير أمره سـبحانه وتعالى قال: {وأذنت لربها} أي فعلت ذلك بإذن الخالق لها والمربي وتأثرت في ذلك عن تأثيره لا بنفسـها، وفعلت فيه كله فعل السـميع المجيب {وحقت *} أي وكانت حقيقة بذلك كما أن كل مربوب كذلك وتكرير «إذا» للتنبيه على ما في كل من الجملتين من عظيم القدرة، والجواب محذوف- لأنه في غاية الانكشـاف بما دل عليه المقام مع ما تقدم من المطففين وما قبلها من السور وما يأتي في هذه السورة تقديره: ليحاسبن كل أحد على كدحه كله فليثوبنّ الكفار ما كانوا يفعلون وليجازين أهل الإسلام بما كانوا يعملون.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصـائهم على العباد في كتبهم، وعاد الكلام إلى ذكر ما يكتب على البر

والفاجر واســـتقرار ذلك في قوله تعالى: {إن كتاب الأبرار لفي عليّين} [المطففين: 18] وقوله: {إن كتاب الفجار لفي سجين} [المطففين: 7] أتبع ذلك بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذها بالأيمان عنوان السـعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشـقاء إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها فمنها ما هو في عليين ومنها ما هو في ســجين إلى يوم العرض، فيؤتى كل كتابه فآخذ بيمينه وهو عنوان سعادته، وآخذ من وراء ظهره وهو عنوان هلاكه، فتحصّل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واســتقراراً وتفريقاً يوم العرض، وافتتحت الســورة بذكر انشـقاق السـماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتحليها تعريفاً بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته والمناسبة بينة- انتهى.

ولما كان الجواب ما ذكرته، أتبعه شرحه فقال منادياً بأداة صالحة للبعد لأن المنادى أدنى الأسـنان بادئاً بالأولياء لأن آخر التطفيف الذي هذا شـرح له إدخال السرور عليهم: {يا أيها الإنسان} أي الآنس بنفسه الناسي لربه. ولما كان أكثر الناس منكراً للبعث أكد فقال: {إنك كادح} أي ســاع وعامل مع الجهد لنفسك من خير أو شر، وأكثره مما يؤثر خدوشاً وشيناً وفساداً وشتاتاً، منتهياً {إلى ربك} الذي أوجدك ورباك بالعمل بما يريد معنىً وبالموت حساً، وأشار إلى اجتهاد كل فيما هو فيه وخلق له بالتأكيد بالمصدر فقال: {كدحاً} أي عظيماً {فملاقيه *} أي فمتعقب كدحك لقاؤك لربك، وأنه ينكشــف لك أنك كنت في ســيرك إليه كالمجتهد في لقائه اجتهاد من يســابق في ذلك آخر، وكل ذلك تمثيل لنفوذ إرادته ومضــي أقضــيته بســبب الانتهاء إليه،

وحقيقته تلاقي جزاءه وينكشــف لك من عظيم أمره ما ينكشــف للملاقي مع من يلقاه بســبب اللقاء، وهذا أمر أنت ســاع فيه غاية الســعي لأن من كان الليل والنهار مطيتيه أوصــلاه بلا شـك إلى منتهى سـفره شـاء أو أبى، فذكر هذا على هذا النمط حث على الاجتهاد في الإحســـان في العمل لأن من أيقن بأنه لا بد له من العرض على الملك أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه.

ولما كان من المعلوم أن عبيد الملك إذا عرضــوا عليه، كان فيهم المقبول والمردود، بسبب أن كدحهم تارة يكون حسناً وتارة يكون سيئاً، قال معرفاً أن الأمر في لقائه كذلك على ما نعهد، فمن كان مقبولاً أعطي كتاب حســناته بيمينه لأنه كان في الدنيا من أهل اليمين أي الدين المرضـــي، ومن كان مردوداً أعطي كتابه بشـماله لأنه كان في الدنيا مع أهل الشـمال وهو الدين الباطل الذي يعمل من غير إذن المالك، فكأنه يفعل من ورائه، فترجم هذا الغرض بقوله ســبحانه وتعالى مفصــلاً للإنســان المراد به الجنس جامعاً للضـمير بعد أن أفرده تنصـيصـاً على حشـر كل فرد: {فأما من أوتي} بناه للمفعول إشـــارة إلى أن أمور الآخرة كلها قهر وفي غاية الســهولة عليه ســبحانه وتعالى، وفي هذه الدار للأمر وإن كان كذلك إلا أن الفرق في انكشـاف سـتر الأسـباب هناك فلا دعوى لأحد {كتابه} أي صـحيفة حسـابه التي كتبتها الملائكة وهو لا يدري ولا يشـعر {بيمينه} من أمامه وهو المؤمن المطيع {فسوف يحاسب} أي يقع حسـابه بوعد لا خلف فيه وإن طال الأمد لإظهار الجبروت والكبرياء والقهر {حســاباً يســيراً} أي ســهلاً لا يناقش فيه

لأنه كان يحاسب نفسه فلا يقع له المخالفة إلا ذهولاً، فلأجل ذلك تعرض أعماله فيقبل حسنها ويعفو عن سيئها.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 15]

{وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا)12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)}

ولما كان هذا دالاً على العفو، أتبعه ما يدل على الإكرام فقال: {وينقلب} أي يرجع من نفسه من غير مزعج برغبة وقبول {إلى أهله} أي الذين أهله الله بهم في الجنة فيكون أعرف بهم وبمنزله الذي أعد له منه بمنزله في الدنيا. ولما كانت السعادة في حصور السرور من غير قيد، بنى للمفعول قوله: {مسروراً *} أي قد أوتي جنة وحريراً، فإنه كان في الدنيا في أهله مشفقاً من العرض على الله مغموماً مضروراً يحاسب نفسه بكرة وعشياً حساباً عسيراً مع ما هو فيه من نكد الأهل وضيق العيش وشرور المخالفين، فذكر هنا الثمرة والمسبب لأنها المقصودة بالذات، وفي الشق الآخر السبب والأصل، وقد استشكلت الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الآية بما «روي عنها في الصحيح بلفظين أحدهما» ليس أحد يحاسب إلا هلك «والثاني» من نوقش الحساب عذب «قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت:

يا رسـول الله! أليس الله يقول {فأما من أوتي كتابه} [الانشـقاق: 8] الآية، فقال: صـلى الله عليه وسـلم: إنما ذلك العرض» فإن كان اللفظ الأول هو الذي سمعته فالإشكال فيه واضح، وذلك أنه يرجع إلى كلية موجبة هي «كل من حوسب هلك» والآية مرجع إلى جزئية سالبة وهي «بعض من يحاسب لا يهلك» وهو نقيض، وحينئذ يكون اللفظ الثاني من تصـــرف الرواة، وإن كان الثاني هو الذي سـمعته فطريق تقدير الإشـكال فيه أن يقال: المناقشـة في اللغة من الاسـتقصـاء وهو بلوغ الغاية، وذلك في الحسـاب بذكر الجليل والحقير والمجازاة عليه، فرجع الأمر أيضـــاً إلى كلية موجبة هي «كل من حوسب بجميع أعماله عذب» وذلك شامل لكل حساب سواء كان يسيراً أو لا، لأن الأعم يشـــمل جميع أخصّـــياته، والآية مثبتة أن من أعطي كتابه بيمينه يحاسب عليه ولا يهلك، والصديقة رضي الله عنها عالمة بأن الكتاب يثبت فيه جميع الأعمال من قوله تعالى: {لا يغادر صـــغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصـاها} [الكهف: 49] ومن حديث الحافظين وغير ذلك، فرجع الأمر إلى أن بعض من يحاســـب بجميع أعماله لا يهلك، وحينئذ فالظاهر التعارض فسألت، فأقرها صلى الله عليه وسلم على الإشكال وأجابها بما حاصله أن المراد بالحســـاب في الحديث مدلوله المطابقي، وهو ذكر الأعمال كلها- والمقابلة على كل منها، وذلك هو معنى المناقشـــة، فمعنى «من نوقش الحسـاب» من حوسـب حسـاباً حقيقياً بذكر جميع أعماله والمقابلة على كل منها، وأن المراد بالحساب في الآية جزء المعنى المطابقي وهو ذكر الأعمال فقط من غير مقابلة، وذلك بدلالة التضـمن مجازاً مرسـلاً لأنه إطلاق اسـم

الكل على الجزء، ولأجل هذا كانت الصديقة رضي الله تعالى عنها تقول بعد هذا في تفســـير الآية : يقرر بذنوبه ثم يتجاوز عنها- كما نقله عنها أبو حيان، وعلى ذلك دل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما:

»إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيضـــع كنفه عليه ويســـتره ثم يقول له: أتعرف ذنب كذا- حتى يذكره بذنوبه كلها ويرى في نفســـه أنه قد هلك، قال الرب ســـبحانه: ســـترتها عليك في الدنيا، وأنا إغفرها لك اليوم» ولفظ «كنفه» يدل على ذلك فإن كنف الطائر جناحه، وهو إذا وقع فرخه في كنفه عامله بغاية اللطف، فالله تعالى أرحم وألطف {وأما من أوتي} أي بغاية السهولة وإن أبى هو ذلك {كتابه} أي صحيفة حسابه {وراء ظهره *} أي في شماله إيتاء مستغرقاً لجميع جهة الوراء التي هي علم السوء لأنه كان يعمل ما لم يأذن به الله، فكأنه عمل من ورائه مما يظن أنه يخفى عليه ســبحانه، فكان حقيقاً بأن تعل يمينه إلى عنقه، وتكون شماله إلى وراء ظهره، ويوضع كتابه فيها، وهذا احتباك: ذكر اليمين أولاً يدل على الشـــمال ثانياً، وذكر الوراء ثانياً يدل على الأمام أولاً، وســـر ذلك أنه ذكر دليل المودة والرفق بالمصافحة ونحوها في السعيد، ودليل الغدر والاغتيال في الشقي {فسوف يدعوا} أي بوعد لا محالة في وقوعه أبداً {ثبوراً *} أي حســـرة وندماً بنحو قوله: واثبوراه، وهو الهلاك الجامع لأنواع المكاره كلها لأن أعماله في الدنيا كانت أعمال الهالكين.

ولما كان ذلك لا يكون إلا لبلاء كبير، أتبعه ما يمكن أن يكون علة له فقال: {ويصلى سعيراً *} أي ويغمس في النار التي هي في غاية الاتقاد ويقاسي حرها وهي عاطفة عليه ومحطية به لأنه كان تابعاً لشهواته التي هي محفوفة بها فأوصلته إليها وأحاطت به.

ولما ذكر هذا العذاب الذي لا يطاق، أتبعه سببه ترهيباً منه واستعطافاً إلى التوبة وتحذيراً من السرور في دار الحزن، فقال مؤكداً تنبيهاً على أنه لا ينبغي أن يصدق أن عاقلاً يثبت له سرور في الدنيا: {إنه كان} أي بما هو له كالجبلة والطبع {في أهله} أي في دار العمل {مسروراً *} أي ثابتاً له السرور بطراً بالمال والجاه فرحاً به مخلداً إليه مترفاً مع الفراغ والفرار عن ذكر حساب الآخرة كما قال في التي قبلها {وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين} [المطففين: 31]، لا يحزن أحدهم لذنب عمله ولا لقبيح ارتكبه، بل يسر بكونه يأتي له ذلك فهو يحاسب في الآخرة حساباً عسيراً، وينقلب إلى أعدائه مغموماً كسيراً، وقد بان أن الكلام من الاحتباك: ذكر الحساب اليسير الذي هو الثمرة والمسبب أولاً يدل على حذف ضده ثانياً، وذكر السرور في الأهل الذي هو السبب في الثاني يدل على حذف ضده وهو سبب السعادة وهو الغم ومحاسبة النفس في الأول، فهو احتباك في احتباك، ثم علل ثبات سروره فقال مؤكداً تنبيهاً أيضاً على أنه لا يصدق أن أحداً ينكر البعث مع ما له من الدلائل التي تفوت الحصر: {إنه ظن} لضعف نظره {أن} أي أنه {لن يحور *} أي يرجع إلى ربه أو ينقص أو يهلك

{وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر} [الجاثية: 24] فلهذا كان يعمل عمل من لا يخاف عاقبة {بلى} ليرجعن صاغراً ناقصاً هالكاً، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لأجل من ينكر : {إن ربه} أي الذي ابتدأ إنشاءه ورباه {كان} أزلاً وأبداً {به} أي هذا الشقي في إعادته كما كان في ابتدائه وفي جميع أعماله وأحواله التي لا يجوز في عدل عادل ترك الحساب عليها {بصيراً *} أي ناظراً له وعالماً به أبلغ نظر وأكمل علم، فتركه مهملاً مع العلم بأعماله مناف للحكمة والعدل والملك، فهو شيء لا يمكن في العقل بوجه.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 19]

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19)}

ولما أخبر سبحانه بإنكاره لما أتاه به الرسل من الحشر على وجه موضح للدليل على بطلان إنكاره ولم يرجع، سبب عنه الإقسام على صحة ذلك لأنه ليس عند النذير الناصح الشفوق بعد إقامة الأدلة إلاّ بالإيمان على صحة ما قال نظراً منه للمنصوح وشفقة عليه، وكان ترك الحلف على ما هو ظاهر أبلغ من الحلف لما في ذلك الترك من تنبيه المخاطب على النظر والتأمل فقال: {فلا أقسم} أي أحلف حلفاً عظيماً هو كقاموس البحر بهذه الأمور التي سأذكرها لما لها من الدلالة على القدرة على الإبداء والإعادة، لا أقسم بها وإن كانت في غاية العظم بما لها من الدلالات الواضحة لأن المقسم عليه أجل منها وأظهر فهو غني عن الإقسام {بالشفق *} أي

الضياء الذي يكون في المغرب عقب غروب الشمس أطباقاً حمرة ثم صفرة ثم كدرة إلى بياض ثم سـواد، وكذلك الليل أوله بياض بغبرة ثم تتزايد غبرته قليلاً إلى أن يسود مرباداً فيوسق كل شيء ظلاماً، سمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة لرقة القلب {والّيل} أي الذي يغلبه فيذهبه {وما وسق *} أي جمع في بطنه وطرد وساق من ذلك الشفق ومن النهار الذي كان قبله والنجوم التي أظهرها وغير ذلك من الغرائب التي تدل على أن موجده بعد أن لم يكن ومذهب ما كان به قادر على الإبداء والإعادة وكل ما يريد {والقمر } أي الذي هو آيته {إذا اتسق *} أي انتظم واستوى واجتمع كماله وتم أمره ليلة إبداره بعد أن كان قد غاب أصلاً ثم بدأ هلالاً خفياً ضئيلاً دقيقاً ولم يزل يزداد حتى يتم ثم ينقص إلى أن يخفى ثم يعود إلى حاله دليلاً أظهر من الشمس على قدرة موجده كذلك على كل أمر من الإبداء والإعادة.

ولما كانت هذه الأمور عظيمة جداً لا يقدر عليها إلا الله تعالى ولها من المنافع ما لا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه وتعالى، وكل منها مع ذلك دال على تمام قدرته تعالى على الذي يراد تقريره في العقول وإيضاحه من القدرة التامة على إعادة الشيء كما كان سواء، ونفي الإقسام بها دليلاً على أن ذلك في غاية الظهور، فالأمر فيه غني عن الإقسام، قال في موضع جواب القسم مقروناً باللام الدالة على القسم ذاكراً ما هو في الظهور والبداهة بحيث لا يحتاج إلى تنبيه عليه بغيره ذكره: {لتركبن} أي أيها المكلفون– هذا على قراءة الجماعة بضم الباء دلالة على حذف واو الجمع، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتحها على أن الخطاب للانسان باعتبار اللفظ {طبقاً}

مجاوزاً {عن طبق *} أي حالاً بعد حال من أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ثم من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر بدليل ما كان لكم قبل ذلك ســـواء بتلك القدرة التي كونت تلك الكوائن وأوجدت تلك العجائب ســواء، فتكونون في تمكن الوجود في كل طبق بحال التمكن على الشـــيء بالركوب، وكل حال منها مطابق للآخر في ذلك فإن الطبق ما يطابق غيره، ومنه قيل للغطاء: طبق- لمطابقته المغطى، والطبق كل ما ساوى شيئاً ووجه الأرض والقرن من الزمان أو عشرون سنة، وكلها واضح الإرادة هنا وهو بديهي الكون، فأول أطباق الإنســـان جنين، ثم وليد، ثم رضـيع ثم فطيم، ثم يافع، ثم رجل، ثم شـاب، ثم كهل، ثم شـيخ، ثم ميت، وبعده نشر ثم حشر ثم حساب ثم وزن ثم صراط ثم مقرّ، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 25]

{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)}

ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد، ســـبب عن ذلك الإنكار عليهم والتوبيخ والتقريع والتهديد، فقال معرضـــاً عن خطابهم إلى الغيبة إيذاناً باســـتحقاقهم للأخذ إن لم يرجعوا: {فما لهم} أي وأي شـيء لهؤلاء الذين أنزلنا عليهم هذا الكتاب المعجز في أنهم {لا يؤمنون *} أي يوقعون الإيمان ويجددونه كل وقت على الاســـتمرار بكل ما دعا إليه هذا الكتاب الذي خصـــهم بهم ملك

الملوك وقد وضحت الدلالة وقامت البراهين لا سيما دلائل القيامة هل هي إلا واحدة من هذه الأطباق المنتقل إليها لأن من كان اليوم على حالة وغداً على أخرى جدير بأن يعلم أن تدبيره إلى سواه، ومن لم يعلم ذلك فليس لجنونه دواء، ومن علم أن تدبيره إلى سواء علم أن المشيئة في التدبير – إليه لا إلى نفسه، وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على الصانع؟ قال: تحويل الحالات وعجز القوة وضعف الأركان وقهر المشيئة، وفسخ العزيمة. {وإذا قرئ} أي من أي قارئ كان {عليهم القرآن} أي الجامع لكل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم الفارق بين كل ملتبس من الحرام والحلال وغير ذلك {لا يسجدون *} أي يخضعون بالقلب ويتذللون للحق بالسجود اللغوي فيسجدون بالقالب السجود الشرعي لتلاوته لأنه ملك الكلام، قد أبان عن معارف لا تحصر، مع الشهادة لنفسه بإعجازه أنه من عند الله، ليس لهم في ذلك عذر إلا الجهل أو العجز، ولا جهل مع القرآن ولا عجز مع القوة والاختيار.

ولما كان هذا استفهاماً إنكارياً معناه النفي، فكان التقدير: إنهم لا يؤمنون ولا عذر لهم في ذلك أصلاً، أضرب عنه بقوله: {بل} ووضع الظاهر موضع المضمر تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي حملهم على التكذيب فقال: {الذين كفروا} أي ستروا مرائي عقولهم الدالة على الحق {يكذبون *} أي بالقرآن وبما دل عليه من حقائق العرفان المعلية إلى أوج الإيمان بالواحد الديان {والله} أي والحال أن الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {أعلم} أي منهم أنفسهم {بما يوعون *} أي يضعون في أوعية صدورهم من الكفر

والعداوة بسبب الشهوات الشاغلة لهم وهي حب الرئاسة وادعاء الألوهية الشاغلة لهم عن التدبر لهذا القرآن وعن شواهد الموجودات.

ولما كان هذا موجباً لشديد الإنذار، وضع موضعه تهكماً بهم وإعلاماً بأن الغضب قد بلغ منتهاه قوله: {فبشرهم} أي أخبرهم يا أفضل الخلق وأكملهم وأعدلهم خبراً يغير إبشارهم {بعذاب أليم *} أي شديد الألم لشدة إيلامه، إن كان لهم يوماً من الأيام بشارة فهي هذه.

ولما أخبر عنهم بهذا الهوان، وكان قد عبر عنهم بأدنى الأسنان إشارة إلى أن منهم من يقبل الإيمان، استثنى منهم فقال: {إلا الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان {وعملوا} دلالة على صدق إيمانهم {الصالحات}.

ولما تقدم أن من حوسب عذب، وأن الناجي إنما يكون حسابه عرضاً، علم أنه ليس للأعمال دخل في الحقيقة في الأجر، وإنما المدار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم على التغمد بالرحمة حتى في تسمية النعيم أجراً، أسقط الفاء المؤذنة بالسبب تنبيهاً على ذلك بخلاف ما في سورة التين لما يأتي من اقتضاء سياقها للفاء فقال: {لهم أجر} أي عظيم وثواب جزيل يعلمه الله تعالى وهو التجاوز عن صغائرهم وسترها {غير ممنون *} أي مقطوع أو منقوص أو يمتن عليهم به في الدنيا والآخرة يؤتون ذلك في يوم الدين يوم تنشق السماء وتمد الأرض ويثوب الكفار ما كانوا يفعلون، فقد رجع آخرها على أولها، واعتلق مفصلها حق الاعتلاق بموصلها.

85 Burooj Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة البروج

85

▲ تفسير الآيات رقم [1- 7]

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)}

لما ختم تلك بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء به بعد أن ذكر أنه سبحانه أعلم بما يضمر الأعداء من المكر وما يرومون من الأنكاد للأولياء وتوعدهم بما لا يطيقون، وكانوا قد عذبوا المؤمنين بأنواع العذاب واجتهدوا في فتنة من قدروا عليه منهم، وبالغوا في التضييق عليهم حتى ألجؤوهم إلى شعب أبي طالب وغيره من البروج في البلاد، ومفارقة الأهل والأولاد، ابتدأ هذه بما أوقع بأهل الجبروت ممن تقدمهم على وجه معلم أن ذلك الإيقاع

منه سبحانه قطعاً، ومعلم أن الماضين تجاوزوا ما فعل هؤلاء إلى القذف في النـار، وأن أهل الإيمـان ثبتوا، وذلك لتســـلية المؤمنين وتثبيتهم، وتوعيد الكافرين وتوهيتهم وتفتيتهم، فقال مقســـماً لأجل إنكارهم وفعلهم في التمادي في عداوة حزب الله فعل المنكر أن الله ينتقم لهم بما يدل على تمام القدرة على القيامة: {والسماء} أي العالية غاية العلو المحكمة غاية الإحكام {ذات البروج *} أي المنازل للكواكب السيارة التي ركبها الله تعالى على أوضـاع جعل في بعضـها قوة التسـبب للإبداء والإعادة بالإنبات وفي بعضـها قوة التربية كذلك، وفي الأخرى قوة الاستحصـاد بأسباب خفية أقامها سبحانه لا ترونها، غير أنكم لكثرة إلفكم لذلك صـرتم تدركون منه بالتجارب أموراً تدلكم على تمام القدرة، فنسـبها بعضـكم إلى الطبيعة لقصـور النظر في أسـباب الأسباب وكلال الفكر عن النفوذ إلى نهاية ما تصل إليه الألباب، فاستبدل بالشـكر الكفر، واسـتدل بالآيات على ضـد ما تدل عليه لجمود الذهن وانعكاس الفكر، والمراد بها المنازل الاثنا عشر: الحمل- والثور- والجوزاء- والسـرطان- والأسـد- والسـنبلة- والميزان- والعقرب- والقوس- والجدي- والدلو- والحوت- وهي تقطعها الشمس في السنة، أو هي الثمانية والعشرون التي يقطعها القمر في الشـهر، وهي منازل الشـمس هذه الاثنا عشـر بسـير القمر في كل واحد منها يومين وثلثاً، فذلك ثمانية وعشـرون يوماً ويسـتسـر ليلتين، فذلك شـهر، وهو إشـارة إلى أن الذي فصـل السـماء هذا التفصـيل وسـخر فيها هذه الكواكب لمصـالح الإنسـان لا يتركه سـدىً، بل لا بد من دينونته على ما يفعله من خير وشـر شـبهت بالقصـور لأنها تنزلها السـيارة

وتكون فيها الثوابت وعظام الكواكب، ســـميت بروجاً لظهورها، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها، وأصل التركيب للظهور.

ولما كانت هذه الجملة من القســم دالة على البعث قال تصــريحاً: {واليوم الموعود *} أي يوم القيامة الذي تحقق الوعد به وثبت ثبوتاً لا بد منه بما دل عليه من قدرتنا في مخلوقاتنا وأنا سببنا له أسباباً هي عتيدة لديكم وأنتم لا ترونها ولا تحسون شيئاً منها ولم تبينها لكم الرسل لقصور عقولكم عنها بأكثر من الدلالة بالأسـباب التي ألفتموها على مثلها من غير فرق غير أنه وإن كان العقل لا يسـتقل به ولا يفقه منه غير السـماء للوعد به من الرسـل فهو لا يحيله بعد سماعه.

ولما كان الجمع لأجل العرض، وكان العرض لا بد فيه من شـهود ومشـهود عليهم وجدال على عهود، قال منكّراً للإبهام للتعظيم والتعميم مثل {علمت نفس ما أحضرت} [التكوير: 14]: {وشاهد} أي كريم من الأولياء {ومشهود *} أي في نفسـه من الأعيان والآثار الهائلة، أو عليه فإنه يوم تشـهده جميع الخلائق، ويحضــر فيه من العجائب أمور يكل عنها الوصــف، ويحضــره الأنبياء الشـاهدون وأممهم المشـهود عليهم، ولا تبقى صـغيرة من الأعمال ولا كبيرة إلاّ أحصيت، وفي ذلك أشد وعيد لجميع العبيد.

ولما كان جواب القسم على ما دل عليه مقصـود السورة وسوابقها ولواحقها: لنثوبن الفريقين الأولياء والأعداء، ولندينن كلاً بما عمل، دل عليه بأفعاله في الدنيا ببعض الجبابرة فيما مضـــى، وفيما يفعل بجبابرة من كذب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بادئاً بمن عذب بعذاب الله في القيامة للبداءة في

آخر الانشقاق بقسم المكذبين وهم المحدث عنهم، معبراً بما يصلح للدعاء والحقيقة تسلية للمؤمنين وتثبيتاً لهم بما وقع لأمثالهم، وتحذيراً مما كان لأشكالهم: {قتل} أي لعن بأيسر أمر وأسهله من كل لاعن لعناً لا فلاح معه، ووقع في الدنيا أنه قتل حقيقة {أصحاب الأخدود *} أي الخد العظيم، وهو الشق المستطيل في الأرض كالنهر، روي أن ملكاً من الكفار – وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان من حمير – من ملوك اليمن، وكان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة، آمن في زمانه ناس كثير، فخدّ لهم أخدوداً في الأرض وسجره ناراً وعرض من آمن عليه، فمن رجع عن دينه تركه، ومن ثبت – وهم الأغلب – قذفه في ذلك الأخدود فأحرقه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وردت هذه السورة في معرض الالتفات والعدول إلى إخبار نبي الله صلى الله عليه وسلم بما تضمنته هذه السورة من قصة أصحاب الأخدود، وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبأ، وبينا وقوعه في أنفس السور ومتونها وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح – أنتهى.

ولما ذمهم سبحانه وتعالى، بين وجه ذمهم ببدل اشتمال من أخدودهم فقال: {النار} أي العظيمة التي صنعوها لعذاب أوليائنا، وزاد في تعظيمها بقوله: {ذات الوقود *} أي الشيء الذي نوقد به من كل ما يصلح لذلك من الحطب وغيره، وعلق ب «قتل» قوله: {إذ هم} أي بظواهرهم وضمائرهم {عليها} أي على جوانب أخدودها {قعود *} أي يحفظونها ويفعلون مما يأمرهم ملكهم

في أمرها من إلقاء الناس وغيره فعل القاعد المطمئن الذي ليس له شــــغل غيرها {وهم على ما يفعلون} أي خاصــة بقوة دواعيهم إلى فعله ورغبتهم فيه من الفتنـة بالعرض على النار وغيره مكررين ذلك الفعل {بالمؤمنين} أي الراســخين في الإيمان الذي لم يثنهم العذاب عنه {شــهود *} أي يشــهد بعضــهم لبعض عند الملك أنه لم يقصــر فيما أمره به ويشـهدون يوم القيامة بما تشـهد به عليهم أيديهم وأرجلهم على أنفسهم بهذا الظلم، ويشـهد بعضـهم على بعض ويعادي بعضــــهم بعضـــاً، ويحيل كل على الآخر طمعاً في النجاة.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 11]

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)}

ولما كان هذا الفعل العظيم لا يكون من عاقل إلا لســـبب يليق به، بين أنه إنما هو لسبب يبعد منه، فقال على طريقة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم *** بهن فلول من قراع الكتائب

{وما نقموا} أي أنكروا وكرهوا {منهم} من الحالات وكان ديناً لهم ونقصـــاً فيهم {إلا أن يؤمنوا} أي يجددوا الإيمان مســـتمرين عليه {بالله} أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال.

ولما كان ربما أوهم ترك معالجته سـبحانه لهم لكونهم يعذبون من آمن به لأجل الإيمان به ما لا يليق، نفى ذلك بقوله واصـفاً له بما يحقق وجوب العبادة له وتفرده بها: {العزيز} أي الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شـيء، فلا يظن إمكانـه من أهل ولايتـه لعجز، بـل هو يبتليهم ليعظم أجورهم ويعظم عقاب أعدائهم ويعظم الانتقام منهم {الحميد *} أي المحيط بجميع صـفات الكمال، فهو يثيب من أصـيب فيه أعظم ثواب، وينتقم ممن آذاه بأشـد العذاب، وقرر ذلك بقوله: {الذي له} أي خاصـة {ملك السماوات والأرض} أي على جهة العموم مطلقاً، فكل ما فيهما جدير بأن يعبده وحده ولا يشـرك به شيئاً.

ولما قدم سـبحانه التحذير بالشـاهد والمشـهود، وأن الكافرين شـهود على أنفسـهم، زاد في التحذير بأنه سبحانه أعظم شـهيد في ذلك اليوم وغيره فهو لا يحتاج إلى غيره، ولكنه أجرى ذلك على ما نتعارفه فقال: {والله} أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة {على كل شـيء} أي هذا الفعل وغيره {شهيد *} أي أتم شهادة لا يغيب عنه شيء أصلاً، ولا يكون شيء ولا يبقى إلا بتدبيره، ومن هو بهذه الصفات العظيمة لا يهمل أولياءه أصلاً، بل لا بد أن ينتقم لهم من أعدائه ويعليهم بعلائه، ولذلك قال مستأنفاً جواباً لمن يقول: فما فعل بهم؟ مؤكداً لإنكار الكفار ذلك: {إن الذين فتنوا} أي خالطوا من الأذى بما لا تحتمله القوى فلا بد أن يميل أو يحيل في أي زمان كان ومن أي قوم كانوا {المؤمنين والمؤمنات} أي ذوي الرسوخ في وصف الإيمان.

ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان، عبر بأداة التراخي فقال: {ثم لم يتوبوا} أي عن ذنوبهم وكفرهم. ولما كان سبحانه لا يعذب أحداً إلا بسبب، سبب عن ذنبهم وعدم توبتهم قوله: {فلهم} أي خاصة لأجل كفرهم {عذاب جهنم} أي الطبقة التي تلقى داخلها بغاية الكراهة والتجهم، هذا في الآخرة {ولهم} أي مع ذلك في الدارين لأجل فتنتهم لأولياء الله {عذاب الحريق *} أي العذاب الذي من شأنه المبالغة في الإحراق بما أحرقوا من قلوب الأولياء، وقد صدق سبحانه قوله هذا فيمن كذب النبي صلى الله عليه وسلم بإهلاكهم شر إهلاك مغلوبين مقهورين مع أنهم كانوا قاطعين بأنهم غالبون كما فعل بمن كان قبلهم، فدل ذلك على أنه على كل شيء قدير، فدل على أنه يبدئ ويعيد.

ولما ذكر عقاب المعاندين بادئاً به لأن المقام له، أتبعه ثواب العابدين، فقال مؤكداً لما لأعدائهم من إنكار ذلك: {إن الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان ولو على أدنى الوجوه من المقذوفين في النار وغيرهم من كل طائفة في كل زمان {وعملوا الصالحات} تصديقاً لإيمانهم وتحقيقاً له. ولما كان الله سبحانه من رحمته قد تغمد أولياءه بعنايته ولم يكلهم إلى أعمالهم لم يجعلها سبب سعادتهم فلم يقرن بالفاء قوله: {لهم} أي جزاء مقاساتهم لنيران الدنيا من نار الأخدود الحسية التي ذكرت، ومن نيران الغموم والأحزان المعنوية التي يكون المباشر لأسبابها غيره سبحانه فيكون المقاسي لها مع حفظه للدين كالقابض على الجمر {جنّات} أي فضلاً منه {تجري} وقرب منالها بالجار فقال: {من تحتها} أي تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها {الأنهار} يتلذذون

ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا ويروقهم النظر إليها مع خضرة الجنان والوجوه الحسان الجالبة للسرور الجالية للأحزان.

ولما ذكر هذا الذي يســـر النفوس ويذهب البؤس، فذلكه بقوله: {ذلك} أي الأمر العالي الدرجة العظيم البركة {الفوز} أي الظفر بجميع المطالب لا غيره {الكبير *} كبراً لا تفهمون منه أكثر من ذكره بهذا الوصف على سبيل الإجمال، وذلك أن من كبره أن هذا الوجود كله يصــغر عن أصــغر شــيء منه.

▲ تفسير الآيات رقم [12- 22]

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)}

ولما كان لا يثيب ويعذب على هذا الوجه إلا من كان في غاية العظمة، قال معللاً لفعله ذلك دالاً بذلك التعلل على ما له من العظمة التي تتقاصــر الأفكار دون عليائها، مؤكداً لما للأعداء من الإنكار: {إن بطش ربك} أي أخذ المحسن إليك المدبر لأمرك أعداء الدين بالعنف والسطوة وغاية الشدة {لشديد *} أي شدة يزيد عنفها على ما في البطش من العنف المشروط في تسميته، فهو عنف مضاعف.

ولما كان هذا البطش لا يتأتى إلا لكامل القدرة، دل على كمال قدرته واختصاصه بذلك بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار: {إنه} وزاد التأكيد بمبتدأ

آخر ليدل على الاختصاص فقال: {هو} أي وحده {يبدئ} أي يوجد ابتداء أي خلق أراد على أي هيئة أراد {ويعيد *} أي ذلك المخلوق بعد إفنائه في أي وقت أراده، وغيره لا يقدر على شيء من ذلك، وليس هذا الضمير بفصل لأنه لا يكون إلا والخبر لا يكون إلا معرفة، أو شبيه بها في أنه لا يلحقه «أل» المعرفة مثل خير منك، وأجاز المازني وقوعه قبل المضارع لمشابهته الاسم وامتناع دخول «أل» عليه فأشبه المعرفة، وقال: ولا يكون قبل الماضي لأن الماضي لا يشبه الاسم، قال الرضي: وما قاله دعوى بلا حجة ومثل «ومكر أولئك هو يبور» ليس بنص في كونه فصلاً لجواز كونه مبتدأ بما بعده خبره، ونقض قوله في الماضي بقوله تعالى: {وإنه هو أضحك وأبكى} [النجم: 43].

ولما ذكر سبحانه بطشه، وكان القادر على العنف قد لا يقدر على اللطف، وإن قدر فربما لم يقدر على الإبلاغ في ذلك، وكان لا يقدر على محو الذنوب أعيانها وآثارها على كل أحد بحيث لا يحصل لصاحبها عقاب ولا عتاب من أحد أصلاً إلا من كان قادراً على كل شيء، قال مبيناً لجميع ذلك دليلاً على أنه الفاعل المختار، ومؤكداً لخروجه عن العوائد: {وهو} أي وحده {الغفور} أي المحاء لأعيان الذنوب وآثارها إذا أراد بحيث لا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب أصلاً {الودود *} أي الذي يفعل بمن أراد فعل المحب الكثير المحبة فيجيبه إلى ما شاء ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه وداً أي محبة كبيرة واسعة ويجعل له في قلوب الخلق رحمة، ومادة «ود» تدور على الاتساع كما بينته في سورة الروم، وزاد الأمر

تأكيداً بذكر ما لا ينازع أصلاً في اختصاصه به تشريفاً له وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات: {ذو العرش} أي العز الأعظم أو السرير الدال على اختصاصه الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة، الذي به قوام الأمور {المجيد *} أي الشريف الكريم العظيم في ذاته وصفاته الحسن الجميل الرفيع العالي الكثير العطاء- هذا إذا رفع على أنه صفة ل «ذو» وكذا إن جر على أنه صفة للعرش في قراءة حمزة والكسائي.

ولما كان الاختصاص يدل قطعاً على كمال القدرة، أنتج ذكر هذه الاختصاصات قوله: {فعّال} أي على سبيل التكرار والمبالغة {لما يريد *} لا يؤده شيء من الأفعال سواء كانت منسوبة إليه من غير واسطة أو نسبت في الظاهر إلى غيره. ولما تمت الدلالة على أن بطشه شديد، قرره بما وجد من ذلك وذكره به تخويفاً وتسلية له لأن النظر في المحسوسات أمكن في النفوس فقال: {هل أتاك} أي يا أعظم خلقنا {حديث الجنود *} أي اذكر ما أتاك مما حدث لهم من بطشنا وما وقع بهم من سطواتنا لتكذيبهم رسلنا عليهم أفضل الصلاة والسلام بحيث صار حديثاً يتلى، وذكراً بين الخلق لعظمته لا يبلى، والجنود جمع جند بالضم وهو العسكر المعد للقتال والأعوان والمدينة، والكل ناظر إلى النجدة العظيمة والغلبة الزائدة.

ولما كان المعلوم من السياق أن المراد من حديثهم ما حصل لهم من البطش لتكذيب الرسل لا سيما في البعث الذي السياق له، وكان الواقع من بيانه بآيات موسى وصالح عليهما الصلاة والسلام أبين مما وقع بآيات غيرهم ممن تقدم زمنه على هذه الأزمنة، وكانت أمة كل نبي من النبيين وأتباع

فرعون تحوي أصنافاً من الخلق كثيرة، حكي أن طليعته يوم تبع بني إسرائيل وغرق كانت ستمائة ألف، أبدل من «الجنود» إعلاماً بأنهم أعداء الله قوله: {فرعون} وكذا أتباعه الذين كانوا أشد أهل زمانهم وأعتاهم وأكثرهم رعونة في دعوى الإلهية منه والتصـــديق منهم وكان هذا من عماوة قلوبهم مع ظهور علامات الربوبية السماوية والأرضـية، والرسوخ في التكذيب والسفه والخفة والطيش مع رؤية تلك الآيات العظيمة على كثرتها وطول زمنها حتى دخل البحر على أمان من الغرق مع أن خطر الغرق به في تلك الحالة لم يكن يخفى على من له أدنى مســكة من عقله فأغرقه الله ومن معه أجمعين ولم يبق منهم أحداً، فلعنة الله عليه وعلى من كان معه من أتباعه وأتباعهم الطائفة الاتحادية العربية الفارضـية الذين يكفي في ظهور كفرهم تصـويبهم فرعون الذي أجمع على كفره جميع الفرق {وثمود *} الذين حملتهم الخفة على أن عقروا الناقة بعد رؤيتهم إياها تتكون من الصــخرة الصـــماء غير مجوزين أن الذي خرق العادة بإخراجها ذلك يهلكهم في شـــأنها، وقد جمع ســبحانه بهما بين العرب والعجم والإهلاك بالماء الذي هو حياة كل شـــيء والصيحة التي هي أمارة الساعة، وإنما كانت آياتهما أبين لأن آية ثمود ناقة خرجت من صخرة صماء، ومن آيات موسى عليه الصلاة والسلام إبداع القمل الذي لا يحصـــى كثرة من الكثبان، وإبداع الضـــفادع كذلك والجراد وإحياء العصـا مرة أخرى، ولا شـك عند عاقل أن من قدر على ذلك ابتداء من شـــيء لا أصــل في الحياة فهو على إعادة ما كان قبل ذلك حياً أشــد قدرة.

ولما كان التقدير : نعم قد أتاني ذلك وعلمت من خبرهما وغيره أنك قادر على ما تريد، ولكن الكفار لا يصـــــدقونني، عطف عليه قوله : {بل الذين كفروا } أي جاهروا بالكفر من هؤلاء القوم وغيرهم وإن كانوا في أدنى رتبة {في تكذيب *} أي لما رأوا من الآيات لا مستند لهم فيه وهو شديد محيط بهم لاتباعهم أهواءهم وتقليدهم آباءهم، فهم لا يقدرون على الخروج من ذلك التكذيب الذي صـــار ظرفاً لهم بعد ســماعهم لأخبار هؤلاء المهلكين ورؤية بعض آثارهم، وبعد ما أقمت لهم من الأدلة على البعث في هذا القرآن المعجز، ولم يعتبروا بشـــيء من ذلك لما عندهم من داء الحســـد، فحالهم أعجب من حالهم فحذرهم مثل مآلهم.

ولما كان هذا ربما أوهم أن تكذيبهم على غير مراده ســــبحانه وتعالى، قال دافعاً لذلك مؤكداً قدرته على أخذهم تحذيراً لهم وتسـلية لمن كذبوه: {والله} أي والحال أن الملك الذي اختص بالجلال والإكرام {من ورائهم} أي من كل جهة يوارونها أو تواريهم، وذلك كل جهة {محيط *} فهو محيط بهم من كل جهة بعلمه وقدرته، فهو كناية عن أنهم في قبضـته لا يفوتونه بوجه كما أنه لا يفوت من صار في القبضة بإحاطة العدو به من غير مانع، فهو سبحانه قادر على أن يحل بهم ما أحل بأولئك، ولعله خص الوراء لأن الإنســـان يحمي ما وراءه ولأنه جهة الفرار من المصائب.

ولما كان من تكذيبهم، وهو أعظم تكذيبهم، طعنهم في أعظم آيات القرآن بأن يقولوا : هو كذب مختلق، إنما هو أســـاطير الأولين، أي أكذوباتهم لا حقائق لما يخبر به مع أنه قد أقام الدليل الأعظم لنفســه بنفســه بما له من

الإعجاز على أنه حق، قال معبراً بالضـــمير إيذاناً بأنه لعظمه في كل قلب لا غيبة له أصـــلاً، ليس لأحد حديث إلا فيه، بانياً على ما تقديره : ليس الأمر كما يزعم الكفار في القرآن : {بل هو } أي هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد {قرآن} أي جامع لكل منقبة جليلة بالغ الذروة العليا في كل شرف {مجيد *} أي شريف كريم ليس فيه شيء من شوائب الذم عزيز عظيم شريف عال جواد حسن الخلال وحيد في نظمه ومعانيه المغيبة والمشـــاهدة حاو لمجامع الحمد ليس بقول مخلوق ولا هو مخلوق بل هو صـــفة الخالق بل هو جواد بكل ما يراد منه من المحاسن لمن صدقت نيته وطهرت طويته، وعلت همته وكرمت سجيته، فهو يأبي له مجده أن يلم بســـاحته طعن بوجه من الوجوه، ومجده تجريب أحكامه من بين عاجل ما شـــهد وآخل ما علم بعالم ما شـــهد، فكان معلوماً بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصـــص الماضـــي وما شـــهد له من الأثر الحاضر وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله وأشباهه وأشكاله، فكذب من قال إنه شعر أو كهانة أو سحر– أو غير ذلك من الأباطيل.

ولما وصفه في نفسه مما يأبي له لحاق شيء من شبهة، وصف محله في الملأ الأعلى إعلاماً بأنه لا يطرأ عليه ما يغيره فقال : {في لوح} وهو كل صفيحة عريضة من خشب أو عظم أو غيرهما {محفوظ *} أي له الحفظ دائماً على أتم الوجوه من كل خلل ومن أن يصـــل إليه إلا الملائكة الكرام، قال حجة الإســـلام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب الموت من الأحياء : يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين، فجمع ما

جرى في العالم وما سـيجري مكتوب فيه كتباً لا يشـاهد بهذه العين، وليس مما نعهده من الألواح، فلوحه تعالى لا يشـبه ألواح خلقه كما أن ذاته تعالى لا تشـبه ذوات خلقه، ومثاله مثال قلب الإنسـان في حفظ القرآن مثلاً كلماته وحروفه، ولو فتش قلبه لم يوجد فيه شـــيء ولا ينظر ذلك إلا نبي أو ولي يقرب من درجته- هذا معنى كلام الإمام رحمه الله تعالى، وقرأ نافع بالرفع صـــفة للقرآن فحفظه من التغيير والتبديل والتحريف وكل شـــبهة وريب في نظمه أو معناه كما أن البروج محفوظة في لوح السـماء المحفوظ، بل القرآن بذلك أولى لأنه صـــفة الخالق في بيان وصـــفه لما خلق على الوجه الأتم الأعدل لأنه ترجمة ما أوجده الله سبحانه في الوجود، فصـح قطعاً أنه لا بد أن يصـــدق في كل ما أخبر به، ومن أعظمه أنه سـبحانه يحشـر الناس للدينونة بالثواب والعقاب كما دان من كذب أولياءه في الدنيا بمثل ذلك فأخذ أعداءه وأنجى أولياءه، فرجع الختام منها على المبتدأ، وتعانق الافتتاح بالمنتهى، فاقتضـــى ذلك تنزيه المتكلم به عن أن يترك شـيئاً فضـــلاً عن الأنفس بغير حفظ وعن كل ما لا يليق، وإثبات الكمالات له والأكمليات بكل طريق- والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وإليه المهرب والمتاب.

86 Taariq Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاسـب الآيـات والسـور والسورللبقاعي

- سورة الطارق
- تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)}

لما تقدم في آخر البروج أن القرآن في لوح محفوظ لأن منزله محيط بالجنود من المعاندين وبكل شـيء، أخبر أن من إحاطته حفظ كل فرد من جميع الخلائق المخالفين والموافقين والمؤالفين، ليجازى على أعماله يوم إحقاق الحقائق وقطع العلائق، فقال مقسماً على ذلك لإنكارهم له: {والسماء} أي ذات الأنجم الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد الحافظ لطريق الحق، قال الملوي: والمراد بها هنا ذات الأفلاك الدائرة لا السماوات العلى بما جعل فيها من ليل ونهار ودورتهما ثلاثمائة وستين درجة لا تتغير أبداً في هذه الدار بنقص ولا زيادة بنصف درجة ولا دقيقة ولا ثانية ولا ما دون ذلك، بل كلما زاد أحدهما شيئاً نقص من الآخر بحسابه عرف ذلك من

العقل والنقل والتجربة فعرف أنه يحفظ حفيظ حي لا يموت، قيوم لا يغفل ولا ينام– انتهى.

ولما أقسم بالسماء لما لها من الشرف والمجد تنبيهاً على ما فيها من بدائع الصنع الدالة على القدرة الباهرة. أقسم بأعجب ما فيها وهو جنس النجوم ثم بأعربه وهو المعد للحراسة تنبيهاً على ما في ذلك من غرائب القدرة فقال : {والطارق} أي جنس الكواكب الذي يبدو ليلاً ويخفى نهاراً، ويطرق مسترقي السمع فيبدد شملهم ويهلك من أراد الله منهم لأجل هداية الناس بالقرآن في الطرق المعنوية وظهوره وإشراقه في السماء لهدايتهم في الطرق الحسية وهو في الأصل لسالك الطريق، واختص عرفاً بالآتي ليلاً لأنه يجد الأبواب مغلقة فيحتاج إلى طرقها، ثم استعمل للبادي فيه كالنجم.

ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولاً ثم عظم المقسم به بقوله: {وما أدراك} أي عرفك يا أشرف خلقنا عليه الصلاة والسلام وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه {ما الطارق *} ثم زاده تهويلاً بتفسيره بعد إبهامه مرة أخرى بقوله تعالى : {النجم الثاقب *} أي المتوهج العالي المضيء كأنه يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه، يقال : أثقب نارك للموقد، أو يثقب بضوئه الأفلاك فتشف عنه، أو يثقب الشيطان بناره إذا استرق السمع، والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو زحل، عبر عنه أولاً بوصف عام ثم فسره بما يخصه تفخيماً لشأنه لعلو مكانه.

ولما ذكر الذي دل به على حفظ القرآن عن التلبيس وعلى حفظ الإنسان، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور،

ودل على حفظ ما خلق لأجلها من هذه الأشـــياء المقســـم بها على حفظ الإنسان لأنها إذا كانت محفوظة عن أدنى زيغ وهي مخلوقة لتدبير مصالحه فما الظن به؟ فقال مؤكداً غاية التأكيد لما للكفرة من إنكار ذلك والطعن فيه {إن} بالتخفيف من الثقيلة في قراءة الجمهور أي أن الشـأن {كل نفس} أي من الأنفس مطلقاً لا سـيما نفوس الناس {لما عليها} أي بخصـوصـها لا مشارك لها في ذاتها {حافظ *} أي رقيب عتيد لا يفارقها، والمراد به الجنس من الملائكة، فبعضهم لحفظها من الآفات، وبعضهم لحفظها من الوساوس، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة ومشي؟ ونكاح وسفر وإقامة، فلا يتعدى شيئاً من ذلك نحن قسـمنا نحن قدرنا، فإن قلت: إن الحافظ الملائكة، صـدقت، وإن قلت: إنه الله، صـــدقت، لأنه الآمر لهم والمقدر على الحفظ، والحافظ لهم من الوهن والزيغ، فهو الحـافظ الحقيقي، واللام في هـذه القراءة هي الفارقة بين المخففة والنافية «وما» مؤكدة بنفي صـــدر ما أثبتته الجملة، «وحافظ» خبر «إن» ويجوز أن يكون الظرف الخبر، و«حافظ» مرتفع به، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد «لما» على أنها بمعنى «إلا» و«إن» نافية بمعنى «ما»، والمستثنى منه «كل نفس» وخبر النافية محذوف تقديره: كائنة أو موجودة أو نحوهما، والمستثنى «نفس» موصوفة ب «عليها حافظ» ويحتمل أن يكون حـالاً فمحلـه يحتمل الرفع بـأنـه خبر النـافي في هـذا الاستثناء المفرغ عند بني نميم، والنصب بأنه خبر عند غيرهم، أو حال من «نفس»، لأنها عامة، والتقدير: ما كل نفس موجودة إلا نفس كائناً أو كائن

عليها حافظ، والنسـبة بين مفهومي القراءتين أن المشـدد أخص لأنها دائمة مطلقة، والمخففة مطلقة عامة، ولا يظن أن المشـددة غير مسـاوية للمخففة، فضـــلاً عن أن تكون أخص لأن حرف النفي دخل على «كل» وهو من أسـوار السـلب الجزئي كما تقرر في موضـعه فينحل إلى أن بعض النفوس ليس إلا عليها حافظ وإنما كان لا يظن ذلك لأنها تنحل لما فيها من الحصر المتضـــمن للنفي والإثبـات إلى جملتين، إحـداهمـا إثبـات الحفظ للنفس الموصـوفة والأخرى سـلب نقيضـه عنها، لأنه من قصـر الموصـوف على الصفة.

ونقيض الكلية الموجبة الجزئية السـالبة أي ليس كل نفس عليها حافظ والسالبة الجزئية أعم من السالبة الكلية، فإذا نفيتها قلت: ليس ليس كل نفس عليها حافظ فهو سلب السلب الجزئي، وإذا سلب السلب الجزئي سلب الكلي لما تبين أنه أخف. وإذا انتفى الأعم انتفى الأخص فلا شـيء من الأنفس ليس عليها حافظ، فانحل الكلام إلى : لا نفس كائنة إلا نفس عليها حافظ، وإن كان لفظ «ليس كل» من أسوار الجزئية لما مضى، فصارت الآية على قراءة التشديد مركبة من مطلقة عامة هي «كل نفس عليها حافظ» بالفعل.

ومن سـلب نقيضـها وهو الدائمة المطلقة الذي هو «دائماً ليس كل نفس عليها حافظ» ورفعه بأن يقال : ليس دائماً ليس كل نفس ليس عليها حافظ، أي ليس دائماً كل نفس ليس عليها حافظ، وذلك على سبيل الحصر وقصر الموصوف على الصفة، معناه أن الموصوف لا يتعدى صفته التي قصر عليها، فأقل الأمور أن لا يتجاوزها إلى عدم الحفظ، وذلك معنى الدائمة

المطلقة وهو الحكم بثبوت المحمول للموضـــوع ما دام ذات الموضـــوع موجودة، وهي على قراءة التخفيف مطلقـة عـامـة أي حكم فيهـا بثبوت المحمول للموضـوع بالفعل وهو الجزء الأول مما انحلت إليه قراءة التشـديد، فمفهوم الآية في قراءة التشـــديد أخص منه في قراءة التخفيف، لأن كل دائم كـائن بـالفعل، ولا ينعكس- هذا إذا نظرنـا إلى نفس المفهوم من اللفظ مع قطع النظر عن الدلالة الخارجية، وأما بالنظر إلى نفس الأمر فالجهة الدوام فلا فرق، غير أنه دل عليها باللفظ في قراءة التشـــديد دون قراءة التخفيف والله تعالى أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى : لما قال الله ســـبحانه وتعالى في سورة البروج {والله على كل شـيء شـهيد} [البروج: 9] {والله من ورائهم محيط} [البروج: 20] وكان في ذلك تعريف العباد بأنه ســبحانه وتعالى لا يغيب عنه شـيء ولا يفوته شـيء ولا ينجو منه هارب، أردف ذلك بتفصيل يزيد إيضاح ذلك التعريف الجملي من شهادته سبحانه وتعالى على كل شـيء وإحاطته به فقال تعالى {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: 4] فأعلم الله سـبحانه وتعالى بخصـوص كل نفس ممن يحفظ أنفاسـها «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» ليعلم العبد أنه ليس بمهمل ولا مضـــيع، وهو سبحانه وتعالى الغني عن كتب الحفظة وإحصائهم وشهادة الشـهود من الأعضـاء وغيرهم، وإنما كان ذلك لإظهار عدله سـبحانه وتعالى {إن الله لا يظلم مثقال ذرة} [النساء: 40] ولا أقل من المثقال، ولكن هي سنته حتى لا

يبقى لأحد حجة ولا تعلق، وأقسم سبحانه وتعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيداً يناسب القصد المذكور- انتهى.

ولما كان التقدير : لأنه لا بد له من العرض على الخالق سبحانه وتعالى لأن التوكيل بالإنسان لا يكون إلا لعرضه على الملك الديان صاحب الأمر والبرهان ومحاسبته له على ما كان، كان التقدير : يحفظ أعمالها ويكتبها ليحاسبها الملك على ذلك، فتسبب عنه قوله تعالى: {فلينظر} أي بالبصيرة {الإنسان} أي الآنس بنفسه الناظر في عطفه إن كان يسلك في ذلك {مم} أي من أي شيء، وبنى للمفعول العامل في من أمر بالنظر وهو قوله : {خلق *} إعلاماً بأن الدال هو مطلق الخلق، وتنبيهاً على تعظيم الفاعل بأن العلم به غير محتاج إلى ذكره باللفظ لأنه لا يقدر على صنعة من صنائعه غيره، وأمر الإنسان بهذا النظر ليعلم بأمر مبدئه أمر معاده، فإن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة قطعاً، فإذا صح عنده ذلك اجتهد في أن لا يملي على حافظيه إلا ما يرضي الله تعالى يوم عرضه على الملك الديان ليسره وقت حسابه.

ولما نبه بالاستفهام على أن هذا أمر جداً ينبغي لكل أحد أن يترك جميع مهماته ويتفرغ للنظر فيه فإنه يكسبه السعادة الأبدية الدائمة، وكان الإنسان- مع كونه ضعيفاً عاجزاً- لا ينفك عن شاغل ومفتر، فلا يكاد يصح له نظر، تولى سبحانه وتعالى شرح ذلك عنه فأجاب الاستفهام بقوله: {خلق} أي الإنسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه الصلاة والسلام من تراب، وأمه حواء عليها السلام من ضلعه {من ماء دافق *} أي

هو- لقوة دفق الطبيعة له- كأنه يدفق بنفســـه فهو إســـناد مجازي، والدفق لصاحبه، أو هو مثل «لابن» أي ذي دفق، والدفق صب فيه دفع، ولم يقل: ماءين- إشـــارة إلى أنهما يجتمعان في الرحم ويمتزجان أشـــد امتزاج بحيث يصيران ماءً واحداً.

ولما كان المراد به ماء الرجل وماء المرأة قال: {يخرج} وبعض بإثبات الجار فأفهم الخروج عن مقره بقوله: {من بين الصلب} أي صلب الرجل وهو عظم مجتمع من عظام مفلكة أحكم ربطها غاية الإحكام من لدن الكاهل إلى عجب الذنب {والترائب *} أي ترائب المرأة وهي عظام الصــدر حيث تكون القلادة، وصـــوبه ابن جرير، أو ما ولي الترقوتين منه، أو ما بين الثديين والترقوتين أو أربعة أضــلاع من يمنة الصدر، وأربعة من يسرته، أو اليدان والرجلان والعينان، وعلى كل تقدير شــهوتها من أمامها وشــهوة الرجل فيما غاب عنه من ورائه، ولو نزع الخافض لأفهم أن الماء يملأ البين المذكور ولم يفهم أنه يخرج عن صاحبي البين، قال البيضاوي: ولو صح أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضـــاء، ومقرها عروق ملتف بعضـــها بالبعض عند الأنثيين، فلا شـــك أن الدماغ أعظم الأعضـــاء معونة في توليدها، ولذلك تشبهه ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصـــلب، وشـــعب كثيرة نازلة إلى الترائب وهما أقرب إلى أوعية المني فلذلك خصا بالذكر. وقال الملوي: فالذي أخرجه من ظروف عظام الصلب والترائب إلى أن صـــيره في محله من الأنثيين إلى أن دفق واعتنى بعد ذلك

بنقله من خلق إلى خلق بعد كل أربعين يوماً إلى أن صـــيره إنســاناً يعقل ويتكلم ويبني القصور، ويهدم الصخور، قادر على بعثه.

ولما علم بالحفظ والخلق في الأطوار المشار إليها أنه خلق لأمر عظيم وهو الحســاب، وثبت بالقدرة على ابتدائه من هذا الماء وبتطويره في الحالات المشـار إليها بذكر الماء، المعلومة لكل أحد القدرة على الإعادة بلا فرق إلا كون الإعادة على ما نعرف أســهل، وكان العرب ينكرونها، قال مؤكداً استئنافاً لمن يقول: قد نظرت في ذلك فمه: {إنه} أي خالقه القادر على ما ذكر من شؤونه المدلول على عظمه ببناء «خلق» للمفعول {على رجعه} أي رجع الإنســان بالعبث ورده إلى حالته الأولى وخلقه الأول كما كان قبل الموت وعلى رد هذا الماء الدافق إلى مجاريه التي خرج منها وحله إلى المائية بعد انعقاده عظماً ولحماً ودماً {لقادر * } أي لثابتة قدرته على ذلك أتم ثبات، فمن أيسر ما يكون عنده سبحانه وتعالى رده بعد شيخوخته على عقبه بأن يجعله كهلاً ثم شاباً ثم طفلاً ثم مضغة ثم علقة ثم نطفة ثم يدفعه إلى ذكر الرجل ورحم المرأة ثم إلى صـــلبه وترائبها وهو أهون عليه، وذلك كقدرته على رده بالبعث، وعبر ب «أنه» ولم يقل : إن الله– مثلاً لأنه أقعد لأنه يقال لكل إنســان : من أخرجك على هذه الهيئة فصـــيرك على هذه الصفة؟ فإذا قال: القادر على كل شيء بقدرته الكاملة، قيل له: وبتلك القدرة بعينها يعيدك، ولو ســمى له اسـم غير الضــمير لكان ربما قال: ليس هو خالقي.

▲ تفسير الآيات رقم [9– 17]

{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)}

ولما كان هذا يحرك السامع غاية التحريك لأن يقول: معتى تكون رجعه له؟ قال مجيباً له: {يوم تبلى} وبناه للمفعول إشارة مع التنبيه على السهولة إلى أن من الأمر البين غاية البيان أن الذي يبلوها هو الذي يرجعها، وهو الله سبحانه وتعالى من غير احتياج إلى ذكره {السرائر *} أي كل ما انطوت عليه الصدور من العقائد والنيات، وأخفته الجوارح من الإخلال بالوضوء والغسل ونحو ذلك من جميع الجنايات، بأن تخالط السرائر في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة، من الأمور الهائلة ما يميلها فيحيلها عما هي عليه فتعود جهراً بعد أن كانت سراً، فيميز طيبها من خبيثها ويجازى عليه صاحبه.

ولما كان المانع من جزائه عند إظهار سرائره إما هو نفسه أو أحد ينصره، قال مسبباً عن إظهار ما يجتهد في إخفائه: {فما له} أي الإنسان الذي أخرجت سرائره، وأعرق في التعميم والنفي فقال: {من قوة} أي يمنع بها نفسه من الجزاء {ولا ناصر *} أي ينصره فيمنعه من نفوذ الحكم فيه. وليس الدفع إلا بهذين الأمرين: قوة قائمة به أو قوة خارجة عنه.

ولما اشتملت هذه الجمل على وجازتها على الذروة العليا من البلاغة في إثبات البعث والجزاء والوحدانية له سبحانه وتعالى إلى غير ذلك من بحور العلوم، فثبت أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، فثبت أن كل ما فيه حق

مع منازعتهم في ذلك كله، اقتضـــى الحال الإقســـام على حقيته فقال : {والسماء} أي التي كان المطلع الإقسام بها ووصفها بما يؤكد العلم بالعبث الذي الذي هو منبع العلوم والتقوى فعليه مدار الســعادة فقال : {ذات الرجع *} التي ترجع بالدوران إلى الموضـــع الذي ابتدأت الدوران منه فترجع الأحوال التي كانت وتصــرمت من الليل والنهار والشــمس والقمر والكواكب والفصــول من الشـــتاء وما فيه من برد ومطر، والصــيف وما فيه من حر وصــفاء وســكون وغير ذلك والنبات بعد تهشــمه وصــيرورته تراباً مختلطاً بتراب الأرض وترجع الماء على قول من يقول : إن الســـحاب يأخذه من البحر ويعلو به فيعصـــره في الهواء ثم يرده إلى الأرض- وغير ذلك من الأمور الدال كل منها قطعاً على أن فاعل ذلك قادر على إعادة كل ما فني كما كان من غير فرق أصلاً.

ولما ذكر الأمر العلوي بادئاً به لشرفه، أتبعه السفلي فقال تعالى: {والأرض} أي مسكنكم الذي أنتم ملابسوه ومعانوه كل وقت وملامسوه {ذات الصدع *} أي التي تتصدع وتنشق فيخرج منها النبات والعيون بدءاً وإعادة دلالة ظاهرة على البعث، فجمع بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل والسفلي الذي هو كالمرأة، فكما أن الرجل يسقيها من مائه فتصـدع عن الولد، فكذلك السماء تسقي الأرض فتتصـدع عن النبات وكما أنها تتصدع عن النبات بعد فنائه وصـــيرورته رفاتاً فيعود كما كان فكذلك تتصـــدع عن الناس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربها من غير فرق أصلاً.

ولما كانت هذه كلها براهين قاطعة ودلائل باهرة ســـاطعة على حقية القرآن وإتيانه بأعلى البيان، فكان من المســـتبعد جداً طعنهم في القرآن بعد هذا البيان، قال تعالى منبهاً على ذلك بالتأكيد معبراً بالضـمير إشـارة لما مضـى إلى أنه المحدث عنه الآن، فهو الثابت في جميع الأذهان لا غيبة له عن شـيء منها أصـلاً {إنه} أي القرآن الذي أخبر بهذه الإخبارات التي هي في غاية الوضوح وتقدم أنه مجيد وفي لوح محفوظ، وأن الكفرة في تكذيب به ولا سيما ما تضمن منه الإخبار بالبعث: {لقول فصل *} أي جداً يراد به فصل الأمور، وله من العراقة في الفرق بين الحق والباطل ما صار به يطلق عليه نفس الفصـل، ثم أكد الأمر لشـدة إنكارهم وجحدهم وتغطيتهم الحق بالباطل فقال: {وما هو} أي القرآن في باطنه ولا ظاهره {بالهزل *} أي بالضـعيف المرذول الذي لا طائل تحته، فمن حقه ما هو عليه الآن من كونه مهيباً في القلوب معظماً في الصـدور يرتفع به قارئه وسـامعه عن أن يلم بهزل ويعلم به في أعين العامة والخاصة.

ولما كان ثبات هذا على هذا الوجه مقتضياً ولا بد رجوعهم عن العناد، فكان ذلك محركاً للسـامع إلى تعرف ما كان من أمرهم، اسـتأنف قوله دلالة على بقـائهم على الإنكـار وأكـده تنبيهـاً على أن بقـاءهم على العنـاد- مع هـذا مسـتبعد جداً {إنهم} أي الكفار {يكيدون} أي بما يعملون في أمره من الحيل {كيداً *} في إبطاله وإطفاء نوره بإثباتك أو إخراجك أو قتلك أو تنفير الناس عنك والحال أنه لا قوة لهم أصـلاً على ذلك ولا ناصـر لهم بوجه من الوجوه وسـمي جزاؤه لهم سـبحانه كيداً مشـاكلة، ولأنه خفي عنهم ومكروه إليهم فهو

على صورة الكيد فقال: {وأكيد} أي أنا بإتمام اقتداري {كيداً *} باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون.

ولما كان هذا معلماً بأنهم عدم لا اعتبار بهم، قال مسبباً عنه تهديداً لهم يا له من تهديد ما أصعبه: {فمهل} أي تمهيلاً عظيماً بالتدريج. ولما كان في المكذبين في علم الله من يؤمن فليس مستحقاً لإيقاع مثل هذا التهديد، عبر بالوصف المقتضي للرسوخ فقال: {الكافرين} أي فلا تدع عليهم ولا تستعجل لهم بالإهلاك، فإنا لا نعجل لأنه لا يعجل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت، حكي أن الحجاج كان سجنه من رخام وأرضه من رصاص، فكان يتلون بتلون الأوقات، فوقت الحر جهنم، ووقت البرد زمهرير، فمر به يوماً فاستغاثوا فطأطأ رأسه لهم وقال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فأخذت الأرض قوائم جواده فرفع طرفه إلى السماء وقال: سبحانك لا يعجل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت، وانطلق من وقته، فإن العجلة- وهي- إيقاع الشيء في غير وقته الأليق به- نقص فإنه لا يعجل إلا من يكون ما يفعل المستعجل عليه خارجاً عن قبضته.

ولما كانت صيغة التفعيل ربما أفهمت التطويل، أكد ذلك مجرداً للفعل دلالة على أن المراد بالأول إيقاع الإمهال مع أن زمنه قصير بالتدريج ليطمئن الممهل بذلك وتصير له به قوة عظيمة ودرته؟ وعزيمة صادقة لأن ما يقولونه مما تشتد كراهة النفوس له، فلا يقدر أحد على الإعراض عنه إلا بمعونة عظيمة : {أمهلهم} أي بالإعراض عنهم مرة واحدة بعد التدريج لما

صار لك على حمله من القوة بالتدريج– الذي أمرت به سابقاً {رويداً *} أي إمهالاً يسيراً فستكون عن قريب لهم أمور، وأي أمور تشفي الصدور، وهو تصغير «ارواداا» تصغير ترخيم، قال ابن برجان: وهي كلمة تعطي الرفق، وهذا الآخر هو المراد بما في أولها من أن كلاًّ منهم ومن غيرهم محفوظ بحفظه مضبوطة أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وأحواله، فإن ذلك مستلزم لأنه في القبضة، فقد التقى الطرفان على أعظم شأن بأبين برهان، ووقع أول هذا الوعيد يوم بدر ثم تولى نكالهم وتحقيرهم وإسفالهم إلى أن ذهب كثير منهم بالسيف وكثير منهم بالموت حتف الأنف إلى النار، وبقي الباقون في الصغار إلى أن أعزهم الله بعز الإسلام، وصاروا من الأكابر الأعلام، تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، والله تعالى هو أعلم بالصواب.

87 Alaalaa Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســــب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة الأعلى

87

▲ تفسير الآيات رقم [1- 6]

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6)}

لما تضــمن أمره ســبحانه في آخر الطارق بالإمهال النهي عن الاســتعجال الذي هو منزه عنه لكونه نقصــاً، وأشــار نفي الهزل عن القرآن- إلى أنهم وصموه بذلك وهو في غاية البعد عنه إلى غير ذلك مما أشير إليه فيها ونزه نفسـه الأقدس سـبحانه عنه، أمر أكمل خلقة رسـوله المنزل عليه هذا القرآن صلى الله عليه وسلم بتنزيه اسمه لأنه وحده العالم بذلك حق علمه، وإذا نزه اســمه عن أن يدعو به وثنا أو غيره أو يضــعه في غير ما يليق به، كان لذاته سـبحانه أشـد تنزيهاً، فقال مرغباً في الذكر لا سـيما بالتنزيه الذي هو

نفي المســـتحيلات لأن التخلي قبل التحلي، شـــارحاً لأصـــول الدين مقدماً للإلهيات التي هي النهايات من الذات ثم الصـــفات لا ســـيما القيومية ثم الأفعال على النبوات، ثم أتبع ذلك النبوة ليعرف العبد ربه على ما هو عليه من الجلال والجمال، فيزول عنه داء الجهل الموقع في التقليد، وداء الكبر الموقع في إنكار الحقوق، فيعترف بالعبودية والربوبية، لا مثنياً عليه سبحانه بالجلال ثم الجمال فيعبده على ما يليق به من امتثال أمره واجتناب نهيه تعظيماً لقدره: {ســـبح} أي نزه وبرئ تنزيهاً وتبرئة عظيمتين جداً قويتين شديدتين {اسم ربك} أي المحسن إليك بعد إيجادك على صفة الكمال بتربيتك على أحسن الخلال حتى كنت في غاية الجلال والجمال.

ولما كان الإنســـان محتاجاً في أن تكون حياته طيبة ليتمكن مما يريد إلى ثلاثة أشـــياء: كبير ينتمي إليه ليكون له به رفعة ينفعه بها عند مهماته، ويدفع عنه عند ضروراته، ومقتدى يربط به نفسه عند ملماته، وطريقة مثلى ترتكبها كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم «رضيت بالله رباً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وبالإسلام ديناً» أرشده صلى الله عليه وسلم إلى أن الانقطاع إليه أعلى الجاه، فقال واصفاً لمن أمره بتسبيحه بإثبات ما له من الواجبات بعد نفي المستحيلات كما أشار إليه «سبحانك وبحمدك»: {الأعلى *} أي الذي له وصـــف الأعلوية في المكانة لا المكان على الإطلاق عن كل شائبة نقص وكل سوء من الإلحاد في شيء من أسمائه بالتأويلات الزائغة وإطلاقه على غيره مع زعم أنهما فيه ســـواء، وذكره خالياً عن التعظيم وغير ذلك ليكون راســـخاً في التنزيه فيكون من أهل العرفان

الذين يضيئون على الناس مع كونهم في الرسوخ كالأوتاد الشامخة التي هي مع علوها لا تتزحزح، وقد ذكر سبحانه هذا المعنى معبراً عنه بجميع جهاته الأربع في ابتداء سور أربع استيعاباً لهذه الكلمة الحسنى الشريفة من جميع جهاتها. فابتدأ سورة الإسراء التي هي سورة الإحسان ب «سبحان» المصدر الصـــالح لجميع معانيه إعلاماً بأن هذا المعنى ثابت له مطلقاً غير مقيد بشيء من زمان أو غيره، ثم ثنى بالماضي في أول الحديد والحشر والصف تصريحاً بوقوع ما أفهمه المصدر في الماضي الذي يشمل أزل الآزال إلى وقت الإنزال، ثم ثلث في أول الجمعة والتغابن بالمضـــارع لأن يفهم مع ما أفهم المصــدر والماضــي دوام التجدد، فلما تم ذلك من جميع وجوهه توجه الأمر فخصت به سورته، وقد مضى في أول الحديد والجمعة ما يتمم هذا.

ولما كان الإبداع أدل ما يكون مع التنزه على الكمال لا ســيما النور الذي هو سـبب الانكشـاف والظهور، مع أنه تفصـيل لقوله «مم خلق» وهو أدل شــيء على البعث المذكور «في يوم تبلى السـرائر» قال مبيناً للفاعل الذي أبهمه لوضــوحه في «مم خلق» مرغباً في الفكر في أفعاله سـبحانه وتعالى الذي هو الســـبب الأقرب للســـعادة بالدلالة عليه بما له من الجائزات بعد الترغيب في الذكر الذي هو المهيئ للفكر: {الذي خلق} أي أوجد من العدم أي له صفة الإيجاد لكل ما أراده لا يعسر عليه شيء {فسوّى} أي أوقع مع الإيجاد وعقبه التســوية في كل خلق بأن جعل له ما يتأتى معه كماله ويتم معاشـــه، وعدل بين الأمزجة الأربعة الماء والهواء والنار بعد أن قهرها على

الجمع مع التضـــاد لئلا تتفاســـد، وذلك بالعلم التام والقدرة الكاملة دلالة على تمام حكمته وفعله بالاختيار.

وقال الاســتاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال سـبحانه وتعالى مخبراً عن عمه الكفار في ظلام حيرتهم {إنهم يكيدون كيداً} [الطارق: 15] وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفاسهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشــيء من عظيم أمر الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشـأنه، أتبع ســبحانه ذلك بأمر نبيه صـــلى الله عليه وســـلم بتنزيه ربه الأعلى عن شنيع اعتدائهم وافك افترائهم، فقال {سبح اسم ربك الأعلى} [الأعلى: 1] أي نزهه عن قبيح مقالهم، وقدم التنبيه على التنزيه في أمثال هذا ونظائره ووقوع ذلك أثناء السـور فيما بين سـورة وأخرى، وأتبع سـبحانه وتعالى من التعريف بعظيم قدرته وعليّ حكمته بما يبين ضـــلالهم فقال {الذي خلق فسـوى والذي قدر فهدى} [الأعلى: 2- 3] فتبارك الله أحســن الخالقين، وتنزه عما يتقوله المفترون- انتهى.

ولما كان جعل الأشـياء على أقدار متفاوته مع الهداية إلى ما وقع الخلق له على أوجه متفاضـلة مع التسـاوي في العناصـر مما يلي التسـوية، وهو من خواص الملك الذي لا يكون إلا مع الكمال، أتبعه به بالواو دلالة على تمكن الأوصـــاف فقال: {والذي قدر} أي أوقع تقديره في أجناس الأشـياء وأنواعها وأشـــخاصـــها ومقاديرها وصـــفاتها وأفعالها وآجالها، وغير ذلك من أحوالها، فجعل البطش لليد والمشـــي للرجل والســمع للأذن والبصــر للعين ونحو ذلك {فهدى} أي أوقع بسبب تقديره وعقبه الهداية لذلك الذي وقع التقدير من أجله

من الشـــكل والجواهر والأعراض التي هيأه بها لما يليق به طبعاً أو اختياراً بخلق الميول والإلهامات، ونصـــب الدلائل والآيات لدفع الشـــرور وجلب الخيور، فترى الطفل أول ما يقع من البطن يفتح فاه للرضـــاعة، وغيره من سائر الحيوانات، يهتدي إلى ما ينفعه من سائر الانتفاعات، فالخلق لا بد له من التسوية ليحصل الاعتدال، والتقدير لا بد له من الهداية ليحصل الكمال.

ولما كانت دلائل التوحيد تارة بالنفس وتارة بالآفاق، ونبه بآيات النفس، فلم يبق إلا آيات الآفاق، وكان النبات من آياتها أدل المخلوقات على البعث قال: {والذي أخرج} أي أوقع إخراج {المرعى *} بما أنزل من المعصـرات فأنبت ما ترعاه الدواب من النجم وغيره بدءاً وإعادة، فدل ذلك على تمام قدرته لا سيما على البعث لأنه سبحانه وتعالى أقدر على جمع الأموات من الأرض بنفسه بعد أن تفتتوا من الماء على جمعه للنبات الذي كان تفتت في الأرض وصـــار تراباً وإخراجه كما كان في العام الماضـــي بإذنه ســبحانه وتعالى وهو خلق من مخلوقاته.

ولما كان إيباســه وتســويده بعد اخضــراره ونموه في غاية الدلالة على تمام القدرة وكمال الاختيار بمعاقبة الأضـــداد على الذات الواحدة قال تعالى: {فجعله} أي بعد أطوار من زمن إخراجه {غثاء} أي كثيراً، ثم أنهاه فأيبســه وهشمه ومزقه فجمع السيل بعضه إلى بعض فجعله زبداً وهالكاً وبالياً وفتاتاً على وجه الأرض {أحوى *} أي في غاية الري حتى صـار أسـود يضـرب إلى خضرة، أو أحمر يضرب إلى سواد، أو اشتدت خضرته فصارت تضرب إلى سـواد، وقال القزاز رحمه الله في ديوانه: الحوة شـية من شـيات الخيل،

وهى بين الدهمة والكمتة، وكثر هذا حتى ســموا كل أســود أحوى- انتهى.
فيجوز أن يريد حينئذ أنه أسود من شدة يبسه فحوته الرياح وجمعته من كل أوب حيث تفتت، فكل من الكلمتين فيها حياة وموت، وأخر الثانية لتحملهما لأن دلالتها على الخضـرة أتم، فلو قدمت لم تصـرف إلى غيرها، فدل جمعه بين الأضـــداد على الذات الواحدة على كمال الاختيار، وأما الطبائع فليس لها من التأثير الذي أقامها ســبحانه فيه إلا الإيجابي كالنار متى أصـــابت شــيئاً أحرقته، ولا تقدر بعد ذلك أن تنقله إلى صــفة أخرى غير التي أثرتها فيه، وأشـار بالبداية والنهاية إلى تذكر ذلك، وأنه على سـبيل التكرار في كل عـام الدال على بعث الخلائق، وخص المرعى لأنـه أدل على البعث لأنـه مما ينبته الناس، وإذا انتهى تهشــم وتفتت وصـــار تراباً، ثم يعيده ســبحانه بالماء على ما كان عليه ســواء كما يفعل بالأموات ســـواء- من غير فرق أصلاً.

ولما استوفى سبحانه وتعالى وصف من أمره صلى الله عليه وسلم بتسبيحه بما دل على أوصــاف جماله ونعوت كبريائه وجلاله، وشـرح ما له سـبحانه من القدرة التامة على الإبداع والهداية والتصـــرف في الأرواح الحســـية والمعنوية بالنشـــر والطي والقبض والبســط، فدل على تمام أصـــول الدين بالدلالة على وجوده سـبحانه على سـبيل التنزل من ذاته إلى صـفاته ثم إلى أفعاله فتم ما للخالق، أتبعه ما للخلائق وبدأ بما لأشـــرف خلقه المنزل عليه هذا الذكر تقديراً للنبوة التي بها تتم السعادة بالحقائق الواصلة من الحق إلى عبده، التي بها يتم أمره من القوتين العلمية ثم العملية بقبول الرســـالة بعد

التوحيد، لأن حياة الإنســـان لا يتم طيبها إلا بمقتدي يقتدى به من أقواله وأفعاله وسـائر أحواله، ولا مقتدي مثل المعصـوم عن كل ميل الموجب ذلك الحب من كل ما يعرف حاله، والحب في الله أعظم دعائم الدين، فقال معللاً للأمر بالتســـبيح للموصـــوف بالجلال والجمال دالاً على أنه يحيي ميت الأرواح بالعلم كما يحيي ميت الأشـــباح بالأرواح {ســـنقرئك} أي نجعلك بعظمتنا بوعد لا خلف فيه على سبيل التكرار بالتجديد والاستمرار قارئاً، أي جامعاً لهذا الذكر الذي هو حياة الأرواح بمنزلة حياة الأشباح، الذي تقدم أنه قول فصـــل، عالماً به كل علم، ناشـــراً له في كل حي، فارقاً به بين كل ملتبس، وإن كانت أميّاً لا تحسـن الكتابة ولا القراءة، ولذلك سـبب عنه قوله: {فلا تنســى *} أي شـيئاً منه ولا من غيره ليكون في ذلك آيتان: كونك تقرأ وأنت أمي، وكونك تخبر عن المستقبل فيكون كما قلت فلا تحرك به لسـانك عند التنزيل لتعجل به ولا تتعب نفسـك فإن علينا حفظه في صـدرك وإنطاق لسانك به.

▲ تفسير الآيات رقم [7- 10]

{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10)}

ولما كان سبحانه وتعالى ينسخ من الشريعة ما يشاء بحسب المصالح تخفيفاً لما له بهذه الأمة من الرفق، قال لافتاً القول إلى ســـياق الغيبة إعلاماً بأن ذكر الجلالة أعظم من التصـريح بأداة العظمة: {إلا ما شـاء الله} أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله، أن تنسـاه لأنه نسـخه، أو لتظهر عظمته في أن

أعظم الخلق يغلبه القرآن لأنه صــفة الله فتنســى الآية أو الكلمة ثم تذكرها تارة بتذكير أحد من آحاد أمتك وتارة بغير ذلك.

ولما كان الفاعل لهذه الأمور كلها لا ســيما الإقراء والحكم على ما يقرأ بأنه لا ينسى إلا ما شاء منه إلاّ يكون لا محيط العلم، قال تعالى مصرحاً بذلك مؤكداً لأجل إنكار أهل القصــور في النظر لمثله جارياً على أسلوب الغيبة معبراً بالضــمير إشــارة إلى تعاليه في العظمة إلى حيث تنقطع أماني الخلق عن إدراكه بما كثر من أفعاله: {إنه} أي الذي مهما شــاء كان {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} [النحل: 40].

ولما كان المراد بيان إحاطة علمه سبحانه وتعالى، وأن نسبة الجلي والخفي من جهره بالقرآن وترديده على قلبه سراً وغير ذلك إليه على حد سواء، وكان الســياق للجلي، ذكرهما مصــرحاً بكل منهما مقدماً الجلي لأن هذا مقامه، وذكره بوصــفه معبراً عنه بالاســم الدال على إحاطة علمه به فقال: {يعلم الجهر} أي ثابت له هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار في الإقراء والقراءة وغيرهما. ولما ذكره باســمه ليدل على أنه يعلمه مطلقاً لا بقيد كونه جهراً، قال مصرحاً بذلك: {وما يخفى *} أي يتجدد خفاؤه من القراءة وغيرها على أي حالة كان الإخفاء، فيدل على علمه به إذا جهر به بطريق الأولى.

ولما ذكر الإلهيات والنبوة وأشير إلى النسخ، أشار إلى أن الدين المشروع له هو الحنيفية السمحة، وأنه سبحانه وتعالى لا يقيمه في شيء بنسخ أو غيره إلا كان هو الأيسـر له والأرفق، لأن الرفق والعنف يتغيران بحسـب الزمان، فقال مبيناً للقوة العملية أثر بيانه للعلمية: {ونيســرك} أي نجعلك أنت مهيأ

مســـهلاً ملياً موفقاً {لليســـرى *} أي في حفظ الوحي وتدبره وغير ذلك من الطرائق والحالات كلها التي هي لينة ســـهلة خفيفة- كما أشـــار إليه قوله: «كل ميســـر لما خلق له» ولهذا لم يقل: ونيســـر لك، لأنه هو مطبوع على حبها.

ولما كمله صلى الله عليه وسلم وهيأه سبحانه وتعالى للأيسر وبسره غاية التيسير، سبب عنه وجوب التذكير لكل أحد في كل حالة تكميلاً لغيره شفقة على خلق الله بعد لما له في نفســـه فإن لله ســـاعات له فيها نفحات تقضـــى فيها الحاجات، وذلك لأنه قد صـــار كالطبيب الحاذق في علاج المرضـــى فيقوم بنفع عباده لشكره بعد ذكره بإذن منه إشـارة إلى أن التلميذ يحتاج إلى إذن المشـايخ وتزكيتهم، وإلى أن أعظم الأدواء أن يقتصـر الإنسـان على ما عنده ولا يطلب الازدياد مما ليس عنده من خير الزاد فقال تعالى: {فذكر} أي بهذا الذكر الحكيم، وعبر بأداة الشـــك إفهاماً للإطلاق الكليّ فقال: {إن نفعت الذكرى *} أي إن جوزت نفعها وترجيته ولو كان على وجه ضعيف- بما أشـــار إليه تأنيث الفعل بعد ما أفادته أداة الشـك، ولا شـك أن الإنســـان لعدم علمه الغيب لا يقطع بعدم نفع أحد بل لا يزال على رجاء منه وإن استبعده، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال يدعو إلى الله تعالى وإن اشتد الأمر، ولا يحقر أحداً أن يدعوه ولا ييأس من أحد وإن اشتد عليه، والأمر بالإعراض عمن تولى ونحو ذلك إنما هو بالإعراض عن الحزن عليه ومن تقطيع النفس لأجله حسرات ونحو ذلك.

ولما أمره بالتذكير لكل أحد، قسم الناس له إلى قسمين: قسم يقبل العلاج، وقسم لا يقبله، إعلاماً بأنه سبحانه وتعالى عالم بكل من القسمين جملة وأفراداً على التعيين ولم يزل عالماً بذلك، ولكنه لم يعين ابتلاء منه لعباده لتقوم له الحجة عليهم بما يتعارفونه بينهم وله الحجة البالغة، فقال حاثاً على شكر الجوائح من العقل ونحوه والجوارح من القلب واللسان وغيرهما: {سيذكر} أي بوعد لا خلف فيه ولو على أخفى وجوه التذكير - بما أشار إليه الإدغام {من يخشى} أي في جبلته نوع خشية، وهو السعيد لما قدر له في نفسه من السعادة العظمى لقبول الحنيفية السمحة فيذكر ما يعلم منها في نفسه فيتعظ، فإن الخشية حاملة على كل خير فيتنعم بقلبه وقالبه في الجنة العليا ويحيى فيها حياة طيبة من غير سقم ولا توى، دائماً بلا آخر وانتهاء.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 19]

{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)}

ولما ذكر من يحب حبه في الله ذكر من يبغض في الله، وعلامة الحب الاقتداء، وعلامة البغض التجنب والانتهاء والابتداع والإباء، فقال: {ويتجنبها} أي يكلف نفسه وفطرته الأولى المستقيمة تجنب الذكرى التي نشاء تذكيره بها من أشرف الخلائق وأعظمهم وصلة بالخالق. ولما كان هذا الذي يعالج نفسه على العوج شديد العتو قال: {الأشقى *} أي الذي له هذا

الوصف على الإطلاق لأنه خالف أشرف الرسل فهو لا يخشى فكان أشقى الناس، كما أن من آمن به أشــرف ممن آمن بمن قبله من الرســل عليهم الصلاة والسلام.

ولما ذكر وصــفه الذي أوجب له العمل الســيئ، ذكر جزاءه فقال: {الذي يصلى} أي يباشر مباشرة الغموس بقلبه وقالبه مقاسياً {النار الكبرى *} أي التي هي أعظم الطبقات وهي الســفلى لأنه ليس في طبعه أن يخشــى، بل هو كالجلمود الأقسى لأنه جاهل مقلد أو متكبر معاند، أو المراد نار الأخرى فإنها أعظم من نار البرزخ وأعظم من نار الدنيا بســبعين جزءاً، فلهذا استحقت أن تتصــف بأفعل التفضــيل على الإطلاق، والآية من الاحتباك: ذكر الثمرة في الأول وهي الخشية دليلاً على حذف ضدها من الثاني، وهي القسوة الناشئة على الحكم بالشقاوة، وذكر الأصل والسبب في الثاني وهو الشــقاوة دليلاً على حذف ضــده في الأول وهو الســعادة، فالإســعاد ســبب والخشية ثمرة، والإشقاء سبب والقساوة ثمرة ومسبب، وكذا ما نبعه من النار وما نشأ عنه، وسر ذلك أنه ذكر مبدأ السعادة أولاً حثاً عليه، ومآل الشقاوة ثانياً تحذيراً منه، قال الملوي: ولا شك أن القرآن العظيم على أحسن ما يكون من البراعة في التركيب وبداعة الترتيب وكثرة العلوم مع الاختصــــار وعدم التكرار، فيكتفي في موضــع بالثمرة بلا ســبب وفي آخر بالســبب بلا ثمرة لدلالة الأول على الثاني والثاني على الأول، فيضم السبب إلى الثمرة والثمرة إلى الســبب كما يطلق القضــاء ويكتفى به عن القدر، ويطلق القدر ويكتفى به عن القضـــــاء، وكذلك يذكر الحكم ويتركان فيدل عليهما فتذكر الثلاثة،

ويظهر بمثال وهو أن من أراد إقامة دولاب يهندس أولاً موضع البئر بسهمه وترسه ومداره وحوضه الذي يصب فيه المار وجداوله التي ينساق منها، فهذا هندسة وتدبير وحكم وإرادة، فإذا صنع ذلك وأتمه سمي قضاء وإيجاداً وتأثيراً، فإذا ركب على الجبال قواديس تحمل مقداراً من الماء معيناً إذا نزلت إلى الماء أخذته، وإذا صعدت فانتهت وأرادت الهبوط فرغته فتصرف الماء من جداوله إلى ما صنع له كان ذلك قدراً فهو النهاية، فمتى ذكر واحد من الثلاثة: الحكم والقضاء والقدر، دل على الآخر.

ولما كان ما هذا شأنه يهلك على ما جرت به العادة في أسرع وقت، فإذا كان من شأنه مع هذا العظم أنه لا يهلك كان ذلك دليلاً واضحاً على أنه لا يعلم كنه عظمة مقدره إلا هو سبحانه وتعالى فأشار إلى ذلك بالتعبير بأداة التراخي إعلاماً بأن مراتب هذه الشدة في التردد بين الموت والحياة لا يعلم علوها عن شدة الصلى إلا الله تعالى فقال: {ثم لا يموت فيها} أي لا يتجدد له في هذه النار موت وإن طال المدى.

ولما كان من يدخل النار فلا تؤثر في موته قد يكون ذلك إكراماً له من باب خرق العوائد، احترز عنه بقوله: {ولا يحيى *} أي حياة تنفعه لأنه ما تزكى فلا صدق ولا صلى.

ولما ثبت بهذا أن لهذا هذا الشقاء الأعظم، فكان التقدير: لأنه لم يزك نفسه لأنه ما كان مطبوعاً على الخشية، أنتج ولا بد قوله تعالى دالاً على الدين التكليفي وهو اجتناب واجتلاب، فجمع الاجتناب والاجتلاب بالتزكية بالتبتل بالأبواب والملازمة للأعتاب بامتثال الأمر واجتناب النهي بالمجاهدات

المقربات إليه سـبحانه وتعالى، المنجيات بعد ما حذر من المهلكات، للمسـارعة في محابه ومراضـيه اجتماعاً على العبادة الموصـلة للخالق بعد حصـول الكمال والتكميل فإنه لا بد في الحياة الطيبة بعد الانتماء إلى ذي الجاه العريض والاقتداء بمن لا يزيغ من الارتباط بطريقة مثلى يحصـل بها الاغتباط ليصـل بها إلى المقصـود ويعمّر أوقاته بوظائفها لئلا يحصـل له خلل ولا ضـياع لنفائس الأوقات ولا غفلة يسـتهويه بها قطاع الطريق: {قد أفلح} أي فاز بكل مراد {من تزكّى *} أي أعمل نفسه في تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال والأموال وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها، وذلك هو التسبيح الذي أمر به أول السورة وما تأثر عنه، من عمل هذا فهو الأسعد.

ولما كان أعظم الأعمال المزكية الذكر والصـلاة قال تعالى: {وذكر} أي بالقلب واللسان ذكر وذكر– بالكسر والضم {اسم ربه} أي صفات المحسن إليه فإنه إذا ذكر الصفة سر بها فأفاض باطنه على ظاهره ذكر اللفظ الدال عليها، وإذا ذكر اللفظ وهو الاسم الدال عليها انطبع في قلبه ذكر المسمى {فصلّى *} أي الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال، ومن فعل ذلك اسـتراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص الموجبة لسـوء الانقلاب، وكان متخلقاً بما ذكر من أخلاق الله في أول السـورة من التخلي عن النقائص بالتزكية، والتحلي بالكمالات بالذكر والصـلاة لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب إلى ذكر اسمه فلا يشقى فلا يصلى النار الكبرى بوعد لا خلف فيه–

فالآية من الاحتباك في الاحتباك: ذكر أولاً الصلى دليلاً على حذف ضده ثانياً، وثانياً التزكية دليلاً على حذف ضـــدها أولاً، وقد تكفل ذكر التزكية والذكر، والصلاة من أسباب التداوي بالإنضاج ثم الأشربة ثم الأغذية، والآية صالحة لإرادة زكاة الفطر وتكبيرات العيد وصلاته وإن كانت السورة مكية وفرض الصـــيام بالمدينة، لأن العبرة بعموم اللفظ لإحاطة علمه ســـبحانه وتعالى بالماضي والحال والاستقبال على حد سواء؛ قال الرازي في اللوامع: وتقدم زكاة الفطر على صلاة العيد، وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يقول: رحم الله امرأً تصدق ثم صلى– ثم يقرأ هذه الآية، وإن كانت السورة مكية، فإنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال تعالى:

{وأنت حل بهذا البلد} [البلد: 2] والسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح– انتهى، وأخذه من البغوي، وزاد البغوي أن ابن عمر رضـــي الله عنهما كان يأمر نافعاً رضي الله عنه بنحو ما قال ابن مسعود رضي الله عنه، ويقول: إنما نزلت هذه الآية في هذا. وروى البزار: «عن عوف بن مالك الأشجعي رضـي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية» وفي السند كثير بن عبد الله– حسّن له الترمذي وضعفه غيره– والله أعلم.

ولما كان التقدير: وأنتم لا تفعلون ذلك، أو وهم لا يفعلونه– على القراءتين، عطف عليه قوله بالخطاب في قراءة الجماعة على الالتفات الدال على تناهي الغضب، منبهاً على المعاملات بسبب التداوي الرابع وهو الاستفراغ بنفي الرذائل والخبائث بالذم على ما ينبغي البراءة منه والحث على ما يتعين

تحصيله تحصيلاً لحسن الرعاية: {بل تؤثرون} أي تختارون وتخصون بذلك على وجه الاستبداد، أيها الأشقياء، وبالغيب على الأصل عند أبي عمرو {الحياة الدنيا *} أي الدنية بالفناء الحاضرة، مع أنها شر وفانية، اشتغالاً بها لأجل حضورها كالحيوانات التي هي مقيدة بالمحسوسات، فاستغرق اشتغالكم بها أوقاتكم ومنعكم عن ذكر اسم الله المنهي إلى ذكر الله والمهيئ له، وعن تزكية نفوسكم، فأوقعكم ذلك في داء القبقب وهو البطن، والدبدب وهو الفرج، وحب المال المؤدي إلى شر الأعمال، وتتركون الآخرة {والآخرة} أي والحال أن الدار التي هي غاية الخلق ومقصود الأمر، العالية المبرئة عن العبث، المنزهة عن الخروج عن الحكمة {خير} أي من الدنيا على تقدير التسليم لأن فيها خيراً لأن نعيمها خالص لا كدر فيه بوجه {وأبقى *} أي منها على تقدير المحال في الدنيا من أن تماديها إلى وقت زوالها تسمى بقاء، لأن نعيم الآخرة دائم لا انقطاع له أصلاً، وما كان باقياً لا يعادل بما يغني بوجه من الوجوه، فمن علم ذلك- وهو أمر لا يجهل- اشتغل بما يحصل الآخرة وينفي الدنيا بقسميها من الأعيان الحسية والشهوات المعنوية من الرعونات النفسانية والمستلذات الوهمية، والآية من الاحتباك: ذكر الإيثار والدنو أولاً يدل على الترك والعلو ثانياً، وذكر الخير والبقاء ثانياً يدل على ضدهما أولاً، وسر ذلك أنه لا يؤثر الدنيء إلا دنيء فذكره أولاً لأنه أشد في التنفير، وذكر الخير والبقاء ثانياً لأنه أشد في الترغيب.

ولما كانت هذه النتيجة- التي هي الفلاح بالتزكية وما تبعها- خالصة الكتب المنزلة التي بها تدبير البقاء الأول، وصفها ترغيباً فيها بوصف جمع القدم

المستلزم للصحة بتوارد الأفكار على تعاقب الأعصار، لأن ما مضت عليه السـنون ومرت على قبوله الدهور تكون النفس أقبل للإذعان له وأدعى إلى إلزامه، وأفاد مع القدم أن المنزل عليه صـلى الله عليه وسـلم ليس بدعاً من الرسل عليهم الصلاة والسلام بل هو على منهاجهم، فرد رسالته من بينهم لا يقول به منصف لا سيما وقد زاد عليهم في المعجزات وسائر الكرامات بقوله مؤكداً لأجل من يكذب: {إن هذا} أي الوعظ العظيم بالتسبيح الذي ذكر في هذه السور وما تأثر عنه من التزكية بالذكر الموجب للصلاة والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، لأنه جامع لكل خير، وهو ثابت في كل شـريعة لأنه المقصود بالحكم فهو لا يقبل النسخ {لفي الصحف الأولى *} فمن تبع هذا القرآن الذي هو في هذه الصحف الربانية فقد تحلى من زينة اللسان بما ينقله من البيان الذي هو في غاية التحرير وعظم الشـأن وما يعلمه من المغيبات مما يكون أو كان، ونسيه أهل هذه الأزمان، فاستراح من ضـلال الشعراء والكهان، الموقعين في الإثم والعدوان، فإن القرآن جمع المديح الفائق والنسيب الرقيق في وصف الحور والرحيق والفخر الحماسي والهجاء البليغ لأعداء الله، والترغيب الجاذب للقلوب والترهيب والملح الخبرية والحدود الشـرعية- إلى غير ذلك من أمور لا تصـل إليها الشـعراء، ولا ينتهي إلى أدنى جنابها بلاغات البلغاء.

ولما كان ذلك عاماً خص من بينه تعظيماً لقدر هذه الموعظة أعظم الأنبياء الأقدمين، فقال مبدلاً مشيراً إلى الاستدلال بالتجربة: {صحف إبراهيم} قدمه لأن صـحفه أقرب إلى الوعظ كما نطق به حديث أبي ذر رضـي الله تعالى

عنه {وموســـى *} ختم به لأن الغالب على كتابه الأحكام، والمواعظ فيه قليلة، ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي أعظمها البشـــارة بمحمد صـــلى الله عليه وســـلم، والإخبار بأنهم يخالفونها كما هو مذكور في أواخرها مع أن ذكر النبيين عليهما الصلاة والسلام على الأصل في ترتيب الوجود والأفضـلية، وقد حث آخرها على التزكي وهو التطهر من الأدناس الذي هو معنى التنزه والتخلق بأخلاق الله بحسب الطاقة، وكان في إتيانه والتذكير به إعلام بأن الله تعالى لم يهمل الخلق من البيان بعد أن خلقهم لأنه لم يخلقهم سدى، لأن ذلك من العبث الذي هو من أكبر النقائص وهو ســبحانه منزه عن جميع شــوائب النقص- فقد رجع آخرها على أولها، وكان تنزيه الرب ســبحانه وتعالى وتنزيه النفس أيضـــاً غاية معولها- والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

88 Ghaashiya Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والســــــورلــــــبــــــقـــــاعــــي

الجزء الثاني والعشرون

▲ سورة الغاشية

▲ تفسير الآيات رقم [1- 6]

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6)}

لما ختمت «سبح» بالحث على تطهير النفوس عن وضر الدنيا، ورغب في ذلك بخيرية الآخرة تارة والاقتداء بأولي العزم من الأنبياء أخرى، رهب أول هذه من الإعراض عن ذلك مرة، ومن التزكي بغير منهاج الرســـل أخرى، فقال تعالى مذكراً بالآخرة التي حث عليها آخر تلك مقرراً لأشــــرف خلقه صــــلى الله عليه وســـلم لأن ذلك أعظم في تقدير اتباعه وأقعد في تحريك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول : { هل أتاك } أي جاءك وكان لك وواجهك على وجه الوضوح يا أعظم خلقنا {حديث الغاشية *} أي القيامة التي تغشي

الناس بدواهيها وشدائدها العظمى وزواجرها ونواهيها، فإن الغشي لا يكون إلا فيما يكره.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهم الظالمون، واستمرت آي السورة على ما يوضح تقدس الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: «هل أتاك» يا محمد «حديث الغاشية» وهي القيامة، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم، ثم عرف بعظيم امتحانهم في قوله: {ليس لهم طعام إلا من ضريع} مع ما بعد ذلك وما قبله، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذلك أزيد في الفرح وأدهى، ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم يغن فقال: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت}- الآيات، أي أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون بالصنعة على الصانع ثم أمره بالتذكار- انتهى.

ولما هول أمرها بانبهامها وعمومها، زاد في التهويل بما ذكر من أحوالها في تفصيل الناس إلى شقي وسعيد، وبدأ بالشقي لأن المقام لإنذار المؤثرين للحياة الدنيا، وسوّغ الابتداء بالنكرة التفصيل فقال: {وجوه} أي كثيرة جداً كائنة {يومئذ} أي إذ تغشى الناس {خاشعة *} أي ذليلة مخبتة من الخجل والفضيحة والخوف والحسرة التي لا تنفع في مثل هذا الوقت {عاملة} أي مجتهدة في الأعمال التي تبتغي بها النجاة حيث لا نجاة بفوات دار العمل فتراها جاهدة فيما كلفتها به الزبانية من جر السلاسل والأغلال وخوض

الغمرات من النيران ونحو ذلك كأن يقال له: أدّ الأمانة ثم تمثل له أمانته في قعر جهنم، فتكلف النزول إليها ثم يحملها على عنقه ويصـــعد في جبال النيران حتى إذا كاد أن يصـل إلى أعلاها سـقطت منه فيتكلف النزول إليها وهكذا، وهذا بما كان يهمل العمل في الدنيا {ناصبة *} أي هي في ذلك في غـايـة التعب والـدؤوب في العمـل والاجتهـاد- هـذه روايـة العوفي عن ابن عباس رضـــي الله عنهما، وذلك لأنهم لم يخشـــوا الله في الدنيا فلم يعملوا له فلم ينصبوا في طاعته أجسادهم فاضطرهم في ذلك اليوم إلى أعظم مما أبوه في الدنيا مع المضـرة دون المنفعة، ويجوز أن يراد بها الذين تعبوا ونصـبوا في الدنيا أجسـامهم وهم على غير دين الإسـلام كالرهبان من النصـارى بعد النســخ وزنادقة المتصــوفة من الفلاسـفة وأتباعهم، بأن يكون (وجوه) مبتدأ و (يومئذ) خبره أي كائنة يومئذ، ثم يقدر ما بعده في جواب ســؤال ســـائل يقول: ما شـأنها؟ فأجيب بقوله خاشـعة، أي في الدنيا- إلى آخره، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء عنه.

ولما كان العذاب لا يكون إلا على ما يكرهه المعذب، دل على ذلك وعلى أنـه على أنهى مـا يكون ببنـاء الفعل للمفعول في قراءة أبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصـم فقال: {تصـلى} أي يصـليها مصـل على أيسـر وجه وأسهله بأمر من له الأمر بأن يغمسها قهراً على وجه الإحاطة بها، والمعنى على قراءة الجماعة بالبناء للفاعل: تدخل وتباشـر بأن يدسـها فيها أصـحابها فيحيط بها من كل جانب وهو يدل على غاية الذل لأن من فعل بنفســه هذا لا يكون إلا كذلك {ناراً حامية *} متناهية في الحر لأنـها عملت بالجهل

على خلاف ما حده لها نبيها فأخلت بركن للعمل أو شرط لما استولى عليها من الغفلة التي أحاطت بها، فلم تدع لها موضعاً يصلح لدخول الرحمة منه. ولما كان من في الحر أحوج شـــيء إلى ما يبرد باطنه، قال بانياً عند الكل للمفعول جرياً على قراءة أبي عمرو في الذي قبله: {تسـقى} أي يسـقى كل من أذن له الملك في ذلك على أهون وجه وأيســـره {من عين آنية *} أي بلغت غايتها في الحر فنضجت غاية النضج فصارت إذا قربوها منهم سقط لحم وجوههم، وإذا شـربوا قطعت أمعاءهم مما شـربوا في الدنيا من كاسـات الهوى التي قطعوا باستلذاذهم لها قلوب الأولياء.

ولما ذكر ما يســـقونه على وجه علم منه أنه لا يلذذ ولا يروي من عطش، أتبعه ما يطعمونه فقال حاصراً له: {ليس لهم} أي هؤلاء الذين أذابوا أنفسهم في عبادة لم يأذن الله فيها {طعام} أصـــلاً {إلا من ضـــريع *} أي يبيس الشـبرق، وهو شـوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته، وهو سـم، وقال في القاموس: والضريع كأمير: الشبرق أو يبيسـه أو نبات رطبه يسمى شبرقاً، ويابسـه يسمى ضريعاً، لا تقربه دابة لخبثه، أو شـيء في جهنم أمرّ من الصـــبر وأنتن من الجيفة وأحرّ من النار، ونبات منتن يرمى به البحر، وقال الهروي في الغريبين وعبد الحق في الواعي: الضـريع: الشـبرق، وهو نبات معروف بالحجاز ذو شـوك، ويقال شـبرق ما دام رطباً، فإذا جف فهو ضريع، وقال القزاز في ديوانه: الضريع: يبيس من يبيس الشجر، وقيل: هو يبيس الشبرق خاصة، وقيل: هو نبات أخضر يرمى به البحر وهو منتن.

أبو حنيفة رحمه الله تعالى: وهو مرعى لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها. وقال ابن الأثير في النهاية: الضريع هو نبت بالحجاز له شوك كبار، وقال: الشبرق نبات حجازي يؤكل وله شوك، وإذا يبس سمي الضريع. وهذا ثوب مشبرق وهو الذي أفسد، وفي نسجه سخافة، وشبرقت الثوب أيضاً: حرقته، وقال في القاموس: الشبرق كزبرج: رطب الضريع واحده بهاء، قال البغوي رحمه الله تعالى: قال مجاهد وقتادة وعكرمة: هو نبت ذو شوك لاطئ بالأرض، تسميه قريش الشبرق، فإذا هاج سموه الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولا يمتنع في قدرة الله سبحانه وتعالى أن يكون الغسلين إذا انفصل عن أبدان أهل النار صار على هيئة الشبرق المسمى ضريعاً، فيكون طعامهم الغسلين الذي هو الضريع، ويمكن أن يكون ذلك كناية عن أقبح العيش ولا يراد به شيء بعينه- والله تعالى أعلم، قال الملوي: وسمي ضريعاً لأن الإنسان يتضرع عند أكله من خشونته ومرارته ونتنه.

▲ تفسير الآيات رقم [7- 13]

{لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13)}

ولما حصر أكلهم في هذا، وكان الضريع المعروف عند العرب قد يتصور متصور أنه لو أكره شيء على أكله أسمنه أو سد جوعته، وكان الضريع المأكول لهم في القيامة شوكاً من نار كما ورد تفسيره عن ابن عباس رضي

الله عنهما مرفوعاً إلى النبي صـــلى الله عليه وســـلم نفى عند فائدة الطعام، فقال واصـــفاً الضـــريع أو الطعام المقدر بعد «إلا» بما يفهمه تحامي الإبل التي ترعى كل نابت وهي أعظم الحيوانات إقبالاً على أنواع الشـــوك له من أنه ضـــر بلا نفع {لا يســـمن} أي فلا يشـــبع ولا يقوي لأنه يلزم ما يســـمن، فعدمه يلازم عدمه.

ولما نفى عنه ما هو مقصـــــود أهل الرفاهية وبدأ به لأن المقام له نفي ما يقصـد للكفاف فقال تعالى: {ولا يغني} أي يكفي كفاية مبتدئة {من جوع *} فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال، والمقصود من الطعام أحد الأمرين، وذلك لأنهم كانوا يأكلون الحرام الذي تنبت عليه لحومهم فيفسدها بفساده وتنمو به نفوسـهم فيخبثها بخبثه ويتغذون بالشـبه أيضـاً ويباشـرونها في جميع أوقاتهم ويباشرون العلوم التي تظلم القلوب كالفلسفة والشعر والسحر ونحو ذلك مما يجر إلى البدع. والآية من الاحتباك: نفي السمن أولاً يدل على إثبات الهزال ثانياً، ونفي الإغناء من الجزع ثانياً يدل على نفي الشـــــبع أولاً، ومن جعل ذلك صـــفة الطعام أفســـد المعنى لأنه يؤول إلى: ليس لهم طعام منفي عنه الإسمان والإغناء، بل لهم طعام لا ينفي عنه ذلك.

ولما ذكر الأعداء وقدمهم لما تقدم، أتبعه الأولياء فقال مســـتأنفاً ذكر ما لهم من ضد ما ذكر للأعداء: {وجوه يومئذ} أي إذ كان ما ذكر {ناعمة *} أي ذات بهجة وسرور تظهر عليها النعمة والنضـرة والراحة والرفاهية بضـد تلك الناصـــبة، لأن هؤلاء أتبعوا أنفســـهم في دار العمل الدنيا وصـــبروا على التقشف وشظف العيش {لسعيها} أي عملها للآخرة الذي كأنه لا سعي غيره

خاصة لعلمها أنه منج {راضية *} لما رأت من ثوابه تود أن جميع سعيها في الدنيا كان لذلك بعد أن كان ذلك السعي الذي هو للآخرة كريهاً إليها في الدنيا لا تباشره إلا بشق الأنفس. ولما ذكر السعي أتبعه ثوابه فقال: {في جنة عالية *} أي في المكان العالي والمكانة العالية والأشجار والغرف وغير ذلك بما صرفوا أنفسهم عن الدنايا ورفعوا هممهم إلى النفائس.

ولما كان ما كان من هذا لا يصفو، وفيه ما يكره من الكلام قال منزهاً لها عن كل سوء: {لا تسمع} أي أيها الداخل إليها- على قراءة الجماعة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بالبناء للمفعول وهو أبلغ في النفي {فيها لاغية *} أي لغو ما أو نفس تلغو أو كلمة ذات لغو على الإسناد المجازي، بل المسموع فيها الذكر من التحميد والتمجيد والتنزيه لحمل ما يرى فيها من البدائع على ذلك مع نزع الحظوظ الحاملة على غيره من القلوب بما كانوا يكرهون من لغو أهل الدنيا المنافي للحكمة.

ولما وصف الجنة بأول ما يعتبر فيها وهو عدم المنغص، أتبعه ما يطلب بعده وهو تناول الملتذات، وكان الأكل قد فهم من ذكر لفظ الجنة، ذكر المشروب لذلك ولدلالته إذا كان جارياً على زيادة حسن الجنة وكثرة ما فيها من النباتات المقيتة والمفكهة من النجم والأشجار والري والأطيار، فقال لأنه ليس كل جنة مما نعرفه فيه ماء جارٍ بنفسه: {فيها} أي الجنة. ولما كان الماء الجاري صالحاً لأن يقسم إلى أماكن كثيرة، وحد قوله المراد به الجنس الشامل للكثير مقابلة لعين أهل النار في دار البوار: {عين جارية *} أي عظيمة الجري جداً، فهي بحيث لا تنقطع أصلاً لما لأرضها من الزكاء

والكرم وما لمائها من الغزارة وطيب العنصـــر، فهو صـــالح لأن يعم جميع نواحيها أقاصـيها وأدانيها وإن عظم اتسـاعها وتناءت أقطارها وبقاعها، كما نراه يجري من سـاق الشـجرة الكبيرة جداً فيسـقي جميع أغصـانها وأوراقها وثمارها، ويزيد على ذلك بأن جريه من أسفل إلى فوق، يجذبه جاذب الشوق ويسوقه أي سوق يقدره الخلاق العليم، والذي قدر على هذا كما هو مشاهد لنا لا نشك فيه قادر على أن يجعل هذه العين- الصالحة للجنس ولو كانت واحدة بالشـخص- عامة لجميع مرافق الجنة تجري إلى خيامها ورياضـها وبسـاتينها ومصـانعها ومجالسـها ويصـعدها إلى أعالي غرفها وإن علت، مقسمة بحسب المصالح، موزعة على قدر المنافع، بغاية الإحكام بما كان لداخلها من الخضـــوع الذي يجري منهم الدموع ويقل الهجوع ويكثر الظمأ والجوع.

ولما لم يبق بعد الأكل والشـرب إلا الاتكاء، قال مفهماً أنهم ملوك: {فيها} معيداً الخبر قطعاً للكلام عن الأول تنبيهاً على شـرف العين لأن الماء مما لا حياة بدونه {سرر} أي زائدة الحد في العكثرة، جمع سرير وهو مقعد عال يجلس عليه الملك ينقل إلى الموضع الذي يشتهيه، سمي بذلك لأنه يسر النفس، والمادة كلها للسرور والطيب والكرم، ولذلك يطلق على الملك والنعمة وخفض العيش {مرفوعة *} أي رفعها رافع عظيم في السمك وهو جهة العلو ليرى الجالس عليها جميع ملكه وما نعم به وما شـــاء الله من غيره وفي القدر، لا كما تعهدونه في الدنيا، بل ارتفاعها نمط جليل من مقدار عظمة رافعها الذي رفع السماء، فالتنكير للتعظيم، وبنى الاسم للمفعول للدلالة على

أنه ليس له من ذاتها إلا الانخفاض، وأما ارتفاعها فبقسـر القادر على كل شـيء، وهذا يدل على أنها كسماء لا عمد لها، قال البغوي: قال ابن عباس رضـي الله عنهما: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجئ أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها- ثم ترتفع إلى مواضـعها- انتهى. وذلك بما كانوا يتواضـعون ويباشـرون من مشاق العبادات على التراب ورث الأثواب.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 22]

{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22)}

ولما كان المستريح يحتاج إلى تكرار الشرب وما يشرب فيه قال: {وأكواب} جمع كوب وهو إناء لا عروة له، فهو صـالح للمناولة والشـرب من كل جهة {موضوعة *} أي ملآى وهي بحيث يسهل عليهم تناولها.

ولما كان من هو بهذه المثابة يحتاج إلى المسـاند والفرش الزائدة قال تعالى: {ونمارق} أي مسـاند يستندون إليها، جمع نمرقة بالفتح والضم وهي الوسـادة {مصـفوفة *} أي بعضـها إلى بعض فهي في غاية الكثرة كأنها الروابي المنضـدة على بسـاط الأرض {وزرابيّ} أي بسـط عريضـة كثيرة الوبر كأنها الرياض فاخرة ناضـرة زائدة عن مواضـع اسـتراحاتهم، وهي جمع زربية {مبثوية *} أي مبسـوطة على وجه التفرق في المواضـع التي لا يراد التنزه

بها من مواضـع الرياحين النابتة والأشـجار المتشـابكة كما بسـط سـبحانه وتعالى أديم الأرض ورصـعه بأنواع النبات الفاخرة بما بسـطوا أنفسـهم في الدنيا للحق وألانوها له.

ولما أنهى سـبحانه ما أراد من تصـوير تلك الدار على ما يليق بهذه السـور القصـار، وكانوا ينكرون غاية الإنكار فوبخهم بما يعصـمهم من الزيغ عن العقائد الحقة في اسـتفهام إنكاري مذكراً لهم بأمورهم في غاية الوضـوح في نفسـها، لأن نزول هذه السـور كان في أول الأمر قبل أن يتمرنوا على المعارف تدل على قدرته على البعث وعلى قدرته على ما ذكر ما هذه الأمور التي أودعها الجنان للذة الإنسـان، وذلك لما في هذه الأمور التي ذكر بها سبحانه من عجائب الصنع مع تفاوته في جعل بعضها ذا اختيار في الخفض والرفع، وبعضـها على كيفية واحدة لا قدرة له على الانفكاك عنها من علو أو سـفول مع التمهد أو التوعر، فقال مسـبباً عما مضـى من الإخبار عن أحوال الفريقين في الآخرة وعن قدرته على ما ذكر: {أفلا ينظرون} أي المنكرون من هذه الأمة لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة وما ذكر فيها والنار وما ذكر فيها- نظر اعتبار.

ولما كان لهم من ملابسة الإبل ما ليس لهم من ملابسة غيرها، وكانت فردة في المخلوقات لا شبيه لها مع ما لها من كثرة المنافع كما قال الحسن رحمه الله تعالى- مع أكلها لكل مرعى واجتزائها بأيسـر شـيء لا سـيما في الماء وطول صـبرها عنه مع عظم خلقها وكبر جرمها وشـدة قوتها، فكانت أدل على تمام القدرة والفعل بالاختيار، قال منبهاً بذكرها على التدبر في الآيات

المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً بعد ما أشار إلى دلالتها على البعث في البروج بذكر ثمود بعد أن صـــرح به في ســـورة سبحانه كما مضى بيانه في الموضعين ويأتي إن شاء الله تعالى في الفجر والشـــمس، وأوضـــح التعبير عنها هنا بما يدل على الخلطة المميلة المحيلة المناسبة لمعنى الغاشية بخلاف التعبير في سورة النحل بالأنعام لأنها سورة النعم {إلى الإبل} ونبه على أن عجيب خلقها مما ينبغي أن تتوفر الدواعي على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام، فقال بانياً للمفعول إشارة إلى أن الدال هو التأمل في مجرد خلقها الدال على إحاطة علم الله وعظيم إحسانه وقدرته تعالى وفعله بالاختيار وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضـــة به من غير معين، منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار الثقال ترعى كل نبات وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأتى بها قطع المفاوز، فهي سفن البر مع ما لها من منافع أخر، قال البيضـــاوي: ولذلك خصـــت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ولأنها أعجب ما عند العرب- انتهى، وتنفعل للبســـط وتجد في ســـيرها فتتأثر بالصوت الحسن جداً، ومن عجائبها أنها لا تكذب أصلاً فإنها لا تبرك عجزاً عن الحمل- إلا وليس فيها من القوى شـــيء، وليس فيها ما تعم كراهته إلا كثرة رغائها فلعله ســـبحانه نفى عن الجنة اللغو لذلك، ولعله مثل العين الجارية وقربها بدرها، والسرر المرفوعة التي حكى أنها تنخفض حتى يتمكن المنتفع بها من ظهورها ثم ترتفع به بالســـماء في علوها مع ما يعهدون من

بروك الإبل للحمل والركوب ثم ارتفاعها لتمام الانتفاع، وقرب نصب الأكواب بسنامها والنمارق ببقيتها حال بروكها، ثم فصل ما دلت عليه الإبل من الأكواب بالجبال التي لا ترتقى مثل جبل السد، والنمارق بالتي ترتقى، وبسط الزرابي بمهد الأرض، قال أبو حيان رحمه الله تعالى: و{كيف} سؤال عن حال والعامل فيه {خلقت *} وإذا علق الفعل عما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته.

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذا المخلوق المفرد الذي هو أدل ما يكون على هذا القول بالطبيعة، أتبعه ذكر السماء ليتذكر السامع ذلك فيباعد من يقول به فقال: {وإلى السماء} أي التي هي من جملة مخلوقاتنا {كيف رفعت *} أي حصل بأيسر أمر رفعها من الذي خلقها بلا عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والإحكام وما فيها من جبال الكواكب والغرائب والعجائب، فذلك دال على القدرة التامة التي لا يشارك تعالى فيها أحد قل ولا جل على إيجاد الجنة العالية وعلى رفع السرر فيها لأنه دل على الفعل بالاختيار ونفي حكم الطبيعة حكماً وحتماً، وذلك دال على كمال قدرته تعالى على كل شيء.

ولما ذكر العالي من الحيوان الملابس للانسان والعالي من الأكوان، أتبعه أعلى الأرض فقال تعالى: {وإلى الجبال} أي الشامخة وهي أشد الأرض {كيف نصبت *} أي كان نصبها من ناصبها عالية جداً على بقية الأرض بلا موجب فيها لذلك من طبيعة ولا غيرها بل بفعل الفاعل المختار فهي راسخة لا تميل، فوضعها كذلك على ما فيها من المنافع من المياه الجارية والأشجار المختلفة أعجب من وضع الأكواب والنمارق المزينة، وبها مع

ذلك ثبتت الأرض وحفظت من الميد، واعتدل أمر الكواكب في تقدير الليل والنهار باعتدال البلاد بالطلق بإعلاء بعضها قبل بعض حتى كانت المطالع والمغارب على ترتيب مطرد ونظام محكم غير منخرم تقدر به الأزمان الفصول والسنون والأيام والشهور- إلى غير ذلك من الأمور، ولا يكون ذلك لها إلا بقاهر قادر مختار لا شريك له.

ولما كان الخفض لا يكون إلا بخافض قاهر كما أن الرفع كذلك قال تعالى: {وإلى الأرض} أي مع سعتها {كيف سطحت *} أي اتفق بسطها من باسطها حتى صارت مهاداً موضوعاً يمشي عليه بغاية السهولة، والقدرة على جعلها كذلك على ما هي فيه من الزينة بناضر النبات وغير ذلك من الاختلافات دالة على الفعل بالاختيار، وليست بدون القدرة على بث الزرابي في الجنة على اختلاف أشكالها وصورها وألوانها.

ولما دل ما ذكر من عجائب صنعه في أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات العلويات والسفليات على كمال قدرته على كل شيء، فدل على كمال قدرته- على البعث وعلى كل ما ذكر أنه يفعله في الجنة والنار، وكان الحث على النظر في هذه الأشياء باستفهام إنكاري، وكان ذلك مفيداً لانتفاء النظر، قال سبحانه مسبباً عنه: {فذكر} كل من يرجى تذكره وانتفاعه بالتذكير يا أشرف خلقنا بما في غرائزهم وفطرهم من العلم الأولى بما في هذه الأشياء وأمثالها مما يدل على صحة ما نزلنا عليك ليدلهم على كمال قدرة الذي بعثك فينقادوا لك أتم انقياد لا سيما في اعتقاد حقية البعث، ولا يهمنك كونهم لا ينظرون ولا يتطرفون، ولعل التذكير يوصل المتذكر إذا

أقبل عليه بحســـن رغبة إلى أن يعرف أن الإبل تشــبه الأنفس المطمئنة الذلولة المطيعة المناقدة، والسماء تشبه الأرواح القدسية النورانية، والجبال تشبه العقول والمعارف الثابتة الراسخة، والأرض تشبه البدن المشتمل على الأعضاء والأركان.

ولما كانت هذه السورة مكية من أوائل ما أنزل، وكان مأموراً إذ ذاك بالصفح قال: {إنما أنت مذكر *} أي لا مقاتل قاهر قاسر لهم على التذكر والرجوع، فلا عليك إن لم ينظروا ولم يتذكروا لأنه ما عليك إلا البلاغ، ولذلك قال {لســت} وأشــار إلى القهر بأداة الاســتعلاء فقال: {عليهم} أي خاصــة {بمصيطر *} أي بمتسلط، وأما غيرهم فسنسلطك عليهم عن قريب، وقرأها الكسائي بالسين على الأصل.

▲ تفسير الآيات رقم [23- 26]

{إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)}

ولما نفى عنهم تســلط الدنيا، وكان التقدير: فمن أقبل وآمن فإن الله ينعمه النعيم الأكبر، قال مستدركاً قسيمهم في صورة الاستثناء: {إلا} أي لكن {من تولى} أي كلف نفسه المطمئنة وفطرته الأولى المستقيمة للإعراض {وكفر *} أي وأصر على كفره، وأجاب الشرط بقوله مسبباً عنه: {فيعذبه} أشد العذاب الذي لا يطيقه أصلب الحديد ولا أشد الجبال {الله} أي الملك الأعظم بسبب تكبره على الحق ومخالفته لأمرك المطاع ومرادك الذي كله الحسن الجميل، ولعله صوره وهو منقطع بصورة المتصل بالتعبير بأداته إشارة إلى

أن العذاب من الله عذاب منه صلى الله عليه وسلم، لأن سببه تكذيبهم له، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «ألا» بالفتح والتخفيف على أنها استفتاحية {العذاب الأكبر *} يعني عذاب الآخرة، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً فيكون المعنى: أن من أصر على الكفر يسلطه الله عليه فيقتله فيعذبه الله في الدار الآخرة، ثم علل إخباره عنه عذابه في الآخرة بقوله مؤكداً لما لهم من التكذيب: {إن إلينا} أي خاصة بما لنا من العظمة والكبرياء {إيابهم *} أي رجوعهم وإن أبوا بالموت ثم بالبعث ثم بالحشر.

ولما كان الحساب متأخراً عن ذلك كله، وعظيماً كماً وكيفاً، عظمه بأداة التراخي فقال: {ثم إن} أكده لإنكارهم، وأتى بأداة دالة على أنه كالواجب في أنه لا بد منه فقال: {علينا} أي خاصة بما لنا من القدرة والتنزه عن نقص العبث والجور وكل نقص، لا على غيرنا، لأن غيرنا لا قدرة له فقد تقدمنا فيه بالوعود الصادقة، وأكدناها غاية التأكيد {حسابهم *} أي يوم القيامة على النقير والقطمير، وغير ذلك من كل صغير وكبير، وذلك يكون في الغاشية يوم ينقسم الناس قسمين: في دار هوان، ودار أمان، فقد التف آخرها بأولها، وتعانق مفصلها بموصلها- والله الهادي للصواب وإليه المآب.

89 Al-Fajr Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـــب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة الفجر

89

▲ تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)}

لما ختمت تلك بأنه لا بد من الإياب والحســـاب، وكان تغيير الليل والنهار وتجديد كل منهما بعد إعدامه دالاًّ على القدرة على البعث، وكان الحج قد جعله الله في شـــرعه له على وجه التجرد عن المخيط ولزوم التلبية والســير إلى الأماكن المخصـوصـة آية مذكرة بذلك قال: {والفجر *} أي الكامل في هذا الوصـــــف لما له من العظمة حتى كأنه لا فجر غيره، وهو فجر يوم

النحر الذي هو أول الأيام الآخذة في الإياب إلى بيت الله الحرام بدخول حرمه والتحلل من محارمه وأكل ضيافته.

ولما ذكر هذا اليوم بما العبارة به عنه أدل على البعث لأنه ينفجر عن صبح قد أضاء، ونهار قد انبرم، وانقضى، لا فرق بينه وبين ما مضى، عم فقال معبراً بالمقابل: {وليال عشر *} هي أعظم ليالي العام. وهي آية الله على البعث بالقيام إلى إجابة داعي الله تعالى على هيئة الأموات {والشفع} أي لمن تعجل في يومين {والوتر *} أي لمن أتم– قاله ابن الزبير، وروى أحمد والبزار برجال الصحيح عن عياش بن عقبة وهو ثقة عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العشر الأضحى، والشفع يوم الأضحى، والوتر يوم عرفة».

ولما كان تعاقب الليل والنهار أدل على القدرة وأظهر في النعمة، قال رادّاً لآخر القسم على أوله، ومذكراً بالنعمة وكمال القدرة، لأن الليل أخفاهما سُرى وسراً، فهو أعظمهما في ذلك أمراً، لأن سير النهار ظاهر لسرايته بخلاف الليل فإنه محوى صرفه فكان أدل على القدرة {والّيل} أي من ليلة النفر {إذا يسر *} أي ينقضي كما ينقضي ليل الدنيا وظلام ظلمها فيخلفه الفجر ويسرى فيه الذين آبوا إلى الله راجعين إلى ديارهم بعد حط أوزارهم، وقد رجع آخر القسم على أوله– وأثبت الياء في يسري ابن كثير ويعقوب وحذفها الباقون، وعلة حذفها قد سأل عنها المؤرج الأخفش فقال: اخدمني سنة، فسأله بعد سنة فقال: الليل يسرى فيه ولا يسري، فعدل به عن معناه فوجب أن يعدل عن لفظه كقوله تعالى: {وما كانت أمك بغيّاً} [مريم: 28]

لما عدل عن «باغية» عدل لفظه فلم يقل: بغية- انتهى، وهو يرجع إلى اللفظ مع أنه يلزم منه رد روايات الإثبات، والحكمة المعنوية فيه- والله أعلم- من جهة الساري وما يقع السرى فيه، فأما من جهة الساري فانقسامهم ليلة النفر إلى مجاور وراجع إلى بلاده، فأشير إلى المجاورين بالحذف حثاً على ذلك لما فيه من جلالة المسالك، فكان ليل وصالهم ما انقضى كله، فهم يغتنمون حلوله ويلتذون طوله من تلك المشاهد والمشاعر والمعاهد، وإلى الراجعين بالإثبات لما سرى الليل بحذافيره عنهم آبوا راجعين إلى ديارهم فيما انكشف من نهارهم، وأما من جهة ما وقع فيه السرى فللاشارة إلى طوله تارة وقصره أخرى، فالحذف إشارة إلى القصير والإثبات إشارة إلى الطويل بما وقع من تمام سراه وما وقع للسارين فيه من قيام وصف الأقدم بين يدي الملك العلام كما قال الإمام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى حيث قال مشيراً لذلك:

كم ليلة فيك وصلنا السرى *** لا نعرف الغمض ولا نستريح

الأبيات المذكورة عنه في المزمل، فقد انقسم الليل إلى ذي طول وقصر، والساري فيه إلى ذي حضر وسفر، فدلت المفاوتة في ذلك وفي جميع أفراد القسم على أن فاعلها قادر مختار واحد قهار، ولذلك أتبعه الدلالة بقهر القهارين وإبارة الجبارين، وأما «بغي» فذكرت حكمته في مريم.

ولما كان هذا قسماً عظيماً في ذكر تلك الليالي المتضمن لذكر المشاعر وما فيها من الجموع والبكاء كما قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وليلة جمع والمنازل من منى *** وهل فوقها من حرمة ومنازل

وفي تذكيره بالبعث ودلالته عليه دلالة عقلية واضـــحة بالإيجاد بعد الإعدام مع ما لهذه الأشـياء في أنفسـها وفي نفوس المخاطبين بها من الجلالة، نبه على ذلك سـبحانه وتعالى بقوله: {هل في ذلك} أي المذكور مع ما له من عليّ الأمر وواضـح القدر {قسم} أي كاف مقنع {لذي} أي صـاحب {حجر *} أي عقل فيحجره ويمنعـه عن الهوى في درك الهوى، فيعليـه إلى أوج الهدى، في درج العلا، حتى يعلم أن الذي فعل ما تضـــمنه هذا القســـم لا يتركه ســـدى، وأنه قادر على أن يحيى الموتى، قال ابن جرير: يقال للرجل إذا كان مالكاً نفســه قاهراً لها ضــابطاً: إنه لذو حجر- انتهى، فمن بلغ أن يحجره عقله عن المآثم ويحمله على المكارم فهو ذو حجر.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: ابتدأ سبحانه لمن تقدم ذكره وجهاً آخر من الاعتبار، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم وما أعقبهم تكذيبهم واجترامهم فقال: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد} إلى قوله: {إرم ذات العماد} إلى قوله: {إن ربك لبالمرصـــاد} أي لا يخفى عليه شـــيء من مرتكبات الخلائق ولا يغيب عنه ما أكنوه {سـواء منكم من أسـر القول ومن جهر به} [الرعد: 10] فهلا اعتبر هؤلاء بما يعاينونه ويشـاهدونه من خلق الإبل ورفع السـماء ونصـب الجبال وسـطح الأرض، وكل ذلك لمصـالحهم ومنافعهم، فالإبل لأثقالهم وانتقالهم، والسماء لسقيهم وإظلالهم، والجبال لاختزان مياههم وأقلالهم، والأرض لحلهم وترحالهم، فلا بهذه الأمور كلها اسـتبصـروا، ولا بمن خلا من القرون اعتبروا، {ألم تر كيف فعل ربك بعاد} على عظيم

طغيانها وصميم بهتانها {إن ربك لبالمرصاد} فيتذكرون حين لا ينفع التذكر {إذا دكت الأرض دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى}- انتهى.

ولما كان التقدير كما هدى إليه السياق: ليبعثن كلهم صاغرين ثم ليحشرن ثم ليحاسبن فيجازى كل أحد بما عمل، فإن آمنوا بذلك نجوا وإلا عذبهم الذي ثبتت قدرته على العذاب الأكبر بعد العذاب الأدنى بسبب قدرته على البعث بسبب قدرته على ما رأيتم من خلق الإبل والسماء والجبال والأرض على ما في كل من العجائب بسبب قدرته على كل شيء، وهذا هو المقصود بالذات، حذف زيادة في تعظيمه واعتماداً على معرفته بما هدى إليه من السياق في جميع السورة وما قبلها. ولما طوى جواب القسم لإرشاد السياق إليه وتعويل المعنى عليه، وتهويلاً له مع العلم بأنه لا يكون قسم بغير مقسم عليه، وكان قد علمت القدرة عليه مما أشير إليه بالمقسم به، أوضح تلك القدرة بأمر العذاب الأدنى- للأمم الماضية، فقال مخاطباً لمن قال له في آخر تلك {فذكر إنما أنت مذكر} [الغاشية: 21] تسلية له صلى الله عليه وسلم وإشعاراً بأنه لا يتدبره حق تدبره غيره، وتهديداً لمن كذب من قومه: {ألم تر} أي تنظر بعين الفكر يا أشرف رسلنا فتعلم علماً هو في التيقن به كالمحسوس بالبصر، وعبر بالاستفهام إشارة إلى أن ما ندبه إلى رؤيته مما يستحق أن يسأل عنه: {كيف فعل ربك} أي المحسن إليك بإرسالك ختاماً لجميع الأنبياء بالأمم الماضية بما شاركوا به هؤلاء من تكذيب الرسل وجعل محط نظرهم الدنيا، وعملوا أعمال من يظن الخلود،

وبدأ بأشدهم في ذلك وأعتاهم الذين قالوا: من أشد منا قوة؟ فقال: {بعاد *} أي الذين بلغوا في الشـدة أن قالوا: من أشـد منا قوة؟ وقال لهم نبيهم هود صلى الله عليه وسلم: {وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون} [الشعراء: 129] ودل على ذلك بناؤهم جنة في هذه الدنيا الفانية التي هي دار الزوال، والقلعة والارتحال، والنكد والبلاء والكدر، والمرض والبؤس والضـرر، فقال مبيناً لهم على حذف مضاف: {إرم} أي أهلها وعمدتها، وأطلقها عليهم لشدة الملابسة لما لها من البناء العجيب والشأن الغريب، ثم بينها بقوله: {ذات} أي صاحبة {العماد *} أي البناء العالي الثابت بالأعمدة التي لم يكن في هذه الدار مثلها، ولذا قال: {التي لم يخلق} أي يقدر ويصـنع- بناه للمفعول إرادة للتعميم {مثلها} يصح أن يعود الضمير على «عاد» باعتبار القبيلة، على «إرم» باعتبار البلدة، وأوضح هذا بقوله معمماً للأرض كلها: {في البلاد *} أي في بنائها ومرافقها وثمارها، وتقسـيم مياهها وأنهارها، وطيب أرضـها وحسـن أطيارها، وما اجتمع بها مما يفوت الحصـر ويعجز القوى، ولا مثل أهلها الذين بنوها في قوة أبدانهم وعظيم شأنهم وغير ذلك من أمورهم، وكان صـاحبها شـداد قد ملك المعمورة كلها فتحيزها فبناها في برية عدن في ثلاثمائة سنة يضاهي بها الجنة على ما زعم- قلوب ضلت وأضلت وأضلها باريها- قال أبو حيان: على أوصـاف بعيد أو مسـتحيل عادة أن يكون في الأرض مثلها، فلما تمت على ما أراد قصدها للسكن وعمره إذ ذاك تسعمائة سنة، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فأهلكهم فكانوا كأمس الذاهب، وأخفى مدينتهم فلم يرها أحد إلا عبد الله بن

قلابة، خرج في طلب إبل ضـلت له على زمن معاوية رضـي الله عنه فوقع عليها، ولما خرج منها وانفصـل عنها خفيت عنه، وكان قد حمل معه بعض ما رأى فيها من اللؤلؤ والمسك والزعفران فباعه، وسمع به معاوية رضي الله عنه فأرسـل إليه فحدثه، فأرسـل، معاوية رضـي الله عنه إلى كعب الأحبار فسأله عن ذلك فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أشـقر أحمر قصـير، على حاجبيه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصـر ابن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجل- ذكره شـيخنا في تخريج أحاديث الكشـاف وقال: وآثار الوضـع عليه لائحة، وقال جماعة منهم ابن عباس رضـي الله عنهما: الأوصـاف كلها للقبيلة وهم عاد الأولى، واسـمها إرم باسـم جدهم، وكانوا عرباً سـيارة يبنون بيوتهم على الأعمدة على عادة العرب، ولم يخلق مثلهم أمة من الأمم في جميع البلاد.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 16]

{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)}

ولما بدأ بهؤلاء لأن أمرهم كان أعجب، وقصـتهم أنزه وأغرب، ثنى بأقرب الأمم إليهم زماناً وأشـبههم بهم شـأناً لأنهم أترفوا بما حبوا به من جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضـيم، فجعلوا موضـع ما لزمهم من الشـكر

الكفر، واســـتحبوا العمى على الهدى، مع ما في آيتهم، وهي الناقة، من عظيم الدلالة على القدرة فقال: {وثمود الذين جابوا} أي نقبوا وقطعوا قطعاً حقيقاً كأنه عندهم كالواجب {الصـــخر بالواد *} أي وادي الحجر أو وادي القرى، فجعلوا بيوتاً منقورة في الجبال فعل من يغتال الدهر ويفني الزمان، قال أبو حيان: قيل أول من نحت الجبال والصـخور والرخام ثمود، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة.

ولما ذكر القبيلتين من العرب، ذكر بعض من جاورهم من طغاة العجم لما في قصـــتهم من العتو والجبروت مع ما حوته من الغرائب وخوارق العجائب لا سيما في القدرة على البعث بقلب العصا حية وإعادتها جماداً مع التكرر، وبإيجاد الضـفادع والقمل من كثبان الأرض وغير ذلك فقال: {وفرعون} أي وفعل بفرعون {ذي الأوتاد *} أي الذي ثبّت ملكه تثبيت من يظن أنه لا يزول بالعسـاكر والجنود وغيرهم من كل ما يظن أنه يشـد أمره من الجنات والعيون والزروع والمقامات الكريمة، فصارت له اليد المبسوطة في الملك.

ولما كان المراد بفرعون هو وجنوده لآن الرأس يكنى به عن البدن، لأنه جماعة وبه قوامه، وصـفه بوصـف يجمع قومه وجميع من ذكر هنا فقال: {الذين} أي فرعون وجنوده وكل من ذكر هنا من الكفرة من عاد وثمود وأتباعهم {طغوا} أي تجاوزوا الحدود {في البلاد *} أي التي ملكوها بالفعل وغيرها بالقوة {فأكثروا} عقب طغيانهم وبسببه {فيها الفساد *} بما فعلوا من الكفر والظلم مما صار سنة لمن سمع به.

ولما كان ذلك موجباً للعذاب، سبب عنه قوله: {فصب} أي أنزل إنزالاً هو في غاية القوة {عليهم} أي في الدنيا {ربك} أي المحسن إليك المدبر لأمرك الذي جعل ما مضى من أخبار الأمم وآثار الفرق موطئاً لهم {سوط عذاب *} أي جعل عذابهم من الإغراق والرجف وغيرهما في وقته وتمكنه وعلوه وإحاطته كالمصبوب في شدة ضربه ولصوقه بالمضروب وإسراعه إليه والتفافه به كالسوط وفي كونه منوّعاً إلى أنواع متشابكة، وأصله الخلط، وإنما سمي هذا الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض، ولأنه يخلط اللحم والدم، وقيل: شبه بالسوط ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بالترديد والتكرير إلى أن يهلك المعذب به وإيذاناً بأنه بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى السيف، هذا سوط الدنيا وسيف الآخرة أشد وأحد وأمضى، ثم علل أخذه لكل ظالم وانتقامه من كل مفسد بأنه رقيب، فقال ممثلاً أن العصاة لا يفوتونه مؤكداً تنبيهاً على أن أعمال من ينكر ذلك أو لا يخطر بباله: {إن ربك} أي مولاك المدبر لأمر نبوتك {لبالمرصاد *} أي لا يفوته شيء، بل هو قادر ومطلع على كل شيء اطلاع من يريده بالإقامة في مكان الرصد وزمانه مع غاية الحفظ والرعي وهو قادر على ما يريد.

ولما ذكر سبحانه أن عادة هؤلاء الفرق كانت الطغيان، وذكر أن عادة الرب سبحانه فيمن تولى وكفر أنه يعذبه كما هدد به آخر تلك، ودل على ذلك بما شوهد في الأمم، وعلل ذلك بأنه لا يغفل، ذكر عادة الإنسان من حيث هو من غير تقييد بهؤلاء الفرق عن الابتلاء في حالي السراء والضراء، فقال

مشيراً إلى جواب ما كانت الكفار تقوله من أنهم آثر عند الله من المسلمين لا يساعد عليهم في الدنيا وتقلل الصحابة رضي الله عنهم من الدنيا مسبباً عما مضى عطفاً على ما تقديره: هذه كانت عادة هؤلاء الأمم وعادة الله فيهم: {فأما الإنسان} أي الذي أودع الحجر ليعقل هذه الأقسام وما يراد منه من اعتقاد المقسم عليه بها وجبل على النسيان والأنس بنفسه والمحبة لها والرضى عنها.

ولما كان المقصود التعريف بحاله عند الابتداء، قدم الظرف الدال على ذلك على الخبر فقال: {إذا} وأكد الأمر بالنافي فقال {ما ابتلاه} أي عامله معاملة المختبر بأن خالطه بما أراد مخالطة تميله وتحيله {ربه} أي الذي أبدعه وأحسن إليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره {فأكرمه} أي بأن جعله عزيزاً بين الناس وأعطاه ما يكرمونه به من الجاه والمال {ونعمه *} أي بأن جعله متلذذاً مترفاً بما أعطاه غير تعبان- بسببه {فيقول} سروراً بذلك وافتخاراً: {ربي} أي الموجد لي والمدبر لأمري {أكرمن *} أي فيظن أن ذلك عن استحقاق فيرتفع به {وأما} هو {إذا} وأكد على نمط الأول فقال: {ما ابتلاه} أي ربه ليظهر صبره أو جزعه.

ولما كان قوله في الأول «فأكرمه ونعمه» كناية عن «فوسع عليه» قابله هنا بقوله: {فقدر} أي ضيق تضييق من يعمل الأمر بحساب وتقدير {عليه رزقه} فهو كناية عن الضيق كما أن العطاء بغير حساب كناية عن السعة، فجعله بمقدار ضرورته الذي لا يعيش عادة بدونه، ولم يجعله فيه فضلاً عن ذلك ولم يقل «فأهانه» موضع «قدر عليه» تعليماً للأدب معه سبحانه

وتعالى وصوناً لأهل الله عن هذه العبارة لأن أكثرهم مضيق عليه في دنياه، ولأن ترك الإكرام لا ينحصر في كونه إهانة {فيقول} أي الإنسان بسبب الضيق: {ربي} أي المربي لي {أهانن *} فيهتم لذلك ويضيق به ذرعاً، ويكون ذلك أكبر همه.

▲ تفسير الآيات رقم [17– 22]

{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22)}

ولما كان نسبة هذا إليه توبيخاً وتقريعاً لقصور نظره فإن الإقتار قد يؤدي إلى سعادة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى شقاوتهما، وهذا أكثر ما يوجد، قال ردعاً عن مثل هذا القول بأعظم أدوات الزجر معللاً للتوسعة والإقتار: {كلا} أي إني لا أكرم بتكثير الدنيا ولا أهين بتقليلها، لا التوسعة منحصرة في الإكرام ولا التضييق منحصر في الإهانة والصغار، وإنما أتتهم الإهانة من حيث إنهم لا يطيعون الله، وربما كان بالتوسعة، وربما كانت بالإقتار، فربما عصى فوسع عليه إهانة له، وهذا لمن يريد سبحانه به الشقاء فيعجل له طيباته في الدنيا استدراجاً، وربما عصى فضيق عليه إكراماً له لأن ذلك يكفر عنه، وفي الصحيح في حديث أقرع وأبرص وأعمى في بني إسرائيل شاهد عظيم لذلك.

ولما زجر عن اعتقاد أن التوسعة للاكرام والتضييق للاهانة، ذكر أن معيار من جبل على حب الطاعة ومن جبل على حب المعصية بغض الدنيا

وحبها، فقال معرباً عن كلام الإنسـان في الشـقين وأفرد أولاً لأنه أنص على التعميم وجمع ثانياً إعلاماً بأن المراد الجنس {بل} أي يســتهينون بأمر الله بما عندهم من العصيان، فيوسع على بعض من جبل على الشقاء إهانة له بالاستدراج ويضيق على بعض من لم يجبل على ذلك إكراماً له وردعاً عن اتباع الهوى ورداً إلى الإحسان إلى الضعفاء، وترجم هذا العصيان الذي هو سـبب الخذلان بقوله: {لا يكرمون} أي أكثر الناس {اليتيم *} بالإعطاء ونحوه شـفقة عليه ورحمة له لأنه ضـعيف لا يرجى من قبله نفع بثناء ولا غيره.

ولما كان الإنسـان لا يمنعه من حث غره على الخير إلا حب الدنيا إن كان المحثوث أعظم منه فيدخره لحوائجه وإن كان مثله فإنه يخشـى أن يقارضـه بذلك فيحثه على مسكين آخر، وكان الإحسـان بالحث على الإعطاء أعظم من الإعطاء لأنه يلزم منه الإعطاء بخلاف العكس، قال: {ولا يحضون} أي يحثون حثاً عظيماً لأهلهم ولا لغيرهم {على طعام المسـكين *} أي بذله له سخاء وجوداً، فكانت إضافته إليه إشارة إلى أنه شريك للغني في ماله بقدر الزكاة.

ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجي، دل عليه بأمر في الإنســان فقال تعالى: {ويأكلون} أي على سبيل التجديد والاستمرار {التراث} أي الميراث، أصـــله وراث أبدلت الواو تاء، وكأنه عبر عنه به دلالة على أخذ الظاهر الذي تشير إليه الواو، والتفتيش عن الباطن المشار إليه بمخرج التاء تفتيشاً ربما أدى إلى أخذ بعض مال الغير: {أكلاً لمّاً *} أي ذا لمٍّ أي جمع وخلط

بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يؤرثون النســاء ولا الصــبيان ويأكلون ما جمعه المؤرث وإن كانوا يعلمون أنه حرام ويقولون: لا يستحق المال إلا من يقاتل ويحمي الحوزة.

ولما كان ذلك قد يفعل عن ضـــرورة مع الكراهة قال ما هو صـــريح في المقصود: {ويحبون} أي على سبيل الاستمرار {المال} أي هذا النوع من أي شــيء كان، وأكده بالمصــدر والوصــف فقال: {حباً جماً *} أي كثيراً مع حرص وشره، فصار قصارى أمرهم النظر الدنيوي، ولم يصرفوا أنفسهم عن حبه إلى ما دعا إليه العقل الذي يعقل النفس عن الهوى، والحجر الذي يحجرها عن الحظوظ، والنهية التي تنهاها عن الشــهوات إلى الإقبال على الله.

ولما كان الســياق هادياً إلى أن التقدير: يحســبون أن ذلك يوفر أموالهم ويحسن أحوالهم ويصلح بالهم، زجر عنه بمجامع الزجر فقال: {كلا} أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، ثم اســتأنف ذكر ما يوجب ندمهم وينبههم من رقدتهم ويعرفهم أن حب المال لا يقتضي نموه، ولو اقتضى نموه ما اقتضى إيجابه للســعادة فقال: {إذ دكت الأرض} أي حصــل دكها ورجها وزلزلتها لتســويتها فتكون كالأديم الممدود بشــدة المط لا عوج فيها بوجه، وأشــار بالبيناء للمفعول إلى ســهولة ذلك لأن الأمر عظيم لعظمة الفاعل الحق، ولذلك قال: {دكاً دكاً *} أي مكرراً بالتوزيع على كل موضــع ناتٍ فيها، فيكون لكل جبل وأكمة وثنية وعقبة دك يخصه على حدته ليفيد ذلك أنه دك مبالغ فيه فتصير جبالها وأكمامها هباءً منثوراً ثم تستوي حتى لا يكون فيها

شـــيء من عوج، وهو كناية عن زلازل عظيمة لا تحملها الجبال الرواســـي فيكف بغيرها.

ولما دلت التسسوية على مجيء أمر عظيم، فإن العادة في الدنيا أن الطرق لا تعم بالكنس أو الرش أو التســوية إلا لحضـــور عظيم كالســـلطان، قال متلطفاً بالمخاطب من أواخر سورة البروج إلى هنا بذكر صفة الإحسان على وجه يفتت أكباد أضداده، {وجاء ربك} أي أمر المحسن إليك بإظهار رفعتك العظمى في ذلك اليوم الأعظم لفصل القضـاء بين العباد بشفاعتك {والملك} أي هذا النوع حال كون الملائكة مصـــطفين {صـــفاً صـــفاً *} أي موزعاً اصطفافهم على أصنافهم كل، صنف صف على حدة، ويحيط أهل السماء الدنيا بالجن والإنس، وأهل كل سماء كذلك، وهم على الضعف ممن أحاطوا به حتى يحيطوا أهل السماء السابعة بالكل وهم على الضعف من جميع من أحاطوا به من الخلائق، ومعنى مجيئه سبحانه وتعالى بعد أن ننفي عنه أن يشبه مجيء شيء من الخلق لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا صححنا العقد في ذلك في كل ما كان من المتشـــابه قلنا في هذا إنه مثل أمره ســـبحانه وتعالى في ظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قدرته وقهره وســـلطانه يحال الملك إذا حضـــر بنفســـه فظهر بحضـوره من آثار الهيبة والسياسـة ما لا يظهر بظهور عساكره كلها خالية عنه، فمجيئه عبارة عن حكمه وإظهار عظمته وبطشه وكل ما يظهره الملوك إذا جاؤوا إلى مكان، وهو سـبحانه وتعالى شـأنه حاضـر مع المحكوم بينهم بعلمه وقدرته، لم يوصـف بغيبة أصـلاً أزلاً ولا أبداً، فحضوره في ذلك الحال

وبعده كما كان قبل ذلك من غير فرق أصـــلاً ولم يتجدد شـــيء غير تعليق قدرته على حسـب إرادته بالفصـل بين الخلق، ولو غاب في وقت أو أمكنت غيبته بحيث يحتاج إلى المجيء لكان محتاجاً، ولو كان محتاجاً لكان عاجزاً، ولو عجز أو أمكن عجزه في حال من الأحوال لم يصـــلح للالهية- تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً، وفي تكرير «صـــفاً» تنبيه على صرف المجيء عن حقيقته وإرشاد إلى ما ذكرت من التمثيل.

▲ تفسير الآيات رقم [23- 30]

{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَــانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِـيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)}

ولما كانت جهنم لا تأتي بنفسـها لأنها لو أتت بنفسـها لربما ظن أنها خارجة عن القدرة بل تقودها الملائكة، فكلما عالجوها ذهاباً وإياباً حصـل للناس من ذلك من الهول ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان المهول نفس المجيء بها لا تعيين الفاعلين، لذلك بني للمفعول قوله: {وجاء} أي بأسهل أمر {يومئذ} أي إذ وقع ما ذكر {بجهنم} أي النار التي تتجهم من يصـــلاها، روي أنه يؤتى بها لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، وهو كقوله تعالى: {وبرزت الجحيم لمن يرى} [النازعات: 36] وأبدل من «إذا» توضيحاً لطول الفصل وتهويلاً قوله: {يومئذ} أي إذ وقعت هذه الأمور فرأى الإنسان ما أعد للشاكرين وما أعد للكافرين.

ولما قدم هذه الأمور الجليلة والقوارع المهولة اهتماماً بها وتنبيهاً على أنها، لما لها من عظيم الموعظة، جديرة بأن يتعظ بها كل سامع، ذكر العامل في ظرفها وبدله فقال: {يتذكر الإنسان} أي على سبيل التجديد والاستمرار فيذكر كل ما كان ينفعه في الدنيا وما يضره فيعلم أن حبه للدنيا لم يفده إلا خساراً، لا زاد بحبها شيئاً لم يكتب له ولا كان ينقصه بذلها شيئاً كما كتب له أو بذلها، وإذا تذكر ذلك هان عليه البذل، وليست تلك الدار دار العمل، فلذلك قال: {وأنى} أي كيف ومن أي وجه {له الذكرى *} أي نفع التذكر العظيم فإنه في غير موضعه، فلا ينفعه أصلاً بوجه من الوجوه لفوات دار العمل، ولا يقع بذلك على شيء سوى الندم وتضاعف الغم والهم والآلام.

ولما كان الندم يقتضي أن يعمل الإنسان ما ينافيه، بين أنه ليس هناك عمل إلا إظهار الندم فاستأنف قوله: {يقول} أي متمنياً المحال على سبيل التجديد والاستمرار: {يا ليتني} وهل ينفع شيئاً «ليت» {قدمت} أي أوقعت التقديم لما ينفعني من الجد والعمل به {لحياتي *} أي أيام حياتي في الدنيا أو لأجل حياتي هذه الباقية التي لا موت بعدها، ويمكن أن يكون سبب تمنيه هذا علمه بأنه كان في الدنيا مختاراً، وأن الطاعات في نفسها كانت ممكنة لا مانع له منها في الظاهر إلا صرف نفسه عنها وعدم تعليق ما أتاه الله من القوى بها.

ولما كان هذا غير نافع له، سبب عنه قوله: {فيومئذ} أي إذ وقعت هذه الأمور كلها {لا يعذب} أي يوقع {عذابه} أي عذاب الله، أي مثل عذابه

المطلق المجرد فكيف بتعذيبه. ولما اشتد التشوف إلى الفاعل، أتى به على وجه لا أعم منه أصلاً فقال: {أحد *}.

ولما جرت العادة بأن المعذب يستوثق منه بسجن أو غيره، ويمنع من كل شيء يمكن أن يقتل به نفسه، خوفاً من أن يهرب أو يهلك نفسه قال: {ولا يوثق} أي يوجد {وثاقه} أي مثل وثاقه فكيف بإيثاقه {أحد *} والمعنى أنه لا يقع في خيال أحد لأجل انقطاع الأنساب والأسباب أن أحداً يقدر على مثل ما يقدر عليه سبحانه وتعالى من الضر ليخشى كما يقع في هذه الدنيا، بل يقع في الدنيا في أوهام كثيرة أن عذاب من يخشونه أعظم من عذاب الله- وأن عذاب الدنيا بأسره لو اجتمع على إنسان وحده لا يساوي رؤية جهنم بذلك المقام في ذلك المحفل المهول دون دخولها- ولذلك تقدم خوفه على الخوف من الله، وبنى الكسائي ويعقوب الفعلين للمفعول، والمعنى على قراءة الجماعة ببنائها للفاعل: لا يعذب أحد عذاباً مثل عذاب الله أي لا يعذب أحد غير الله أحداً من الخلق مثل عذاب الله له، والحاصل أنه لا يخاف في القيامة من أحد غير الله، فإنه ثبت بهذا الكلام أن عذابه لا مثل له، ولم يذكر المعذب من هو فيرجع الأمر إلى أن المعنى: فيومئذ يخاف الإنسان من الله خوفاً لا مثل له، أي لا يخاف من أحد مثل خوفه منه سبحانه وتعالى، ويجوز أن يكون الضمير في «عذابه» للإنسان، أي لا يعذب أحد من الزبانية أحداً غير الإنسان مثل عذابه، وفي المبني للمفعول: لا يعذب عذاب الإنسان أحد لكن يبعده أنه يلزم عليه أن يكون عذاب الإنسان أعظم

من عذاب إبليس– ويجوز أن يكون المعنى: إنه لا يحمل أحد ما يستحقه من العذاب كقوله تعالى:

{ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام: 164].

ولما علم أن هذا الجزاء المذكور لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء، الذي لا يكرم اليتيم ولا المسكين ويحب الدنيا، وكان من المعلوم أن من الناس من ليس هو كذلك، تشوفت النفس إلى جزائه فشفى عيّ هذا التشوف بقوله، إعلاماً بأنه يقال لنفوسهم عند النفخ في الصور وبعثرة ما في القبور للبعث والنشور: {يا أيتها النفس المطمئنة *} أي التي هي في غاية السكون لا خوف عليها ولا حزن ولا نقص ولا غبون، لأنها كانت في الدنيا في غاية الثبات على كل ما أخبر به عن الدار الآخرة وغيرها من وعد ووعيد وتحذير وتهديد، فهم راجون لوعده خائفون من وعيده، وإذا كانت هذه حال النفس التي شأنها الميل إلى الدنيا فما ظنك بالروح التي هي خير صرف {ارجعي} أي بالبعث {إلى ربك} أي موعد الذي أوجدك ورباك تربية الموفقين، أو إلى بدنك حال كونك {راضية} أي بما تعطينه. فلا كدر يلحقك بوجه من الوجوه أصلاً كما كنت في دار القلق والاضطراب مطمئنة ساكنة تحت القضاء والقدر سالكة سبيل الرضا إن حصل ابتلاء بالتكريم والتنعيم أو التضييق والتغريم وثوقاً بما عند الله {مرضية *} عند الله وسائر خلقه، فلا شيء يكرهك بسبب ما كنت مطمئنة تعملين الأعمال الصالحة تحت القضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره، ثم بيّن ما أجمل من الرجوع فقال سبحانه: {فادخلي} أي بسبب هذا الأمر {في

عبادي *} أي في زمرة الصـــالحين الوافدين عليَّ، الذين هم أهل للإضـــافة إليَّ، أو في أجســـــاد عبادي التي خرجت في الدنيا منها، وقراءة «عبدي» بالتوحيد للجنس الشـامل للقليل والكثير تدل على ذلك {وادخلي جنتي *} أي وهي جنة عدن وهي أعلى الجنان، قال البغوي: قال سـعيد بن جبير: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف فشهدت جنازته فجاء طائر لم نر على صـورة خلقه، فدخل نعشـه فلم نر خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شـــفير القبر فلم ندر من تلاها، وهذا الآخر هو أولها على ما هو ظاهر المقسـم عليه بالفجر من البعث المحتوم، الذي لولا هو لكان خلق الخلق من العبث المذموم، المنزه عنه الحي القيوم، فســـبحان الملك الأعظم الذي هذا كلامه، علت معانيه عن طعن وشـــرفت أعلامه، وغر في ذروة الإعجاز تركيبه ونظامه، «وأين الثريا من يد المتناول».

90 Al-Balad Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة البلد

90

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5)}

لما ختم كلمات الفجر بالجنة التي هي أفضـل الأماكن التي يسـكنها الخلق، لا سـيما المضـافة إلى اسـمه الأخص المؤذن بأنها أفضـل الجنان، بعد ما ختم آياتها بالنفس المطمئنة بعد ذكر الأمارة التي وقعت في كبد الندم الذي يتمنى لأجله العدم، بعد ما تقدم من أنها لا تزال في كبد ابتلاء المعيشـة في السـراء والضـراء، افتتح هذه بالأمارة مقسـماً في أمرها بأعظم البلاد وأشـرف أولي الانفس المطمئنة، فقال مؤكداً بالنافي من حيث إنه ينفي ضـد ما ثبت من مضـمون الكلام مع القطع بأنه لم يقصـد به غير ذلك: {لا أقسـم} أي

أقسم قسماً أثبت مضمونه وأنفي ضده، ويمكن أن يكون النفي على ظاهره، والمعنى أن الأمر في الظهور غني عن الإقسام حتى بهذا القسم الذي أنتم عارفون بأنه في غاية العظمة، فيكون كقوله {فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} [الواقعة: 86] {بهذا البلد *} أي الحرام وهو مكة التي لا يصل إليها قاصدوها إلا بشق الأنفس، ولا يزدادون لها مع ذلك إلا حباً، الدال على أن الله تعالى جعلها خير البلاد، وقذف حبها في قلوب من اختارهم من كل حاضر وباد، لأنها تشرفت في أولها وآخرها وأثنائها بخير العباد، ولم يصفه بالأمن لأنه لا يناسب سياق المشقة بخلاف ما في التين، فإن المراد هناك الكمالات.

ولما عظم البلد بالإقسام به، زاده عظماً بالحال به إشعاراً بأن شرف المكان بشرف السكان، وذلك في جملة حالية فقال: {وأنت} يعني وأنت خير كل حاضر وباد {حال} أي مقيم أو حلال لك ما لم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعي أنه لا قدرة لأحد عليه {بهذا البلد *} فتحل قتل ابن خطل وغيره وإن كان متعلقاً بأستار الكعبة، وتحرم قتل من دخل دار أبي سفيان وغير ذلك مما فعله الله لك بعد الهجرة بعد نزول هذه السورة المكية بمدة طويله علماً من أعلام النبوة، أو معنى: يستحل أهله منك وأنت أشرف الخلق ما لا يستحلونه من صيد ولا شجر، وكرر إظهاره ولم يضمره زيادة في تعظيمه تقبيحاً لما يستحلونه من أذى المؤمنين فيه، وإشارة إلى أنه يتلذذ بذكره، فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد، ولكل جنس سيد، وهو انتهاؤه في الشرف، فأشرف الجماد الياقوت وهو سيده، ولو ارتفع عن هذا الشرف

لصار نباتاً ينمو كما في الجنة، وأشرف جنس النبات النخل ولو ارتفع صار حيواناً يتحرك بالإرادة، فالحيوان سيد الأكوان، وسيده الإنسان، لما له من النطق والبيان، وسيد الإنسان الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، لما لهم من عظيم الوصلة بالملك الديان، وسيدهم أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم الذي ختموا به لما فاق به من الفضائل التي أعلاها هذا القرآن، فسيد الخلق محمد بن عبد الله رسول الله أشرف الممكنات وسيدها لأنه وصل إلى أعلى مقام يمكن أن يكون لها، ولو بقي فوق ذلك مقام يمكن للممكن لنقل إليه، ولكونه أشرف كانت مكابدته أعلى المكابدات، يصبر على أذى قومه بالكلام الذي هو أنفذ من السهام، ووضع السلاء من الجزور على ظهره الشريف- نفديه بحر وجوهنا ومصون جباهنا وخدودنا- وهو ساجد، ووضع الشوك في طريقه، والإجماع على قصده بجميع أنواع الأذى من الحبس والنفي والقتل بحيث قال صلى الله عليه وسلم

»ما أوذي أحد في الله ما أوذيت«.

ولما أفهمت هذه الحال أن القسم إنما هو في الحقيقة به صلى الله عليه وسلم، كرر الإقسام به على وجه يشمل غيره فقال: {ووالد} ولما كان المراد التعجيب من ابتداء الخلق بالتوليد من كل حيوان في جميع أمر التوليد ومما عليه الإنسان من النطق والبيان وغريب الفهم وكان السياق لذم أولي الأنفس الأمارة، وكانوا هم أكثر الناس، حسن التعبير بأداة ما لا يعقل لأنها من أدوات التعجيب فقال: {وما ولد *} أي من ذكر أو أنثى كائناً من كان، فدخل كما مضى النبي صلى الله عليه وسلم فصار مقسماً به مراراً، وكذا

دخل أبواه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وما صنعا وما صنع الله لهما بذلك البلد، ومعلوم أن ذكر الصنعة تنبيه على صانعها، فالمقصود القسم بمن جعل البلد على ما هو عليه من الجلال، وخص النبي صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الإرسال، وفاوت بين المتوالدين في الخصال، من النقص والكمال وسائر الأحوال، تنبيهاً على ما له من الكمال بالجلال والجمال، ولعله خص هذه الأشياء بالإقسام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيتاً له على احتمال الأذى، إشارة إلى أن من كان قد حكم عليه بأنه لا يزال في نكد، كان الذي ينبغي له أن يختار أن يكون ذلك النكد فيما يرضي الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في مكة المشرفة في أعظم شدة مما يعانيه من أذى الكفار في نفسه وأصحابه رضي الله عنهم لعلو مقامه، فإن شدة البلاء للأمثل فالأمثل كما مضى مع أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر والصفح، وكل والد ومولود في شدة بالوالدية والمولودية، وغير ذلك مما لا يحصى من الأنكاد البشرية، من حين هو نطفة في ظلمات ثلاث في ضيق ممر ومقر ثم ولادة وربط في تابوت وفطام عن الإلف والأهل؟ من المؤدب والمعلم وتوبيخ من المشايخ ومعاندة من الأقران، ومن يتسلط عليه من النسوان، مع أنه عرضة للأمراض، وسائر ما يكره من الأعراض والأغراض، والفاقات والنوائب والآفات، والمطالب والحاجات، لا يحظى بهواه، ولا يبلغ مناه، ولا يدرك ما اجتباه، ولا ينجو غالباً مما يخشاه، وتفاصيل هذا الإجمال لا تحصى، ولا حد لها فتستقصى، إلى الموت وما بعده، فلذلك كان المقسم عليه قوله: {لقد

خلقنا} أي بما لنا من القدرة التامة والعظمة التي لا تضـاهى {الإنسـان} أي هذا النوع {في كبد *} أي شـدة شـديدة ومشـقة عظيمة محيطة به إحاطة الظرف بالمظروف، لو وكله سبحانه وتعالى في شيء منها إلى نفسه هلك، ولولا هذه البلايا لادعى ما لا يليق به من عظيم المزايا، وقد ادعى بعضـهم مع ذلك الإلهية وبعضـهم الاتحاد برب العباد- تعالى الله عن قولهم الواضح الفساد، بما قرنه به سبحانه وتعالى من الموت والمرض وسائر الأنكاد، فعل سـبحانه ذلك ليظهر بما للعبد من الضـعف والعجز- مع ما منحه به من القوى الظاهرة والباطنة في القول والفعل والبطش والعقل- ما له سـبحانه من تمام العلم وشمول القدرة، وليظهر من خلقه له على هذه الصفة، علم جميع ما في السـورة، فعلم قطعاً إنكار ظنه لتناهي قدرته وتعالي عظمته، وفسـاد هذا الظن بشـاهد العقل من حيث كونه مصـنوعاً، وبشـاهد الوجود من أجل أنه يسـلك طريق الشـر ولا يقدر على طريق الخير إلا بالتوفيق، فعلم قطعاً إعجاز السـورة لأنه لا قدرة لمخلوق على أن يأتي بجملة واحدة تجمع جميع ما وراءها من الجمل- هذا إلى ما لها من فنون الإيجاز التي وصـلت إلى حد الإعجاز، هذا إلى ما لبقية الجمل من الإعجاز في حسـن الرصـف وإحكام التركيب والربط والمراعاة بالألفاظ للمعاني إلى غير ذلك مما لا يبلغ كنهه إلى منزله سبحانه وعز شأنه، وعلم أن الإكرام والإهانة ليستا دائرتين على التنعيم في الدنيا والتضييق كما تقدم شرحه في سورة الفجر، ولأجل ما علم من كون الإنسـان لا يزال في نكد وشـدة ونصـب من حث احتياجه أولاً إلى مطلق الحركة والسـكون، وثانياً إلى المأكل والمشـرب، وثالثاً إلى ما

يترتب عليهما إلى غير ذلك مما يعيي عده ويجهل حده، توجه الإنكار في قوله تعالى بياناً للأسباب الموقعة له في النكد، وهي شهوتان: نفسية وحسية، والنفسية منحصرة في أربع: الأولى أنه يشتهي أن يكون كل من في الوجود في قبضته فأشار إليها {أيحسب} أي هذا الإنسان لضعف عقله مع ما هو فيه من أنواع الشدائد {أن لن يقدر} ولما أكد بالفعلية وخصوص هذا النافي قدم الجار تأكيداً بما يفيد من الاهتمام بالإنسان فقال: }عليه} أي خاصة {أحد *} أي من أهل الأرض أو السماء فيغلبه حتى أنه يعاند خالقه مع ما ينظر من اقتداره على أمثاله بنفسه وبمن شاء من جنوده فيعادي رسله عليهم الصلاة والسلام ويجحد آياته.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 16]

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16)}

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أوضح سبحانه وتعالى حال من تقدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم وسوء غفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسراً حين لا ينفع التندم، ولات حين مطمع، أتبع ذلك بتعريف نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بأن وقوع ذلك منهم إنما جرى على حكم السابقة التي شاءها والحكمة التي قدرها كما جاء في الموضع الآخر {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها} [السجدة: 13] فأشار تعالى إلى هذا بقوله {لقد خلقنا

الإنسـان في كبد} أي أنا خلقناه لذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعاً لمن سـبق لـه الشـــقاء عن التفكر والاعتبار {وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً} [الكهف: 57] فأعماهم بما خلقهم فيه من الكبد وأغفل قلوبهم فحسـبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد، وقد بين سـبحانه وتعالى فعله هذا بهم في قوله لنبيه صـلى الله عليه وسـلم {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} [الكهف: 28] {ولو شـاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً} [يونس: 99] فأنت تشـاهدهم يا محمد ذوي أبصـار وآلات يعتبر بها النظار {ألم نجعل له عينين ولسـاناً وشـفتين} فهلا أخذ في خلاص نفسـه، واعتبر بحاله وأمسه، {فلا اقتحم العقبة} ولكن إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد لـه- انتهى.

ولما كان الإنسـان لا يفتخر بالإنفاق إلا إذا أفضـى إلى الإملاق، فعلم أن مراد الإشارة إلى أن معه أضعاف ما أنفق من حيث إنه حقره بلفظ الإهلاك، إشـارة إلى الثانية والثالثة من شـهواته النفسية وهما إرادته أن يكون لـه الفخار والامتنـان على جميع الموجودات، وإرادتـه أن يكون عنده من الأموال ما لا تحيط به الأفكار ولا تحويه الأقطار- كما يشـير إليه حديث «» لو أن لابن آدم واد من ذهب «و» لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب «» علل سـبحانه وتعالى جهله في حسـابه ذلك وما تبعه بقوله: {يقول} أي مفتخراً بقدرته وشـدته: {أهلكت مالاً لبدا *} ولقصـد المبالغة في كثرته جاءت قراءة أبي جعفر بالتشـديد على أنـه جمع لا بد كركع وراكع فأفهمت أنـه بحيث لا يحصـى، بل لو جمع لم تسـعه الأرض إلا بأن يكون بعضـه على بعض فلا يعد ولا يحد، أي وذلك قليل من الكثير الذي معي، قلدت به أعناق الرجال

المنن، واســتعبدت به الأحرار في كل زمن، فصــرت بحيث إذا دعوت كثر الملبي، وإذا ناديت كثر المجيب، وإذا أمرت عظم الممتثل، وفاء لصــنائعي الماضـية ورغبة في نعمي الباقية، فمن يسـتعصـي عليّ ومن يخالف أمري، فضلاً عن أن يريد إخمال ذكري أو نقص قدري.

ولما كان الشــيء لا يعني إلا إذا كان مجهولاً ولو من بعض الجهات، أنكر عليه هذا الظن على تقدير وقوعه فإنه لا يوصــل إلى ما ظنه إلا به، بقوله مشـيراً إلى شـهوته النفسـية الرابعة، وهي أن تكون أموره مسـتورة فلا يظهر على غيه أحد أصــلاً: {أيحسـب} أي هذا الإنسـان العنيد بقلة عقله {أن لم يره} أي بالبصر ولا بالبصيرة في الزمن الماضي {أحد *} أي في عمله هذا ســـره وجهره وجميع أمره، فينقص جميع ما عمل إذا أراد، وكل ما فاته من آثار هذه الشـهوات الأربع، وهو لا يزال فائتاً له، كان من إرادة تحصـيله في نكد ومعاناة وكبد بحيث يرمي نفسـه لتحصـيله في المهالك، ولا يحصـل منه على ما يرضيه أبداً، وهذا كناية عن أنه يعمل من المساوئ أعمال من يظن أنه لا يطلع عليه، فلذلك نبهه الله تعالى بأنواع التنبيه ليأخذ حذره ويحرز عمره.

ولما أنكر عليه ســبحانه وتعالى هذه النقائص قرره على ما أوجب شـــهوته الحسية المتفرعة إلى أنواع بما يستلزم أن يكون فاعله له المانّ عليه به من بعض فيضـه، عالماً بجميع أمره قادراً على نفعه وضـره بنفسـه وبمن أراد من جنده، فقال مشـيراً إلى ما يترتب على نظر العين الباصـرة الجائلة في العالم الحسي ونظر عين البصيرة الجائلة في العالم المعنوي من شهوته أن يحصل

على كل ما يراه بعين باصرته ويعلمه بعين بصيرته من مليح، ويخلص من كل ما يراه من قبيح، ومذكراً له بما كان يجب عليه من الشكر باستعمال هذه المشاعر فيما شرع له وكفها عما منع الله منه: {ألم نجعل} أي بما لنا من العظمة التي لا يمكن أحداً أن يضاهيها ولا يقرب منها {له عينين *} يبصر بهما وإلا لتعطل عليه أكثر ما يريد، شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاثة على مقدار مناسب لا يزيد إحداهما على الأخرى شيئاً وقدرنا البياض والسواد أو الزرقة أو الشهلة أو غير ذلك على ما ترون، وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها.

ولما قدره سبحانه على ما ينشأ عنه شهوتا تحصيل المليح ونفي القبيح، اتبع ذلك ما ينشأ عنه شهوتا الأمر والنهي وأنواع الكمالات الكمالية فقال: {ولساناً} أي يترجم به عما في ضميره {وشفتين *} أي يستران فاه ويعينانه على الأكل والشرب وعلى النطق بفصاحة وبلاغة على حد معلوم لا يبلغه غيره، فيجتمع له أمره ويصل إلى مقاصد جمة وأهوال مهمة، ولم يذكر السمع لأن الكلام يستلزمه، والمعنى: ألسنا قادرين بالقدرة التي جعلنا له بها ما ذكر على أن نجعل لغيره مثل ما جعلنا له وأكثر فيقاومه ويغلبه.

ولما كان لله تعالى على كل أحد في كل لمحة منة جديدة في إبقاء هذه الآلات الثلاث، عبر فيها بالمضارع، ولما كانت النعمة في العقل إنما هي بهبته أولاً ثم بحمله به على الخير ثانياً، وكان أمره خفياً، وكان من المعلوم أن كل أحد غير مهدي في كل حركاته وسكناته إلى ما يسعده، بل كان هذا المنكر عليه لم يؤهل لطريق الخير، اختير له لفظ الماضي لذلك تحقيقاً

لكونه وجعله غريزة لا تتحول وطبيعة لا تتبدل، بل هي غالبة على صاحبها، قائدة إلى مضـــارة أو محابة ومســـارة وإن كره، وهو الســـبب الذي يكون به الخلاص من شر تلك الأنكاد في دار الإسعاد فقال تعالى: {وهديناه} أي بما آتيناه من العقل {النجدين *} أي طريقي الخير والشر، وصار بما جعلناه له من ذلك سـميعاً بصـيراً عالماً فصـار موضـعاً للتكليف، روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: »يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، يا أيها الناس إنما هما نجدان: نجد خير ونجد شر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير« قال المنذري: النجد هنا الطريق- انتهى. وهو طريق في ارتفاع، عبر عن الخير والشـــر به لإعلائهما الإنســـان عن رتبة باقي الحيوان، ولأن الإنسـان لا يختار واحدة منهما إلا بمعاناة وتكلف كمعاناة من يصعد في عقبة، والنجد لغة الموضع العالي، والله تعالى يعلي من أراد على ما شـاء منهما بخلاف ما كان يقتضـيه ظاهر حاله من أنه لا يحب تكلف شـــيء أصـــلاً، ولا يريد الأشـــياء تأتيه إلا عفواً، وذلك لأجل إظهار قدرته ســـبحانه وتعالى، أما صـــعوبة طريق الخير فبما حفه به من المكاره حتى صـار العمل به، مع أن كل أحد يعشق اسمه ومعناه، أشد شـيء وأصـعبه، وأشقه وأتعبه، وأما صـعوبة طريق الشر فواضـحة جداً مع أن الله يلزمه لمن أراد بتســهيله وتحبيبه وتخفيفه وتقريبه مع أن كل أحد يكره اســمه وينفر من معناه، وجعل الله تعالى الفطرة الأولى الســـليمة التي فطر الناس عليها من الاســتقامة بحيث تدرك الشــر وتنهى عنه، وتدرك الخير وتأمر به، غير أن

الشـهوات والحظوظ تعالجها، والغالب من أعانه الله، وإلى ذلك يشـير حديث «إذا لم تسـتحي فاصـنع ما شـئت» وحديث «البر ما اطمأنت إليه النفس وانشـرح له الصـدر، والإثم ما حاك في الصـدر وتردد في القلب وإن أفتاك الناس وأفتوك».

ولما كان معنى ما مضـى أن هذا الإنسـان عاجز وإن تناهت قوته، وبلغت الذروة قدرته، لسبق قوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفاً} [النساء: 28] وأنه معلوم جميع أمره مفضوح في سره كما هو مفضوح في جهره، كما أشار إليه حديث جندب رضـي الله تعالى عنه عند الطبراني «ما أسـر عبد سـريرة إلا ألبسه الله رداءها«

وحديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عند أحمد وأبي يعلى «لو أن أحدكم يعمل في صـخرة صـماء ليس لها باب ولا كوة يخرج عمله للناس» فهو موصـول إليه مقدور عليه، وأنه كان يجب عليه الشـكر على ما جعل له سبحانه وتعالى من القوى التي جعلها لسوء كسبه آلات للكفر، سبب سبحانه وتعالى عنه قوله تفصـيلاً للأشـياء الموصـلة إلى الراحة في العقبى نافياً لفعلها عنه على سبيل الحقيقة دلالة على عجزه: {فلا اقتحم} أي وثب ورمى بنفسه بسرعة وضغط وشدة حتى كان من شدة المحبة لما يراه فيما دخل فيه من الخير. كأنه أتاه من غير فكر ولا روية بل هجماً {العقبة *} وهي طريق النجاة، والمقرر في اللغة أنها الطريق الصـاعد في الجبل المسـتعار اسـمها لأفعـال البر المقرر في النفوس مريحـة لا متعـب، مع كونهـا أعظم فخراً وأعلى منقبة، لأنا حجبناه عنها بأيدينا وعظيم قوتنا وعجيب قدرتنا، وذلك أن

الخير لما كان محبباً إلى القلوب معشـــوقاً للنفوس مرغوباً فيه لا يعدل عنه أحد، جعلناه في بادئ الأمر كريهاً وعلى النفوس مستصعباً ثقيلاً حتى صار لمخالفته الهوى كأنه عقبة كؤود، لا ينال ما فيه من مشقة الصعود، إلا بعزم شديد وهمة ماضية، ونية جازمة، ورياضة وتدريب، وتأديب وتهذيب، وشديد مجاهدة وعظيم مكابدة للنفس والهوى والشـــيطان، بحيث يكون متعاطيه في فعله له كالرامي بنفســه فيه بلا روية رمي العاشـق له المتهالك عليه، فكان هذا سـبباً لأن هذا الجاهل بنفســه المتعدي لطوره لم يختر لنفســه الخير بما أوتي من البصـر الذي يبصـر به صـنائع الله، والبصـيرة التي يعرف بها ما يضـره وما ينفعه شـكراً لربه سبحانه وتعالى ويكون ذلك لإحسـانه إليه، وهل جزاء الإحسـان إلا الإحسـان، وهل جزاء النعمة إلا الشـكر، بل اختار الشـر وارتكب الضـــر مع أنا هيأناه لكل منهما فبانت لنا القدرة. واتضـــحت في صفاتنا العظمة، وتحقق له الضعف وظهر منه النقص والعجز، فوجب عليه لعزتنا الخضـوع، وإجراء مصـون الدموع وإظهار الافتقار والذل والصـغار، لنقحمه سبيل الجنة وننجيه من طريق النار، ومن اقتحم هذه العقبة التي هي للأعمال الصـالحة اقتحم عقبة الصراط، فكانت سـهولتها عليه بقدر مكابدته لهذه، واسـتراح من تلك المكابدات والأحزان والهموم وصـــار إلى حياة طيبة كما قال الله تعالى {من عمل صـــالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة} [النحل: 97] الآية، واقتحامها بأن يرتحل من عالمه السافل إلى العالم العالي الكامل الذي ليس فيه إلا اللذة، وذلك هو الاعتراف بحق العبودية، وتلك هي الحرية لأن الحر من خرج من رق الشـــهوات إلى خدمة

المولى، فصار طوع أمره في سره وجهره لا حظ لشهوة فيه ولا وصول لحظ إليه، وذلك يكون بشيئين: أحدهما جذب والآخر كسب، فالمجذوب محمول. والكاسب في تعب المجاهدات بسيف الهمة العالية مصول.

ولما بين أنه لا خلاص من النكد إلا بهذا الاقتحام، شرع في تفسير العقبة بادئاً بتهويل أمرها لعظيم قدرها، فقال معبراً بالماضي الذي جرت عادة القرآن بأنه إذا عبر به شرح المستفهم عنه: {وما أدراك} أي أيها السامع لكلامنا، الراغب فيما عندنا {ما العقبة *} أي إنك لم تعرف كنه صعوبتها وعظمة ثوابها، فلما تفرغ القلب بالاستفهام عما لا يعرفه، وكان الإنسان أشهى ما إليه تعرف ما أشكل عليه، فتشوفت النفوس إلى علمها، قال مشييراً إلى الأولى التي هي العفة التي ثمرتها السخاء وإصلاح قوة الشهوة معبراً بالفك الذي هو أدنى ما يكون من العتق لأنه الإعانة فيه ولو بما قل كما ورد في حديث البراء رضي الله عنه «أعتق النسمة وفك الرقبة» وعتقها أن تفرد بها، وفكها أن تعين في ثمنها، وفسر المراد بهذه العقبة بما دل على معادل لا كما يأتي تعيين تقديره فإنها لا تستعمل إلا مكررة قال: {فك} أي الإنسان {رقبة *} أي من الأسر أو الظلم أو الغرم أو السقم شكراً لمن أولاه الخير وتنفيساً للكربة حباً للمعالي والمكارم لا رياء وسمعة كما فعل هذا الظان الضال ولا لطمع في جزاء ولا لخوف من عناء {أو إطعام} أي أوقع الإطعام لشيء له قابلية ذلك {في يوم ذي مسغبة *} أي جوع عام في مكان جوع وزمان جوع- بما أفهمه الوصف والصيغة، فكان لذلك يحمل على الضنة بالموجود خوفاً من مثل ما فيه المطعم فخالف النفس وآثر عليها

اعتماداً على الله {يتيماً} أي إنساناً صغيراً لا أب له يرجى أو يخاف {ذا مقربة *} لا يرجى بإطعامه إلا التودد لأقاربه للتكثير بهم مع أنه يجمع بذلك بين صدقة وصلة وإن كان غنياً {أو مسكيناً} أي شخصاً لا كفاية له {ذا متربة *} أي حاجة مقعدة له على التراب، لا يقدر على سواه، فالآية من الاحتباك: ذكر القرب أولاً يدل على ضده ثانياً، وذكر المتربة ثانياً يدل على ضدها أولاً، وسر ذلك أنه ذكر في اليتيم القرب المعطف، وفي المسكين الوصف المرقق الملطف، فهو لا يقصد بإطعامه إلا سد فاقته، ودخل فيه اليتيم البعيد والفقير من باب الأولى وإن كان أجنبياً.

▲ تفسير الآيات رقم [17– 20]

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)}

ولما كانت هذه الأفعال خيراً في نفسها تدل على جودة الطبع وعلو الهمة وكرم العنصر وإباء النفس إشارة إلى شدة حسنها لأنه لا يوفق لها إلا مخلص وإن كان غير مستند إلى شرع وإلى ما يفيده من سلالة الطبع وسهولة الانقياد وإلى عظمة الإيمان بالتعبير بأداة التراخي في قوله مشيراً إلى العقبة الثانية وهي الحكمة المزكية للقوة النطقية: {ثم كان} أي بعد التخلق بهذه الأخلاق الزاكية العالية النفيسة الغالية في حال كفره أو مبادئ إسلامه للدلالة على صفار جبلته وجودة عنصره من الراسخين في الإيمان المعبر عنه بقوله: {من الذين آمنوا} أي عند ما دعاه إليه الهادي، ولم

تحمله حمية الأنف وشـــماخة النفس على الإباء عن أن يكون تابعاً بعد ما كان متبوعاً، وسافلاً في زعمه إثر ما كان رفيعاً، بل سدد النظر وقوم الفكر فأيقن أنه يعلي نفسه من الحضـيض إلى ما فوق السـهى، يرقيها في درج المعالي إلى ما ليس له انتهاء، {إن في ذلك لآيات لأولي النهى} [طه: 54، 128] فحينئذ يعلم اسـتقامة طبعه وكرم غريزته وعليَّ همته وحسـن نيته وجميل طويته وغزارة عقله وجلالة نبله وفضـله واسـتحقاقه التقدم على الأعلام في الجاهلية والإسـلام، ولذلك كان الصـديق رضـي الله تعالى عنه أعلى الناس درجة بعد النبيين عليهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، لأن هذه كانت أفعاله رضي الله تعالى عنه قبل الإسلام كما قال ابن الدغنة حين وجده قد خرج من مكة المشرفة يريد الهجرة حين آذاه الكفار : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكلَّ وتعين على نوائب الحق- كما قالت خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسـلم حين رجع إليها ترجف بوادره من تجلي جبريل عليه الصـلاة والسلام له سواء، فلما سرب في رحيب مسربه، وشرب من صافي مشربه توفيقاً من الله تعالى لم يتلعثم حين دعاه إلى الدين ولا كانت عنده كبوة ولا تردد، ثم ترقى في درجات الإسـلام إلى أعلى مرام بحيث قال يوم الحديبية لعمر رضي الله عنهما حين أظهر الكراهة للصلح ما قال له النبي صلى الله عليه وسلم سواء حرفاً بحرف من غير أن يكون حاضره أو ينقل إليه كلامه، فسـار حينئذ حائزاً قصـب السـبق، لا مطمع في مداناته، فكيف بلحاقه ومسـاواته، ولكماله وعظمته وجلاله لم يشـرب قط خمراً، وكان إذا ليم على

ذلك في الجاهلية قال لعشراء: والله لو وجدت شيئاً يزيد في عقلي لاشتريته بجميع مالي فكيف أشتري بمالي ما يزيل عقلي. وتلك الأعمال لا تصح وإن كانت ممدوحة في كل حال إلا بالإيمان، أما إن كانت بعده فواضح، وأما إن كانت قبله فبانعطافه عليها كما قال صلى الله عليه وسلم:
»أسلمت على ما سلف منك من خير».

ولما كان الإيمان معلياً للإنسان عن درك الهوان إلى عظم الشأن، حاملاً له على محاسن الأعمال ومكارم الأفعال، وذلك أنه يقود إلى جميع شرائع الدين العظيمة الشأن، وكانت موجبة للجهاد الأكبر من حيث مخالفتها للطبع، وكان ذلك غير مقدور عليه إلا بالشجاعة وهي القوة الثالثة التي إذا هدئت أراحت، وكانت لا تكون إلا بعظيم الصبر، وكان الصبر لمرارته لا يدوم إلا بالتعاون قال تعالى: {وتواصوا} أي صبروا وأوصى بعضهم بعضاً {بالصبر} في اقتحام عقبات الأعمال التي لا يجوزها إلا أبطال الرجال من الأمر بالمعروف إلى ما دونه وإن كان فيه الحتوف، فإن الشجاعة كما قيل صبر ساعة.

ولما كان الإنسان لا بد أن يعرض له من غيره من الخلاف ما يوجب قسوته عليه، فكانت الرحمة من ثمرات الاصطبار المثمر للعدالة، وهي التوسط بين مذمتي الإفراط والتفريط في الفسق والبله وهي العقبة الرابعة، قال مؤكداً بإعادة العامل إشارة إلى قلة العاملين بها: {وتواصوا بالمرحمة *} أي الرحمة العظيمة بحسب زمانها ومكانها بأن يوطنوا أنفسهم على كل ما يحمل على الرحمة العظيمة التي توجب لهم الحب في الله والبغض فيه لأنهم كانوا قبل

الإيمان خالصـــين عن الرياء والإعجاب متهيئين للتزكية فزكاهم الإيمان، فصاروا في غاية النورانية والعرفان.

ولما كان ذلك من معالي الأخلاق، وموجبات الفواق والوفاق، كانت نتيجته لا محالة: {أولئك} أي العظماء الكبراء العالو المنزلة، ولم يأت بضـــمير الفصل كما يأتي لأضدادهم ليخلص الفعل له سبحانه وتعالى من غير نظر إلى ضمائرهم الدالة على جبلاتهم لأنه هو الذي جبلها، وأغنى عنه بالإشارة الدالة على علو مقامهم وبعد مرامهم {أصحاب الميمنة *} أي الجانب الذي فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة بقســـميهم من الســـابقين المقربين وأصحاب اليمين الأبرار، كما مضى شرحه في سورة الواقعة. وهذا تعريض بذلك الذي أتلف ماله في المنافسة. والمشاققة والمعاكسة.

ولما أرشد السياق لمعادلة {فلا اقتحم العقبة} إلى أن التقدير: ولا أحجم عن المعطبة التي هي الأفعال الموجبة للمعتبة مع كونها متعبة، بل قطع من يستحق الوصل ووصل من يستأهل القطع، ثم كان من الذين كفروا وتواصوا بالملأمة واكتسبوا السيئات واتبعوا الشهوات وعاملوا بالقسوة، عطف عليه قوله: {والذين كفروا} أي ستروا ما تظهر لهم مرائي بصائرهم من العلم. ولما كان الكفر بالآيات من أســـوأ أنواع الكفر لأنه كفر بما جعله الله علماً على غيب عهده، وهي جميع ما تدركه الحواس من الأقوال والأفعال الدالة على ذي الجلال لأنها دالة على الصفات الدالة على الموصوف بها الذي ظهر بأفعاله وبطن بعظيم جلاله، قال: {بآياتنا} أي ما لها من العظمة بالإضافة إلينا والظهور الذي لا يمكن خفاؤه {هم} أي خاصة لسوء ضمائرهم ولفساد

جبلاتهم {أصحاب المشأمة *} أي الخصلة المكسبة للشؤم والحرمان والهلكة فهؤلاء مشائيم على أنفسهم، وكفرهم دال على فساد جبلاتهم فهو يشير إلى أن من كان كفره أخف لم يكن جبلياً، فيوشك أن يهدى فيكون من أصحاب الميمنة.

ولما كان معنى هذا أنهم في الجانب الذي فيه الشؤم والهلكة، والبعد من كل بركة، أنتج قوله: {عليهم} أي خاصة دون غيرهم {نار مؤصدة *} أي مطبقة الباب مع إحاطتها بهم من جميع الجوانب- بما أفهمته أداة الاستعلاء ومع الضيق والوعورة، وهذا لعمري أشد الضيق والكبد، والنصب والنكد فالملجأ منه إلى الله الأحد، الواحد الصمد، وقد علم أن أوله هو هذا الآخر، فكان التقاطر فيها مما تشد به الأيدي وتعقد عليه الخناصر- والله تعالى هو المرجو للهداية إلى خير السرائر، وهو الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب.

91 Shams Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة الشمس

91

▲ تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)}

لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد، وهو النار المؤصـــدة، أقســـم أول هذه على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه لأنه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه، فقال مقســـماً بما يدل على تمام علمه وشـــمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها وبدأ بالعالم العلوي، فأفاد ذلك قطعاً العلم بأنه الفاعل المختار، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صـفاته، وذلك أقصـى

درجات القوى النظرية، تذكيراً بعظائم آلائه، ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه، الذي هو منتهى كمالات القوى العملية، مع أن أول المقسم به مذكر بما ختم به آخر تلك من النار: {والشمس} أي الجامعة بين النفع والضر بالنور والحر، كما أن العقول كذلك لا أنور منها إذا نارت، ولا أظلم منها إذا بارت {وضحاها *} أي وضوئها الناشئ عن جرمها العظيم الشأن البديع التكوين المذكر بالنيران إذا أشرقت وقام سلطانها كإشراق أنوار العقول، والضحى- بالضم والقصر: صدر النهار حين ارتفاعه، وبالفتح والمد: شدة الحر بعد امتداد النهار، وشيء ضاح- إذا ظهر للشمس والحر.

ولما افتتح بذكر آية النهار، أتبعه ذكر آية الليل فقال: {والقمر} أي المكتسب من نورها كما أن أنوار النفوس من أنوار العقول {إذا تلاها *} أي تبعها في الاستدارة والنور بما دل على أن نوره من نورها من القرب الماحق لنوره والبعد المكتسب له في مقدار ما يقابلها من جرمه، ولا يزال يكثر إلى أن تتم المقابلة فيتم النور ليلة الإبدار عند تقابلهما في أفق الشرق والغرب، ومن ثم يأخذ في المقاربة فينقص بقدر ما ينحرف عن المقابلة، ونسبة التبع إليه مجازية أطلقت بالنسبة إلى ما ينظر منه كذلك.

ولما ذكر الآيتين، ذكر ما هما آيتاه، وبدا بهما لأنه لا صلاح له إلا بهما كما أنه لا صلاح للبدن إلا بالنفس والعقل فقال: {والنهار} أي الذي هو محل الانتشار فيما جرت به الأقدار {إذا جلاها *} أي جلى الشمس بحلية عظيمة بعضها أعظم من بعض باعتبار الطول والقصر والصحو والغيم والضباب والصفاء والكدر كما أن الأبدان تارة تزكي القلوب والنفوس والعقول

وتارة تدنسها، لأن العقل يكون في غاية الصفاء والدعاء إلى الخير في حال الصغر ثم لا يزال يزيد وينقص بحسب زكاء البدن في حسن الجبلة، أو نجاسته بسوء الجبلة، حتى يصير الشخص نوراً محضاً ملكاً ناطقاً إذا طابق البدن العقل فتعاونا على الخير، أو يصير ظلاماً بحتاً شيطاناً رجيماً إذ خالف البدن العقل بسوء الجبلة وشرارة الطبع.

ولما ذكر معدن الضياء، ذكر محل الظلام فقال: {والليل} أي الذي هو ضد النهار فهو محل السكون والانقباض والكمون {إذا يغشاها *} أي يغطي الشمس فيذهب ضوءها حين تغيب فتمتد ظلال الأرض على وجهها المماس لنا، فيأخذ الأفق الشرقي في الإظلام، ويمتد ذلك الظلام بحسب طول الليل وقصره كما يغطي البدن نور العقل بواسطة طبعه بخبثه ورداءة عنصره، وذلك كله بمقادير معلومة، وموازين قسط محتومة، ليس فيها اختلال، ولا يعتريها انحلال، حتى يريد ذو الجلال، ولم يعبر بالماضي كما في النهار لأن الليل لا يذهب الضياء بمرة بل شيئاً فشيئاً، ولا ينفك عن نور بخلاف النهار، فإنه إذا أبدى الشمس ولم يكن غيم ولا كدر جلى الشمس في آن واحد، فلم يبق معه ظلام بوجه.

ولما ذكر الآيتين ومحل أثرهما، ذكر محل الكل فقال تعالى: {والسماء} أي التي هي محل ذلك كله ومجلاه كما أن الأبدان محل النفوس، والنفوس مركب العقول، ولما رقى الأفكار من أعظم المحسوسات المماسة إلى ما هو دونه في الحس وفوقه في الاحتياج إلى إعمال فكر، رقي إلى الباطن الأعلى المقصود بالذات وهو المبدع لذلك كله معبراً عنه بأداة ما لا يعقل،

مع الدلالة بنفس الإقسـام، على أن له العلم التام، والإحاطة الكبرى بالحكمة البالغة، تنبيهاً على أنهم وصفوه بالإشراك وإنكار الحشر بتلك المنزلة السفلى والمســاواة بالجمادات التي عبدوها مع ما له من صـــفات الكمال التي ليس لغيره ما يداني شـيئاً منها، زجراً لهم بالإشـارة والإيماء عن ذلك ومشـيراً إلى شـدة التعجيب منهم لكونها أداة التعجب فقال: {وما بناها *} أي هذا البناء المحكم الذي ركب فيه ما ذكره إشارة إلى ما وراءه مما يعجز الوصف.

ولما ذكر البناء ذكر المهاد فقال: {والأرض} أي التي هي فراشـــكم بمنزلة محال تصـرفاتكم بالعقل في المعاني المقصـودة {وما طحاها *} أي بسـطها على وجه هي فيه محيطة بالحيوان كله ومحاط بها في مقعر الأفلاك، وهي مع كونها ممسـكة بالقدرة كأنها طائحة في تيار بحارها، وهي موضـــع البعد والهلاك ومحل الجمع- كل هذا بما يشـير إليه التعبير بهذا اللفظ إشـارة إلى ما في سـعي الإنسـان من أمثال هذا، قال أهل البصـائر: وليس في العالم الآفاقي شيء إلا وفي العالم النفساني نظيره، وانشدوا في ذلك:

دواؤك فيك وما تشعر *** وداؤك منك وتستنكر

وتحسب أنك جزء صغير *** وفيك انطوى العالم الأكبر

فالسماوات سبع كطباق الرأس التي تتعلق بالقوى المعنوية والحسية كالذاكرة والحافظة والواهمة والمخيلة والمفكرة والحس المشترك وما هو لمقاسم البصر في العين، ونظير الشمس الروح في إشراقه وحسنه، ونظير الليل الطبع فإن ما به من نور فإنما هو من الروح كما أن الليل كذلك لا يكون نوره إلا من الشمس بواسطة إفادتها للقمر المنير له والكواكب، ونظير النهار- الذي هو

نير في أصـــله ومتكدر بما يخيل له من الســـحب ونحوه- القلب وســـحبه الشـكوك والأوهام النفسـية، ونظير القمر في ظلمته بأصـله وإنارته بالشـمس النفس، فإذا أكسـبها القلب المسـتفيد من الروح النور أنار جميع البدن، وإذا أظلمت أظلم كله، والأعضـــاء الباطنة كالكواكب يقوم بها البدن فينير له الوجود بواســـطة الروح والنفس، والأمطار كالدمع، والحر كالحزن، والبرد كالســـرور، والرعد كالنطق، والبرق كالملح، والرياح كالنفس- إلى غير ذلك من البدائع لمن تأمل، والعالم الســـفلي ســـبع طباق أيضـــاً، قال الملوي: «ونظيرها طبقة الجلد» وهي ثلاث، وطبقة اللحم وطبقة الشـــحم وطبقة العروق وطبقة العصـب، والجبال كالعظام والمعادن منها المياه وفيها العذب كالريق والملح كالدمع والمر كما في الأذن والمنتن منه كما في الأنف، ومنه ما هو جار كالبول، ومنه ما هو كالعيون وهو الدم، والســـيل كالعرق، والمعادن المنطبعة كالحديد والرصـاص هي وسـخ الأرض وهي كالعذرة وما يخرج من الجلد من خبث، والنبات كالشـعور تارة تحلق كالحصـاد وتارة تقلع كالنتف، والحيوانات التي فيها كالقمل، وطيورها كالبراغيث، وعامر البدن ما أقبل منه، وخرابه ما أدبر.

ولما أتم الإشـارة إلى النفوس لأهل البصـائر، صـرح بالعبارة لمن دونهم فقال تعالى: {ونفس} أي أيّ نفس جمع فيها سـبحانه العالم بأسـره. ولما كانت النفوس أعجب ما في الكون وأجمع، عبر فيها بالتسوية حثاً على تدبر أمرها للاستدلال على مبدعها للسعي في إصـلاح شـأنها فقال تعالى: {وما سـواها *} أي عدلها على هذا القانون الأحكم في أعضـــائها وما فيها من الجواهر

والأعراض والمعاني وعجائب المزاج من الأخلاط المتنافرة التي لاءم بينها بالتسوية والتعديل فجعلها متمازجة وقد أرشد السياق والسباق واللحاق إلى أن جواب القسم مقدر تقديره: لقد طبع سبحانه وتعالى نفوسكم على طبائع متباينة هيأها بها لما يريد من القلوب من تزكية وتدسية بما جعل لكم من القدرة والاختيار، وأبلغ في التقدم إليكم في تزكية نفوسكم وتطهير قلوبكم لاعتقاد الحشر بما هو أوضح من الشمس لا شبهة فيه ولا لبس لتنجو من عذاب الدنيا والآخرة بالاتصاف بالتقوى، والانخلاع من الفجور والطغوى.

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الإنسان من الكبد مع ما جعل له سبحانه من آلات النظر، وبسط له من الدلائل والعبر، وأظهر في صورة من ملك قياده، وميز رشده وعناده {وهديناه النجدين} [البلد: 10] {إنا هديناه السبيل} [الإنسان: 3] وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها اهتمام أو لم؟ وأنى بالاستبداد والاستقلال، ثم {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: 96] أقسم سبحانه وتعالى في هذه السورة على فلاح من اختار رشده واستعمل جهده وأنفق وجده {قد أفلح من زكاها} وخيبة من غاب هداه فاتبع هواه {وقد خاب من دساها} فبين حال الفريقين وسلوك الطريقين- انتهى.

ولما كان أعجب أمورها الفجور لما غلب سبحانه عليها من الحظوظ والشهوات، وهي تعلم بما لها من زاجر العقل بصحيح النقل أن الفجور أقبح القبيح، والتقوى لما أقام عليها من ملك العقل الملكي وغريزة العلم النوراني أحسن الحسن، وتذوق أن الفجور أشهى شهي، وأن التقوى أمرّ شيء

وأصـــعبه، وأثقله وأتعبه، قال معلماً أن هذا لا يقدر عليه ســواه لأنه أعجب من جميع ما مضــى لأن البهيمة لا تقدم على ما يضـرها وهي تبصـر ولو قطعت، والآدمي يقدم على ما يضـــره وهو يعلم ويقاتل من منعه منه، فقال مسبباً عما حذف من جواب القسم: {فألهمها} أي النفس إلهام الفطرة السابقة الأولى قبل {ألست بربكم} [الأعراف: 172] {فجورها} أي انبعاثها في الميل مع دواعي الشـهوات وعدم الخوف الحامل على خرق سياج الشـريعة بسـبب ذلك الطبع الذي عدل فيه ذاتها وصـفاتها في قسـر المتنافرات على التمازج غاية التعديل {وتقواها *} أي خوفها الذي أوجب سـكونها وتحرزها بوقايات الشـريعة، فالآية من الاحتباك: ذكر الفجور أولاً دالّ على السـكون الذي هو ضـــده ثانياً، وذكر التقوى ثانياً دالّ على ضـــده، وهو عدم الخوف أولاً، وإلهامها للأمرين هو جعله لها عارفة بالخير والشــر مســتعدة ومتهيئة لكل منهما؛ ثم زاد ذلك بالبيان التام بحيث لم يبق لبس، فزالت الشـــبه عقلاً بالغريزة والإلهام ونقلاً بالرسـالة والإعلام. ودل بالإضــافة على أن ذلك كله منســوب إليها ومكتوب عليها وإن كان بخلقه وتقديره لأنه أودعها قوة وجعل لها اختياراً صـالحاً لكل من النجدين، وأوضـح أمر النجدين في الكتب وعلى ألســنة الرسـل عليهم الصـلاة والسـلام بعد ما وهبه لها من الفطرة القويمة وأخفى عنها ســر القضـــاء والقدرة وعلم العاقبة، فأقام بذلك عليها الحجة وأوضح المحجة.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 15]

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)}

ولما كان من المعلوم أن من سمع هذا الكلام يعلم أن التقوى لا يكون إلا مأموراً بها، والفجور لا يكون إلا منهياً عنه، فيتوقع ما يقال فيهما مما يتأثر عنهما، قال تعالى: {قد أفلح} أي ظفر بجميع المرادات {من زكاها *} أي نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذامّ الأخلاق لأن كلاً ميسر لما خلق له، والدين بني على التحلية والتخلية و«زكى» صالح للمعنيين {وقد خاب} أي حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر وكان سعيه باطلاً {من دساها *} أي أغواها إغواء عظيماً وأفسدها ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وقبائح النيات والأحوال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، والجلافة والعقوق، وأصل «دسى» دسس، فالتزكية أن يحرص الإنسان على شمسه أن لا تكسف، وقمره أن لا يخسف، ونهاره أن لا يتكدر، وليله ألا يطفى، والتدسيس أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه، ويخسف قمره، ويتكدر نهاره، ويدوم ليله، وطرق ذلك اعتبار نظائر المذكورات من الروحانيات وإعطاء كل ذي حق حقه، فنظير الشمس هي النبوة لأنها كلها ضياء باهر وصفاء قاهر، وضحاها الرسالة وقمرها الولاية، والنهار هو العرفان، واليل عدم طمأنينة

النفس بذكر الله وما جاء من عنده، وإعراضـــها عن الانقياد لقبول ما جاء من النبوة أو الولايـة، والعلمـاء العـاملون هم أوليـاء الله، قـال الإمـامـان أبو حنيفة والشــافعي رضـــي الله عنهما: إن لم تكن العلماء أولياء الله فليس الله ولي- رواه عنهما الحـافظ أبو بكر الخطيب، وهو مذكور في التبيان وغيره من مصـــنفات النووي، ونظير الســـماء العزة والترفع عن الشـــهوات وعن خطوات الشـــياطين من الإنس والجن، والأرض نظيرها التواضـــع لحق الله ولرســـوله وللمؤمنين فيكون بإخراجه المنافع لهم كالأرض المخرجة لنباتها، والتدسية خلاف ذلك، من عمل بالسوء فقد هضـم نفسـه وحقرها فأخفاها كما أن اللئـام ينزلون بطون الأوديـة ومقـاطعهـا بحيـث تخفى أمـاكنهم على الطارقين، والأجواد ينزلون الروابي، ويوقدون النيران للطارقين، ويشـــهرون أماكنهم للمضيفين منازل الأشراف في الأطراف كما قيل:

قوم على المحتاج سهل وصلهم *** ومقامهم وعر على الفرسان

ولما كان السياق للترهيب بما دلت عليه سورة البلد وتقديم الفجور هنا، وكان الترهيب أحث على الزكاء، قال دالاً على خيبة المدسي ليعتبر به من سمع خبره لا ســيما إن كان يعرف أثره: {كذبت ثمود} أنث فعلهم لضــعف أثر تكذيبهم لأن كل ســامع له يعرف ظلمهم فيه لوضـــوح آيتهم وقبيح غايتهم، وما لهم بســفول الهمم وقباحة الشــيم، وخصـــهم لأن آيتهم مع أنها كانت أوضــح الآيات في نفســها هي أدلها على الســاعة، وقريش وســائر العرب عارفون بهم لما يرون من آثارهم، ويتناقلون من أخبارهم {بطغواها *} أي أوقعت التكذيب لرســـولها بكل ما أتى به عن الله تعالى بســـبب ما كان

لنفوسهم من وصف الطغيان، وهو مجاوزة القدر وارتفاعه والغلو في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم، أو بما توعدوا به من العذاب العاجل وهي الطاغية التي أهلكوا بها، وطغى- واوي يائي يقال: طغى كدعا يطغو طغوى وطغواناً- بضمها كطغى يطغى، وطغي كرضي طغياً وطغياناً- بالكسر والضم، فالطغوى- بالفتح اسم، وبالضم مصدر، فقلبت الياء- على تقدير كونه يائياً- واواً للتفرقة بين الاسم والصفة، واختير التعبير به دون اليائي لقوة الواو، فأفهم أنهم بلغوا النهاية في تكذيبهم، فكانوا على الغاية من سوء تعذيبهم.

ولما ذكر تكذيبهم، دل عليه بقوله: {إذ} أي تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين {انبعث أشقاها *} أي أشد ثمود شقاء وهو عاقر الناقة للمشاركة في الكفر والزيادة بمباشرة العقر، وهو قدار بن سالف، أو هو ومن مالاه على عقرها، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع {فقال لهم} أي بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى، وأظهر ولم يضمر وعين الإظهار بالجلالة إشارة إلى عظيم آيتهم وبديع بدايتهم ونهايتهم فقال: {رسول الله} أي الملك الذي له الأمر كله، فتعظميه من تعظيم مرسله وهو صالح عليه الصلاة والسلام وكذا الناقة، وعبر بالرسول لأن وظيفته الإبلاغ والتحذير الذي ذكر هنا، ولذا قال مشيراً بحذف العامل إلى ضيق الحال عن ذكره لعظيم الهول وسرعة التعذيب عند مسها بالأذى، وزاد في التعظيم بإعادة الجلالة: {ناقة الله} أي الملك الأعظم الذي له الجبروت كله فلا يقر من انتهك حرمته واجترأ على ما أضافه إليه، ولهذا

أعاد الإظهار دون الإضـــمار، والعامل: دعوا أو احذروا- أو نحو ذلك أي احذروا أذاها بكل اعتبار {وســقياها *} أي الماء الذي جعله الله تعالى لها لسقيها وهو بئرها، فلا تذودوها عن بئرها في اليوم الذي تكون فيه نوبتها في الشـرب ولا تمسـوها بسـوء، وكأنه صـلى الله عليه وسـلم فهم عنهم بعد مدة أنهم يريدون عقرها فكرر عليهم التحذير {فكذبوه} أي أوقعوا تكذيبه بســبب طغيانهم وعقب أمره هذا الأخير فيما حذر من حلول العذاب، أو تكون الفاء هي الفصـــيحة أي قال لهم ذلك فكانت بعده بينه وبينهم في أمرها أمور، فأوقعوا تكذيبه فيها كلها {فعقروها} أي بسـبب ذلك التكذيب بعضــهم بالفعل وبعضـــهم بالرضـــا به {فدمدم} أي عذب عذاباً تاماً مجلّلاً مغطياً مطبقاً مستأصلاً شدخ به رؤوسهم وأسرع في الإجهاز وطحنهم طحناً مع الغضب الشـــديد؛ قال الرازي: والدمدمة: تحريك البناء حتى ينقلب، ودل بأداة الاستعلاء على شدته وإحاطته فقال: {عليهم} ودل على شدة العذاب لشدة الغضـب بلفت القول بذكر صـفة الإحسـان التي كفروها لأنه لا أشـد غضـباً ممن كفر إحسانه فقال: {ربهم} أي الذي أحسن إليهم فغرَّهم إحسانه فقطعه عنهم فعادوا كأمس الدابر {بذنبهم} أي بسببه.

ولما اسـتووا في الظلم والكفر بسـبب عقر الناقة بعضــهم بالفعل وبعضــهم بالرضـا والحث، قال مسبباً عن ذلك ومعقباً: {فسواها *} أي الدمدمة عليهم فجعلها كأنها أرض بولغ في تعديلها فلم يكن فيها شيء خارج عن شيء كما سـوى الشـمس المقسـم بها وسـوى بين الناس فيها، وكذا ما أقسـم به بعدها، فكانت الدمدمة على قويهم كما كانت على ضـعيفهم، فلم تدع منهم أحداً ولم

يتقدم هلاك أحد منهم على أحد، بل كانوا كلهم كنفس واحدة من قوة الصعقة وشـدة الرجفة كما أنهم اسـتووا في الكفر والرضـا بعقر الناقة وكل نفس هي عند صـاحبها كالناقة قد أوصـى الله صـاحبها أن يرعى نعمته سـبحانه فيها فيزكيها ولا يدسـيها، فإن الناقة عبارة عن مطية يقطع عليها السـير حسـاً أو معنى، وذلك صـــــالح لأن يراد به النفس التي تقطع بها عقبات الأعمال، والسقيا ما يعيش المسقيّ به، وهو صالح لأن يراد به الذكر والعبادة، فمن لم يرع النعمة ويشـكر المنعم فقد عقرها، فاسـتحق الدمدمة منه، وكما أنه سـوى بينهم في الدمدمة ســـوى بين المهتدين في النجاة {ولا} أي والحال أنه لا {يخاف} في وقت من الأوقات أي ربهم، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ويؤيده قراءة أهل المدينة والشـام بالفاء المسببة عن الدمدمة والتسـوية وكذلك هي في مصـــاحفهم {عقباها *} أي عاقبة هذه الدمدمة وتبعتها فإنه الملك الأعلى الذي كل شـــيء في قبضـــته لا كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء فعلم أنه سبحانه وتعالى يعلي أولياءه لأنهم على الحق، ويســفل أعداءه لأنهم على الباطل، فلا يضـــل بعد ذلك إلا هالك، بصـيرته أشـد ظلاماً من الليل الحالك، وقد رجع آخرها على أولها بالقسـم وجوابه المحذوف الذي هو طبع النفوس على طبائع مختلفة والتقدم إليهم بالإنذار من الهلاك، ونفس القسم أيضـاً فإن من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشـى عاقبة– والله الموفق للصواب.

92 Al-Lail Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة الليل

92

تفسير الآيات رقم [1- 10]

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10)}

لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها، وأوضح في آخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في تحصيل نجد الخير ونجد الشر، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللبس، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى، فتباينوا في مقاصدهم، وفي مصادرهم ومواردهم، بعد أن أثبت أنه هو الذي تصرف في النفوس بالفجور والتقوى،

أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ضره ونفعه على ذلك، تنبيهاً على تمام قدرته في أنه الفاعل بالاختيار، يحول بين المرء وقلبه حتى يحمله على التوصل إلى مراده، بضد ما يوصل إليه بل بما يوصل إلى مضاده، وعلى أنه لا يكاد يصدق الاتحاد في القصد والاختلاف في السعي والتوصل، وشرح جزاء كل تحذيراً من نجد الشر وترغيباً في نجد الخير، وبين ما به التزكية وما به التدسية فقال: {والّيل} أي الذي هو آية الظلام الذي هو سبب الخبط والخلط لما يحدث عنه من الإشكال واللبس في الأحوال والإهلال الموصل إلى ظلمة العدم، وهو محل الأسرار بما يصل الأخيار ويقطع الأشرار: {إذا يغشى *} أي يغطي ما كان من الوجود مبصراً بضياء النهار على التدريج قليلاً قليلاً، وما يدل عليه من جليل مبدعه، وعظيم ماحقه ومطلعه {والنهار} أي الذي هو سبب انكشاف الأمور كالموت الذي يزيل عن الروح علائق البدن فينجلي لها ما كانت فيه من القبائح، والجهر الذي يشرح النفس بإزالة اللبس {إذا تجلّى *} أي ظهر ظهوراً عظيماً بضياء الشمس، وأظهر ما كان خفياً فلم يدع لمبصر شيئاً من لبس، فمن كان يريد السر قصد الليل، ومن أراد الجهر قصد النهار سواء كان من الأبرار أو من الفجار.

ولما ذكر المتخالطين معنى، أتبعهما المتخالطين حساً، فقال مصرحاً فيهما بما هو مراد في الأول، وخص هذا بالتصريح تنبيهاً على أنه لكونه عاقلاً-عاقد يغلط في نفسه فيدعي الإلهية أو الاتحاد، أو غير ذلك من وجوه الإلحاد {وما خلق} وحكم التعبير بما الأغلب فيه غير العقلاء ما تقدم في

سورة الشمس من تنبيههم على أنهم لما أشركوا به سبحانه وتعالى ما لا يعقل نزلوه تلك المنزلة وقد أحاط بكل شيء، وهو الذي خلق العلماء، وهم لا يحيطون به علماً مع ما يفيده «ما» من التعجب منهم في ذلك لكونها صيغة التعجب {الذكر} أي حساً بآلة الرجل ومعنًى بالهمة والقوة {والأنثى} حساً بآلة المرأة ومعنًى بسفول الهمة وضعف القوة وما دلاّ عليه من عظيم الاصطناع، وباهر الاختراع والابتداع، فإنه دل فرقه بينهما وهما من غير؟ واحدة وهي التراب على تمام قدرته المستلزم لشمول علمه وفعله بالاختيار، فالآية من الاحتباك: ذكر أولاً الصنعة دلالة على حذفها ثانياً، وثانياً الصانع دلالة على حذفه أولاً.

ولما ذكر ما هو محسوس التخالف من المعاني والأجرام، أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض فقال: {إن سعيكم} أي عملكم أيها المكلفون في التوصل إلى مقصد واحد، ولذلك أكده لأنه لا يكاد يصدق اختلاف وجوه السعي مع اتحاد المراد، وعبر بالسعي ليبذل كل في عمله غاية جهده {لشتى *} أي مختلف اختلافاً شديداً باختلاف ما تقدم، وهو جمع شتيت كقتلى وقتيل، فيكون الإنسان رجلاً وهو أنثى الهمة، ويكون أنثى وهو ذكر الفعل، فتنافيتم في الاعتقادات، وتعاندتم في المقالات، وتباينتم غاية التباين بأفعال طيبات وخبيثات، فساع في فكاك نفسه، وساع في إيثامها، فعلم قطعاً أنه لا بد من محق ومبطل ومرض ومغضب لأنه لا جائز أن يكون المتنافيان متحدين في الوصف بالإرضاء أو الإغضاب، فبطل ما أراد

المشركون من قولهم {لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء} [النحل: 35] الآية وما ضاهاها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما بين قبل حالهم في الافتراق، أقسم سبحانه على ذلك الشأن في الخلائق بحسب تقديره أزلاً {ليبلوهم أيهم أحسن عملاً} [لا يوجد ليبلوهم بالياء في لغتنا وإنما كما في الكهف آية 7: لنبلوهم... وفي الملك آية 2: لنبلوكم... فقال تعالى: {إن سعيكم لشتى} فاتصل بقوله تعالى {قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها} [الشمس: 10] إن قوله تعالى {فأما من أعطى واتقى- إلى- العسرى} يلائمه تفسيراً وتذكيراً بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق قوله: {فألهمها فجورها وتقواها} [الشمس: 8] فهو سبحانه الملهم للإعطاء والاتقاء والتصدق، والمقدر للبخل والاستغناء والتكذيب {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: 96] {لا يسئل عما يفعل} [الأنبياء: 23] ثم زاد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى «إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى} فتباً للقدرية والمعتزلة {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} [يوسف: 105]- انتهى.

ولما طابق بين القسم والمقسم عليه، ونبه بالقسم والتأكيد مع ظهور المسقم عليه على أنهم في أمنهم مع التحذير كمن يدعي أنه لا فرق وأن مآل الكل واحد كما يقوله أصحاب الوحدة- عليهم الخزي واللعنة شرع في بيان تشتتت المساعي وبيان الجزاء لها، فقال مسبباً عن اختلافهم ما هو مركوز في الطباع من أنه لا يجوز تسوية المحسن بالمسيء ناشراً لمن زكى نفسه أو

دساها نشراً مستوياً إيذاناً بأن المطيع فيه هذه الأمة- ولله الحمد- كثير بشارة لنبيها صلى الله عليه وسلم: {فأما من أعطى} أي وقع منه إعطاء على ما حددنا له وأمرناه به {واتقى *} أي وقعت منه التقوى وهو اتخاذ الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصي خوفاً من سطواتنا {وصدق} أي أوقع التصديق للمخبر {بالحسنى *} أي وهي كلمة العدل التي هي أحسن الكلام من التوحيد وما يتفرع عنه من الوعود الصادقة بالآخرة والإخلاف في النفقة في الدنيا وإظهار الدين وإن قل أهله على الدين كله، وغير ذلك من كل ما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم سبحانه وتعالى، وعدل الكلام إلى مظهر العظمة إشارة إلى صعوبة الطاعة على النفس وإن كانت في غاية اليسر في نفسها لأنها في غاية الثقل على النفس فقال: {فسنيسره} أي نهيئه بما لنا من العظمة بوعد لا خلف فيه {لليسرى *} أي الخصلة التي هي في غاية اليسر والراحة من الرحمة المقتضية للعمل بما يرضيه سبحانه وتعالى ليصل إلى ما يرضى به من الحياة الطيبة ودخول الجنة.

ولما ذكر المزكي وثمرته، أتبعه المدسي وشقوته فقال: {وأما من بخل} أي أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب إليه {واستغنى} أي طلب الغنى عن الناس وعما وعد به من الثواب وأوجده بما زعمت له نفسه الخائبة وظنونه الكاذبة. فلم يحسن إلى الناس ولا عمل للعقبى: {وكذب} أي أوقع التكذيب أن يستحق التصديق {بالحسنى *} أي فأنكرها، ولما كان جامداً مع المحسوسات كالبهائم قال: {فسنيسره} أي نهيئه بما لنا من العظمة وعد لا خلف فيه {للعسرى *} أي للخصلة التي هي أعسر الأشياء وأنكدها، وهي

العمل بما يغضبه سبحانه الموجب لدخول النار وما أدى إليه، وأشار بنون العظمة في كل من نجد الخير ونجد الشـــر إلى أن ارتكاب الإنســـان لكل منهما في غاية البعد، أما نجد الخير فلما حفه من المكاره، وأما نجد الشـــر فلما في العقل والفطرة الأولى من الزواجر عنه، وذلك كله أمر قد فرغ منه في الأزل بتعيين أهل السعادة وأهل الشقاوة «وكل كما قال صلى الله عليه وسلم- ميسر لما خلق له».

▲ تفسير الآيات رقم [11- 21]

{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)}

ولما كان أهل الدنيا إذا وقعوا في ورطة تخلصـــوا منها بأموالهم قال: {وما يغني} أي في تلك الحالة {عنه} أي هذا الذي بخل وكذب {ماله} أي الذي بخل به رجاء نفعه، ويجوز أن يكون اســـتفهاماً إنكارياً فيكون نافياً للإغناء على أبلغ وجه {إذا تردّى *} أي هلك بالسقوط في حفرة القبر والنار، تفعّل من الردى وهو الهلاك والسقوط في بئر.

ولما كان ربما قال المتعنت الجاهل بما له سبحانه وتعالى من العظمة التي لا اعتراض لأحد عليها: ما له لا ييسر الكل للحسنى، استأنف جوابه مبيناً من ألزم به نفســه من المصـــالح تفضـــلاً منه بما له من اللطف والكرم وما

يفعله مما هو له من غير نظر إلى ذلك بما له من الجبروت والكبر، فقال مؤكداً تنبيهاً على أنه يحب العلم بأنه لا حق لأحد عليه أصـلاً: {إن علينا} أي على ما لنا من العظمة {للهدى *} أي البيان للطريق الحق وإقامة الأدلة الواضحة على ذلك.

ولما بين ما ألزمه نفســه المقدس فصــار كأنه عليه لتحتم وقوعه فكان ربما أوهم أنه يلزمه شــيء، أتبعه ما ينفيه ويفيد أن له غاية التصـرف فلا يعسـر عليه شــيء أراده فقال: {وإن لنا} أي يا أيها المنكرون خاصـاً بنا، وقدم ما العناية به أشد لأجل إنكارهم لا للفاصـلة، فإنه يفيدها مثلاً أن يقال: للعاجلة والأخرى، فقال: {للآخرة والأولى *} فمن ترك ما بينا له من طريق الهداية لم يخرج عن كونه لنا ولم يضـر إلا نفســه ولنا التصـرف التام، بما نقيم من الأســباب المقربة للشــيء جداً، ثم بما نقيم من الموانع الموجبة لبعده غاية البعد، فنعطي من نشاء ما نشاء ونمنع من نشاء ما نشاء، ومن طلب منهما شيئاً من غيرنا فال رأيه وخاب سعيه، وليس التقديم لأجل الفاصلة، فقد ثبت بطلان هذا وأنه لا يحل اعتقاده في غير موضــع، منها آخر ســورة براءة، وأنه لا فرق بين أن يعتقد أن فيه شيئاً موزوناً بقصد الوزن فقط ليكون شعراً، وأن يعتقد أن فيه شـيئاً قدم أو أخر لأجل الفاصـلة فقط ليكون سـجعاً، على أنه لو كان هذا لأجل الفاصلة فقط لكان يمكن أن يقال: للأولى- أو للأولة- والأخرى مثلاً.

ولما أخبر سـبحانه وتعالى أنه ألزم نفســه المقدس البيان، وأن له كل شــيء، المستلزم لإحاطة العلم وشمول القدرة، شرح ذلك بما سبب عنه من قوله لافتاً

القول إلى تجريد الضـــمير من مظهر العظمة للترقق بالمخاطبين في تبعيد الوهم وتقريب الفهم فقال: {فأنذرتكم} أي حذرتكم أيها المخالفون للطريق الذي بينته {ناراً تلظّى *} أي تتقد وتتلهب تلهباً هو في غاية الشدة من غير كلفة فيه على موقدها أصلاً ولا أحد من خزنتها- بما أشار إليه إسقاط التاء، وفي الإدغام أيضـاً إشـارة إلى أن أدنى نار الآخرة كذلك، فيصـير إنذار ما يتلظى وما فوق ذلك من باب الأولى.

ولما كان قد تقدم غير مرة تخصيص كل من المحسن والمسيء بداره بطريق الحصر إنكاراً لأن يسوى محسن بمسيء في شيء، وكان الحصر ب «لا» و«إلا» أصـرح أنواعه قال: {لا يصـلاها} أي يقاسـي حرها وشـدتها على طريق اللزوم والانغماس {إلا الأشقى *} أي الذي هو في الذروة من الشقاوة وهو الكافر، فإن الفاســق وإن دخلها لا يكون ذلك له على طريق اللزوم، ولذلك وصفه بقوله تعالى: {الذي كذب} أي أفسد قوته العلمية بأن أعرض عن الحق تكبراً وعناداً فلم يؤت ماله لزكاة نفســه {وســيجنبها} أي النار الموصــوفة بوعد لا خلف فيه عن قرب- بما أفهمته الســين من التأكيد مع التنفيس، وتجنيبه له في غاية الســهولة- بما أفهمه البناء للمفعول {الأتقى *} أي الذي أســس قوته العلمية أمكن تأســيس، فكان في الذروة من رتبة التقوى وهو الذي اتقى الشــرك والمعاصــي، وهو يفهم أن من لم يكن في الذروة لا يكون كذلك، فإن الفاسق يدخلها ثم يخرج منها، ولا ينافي الحصـر السابق.

ولما ذكر ما يتعلق بالقوة العلمية، أتبعه ما ينظر إلى القوة العملية فقال: {الذي يؤتي ماله} أي يصرفه في مصارف الخير، ولذلك بينه بقوله تعالى: {يتزكّى *} أي يتطهر من الأوضار والأدناس بتطهيره لنفسه وتنميتها بذلك الإيتاء بالبعد عن مساوئ الأخلاق ولزوم محاسنها لأنه ما كذب وما تولى، والآية من الاحتباك: ذكر التكذيب أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً، وإيتاء المال ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً.

ولما كان الإنسان قد يعطي ليزكي نفسه بدفع مانّه ومكافأة نعمه قال: {وما} أي والحال أنه ما {لأحد عنده} وأعرق في النفي فقال: {من نعمة تجزى *} أي هي مما يحق جزاؤه لأجلها. ولما نفى أن يكون بذلك قصد مكافأة، قال مبيناً قصده باستثناء منقطع: {إلا} أي لكن قصد بذلك {ابتغاء} أي طلب وقصد، ولفت القول إلى صفة الإحسان إشارة إلى وصفه بالشكر فقال: {وجه ربه} الذي أوجده ورباه وأحسن إليه بحيث إنه لم ير إحساناً إلا منه ولا عنده شيء إلا وهو من فضله {الأعلى *} أي مطلقاً فهو أعلى من كل شيء، فلا يمكن أن يعطي أحد من نفسه شيئاً يقع مكافأة له، وعبر عن المنقطع بأداة المتصل للإشارة إلى أن الابتغاء المذكور كأنه نعمة ممن آتاه المال لأن الابتغاء- وهو تطلب رضا الله- كان السبب في ذلك الإيتاء بغاية الترغيب، وقد آل الأمر بهذه العبارة الرشيقة والإشارة الأنيقة مع ما أومأت إليه من الترغيب، وأعطته من التحبيب إلى أن المعنى: إنه لا نعمى عليه لأحد في ذلك إلا الله، وعبر بالوجه إشارة إلى أن قصده أعلى القصود فلا نظر له إلا إلى ذاته سبحانه وتعالى التي عبر عنها بالوجه لأنه أشرف

الذات، وبالنظر إليه تحصل الحياة والرغبة والرهبة، لا إلى طلب شيء من دنيا ولا آخرة.

ولما كان هذا مقاماً ليس فوقه مقام، قال تعالى بعد وعده من الإنجاء من النار: {ولسوف يرضى *} أي بإعطاء الجنة العليا والمزيد بوعد لا خلف فيه بعد المذلة في الحياة الطيبة- بما أشارت إليه أداة التنفيس ولا بدع أن يكون هذا الوعد على هذا الوجه الأعلى لأن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً رضي الله عنه في جماعة من الضعفاء المسلمين يؤذيهم المشركون فأعتقهم، فبين تعالى أنه مطبوع على تزكية نفسه فهو المفلح كما ذكر في سورة الشمس، وأنه مخلص لإعطائه الضعفاء من الأيتام والمساكين وإعتاقه الضعفاء في كل حال كما ذكر في سورة البلد، نقل البغوي رضي الله تعالى عنه عن الزبير يعني ابن بكار أنه قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يبتاع الضعفاء فيعتقهم فقال له أبوه: أي بني! لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك، قال: منع ظهري أريد. وقال: إنه أعتق بلالاً وأم عميس وزهرة فأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان، فرد الله عليها بصرها، وأعتق النهدية وابنتها وجارية بني المؤمل.

وقال: إنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف استنقاذاً له مما كان فيه من العذاب حين كان يشد يديه ورجليه وقت الهاجرة ويلقيه عرياناً على الرمضاء ويضربه، وكلما ضربه صاح ونادى: أحد أحد، فيزيده ضرباً فاشتراه بعبد كان لأبي بكر رضي الله عنه، كان ذلك العبد صاحب عشرة الآف دينار

وغلمان وجوار ومواش وكان مشركاً، فلما اشتراه به وأعتقه قال المشركون: ما فعل هذا ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده، يعني فأنزل الله ذلك تكذيباً لهم. ومن أبدع الأشياء تعقيبها بالضحى التي هي في النبي صلى الله عليه وسلم وفيها {ولسوف يعطيك ربك فترضى} [الضحى: 5] إشارة إلى أنه أقرب أمته إلى مقامه صلى الله عليه وسلم ما عدا عيسى صلى الله عليه وسلم لأنه الأتقى بعد النبيين مطلقاً، وإلى أن خلافته حق لا مرية فيه لأنه مما وعد النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرضيه وأنه لا يرضيه غيره كما أنه أرضاه خلافته له في الصلاة ولم يرضه غيره حين نهى عن ذلك بل زجر لما سمع قراءة غيره وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضي الله عنه» وقد رجع آخرها على أولها بأن سعي هذا الصديق رضي الله عنه مباين أتم مباينة سعي ذلك الأشقى، وقال بعضهم: إن المراد بذلك الأشقى أبو جهل، وأيضاً فإن هذا الختم دال على أن من صفى نفسه وزكاها بالتجلي بالنور المعنوي من إنارة ظلام الليل بما يجليه به من ضياء القيام وغير ذلك من أنواع الخير يرضى بالنور الحسي بعد الموت- والله الموفق للصواب.

93 Dhuhaa Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة الضحى

93

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)}

ولما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أتقى الخلق مطلقاً، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً ابتلاء لمن شاء من عباده، وكان به صلى الله عليه وسلم صلاح الدين والدنيا والآخرة، وكان الملوان سبب صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم، أقسم سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق دنيا وأخرى، فقال مقدماً ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر رضي الله عنه قصداً أولياً من النور الذي يملأ الأقطار، ويمحو كل ظلام يرد عليه ويصل إليه، مفهماً بما ذكر من وقت

الضـياء الناصـع حالة أول النهار وآخر الليل التي هي ظلمة ملتف بسـاقها ساق النهار عند الإسفار: {والضحى *} فذكر ما هو أشرف النهار وألطفه وهو زهرته، وأضـوأه وهو صـدره، وذلك وقت ارتفاع الشـمس لأن المقسـم لأجله أشرف الخلائق، وذلك يدل على أنه يبلغ من الشرف ما لا يبلغه أحد من الخلق.

ولما ذكر النهار بأشـرف ما فيه مناسـبة لأجل المقسـم لأجله، أتبعه الليل مقيداً له بما يفهم إخلاصـه لأنه ليس لأشـرف ما فيه اسـم يخصـه فقال: {والّيل} أي الذي به تمام الصـلاة؛ ولما كان أوله وآخر النهار وآخره وأول النهار ضـوءاً ممتزجاً بظلمة لالتفات سـاق الليل بسـاق النهار، قيد بالظلام الخالص فقال: {إذا سجى *} أي سكن أهله أو ركد ظلامه وإلباسه وسواده واعتدل فخلص فغطى بظلامه كل شـيء، والمتسـجي: المتغطي، ومع تغطيته سكنت ريحه، فكان في غاية الحسن، ويمكن أن يكون الأول مشيراً إلى ما يأتي به هذا الرسول صلى الله عليه وسلم من المحكم، والثاني مشيراً إلى المتشـابه، وهذا الأربعة الأحوال للنور والظلمة- وهي ضـوء ممتزج بظلمة، وظلمة ممتزجة بضـوء، وضـياء خالص وظلام خالص- الحاصـلة في الآفاق في الإنسان مثلها، فروحه نور خالص، وطبعه ظلام حالك، وقلبه نور ممتزج بظلمـة النفس، والنفس ظلمـة ممتزجـة بنور القلـب، فـإن قويت شـهوة النفس على نورانية القلب أظلم جميعه، وإن قويت نورانية القلب على ظلمة النفس صـار نورانياً، وإن غلبت الروح على الطبع تروحن فارتفع عن

رتبة الملائكة، وإن غلب الطبع على الروح أنزله عن رتبة البهائم كما قال تعالى: {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} [الأعراف: 179].

ولما أقسم بهذا القسم المناسب لحاله صلى الله عليه وسلم، أجابه بقوله تعالى: {ما ودعك} أي تركك تركاً يحصل به فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذي هو مراد المودع {ربك} أي الذي أحسن إليك بإيجادك أولاً، وجعلك أكمل الخلق ثانياً، ورباك أحسن تربية ثالثاً، كما أنه لا يمكن توديع الليل للنهار بل الضحى للنهار الذي هو أشد ضيائه، ولا يمكن توديع الضحى للنهار ولا الليل وقت سجوه له.

ولما كان ربما تعنت متعنت فقال: ما تركه ولكنه لا يحبه، فكم من مواصل وليس بواصل، قال نافياً لكل ترك: {وما قلى *} أي وما أبغضك بغضاً ما، وحذف الضمير اختصاراً لفظياً ليعم، فهو من تقليل اللفظ لتكثير المعنى، وذلك لأنه كان انقطاع عنه الوحي مدة لأنهم سألوه عن الروح وقصة أهل الكهف وذي القرنين فقال: «أخبركم بذلك غداً»، ولم يستثن، فقالوا: قد ودعه ربه وقلاه، فنزلت لذلك، ولما نزلت كبر صلى الله عليه وسلم فكان التكبير فيها وفيما بعدها سنة كما يأتي إيضاحه وحكمته آخرها، وقد أفهمت هذه العبارة أن المراتب التقريبية أربع: تقريب بالطاعات ومحبة وهي للمؤمنين، وإبعاد بالمعاصي وبغض وهي للكفار، وتقريب بالطاعات مخلوط بتبعيد للمعاصي وهي لعصاة المؤمنين، وإعراض مخلوط بتقريب بصور طاعات لا قبول لها وهي لعباد الكفار.

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: {فألهمها فجورها وتقواها} [الشمس: 8] ثم أتبعه بقوله في الليل: {فسنيسره} [الليل: 7– 13] وبقوله: {إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى} [الليل: 7– 13]، فلزم الخوف واشـــتد الفزع وتعين على الموحد الإذعان للتســـليم والتضـــرع في التخلص والتجاؤه إلى الســـميع العليم، أنس تعالى أحب عباده إليه وأعظمهم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له فقال تعالى: {والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى} ثم عدد تعالى عليه نعمه بعد وعده الكريم له بقوله: {ولســوف يعطيك ربك فترضــى} وأعقب ذلك بقوله: {فأما اليتيم فلا تقهر وأما السـائل فلا تنهر} فقد آويتك قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض وانتهار من ســأل، وقد حاشــاه ســبحانه عما نهاه عنه ولكنه تذكير بالنعم وليستوضح الطريق من وفق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أما هو صــلى الله عليه وسـلم فحسبك من تعرف رحمته ورفقه {وكان بالمؤمنين رحيماً} [الأحزاب: 43] {عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم} [التوبة: 128] ثم تأمل اســتفتاح هذه الســورة ومناســبة ذلك المقصود ولذلك السورة قبلها برفع القسم في الأولى بقوله: {والليل إذا يغشى} [الليل: 1] تنبيهاً على إبهام الأمر في الســـلوك على المكلفين وغيبة حكم العواقب، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات وما يلحقه من الخوف مما أمره غائب عنه من تيسيره ومصيره واستعصامه به يحصل اليقين واستصغار درجات المتقين، ثم لما لم يكن هذا غائباً بالجملة عن آحاد المكلفين أعني

ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهل للترقي في درجات المتقين، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده- بملازمته التقوى والاعتبار- على واضحة السبيل ويريهم مشاهدة وعياناً ما قد انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر في الدليل، قال صلى الله عليه وسلم لحارثة:

»وجدت فالزم» وقال مثله للصديق، وقال تعالى: {لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} [يونس: 64] {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة} [فصلت: 30] فلم يبق في حق هؤلاء ذلك الإبهام، ولا كدر خواطرهم بتكاثف ذلك الإظلام، بما منحهم سبحانه وتعالى من نعمة الإحسان بما وعدهم في قوله: {يجعل لكم فرقاناً} [الأنفال: 29] و{يجعل لكم نوراً تمشون به} [الحديد: 28] {أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} [الأنعام: 122] فعمل هؤلاء على بصيرة، واستولوا اجتهاداً بتوفيق ربهم على أعمال جليلة خطيرة، فقطعوا عن الدنيا الآمال، وتأهبوا لآخرتهم بأوضح الأعمال {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} [السجدة: 16] {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: 17] فلابتداء الأمر وشدة الإبهام والإظلام أشار قوله سبحانه وتعالى: {والليل إذا يغشى} ولما يؤول إليه الحال في حق من كتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه أشار قوله سبحانه وتعالى: {والنهار إذا تجلى} ولانحصار السبل وإن تشعبت في طريقي {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} [التغابن: 2] {فريق في الجنة وفريق في السعير}

[الشورى: 7] أشار قوله سبحانه وتعالى: {وما خلق الذكر والأنثى} [الليل: 3] {ومن كل شيء خلقنا زوجين} [الذاريات: 49] {ففروا إلى الله} [الذاريات: 50] الواحد مطلقاً، فقد وضح لك إن شاء الله بعض ما يسر من تخصيص هذا القسم– والله أعلم، أما سورة الضحى فلا إشكال في مناسبة في استفتاح القسم بالضحى لما يسره به سبحانه لا سيما إذا اعتبر ما ذكر من سبب نزول السورة، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار : قلى محمداً ربه، فنزلت السورة مشعرة عن هذه النعمة والبشارة– انتهى.

ولما ذكر حاله في الدنيا بأنه لا يزال يواصله بالوحي والكرامة، ومنه ما هو مفتوح على أمته من بعده روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أريت ما هو مفتوح على أمتي من بعدي كَفراً كَفراً فسرني ذلك» فلما كان ذلك وكان ذكره على وجه شمل الدارين صرح بالآخرة التي هي أعلى وأجل، ولأدنى من يدخلها فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فكيف بما له صلىالله عليه وسلم، فقال مؤكداً لذلك كما أكد الأول بالقسم بما لهم فيه من الإنكار: {وللآخرة} أي التي هي المقصود من الوجود بالذات لأنها باقية خالصة عن شوائب الكدر أو الحالة المتأخرة لك ليفهم منه أنه لا يزال في ترق من عليّ إلى أعلى منه وكامل إلى أكمل منه دائماً أبداً لا إلى نهاية {خير} وقيد بقوله: {لك} لأنه ليس كل أحد كذلك {من الأولى *} أي الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص كما أن النهار الذي هو بعد الليل خير منه وأشرف ولا

سيما الضحى منه، وقد أفهم ذلك أن الناس على أربعة أقسام: منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء، ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر الآخرة وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء، قد قال:

الناس في الدنيا على أربع *** والنفس في فكرتهم حائره

فواحد دنياه مقبوضة *** إن له من بعدها آخره

وواحد دنياه مبسوطة *** ليس له من بعدها آخره

وواحد قد حاز حظيهما *** سعيد في الدنيا وفي الآخره

وواحد يسقط من بينهم *** فذلك لا دنيا ولا آخره

ولما ذكر سبحانه الدنيا والآخرة، ذكر ما يشملهما مما زاده من فضله، فقال مصدراً بحرف الابتداء تأكيداً للكلام لأنهم ينكرونه وليست للقسم لأنها إذا دخلت على المضارع لزمته النون المؤكدة، وضم هذه اللام إلى كلمة التنفيس للدلالة على أن العطاء وإن تأخر وقته لحكمة كائن لا محالة: {ولسوف يعطيك} أي بوعد لا خلف فيه وإن تأخر وقته بما أفهمته الأداة {ربك} أي الذي لم يزل يحسن إليك بوعد الدنيا ووعد الآخرة {فترضى *} أي فيتعقب على ذلك ويتسبب عنه رضاك. وهذا شامل لما منحه بعد كمال النفس من كمال العلم وظهور الأمر وإعلاء الدين وفتح البلاد ودينونة العباد ونقص ممالك الجبابرة، وإنهاب كنوز الأكاسرة والقياصرة، وإحلال الغنائم حتى كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وشامل لما ادخره له سبحانه

وتعالى في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود، والشـفاعة العظمى إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت الحدود، وقد أفهمت العبارة أن الناس أربعة أقســـام: معطى راض، وممنوع غير راض، ومعطى غير راض، وممنوع راض، وعن علي رضــي الله عنه أنها أرجى آية في القرآن لأنه صــلى الله عليه وسلم لا يرضى واحداً من أمته في النار.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 11]

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَـالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّـائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)}

ولما وعده بأنه لا يزال في كل لحظة يرقيه في مراقي العلا والشــرف، ذكره بما رقاه به قبل ذلك من حين توفي أبوه وهو حمل وماتت أمه وهو ابن ثمان ســنين، فتم يتمه من الأبوين قبل بلوغه لئلا يكون عليه- كما قال جعفر الصـادق- حق لمخلوق، فقال مقرراً له: {ألم يجدك} أي يصـادفك أي يفعل بك فعل من صـادف آخر حال كونه {يتيماً فآوى *} ولما كان يلزم من اليتم في الغالب عدم العلم لليتيم لتهاون الكافل، ومن عدم العلم الضــلال، قال مبيناً أن يتمه وإهماله من الحمل على دينهم كان نعمة عظيمة عليه لأنه لم يكن على دين قومه في حين من الأحيان أصــلاً: {ووجدك} أي صــادفك {ضالاً} أي لا تعلم الشرائع {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} [الشورى: 52] فأطلق اللازم وهو الضـلال على الملزوم، والمسبب على السبب، وهو عدم العلم، فكنت لأجل ذلك لا تقدم على فعل من الأفعال لأنك لا تعلم

الحكم فيه إلا ما علمت بالعقل الصـحيح والفطرة السـليمة المسـتقيمة من التوحيد وبعض توابعه، وهذا هو التقوى كما تقدم في الفاتحة، ولم يرد به حقيقته وإنما أعراه من التعلق بشـيء من الشـرائع ونحوها بإعدام من يحمله على ذلك ليفرغه ذلك التأمل بنفسه فيوصله بعقله السديد إلى الاعتقاد الحق في الأصـول والوقوف في الفروع {فهدى *} أي فهداك هدى محيطاً بكل علم، فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر ما لم تكن تعلم.

ولما كان العيال يمنعون من التفرغ لعلم أو غيره قال: {ووجدك} أي حال كونك {عائلاً} أي ذا عيال لا تقدر على التوسـعة عليهم أو فقيراً، قال ابن القطاع: عال الرجل: افتقر، وأعال: كثر عياله. {فأغنى *} بما جعل لك من ربح التجارة ثم من كسـب الغنائم وقد أفهم ذلك أن الناس أربعة أقسـام: منهم من وجد الدين والدنيا، ومنهم من عدمهما، ومنهم من وجد الدين لا وجد الدنيا، ومنهم من وجد الدنيا لا الدين. ولما ذكره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصـاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها، فقال مسـبباً عنه مقدماً معمول ما بعد الفاء عليها اهتماماً: {فأما اليتيم} أي هذا النوع {فلا تقهر *} أي تغلبه على شيء فإنما أذقتك اليتم تأديباً بأحسن الآداب لتعرف ضعف اليتيم وذله، وفوق ذلك كفالته وهي خلافة عن الله لأن اليتيم لا كافل له إلا الله، ولهذا قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: «أنا وكافل اليتيم كهاتين»– وأشار بالسبابة والوسطى.

ولما بدأ بما كان بداية له، ثنى بما هو نهاية له من حيث كونه يصـير رأس الخلق فيصـير محط الرجال في كل سـؤال من علم ومال، فقال مقدماً له

اهتماماً به إشارة إلى أنه جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدين: {وأما السائل} أي الذي أحوجته العيلة أو غيرها إلى السؤال {فلا تنهر *} أي تزجر زجراً مهيناً، فقد علمت مضاضة العيلة، بل أعطه ولو قليلاً، أو رده رداً جميلاً، وكذا السائل في العلم.

ولما ذكر له تفصيل ما يفعل في اليتيم والفقير والجاهل، أمره بما يفعل في العلم الذي آتاه إياه إعلاماً بأنه الآلة التي يستعملها في الأمرين الماضيين وغيرهما لأنها أشرف أحوال الإنسان وهي أوفق الأمور لأن يكون مقطع السورة لتوافق مطلعها فقال: {وأما بنعمة ربك} أي الذي أحسن إليك بإصلاح جميع ما يهمك من العلم وغيره وبالهجرة ومبادئها عند تمام عدد آيها من السين وهي إحدى عشرة {فحدث *} أي فاذكر النبوة وبلغ الرسالة فاذكر جميع نعمه عليك فإنها نعم على الخلق كافة، ومنها إنقاذك بالهجرة من أيدي الكفرة وإعزازك بالأنصار، وتحديثك بها شكرها، فإنك مرشد يحتاج الناس إلى الاقتداء بك، ويجب عليهم أن يعرفوا لك ذلك ويتعرفوا مقدارك ليؤدوا حقك، فحدثهم أني ما ودعتك ولا قليتك، ومن قال ذلك فقد خاب وافترى، واشرح لهم تفاصيل ذلك بما وهبتك من العلم الذي هو أضوأ من ضياء الضحى وقد رجع آخرها على أولها بالتحديث بهذا القسم والمقسم لأجله، وما للملك الأعلى في ذلك من عميم فضله: ولقد امتثل صلى الله عليه وسلم وابتدأ هذا التحديث الذي يشرح الصدور، ويملأ الأكوان من السرور، والنعمة والحبور، لأنه بأكبر النعم المزيلة لكل النقم بالتكبير كما ورد في قراءة ابن كثير وفي رواية السوسي عن أبي عمرو، واختلف القراء

في ابتدائه وانتهائه ولفظه، فقال بعضـــــهم : هو من أول الضـــــحى، وقال آخرون : من آخرها، وقال غيرهم من أول الشـــرح، فمن قال للأول لم يكبر آخر الناس، ومن قال للآخر انتهى تكبيره بالتكبير في آخرها، وســـببه أن جبريل عليه الصـلاة والسـلام لما أتى النبي صـلى الله عليه وسـلم بعد فترة الوحي، فتلا الســورة عليه كبر مســروراً لما كان أحزنه من الفترة ومن قول المشــركين : قلاه ربه، وتحديثاً بالنعم التي حباه الله بها في هذه الســورة له ولأمته امتثالاً لما أمر به واختلف عنهم في لفظه، فمنهم من اقتصـــر على «الله أكبر» ومنهم من زاد التهليل فقال: «لا إله إلا الله والله أكبر» وهذا هو المســـتعمل، ومنهم من زاد «ولله الحمد» والراجح قول من قال : إنه لآخر الضـحى إسـناداً ومعنى، لأنها وإن كانت هي السـبب والعادة جارية بأن من دهمه أمر عظيم يكبر مع أوله، لكن شـغله صـلى الله عليه وسـلم بالإصـغاء إلى ما يوحى إليه منعه من ذلك، فلما ختمت الســـورة تفرغ له، فكان ذلك الوقت كأنـه ابتداء مفاجأة ذلك الأمر العظيم لـه، وزاد ما في الســـورة من جلائل النعم المقتضـــية للتحميد وما في ذلك من بدائع الصـــنع الموجب للتهليل، وقد علم بذلك سـبب من ظنه في أولها، وأما من ظنه لأول الشـرح فكونه كان في آخر الضـــحى، فإذا وصـــل بها «ألم نشـــرح» ألبس الحال، وتعليق الأشـياء بالأوائل هو الأمر المعتاد، وحكمته مع ما مضـى من سببه أن التهليل توحيده سـبحانه وتعالى بالأمر، وامتناع شـريك يمنعه من شـيء يريده من الوحي وغيره، والتكبير تفريده له بالكبرياء تنزيهاً له عن شـــوب نقص يلم به من أن يتجدد له علم ما لم يكن ليكون ذلك ســـبباً لقطع من

وصـله بوحي أو غيره، والتحميد إثبات التفرد بالكمال له على إسـباغ نعمه، وفي ذلك أن هذه السـورة آذنت بأن القرآن أشـرف على الختام، لأن عادة الحكماء من المدبرين تخفيف المنازل في الأواخر على السـائرين كتخفيف أول مرحلة رفقاً بالمقصـرين، فناسـب الذكر بهذا عند الآخر لأن تذكر الانقضـاء يهيج مثل ذلك عند السـالك، ولأن تقصـير السـور ربما أوهم شـيئاً مما لا يليق، فسـن التنزيه بتكبيره سـبحانه وتعالى عن كل ما يوهم نقصـاً، وإثبات الكمال له بالتوحيد منبه على الحث على تدبر ما في هذه السورة من الجمع للمعاني على وجازتها وقصـر آياتها وحلاوتها مع ما في ذلك من تخفيف التعليم، والتدريـب على الحفظ في المبـادئ والتحبيب فيـه والتهييم، والتحميد على إتمام النعمة على غاية الإحكام من لدن حكيم عليم.

94 Inshiraah Sharh Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة الشرح

94

▲ تفسير الآيات رقم [1– 8]

{أَلَمْ نَشْـرَحْ لَكَ صَـدْرَكَ (1) وَوَضَـعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)}

ولما أمره صـلى الله عليه وسـلم آخر الضـحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه فصـلها في هذه السـورة فقال مثبتاً لها في اسـتفهام إنكاري مبالغة في إثباتها عند من ينكرها والتقرير بها مقدماً المنة بالشـــرح في صـــورته قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل ذلك في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح، لتكون البشـــارة بالإكرام أولاً لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشـــرح. {ألم نشرح} أي شرحاً يليق بعظمتنا {لك} أي خاصة.

ولما عين المشروح له، فكان المشروح مبهماً، فزاد تشوف النفس إليه ليكون أضـــخم له، بينه ليكون بياناً بعد إبهام فيكون أعظم في التنويه به وأجل في التعريف بأمره فقال: {صـدرك *} أي نسره ونفرحه بالهجرة، فإن هذه السورة مدنية عند ابن عباس رضـــــي الله عنهما، ونجله ونعظمه ونخرج منه قلبك ونشـقه ونغسـله ونملأه إيماناً وحكمة ورأفة وعلماً ورحمة، فانفسـح جداً حتى وســـع مناجاة الحق ودعوة الخلق، فكان مع الحق بعظمته وارتفاعه، ومع الخلق بفيض أنواره وشـعاعه، وقد كان هذا الشـرع حقيقة مراراً، وكان مجازاً أيضـــاً بإحلال جميع معانيه، وكل ذلك على ما لا يدخل تحت الوصــف لا يعبر لكم عنه بأثر من أنه شـــق بعظمتنا، فالعلم الذي شـــق به معرفة الله والدار الآخرة والدين والدنيا، والحمة التي درّت فيه هي وضـــع الشـــيء في محلـه، وإعطـاء كل ذي حق حقـه، وقرأ أبو جعفر المنصـــــور بفتح جاء «نشـــرح» وخرجها ابن عطية على التأكيد بالنون الخفيفة ثم أبدل ألف من النون، ثم حذف النون تخفيفاً، وقال أبو حيان بأن اللحياني حكى في نوادره عن بعض العرب النصـــب بلم والجزم بلن، وســـره هنا أن الفتح في اللفظ مناسـب غاية المناسـب للشـرح، ووجه قراءة الجمهور أنه لما دل على الفتح بالشـــرح دل بالجزم على أنه مع ذلك رابط لما أودعه من الحكم ضـــابط له، هاد بما فيه من رزانة العلم، ووقار التقى والحلم، قال ابن برجان : ففرق ما بين النبي والولي في ذلك أن النبي شرح صـدره ظاهراً فأعلى ظاهراً، والولي شــرح ذلك منه باطناً فعلى به باطناً، والكافر ضــيق ذلك منه وأبقى بظلمته وحظوظ الشـيطان منه فهو لا يسـتطيع قبول الهداية ولا الصـعود في معارج

العبرة إلا على مقدار ما يستطيع الصعود في السماء {كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون} [الأنعام: 125].

ولما كانت سعة الصدر بالعلم والحكمة هي الجمال باجتماع المحاسن، وكان ذلك مع حمل ما يعني من أعظم النكد، وكان الجمال بجمع المحاسن لا يكمل إلا إذا جمع إلى الجمال الجلال بانتفاء الرذائل، وكان الاستفهام الإنكاري إذا اجتمع مع النفي صار إثباتاً، لأنه نفي للنفي، قال عاطفاً عليه ما لا يعطف إلا مع الإثبات {ووضعنا} أي حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطاً لا رجعة له ولا فيه بوجه بما لنا من العظمة، مجاوزاً {عنك وزرك *} أي حملك الثقيل الذي لا يستطاع حمله، ولذلك وصفه بقوله: {الذي أنقض ظهرك *} أي جعله وهو عماد بدنك تصوت مفاصله من الثقل كما يصوت الرحل الجديد إذا لز بالحمل الثقيل، وذلك هو ما دهمه عندما أمر بإنذار قومه ومفاجأتهم بما يكرهون عن عيب دينهم وتضليل آبائهم وتسفيه حلومهم في التدين بدين لا يرضاه أدنى العقلاء إذا تأمل شيئاً من تأمل مع التجرد من حظ النفس مع ما عندهم من الأنفة والحمية وإلقاء الأنفس في المهالك لأدنى غضب، فقال:

»يا رب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة« فخفف سبحانه وتعالى عنه ذلك بما أظهر له من الكرامات وأيده به من المعجزات، وضمن له من الحماية إلى أمور لا يحيط بها علماً إلا الذي أيده بها {والله يعصمك من الناس} [المائدة: 67] حتى خف ذلك عليه، فصار أشفق أهله عليه يمنعه من بعض الإبلاغ ويمسك بثوبه لئلا يخرج إلى النار فيقول لهم ذلك فيحصل له ما يكره فيجذب

نفســه منه ويخرج إليهم فيخبرهم كما وقع في أمر الإســراء وغيره، وقال ابن عباس رضــي الله عنهما: هو أن جبريل عليه الصــلاة والســلام شـق صـدره فأخرج منه قلبه فشـرحه وأخرج منه علقة سـوداء فأنقاه وغسـله ثم ملأه علماً وإيماناً وحكمة، يعني فصــار يحتمل ما لا يحتمله غيره، وخف عليه ما يثقل على غيره، ولا شـك أن ذلك وزر لغوي، وهو واضــح، وشـرعي بالمال على تقدير ترك الامتثال اللازم للاستثقال، وقد أعاذه الله من ذلك.

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: معنى هذه السورة من معنى السورة قبلها، وحاصـل السـورتين تعداد نعمه سـبحانه وتعالى عليه، فإن قلت: فلم فصـلت سورة ألم نشرح ولم ينسق ذكر هذه النعم في سورة واحدة، قلت: من المعهود في البشــــر فيمن عدد على ولده أو عبده نعماً أن يذكر له أولاً ما شــــاهد الحصــور عليه منها بسـببه مما يمكن أن يتعلق في بعضــها بأن ذلك وقع جزاء لا ابتداء، فإذا اسـتوفى له ما قصــده من هذا، أتبعه بذكر نعم ابتدائية قد كان ابتداؤه بها قبل وجوده كقول الأب مثلاً لابنه: ألم أختر لأجلك الأم والنفقة حيث اسـتولدتك وأعددت من مصــالحك كذا وكذا، ونظير ما أشـرنا إليه بقوله سبحانه لزكريا عليه الصلاة والسلام {ولم تك شيئاً} [مريم: 9] وقد قدم له {إنا نبشـرك بيحيى} [مريم: 7] والية {إنا نبشـرك بغلام اسمه يحيى} وتوهم اسـتبداد الكسـبية في وجود الولد غير خافية في حق من قصـر نظره ولم يوفق فابتدئ بذكرها ثم أعقب بما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك، وهو قوله: {وقد خلقتك من قبل ولم تك شـيئاً} [مريم: 9] وله نظائر من الكتب وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين– والله أعلم– انتهى.

ولما شـــرفه في نفســـه بالكمال الجامع للجلال إلى الجلال، وكان ذلك لا يصـــفو إلا مع الشـــرف عند الناس قال: {ورفعنا} أي بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة {لك} أي خاصــة رفعة تتلاشــى عندها رفعة غيرك من الخلق كلهم {ذكرك *} عند جميع العالمين العقلاء وغيرهم بالصدق والأمانة والحلم والرزانة ومكارم الأخلاق وطهارة الشيم وانتفاء شوائب النقص حتى ما كانت شــهرتك عند قومك قبل النبوة إلا الأمين، وكانوا يضــربون المثل بشــمائلك الطاهرة، وأوصــافك الزاهرة الباهرة، ثم بالنبوة ثم بالرســالة ثم بالهجرة، وبأن جعلنا اســـمك مقروناً باســـمنا في كلمة التوحيد والإيمان والأذان والإقامة والتشـــهد والخطبة، فلا أذكر إلا وذكرت معي، ومن الكرامة الظفر على أعدائك والكرامة لأوليائك، وجعل رضــاك رضــاي وطاعتك طاعتي، وأمر ملائكتي بالصـــلاة عليك، ومخاطبتي لك بالألقاب العلية والســـمات المعزة المعلية من الرســول والنبي، ونحو ذلك على حســب الأســاليب ومناســبات التراكيب إلى غير ذلك من فضــائل ومناقب وشــمائل لا تضــبط بالوصــف، قال الرازي: ثم جعل لأمته من ذلك أوفر الحظ، قيل: يا رســـول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا ذُكروا ذُكر الله» وفي حديث: «الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله» وقال: «خياركم من تذكر الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويزهدكم في الدنيا عمله» فمنتهى قسمة الثناء أن خلط ذكره بذكره.

ولما ذكر هذه المآثر الشــريفة التي هي الكمال، وكان الكمال لا يصــفو إلا مع مســاعدة الأقدار، فإن الهمم إذا عظمت اتســعت مجالاتها، فإذا حصــل فيها تعطيل حصل فيها نكد حسبه، بين أنه أزال عنه العوائق في عبارة دالة

على أن سبب المنحة بهذه الكمالات هو ما كان صلى الله عليه وسلم فيه من الصبر على الأكدار، وتجرع مرارات الأقدار، فقال مؤكداً ترغيباً في حمل مثل ذلك رجاء في الإثابة بما يليق من هذه المعالي مبالغاً في الحث على تحمله بذكر المعية إشارة إلى تقارب الزمنين بحيث إنهما كانا كالمتلازمين مسبباً عما مضى ذكره من حاله من الضحى: {فإن} أي فعل بك سبحانه هذه الكمالات الكبار بسبب أنه قضى في الأزل قضاء لا مرد له ولا معقب لشيء منه أن {مع العسر} أي هذا النوع خاصة {يسراً *} أي عظيماً جداً يجلب به المصالح ويشرح به ما كان قيده من القرائح، فإن أهل البلاء ما زالوا ينتظرون الرخاء علماً منهم بالفطرة الأولى التي فطر الناس عليها أنه المتفرد بالكمال، وأنه الفاعل بالاختيار لنسمه الكوائن بأضدادها، وقد أجرى سنته القديمة سبحانه وتعالى بأن الفرج مع الكرب، فلما قاسى صلى الله عليه وسلم مما ذكر في الضحى من اليتم الشديد وضلال قومه العرب خاصة كلهم الذين ألهمه الله تعالى مخالفتهم في أصل الدين بتجنب الأوثان، وفي فرعه بالوقوف مع الناس في الحج في عرفة موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومن العيلة ما لم يحمله أحد حتى كان بحيث يمتن سبحانه وتعالى عليه بإنقاذه منه في كتابه القديم وذكره الحكيم، وكان مع تحمل ذلك قائماً بما يحق له من الصبر ويعلو إلى معالي الشكر «فيحمل»- كما قالت الصديقة الكبرى خديجة رضي الله تعالى عنها- «الكَلَّ، ويقري الضيف، ويصل الرحم، ويعين على نوائب الحق».

ثم حمل أعباء النبوة فكان يلقى من قومه من الأذى والكرب والبلاء ما لم يحمله غيره، بشره الله تعالى بأنه ييسر له جميع ذلك ويلين قلوبهم فيظهر دينه على الدين كله، ويغني أصحابه رضي الله عنهم بعد عيلتهم، ويكثرهم بعد قلتهم، ويعزهم بعد ذلتهم، ويصير هؤلاء المخالفون له أعظم الأعضاد، وينقاد له المخالف أتم انقياد، ويفتح له أكثر البلاد، ليكون هذا العطاء في اليسر بحسب ما كان وقع من العسر، فإنه قضى سبحانه وتعالى قضاء لا يرتد أنه يخالف بين الأحوال، دليلاً قاطعاً على أنه تعالى وحده الفعال، وأن فعله بالاختيار، لا بالذات والإجبار.

ولما كان العسر مكروهاً إلى النفوس، وكان لله سبحانه وتعالى فيه حكماً عظيمة، وكانت الحكم لا تتراءى إلا للأفراد من العباد، كرره سبحانه وتعالى على طريق الاستئناف لجواب من يقول: وهل بعده من عسر؟ مؤكداً له ترغيباً في أمره ترقباً لما يتسبب عنه مبشراً بتكريره مع وحدة العسر وإن كان حمل كل واحد منهما على شيء غير ما قصد به الآخر ممكناً فقال: {إن مع العسر} أي المذكور فإنه معرفة، والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت غير الأولى سواء أريد العهد أو الجنس {يسراً *} أي آخر لدفع المضار والمكاره، فإن النكرة إذا أعيدت نكرة احتمل أن تكون غير الأولى، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنها غيرُها» فقال الحسن البصري: إن الآية لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين» وقد روى هذا من أوجه كثيرة، وروى عبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه»

وللطبراني عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية، قال الحافظ نور الدين الهيثمي: وفيه أبو مالك النخعي وهو ضعيف، ورواه الطبراني أيضاً في الأوسط والبزار عن أنس رضي الله عنه بنحوه، قال الهيثمي: وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف، وروى الفراء عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول:

»لن يغلب عسر يسرين» وروى عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن به مرسلاً، ومن طريقه أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من طريق ابن ثور عن معمر، ورواه ابن مردويه من طريق أخرى موصولاً وإسناده ضعيف، وفي الباب عن عمر ذكره مالك في الموطإ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضي الله عنه أنه بلغه أن أبا عبيدة رضي الله عنه حضر بالشام فكتب إليه كتاباً فيه «ولن يغلب عسر يسرين» ومن طريقه رواه الحاكم، قال ذلك شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف، وقال: وهذا أصح طرقه- انتهى، وهذا من جهة أن اليسر نكرة والعسر معرفة، وقد اشتهر أن النكرة إذا أعيدت نكرة فالثاني غير الأول، والمعرفة بالعكس، قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في أول تلويحه في الكلام على المعرفة والنكرة: الكلام فيما إذا أعيد اللفظ الأول إما مع كيفيته من التنكير والتعريف أو بدونها، وحينئذ يكون طريق التعريف هو اللام أو الإضافة ليصح إعادة المعرفة نكرة وبالعكس، وتفصيل ذلك أن المذكور أولاً إما أن

يكون نكرة أو معرفة، وعلى التقديرين إما أن يعاد نكرة أو معرفة فيصـــير أربعة أقسام، وحكمها أن ينظر إلى الثاني، فإن كان نكرة فهو مغاير للأول، وإلا لكان المناســب هو التعريف بناء على كونه معهوداً ســابقاً بالذكر، إن كان معرفة فهو الأول حملاً له على المعهود الذي هو الأصـــل في اللام والإضافة، وذكر في الكشف أنه إذا أعيدت النكرة نكرة فالثاني مغاير للأول وإلا فعينه فإن المعرفة تستغرق الجنس، والنكرة تتناول البعض، فيكون داخلاً في الكل ســـواء قدم أو أخر، وفيه نظر، أما أولاً فلان التعريف لا يلزم أن تكون للاستغراق بل العهد هو الأصل، وعند تقدم المعهود لا يلزم أن تكون النكرة عينه، وأما ثانياً فلان معنى كون الثاني عين الأول أن يكون المراد به هو المراد بالأول، والجزء بالنسبة إلى الكل ليس كذلك، وأما ثالثاً فإن إعادة المعرفة نكرة مع مغايرة الثاني للأول كثير في الكلام، قال الله تعالى: {ثم آتينا موسى الكتاب تماماً} [الأنعام: 154] إلى قوله: {وهذا كتاب أنزلناه} [الأنعام: 155] وقال تعالى: «اهبطوا بعضكم لبعض عدو» [البقرة: 36] وقال تعالى: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} [الأنعام: 165] إلى غير ذلك، وقال غيره: {أيسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء} [النساء: 153] ومنه قول الشاعر:

إذا الناس ناس والزمان زمان *** فإن الثاني لو كان عين الأول لم يكن في الإخبار به فائدة- انتهى.

قال: واعلم أن المراد أن هذا هو الأصـــل عند الإطلاق وخلو المقام عن القرائن وإلا فقد تعاد النكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى: {وهو الذي في

السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: 84] {وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية} [الأنعام: 37] {ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة} [الروم: 54] يعني قوة الشباب، ومنه باب التأكيد اللفظي، وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك} إلى قوله: {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا} [الأنعام: 156] وقال غيره: {فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير} [النساء: 128] المراد بالنكرة خاص وهو الصلح بين الزوجين، وبالمعرفة عام في كل صلح جائز {زدناهم عذاباً فوق العذاب} [النحل: 88] فإن الشيء لا يكون فوق نفسه- انتهى. قال: وقد تعاد المعرفة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب} [المائدة: 48] وقال غيره: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء} [آل عمران: 26] الأول عام والثاني خاص، {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: 60] الأول العمل والثاني الثواب {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس} [المائدة: 45] الأولى القاتلة والثانية المقتولة- انتهى، قال: وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى: {أنما إلهكم إله واحد} [الكهف: 110] ومثله كثير، والمعرفة مثل النكرة في حالتي الإعادة معرفة والإعادة نكرة في أنها إن أعيدت معرفة كان الثاني هو الأول، وإن أعيدت نكرة كان غيره، ثم مثل بالآية التي هنا، وقال: وهذا مبني على أن تنكير {يسراً} للتفخيم وتعريف العسر للعهد، أي العسر الذي أنتم عليه أو الجنس أي الذي يعرفه كل أحد، فيكون اليسر

الثاني مغايراً للأول بخلاف العسر – انتهى. وقال في الكشاف: وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً عن منكر تناول بعضاً غير البعض الأول بغير الإشكال.

ولما علم من هذا أن المواد تكون بحسب الأوراد الشداد لما على الممدود من الشكر، ولما علم للشاكر من الوعد بالمزيد، قال مسبباً عما أعطاه من اليسر بعد ذلك العسر ندباً له إلى الشكر وإعلاماً بأنه لا ينفك عن تحمل أمر في الله: {فإذا فرغت} أي بما آتاك من اليسر يسر من جهادك الذي أنت فيه في وقت المخاطبة بهذا الكلام مما يوجب عسراً في المآل أو الحال، وعقبه العسر في أي موضع كان لا سيما عند دخول الناس في الدين أفواجاً، أو من العبادة الثقيلة العظيمة بسماع الوحي وتحمله، أو من الغرض بالتيسير الذي بشرناك به {فانصب *} أي بالغ في التعب بعبادة أخرى من التسبيح والاستغفار، أو النفل لمن أولاك هذا المعروف {وإلى ربك} أي المحسن إليك بما ذكر في هاتين السورتين خاصة {فارغب *} أي بالسؤال لأنه القادر وحده كما قدر على تربيتك فيما مضى وحده، لأنه المختص بالعظمة، فلا قدرة أصلاً إلا لمن يعطيه ما يريده منها، والرغب شعار العبد دائماً في كل حال أي افعل ذلك {ألم نشرح لك صدرك؟} فقد اتصل هذا الآخر بالأول اتصال المعلول بالعلة، ولاءم ما بعدها بذلك أيضاً بعينه ملاءمة الشمس بالأهلة، وآخر هذه السورة مشير إلى الاجتهاد في العبادة عند الفراغ من جهاد الكفار في جزيرة العرب بعد انقضاء ما يوازي عدد آي هذه السورة من السنين بعد الهجرة، وهي ثمان، رغبة في الأخرى التي هي خير من الأولى،

إشارة إلى قرب الأجل بما أشارت إليه سورة النصر– كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

95 Teen Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنــاســـــب الآيــات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة التين

95

▲ تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)}

ولما كان التين أحسن الفواكه تقويماً فيما ذكروا من فضيلته، وهو مع كونه فاكهة شهية حلوة جداً- غذاء يقيم الصلب وقوت كالبر وسريع الهضم، ودواء كثير النفع يولد دماً صالحاً وينفع الرئة والكلى ويلين الطبع ويحلل البلغم ويزل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال، فكان جامعاً لجميع منافع المتناولات من الغذاء والتفكه والتحلي والتداوي، فهو كامل في مجموع

ما هو فيه من لذة طعمه وكثرة نفعه، وكونه كفاكهة الجنة بلا شـــائبة تعوق عن أكله من صـــنوان يتعب أو نوى يرمى، مع أنه ينتفع به رطباً ويابســـاً، وهو مع ذلك في سـرعة فسـاده وسـوء تغيره أسـفلها رتبة وأردؤها مغبة، فهو كالفطرة الأولى في مبدئه سـهولة وحسـناً وقبولاً لكل من الإصـلاح والتغير، كآخر الهرم عند نهايته في عظيم تغيره بحيث إنه لا ينتفع بشـــيء منه إذا تغير، وغيره من الفواكه إذا فسـد جانب منه بقي آخر فكان في هذا كالقسـم للسـافل من الإنسـان أقسـم الله تعالى به فقال: {والتين} بادئاً به لأن القسـم المشار به إليه أكثر، فالاهتمام به أكبر.

ولما كان الزيتون في عدم فســـاد يطرقه أو تغير يلحقه، وفيه الدســـومة والحرافة والمرارة، وهو إدام ودواء مع تهيئه للنفع بكل حال في أكلـه بعد تزييته والتنوير بدهنه والادهان به لإزالة الشعث وتنعيم البشرة وتقوية العظم وشـد العصـب وغير ذلك من المنافع مع لدنه وما يتبع ذلك من فضـائله الجمة كالمؤمن تلاه به فقال: {والزيتون *} ولما كان مع ذلك مشـاراً بهما إلى مواضـع نباتهما وهي الأرض المقدسـة من جميع بلاد الشـام إيماء إلى من كان بها من الأنبياء والتابعين لهم بإحسان لا سيما إبراهيم عليه الصلاة والســـلام الذي كانت مهاجره فأحياها الله تعالى بعباده وتردد الملائكة إليه بـالوحي ومن بعده أولاده الـذين طهرهـا الله بهم من الشـــرك وأنـارهـا بهم بالتوحيد، وختمهم بعيسـى عليه الصـلاة والسـلام أحد أولي العزم المشـرف بكونه من أمة محمد صـــلى الله عليه وســـلم وعلى نبينا أفضـــل الصـــلاة والســـلام، وكانت الكناية بالشـــجرتين عن البلد المراد به ســـكانه أبلغ من

التصريح بالمراد من أول وهلة، ساقه على هذا المنهج العزيز، ولم يبق ممن لم يسكنها من أشرافهم إلا موسى وهارون وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فأشار إلى الأولين بقوله معبراً بما يدل على أحسن التقويم لأن الطور الجبل ذو النبت من النجم والشجر المثمر وغيره: {وطور} أي جبل المكان المسمى بهذا الاسم.

ولما كان الكلام في التقويم، كان المناسب له صورة جمع السلامة فقال تعالى: {سينين *} أي وما كان بالجبل ذي النبت الحسن الذي كلم الله فيه موسى عليه الصلاة والسلام من لذيذ المناجاة وعجائب المواعدة وحكم الكلام مع أن فيه من الأشجار والأماكن ما يكنّ من الحر والبرد، وفيه لخلوه وحسنه وعلوه جمع الخاطر للمتفرد وطمأنينة النفس للتخلي للعبادة والتحصن مما يخشى لعلوه وصعوبته، وفيه ما يصلح للزرع من غير كلفة، وفيه ما يأكله الناس والدواب مع الماء العذب والفناء الرحب والمنظر الأنيق، وسنين وسيناء- اسم للموضع الذي هذا الجبل به، وأشار سبحانه وتعالى إلى الأخيرين من أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ختاماً للقسم بأكمل المقسم به كما جعل المنزل عليه ذلك الذي هو ختام الرسل أكمل النوع المقسم لأجله ليكون في البدء بما يرد بعد حسن التقويم الى الفساد والختم بما هو أشرف المذكورين بكل اعتبار طباق حاز أعلى الأسرار: {وهذا البلد} أي مكة، صرح هنا بهذين المكانين ترشيحاً لأن المراد بالأولين مواضع نبتهما مع تلك الإشارة اللطيفة بذكر اسميهما إلى مناسبتهما للمقسم من أجله {الأمين *} أي الذي يأمن فيه من حل به من البشر والطير والوحش، فكان

بذلك كالرجل الأمين الذي يأتمنه آخر على نفســه وما يعز عليه فيؤديه إليه ويوقره عليه، وأمانته شـاملة لكل ما يخشـى حتى الفقر والعيلة والجوع وتغير الدين بعد تقرره مع أن به البيت الذي جعله الله هدى للعالمين وقياماً للناس فهو مدار الدين والدنيا، وكان به من الأســرار بالوحي وآثاره ما لم يكن في بلد من البلاد، وذلك إشــارة إلى أنه تعالى كما جعل النبي المبعوث منه في آخر الزمان في أحسـن تقويم جعله في أحسـن تقويم البلدان إذ كان آمنا من غير ملك مرهوب- والناس يتخطفون من حوله، وهو محل الأنس بالناس كما أن الذي قبله محل الأنس بالانفراد، وهو مجمع المرافق ومعدن المنافع ومحل ذوي الوجاهة ديناً ودنيا، ومحل الرفعة والمناصــــب مع ما حازه المكانان من تنزل الكتب السماوية وإشراق الأنوار الإلهية الدينية فيهما، وفي ذلك تخويف لهم بأنهم إن لم يرجعوا عن غيهم أخافه إخافة لم يخفها بلداً من بلاد العرب فيكونون بذلك قد ردوا أســفل ســافلين في البلد، كما ردوا في الأخلاق بالشقاق واللداد.

ولما كان هذا القسـم مع كونه جامعاً لبدائع المصـنوعات التي هي لما ذكر من حكمها دالة على كمال علم خالقها وتمام قدرته جامعاً لأكثر الذين آمنوا، وكان إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام لكونه أباهم مذكراً مرتين بالأرض المقدســة من القدس ومكة، فتوقع أكمل الخلق وأفطنهم المخاطب بهذا الذكر المقسـم عليه علماً منه ببلوغ القسـم إلى غايته واسـتوائه على نهايته، أجيب بقوله تعالى محققاً: {لقد خلقنا} أي قدرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة الباهرة والعزة الغالبة القاهرة {الإنسـان} أي هذا النوع الذي جمع فيه الشـهوة والعقل

وفيه الأنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه، ولهذا قالت الملائكة عليهم الصلاة والسلام
{أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} [البقرة: 30] لأنهم علموا أنه إذا جمع الغضب والشهوة إلى العقل جاءت المنازعة فيتولد الفساد من الشهوة والسفك من الغضب {في أحسن تقويم *} أي كائن منا روحاً وعقلاً أو أعم من ذلك بما جعلنا له من حسن الخلق والخلق بما خص به من انتصاب القامة وحسن الصورة واجتماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات بعد ما شارك فيه غيره من السمع والبصرة والذوق واللمس والشم الجوارح التي هيأته لما خلق له حتى قيل إنه العالم الأصغر كما مضى بسط ذلك في سورة الشمس ثم ميزناه بما أودعناه فيه بما جعلناه عليه من الفطرة الأولى التي لا تبديل لها من الطبع الأول السليم الذي هيأناه به وقويناه بقدرتنا لقبول الحق، وبمثل ما قلته في حمل الآية على الفطرة الأولى قال الأصفهاني في تفسير {كان الناس أمة واحدة} [البقرة: 213] في البقرة، وقال ابن برجان هنا: مفطور على فطرة الإسلام الدين القيم، ثم لما منحناه به من العقل المدرك القويم، فكما جعلنا له شكلاً يميزه عن سائر الحيوان منحناه عقلاً يهديه إلى العروج عن درك النيران إلى درج الجنان بالإيمان والأعمال الصالحة البالغة نهاية الإحسان، بدليل من فيه من الأنبياء الذين أكملهم محمد على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والتابعين له بإحسان الذين ملؤوا الأرض علماً وحكمةً ونوراً، قال البغوي: خلقه سبحانه وتعالى مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعقل والتمييز-

انتهى، والعقل هو المقصود في الحقيقة من الإنسان لأن من أسمائه اللب، ومن المعلوم أن المقصود من كل شيء لبه وهو الشرع كما مضى في آخر النساء، والظاهر أن عقول الناس بحسب الخلق متقاربة وأنها إنما تفاوتت بحسب الجبلة فبعضهم جعل سبحانه وتعالى عنصره وجبلته في غاية الفساد فلا تزال جبلته تردي على عقله فيتناقص إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال، فكل ميسر لما خلق له، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيأه الله له إلى ما ينجيه، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يرديه، لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به أشدهم بلادة في شيء آخر، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر- فاعتبر ذلك، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال- والله الهادي، وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى منزه عن التركيب والصورة لأنه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن لأن كل صفة يشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق كالعالم والأعلم والكريم والأكرم- قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره، وصيغة «أفعل» لا تدل على ما قاله الزنادقة، وإن عزي ذلك إلى بعض الأكابر من قولهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان، لأن الدرجة الواحدة تتفاوت إلى ما لا يدخل تحت حصر كتفاوت أفراد الإنسان في صوره وألوانه، وغير ذلك من أكوانه وبديع شأنه، وقد بينت ذلك في تصنيف مفرد لهذه الكلمة سميته: تهديم الأركان من «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، وأوضحته غاية الإيضاح والبيان، وجرت فيه فتن تصم الآذان، ونصر الله الحق بموافقة الأعيان، وقهر أهل الطغيان، ثم أردفته بكتاب «دلالة البرهان على أن في

الإمكان أبدع مما كان ثم شـفيت الأسـقام، ودمغت الأخصـام، وخسـأت الأوهام، بالقول الفارق بين الصـادق والمنافق، وهو نحو ورقتين في غاية الإبداع في قطع النزاع، ويمكن أن تكون صـيغة أفعل مفيدة بالنسـبة إلى شـيء أراده الله بحيث إن نتفطن له نحن لأن من المجمع عليه عند أهل السنة وصرح به الأشعري وغيره في غير موضع من كتبهم أن الله تعالى لا تتناهى مقدوراته، وممن صرح بما صرح به الأشعري وأكثر في الإمام حجة الإسـلام الغزالي في كتبه الإحياء وغيره ولا سـيما كتابه» تهافت الفلاسـفة «وبين أن هذا من قواعدهم لنفيهم صـفة الإرادة وقولهم بأن فعله بالذات، وبين فسـاد ذلك، وأنه سـبحانه وتعالى قادر على اختراع عالم آخر وثالث متفاوتة بالصـغر والكبر، وعلى كل ممكن، وعرف أن الممكن هو المقدور عليه، وأنه يرجع إلى المقدور عليه أيضـاً ممكن، وعرف الممتنع بانه إثبات الشـيء مع نفيه، وإثبات الأخص مع نفي الأعم، وإثبات الاثنين مع نفي الواحد، وقال: وما لا يرجع إلى ذلك فهو ممكن، فدخل فيه عالم أبدع من هذا العالم– والله الموفق لما يريد.

ولما كان الإنسـان مع هذه المحاسـن قد سـلط الله سـبحانه وتعالى عليه شهوات وهيأ طبعه لرذائل وأخلاق دنيئات، وأهوية وحظوظ للأنفس مميلات، وكان أكثر الخلق بها هالكاً لتتبين قدرة الله سـبحانه وتعالى، لم يسـتثن بل حكم على الجنس كله بها كما حكم عليه بالتقويم، فقال تعالى دالاً بأداة التراخي على أن اعوجاجه بعد ذلك العقل الرصين والذهن الصافي المستنير في غاية البعد لولا القدرة الباهرة والقوة القاسرة القاهرة: {ثم رددناه} أي بما لنا

من القدرة الكاملة والعلم الشــامل، فعطل منافع ما خلقناه له فضــيع نفســه وفوّت أســاب ســعادته ونكســناه نحن في خلقه، فصــار بالأمرين في خلقه وخلقه نفســاً وهوى أو أعم من ذلك بالنكس {أســفل ســافلين *} أي إلى ما تحت رتبة الجمادات المستقذرات، فصار يعمل الأعمال السيئات المقتضية بعد حسن الجمع لغاية الشتات، أما رده في خلقه فبأن سلطنا عليه الشهوات التي ركبناها في النفوس، وجعلناها داعية إلى كل بؤس، فغلبت على عقله فأعمتـه حتى أوردتـه الموارد، وأوقعتـه في المهـاوي والمعـاطـب، حتى أنـه ليركب كثيراً من أموره وهو قاطع بأنه باطل شـنيع، لا يقدم على مثله عاقل، فصـار يعبد من دون الله ما هو دون البشـر بل ومطلق الحيوان مما لا ضـر فيه ولا نفع، وصــار يركب الظلم والعدوان والإفك والبهتان، وما لا يحصــى بالعد من أنواع الفواحش والعصيان، ويظلم أبناء جنسه وغيرهم، ويجتهد في الفجور، ويتصــرف بما لا يشــك هو في أنه لا يقره عليه من له أدنى نظر ممن يلزمه أمره ويعنيه شأنه، فصار بذلك أحط رتبة من البهائم بل من أدنى الحشــرات المســتقذرات لأنها وإن كانت لها شــهوات إلا أنها ليس لها عقل تغطيه بها وتطمس نوره بظلامها، فلا تنســـب إلى أنها فوّتت شـــيئاً لعدم تكليفها لعدم العقل الموجب للشــرف، وأما هو فاســتعمل ما خلقناه له من الآلات، وما فضلناه به من الكمالات، في غير ما خلقناه له فاستحق العذاب المهين، ثم يموت من غير مجازاة على شـــيء من ذلك أو على كثير منه، فلا بد في الحكمة حينئذ من بعثه، وله بعد البعث عند ربه على ذلك عذاب مقيم، وأما في خلقه فبالهرم حتى صــار بعد تلك القوى ضــعيفاً، وبعد ذلك

العز ذليلاً مهيناً، وبعد ذلك العلم الغزير والفكر المنير لا يعلم شيئاً، وصار يستقذره وينكره من كان يألفه ويستعطره، وقال ابن برجان: أما رده في طريق الديانة فبالكفر والتكذيب، وأما فيما سبيله الجزاء فبالمسخ في دار البرزخ وتحويل صورته إلى ما غلب عليه خلقته وعمله في الدنيا من الدواب والهوام والبهائم، وفي الآخرة تزرق عيناه ويشوه خلقه، وقال الإمام أبو العباس الأقليشي في شرح «المقدم المؤخر» من شرحه للاسماء الحسنى: إن الله تعالى خلقه.

أي الإنسان- أولاً في أحسن تقويم، ثم ركبه في هذا الجسم الذي يجذبه إلى أسفل سافلين، فإن قدم عقله على هواه صعد إلى أعلى عليين، وكان من المقربين المقدمين، وإن قدم هواه هبط إلى إدراك الجحيم، وكان من المبعدين المؤخرين.

ولما حكم بهذا الرد على جميع النوع إشارة إلى كثرة المتصف به منهم، وكان الصالح قليلاً جداً، جعله محط الاستثناء فقال: {إلا الذين آمنوا} أي بالله ورسله فكانوا من ذوي البصائر والمعارف، فغلبنا بلطفنا عقولهم بما دعت إليه وأعانت عليه الفطرة الأولى على شهواتهم، وحميناهم من أرذل العمر، فكانوا كلما زدناهم سناً زدنا أنوار عقولهم ونقصنا نار شهواتهم بما أضعفنا من إحكام طبائعهم وتعلقهم بهذا العالم، وأحكمنا من مدارك أنوار الحق وإشراقاته منهم، وأعظمنا من قوى أرواحهم.

ولما كان الإنسان قد يدعي الإيمان كاذباً قال: {وعملوا} أي تصديقاً لدعواهم الإيمان {الصالحات} أي من محاسن الأعمال من الأقوال والأفعال ثابتة

الأركان على أســـاس الإيمان، محكمة بما آتيناهم من العلم غاية الإحكام، متقنة غاية الإتقان، فإنا حفظناهم- وقليل ما هم- بما كملناهم به وشـرفناهم على جميع الحيوانات وسائر من سواهم فلم نمكن منهم الشهوات ولا غيرها، وأقمناهم على ما اقتضـاه منهاج العقل، فتبعوا الرسل بسبب إبقائنا لهم على الفطرة الأولى في أحســن تقويم، لم يدنس محياها بشــهوة ولا حظ ولا هوى، فســهل انقيادهم، فأداهم ذلك إلى العدل والنصـفة والإحسـان، وجميع مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، ولم يزيغوا عن منهاج الرســـل في قول ولا عمل، فالآية كما ترى من الاحتباك: حذف أولاً بما أفهمته الآية عمل الســـيئات، وثانياً الإبقاء على أصـل الخلق في أحسـن تقويم على الفطرة الأولى، ليكون نظمها في الأصـل {ثم رددناه أسـفل سـافلين} بعمل السـيئات فله على ذلك عذاب مهين {إلا الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات} فإنا أبقيناهم على الفطرة الأولى في أحسن تقويم.

ولما كان السياق لمدح المؤمنين، حسـن أن يعد أعمالهم التي تفضـل عليهم بها سبباً كما منّ عليهم به من الثواب فقال: {فلهم} أي فتسبب عن ذلك أن كان لهم في الدارين على ما وفقوا له مما يرضيه سبحانه وتعالى {أجر} أي عظيم جداً وهو مع ذلك {غير ممنون *} أي مقطوع أو يمن عليهم به حتى في حالة المرض والهرم لكونهم سعوا في مرضـاة الله سبحانه وتعالى وعزموا عزماً صـادقاً أنهم لا ينقصـون من أعمال البر ذرة ولو عاشـوا مدى الدهر، وذلك الأجر جزاء لأعمالهم فضـلاً منه بالأصـل والفرع حتى أنهم إذا عجزوا

بالهرم كتب لهم أجر ما كانوا يعملون في حال الصـحة، ولمن تابع هواه في السفول عذاب عظيم لأنه رد أسفل سافلين.

ولما ثبت بهذا أنه لا يجوز في الحكمة تركهم بغير جزاء مع ما يشـاهد من ظلم بعضـهم لبعض معاندة لما يقتضـيه قويم العقل الذي لا شـك فيه، فكان ذلك بحيث لا يرضـاه أحد منهم ولا يقر مخلوق عبيداً في ملكه على مثله بأن يبغي بعضـهم على بعض فيهملهم بل لا بد أن يحجز بينهم أو يأخذ للمظلوم من الظالم، ولو كان ذلك المالك أقل الناس وأجهلهم فكيف إن كان عاقلاً فكيف إن كان حاكماً فكيف إن كان لا يخاف أحداً فكيف إن كان عدلاً مقسطاً قد ثبتت إحاطة علمه وقدرته سبحانه وتعالى، حسن كل الحسن أن يكون ذلك سـبباً للإنكار على من يظن أن الله يهمل عباده من الحكم بينهم لمجازاة كل من المطيع والعاصـي بما عمل مع ما ترى من ظلم بعضـهم لبعض، وأن الظالم قد يموت قبل القصـاص، فقال مسبباً عن الوعد بما أفصـح به الكتاب من إثابة المؤمنين الذي طالما بغى عليهم الظلمة، وانتقصـهم حقوقهم الفسقة، والوعيد بما أفهمه الخطاب لعتاب المجرمين الذين طالما بغوا على غيرهم: {فما} أي فتسـبب عن إقامة الدليل على تمام القدرة وعلى بغي العبيد بعضـهم على بعض أنه يقال لك تصـديقاً لك فيما أخبرت به من أن الله سـبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد موتهم ليجازي كلاًّ بما عمل وإنكاراً على من كذبك: ما {يكذبك} أي أيّ شيء ينسبك إلى الكذب يا أشـرف الخلق وأكملهم نفسـاً وأتقاهم عرضـاً وأطهرهم خلقاً وخلقاً، وعبر ب «ما» إشـارة إلى أن الكذب بهذا مع هذا الدليل القطعي الذي تضـمنته هذه

السورة في عداد ما لا يعقل بل دونه {بعد} أي بعد مشاهدة بغي بعض الناس على بعض استعمالاً لحال النكس، وأعراه من الجار إشارة إلى أن من آمن قبل الغرغرة واتصل إيمانه ذلك بموته كان ممن له أجر غير ممنون {بالدين *} أي الجزاء لكل أحد بما يستحقه على سبيل العدل والإنصاف لأجل تلك الأعمال التي غلبت فيها الحظوظ على العقول، فوقع بها من الظلم والأذى ما لا يسع عاقلاً من العباد أن يحسن عنده ترك فاعلها من غير جزاء حتى كان أكثر أفعال العباد ظلماً، ومن شأن الملوك الإنصاف بين عبيدهم ورعاياهم، فكيف بالله سبحانه وتعالى الذي شرع لعباده ذلك، وقد ثبت بما له من هذا الخلق العظيم، على هذا النظام المحكم والمنهاج الأقوم أنه الحكيم، الذي لا حكيم غيره، العليم الذي لا عليم سواه.

ولما صح أن تارك الظالم بغير انتقام والمحسن بلا إكرام ليس على منهاج العدل الذي شرعه الله تعالى، حسن جداً تكرير الإنكار بقوله سبحانه وتعالى: {أليس الله} أي على ما له من صفات الكمال، وأكده بالجار في قوله: {بأحكم الحاكمين *} أي حتى يدع الخلق يهلك بعضهم بعضاً من غير جزاء، فيكون خلقهم عبثاً، بل هو أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة بما شوهد من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم، وجعل الإنسان من بينهم على أحسن تقويم، فلا بد أن يقيم الجزاء ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فيظهر عدله وحكمته وفضله، وهذا الآخر هو أولها قسماً من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته، ومقسماً عليه من حيث إن الخلق في أحسن تقويم يقتضي العدل لا محالة، والرد أسفل سافلين يتقاضى الحكم حتماً

لأجل ما يقع من الظلم والتشاجر بين من استمر على الفطرة القويمة ومن رد لأسفل سافلين، وقد اشتملت هذه السورة على وجازتها على جميع مقاصد التوراة إجمالاً، وزادت الدلالة على الآخرة، وذلك أن قسمها هو قوله في التوراة «أتانا ربنا من سيناء وشرق بنا من جبل ساعر، وظهر لنا من جبال فاران» والخلق في أحسن تقويم هو خلق آدم عليه الصلاة والسلام المذكور في أولها وخلق زوجه وما يحتاجان إليه من السماء والأرض، وخلق الأصفياء من أولادهما وما جاؤوا به من الخير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هو ما فيها من الشرائع والأحكام، وقوله بعد ما تقدم من المعبر بالمقسم عنه «معه ربوات الأطهار عن يمينه أعطاهم وحببهم إلى الشعوب، وبارك على جميع أطهاره» والرد أسفل سافلين هو ما ذكر أولها من العصاة من قابيل ومن بعده إلى آخرها، على ما أشار إليه من عصيان بني إسرائيل الموجب للعنهم، فقد اكتنفت بأول التوراة وآخرها وأوسطها، وابتدأ بآخرها لأنه في النبوات، وهي أهم المهم لأنها المنجية من شر قطاع الطريق، وآخرها أدل ما فيها على النبوات لا سيما الثلاث العظام- المشار إليه بقسم هذه السورة- والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب.

96 Alaq Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسوروللبقاعي

سورة العلق

96

تفسير الآيات رقم [1- 10]

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10)}

لما أمره سبحانه وتعالى في الضحى بالتحديث بنعمته، وذكره بمجامعها في {ألم نشرح} فأنتج ذلك إفراده بما أمره به في ختمها من تخصيصه بالرغبة إليه، فدل في الزيتون على أنه أهل لذلك لتمام قدرته الذي يلزم منه أنه لا قدرة لغيره إلا به، فأنتج ذلك تمام الحكمة فأثمر قطعاً البعث للجزاء فتشوف السامع إلى ما يوجب حسن الجزاء في ذلك اليوم وبأيّ وسيلة يقف بين يدي الملك الأعلى في يوم الجمع الأكبر من خصال الذين آمنوا وعملوا

الصـــالحات، فأرشـــد إلى ذلك في هذه الســـورة، فقال بادئاً بالتعريف بالعلم الأصـــلي ذاكراً أصـــل من خلقه ســـبحانه وتعالى في أحســـن تقويم وبعض أطواره الحســـنة والقبيحة تعجيباً من تمام قدرته ســـبحانه وتعالى وتنبيهاً على تعرفها وإنعام النظر فيها، وقدم الفعل العامل في الجار والمجرور هنا لأنه أوقع في النفس لكونها أول ما نزل فكان الأمر بالقراءة أهم : {اقرأ} وحذف مفعوله إشارة إلى انه لا قراءة إلا بما أمره به، وهي الجمع الأعظم، فالمعنى: أوجد القراءة لما لا مقروء غيره، وهو القرآن الجامع لكل خير، وأفصـــح له بأنه لا يقدر على ذلك إلا مبعونة الله الذي أدبه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته، فقال ما أرشد المعنى إلى أن تقديره: حال كونك مفتتحاً القراءة {باسم ربك} أي بأن تبسمل، أو مستعيناً بالمحسن إليك لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى بما خصك به في {ألم نشرح} أو بذكر اسمه، والمراد على هذا بالاســـم الصـــفات العلى، وعبر به لأنه يلزم من حســـن الاســـم حســـن مدلوله، ومن تعظيم الاسم تعظيم المسمى وجميع ما يتصف به وينسب إليه، قالوا: وهذا يدل على أن القراءة لا تكون تامة إلا بالتسمية، ولكونه في سياق الأمر بالطاعة الداعي إليها تذكر النعم لم يذكر الاســـم الأعظم الجامع، وذكر صـــفة الإحســـان بالتربية الجامع لما عداه وتأنيســـاً له صـــلى الله عليه وسلم لكونه أول ما نزل حين حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بنفسه يتعبد بربه في غار حراء، فجاءه جبرائيل عليه الصـــلاة والســـلام بخمس آيات من أول هذه السورة إلى قوله «ما لم يعلم» ولهذا السر ساقه مساق البسملة بعبارة هي أكثر تأنيساً في أول الأمر وأبسط منها، فأشار إلى الاسم الأعظم بما

في مجموع الكلام من صفات الكمال، وأشار إلى عموم منة الرحمن بصفة الخلق المشار إلى تعميمها بحذف المفعول، وإلى خصوص صفة الرحيم بالأكرمية التي من شأنها بلوغ النهاية، وذلك لا يكون بدون إفاضة العمل بما يرضي، فيكون سبباً للكرامة الدائمة، وبالتعليم الذي من شأنه أن يهدي إلى الرضوان، وأشار إلى الاستعاذة بالأمر بالقرآن لما أفهمه قوله سبحانه وتعالى:

{وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة} [الإسراء: 45]- أي من شياطين الإنس والجن- {حجاباً مستوراً} [الإسراء: 45] وقوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل: 98].

ولما خصه تشريفاً بإضافة هذا الوصف الشريف إليه، وصفه على جهة العموم بالخلق والأمر إعلاماً بأن له التدبير والتأثير، وبدأ بالخلق لأنه محسوس بالعين، فهو أعلق بالفهم، وأقرب إلى التصور، وأدل على الوجود وعظيم القدرة وكمال الحكمة، فكانت البداءة به في هذه السورة التي هي أول ما نزل أنسب الأمور لأن أول الواجبات معرفة الله، وهي بالنظر إلى أفعاله في غاية الوضوح فقال: {الذي خلق *} وحذف مفعوله إشارة إلى أنه له هذا الوصف وهو التقدير والإيجاد على وفق التقدير الآن وفيما يكون، فكل شيء يدخل في الوجود فهو من صنعه ومتردد بين إذنه ومنعه وضره ونفعه.

ولما كان الحيوان أكمل المخلوقات، وكان الإنسان أكمل الحيوان وزبدة مخضه، ولباب حقيقته وسر محضه، وأدل على تمام القدرة لكونه جامعاً لجميع ما في الأكوان، فكان خلقه أبدع من خلق غيره، فكان لذلك أدل على

كمال الصانع وعلى وجوب إفراده بالعبادة، خصه فقال: {خلق الإنسان} أي هذا الجنس الذي من شأنه الأنس بنفسه وما رأى ما أخلاقه وحسه، وما ألفه من أبناء جنسه.

ولما كانت العرب تأكل الدم، وكان الله تعالى قد حرمه لأنه أصل الإنسان وغيره من الحيوان وهو مركب الحياة، فإذا أكل تطبع آكله بخلق ما هو دمه، قال معرفاً بأنه سبحانه وتعالى بنى هذه الدار على حكمة الأسباب مع قدرته على الإيجاد من غير تطوير في تسبيب: {من علق *} أي خلق هذا النوع من هذا الشيء وهو دم شديد الحمرة جامد غليظ، جمع علقة، وكذا الطين الذي يعلق باليد يسمى علقاً، وهم مقرّون بخلق الآدمي من الأمرين كليهما، فالآية من أدلة إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه على استعمال المشترك في معنييه، ولعله عبر به ليعم الطين فيكون- مع ما فيه من الإشارة إلى بديع الصنعة- إشارة إلى حرمة أكل ما هو أصلنا من الدم والتراب قبل أن يستحيل، فإذا استحال وصف بالحلال لأن الاستحالات لها مدخل في الإحلالات في النكاح وغيره، واحمرار النطفة ليس استحالة لأنها كانت حمراء قبل قصر الشهوة لها، وربما ضعفت الشهوة عن قصرها فنزلت حمراء، فإذا تحول الدم لحماً صار إلى جنس ما يحل، وكذا إذا تحول التراب بمخالطة الماء تمراً أو حباً حل.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم {فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين} [التين: 7-8] وكان معنى ذلك: أيّ شيء حمل عل هذا بعد وضوح الأمر لك وبيانه

وقد نزهه سبحانه وتعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك، ولكن سبيل مثل هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى:

{لئن أشـركت ليحبطن عملك} [الزمر: 65] وبابه، وحكم هذا القبيل واضـح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته صـلى الله عليه وسلم من حيث عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم، فتقدير الكلام: أيّ شـــيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف أو التكذيب بأمر الحساب، وقد وضـح لكم ما يرفع الريب ويزيل الإشكال، ألم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين؟ أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسـن تقويم؟ أفيحسـن أن يفعل ذلك عبثاً؟ وقد قال تعالى: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً} [ص: 27– ولكن قراءتنا– وما خلقنا السـماء– لا بالجمع] فلما قرر سـبحانه العبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم ذلك من موجب نفي الاسـترابة في نوع الحق إذا اعتبر ونظر، ووقعت في الترتيب سـورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشـفاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء، وهو كتابه المبين، الذي جعله الله تعالى تبياناً لكل شـيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال {اقرأ باسم ربك} مستعيناً به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً} [الفرقان: 1] وأيضـاً فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الإنسان في أحسن تقويم {ثم رددناه أسفل سافلين} [التين: 5] وحصـــل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين القائلين، كل ذلك بسـابق حكمته وإرادته {ولو شـئنا لآتينا كل نفس هداها} وقد بين سـبحانه لنا

أقصى غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الإنساني، وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم وجليل وعده الكريم له في قوله {ولسوف يعطيك ربك فترضى} [الضحى: 5] وفضل حال ابتداء {ألم نشرح} على تقدم سؤال {رب اشرح} [طه: 25] إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة، وذلك أعلى مقام يناله أحد ممن ذكر، فوقع تعقيب– ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الظرف الآخر من الجنس الإنساني، وذلك حال من أشير إليه من لدن قوله تعالى: {أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى} إلى قوله: {كلا لا تطعه} ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين ما بين الحالتين، وهي العادة المطردة في الكتب، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الظرف الآخرة ليطابق المقصود، ولعل بعض من لم يتفطن يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما أنزل فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولاً، فنقول له: وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم بل في معظم ذلك، وإلا فليست سورة البقرة من المدني، ومقتضى تأليفنا هذا بناء ما بعدها من السور على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة إنما هو عليها وفيها بعد من المكي ما لا يحصى، فإنما غاب عنك نسيان ما قدمناه في الخطبة من أن ترتيب السور ما هي عليه راجع إلى فعله عليه الصلاة والسلام أكان ذلك بتوقيف منه أو باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم على ما قدمناه، فارجع بصرك، وأعد في الخطبة نظرك، والله يوفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته، ويحملنا في ذلك على ما يقربنا إليه بمنه وفضله– انتهى.

ولما أتم سبحانه ما أراد من أمر الخلق وهو الإيجاد بالأسباب بالتدريج، أخذ في التنبيه على عالم الأمر وهو الإبداع من غير أسباب، فقال مكرراً للأمر بالقراءة تنبيهاً على عظم شأنها وتأنيساً له صلى الله عليه وسلم ومسكناً لروعه ومعلماً أن من جاءه الأمر من قبله ليس كأربابهم: {اقرأ} ولما كان قد قال صلى الله عليه وسلم عند هذا الأمر إخباراً بالواقع كما يقول لسان الحال لو لم ينطق بلسان المقال : ما أنا بقارئ، فكان التقدير : فربك الذي رباك فأحسن تربيتك وأدبك فأحسن تأديبك أمرك بالقراءة وهو قادر على جعلك قارئاً، عطف عليه قوله: {وربك} أي يكون التقدير : والحال أن الذي خصك بالإحسان الجم {الأكرم *} أي الذي له الكمال الأعظم مطلقاً من جهة الذات ومن جهة الصفات ومن جهة الأفعال، فلا يلحقه نقص في شيء من الأشياء أصلاً لأن حقيقته البعيد عن اللوم الجامع لمساوئ الأخلاق، فهو الجامع لمعالي الأخلاق، وليس غيره يتصف بذلك، فهو يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر، وأشار إلى أن من ذلك أنه يفيض على أمته الأمية من العلم والحظ ما لم يفضه على أمة قبلها على قصر أعمارهم، فقال مشيراً إلى العلم التعليم، مشعراً بوصفه سبحانه بالمنح بالعلم إلى ترتيب الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي الكامل {الذي علّم} أي بعد الحلم عن معاجلتهم بالعذاب والعقاب جوداً منه من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة {بالقلم *} أي الكتابة به. ولما نبه بذلك على ما في الكتابة من المنافع التي لا يحيط بها غيره سبحانه وتعالى، لأنها انبنت عليها استقامة أمور الدنيا والدين في

الدنيا والآخرة، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمته تعالى ولطيف تدبيره، زاد ذلك عظمة على وجه يعم غيره فقال: {علّم} أي العلم الضروري والنظري {الإنسان} أي الذي من شأنه الأنس بما هو فيه لا ينتقل إلى غيره بل ينساه إن لم يلهمه ربه إياه {ما لم يعلم *} أي بلطفه وحكمته لينتظم به حاله في دينه من الكتاب والسنة ودنياه من المعاملات والصنائع، فيفيض عليه من علمه اللدني الذي لا سبب له ظاهر ما يعرف به ترتيب المقدمات بالحدود والوسطى، فيعلم النتائج، وما يعرف به الحدسيات، وذلك بعد خلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات، ولو كان ذلك بالأسباب فقط لتساوى الناس في مدة التعليم وفي أصل المعلوم كما تساووا في مدة الحمل وأصل الإنسانية، وقد ذكر سبحانه مبدأ الإنسان ومنتهاه بنقله من أخس الحالات إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، قال الملوي: ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره عقب صفة الأكرمية– انتهى، وفي ذلك إشارة إلى مزيد كرم العلماء بالتعليم، وفي الآية الإشارة إلى مطالعة عالمي الخلق والأمر، قال الرازي، وفي كل من العالمين خصوص وعموم– انتهى، فالمعنى أنه يعلمك أيها النبي الكريم وإن كنت أمياً لا تعلم الآن شيئاً كما علم بالقلم من لم يكن يعلم، فتكون أنت– بما أشارت إليه صفة الأكرمية على ما أنت فيه من الأمية– أعلم من أهل الأقلام– وأعلى من كل مقام سام.

ولما كان الدم أكثر الأخلاط وأشدها هيجاناً، فإن مرضه لا يشبهه شيء من أمراض بقية الأخلاط، وكان مع ذلك سريع البرء إن أصيب علاجه وعولج

بأمر قاهر أقوى منه، وكان العلم قرين الغنى في الأغلب، وكان زلة العالم تفوق زلة غيره، قال معرفاً بعد التعريف بالإلهيات بأمر النفس مبيناً لقسم الإنسان المردود أسفل سافلين مقرراً لحاله، ورادعاً له عن ضلاله: {كلا} أي ارتدع أيها العالم عن الطغيان إن نلت الغنى حقاً {إن الإنسان} أي هذا النوع الذي هو نوعك ومن شأنه الأنس بنفسه والنظر في عطفه {ليطغى *} أي من شأنه- إلا من عصمه الله سبحانه- أن يزيد على الحد الذي لا ينبغي له مجاوزته كما يزيد الخلط الدموي، وأكده لما لأكثر الخلق من التكذيب به فإنه لا طاغي يقر بأنه طغى {أن} أي لأجل أن {رآه} أي علم الإنسان نفسه علماً وجدانياً {استغنى *} أي وجد له الغنى، هذا هو الطبع الغالب في الإنسان متى استغنى عن شيء عمي عن مواضع افتقاره، فتغيرت أحواله معه، وتجاوز فيه ما ينبغي له الوقوف عنده «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» ومن كان مفتقراً إلى شيء كان منطاعاً له كما في حديث آخر أهل النار خروجاً منها يقسم لربه أنه لا يسأل غير ما طلبه، فإذا أعطيته واستغنى به سأل غيره حتى يدخل دار القرار، ولعله نبه بهذا على أن هذه الأمة المحتاجة ستفتح لها خزائن الأرض فيطغيها الغنى كما أطغى من قبلها وإن كانوا هم ينكرون ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم حين بشرهم بالفتوحات وقال: «إنه يغدى على أحدكم بصفحة ويراح عليه بأخرى ثم قال لهم: أنتم اليوم خير أم يومئذ، فقالوا: بل يومئذ، نتفرغ لعبادة ربنا، فقال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ، قال صلى الله عليه وسلم: والله ما الفقر أخشى

عليكم، ولكن أخشى أن يبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم«

أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

ولما كان لا دواء لذلك مثل تذكر الجزاء، قال معرفاً أن الإنسان لا يزال مفتقراً إلى مولاه في حياته ومماته وغناه وفقره، محذراً له سوء حالاته مؤكداً لأجل إنكارهم ذلك: {إن إلى ربك} أي المحسن إليك بالرسالة التي رفع بها ذكرك، لا إلى غيره من التراب ونحوه {الرجعى *} أي الرجوع الأعظم الثابت الذي لا محيد عنه، أما في الدنيا فلا محيد عن الإقرار به، فإنه لا يقدر أحد على شيء إلا بتقديره، وأما في الآخرة فبما أثبت في برهانه في سورة التين، فيحاسب الناس بأعمالهم، ويجازي كل أحد بما يستحق من ثواب أو عقاب، ففيه وعيد للطاغي وتحقير – لغنى ينقطع.

ولما أخبر بطغيانه وعجل بذكر دوائه لأن المبادرة بالدواء لئلا يتحكم الداء واجبة، دل على طغيانه مخوفاً من عواقب الرجعى في أسلوب التقرير لأنه أوقع في النفس وأروع للّب لأن أبا جهل قال: «لئن رأيت محمداً يعفر وجهه لأفضخن رأسه بصخرة، فجاء ليفعل ما زعم فنكص على عقبيه ويبست يداه على حجره فسئل عما دهاه، فقال: إن بيني وبينه لهولاً وأجنحة، وفي رواية: لخندقاً من النار، وفي رواية: لفحلاً من الإبل، فما رأيت مثله، ولو دنوت منه لأكلني» وأصل الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: {أرءيت} تقدم في الأنعام أن هذا الفعل إذا لم يكن بصرياً كان

بمعنى أخبر، فالمعنى: أخبرني هل علمت بقلبك علماً هو في الجلاء كرؤية بصرك {الذي ينهى *} أي على سبيل التجديد والاستمرار.

ولما كان أفحش ما يكون صــد العبد عن خدمة ســيده، قال معبراً بالعبودية منكراً للمبالغة في تقبيح النهي والدلالة على كمال العبودية: {عبداً} أي من العبيد {إذا صلّى *} أي خدم سيده الذي لا يقدر أحد أن ينكر سيادته بإيقاع الصلاة التي هي وصلته به، وهي أعظم أنواع العبادة لأنها مع كونها أقرب وصــلة إلى الحق انقطاع وتجرد بالكلية عن الخلق، فكان نهيه له عن ذلك نهياً عن أداء الحق لأهله حســداً أو بغياً، فكان دالاًّ على أن من طبع أهل كل زمان عداوة أهل الفضل وصدهم عن الخير لئلا يختصوا بالكمال.

▲ تفسير الآيات رقم [11– 19]

{أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)}

ولما كان هذا أمراً خارجاً عن الحد في الطغيان، وكان الســؤال إنما هو عن رؤية حاله في نهيه العبد عن الصــلاة، لا عن رؤية ذاته، فتشــوف الســامع إلى معرفة ذلك الحال، كرر التقرير بزيادة التعجيب من حاله والتحذير، فقال مكرراً العامل زيادة في التأكيد وبياناً لأن هذا في الحقيقة أول الســـؤال عن الحال: {أرءيت} أي أخبرني عن حاله {إن كان} أي هذا الناهي، وعبر بأداة الاستعلاء إشارة إلى أنه في غاية الثبات والتمكن فقال: {على الهدى *} أي

الكامل في الهداية فكف عن نهي هذا المصـــلي عن خدمة مولاه الذي هو معترف بسيادته وإن ادعى كذباً أن له شريكاً كما أنه لا ينهى عن السجود للأصنام.

ولما ذكر ما لعله يكون عليه في تكميل نفسه، ذكر ما لعله يعانيه من إنجاء غيره فقال: {أو أمر} أي ذلك الناهي {بالتقوى *} أي التي هي عماد الدين، وهي عمارة الباطن بالنور الناشـــئة عن الهدى، وعمارة الظاهرة لذلك، المترشـــحة من عمارة الباطن، الموجب لذلك، فأمر هذا المصـــلي بملازمة خدمة سيده المجمع على سيادته، ولا شك في توحيده بالربوبية بالإقبال على ما يرضـــيه من أفعال العبادة، ليكون ذلك وقاية لفاعل من ســـخطه فيأمن الهلاك، والجواب محذوف تقديره: ألم يكن خيراً له فليتدبر كل أمر من أموره فلا يقدم عليه حتى يعلم بالدليل أنه هدى وتقوى.

ولما كان التقدير حتماً كما هدى إليه السياق ما قدرته من جواب السؤالين، بنى عليه قوله زيادة في التوبيخ والتعجيب والتقريع اســـتفهاماً عن حال لهذا الناهي مناف للحال الأول معيداً الفعل إيضـاحاً لذلك: {أرءيت} أي أخبرني أيها الســـامع ولا تســـتعجل {إن كذب} أي أوقع هذا الناهي التكذيب بأن المصـلي على الهدى بخدمة سـيده المتفق على سـيادته، فكان بذلك مرتكباً للضلال الذي لا شك في كونه ضلالاً، ولا يدعو إليه إلا الهدى.

ولما كان المكذب قد لا يترك من كذبه، أشـــار إلى أن حال هذا على غير ذلك فقال: {وتولى *} أي وكلف فطرته الأولى بعد معالجتها الإعراض عن قبول الأمر بالتقوى، وذلك التولي إخراب الباطن بالأخلاق السـيئة الناشـئة

عن التكذيب وإخراب الظاهر بالأعمال القبيحة الناشـــئة عن التكذيب، والجواب محذوف تقديره: ألم يكن ذلك التولي والتكذيب شراً له لأن التكذيب والتولي من غير دليل شر محض، فكيف إذا كان الدليل قائماً على ضدهما. ولما عجب من حالته البعيدة عن العقل مع نفســه ومع أبناء جنســه، أنكر عليه معجباً من كونه يعلم أنه ليس بيده شـــيء، المنتج لأنه مراقب وحاله مضبوط غاية الضبط وينسى ذلك، فقال ذاكراً مفعول «أرءيت» الثاني وهو لا يكون إلا جملة اســتفهامية: {ألم يعلم} أي يقع له عمل يوماً من الأيام {بأن الله} أي وهو الملك الأعلى {يرى *} أي له صفتا البصر والعلم على الإطلاق، فهو يعلم كل معلوم ويبصــر كل مبصــر، ومن كان له ذلك كان جديراً بأن يهلك من يراه على الضــلال والإضــلال وينصــر من يطيع أمره على كل من يعاديه، وإنما جاء هذا الاســـتفهام الإنكاري على هذا الوجه لأنهم يعترفون بكل ما أنكر عليهم فيه ويلزمهم بما يفعلون من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكونوا منكرين له، وذلك هو عين التناقض الذي لا أشـــنع عندهم منه، هذا ويمكن، وهو أحســـن، أن تنزل الآية على الاحتباك فيقال: لما كان الســـؤال عن حال الناهي لأن الرؤية علميه لا بصـــرية، فتشـــوف الســـامع إلى معرفتها، وكان للناهي حالان: طاعة ومعصـــية، بدأ بالأولى لشــرفها على الأســلوب الماضــي في التقرير على ســبيل التعجيب فقال: «أرءيت» أي أخبرني «إن كان» الناهي ثابتاً في نهيه هذا متمكناً «على الهدى» أي الكامل «أو» كان قد «أمر» في ذلك الأمر أو في أمر ما من عبادة الأوثان وغيرها «بالتقوى» وحذف جواب السؤال عن هذا الحال

لدلالة جواب الحال الثاني عليه، وهو ألم يعلم بأن الله يرى كل ما يصح أن يرى، فينهى عنه إن كان مكروهاً ولا يقر عليه ويحاسب به ليزن هذا الناهي أفعاله بما شرعه سبحانه من الدليل العقلي والسمعي فيعلم أهي مما يرضيه ليقره عليه كما يقر سائر ما يرضيه أو يسخطه فيمنعه منه.

ولما ذكر ما يمكن أن يكون عليه حال الناهي من السداد، ذكر ما يمكن أن يكون عليه من الفساد، فقال مقرراً معجباً معيداً العامل لزيادة التعجيب على النمط الأول: «أرأيت إن كذب» أي هذا الناهي بالحق في وقت النهي– ولما كان لا يلزم من التكذيب التولي قال: «وتولى» أي عن الدين بنهيه هذا، فكان على الضلال والهوى متمكناً في ذلك بحيث إنه لا يصدر عنه فعل إلا فاسداً «ألم يعلم بأن الله يرى» فيحاسب نفسه بما أرشد إليه سبحانه من البراهين فيعلم أن ما هو عليه من الرشد إن كان الله يقره عليه ويمكنه منه أو الغواية إن كان ينهاه عنه ولا يقره عليه، كما فعل بهذا الذي أقسم: ليرضخن رأس هذا المصلي، وأقدم عليه بصخرته وهو عند نفسه في غاية القدرة على ذلك بزعمه فمنعه الله منه ورده عنه فرجع على عقبيه خاسئاً ظاهراً عليه الجبن والرعب وغيرهما مما يتحاماه الرجال، ويأنف منه الضراغمة الأبطال، والاحتباك هنا بطلب «أرءيت» جملة ليس هو من التنازع لأنه يستدعي إضماراً والجمل لا تضمر، إنما هو من باب الحذف لدليل، فحذف الكون على الضلال ثانياً لدلالة الكون على الهدى عليه أولاً، وحذف «ألم يعلم بأن الله يرى» أولاً لدلالة ذكره آخراً عليه.

ولما كان هذا الخبيث معرضـاً عن هذا العلم الذي هو معترف به كله، وإنما كان إعراضـه لما عنده من الحظوظ والشـهوات الموقعة له– بحكم الرد أسفل ســافلين– إلى رتبة البهائم، أتى بأعظم أدوات الردع فقال: {كلا} أي ليس عنده علم بشيء من ذلك لسفول رتبته عن رتبة البهائم ولا في يده شيء من الأشـياء، فهو لا يقدر على شــيء مما رامه من الأذى، فليرتدع عن تعاطي ذلك لأنه لا يضر إلا نفسه.

ولما كان نفي العلم عنه يوهم أنه في عداد الغافلين الذي لا ملامة عليهم، بين أن انتفاء العلم عنه ليس عن غفلة يعذر صـــاحبها، إنما هو عن تهاون بالخير ورضى بالعمى والتقليد، فهو من قسم الضال الذي فرط في استعمال القوة العلمية المذكور في الفاتحة، فاســـتأنف الإخبار عنه في جواب من يقول: فما يفعل به؟ معبراً بأداة الشـــك إقامة له ولغيره في محل الرجاء لانتهائه إبقاء للتكليف ومؤكداً لأنهم منكرون: {لئن لم ينته} أي يفتعل هذا الناهي لهذا العبد المطيع فيقف ويكف عما هو فيه من نهيه وتكذيبه وتوليه.

ولما كان الحال غير محتاج إلى أكثر من التأكد لإيقاع الفعل، عبر بالحقيقة ولم ينقلها إشــارة إلى أن هذا الناهي أقل من أن يحتاج فيه إلى فعل شـديد، بل أقل نفحة من العذاب تكفي في إهلاكه، وما كان أصـل التأكيد إلاّ تطييباً لقلوب الأولياء وتكذيباً للأعداء فقال: {لنسـفعاً} أي والله لنأخذن ونقبضـــن قبضـاً وأخذاً بشـدة وعنف مع الجر والاجتذاب واللطم والدفع والغيظ أخذ من يعض مأخوذه ويذله ويسود وجهه ويقذره {بالناصية *} أي بالشعر الذي في مقدم رأســه وهو أشـرف ما فيه، والعرب لا تأنف من شــيء أنفتهم من أخذ

الناصية، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره، واستغنى بتعريف العهد عن الإضافة.

ولما كان من المعلوم أن من صـــار في القبضـــة على هذه الهيئة المهينة المزرية فهو هالك، اغتنى به عن أن يقول: ولنســحبنه بها على وجهه إلى النار، ووصفها بما يدل على ذلك فقال مبدلاً لأن البدل وصف بما قربه من المعرفة: {ناصية} أي عظيمة القبح {كاذبة} أي متعمدة للكذب {خاطئة *} فهي صـــادر عنها الذنب من الكذب وغيره من غير تعمد، فأغلب أحوالها على غير صواب تارة عن عمد وتارة عن غير عمد، وما ذاك إلا لسوء جبلة صـاحبها حتى كاد لا يصـدر عنه فعل سـديد، ووصـفها بما هو لصـاحبها على الإســناد المجازي مبالغة في تكذيبه في أنه لا يقدر على منع المهتدي أو إذلاله أو شيء من أذاه إلا إن أذن له صاحب الأمر كله فيما يكون سبباً لزيادة رفعته، وفي العدول عن الحقيقة، كأن يقال: ناصـــية كاذب خاطئ، بالإضافة إلى هذا المجاز، من الجزالة والفخامة والجلالة ما لا يخفى.

ولما كان هذا هو غاية الإهانة، وكان الكفار إنما يقصـــدون بأعراضـــهم الشـــماخة والأنفة والعز عن أن يكونوا أتباعاً أذناباً، وإنما عزهم بقومهم، وأقرب من يعتز به الإنســـان أهل ناديه، وهم القوم الذين يجتمعون نهاراً ليحدث بعضـــهم بعضـــاً ويســـتروح بعضـــهم إلى بعضـــهم لما عندهم من التصــافي لأنهم لا يتركون أشـغالهم نهاراً ويجتمعون لذلك إلا عن ذلك، قال تعالى مسـبباً عن أخذه على هذا الوجه المزري: {فليدع} أي دعاء اسـتغاثة {ناديه *} أي القوم الذين كانوا يجتمعون معه نهاراً يتحدثون في مكان ينادي

فيه بعضهم بعضاً من أنصاره وعشيرته ليخلصوه مما هو فيه، والذي نزلت فيه هو أبو جهل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً.

ولما كان كأنه قيل: فلو دعا ناديه يكون ماذا؟ قال: {سندع} أي بوعد لا خلف فيه {الزبانية *} أي الأعوان الموكلين بالنار ليجروه إليها، وهم في الأصل الشرط، الواحد زبنية كهبرية، من الزبن وهو الدفع أو زبني على النسبة، أصلها زباني والتاء عوض عن الياء، وهم كل من عظم خلقه، واشتد بطشه، وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطأ، ولا موجب لحذفه من العربية لفظاً، وكأن المعنى في ذلك- والله أعلم- أن لا يظن أنهم دعوا لرفعة لهم في ذواتهم يستعان بهم بسببها لأن معنى الواو عند الربانيين العلو والرفعة، إشارة إلى أنهم لا قوة لهم إلا بالقوي العزيز، أو يقال: إن الحذف دال على تشبيه الفعل بالأمر ليدل على أن هذا الدعاء أمر لا بد من إيقاع مضمونه، ومن إجابة المدعوين إلى ما دعوا إليه، وأن ذلك كله يكون على غاية الإحكام، والاتساق بين خطه ومعناه والانتظام، لا سيما مع التأكيد بالسين، الدال على تحتم الاتحاد والتمكين، أو يكون المعنى: إنا ندعوهم بأيسر دعاء وأسهل أمر، فيكون منهم ما لا يطاق ولا يستطاع دفاعه بوجه، فكيف لو أكدنا دعوتهم وقوينا عزمتهم.

ولما كان الذي تقدم نهي الناهي للمصلي والسفع بناصيته إن لم ينته وأمره بدعاء ناديه، وكان الحكم في الأول أنه لا يجيبه إلى ترك الصلاة، وفي الثاني أن الناهي لا ينتهي عن عصيانه بالتهديد وأنه لا يفيده دعاء ناديه،

فالكل منفي، حسن كل الحسن الإتيان بأداة الردع فقال: {كلا} أي لا يقدر على دعاء ناديه ولا ينتهي عن أذاه للمطيع بالتهديد فليرتدع عن كل من ذلك.

ولما كان كأنه قيل: فما أفعل؟ قال معرفاً أن من علم أن طبع الزمان وأهله الفساد، وجب عليه الإقبال على شأنه والإعراض عن سائر العباد {لا تطعه} أي في نهيه لك عن الطاعة بالصلاة أو غيرها.

ولما كان نهيه عن الصلاة التي هي عماد الدين، وكانت الصلاة يعبر عنها بالسجود لأنه- مع أنه جزؤها- هو أشرفها، وهو أيضاً يطلق على مطلق العبادة، قال تعالى مشيراً إلى النصر له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه على كل من يمنعهم عبادته: {واسجد} أي دم على صلاتك وخضوعك بنفسك وجدد ذلك في كل وقت. ولما كان السجود أقرب مقرب للعبد إلى الله قال: {واقترب *} أي اجتهد بسرك في بلوغ درجة القرب إلى ربك والتحبب إليه بكل عبادة لا سيما الصلاة فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقد شرح هذا المقام كما تقدم في الفاتحة قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقوبتك» فإن هذه الجملة أفادت- كما قال الإمام الغزالي في كتاب الشكر- مشاهدة أفعال الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله، قال: ثم اقترب ففني في مشاهدة الأحوال، وترقى إلى مصادر الأفعال، وهي الصفات، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» فراراً منه إليه من غير

رؤية فعل وصـفة، ولكنه رأى نفسـه فاراً منه إليه ومسـتعيذاً ومثنياً ففني عن مشاهدة نفسه إذا رأى ذلك نقصاناً فاقترب فقال «أنت كما أثنيت على نفسك لا أحصـي ثناء عليك» فقوله: «لا أحصـي» خبر عن– فناء نفسـه وخروجه عن مشاهدتها، وقوله: «أنت كما أثنيت» بيان أنه المثني والمثنى عليه، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود، وأن كل شـــيء هالك إلا وجهه، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله وأفعاله فيســـتعيذ بفعل من فعل، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشـاهدته سـوى الذات الحق، ولقد كان صـلى الله عليه وسـلم لا يرقى من مرتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضـافة إلى الثانية، فكان يسـتغفر الله من الأولى، ويرى ذلك نقصـاً في سـلوكه وتقصـيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» فكان ذلك لترقيه إلى سبيعن مقاماً بعضـها يعد نقصـــاً لنقص أوائلها وإن كان مجاوزاً أقصـــى غايات مقامات الخلق، ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى أواخرها، فكان استغفاره لذلك.

ولما قالت عائشـــة رضـــي الله عنها: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فما هذا البكاء في السـجود وما هذا الجهد الشـديد؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» معناه: أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى {ولئن شـكرتم لأزيدنكم} [إبراهيم: 7] انتهى. وهو على ما ترى من النفاسة فمن أكثر من الدعاء في سجوده فقمن أن يستجاب لـه، والصـــلاة لا تكون إلا بالقراءة فإذا فعلت ذلك احتجبت عن الأغيار

بحجاب منيع، فازددت صفاء وصنت حالك عن الغير- كما يرشد إليه ما في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام «ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه- والله أعلم» فقد رجع آخرها إلى الأول، على أحسن وجه وأجمل وأكمل- والله الهادي.

97 Qadar Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة القدر

97

▲ تفسير الآيات رقم [1- 5]

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)}

لما ذكر الله سبحانه وتعالى كتابه في هذا الذكر العربي المعجز، ذكر إنزاله مستحضراً في كل قلب، كان ذلك مغنياً عن إعادته بصريح اسمه، فكان متى أضمره علمه المخاطب بما في السياق من القرائن الدالة عليه، وبما له في القلب من العظمة وفي الذهن من الحضور لا سيما في هذه السورة لافتتاح العلق بالأمر بقراءته، وختمها بالصلاة التي هي أعظم أركانها، فكانت دلالتها عليه دلالة هي في غاية الوضوح، فكان كأنه قال : واقترب

بقراءة القرآن في الصـــلاة، فكان إضـــماره أدل على العظمة الباهرة من إظهاره، لدلالة الإضـــمار على أنه ما تم شـــيء ينزل غيره فهو بحيث لا يحتاج إلى التصـريح به، قال مفخماً له بأمور: إضـماره، وإسـناد إنزاله إليه، وجعل ذلك في مظهر العظمة، وتعظيم وقت إنزاله المتضـــمن لعظمة البلد الذي أنزل فيه- على قول الأكثر، والنبي الذي أنزل عليه، مؤكداً لأجل ما لهم من الإنكار، {إنا} أي لما لنا من العظمة {أنزلناه} أي هذا الذكر كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا مرتباً هذا الترتيب الذي جمع الله الأمة المعصـــومة عليه، وهو الموجود الآن، وكذا كان إنزال أول نجم منه، وهو أول السورة الماضية إنزالاً مصدقاً لأن عظمته من عظمتنا بما له من الإعجاز في نظمه، ومن تضـــاؤل القوى عن الإحاطة بعلمه، وأول ما أنزل منه صـــدرها إلى خمس آيات منها آخرها «ما لم يعلم» على النبي صـلى الله عليه وسـلم وهو مجاور في هذا الشـهر الشـريف بجبل حراء من جبال مكة المشـرفة، ثم صـار ينزل مفرقاً بحسـب الوقائع حتى تم في ثلاث وعشـرين سـنة، وكلما نزل منه نجم يأمر النبي صـلى الله عليه وسـلم بترتيبه في سـورته عن أمر الله تعالى حتى تم في السـور على ما هو عليه الآن ما هو عليه في بيت العزة.

ولما عظمه بما ذكر، زاده عظماً بالوقت الذي اختار إنزاله فيه ليكون طالعه سـعيداً لما كان أثره حميداً فقال: {في ليلة القدر *} أي الليلة التي لها قدر عظيم وشـــرف كبير، والأعمال فيها ذات قدر وشـــرف، فكانت بذلك كأنها مختصة بالقدر فلا قدر لغيرها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: ورد تعريفاً بإنزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتب، وأن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب، أعلم سبحانه وتعالى بليلة إنزاله وعرفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا ونبحث في الاجتهاد في العمل لعلنا نوافقها وهي كالساعة في يوم الجمعة في إبهام أمرها مع جليل قدرها ومن قبيل الصلاة الوسطى، ولله سبحانه في إخفاء ذلك أعظم رحمة، وكان في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم ووضح اتصالها– انتهى.

ولما علم من السياق تعظيمها بعظمة ما أنزل فيها وبالتعبير عنها بهذا، قال مؤكداً لذلك التعظيم حثاً على الاجتهاد في إحيائها لأن للإنسان من الكسل والتداعي إلى البطالة ما يزهده في ذلك: {وما أدراك} أي وأي شيء أعلمك وأنت شديد التفحص {ما ليلة القدر *} أي لم تبلغ درايتك وأنت أعلم الناس غاية فضلها ومنتهى عليّ قدرها على ما لك من سعة العلم وإحاطة الفكر وعظيم المواهب.

ولما ثبتت عظمتها بالتنبيه على أنها أهل لأن يسأل عن خصائصها، قال مستأنفاً: {ليلة القدر *} أي التي خصصناها بإنزالنا له فيها {خير من ألف شهر *} أي خالية عنها أو العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، قالوا: وهي مدة ملك بني أمية سواء، وتسميتها بذلك لشرفها ولعظيم قدرها، أو لأنه يفصل فيها من أم الكتاب مقادير الأمور، فيكتب فيها عن الله حكم ما يكون من تلك

الليلة إلى مثلها من العام المقبل، من قولهم : قدر الله على هذا الأمر يقدره قدراً، أي قضاه، وهي الليلة المرادة في سورة الدخان بقوله تعالى: {فيها يفرق كل أمر حكيم} [الدخان: 4] وذكر الألف إما للمبالغة بنهاية مراتب العدد ليكون أبلغ من السبعين في تعظيمها أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر شخصاً من مؤمني بني إسرائيل لبس السلاح مجاهداً في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون منه فتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطاهم الله سبحانه وتعالى ليلة من قامها كان خيراً من ذلك، وأبهمها في العشر الأخير من شهر رمضان في قول الجمهور على ما صح من الأحاديث ليجتهدوا في إدراكها كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة والصلاة الوسطى في الخمس، واسمه الأعظم في الأسماء، ورضاه في سائر الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وقيام الساعة في الأوقات ليجتهدوا في كل لحظة حذراً من قيامها، والسر في ذلك أن النفيس لا يوصل إليه إلا باجتهاد عظيم إظهاراً لنفاسته وإعظاماً للرغبة فيه وإيذاناً بالسرور به، لكن جعل السورة ثلاثين كلمة سواء يرجح أنهم السابعة والعشرون التي وازاها قوله هي- كما نقل عن أبي بكر الوراق.

ولما عظمها، ذكر وجه العظم ليكون إعلاماً بعد إبهام وهو أوقع في النفس فقال مستأنفاً: {تنزل} أي تنزلاً متدرجاً هو أصلاً على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار إليه حذف التاء {الملائكة} أي هذ النوع العظيم الذي هو خير كله {والروح} أي جبريل عليه الصلاة والسلام، خصه بياناً لفضله أو هو مع أشراف الملائكة أو هو خلق أكبر من الملائكة أو هو أمر

تسكن إليه نفوس العارفين ويحصل به اليمن والبركة {فيها} وأشار إلى خفاء ذلك التنزل بإسقاط تاء التنزل مع ما تقدم من الإشارات، ودل على زيادة البركة في ذلك التنزل وعظيم طاعة الملائكة بقوله: {بإذن ربهم} أي بعلم المحسن إليهم المربي لهم وتمكينه، وتنزلهم إلى الأرض أو السماء الدنيا أو تقربهم من المؤمنين، متبدئ تنزلهم {من كل أمر *} أي الأمور الكلية التي يفرقون فيها بإذن الله تفاصيل الأمور التي يريدها سبحانه في ذلك العام في أوقاتها من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل، أو من أجل تقدير كل شيء يكون في تلك السنة، وعبر عن الشيء بالأمر إعلاماً بأنهم لا يفعلون شيئاً إلاّ بأمره.

ولما ذكر سبحانه هذه الفضائل، كانت النتيجة أنها متصفة بالسلامة التامة كاتصاف الجنة- التي هي سببها- بها، فكان ذلك أدل على عظمتها فقال تعالى: {سلام} أي عظيم جداً {هي} أي ما هي إلا سلامة وخير ليس فيها شر، ولا يزال ذلك السلام والبركة فيها {حتى} أي إلى {مطلع الفجر *} أي طلوعه ووقت طلوعه وموضع طلوعه، لا يكون فيه شر كما في غير ليلتها، فلا تطلع الشمس في صبيحتها بين قرني الشيطان إن شاء الله تعالى، وذلك سر قراءة الكسائي بالكسر- والله أعلم، واختير التعبير ب «حتى» دون «إلى» ليفهم أن لما بعدها حكم ما قبلها، فيكون المطلع في حكم الليلة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل ليلة القدر في كوكبة من الملائكة ومعه لواء أخضر يركزه فوق الكعبة، ثم يفرق الملائكة في الناس حتى يسلموا على كل قائم وقاعد وذاكر وراكع وساجد

إلى أن يطلع الفجر، فمن تأمل هذه الســـورة علم منه ما للقرآن من العظمة فأقبل عليه بكليته يتلوه حق تلاوته كما أمر في ســورة «اقرأ» فأمن من غير شـــك من هول يوم الدين المذكور في التين، ومن تلاوته بحقه تعظيم ليلة القدر لما ذكر من شرفها، وذلك جاز إلى الحرص عليها في كل السنة، فإن لم يكن ففي كل رمضــان، فإن لم يكن ففي جميع ليالي العشـر الأخيرة منه، ليكون له من الأعمال بسـبب فضـلها ومضـاعفة العمل فيها ما لا يحصـيه إلى الله تعالى بحيث إنه ربما يكون خيراً من عمل من اجتهد فيما قبلنا ألف ســـنة، ورجوع آخرها بكون هذا التنزل في ليلة القدر على أولها في غاية الوضوح لأن أعظم السلام فيها نزول القرآن، ولعل كونها ثلاثين كلمة إشارة إلى إن خلافة النبوة التي هي ثلاثون ســنة بعد موت النبي صــلى الله عليه وسلم التي آخرها يوم نزل أمير المؤمنين الحسـن بن علي رضـي الله عنهما فيه عن الخلافة لمعاوية رضــي الله عنه في شـــهر ربيع الأول ســنة إحدى وأربعين هي كليلة القدر في الزمان، وما بعدها كليالي العام فيه الفاضـــل وغيره، وتلك المدة كانت لخمســة خلفاء أشــارت إليهم حروف الكلمة الأخير منها، فالألف لأبي بكر رضـــي الله عنه وهي في غاية المناســـبة له، فإن الربانيين قالوا : هو اســـم للقائم المحيط الأعلى الغائب عن مقامه لكنها الحاضــر معه وجوداً كالروح، وكذا كان رضـــي الله عنه حاضــراً مع الأمة بوجوده وهو غائب عنهم بتوجهه، وجميع قلبه إنما هو مع الله عز وجل، واللام لعمر رضـــي الله عنه وهي شـديدة المناسـبة له فإنها صـلة بين باطن الألف وظاهر الميم الذي هو لمحمد صـــلى الله عليه وســـلم لأنه للتمام،

وكذلك فعل– وصل بين السيريتن وصلاً تاماً بحيث وصل ضعف الصديق في بدنه وقوته في أمر الله بقوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتظم به الأمر انتظاماً لا مزيد عليه، والفاء لعثمان رضـــي الله تعالى عنه وهو إشـــارة لبدء خلوص منته لتنقل بمزيد أو نقص، وآيته الفطرة الأولى، وآيتها المحسوسة اللبن أول خروجه إذا أصابه أقل شيء من الهواء الممدود غيّره، وكذلك الفطرة إذا أصـابها أقل شـيء من الهوى المقصـود غيّرها، وكذا كان حاله رضي الله تعالى عنه، حصلت له آفات الإحسان إلى أقاربه الذي قاده إليه قويم فطرته حتى حصلت له الآفات الكبار رضي الله عنه، والجيم لعلي رضي الله عنه وهو إشارة إلى الجمع، والإجمال الذي يحصل عنده عنا وهو أنسـب الأمور له رضـي الله تعالى عنه فإنه حصـل به الجمع بعد الافتراق العظيم بقتل أمير المؤمنين عثمان رضـــي الله تعالى عنه شـــهيداً مظلوماً، وحصل به الإجمال لكن لم يتم التفصيل بسبب ما حصل من العناد، والراء إشارة إلى الحسن رضـي الله تعالى عنه وهي تطوير وتصـيير وتربية، وهي لكل مرب مثل زوج المرأة وسـيد العبد، ولذلك فعل رضـــي الله عنه لما رأى الملك يهلك بقتل المسلمين رباه بنزوله عن الأمر لمعاوية، فكان كالسيد أذن لعبده وربي أمره به، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم سيداً– رضي الله عنهم أجمعين، والله أعلم بالصواب.

98 Bayyinah Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاسـب الآيـات والسـور والسورللبقاعي

▲ سورة البينة

98

▲ تفسير الآيات رقم [1– 4]

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)}

لما أخبر سبحانه وتعالى أن الليلة الشريفة التي صانها بنوع خفاء في تنزل من يتنزل فيها وفي تعيينها لا تزال قائمة على ما لها من تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان، أخبر أن أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لا لم يصح في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر، وهو القرآن المذكور في القدر والرسول المنزل عليه ذلك

فقال: {لم يكن} أي في مطلق الزمان الماضـي والحال والاسـتقبال كوناً هو كالجبلة والطبع، وهذا يدل على ما كانوا عليه قبل ذلك من أنهم يبدلون ما هم عليـه من الكفر أو الإيمان بكفر أو بـدعـة ثم لا يثبتون عليـه لأن ذلك ليس في جبلاتهم، وإنما هو خاطر عارض كما هو محكيّ عن سـيرتهم من بعد موسى عليه الصلاة والسلام لما كانت تسوسهم الأنبياء عليهم السلام كما دل على بعض ذلك قوله تعالى: {فعموا وصـموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصـموا} [المائدة: 71] وكذا المشـركون كانوا يبدلون دين إسـماعيل عليه الصلاة والسلام ولا ينفصلون عنه بالكلية، وتارة يعبدون الأصنام، وتارة الملائكة، وأخرى الجن، ولم يكونوا يثبتون على حالـة واحدة ثباتاً كلياً مثل ثباتهم على الإسـلام بعد مجيء البينة ونسـيانهم أمور الجاهلية بالكلية حتى نسوا الميسر، فلم يكن أحد من أولادهم يعرف كيفيته وكذا السائبة وما معها وغيرها ذلك من خرافاتهم {الذين كفروا} أي سـواء كانوا عريقين في الكفر أم لا.

ولما كان العالم أولى باتباع الحق وأشد جرماً عند فعل ما يقتضي اللوم، بدأ بقوله: {من أهل الكتاب} أي من اليهود والنصـارى الذين كان أصـل دينهم حقاً، فألحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج في صـفات الله تعالى، ثم نسـخه الله تعالى بما شـرع من مخالفته في الفروع وموافقته في الأصـول فكذبوا {والمشـركين} أي بعبادة الأصـنام والنار والشـمس ونحو ذلك ممن هم عريقون في دين لم يكن له أصـل في الحق بأن لم يكن لهم كتاب {منفكين} أي منفصـلين زائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكاً يزيلهم عنه بالكلية

بحيث لا يبقى لهم به علقة، ويثبتون على ذلك الانفكاك، وأصـل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتحماً، من فك الكتاب والختم والعظم- إذا زايل ما كان ملتصـقاً ومتصـلاً به، أو عما في أنفسـهم من ظن اتباع الحق إذا جاءهم الرسول المبشر به بما كان أهل الكتاب يستفتحون به والمشركون يقسمون بالله جهد أيمانهم {لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم} [فاطر: 42] فيصيروا بذلك أحزاباً وفرقاً {حتى} أي إلى أن {تأتيهم} عبر بالمضارع لتجدد البيان في كل وقت بتجدد الرسـالة والتلاوة {البينة *} أي الآية التي هي في البيان كالفجر المنير الذي لا يزداد بالتمادي إلا ظهوراً وضـياء ونوراً، وذلك هو الرسول وما معه من الآيات التي أعظمها الكتاب سواء كان التوراة أو الإنجيل أو الزبور أو الفرقان، ولذلك أبدل منها قوله: {رسول} أي عظيم جداً، وزاد عظمته بقوله واصـفاً له: {من الله} أي الذي له الجلال والإكرام {يتلوا} أي يقرأ قراءة متواترة ذلك الرسـول بعد تعليمنا له {صـحفاً} جمع صـحيفة وهي القرطاس والمراد ما فيها، عبر بها عنه لشدة المواصلة {مطهرة *} أي هي في غاية الطهارة والنظافة والنزاهة من كل قذر بما جعلنا لها من البعد من الأدناس بأن الباطل من الشرك بالأوثان وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها وأنها لا يمسـها إلا المطهرون، وقراءته وإن كان أمياً لمثل ما فيها قراءة لها.

ولما عظمه بأن وصف صحفه التي هي محل المكتوب بالطهارة، بين سبب ذلك فقال: {فيها} أي تلك الصحف {كتب} جمع كتاب أي علوم هي لنفاستها حقيقة بأن تكتب {قيمة *} أي هي في غاية الاسـتقامة لنطقها بالحق الذي

لا مرية فيه ليس فيها شــرك ولا عوج بنوع من الأنواع، فإذا أتتهم هذه البينة انفكوا وانفكاكهم أنهم كانوا مجتمعين قبل هذا، أهل الكتاب يؤمنون بالنبي صــلى الله عليه وسـلم لما عندهم من البشـائر الصـريحة به، والمشـركون يقولون: لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم، ويقولون: نحن نعرف الحق لأهله ولا ندفعه بوجه، فلما جاءهم النبي صـلى الله عليه وسلم بما لا شبهة فيه تفرقوا، فبعضهم آمن وبعضهم كفر.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هي من كمال ما تقدمها لأنه لما أمره عليه الصـلاة والسـلام بقراءة كتابه الذي به اتضـحت سـبيله وقامت حجته، وأتبع ذلك بالتعريف بليلة إنزاله وتعظيمها بتعظيم ما أهلت له مما أنزل فيها، أتبع ذلك بتعريفه صـــلى الله عليه وســـلم بأن هذا الكتاب هو الذي كانت اليهود تسـتفتح به على مشـركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به، حتى إذا حصـل ذلك مشـاهداً لهم كانوا هم أول كافر به، فقال تعالى: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشـــركين منفكين حتى تأتيهم البينة- إلى قوله: وذلك دين القيمة} وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف وينهج بإذن الله التسـليم والتبرؤ من ادعاء حول أو قوة، فإن هؤلاء قد كانوا قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي بـه يجدونـه مكتوبـاً عنـدهم في التوراة والإنجيل، وقد كانوا إليهم في أمر الكتاب والآتي به يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وقد كانوا يؤملون الانتصـار به عليه الصـلاة والسـلام من أعدائهم ويســتفتحون بكتابه، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر وأنظارهما رضـــي الله عنهم أجمعين، وحرم هؤلاء الذين قد كانوا

على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البرية، ورضي عن الآخرين ورضوا عنه، وأســكنهم في جواره ومنحهم الفوز الأكبر والحياة الأبدية وإن كانوا قبل بعثه عليه الصــلاة والســلام على جهالة وعمى، فلم يضــرهم إذا قد سبق لهم في الأزل «أولئك هم خير البرية» انتهى.

ولما كان التقدير : فإذا أتتهم انفكوا، فلقد تفرق المشـــركون بعد إتيانك وأنت البينة العظمى إليهم إلى مهتد وضــال، والضــال إلى مجاهر ومســاتر، وكذا أهل الكتاب، ثم ما اجتمع العرب على الهدى إلا من بعد ما جاءتهم البينة، عطف على هذا الذي أفهمه السـياق قوله معلماً بزيادة القبح في وقوع الذنب من العالم بإفرادهم بالتصــريح عن المشــركين: {وما تفرق} أي الآن وفيما مضـــــى من الزمان تفرقاً عظيماً {الذين} ولما كانوا في حال هي أليق بـالإعراض، بنى للمفعول قولـه: {أوتوا الكتـاب} أي عمـا كـانوا عليـه من الإطباق على الضــلال أو الوعد باتباع الحق المنتظر في محمد صــلى الله عليه وســلم، وكذا كان فعلهم في عيســى صــلى الله عليه وســلم من قبل، فاسـتمر بعضـهم على الضـلال وبالغ في نقض العهد والعناد، ووفى بعض بالوعد فاهتدى، وكان تفرقهم لم يعد تفرقاً إلا زمناً يســيراً، ثم اجتمعوا فلم يؤمن منهم من يعد خلافته لباقيهم تفرقاً لكونه قليلاً من كثير، فلذلك أدخل الجارّ فقال: {إلا من بعد} وكان ذلك الزمن اليسير هو بإسلام من أسلم من قبائل العرب الذين كانوا قد أطبقوا على النصـرانية من تنوخ وغسـان وعاملة وبكر بن وائل وعبد القيس ونحوهم وكذا من كـان تهود من قبـائل اليمن وأسلم، ثم أطبق اليهود والنصارى على الضلال فلم يسلم منه إلى من لا يعد

لقلته مفرقاً لهم {ما} أي الزمن الذي {جاءتهم} فيه أو مجيء {البينة *} فكان حالهم كما قال سبحانه {وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} [البقرة: 89] وقد كان مجيء البينة يقتضي اجتماعهم على الحق، لا تفرقهم فيه، وكأنه أشار إلى المشركين بالعاطف ولم يصرح بذكرهم لأنهم كانوا عكس أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا زمناً يسيراً في أول الأمر، فكان الضال منهم أكثر، ثم أطبقوا على الهدى لما لهم من قويم الطبع ومعتدل المزاج، فدل ذلك على غاية العوج لأهل الكتاب لأنهم كانوا لما عندهم من العلم أولى من المشركين بالاجتماع على الهدى، ودل ذلك على أن وقوع اللدد والعناد من العالم أكثر، وحصوله الآفة لهم من قوة ما لطباعهم من كدر النقص بتربيته وتنميته بالمعاصي من أكل السحت من الربا وغيره من الكبائر والتسويف بالتوبة، فألفت ذلك أبدانهم فأشربته قلوبهم حتى تراكم ظلامها، وتكاثف رينها وغمامها، فلما دعوا لم يكن عندهم شيء من نور تكون لهم به قابلية الانقياد للدعاء.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 8]

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)}

ولما كان حال من ضل على علم أشنع، زاد في فضيحتهم فقال: {وما} أي فعلوا ذلك والحال أنهم ما. ولما كان المقصود بروز الأمر المطاع، لا تعيين الآمر، قال بعد وصف الصحف بأنه ثبت أنها قيمة بانياً للمفعول: {أمروا} أي وقع أمرهم بما أمروا به ممن إذا أطلق الأمر لم يستحق أن ينصرف إلا إليه، في تلك الكتب التي وجب ثبوت اتباعها وأذعنوا له {إلا ليعبدوا} أي لأجل أن يعبدوا {الله} أي الإله الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد غيره بأن يوجدوا عبادته ويجددوها في كل وقت، والعبادة امتثال أمر الله تعالى كما أمر على الوجه المأمور به من أجل أنه آمر، مع المبادرة بغاية الحب والخضوع والتعظيم، وذلك مع الاقتصاد لئلا يمل الإنسان فيخل أو يحصل له الإعجاب فتفسد عبادته، حال كونهم {مخلصين} أي ثابتاً غاية الثبات إخلاصهم {له الدين} بحيث لا يكون فيه شوب شيء مما يكدره من شرك جلي ولا خفي بأن يكون الامتثال لكونه أمر لرضاه لا لشي من نفع ولا دفع، ويكون ذلك على الصواب، فإن كثيراً من العاملين يكون مخلصاً، ويكون بناؤه بغير أساس صالح، فلا ينفعه بل يكون وبالاً عليه، فإنه ضيع الأصل كالرهبان وكذا كثير ممن يعتقد ولاية شخص وهو لا يعرف أن يميز بين الولي والعدو والمكرم والمستدرج، وحقيقة الإخلاص بأنه إفراد الحق في الطاعة بالقصد مع نسيان الخلق في الأعمال والتوصل إليه بالتوقي من ملاحظتهم مع التنقي عن مطالعة النفس برؤية العبد نفسه عبداً مأموراً لا يريد ثواباً، جاعلاً كل شيء وسيلة إلى الله، وعلامته عدم رؤية العمل، ويعرف ذلك بالخوف وعدم الالتفات إلى طلب الثواب، وبالحياء منه لكونه

يرى أنه ما قام بحق السـيد على ما ينبغي كما قال تعالى: {يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} [المؤمنون: 60] قال القشيري: ويقال: الإخلاص تصـفية العمل من الخلل، وقال الرازي: الإخلاص النية الصـافية لأن النية دائمة، والعمل ينقطع، والعمل يحتاج إلى النية، والنية لا تحتاج إلى العمل، ولأجل ما أفهمه التعبير بالاسـم من التمكن والثبات أكده بقوله: {حنفاء} أي في غاية الميل مع الدليل إلى القوم بحيث لا يكون عندهم اعوجاج أصـلاً، بل مهما حصـل أدنى زيغ عرضـوه على الدليل فمالوا معه بما لهم من الحنف فقادهم إلى الصـلاح فصـاروا في غاية الاسـتقامة، وتلك هي العبادة الإحسانية، وأصل الحنف في اللغة: الميل، قال الملوي: وخصه العرف بالميل إلى الخير، ولذا سـمي الأحنف بن قيس لميل في رجليه إلى داخل من جهة القدام إلى الوراء، وسـموا الميل إلى الشـر إلحاداً، فالحنيف المطلق الذي يكون متبرئاً عن أصـول الملل الخمس: اليهود والنصـارى والصـابئين والمجوس والمشـركين، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات الحقة، وعن توابعها من الخطايا والسـيئات إلى العمل الصـالح وهو مقام التقى، وعن المكروهات إلى المسـتحبات وهو المقام الأول من الورع، وعن الفضـول شـفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى الذي يعني، وهو المقام الثاني من الورع، وعما يجر إلى الفضـول وهو مقام الزهد، فالآية جامعة لمقامي الإخلاص الناظر أحدهما إلى الحق، والثاني إلى الخلق، فالإخلاص لمقام المشتغل بالمصفى له لأنه إفراد الحق بالقصد في الطاعة،

والخوف لمقام المشتغل بالمصفى منه لأنه الميل عن سائر المخلوقات إلى الله تعالى وإلى ما يرضيه.

ولما ذكر أصـــل الدين، أتبعه الفروع، فبدأ بأعظمها الذي هو مجمع الدين وموضع التجرد عن العوائق فقال: {ويقيموا} أي يعدلوا من غير اعوجاج ما، بجميع الشـرائط والأركان والحدود {الصـلاة} لتصـير بذلك أهلاً لأن تقوم بنفسها، وهي التعظيم لأمر الله تعالى.

ولما ذكر صلة الخالق، أتبعها وصلة الخلائق فقال: {ويؤتوا الزكاة} أي بأن يحضـروها لمستحقيها شفقة على خلق الله إعانة على الدين، ولكنهم حرفوا ذلك وبدلوه بطباعهم المعوجة، وتدخل الزكاة عند أهل الله في كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصـر ولسان ويد ورجل ووجاهة وغير ذلك- كما هو واضح من قوله تعالى: {ومما رزقناهم ينفقون} [البقرة: 3- والأنفال:- 3].

ولما كان هذا ديناً حسناً بيناً فضلوا عنه على ما عندهم من الأدلة، زاد في توبيخهم بمدحه فقال: {وذلك} أي والحال أن هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور الذي هو في غاية العلو والخير {دين القيمة *} أي الملة أو النفوس أو الكتب التي لا عوج فيها، وهو على الأول من إضافة الموصوف إلى الصفة، وعن الخليل أنه قال: هو جمع قيم، والقيم والقائم واحد، والمعنى دين القائمين لله تعالى بالتوحيد، ودل على ما قدرته في أمر المشـــركين بذكرهم في نتيجة ما مضى في قوله مؤكداً لأجل إنكارهم: {إن الذين كفروا} أي وقع منهم الستر لمرائي عقولهم بعد صرفها للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك وإن لم يكونوا عريقين فيه {من أهل الكتاب} أي اليهود

والنصارى {والمشركين} أي العريقين في الشرك، ودل بالإتيان بالوصف هنا والفعل في أولئك- والله أعلم- على أن المشرك يرجع عن شركه ويؤمن إن لم يكن عريقاً في الشـــرك بخلاف أهل الكتاب متى تلبس أحد منهم بكفر لا يرجع عنه وإن كان تلبسه به على أضعف الوجوه، وكذا كل من ينسب إلى علم ولا سيما إن كان بليداً متى عرضت له شبهة بعد رجوعه عنها، فلذلك جمع بينهم في قوله: {في نار جهنم} أي النار التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة تكون عذاباً لأجســامهم {خالدين فيها} أي يوم القيامة أو في الحال لسعيهم في موجباتها، واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب التساوي في النوع بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته.

ولما كان معظم السياق للعبادة والترغيب فيها من القراءة والسجود والانفكاك عن الكفر، لم يذكر التأبيد بلفظه، بل اكتفى بما دل عليه وقال في نتيجة ما مضـى: {أولئك} أي البعداء البغضـاء {هم} أي خاصـة بما لضمائرهم من الخبث {شر البرية *} أي الخليقة الذين أهملوا إصلاح أنفسهم، وفرطوا في حوائجهم ومآربهم، وهذا نار لأرواحهم حين ينادى عليهم به.

ولما ذكر الأعداء وبدأ بهم، لأن الســـياق لذم من جمد من المألوف وترك المعروف، أتبعه الأولياء فقال مؤكداً لما للكفار من الإنكار : {إن الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان من الخلق كلهم الملائكة وغيرهم {وعملوا} أي تصـديقاً لإيمانهم {الصــالحات} أي هذا النوع، ولما كان نعيم القلب أعظم، قدمه على نعيم البدن إبلاغاً في مدحهم فقال: {أولئك} أي العالو الدرجات {هم} أي خاصة {خير البرية *}.

ولما خصـصـــهم بالخيرية، ذكر ثوابهم، فقال ذاكراً جنة أبدانهم معظماً لهم بالتعبير عن إنعامه عليهم بلفظ الجزاء المؤذن بأنه مقابلة ما وصـــفوا به: {جزاؤهم} أي على طاعاتهم، وعظمه بقوله: {عند ربهم} إليهم المربي لهم وأي المحسن {جنات عدن} أي إقامة لا تحول عنها {تجري} أي جرياً دائماً لا انقطاع له. ولما كان عموم الماء مانعاً من تمام اللذة، قرب وبعض بقوله: {من تحتها} أي تحت أرضها وغرفها وأشجارها {الأنهار}.

ولما كانت اللذة لا تكمل إلا بالدوام قال: {خالدين فيها} ولما كان النظر إلى الترغيب في هذا الســـياق أتم حثاً على اتباع الدليل المعروف، والمفارقة للحال المألوف، أكد معنى الخلود تعظيماً لجزائهم بقوله: {أبداً}.

ولما كان هذا كله ثمرة الرضا، وكان التصريح به أقر للعين لأنه جنة الروح، قال مســتأنفاً أو معللاً: {رضـــي الله} أي بما له من نعوت الجلال والجمال {عنهم} أي بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق. ولما كان الرضا إذا كان من الجانبين، كان أتم وأعلى لهم قال: {ورضوا عنه} لأنهم لم يبق لهم أمنية إلا أعطاهموها مع علمهم أنه متفضـــل في جميع ذلك، لا يجب عليه لأحد شـيء ولا يقدره أحد حق قدره، فلو أخذ الخلق بما يستحقونه أهلكهم، وأعظم نعمه عليهم ما منّ عليهم به من متابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك كان سبباً لكل خير.

ولما كان ذلك ربما ادعى أنه لناس مخصوصين في زمان مخصوص، قال معمماً له ومنبهاً على الوصف الذي كان سبب أعمالهم التي كانت سبب جزائهم: {ذلك} أي الأمر العالي الذي جوزوا به {لمن خشـــي ربه *} أي

خاف المحسن إليه خوفاً يليق به، فلم يركن إلى التسويف والتكاسل، ولم يطبع نفسه بالشر بالجري مع الهوى في التطعم بالمحرمات بل كان ممن يطلب معالي الأخلاق فيستفتي قلبه فيما يرضي ربه، فكان تواتر إحسانه يزيده خوفاً فيزيده شكراً، فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير، وهي للعارفين، قال الملوي ما معناه: إن الإنسان إذا استشعر عقاباً يأتيه أو خسراً، لحقته حالة يقال لها الخوف وهي انخلاع القلب عن طمأنينة الأمن وقلقه واضطرابه لتوقع مكروه، فإن اشتد سمي وجلاً لجولانه في نفسه، فإذا اشتد سمي رهباً لأدائه إلى الهرب، وهي حالة المؤمنين الفارين إلى الله ومن غلب عليه الحب لاستغراق في شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة إذ لا ينفك عن خوف إبعاد أو صد لغفلة أو ذلة، ومن غلب عليه التعظيم لاستغراق في شهود الجلاليات صار في الإجلال، ووراء هذا الخشية

{إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: 28] فمن خاف ربه هذا الخوف انفك من جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه سبحانه، ولم يقدح في البينة ولا توقف فيها، وما فارق الخوف قلباً إلا خرب، فكان جديراً بأن يقدح في كل ما أدى إلى العمارة، وقد رجع آخر السورة على أولها بذلك، وبتصنيف الناس صنفين: صنف انفك عن هوى نفسه فأنجاها، وصنف استمر في أسرها فأرداها، وقد ذكرت في «مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور» سر تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم لأبيّ رضي الله عنه بقراءة هذه السورة عليه بخصوصها، وحاصله أن سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة رضي الله عنهم قد خالفاه في القراءة فرفعهما إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما، قال: فسقط في نفسي من التكذيب أشد مما كان في الجاهلية، فضرب صلى الله عليه وسلم في صدري ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً، ثم قص عليّ خبر التخفيف بالسبعة الأحرف، وكانت السورة التي وقع فيها الخلاف النحل وفيها أن الله يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم البعث شهيداً، وأنه نزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا، وأن اليهود اختلفوا في السبت، وسورة {لم يكن} على قصرها حاوية إجمالاً لكل ما في النحل على طولها بزيادة، وفيها التحذير من الشك بعد البيان، وتقبيح حال من فعل ذلك، وأن حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب في العناد، فيكون شر البرية، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليه رضي الله عنه تذكيراً له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصوراً فيكون أرسخ في النفس وأثبت في القلب وأعشق للطبع، فاختصه الله بالتثبيت وأراد له الثبات، فكان من المريدين المرادين لما وصل إليه قلبه ببركة ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لصدره من كشفه الحجب ونفي الشياطين والنظر إلى سبحات القدس وشهود تلك الحضرة الشماء، وصيرورته إلى أن يكون أصفى الصحابة رضي الله عنهم مراقبة لتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم بما يتذكر من الأمر الشريف بتخصيصه بذلك، فيصير كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائباً عن تلاوة نفسه مصغياً بأذني قلبه إلى روح النبوة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذي وصل إليه بسر تلك الضربة.

ولثبوته في هذا المقام قال صـلـى الله عليه وسـلم: «أقرؤكم أبيّ» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس رضـــي الله تعالى عنه وهو صـــحيح ورواه بعضهم مرسلاً، ومما فيه ولم أذكره في المصاعد سنة التواضع حتى لا يمنع أحداً ما يراه من علوه من القراءة على من هو دونه فإنه ما منع أكثر أهل الكتاب من الإسلام إلا رؤية ما كانوا عليه من العلم بكتب الله وسنن الرسل عليهم الصـلاة والسـلام وجهل العرب بذلك، فنظروا إلى ما كان ولم ينظروا إلى الحالة الراهنة الآن، فحلق الحسد أديانهم وسلبهم إيمانهم، وصاروا أشقى الناس– كما نبه عليه أول السورة– نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة– آمين.

99 Zalzaal Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســور والسورللبقاعي

▲ سورة الزلزلة

99

▲ تفسير الآيات رقم [1– 8]

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)}

لما ختم تلك بجزاء الصالح والطالح في دار البقاء على ما أسلفوه في مواطن الفناء، ذكر في هذه أول مبادئ تلك الدار وأوائل غاياتها، وذكر في القارعة ثواني مبادئها وآخر غاياتها، وأبلغ في التحذير بالإخبار بإظهار ما يكون عليه الجزاء، فقال معبراً بأداة التحقق لأن الأمر حتم لا بد من كونه: {إذا}.

ولما كان المخوف الزلزلة ولو لم يعلم فاعلها، وكان البناء للمفعول يدل على سـهولة الفعل ويسـره جداً، بنى للمفعول قوله: {زلزلت الأرض} أي حركت واضـــطربت زلزلة البعث بعد النفخة الثانية بحيث يعمها ذلك لا كما كان يتفق قبل ذلك من زلزلة بعضها دون بعض وعلى وجه دون ذلك، وعظم هذا الزلزال وهوّله بإبهامه لتذهب النفس فيه كل مذهب، فقال كاســـراً الزاء لأنه مصـــدر، ولو فتحها لكان اســـماً للحركة، قال البيضـــاوي: وليس إلا في المضـاعف. {زلزالها *} أي تحركها واضـطرابها الذي يحق لها في مناسبته لعظمة جرم الأرض وعظمة ذلك اليوم، ولو شـرح بما يليق به لطال الشـرح، وذلك كما تقول: أكرم التقي إكرامة وأهن الفاســـق الشـــقي إهانة، أي على حسب ما يليق به.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصـنفين المذكورين في قوله: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين}- إلى قوله: {أولئك شر البرية} وقوله: {إن الذين آمنوا}- إلى آخر السورة. ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم، أعقب ذلك بمآل الصـــنفين واســـتيفاء جزاء الفريقين المجمل ذكرهم فقال تعالى: {يومئذ يصـــدر الناس أشـــتاتاً ليروا أعمالهم} إلى آخر السورة- انتهى.

ولما كان الاضـــطراب العظيم يكشـــف عن الخفي في المضـــطرب قال: {وأخرجت} وأظهر ولم يضـــمر تحقيقاً للعموم فقال: {الأرض} أي كلها {أثقالها} أي مما هو مدفون فيها كالأموات والكنوز التي كان أمرها ثقيلاً

على الناس، وهو جمع ثقل بالكسـر، وذلك حين يكون البعث والقيام متأثراً ذلك الإخراج عن ذلك الزلزال، كما يتأثر عن زلزال البسـاط بالنفض إخراج ما في بطنه وطيه وغضـونه من وسـخ وتراب وغيره، وما كان على ظهرها فهو ثقل عليها لأنها يعطيها الله قوة إخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبت الصـغير اللطيف الطري الذي هو أنعم من الحرير فيشـق الأرض الصلبة التي تكل عنها المعاول والحديد، ويشق النواة مع ما لها من الصلابة التي تستعصي بها على الحديد فينفلق نصفين وينبت منها ما يريده سـبحانه وتعالى، ويفلق قشـر الجوز واللوز ونوى الخوخ وغيره مما هو في غاية الصـلابة كما نشـاهده، ويخرج منه الشـجر بشـق الأرض على ضـعفه ولينه وصـلابتها وبكونه على ظهرها حتى يصـير أغلظ شـيء وأشـده، وكذا الحب سـواء، فالذي قدر على ذلك هو سـبحانه وتعالى قادر على تكوين الموتى في بطن الأرض وإعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين في البطن ويشق جميع منافذه على التحذير من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل إلى هناك بيكار ولا منشـار، ثم يخرج من البطن، فكذا إخراج الموتى من غير فرق، كل عليه هين- سـبحانه ما أعظم شـأنه وأعز سلطانه.

ولما كان الإنسـان إذا رأى هذا عجب له ولم يدرك سـببه لأنه أمر عظيم فظيع يبهر عقله ويضـيق عنه ذرعه، عبر عنه بقوله: {وقال الإنسـان} أي هذا النوع الصـادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما تأكد عنده من أمر البعث بما له من الأنس بنفسـه والنظر في عطفه، على سـبيل التعجب

والدهش أو الحيرة، ويجوز أن يكون القائل الكافر كما يقول: {من بعثنا من مرقدنا} [يس: 52] فيقول له المؤمن: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} [يس: 52] {ما لها *} أي أيّ شيء للأرض في هذا الأمر الذي لم يعهد مثله.

ولما طال الكلام وأريد التهويل، أبدل من «إذا» قوله معرفاً للإنسان ما سأل عنه: {يومئذ} أي إذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه ونصبه وكذا ما أبدل منه بقوله: {تحدث} أي الأرض بلسان الحال بإخراج ما في بطنها من الموتى والكنوز وغيرها على وجه يعلم الإنسان به لم زلزلت ولم أخرجت، وأن الإنذار بذلك كان حقاً، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تحدث بلسان المقال. {أخبارها *} أي التي زلزلت وأخرجت ما أخرجت لأجلها، وكل شيء عمل عليها شهادة منها على العاملين فتقول: عمل فلان كذا وكذا- تعدد حتى يود المجرم أنه يساق إلى النار لينقطع عنه تعداد ذلك الذي يلزم منه العار، وتشهد للمؤمن بما عمل حتى يسره ذلك، فيشهد للمؤذن كل ما امتد إليه صوته من رطب ويابس.

ولما كان من المقرر أنه لا يكون شيء إلا بإذنه تعالى، وكان قد بنى الأفعال لما لم يسم فاعله، فكان الجاهل ربما خفي عليه فاعل ذلك قال: {بأن} أي تحدث بسبب أن {ربك} أي المحسن إليك بإحقاق الحق وإزهاق الباطل لإعلاء شأنك {أوحى} وعدل عن حرف النهاية إيذاناً بالإسراع في الإيحاد فقال: {لها *} أي بالإذن في التحديث المذكور بالحال أو المقال.

ولما أخبر تعالى بإخراج الأثقال التي منها الأموات، اشتد التشوف إلى هيئة ذلك الإخراج وما يتأثر عنه، فقال مكرراً ذكر اليوم زيادة في التهويل: {يومئذ} أي إذ كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور {يصدر} أي يرجع رجوعاً هو في غاية السرعة والاهتداء إلى الموضع الذي ينادون منه لا يغلط أحد منهم فيه ولا يضل عنه {الناس} من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم {أشتاتاً *} أي متفرقين بحسب مراتبهم في الذوات والأحوال من مؤمن وكافر، وآمن وخائف، ومطيع وعاص.

ولما ذكر ذلك، أتبعه علته فقال بانياً للمفعول على طريقة كلام القادرين: {ليروا} أي يرى الله المحسن منهم والمسيء بواسطة من يشاء من جنوده أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه وتعالى كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما أخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم {أعمالهم *} فيعلموا جزاءها أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله، ثم سبب عن ذلك قوله مفصلاً الجملة التي قبله: {فمن يعمل} من محسن أو مسيء مسلم أو كافر {مثقال} أي مقدار وزن {ذرة خيراً} أي من جهة الخير {يره *} أي حاضراً لا يغيب عنه شيء منه لأن المحاسب له الإحاطة علماً وقدرة، فالكافر يوقف على أنه جوزي به في الدنيا أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان، فهو صورة بلا معنى ليشتد ندمه ويقوى حزنه وأسفه، والمؤمن يراه ليشتد سروره به.

ولما ذكر الخير، أتبعه ضده فقال: {ومن يعمل} أي كائناً من كان {مثقال ذرة شراً} أي من جهة الشر {يره} فما فوقه، فالمؤمن يراه ويعلم أنه قد غفر

له ليشتد فرحه، والكافر يراه فيشتد حزنه وترحه، والذرة النملة الصغيرة أو الهباءة التي ترى طائرة في الشعاع الداخل من الكوة، وقد رجع آخرها على أولها بتحديث الأخبار وإظهار الأسرار، وقد ورد في حديث الأعرابي أن هذه السورة جامعة لهذه الآية الأخيرة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها أحكم آية في القرآن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها الفاذة الجامعة، ومن فقه ذلك لم يحقر ذنباً وإن دق لأنه يجتمع إلى أمثاله فيصير كبيراً كما قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: «إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً» وروي كما ذكرته في كتابي «مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور» في حديث «إنها تعدل نصف القرآن» وفي حديث آخر أنها تعدل ربع القرآن، ولا تعارض، فالأول نظر إليها من جهة أن الأحكام تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، وهذه السورة اشتملت على أحكام الآخرة إجمالاً، وزادت على القارعة بإخراج الأثقال وأن كل أحد يرى كل ما عمل، والثاني نظر إليه باعتبار ما تضمنه الحديث الذي رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر» فاقتضى هذا الحديث أن الإيمان بالبعث الذي قررته هذه السورة ربع الإيمان الكامل الذي دل عليه القرآن، وأيضاً فأمر الدين أربعة أجزاء: أمر المعبود، وأمر العبيد، وأمر العبادة، وأمر الجزاء، فهذه السورة تكفلت بأمر الجزاء، وسورة الكافرون ربع لأنها في أمر العبادة على وجه

الخصـوص والخفاء وإن كانت على وجه التمام والوفاء، وسـورة النصـر ربع لأنها لأمر العبادة على وجه العموم والجلاء والظهور والعلاء- والله الـهادي للصواب وإليه المآب.

100 Aadiyaat Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة العاديات

100

تفسير الآيات رقم [1- 11]

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)}

لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الأعمال من الطبع، وما ينجر إليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفتع، موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنفاً من أثر دنياه على أخراه، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النعم الكبار الموجبة للشكر، فمن غلب عليه الروح شكر، ومن غلب عليه الطبع- وهم الأكثر- كفر فقال: {والعاديات} أي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عز وبطونها كنز، وهي لرجل وزر ولرجل أجر، فمن فاخر بها ونادى بها أهل الإسلام وأبطره عزها حتى قطع الطريق وأخاف الرفيق كانت له شراً، ومن جعلها في سبيل الله كانت له أجراً، ومن حمل عليها ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها وكانت له ستراً، وإنما أقسم بها ليتأمل ما فيها من الأسرار الكبار التي باينت به أمثالها من الدواب كالثور مثلاً والحمار ليعلم أن الذي خصها بذلك فاعل مختار واحد قهار، فالقسم في الحقيقة به سبحانه.

ولما كانت دالة على الضابحات بالالتزام، قال ناصباً به أو ب «تضبح» مقدراً: {ضبحاً *} والضبح صوت جهير من أفواهها عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا حمحمة ولا رغاء وهو النفس، وليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وأصله للثعلب واستيعر للخيل، وحكاه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: أح أح، أو الضبح عدو دون التقريب.

ولما ذكر عدوها، أتبعه ما ينشـأ عنه، فقال عاطفاً بأداة التعقيب لأن العدو بحيث يتسـبب عنه ويتعقبه الإيراء: {فالموريات} أي المخرجات للنار بما يصطك من نعلها بالأحجار، لا سيما عند سلوك الأوعار.

ولما كان الإيراء أثر القدح قال: {قدحاً *} أي تقدح ضـرباً بعنف كضـرب الزند ليوري النار، ونسب الإيراء إليها لإيجادها صورته وإن لم يكن لها قصد إليه.

ولما ذكر العدو وما يتأثر عنه، ذكر نتيجته وغايته فقال: {فالمغيرات} أي بإغارة أهلها عليها على العدو والإغارة والركض الشديد لإرادة القتل والنهب. ولما كانت الإغارة الكائن عنها الثبور والويل أروع ما تكون في أعقاب الليل قال: {صبحاً *} أي ذات دخول في الصباح.

ولما كان الأعداء حال الإغارة يكون مختلفاً تارة يميناً وتارة شـمالاً وتارة أماماً وتارة وراء بحسب الكر والفر في المصاولة والمحاولة تارة أثر الهارب، وأخرى في مصـاولة المقبل المحارب، فينشأ عنها الغبار الكثير لإثارة الهواء له واصطدام بعضـه ببعض لتعاكسـه بقوة الدفع من قوائمها وما تحركه منه، وكان المقسـم به منظوراً فيه إلى ذاته ونتيجة القسـم منظوراً فيها إلى الفعل بادئ بدء مع قطع النظر بالأصالة عن الذات، عطف على اسم الفاعل بعد حله إلى أن وصـلتها فقال: {فأثرن به} أي بفعل الإغارة ومكانها وزمانها من شـدة العدو {نقعاً *} أي غباراً مع الاعناق والصـياح والزجر بالعنق حتى صار ذلك الغبار منحبكاً ومنعقداً عليها.

ولما كان المغير يتوسط الجمع عند اختلال حالهم فيفرق شملهم لأنهم متى افترقوا حصل فيهم الخلل، ومتى اختلفوا تخللهم العدو ففرق شملهم قال: {فوسطن به} أي بذلك النقع أو الفعل والوقت والموضع {جمعاً} أي وهو المقصود بالإغارة، فدخلت في وسط ذلك الجمع لشجاعتها وقوتها وطواعيتها وشجاعة فرسانها.

ولما أقسم بالخيل التي هي أشرف الحيوان كما أن الإنسان المقسم لأجله أشرف ما اتصف منه بالبيان، وتجري به أفكاره كخيل الرهان، وتقدح المعاني تارة مقترنة بأشرف اللمعان، وأخرى بأخس ما يقع به الاقتران، من الزور والبهتان، والإلحاد والطغيان، وتغير منه ثواقب الأذهان، تارة على شبه الخصوم بالبرهان، وأخرى بما يغير به من الشبه الملتبسة في وجوه المعاني الحسان، وينثر تارة المعاني الصحيحة على أهل الطغيان، من ذوي البدع والكفران، وأخرى الفاسدة على حزب الملك الديان، وتتوسط تارة جمع أولي الطغيان، وأخرى جمع أولي الإيمان، وكانت الإغارة في الغالب لأجل قهر المغار عليهم على أموالهم عدواناً إن كان ذلك في غير الجهاد، وإن كانت في الجهاد فقل من يخلص في ذلك الحال، فيكون عمله ليس إلا لله كما أشار إليه الحديث القدسي: «إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه» قال مجيباً للقسم بذكر المقسم عليه حاكماً على النوع باعتبار عد المخلص لقلته عدماً، مؤكداً لما لهم من تكذيب ذلك فإن كل أحد يتبرأ من مثل هذا الحال: {إن الإنسان} أي هذا النوع بما له من الأنس بنفسه والنسيان لما ينفعه {لربه} أي المحسن إليه بإبداعه ثم إبقائه وتدبيره وتربيته

{لكنود *} أي كفور نكد لسوء المعاملة حيث يقدم بما أحسن به الله إليه من الصـــافنات الجياد وبما آتاه من قوة الجنان والأركان على ما نهاه عنه، ومصـدره الكنود بالضـم وهو كفران النعمة، فالمراد هنا- بالتعبير عنه بهذه الصيغة التي هي للمبالغة- من يزدري القليل ولا يشكر الكثير، وينسى كثير النعمة بقليل المحنة، ويلوم ربه في أيسـر نقمة، وقال الفضـيل بن عياض: هو من أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، والشكور ضده.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: أقسم سبحانه على حال الإنسان بما هو فقال: «إن الإنسان لربه لكنود» أي لكفور، يبخل بما لديه من المال كأنه لا يجازي ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وكأنه ما سـمع بقوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} {وإنه لحب الخير} أي المال {لشديد} لبخيل، {وإنه على ذلك لشهيد} فإن الله على ذلك لمطلع فلا نظر في أمره وعاقبة مآله {إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور} أي ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه {إن ربهم بهم يومئذ لخبير} لا يخفى عليه شيء من أمرهم {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}- انتهى.

ولما كان إقدام الإنسان على الظلم عجباً، فإذا كان يشهد على نفسه بالظلم كان أعجب، قال مؤكداً لما لأكثر الخلق قبل البعث والمحاققة من إنكار كفرانه: {وإنه} أي الإنسـان {على ذلك} أي الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الأعظم المحسن مع الكفر لإحسانه {لشهيد *} لأنه مقر إذا

حوقق بأن جميع ما هو فيه من إحسان ربه وبأن ربه نهاه عن المخالفة، أو أنه لا أمر عنده منه بما فعل، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتحرك بحركة يمكن أن يكرهها الملك الذي هو في خدمته ولا شيء له إلا منه بغير إذنه، وأنه إن تحرك بغير ذلك كان كافراً لإحسانه مستحقاً لعقابه، لا يقدر على إنكار شيء منه.

ولما كان من العجائب أن يكفر أحد إحسان المنعم، وهو شاهد على نفسه، ذكر الحامل له على ذلك حتى هان عليه فقال: {وإنه} أي الإنسان من حيث هو مع شهادته على نفسه بالكفر الذي يقتضي سلب النعم {لحب} أي لأجل حب {الخير} أي المال الذي لا يعد غيره لجهله خيراً {لشديد *} أي بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه، أو بليغ القوة في حبه لأن منفعته في الدنيا وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بأن أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه وهو معرض عن الدين حيث كانت منفعته آجلة غائبة مع علمه بأن المعرّف بما يرضى من خدمة ربه الحاث عليها الداعي إليها فهو لحب عبادة الله ضعيف متقاعس، وكان حبه الخير يقتضي عنه الشكر الذي يتقاضى الزيادة، ولا يتخيل أن شديداً عامل في الحب لأن ما بعد اللام لا يعمل فيها قبلها، وإنما ذلك المتقدم دليل على المعمول المحذوف.

ولما كان المال فانياً لا ينبغي لعاقل أن يعلق أمله به فضلاً عن أن يؤثرة على الباقي، نبهه على ذلك بتهديد بليغ، فقال مسبباً عن ذلك معجباً، موقفاً

له على ما يؤول إليه أمره: {أفلا يعلم} أي هذا الإنسـان الذي أنسـاه أنسـه بنفسه.

ولما كان الحب أمراً قلبياً، لا يطلع عليه إلا عالم الغيب، وكان البعث من عالم الغيب، وكان أمراً لا بد منه، وكان المخوف مطلق كونه، لم يحتج إلى تعيين الفاعل، فبنى للمفعول قوله مهدداً مؤذناً بأنه شـــديد القدرة على إثارة الخفايا، معلقاً بما يقدره ما يؤول إليه أمره من أن الله يحاســبه ويجازيه على أعماله، وأنه لا ينفعه مال ولا غيره، ولا ينجيه إلا ما كان من أعماله موافقاً لأمر ربه مبنياً على أســاس الإيمان واقعاً بالإخلاص: {إذا بعثر} أي أثير بغاية السهولة وأخرج وفرق ونظر وفتش بغاية السهولة.

ولما كان الميت قبل البعث جماداً، عبر عنه بأداة ما لا يعقل فقال: {ما في القبور *} أي أخرج ما فيها من الموتى الذين تنكر العرب بعثهم فنشـــروا للحسـاب، أو من عظامهم ولحومهم وأعصـابهم وجلودهم وجميع أجسـامهم، وقلب بعضـــه على بعض حتى أعيد كل شـــيء منه على ما كان عليه، ثم أعيدت إليه الروح، فكان كل أحد على ما مات عليه.

ولما كان المخوف إنما هو ما يتأثر عن البعث من الجزاء على الأعمال الفاسـدة قال: {وحصـل} أي أخرج وميز وجمع فعرف أنه معلوم كله بغاية السـهولة كما أشـار البناء للمفعول {ما في الصـدور *} أي من خير أو شـر مما يظن مضـــمره أنه لا يعلمه أحد أصـــلاً، وظهر مكتوباً في صـــحائف الأعمال، وهذا يدل على أن النيات يحاسـب بها كما يحاسـب على ما يظهر من آثارها.

ولما كان علم ما في الصــدور أمراً باهراً للعقل، قال جامعاً نظراً إلى المعنى لمـا عبر عنـه بـالإفراد بـالنظر إلى اللفظ، لأن العلم بـالكل يلازمـه العلم بالبعض بخلاف العكس مؤكداً إشــارة إلى أنه مما لا يكاد يصـــدق، معللاً للجملة المحذوفة الدالة على الحساب: {إن ربهم} أي المحسن إليهم بخلقهم ورزقهم وتربيتهم وجعلهم أقوياء ســويين {بهم} قدم هذا الجار والمجرور لا للاختصـــاص، بل للاشـــارة إلى نهاية الخبر . ولما كانت الخبرة للإحاطة بالشـــيء ظاهراً وباطناً، وكان يلزم من الخبرة بالشـــيء بعد كونه بمدد طوال الخبرة به حال كونه من باب الأولى قال: {يومئذ} أي إذ كانت هذه الأمور وهو يوم القيامة {لخبير *} أي محيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم، فكيف بظواهرها جواهر وأعراضـاً، أقوالاً وأفعالاً، خفية كانت أو ظاهرة، سراً كانت أو علانية، خيراً كانت أو شراً، ومن المعلوم أن فيها الظلم وغيره، ومنهم المحســن وغيره، فلأجل علمه ســبحانه بذلك غاية العلم يحاسـبهم لئلا يقع ما ينافي الحكمة وهو أن تسـتوي الحسـنة والسـيئة، فالقصد بالقيد وتقديم الظرف الإبلاغ في التعريف بأنه سبحانه وتعالى محيط العلم بذلك كما إذا قيل لك: تعرف فلاناً ؟ فقلت: ولا أعرف إلا هو، فإن قصـــدك بذلك أن معرفتك به في غاية الإتقان، لا نفي معرفة غيره، وفيه إشــعار بأن كل أحد يعرف غاية المعرفة في ذلك اليوم أنه ســبحانه وتعالى عالم بأحواله لا ذهول له عن شـــيء من ذلك كما يقع في هذه الدار من أن الإنسان يعمل أشياء كثيرة وهو غافل عن أن ربه سبحانه مطلع عليه فيها، ولو نبه لعلم، فلإحاطته ســـبحانه وتعالى بجميع أحوالهم كان عالماً بأن

الإنســـان لربه لكنود، وقد رجع آخرها إلى أولها، وتكفل مفصـــلها بشـــرح مجملها- والله الهادي للصواب.

101 Qaariah Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

▲ سورة القارعة

101

▲ تفسير الآيات رقم [1- 11]

{الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)}

لما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال: {القارعة *} أي الصيحة أو القيامة، سميت بها لأنها تقرع أسماع الناس وتدقها دقاً شديداً عظيماً مزعجاً بالأفزاع، والأجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار، والأشياء الثابتة بالانتثار.

ولما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها وجليل سلطانها، عبر عن ذلك وزاده عظماً بالإلهام والإظهار في موضع الإضمار مشيراً بالاستفهام إلى

أنها مما يستحق السؤال عنه على وجه التعجيب والاستعظام فقال: {ما القارعة} وأكد تعظيمها إعلاماً- بأنه مهما خطر ببالك من عظمها فهي أعظم منه فقال: {وما أدراك} أي وأيّ شيء أعلمك وإن بالغت في التعرف، وأظهر موضع الإضمار لذلك فقال: {ما القارعة *} أي أنك لا تعرفها لأنك لم تعهد مثله.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال الله سبحانه وتعالى: «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور» كان ذلك مظنة لأن يسأل: متى ذلك؟ فقيل: يوم القيامة الهائل الأمر، الفظيع الحال، الشديد البأس، والقيامة هي القارعة، وكررت تعظيماً لأمرها كما ورد في قوله تعالى {الحاقة ما الحاقة} [الحاقة: 1- 2] وفي قوله سبحانه: {فغشيهم من اليم ما غشيهم} [طه: 78] ثم زاد عظيم هوله إيضاحاً بقوله تعالى {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث} والفراش ما تهافت في النار من البعوض، والمبثوث: المنتشر {وتكون الجبال كالعهن المنفوش} والعهن: الصوف المصبوغ، وخص لإعداده للغزل إذ لا يصبغ لغيره بخلاف الأبيض فإنه- لا يلزم فيه ذلك، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال وصيرورة كل فريق إلى ما كتب له وقدر- انتهى.

ولما ألقى السامع جميع فكره إلى تعرف أحوالها، قال ما تقديره: تكون {يوم يكون} أي كوناً كأنه جبلة {الناس} أي الذين حالهم النوس على كثرتهم واختلاف ذواتهم وأحوالهم ومراتبهم ومقاديرهم وانتشارهم بعد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور {كالفراش} أي صغار الجراد لأنها تتفرش وتتهافت

على النار، أو هو طير غير ذلك لا دم له، يتساقط في النار وليس ببعوض ولا ذباب، وقال حمزة الكرماني: شبههم بالفراش التي تطير من هنا ومن هنا ولا تجري على سـمت واحد وهي همج يجتلبها السـراج، وقال غيره: وجه الشبه الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما تتطاير الفراش، وكثرة التهافت في النار وركوب بعضهم بعضاً- وموج بعضهم في بعض من شدة الهول كما قال تعالى {كأنهم جراد منتشر} [القمر: 7] {المبثوث *} أي المنتشر المتفرق.

ولما كانت الجبال أشـد ما تكون، عظم الرهبة بالإخبار بما يفعل بها فقال تعالى: {وتكون الجبال} على ما هي عليه من الشدة والصلابة وأنها صخور راسخة {كالعهن} أي الصوف المصبغ لأنها ملونة كما قال تعالى:

{ومن الجبال جدد بيض وحمر} [فاطر: 27] أي وغير ذلك {المنفوش *} أي المندوف المفرق الأجزاء الذي ليس هو بمتلبد شـيء منه على غيره، فتراها لذلك متطايرة في الجو كالهباء المنثور حتى تعود الأرض كلها لا عوج فيها ولا أمتاً.

ولما كان اليوم إنما يوصف لأجل ما يقع فيه، سبب عن ذلك قوله مفصلاً لهم: {فأما من ثقلت} أي بالرجحان. ولما كانت الموزونات كثيرة الأنواع جداً، جمع الميزان باعتبارها فقال: {موازينه *} أي مقادير أنواع حسـناته باتباع الحق لأنه ثقيل في الدنيا واجتناب الباطل، والموزون الأعمال أنفسها تجسداً وصحائفها {فهو} بسبب رجحان حسناته {في عيشة} أي حياة تتقلب فيها، ولعله ألحقها الهاء الدالة على الوحدة- والمراد العيش- ليفهم أنها على

حالة واحدة– في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا {راضية *} أي ذات رضى أو مرضية لأن أمه– جنة عالية {وأما من خفت} أي طاشت {موازينه *} أي بأن غلبت سيئاته أو لم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه في الدنيا {فأمه} أي التي تؤويه وتضمه إليها كما يقال للأرض: أم– لأنها تقصد لذلك، ويسكن إليها كما يسكن إلى الأم، وكذا المسكن، وهو يفهم أنه مخلوق منها غلب عليه طبع الشيطان لكون العنصر الناري أكثر أجزائه، وعظمها بالتنكير والتعبير بالوصف المعلم بأنه لا قرار لها فقال: {هاوية *} أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها نازلاً وهو في عيشة ساخطة، فالآية من الاحتباك، ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً، وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً.

ولما كانت مما يفوت الوصف بعظيم أهوالها وشديد زلزالها، جمع الأمر فيها فقال منكراً أن يكون مخلوق يعرف وصفها: {وما أدراك} أي وأيّ شيء أعلمك وإن اشتد تكلفك {ما هيه *} أي الهاوية لأنه لم يعهد أحد مثلها ليقيسها عليه، وهاء السكت إشارة إلى إن ذكرها مما يكرب القلب حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام أو إلى– أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام عنها سمعه فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت ويصغي غاية الإصغاء.

ولما هوّلها بما ذكر، أتبعها ما يمكن البشر معرفته من وصفها فقال {نار حامية *} أي قد انتهى حرها، هذا ما تتعارفونه بينكم، وأما التفاصيل فأمر

لا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا نهاية القارعة، فتلاؤم الأول للآخر واضح جداً وظاهر- والله أعلم.

102 Takaathur Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة التكاثر

102

تفسير الآيات رقم [1- 8]

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)}

ولما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول، فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً لأنه {ألهكم} أي أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت الذي هو وحده

كـاف في البعث على الزهد فكيف بما بعده {التكـاثر *} وهو المبـاهـاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا: المال والجاه والبنين ونحوها مما هو شـــاغل عن الله، فكان ذلك موجباً لصـــرف الهمة كلها إلى الجمع، فصـــرفكم ذلك إلى اللهو، فأغفلكم عما أمامكم من الآخرة والدين الحق وعن ذكر ربكم وعن كل ما ينجيكم من ســـخطه، أو عن المنافســـة في الأعمال الموصلة إلى أعلى الدرجات بكثرة الطاعات، وذلك كله لأنكم لا تسلمون بما غلب عليكم من الجهل الذي سببه شهوة النفس وحب الراحة فخفت موازينكم، وحذف هذا الشـــيء الملهو عنه لتعظيمه والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه.

ولما كانوا ينكرون البعث، ويعتقدون دوام– الإقامة في القبور، عبر بالزيارة إشـــارة إلى أن البعث لا بد منه ولا مرية فيه، وأن اللبث في البرزخ وإن طال فإنما هو كلبث الزائر عند مزوره في جنب الإقامة بعد البعث في دار النعيم أو غار الجحيم، وأن الإقامة فيه محبوبة للعلم بما بعده من الأهوال والشدائد والأوجال، فقال: {حتى} أي اســـتمرت مباهاتكم ومفاخرتكم إلى أن {زرتم المقابر *} أي بالموت والدفن، فكنتم فيها عرضـــــة للبعث لا تتمكنون من عمل ما ينجيكم لأن دار العمل فاتت كما أن الزائر ليس بصـــــدد العلم عند المزور، لا يمكثون بها إلا ريثما يتكمل المجموعون بالموت كما أن الزائر معرض للرجوع إلى داره وحل قراره، فلو لم يكن لكم وازع عن الإقبال على الدنيا إلا الموت لكان كافياً فكيف والأمر أعظم من ذلك؟ فإن الموت مقدمة من مقدمات العرض، قال أبو حيان: سمع بعض الأعراب الآية فقال: بعث

القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم، وروى ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه قرأها ثم قال : ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى بيته، إما إلى الجنة أو إلى النار.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها، أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها، وهو التكاثر بالعدد والقرابات والأهلين فقال : {ألهاكم التكاثر} وهو في معرض التهديد والتقريع وقد أعقب بما يعضـــد ذلك وهو قوله {كلا ســوف تعلمون ثم كلا ســوف تعلمون} ثم قال: {كلا لو تعلمون علم اليقين} وحذف جواب «لو» والتقدير : لو تعلمون علم اليقين لما شــغلكم التكاثر، قال صـــلى الله عليه وسلم:

»لو تعلمون ما أعلم لضـــحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» الحديث، وقوله تعالى «لترون الجحيم» جواب لقسم مقدر أي والله لترون الجحيم، وتأكد بها التهديد وكذا ما بعد إلى آخر السورة– انتهى.

ولما كان الاشــتغال بالتكاثر في غاية الدلالة على الســفه لأن من المعلوم قطعاً أن هذا الكون على هذا النظام لا يكون إلا بصـــانع حكيم، وكان العقلاء المنتفعون بالكون في غاية التظالم، وكان الحكيم لا يرضـى أصـلاً أن يكون عبيده يظلم بعضـــهم بعضـــاً ثم لا يحكم بينهم ولا ينظر في مصـــالحهم علم قطعاً أنه يبعثه ليحكم بينهم لأنه كما قدر على إبدائهم يقدر على إعادتهم، وقد وعد بذلك وأرسل به رسله وأنزل به كتبه، فثبت ذلك ثبوتاً لا مرية فيه ولا مزيد عليه، وكان الحال مقتضـــياً لأن يردع غاية الردع من

أعرض عما يعنيه وأقبل على ما لا يعنيه، فقال سـبحانه معبراً بأم الروادع، وجامعة الزواجر والصوادع: {كلا} أي ارتدعوا أتم ردع وانزجروا أعظم زجر عن الاشـتغال بما لا يجدي، فإنه ليس الأمر كما تظنون من أن الفخر في المكاثرة بالأعراض الدنيوية ولم تخلقوا لذلك، إنما خلقتم لأمر عظيم، فهو الذي يهمكم فاشـتغلتم عنه بما لا يهمكم- فكنتم لاهين كمن كان يكفيه كل يوم درهم فاشتغل بتحصيل أكثر، وكذا من ترك المهم من التفسير واشتغل بالأقوال الشـاذة أو ترك المهم من الفقه واشـتغل بنوادر الفروغ وعلل النحو وغيرها وترك ما هو أهم منه مما لا عيش له إلا به.

ولما كان الردع لا يكون إلا عن ضـار يجر وبالاً وحسـرة، دل على ذلك بقوله استئنافاً: {سـوف} أي بعد مهلة طويلة يتذكر فيها من تذكر {تعلمون *} أي يتجدد لكم العلم بوعد لا خلف فيه بما أنتم عليه من الخطإ عند معاينة ما يكشفه الموت ويجر حزنه الفوت من عاقبة ذلك ووباله.

ولما كان من الأمور ما لو شـرح شـأنه على ما هو عليه لطال وأدى إلى الملال، دل على أن شـرح هذا الوعيد مهول بقوله مؤكداً مع التعبير بأداة التراخي الدالة على علو الرتبة: {ثم كلا} أي ارتدعوا ارتداعاً أكبر من ذلك لأنه {سوف تعلمون *} أي يأتيكم العلم من غير شك وإن تأخر زمنه يسيراً بالبعث.

ولما كان هذا أمراً صـادعاً، أشـار إلى أنه يكفي هذه الأمة المرحومة التأكيد بمرة، فقال مردداً للأمر بين تأكيد الردع ثالثاً بالأداة الصـالحة له ولأن تكون

لمعنى– حقاً كما يقوله ائمة القراءة: {كلا} أي– ليشتد ارتداعهم عن التكاثر فإنه أساس كل بلاء فإنكم {لو تعلمون} أيها المتكاثرون.

ولما كان العلم قد يطلق على الظن رفع مجازه بقوله: {علم اليقين *} أي لو يقع لكم علم على– وجه اليقين مرة من الدهر لعلمتم ما بين أيديكم، فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون– فحذف هذا الجواب بعد حذف المفعول للتفخيم فهو إشارة إلى أنه لا يقين غيره، والمعنى أن أعمالكم أعمال من لا يتيقنه، قال الرازي: واليقين مركب الأخذ في هذا الطريق، وهو غاية درجات العامة، وأول خطوة الخاصة، قال عليه الصلاة والسلام: «خير ما ألقي في القلب اليقين» وعلم قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق، والآية من الاحتباك: ذكر الإلهاء أولاً وحذف سببه وهو الجهل لدلالة الثاني عليه، وذكر ثانياً العلم الذي هو الثمرة وحذف ما يتسبب عنه من عدم اللهو الذي هو ضد الأول، وزاد في التفخيم لهذا الوعيد بإيضاح المتوعد به بعد إبهامه مع قسم دل عليه بلامه، فقال: {لترون} أي بالمكاشفة وعزتنا، ولا يصح أن يكون هذا جواباً لما قبله لأنه محقق {الجحيم *} أي النار التي تلقى المعذبين بها بكراهة وتغيظ وعتو وشديد توقد، فالمؤمن يراها وينجو منها سواء خالطها أم لا والكافر يخلد فيها.

ولما كان هذا توعداً على التكاثر لأنه يقتضي الإعراض عن الآخرة فيوقع في غمرات البلايا الكبار، أكد فقال مفخماً له بحرف التراخي: {ثم لترونها} وعزة الله، ورقي العلم عن رتبة الأول فقط فقال تعالى: {عين اليقين *} أي

الرؤية التي هي نفس اليقين، وذلك هو المعاينة بغاية ما يكون من صـــفاء العلم لكونه لا ريبة فيه فإن المشـــاهدة أعلى أنواع العلم، قال الرازي : وهو المغني بالاســتدراك عن الاســتدلال، وعن الخبر بالعيان، وخرق الشـــهود حجاب– العلم– انتهى. ويجوز أن يكون هذا الثاني بالملامســـة والدخول، فالمؤمن وارد والكافر خالد.

ولما كان من أهول الخطاب التهديد برؤية العذاب، زاد في التخويف بأنه لأجل أن يكون ما يعذب به العاصـي عتيداً، فإذا أوجب السؤال النكال كان حاضراً لا مانع من إيقاعه في الحال، ولو لم يكن حاضراً كان لمن استحقه في مدة إحضاره محال، فقال مفخماً بأداة التراخي: {ثم} أي بعد أمور طويله عظيمة مهولة جداً {لتسئلن} وعزتنا {يومئذ} أي إذ ترون الجحيم {عن النعيم *} أي الذي أداكم التكاثر إليه حتى عن الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء هل كان استمتاعكم به على وجه السرف لإرادة الترف أو كان لإرادة القوة للنشأة إلى الخير فلم يخرج عن السرف، فالمؤمن المطيع يسأل سؤال تشريف، والعاصـي يسأل سؤال توبيخ وتأفيف، ولام النعيم قد تكون لمطلق الجنس وإليه يشـير حديث أبي هرير رضـــي الله عنه عند الترمذي وغيره أن النبي صـلى الله عليه وسلم ضـاف أبا الهيثم بن التيهان مع أبي بكر وعمر رضـي الله عنهما فأطعمهم بسراً ورطباً وسقاهم ماء بارداً وبسط لهم بساطاً في ظل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

»إن هذا من النعيم الذي تســألون عنه : ظل بارد ورطب طيب وماء بارد« وقد يكون للكمال فيكون من أعلام النبوة كما في حديث محمود بن لبيد

رضـي الله عنه عند أحمد من وجه حسن إن شاء الله أنهم قالوا عند نزولها: أي نعيم وإنما هما الأســـودان: التمر والماء، وســـيوفنا على رقابنا والعدو حاضـر، قال: «إن ذلك سـيكون» له شـاهد عند الطبراني عن ابن الزبير رضـي الله عنهما، وعند الطبراني أيضـاً عن الحسـن البصـري مرسـلاً، فقد التحم آخرها بأولها على وجه هو من ألطف الخطاب، وأدق المســـالك في النهي عما يجر إلى العذاب، لأن العاقل إذا علم أن بين يديه سؤالاً عن كل ما يتلذذ به علم أنه يعوقه ذلك في زمن الســـؤال عن لذاذات الجنة العوال الغوال، فكان خوفه من مطلق الســـؤال مانعاً له عن التنعم بالمباح فكيف بالمكروه فكيف ثم كيف بالمحرم؟ فكيف إذا كان الســـؤال من ملك تذوب لهيبته الجبال؟ فكيف إذا كان السـؤال على وجه العتاب؟ فكيف إذا جر إلى العذاب؟ فتأمل كلام خالقك ما ألطف إشـــاراته وأجل عباراته، في نذاراته وبشاراته- والله أرحم.

103 Asar Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســور والسورللبقاعي

▲ سورة العصر

103

▲ تفسير الآيات رقم [1- 3]

{وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)}

لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع، وكان الإنســـان مسؤولاً بما شهد به، ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعداً برؤية الجحيم، فكان ســاكن هذه الدار على غاية الخطر، فكان نعيمه في غاية الكدر، قال دالاًّ على ذلك بأن أكثر الناس هالك، مؤكداً بالقســم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال: {والعصر *} أي الزمان الذي خلق فيه أصـله آدم عليه الصـلاة والسـلام وهو في عصـر يوم الجمعة كما ورد في الحديث الصـحيح في مسلم، أو الصـلاة الوسـطى أو وقتها الذي هو زمان

صاحب هذا الشرع الذي مقداره فيما مضى من الزمان بمقدار وقت العصر من النهار أو بعضــه، أو زمان كل أحد الذي هو الخلاصـــة بالنســبة إليه تنبيهاً له على نفاسته إشارة إلى اغتنام إنفاقه في الخير إشفاقاً من الحشر، أو وقت الأصيل لأنه أفضله بما يحويه من الفراغ من الأشغال واستقبال الراحة والحصـــول على فائدة ما أنفق فيه ذلك النهار، وبما دل عليه من طول الســاعة وربح من كان له فيها بضـــاعة باختتام الأعمال وتقوض النهار، والدال على البعث، أو جميع الدهر الذي أوجد فيه ســبحانه وتعالى المخلوقات وقدر فيه المقدورات بما ظهر فيه من العجائب الدالة على ما لله تعالى من العز والعظمة الداعي إلى صرف الهمة إليه وقصرها عليه: {إن الإنسان} أي هذا النوع الذي هو أشرف الأنواع لكونه في أحسن تقويم كما أن العصر خلاصة الزمان، والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء {لفي خسر *} أي نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف أعصارهم في أغراضهم لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر والإعراض عن الغائب والاغترار بالفاني أعم من أن يكون الخسر قليلاً أو جليلاً بحسب تنوع الناس إلى أكياس وأرجاس، فمن كان كافراً كان في كفران، ومن كان مؤمناً عاصياً كان في خسران إن كان بالغاً في المعصية وإلا كان في مطلق الخسر، وهو مدلول المصــدر المجرد، وفي هذا إشــارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرســال الرسل لبيان المرضـي لله من الاعتقادات والعبادات إيماناً وإسـلاماً وإدامة لذلك ليكون فاعله من قبضة اليمين وتاركه من أصحاب الشمال.

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: {ألهاكم التكاثر} وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع {إنه كان ظلوماً جهولاً} [الأحزاب: 72] أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان فقال {والعصـر إن الإنسـان لفي خسـر} فالقصـور شـأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلته، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يدخل الله عليه روح الإيمان {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات} إلى آخرها، فهؤلاء الذين

{لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله} [النور: 37] انتهى.

ولما كان الحكم على الجنس حكماً على الكل لأنهم ليس لهم من ذواتهم إلا ذلك، وكان فيهم من خلصـه الله سـبحانه وتعالى مما طبع عليه الإنسـان بجعله في أحسن تقويم، وحفظه عن الميل مع ما فيه من النقائص، استثناهم سبحانه وتعالى لأنهم قليل جداً بالنسبة إلى أهل الخسر فقال دالاًّ بالاستثناء على أن النفوس داعية إلى الشـر مخلدة إلى البطالة واللهو، فالمخلص واحد من ألف كما في الحديث الصحيح {إلا الذين آمنوا} أي أوجدوا الإيمان وهو التصـديق بما علم بالضـرورة مجيء النبي صـلى الله عليه وسـلم به من توحيده سبحانه وتعالى والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولعل حكمة التعبير بالماضـي الحث على الدخول في الدين ولو على أدنى الدرجات، والبشارة لمن فعل ذلك بشرطه بالنجاة من الخسر.

ولما كان الإنسان حيواناً ناطقاً، وكان كمال حيوانيته في القوة العملية للحركة بالإرادة لا بمقتضى الشهوة القاسرة البهيمية قال تعالى: {وعملوا} أي تصديقاً

بما أقروا به من الإيمان {الصـــالحات} أي هذا الجنس، وهو اتباع الأوامر واجتناب النواهي في العبادات كالصلاة والعادات كالبيع فكانوا بهذا مسلمين بعد أن كانوا مؤمنين فاشـــتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية فلم يلقهم شيء من الخسر.

ولما كان الإنســـــان بعد كماله في نفســــه بالأعمال لا ينتفي عنه مطلق الخســـر- إلا بتكميل غيره، وحينئذ يكون وارثاً لأن الأنبياء عليهم الصـــلاة والســـــلام بعثوا للتكميل، وكان الدين لا يقوم، وإذا قام لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الناشــــئ عن نور القلب، ولا يتأتى ذلك إلا بالاجتماع، قال مخصـصـــاً لما دخل في الأعمال الصـــالحة تنبيهاً على عظمه: {وتواصــوا} أي أوصـــى بعضـــهم بعضــاً بلســان الحال أو المقال: {بالحق} أي الأمر الثابت، وهو كل ما حكم الشرع بصحته فلا يصح بوجه نفيه من قول أو عمل أو اعتقاد أو غيره من فعل أو ترك، فكانوا محســـنين، والتكميل في القوة العملية باجتلاب الخيور.

ولما كان الإنســان ميالاً إلى النقصــان، فكان فاعل ذلك الإحســان معرضــاً للشنآن من أهل العدوان، وهم الأغلب في كل زمان، قال تعالى: {وتواصــوا} لأن الإنســان ينشــط بالوعظ وينفعه اللحظ واللفظ {بالصــبر} أي الناشــئ عن زكاة النفس على العمل بطاعة الله من إحقاق الحق وإبطال الباطل والنفي له والمحق وعلى ما يحصــل بســبب ذلك من الأذى باجتناب الشـــرور إلى الممات الذي هو سبب موصل إلى دار السلام، فكانوا مكملين للقوة العملية حافظين لما قبلها من العلمية، وذلك هو حكمة العبادات فإن حكمة الشـــيء

هي الغاية والفائدة المقصـــودة منه، وهي هنا أمران: خارج عن العامل وهو الجنة، وداخل قائم به وهو النور المقرب من الحق سـبحانه وتعالى، واختير التعبير بالوصـية إشـارة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمال اللين بغاية الجهد، والصبر هو خلاصة الإنسان وسره وصفاوته وزبدته وعصارته، الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه وقسرها على أفعال الطاعة وقهرها على لزوم السنة والجماعة حتى يصير الصبر لها بالتدريب عادة وصـــناعة، فقد عانق آخرها أولها، وواصـــل مفصـــلها موصلها، وهي أربع عشرة كلمة تشير إلى أن في السنة الرابعة عشرة من النبوة يكون الإذن في الجهاد الذي هو رأس الأمر بالمعروف بالفعل لإظهار الحق وهي سنة الهجرة التي تم فيها بدره، وعم نوره وقدره، وجم عزه ونصره، فإذا ضممت إليها أربع كلمات البسملة كانت موازية في العدد لسنة خمس من الهجرة، وكان فيها غزوة بدر الموعد وغزوة الأحزاب، وقد وقع فيهما أتم الصبر من النبي صلى الله عليه وسلم ثم ممن وافقه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم لإظهار الحق والصـــواب، فإنهم في بدر خذلوا من ركب عبد القيس أو من نعيم بن مســـعود وموافقة المنافقين وخوفوا حتى كاد يعمهم الرعب والفشل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
»والله لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد« وأنزل الله فيها {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشـوهم فزادهم إيماناً وقالوا} [آل عمران: 173] الآيات، وفي الأحزاب زاغت الأبصـــار وبلغت القلوب الحناجر وأســـفرت عاقبة الصبر فيها عما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذهابهم: «الآن

نغزوهم ولا يغزوننا» فإذا ضممت إليها الضمائر الأربعة أشارت إلى سنة تسع، وقد كانت فيها غزوة تبوك وهي غزوة العسرة لما كان فيها من الشدة التي أسفرت عاقبة الصبر فيها عن إقبال الوفود، بفخامة العز والجدود وتواتر السعود، بلطف الرحيم الودود، وبذلك كان نور الوجود، وتواتر الفضل والجود من الإله المعبود– وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه خيار الوجود.

104 Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنــاســـــب الآيــات والســـــور والسورللبقاعي

سورة الـهمزة

104

تفسير الآيات رقم [1– 9]

{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)}

لما بين الناجين من قسمي الإنسان في العصر، وختم بالصبر، حصل تمام التشوف إلى أوصاف الهالكين، فقال مبيناً لأضلهم وأشقاهم الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة ليكون ما أعد له من العذاب مسلاة للصابر : {ويل} أي هلاك عظيم جداً {لكل همزة} أي الذي صار له الهمز عادة لأنه

خلق ثابت في جبلته وكذا {لمزة *} والهمز الكسر كالهزم، واللمز الطعن- هذا أصلهما، ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة: الهمزة الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه عليه ويهمز به، واللمزة الذي يعيب الناس سراً- انتهى. وقال البغوي: وأصل الهمز الكسر والعض على الشيء بالعنف، والذي دل على الاعتياد صيغة فعل بضم وفتح كما يقال ضحكة للذي يفعل الضحك كثيراً حتى صار عادة له وضرى به، والفعلة بالسكون للمفعول وهو الذي يهمزه الناس ويلمزونه، وقرئ بها وكأنه إشارة إلى من يتعمد أن يأتي بما يهمز به ويلمز به فيصير مسخرة يضحك منه- والله أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه وتعالى {إن الإنسان لفي خسر} أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظناً أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص، الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل، فقال تعالى {ويل لكل همزة لمزة} فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده، والهمزة العياب الطعان واللمزة مثله، ثم ذكر تعالى ماله ومستقرة بقوله: {لينبذن في الحطمة} أي ليطرحن في النار جزاء له على اغتراره وطعنه- انتهى.

ولما كان الذي يفعل النقيصة من غير حاجة تحوجه إليها أقبح حالاً وكان المتمول عندهم هو الرابح، وهم يتفاخرون بالربح ويعدون الفائز به من ذوي المعالي، قال مقيداً ل «كل» بالوصف مبيناً الخاسر كل الخسارة: {الذي

جمع} ولما كان مطلق الجمع يدل على الكثرة جاء التشـــديد في فعله لأبي جعفر وابن عامر وحمزة والكسـائي، وخلت تصـريحاً بما علم تلويحاً ودلالة على أن المقصود به من جعل الدنيا أكبر همه، والتخفيف لمن عداهم اكتفاء بأصـــل مدلوله بخلاف عدد، فإن مجرده يكون لما قل، ولهذا أجمعوا على التضعيف فيه: {مالاً} أي عظيماً، وأكد مراد الكثرة بقوله: {وعدده} أي جعله بحيث إذا أريد عدده طال الزمان فيه وكثر التعداد، أو ادخره وأمسكه إعداداً لما ينوبه في هذه الدنيا المنقضـــية، وزاده قيداً آخر في بيان حاله فقال: {يحسب} لقلة عقله {أن ماله} أي ذلك الذي عدده {أخلده *} أي أوصله إلى رتبة الخلد في الدنيا، فأحب ذلك المال كما يحب الخلود، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن أنه عمل- بانهماكه في المعاصـــي والإعراض عن الله عز وجل والإقبال على التوسع في الشهوات والأعراض الزائلات- عمل من يظن أنه لا يموت، ويجوز أن يكون اسـتئنافاً، وفيه تعريض بأنه لا يفيد الخلد إلا الأعمال الصالحة المسعدة في الدار الآخرة.

ولما كان هذا الحسـبان لشـدة وهيه وبيان ضـعفه لا يحتاج إلى إقامة دليل على فســاده، اكتفى فيه بأداة الردع الجامعة لكل زجر فقال: {كلا} أي لا يكون ما حســبه لأنه لا يكون له ما لا يكون لغيره من أمثاله بل يموت كما مات كل حي مخلوق.

ولما كان كأنه قيل: فما الذي يفعل به بعد الموت؟ قال مقســماً دالاًّ باللام الداخلة على الفعل على القسم: {لينبذن} أي ليطرحن بعد موته طرح ما هو خفيف هين جداً على كل طارح كما دل عليه التعبير بالنبذ وبالبناء للمفعول

{في الحطمة *} أي الطبقة من النار التي من شـأنها أن تحطم أي تكسـر وتهشم بشدة وعنف كل ما طرح فيها فيكون أخسر الخاسرين، وعبر بها في مقابلة الاسـتعداد بالمال الحامل على الاسـتهانة بالخلق، قال الأسـتاذ أبو الحسن الحرالي: فلمعنى ما يختص بالحكم يسمي تعالى باسم من أسمائها من نحو جهنم فيما يكون مواجهة ومن نحو الحطمة فيما يكون جزاء لقوة قهر واستعداد بعدد، ونحو ذلك في سائر أسمائها، وعظم شأنها سبحانه وتعالى بقوله: {وما أدراك} أي وأيّ شـيء أعلمك ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد في التعرف مع كونك أعلم الخلق {ما الحطمة} أي ما الدركة النارية التي سميت هذا الاسم لهذه الخاصية فإنه ليس في الوجود الذي شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالاً لها، ثم فسـرها بقوله: {نار الله} أي الملك الأعظم الذي عدل المشـركون عنه إلى شـركائهم، فعظمة هذه النار من عظمته، وانتقامه من نقمته {الموقدة *} أي التي وجد وتحتم إيقادها بإيقاده، ومن الذي يطيق محاولة ما أوقده؟ فهي لا يزال لها هذا الاسم ثابتاً.

ولما وصف الهامز الهازم، وصف الحاطم فقال تعالى: {التي} ولما كان لا يطلع على أحوال الشيء إلا من قبله علماً قال: {تطلع} اطلاعاً شديداً {على الأفئدة *} جمع فؤاد وهو القلب الذي يكاد يحترق من شـدة ذكائه، فكان ينبغي أن يجعل ذكاءه في أسباب الخلاص، واطلاعها عليه بأن تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالاً بالغاً، سمي بذلك لشدة توقده، وخص بالذكر لأنه ألطف ما في البدن وأشده تألماً بأدنى شـيء من الأذى، ولأنه منشأ العقائد

الفاسـدة ومعدن حب المال الذي هو منشـأ الفسـاد والضـلال، وعنه تصـدر الأفعال القبيحة.

ولما كان الاطلاع على الفؤاد مظنة الموت، وفي الموت راحة من العذاب، أشار إلى خلودهم فيها وأنهم لا يموتون ولا ينقطع عنهم العذاب، فقال مؤكداً لأنهم يكذبون بها: {إنها} وأشـــار إلى قهرهم وغلبتهم فقال: {عليهم} وآذن بسهولة التصرف في تعذيبهم وانقطاع الرجاء من خلاصهم بقوله معبراً باسم المفعول: {مؤصـدة *} أي مطبقة بغاية الضـيق، من أوصـدت الباب- إذا أطبقته.

ولما كانت عادتهم في المنع من التصـرف أن يضـعوا خشـبة عظيمة تسـمى المقطرة فيها حلق توثق فيها الرجل، فلا يقدر صـاحبها بعد ذلك على حراك، قال مصـــوراً لعذابهم بحال من ضـــمير «عليهم»: {في} أي حال كونهم موثقين في {عمد} بفتحتين وبضـمتين جمع عمود {ممددة *} أي معترضـة كأنها موضـوعة على الأرض، فهي في غاية المكنة فلا يسـتطيع الموثق بها على نوع حيلـة في أمرهـا فهو تـأكيد ليـأســـهم من الخروج بـالإيثـاق بعد الإيصـــاد، وهذا أعظم الويل وأشـــد النكال، فقد رجع آخرها إلى أولها، وكان لمفصلها أشد التحام بموصلها- والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

105 Feel Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور والسورللبقاعي

سورة الفيل

105

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)}

لما قدم في الهمزة أن كثرة الأموال المسببة بالقوة بالرجال ربما أعقبت الوبال، دل عليه في هذه بدليل شهودي وصل في تحريقه وتغلغله في الأجسام وتجريفه إلى القلوب في العذاب الأدنى كما ذكر فيما قبلها للعذاب الأكبر الأخفى، محذراً من الوجاهة في الدنيا وعلو الرتبة، مشيراً إلى أنها كلما عظمت زاد ضررها بما يكسبه من الطغيان حتى ينازع صاحبها الملك الأعلى، ومع كونه شهودياً فللعرب ولا سيما قريش به الخبرة التامة، فقال

مقرراً منكراً على من يخطر له خلاف ذلك: {ألم تر} أي تعلم علماً هو في تحققه كالحاضر المحسوس بالبصر، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم وإن لم يشهد تلك الوقعة فإنه شاهد آثارها، وسمع بالتواتر مع إعلام الله له أخبارها، وخصــه صــلى الله عليه وســلم إعلاماً بأن ذلك لا يعلمه ويعمل به إلا هو صلى الله عليه وسلم ومن وفقه الله الحسن اتباعه، لما للإنسان من علائق النقصــان، وعلائق الحظوظ والنسيان، وقرئ «تر» باسكان الراء، قالوا جداً في إظهار أثر الجازم، وكان الســر في هذه القراءة الإشــارة إلى الحث في الإسراع بالرؤية إيماء إلى أن أمرهم على كثرتهم كان كلمح البصـر، من لم يعتن به ويسارع إلى تعمده لا يدركه حق إدراكه.

ولما كان للناظر في الكيفية من التدقيق والوقوف على التحقيق في وجوه الدلالات على كمال علم الله وقدرته وإعزاز نبيه بالإرهاص لنبوته والتمكين لرســالته لتعظيم بلده وتشــريف قومه ما ليس للناظر إلى مطلق الفعل قال: {كيف} دون أن يقول: ما {فعل} أي فعل من له أتم داعية إلى ذلك الفعل، وفعل الرؤية معلق عن «كيف» لما فيه من معنى الاستفهام فلا يتقدم عامله عليه، بل ناصــبه فعل، وجملة الاســتفهام في موضــع نصــب بالفعل المعلق {ربك *} أي المحسن إليك ومن إحسانه إحسانه إلى قومك بك وبهذه الواقعة الخارقة للعادة إرهاصــاً لنبوتك كما- هو معلوم من أخبار الأنبياء المتقدمين فيما يقع بين أيدي نبواتهم من مثل ذلك ليكون مؤيداً لادعائهم النبوة بعد ذلك، وفي تخصــيصــه صــلى الله عليه وســلم بالخطاب والتعبير بالرب مع التشريف له والإشارة بذكره التعريض بحقارة الأصنام التي سموها أرباباً لهم،

يعلم ذلك منهم علم اليقين من آمن، ومن استمر على كفره فسيعلم ذلك حق اليقين عندما يسلط الله عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم بالبلد الحرام، ويحلها له على أعلى حال ومرام {بأصحاب الفيل *} أي الذين قصدوا انتهاك حرمات الله سبحانه وتعالى فيخربوا بيته ويمزقوا جيرانه بما أوصلهم إلى البطر من الأموال والقوة التي منّ عليهم سبحانه وتعالى بها، فحسبوا أنها تخلدهم فبان أنها توردهم المهالك ضد ما حسبوه، وهم الحبشة الذين كانوا غلبوا على بلاد اليمن، بنى أميرهم وهو أبو يكسوم أبرهة بن الصباح الأشرم بيعة بصنعاء وسماها القليس وزن قبيط، وأراد أن يصرف إليها- فيما زعم- حج العرب، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً- يعني تغوط ولطخها به، فأغضب ذلك الأشرم فسأل فقيل له: نرى الفاعل من أهل البيت الذي بمكة- فحلف: ليهدمنَّ الكعبة، ومن عجائب صنع الله أنه ألهمه سبحانه وتعالى تسميتها هذا الاسم الذي هو مشتق من القلس الذي أحد معانيه أنه ماء خرج من الحلق ملء الفم، فهو مبدأ القيء الذي هو أخو الغائط الذي آل أمرها إليه، فكان سبب هلاكها بهلاك بانيها، وذلك أنه غضب من ذلك فخرج بجيشه لهدم بيت الله الكعبة ومعه أفيال كثيرة منها فيل عظيم اسمه محمود، فقاتله بعض العرب فهزمهم وقتل منهم، فلما دوّخهم دانوا له، فلما وصل إلى المغمس خرج إليه عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، فعرض عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم، وقيل: بل كانت طلائعه أخذت له مائتي بعير فطلبها منه فقال: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، فزهدت فيك حين تكلمني في مائتي بعير، وتترك كلامي في بيت هو دينكم

وفي عزكم؟ فقال: أنت وذاك، فرد عليه إبله فساقها ومضى، وأمر قريشاً أن يتفرقوا في الشـــعاب ويتحرزوا في الجبال، وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا *** فامنعهم أن يقربوا قراكا

-وقال:

لا هم إن المرء يم *** نع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم *** ومحالهم عدواً محالك

جروا جميع تلادهم *** في الفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم *** جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكع *** بتنا فأمر ما بدا لك

ثم ترك الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه فلما أصـــبح أبرهة تهيأ للدخول إلى الحرم وعبأ جيشــــه وقدم الفيل فبرك فعالجوه فلم تفد فيه حيلة، فوجهوه إلى غير الحرم فقام يهرول فوجهوه إلى الحرم فبرك، وكان هذا دأبه في ذلك اليوم فبينما هم كذلك إذا أرسـل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل، كل طائر منها في منقاره حجر، وفي رجليه حجران، الحجر منها أكبر من العدسـة وأصـغر من الحمصـة، فرمتهم بها، فكان الحجر منها يقع في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً، وأهل مكة ومن حضـــر من العرب في رؤوس الجبال- ينظرون إلى صـنع الله تعالى بهم وإحسـانه إليهم- أي أهل مكة- وكان ذلك إرهاصـاً لنبوة محمد صـلى الله عليه وسـلم، فإن ذلك كان عام مولده، وقال حمزة الكرماني: وفي رواية: يوم مولده، وكأنه كان سبباً لضعفهم حتى ذهب

سيف بن ذي يزن إلى كسرى وأتى منه بجيش فاستأصل بقيتهم- كما هو مشهور في السير، ومأثور في الخبر، ووفدت قريش لتهنئته بالنصرة عليهم، وكان رئيسهم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، وبشره سيف بأنه يولد له ولد اسمه محمد فأعلمه بأن ولد وأن أباه توفي، فأخبره سيف بأنه النبي المبعوث في آخر الزمان، وأن يثرب مهاجره، وأنه لو علم أنه يعيش إلى زمن بعثته لأتى يثرب وجعلها قراره حتى ينصر النبي صلى الله عليه وسلم بها- ويظهر نبوته.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت سورة الهمزة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده وما أعقبه ذلك، أتبع هذا أصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم، وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم، فتعجلوا النقمة، وجعل الله كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، أي جماعات متفرقة، ترميهم بحجارة من سجيل حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف مأكول، وأثمر لهم ذلك اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم- انتهى.

ولما قرره بالكيفية تنبيهاً على ما فيها من وجوه الدلالة على مقدمات الرسالة، أشار إلى تلك الوجوه مقدماً عليها تقريراً آخر جامعاً لقصتهم ومعلماً بغصتهم فقال: {ألم يجعل} أي بما له من الإحسان إلى العرب لا سيما قريش {كيدهم} أي في تعطيل الكعبة بتخريبها وبصرف الحج إلى كنيستهم على زعمهم وقد كان كيدهم عظيماً غلبوا به من ناوأهم من العرب {في تضليل *} أي مظروفاً لتضييع عما قصدوا له من نسخ الحج إلى الكعبة

أولاً ومن هدمها ثانياً وإبطال وبعد عن الســداد وإهمال بحيث صــار بكونه مظروفاً لذلك معموراً به لا مخلص له منه، وهذا مشـــير إلى أن كل من تعرض لشـــيء من حرمات الله كبيت من بيوته أو ولي من أوليائه أو عالم من علماء الدين وإن كان مقصراً نوع تقصير وقع في مكره، وعاد عليه وبال شـره «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» وإلى أن من جاهر بالمعصـية أسرع إليه الهلاك بخلاف من تستر، وإلى أن الله تعالى يأتي من يريد عذابه من حيث لا يحتسـب ليدوم الحذر منه ولا يؤمن مكره ولو كان الخصـم أقل عباده، لم يخطر للحبشـة ما وقع لهم أصـلاً ولا خطر لأحد سواهم أن طيوراً تقتل جيشـاً دوّخ الأبطال ودانت له غلب الرجال، يقوده ملك جبار كتيبته في السهل تمشي ورجله على القاذفات في رؤوس المناقب.

ولما كان التقدير: فمنعهم من الدخول إلى حرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام فضلاً عن الوصول إلى بلده الرسول صلى الله عليه وسلم، عطف عليه أو على «يجعل» معبراً بالماضـــي لأنه بمعناه وهو أصـــرح والتعبير به أقعد قوله؛ {وأرسـل} وبين أنه إرسـال عذاب بقوله: {عليهم} أي خاصـة من بين من كان هناك من كفار العرب، وأشـــار إلى تحقيرهم وتخسـيســهم عن أن يعذبهم بشـــيء عظيم لكونهم عظموا أنفســهم وتجبروا على خالقهم بالقصـد القبيح لبيته فقال تعالى معلماً بأنه ســلط عليهم ما لا يقتل مثله في العادة: {طيراً} وهو اسـم جمع يذكر على اللفظ، ويؤنث على المعنى، وقد يقع على الواحد، ولذلك قال مبيناً الكثرة {أبابيل *} أي جماعات كثيرة جداً متفرقة يتبع بعضــها بعضــاً من نواحي شــتى فوجاً فوجاً وزمرة زمرة، أمام كل فرقة

منها طير يقودها أحمر المنقار أســـود الرأس طويل العنق، قال أبو عبيدة: يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا، وهو جمع إبالة بالكسر والتشديد وهي الحزمة الكبيرة- شـــبهت بها الجماعة من الطير في تضـــامّها، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة، أي بلية على أخرى.

ولما تشوف السامع إلى فعل الطير بهم، قال مستأنفاً: {ترميهم} أي الطير {بحجارة} أي عظيمة في الكثرة والفعل، صغيرة في المقدار والحجم، كان كل واحد- منها في نحو مقدار العدسة، في منقار كل طائر منها واحد وفي كل رجل واحد.

ولما كان الشـــيء إذا كان مصـــنوعاً للعذاب كان أشـــد فعلاً فيه قال: {من سـجيل *} أي طين متحجر مصـنوع للعذاب في موضـع هو في غاية العلو كما بين في سـورة هود عليه الصـلاة والسـلام، قال حمزة الكرماني: قال أبو صـــالح: رأيت تلك الحجارة مخططة بالحمرة. ولما تسـبب عن هذا المرمى هلاكهم، وكان ذلك بفعل الله ســـبحانه وتعالى القادر على ما أراد لأنه الذي خلق الأثر قطعاً لأن مثله لا ينشـأ عنه ما نشـأ من الهلاك، قال: {فجعلهم} أي ربك المحسن إليك بإحسانه إلى قومك لأجلك بذلك {كعصف مأكول *} أي ورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود ويجوفه لأن الحجر كان يأتي في الرأس فيخرق بما له من الحرارة وشـــدة الوقع كل ما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود لما له من النارية، أو أكل حبة فبقي صفراً منه أو كتبن أكلته الدواب وراثته، ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن كقوله تعالى: {كانا يأكلان الطعام} [المائدة: 75] وهذا الإهلاك في

إعجابه هو من معاني الاســـــتفهام التقريري في أولها، فقد تعانق طرفاها، والتف أخراها بأولاها- والله أعلم بمراده.

106 Quraish Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة قريش

106

تفسير الآيات رقم [1- 4]

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)}

لما كان ما فعله سـبحانه- من منع هذا الجيش العظيم- الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله من الحيوان البري فيما نعلمه له- من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته ومحل عظمته الباهرة وعزته والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام وما كان من الوفاء بعظيم خلته- كرامة لقريش عظيمة ظاهره عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم وتسبى ذراريهم لكونهم أولاد خليله وخدام بيته وقطان حرمه ومتعززين به ومنقطعين إليه، وعن أن يخرب موطن عزهم ومحل أمنهم وعيشهم وحرزهم، ذكرهم سبحانه وتعالى ما فيه

من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة، فقال مشـــيراً إلى أن من تعاظم عليه قصـمه، ومن ذل له وخدمه أكرمه وعظمه: {لإيلاف قريش *} أي لهذا الأمر لا غيره فعلنا ذلك وهو إيقاعهم الإيلاف وهو ألفهم لبلدهم الذي ينشـــأ عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم، وذلك ملزوم لألفهم أولاً في أنفسهم، فإذا كان لهم الألف بحرمهم بما حصل لهم من العز والمكنة به بما دافع عنهم فيه مع ما له من بعد الآفات عنه، وكان لهم الألف بينهم، فكان بعضـهم يألف بعضـاً، قوي أمرهم فألفوا غيرهم أي جعلوه يألف ما ألفوه إياه أي سـنوه له وأمروه به، أو يكون اللام متعلقاً بفعل العبادة بدلالة {فليعبدوا} أي ليعبدونا لأجل ما أوقعنا من ألفهم وإيلافهم، وعلى التقديرين الألف علة للعبادة أو لما يوجب الشكر بالعبادة، وفي هذا إشارة إلى تمام قدرته سبحانه وتعالى وأنه إذا أراد شيئاً يسر سـببه لأن التدبير كله له يخفض من يشـاء وإن عز، ويرفع من يشـاء وإن ذل، ليثمر اعتقاد ذلك حبه والانقطاع لعبادته والاعتماد عليه في كل نفع ودفع، وقريش ولد النضر ابن كنانة واسمهم واسم قبيلتهم مشـتق من القرش والتقرش وهو التكسـب والجمع، يقال: فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب، وقال البغوي: وقال أبو ريحانة: سأل معاوية ابن عباس رضـي الله عنهما: لم سـموا بهذا؟ فقال: لدابة تكون في البحر هي أعظم دوابه، يقال لها القرش، لا تمر بشـيء من الغث والسـمين إلا أكلته، وهي تـأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى، قـال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، وأنشد للجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحر بها *** سميت قريش قريشا

سلطت بالعلو في لجة البحر على *** سائر الجيوش جيوشا

وقال الزمخشـــري: هي دابة عظيمة تعبث بالســـفن ولا تطاق إلا بالنار، والتصـــغير للتعظيم- انتهى. وقيل: ســـموا بذلك لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم، فإن القرش- كما تقدم- الجمع، وكان المجمع لهم قصــــياً، والقرش أيضـــاً الشـــديد، وقيل: هو من تقرش الرجل- إذا تنزه عن مدانيس الأمور، ومن تقارشت الرماح في الحرب- إذا دخل بعضها في بعض.

والمادة كلها للشـــدة والاختلاط، والتعبير بهذا الاســـم لمدحهم. وكما أجرى سبحانه وتعلى مدحهم على الألسنة جعلهم موضعاً للمدح، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من بني هاشم» وقال صـــلى الله عليه وســـلم: «الأئمة من قريش» قال العلماء: وذلك أن طيب العنصر يؤدي إلى محاسن الأخلاق، ومحاسن الأخلاق تؤدي إلى صفاء القلب، وصـفاء القلب عون على إدراك العلوم، وبإدراك العلوم تنال الدرجات العلا في الدنيا والآخرة، وصـرف الاسـم هنا على معنى الحي ليكون الاسـم بمادته دالاًّ على الجمع، وبصــرفه دالاًّ على الحياة إشـــارة إلى كمال حياتهم ظاهراً وباطناً، قال ســـيبويه في معد وقريش وثقيف: صــــرف هذه الأحياء أكثر، وإن جعلتها اســـماً للقبائل- يعني فمنعتها- فجائز حســـن، والذي يدل على تعلق اللام بفعل دلت عليه الفيل أن السورتين في مصحف أبيّ رضي الله عنه ســورة واحدة من غير فصــل، وأن عبد الرزاق وابن أبي شــيبة رويا عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال: صـلى بنا عمر رضـي الله عنه

المغرب فقرأ في الأولى بالتين والزيتون، وفي الثانية ألم تر كيف ولئيلاف قريش.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لاخفاء في اتصالهما أي أنه سبحانه وتعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم وقطان بيت الله الحرام، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمن ساحتهم– انتهى.

ولما علل بالإيلاف وكان لازماً ومتعدياً، تقول: آلفت المكان أولفه إيلافاً فأنا مؤلف وآلفت فلاناً هذا الشيء أي جعلته آلفاً له، وكان الإتيان بالشيء محتملاً لشيئين ثم إبدال أحدهما منه أضخم لشأنه وأعلى لأمره، أبدل منه قوله: {إلافهم} أي إيلافنا إياهم {رحلة الشتاء *} التي يرحلونها في زمنه إلى اليمن لأنها بلاد حارة ينالون بها متاجر الجنوب {والصيف *} التي يرحلونها إلى الشام في زمنه لأنها بلاد باردة ينالون فيها منافع الشمال، وهم آمنون من سائر العرب لأجل عزهم بالحرم المكرم المعظم ببيت الله والناس يتخطفون من حولهم، ففعل الله تعالى بأصحاب الفيل ما فعل ليزداد العرب لهم هيبة وتعظيماً فتزيد في إكرامهم لما رأت من إكرام الله تعالى لهم فيكون لهم غاية التمكن في رحلتهم، والرحلة بالكسر هيئة الرحيل، وقرئ بالضم وهي الجهة التي يرحل إليها، وكانوا معذورين لذلك لأن بلدهم لا زرع به ولا ضرع، فكانوا إذا ضربوا في الأرض قالوا: نحن سكان حرم الله وولاة بيته، فلا يعرض أحد بسوء، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن

عبد مناف، وكان يقســم ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، وفي ذلك يقول الشاعر:

قل للذي طلب السماحة والندى *** هلا مررت بآل عبد مناف

الرائشين وليس يوجد رائش *** والقائلين هلم للإضياف

والخالطين فقيرهم بغنيهم *** حتى يكون فقيرهم كالكاف

القائلين بكل وعد صادق *** والراحلين برحلة الإيلاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه *** ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنّهما له ولقومه *** سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وتبع هاشماً على ذلك إخوته، فكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشــة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصـــار بحبال هذه الإخوة- أي عهودهم- التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي، وأفرد الرحلة في موضـــع التثنية لتشــمل كل رحلة- كما هو شــأن المصــادر وأسـماء الأجناس، إشــارة لهم بالبشارة بأنهم يتمكنون عن قريب من الرحلة إلى أي بلد أرادوا لشمول الأمن لهم وبهم جميع الأرض بما نشــره الله ســبحانه وتعالى من الخير في قلوب عباده في سائر الأرض بواسطة هذا النبي الكريم الذي هو أشرفهم وأعظمهم وأجلهم وأكرمهم.

ولما كان هذا التدبير لهم من الله كافياً لهمومهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالأمن، وكان شكر المنعم واجباً، فإذا أنعم بما يفرغ المنعم عليه للشكر كان وجوبه عليه أعظم، سبب عن الإنعام عليهم بذلك قوله: {فليعبدوا} أي قريش

على سبيل الوجوب شكراً على هذه النعمة خاصة إن لم يشكروه على جميع نعمه التي لا تحصى لأنهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأبعدهم عن الكفران {رب هذا البيت *} أي الموجد له والمحســـن إلى أهله بتربيتهم به وبحفظه من كل طاغ، وتأثيره لأجل حرمته في كل باغ، وبإذلال الجبابرة له ليكمل إحسانه إليهم وعطفه عليهم بإكمال إعزازه لهم في الدنيا والآخرة وجعل ما داموا عابدين له موصــولاً بعز الآخرة، فتتم النعمة وتكمل الرحمة، والمراد به الكعبة، عبر عنها بالإشــارة تعظيماً إشـــارة إلى أن ما تقدم في الســـورة الماضـية من المدافعة عنهم معروف أنه بسـببه لا يحتاج إلى تصـريح، وأن ذلك جعله متصــوراً في كل ذهن حاضــراً مشــاهداً لكل مخاطب، وفي هذا التلويح من التعظيم ما ليس للتصريح، ثم وصـف نفسـه الأقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت فقال تعالى: {الذي أطعمهم} أي قريشـاً بحمل الميرة إلى مكة بالرحلتين آمنين من أن يهاجوا، وبإهلاك الذين أرادوا إخراب البيت الذي به نظامهم، إطعاماً مبتدئاً {من جوع *} أي عظيم فيه غيرهم من العرب، أو كانوا هم فيه قبل ذلك لأن بلدهم مهيأ لذلك لأنه ليس بذي زرع، فهم عرضـــة للفقر الذي ينشـــأ عنه الجوع، فكفاهم ذلك وحده ولم يشـركه أحد في كفايتهم، فليس من الشـكر إشـراكهم في عبادته ولا من البر بأبيهم إبراهيم عليه الصــلاة والسـلام الذي دعا لهم بالرزق ونهى أشـد النهي عن عبادة الأصـنام، ولم يقل: أشـبعهم لأنه ليس كلهم كان يشـبع، ولأن من كان يشبع منهم طالب لأكثر مما هو عنده

»ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب«.

ولما ذكر السـبب في إقامة الظاهر، ذكر السـبب في إقامة العيش بنعمة الباطن فقال: {وآمنهم} أي تخصيصاً لهم {من خوف *} أي شديد جداً من أصـحاب الفيل ومما ينال من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات وبالأمن من الجذام بدعوة إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام، ومن الطاعون والدجال بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم، وعن ذلك تسبب الاتحاف بما خصـهم به من الإيلاف، فعلم أن آخرها علة لأولها، ويجوز أن يكون إلفهم للبلد وقع أولاً فحماه الله لهم مما ذكر، فيكون ذلك مسـبباً عن الإلف فيكون أولها علة لآخرها، فقد التقى الطرفان، والتأم البحران المغترفان، وكما التقى آخر كل سورة مع أولها فكذلك التقى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور هذه أولها إذا عددت من الآخر إليها، فإن حاصلها المن على قريش بالإعانة على المتجر إيلافاً لهم بالرحلة فيه والضـرب في الأرض بسببه واختصاصهم بالأمر بعبادة الذي منّ عليهم بالبيت الحرام وجلب لهم به الأرزاق والأمان، ومن أعظم مقاصد التوبة- المناظرة لهذه بكونها التاسعة من الأول- البراءة من كل مارق، وأن فعل ذلك يكون سـبباً للألفة بعد ما ظن أنه سبب الفرقة، وذكر مناقب البيت ومن يصلح لخدمته، والفوز بأمانه ونعمته، والبشارة بالغنى على وجه أعظم من تحصيله بالمتجر وأبهى وأبهر، وأوفى وأوفر، وأزهى وأزهر، وأجل وأفخر، بقوله تعالى: {ما كان للمشـركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم} الآيات، [التوبة: 17] وقوله تعالى: {وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله} [التوبة: 28] فعلم بهذا علماً جلياً أنه شرع سبحانه في رد المقطع على المطلع من سورة قريش

الذين أكرمهم الله بإنزال القرآن بلسانهم وأرسل به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم كما أكرمهم ببناء البيت في شـــأنهم، وتعظيمه لغناهم وأمانهم، ومن أعظم المناســبات في ذلك كون أول الســورة التي أخذ فيها في رد المقطع على المطلع شديد المشابهة للسورة المناظرة لها حتى أن في كل منهما مع التي قبلها كالســـورة الواحدة فإن براءة مع الأنفال كذلك حتى قال عثمان رضـي الله تعالى عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم توفي ولم يبين أمرها، فلم يتحرر له أنها مســتقلة عنها، ولذلك لم يكتب بينهما ســطر بســم الله الرحمن الرحيم، وكانت هذه التي من الآخر مقطوعاً بأنها مستقلة مع ما ورد من كونها مع التي قبلها سورة واحدة في مصحف أبيّ رضي الله تعالى عنه، وقراءة عمر رضي الله عنه لهما على وجه يشعر بذلك كما مضى إشارة إلى أن الآخر يكون أوضح من الأول، ومن أغرب ذلك أن السورتين اللتين قبل ســورتي المناظرة بين أمريهما طباق، فالأولى في الآخر وهي الفيل أكرم الله فيها قريشـاً بإهلاك أهل الإنجيل، والأولى في الأول وهي الأنفال أكرمهم الله فيها بنصـــر أهل القرآن عليهم بإهلاك جبابرتهم، فكان ذلك ســبباً لكســر شوكتهم وسقوط نخوتهم المفضي إلى سعادتهم، وعلم أن البراءة وغيرها إنما عمل لإكرامهم لأنهم المقصـودون بالذات وبالقصـد الأول بالإرسـال والناس لهم تبع كما أن جميع الرسل تبع للرسول الفاتح الخاتم الذي شرفوا بإرساله إليه صلى الله عليه وسلم، وكان عدد التسع مشيراً إلى أن قريشـاً أهل لأن يتصلوا بعروج الأسرار في الملكوت إلى الفلك التاسع، وهو العرش الذي هو مقلوب الشرع، فهم يصعدون بأسرار الشرع– التي من أعظمها الصلاة– من

الأســـفل إلى الأعلى من الطرفين معاً كما أنه يتنزل عليهم بالبركات من الجانبين، وإذا ضممت التسع الأولى إلى الأخرى كانت ثمان عشرة، فكانت مشيرة إلى ركعات الصلوات مضموماً إليها الوتر، وإلى ظهور الدين ظهوراً كاملاً على غالب أقطار الأرض كما كان في ســـنة ثمان وعشـــرين، وهي الثامنة عشـر من موت النبي صـلى الله عليه وسـلم، وذلك في أثناء خلافة عثمان رضـــي الله عنه فإنه كان فيها قد تمزق ملك كسـرى وضـعف جداً، وكذا ملك الروم مع ما كان من زوال أمر القبط بالكلية، ومن بديع الإشارات أيضـاً أنك إذا نظرت إلى نزول براءة وجدته سـنة تسـع من الهجرة في غزوة تبوك وعقب الرجوع منها، فكان كونها تاسـعة ونزولها في السـنة التاسـعة مشـيراً إلى كون الدين يظهر على كل مخالف بعد تسع سـنين، وهي السـنة الثامنة من موت النبي صـلى الله عليه وسـلم في وسط خلافة الفاروق حين ظهر المسـلمون على الفرس والروم، فقتلوا رجالهم، وانتثلوا أموالهم، كما كان قد ظهر عند نزولها على عباد الأوثان من العرب، ومن الغريب أن قصـــة الفيل كانت سـنة مولد النبي صـلى الله عليه وسـلم، فهي قبل النبوة بأربعين سنة بعدد كلمات السورتين: الفيل وقريش، فإن الفيل ثلاث وعشرون وقريش ســبع عشــرة، وذلك- والله أعلم- إشــارة إلى أن ابتداء الأمن- بإهلاكهم والإشـباع بنهب ما كان معهم من أموالهم ومتاعهم- كان لمولده صـلى الله عليه وسـلم وتشـريف الوجود بوجوده، ويكون ذلك ظاهراً كما كان السـبب- الذي هو وجوده صلى الله عليه وسلم- ظاهراً، وإلى أن وسطه يكون بنبوته صلى الله عليه وسلم، ويكون ذلك باطناً كما أن السبب- وهو الوحي باطن،

ثم كان أمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم في السنة الثامنة الموازية لعدد كلمات البسـملتين على يد النجاشـي ملك الحبشـة الذين كان الأمن أولاً بإهلاكهم، وإذا ضممت إليها أحد عشر ضميراً– سبعة في الفيل وأربعة في قريش– كانت تسعاً وخمسين توازيها إذا حسبت من المولد سنة ست من الهجرة، وفيها كانت عمرة الحديبية وهي الفتح السـببي الخفي، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله في بروك ناقته الشريفة حين بركت فقالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: خلأت القصوى– أي حرنت:

»ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل» وفيها نزلت سورة الفتح، فكان سبب الأمن العظيم والغنى، وعقبها في سـنتها كان البعث إلى ملوك الأمصـار، وفتح خيبر وانبساط ذكر الإسلام في جميع الأقطار، وكذا كان عقبها قبل عمرة القضية إسلام عمرو بن العاص على يد النجاشي لما سأله أن يعطيه عمرو بن أميه الضمري رضي الله عنه ليقتله، وذلك حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشـي رضـي الله عنهما يدعوه إلى الإسـلام فأنكر النجاشي ذلك على ابن العاص وشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأمره بأن يؤمن به، ففعل فكان ملك الحبشـة بدعاء النبي صـلى الله عليه وسلم ناجياً هادياً، وإلى النبي صـلى الله عليه وسلم داعياً، عكس ما كان لملك الحبشة بمولده صلى الله عليه وسلم من أنه كان هالكاً، وإلى الجحيم هاوياً، وإن حسبت من سنة بنيان الكعبة في الخامسة والعشرين من مولده صلى الله عليه وسلم كانت السنة التاسعة والخمسون هي الحادية والثلاثون بعد الهجرة، وهي سـنة اسـتئصـال ملك الفرس بقتل آخر ملوكهم يزدجرد،

والفرس هم الذين أزالوا الحبشـــة عن بلاد اليمن وطهروا منهم أرض العرب، ولعل قسـمة السـورتين إلى ثلاث وعشـرين وسـبع عشـرة إشـارة إلى أن هذا المولد الشـريف الذي حرسـت الكعبة بمولده صـلى الله عليه وسـلم وحصـل الأمن والعز ببركته تبنى الكعبة وتجدد بعد بضـع وعشـرين سـنة من مولده، قالوا: كان بنيانها وسـنه خمس وعشـرون سـنة، فلعله كان في آخر الرابعة والعشرين، ولعل قصـة الفيل كانت وله نحو سـنة من حين الولادة، وبه حين البنيان ألف الله بين قريش بعد أن كانوا تنافروا أشـــد المنافرة وتعاقدوا على الحرب في أمر الحجر الأسود من يضعه في موضعه حتى أصلح الله بينهم به صـلى الله عليه وسـلم فوضـعه بيده الشـريفة في ثوب، وأمرهم فأمسـكت جميع القبائل بأطرافه، ثم رفعوه حتى وازوا به موضـعه فأخذه هو صـلى الله عليه وسـلم فوضـعه في مكانه، فكان الشـرف له خاصـة في الإصـلاح والبنيان، وتشـير مع ذلك إلى أنه يبقى في النبوة ثلاثاً وعشـرين سـنة، ثم يتوفاه الله سـبحانه وتعالى بعد أن جعل الله كيد جميع الكفرة في تضـليل من عباد الأوثان والفرس والروم وغيرهم بما فتح الله عليه من جزيرة العرب التي ألف الله بها بين كلمتهم حتى انسـابوا على غيرهم فما وافقهم أحد ناوشـوه القتال وساوموه النضـال والنزال، ولعل الإشارة بكون قريش سبع عشرة كلمة إلى أنه صلى الله عليه وسلم بعد سبع عشرة سنة من بنيان البيت يبعثه الله سـبحانه وتعالى لأمر قريش بالعبادة التي أجلّها الصـلاة التي أعظمها الفرائض التي هي سـبع عشـرة ركعة شـكراً لنعمة من آمنهم من خوف وأطعمهم من جوع بأعظم العبادة، وإلى أن ابتداء ألفة قريش بالقوة القريبة

من الفعل بعد الشـــتات العظيم الظاهر وجعل كيد الكفار في تضـــليل يكون في السنة السابعة عشرة من النبوة، وذلك سنة أربع من الهجرة فإن فيها كان إجلاء بني النضير من اليهود من المدينة الشريفة وإخلاف قريش الموعد في بدل الموعد وهناً منهم عن لقاء جيش النبي صـــلى الله عليه وســـلم، وكانت بعد بيســـير غزوة الأحزاب، ولذلك قال النبي صـــلى الله عليه وســـلم بعد انصرافهم:

»الآن نغزوهم ولا يغزونا» يعني أن نخوة الشـــيطان منهم وحمية الجاهلية أخذت في الاضـــمحلال لانتهاء قوتهم في الباطل الذي كان ســـبب عزهم الظاهري الذي هو الذل في الباطن، وكان ذلك ابتداء عزهم في الباطن الذي هو ذلهم لأهل الإســـلام في الظاهر، وفي أثر الأحزاب كانت غزوة بني قريظة، فإذا ضـممت إلى الكلمات الضـمائر الأربعة كانت إحدى وعشـرين توازيها سـنة ثمان من الهجرة وهي سـنة الفتح الأعظم الذي وقعت به الألفة العظمى بين قريش وأمنهم وغناهم الذي وعدهم الله به في الســـورة المناظرة لها- وهي براءة- بائتلاف جميع العرب وانبعاثهم لاجتماع كلمتهم إلى جهاد الفرس والروم والقبط وأخذهم لبلادهم، وانتثالهم لكنوزهم وتحكمهم في نسائهم وأولادهم، فسبحان من هذا كلامه، وتعالى شأنه وعز مرامه.

107 Maaoon Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســور والسورللبقاعي

▲ سورة الماعون

107

▲ تفسير الآيات رقم [1– 7]

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)}

لما أخبر ســبحانه وتعالى عن فعله معهم من الانتقام ممن تعدى حدوده فيهم، ومن الرفق بهم بما هو غاية في الحكمة، فكان معرفاً بأن فاعله لا يترك الناس سـدى من غير جزاء، وأمرهم آخر قريش بشـكر نعمته بإفراده بالعبادة، عرفهم أول هذه أن ذلك لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق الناهي عن مساوئها، وعجب ممن يكذب بالجزاء مع وضوح الدلالة عليه بحكمة الحكيم، ووصف المكذب به بأوصاف هم منها في غاية

النفرة، وصوّره بأشنع صورة بعثاً لهم على التصديق وزجراً عن التكذيب، فقال خاصاً بالخطاب رأس الأمة إشارة إلى أنه لا يفهم هذا الأمر حق فهمه غيره: {أرأيت} أي أخبرني يا أكمل الخلق {الذي يكذب} أي يوقع التكذيب لمن يخبره كائناً من كان {بالدين *} أي الجزائي الذي يكون يوم البعث الذي هو محط الحكمة وهو غاية الدين التكليفي الآمر بمعالي الأخلاق الناهي عن سيئها، ومن كذب بأحدهما كذب بالآخر: ولما كان فعل الرؤية بمعنى أخبرني، المتعدي إلى مفعولين، كان تقدير المفعول الثاني: أليس جديراً بالانتقام منه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت السور المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها مما هو جارٍ على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الإنسان ما تضمنت كقوله: {إن الإنسان لربه لكنود} {إن الإنسان لفي خسر} {يحسب أن ماله أخلده} وانجر أثناء ذلك مما تثيره هذه الصفات الأولية ما ذكر فيها أيضاً كالشغل بالتكاثر، والطعن على الناس ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام أو يوجد بعضها أو أعمال من يتصف بها وإن لم يكن من أهلها كدع اليتيم، وهو دفعه عن حقه وعدم الرفق به، وعدم الحض على طعام المسكين، والتغافل عن الصلاة والسهو عنها، والرياء بالأعمال والزكاة والحاجات التي يضطر فيها الناس بعضهم إلى بعض، ويمكن أن يتضمن إبهام الماعون هذا كله، ولا شك أن هذه الصفات توجد في المتسمين بالإسلام، فأخبر سبحانه وتعالى أنه من صفات من يكذب بيوم الدين ولا

ينتظر الجزاء والحساب، أي إن هؤلاء هم أهلها، ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلم «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً» وقوله عليه الصلاة والسلام «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وهذا الباب كثير في الكتاب والسنة، وقد بسطته في كتاب «إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل» فمن هذا القبيل عندي- والله أعلم- قوله تعالى: {أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم} أي أن هذه الصفات من دفع اليتيم وبعد الشفقة عليه، وعدم الحض على إطعامه والسهو عن الصلاة والمراءاة بالأعمال ومنع الحاجات إن هذه كلها من شأن المكذب بالحساب والجزاء لأن نفع البعد عنها إنما يكون إذ ذاك، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن المشكور والسعي المبرور، ومن كذب به لم يبال بها وتأبط جميعها، فتنزهوا أيها المؤمنون عنها، فليست من صفاتكم في أصل إيمانكم الذي بايعتم عليه، فمن تشبه بقوم فهو منهم، فاحذروا هذه الرذائل فإن دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل، وعدم الحض على إطعامه فإنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلوات من ثمرات إلهاء التكاثر، والشغل بالأموال والأولاد، فنهى عباده عن هذه الرسائل التي يثمرها ما تقدم والتحمت السور- انتهى.

ولما كان المراد بهذا الجنس، وكان من المكذبين من يخفي تكذيبه، عرفهم بأمارات تنشأ من عمود الكفر الذي صدر به ويتفرع منه تفضحهم، وتدل عليهم وإن اجتهدوا في الإخفاء وتوضحهم، فقال مسبباً عن التكذيب ما هو دال عليه: {فذلك} أي البغيض البعيد من كل خير {الذي يدع} أي يدفع

دفعاً عنيفاً بغاية القســـوة {اليتيم *} ويظلمه ولا يحث على إكرامه لأن الله تعالى نزع الرحمة من قلبه، ولا ينزعها إلا من شـــقي لأنه لا حامل على الإحسان إليه إلا الخوف من الله سبحانه وتعالى، فكان التكذيب بجزائه سبباً للغلظة عليه.

ولما كانت رحمة الضـعفاء علامة على الخير، ولذلك قال النبي صـلى الله عليه وســـلم «اللهم إني أســـألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين» كانت القسوة عليهم علامة على الشر، وكان من بخل باللين في قاله أشـــد بخلاً بالبذل من ماله، قال معرفاً لأن المكذب ينزله تكذيبه إلى أسفل الدركات، وأسوإ الصفات الحامل على شر الحركات: {ولا يحض} أي يحث نفســـه وأهله ولا غيرهم حثاً عظيماً يحمى فيبعث على المراد {على طعام المسـكين *} أي بذله له وإطعامه إياه بل يمقته ولا يكرمه ولا يرحمه، وتعبيره عن الإطعام- الذي هو المقصـــود- بالطعام الذي هو الأصـــل وإضـافته المسكين للدلالة على أنه يشارك الغني في ماله بقدر ما فرض الله من كفايته، وقد تضـــمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث- إيذاء الضـــعيف والتهاون بالمعروف، والآية من الاحتباك: الدع في الأول يدل على المقت في الثاني: والحض في الثاني يدل على مثله في الأول.

ولما كان هذا حاله مع الخلائق، أتبعه حاله مع الخالق إعلاماً بأن كلاًّ منهما دالّ على خراب القلب وموجب لمقت الرب، وأعظم الإهانة والكرب، وأن المعاصـي شؤم مهلك، تنفيراً عنها وتحذيراً منها، فسبب عنه قوله معبراً

بأعظم ما يدل على الإهانة: {فويل} ولما كان الأصل: له- بالإضمار والإفراد، وكان المراد ب «الذي» الجنس الصالح للواحد وما فوقه.

وكان من يستهين بالضعيف لضعفه يعرض عما لا يراه ولا يحسه لغيبته، وكان من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع، وكان من باشرها ربما ظن النجاة ولو كانت مباشرته لها على وجه الرياء أو غيره من الأمور المحيطة للعمل، عبر بالوصف تعميماً وتعليقاً للحكم به وشقه من الصلاة تحذيراً من الغرور، وإشارة إلى أن الذي أثمر له تلك الخساسة هو ما تقدم من الجري مع الطبع الرديء، وأتى بصيغة الجمع تنبيهاً على أن الكثرة ليست لها عنده عزة لأن إهانة الجمع مستلزمة لإهانة الأفراد من غير عكس فقال: {للمصلين *} ولما كان الحكم إنما هو على ذات الموضع من غير اعتبار لوصفه بالفعل علم أن المقصود إنما هو من كان مكلفاً بالصلاة لأن من كان متلبساً بها مثل قوله صلى الله عليه وسلم «لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار» فلذلك وصفهم بقوله: {الذين هم} أي بضمائرهم وخالص سرائرهم. ولما كان المراد تضييعهم قال: {عن} دون في {صلاتهم} أي هي جديره بأن تضاف إليهم لوجوبها عليهم وإيجابها لأجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها {ساهون *} أي عريقون في الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها وقلة الالتفات إليها، ويوضح ذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ «لاهون» وفائدة التعبير بالوصف الدلالة على ثبوته لهم ثبوتاً يوجب أن لا يذكروها من ذات أنفسهم أصلاً، ولذلك كشفه بما بعده، روى البغوي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الآية فقال: «هو إضاعة الوقت» وعن

ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا ويصلونها إذا حضروا مع الناس.

ولما كان من كان بهذه الصفة لا نظر له لغير الحاضر كالبهائم، قال دالاً على أن المراد بالسهو ههنا تضييعها عند الانفراد بالترك حساً ومعنى وعند الاجتماع بالإفساد في المعنى: {الذين هم} أي بجملة سرائرهم {يرآؤن *} أي بصلاتهم وغيرها يرون الناس أنهم يفعلون الخير ليراهم الناس فيروهم الثناء عليهم والإحسان إليهم ولو بكف ما هم يستحقونه من السيف عنهم، لا لرجاء الثواب ولا لمخوف العقاب من الله سبحانه وتعالى، ولذلك يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس.

ولما كان من كان بهذه الصفة ربما فعل قليل الخير دون جليله رياء، بين أنهم غلب عليهم الشح حتى أنهم مع كثرة الرياء منهم لم يقدروا على أن يراؤوا بهذا الشيء التافه، فانسلخوا من جميع خلال المكارم، فقال إبلاغاً في ذمهم إشعاراً بأن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله: {ويمنعون} أي على تجدد الأوقات، وحذف المفعول الأول تعمماً حتى يشمل كل أحد وإن جل وعظمت منزلته ولطف محله من قلوبهم تعريفاً بأنهم بلغوا من الرذالة دركة ليس وراءها للحسد موضع {الماعون} أي حقوق الأموال والشيء اليسير من المنافع مثل إعارة التافه من متاع البيت التي جرت عادة الناس أن يتعاوروه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق، والحاصل أنه ينبغي حمل ذلك على منع ما يجب بذله مثل فضل الكلأ والماء والزكاة ونحوه ليكون موجباً للويل، وعلى الزكاة حمله علي وابن عمر

رضـــي الله عنهما والحســن وقتادة، قال العلماء: هو مأخوذ من المعن، وهو في اللغة الشـيء اليسير، ولذلك فسره بعضـهم بالماء وبعضـهم بما يعار من المتاع نحو القدر والفأس.

والدلو، وبعضـــهم بالزكاة لأنه لا يؤخذ من المال على وجه الزكاة إلا شـــيء يسـير جداً بالنسـبة إليه، وقيل: هو كل عطية أو منفعة، وقال قطرب: هو فـاعول من المعن، والمعن: المعروف، وقـال أبو عبيـدة: المـاعون في الجاهلية العطاء والمنفعة وفي الإسـلام الزكاة، وقال الهروي: قال ابن عباس رضـــي الله عنهما: هو العارية- ذكر هذا الأسـتاذ عبد الحق الإشـبيلي في كتابه الواعي، وقال ابن جرير: وأصـل الماعون من كل شـيء منفعته. فدل ذلـك على أنهم بلغوا نهـايـة التكـذيـب بـاســـتهـانتهم بـأعظم دعـائم الـدين واســـتعظامهم لأدنى أمور الدنيا، وهذا الآخر كما ترى هو الأول لأن الذي جر إليه هو التكذيب، ومن منع هذه الأشـــياء التافهة كان جديراً بأن يمنع ورود الكوثر في يوم المحشــر، وكما التقى آخرها بأولها التقت السـورة كلها مع مناظرتها في العدد من أول القرآن، وذلك أنه قد علم أن حاصـــل هذه السورة الإبعاد عن سفساف الأخلاقورديها ودنيها من التكذيب بالجزاء الذي هو حكمة الوجود المثمر للإعراض عن الوفاء بحق الخلائق وطاعة الخالق، والانجذاب مع النقائص إلى الاسـتهانة بالضـعيف الذي لا يسـتهين به إلا أنذل النـاس وأرذلهم، والريـاء الـذي لا يلم بـه إلا من كـان في غـايـة الـدنـاءة، فكان ذلك موجباً للميل إلى أعظم الويل، وفي ذلك أعظم مرغب في معالي الأخلاق التي هي أضـــداد ما ذكر في الســـورة وكلا الأمرين موجود في

الأنفال المناظرة لها في رد المقطع على المطلع على أتم وجه، ليكون ذلك إشـــارة إلى أنها شـــارحة لهذا ففيه الإيماء إلى ملاحظتها عند قراءتها، انظر إلى قوله تعالى : {الذين يقيمون الصـــــلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً} [الأنفال: 4] الآية {وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك} [الأنفال: 32] الآية {وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية} [الأنفال: 35] {والذين كفروا إلى جهنم يحشرون} [الأنفال: 36] الآية {فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل} [الأنفال: 41] الآية ولقد انطبقت السورة بمعانيها وتراكيبها العظيمة ونظومها ومبانيها على الأراذل الأدنياء الأســـافل، وأحاطت برؤوســـــهم بعد كلماتها مفردة قبل حروفها، وأدارت عليهم كؤوس حتوفها من نوافذ الرماح بأيدي جنودها ومواضي سيوفها، وذلك أن عدة كلماتها خمس وعشرون كلمة فإذا اعتبرتها من أول سني النبوة وازت السنة الثانية عشرة من الهجرة، وذلك أواخر خلافة الصـــديق رضـــي الله عنه، وفيها لم يبق على يده أحد من المصـــلين الذين ارتدوا عن الإســـلام بعد وفاة النبي صـــلى الله عليه وســـلم أو منعوا الزكاة، فتبين أنهم ما كانوا يصلون في حياته صلى الله عليه وسلم ويزكون إلا رياء الناس فعل الأدنياء الأنجاس حتى حل بهم الويل بأيدي جنود الصديق الذين جاؤوهم بالرجل والخيل فمزقوهم عن آخرهم، ولم تمض تلك الســــنة إلا وقد فرغ منهم بالفراغ من بني حنيفة باليمامة وأطراف بلاد اليمن من أهل النجير ببلاد كندة والأسود العنسي من صنعاء، وما مضت سنة ست عشرة الموازية لعدد الكلمات بالبســــملة- وذلك في أوائل خلافة الفاروق- حتى زالوا من

جميع جزيرة العرب وهم مشركو العرب ومتنصروهم ومتمجسوهم الذين كانوا بنواحي العراق والشام والبحرين فأسلم أكثرهم، وذهب الباقون إلى بلاد الروم، فحل الويل بالمرائين من أهل الصلاة فإنهم الذين أتى إليهم نبيهم صلى الله عليه وسلم بالصلاة فأعرضوا عنها والناس لهم تبع، ولم يصح في هذه السورة اعتبار الضمائر لأن الدين في هذا الحد كان قد ظهر على كل ظاهر، إلى حد لا إضمار فيه بوجه ولا عائق له ولا ساتر، وكما أنه لا حاجة إلى الرمز بالضمائر، لما دقت له في الخافقين من البشائر، على رؤوس المنابر والمنائر، فكذلك لم يناسب بعد الوصول إلى هذا الحال المكشوف، للإيماء بالدلالة بإعداد الحروف- والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

108 Kauthar Tafsir Nazmuddurar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

▲ سورة الكوثر

108

▲ تفسير الآيات رقم [1– 3]

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)}

لما كانت سورة الدين بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم، فجاءت الكوثر لذلك، وكانت الدين قد ختمت بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق : المنع تنفيراً من البخل ومما جره من التكذيب، فابتدئت الكوثر بأجود الجود. العطاء لأشرف الخلائق ترغيباً فيه وندباً إليه، فكان كأنه قيل : أنت يا خير الخلق غير متلبس بشـــيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون : {إنا } بما لنا من العظمة وأكد لأجل تكذيبهم : {أعطيناك } أي خولناك مع التمكين العظيم، ولم يقل : آتيناك، لأن الإيتاء

أصـله الإحضـار وإن اشـتهر في معنى الإعطاء {الكوثر *} الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين.

ولمـا كـان كثير الرئيس أكثر من كثير غيره، فكيف بـالملـك فكيف بملـك الملوك، فكيف إذا أخرجـه في صـــيغة مبالغة فكيف إذا كـان في مظهر العظمه، فكيف إذا بنيت الصـيغة على الواو الذي له العلو والغلبة فكيف إذا أتت إثر الفتحة التي لها من ذلك مثل ذلك بل أعظم، كان المعنى: أفضـنا عليك وأبحناك من كل شيء من الأعيان والمعاني من العلم والعمل وغيرهما من معادن الدارين ومعاونهما الخير الذي لا غايـة لـه، فلا يدخل تحت الوصـــف، فأغنيناك عن أن تؤثر بذلك أو توفر مالك بجلب نفع أو دفع ضر، ومنه النهر الذي في الجنة ويسقي المؤمنين من الحوض الممدود منه في المحشـر الذي مثاله في الدنيا شـريعته صـلى الله عليه وسـلم التي عراها وأسـبابها عدد النجوم الذين هم علماء أمته المقتدى بهم، فقد اجتمع لك الغبطتان: أشرف العطاء من أكرم المعطين وأعظمهم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار والكبر والتعزز بالمال والجاه وطلب الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون، وهو الكوثر وهو الخير الكثير، ومنـه الحوض الذي ترده أمته في القيامة، لا يظمأ من شـــرب منه، ومنه مقامه المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون عند شـــفاعته العامة للخلق وإراحتهم من هول الموقف، ومن هذا الخير ما قدم لـه في دنياه من تحليل الغنائم والنصـر بالرعب والخلق العظيم إلى ما لا يحصـى من خيري الدنيا

والآخرة مما بعض ذلك خير من الدنيا وما فيها إذ لا تعدل الدنيا وما فيها واحدة من هذه العطايا {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} [يونس: 58] ومن الكوثر والخير الذي أعطاه الله كتابه المبين، الجامع لعقل الأولين والآخرين، والشفاء لما في الصدور.

ولما كمل له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها، قال مبيناً له منبهاً على عظيم ما أعطاه {لا تمدن عينيك إلى ما متعنا} [الحجر: 88] إلى قوله {ورزق ربك خير وأبقى} فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كلُّ ما ذكره الله تعالى في الكتاب من نعيم أهل الدنيا وتمكن من تمكن منهم، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد من المتنعمين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من تمهيد إشاراتها، وتبين بهذا وجه تعقيبها بها- والله تعالى أعلم- انتهى.

ولما أعطاه ما فرغه به للعبادة وأكسبه غنى لا حاجة معه، سبب عنه قوله آمراً بما هو جامع لمجامع الشكر: {فصل} أي بقطع العلائق من الخلائق بالوقوف بين يدي الله في حضرة المراقبة شكراً لإحسان المنعم خلافاً للساهي عنها والمرائي فيها.

ولما أتى بمظهر العظمة لتكثير العطاء فتسبب عنه الأمر بما للملك من العلو، وكان أمره صلى الله عليه وسلم تكوينياً لا إباء معه، وقع الالتفات إلى صفة الإحسان المقتضي للترغيب والإقبال لما يفيد من التحبيب، مع

التصريح بالتوحيد، وإفادة أن العبادة لا تقع إلا شكراً فقال تعالى: {لربك} أي المحسن إليك بذلك سراً وعلناً مراغماً من شئت فلا سبيل لأحد عليك {وانحر *} أي أنفق لـه الكوثر من المال على المحاويج خلافاً لم يدعهم ويمنعهم الماعون لأن النحر أفضـــل نفقات العرب لأن الجزور الواحد يغني مائة مســكين، وإذا أطلق العرب المال انصـــرف إلى الإبل، ولذا عبر عن هذا المراد بالنحر ليفهم الزجر عما كانوا يفعلونه من الذبح للأوثان، ومن معناه أيضاً أظهر الذل والمسكنة والخشوع في الصلاة بوضع اليمنى على اليسرى تحت النحر هيئة الذليل الخاضــع، وقد قابل في هذا أربعاً من ســورة الدين بأربع، وهي البخل بالإعطاء، وإضـــاعة الصـــلاة بالأمر بها، والرياء بالتخصيص بالرب، ومنع الزكاة بالنحر.

ولما أمره باستغراق الزمان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلائق بأعلى الخلائق، علله بما حاصـله أنه لا شـاغل له ولا حاجة أصـلاً تلم به فقال: {إن شـانئك} أي مبغضـك والمتبرئ منك والمسـتهين بك مع ما أوتيت من الجمال، والخصـــال الفاضـــلة والكمال {هو} أي خاصـــة {الأبتر *} أي المقطوع من أصله والمقطوع النسل والمعدم والمنقطع الخير والبركة والذكر، لا يعقبه من يقوم بأمره ويذكر به وإن جمع المال، وفرغ بدنه لكل جمال، وأنت الموصـــــول الأمر، النابه الذكر، المرفوع القدر، فلا تلتفت إليهم بوجه من الوجوه، فإنهم أقل من أن يبالي بهم من يفرغ نفســـه للفوز بالمثول في حضراتنا الشريفة، والافتخار بالعكوف في أبوابنا العالية المنيفة، لك ما أنت عليه، ولهم ما هم فيه، فالآية الأخيرة النتيجة لأن من الكوثر علو أمره وأمر

محبيه وأتباعه في ملكوت السماء والأرض ونهر الجنة وسفول شأن عدوه فيهما، فقد التف كما ترى مفصلها بموصلها، وعرف آخرها من أولها، وعرف أن وسطاها كالحدود الوسطى معانقة للأولى بكونها من ثمارها، ومتصلة بالأخرى لأنها من غايات مضمارها، وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً، لم يبق لأحد من مبغضيه ذكر بولد ولا تابع، ولا يوجد لهم شاكر ولا مادح ولا رافع، وأما هو صلى الله عليه وسلم فقد ملأت ذريته من فاطمة الزهراء الأرض، وهم الأشرف مع مبالغة الملوك في قتلهم، وإخلاء الأرض من نسلهم، خوفاً من شرفهم العالي على شرفهم، ورفعتهم بالتواضع الغالب لصلفهم، وإذا راجعت آية

{ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله} [الأحزاب: 40] من الأحزاب علمت أن توفي بنيه عليهم السلام قبله من إعلاء قدره ومزيد تشريفه بتوحيد ذكره، وأما اتباعه فقد استولوا على أكثر الأرض وهم أولو الفرقان، والعلم الباهر والعرفان، ويؤخذ منها أن من فرغ نفسه لربه أهلك عدوه وكفاه كل واحد منهم، وقد علم أن حاصل هذه السورة المن عليه صلى الله عليه وسلم بالخير العظيم الذي من جملته النهر المادّ من الجنة في المحشر المورود لمن اتبعه، الممنوع ممن تأبى عنه وقطعه، وأمره بالصلاة والنحر للتوسعة على المحاويج، والبشارة بقطع دابر أعدائه ونصر جماعة أوليائه، كما أن من مقاصد الأعراف المناظرة لها في رد المقطع على المطلع تهديد الظالمين بالإهلاك في قوله {وكم من قرية أهلكناها} [الأعراف: 4]، وتصوير ذلك بذكر مصارع الماضين لمخالفتهم الرسل

عليهم الصلاة والسلام والأمر بالصلاة وستر العورة وما يقصد بالنحر بقوله: {خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا} الآيات [الأعراف: 31]، وذكر من يمنح ماء الجنة ومن يمنعه بقوله تعالى: {ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أو أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله} الآيات [الأعراف: 50]، وقوله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم} [الأعراف: 157] هذا ما يتعلق بتفسير تراكيبها وجملها، وتأويل تفاصيلها ومجملها، وكذا نظيرتها في مبادئ أمرها ومكملها، ثم إن هذه السورة عشر كلمات في الكتابة إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة، وكذا كان، لم تمض السنة الحادية عشر من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا من يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه، وإذا أضفنا إليها الضميرين المستترين كانت اثنتا عشرة، وفي السنة الثانية عشرة من النبوة بايعه صلى الله عليه وسلم الأنصار على منابذة الكفار، وإذا أضيف إلى العشرة الضمائر البارزة الخمسة كانت خمس عشرة، فتكون إشارة إنه صلى الله عليه وسلم عند تمام السنة الخامسة عشر من نبوته يبسط يده العالية لبتر أعدائه وكذا كان في وقعة بدر الرفيعة القدر، ففي ضمائر الاستتار كانت البيعة وهي مستترة، وفي الضمائر البارزة كانت بدر وهي مشتهرة، وإذا أضيف إلى ذلك الضميران المستتران كانت سبع عشرة، وفي السنة السابعة عشرة من نبوته كانت غزوة بدر الموعد، وفى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالوعد في الإتيان إلى بدر

للقاء قريش للقتال ومقارعة الأبطال، فآذنهم الله فلم يأتوا، وإنما اعتبر ما بعد الهجرة من أحوال النبوة عندما عدت الكلمات الخطية العشـــر لكونها أقوى أحوال النبوة كما أن الكلمات الخطية أقوى من الضــمائر وإن اشــترك الكل في اســم الكلمات، فلذلك أخذ تمام البتر للشـــانئ وهو ما كان في الســنة الحادية عشــرة من هلاك أهل الردة وثبات العرب في صــفة الإســلام، ولما ضمت الضمائر البارزة الخمسة- التي هي أقرب من المستترة- إلى الكلمات الخطية وأضعف من الكلمات الخطية اعتبر من أول السورة لمناسبة ما كان من ضـعف الحال فيما كان قبل الهجرة، فوازى ذلك السـنة الثانية من الهجرة التي كانت فيها غزوة بدر الكبرى، وهي وإن كانت من العظم على أمر بالغ جداً لكنها كانت على وجه مخالف للقياس، فإن حال الصــحابة رضـــي الله عنهم كان فيها في غاية الضـــعف، ولكونها أول ما وقع فيه النصـــر من الغزوات لم تكن نفوس المخالفين مذعنة لأن ما بعدها يكون مثلها، فإذا ضم إلى ذلك الضميران المستتران- وهما أضعف من البارز- انطبق العدد على ســـنة غزوة بدر الموعد في ســـنة أربع، وهي وإن كانت قوية لكون قريش ضـــعفوا عن اللقاء لكن كان حالها أضـــعف من بدر التي وقع فيها القتال وأســـتر، وكون كلماتها الخطية والاصـــطلاحية التي هي أبعاض الكلمات الخطية سـبع عشـرة مؤذن بأن الأمر في {فصـلِّ} مصـوب بالذات بالقصـد الأول إلى الصلوات الخمس التي هي سبع عشرة ركعة، وأن من ثابر عليها كان مصــلياً خارجاً من عهدة الأمر، فإذا قصــدت في الســفر بما اقتضــته صـفة التربية بالإحسـان نقصـت بقدر عدة الضـمائر سوى الذي وفى الأمر

بها لأن الأمر الناشئ عن مظهر العظمة لا يليق فيه التخفيف بنفسه كلمة الأمر، وإذا أضفنا إليها كلمات البسملة الأربعة كان لها أسرار كبرى من جهة أخرى، وذلك أن الكلمات الخطية تكون أربع عشرة إشارة إلى أن ابتداء البتر للأضداد يكون بالقوة القريبة من الفعل بالتهييء له في السنة الرابعة عشرة من النبوة، وذلك عام الهجرة، فإذا أضفنا إليها الضمائر البارزة التي هي أقرب إلى الكلمات الخطية وهي خمسة كانت تسع عشرة، وفي السنة التاسعة عشرة من النبوة وهي السادسة من الهجرة كان الفتح المبين على الشانئين الذي أنزل الله فيه سورة الفتح، فإذا أضفنا إليها الضميرين المستترين كانت إحدى وعشرين وهي سنة ثمان من الهجرة سنة الفتح الأكبر الذي عم العلم فيه بأن الشانئ هو الأبتر، وإذا اعتبرت حروفها المتلفظ بها كانت أربعة وأربعين حرفاً، فإذا ناظرتها بالسنين من أول حين النبوة كان آخرها سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، وهي سنة البتر الأعظم لشانئه الأكبر الذي مزق كتابه، وكان مالكاً لبلاد اليمن، وهو قدر كبير من بلاد العرب وكذا لغيرهم مما قارب بلاده، وكانت قريش تجعله من عدادهم كما مضى بيانه في سورة الروم وهو كسرى ملك الفرس، ففيها كان انقراض ملكهم بقتل آخر ملوكهم يزدجرد، كما أنك إذا اعتبرت كلماتها الخطية مع الضمائر البارزة التي هي كلمات اصطلاحية دون ما استتر- فإن وجوب استتاره منع من عده- كانت تسع عشرة كلمة، فإن اعتبرت بها ما بعد الهجرة وازت وقت موت قيصر طاغية الروم في سنة تسع عشرة من الهجرة أهلكه الله، وقد تجهز إلى قتال العرب بالإسكندرية بنفسه، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من

الروم فكسر الله بموته شوكة الروم، واستأسدت العرب عند ذلك، فكانت الأحرف مشيرة إلى بتر الشانئ من الفرس، والكلمات مشيرة إلى بتر الشانئ من الروم والفرس أولى بإشارة الأحرف لأنهم ليسوا بذوي علم، والروم بالكلمات لأنهم أهل علم، والكلمات أقرب إلى العلم، وإذا اعتبرت أحرف البسملة اللفظية كانت ثمانية عشر حرفاً، فإذا جعلتها سنين من أول النبوة كان آخرها سنة خمس من الهجرة، وفيها كانت غزوة الأحزاب، قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافهم منها

»الآن نغزوهم ولا يغزونا» فهو أول أخذ الشانئ في الانبتار، وإذا اعتبرت الأحرف بحسب الرسم كانت تسعة عشر آخرها سنة ست، وهي عمرة الحديبية سنة الفتح السببي وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح وسماه الله فتحاً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه أعظم الفتح» فكان سبب الفتح الأعظم بخلطة الكفار لأهل الإسلام بالصلح، فأسرعوا إلى الإسلام بالدخول فيه لما رأوا من محاسن الدين وإعجاز القرآن، فكانوا يوم الفتح عشرة آلاف بعد أن كانوا قبل ذلك بسنتين يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة– والله الموفق، هذا يسير من أسرار هذه السورة وقد علم منه من إعجازها ما يشرح الخواطر ويبهج النواظر، لأنه يفوق حسناً على الرياض النواضر، وعلم أيضاً جنون الخبيث المسخرة مسيلمة الكذاب– عليه اللعنة والتباب، وله سوء المنقلب والمآب، حيث قال في معارضتها : إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وهاجر، إنا كفيناك المكابر أو المجاهر، لأنه كلام، مع أنه قصير المدى، ركيك اللحمة والسدى، غريق الساحة والفنا في الهلك والفنا، ليس فيه غنى،

بل كله نصب وعنا، هلهل النسج رث القوى، منفصم العرى، مخلخل الأرجا، فاسد المعنى والبنا، سافل الألفاظ مر الجنى، لأن العلل منافية للمعلولات، والشوامل منافرة للمشمولات، ثم رأيت في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني أن الوسطى من قال: العاهر وجاهر فإن كان بالدين لم يمنع الصدح بالباطل، وذلك لا يرضى به عاقل، وإن كان بالحرب كان على النصف لكل من تدبر فعرف، ولا نص فيه على الغلب بمطلوبيه، ولا طلب مع نقص الجود على كل تقدير، الذي هو المقصود للغني والفقير، والمأمور والأمير، هذا مع الإغارة على الأسلوب والحذو على المعهود غير محاذ {في القصاص حياة} [البقرة: 179] في إسقاط «القتل أنفى للقتل» بالرشاقة مع الوجازة، والعذوبة مع البلاغة، في إصابة حاق المعنى بما يقود إلى السماح بالنفس، ويحمل على المبادرة إلى امتثال الأمر، والأولى من سخيف عقل الخسيف، وأكله؟ إلى الخلق مع نقصان المعنى السار للإسرار والأخرى مهملة لذوي الشبه والستر مع ما فاتها من قصر الخسار وخصوص التبار إلى ما حوت من بيان الكذب البتار للأعمار المخرب للديار تصديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم البار بأيدي صحابته الأخيار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار – فسبحان من علا فعلا كلامه كل كلام والسلام والحمد لله على كل حال.

109 Kaafiroon Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســـب الآيـات والســـور والسورللبقاعي

سورة الكافرون

109

تفسير الآيات رقم [1- 6]

{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)}

لما أخبره في الكوثر أن العريق في شنآنه عدم، وجب أن يعرض عنه ويقبل بكليته على من أنعم عليه بذلك، فقال معلماً له ما يقول ويفعل: {قل} ولما كان شـائنه أعرق الخلق في الضـلال والبعد من الخير، قال منادياً له بأداة البعد وإن كان حاضـراً معبراً بالوصـف المؤذن بالرسـوخ: {يا أيها الكافرون} أي الذين قد حكم بثباتهم على الكفر فلا انفكاك لهم عنه فسـتروا ما تدل

عليـه عقولهم من الاعتقـاد الحق لو جردوهـا من أدنـاس الحظ، وهم كفرة مخصـوصـون وهم من حكم بموته على الكفر بما طابقه من الواقع، وبما دل عليه التعبير بالوصــف دون الفعل، واســتغرقت اللام كل من كان على هذا الوصـــف في كل مكان وكل زمان، وإنما عبر بالجمع الذي هو أصـــل في القلة وقد يستعار للكثرة إشارة إلى البشـارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا في حياته صـــلى الله عليه وســلم وإشـــارة إلى حقارة الكافر وذلته وإن كان كثيراً- كما يشـير إليه جعل كل كلمة منها بحرف من الكوثر كما سـيأتي، وفي مناداتهم بهذا الوصـف الذي يسـترذلونه في بلدتهم ومحل عزهم وحميتهم إيذان بأنه محروس منهم علماً من أعلام النبوة.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما انقضـــى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف أحوال كل فريق وشـــتى درجاتهم، وأعني بالفريقين من أشـير إليه في قوله سـبحانه وتعالى: {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم} فهذا طريق أحد الفريقين، وفي قوله: {غير المغضـوب عليهم ولا الضـالين} إشـارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق إذ ليس إلا طريق الســـلامة أو طريق الهلاك {فريق في الجنة وفريق في السعير} [الشورى: 7] {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} [التغابن: 2] والســالكون طريق الســلامة فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم أتباعهم من صالحي العباد وعلمائهم العاملين وعبادهم وأهل الخصـــوص منهم والقرب من أحوال من تنسـك منهم، ورتبتهم مختلفة وإن جمعهم جامع وهو قولـه: {فريق في الجنة}

وأما أهل التنكب عن هذا الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضـاً، ويضـم جميعهم طريق واحد فكيفما تشـــعبت الطرق فإلى ما ذكر من الطريقين مرجعهما، وباختلاف ســـبل الجميع عرفت آي الكتاب وفصـــلت، ذكر كله تفصـــيلاً لا يبقى معه ارتياب لمن وفق، فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به، وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن {هدى للمتقين} [البقرة: 2] إلى قوله: {إن شانئك هو الأبتر} أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى: {قل يا أيها الكافرون} فبين سبحانه أن من قضـي عليه بالكفر والوفاة عليه لا سبيل له إلى خروجه عن ذلك، ولا يقع منه الإيمان أبداً

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشـاء الله} [الأنعام: 111] ولو أنهم بعد عذاب الآخرة ومعاينة العذاب والبعث وعظيم تلك الأهوال وســـؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم: {ربنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل} [السجدة: 12] فلو أجيبوا إلى هذا ورجعوا لعادوا إلى حالهم الأول {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} [الأنعام: 128] تصديقاً لكلمة الله وإحكاماً لسابق قدره {أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار} [الزمر: 19] فقال لهم: {لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد} إلى آخرها، فبان أمر الفريقين وارتفع الإشكال، واستمر كل على طريقه {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} [فاطر: 8] {إن عليك إلا البلاغ} [الشـورى: 48] فتأمل موقع هذه السـورة وأنها الخاتمة لما قصد في الكتاب يلح لك وجه تأخيرها- والله أعلم- انتهى.

ولما كان القصد إعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه، وأنه لا يبالي بهم بوجه لأنه محفوظ منهم، قال مؤذناً بصـــدق خبره تعالى آخر الكوثر من حيث إنه مع الجزم بالمنابذة لا يستطيعون له نوع مكابدة نافذة، بادئاً بالبراءة من جهته لأنها الأهم: {لا أعبد} أي الآن ولا في مســتقبل الزمان لأن {لا} للمســتقبل و{ما} للحال، كذا قالوا، وظاهر عبارة ســـيبويه في قوله: {لن} نفي لقوله {سيفعل} {ولا} لقوله: {يفعل}، ولم يقع: أنها تقع للمضارع الذي لم يقع سواء كان في غاية القرب من الحال أم لا، كما نقلته عنه في أول البقرة عند {ولن تفعلوا} [البقرة: 24] على أن نطقنا بهذا الكلام لا يكاد يتحقق حتى يمضـي زمن فيصير مستقبلاً، فلذا عبر ب «لا» دون «ما» بشارة بأنه سبحانه يثبته على الصراط المستقيم، ولا يظفرهم به- علماً من أعلام النبوة.

ولما كان في معبوداتهم ما لا يعقل، وكان المقصـــــود تحقير كل ما عبدوه سوى الله، عبر ب «ما» فقال: {ما تعبدون *} أي الآن وفي آتي الزمان من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادة في ســـر ولا علن لأنه لا يصلح للعبادة بوجه.

ولما بدأ بما هو الأحق بالبداءة وهو البراءة من الشـرك، والطهارة من وضـر الإفك، لأنه من درء المفاسد، فأبلغ في ذلك بما هو الحقيق بحاله صلى الله عليه وسلم، وكانوا هم يعبدون الله تعالى على وجه الإشـراك، وكانت العبادة مع الشــرك غير معتد بها بوجه، نفى عبادتهم له في الجملة الاســمية الدالة على الثبات لا في الفعلية الدالة على نفي كل قليل وكثير من حيث إن

الفعل نكرة في سـياق النفي فقال: {ولا أنتم عابدون} أي عبادة معتداً بها بحيث يكون أهلاً لأن تكون وصفاً ثابتاً.
ولما كانوا لا نزاع لهم في أن معبوده عالم، وكانت «ما» صـالحة للإطلاق عليه سبحانه وتعالى، عبر فيه أيضاً بها لأن ذلك- مع أنه لا ضرر فيه- أقرب إلى الإنصـاف، فهو أدعى إلى عدم المراء أو الخلاف- فقال: {ما أعبد *} أي الآن وما بعده لأن معبودي- وله العلم التام والقدرة الشـاملة- أبعدكم عنه فلا مطمع في الوفاق بيننا.
ولما كان ما نفى عن النبي صـلى الله عليه وسـلم لا يدخل فيه الماضـي، وكان عدم المشـاركة بوجه من الوجوه في زمن من الأزمان أدل على البراءة وأقعد في دوام الاستهانة، وكانوا يعدون سكوته صلى الله عليه وسلم عنهم فيما قبل النبوة عبادة، وكانوا غير مقتصـرين على عبادة أصـنامهم التي اتخذوها، بل إذا خرجوا من الحرم فنزلوا منزلاً نظروا لهم حجراً ليسـتحسـنوه فيعبدونه، فإن لم يروا حجراً جمعوا شيئاً من تراب وحلبوا عليه شيئاً من لبن وعبدوه ما داموا في ذلك المنزل، وكان ذلك من أشـد ما يعاب به من جهة عدم الشـباب وأنه لا معبود لهم معين، قال منبهاً على ذلك كله: {ولا أنا عابد} أي متصف بعبادة {ما عبدتم *} أي فيما سلف، لم يصح وصفي قط بعبادة ذلك من أول زمانكم إلى ساعاتنا هذه، فكيف ترجون ذلك مني وأنا لم أفعله ولا قبل النبوة ولا كان من شأني قط.
ولما كان هو صـلى الله عليه وسـلم ثابتاً على إله واحد لم يعبد غيره ولم يلتفت يوماً لفت سواه، وكان قد انتفى عنه بالجملتين هذه الماضية التي أول

الســـورة أن يعبد باطلهم حالاً أو مآلاً، وأن يكون عبده قبل ذلك، وكان ربما ظن ظـان أن النفي عنهم إنمـا هو لعبـادة معبوده في الحـال، نفى ذلـك في الاســتقبال أيضــاً علماً من أعلام النبوة مع تأكيد ما أفادته الجملة الماضــية جرياً على مناهيج العرب في التأكيد قطعاً لآمالهم منه على أتم وجه وآكده لأنـه على وجـه لا يقدرون عليـه لمـا تفيده كل جملـة مع التـأكيد من فـائدة جديدة مهمة، فقال: {ولا أنتم عابدون} أي عبادة هي لكم وصف معتد به في الحال أو الاستقبال.

ولما لم يكن قبل البعث مشــهوراً عندهم بعبادة الله ســبحانه وتعالى، عبر بما لا يتوجه لهم إليه إنكار، وهو المضـــارع الذي ظاهره الحال أو الاســـتقبال مراداً به ما يشمل الماضي لما ذكر أبو حيان وغيره في سورة الحج عند {إن الذين كفروا ويصـدون عن سـبيل الله} [الحج: 25] من أنه يطلق المضـارع مراداً به مجرد إيقاع الفعل من غير نظر إلى زمان معين، فقال : {ما أعبد *} أي وجدت مني عبادته واتصفت بها الآن وفي ماضـي الزمان ومستقبله اتصافاً يعتد به.

ولما كان ذلك كله، وبدأ النفي في الجمل السـابقة بالمنسـوب إليه صـلى الله عليه وســـلم إيذاناً بالاهتمام ببراءته منهم، أنتج قطعاً مقدماً لما يتعلق بهم على وجه اختصــاصــهم به تأكيداً لما صــرح به ما مضــى من براءته منهم: {لكم} أي خاصــة {دينكم} أي الذي تعلمون أنه لا أصـل له يثبت عليه، ولا دليل يرجع بوجه إليه، لا أشـــاركتم فيه بوجه ولا ترجعون عنه بوجه بل تموتون عليه موتاً لبعضــكم حتف الأنف والآخرين قتلاً على يدي بالســيف

{ولي} أي خاصة {دين *} من واسع روضة الإسلام إلى أعلى مقام: مقام الإيقان والإحسان، وأنتم تعلمون- لو جردتم عقولكم عن الهوى وأخلصتم أفكاركم من الحمية والإبا- أنه كله دليل وفرقان ونور وحجة وبرهان، لا تشاركونني فيه بوجه، ولا تقدرون على ردّي عنه أصلاً، فكانت هذه علماً من أعلام النبوة من حيث إنه مات منهم ناس كثير بعد ذلك على الكفر وأتم الله له هذا الدين، فصدق سبحانه فيما قال، وثبت مضمون الكوثر بأكمل استدلال، وأما من آمن بعد ذلك فليس مراداً لأنه لم يكن عريقاً في وصف الكفران، ولا راسخاً في الضلال والطغيان، فأسعده وصف الإسلام والإيمان، وساق الجمل كلها غير مؤكد إشارة إلى أنها من الوضوح في حد لا خفاء به أصلاً، ولا شك أن آخرها الذي هو اختصاص كل بدينه هو أولها الذي أفاد أنه لا يعبد معبودهم ولا يعبدون معبوده فصار آخرها أولها، ومفصلها موصلها- هذا هو الذي دل عليه السياق، وليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليحتاج إلى نسخ، ومن أعظم الدلائل إعجازها وجمعها للمعاني في إشارتها وإيجازها أن حاصلها قطع رجاء أهل الكفران من أن يقاربهم النبي صلى الله عليه وسلم في أن يعدل بربه أحداً في زمن من الأزمان، وذلك من أعظم مقاصد المناظرة لها في رد الآخر على أول الأنعام لأنها السادسة في العد من الأول، كما أن هذه السادسة في العد من الآخر {أغير الله اتخذ ولياً} [الأنعام: 14] {أفغير الله ابتغي حكماً} [الأنعام: 114] {أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء} [الأنعام: 164] إلى غير ذلك من الآيات، والفواصل والغايات، هذا ما يتعلق بمعاني تراكيبها ونظومها على ما هي

عليه وتراتيبها وسياقاتها وأساليبها، وكلماتها الخطية سبع وعشرون إلى أربع كلمات البسملة إحدى وثلاثون إلى أربعة ضمائر مستترة خمس وثلاثون إلى تسـعة بارزة، فتلك أربع وأربعون كلمة الضـمائر منها ثلاثة عشـر هي مدة الإقامة بمكة المشـــرفة قبل الهجرة لأنها في الخفاء كالضـــمائر في خزائن الســـرائر، ولا ســـيما الأربع الأول منها الموازية لضـــمائر الاســـتتار وغير الضـمائر إحدى وثلاثون المناظر لها من السنين سـنة إحدى وثلاثين، وهي ســـنة قتل يزدجرد ملك الفرس أكفر الكفرة من أهل ذلك الزمان وأعتاهم، وموافقة كلماتها في العدة لأحرف الكوثر مشـيرة إلى أن اليسـير من أتباعه صـلى الله عليه وسـلم أكثر وأكبر من كثير شـانئيه وأضـداده وحاسـديه، وقد دل على ذلك شـاهد الوجوه في يوم الفتح والمسـلمون عشـرة آلاف، والكفار من قريش وممن حولهم لا يحصـــون كثرة، وقد كان فعلهم في ذلك اليوم ما شهد به اعتذار حماس الذي كان يعد امرأته أن يخدمها بعض المسلمين في قوله وقد فر هارباً ولم يســـتطع أن يغلق وراءه، بل قال لها : أغلقي بابي، فقالت له: أين ما كانت تعدني به؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمه *** إذ فر صفوان وفر عكرمه

واستقبلتهم بالسيوف المسلمه *** يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه *** بهم تهيب خلفنا وهمهمه

لم تنطقي باللوم أدنى كلمه *** هذا مع أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم كان أوصـــاهم ألا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال. وهذا مع ما كان من أهل الإسلام حين قصدهم الكفار يوم الخندق والمشركون في عشرة آلاف وهم لا

يبلغون ربعهم ولا مدد لهم ممن حولهم ولا نـاصـــر إلا الله، بـل جـاءتهم الأعداء- كما قال الله تعالى: {من فوقهم ومن أسفل منهم} [الأحزاب: 10] {وما زادهم إلا إيماناً وتسـليماً} [الأحزاب: 22] وإلى هذا أيضـاً أشـار بلوغ عدد كلمات النصر خطيها واصطلاحيها ظاهرها ومستترها إلى عدد كلمات الكافرون الخطية، فذلك رمز إلى أن أضـعف أهل الإسـلام لا يضـعف عن مقاومة أهل الكفر وأرسخهم في كل صفة يريدها- والله هو الموفق.

110 Nasr Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الـدرر في تنـاســب الآيـات والســور والسورللبقاعي

▲ سورة النصر

110

▲ تفسير الآيات رقم [1− 3]

{إِذَا جَاءَ نَصْــرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)}

لما دلت التي قبلها على أن الكفار قد صــاروا إلى حال لا عبرة بهم فيه ولا التفات ولا خوف بوجه منهم ما دام الحال على المتاركة، كان كأنه قيل : فهل يحصـل نصـر عليهم وظفر بهم بالمعاركة، فأجاب بهذه السـورة بشـارة للمؤمنين ونذارة للكافرين، ولكنه لما لم يكن هذا بالفعل إلا عام حجة الوداع بعد فتح مكة بسـنتين كان كأنه لم يسـتقر الفتح إلا حينئذ، فلم ينزل سـبحانه وتعالى هذه السـورة إلا في ذلك الوقت وقبل منصـرفه من غزوة حنين، فقال تعالى تحقيقاً لأنه ينصــــر المظلوم ويعلي دينه ويمهل ولا يهمل، فإنه لا

يعجزه شـــيء، حثاً على التفويض له والاكتفاء به، مقدماً معمول «ســبح» تعجيلاً للبشارة: {إذا}.

ولما كانت المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها، يسوقها إليها سائق القدرة، فتقرب منها شيئاً فشيئاً، كانت كأنها آتية إليها، فلذلك حصل التجوز بالمجيء عن الحصول فقال: {جاء} أي استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الأزل، وزاد في تعظيمه بالإضافة ثم بكونها اسم الذات فقال: {نصــر الله} أي الملك الأعظم الذي لا مثل له ولا أمر لأحد معه على جميع الناس في كل أمر يريده.

ولما كان للنصر درجات، وكان قد أشار سبحانه بمطلق الإضافة إليه ثم بكونها إلى الاسم الأعظم إلى أن المراد أعلاها، صرح به فقال: {والفتح *} أي المطلق الصالح لكل فتح الذي نزلت فيه سورته بالحديبية مبشرة له بغلبة حزبه الذين أنت قائدهم وهاديهم ومرشدهم، لا سيما على مكة التي بها بيته ومنها ظهر دينه، وبها كان أصــله، وفيها اسـتقر عموده، وعز جنوده، فذل بذلك جميع العرب، وقالوا: لا طاقة لنا بمن أظفره الله بأهل الحرم، فعزوا بهذا الذل حتى كان ببعضـــــهم تمام هذا الفتح، ويكون بهم كلهم فتح جميع البلاد، وللإشارة إلى الغلبة على جميع الأمم ساقه تعالى في أسلوب الشرط، ولتحققها عبر عنه ب {إذا} إعلاماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته، وإيذاناً بأن القلوب بيده يقلبها كيف يشـــاء ليحصـــل لمن علم ذلك الإخلاص والخوف والرجاء، فأشــعرت العبارة بأن الوقت قد قرب، فكان المعنى: فكن مترقباً لوروده ومستعداً لشكره.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما كمل دينه واتضحت شريعته واستقر أمره صلى الله عليه وسلم وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه صلى الله عليه الصلاة والسلام نفاد عمره وانقضاء أجله، وجعلت له على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط {حكمة بالغة فما تغني النذر} [القمر: 5] {لو شاء الله لجمعهم على الهدى}
[الأنعام: 35] وأمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وفي أطراف النهار وخواتم المآخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور، فشرع سبحانه وتعالى الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم ورعي أوقاتهم ما يفي بعليّ أجورهم كما وعدهم {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته} [الأنعام: 115] وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة- وكل كلام ربنا عظيم- فيما قيدته في غير هذا، وأن أبا بكر رضي الله عنه عرف منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيت إليه نفسه الكريمة على ربه وعرف بدنو أجله، وقد أشار إلى هذا الغرض أيضاً بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} [المائدة: 3] وسورة براءة وأفعاله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة رضي الله عنهم تعيين الأمر إلا من هذه السورة. وقد عرفت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفاً شافياً، واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه وغلبوا رجاءهم في حياته صلى الله عليه وسلم، ومنهم من توفي، فلما نزلت {إذا جاء نصر الله والفتح} استيقن أبو بكر

رضي الله عنه ذلك استيقاناً حمله على البكاء لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم- انتهى.

ولما عبر عن المعنى بالمجيء، عبر عن المرئي بالرؤية فقال: {ورأيت} أي بعينيك {الناس} أي العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الأمم، فصاروا بك هم الناس- كما دلت عليه لام الكمال، وصار سائر أهل الأرض لهم أتباعاً، وبالنسـبة إليهم رعاياً، حال كونهم {يدخلون} شـيئاً فشـيئاً متجدداً دخولهم مسـتمراً {في دين الله} أي شـرع من لم تزل كلمته هي العليا في حال إباء الخلق- بقهره لهم على الكفر الذي لا يرضـاه لنفسـه عاقل- ترك الحظوظ، وفي حال طواعيتهم بقسـره لهم على الطاعة، وعبر عنه بالدين الذين معناه الجزاء لأن العرب كانوا لا يعتقدون القيامة التي لا يتم ظهور الجزاء إلا بها {أفواجاً *} أي قبائل قبائل وزمراً زمراً وجماعات كثيفة كالقبيلة بأسـرها أمة بعد أمة كأهل مكة والطائف وهوازن وهمدان وسـائر القبائل من غير قتال في خفة وسـرعة ومفاجأة ولين بعد دخولهم واحداً واحداً ونحو ذلك لأنهم قالوا: أما إذا ظفر بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل الذين لم يقدر أحد على ردهم فليس لنا بهم يدان. فتبين أن هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبه الله إلا إرهاصاً لنبوته وتأسيساً لدعوته فألقوا بأيديهم، وأسلموا قيادهم حاضرهم وباديهم.

ولما كان التقدير: فقد سبح الله نفسـه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل، قال إيذاناً بأنه منزه عن النقائص التي منها إخلاف الوعد، وأن لـه مع ذلك الجلال والجمال، معبراً بما يفيد التعجب لزيادة التعظيم

للمتعجب منه ليثمر ذلك الإجلال والتعظيم والتذلل والتقبل لجميع الأوامر، ويفهم أمره تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بالاشتغال بخاصة نفسه بدنو أجله، وأن اشتغاله بالناس قد انتهى، لأن الدين قد كمل فلم يبق له صلى الله عليه وسلم شغل في دار الكدر: {فسبح} أي نزه أنت بقولك وفعلك بالصلاة وغيرها موافقة لمولاك فيما فعل، وزد في جميع أنواع العبادة، تسبيحاً متلبساً {بحمد} أي بكمال وإجلال وتعظيم {ربك} أي الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين، المحسن إليك بجميع ذلك، لأنه كله لكرامتك، وإلا فهو عزيز حميد على كل حال، تعجباً لتيسير الله من هذا الفتح مما لم يخطر بالبال، وشكراً لما أنعم به سبحانه وتعالى عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله، ولأن كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها.

ولما أمره صلى الله عليه وسلم بتنزيهه عن كل نقص، ووصفه تنزلاً عن غيب الغيب إلى الغيب بكل كمال مضافاً إلى الرب تدلياً إلى مشاهدة الأفعال، وصل إلى نهاية التنزل من الخالق إلى المخلوق مخاطباً لأعلى الخلائق كلهم فأمره بما يفهم العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة المشار إليها بذكره مرتين بالاسم الأعظم الذي له من الدلائل على العظم والعلو إلى محل الغيب الذي لا مطمع في دركه ما تنقطع الأعناق دونه ليفهم عجز غيره من باب الأولى، فقال معلماً بأن من كماله أن يأخذ بالذنب إن شاء ويغفر إن شاء وإن عظم الذنب، ليحث ذلك على المبادرة إلى التوبة وتكثير الحسنات وحسن الرجاء: {واستغفره} أي اطلب غفرانه إنه كان غفاراً إيذاناً بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره كما أشار إلى ذلك الاستغفار

عقب الصــــلاة التي هي أعظم العبادات لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول- الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعـه إلى معدنـه في الرفيق الأعلى والمحل الأقدس الأولى، وكذا فعل صلى الله عليه وسلم- كان يقول: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ودخل يوم الفتح مكة مطأطئاً رأسـه حتى إنه ليكاد يمس واسـطة الرحل تواضـعاً لله سـبحانه وتعالى إعلاماً لأصـحابه رضـوان الله تعالى عليهم أجمعين أن ما وقع إنما هو بحول الله، لا بكثرة مع معه من الجمع، وإنما جعلهم سـبباً لطفاً منه بهم، ولذلك نبه من ظن منهم أو هجس في خاطره أن للجمع مدخلاً بما وقع من الهزيمة في حنين أولاً، وما وقع بعد من النصـرة بمن ثبت مع النبي صـلى الله عليه وسـلم وهم لا يبلغون ثلاثين نفســاً ثانياً، فالتســبيح الذي هو تنزيه عن النقص إشــارة إلى إكماله الدين تحقيقاً لما كان تقدم به وعده الشريف.

والاســتغفار إشــارة إلى أن عبادته صــلى الله عليه وســلم التي هي أعظم العبادات قد شـــارفت الانقضــــاء، ولا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاســتغفار لأنه يكون في خاتمة المجالس والأعمال جبراً لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن واعترافاً بذل العبودية والعجز.

ولما أمر بذلك فأرشـد السـياق إلى أن التقدير: وتب إليه، علله مؤكداً لأجل اســتبعاد من يســتبعد مضــمون ذلك من رجوع الناس في الردة ومن غيره بقوله: {إنه} أي المحسن إليك غاية الإحسان بخلافته لك في أمتك، ويجوز أن يكون التـأكيد لأجل دلالـة مـا تقدم من ذكر الجلالـة مرتين على غـايـة

العظمة والفوت عن الإدراك بالاحتجاب بإرادته الكبرياء والعز والتجبر والقهر مع أن المألوف أن من كان على شيء من ذلك كان بحيث لا يقبل عذراً ولا يقبل نادماً {كان} أي لم يزل على التجدد والاستمرار {تواباً *} أي رجاعاً بمن هذب به الشيطان من أهل رحمته فهو، الذي رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات فأيدك بدخولهم في الدين شيئاً فشيئاً حتى أسرع بهم بعد سورة الفتح إلى أن دخلت مكة في عشرة آلاف، وهو أيضاً يرجع بك إلى الحال التي يزداد بها ظهور رفعتك في الرفيق الأعلى ويرجع عن تخلخل من أمتك في دينه بردة أو معصية دون ذلك إلى ما كان عليه من الخير، ويسير بهم أحسن سير، فقد رجع آخر السورة إلى أولها لأنه لولا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح والتحم مقطعها أي التحام بمطلعها، وعلم أن كل جملة منها مسببة عما قبلها، فتوبة الله على عبده نتيجة توبته باستغفاره الذي هو طلب المغفرة بشروطه، وذلك ثمرة اعتقاده الكمال في ربه، وذلك ما دل عليه إعلاؤه لدينه، وقسره للداخلين فيه على الدخول مع أنهم أشد الناس شكائم وأعلاهم همماً وعزائم، وقد كانوا في غاية الإباء له والمغالبة للقائم به، وذلك هو فائدة الفتح هو آية النصر، وقد علم أن الآية الأخيرة من الاحتباك: دل بالأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة، وبتعليل الأمر بالتوبة على تعليل الأمر بالاستغفار، وعلم أن السورة أشارة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم بالحث على الاستغفار الذي هو الأمان الثاني، ومن شأنه أن تختم به الأعمال والمجالس بعد ما أشار إليه إعلامها بظهور الدين على الدين كله

ونزولها في أوسط أيام التشريق من حجته عليه أفضل الصلاة والسلام سنة عشر كما ذكرته في كتابي «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» وكتابي «الاطلاع على حجة الوداع» وذلك بعد نزول آية المائدة- التي هي نظيرتها في رد المقطع على المطلع- في يوم عرفة
{اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} [المائدة: 3] ومن المعلوم أنه لا يكون في هذه الدار كمال إلا بعده نقصان، ولذلك سماها النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وخطب الناس فيها، فعلّمهم أمور دينهم وأشهدهم على أنفسهم وأشهد الله عليهم بأنه بلغهم، وودعهم وقال: لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وأشار إلى ذلك أيضاً بالتوبة وإلى وقوع الردة بعده صلى الله عليه وسلم ورجوع من ارتد إلى أحسن ما كانوا عليه من اعتقادهم في الدين وثباتهم عليه بقتل من كان مطبوعاً على الكفر المشار إليهم بقوله تعالى: {ولو أسمعهم} [الأنفال: 23]- أي إسماع قهر وغلبة وقسر- {لتولوا وهم معرضون} [الأنفال: 23] فكان وجودهم ضرراً صرفاً من غير منفعة وقتلهم نفعاً لا ضرر فيه بوجه، ولأجل إفهامها حلول الأجل للإيذان بالتمام بكى العباس رضي الله تعالى عنه- وفي رواية: ولده عبد الله- عند نزولها فسأله النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «نعيت إليك نفسك» فقال: إنه لكما تقول. كما بكى عمر رضي الله عنه عند نزول آية المائدة، وعلل بهذا- والله الهادي، وقد ظهر بهذا أن حاصلها الإيذان بكمال الدين ودنو الوفاة لخاتم النبيين، والنصر على جميع الظالمين الطاغين الباغين، وذلك من أعظم مقاصد المائدة، المناظرة لهذه

في التطبيق بين البادئة والعائدة، كما أشـــار إليه قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} [الأنعام: 3] وقوله تعالى: {ومن يتولى الله ورسـوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة: 56] وقوله تعالى: {لله ملك السـماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شـــيء قدير} [المائدة: 120] ومن أعظم لطائف هذه السـورة ودقيق بدائعها ولطيف منازعها أن كلماتها تدل بأعدادها على أمور جليلة وأسـرار جميلة، فإنها تسـع عشـرة كلمة، وقد كان في سـنة تســـع عشــــرة من الهجرة موت قيصـــــر طاغية الروم، وذلك أن عمرو بن العاص رضـــي الله تعالى عنه لما فتح الإسـكندرية قال قيصـر: لئن غلبونا على الإسـكندرية لقد هلكت الروم، فتجهز ليباشـر قتالهم بنفسـه، فعندما فرغ من جهازه صـرعه الله فمات وكفى الله المسـلمين شـره، وذل الروم بذلك ذلاً كبيراً، واسـتأسـدت العرب، وفي هذه السـنة أيضـاً فتح الله قيسـارية من بلاد الشـــام فلم يبق بالشـــام أقصـــاها وأدناها عدو، وفرح المســـلمون بذلك فرحاً شديداً، وكان فيها أيضاً فتح جلولاء، من بلاد فارس، وكان فتحها يسمى فتح الفتوح، لأن الفرس لم ينجبروا بعده، هذا إن عددنا ما يوازي كلماتها من سنة الهجرة، وإن عددنا من سنة نزول السورة في سنة عشر فقد فتحت سنة تسع وعشــرين من الهجرة- وهي التاســعة عشــرة من نزولها- مدينة اصـطخر، واشـــتد ضـــعف الفرس، وأمر ملكهم يزدجرد واجتهاده في الهرب من العرب حتى قتل ســـنة إحدى وثلاثين من الهجرة بعد ذلك بســـنتين، وذلك هو العد الموازي لعد كلماتها ظواهر وضمائر مع كلمات البسملة، وإذا نظرت إلى ما هنا من هذا وطبقت بينه وبين ما ذكر في ســـورة الفتح من مثله زاد عجبك

من باهر هذه الآيات- والله الموفق، ثم إنك إذا اعتبرت اعتباراً آخر وجدت هذه السورة كا دلت بجملتها على انقضاء زمن النبوة بموت النبي صلى الله عليه وسلم دلت بمفردات كلماتها على انقضاء خلافة النبوة لتمام ثلاثين سنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن سفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنه

»خلافة النبوة ثلاثون، ثم يؤتي الله الملك من يشاء» وذلك أنك إذا عددت كلماتها مع البسملة كانت باعتبار الرسم ثلاثاً وعشرين كلمة، وذلك مشيراً إلى انقضاء الخلافة التي لم تكن قط خلافة مثلها، وهي خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه باستشهاده في ذي الحجة سنة ثلاثة وعشرين من الهجرة، فإذا ضممت إلى ذلك الضمائر البارزة وهي خمسة، والمستترة وهي ثلاثة، فكانت أحداً وثلاثين، وحسبت من حين نزول السورة على النبي صلى الله عليه وسلم في ذي الحجة سنة عشر كان ذلك مشيراً إلى انقضاء خلافة النبوة كلها بإصلاح أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك عند مضي ثلاثين سنة من موت النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة لا تزيد شهراً ولا تنقصه، وإن أخذت الضمائر وحدها بارزها ومستترها دلت على فتح مكة المشرفة بعينه، فإنها- كما مضى- ثمانية وقد كان الفتح سنة ثمان من الهجرة، ومن لطائف الأسرار وبدائع الأنظار أنها تدل على السنين بحسب التفصيل، فالبارز يدل على سنة النصر والظهور

على قريش لأنهم المقصـــودون بالذات لأن العرب لهم تبع، والمســـتتر يدل على ضـــد ذلك، وشـــرح هذا أنه لما كانت قد خفقت في الســـنة الأولى من الهجرة رايات الإسـلام في كل وجه، وانتشـرت أسـده في كل صـوب، وانبثت سـراياه في كل قطر، أشـار إليها التاء في {ورأيت} التي هي ضـميره صـلى الله عليه وسلم إشارة إلى ما يختص بفهمه من البشارة. ولما كان في السنة الثانية بغزوة بدر من واضح الظفر وعظيم النصر ما هدّ قلوب الكفار، وشد قلوب الأنصـار في سـائر الأمصـار، وأعلى لهم القدر، أشـار إلى ذلك واو {يدخلون}، ولما حصـل في السـنة الثالثة ما لم يخف من المصـيبة في غزوة أحد التي ربما أوهمت بعض من لم يرسـخ نقصـاً، أشـار إلى ذلك الضـمير المســـتتر في {فســـبح}، ولما كان الخبر في الرابعة بأجلاء بني النضـــير وإخلاف قريش للوعد في بدر جبناً وعجزاً حيث وفى النبي صـــلى الله عليه وسلم وأصـحابه رضـي الله تعالى عنهم شجاعة وقوة بحول الله وانقلبوا، منها بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، أشار إلى ذلك الكاف في {ربك} ولما كان في الخامسة غزوة الأحزاب أشار إليها المستتر في {واستغفره} ولما كان في السـادسـة عمرة الحديبية التي سماها النبي صـلى الله عليه وسـلم فتحاً، أنزل الله فيها سورة الفتح لكونها كانت سبباً للفتح، فكان ذلك علماً من أعلام النبوة، ولبعث النبي صـــلى الله عليه وســـلم فيها إلى الملوك يدعوهم إلى الله تعالى أشـار إلى ذلك الضـمير البازر في {واسـتغفره} وأكد قوته كونه للرب تعالى، ولما كان في السابعة غزوة خيبر وعمرة القضـاء أشار إليها الضمير الظاهر في {إنه} ولما كان ضـمير {كان} لله، وكان له سـبحانه حضـرتان:

حضـرة غيب وبطون، وحضـرة شـهادة وظهور، وكانت حضـرة الغيب هي حضـرة الجلال والكبرياء والعظمة والتعالي، وحضـرة الشـهادة حضـرة التنزل بالأفعال والاسـتعطاف بالأقوال، كانت الحضـرتان للنصـر، وكانت حضـرة الغيب أعظمهما نصـراً وأشـدهما أزراً، فلذلك كان ضـمير الاستتار دالاًّ على الفتح الأكبر بالانتصـار على السكان والديار بسطوة الواحد القهار، على أنا إذا نظرنا إليه من حيث كونه جائز البروز كان البارز فله حكمه- فسـبحان من شمل علمه، ودقت حكمته فنفذ حكمه.

111 Lahab Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

سورة المسد (لهب)

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)}

لما قدم سبحانه وتعالى في سورة النصر القطع بتحقيق النصر لأهل هذا الدين بعد ما كانوا فيه من الذلة، والأمر الحتم بتكثيرهم بعد الذي مر عليهم مع الذلة من القلة، وختمها بأنه التواب، وكان أبو لهب- من شدة العناد لهذا الدين والأذى لإمامة النبي صلى الله عليه وسلم سيد العالمين مع قربه منه- بالمحل الذي لا يجهل، بل شاع واشتهر، وأحرق الأكباد وصهر، كان بحيث يسأل عن حاله إذ ذاك هل يثبت عليه أو يذل، فشفى غلَّ هذا السؤال، وأزيل بما يكون له من النكال، وليكون ذلك بعد وقوع الفتح ونزول الظفر والنصر، والإظهار على الأعداء بالعز والقهر، مذكراً له صلى الله عليه

وسلم بما كان أول الأمر من جبروتهم وأذاهم وقوتهم بالعَدد والعُدد، وأنه لم يغن عنهم شيء من ذلك، بل صدق الله وعده في قوله سبحانه وتعالى {قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جنهم وبئس المهاد} [آل عمران: 12] وكذبوا فيما كانوا فيه من التعاضد والتناصر والتحالف والتعاقد، فذكر تعالى أعداهم له وأقربهم إليه في النسب إشارة إلى أنه لا فرق في تكذيبه لهم بين القريب والبعيد. وإلى أنه لم ينفعه قربه له ليكون ذلك حاملاً لأهل الدين على الاجتهاد في العمل من غير ركون إلى سبب أو نسب غير ما شرعه سبحانه، فقال تعالى معبراً بالماضي دلالة على أن الأمر قد قضى بذلك وفرغ منه، فلا بد من كونه ولا محيص: {تبت} أي حصل القطع الأعظم والحتم الأكمل، فإنها خابت وخسرت غاية الخسارة، وهي المؤدية إلى الهلاك لأنه لا نجاة إلا نجاة الآخرة، وجعل خطاب هذه السورة عن الله ولم يفتتحها ب «قل» كأخواتها لأن هذا أكثر أدباً وأدخل في باب العذر وأولى في مراعاة ذوي الرحم، ولذلك لم يكرر ذكرها في القرآن، وأشد في انتصار الله سبحانه وتعالى له صلى الله عليه وسلم وأقرب إلى التخويف وتجويز سرعة الوقوع.

ولما كانت اليد محل قدرة الإنسان، فإذا اختلت اختل أمره، فكيف إذا حصل الخلل في يديه جميعاً، قال مشيراً بالتثنية إلى عموم هلاكه بأن قوته لم تغن عنه شيئاً، ولأن التثنية يعبر بها عن النفس، ومشيراً بالكنية وإن كان يؤتى بها غالباً للتشريف إلى مطابقة اسمه لحاله، ومجانسته الموجبة لعظيم نكاله: {يدا أبي لهب} فلا قدرة له على إعطاء ولا منع، ولا على جلب ولا دفع،

وإشارة إلى أن حسن صورته لم تغن عنه شيئاً من قبيح سيرته لقوله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم«

لأنه إنما كني بهذا لإشراق وجهه وتوقد وجنتيه، ولأنها أشهر، فالبيان بها أقوى وأظهر، والتعبير بها- مع كونه أوضح- أقعد في قول التي هي أحسن. لأن اسمه عبد العزى وهو قبيح موجب للعدول عنه غيرة على العبودية أن تضاف إلى غير مستحقها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل: قد انقضى عمرك يا محمد، وانتهى ما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك، وأديت ما تحملته وحان أجلك، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجاً، واستجابتهم بعد تلكؤهم، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك. فقد فصلت سورة {قل يا أيها الكافرون} بين أوليائك وأعدائك، وبان بها حكم من اتبعك من عاداك، ولهذا سماها عليه الصلاة والسلام المبرئة من النفاق، وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان، وأن القرابات غير نافعه ولا مجدية شيئاً إلا مع الإيمان {لكم دينك ولي دين} {أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون} [يونس: 41]، {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} [التوبة: 71] وههنا انتهى الكتاب بجملته- انتهى.

ولما كان ربما خص التباب بالهلاك، وحمل على هلاك اليدين حقيقة، وكان الإنســـان لا يزول جميع منفعته بفوات يديـه وإن كـان قد يعبر بهما عن النفس، قال مصـــرحاً بالمقصـــود : {وتب} أي هو بجملته بتمام الهلاك والخسران، فحقق بهذا ما أريد من الإسناد إلى اليدين من الكناية عن الهلاك الذي لا بقاء بعده، والظاهر أن الأول دعاء والثاني خبر، وعرف بهذا أن الانتماء إلى الصالحين لا يغني إلا إن وقع الاقتداء بهم في أفعالهم لأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومادة «تب» و«بتّ»- الجامعة بجمع التاء والباء للســـببين الأدنى الباطني والأعلى الظاهري- تدور على القطع المؤدي في أغلب أحواله إلى الهلاك، لأن من انقطع إلى الأسباب معرضاً عن مسببها كان في أعظم تباب، وربما كان القطع باستجماع الأسباب، فحصل العوز بالمقاصد والمحابّ، قال ابن مكتوم في الجمع بين المحكم والعباب : التب والتباب : الخســـار، وتباً له- على الدعاء، وتباً تبيباً- على المبالغة، قال الإمام أبو عبد الله القزاز : كأنك قلت: خسراناً له، وهو المصدر، نصب نصب سقياً له، قال ابن دريد: وكأن التب المصـــدر والتباب الاســـم، والتبب والتباب والتبيب : الهلاك، والتتبيب النقص والخســـار، وكل هذا واضـــح في القطع عن الخير والفوز، قال : والتابّ: الكبير من الرجال، والأنثى تابة، وقال القزاز : إذا سـألت الرجل عن المرأة قلت : أشـــابة هي أم تابة، أي أم عجوز فانية، ومعلوم أن كبر الســـن مقرب من القطع والهلاك، والتاب: الضعيف، والجمع أتباب- هذلية، وحمار

تاب الظهر– إذا دبر، وجمل تاب كذلك نادرة، ولا شك أن الدبر والضعف هلاك في المعنى.

وتب: قطع مثل بت، أي بتقديم الموحدة ووقعوا في تبوب منكرة، وهو بتبة أي بحالة شديدة، والتبي– بالفتح والكسر: ضرب من تمر البحرين، قيل: هو رديء يأكله سقاط الناس، وأتب الله قوته: أضعفها، وتببوهم تتبيباً: أهلكوهم، وتبتب: شاخ، وكل ذلك واضح في القطع بالهلاك والخسار، والتبوب يعني بالضم: ما انطوت عليه الأضلاع كالصدر والقلب، وهذا يحتمل الخير والشر، فإن القلب إذا فسد فسد الجسد كله، وإذا صلح صلح الجسد كله، فيكون حينئذ القطع، بالفوز والنجاة، أو لأن انطواء الأضلاع عليه قطعة عن الخارج، واستتب الأمر: تهيأ واستوى. وقال القزاز: ويقال: هذه العلة لا تستتب في نظار هذا القول، أي لا تجري في نظائره، كأنه من باب الإزالة إذ إن السين لما جامعت حرف السببين آذنت بالنجاح والفوز والفلاح، فإنها حرف تدل على الاستيفاء في الإنباء عن الشيء والتتمة والألفة، وأحسن من هذا أنها إذا جرت في النظائر أوضحتها وكشفت معانيها ففصلتها وأبانتها وقطعتها عن غير النظائر بما أزالت من الإلباس بها، والذي يحقق معاني التب ويظهر أنه يؤول إلى القطع مقلوبه، وهو البت– بتقديم الموحدة التي هي السبب الظاهر الذي هو أقوى من حيث إنه لا يتحقق إلا بكمال السبب الباطني، يقال: بت الشيء يبته بتاً، وأبته: قطعه قطعاً مستأصلاً، وبت هو يُبت وببِت بتاً وانبت، ولعله استوى فيه المجرد والمزيد في التعدية دلالة على أن ما حصل بالمجرد من القطع هو من الكمال بحيث لا مزيد عليه، وكذا

استوى القاصر مجرداً ومطاوعاً مع المتعدي في أصل المعنى. وصدقه بتة: بتلة باينة من صـــاحبها، وطلقها ثلاثاً بتة وإبتاتاً، أي قطعاً لا عود فيه، ولا أفعله البتة- كأنه قطع فعله، قال سيبويه: وقالوا: قعد البتة- مصدر مؤكد، ولا يستعمل إلا بالألف واللام، وبت عليه القضـاء بتاً وأبته: قطعه، وسكران ما يُبت كلاماً وما يُبت أي ما يقطعه، قال القزاز : يُبت من أبت، ويبَت من بَتَّ، وسـكران باتّ: منقطع عن العمل بالسـكر، وأبت يمينه: أمضـاها، أي قطعها عن الحنث، وبتت هي : وجبت وحلت بتاً وبتة وبتاتاً، وكل ذلك من القطع، وأبت بعيره، أي قطعه بالســـير، والمنبت في الحديث : الذي أتعب دابته حتى عطب ظهره فبقي منقطعاً به، وقال القزاز : هو الذي أتعب دابته حتى قطع ظهرها فبقي منبتاً به، أي منقطعاً به، وبت عليه الشـهادة وأبتها : قطع عليه بها وألزمه إياها، وبت عليه القضـــاء وأبته، قطعه، والبات : المهزول الذي لا يقدر أن يقوم- كأنه قد انقطعت قوته، وفي الحديث «لا صيام لمن لم يبت الصيام من الليل«

فمعناه: يوجبه، أي يقطعه على نفسه قبل الفجر، من أبت عليه الحكم- إذا قطعه، وروي : يبت، من بت- إذا قطع، وكلاهما بمعنى، وهما لغتان فصـيحان. وروي في حديث «من لم يبت» من البيات، وأحمق بات: شـديد الحمق- كذا قاله الليث، وقال الأزهري : هو تاب- بتأخير الموحدة، والبت : كســاء غليظ مهلهل مربع أخضــر ، وقيل: هو من وبر وصــوف، والجمع بتوت، والبتات أي بالتخفيف : متاع البيت والزاد، كأن ذلك يقطع صـــاحبه عن الحاجة، وبتتوه: زودوه، أو أن ذلك من الإزالة لأنه صلة لصاحبه ورفد

لأن الاستقراء حاصل بأن كل مادة لها معنى غالب تدور عليه وفيها شيء لإزالة ذلك المعنى، وفلان على بتات أمر- إذا أشــــرف على فراغه، فإنه ينقطع حينئذ، وتقول: طحنت بالرحى بتاً- إذا ابتدأت الإدارة عن يســـارك، كأنه دال على القطع بتمام العزيمة لأن ذلك أقوى للطاحن وأمكن، وانبت الرجل: انقطع ماء ظهره، ويقال: هذا حبل بتّ: إذا كان طاقاً واحداً، كأنه لما كان كذلك فكان ســــهل القطع أطلق عليه القطع مبالغة مثل عدل، وقد انبت فلان عن فلان- إذا انقطع وانقبض.

ولما أوقع سبحانه الإخبار بهلاكه على هذا الوجه المؤكد لما كان لصاحب القصــــة وغيره من الكفار من التكذيب بلســــان حاله وقاله لما له من المال والولد، وما هو فيه من القوة بالعَدد والعُدد، زاد الأمر تحققاً إعلاماً بأن الأحوال الدنيوية لا غناء لها فقال مخبراً، أو مستفهماً منكراً {ما أغنى} أي أجزى وناب وسد {عنه} أي عن أبي لهب الشقي الطريد المبعود عن الرحمة مع العذاب {ماله} أي الكثير الذي جرت العادة بأنه ينجي من الهلاك.

ولما كان الكسب أعم من المال، وكان المال قد يكسب منافع هي أعظم منه من الجاه وغيره، وكان الإنسان قد يكون فائزاً ولا مال له بأمور أثلها بسعيه خارجة عن المال، قال مفيداً لذلك مبيناً أنه لا ينفع إلا ما أمر الله به {وما كســـب *} أي وإن كان ذلك على وجه هائل من الولد والأصـــحاب والعز بعشيرته التي كان يرضيها باتباع النبي صلى الله عليه وسلم في المحافل يؤذيه ويكذبه وينهى الناس عن تصـــــديقه مع أنه كان قبل ذلك يناديه بالصادق الأمين، وكان ابنه عتبة شديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم

حتى قال النبي صـلى الله عليه وسـلم «اللهم سـلط عليه كلباً من كلابك» فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة لا بد أن تدركه، فلما حان الأمر وكان قد آن ما أراد صاحب العز الشامخ، سبب له أن سافر إلى الشام فأوصى به أبوه الرفاق لينجوه رغم من هذه الدعوة، فكانوا يحدقون به إذا نام ليكون وسـطهم، والحمول محيطة به وهم محيطون بها والركاب محيطة بهم، فلم ينفعه ذلك بل جاء الأسد فتشمم الناس حتى وصل إليه فاقتلع رأسه ولم ينفع أباه ذلك، بل استمر على ضـلاله لما سبق في علم الله تعالى حتى كانت وقعة بدر فلم يخرج فيها فلما جاء الفلال كان منهم ابن أخيه أبو سفيان بن الحارث فقال: هلم يا ابن أخي فعندك الخبر: فقال نعم! فوالله ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا، ومع ذلك والله مللت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً– أي ما تبقيه– ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع غلام العباس بن عبد المطلب رضـي الله عنه وكان جالساً في حجرة في المسجد يبري نبلاً، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وكنا نكتم إسلامنا، فما ملكت نفسي أن قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل– يعني سيدته– زوجة العباس رضـي الله عنها إلى عمود الحجرة– أي الخيمة– فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته أي عدو الله إن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال أو ستاً حتى رماه الله بالعدسة فقتله وما

نفعه إبعاده عن الخطر بتخلفه عن بدر، والعدسة بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون تقتل غالباً، قال القزاز : كانت تعدي في الجاهلية قلما يسلم منها أحد، تقول: عدس الرجل فهو معدوس، كما تقول: طعن فهو مطعون- إذا أصابه الطاعون- انتهى.

ولأجل تشاؤم العرب بها ترك أبو لهب من غير دفن ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، ويقال: إنهم حفروا له حفرة بعيدة عنه من شدة نتنه ثم دفعوه بخشب طوال حتى رموه فيها ورجموه بالحجارة والتراب من بعيد حتى طموه، فكان ذلك سنة في رجمه فهو يرجم إلى الآن، وذلك من أول إعجاز هذه الآيات أن كان سبة في العرب دون أن يغني عنه شيء مما يظن أنه يغني عنه.

ولما أخبر سبحانه وتعالى بوقوع هذا التبار الأعظم به، وكان لا عذاب يداني عذاب الآخرة، بينه بقوله: {سيصلى} أي عن قرب بوعد لا خلف فيه {ناراً} أي فيدس فيها وتنعطف عليه وتحيط به.

ولما كان المقصود شدة نكايته بأشد ما يكون من الحرارة كما أحرق أكباد الأولياء، وكانت النار قد تكون جمراً ثم تنطفئ عن قرب قال : {ذات لهب *} أي لا تسكن ولا تخمد أبداً لأن ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها ب «ذات»، وذلك بعد موته وليس في السورة دليل قاطع على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون الصلي على الفسق، فلا دليل فيها لمن يقول : إن فيها التكليف بما علم أنه محال ليكون قد كلف بأن يؤمن وقد علم أنه حكم بأنه لا يؤمن، وإن كان الله قد حقق هذا الخبر بموته كافراً في الثانية من الهجرة

عقب غزوة بدر وهي الخامسة عشرة من النبوة، لكن ما عرف تحتم كفره إلا بموته كافراً لا بشـــيء في هذه الســـورة ولا غيرها، ومن الغرائب أن الكلمات المتعلقة به في هذه السورة خمس عشرة كلمة، فكانت مشيرة إلى سنة موته بعد أن رأى تبابه في وقعة بدر وغيرها بعينه، فإذا ضـــممنا إليها كلمات البسملة الأربع وازت سنة ست من الهجرة، وهي سنة عمرة الحديبية سنة الفتح السببي التي تحقق فيها تبابه وخساره عند كل من عنده إيمان بالغيب ودفع للريب، فإذا ضـــممت إليها الضـــميرين البارزين اللذين هما أقرب إلى الكلمات الاصطلاحية من المستترة وازت سنة ثمان من الهجرة التي كان فيها الفتح الحقيقي، فتحقق عند قريش كافة ما أنزل فيه في هذه السورة، فإذا ضممت إليها الضمائر الثلاثة المستترة وازت سنة إحدى عشرة على أنك إذا بدأت بالضمائر المستترة حصلت المناسبة أيضاً، وذلك أنها توازي سنة تسع وهي ســـنة الوفود التي دخل الناس فيها في الدين أفواجاً وحج فيها بالناس أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أميراً، ونودي في الموسم ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشـــرك، فتحققت خيبة أبي لهب عند كل من حضـــر الموسم لا سيما من كان يعلم دورانه وراء النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبه له من مسلم وغيره، فإذا ضـممنا إلى ذلك الضـميرين البارزين وازت سنة إحدى عشرة أول سني خلافة الصديق رضي الله عنه التي فتحت فيها جميع جزيرة العرب بعد أن لعب الشيطان بكثير من أهلها.

فرجعوا بعد أن قتل الله منهم من علم أنه مخلوق لجهنم، وتحقق حينئذ ما لأبي لهب من التباب والنار ذات الالتهاب عند العرب كافة بإيمانهم عامة

في السـنة الحادية عشـرة من الهجرة بعد مضـي ثلاث وعشـرين سـنة من النبوة، واسـتقر الأمر حينئذ، وعلم أن الدين قد رسـخت أوتاده وثبت عماده، وأن الذي كان يحميه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه بعده وهو سـبحانه حي لا يموت وقادر لا يعجزه شـيء، وعدد كلمات السـورة ثلاث وعشـرون وهي توازي سـنة حجة الوداع سـنة عشـر، فإنها السـنة الثالثة والعشـرون من المبعث وفيها كمل الدين ونزلت آية المائدة. وأخبر النبي صـلى الله عليه وسـلم أن الشـيطان قد أيس أن يعبد بأرض العرب، فتحقق كل الناس لا سـيما من حضـر الموسـم تباب أبي لهب الذي كان يدور في تلك المشاهد وراء النبي صلى الله عليه وسلم يكذبه ويؤذيه
{إن في ذلك لعبرة} [آل عمران: 13- والنور: 44].
ولما أخبر سبحانه وتعالى عنه بكمال التباب الذي هو نهاية الخسار، وكان أشق ما على الإنسان هتك ما يصونه من حريمه حتى أنه يبذل نفسه دون ذلك لا سـيما العرب، فإنه لا يدانيهم في ذلك أحد، زاده تحقيراً بذكر من يصـونها معبراً عنها بما صـدرها بازراً صـورة وأشـنعها، فقال مشـيراً إلى أن خلطة الأشـرار غاية الخسـار، فإن الطبع وإن كان جيداً يسـرق من الردئ، فكيف إذا كان رديئاً وإن أرضى الناس بما يسخط الله أعظم الهلاك {وامرأته} أي أم جميل أخت أبي سـفيان بن حرب أمية بن عبد شـمس بن عبد مناف بن قصـي مثل زوجها في التباب والصلي من غير أن يغني عنها شـيء من مال ولا حسب ولا نسب، وعدل عن ذكرها بكنيتها لأن صـفتها القباحة وهي ضـد كنيتها، ومن هنا تؤخذ كراهة التلقيب بناصـر الدين ونحوها لمن ليس

متصـــفاً بما دل عليه لقبه، ثم وصـــفها بما أشـــار إليه ذنبها وأكمل قبيح صـــورتها فقال: {حمالة الحطب} أي الحاملة أقصـــى ما يمكن حمله من حطب جهنم بما كانت تمشـي به وتبالغ فيه من حمل حطب البهت والنميمة الذي تحمل به على معاداة النبي صلى الله عليه وسلم وشدة أذاه وإيقاد نار الحرب والخصومة عليه صلى الله عليه وسلم، من قول الشاعر:

من البيض لم تصـــطد على ظهر لأمه *** ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

أراد النميمة، وعبر بالرطب للدلالة على زيادة الشـــر بما فيه من التدخين وشبهت النميمة بالحطب لأنها توقد الشر فتفرق بين الناس كما أن الحطب يكون وقوداً للنار فتفرقه، وكذا بما كانت تحمل من الشـــوك وتنثره ليلاً في طريق النبي صـــلى الله عليه وســـلم لتؤذيه، وكانت تفعله بنفســـها من شـــدة عداوتها وتباشـــره ليلاً لتســـتخفي به لأنها كانت شـــريفة، فلما نزلت ســـورة صوّرتها بأقبح صورة فكان ذلك- أعظم فاضح لها، وقراءة عاصم بالنصب للقطع على الشـــتم تؤدي أن امرأته مبتدأ وأن الخبر {في جيدها} أي عنقها وأجود ما فيها- هو حال على التقدير الأول {حبل} كالحطابين تخســـيســـاً لأمرها وتحقيراً لحالها {من مسد} أي ليف أو ليف المقل أو من شيء قد فتل وأحكم فتله، من قولهم: رجل ممســـود الخلق، أي مجدوله- وقد رجع آخرها على أولها، فإن من كانت امرأته مصـــورة بصـــورة حطابة على ظهرها حزمة حطب معلق حبلها في جيدها فهو في غاية الحقارة، والتباب والخســـاســـة والخسارة وحاصل هذه السورة أن أبا لهب قطع رحمه وجار عن قصد السبيل

واجتهد بعد ضلاله في إضلال غيره، وظلم الناصح له الرؤوف به الذي لم يأل جهداً في نصحه على ما تراه من أنه لم يأل هو- جهداً في أذاه واعتمد على ماله وأكسابه فهلك وأهلك امرأته معه ومن تبعه من أولاده، ومن أعظم مقاصد سورة النساء المناظرة لها في رد المقطع على المطلع التواصل والتقارب والإحسان لا سيما لذوي الأرحام، والعدل في جميع الأقوال والأفعال، فكان شرح حال الناصح الذي لا ينطق عن الهوى، وحال الضال الذي إنما ينطق عن الهوى- قوله تعالى:

{يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم} [النساء: 26] وختمها إشارة إلى التحذير من مثل حاله، فكأنه قيل: يبين الله لكم أن تضلوا فكونوا كأبي لهب في البوار، وصلي النار- كما تبين لكم، فكونوا على حذر من كل ما يشابه حاله وإن ظهر لكم خلاف ذلك، فأنا أعلم منكم، والله بكل شيء عليم «والحمد لله رب العالمين».

112 Ikhlaaas Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور و السور

▲ سورة الإخلاص

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)}

ولما كان المقصـــــود من القرآن دعوة العباد إلى المعبود، وكان المدعو إلى شـــيء أحوج ما يكون إلى معرفته، وكان التعريف تارة للذات وتارة للصـــفات وتارة للأفعال، وكانت هذه الأمة- أشــــرف الأمم لأن نبيها أعلى الأنبياء عليهم الصــلاة والســلام، وكان هي الختام، أشـبع الكلام في تعريفه سـبحانه في القرآن، وأنهى البيان في ذلك إلى حد لا مزيد عليه ولم يقاربه في ذلك كتاب من الكتب الســالفة، ولكنه لما كان الكبير إذا تناهى كبره عزت معرفة ذاته، وكان الله تعالى هو الأكبر مطلقاً، وكانت معرفة ذاته- كما أشــار إليه الغزالي في الجواهر، والفخر الرازي في كتبه- أضيق ما يكون مجالاً وأعسره مقالاً، وأعصــــاه على الفكر منالاً، وأبعده عن قبول الذكر اســترســالاً لأن

القرآن لا يشتمل من ذلك إلا على تلويحات وإشارات أكثرها رجع إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: 112] وإلى التعظيم المطلق كقوله {سبحانه وتعالى عما يصفون} فكام القياس أن يقتصر على ذلك مع التعريف بالصفات والأفعال، لكن لما كانت هذه الأمة في الذروة من حسن الأفهام مع ما نالته من الشرف، حباها سبحانه وتعالى بسورة الإخلاص كاملة ببيان لا يمكن أن تحتمل عقول البشر زيادة عليه، وذلك ببيان أنه ثابت ثباتاً لا يشبهه ثبات على وجه لا يكون لغيره أصلاً، وأنه سبحانه وتعالى منزه عن الشبيه والنظير والمكافئ والمثيل، فلا زوجة له ولا ولد، ولا حاجة بوجه إلى أحد، بل له الخلق والأمر، فهو يهلك من أراد ويسعد من شاء، فقال آمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم ليكون أول كلمة فيها دالة على رسالته رداً على من كذبه في خاصة نفسه وعلى البراهمة القائلين: إن في العقل غنى عن الرسل. ويكون البيان جارياً على لسانه صلى الله عليه وسلم ليكون إلى فهم الخلق عنه لتلك الصفات العلى أقرب لما لهم به من المجانسة: {قل} أي يا أكرم الخلائق ومن لا يفهم عن مرسله حق الفهم سواه، وإطلاق الأمر بعدم التقييد بمقول له يفهم عموم الرسالة، وأن المراد كل من يمكن القول له سواء كان سائلاً عن ذلك بالفعل أو بالقوة حثاً على استحضار - ما لرب هذا الدين- الذي حاطه هذه الحياطة ورباه هذه التربية- من العظمة والجلال، والكبرياء والكمال، ففي الإطلاق المشير إلى التعميم رد على من أقر بإرساله صلى الله عليه وسلم إلى العرب خاصة، ويدل على أن مقول القول لا ضرر فيه

على أحد فإن ظواهره مفهومة لكل أحد لا فتنة فيها بوجه، وإنما تأتي الفتنة عند تعمق الضال إلى ما لا- يحتمله عقله.

ولما كان أهم المقاصد الرد على المعطلة الذين هم ضرب ممن يقول {نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: 24] أثبت وجوده سبحانه على أتم الوجوه وأعلاها وأوفاها وأجلاها بما معناه أن حقيقته ثابتة ثباتاً لا يتوجه نحوه شك بوجه من الوجوه، فقال مكاشفاً للأسرار- فإنه لا يمكن غيبته عنها أصلاً- وللوالهين: {هو} فابتدأ بهذا الاسم الشريف الذي هو أبطن الأسماء إشارة إلى أنه غيب الغيب بالنظر إلى ذاته كالألف، وإلى أنه واجب الوجود لذاته- وأن هويته ليست مستفادة من شيء سواها ولا موقوفة على شيء سواها، فإن كل ما كانت هويته مستفادة من غيره أو موقوفة عليه فمتى لم يتعبر غيره فلم يكن هو هو، وما كانت هويته لذاته فهو هو سواء اعتبر غير أو لم يعتبر، فإذاً لا يستحق هذا الاسم غيره أصلاً على أن الهاء بمفردها مشيرة- بكونها من أبطن- الحلق إلى أنه هو الأول والباطن المبدع لما سواه، والواو- بكونها من أظهر حروف الشفة- إلى أنه الآخر والظاهر، وأن إليه المنتهى، وليس وراءه مرمى، وأنه المبدئ المعيد- كما يشير إلى ذلك تكرير الواو في اسمها، وإلى أنه محيط بكل شيء لما فيها من الإحاطة.

ولما كان وجوده سبحانه لذاته، ولم يكن مستفاداً من غيره، فإن ما استفيد وجوده من غيره كان ممكناً، كان لا يمكن شرح اسمه الذي هو هو، لا اسم لحقيقة غيره يقوم من جنس ولا نوع ولا فصل لأنه لا جنس له ولا نوع له ولا

سبب يعرف به، والذي لا سبب له لا يمكن معرفته إلا بلوازمه، واللوازم منها سلبية ومنها إضافية ومنها قريبة ومنها بعيدة، والتعريف بالإضافية وبالقريبة أتم من التعريف بالســـلبية وبالبعيدة، لأن البعيد كالضـــاحك الذي هو بعد المتعجب بالنســبة إلى الإنســان لا يكون معلولاً لشـــيء بل معلولاً لمعلوله، وبالجمع بين السلبية والإضافية أتم من الاقتصار على أحدهما، فلذلك اختير اســـم جامع للنوعين ليكون التعريف أتم، وذلك هو كون تلك الهوية إلهاً، فاختير لذلك اســم دال عليها وهو مختص غير مشــترك، وهو أول مظاهر الضـــمير كما أن الهمزة أول مظاهر الألف، ولهذا قال بعضـــهم: الاســم الأعظم آخر الظواهر من الأســماء، ولهذا كانت كلها صــفات له وهو أول البواطن، فقال مكاشفاً للأرواح وللموحدين: {الله} أي الموجود الذي لا موجود في الحقيقة سواه! هو المسمى بهذا الاسم، واختير هذا الاسم للإخبار عنه لدلالته على جميع صــفات الكمال: الجلال والجمال ولأنه اسم جامع لجميع معاني الأســماء الحســنى، وهو أقرب اللوازم إلى الهوية الهوية لأنه لا لازم لها أقرب من وجوب الوجود الذي هو مقتضـــى الذات على ما هي عليه من الصــفات، لا بواســطة شـــيء آخر، وبواســطة وجوب وجوده كان مفيضـــاً باختياره الإيجاد على كل شيء أراده، ومجموع الوجوب الذي هو سلب وحده الإيجاد الذي هو اختيار للجود بإضافة الوجود وإضافة للإلهية التي جمعتها الجلالة، وهي أقرب اللوازم إلى الذات الأقدس، ودل التعبير به على أنه لا مقوم للهوية من جنس ولا غيره ولا سبب، وإلا لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قاصراً، وعلى أن إلهيته على الإطلاق لجميع الموجدات، فكان شرح

تلك الهوية باللازم أبلغ البلاغة وأحكم الحكمة، لأنه- مع كونه هو الحق- مشيراً إلى ما ذكر من الدقائق.

ولما ذكرت الذات التي لا سبب لها ولا مقوم من جنس ونوع وغيره أصلاً بل هي مجرد وحدة وتنزه عن تركب لا كثرة لها ولا اثنينية بوجه، وعرفها باسم جامع الأنواع السلوب والإضافات اللازمة له هو أقرب اللوازم إليها، فانشرح وجودها المخصوص على ما هو عليه، فكان ذلك تعريفاً كاملاً لأن تعريف ما لا تركب فيه باللوازم القريبة في الكمال كتعريف المركبات بمقوماتها، فإن التعريف البالغ هو أن يحصل في النفس صورة مطابقة للمعقول، وكانت الزيادة في الشرح مطلوبة لأنها أكمل لا سيما في الأمور الباطنة الخفية، أتبع ذلك باسم سلبي إشارة إلى أن النظر في هذه الدار إلى جانب الجلال ينبغي كونه أعظم، وذلك الاسم قربه من الجلالة كقربتها من الهوية، فإنه دال على الوحدة الكاملة المجردة وهو متنزل الجلالة كما أنها متنزل الهوية، وهو كما أن الجلالة لم يقع فيها شركة أصلاً قد ضاهاها في أنه لا شركة لغيره تعالى فيه عند استعماله مفرداً بمعناه الحقيقي إلا أن في النفي إشارة إلى أن كل ما عداه سبحانه عدم، فقال مكاشفاً للقلوب وللعارفين مكذباً للنصارى القائلين بالأب والابن وروح القدس، ولليهود القائلين بأنه جسم، وللمجوس الذين يقولون بأنه اثنان: نور يخلق الخير، وظلام يخلق الشر، وللصابئة الذين يعبدون النجوم، وللمشركين القائلين بإلهية الأصنام، مخبراً خبراً آخر، أو مبدلاً من الجلالة، أو مخبراً عن مبتدأ محذوف: {أحد} وهو لأجل كونه خاصة في الإثبات حال الانفراد به تعالى معرفة غني عن «آل»

المعرفة، وهو أعرق في الدلالة على صـــفات الجلال كما أن الجلالة أعرق في الدلالة على صفات الكمال لأن الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصــها كوجوب الوجود والقدرة الكاملة والحكمة التامة المقتضــية للألوهية من غير لزوم دور ولا تســـلســـل من جهة تركب أو غيره، وقرئ بإســـقاط «قل» هنا وفي المعوذتين مع الاتفاق على إثباتها في الكافرون ونفيها في تبت، ولعل الحكمة أن الكافرون مخاطبة للكفار بما بين مشـــاققة ومتاركة، فناســـب الحال أن يكون ذلك منه صـــلى الله عليه وســـلم، وتبت معاتبة عم الرسول صلى الله عليه وسلم وتوبيخه فلا يناسب أن يكون ذلك من النبي صـلى الله عليه وسـلم، والباقيات ما بين توحيد وتعوذ، فناسـب أن يؤمر بتبليغه وأن يدعو به، ورتب الأحدية على الإلهية دون العكس، لأن الإلهية عبارة عن استغنائه عن الكل، واحتياج الكل إليه، وكل ما كان كذلك كان واحداً مطلقاً، وإلا لكان محتاجاً إلى أجزائه، فالإلهية من حيث هي تقتضـــي الوحدة، والوحدة لا تقتضـــي الإلهية، وعبر به دون «واحد» لأن المراد الإبلاغ في الوصـــف بالوحدة إلى حد لا يكون شـــيء أشـــد منه، والواحد– قال ابن سـينا– مقول على ما تحته بالتشـكيك، والذي لا ينقسـم بوجه أصـــلاً أولى بالواحدية مما ينقســـم من بعض الوجوه، والذي ينقســـم انقساماً عقلياً أولى مما ينقسم بالحس والذي ينقسم بالحس وهو بالقوة أولى من المنقسم بالحس بالفعل، وإذا ثبت أن الوحدة قابلة للأشد والأضعف.

وأن الواحد مقول على ما تحته بالتشـــكيك كان الأكمل في الوحدة الذي لا يمكن أن يكون شـيء آخر أقوى منه فيها، وإلا لم يكن بالغاً أقصـى المرام، والأحد جامع لذلك دال على الواحدية من جميع الوجوه، وأنه لا كثرة هناك أصـلاً، لا معنوية من المقومات من الأجناس والفصـول ولا بالأجزاء العقلية كالمادة والصــورة، ولا حسـية بقوة ولا فعل كما في الأجسـام، وذلك لكونه سـبحانه منزهاً عن الجنس والفصـل والمادة والصـورة والأعراض والأبعاض والأعضـاء والأشـكال والألوان وسـائر وجوه التثنية التي تثلم الوحدة الكاملة الحقة اللائقة بكرم وجهه وعز جلاله أن يشبهه شـيء أو يساويه لأن كل ما كانت هويته إنما تحصـــل من اجتماع أجزاء كانت هويته موقوفة على حصـول تلك الأجزاء، فلا يكون هو هو لذاته بل لغيره، فلذا كان منزهاً عن الكثرة بكل اعتبار، ومتصـفاً بالوحدة من كل الوجوه، فقد بلغ هذا النظم من البيان أعظم شـأن، فسـبحان من أنزل هذا الكلام ما أعظم شـأنه وأقهر سـلطانه، فهو منتهى الحاجات، ومن عنده نيل الطلبات، ولا يبلغ أدنى ما اسـتأثره من الجلال والعظم والبهج أقصـى نعوت الناعتين وأعظم وصـف الواصـفين، بل القدر الممكن منه الممتنع أزيد منه هو الذي ذكره في كتابه العزيز، وأودعه وحيه المقدس الحكيم، وبالكلام على معناه ومعنى الواحد تحقق ما تقدم، قال الإمام أبو العبا الإقليشـي في شـرح الأسـماء: فمن أهل اللسان من ساوى بينهما جعلهما مترادفين، فمنهم من قال: أصـل أحد واحد سقطت منه الألف ثم أبدلت الهمزة من الواو المفتوحة، ومنهم من قال: ليس أصـله واحد وإن كانا بمعنى واحد، بل أصـله وحد- من الوحدة- يحد فهو

وحد- مثل حسن يحسن فهو حسن- من الحسن، أبدلت الواو همزة، وأما من فرق بينهما فمنهم من قال: أحد اسم على حياله لا إبدال فيه ولا تغيير، ومنهم من قال: أصله وحد، أبدلت الواو همزة- انتهى، وقد استخلصت الكلام على الاسمين الشريفين من عدة شروح للأسماء الحسنى وغيرها منها شرح الفخر الرازي والفخر الحرالي وغيرهما، قالوا: الواحد الذي لا كثرة فيه بوجه لا بقسمة ولا بغيرها مع اتصافه بالعظمة ليخرج الجوهر الفرد وهو أيضاً الذي لا يتثنى، أي لا ضد له ولا شبيه، فهو سبحانه واحد بالمعنيين على الإطلاق لا بالنظر على حال ولا شيء، قال الإمام أبو العباس الاقليشي في شرح الأسماء: هذه حقيقة الوحدة عند المحققين، فلا يصح أن يوصف شيء مركب بها إلا مجازاً، كما تقول: رجل واحد، ودرهم واحد، وإنما يوصف بها حقيقة ما لا جزء له كالجوهر الفرد عند الأشعرية غير أنك إذا نظرت فوجدت وجوده من غيره علمت أن استحقاقه لهذا الوصف ليس كاستحقاق موجده له، وهو أيضاً إنما يوصف به لحقارته، وموجده سبحانه موصوف به مع الاتصاف بالعظمة، فاتصافه بالوحدة على الإطلاق، واتصاف الجوهر بالنظر إلى عدم التركب من الجسم مع أن صحة اتصافه بأنه جزء يزيل عنه حقيقة ذلك، والوحدة أيضاً بالنظر إلى المعنى الثاني وهو ما لا نظير له لا تصح بالحقيقة إلا له سبحانه، وكل ما نوعيته في شخصيته كالعرش والكرسي والشمس والقمر يصح أن يقدر لها نظائر، وله معنى ثالث وهو التوحد بالفعل والإيجاد، فيفعل كل ما يريد من غير توقف على شيء، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول ناظر إلى نفي إله

ثان، وهذا ناف لمعين ووزير، وكلاهما وصف ذاتي سلبي، والحاصل أن النظر الصحيح دل على أن لنا موجداً واحداً بمعنى أنه لا يصح أن يلحقه نقص القسمة بوجه من الوجوه وبمعنى أنه معدوم النظير بكل اعتبار، وبمعنى أنه مستبد بالفعل مستقل بالإيجاد ومتوحد بالنصع متفرد بالتدبير، قضى بهذا شاهد العقل المعصوم من ظلمة الهوى وكثافة الطبع، وورد به قواطع النقل ونواطق السمع، ولهذا كان من أعظم الحق دعاؤه سبحانه لجميع الخلق، وكانت دعوة رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم للخلق كافة، وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في آخر شرحه للأسماء في بيان رد الأسماء الكثيرة إلى ذات واحدة وسبع صفات: الأحد المسلوب عنه النظير، وقال في الشرح المذكور: الواحد هو الذي لا يتجرى ولا يتثنى، أما الذي لا يتجزى فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم فقال: إنه واحد- بمعنى أنه لا جزء له، ولذلك النقطة لا جزء لها، والله تعالى واحد- بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام في ذاته، وأما الذي لا يتثنى فهو الذي لا نظير له كالشمس مثلاً فإنها وإن كانت قابلة للانقسام بالوهم متحيزة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير، وليس في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه فيه غيره أصلاً إلا الواحد المطلق أزلاً وأبداً، والعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير، وذلك بالإضافة إلى أبناء جنسه وبالإضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يكون في وقت آخر مثله، وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع، فلا وحدة على الإطلاق إلا لله

تعالى، وقال الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتابه الملل والنحل: واختلفوا في الواحد أهو من العدد أم هو مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد، وهذا الاختلاف إنما ينشأ من اشتراك لفظ الواحد، فالواحد يطلق ويراد به ما يتركب منه العدد، فإن الاثنين لا معنى له إلا واحد، تكرر أول تكرير، وكذا الثلاثة والأربعة، ويطلق ويراد به ما يحصل منه العدد، أي هو علته ولا يدخل في العد أي لا يتركب منه العدد، وقد تلازم الواحدية جميع الأعداد لا على أن العدد تركب منها بل وكل موجود فهو جنسه أو نوعه أو شخصه واحد يقال: إنسان واحد، وشخص واحد، وفي العدد كذلك فإن الثلاثة في أنها ثلاثة واحدة، فالواحدة بالمعنى الأول داخلة في العدد، وبالمعنى الثاني علة العدد، وبالمعنى الثالث ملازمة للعدد، وليس من الأقسام الثلاثة قسم يطلق على البارئ تعالى معناه: فهو واحد لا كالأحاد أي هذه الوحدات والكثرة منه وجدت ويستحيل عليه الانقسام بوجه من وجوه القسمة- انتهى، وهو واحد أيضاً بنفسه لا بالنسبة إلى ثان بوجه من الوجوه، وقال بعضهم: الواحد يدل على الأزلية والأولية، لأن الواحد في الأعداد ركنها وإظهار مبدئها، والأحد يدل على بينونته من خلقه في جميع صفاته ونفي أبواب الشرك عنه، فالأحد بني لنفي ما ذكر معه من العدد، والواحد اسم لمفتتح العدد، وقال الإمام أبو حاتم محمد بن مهران الرازي في كتابه الزينة، قال بعض الحكماء: إنما قيل له سبحانه «واحد» لأنه عز وجل لم يزل قبل الخلائق متوحداً بالأزل لا ثاني معه ولا خلق، ثم أبدع الخق، فكان الخلق كله مع احتياجه إليه سبحانه محتاجاً بعضه إلى بعض ممسكاً بعضه بعضاً

متعادياً ومتضاداً ومتشاكلاً ومزدوجاً ومتصلاً ومنفصلاً، واستغنى عز وجل عن الخلائق فلم يحتج إلى شيء فيكون ذلك الشيء مقروناً به لحاجته إليه ولا ناواه شيء فيكون ذلك الشيء ضداً له نصراً به، فيكون ذلك الضد والقرين له ثانياً، بل توحد بالغنى عن جميع خلقه لأنه كان قبل كل شيء، والأولية دلت على الوحدانية، فالواحد اسم يدل على نظام واحد يعلم باسمه أنه واحد ليس قبله شيء:

وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد

والواحد من العدد في الحساب ليس قبله شيء، بل هو قبل كل عدد وهو خارج عن العدد، والواحد كيفما أدرته لم يزد فيه شيء ولم ينقص منه شيء، تقول: واحد في واحد بواحد– فلم يزد على الواحد شيء، فدل على أنه لا شيء قبله، وإذا دل على أنه لا شيء قبله دل على أنه محدث الشيء، فإذا دل على أنه محدث الشيء دل على أنه مغني الشيء، وإذا كان مغني الشيء دل على أنه لا شيء بعده، فإذا لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء فهو المتوحد بالأزل، يعني فهو الواحد الذي لا نظير له فهو الأحد، قال: فلذلك قيل: هو واحد وأحد، وقلنا: إن الأحد هو اسم أكمل– أي أعم– من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد، جاز في المعنى أن يقوم له اثنان أو ثلاثة فما فوقها، وإذا قلت: فلان لا يقوم له أحد، فقد جزمت بأنه لا يقوم له واحد ولا اثنان ولا ما فوقهما، فصار الأحد أكمل من الواحد، وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار واحد، يجوز أن يكون واحداً من الدواب أو الطير أو الوحش أو الإنس، فكان الواحد يعم

الناس وغير الناس، وإذا قلت: ليس في الدار أحد، فهو مخصوص للآدميين دون سائرهم، والأحد ممتنع من الدخول في الضرب وفي العدد وفي القسمة وفي شيء من الحساب، وهو منفرد بالأحدية، والواحد منقاد للعدد والقسمة وغيرها داخل في الحساب، تقول: واحد واثنان وثلاثة، فهذا وإن لم يكن من العدد فهو علة العدد، وداخل في العدد، لأنك إذا ضربت واحداً في واحد لم يزد، واثنان هو جذر الحساب، وتقول في القسمة، واحد بين اثنين أو ثلاثة، لكل واحد من الاثنين نصف، ومن الثلاثة ثلث، فهذه القسمة، والأحد ممتنع من هذا، لا يقال: أحد واثنان ولا أحد في أحد ولا أحد في واحد ولا في اثنين أو ثلاثة، والواحد وإن لم يتجزأ من الواحد فهو يتجزأ من الاثنين والثلاثة فما فوقهما، تقول: جزء واحد من جزأين أو ثلاث فما فوقها، ولا يجوز: جزء أحد من جزأين فما فوقهما، وقد سمى الله نفسه واحداً أحداً ووصف نفسه بالوحدانية والأحدية، فالواحد نعت يلزمه على الحقيقة لأنه كان قبل ولا ثاني معه، والثاني خلال الواحد، فهو واحد لاتحاده في القدم، والخلق اثنان لاقترانه بالحدث لأن الحدث ثان للقدم، وبه ظهرت التثنية، فالواحد هو الأحد في ذاته فهو لا شيء قبله ولا من شيء ولا في شيء ولا على شيء ولا لشيء ولا مع شيء، فيكون ذاك الشيء ثانياً معه بل هو الواحد منشئ والأشياء كلها له، وهو المتحد بذاته ممتنع من أن يكون له شيء ثانياً بوجه من الوجوه والخلق كله له، وإن كان يسمى بالواحد، أو كانت هذه الصفة قد لزمت جميع الأشياء في وجه فإنها تزول عنها في وجه.

كما قيل: إنسان واحد وفرس واحد وبعير واحد، وكذلك يقال لسائر الأشياء، وهذه صفة تلزمها في اللفظ، والمسمى لا يخلو من معان كثيرة مجتمعة فيه كالجسم والعرض، وهو واحد مجموع من أشياء متفرقة، وكل شيء لا يخلو من ازدواج وتضاد وتشاكل وحد وعد، وهذه الصفات كلها تنفي عنه معنى الأحدية والواحدية، وفي الواحد عن العرب لغات كثيرة، يقال: واحد وأحد ووحد ووحيد وحاد وأحاد وموحد وأوحد– وهذا كله راجع إلى معنى الواحد، وإن كان في ذلك معان لطيفة ولم يجئ في صفة الله عز وجل إلا الواحد والأحد، قلت: والوحيد على بعض الإعرابات في المدثر، قال: وكلها مشتقة من الواحد، وكأن ذلك مأخوذ من الحد. كأن الأشياء كلها إليه انتهاؤها وهي محدودة كلها غيره عز وجل وهو محدود، بل هو غاية المحدودين وغاية الغايات لا غاية له، والأحد يجيء في الكلام بمعنى الأول وبمعنى الواحد، فإذا جاء بمعنى الأول وبمعنى الواحد جاز أن يتكلم به في الخبر كقولك: هذا واحد أحد، والعرب كانت تسمي يوم الأحد في الجاهلية أولاً، وقولك «يوم الأحد» دليل على أنه اليوم الأول من الأسبوع، والاثنين دليل على أنه اليوم الثاني، وفي التوراة أن الله عز وجل أول ما خلق من الأيام «يوم الأحد» قلت: يمكن أن يكون معنى يوم الأحد يوم الله، أضيف إليه لكونه أول مخلوقاته من الأيام، فلما أوجد الثاني سمي يوم الاثنين، لأنه ثاني يوم الأحد، قال: وضد الواحد اثنان، وضد الأحد الآخر، قال الله تعالى: {قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً} [يوسف: 36] ثم قال في ضده «وقال الآخر» فهذا دليل على أن معنى قولهم «يوم الأحد» اليوم الأول: لأنهم

قالوا لما بعده اثنان، ولم يقولوا: الآخر، لأن الأحد إذا لم يكن بمعنى الأول فضـــده الآخر، وإذا كان الأحد بمعنى الأول جاز الخبر والجحد، وإذا لم يكون بمعنى الأول وكان بمعنى الواحد جاز في الخبر وجاز في الجحد، قال الله تعالى: {فابعثوا أحدكم بورقكم هذه} [الكهف: 19] فهذه من الخبر، فإذا لم يكن أحد بمعنى الأول وبمعنى الواحد لم يجز أن يتكلم به إلا في الجحد، تقول: ما جاءني أحد، ولا يجوز: جاءني أحد، وكلمني أحد، قال الله تعالى في معنى الجحد {أيحســب أن لن يقدر عليه أحد} [البلد: 5] وأحد يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال الله تعالى: {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء}

[الأحزاب: 32] وواحد لا يستوي فيه المذكر والمؤنت حتى يدخل فيه الهاء فيقال «واحدة» لا يجوز «كواحد من النســـاء» وأحد يكون بمعنى الجمع، تقول العرب: يظل أحدنا الأيام لا يأكل، بمعنى كلنا لا يأكل، فاحتمل معنى الواحد والجماعة- انتهى، فالواحد من الأسماء الثبوتية الإضافية، يكون في أصل اللغة بالنسبة إلى ثان هو نصفه، وثالث هو ثلثه، وهكذا هو صفة الله تعالى بمعنى المتوحد في الاتصاف بالألوهية حتى لا يقبلها غيره بوجه، فلا شريك له، والأحد من النعوت السلبية، بل هو مجمعها، هو أحد في نفسه لا يقبل العدد ولا التركيب بوجه لا بالقسمة ولا بغيرها سواء نظر إليه بالنسبة إلى الغير أو لا، فهو متمحض للسلب، فهو وصــف راجع إلى نفس الذات بمعنى أنه كامل في ذاته لا يؤثر في مفهومه النظر إلى شيء أصلاً، والفرد

ناظر إلى نفي العدد، فافترقت الأوصـــاف الثلاثة وإن كانت متقاربة في المعنى.

وقال الإمام أبو الخير القزويني الشافعي في كتابه «العروة الوثقى في أصول الدين» ناقلاً عن بعض من فرق بينه وبين الواحد: إن الأحد اســم لنفي ما يذكر معه، وعن بعضـــهم أنه الذي لا يجوز له التبعيض لا فعلاً ولا وهماً، فهو أحد بذاته وأحد بصـــفاته، وتوحيد الله تعالى لنفســـه علمه بأنه واحد، وإخباره بذلك وتوحيد العبد له علمه بذلك مع إقراره به، وقال الإمام فخر الدين الرازي في شرح الأسماء الحسنى: فالله سبحانه وتعالى أحد في ذاته، أحد في صـفاته، أحد في أفعاله، أحد لا عن أحد غير متجزئ ولا متبعض، أحد غير مركب ولا مؤلف، أحد لا يشـبهه شـيء ولا يشـبه شـيئاً، أحد غني عن كل أحد– انتهى، وهذا معنى ما نقله المعربون عن ثعلب أنه فرق بينهما بأن واحداً يدخله العدد، وأحد لا يدخله ذلك، يقال: الله أحد، ولا يقال: زيد أحد، لأن الأحد خصـوصـية الله تعالى، زيد يكون منه حالات، ونقض عليه بالعدد المعدد المعطوف، يقال: أحد وعشرون واثنان وعشرون، ورد بأن أحداً فيه بمعنى واحد، وقال الإمام فخر الدين في شـرح الأسـماء: إنه اختص به البارئ سـبحانه، أما الواحد فيحصـل فيه المشـاركة، ولهذا السـبب أعري من لام التعريف لأنه صـار نعتاً لله عز وجل على الخصـوص، فصـار معرفة، وقال الأزهري: ســئل أحمد بن يحيى عن الأحاد هل هي جمع أحد، فقال: معاذ الله ليس للأحد جمع، ولا يبعد أن يقال إنه جمع واحد كالأشـــهاد جمع شـــاهد– انتهى، وقال الإقليشـــي في شــرح الأســماء: الأحد هو الذي ليس

بمنقســم ولا متجزئ، فهو على هذا اســم لعين الذات، فيه ســلب الكثرة عن ذاته، فتقدس بهذا الوصـف عن صـفات الأجسـام القابلة للتجزي والانقسـام، والنقطـة والجوهر الفرد عن مثبتـه– يعنـي من المتكلمين، والجوهر البســـيط عند مدعيه– يعني من الفلاسـفة، وإن كانت هذه لا تتجزى ولا تتقسـم وإنها مخالفة للبارئ تعالى في أحديته، أما النقطة فعرض عند بعضــــهم إذ هي عبارة عن طرف الخط، وإذا كان الخط عرضاً فالنقطة أولى بالعرضية، وأما الجوهر الفرد فإنه وإن كان لا ينقسم فهو مقدر بجزء، وكل ما قدر بجزء فلا يخلو من الأكوان وهو كيفما كان على رأي من أثبته من المتكلمين وإن كانوا في أوصـافه متنازعين فلا يخلو من الأعراض، وأما الجوهر البسيط عند من أثبتـه فوجوده عنـدهم ليس عينـه إذا اثنينيتـه غير مـاهيتـه، ومـا هو بـهذا الوصــــف عندهم ففيه اثنينية، ففارق البارئ ســـبحانه وتعالى بأحديته هذه الموجودات كما فارق بذاته الأجسام، فوجوده عن ذاته وليست صفاته تعالى مغايرة لذاته، وأما الواحد فهو وصف لذاته، فيه سلب الشريك والنظير عنه، فـافترقـا– يعني بـأن الأحد نـاظر إلى نفس الـذات، والواحد إلى أمر خـارج عنها، وقال البيهقي في كتاب الأســـماء والصـــفات : الأحد فيما يدعوه المشــركون إلهاً من دونه لا يجوز أن يكون إلهاً إذ كانت إمارات الحدث من التجزي والتناهي قائمة فيه لازمة له، والبارئ ســـبحانه وتعالى لا يتجزى ولا يتنـاهى، فقد مر أن الأحد خاص بالله ســـبحانـه وتعالى : إنـه لا فرق في إطلاقه عليه سبحانه وتعالى بين تعريفه وتنكيره لأنه معرفة في نفسة، فطاح اعتراض من قال من الملحدين: الجلالة معرفة وأحد نكرة لا ينعت به.

وعلى تقدير التسليم يجوز جعله بدلاً كما تقدم ولا مانع من إبدال النكرة من المعرفة مثل لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة، قال صاحب كتاب الزينة: وعلى هذه القراءة– أي قراءة التنكير – أجمعت الأمة، وروى قوم عن أبي عبد الله بن جعفر بن محمد الصادق أنه قرأ قل هو الله أحد الله الواحد الأحد الصمد، وقال الإمام أبو الحسن الحرالي في شرح الأسماء الحسنى: الأحد اسم أعجز الله العقول عن إدراك آيته في الخلق إثباتاً فلم تستعمله العرب مفرداً قط أي وهو بمعناه الحقيقي لا بمعنى واحد ولا بمعنى أول مثلاً إلا في النفي لما علموا أنه مفصح عن إحاطة جامعة لا يشذ عنها شيء، وذلك مما تدركه العقول والحواس في النفي ولا تدركه في الإثبات فيقولون: ما في الدار أحد– نفياً لكل ولا يسوغ في عقولهم أن يقولوا: في الدار أو في الوجود أحد–، إذ لا يعقل عندهم ذات إنسان هي جامعة لكل إنسان، فلما ورد عن الله اسمه في القرآن تلقاه المؤمنون بالإيمان وأحبت قلوبهم سورة ذكره لجمعها لما لا يحصى من ثناء الرحمن وهي أحد الأنوار الثلاثة في القرآن، القرآن– نور {ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: 52] ونور نوره سورة ذكر الأحد في ختمه وآية الكرسي في ابتدائه وسورة يس التي هي قبله في محلها منه واحد مبين عن اسم الله الذي هو بكل شيء محيط، لا يتطرق إليه شرك في حق ولا باطل، وهو واحد مبين عن اسم الإله الذي لا يصح فيه الشرك حقاً، وقد يتطرق إليه باطلاً {واتخذوا من دون الله آلهة} [يس: 74] وذلك لأن الواحد يضائف الثاني، وأحد جامع محيط لم يبق خارج عنه فيضايفه يعني أن مفهومه ناظر إلى كونه سبحانه وتعالى الآن كما كان في

الأزل وحده، فإن الخلق فانٍ فهو في الحقيقة عدم، وكأنه ما كان لإحاطته به وكونه في قبضـــته وطوع مشـــيئته، فلا خارج يكون مضـــايفاً له لأنه لا يضايف الشيء إلا مناظر لمساواة أو مباراة بمعاندة أو غيرها، فالكل بالنسبة إليه عدم {إنك ميت وإنهم ميتون} [الزمر : 30] {كل من عليها فان} [الرحمن: 26] {كل شيء هالك إلا وجهه} [القصص: 88] هذا مراده بدليل سابقه ولاحقه فلا شبهة فيه لأهل الوحدة عليهم الخزي واللعنة، قال: والوحدة من الواحد هي حد النهاية، والغاية مما هي وحدته، وما دون الوحدة التي هي الغاية ثانية ودونه وجماع إحاطات كل ذلك أعلى وأدنى هي الأحدية التي لا يشذ عنها شاذ ولا يخرج عنها خارج، فمن الأسماء معلوم لخليفة من خليقته بما أتاهم منه كالرحيم والعليم، ومنها ما يعجز عنه خلافتهم كالأسماء المتقدمة من اســمه المحصــي، ولكن ينال مثلاً من قولهم، ومنها ما لم ينله العلم ولا أدركت مثله العقول وهو اســـمه الأحد، فالله هو الأحد الذي لا أحد إلا هو– انتهى، وقال الإمام أبو الحكم بن برجان في شرح الأسماء الحسنى: وهو– أي الأحد– أصل لباب الوحدة، يدل على محض الوحدة، ألا ترى أنه نافٍ يأتي معه، إذا قلت: لم يأتني أحد، انتفى الاثنان، ولا تقول: جاءني أحد كما تقول ! جاءني واحد، لأن واحداً تزول عنه الواحدية بضـــم ثان إليه بخلاف الأحدية فإنها لازمة الواحد لا يفارقه حكمها بعد ضـــم الثاني بل لها من جهة محفوظة عليها يظهر ذاك بالأشفاع والأوتار، فإنك تقول ما جاءني أحد، فتنتفي الأشـــفاع كما تنتفي الأوتار، وهذا دليل على زيادة شـــرفه فإن الاسـم كلما غمضــت دلالته وتعذرت معرفته عن الأفهام وعزب عن العقول

علمه كان ذلك دليلاً على قربه من الاســـم الأعظم- انتهى، وقال بعض العارفين في كشـــف معنى الأحد ورتبته : إن الذات الأعظم غيب محض والأحد أول تعيناتها، ولذلك بدئ بالهمزة التي هي أول تعينات الألف التي هي لهيب محض وذلك ســر مخالفتها للأحرف في أن كل حرف يدل على مســماه أول حروف اسـمه إلا الألف لكونها غيباً، فكان أول اسـمها الهمزة التي هي أول تعيناتها، والهمزة لكونها مرقى إلى غيب الألف كان أول اسمها أيضاً غير دال على مسماها.

ثم بعد التعيين بالأحدية الشـاملة المســتغرقة يتنزل إلى الإلهية ثم منها إلى الواحدية، ولذلك ابتدئ الواحد بالواو التي هي وصـــلة إلى ما فيه من الألف الذي هو غيب، فإن الواحد مرقى إلى فهم الإله، والإله مرقى إلى تعقل الأحد، والأحد مرقى إلى التعبد للذات الأقدس الأنزه، ومن اعتقد أحديته سـبحانه وتعالى، أنتج له ذلك حبه وتعظيمه، وهو توحيد الألوهية لأن التفرد بذلك يقتضي الكمال والجمال- والله الموفق.

قال الإمام جعفر بن الزبير: لما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان، وأشـــعر العالم بحالهم من ترددهم بين عدمين {ثم الله ينشئ النشأة الآخرة} [العنكبوت: 20] فوجودهم منه سبحانه وتعالى وبقاؤهم به وهم وجميع ما يصدر عنهم من أقوالهم وأفعالهم كل ذلك خلقه واختراعه، وقد كان سبحانه وتعالى ولا عالم ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى معين، ولا يتقيد بالزمان، ولا يتحيز بالمكان، فالحمد لله رب العالمين، أهل الحمد ومستحقه مطلقاً، له الحمد في

الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه المصير {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد} هو الموجود الحق، وكلامه الصـــدق، {وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب والدار الآخرة خير للذين يتقون} [العنكبوت: 64] فطوبى لمن استوضح آي كتاب الله، وأتى الأمر من بابه وعرف نفسه ودنياه، وأجاب داعي الله ولم ير فاعلاً في الوجود حقيقة إلا هو ســـبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين، ولما كمل مقصـــود الكتاب، واتضـــح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأناب، كان مظنة الاســتعاذة واللجأ من شــر الحاسـد وكيد الأعداء فختم بالمعوذتين من شـر ما خلق وذرأ وشـر الثقلين- انتهى.

ولما تم البيان لهويته ســـبحانه وتعالى على هذا الوجه الذي أنهاه بالأحدية المعلمة بالتنزه عن القســمة والنظير، وكان بيان القرآن بالغاً أقصـــى نهايات البيان، وكان الأحد من النعوت المتوغلة في السلب، وكانت الشركة تقع في التعبير به في النفي وهو بمعناه الحقيقي وتقع فيه بالإثبات والسلب على حد ســواء، أو دلالته على الكمال والإضــافة أكمل، وبناه على الاســم الأعظم الذي هو آخر الأســماء الظاهرة وأول الأسـماء الباطنة، ولم يقع فيه شــركة بوجه دفعاً لكل تعنت، وإشــعاراً بأن لم يسـم به لم يســتحق الألوهية، وأخلى الجملة عن عاطف لأنها كالنتيجة للأولى والدليل عليها، فقال مكاشفاً لنفوس المؤمنين وللعلماء معيداً الاســم ولم يضـــمر لئلا يظن تقيد بحيثية غيب أو غيرها: {الله} أي الذي ثبتت إلهيته وأحديته، لا غيره {الصـمد} الذي تناهى ســؤدده المطلق في كل شـــيء إلى حد تنقطع دونه الآمال، فكان بحيث لا

يحتاج إلى شـــيء وكل شـــيء إليه محتاج، وتنزه عن الجوفية فلم تدن من جنابه بفعل ولا قوة لأنه تنزه عن القســـمة بكل اعتبار مع العظمة التي لا يشـــببها عظمة، فكان واحداً بكل اعتبار، وذلك هو مفهوم الأحدية عبارة وإشارة، فكان مصموداً إليه في الحوائج أي مقصوداً لأجلها، فهو الموصوف بهذا الاســـم على الإطلاق، وبكل اعتبار، فكان موجداً للعالم لأن العالم مركب بدليل المشـــاهدة فكان ممكناً فكان محدثه واجباً قديماً، نفياً للدور والتسلسل المحالين، وخلقه له بالقدرة والاختيار لأنه لو كان بالطبع والإيجاب لكان وجوده مع وجوده لأن العلة لا تنفك عن المعلول، فيلزم من قدم البارئ عز وجل قدم العالم، ومن حدوث العالم حدوث البارئ جل وعز، وذلك جمع بين النقيضـين وهو محال، وقصـر الصـمدية عليه لأن اشـتداد الألف لحاجة الشـيء إلى غيره ربما كان موجباً لخفاء اختصـاصـه به، ولم يقصـر الأحدية إما للتنبيه على أن ذلك لشدة ظهوره غني عن التأكيد، وإما استئلافاً لهم لئلا ينفروا قبل سـماع تمام السـورة على أنه بظهور قصـر الصـمدية التي أحد معنييها لازم الأحدية ظهر الاختصـــاص بالأحدية، قال العلماء رحمهم الله تعالى: والصـــمد من صـــمد إليه- إذا قصـــده، وهو كالأحد، بني على هذا الوزن لأنه لا تلحقه المضـارعة ولا تدن منه المشـابهة لأنه اسـم خاص فهو السيد المصـمود إليه، وهو أيضـاً الذي لا جوف له ولا رخاوة بوجه فيه، لأن الأجواف وعاء، وكل وعاء محتاج إلى موعيه، يقال: شـــيء مصـــمد، أي صلب، وحجر صمد: أملس لا يقبل الغبار ولا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شـــيء، قال ابن قتيبـة: وهو على هذا الـدال فيـه مبدلـه من التـاء وهو

المصمت، وهو أيضاً العالي الذي تناهى علوه، تقول العرب لما أشرف من الأرض: صمد- بإسكان الميم، وبناء صمد أي معلى، فهو على التفسير الأول من الصفات الإضافية بمعنى أنه سيد لكل موجود، والكل محتاجون إليه في ابتداء إيجادهم وفي تربيتهم، فهم يصمدون إليه في الحوائج ويقصدون إليه في جميع الرغائب، وهو غني على الإطلاق، وذلك هو اتصافه بصفات الإلهية، قال الإقليشي فعلى هذا أي أنه الذي يلجأ إليه ويعتمد عليه لتناهي سؤدده- يتشعب من صفة الصمد صفات السؤدد كلها من الجود، والحلم وغير ذلك وإذا قلنا: إن الصمد العالي تشعبت منه صفات التعالي كلها من العزة والقهر والعلو ونحوها- انتهى، وقد روى البيهقي رحمة الله تعالى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله «الصمد» قال: هو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي كمل في غناه، والجبار الذي كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكم الذي قد كمل في حكمه، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله عز وجل، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوء، وليس كمثله شيء، فسبحان الله الواحد القهار وقال أبو العباس بن تيمية الحنبلي في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»: أجمع سلف الأمة وأئمتها أن الرب سبحانه وتعالى بائن من مخلوقاته، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل بوصف من صفات الكمال دون صفات

النقص، ونعلم أنه ليس كمثله شيء ولا كفوء له في شيء من صفات الكمال كما قال الله تعالى: {قل هو الله أحد الله الصـــمد}- إلى آخرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصمد إلى آخر ما مضى عنه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: هو الذي لا جوف له، والأحد الذي لا نظير له.

فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه الأحد يتضـمن أنه لا مثل له، وقال الحرالي: الصـمد- يعني بالسـكون:- التوجه بالحاجات إلى مليّ بقضائها لا يحتاج إلى سواه، فلذلك يكون الصمد سـيداً لا يسـاد، السـيد الله- انتهى، وعلى التفسـير الثاني: هو من النعوت السـلبية، فهو دال على نفي الماهية التي تعنت بها فرعون لاقتضـائها المقومات المسـتلزمة للحاجة إلى ما به التقويم، وعلى إثبات الهوية المنزهة عن كل شـائبة نقص، فإن كل ما له ماهية كان له جوف وباطن، وهو تلك الماهية، وهو ما لا باطن له، وهو موجود فلا جهة ولا اعتبار في ذاته إلا الوجود، فهو واجب الوجود غير قابل للعدم، وقد علم بهذا أنه جامع لما ذكر فيما قبله، فإن هذا التفسير الثاني يتشعب منه من الأسماء ما ينظر إلى نفي التركيب كالأحد ونحوه وهذان التفسـيران الأول والثاني جامعان لجميع ما فسر به ولما عسى أن يقال فيه سبحانه من صفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال، فمن كان مصموداً إليه في جميع الحاجات ومتعالياً عن كل سمت حدث وشـائبة نقص كان موجداً لكل ما يريد من نفع وضـر ونافع وضـار قادراً على حفظ ما يريد، وكان معلوماً كالشـمس أنه لا شـريك له، وأنه هو وحده المسـتحق للعبادة لاحتياج الكل إليه الاحتياج المطلق وغناه عنهم

الغنى المطلق، وتفرده بصفات الكمال والانقطاع عن قرين وإلى الصمدانية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية، وهي ترد على الفلاسفة القائلين بتدبير القول، والصابية القائلين بتدبير النجوم، وعلى غيرهم من كل من ادعى تدبيراً لغير الله سبحانه وتعالى، ومن اعتقد صمديته المقتضية لكمال الذات والصفات وشمول التدبير، أنتج له كمال التفويض والتوكل وهو توحيد الربوبية، وهذه الأسماء الأربعة مشيرة إلى مقامات السائرين ومرامات الحائرين والجائرين، فالمقربون نظروا إلى الأشياء فوجدوا كل ما سواه سبحانه وتعالى معدوماً بالذات، فكان ذكرهم «هو» وأصحاب اليمين نظروا إلى وجود الممكنات فعينوا مرادهم وميزوا مذكورهم بالجلالة، وأصحاب الشمال جوزوا الكثرة في الإله فاحتاجوا في تذكيرهم إلى الوصف بالأحدية والصمدية وهي رادة على أهل الاتحاد أعظم رد، فإنهم يقولون: إن الإله هو هذا العالم، وهو منقسم بالحس فضلاً عما عداه ومحتاج أشد احتياج.

ولما انتهى بيان حقيقته سبحانه وتعالى، وأنه غير مركب أصلاً، وبين سبحانه بصمديته المستلزمة لوحدانيته أن الكل مستند إليه ومحتاج إليه، وأنه المعطي لوجود جميع الموجوات، والمفيض للجود على كل الماهيات فلا يجانس شيئاً ولا يجانسه شيء، ولا يكون له نظير في شيء من ذلك. وكان ربما تعلق بوهم واهم أن تولد غيره عنه يكون من تمام سؤدده المعبر به عن قدرته، بين أن ذلك محال لاقتضائه الحاجة مما لا تعلق له بالقدرة لأن القدرة من شأنها أنها لا تتعلق بالمحال، وهذا محال، لأنه سبحانه صمد، فكان ذاك بياناً للصمدية في كلا معنييها، فقال من غير عاطف دالاًّ على

انتفاء الجوف الذي هو أحد مدلولي «صمد» مكاشفاً للعقلاء شارحاً لأنه لا يساويه شيء من نوع يتولد عنه ولا جنس يولد هو عنه، ولا غير ذلك يوازيه في وجود ولا غيره {لم يلد} أي يصح ولم ينبغ بوجه من الوجوه أن يقع تولد الغير عنه مرة من المرات، فكيف بما فوقها لأن ذلك مستلزم للجوف وهو صمد لا جوف له، لأن الجوف من صفات النفس المستلزم للحاجة وهو مستغن بدوامه في أبديته عمن يخلفه أو يعينه لامتناع الحاجة والفناء عليه، فهو رد على من قال: الملائكة بنات الله أو عزير أو المسيح أو غيره.

ولما بين أنه لا فصل له، ظهر أنه لا جنس له، فدل عليه بقوله: {ولم يولد} لأنه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول، فهو قديم لا أول له بل هو الأول الذي لم يسبقه عدم، أن الولادة لا تكون ولا تتشخص إلا بواسطة المادة وعلاقتها، وكل ما كان مادياً أو كان له علاقة بالمادة، كان متولداً عن غيره فكان لا يصح أن يتولد عنه شيء لأنه لا يصح أن يكون هو متولداً عن غيره لأنه لا ماهية له ولا اعتبار لوجوده سوى أنه هو، فهويته لذاته، ومن كانت هويته لذاته لم يصح بوجه أن يتولد عن غيره لأنه لو تولد عن غيره لم يكن هو هو لذاته، ولا يكون أحداً حقيقياً ولا صمداً، فينتفي من أصله، ولا يكون له من ذاته إلا العدم، فقد تبين أنه واجب الوجود، فوضح كالشمس أنه ليس مادياً لأنه غير محتاج بوجه، فلا يصح أن يتولد عنه غيره، لأنه لم يصح أن يتولد هو عن غيره، ومن كان كذلك لم يكن له مثل، فلا يصح بوجه أن يساويه شيء ليصح أن يقوم مقامه فيما بين ما انتفى في الأول والآخر، فدل على ذلك إتماماً لشرح

حقيقته المعبر عنها بهو بقوله: {ولم يكن} أي لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من التقادير {له} أي خاصة {كفواً} أي مثلاً ومساوياً {أحد} على الإطلاق، أي لا يساويه في قوة الوجود لأنه لو ساواه في ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل، فيكون وجوده متولداً عن الازدواج الحاصل من الجنس الذي يكون كالأم، والفصل الذي يكون كالأب، وقد ثبت أنه لا يصح بوجه أن يكون في شيء من الولادة، لأن وجوب وجوده لذاته، فانتفى أن يساويه شيء في قوة وجوده، فانتفى قطعاً أن يساويه أحد في شيء من قوة أفعاله، فعطف هاتين الجملتين على الجملة التي قبلها لأن الثلاث شرح الصمدية النافية لأقسام الأمثال، فهي كالجملة الواحدة، وقدم الظرف في الثالثة لأن المقصود الأعظم نفي المكافأة عن الذات الأعظم، فكان أهم «وكفواً» حال من أحد.

ويجوز أن يكون «كان» ناقصة ويكون «كفواً» خبرها، وسوغ خبريته تخصيصه ب «له» كما قالوا في «إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله» وقد وضح أن هذه السورة أعظم مبين للذات الأقدس بترتيب لا يتصور في العقل أن يكون شيء يساويه، وكلمات لا تقع في الوهم أن يكون شيء يساويها أو يساوي شيئاً منها، فأثبت أولاً حقيقته المحضة وهويته بأنه هو، لا اسم لتلك الحقيقة من حيث هي إلا ذلك، فعلم أنه واجب الوجود لذاته لا لشيء آخر أصلاً، ثم عقب ذلك بياناً له بذكر الإلهية التي هي أقرب اللوازم لتلك الحقيقة وأشدها تعريفاً.

ولما اقتضـــت الإلهية الوحدة لأنها عبارة عن الاســـتغناء المطلق واحتياج الغير إليـه الاحتيـاج المطلق، دل عليهـا بـالأحـد، ودل على تحقيق معنى الإلهية والواحدة معاً بالصـــمدية لما لها من المعنيين : وجوب الوجود بعدم الجوف وجوداً أو تقديراً والسيادة المفيضـة لكل وجود على كل موجود وجوداً لا يشبه وجوده سبحانه:

»وأين الثريا من يد المتناول» *** «الأمر أعظم من مقالة قائل«

وبين المعنيين كليهما بعدم صـحة التوليد منه وله وعدم المسـاوي، فمن أول السـورة إلى آخر الأسـماء في بيان حقيقته سـبحانه وتعالى ولوازمها الأقرب فالأقرب ووحدتها بكل اعتبار، ومن ثم إلى آخرها في بيان أن لا مسـاوي له لأنه لا جنس له ولا نوع حتى يكون هو متولداً عن شـــيء أو يكون متولداً عنه شــيء، أو يكون شــيء موازياً له في الوجود، وبهذا القدر حصــل تمام معرفة ذاته، وأنه لا يسـاويه شـيء في قوة وجوده فلا يسـاويه في تمام أفعاله بدلالة شـاهد الوجود الذي كشـف عنه والشـهود بنصـر نبيه صـلى الله عليه وســـلم الذي كان يدعو أبا لهب وجميع الكافرين الشـــانئين وحده وهم ملء الأرض ويخبرهم مع تحـاملهم كلهم عليـه أنهم مغلوبون، وأنـه أتـاهم بـالذبح لأن لمن أرســـله الإحاطة الكاملة بجميع الكمال، وقد كان الأمر كما قال صـلى الله عليه وسلم، فقد صـدقت مقالاته، فثبتت إلى الخلق كافة رسـالاته، وثبت مضـمون جميع السـورة بما ثبت من هذه الأدلة المشـهورة، والبراهين القاطعة المنصــورة، وقد ثبت أنه صـــمد بما دل على أحد معنييه الذي هو انتفاء الجوفية بعدم التولد، وعلى المعنى الآخر الذي هو بلوغ المنتهى من

السـيادة بعدم المكافئ فبان أنه هو لذاته فلا إله غيره، فانطبق آخرها على أولها، والتحم أيّ التحام مفصـلها بموصـلها، فعلم أنه هو هو لا غيره بزيادة أنه الأحد ولا أحد حقاً غيره، ومن تحقق آخرها أقبل بكليته إليه سبحانه، فلم يلتفت إلى غيره لأن الكل في قبضـته، وقد نقلت في كتابي مصـاعد النظر عن الإحياء للإمام الغزالي رحمة الله تعالى عليه في شـيء من أسـرار هذه السورة كلاماً هو في غاية النفاسة.

وروى الترمذي عن أبي بن كعب رضـي الله تعالى عنه أن المشـركين قالوا: يا محمد انسـب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: قل هو الله أحد إلى آخرها، قال: لأنه ليس شـيء يولد إلا سـيموت، وليس شـيء يموت إلا سـيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد- انتهى. ومن كان كذلك فهو الجامع للأسماء الحسنى والصفات العلى كلها، وعلم أن حاصلها تنزيه المعبود عن أن يكون لـه مجانس، أو يكون لـه مكافئ، والرد على كل من يخالف في شـيء من ذلك، وأعظم مقاصـد آل عمران المناظرة لها في رد المقطع على المطلع، المفتتحة بالحي القيوم، المودعة أوضـح الأدلة على كفر من كفر بالله سبحانه وتعالى لا سيما من ادعى أن عيسى عليه الصلاة والسـلام إله أو أنه ولد له سـبحانه وتعالى وكذا غيره الدلالةُ على بطلان مذهب من ادعاه إلها وعلى أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد من عبيده أوجده على ما أراد كما أوجد من هو أغرب حالاً منه وإبطال قول من ادعى فيه غير ذلك. ولما عرفت هذه السـورة حقيقة الذات أتم تعريف، وكان الغرض الأقصـى من طلب العلوم بأسـرها معرفة ذاته سـبحانه وتعالى

وصــفاته وكيفية صــدور الأفعال عنه وكان القرآن العظيم كفيلاً بجميع هذه العلوم، وكانت هذه السورة منه قد تكفلت بجميع ما يتعلق بالبحث عن الذات على ســبيل التعريض والإيماء، وكانت معادلة لثلث القرآن وهي ثلث أيضــاً باعتبار آخر وهو أن الدين اعتقاد، وفعل لســاني يترجم عن الاعتقاد، وفعل يصـــحح ذلك، وهي وافية بأمر الاعتقاد بالوحدانية الذي هو رأس الاعتقاد، وباعتبار أن مقاصــده كلها محصــورة في بيان العقائد والأحكام والقصــص، وهذه السورة على وجازتها قد اشتملت على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها، ولأجل أن هذا هو المقصـــود بالذات الذي يتبعه جميع المقاصد عدلت في بعض الأقوال بجميع القرآن، وحاصل شرح هذه السورة العظمى أنه ســـبحانه وتعالى دل على الذات الأقدس بالهوية، وعبر عنها بالضــمير إشـــارة إلى نفي الماهية التي غلظ أو غالط فيها الكفور الأعظم فرعون– لعنة الله عليه وعلى أتباعه أهل الإلحاد، وأنصاره وأشياعه من أهل الاتحاد، ودل على ذلك بالاســـم الأعظم المجمع عليه ودل عليه بالوحدة الجامعة للغنى، النافية للكثرة الموجبة لحاجة، ودل عليها بالصـــمدية النافية للجوفية المثبتة للســـيادة الخفية، ودل على أول معنييها بانتفاء الولادة منه وله، الدالان على نفي الجنس للقوم والفصل المقسم، ودل على الثاني بعدم المكافئ، ودل على هذا العدم بأفعاله العظيمة المشــاهدة التي أشـــار قطعاً ترتيب الســـور بما انتهى إليه وضـــع هذه الســـورة في هذا الموضـــع إلى استحضارها.

وتأمل ما كان منها من تربية هذا الدين بنصر نبيه الذي أرسله صلى الله عليه وسلم لإقامته، وسلط الكافرين– وهم ملء الأرض– على أذاه، وجعل أعظمهم له أذى أقربهم إليه نسباً عمه أبا لهب الذي كان يتبعه في تلك المشاهد والقبائل، ويلزمه في تلك المواسم والمعاهد والمحافل، يصرح بتكذيبه كلما دعى الناس إلى الحق، ويواجه بما هو أشد الأشياء على النفس كراهة وأشق، فكانت تلك الشهرة عين الرفعة والنصرة، لأن الشيء، إذا خرج عن حده انقلب إلى ضده، فإنه إذا تناهت شهرته ثم بان بطلانه أو صحته رجعت شهرته بكونه باطلاً أو صحيحاً أعظم منها لو لم يتقدمها شهرة بغير ذلك، فانقلبت النصرة، وعظمت الكثرة، فجلت المعاونة، وزالت المباينة، وحصل الوفاق، وزال الشقاق، فدل هذا الفعل الأعظم من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو وحده، وكذب المعاندين وهم من لا يحصيهم إلا الله في كل ما قال، وجميع ما قالوا على عزته سبحانه وتعالى بكونه نصر عبده على ذلك الوجه الخارق للعادة وعلى حكمته بما سلطهم به عليه حتى أسرعت الشهرة وعمت النصرة، فعلم بتلك المشاهدة أنه العزيز الحكيم كما دلت عليه سورة التوحيد المناظرة لهذه في رد المقطع على المطلع، وهي آل عمران المناظرة لهذه في الدلالة على التوحيد والمحاججة لمن ادعى أن له صاحبة وولد، فعلم قطعاً أنه لا كفوء له، فعلم أنه لا يصح أصلاً أن يلد ولا أن يولد، فبطلت قطعاً دعوى إلهية عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره ممن ادعى فيه الولدية بالأحدية لما تقتضيه الولادة من المادة المقتضية للكثرة، الموجبة للحاجة، وعظم البيان بما دل عليه الاسم الأعظم من الإجماع بما

تقتضـــــي الإلهية، ولا إجماع على غيره، وجل الأمر وانقطع النزاع بما دل عليه الضـــمير من وجوب الوجود النافي لما ســـواه من كل موجود- والله الهادي، فلقد أبانت السورة على أعظم الوجوه أن مرسله صلى الله عليه وسلم أجل موجود وأشرف حقيقة وأنفس معلوم، وأعظم ذات، وذلك يستلزم نفي كل ما لا ينبغي، وحصـول كل ما ينبغي استلزاماً لا يقبل الانفكاك، كالفردية في الوتر، والزوجية في الشـفع، وتفصـيل ذلك بعشـرة أشـياء تبسـط على كلمات الســـورة على الترتيب : الأول أنه تعالى له الوجود الذي ما مثله فليس هو كالممكنات المسـبوقة بالعدم والمنقطعة بالانعدام، والمنصـرمة في الدوام، بل هو أزلي لا أول لـه أبدي لا آخر لـه، قيوم لا انصـــرام لـه، الثاني أن لـه السبوحية الآبية على نفع كل نقص وعيب، الثالث أن له القدوسية المشتملة على الاتصــــاف بكل كمال، من جلال وجمال وتعال، الرابع أن له العظمة والجلالة عن أن يكون عرضـــــاً أو كالأعراض، أو جوهراً أو كالجواهر، أو جسـماً أو كالأجسـام، الخامس أن له العلو عن أن يحل في شـيء أو يحل فيه شيء أو يتحد بشيء أو يتحد به شيء، السادس أنه تعالى له الغنى عن الموجد كالرب والموجب كالأب والمفيد أي لشــيء من الكمالات، السـابع أنه تعالى له الوحدانية التي ليس فيها شبيه أي في صفاته، ولا مثيل أي في نوع ولا نسب أي كالقرابة، الثامن أنه تعالى له الفردانية التي لا يصح فيها شرك، لا في الملك- بكسـر الميم، ولا في الملك- بضـمها، ولا في التدبير، ولا في التأثير، التاســـع أنه تعالى له الكبرياء المنافية لفوت كمال أو كمال كمال، العاشـــر أنه تعالى له العزة المنافية لأن يكون له ضـــد- وهو المفســد لما

يفعله، أو ند- وهو الموجد لمثل ما يوجده، وتنزل هذه العشـرة على السـورة واضـح لمن تأمل الكلام وتدبره، وابتدأ سبحانه السورة بالضمير قبل الظاهر بعد التصـريح بالنصـر والفتح وخسارة أهل الكفر بخسارة أبي لهب الذي هو أعلاهم وأعزهم إشارة إلى أن من صـحح باطنه باسم الله تعالى نصـر وفتح له- كما يشير إليه تعقيب الأمر في آخر سورة البقرة بالرغبة إليه في النصر على الكافرين بقوله

{الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: 255] فإنه ترجمة أول هذه السـورة التالية للنصـر والكافرون سـواء بالضـمير والاسـم الأعظم والتوحيد الأعظم المقرون بدليل وهو القيومية، فقد بين آخر السـورة الذي هو نتيجتها ورد مقطعها على مطلعها أنه أحد حاضـر في كل زمن لا يغيب أصـلاً، ولا أحد يكافئه أو يشـابهه، لأنه لم يتولد عنه شـيء ولا تولد هو عن شـيء، لأنه صـمد لا جوف له مطلقاً لا في ذاته بالفعل، ولا بحيث يجوّزه الوهم لأنه أحد محيط بكل شـيء لأنه هو الله المحيط بجميع صـفات الكمال والجمال، وهو غيب محض لأنـه لا يقوى غيره على معرفتـه إلا بـاللوازم من الصـفـات المعقولة تقريباً، والأفعال المشـاهدة آثارها، وهو هو الذي هو- مع كونه غيب الغيب- مسـتحضـر في كل لب، لا يظهر بغيب عن أحد بما له من الآثار، التي ملأت الأقطار، ولذلك استحق التسمية ب «هو» ولم يستحقها غيره لحضـوره لكل قلب وغيبة غيره بكل اعتبار، لأنه ليس للغير من ذاته إلا الغيبة بالعدم، وأما هو فهو الواجب وجوده، وهو الذي أوجد غيره، وركز في كل قطرة ذكره، لما له سـبحانه من الكمال، ولغيره من شـدة الحاجة إليه

والاحتلال، فكان سبوحاً قدوساً جامعاً بين الوصفين لأنه ممدوح بالفضائل والمحاسن، التقديس مضمر في صريح التسبيح، والتسبيح مضمر في صريح التقديس، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بينهما في هذه السورة بالأسماء التي جلاها أولها، فهو صريح التقديس، ومن ثم إلى آخرها صريح التسبيح، والأمران راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي التشريك والتشبيه عنه، وذلك هو الجمع بين الإثبات والنفي على تهييج ما وقع في كلمة الإخلاص ليعلم أن الإثبات لا يكمل إلا بصيانته عن كل ما يتضمن مخالفته، لكن كلمة الإخلاص تركبت من نفي ثم إثبات، وسورة الإخلاص من إثبات ثم نفي، فأولها إثبات وآخرها نفي، وآخر الإثبات الصمد، فهو جامع بين الأمرين فإنه جمع كل صفة لا يتم الخلق إلا بها «لأن أحد مدلوليه» في اللغة : السيد الذي يرجع إليه، فاقتضى ذلك إثبات صفات الكمال التي بها يتم اتساق الأفعال ونفي كل صفة ينزه عنها، لأن ثاني مدلوليه في اللغة: الذي لا جوف له، وذلك يتضمن نفي النهاية ونفي الحد والجهة والجسم والجوهر، لأن من اتصف بشيء من ذلك لم يستحل اتصافه بالتركيب ووجود الجوف، فقررت هذه الكلمة وجوب المعرفة بالنفي والإثبات ليميز بين الحق والباطل، لأن من لم يتحقق صفاء الباطل لم يتقرر له المعرفة بالحق، ولذلك كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الحق لصحة الاعتقاد والمعرفة، وعن الباطل والشر للتمكن من مجانبته حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه

»وكان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر» وذلك لأن من لم يعرف الشر يوشك أن يقع فيه، وأن ما خالفت كلمة الشهادة في الترتيب لأن تلك أتت للإدخال في الدين، والأليق بمن كان خارجاً أو ضعيفاً- وهم الأكثر- نفي الباطل أولاً ومحوه من لوح القلب ليأتي إثبات الحق فيه وهو فارغ فيقر فيه، فلما نفت أولاً كل غير كان سبباً للمجانبة والبعد عن حضرات القدس، ثم أثبتت الذات الأقدس والمسمى الأشرف الأنفس، أكدت سورة الإخلاص لأنها للكمل الذين تخلقوا بما قبلها من السور، هذا الإثبات عند استحضاره، وشهود الجميل من آثاره، ثم ختمت بنفي الأغيار، ليكون بذلك تجلى ختام الأعمار، عند الرجوع إلى الآثار، بالعرض على الواحد القهار، وقد بين بهذه السورة أنه طريق بين الخلق والأمر، فلما فتح الخلق بمتشابه خلق آدم عليه الصلاة والسلام لأن المتشابه ما خرج عن أشكاله، وختمت أقسامه الأربعة بمتشابه خلق عيسى عليه الصلاة والسلام- كما تقدم عند

{إن الله اصطفى} [آل عمران: 33] في آل عمران المناظرة لهذه السورة، لذلك فتح الأمر بعد أم الكتاب بمتشابه الحروف المقطعة، وختم دون المعوذتين اللتين هما في الحال المرتحل كالمقدمة، والافتتاح بالتعوذ لأم الكتاب بمتشابه هو سورة الإخلاص، وكان متشابه أوله متشابهاً من جميع وجوهه، لا يمكن أحداً أن يقول فيه قولاً مقطوعاً به أو مظنوناً ظناً راجحاً، ومتشابه آخره لا يقنع فيه بدون القطع في أوله فيما كلفنا أمره في هذه الدار وهو أصول الدين، ووراء ذلك ما لا يدركه أحد من الأبرار ولا المقربين، وهو

الذات الأقدس، فمن رجع متشابه الخلق فوق منزلته كفر، ومن وضع متشابه الأمر عن رتبته العلية كفر، وجعل آخره أجلى من أوله من بعض الوجوه إشارة إلى ترقية الموفق في أمره، وأنه في الآخر يكون أجلى انكشافاً وأوضح معرفة، وتلاه بالتعوذ إشارة إلى سؤال الاعتصام في شأنه، والحفظ التام في مضـــمار عرفانه، وكرر بالتثنية لأجل الإحاطة بأمري الظاهر والباطن، والتأكيد تنبيهاً على صعوبة المرام، وخطر المقام.

ولما افتتح القرآن بسـورة مشـتملة على جميع معانيه، ختم بسـورتين يدخل معناهما، وهو التعوذ، ويندب ذكره في جميع أجزائه ومبانيه، وفي ذلك لطيفة أخرى عظيمة جداً، وهي أنه لما علم بالإخلاص تمام العلم وظهور الدين على هذا الوجه الأعظم، فحصـل بذلك غاية السـرور، وكان التمام في هذه الدار مؤذناً بالنقصـان، جاءت المعوذتان لدفع شر ذلك، وقد انقضـى الكلام على ما يسـره الله تعالى من كنوز معاني سـورة الإخلاص بحسـب التركيب والنظم والترتيب، وبقي الكلام على ما فتح الله به من أسـرارها في الدلالة على مقصود السورة بالنظر إلى كلماتها مفردة ظواهر وضمائر ثم حروفها، ففيها من الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى، التي أسـس عليها بنيانها، وانبنت عليها أركانها، خمسـة هي العشـر من كلمات آية الكرسـي كما أن الصـلوات المكتوبات خمس وهي خمسـون في أم الكتاب «الحسـنة بعشـر أمثالها» فمن لطائف إشـاراتها أنها كدعائم الدين الخمس، فالضـمير مشـير إلى تصـحيح ضـمير القلب بالإيمان، وصـحة القصـد والإذعان، حتى يقوم بناء العبادة، والاسـم الأعظم إشـارة إلى أن ذلك التصـحيح لأجل التأله

بالخضوع للإله الحق باستحضار اسمه الأعظم كما أن الصلاة أعظم عبادات البدن، هذا للتهيئة في الدخول في العبادة، ثم إن الدخول فيها شرطه أحدية التوجه تحقيقاً للصدق في صحة العزم عليها كما أن الزكاة تكون مصدقة للإيمان، وذلك التوحيد في التوحيد يكون لأجل الصدق في التأله بما يشير إليه إعادة الاسم الأعظم كما هو شأن الحاج الأشعث الأغبر المتجرد، ويكون ذلك التأله باستحضار افتقار العابد إلى المعبود وتداعيه إلى الهلاك بكل اعتبار لأنه أجوف، وغنى المعبود على الإطلاق بما يشير إليه الاسم الإضافي الصمد كما هو شأن الصائم في عبادته، واستحضاره لحقارته وشدة حاجته، ولجلالة مولاه، وتعاليه في غناه، فمن صحت له هذه الدعائم الخمس كانت عبادته في الذروة العليا من القبول، وإلا كان لها اسم الحصول من غير كثير محصول- والله الموفق، وكونها خمس عشرة كلمة إشارة إلى أنهم في السنة الخامسة عشرة من النبوة يعلمون- بغلبة قهره وسطوة سلطانه وتأييده للمستضعفين من حزبه، وتقويته لهم في وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة- أن مرسله لا كفوء له بعلم شهودي لا يقدر أحد على تكذيبه ودفعه، فيقوم به دليل الإخلاص، ولات حين مناص، وإذا ضممت إليها الضمير الواجب الاستتار في {قل} كانت ست عشرة إشارة إلى أنه في السنة السادسة عشرة من النبوة وهي الثالثة من الهجرة في غزوة أحد يكون الظاهر فيها اسمه تعالى الباطن، فإنه كان فيها من المصيبة ما هو مذكور في السير تفصيله من قتل سبعين من الصحابه رضي الله تعالى عنهم منهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه عم رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد أن ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم في أول النهار، ظهوراً بيناً حتى كانت هزيمة الكفار، لا شك فيها- كما قال الله تعالى

{ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم} [آل عمران: 152]- الآيات، ثم أخفى الله ذلك في إزالة الكفار في أثناء النهار، فهزم الصحابة رضي الله تعالى عنهم حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم منهم إلا نفر يسير جداً أكثر ما ورد في عددهم أنهم يقاربون الأربعين وهو ثابت بهم- صلى الله عليه وسلم- في نحر العدو وهم نحو من ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس يحاولهم ويصاولهم يشتملون عليه مرة ويفترقون عنه أخرى ليعلم أن الناصر إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نصر النبي صلى الله عليه وسلم في موطن من المواطن ما نصر في غزوة أحد، وقال أبو سفيان ابن حرب يوم إسلامه في عام الفتح للنبي صلى الله عليه وسلم: ما قاتلتك من مرة إلا ظهرت عليّ، أظن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً.

ولكن الذي ظهر منها ما كان في آخر النهار من ظهور الكفار، فأخفى الله تعالى نصره لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها باسمه الباطن إلا على أرباب البصائر، فما علم ذلك إلا بوجه خفي جداً مناسبة للضمير الباطن الواجب الاستتار، وإذا ضممت إلى ذلك الضميرين المستترين الجائزي الظهور، فكانت الكلمات بذلك ثماني عشرة، كان إشارة إلى أن في السنة الثامنة عشرة من النبوة- وهي الخامسة من الهجرة دلالة عظيمة على أنه لا كفوء له

يوجب الإخلاص على وجه هو أجلى مما كان في غزوة أحد وإن كان فيه نوع خفاء، وذلك في غزوة الأحزاب وبني قريظة حين رد الله الكفار بغيظهم لم ينالوا خيراً بعد أن كانوا في عشرة آلاف مقاتل غير بني قريظة، يقولون: إنه لا غالب لهم، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً قاهراً لهم بريح وجنود لم يروها، وأمكن من بني قريظة، وكان الله قوياً عزيزاً، وذلك في شوال وذي القعدة سنة خمس من الهجرة، فإذا ضممت إليها الضمير الآخر البارز بالفعل في «له» فكانت تسع عشرة، كانت إشارة إلى مثل ذلك على وجه أجلى في عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، فإنه كان فيها الفتح السببي الذي أنزل الله سبحانه وتعالى فيه سورة الفتح، وكان فيها من دلائل الوحدانية أمور كثيرة توجب الإخلاص، وإن كان في ذلك نوع خفاء مناسبة للضمير وإن كان بارزاً بالفعل، فقد خفي على كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين حتى نبههم النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا ضممت إليها كلمات البسملة الأربع كانت ثلاثاً وعشرين توازي السنة العاشرة من الهجرة، وهي الثالثة والعشرون من النبوة، وفيها كان استقرار الفتح الأكبر والإخلاص الأعظم بنفي الشرك وأهله من جزيرة العرب لحجة الوداع التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها: «إن الشيطان- قد أيس أن يعبد في أرض العرب» ولذلك توفى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عقبها بعد إظهار الدين وإذلال الكافرين وإتمام النعمة، وقام سبحانه بنصر الأمة وحده بعد أن مهد أسباب النصر بنبيه صلى الله عليه وسلم حتى علم قطعاً في الردة وأحوالها، وموج الفتنة وأهوالها، وغلبة رعبها على

القلوب وزلزالها، في ذلك الاضطراب الشديد، أنه الإله وحده الذي لا كفوء له لحفظ الدين في حياة نبيه صـلى الله عليه وسـلم وبعده، وكذا فيما بعد ذلك من فتوح البلاد، وإذلال الملوك العتاة الشــداد، مع ما لهم من الكثرة والقوة بالأموال والأجناد، والتمكن العظيم في البلاد، وجعل النصــر عليهم بأهل الضــعف والقلة آية في آية، ودلالة بالغة في ظهورها الغاية، وإذا سـلكت طريقاً آخر في الترتيب في الكلمات الخطية والاصــطلاحية دلّك على مثل ذلك بطريق آخر، وذلك أن تضم إلى الكمات الخمس عشرة كلمات البسملة الأربع لتكون تسع عشرة فنوازي سنة ست من الهجرة، وذلك سنة عمرة الحديبية التي سـماها الله تعالى فتحاً، وأنزل فيها سـورة الفتح لكونها كانت سبب الفتح الذي هو عمود الإخلاص، فإذا ضممت إليها الضمير المستتر كانت عشرين، فوازت سنه سبع التي كانت فيها عمرة القضـاء، فأظهر الله فيها الإخلاص على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المشركين في البلد الذي كان بعثه منه وفيه على وجه ظهر فيه أنه لا كفوء له، ولكن كان ذلك بوجه خفي، فإذا ضــممت إليها الضــميرين المســتترين الجائزي البروز كانت اثنتين وعشرين موازية لسنة تسع سنة الوفود ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فالإلهية من حيث هي تقتضــي الوحدة، والوحدة لا تقتضــي الإلهية، وعبر به دون الواحد لأن المراد الإبلاغ في الوصــف بالوحدة إلى حد لا يكون شــيء أشـد منه، والواحد– قال ابن سـينا– مقول على ما تحته من التشـكيك، والذي لا ينقسـم بوجه أصـلاً أولى بالوحدانية مما ينقسـم من بعض الوجوه، والذي ينقسـم انقسـاماً عقلياً أولى مما ينقسـم بالحس، والذي

ينقســـم بالحس وهو بالقوة أولى من المنقســـم بالحس بالفعل، وإذا ثبت أن الوحدة قابلة للأشد والأضعف وأن الواحد مقول على ما تحته بالتشكيك كان الأكمل في الفعل الذي لا يمكن أن يكون شـــيء آخر أقوى منه فيها وإلا لم يكن بالغاً أقصـــى المرام، والأحد جامع لذلك دال عل الواحدية من جميع الوجوه، وأنه لا كثرة هناك أصـــلاً، لا معنوية من المقولات من الأجناس والفصول ولا بالأجزاء العقلية كالمادة والصورة، ولا حسية بقوة ولا فعل كما في الأجسام، وذلك لكونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر الوجوه وجوه التشـــبيه التي تثلم الوحدة الكاملة الحقة اللائقة بكرم وجهه وعز جلاله أن يشبهه شيء أو يساويه شيء لأن كل ما كانت هويته أن تحصل من اجتماع آخر كانت هويته موقوفة على تلك الأجزاء فلا يكون هو هو لذاته بل لغيره، فلذا كان منزهاً عن الكثرة بكل اعتبار ومتصـــفاً بالوحد من كل الوجوه، فقد بلغ هذا النظم من البيان أعظم شـــأن، فســـبحان من أنزل هذا الكلام ما أعظم شأنه وأقهر سلطانه! فهو منتهى الحاجات، ومن عنده نيل الطلبات، ولا يبلغ أدنى ما اســـتأثره من الجلال والعظمة والبهجة أقصـــى نعوت الناعتين، وأعظم وصـــف الواصـــفين، بل القدر الممكن منه الممتنع أزيد منه هو الذي ذكره في كتابه العزيز، وأودعه وحيه المقدس الحكيم، وبالكلام على معناه والمعنى الواحد تحقق ما تقدم، قال الإمام أبو العباس الاقليشـــي في شرح الأسماء الحسنى، فمن أهل اللسان من ساوى بينهما جعلهما مترادفين، ومنهم من قال: أصل «أحد» واحد، أسقطت منه الألف،

ثم أبدلت الهمزة من الواو المفتوحة مثل حسن يحسن فهو حسن- من الحسن، أبدلت الواو همزة، وأما من فرق بينهما فمنهم من قال: «أحد» على حياله، لا إبدال فيه ولا تغيير، ومنهم من قال: أصله وحد- أبدلت الواو همزة- انتهى.

وقد استخلصت الكلام على الاسمين الشريفين من عدة شروح للأسماء الحسنى وغيرها، منها شرح الفخر الرازي والفخر الحرالي وغيرهما- قالوا: الواحد الذي لا كثرة فيه بوجه لا بقسمة ولا بغيرها مع اتصافه بالعظمة ليخرج الجوهر الفرد وهو الذي لا يتثنى، أي لا ضد له ولا شبيه، فهو سبحانه وتعالى واحد بالمعنيين على الإطلاق لا بالنظر إلى حال ولا شيء، قال الإمام أبو العباس الاقليشي في شرح الأسماء الحسنى: هذه حقيقة الوحدة عند المحققين فلا يصح أن يوصف شيء مركب بها إلا مجازاً كما تقول: رجل واحد ودرهم واحد، وإنما يوصف بها حقيقة ما حراك له كالجوهر عند الأشعرية غير أنك إذا نظرت فوجدت وجوده من غيره علمت أن استحقاقه لهذا الوصف ليس كاستحقاق موجده له، وهو أيضاً إنما يوصف به لحقارته، وموجده سبحانه وتعالى موصوف به مع اتصافه بالعظمة، فاتصافه بالوحدة على الإطلاق، والاتصاف بالجوهر بالنظر إلى عدم التركيب من الجسم مع صحة اتصافه بأنه جزء يزل عنه حقيقة ذلك، والوحدة أيضاً بالنظر إلى المعنى الثاني- وهو ما لا نظر له- لا تصح بالحقيقة إلا له سبحانه وتعالى، وكل ما نوعيته في شخصيته كالعرش والكرسي والشمس والقمر يصح أن يقدر لها نظائر، ولها معنى ثالث وهو

التوحيد بالفعل والإيجاد، فيفعل كل ما يريد من غير توقف على شـــيء، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول ناظر إلى نفي إله ثان، وهذا ناف لمعين ووزير، وكلاهما وصـــف ذاتي ســـلبي، والحاصـــل أن النظر الصـحيح دل على أن لنا موجداً واحداً بمعنى أنه لا يصـح أن يلحقه نقص لقسمته بوجه من الوجوه، وبمعنى أنه معدوم النظير بكل اعتبار، ومعنى أنه مستبد بالفعل مستقل بالإيجاد ومتوحد بالصـنع منفرد بالتدبير، قضـى بهذا شـاهد العقل المعصـوم من ظلمة الهوى وكثافة الطبع، وورد به قواطع النقل ونواطق السـمع، ولهذا كان من أعظم الخلق دعاؤه سـبحانه وتعالى لجميع الخلق، وكانت دعوة رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم للخلق كافة، وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في آخر شرحه للأسماء الحسنى في شرحه في بيان رد الأسماء الكثيرة إلى ذات الواحد وسبع صفات الأحد المسلوب عنه النظير، وقال في الشرح المذكور: الواحد هو الذي لا يتجزى ولا يتثنى، أما الذي لا يتجزى فكالجوهر الذي لا ينقسـم فيقال عنه: إنه واحد- بمعنى أنـه لا جزء لـه، وكذلك النقطـة لا جزء لهـا، والله تعـالى واحد بمعنى أنـه يسـتحيل تقدير الانقسـام في ذاته، وأما الذي لا يتثنى فهو الذي لا نظير له كالشـــمس مثلاً فإنها- وإن كانت قابلة للانقســـام بالوهم- متحيزة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن لها نظير، وليس في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه فيه غيره أصلاً إلا الواحد المطلق أزلاً وأبداً، والعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير، وذلك بالإضافة إلى بعض

الخصال دون الجميع، فلا وحدة على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى، وقال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتاب الملل والنحل: واختلفوا في الواحد أهو من العدم أم مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد، وهذا الاختلاف إنما ينشأ من اشتراط لفظ الواحد أيضاً، فالواحد يطلق به ويراد به ما يتركب منه العدد، فإن الاثنين لا معنى له إلا واحد تكرر أول تكرير وكذا الثلاثة والأربعة، ويطلق ويراد به ما يحصل منه العدد الذي هو علة، ولا يدخل في العدد الذي لا يتركب منه العدد، وقد يلازم الواحدية جميع الأعداد لا على أن العدد يتركب بها بل وكل موجود فهو جنسه أو نوعه أو شخصه واحد، يقال: إنسان واحد، وفي العدد أنه لا كفوء له ولكن كان ذلك بوجه خفي، فإذا ضممت إليها الضميرين المستترين الجائزي البروز كانت اثنين وعشرين موازية لسنة تسع سنة الوفود ودخول الناس في الدين أفواجاً، وحجة أبي بكر رضي الله عنه وتطهير المسجد الحرام من نجس الإشراك بالبراءة من المشركين وزجرهم عن أن يحج بعد ذلك العام مشرك، ونهيهم عن قربانهم المسجد الحرام لأنهم نجس، وانتشار الإخلاص في أغلب بلاد العرب، وذلك أجلى مما مضى مناسب لما دل عليه، وفيه نوع خفاء عند من كان بقي من المشركين، وإذا ضممت إليها الضمير الآخر البارز بالفعل كانت ثلاثاً وعشرين توازي سنة حجة الوداع سنة عشر، وهي التي تم فيها الإخلاص ولم يحج بها مشرك، وأيس الشيطان فيها أن يعبد في جزيرة العرب، وفي ذلك- لكون الكلمة ضميراً- نوع يسير في الخفاء بما دل عليه بعد ذلك من الردة، وكان ذلك أنسب الأشياء بالكلمة المتحملة لذلك الضمير

وهي له، هذا ما يسره الله من أسرار كلماتها بحسب الأعداد، وأما حروفها فمن الأسرار العظيمة أنه صفة الله، وأن حروفها مع البسملة بالنظر إليها من حيث اللفظ وكذا من حيث الرسم ستة وستون حرفاً، وكذا عدة حروف الجلالة الملفوظة وكذا المرسومة بحساب الجمل، فكل ما دعت إليه هو مدلول هذا الاسم الأعظم، وهذه العدة إذا أخذت من أول مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان آخرها منطبقاً على سنة موت صديقه الأكبر الذي سبق غيره بما وقر في صدره وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك دلالة على أنه لا يوازيهما أحد في الإخلاص، وأنهما وصلا فيه إلى الرتبة العليا، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الخلق فيه، وفي ذلك أيضاً دلالة على أنه لا كفوء له لأنه نفى الإشراك بحذافيره من جميع جزيرة العرب بعد أن كانوا مطبقين عليه، وأطلقهم سبحانه وتعالى على من يليهم من ملوك الأمم حتى أظهر الله بهم الدين- وقد كانوا أذل الأمم- على الدين كله، ونفوا جبابرة الملوك صغرة بعد أن كان عندهم أنه لا غالب لهم، وحروفها الملفوظة هي بعدد كلمات- آيات التوحيد، وهي آية الكرسي أعظم آية في القرآن، وذلك خمسون حرفاً إلا واحداً هو ألف {كفواً} الذي هو مرسوم غير ملفوظ، وهو الدال على الضمير الذي هو غيب الغيب، فهو غيب- من جهة عدم اللفظ به، ووجود وظهور من جهة شاهد الرسم ومسموع الاسم، كما أن الذات غيب محض من جهة الحقيقة يدرك بمشاهدة الأفعال، ومسموع الأسماء العوال- والله الهادي من الضلال.

113 Falaq Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

سورة الفلق

113

تفسير الآيات رقم [1- 5]

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)}

أمر بالتعوذ برب هذا الدين، موافقة لإياك نعبد وإياك نستعين، من شر ما يقدح فيه بضرر في الظاهر أو في الباطن وهم الخلائق حتى على الفنا في الغنا، وبدأ بما يعم شياطين الإنس والجن في الظاهر والباطن، ثم اتبع بما يعم القبيلين ويخص الباطن الذي يستلزم صلاحه صلاح الظاهر، إعلاماً بشرف الباطن على وجه لا يخل بالظاهر، وفي ذلك إشارة إلى الحث على معاودة القراءة من أول القرآن كما يشير إليه قوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن} [النحل: 98]- أي أردت قراءته- {فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل:

98] فقال تعالى: {قل} أي لكل من يبلغه القول من جميع الخلائق تعليماً لهم وأمراً، فإنهم كلهم مربوبون مقهورون لا نجاة لهم في شـيء من الضـرر إلا بعصـــمته ســـبحانه وتعالى، فعلى كل منهم أن يفزع أول ما تصـــيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها تصحيحاً لتوكله فإنه يرتقي بذلك إلى حال الرضـا بمر القضـاء، ولا يأخذ في الاعتماد على جلادته وتدبيره بحوله وقوته فإنه يشـتد أسـفه ولا يرد ذلك عنه شـيئاً: {أعوذ} أي أسـتجير وألتجئ وأعتصم وأحترز.

ولما كان هذا المعنى أليق شـيء بصـفة الربوبية لأن الإعاذة من المضـار أعظم تربية قال: {برب الفلق *} أي الذي يربيه وينشـئ منه ما يريد، وهو الشـــيء المفلوق بإيجاده ظلمة العدم كالعيون التي فلقت بها ظلمة الأرض والجبال، وكالأمطار التي فلقت بها ظلمة الجو والســحاب، وكالنبات الذي فلقت به ظلمة الصعيد، وكالأولاد التي فلقت بها ظلمة الأحشـاء، وكالصبح الذي فلقت به ظلمة الليل، وما كان من الوحشـة إلى ما حصـل من ذلك من الطمأنينة والسكون والأنس والسرور إلى غير ذلك من سائر المخلوقات، قال الملوي: والفلق- بالسـكون والحركة كل شـيء انشـق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعها- انتهى. وخص في العرف بالصبح فقيل: فلق الصبح، ومنه قوله تعالى: {فالق الإصباح} [الأنعام: 96] لأنه ظاهر في تغير الحال ومحاكاة يوم القيامة الذي هو أعظم فلق يشـــق ظلمة الفنا والهلاك بالبعث والإحياء، فإن القادر على ما قبله بما نشـــاهده قادر عليه، لأنه لا فرق، بل

البعث أهون في عوائد الناس لأنه إعادة، كذا سـائر الممكنات، ومن قدر على ذلك قدر على إعاذة المستعيذ من كل ما يخافه ويخشاه.

ولما كانت الأشياء قسمين: عالم الخلق، وعالم الأمر، وكان عالم الأمر خيراً كله، فكان الشر منحصراً في عالم الخلق خاصة بالاستعاذة فقال تعالى معمماً فيها: {من شر ما خلق *} أي من كل شيء سوى الله تعالى عز وجل وصفاته، والشر تارة يكون اختيارياً من العاقل الداخل تحت مدلول «لا» وغيره من سائر الحيوان كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم، وتارة طبيعياً كإحراق النار وإهلاك السموم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: قد أشير، أي في الكلام على ارتباط الإخلاص- إلى وجه ارتباطها آنفاً، وذلك واضح إن شاء الله تعالى- انتهى.

ولما كان عطف الخاص على العام يعرف بأن ذلك الخاص أولى أفراد العام بما ذكر له من الحكم، وكان شر الأشياء الظلام، فإنه أصل كل فساد، وكانت شرارته مع ذلك وشرارة السحر والحسد خفية، خصها بالذكر من بين ما عمه الخلق لأن الخفي يأتي من حيث لا يحتسب الإنسان فيكون أضر. ولذا قيل: شر العداة المداجي، وكانت مادة «غسق» تدور على الظلام والانصباب، فالغسق- محركة: ظلمة أول الليل، وغسقت العين: أظلمت أو دمعت، واللبن: انصب من الضرع، والليل: اشتدت ظلمته، والغسقان- محركة: الانصباب، والغاسق: القمر، وكأنه سمي به لسرعة سيره وانصبابه في البروج ولأنه ليس له من نفسه إلا الإظلام، والثريا- إذا سقطت- والله أعلم، قال في القاموس: لكثرة الطواعين والأسقام عند سقوطها، والذكر- إذا

قام، كما قاله جماعة وروي عن ابن عباس رضـــي الله عنهما، وهو ســـبب للجهل الذي هو ظلام كله، فقال تعالى: {ومن شـر غاسـق} أي مظلم بارد منصـب ظلامه وبرده سواء كان أصـلاً في الظلام حسياً أو معنوياً أو كان حاملاً عليه مثل الذكر إذا قام لما يجر إليه من الوســـاوس الرديئة لغلبة الشـهوة واسـتحكام سـلطان الهوى، ومثل القمر لما يحدث منه من الرطوبات المفسـدة للأبدان وغير ذلك انصـباباً له غاية القوة كانصـباب ما يفيض عن امتلاء في انحدار، ونكّره إشارة إلى أنه ليس كل غاسق مذموماً- والله أعلم.

ولما كان الشـــيء الذي اتصـــف بالظلام يكثف فيشـــتد انصـــبابه وأخذه في الســـفول إلى أن يســـتقر ويســـتحكم فيما صـــوب إليه مجتمعاً جداً كاجتماع الشـيء في الوقبة وهي النقرة في الصـخرة، وكان الظلام لا يشـتد أذاه إلا إذا استقر وثبت، قال معبراً بأداة التحقق: {إذا وقب *} أي اعتكر ظلامه ودخل في الأشياء بغاية القوة كمدخول الثقيل الكثيف المنصب في النقرة التي تكون كالبئر في الصـــخرة الصـــماء الملســـاء، وهذا إشـــارة إلى أنه يســـهل علاجه وزواله قبل تمكنه، وفي الحديث «لما رأى الشـــمس قد وقبت قال: هذا حين حلها» يعني صـلاة المغرب، وفيه عند أبي يعلى أنه قال لعائشـة رضـي الله تعالى عنها عن القمر: «تعوذي بالله من شـر هذا الغاسـق إذا وقب» وأكثر الأقوال أنه الليل، خص بالاسـتعاذة لأن المضـــار فيه تكثر ويعســـر دفعها، وأصـل الغسـق الظلام، ويلزم منه الامتلاء، وقيل: إن الامتلاء هو الأصـل، وأصل الوقوب الدخول في وقبة أو ما هو كالوقبة وهي النقرة.

ولما كان السـحر أعظم ما يكون من ظلام الشـر المسـتحكم في العروق الداخل في وقوبها . لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه، ونحو ذلك، وما فيه من ضـنى الأجسـام وقتل النفوس، عقب ذلك بقوله تعالى: {ومن شر}.

ولما كان كل ساحر شريراً بخلاف الغاسق والحاسد، وكان السحر أضر من الغسق والحسد من جهة أنه شر كله، ومن جهة أنه أخفى من غيره، وكان ما هو منه من النسـاء أعظم لأن مبنى صحته وقوة تأثيره قلة العقل والدين ورداءة الطبع وضعف اليقين وسرعة الاستحالة، وهن أعرق في كل من هذه الصفات وأرسخ، وكان ما وجد منه من جمع وعلى وجه المبالغة أعظم من غيره عرف وبالغ وجمع وأنث ليدخل فيه ما دونه من باب الأولى فقال تعالى: {النفّاثات} أي النفوس الساحرة سواء كانت نفوس الرجال أو نفوس النساء أي التي تبالغ في النفث وهو التفل وهو النفخ مع بعض الريق– هكذا في الكشاف، وقال صاحب القاموس: وهو كانفخ وأقل من التفل، وقال: تفل: بزق، وفي التفسير عن الزجاج أنه التفل بلا ريق، {في العقد *} أي تعقدها للسحر في الخيوط وما أشبهها، وسبب نزول ذلك أن يهودياً سحر النبي صلى الله عليه وسلم فمرض كما ياتي تخريجه، فإن السحر يؤثر بإذن الله تعالى المرض ويصل إلى أن يقتل، فإذا أقر الساحر أنه قتل بسحره وهو مما يقتل غالباً قتل بذلك عند الشافعي، ولا ينافي قوله تعالى: {والله يعصمك من الناس} [المائدة: 67] كما مضى بيانه في المائدة، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه مسحور، فإنهم ما أرادوا إلا

الجنون أو ما يشبهه من فساد العقل واختلاله، والمبالغة في أن كل ما يقوله لا حقيقه له كما أن ما ينشأ عن المسحور يكون مختلطاً لا تعرف حقيقته.

ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد، وهو تمني زوال نعمة المحسود:

وداريت كل الناس إلا لحاسد *** مداراته عزت وشق نوالها

وكيف يداري المرء حاسد نعمة *** إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

قال تعالى: {ومن شر حاسد} أي ثابت الاتصاف بالحسد معرق فيه، ونكّره لأنه ليس كل حاسد مذموماً، وأعظم الحسدة الشيطان الذي ليس له دأب إلا السعي في إزالة نعم العبادات عن الإنسان بالغفلات.

ولما كان الضار من الحسد إنما هو ما أظهر وعمل بمقتضاه بالإصابة بالعين أو غيرها قال مقيداً له: {إذا حسد *} أي حسد بالفعل بعينه الحاسدة، وأما- إذا لم يظهر الحسد فإنه لا يتأذى به إلا الحاسد لاغتمامه بنعمة غيره، وفي إشعار الآية الدعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لأن خير الناس من عاش محسوداً ومات محسوداً، ولمن لم يلق بالاً للدعاء بذلك ويهتم بتحصيل ما يحسد عليه ضحك منه إبليس إذا تلا هذه الآية لكونه ليس له فضيلة يحسد عليها، ولعله عبر بأداة التحقيق إشعاراً بأن من كان ثابت الحسد متمكناً من الاتصاف به بما أشعر به التعبير بالوصف تحقق منه إظهاره، ولم يقدر على مدافعته في الأغلب إلا من عصم الله تعالى، وقد علم بكون الحسد علة السحر- الموقع في القتل الذي هو أعظم المعاصي بعد الشرك وفي الشرك، لأنه لا يصح غاية الصحة إلا مع

الشرك- أن الحسد شر ما انفلق عنه ظلام العدم، والشاهد لذلك غلبته على الأمم السالفة وتحذير الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس منه بشهادة هاديها صلى الله عليه وسلم، أخرج الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم:

»دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، ألا والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: إنها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين« وفي الباب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن مسعود رضي الله عنه، وأعظم أسباب الحالقة أو كلها الحسد، فعلم بهذا رجوع آخر السورة على أولها، وانعطاف مفصلها على موصلها، ومن أعيذ من هذه المذكورات انفلق سماء قلبه عن شمس المعرفة بعد ظلام ليل الجهل، فأشرقت أرجاؤه بأنوار الحكم، إلى أن يضيق الوصف له عن بدائع الكشف:

هناك ترى ما يملأ العين قرة *** ويسلي عن الأوطان كل غريب

فينقطع التعلق عما سوى الله بمحض الاتباع والبعد عن الابتداع بمقتضى {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: 31] وقد بطل بالأمر بالاستعاذة قول الجبرية: إنا كالآلة لا فعل لنا أصلاً، وإنما نحن كالحجر لا يتحرك إلا بمحرك، لأنه لو كان هو المحرك لنا بغير اختيار لم يكن للأمر فائدة، وقول القدرية: إنا نخلق أفعالنا، وقول الفلاسفة: إنه- إذا وجد السبب والمسبب حصل التأثير من غير احتياج إلى ربط إلهي كالنار والحطب، لأنه لو كان ذلك لكانت هذه الأفعال المسببات إذا وجدت من فاعليها الذين هم الأسباب، أو الأفعال التي هي الأسباب، والمسببات التي

هي الأبدان المراد تأثيرها أثرت ولم تنفع الاستعاذة، والشاهد خلافه، وثبت قول الأشاعرة أهل السنة والجماعة أنه إذا وجد السبب والمسبب توقف وجود الأثر على إيجاد الله تعالى، فإن أنفذ السبب وجد الأثر، وإن لم ينفذه لم يوجد، والسورتان معلمتان بأن البلايا كثيرة وهو قادر على دفعها، فهما حاملتان على الخوف والرجاء، وذلك هو لباب العبودية، وسبب نزول المعوذتين على ما نقل الواحدي عن المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين والبغوي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم «أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذه مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي، فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر شعر رأسه، ويرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، يذوب ولا يدري ما عراه، فبينا هو نائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طب، قال: وما طب؟ قال: سحر، قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: وبما طبه؟ قال: بمشط ومشاطة، قال: وأين هو ؟ قال : في جف طلعة ذكر تحت راغوفة في بئر ذروان- بئر في بني زريق، والجف: قشر الطلع، والراغوفة: حجر في أسفل البئر يقوم عليه المائح، فانتبه النبي صلى الله عليه وسلم وقال لعائشة رضي الله عنها:» يا عائشة! أما شعرت أن الله أخبرني بدائي! ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم نزعوا الصخرة

وأخرجوا الجف فإذا فيه مشـاطة رأسـه وأسـنان مشـطه، وإذا وتر معقد فيه إحدى عشـرة عقدة مغروزة بالإبر «فأنزل الله سـبحانه وتعالى سـورتي المعوذتين، وهما إحدى عشرة آية: الفلق خمس والناس ست، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام كأنما نشـط من عقال، وجعل جبرائيل عليه الصـلاة والسلام يقول:» بسم الله أرقيك من كل شـيء يؤذيك ومن حاسد وعين والله يشفيك «فقالوا: يا رسول الله! أفلا نأخذه فنقتله؟ فقال:» أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً «وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم أتى البئر بنفسـه ثم رجع إلى عائشـة رضـي الله عنها فقال:» والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، لكأن نخلها رؤوس الشياطين، فقلت له: يا رسول الله! «أهلا أخرجته؟ فقال:» أما أنا فقد شـفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شـراً «ويجمع بأنه أتاها صـلى الله عليه وسـلم بنفسـه الشـريفة فلم يخرجه ثم إنه وجد بعض الألم فأرسل إليه، فأخرجه فزال الألم كله، وروى البخاري ومسلم عن عائشـة رضـي الله عنها قالت: سـحر النبي صـلى الله عليه وسـلم حتى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشـيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال:» أشـعرت يا عائشـة أن الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيته فيه «، قلت: وما ذاك يا رسول الله، قال:» أتاني ملكان«
فذكره، وروى النسائي في المحاربة من سننه وأبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن منيع وعبد بن حميد وأبو يعلى الموصـلي في مسـانيدهم والبغوي في تفسـيره كلهم عن زيد بن أرقم رضـي الله عنه قال: كان رجل يدخل على

النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ له فسحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال:

»إن رجلاً من اليهود سـحرك، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، أو قال: فطرحه في بئر رجل من الأنصار، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستخرجوها فجيء بها فحلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال» فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط، وفي رواية: فأتاه ملكان يعوذانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال أحدهما: أتدري ما وجعه؟ قال: كأن الذي يدخل عليه عقد له وألقاه في بئر، فأرسل إليه رجلاً، وفي رواية: علياً رضـي الله عنه، فأخذ العقد فوجد الماء قد اصفر، قال: فأخذ العقد فحلها فبرأ، فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر له شيئاً ولم يعاتبه فيه، وهذا الفضل لمنفعة المعوذتين كما منح الله به رسوله صلى الله عليه وسلم فكذا تفضل به على سائر أمته، وروى أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح- والنسائي مسنداً أو مرسلاً- قال النووي: بالأسانيد الصحيحة- عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثة مرات- يكفيك كل شيء» والأحاديث في فضل هذه السور الثلاث كثيرة جداً، وجعل التعويذ في سورتين إشارة إلى استحباب تكريره، وجعلتا إحدى عشرة آية ندباً إلى تكثيره في تكريره، وقدمت الفلق التي خمس آيات مع ما مضى المناسبات لأن

اقترانها بسـورة التوحيد أنسـب، وشـفعها بسـورة الناس التي هي سـت آيات أنسب، ليكون الشفع بالشفع، والابتداء بالوتر بعد سورة الوتر، وحاصل هذه السورة العظمى في معناها الأبدع الأسمى الاستعاذة بالله بذكر اسمه {الرب} المقتضـي للإحسـان والتربية بجلب النعم ودفع النقم من شـر ما خلق ومن السـحر والحسـد، كما كان أكثر البقرة المناظرة لها في رد المقطع على المطلع لكونها ثانية من الأول كما أن هذه ثانية من الآخر في ذكر أعداء النبي صـلى الله عليه وسـلم الحاسـدين له على ما أوتي من النعم، وفي تذكيرهم بما منحهم من النعم التي كفروها، وأكثر ذلك في بني إسرائيل الذين كانوا أشد الناس حسداً له صلى الله عليه وسلم، وكان من أعظم ما ضلوا به السحر المشار إليه بقوله تعالى:

{واتبعوا ما تتلو الشـياطين على ملك سـليمان} [البقرة: 102] حتى قال: {فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه} إلى أن قال: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم} [البقرة: 109] وكان السـحر من أعظم ما أثر في النبي صـلى الله عليه وسـلم من كيدهم حتى أنزل فيه المعوذتان، وكان السـاحر له منهم، وقد انقضـى ما يسر الله من الكلام على انتظام معانيها بحسب تركيب كلماتها، وبقي الكلام على كلماتها من حيث العدد، فيما تشير إليه من البركات والمدد، هي ثلاث وعشرون كلمة إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم في السنة الثالثة والعشرين من النبوة يأمن من أذى حاسـديه، وذلك بالوفاة عند تمام الدين ويأس الحاسـدين من كل شـيء من الأذى في الدين والدنيا، وخلاص النبي صـلى

الله عليه وسلم من كل كدر، فإذا ضممت إليها الضمائر وهي خمسة كانت ثماني وعشـــرين، وهي توازي ســـنة خمس عشـــرة من الهجرة، وذلك عند استحكام أمر عمر رضي الله عنه في السنة الثانية من خلافته ببث العساكر وإنفاذه إلى ملك الفرس والروم وتغلغل هيبته في قلوبهم وتضـــعضـــع الفرس بغلب العرب على رســـتم أكبر أمرائهم، والروم بغلبهم على ماهان أعظم رؤسـائهم، فاضـمحل أمر المنافقين والحاسـدين، وأيسـوا من تأثير أدنى كيد من أحد من الكائدين، فإذا ضـــم إليها أربع كلمات البســـملة كانت اثنتين وثلاثين، إذا حسبت من أول النبوة وازتها السـنة التاسـعة عشـرة من الهجرة، وفيها كان فتح قيســارية الروم من بلاد الشــام، وبفتحها كان فتح جميع بلاد الشـام، لم يبق بها بلد إلا وهي في أيدي المسـلمين، فزالت عنها دولة الروم، وفيها أيضــــاً كان فتح جلولاء من بلاد فارس وكان فتحاً عظيماً جداً هدّ أجنادهم وملوكهم، ولذلك ســـمي فتح الفتوح، وحصـــل حينئذ أعظم الخزي للفرس والروم الذين هم أحسد الحسدة، لما كان لهم من العزة والقوة بالأموال والرجال، وإن حســبت من الهجرة وازتها ســنة انقراض ملك أعظم الحســدة الأكاسـرة الذين شـقق ملكهم كتاب النبي صـلى الله عليه وسـلم، وأرسـل إلى عامله باذان- الذي كان اســـتخلفه على بلاد اليمن- يأمره أن يغزو النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه يقتله سبحانه في ليلة سماها، فلما أتت تلك الليلة أخبر النبي صلى الله عليه وسلم رسل باذان بذلك، فرجعوا إلى باذان فأخبروه فقال: إن كان صـادقاً فسـيأتي الخبر في يوم كذا، فأتى الخبر في ذلك اليوم بصـدقه صـلى الله عليه وسـلم فأسلم

باذان ومن معه من الأبناء الذين كانوا في بلاد اليمن لم يتخلف منهم أحد، وأوفد منهم وفداً على النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم- رضي الله عنهم والله أعلم.

114 An-Naas Tafsir Nazmuddurrar fi tanaasub al aayaat wa al suwar li Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

- سورة الناس
- تفسير الآيات رقم [1– 6]

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)}

لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب، فقد تضمنت السورة كالفلق استعاذة ومستعاذاً به ومستعاذاً منه وأمراً بإيجاد ذلك، فالأمر : {قل} والاستعاذة {أعوذ}

والمســتعاذ به هو الله ســبحانه وتعالى، لكن لما كانت صــفة الربوبية من صــفات كماله ســبحان أليق بالحماية والإعانة والرعاية والخلق والتدبير والتربية والإصــلاح، المتضــمن للقدرة التامة والرحمة الواســعة، والإحســان الشامل والعلم الكامل، قال تعالى: {برب الناس *} أي أعتصم به أي أسأله أن يكون عاصـماً لي من العدو أن يوقعني في المهالك، قال الملوي: والرب من له ملك الرق وجلب الخيرات من السماء والأرض وإبقاؤها، ودفع الشرور ورفعها، والنقل من النقص إلى الكمال، والتدبير العام العائد بالحفظ والتتميم على المربوب، وخص الإضـافة بالمزلزلين المضـطربين في الأبدان والأديان من الإنس والجان لخصــوص المســتعاذ منه، وهو الأضــرار التي تعرض للنفوس العاقلة وتخصها، بخلاف ما في الفلق فإنه المضار البدنية التي تعم الإنسان وغيره.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وجه تأخرها عن شــقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم قوله {من شر ما خلق} وإبهام {ما} وتنكير {غاسـق} و{حاسـد} والعهد فيها اسـتعيذ من شـره في سـورة الناس وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاســتعاذة منه، وأوفى بالمقصــود، ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم ثم إتباعه بالأخص بتناول الدقائق والجلائل قوله ســبحانه وتعالى {بســم الله الرحمن الرحيم} في معنى الرحمن ومعنى الرحيم واحد لا في عموم الصــفة الأولى وكونها للمبالغة، وقد تعرض لبيان ذلك المفســرون ولذلك نظائر- انتهى.

ولما كان الرب الملك متقاربين في المفهوم، وكان الرب أقرب في المفهوم إلى اللطف والتربية، وكان الملك للقهر والاستيلاء وإظهار العدل ألزم، وكان الرب قد لا يكون ملكاً فلا يكون كامل التصـــرف، اقتضـــت البلاغة تقديم الأول وإتباعه الثاني، فقال تعالى: {ملك الناس *} إشـــارة إلى أن له كمال التصـــرف ونفوذ القدرة وتمام الســـلطان، وإليه المفزع وهو المســـتعان، والمستغاث والملجأ والمعاد.

ولما كان الملك قد لا يكون إلهاً، وكانت الإلهية خاصة لا تقبل شركاً أصلاً بخلاف غيرها، أنهي الأمر إليها وجعلت غاية البيان فقال: {إله الناس *} إشارة إلى أنه كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه في ذلك أحد، فكذلك هو وحده إلههم لا يشـــركه في إلهيته أحد، وهذه دائماً طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بتوحيدهم له في الربوبية والملك على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، فمن كان ربهم وملكهم فهم جديرون بأن لا يتألهوا سواه ولا يستعيذوا بغيره كما أن أحدهم إذا دهمه أمر استعاذ بوليه من أبناء جنسه واستغاث به، والإله من ظهر بلطيف صـــنائعه التي أفادها مفهوم الرب والملك في قلوب العباد فأحبوه واســـتأنســـوا به ولجؤوا إليه في جميع أمورهم، وبطن احتجاباً بكبريائه عن أن يحاط به أو بصفة من صفاته أو شيء من أمره، فهابته العباد ودعاهم الحب إلى الوله شـــوقاً إلى لقائه، وزجرتهم الهيبة فجزعوا خوفاً من طرده لهم عن فنائه، وكرر الاسم الظاهر دون أن يضمر فيقول مثلاً: {ملكهم} {إلههم} تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له بإعادة اسمهم الدال على شدة الاضطراب المقتضي للحاجة عند كل اسم من أسمائه الدال

على الكمال المقتضـــي للغنى المطلق، ودلالة على أنه حقيق بالإعادة قادر عليها لبيان أنه المتصـرف فيهم من جميع الجهات وبياناً لشـرف الإنسـان ومزيد الاعتماد بمزيد البيان، ولئلا يظن أن شيئاً من هذه الأسماء يتقيد بما أضـيف إليه الذي قبله من ذلك الوجه، لأن الضـمير إذا أعيد كان المراد به عين ما عاد إليه، فأشـير بالإظهار إلى أن كل صـفة منها عامة غير مقيدة بشـيء أصـلاً، واندرج في هذه الاسـتعاذة جميع وجوه الاسـتعاذات من جميع وجوه التربية وجميع الوجوه المنسـوبة إلى المسـتعيذ من جهة أنه في قهر الملك بالضم، وجميع الوجوه المنسوبة إلى الإلهية لئلا يقع خلل في وجه من تلك الوجوه تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المسـتعاذ منها، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة، والمقصـود الاسـتعاذة بمجموع هذه الصـفات الواقعة على ذات واحدة حتى كأنها صـفة واحدة، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب على حد سواء، فلا فعل لأحد إلا وهو خلقه سـبحانه وتعالى وهو الباعث عليه، وأخر الإلهية لخصـوصـها لأن من لم يتقيد بأوامره ونواهيه فقد أخرج نفسـه من أن يجعله إلهه وإن كان في الحقيقة لا إله سـواه، ووسـط صـفة الملك لأن الملك هو المتصـرف بالأمر والنهي، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يسـتلزم إلهيته وتقتضـيها، وقد اشـتملت هذه الإضـافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى، فإن الرب هو القادر الخالق إلى غير ذلك مما يتوقف الإصـلاح والرحمة والقدرة التي هي معنى

الربوبية عليه من أوصـــاف الجمال، والملك هو الآمر الناهي المعز المذل- إلى غير ذلك من الأســـماء العائدة إلى العظمة والجلال، وأما الإله فهو الجامع لجميع صـــفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل فيه جميع الأســـماء الحسـنى، فلتضـمنها جميع معاني الأسـماء كان المسـتعيذ جديراً بأن يعوذ، وقد وقع ترتيبها على الوجه الأكمل الدال على الوحدانية، لأن من رأى ما عليه من النعم الظـاهرة والبـاطنـة، علم أن لـه مربيـاً، فـإذا تغلغل في العروج في درج معارفه سـبحانه وتعالى علم أنه غني عن الكل، والكل إليه محتاج، وعن أمره تجري أمورهم، فيعلم أنـه ملكهم، ثم يعلم بـانفراد بتـدبيرهم بعـد إبداعهم أنه المســتحق للإلهية بلا مشــارك له فيها، فقد أجمع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف من {ملك} بخلاف الفاتحة كما مضـى لأن الملك إذا أضـيف إلى {اليوم} أفهم اختصـاصـه بجميع ما فيه من جوهر وعرض، وأنه لا أمر لأحد معه ولا مشــاركة في شـــيء من ذلك، وهو معنى الملك- بالضم، وأما إضافة المالك إلى الناس فإنها تستلزم أن يكون ملكهم، فلو قرئ به هنا لنقص المعنى، وأطبقوا في آل عمران على إثبات الألف في المضاف وحذفها من المضـاف إليه لأن المقصـود بالسياق أنه سبحانه وتعالى يعطي الملك من يشـاء ويمنعه من يشـاء، والملك- بكسر الميم- أليق بهذا المعنى، وأسرار كلام الله سبحانه وتعالى أعظم من أن تحيط بها العقول، وإنما غاية أولي العلم الاســـتدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وأن باديه إلى الخافي يشير.

ولما أكمل الاستعاذة من جميع وجوهها التي مدارها الإحسان أو العظمة أو القهر أو الإذعان والتذلل، ذكر المستعاذ منه فقال: {من شر الوسواس *} هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، والمراد بالموسوس، سمي بفعله مبالغة لأنه صفته التي هو غاية الضراوة عليها كما بولغ في العادل بتسميته بالعدل، والوسوسة الكلام الخفي: إلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير، كما أن الكلمة الدالة عليها «وس» مكررة، وأصلها صوت الحلي، وحديث النفس، وهمس الكلاب، ضوعف لفظه مناسبة لمعناه لأن الموسوس يكرر ما ينفثه في القلب ويؤكده في خفاء ليقبل، ومصدره بالكسر كالزلزال كما قال تعالى: {وزلزلوا زلزالاً شديداً} [الأحزاب: 11] وكل مضاعف من الزلزلة والرضرضة معناه متكرر، والموسوس من الجن يجري من ابن آدم مجرى الدم- كما في الصحيح، فهو يوسوس بالذنب سراً ليكون أجلى، ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية إليه حتى يواقعه الإنسان، فإذا واقعه وسوس لغيره أن فلاناً فعل كذا حتى يفضحه بذلك، فإذا افتضح ازداد جرأة على أمثال ذلك لأنه يقول: قد وقع ما كنت أحذره من القالة، فلا يكون شيء غير الذي كان، وشره التحبيب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه حتى يشاكله في رذيلة الطبع وظلمة النفس، فينشأ من ذلك شرور لازمة ومتعدية أضرها الكبر والإعجاب اللذان أهلكا الشيطان، فيوقع الإنسان بها فيما أوقع نفسه فيه، وينشأ من الكبر الحقد والحسد يترشح منه بطر الحق- وهو عدم قبوله، ومنه الكفر والفسوق والعصيان، وغمص الناس- وهو احتقارهم المعلوم من قول الشيطان

{أنا خير منه} [الأعراف: 12] ومنه تنشأ الاستهانة بأولياء الله تعالى بترك احترامهم ومنع حقوقهم والاعتداء عليهم والظلم لهم، ويترشح من الحقد الذي هو العداوة العظيمة إمساك الخير والإحسان وبسط اللسان واليد بكل سوء وإيذاء، ويترشح من الحسد إفساد ذات البين كما يشير إليه {ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة} [الأعراف: 20] الآية والكذب والمخادعة كما عرف به {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور} [الأعراف: 21] ويترشح عن الإعجاب التسخط للقضاء والقدر كما آذن به {قال أأسجد لمن خلقت طيناً} [الإسراء: 61] ومقابلة الأمر بالعلم بما أشعر به {لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال} [الحجر: 33]، واستعمال القياس في مقابلة النص بما هدى إليه {أنا خير منه} [الأعراف: 12] الآية، واستعمال التحسين والتقبيح بما أفهمه {لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون} والإذلال وهو الجرأة على المخالفات فينشأ عن ذلك شرور متعدية، وهي السعي في إفساد العقائد والأخلاق والأعمال والأبدان والأرزاق، ثم لا يزال يتحبب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه من هذه الخبائث وهو يوافقه فيها حتى يصير له أخلاقاً راسخة، فيصير رديء الطبع فلا ينفع فيه العلاج، بل لا يزيده إلا خبثاً كإبليس، ومن كان أصله طيباً واكتسب ما يخالفه بسبب عارض كان ممكن الإزالة كالعلاج كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام.

ولما كان الملك الأعظم سبحانه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره سبحانه وتعالى، فإنه يطرد الشيطان وينير القلب

ويصفيه، وصف سبحانه وتعالى فعل الموسوس عند استعمال الدواء إعلاماً بأنه شديد العداوة للإنسان ليشتد حذره منه وبعده عنه فقال: {الخناس *} أي الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويتأخر ويختفي بعد ظهوره مرة بعد مرة، كلما كان الذكر خنس، وكلما بطل عاد إلى وسـواسـه، فالذكر له كالمقامع التي تقمع المفسد، فهو شديد النفور منه، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً كما ورد عن بعض السلف أن المؤمن ينفي شيطانه كما ينفي الرجل بعيره في السقر، قال البغوي: له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، ويقال: رأسه كرأس الحية واضع رأسه على يمين القلب يحدثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكر الله رجع ووضع رأسه- خزاه الله تعالى.

ولما ذكر صفة المستعاذ منه، ذكر إبرازه لصفته بالفعل فقال: {الذي يوسوس} أي يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير بحيث تصل مفاهيمها من غير سماع، وأشار إلى كثرة وسوسته بذكر الصدر الذي هو ساحة القلب ومسكنه فقال: {في صدور الناس *} أي المضطربين إذا غفلوا عن ذكر ربهم، فإنها دهاليز القلوب منها تدخل الواردات إليها، وذلك كالقوة الوهمية فإن العقل يساعد في المقدمات الحقة المنتجة للأمر المقطوع به، فإذا وصل الأمر إلى ذلك خنست الواهمة ريثما يفتر العقل عن النتيجة فترة ما، فتأخذ الواهمة في الوسوسة وتقبل منها الطبيعة بما لها بها من مجانسة الظلمة الوهمية، والناس- قال في القاموس: يكون من الإنس ومن الجن، جمع إنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل- انتهى، ولعل إطلاقه

على هذين المتقابلين بالنظر إلى النوس الذي أصـله الاضـطراب والتذبذب فيكون منحوتاً من الأصلين: الانس والنوس، ومن ثالث وهو النسيان.
ولما كان الذي يعلّم الإنســان الشــر تارة من الجن وأخرى من الإنس، قال مبيناً للوســواس تحذيراً من شــياطين الإنس كالتحذير من شــياطين الجن، مقدماً الأهم الأضــر، ويجوز أن يكون بياناً ل «الناس» ولا تعسـف فيه لما علم من نقل القاموس: {من الجنة} أي الجن الذين في غاية الشــر والتمرد والخفاء {والناس *} أي أهل الاضـطراب والذبذبة سـواء كانوا من الإنس أو الجن، فيكون المعنى أن الجن مسلط بعضـهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس أو الجن، فيكون المعنى أن الجن مســلط بعضــهم على بعض كما هم مســلطون على الإنس، فيدخل شــيطان الجن في الجني كما يدخل في الإنســي ويوســوس له- قاله البغوي عن الكلبي، وقال: ذكر عن بعض العرب أنه قال: جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل: من أنتم؟ قالوا: أناس من الجن، قال: وهذا معنى قول الفراء.
وقد ختمت الســورة بما بدئت به، والمعنى الثاني أوفق برد آخرها على أولها فإنه يكون شرحاً للناس الذين أضيفت لهم الصفات العلى، والخواطر الواردة على الإنسان قد تكون وسوسة، وقد تكون إلهاماً، والإلهام تارة يكون من الله بلا واســطة، وتارة يكون بواســطة الملك، ويكون كل منهما في القلب، والوسوسة تارة من الشيطان، وأخرى من النفس، وكلاهما يكون في الصدر، فإن كان الإنســان مراقباً دفع عن نفســه الضــار، وإلا هجمت الواردات عليه وتمكنت منه ويتميز خير الخواطر من شــرها بقانون الشــرع على أن الأمر

مشكل، فإن الشيطان يجتهد في التلبيس، فإن وافق الشرع فلينظر، فإن كان فعله ذلك الحين أولى من غير تفويت لفضيلة أخرى هي أولى منه بادر إليه وإن كان الخاطر دنيوياً وأدى الفكر إلى أنه نافع من غير مخالفة للشـرع زاد على شدة تأمله الاستشارة لمن يثق بدينه وعقله، ثم الاستخارة لاحتمال أن تتوافق عليه العقول، ويكون فيه خلل لتقصير وقع في النظر، وقد جعل بعضهم قانون الخاطر الرحماني أن ينشرح له الصدر ويطمئن إليه النفس، والشيطاني والنفسي أن ينقبض عنده الصدر وتقلق النفس بشهادة الحديث النبوي في البر والإثم، ويعرف الشيطاني بالحمل على مطلق المخالفة، فإن الشيطان لا غرض له في مخالفة بعينها، فإن حصل الذكر زال ذلك، والنفساني ملزوم شيء بعينه سواء كان نفعاً أو ضراً، ولا ينصرف عنه بالذكر، وقد يكون الشيطان إنسياً من أزواج وأولاد ومعارف، وربما كان أضر من شيطان الجن، فدواؤه المقاطعة والمجانبة بحسب القدرة، ومن أراد قانوناً عظيماً لمن يصاحب ومن يجانب فعليه بآية الكهف

{واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً} [الكهف: 28] وكما رجع مقطعها على مطلعها كذلك كان من المناسبات العظيمة مناسبة معناها للفاتحة ليرجع مقطع القرآن على مطلعه، ويلتحم مبدؤه بمرجعه على أحسن وجه، كما تقدم بيان ذلك من سورة قريش إلى هنا سورة سورة، فنظر هذه السورة إلى الفاتحة والتحامها بها من جهة أن الفاتحة اشتملت على ثلاثة أسماء: الله والرب والملك، وزادت

بكونها أم القرآن بالرحمن الرحيم، لاشتمالهما على جميع النعم الظاهرة والباطنة التي تضمنتها صفة الربوبية، وسورة الناس على الرب والملك والإله الذي هو الأصل في اسم الجلالة، واختصت الفاتحة بالاسم الذي لم يقع فيه شركة أصلاً، فلما تقرر في جميع القرآن أنه الإله الحق، وأنه لا شركة لغيره في الإلهية يحق بوجه من الوجوه كما أنه لا شركة في الاسم الأعظم الذي افتتح به القرآن أصلاً بحق ولا بباطل، ختم القرآن الكريم به معبراً عنه بالإله لوضوح الأمر وانتفاء اللبس بالكلية، وصار الاختتام مما كان به الافتتاح على الوجه الأجلى والترتيب الأولي، وبقي الاسمان الآخران على نظمهما، فيصير النظم إذا ألصقت آخر الناس بأول الفاتحة «إله ملك رب الله رب– رحمن رحيم ملك» إعلاماً بأن مسمى الأسم الأعظم هو الإله الحق، وهو الملك الأعظم لأنه له الإبداع وحسن التربية والرحمة والعامة والخاصة، وحاصل سورة الناس الاستعاذة بهذا الرب الموصوف من وسوسة الصدر المثمرة للمراقبة كما أن حاصل سورة الفاتحة فراغ السر من الشواغل المقتضي لقصر الهمم عليه سبحانه وتعالى والبقاء في حضرته الشماء بقصر البقاء عليه والحكم بالفناء على ما سواه، وذلك هو أعلى درجات المراقبة، فإذا أراد الحق إعانة عبد حمله على الاستعانة بالاستعاذة فيسر عليه صدق التوكل، فحينئذ يصير عابداً صادقاً في العبودية فيكون إلهه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وينبغي أنه كلما زاده سبحانه وتعالى تقريباً ازداد له عبادة

حتى ينفك من مكر الشيطان بالموت كما قال تعالى لأقرب خلقه إليه محمد صلى الله عليه وسلم

{واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} [الحجر: 99] ومن نقص من الأعمال شيئاً اعتماداً على أنه وصل فقد تزندق، وكان مثله مثل شخص في بيت مظلم أسرج فيه سراجاً فأضاء، فقال: ما أوقدت السراج إلا ليضيء البيت فقد أضاء، فلا حاجة لي الآن إلى السراج، فأطفأه فعاد الظلام كما كان، وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى افتتاح القرآن بعد ختمه كما أشار إليه اتصال المعنى بما بينته، وسمي ذلك الحال المرتحل، وكأن القارئ ذكر بالأمر بالاستعاذة إرادة افتتاح قراءته، فكأنه قيل: استعذ يا من ختم القرآن العظيم لتفتتحه، وكأنه لما استعاذ بما أمر به في هذه السورة قيل له: ثم ماذا تفعل؟ فقال: أفتتح، أو أنه لما أمر بالاستعاذة قال: ماذا أفعل؟ فقيل: افتتح بسم الله الرحمن الرحيم الذي تجب مراقبته عند خواتم الأمور وفواتحها، لأنه لا يكون أمر إلا به، أو أن البسملة مقول القول في {قل} على سبيل من {أعوذ} أو بدل من {برب الناس} وكأنه أمر بالتعوذ، والتسمية أمر بالدفع والجلب، وذلك لأنه لما أمر بهذا التعوذ- وكان قد قال سبحانه {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل: 98] علم أن المراد ابتداؤه بالقرآن فنسبتها إلى الفاتحة نسبة المعلول إلى علته، فكأنه قيل: استعذ بهذا الرب الأعظم الذي لا ملك ولا إله غيره لأن له الحمد، وهو الإحاطة بكل شيء، فهو القادر على كل شيء، فهو القاهر لكل شيء في المعاد وهو الملجأ والمفزع لا إله إلا هو، فإن الاسم هو الوصف والمراد به الجنس،

فمعنى بسم الله أي بوصفه أو بأوصافه الحسنى، والحمد هو الثناء بالوصف الجميل، فكأنه قيل: أعوذ بربب الناس بأوصــافه الحســنى لأن له الحمد وهو جميع الأوصــاف الحســنى فإن البدء فيه يحتاج إلى قدرة، فله القدرة التامة، أو إلى علم فالعلم صـفته، أو كرم فكذلك، والحاصـل أنه كأنه قيل: تعوذ به من الشـيطان بما له من الاسـم الذي لم يسـامه فيه أحد لكونه جامعاً لجميع الأسماء الحسنى أي الصفات التي لا يشوبها نقص خصوصاً صفة الرحمة العامة التي شـملتني أكنافها، وأقامني إسـعافها، ثم الرحمة الخاصــة التي أنا أجدر الناس باســتمطارها لما عندي من النقص المانع لي منها والمبعد لمن اتبع الحظوظ عنها، فأســـأله أن يجعلني من أهلها، ويحملني في الدارين بوصـلها، لأكون من أهل رضـاه، فلا أعبد إلا إياه، ولك أن تقرر الاتصـال والالتحام بوجه آخر ظاهر الكمال بديع النظام فتقول : لما قرب التقاء نهاية الدائرة السورية آخرها بأولها ومفصلها بموصلها اشتد تشاكل الرأسين، فكانت هذه الســـور الثلاثة الأخيرة مشـــاكلة للثلاث الأول في المقاصـــد، وكثرة الفضـــائل والفوائد: الإخلاص بســورة التوحيد آل عمران، وهو واحد، والفلق للبقرة طباقاً ووفاقاً، فإن الكتاب الذي هو مقصــود ســورة البقرة خير الأمر، فهي للعون بخير الأمر، والفلق للعوذ من شــر الخلق المحصـــي لكل خير، وفي البقرة

{أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين} [البقرة: 67] {يعلمون الناس السـحر} [البقرة: 102] - الآيات، {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسـداً من عند أنفسـهم} [البقرة: 109] الآية، والناس للفاتحة،

فإنه إذا فرغ الصدر الذي هو مسكن القلب الذي هو مركب الروح الذي هو معدن العقل كانت المراقبة، فكان ذلك بمنزلة تقديس النفس بالتوحيد والإخلاص، ثم الاستعاذة من كل شر ظاهر ومن كل سوء باطن للتأهل لتلاوة سورة المراقبة بما دعا إليه الحال المرتحل وما بعدها من الكتاب، على غاية من السداد والصواب، وكأنه اكتفى أولاً بالاستعاذة المعروفة كما يكتفي في أوائل الأمور بأيسر مأمور، فلما ختم الختمة جوزي بتعوذ من القرآن، ترقية إلى مقام الإحسان، فاتصل الآخر بالأول أيّ اتصال بلا ارتياب، واتحد به كل اتحاد- إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، هذا ما يسره الله من مدلولات نظومها وجملها، بالنسبة إلى مفهوماتها وعللها، وبقي النظر إلى ما يشير إليه أعداد كلماتها، بلطائف رموزها وإشاراتها، فهي عشرون كلمة توازيها إذا حسبت من أول النبوة سنة عمرة القضاء وهي السابعة من الهجرة، بها تبين الأمن مما وسوس به الشيطان سنة عمرة الحديبية من أجل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لدخول البيت والطواف به، فإذا ضممت إليها الضمائر الثلاث كانت ثلاثاً وعشرين فوازت السنة العاشرة من الهجرة وهي سنة حجة الوداع وهي القاطعة لتأثير وسواس الشيطان الذي كان في أول السنة الحادية عشرة عند موت النبي صلى الله عليه وسلم إلى العرب بأمر الردة، فأعاذ الله من شره بهمة الصديق رضي الله تعالى عنه حتى رد الناس إلى الدين وأنزل به وسواس الشياطين المفسدين، فانتظمت كلمة المسلمين تصديقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب بعد اليوم» فإذا ضممت إليها

كلمات البسملة صارت سبعاً وعشرين توازي سنة استحكام أمر عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه الذي ما سلك فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره، وذلك سنة أربع عشرة من الهجرة، هذا بالنظر إلى كلماتها، فإن نظرت إليها من جهة الحروف كانت لها أسرار كبرى من جهة أخرى، منها أن كلماتها مع كلمات الفاتحة انتظمت من ستة وعشرين حرفاً وهي ما عدا الثاء المثلثة والزاء الظاء المعجة من حروف المعجم التسعة والعشرين كل واحدة منهما من اثنين وعشرين حرفاً اشتركتا في ثمانية عشر منها، واختصت كل واحدة منهما بأربعة: الفاتحة بالحاء والطاء المهملتين، والضاد والغين المعجمتين، والناس بالجيم والخاء والشين المعجمتين والفاء، وقال ابن ميلق: سقط من الفاتحة سبعة أحرف «ثج خز شظف»، انتهى، فلعل في ذلك- والله أعلم- إشارة إلى أن- تكامل نزول القرآن من أوله إلى آخره في عدد الحروف التي اشتمل عليها كل من سورتي أوله وآخره من السنين وذلك اثنان وعشرون، والثالثة والعشرون سنة القدوم على منزله الحي القيوم سبحانه وتعالى ما أعظم شأنه، وأعز سلطانه، وأقوم برهانه.

وقال مؤلفه رحمه الله تعالى: وهذا تمام ما أردته من نظم الدرر من تناسب الآي والسور، ترجمان القرآن مبدي مناسبات الفرقان، التفسير الذي لم تسمع الأعصار بمثله، ولا فاض عليها من التفاسير على كثرة أعدادها كصيب وبله، فرغته في المسودة يوم الثلاثاء سابع شعبان سنة خمس وسبعين وثمانمائة، بمسجدي من رحبة باب العيد بالقاهرة المغرية، وكان ابتدائي فيه في شعبان سنة إحدى وستين، فتلك أربع عشرة سنة كاملة، وفرغته في هذه

المبيضــة عصــر يوم الأحد عاشــر شــعبان ســنة اثنتين وثمانين وثمانمائة، بمنزلي الملاصق للمدرسة البادرائية من دمشق، فتلك اثنتان وعشرون سنة بعدد ســني النبوة الزاهرة الأنيســة العلية الطاهرة المباركة الزكية، ولولا معونة الله أضحى معدوماً، أو ناقصاً مخروماً، فإني بعد ما توغلت فيه واستقامت لي مبانيه، فوصلت إلى قريب من نصفه، فبالغ الفضلاء في وصفه بحسن سبكه وغزارة معانيه وإحكام رصفه، دب داء الحسد في جماعة أولي النكد، والمكر واللدد، يريدون الرئاســـة بالباطل، وكل منهم من جوهر العلم عاطل، مدّ ليل الجهل فيهم ظلامه، وأثار نقع السـفه على رؤوســهم ســواده وقتامه، صــوبوا ســهام الشــرور، والأباطيل وأنواع الزور، فأكثروا التشــييع بالتشــنيع، والتقبيح والتبشيع، والتخطئة والتضليل، بالنقل من التوراة والإنجيل، فصنفت في ذلك الأقوال القويمة، في حكم النقل من الكتب القديمة، بينت فيه أن ذلك ســـنة مســـتقيمة، لتأييد الملة الحنيفية العظيمة، وأخرجت بذلك نص الشافعي، وكلام النووي والرافعي، واستكتبت على الكتاب: العلماء الأنجاب، فكتبوا ما أودعته «مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور» فأطفأ الله نـارهم، وأظهر عوارهم، وشـــهر خزيهم وعـارهم، ثم قـاموا في بـدعـة دائم المعروف، فصــنفت فيها القول المعروف، وبينت مخالفتهم للكتاب والســنة، ووقوعهم في عين الفتنة، وخرقهم لأعظم الجنة، وصـــريح نص الشـــافعي ونقول العلماء، فكانوا كمن ألقم الحجر أو ملئ فمه بالماء، ثم قاموا في فتنة ابن الفارض، وكلهم معاند معارض، وألبوا عليّ رعاع الناس، فاشـتد شـعاع البأس، فكادوا أن يطبقوا على الانعكاس، وصوبّوا طريق الإلحاد، وبالغوا في

الرفع من أهل الاتحاد، ولجوا بالخصـــام في العناد، وأفتوا بمحض الباطل، وبثوا السـم القاتل، إلا ناســاً قليلاً كان الله بنصــرهم على ضــعفهم كفيلاً، فسـألتهم سـؤالاً، جعلهم ضــلالاً جهالاً، فتداولوه فيما بينهم وتناقلوه وعجزوا عن جوابه بعد أن راموه أشـــد الروم، وحاولوه فظهر لأكثر الناس حالهم، واشـتهر بينهم ضــلالهم، وغيهم الواضــح ومحالهم، وصـنفت في ذلك عدة مصـــنفات، بانت فيها مخازيهم وظهرت المخبآت، منها «صـــواب الجواب للســـائل المرتاب» ومنها «القارض لتكفير ابن الفارض» ومنها «تدمير المعـارض في تكفير ابن الفـارض» ومنهـا «تنبيـه الغبي على تكفير ابن عربي» ومنها «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد» أنفقت فيها عمراً مديداً، وبددوا فيها أوقاتي- بددهم الله تبديداً، وهدد أركانهم وأعضـادهم تهديداً، وقرعتهم بالعجز عن الجواب، الكاشـف للارتياب، صـباحاً ومسـاءً، وإعادة وإبداء، فحملهم التقريع، والتوبيخ والتبخيع، على كتابة جواب، لم يخل من ارتجاج واضــطراب، وشــك وارتياب، بينت أن جامعه أخطأ في جميعه الصـواب، وكفر في أربعة مواضــع كفراً صــريحاً، وكذب في ثمانية فصــار بذلك جريحاً، بل هالكاً طريحاً، فأطلت بذلك التقريع، والتوبيخ والتبشـــيع، فذلت أعناقهم، وضـــعف شــقاقهم، وخفي نفاقهم، غير أنه حصــل في كل واحدة من هذه الوقائع، من الشـــرور وعجائب المقدور، ما غطى ظلامه الشموس الطوالع.

قال ذلك منشبه أحوج الخلائق إلى عفو الخالق أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حســن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الشـــافعي رحمه الله تعالى

قائلاً: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان الفراغ من هذا الجزء على يد أقل عبيد الله وأحوجهم إلى لطف الله وعفوه عبد الكريم بن علي بن محمد المحولي الشافعي نزيل بلد الله الحرام- غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين-... بمكة المشرفة في يوم السبت المبارك السادس والعشرين من شهر صفر الخير سنة أربع وأربعين وتسعمائة، وقد تجاوز سني الآن خمسة وسبعين عاماً- أسأل الله حسن الخاتمة والثبات على دين الإسلام والوفاة بأحد حرميه بمنه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال بعض تلامذة المصنف وهو العرس خليل بن موسى المقرئ مادحاً للكتاب المذكور المسمى ب «لما»:

برهان دين الله أضحى موضحاً *** أسرار قول الله في القرآن

وأتى بما ترك الورى من بعده *** تمشي الورا أبداً مدى الأزمان

فمن ادعى نسجاً على منواله *** فقد ادعى ما ليس في الإمكان

وإذا المفسر رام يوماً أنه *** بمثاله يأتي بلا إذعان

قلنا له فسر وقايس بعد ذا *** ولنا الدليل عليك بالبرهان

وكان الفراغ من نسخ هذا النصف الأخير من الكتاب المسمى ب «لما» مناسبات القرآن العظيم على من أنزل عليه أفضل الصلاة والسلام في الليلة الثالثة عشرة من شهر جمادى الأولى من شهور سنة سبع وتسعين وألف

على يـد أحقر العبـاد، وأحوجهم إلى مغفرة ربـه الجواد، محمـد بن أحمـد البدرشـيني بلداً، الشـافعي مذهباً، مصـلياً ومسـلماً على أفضـل وأكمل وأجمل خلق الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله وأصـــــحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته الطيبين الطاهرين صـــلاة وســـلاماً دائمين متلازمين بدوام ملك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحســـبنا الله ونعم الوكيل آمين آمين.

إن تلق عيباً فلا تعجل بسبك لي *** إني امرؤ لست معصوماً من الزلل

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n154&p1